
(٧)
سورة الأعراف
مكية



قبل أن نبدأ خواطرنا فى سورة الأعراف لابد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة فى كتاب الله ، الله يقول :

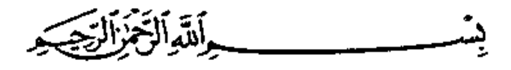
﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

ونقرأ الكلمة الأخيرة فى سورة الأنعام « رحيمٌ » ، ونجدها مبنية على الوصل ؛ لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل آيات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك تجد ﴿ غفور رحيم ﴾ وعليها الضمة وبجوارها ميم صغيرة ؛ لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن تقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وتصبح القراءة :

« غفور رحيم » « بسم الله » .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكأن القرآن ليس أبعاضاً . وكان من الممكن أن يجعلها سكوناً ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنّه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن كان فى بعض الآيات إقلاب ، وفى بعضها إدغام ، وهذا بغُنّة ، وهذا بغير غُنّة ، ويقول الحق :



﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

وفى هذه الآية فصل بين كل حرف ، فنقرأها : « ألف » ثم نسكت لنقرأ « لام » ثم نسكت لنقرأ « ميم » ثم نسكت لنقرأ « صاد » . وهنا حروف خرقت القاعدة لحكمة ؛ لأن هذه حروف مقطعة ، مثل « الم ، حم ، طه ، يس ، ص ، ق ، وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن أَلِفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وَمِيمٌ حرف »[١] .

والرسول ﷺ أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها ، فهمها من فهمها ، وتعبد بها من تعبد بها ، وكل قارئ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ونطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فوائح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق :

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

(سورة البقرة)

ونقرأ هنا فى أول سورة الأعراف :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

وهى حروف مقطعة . نطقت بالإسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قُرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول : كتب ، لا تقول « كاف » « تاء » « باء » ، بل تنطق مسمى الكاف كَ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسماها فهو « كَ » . إذن فكل حرف له مسمى ، أى الصوت الذى يقوله الإنسان ، وله اسم ، والأمى ينطق المسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذى يفهم أنه حين يقول : « كتب » أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، أما الأمى فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : ألف لام ميم ، وهو أمى لم يتعلم . فمن قال له انطق مسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

---

(١) رواه الترمذى ، والدارمى .

لابد أنه قد عُلِّمَها وتلقاها ، والحق هو القائل :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القيامة)

فالذى سوف تسمعه يا محمد ستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد « ألم » فى أول البقرة ، وفى أول سورة آل عمران ، ولكنك تقرأ الآية الأولى من سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

ما الفرق بين الألف واللام والميم فى أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران وغيرهما ، والحروف نفسها فى أول سورة الفيل وغيرها كسورة الشَّرْح ؟ أنت تقرأها فى أول سورة البقرة وآل عمران أسماء . وتقرأها فى أول سورة الفيل مسميات . والذى جعلك تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ فى أول البقرة وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ فى أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ، وليس لأحد أن يجترئ ليقرأ القرآن دون سماع من معلم . لا ، لابد أن يسمعه أولاً حتى يعرف كيف يقرأ .

ونقرأ « الٓمٓصٓ » فى أول سورة الأعراف ، وهى حروف مقطعة ، ونعرف أن الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور ، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل :

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة ق)

وكذلك قوله الحق :

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة ص)

وكذلك قوله الحق :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾

(سورة القلم)

ومرة يأتى من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق :

﴿ حمٓ ۝١ ﴾

(سورة الأحقاف)

ومرة تأتى ثلاثة حروف مقطعة مثل :

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

(سورة البقرة)

ومرة يأتى الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

ومرة يأتى بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة مريم)

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدتها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فبعضها منشور ، أو مهموس ، أو مخفى ، أو مستعلٍ ، ومن كل نوع تجد النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعلٍ ، أو مفخم ، أو مرقق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذى قاله يعلم ما ينتهى إليه خلقه فى هذه الحروف المقطعة وله فى ذلك حكمة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًّا ، ولم يجلس إلى معلم ، فكيف نطق بأسماء الحروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم ؟! فهو إذن قد تلقنها ، وإننا نعلم أن القرآن جاء متحديًّا العرب ؛ ليكون معجزة لسيد الخلق ، ولا يُتَحدَّى إلا من كان بارعاً فى هذه الصنعة . وكان العرب مشهورين بالبلاغة ، والخطابة

والشعر ، والسجع وبالأمثال ؛ فهم أمة كلام ، وفصاحة ، وبلاغة ، فجاء لهم القرآن من جنس نبوغهم ، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسل قرآناً لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، فالمادة الخام-وهى اللغة-واحدة ، ومن حروف اللغة نفسها التى برع العرب فيها . وبالكلمات نفسها التى يستعملونها ، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله ؛ لأنه جاء من رب قادر ، وكلام العرب وبلاغتهم هى من صنعة الإنسان المخلوق العاجز .

وهكذا نعلم سرّ الحروف المقطعة التى جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملأ الأعلى لأنه أمى لم يتعلم شيئاً ، لكنه عرف أسماء الحروف ، ومعرفة أسماء الحروف لا يعرفها ـ كما قلت ـ إلا المتعلم ، وقد علمه الذى علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويمكن للعقل البشرى أن يحوم حول هذه الآيات ، وفى هذه الحروف معانٍ كثيرة ، ونجد أن الكثير من المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا فى مجال جلال وجمال القرآن الكثير ، فتجد متصوفاً يقول إن « المص » جاءت هنا لحكمة ، فأنت تنطق أول كلمة ألف وهى الهمزة من الحلق ، واللام تنطقها من اللسان ، والميم تنطقها من الشفة ، وبذلك تستوعب مخارج الحروف من الحلق واللسان والشفة .

قال المتصوف ذلك ليدلك على أن هذه السورة تتكلم فى أمور الحياة بدءاً للخلق من آدم . إشارة إلى أولية خلق الإنسان ، ووسطاً وهو المعاش ، ونهاية وهو الموت والحساب ثم الحياة فى الدارة الآخرة ، وجاءت « الصاد » لأن فى هذه السورة قصص أغلب الأنبياء .

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها ، أنردها عليه ؟ لا نردها بطبيعة الحال ، ولكن نقول له : أذلك هو كل علم الله فيها ؟ . لا ؛ لأن علينا أن نتعرف على المعانى التى فيها وأن نأخذها على قدر بشريتنا ، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها فلن نستوعب كل آفاق مرادات الله ؛ لأن أفهامنا قاصرة .

ونحن البشر نضع كلمات لا معنى لها لكى تدل على أشياء تخدم الحياة ، فمثلا نجد فى الجيوش من يضع « كلمة سر » لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف

الكلمة . من يعرف « كلمة السر » يمكنه أن يدخل . وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها ، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها .

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب ، فيقول سبحانه :

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

وساعة تسمع « أنزل » فافهم أنه جاء من جهة العلو أى أن التشريع من أعلى . وقال بعض العلماء : وهل يوجد في صدر رسول الله حرج ؟ . لننتبه أنه ساعة يأتى أمر من ربنا ويوضح فيه ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ ، فالنهى ليس لرسول الله ﷺ وإنما النهى للحرج أو الضيق أن يدخل لرسول الله ، وكأنه سبحانه يقول : يا حرج لا تنزل قلب محمد .

لكن بعض العلماء قال : لقد جاء الحق بقوله سبحانه : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ ؛ لأن الحق يعلم أن محمداً قد يضيق صدره ببشريته ، ويحزن ؛ لأنهم يقولون عليه ساحر ، وكذاب ، ومجنون . وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب ؛ لأنك لم تكذب ولم تسحر ، وتريد هداية القوم ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ قد جاء لأمر من اثنين : إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله ، وإما أن يكون الأمر للرسول طمأنة له وتسكينا ، أى لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله ، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خلقه وصراطاً مستقيماً لهم ، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء ؟ لا ، لا يمكن ، فاطمئن تماماً .

﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الأعراف)

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ؛ لأن الإنذار يكون إخباراً بشرٍ ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل فى سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسالات تقتضى مُرْسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرَسَلاً وهو الرسول ، ومُرْسَلاً إليه وهم الأمة ، والمرسَل إليه إما أن يستمع ويهتدى وإما لا ، وجاءت الآية لتقول : ﴿كتاب أنزل ﴾ من الله وهو المرسِل ، و «إليك » لأنك رسول والمرسَل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③ ﴾

ومادام العباد سينقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذى جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أى طلب الهداية فيقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وحينما يأتى الحق سبحانه فى مثل هذه الآيات ويقول : « وذكرى » . أو « وذكِّر » إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المطبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشئ إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذى أخذ علينا أيام كنا فى عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

هذا هو الإقرار فى عالم الذر ، إذن فحين يقول الحق : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ فنحن نلتفت إلى ما نسى الآباء أن يبلغوه للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب أن يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التى تلقوها ؛ لأن آدم وحواء أول ما نزلا إلى الأرض قال لهما الحق :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وهكذا نعلم أن هناك « هدى » قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم أن يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب أن يظل هذا « الهدى » منقولاً فى سلسلة الحياة كما وصلت كل أقضية الحياة . ويأتى سبحانه لنا بحيثيات الاتباع .

﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

فالمنهج الذى يأتى من الرب الأعلى هو الذى يصلح الحياة ، ولا غضاضة على أحد منكم فى أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربى القادر . الذى ربّى ، وخلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وهو المتولى للتربية ، ولا يمكن أن يربى أجسادنا بالطعام والشراب والهواء ولا يربى قيمنا بالأخلاق . ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ .

ومادام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتى لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالَم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر ، فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيفرضها بالسيف . وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التى تلائمه . وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذاك أن نأخذ مما لا نستنكف أن نكون عبيداً له .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وتذكر أيها المؤمن أن عزتك فى اتباع منهج الله تتجلّى فى أنك لا تخضع لمساوٍ لك ، وهذه ميزة الدين الذى يجعل الإنسان يحيا فى الكون وكرامته محفوظة ، وإن جاءته مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذى ليس له رب فساعة أن تأتى له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد ينتحر .

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت الغفلة على البشر أرسل الله رسولاً ينبههم . ويوقظ القيم والمناعة الدينية التى توجد فى الذات ، بحيث إذا مالت الذات إلى شىء انحرافى تتنبه الذات نفسها وتقول : لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هى النفس اللوامة . فإذا ما سكتت النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أمارة بالسوء طوال الوقت ؛ فالمجتمع الذى حوله يعدله .

وهذه فائدة التواصى بالحق والصبر ، فكل واحد يوصَّى فى ظرف ، ويوصِّى فى ظرف آخر ؛ فحين تضعف نفسه أمام شهوة يأتى شخص آخر لم يضعف فى هذه الشهوة وينصح الإنسان ، ويتبادل الإنسان النصح مع غيره ، هذا هو معنى التواصى ؛ فالوصية لا تأتى من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان موصِيًا فيما هو فيه قوى ، ويوصَّى فيما هو فيه ضعيف ، فإذا فسد المجتمع ، تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديد ، لكن الله أمن أمة محمد على هذا الأمر فلم يجئ رسول بعده لأننا خير أمة أخرجت للناس . والخيرية تتجلى فى أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، فالتواصى باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وهذه خاصية لن تنتهى أبداً ، فإن رأيت منكراً فلابد من خلية خير تنكره

وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً خاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتى رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وساعة تسمع « كم » فاعرف أن المسألة خرجت عن العد بحيث تستوجب أن تستفهم عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً فلا يستفهم عنه ، بل يُعْرَف . والقرية اسم للمكان المعد إعداداً خاصًا لمعيشة الناس فيه . وهل القرى هى التى تُهلك أم يُهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها تأتى مرة ويراد منها المكان والمكين : أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك قوله الحق فى سورة يوسف :

﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾
(من الآية ٨٢ سورة يوسف)

وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المبانى ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل الحق : اسأل أهل القرية ؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية بسكانها ومبانيها . ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ .

وأيهما يأتى أولاً : الإهلاك أم يأتى البأس أولاً فيهلك ؟ . الذى يأتى أولاً هو البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات فى الأحداث لا يأتى أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أزلاً ، وكأن الحق يقول هنا : وكم من قرية حكمنا أن نهلكها فجاءها بأسنا ليتحقق ما قلناه أزلاً ، أى أن تأتى الأحداث على وفق المرادات ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للذى يتكلم عنه الحق .

ونعلم أن القرية هى المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم أزلاً أنه سيفعل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتى به فى قرآن يتلى ؛ ليأتى السلوك موافقاً ما أخبر به الله .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ ﴾

(سورة الأعراف)

والبأس هو القوة التى لا ترد ولا تقهر ، و « بياتاً » أى بالليل ، « أو هم قائلون » أى فى القيلولة . ولماذا يأتى البأس فى البيات أو فى القيلولة ؟ . ونجد فى خبر عمّن أهْلِكُوا مثل قوم لوط أنه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقوم شعيب حدث لهم الهلاك فى القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة وتفاجئهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستعدوا .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧ ﴾

(سورة الصافات)

أى يأتيهم الدمار فى وقت هم نائمون فيه ، ولا قوة لهم لمواجهة البأس .

﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

وإذا قال سبحانه: ﴿ بياتاً أو هم قائلون ﴾ فيصح أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون الوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هى الوقت الذى ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة . ولكن كيف استقبلوا ساعة مجىء البأس الذى سيهلكهم ؟ .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٥ ﴾

بهذا القول اتضحت المسألة ، ومن قوله ﴿ دعواهم ﴾ نفهم أن المسألة ادعاء .
ونحن نقول : فلان ادّعى دعوى على فلان ، فإما أن يقيم بينة ليثبت دعواه ، وإما ألاّ يقيم .

والدعوى تطلق أيضاً على الدعاء :

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَنٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يونس)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويشرح ربنا هذا الأمر فى آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الملك)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

والحق يسأل الرسل بعد أن يجمعهم عن مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال إنما يأتى للإقرار ، ومسألة السؤال وردت فى القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منفكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن

القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ويقول جل وعلا :

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول هنا :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن بالقرآن ـ والعياذ بالله ـ متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بغير ملكة البيان فى اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد استقبله قوم لسانهم عربى ، وهم باقون على كفرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وجدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أيكون القرآن معجزا وهو متعارض ؟! لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريده قائل القرآن . وفى أعرافنا نورد السؤال مرتين ؛ فمرة يسأل التلميذ أستاذه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليقرر .

إذن فالسؤال يأتى لشيئين اثنين : إما أن تسأل لتتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصبح الحجة ألزم للمسئول ، فإذا كان الله سيسأله ، أى يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ فى الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون :

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الملك)

وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيدا الأدلة ؛ لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار واعتراف .

إذن إذا ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فإما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقول أبعاضه ؛ لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

والحق هنا يقول : ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة المائدة)

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد أدوا رسالتهم فيكون ذلك تقريعاً للمرسَل إليهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧ ﴾

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ أى أنه مع الجميع ، ومادام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول : خذ ذلك فى إطار قوله : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين تحدثنا عن مجىء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شىء ، وما كان غائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ ﴾

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يخافون النار ، ولم يؤدوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهناك قول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنبياء)

هذه الموازين هى عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هى عدل فى ذاتها . وهنا يقول الحق : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ . نعم ، الميزان فى هذا اليوم حق ودقيق ، ولنذكر أنه قال من قبل :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والميزان الحق هو الذى قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شىء فيه موزون ، وسبحانه هو الذى يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التى يؤدى بها كل كائن المطلوبَ منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ولم نر السماء قذفت وألقت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون له نظام دقيق . والوزن فى يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففى هذا اليوم تبطل موازين الأرض التى كانت تعانى إما خللاً فى الآلة التى يوزن بها ، وإمّا خللاً فى الوزن ، وإمّا أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجرى فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ .

فكأن الميزان فى الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المِلْك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثانى يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان فى هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتى اليوم الآخر فلا ملك لأحد :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك فى الدنيا قد استخلف فيه الحق

عباده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة القارعة)

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الذين تخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه ـ سبحانه يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شيء فيه ، فحينا يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينا يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف

يجلسون ؛ لا هم فى الجنة ولا هم فى النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العقلية فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان . وقال بعض العلماء عن الميزان : إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التى أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موازين ، فهل لكل واحد ميزان أو لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام .. إلخ ، وهل سيحاسبنا ربنا تباعاً . أو أن هناك موازين متعددة ، بدليل أن سيدنا الإمام عليًّا عندما سألوه : أيحاسب الله خلقه جميعاً فى وقت واحد ؟ فقال : وأى عجب فى هذا ؟ أليس هو رازقهم فى وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جدًّا . وهيّنة فسبحانه لا يتأبى عليه شىء .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأعراف)

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتع بها نفسه ، ويأتى اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسر كل شىء ، وكما يقول المثل العام : خسر الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المُمَكَّن هو الذى يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال : مكّنتك من كذا . أى أعطيتك المكان ولا ينازعك أحد فيه . وقد مكننا سبحانه فى الأرض وجعل لنا فيها وسائل استبقاء الحياة ، وترف الحياة ، وزينة الحياة ، ورياش الحياة ، ولم تبخل الأرض حين حرثناها ، بل أخرجت لنا الزرع ، ولم تغب الشمس عنا بضوئها وإشعاعها وحرارتها . ما فى الدنيا يؤدى مهمته ، ولم نمكّن فى الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله . وكان يجب ألا يغيب ذلك عن أنظارنا أبداً . فلا أحد منا مسيطر على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض ، ولكن الذى خلقها وجعلها مسخرة ، هو ربك وربها ؛ فأنت مُمكّن ، وكل شىء مستجيب لك . بتسخير الله له .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

و « معايش » جمع معيشة ، والمعيشة هى الحياة ، فالعيش هو مقومات الحياة ، ولذلك سموا الخبز فى القرى عيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مقوّم أساسى فى الحياة .

وقول الحق : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ دل على أن هناك من يشكر ، ومن الناس من يشكر نعم الله شكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصًا عند كل نعمة ، ومنهم من يشكر شكراًخاصًا لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة ، فعندما يبدأ فى الأكل يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويقول بعد الأكل : « الحمد لله » ؛ وهناك من يقول عند تناول لقمة واحدة : « بسم الله » وعندما يمضغها ويبلعها يقول : « الحمد لله » لأنها لم تقف فى حلقه ، وأيضاً حين نشرب علينا أن نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : « بسم الله » . وننتهى منها فنقول : « الحمد لله » وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة . ومن يفعل ذلك فلا تتأتّى منه معصية ، مادامت آثار شربة الماء هذه فى جسمه ؛ لأنها كلها « بسم الله » . فتحرسه من الخطيئة ؛ لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدت فيها نعما كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تضيقون عليكم أبواب النعم من الله ؛ لأنكم

لو شكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن الحمق ألا نشكر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت فى سورة البقرة : خلق آدم ، والشيطان ، والقضية تتوزع على سبع سور ، فى سبعة مواضع موجودة فى سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة الحجر ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسوة طه ، وسورة ص ، إلا أن القصة فى كل موضع لها لقطات متعددة ، فهنا لقطة ، وهناك لقطة ثانية ، وتلك لقطة ثالثة ، وهكذا ؛ لأن هذه نعمة لابد أن يكررها الله ؛ لتستقر فى أذهان عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تُنسى ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من مرة . وإذا أراد الله استحضار النعم والتنبيه عليها فى أشياء ، فهو يكررها كما كررها فى استحضار النعم فى سورة واحدة فى قوله سبحانه : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

إنّه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وكل نعمة يقول بعدها : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الآذان لتستقر فى القلوب حتى فى الآذان الصماء ، فمرة يأتى بها فى شىء ظاهره أنه ليس نعمة ، مثل قوله :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وجاء الحق بذكر كل ذلك ؛ لأنه ساعة يجلى لنا الأمور على حقائقها ونحن فى دار التكليف فهذه رحمة ونعمة منه علينا ؛ لأن ذلك يدعونا إلى اتقاء المحظورات والبعد والتنحى عن المخالفات .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فحين يدخل الابن إلى المدرسة ، نقول له : إن قصرت فى كذا فسوف ترسب ، وأنت بهذا القول ترحمه بالنصيحة ، فلم تتركه دون أن تبصره بعواقب الأمور ، وأيضا ساعة ترى شرًّا يحيق بالكافرين ، فإن هذا الأمر يسرك ، لأنه لو تساوى الكافرون مع المؤمنين لما كان للإيمان فضل أو ميزة ، فالعذاب نقمة على الكافر ، ونعمة على المقابل وهو المؤمن .

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل جوانبها فى القرآن سبع مرات ؛ لأنها قصة بدء الخلق ، وهى التى تجيب عن السؤال الذى يبحث عن إجابته الإنسان ؛ لأنه تلفت ليجد نفسه فى كون معد له على أحسن ما يكون . ولم يجىء الكون من بعد الإنسان ، بل طرأ الإنسان على الكون ، وظل السؤال واردا عن كيفية الخلق ،

والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان فى الكون ، فأنت تستقرىء أجناساً فى الكون ، وكل جنس له مهمة . ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب فى خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكى يغذى الحيوان ، والحيوان ينفعك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب فى خدمتك . أمّا أنت أيها الإنسان فما عملك فى هذا الكون ؟ ؛ لذلك كان لابد أن يتعرف الإنسان على مهمته . وأراد الحق سبحانه أن يُعرِّف الإنسان مهمته ، لأنه جل وعلا هو الصانع ، وحين يبحث الإنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله فى كل ما صنع . وكان لابد أيضاً أن يستقبل الإنسان خبراً من الخالق . إنه ـ سبحانه ـ يُنزل لنا المنهج من السماء ويصاحب هذا المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول يخبر ، ثم نستدل بالمعجزة على صدق خبره . فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بآية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة فى سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله . وكان لابد أن نبحث لنتثبت من صدق البلاغ عن الله بالتعقل فى دعواه ؛ فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هى من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تتفجر عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لأننا نعلم أن العبقريات تأتى فى آخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، ونلتفت فنجده يتكلم كل الكلام البلاغى المعجز . وليس من المعقول أن يأتى بأخبار الكون وهو الأمى الذى مات أبوه وهو فى بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو فى السادسة ، وكذلك مات جده . ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذى أدراه ـ إذن ـ أنه سيمهل ويمد فى أجله إلى أن يصل إلى الأربعين ليبلغنا بمعجزته ؟ .

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، فيقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ

أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِيَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(سورة يونس)

وهكذا تتجلى الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يُوحَى إليه ، ويتأكد ذلك مرة ثانية فى قوله الحق :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبيّن لهم : هل علمتم عنى خلال عمرى أنى قلت شعراً أو حكمة أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت عليه من السماء .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشرى أن يبحث فيها ، ليعلم مهمته فى الوجود . وحين يبحث فيها ليعلم مهمته فى الوجود يجب عليه أن يترك كل تخمين وظنٍ ؛ لأن هذه المسألة لا يمكن أن نأتى فيها بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لأى شىء ومهمة خلقنا ! فكيفية الخلق كانت أمراً غيبيًّا وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك . وقد حكم الله فى قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسموات والأرض وما بينهما أم للإنسان ، وقد حكم سبحانه فى هاتين القضيتين ، ولا مصدر لعلم الأمر فيهما إلا من الله سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل بحث بشرى فى هذا المجال بأنهم ضالون مضللون ، ولذلك قال ليحكم هذه

القضية ويحسمها ، ويريح العقول من أن تبحث فيها ؛ قال :

﴿ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فكأن الذى يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإنسان هو مضل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن هذا القائل عضداً لله ولا سنداً ولا شريكا له .

وقص سبحانه علينا قصة خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائيًا ويرجع إلى الوراء فلابد أن يجد أن الأمر منطقى ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرئى ، وليس التكاثر فى البشر فقط ، بل فيمن يخدمون البشر من الأجناس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالى وهو خمسة آلاف مليون ، وكلما عدنا ورجعنا إلى الزمن الماضى يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتى من اثنين ، وحلّ الله لنا اللغز فقال :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صحيح يثبته الإحصاء ويبقنه ؛ لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلا .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

وأبلغنا سبحانه بقصة خلق آدم ، وكيفية خلق حوّاء فهل أخذ جزءًا من آدم وخلق منه حوّاء ؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها ؟ وذلك يصح أيضا ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حوّاء ، وأعطانا النموذج فى واحد ، وقال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ .

و ﴿ منها ﴾ فى هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبعيضية ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها « محمد » ، بل جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم هنا يقول للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

وهذا هو أول بلاغ ، ثم أتبع ذلك :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فقبل النفخ فى الروح ستوجد تسوية ، فلمن تحدث التسوية ، ومن هو « المسوّى منه » ؟ . إن التسوية لآدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنّها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه من تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : « من ماء » نقول : نعم ، وإن قال « من طين » فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ ، فهذا جائز ؛ لأن الحمأ طينٌ اختمر فتغيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن فهى مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق :﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ .

وهكذا تكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ .

ويقول العلماء : إن المراد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذى نعرفه ، وأن آدم كان كالقبلة مثل الكعبة التى نتجه إليها عند الصلاة . ولكنْ لنا هنا ملحظ ، ونقول : إننا لا نسجد إلا لله ، ومادام ربنا قد قال : اسجدوا فالسجود هنا هو امتثال لأمر خالق آدم . والنية إذن لم تكن عبادة لآدم ، ولكنها طاعة لأمر الله الأول . والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ؛ لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مدبرات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من هو بين يدى الله ، فلم يكن السجود للملائكة خضوعاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكنْ الملائكة المقربون لا يدرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لإبليس :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته والذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وهناك الرقيب ، والعتيد والقعيد . وفى كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك مَلَك مخصوص بها ، ويبلغنا الحق بمسألة الخلق ، والخطاب لنا ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهذا ترتيب إخبارى ، وليس ترتيباً للأحداث . أو أن الحق سبحانه وتعالى طمر الخلق جميعاً فى خلق آدم ، والعلم الحديث يعطينا أيضاً مؤشرات على ذلك ، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة ، وكذلك الحيوان المنوى توجد فيه كل صفات الإنسان . ولذلك نجدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياة كل منا تتسلسل عن آخر ، فأنت من ميكروب أبيك ، وقد نزل من والدك وهو حى ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حى ، وعلى ذلك فكل كائن الآن فيه

جزىء حى من لدن آدم ، لم يطرأ عليه موت فى أى حلقة من الحلقات .

إذن فكلنا كنا مطمورين فى جزيئات آدم ، وقال ربنا سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ونقول : صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرجنا من ظهر آدم ، وهكذا كان الخلق أولاً والتصوير أولاً ،وكل ذلك فى ترتيب طبيعى ، وهو سبحانه له أمور يبديها ولا يبتديها ، أى أنّه سبحانه يظهرها فقط ، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكأنه يخاطبنا جميعاً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وعرفنا من هم الملائكة من قبل ، وما هى علة السجود . ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ .

والحق سبحانه يستثنيه بأنه لم يكن من الساجدين ، وهذا دليل على أنه دخل فى الأمر بالسجود ، ولكن هل إبليس من الملائكة ؟ لا ؛ لأنك إذا جئت فى القرآن ووجدت نصًّا يدل بالالتزام ، ونصًّا يدل بالمطابقة والقطع فاحمل نص الالتزام على النص المحكم الذى يقطع بالحكم . وقد قال الحق فى ذلك :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

وفى هذا إخراج لإبليس من جنس الملائكيّة ، وتقرير أنه من الجن ، والجن كالإنس مخلوق على الاختيار ، يمكنه أن يطيع أو أن يعصى ، إذن فقوله الحق : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ .

يعنى أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص . . أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار . ولذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة ، أي الذى يزهو فى محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفذها ، فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأن يطيع ، وصالحاً - أيضاً - لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة . فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف ذلك . وهب أنه دون الملائكة ومادام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وهكذا كان الموقف استكباراً واستعلاءً . وقوله الحق :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله:﴿ ما منعك ﴾ أى ما حجزك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ . وهذا يعنى أن الأسلوب الأول جاء بـ« لا » النافية ، والأسلوب الثانى جاء على عدم وجود « لا » النافية . وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعنى : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ هى التى تحتاج لوقفة . لذلك قال العلماء : إن « لا » هنا زائدة ، ومَنْ أَحْسَن الأدب منهم قال : إن « لا » صلة . لكن كلا القولين لا ينفع ولا يناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفطن إلى مادة « منع » ولأى أمر تأتى ، وأنت تقول : « منعت فلاناً أن يفعل » ، كأنه كان يهم أن يفعل فمنعته .

إذن ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كأنّه كان عنده تهيؤ للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتى « منع » للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين ممنوع ، وممتنع ؛ فممنوع هى فى ﴿ منعك أن تسجد ﴾ ، وممتنع تعنى أنه امْتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلى وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب فى وجود التكرار فى القرآن . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة ، وعلى أى وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال فى الرد على ربّه :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله وهو يعلم أزلاً أنّ إبليس قد امتنع باقتناع لا بقهر ، ولذلك قال إبليس : أنا خير منه ، فكأن المسألة دارت فى ذهنه ليوجد حيثية لعدم السجود . ولا يصح فى عرفه الإبليسى أن يسجد الأعلى للأدنى ، فمادام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لماذا ؟ لأنه قال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ فكأن النار لها علو ، وهو فى ذلك مخطئٌ تماماً لأن الأجناس حين تختلف ؛ فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تقدر أن تؤدى مهمة الطين ، فلا يمكن أن نزرع فى النار .

إذن فالخيرية تتأتى فى الأمرين معا مادام كل منهما يؤدى مهمته ، ولذلك لا تقل : إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شىء فى الوجود حين يوضع فى منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا تقل عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطاف : إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضى أن يكون أعوج ، وعوجه هو الذى جعله يؤدى مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى فى متساوى المهمة ، ولكن إبليس قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله فى أمره ، وكأنه يخطِّئُ الحق فى أمره ، ويردّ الأمر على الآمر . فما كان جزاء الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

والهبوط يستدعى الانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التى وصفها الله بأنها عالية هى فى السماء ، ونقول : لا ، فالهبوط لا يستدعى أن يكون هبوطاً مكانيًا ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لنوح عليه السلام :

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

أى اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تفيد النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أومن مكانة . ﴿ قال فاهبط منها ﴾ .

وهذا تنزيل من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون فى محضر الملائكة ؛ فقد كان فى محضر الملائكة ؛ لأنه ألزم نفسه بالطاعة ، وهو مخلوق على أن يكون مختاراً أن يطيع أوأن يعصى ، فلما تخلت عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون فى هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأعراف)

أى ما ينبغى لك أن تتكبر فيها .

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هو لون من الكبرياء على الآمر ، والملائكة جماعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فمادمت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فلست أهلاً لها ، فكأن العمل هو الذى أهلَّه أن يكون فى العلو ، فلما زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون فى الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفى هذا هبوط لقيمة كلامه فى أنه من نار وآدم من طين ؛ لأن المقياس الذى توزن به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق

أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنس ، مثل السرعة ، واختراق الحواجز ، والتغلب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجدار أو من الجسم ، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم »[1] .

وهو فى ذلك مثل الميكروب ، لأن هذه طبيعة النار ، وهى المادة التى خُلق منها . وهى تتعدى الحواجز . والجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن ينفذ من أى شىء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن : لا تعتقد أن عنصريتك هى التى أعطتك هذا التميز ، وإنما هى إرادة المُعَنْصِر ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه ـ سبحانه ـ يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان مخدوما لك أيها الجنى ، إنه يسخرك ويجعلك تخدمه . وأنه فى مجلس سليمان ، جعل الذى عنده علم من الكتاب ، يأتى بقوة أعلى من قوة « عفريت » من الجن . فالحق هو القائل :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

وهذا يدل على أن هناك أذكياء وأغبياء فى عالم الجن أيضاً . وجاء الذى عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفريت الجن فى الزمن ، فقد قال هذا العفريت :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

والمقام هو الفترة الزمنية التى قد يقعدها سليمان فى مجلسه ، فماذا قال الذى عنده علم من الكتاب ـ وهو إنسان ـ ؟

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى السلام ، وأبو داود فى السنة ، وابن ماجه فى الصوم ، ورواه أحمد ٣/١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٣٧

كأنه سيأتى بعرش بلقيس قبل أن ينته سليمان من ردّ طرفه الذى أرسله ليبصر به شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك نجد عبارة القرآن معبرة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

كأن المسألة لا تتحمل . بل تم تنفيذها فوراً . إذن فالحق يوضح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بعناصركم ، إننى أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعل الأدنى يتحكم فى الأعلى ؛ لأنها إرادة من عَنصَرَ العناصر .

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة ﴿ فاهبط ﴾ تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى أنك لست أهلاً لهذه المنزلة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاهبط ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغَار هو الذل والهوان ؛ لأنه قَابَل الأمر باستكبار ، فلابد أن يجازى بالصَّغار . وبذلك يكون قد عومل بضد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتهذيب والتعليم ؛ مثلما يقرر الشرع أن الذى يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليعجل الإرث منه ، ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ؛ فبارتكابه القتل صار محجوباً عن الميراث .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ومعنى ﴿ أنظرنى ﴾ أمهلنى أى لا تمتنى بسرعة ، ولا تجعل أجلى قريباً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ ﴾

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكى يشفى غليله من بنى آدم وآدم ؛ لأنه جاء له بالصَّغار والذلة والطرد والهبوط ، ولذلك أصر على أن يجتهد فى أن يغرى أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكأن إبليس فى هذا الطلب أراد أن يُنقذ من الموت وأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث الذى يبعث فيه كل من مات . وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فأوضح الحق : أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصى من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد بإبهام زمان الموت أن يشيع زمانه فى كل وقت . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ ﴾

(سورة الحجر)

والوقت المعلوم هو النفخة الأولى :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ ﴾

(سورة الزمر)

وكأن إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النفخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لابد أن يكون قبل النفخة الأولى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الغَىّ وهو : الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة مريم)

وحين نقرأ ﴿ فبما أغويتنى ﴾ أى فبإغوائك يا الله لى سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوى ربنا أو يهدى ؟ . إن الله يهدى دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يخلقه مرغماً ومسخراً كالملائكة ، ولأنه قد خُلِقَ مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذى أعطاه سبب العصيان . ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً . وأنت أيها الشيطان الذى اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿ فبما أغويتنى ﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغوِ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوى وإنما يهدى ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة « افعل » و « لا تفعل » ، واختار هو ألاّ يفعل إلا المعصية .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضطجعاً نائماً . وأريح الحالات أن يكون نائماً مضطجعاً ؛ لأن الجسم في هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه : « اقعد حتى ترتاح » ولو قعد وكان متعباً فيقال له : « اضطجع قليلاً لترتاح » .

ولماذا اختار الشيطان أن يقول:﴿ لأقعدن ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يتعب من الوقفة ، أيضاً وهو فى حالة القعود يكون منتبها متيقظاً ، والحق يقول :

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة التوبة)

ولم يقل : « قفوا » حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالنهوض . والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضطجاع أقرب إلى التراخى والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذى يحفظ له قوته ، ويبقى له انتباهه: ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .

ومادام الشيطان سيغوى ، وسيضل الغير ، فسيختار للغواية من يكون فى طريق الهداية . إنما من غَوَى باختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون فى الطاعة ؛ فالشاب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخايله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب . إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة فى كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلى يأتى لى الوسواس ، ويشككنى فى الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس . لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة الأعراف)

لماذا ؟ . لأن الله خلقك وخلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجرى منك مجرى الدم فى العروق وينفذ إليك بالخواطر والمواجيد التى لا تضبطها ؛ ويأتى إليك بمهام الأشياء فى وقت الصلاة ؛ فتتذكر الأشياء التى لم تكن تتذكرها ، ويأتى لك بأعقد المسائل وأنت تصلى ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان فى مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو فى المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل فى هذه الحال ؟ . يدلنا الحق سبحانه أن نستعيذ : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ .

فمعنى ﴿ فاستعذ ﴾ أى فالتجئ منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أن يتغلغل فيك ، وفى دمك ، وفى خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » بفزع والتجاء إليه ـ سبحانه ـ فإنه ـ جل شأنه ـ ينقذك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقل : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فإذا قلت هذا فكأنك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزغة : مرة واثنتين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق فطن وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شهِرَ عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول : ضاع منى مال فى أرض كُنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه . دلنى عليه أيها الشيخ ؟ . وبطبيعة الحال كان هذا السؤال فى غير العلم ، فقال أبو حنيفة : يا بنى ليس فى ذلك شىء من العلم ، ولكنى احتال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدى ربك مصليًّا هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً مبتسماً قائلا : يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، وسيأتى ليُخبرك ، فهلاّ أتممتها شكراً لله ، هيا قم إلى الصلاة .

إذن فقد عرف الشيطان كيف يقعد : وكيف يقسم ، لأنه فى آية أخرى يقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لقد استطاع أن يأتى بالقسم الذى يعينه على مهمته ؛ فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ أى بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إليهم فأنت الغالب الذى لا يقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعتُ أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن يختار :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فاقسم ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان على الإنسان : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ .

واستدرك على نفسه أيضاً وقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

لأن الذى يريده الله مهديًّا لا يستطيع الشيطان أن يغويه ؛ لأنه لا يناهض ربنا ولا يقاومه ، إنما يناهض خلق الله ، ولا يدخل مع ربنا فى معركة ، إنما يدخل مع خلقه فى معركة ليس له فيها حجة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعارك إما أن يرغمك على الفعل ، وإما أن يقنعك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟ . لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الوراء ، و ﴿ عن أيمانهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و ﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار . والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى البعث . ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون فى وجود دار أخرى سيُجَازى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته . وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنّه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم ، إنه ـ سبحانه ـ عندما يبيّن للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله ـ جل شأنه ـ تستوى لدى طلاقة قدرته كل الأعمال فليس لديه شىء سهل وهيّن وآخر صعب وشاق ويبلغنا ـ سبحانه ـ بتمام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أن لكل واحدٍ كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجزائه .

والشيطان ـ أيضاً ـ يأتى من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناسٍ كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصبًا كبيراً ، وقد كبرت سنه ، ويقبل على الله بشرّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن إن كنت تخاف عليهم حقًا فأمِّن عليهم فى يد ربهم ، ولا تؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مستغيثا ومستجيرا بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة. فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

ويقول تعالى :

﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويأتى الشيطان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية . ونلحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿ عن أيمانهم ﴾ و ﴿ عن شمائلهم ﴾ ولم يأت بـ « على » لأن « على » فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع . ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غوايتهم . ولذلك يقول الحق تذييلاً للآية :

﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأعراف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨ ﴾

لقد بلغ الغرور بالشيطان أن تخيّل أنه ذكى ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطانى . وهنا يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾

(من الآية ١٨ سورة الأعراف)

وقال له الحق من قبل :

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فهناك هبوط وخروج بصَغار ومجاوزة المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيد بأنه فى حالة الخروج سيكون مصاحباً للذم والصغار والطرد واللعن . ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الأعراف)

وفى هذا إخبار لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجهنم ، ولم يعدُّها سبحانه لتسع الكافرين فقط ، لكنه أعدّها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعدّ الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده ضيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه ـ جل شأنه ـ قد أعد الجنّة لاستقبالهم جميعاً ، وإن كفروا جميعاً فقد أعدّ النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق :

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله الحق :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾

(سورة الأنبياء)

وبهذا نكون قد شرحنا مسألة إبليس الذى امتنع عن طاعة أمر الآمر الأعلى بالسجود لآدم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾

ويعاود القرآن الحديث عن آدم بعد أن تناول مسألة إبليس فيقول : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ .

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هى جنة الآخرة والخلود ، واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل إبليس جنة الخلود ؟ . وكيف يخرج منها ؟ . وهل الذى يدخل الجنة يخرج منها ؟ . وهؤلاء العلماء الذين قالوا : إن الجنة هى جنة الآخرة، لم يفطنوا إلى مدلول كلمة « جنة» ؛ فساعة تطلق كلمة جنة ، تأخذ ما يسمى فى اللغة « غلبة الاستعمال » ، أى تأخذ اللفظ من معانيه المتعددة إلى معنى واحد يستقل به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف الذهن إليه ، فأنت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هى التى تُعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن والمتكلم هو الله ، فلابد أولاً أن ندرس اللفظ واستعمالاته فى اللغة ؛ لأن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، فمن الجائز أن يوجد اللفظ فى اللغة وله معانٍ متعددة . وعندما يتعلق الأمر بالدين والفقه فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوى ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعى الاصطلاحى .

مثال ذلك كلمة « الحج » فأنت ساعة تسمع كلمة « الحج » تقول : هو قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة فى أشهر معلومة ، على الرغم من أن « الحج » فى اللغة هو القصد ، فإذا قصدت أى شىء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله فى الحج بالمعنى الشرعى ، وهو قصد البيت الحرام للنسك ، وكذلك كلمة « الصلاة » إنها فى اللغة الدعاء ، فقوله تعالى : ﴿ وصلِّ عليهم ﴾ أى ادع لهم ، ولما جاء الإسلام أخذ الكلمة من اللغة، وجعلها تطلق على معنى اصطلاحى جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهى الأقوال والأفعال المخصوصة ، المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بشرائطها الخاصة .

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنًى اصطلاحيًا أن هذا يكون تركاً لمعناه الأصلى ؟ . لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله فى معناه الأصلى فلك ذلك ، ولكنك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة الشرعية لأن كلمة « صلاة » أصبحت هى الصلوات الخمس المعروفة لنا ، مع أن معناها الأصلى كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة « الجنة » ساعة تُطلق ينصرف الذهن إلى جنة الخلود . ونقول : المعنى اللغوى للجنة أنها المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعلوها فتستر

الإنسان وتُجِنّه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الثمار والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خارجها ويكتفى بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجئ بالجنة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾

(من الآية ٢٦٦ سورة البقرة)

وكذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وقوله الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وأقول : إن علينا أن نبحث فى آفاق مرادات الله حين يُعْلمنا من لدنه ويقفنا على المعنى المراد ، إننا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة فى الأرض :

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق للجنة ، وكنا سنعيش فيها لكنه عصى وأنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله فى الأرض خليفة . والذى كان يجب أن نسأل

عنه : مادام قد جعله الله خليفة فى الأرض فما الذى جاء بحكاية الجنة هذه ؟!

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة فى الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله التكاليف محصورة فى « افعل » و « لا تفعل » ؛ لأنك إن لم تمتثل سيظهر الفساد فى المجتمع ، أما الذى لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مباحاً ؛ لذلك فكل ما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » لا يفسد به المجتمع . إذن فـ « افعل » و « لا تفعل » هى مقياس ضمان الصلاح فى الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون منغصات تفسد عليه منهج الله ؟ . لا ، فمادام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأغوى ؛ فسيزين لك فى « افعل » ، و « لا تفعل » ويأتيك الأمر بالصلاة فينزغك الشيطان حتى لا تصلى . ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » ، وكذلك يحاول أن يزين لك « أن تفعل » ما هو فى مجال « لا تفعل » فترتبك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة فى الأرض أن تؤدى مهمتها أداءً يسعد الإنسان فيها فى الدنيا وينعم فى الآخرة ؛ لذلك كان لابد أن يدرب الحق سبحانه خليفته فى الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقيًا نظريًا ، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألاّ يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة فى « افعل » و « لاتفعل » . وحذره من العقبات التى تعترض « افعل » ؛ حتى لا تجئ فى منطقة « لا تفعل » ، وكذلك من العقبات فى منطقة « لا تفعل » حتى لا تجئ فى منطقة « افعل » ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب فى أى شىء أبداً فى أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هى الجنة وهى بستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : كُلْ من كل شىء فيها ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة .

« كل » هذا هو الأمر ، و « لا تقرب » هذا هو النهى . وأوضح سبحانه لآدم أن الذى سيعكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذى ثبتت عداوته إنه « إبليس » ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأقسم وقال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

كأن الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع الله ـ سبحانه ـ وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذى يعطى المقوم بلا فضلات تتعبه ، ولا ينتفخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة . . . إلخ ؛ لأنه سبحانه يعطى لآدم القدر المقوم . وسبحانه قادر على كل شىء بدليل أنه يرعى الجنين فى بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ؛ لأن الغذاء الذى يدخله الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذى يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن فالجنة التى وُجد فيها آدم بداية ليست هى جنة الجزاء ؛ لأن جنة الجزاء لابد أن تأتى بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم ـ كما علمنا ـ مخلوق للأرض ، إذن وجود الجنة هنا يعنى أنها مكان التدريب على المهمة فى الخلافة أمراً متمثلاً فى ﴿ فكُلَا ﴾ ، ونهياً متمثلاً فى ﴿ ولا تقربا ﴾ ، لم يقل لهما : لا تأكلا ، بل قال : ﴿ لا تقربا ﴾ لأن القِربان مظنة أنه يؤدى إلى الغواية ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقرب لما أكل منها .

فكأن الله جعل لآدم فى جنة التدريب والتمرين رمزين : الرمز الأول : لـ « افعل » ، والرمز الثانى : لـ « لا تفعل » ، ونجد أن الذى نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به . وهذا من رحمة الله بالعباد ، فيفعل المؤمن مايؤمر به ، ولا يحوم حول ما حرمه الله ؛ لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال: ﴿ ولا تقربا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأى منظر . ولذلك فى كثير من الأشياء التى يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفى قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب ، فسبحانه هوّ القائل :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ولم يقل : « لا تعبدوا الأوثان » ، بل قال : « فاجتنبوا » ، والشأن فى « الخمر » أيضاً جاء بالاجتناب . لكنّ بعضاً من السطحيين يقولون : لم يرد فى الخمر تحريم بل قال بالاجتناب ، ونقول له : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الخمر . لكن الاجتناب يقتضى ألا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد فى المكان الذى توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها .

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أنا لم أجعل لكما حقًا فى أن تقربا ناحية هذه الشجرة ، فإن قربها أىٌّ منكما ، فهو قد خالف ما شرّعته لكما ، « فتكونا من الظالمين » أى تدخلا فى إطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطى نفسك شهوة قليلة فى زمن يسير ، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً فى زمن طويل وبشكل أشد . وهذا ظلم لنفسك ، كما أنّه دليل على أنك غير مأمون عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

كلمة « وسوس » تدل على الهمس فى الإغواء ، ونعرف أن الذى يتكلم فى خير لا يهمه أن يسمعه الناس . لكن من يتكلم فى شرّ فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لابد أن يأتى همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحى منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشىء ،

و « وسوس » مأخوذة من الصوت المغرى ، لأن الوسوسة هى صوت رنين الذهب والحلى ، إذن فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام مغرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقوله الحق :﴿ فوسوس لهما ﴾ يعطينا حيثيات البراءة لحواء ؛ لأن الشائع أن حواء هى التى ألحت على آدم ليأكلا من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً .

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَاوُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وهل وسوس الشيطان لهما ليبدى لهما ما وورى من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟ . لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشىء الذى حرمه ربنا ستظهر سوءاتهما ، و « السوءة » هى ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على العورة ، والفطرة تستنكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة . وكأنهما فى البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه لأن الحق يقول : ﴿ ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ﴾ .

والسوءات أربع : اثنتان للرجل واثنتان للمرأة ، فكأن كل إنسان منهما لا يرى سوءتيه ، وكذلك لايرى سوءتي الآخر ، لأن السوءات كلها لها ما يخفيها عن الرؤية ، وهذا كلام معقول جداً . ألم تقل سيدتنا أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما رأيت ولا رأى منى » ، وفى هذا القول تتجلى قمة الأدب لأنها لم تجئ حتى باللفظ ، لأن العضو مادام سوءة فهو مبنى على الستر . وذلك حين حدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين »[1] ، تعجبت السيدة عائشة فقال لها : « الأمر أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وبماذا ووري ؟ . لابد أن هناك لباساً كان على كل منهما ، وقال العلماء الكثير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إن أظافر الإنسان هي بقية اللباس الذي كان موجوداً عند آدم وحواء ، وهو ما كان يواري السوءات ، ويقال : إنّ أيّ إنسان يكون في غاية الضحك والانبساط ، ويريد أن يكتم نَفْسه ، ويمنعها ويحول بينها وبين الضحك إنه يحدث له ذلك لو نظر إلى أظافره ، عندئذ لا يمكنه أن يضحك لأنها بقية لحظة الندم على كشف السوءة . وجرّبها في نفسك ، تجد نفسك قد منعت من الضحك ، وهذا من عمل الإله .

أو أن الستار الذي كان يواري السوءة هو النور الإلهي الذي كان يلفهما ، والنور الساطع جداً حين يلف لا يبين ، صحيح أنك بالنور ترى الأشياء ، لكنه إن اشتد عمًى على الأشياء فأخفاها فلا تراها ؛ لأن أي أمر إذا زاد على حدّه انقلب إلى ضده ، فإما أن يكون الثوب الأظافر ، وإما أن يكون النور الإلهي الذي كان يغشاهما ويواري السوءة ، وقد سميت « سوءة » و « عورة » ، لأنها تسوء ، فلماذا تسوء ؟ وما الفرق بين فتحتين : فتحة في الفم ، وفتحة في العورة ؟ .

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها . وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا ـ كما قلنا ـ في حاجة إلى إخراج فضلات ؛ لأن إعداد الله يعطي كلًّا منهما على القدر الكافي للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها . لكن حينما يخرجان عن مرادات الله في الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ، ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات في الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة ، فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج الله سواء أكان ذلك في القيم والمعنويات أم في الأمور المادية ؟ .

نعم ؛ لأن كل شيء يُخالَف فيه منهج الله لابد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيت أي عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل . وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق : أراد ألا تقربا هذه الشجرة لأن من يأكل منها يصير مَلَكاً ، أو خالداً . ولم يمحص أى منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيده كان ضعيفاً واهياً وغبياً ؛ لأنه مادام قد عرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين فلماذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكاً أو خالداً ؟ وفى هذا درس يبين لنا أن مَن يُزَيّن له ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحص إلى أى غواية يسير ، وأن يدقق فى نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأعراف)

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهى المسألة ؟ . إذن كان ما يقوله الشيطان كذباً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

« قاسم » مادة فاعل ، تأتى للمشاركة ، أى أن هناك طرفين اثنين ، كل منهما فاعل فى ناحية ومفعول فى ناحية أخرى ، مثل شارك زيد عمراً ، وهى تعنى أيضاً أن عمراً شارك زيداً ، وهكذا تكون مادة فاعل وتفاعل ، فكل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة . وفى المعنى نجد الاثنين فاعلاً ومفعولاً ، إذن « قاسم » تحتاج إلى عمليتين اثنتين . . فهل جلس إبليس يقسم لآدم ولزوجته ، وهما يقسمان ؟ . ونقول : لا ؛ لأنها تأتى مرة لغير المفاعلة ، أو للمفاعلة اللزومية ، والمفاعلة اللزومية تتضح فى قوله الحق :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وواعدنا ، مثلها مثل فاعل ، من الذى واعد ؟ . إنه الله الذى وعد موسى عليه السلام ، ودخل موسى فى الوعد بقبوله الوعد وتوفيته به .

إذن « قاسمهما » أى قبلا القسم ودخلا فيه .

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « قاسم » ، أى أقسم ، ولذلك حينما عاتب ربنا سيدنا آدم أوضح سبحانه : أنا قلت إنه عدو لك ولزوجك ، ولسوف يخرجنكما من الجنة لتتعب وتشقى ، فقال آدم : يا ربى ما كنت أعتقد أن خلقاً من خلقك يقسم بك على الباطل . ولم يأت على البال أن خلقاً يقسم بالله على الباطل . وكانت هذه أول خديعة فى الخلق . ولذلك نجد قتادة ـ رضى الله عنه ـ يقول : « المؤمن بالله يُخدع » .

والنبى عليه الصلاة والسلام عقد على امرأة ودخلت به ، ومن كيد النساء وهن زوجات للنبى صلى الله عليه وسلم وقد خفن أن يشغف بها حُبًّا ، فقلن لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه الكلمة ، فإذا دخل عليك فقوليها ! ، قولى : « أعوذ بالله منك » ، ولحظة أن دخل عليها سيدنا رسول الله ، قالت له : « أعوذ بالله منك » . فقال لها : استعذت بمعاذ . ولم يقربها الرسول ، وهذا ما يشرح لنا كيف يُخدع المؤمن بالله . وها هو ذا سيدنا عبدالله بن عمر كان يعتق من العبيد من يحسن الصلاة ويتقنها ويؤديها فى مواعيدها ، ويقف فيها خاشعاً ، وحين عرف العبيد ذلك احترفوا إقامة الصلاة أمام المكان الذى يجلس فيه وكانوا يؤدونها بخشوع ، وكان رضى الله عنه يعتقهم ، وذهب له من يقول : إن العبيد يخدعونك ، فيقول : من خدعنا بالله ، انخدعنا له .

والنصح هنا : إغراء بمخالفة أمر الله ، وكان يجب ألا تكون هناك غفلة من آدم ، وكان لابد أن يقارن بين الأمرين ، بين غواية الشيطان له بالأكل ، وبين أمر الحق سبحانه الذى قال له ولزوجه : لا تقربا . لكنه لم يفعل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ فدلاهما بغرور ﴾ أى فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى درك المعصية والذنب مما غرهما به وخدعهما من القسم.و « دلاّ » مأخوذة من دلّى رجليه فى البئر كى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو دلّى حبل الدلو لينزله فى البئر ، ومعناها : أنه يفعل الشيء مرة فمرة ، و « بغرور » أى بإغراء لكى يوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصح وأبطن لهما الغش .

وهنا وقفة تدل على الاصطراع بين الحق والباطل فى النفس ، ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكرا أن النزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذاه فقط كان مجرد المذاق ، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

و « الخصف » أى تأتى بشيء وتلزقه على شيء لتدارى شيئاً . وقديماً حينما كان يبلى نعل الحذاء ، ويظهر به خرق فالإسكافى يضع عليه رقعة من الجلد تكون أوسع من الخرق حتى تتمكن منه .

وهكذا فعل آدم وحواء ؛ أخذا من ورق الجنة ووضعا ورقة على ورقة ليداريا السوءة . وقوله الحق:﴿ وطفقا ﴾ يعنى وجعلا من ورق الشجر غطاء للسوءات .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

لقد كان التكليف هنا فى أمر واحد ، والإباحة فى أمور متعددة ، وسبحانه لم يكلفهما إلا بأمر واحد هو عدم الاقتراب من الشجرة ، والمباح كان كثيراً ؛ لذلك لم يكن من اللائق أن يتوها عن التكليف . ولم يكن هذا التكليف بالواسطة ولكن كان بالمباشرة ، ولذلك سينفعنا هذا الموقف فى الفهم فى لقطة للقصة فى سورة غير هذه وهو قوله الحق :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

ولم يأت الحق هنا بسيرة المعصية ، وقال لهما :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لا يجرم إلا بنص ، وسبق أن قال سبحانه : ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ وأوضح : أن هناك عنصراً إغوائياً هو إبليس وعداوته مسبقة فى أنه امتنع عن السجود ، وقد طرده الحق لهذا السبب . إذن إنْ آخذهما وعاقبهما الله بهذا الذنب فهو العادل ، وهما اللذان ظلما أنفسهما . وكان لابد أن يكون الجواب : نعم يارب نهيتنا ، وقلت لنا ذلك . وهذا إيراد للحكم بأقوى الأدلة عليه ؛ لأن الحكم قد يأتى بالإخبار ، وقد يأتى بالاستفهام بالإيجاب ، ويكون أقوى لو جاء بالاستفهام بالنفى .

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

ونحن نعلم أن العدو هو الخصم الذى يريد إلحاق الضرر والإيذاء بك ، و « مبين » أى محيط ، وهذا دليل يُظهر عداوة الشيطان وإحاطتها ؛ لأنه قد سبق أن أوضح أنه سيأتى من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم . أو بيِّن العداوة وشديد الخصومة .

ويأتى الإقرار بالذنب من آدم وحواء :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣ ﴾

وتلك هى الكلمات التى قال الله عنها فى سياق آخر :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

فكأن الحق سبحانه وتعالى قدَّر غفلة خلقه عن المنهج ؛ فشرّع لهم وسائل التوبة إليه ، ووسائل التوبة ثلاث مراحل : تشريعها رحمة ، ثم الإقبال عليها من المذنب اعترافا وإنابة ، وقبولها منه سبحانه رحمة ، فالتشريع يطلب منك أن تفعل ، وحين تتوب يتوب الله عليك .

تشريع التوبة ـ إذن ـ رحمة ، لا بالمذنب فقط ، بل وبغيره أيضاً ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة ، كان الذى يعمل معصية ، ولا يجد مغفرة ، يستشرى فى المعاصى ، وإذا استشرى فى المعاصى تعب المجتمع كله .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا هو الموقف بعد الذنب من آدم وزوجته ، وهو يختلف عن موقف إبليس بعد الذنب ؛ فإبليس أراد أن يبرر المخالفة :

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

فماذا قال آدم وحواء ؟ :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

ولذلك كان جزاء إبليس ـ وهو المتأبى على أوامر الله وحكمه ـ أن يطرد من رحمته . وجزاء المعترف بأنه أذنب ، وأنه ظلم نفسه أن تُقبل توبته . إذن لا يصح للناس الذين يقيمون على معصية أن يقول الواحد منهم : « هذه هى ظروفى » ، ويبرر ويحلل ما يفعله من المعاصى ، بل على الواحد منهم ألا يطرد نفسه بنفسه من منطقة الرحمة ، وعليه أن يقول : « ما أفعله حرام ، لكن لا أقدر على نفسى » وبذلك لا يكون قد ردّ الحكم ، بل اتهم نفسه بالتقصير واعترف بالذنب ، فصار أهلاً للمغفرة وأهلا للتوبة .

وهنا نسأل : ما الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم ؟ . ونقول : إبليس عصى وجاء بحيثية رفض الأمر ، لكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة .

وحين قال آدم وزوجته حواء : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ معاً وفى نَفَس واحد ، ونغمة حزينة نادمة ، ألا يدل ذلك على أنهما قد تعلماها ؟ . إن كلا منهما لو اعتذر لله بمفرده لاختلفا فى أسلوب الاعتذار .

وهذا دليل على أنها ملقنة ، ولهذا قال ربنا .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

وهما قد قالا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ، وأنفسنا جمع نَفْس ، ولم يقولا « نفسينا » ، بل قالا ﴿ أنفسنا ﴾ أى أن قلبيهما أيضاً قد صفيا وخلصا من أثر تلك المعصية ، وأن ذلك مطمور وداخل فى نفوس ذريتهما .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

ونلتفت لنجد أن هناك أمراً قد سبق لإبليس بالهبوط ، وهنا أمر آخر بالهبوط ، وبالله لو كانت جنة الخلود هى محل إقامتهما ، وآدم مخلوق لها ثم عصى ثم تاب لما خرجا منها أبداً . لكنه سبحانه أمر آدم بأن يهبط إلى الأرض التى جعله خليفة فيها ، ليباشر مهمة الخلافة فى إطار التجربة التى وقعت له ، وعليه أن يحترم أمر الله فى كل تكليف ، وأن يحترم نهى الله فى كل تكليف ، وليحذر عداوة الشيطان فإنه سيوسوس له . وقد جرب ذلك بنفسه ، فلينزل مزوداً بالتجربة ، وليس له عذر من بعد ذلك . ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ .

والأمر هنا للجماعة ؛ ولم يقل لهما اهبطا . وفى آية ثانية قال :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وذلك لنعرف أن ورود القصة فى أماكن متعددة جاء لتعطى لقطات كثيرة . والأمر هنا جاء بقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة ؛ آدم وحواء ، وإبليس . . والعداوة مسبقة ولا ندعيها . العداوة بين طرفين : اثنان فى طرف هما آدم وحواء ، وواحد فى طرف هو إبليس . ويريد الحق لنا بيان الحقائق وأن المتكلم إله ، إنّ كل حرف عنده بميزان ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول لنا :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

أى إياك أن تأخذ واجهة النص ، ولكن ابحث فى خلفيات النص ، ولا تأخذ واجهة اللفظ ، بل انظر إلى ما وراء الألفاظ .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة « عدو » تعنى وجود صراع ، ومعارك سوف تقوم بين أولاد آدم بعضهم مع بعض ، أو تقع العداوة بينهم وبين أعدائهم من سكان الأرض من جن وغيرهم ، لكنها لمدة محدودة ، ولذلك قال : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

أى أن لكم استقراراً فى الأرض ومتاعاً إلى حين . وصراع صاحب الحق فى الحق يجب أن يأخذه على أنه متاع فى الدنيا ولا يأخذه على أنه معركة بلا جزاء ، لا ، فأنت تجاهد وتأخذ جزاء كبيراً على الجهاد وهذا متاع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

كأنه قال:﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فأحب أن يعطينا الصور لرحلة الحياة ، ويرسم لنا علاقتنا بالأرض التى قال فيها :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فقد ربطنا بالأرض . إيجاداً من طينها ، ومتعة بما فيها من ميزات ، وخيرات وثمرات ، ثم تموت لنعود لها ونبعث من بعد ذلك . فالإنسان منا من الأرض ، منها يحيا وفيها يموت ، ويذهب إلى أصله ومرجعه ، إلى الأم الأرض ، فهى تكفته وتضمه وتأخذه فى حضنها فهى الحانية عليه وبخاصة فى وقت ضعفه . وساعة ما يكون الإنسان فى حالته الطيبة ، وله أخ حالته عكس ذلك فإن قلب الأم إنما يكون مع الضعيف ، ومع المريض ، ومع الصغير .

والأرض هى التى تأخذ كل البشر ، تأخذ الإنسان وتمص منه الأذى ، وتدارى

رائحته ، أمّا أحبابه فى الدنيا وإخوانه ، فقد سارعوا بمواراته التراب تفادياً لرحلة التحلل . وبمجرد أن يموت الإنسان ، أول ما يُنْسَى هو اسمه ؛ فيقولون : « أين الجثة » ، ولا يقولون : « أين فلان » . وبعد الكفن يوضع الجثمان فى النعش ، ليوارى فى التراب ويدمدم اللحاد عليه برجليه .

وينتقل الحق بعد ذلك بالخطاب إلى أبناء آدم فيقول :

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وكلمة ﴿ يا بنى آدم ﴾ لفت إلى أن تتذكروا ماضى أبيكم مع عدوكم المبين ، إبليس ، أنتم أولاد آدم ، والشيطان موجود ، فانتبهوا . لقد أنزل الحق عليكم لباسا يوارى سوءاتكم ؛ لأن أول مخالفة حدثت كشفت السوءة ، والإنزال يقتضى جهة علو لنفهم أن كل خير فى الأرض يهبط مدده من السماء ، وسبحانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذى أنزل المطر ، والمطر روى بذور النبات فخرجت النباتات التى غزلناها فصارت ملابس ، وكأنك لو نسبت كل خير لوجدته هابطا من السماء . ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول :

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الزمر)

نعم هو الذى أنزل من الأنعام أيضاً لأن السببية فى النبات من مرحلة أولى ، والسببية فى الحيوان من مرحلة ثانية ، فهو الذى جعل النبات يخرج من الأرض ليتغذى عليه الحيوان ، ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ

بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

نعم فسبحانه هو من أنزل الحديد أيضاً ؛ لأننا نأخذه من الأرض التى خلقها الله ، وهذا دليل على أن التنزيلات إنما أراد الله أن يحمى بها كل منهج .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فإذا كنا قد أنزلنا اللباس الذى يوارى سوءات الحس وسوءات المادة ، كذلك أنزلنا اللباس الذى يوارى سوءات القيم . فكما أنكم تحسّون وتدركون أن اللباس المادى يدارى ويوارى السوءة المادية الحسية فيجب أن تعلموا أيضاً أن اللباس الذى ينزله الله من القيم إنما يوارى ويستر به سوءاتكم المعنوية . ولباس الحياة المادية لم يقف عند مواراة السوءات فقط ، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضاً . لذلك قال الحق :

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

والريش كساء الطير ، وقديماً كانوا يأخذون ريش الطير ليزينوا به الملابس . وكانوا يضعون الريش على التيجان ، وأخذ العوام هذه الكلمة وقالوا : فلان مريش أى لا يملك مقومات الحياة فقط ، بل عنده ترف الحياة أيضاً ، فكأن هذا القول الكريم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك فى حل . وقبل أن يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى مقومات الحياة لفتنا إلى الجمال فى الحياة ، فقال سبحانه :

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾

(من الآية ٨ سورة النحل)

والركوب لتجنب المشقة ، والزينة من أجل الجَمَال .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

بل سبحانه طلب زينتنا فى اللقاء له فى بيته فيقول :

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

إذن فهذا أمر بالزينة ، وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله ؛ لأن اللباس المادى يستر العورة المادية ، وقصاراه أن يكون فيه مواراة وستر لفضوح الدنيا ، لكن لباس التقوى يوارى عنا فضوح الآخرة .

أو لباس التقوى هو الذى تتقون به أهوال الحروب ؛ إنّه خير من لباس الزينة والرياش لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل ، أو ذلك اللباس - لباس التقوى - خير من اللباس المادى وهو من آيات الله ، أى من عجائبه ، وهو من الأشياء اللافتة ؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية ، وهناك أمور قيمية لا تنتظم الحياة إلا بها ، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية ، وزينة الحياة المادية ، وأعطاك ما تحيا به فى السلم والحرب ، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزايا . فخذ الآيات مما تعلم ومما تحس لتستنبط منها ما يغيب عنك مما لا تحس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشيطان ، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإغواءه له .

والفتنة فى الأصل هى الاختبار ، وتُطلق ـ أحياناً ـ على الأثر السيئ حيث تكون أشد من القتل ، لكن هل يسقط الإنسان فى كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هى الاختبار ، وفى الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإمّا أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطه شرًّا .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة فى الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقى الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة فى الأرض ؛ فلله منهج يحكمه فى كل حركاته ، ومادام له منهج يحكمه فى كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعى على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف فى الأرض ، وحذره من الشيطان الذى أبى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة فى التكليف . وكل تكليف محصور فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له فى الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشراً مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، وأوضح له : أَنْ كُلْ مِنْ كل ما فى الجنة ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة . و﴿ كُلْ ﴾ أَمْرٌ ، و﴿ لا تقرب ﴾ نَهْىٌ . وكل تكليف شرعى هو بين « لا تفعل » وبين « افعل » .

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذى يضع ويجعل له العقبات فى تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها ؛ خالفا أمر الله فى ﴿ولا تقربا﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لابد أن ينشأ عنها عورة تظهر فى الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر عورات الأرض وعورات المجتمع ، فأمره الله : أن اهبط إلى الأرض مزوداً بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه فى قوله : ﴿ ولا تقربا ﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئُ ، وتدركه الغفلة ، وقد يخالف منهج الله فى شىء ، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبيًّا ؛ جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى فى تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآنى :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

إنّ هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة ، ولابد أن نفطن أيضاً إلى قوله الحق : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾.

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ، لأن عصيانه كان أمراً طبيعيًّا لأنه بشر ، يخطئُ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبيًّا ورسولاً ، ومادام قد صار نبيًّا ورسولاً فالعصمة تأتى له :

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟! نقول : تنبه إلى أن

النبوة لم تأته إلا بعد أن عصى وتاب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر مبلغون عن الله ، وأنبياء يبلغون عن الله ، فله في البشرية أنه عصى ، وله في النبوة أن ربه قد اجتباه فتاب عليه وهداه . والذين يقولون : إن آدم كان مخلوقاً للجنة ، نقول لهم : لا . افهموا عن الله ، لأنه يقول : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .

إن أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التى سبقت الخلافة فى الأرض . إنها كانت تدريباً على المهمة التى سيقوم بها فى الأرض ، وإلاّ فلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجته ، إلا أن الله قد قبل منه توبته ، ومادام قد قبل توبته فكان يجب أن يبقيه فى الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التى سبقت الخلافة فى الأرض . وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع علينا التجربة لآدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألاّ نقع فى الفتنة كما وقع آدم .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا نهى لبنى آدم وليس نهيا للشيطان ، وهذا فى مُكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شىء ليس فى مكنته ، بل ينهاه عما فى مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ . فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ؛ لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة ، ويتساءل البعض : لماذا لم يقل الله : لا يفتننكم الشيطان كما فتن أبويكم ، وقال : « لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ؟ . ونقول : هذا هو السمو والافتنان الراقى فى الأداء البيانى للقرآن .

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف . كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة . ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك ،

وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ماأثبت فى الآخر قصد الاختصار . وهذا هو الأسلوب الذى يؤدى المعنى بمنتهى الإيجاز ؛ لينبه ذهن السامع لكلام الله . فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء ، وعدم الفضول فى الأساليب .

﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

والفتنة ـ كما علمنا ـ هى فى الأصل الاختبار حتى ننقى الشىء من الشوائب التى تختلط به ، فإذا كانت الشوائب فى ذهب فنحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر ، وحين نريد أن نأخذ الذهب خالصاً نفتنه على النار حتى ينفض ويزيل عنه ما علق به . كذلك الفتنة بالنسبة للناس ، إنها تأتى اختباراً للإنسان لينقى نفسه من شوائب هذه المسألة ، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء . فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن ؛ لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن ألحقت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء . والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن ، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر . فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الجن)

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً ، واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

و « قبيله » هم جنوده وذريته الذين ينشرهم فى الكون ليحقق قَسَمَه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أدّته وأوصلته إلى الكفر ؛ لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أوغر صدره وأحنقه ، وجعله يوغل ويسرف فى عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ولن يكتفى بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وُجد شياطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وكلمة « زخرف القول » تعنى الاستمالة التى تجعل الإنسان يرتكب المعصية وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول . وكل معصية فى الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دعاته ، ومروجوه ، ومعلنوه ، إنهم يزينون للإنسان بعض شهواته التى تصرفه عن منهج الله ، ونلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان فى البشر ، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة إيمان فى نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكتلوا جهودهم حتى يحرموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا

غرضهم فى العداوة للإسلام . ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ .

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ؛ فقال قوم : ﴿ إنهم جنوده وذريته ﴾ . ويقصدون جنوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق:﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ فلابد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية ؛ لأننا نرى البشر ، وفى قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبه ؛ لأن العدو الذى تراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذى يراك ولا تراه عداوته شديدة وكيده أشد ، والجن يرانا ولا نراه ، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهى شفيفة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر فى الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر فى الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنفوذ الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يُرى ، ولكن إذا كان ثبت فى الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئى وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاثنان كل منهما جنس خفى مستور ، وقد تشكل المَلك بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »[١] .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكيّته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيتمثل لهم مادة .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : « إن عفريتا من الجن جعل يفتك علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه فَذَعَتّهُ فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون »[٢] .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان .
(٢) رواه مسلم فى المساجد ، والبخارى فى الصلاة ، وأحمد ، ومعنى : « فَذَعَتّهُ » : أى خنقته .

وذلك من أدب النبوة . إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته ، فإذا ما أرادك أن تراه . . فهو يظهر على صورة مادية . وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله ، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره ، فقال بعضهم : حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، لابد أن نقول : إننا لن نراه .

وأقول : إن الإنسان إن رأى الجنى فلن يراه على صورته ، بل على صورة مادية يتشكل بها ، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان ؛ لأن الجنى لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان ، وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه ، هل هو الشيء الذى نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به ؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضرورى لحركة الحياة ، وحركة المجتمع ؛ لأنك لا تعطف على ابنك إلا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك ، ولا تثق فى صديقك إلا إذا عرفت أنه صديقك . ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به . وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه ، وهنا سيشكك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذى يتمثل فى صورته . وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء ، فما الذى يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق فى علمه ، ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله ؟ .

إذن فالشيطان لا يتمثل ، هكذا قال بعض العلماء ، ونقول لهم : أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل ، يتمثل تمثلاً استمرارياً ، لا . هو يتمثل تمثل الومضة ؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمته الصورة التى انتقل إليها ، وإذا حكمته الصورة التى انتقل إليها فقد يقتله من يملك سلاحاً ، إنه يخاف منا أكثر مما نخاف منه ، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً ؛ لذلك يختار التمثل كومضة ، ثم يختفى ، والإنسان إذا تأمل الجنى المشكل . سيجد فيه شيئاً مخالفاً ، كأن يتمثل ـ مثلا ـ فى هيئة رجل له ساق عنزة لتلتفت إليه كومضة ويختفى ؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التى يتشكل بها تحكمه . وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَـآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

والشياطين مِن جَعْل الله ، وسبحانه خلّى بينهم وبين الذين يريدون أن يفتنوهم وإلا لو أراد الله منعهم من أن يفتنوهم . لفعل . . إذن فكل شيء فى الوجود ، أو كل حدث فى الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، وداعٍ لفعل الفعل . فإذا ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل ، والداعى إلى الفعل ، فإبراز الفعل فى الصورة النهائية نستمدها من عطاء الله من الطاقة التى منحها الله للإنسان . فأنت تقول : العامل النساج نسج قطعة من القماش فى غاية الدقة ، ونقول : إن العامل لم ينسج ، وإنما نسجت الآلة ، والآلة لم تنسج ، لكن الصانع الذى صنعها أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها إلا بالعـالم الذى ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجّه الطاقة المخلوقة للمهندس فى أن تعمل ، واعتمد على طاقة المهندس الذى صنعها فى المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم الذى ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفى مادة خلقها الله .

إذن فكل شيء يعود إلى الله فعلاً ؛ لأنه خالق الطاقة ، وخالق من يستعمل الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت : العامل نسج يصح قولك ، وإذا قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذى نسج صح قولك . إذن فالمسألة كلها مردها فى الفعل إلى الله . وأنت وجهت الطاقة المخلوقة لله بالقدرة المخلوقة لله فى فعل أمر من الأمور . فإذا قال الله ﴿ إنا جعلنا الشياطين ﴾ أى خلّينا بينهم وبين المفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا ألّا يفتنوا أحداً لما فتنوه . وهذا ما فهمه إبليس .

﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ ﴾

(من الآية ٢٨٢ ، والآية ٢٨٣ سورة ص)

إذن من يريده الله معصوماً لا يستطيع الشيطان أن يغويه ، وتعلم الشياطين أن الله خلّى بينهم فى الاختيار ، وهذه اسمها تخلية ؛ ولذلك لا معركة بين العلماء . فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله ، ونسب كل فعل إلى الله ، ومنهم من رأى أنَّ موجّه الطاقة من البشر فينسب الفعل للبشر ، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله فى أنه الفاعل لكل شىء ، ومنهم من قال : إن الإنسان هو الذى فعل المعصية . . أى أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له ، فربنا يعذبه على توجيه الطاقة للفعل الضار ولا خلاف بينهم جميعاً .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن ، ولكن الذى آمن لا يتخذه الشيطان وليًّا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والفاحشة مأخوذة من التفحش أى التزيد فى القبح ، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون خاص من الذنوب ، وهو الزنا ، لأن هذا تزيد فى القبح ، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنتهى بأثرها ، لكن الزنا يخلف آثاراً . . فإمّا أن يوأد المولود ، وإما أن تجهض المرأة ، وإما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً ، ويعيش طريداً فى المجتمع لا يجد مسئولاً عنه ، وهكذا تصبح المسألة ممتدة امتداداً أكثر من أى معصية أخرى . وتصنع هذه المعصية الشك فى المجتمع . ولنا أن نتصور أن إنساناً يشك فى أن من ينسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه ، وهذه بلوى

كبيرة للغاية . والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢ ﴾

(سورة الإسراء)

أو الفاحشة هى ما فيه حد ، أو الفاحشة هى الكبائر ، ونحن نأخذها على أنها التزيد فى القبح على أى لون من الألوان .

فما هى الفاحشة المقصودة هنا ؟ . إنها الفواحش التى تقدمت فى قوله :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة المائدة)

وكذلك ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

وكذلك فى قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة الأنعام)

أو أن المقصود أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فيطوف الرجال نهاراً ، والنساء يطفن ليلاً ، لماذا ؟ . لأنهم ادَّعَوْا الورع . وقالوا : نريد أن نطوف إلى بيت ربنا كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نتجرد من متاع الدنيا ، ولا نطوف ببيت الله فى ثياب عصينا الله فيها .

وقولهم : « وجدنا عليها آباءنا » تقليد ، والتقليد لا يعطى حكماً تكليفياً ، وإن

أعطى علماً تدريبيا ، بأن ندرب الأولاد على مطلوب الله من المكلف ليستطيعوا ويألفوا ما يكلفون به عندما يصلون إلى سن التكليف . ومما يدل على أن التقليد لا يعطى حقيقة ، أنك تجد المذهبين المتناقضين ـ الشيوعية والرأسمالية مثلاً ـ مقلدين ؛ لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون . فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبحان حقيقة ؛ لأنهم ـ كما يقولون ـ الضدان لا يجتمعان ، هذا هو الدليل العقلى فى إبطال التقليد . ولذلك نلاحظ فى أسلوب الأداء القرآنى أنه أداء دقيق جداً ؛ فالذى يتكلم إله .

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت فى مسألة التقليد بردّ لأنه بداهة لا يؤدى إلى حقيقة ، بل قال :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها . وأين الرد على قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ ؟ .

نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ؛ لأنه أمر يرفضه العقل الفطرى ، ولذلك ترك الله الرد عليه ؛ لوضوح بطلانه عند العقل الفطرى ، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فالله لا يأمر بالفحشاء . ثم كيف كان أمر الله لكم ؟ . أهو أمر مباشر . بمعنى أنه قد أمر كل واحد منكم أن يرتكب فاحشة ؟ ألم تنتبهوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

أم بلغكم الأمر بالفاحشة عن طريق نبى فكيف ذلك وأنتم تكذبون مجىء الرسول ؟ . وهكذا يكون قولكم مردوداً من جهتين : الجهة الأولى : إنه لا طريق

إلى معرفة أمر الله إلا بأن يخاطبكم مباشرة أو يخاطبكم بواسطة رسل ؛ لأنكم لستم أهلاً للخطاب المباشر ، والجهة الثانية : أنكم تنكرون مسألة الأنبياء والرسل . فأنتم لم يخاطبكم الله بالمباشرة أو بواسطة الرسل فلم يبق إلا أن يقال لكم :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

ولا جواب على السؤال إلا بأمرين : إما أن يقولوا : « لا » فقد كذبوا أنفسهم ، وإما أن يقولوا : « نعم » ؛ فإذا قالوا : نعم نقول على الله ما لا نعلم ؛ فقد فضحوا أنفسهم وأقروا بأن الله لم يأمر بالفاحشة ، بل أمر الله بالقسط ، لذلك يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

والقِسط هو العدل من قسط قِسطاً ، وأمّا قاسط فهى اسم فاعل من قسط قَسْطاً وقُسُوطاً أى جار وعدل عن الحق ، والقاسطون هم المنحرفون والمائلون عن الحق والظالمون ، وكلمة العدل هى التسوية ، فإن ملت إلى الحق ، فذلك العدل المحبوب . وإن ملت إلى الباطل ، فذلك أمر مكروه ﴿ قل أمر ربى بالقسط ﴾ .

وهذه جملة خبرية .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

وهذا فعل أمر ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا من عطف الأمر على الخبر ، ولكن لنلتفت أن الحق يعطفها على « قل » ، فكأن المقصود هو أن يقول : « قل أمر ربى بالقسط ، وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » .

والوجه هو السمة المعينة للشخص ؛ لأن الإنسان إن أخفى وجهه لن تعرفه إلا إن كان له لباس مميز لايرتديه إلا هو . والوجه أشرف شيء فى التكوين الجسمى ، ولذلك كان السجود هو وضع الوجه فى الأرض ، وهذا منتهى الخضوع لأمر الله بالسجود ؛ لأن السجود من الفاعل المختار وهو الإنسان يكون بوضع الجبهة على الأرض . وكل شىء خاضع لحكم الله نقول عنه : إنه ساجد .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

والشجر يسجد وهو نبات ، والدواب تسجد وهى من جنس الحيوان ، والشمس والقمر والنجوم والجبال من الجماد وهى أيضا ساجدة ، لكن حين جاء الحديث عن الإنسان قسمها سبحانه وقال :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

لأن الإنسان له خاصية الاختيار ، وبقية الكائنات ليس لها اختيار . إذن فالسجود قد يكون لغير ذى وجه ، والمراد منه مجرد الخضوع ، أما الإنسان فالسجود يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلف وكل الكائنات مسخرة لخدمته وطائعة وكلها تسبح ربنا ، فإذا كان السيد الذى تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ، ونباتاً ، وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضع من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والإقامة أن تضع الشىء فيماهيئ له وخُلق وطُلب منه ، وإن وجهته لناحية ثانية تكون قد ثنيته وأملته وحنيته ، وعوّجته . إذن فإقامة الوجه تكون بالسجود ؛ لأن الذى سخر لك هذا الوجود وحكمك بمنهج التكليف هو من جعلت وجهك فى الأرض من أجله ، وإن لم تفعل ذلك فأنت تختار الاعوجاج لوجهك ، واعلم أن

هذا الخضوع والخشوع والسجود لله لن يعطيك فقط السيادة على الأجناس الأخرى التى تعطيك خير الدنيا ، ولكن وضع جبهتك ووجهك على الأرض يعطيك البركة فى العمل ويعطيك خير الآخرة أيضاً . والعاقل هو من يعرف أنه أخذ السيادة على الأجناس فيتقن العبودية لله ، فيأخذ خيرى الدنيا والآخرة حيث لا يفوته فيها النعيم ولا يفوت هو النعيم ، أمّا فى الدنيا فأنت تقبل عليها باستخلاف وتعلم أنك قد يفوتك النعيم ، أو تفوت أنت النعيم ، وحين تتذكر الله وتكون خاضعاً لله فأنت تنال البركة فى حركة الاستخلاف .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والمسجد مكان السجود ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون »[١] .

إذن فكل موضع فى الأرض مسجد ؛ فإن دخلت معبداً لتصلى فهذا مسجد . والأرض كلها مسجد لك . يصح أن تسجد وتصلى فيها . وتزاول فيها عملك أيضاً ، ففى المصنع تزاول صنعتك فيه ، وحين يأتى وقت الصلاة تصلى ، وكذلك الحقل تصلى فيه ، لكن المسجد الاصطلاحى هو المكان الذى حُبس على المسجدية وقصر عليها ، ولا يزاول فيه شىء آخر . فإن أخذت المسجد على أن الأرض مسجد كلها تكن ﴿ أقيموا وجوهكم ﴾ فى جميع أنحاء الأرض . وإن أخذتها على المسجد ، فالمقصود إقامة الصلاة فى المكان المخصوص ، وله متجه وهو الكعبة . وكذلك يكون اتجاهك وأنت تصلى فى أى مكان . والمساجد نسميها بيوت الله ولكن باختيار خلق الله ، فبعضنا يبنى مسجداً هنا أو هناك . ويتجهون إلى بيت باختيار الله وهو الكعبة . ولذلك كانت كعبة ومتوجهاً لجميع بيوت الله .

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

وقصارى الأمر أن نجعل قبلة المسجد متجهة إلى الكعبة وأن نقيم الوجه عليها ، أى على الوجه الذى تستقيم فيه العبادة . وهو أن تتجهوا وأنتم فى صلاتكم إلى الكعبة فهى بيت الله باختيار الله .

وساعة ما تصادفك الصلاة صل فى أى مسجد ، أو ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ يقصد بها التوجه للصلاة فى المسجد ، وهنا اختلف العلماء ، هل أداء الصلاة وإقامتها فى المسجد ندباً أو حتماً ؟ . والأكثرية منهم قالوا ندباً ، والأقلية قالوا حتماً . ونقول : الحتمية لا دليل عليها .

من قال بحتمية الصلاة فى المسجد استدل بقوله صلى الله عليه وسلم :

والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم[1] .

ونقول : هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أو لم يفعل ؟ لم يفعل رسول الله ذلك ، إنما أراد بالأمر التغليظ ليشجعنا على الصلاة فى المساجد عند أى أذان للصلاة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والدعاء : طلب من عاجز يتجه به لقادر فى فعل يحبه الداعى . وحين تدعو ربك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لايكون فى بالك الأسباب ؛ لأن الأسباب إن كانت فى بالك فأنت لم تخلص الدين ، لأن معنى الإخلاص هو تصفية أى شىء من الشوائب التى فيه ، والشوائب فى العقائد وفى الأعمال تفسد الإتقان والإخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتى له هذه المسألة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) متفق عليه .

« إنّي لَيُغَانُ على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة »[1] .

إذن فالإخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعو الله ادعه دائماً عن اضطرار ، ومعنى اضطرار . أن ينقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها . فذهبت للمسبب ، ومادمت مضطراً سيجيب ربنا دعوتك ؛ لأنك استنفدت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله عن ترف ، فالإنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقني ، ويكون له سكن طيب ويقول : أريد بيتاً أملكه . إذن فبعضنا يدعو بأشياء لله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار . وأنا أتحدى أن يكون إنسان قد انتهى به أمر إلى الاضطرار ولا يجيبه الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والله سبحانه يخاطب الإنسان ، ويحننه ، مذكراً إياه بـ « افعل كذا » و « افعل كذا » و « افعل كذا » . وسبحانه قادر أن يخلقه مرغماً على أن يفعل ، لكنه ـ جل وعلا ـ شاء أن يجعل الإنسان سيدا وجعله مختاراً ، وقهر الأجناس كلها أن تكون مسخرة وفاعلة لما يريد ، وأثبت لنفسه ـ سبحانه ـ صفة القدرة ، ولا شيء يخرج عن قدرته ؛ فأنت أيها العبد تكون قادراً على أن تعصي ولكنك تطيع ، وهذه هي عظمة الإيمان إنّها تثبت صفة المحبوبية لله ، فإذا ما غُر الإنسان بالأسباب وبخدمة الكون كله ، وبما فيه من عافية ، وبما فيه من قوة ، وبما فيه من مال ، تجد الحق يلفته : لاحظ أنك لن تنفلت مني : أنا أعطيت لك الاختيار في الدنيا ، لكنك ترجع لي في الآخرة ولن تكون هناك أسباب ، ولن تجد إلا المسبب ، ولذلك اقرأ :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار ، وأبو داود في الصلاة ، والنسائي في عمل اليوم ، والإمام أحمد ٢١١/٤ . ومعنى (لَيُغَانُ) : ما يتغشى القلب ، وقيل الفترات والغفلات عن الذكر ، أو همه بسبب أمته فيستغفر لها ، وقال المناوي : هو غين أنوار لاغين أغيار ولا حجاب ولا غفلة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

كأن المُلْكَ -قبل ذلك - أى فى الدنيا - كان للبشر فيه شيء لمباشرتهم الأسباب هذا يملك ، وذلك يملك ، وآخر يوظف ، لكن فى الآخرة لا مالك ، ولا مَلِكَ إلا الله ، فإياكم أن تغتروا بالأسباب ، وأنها دانت لكم ، وأنكم استطعتم أن تتحكموا فيها ؛ لأن مرجعكم إلى الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل : إن الله هدى الكل . . بمعنى أنه قد بلَّغهم بمنهجه عبر موكب الرسل ، وحين يقول سبحانه : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة ، لكن دلالة المعونة . وقد فرقنا بين هداية الدلالة وهداية المعونة .

وقوله الحق ﴿ فريقاً هدى ﴾ أى هداية المعونة ؛ لأن هذا الفريق أقبل على الله بإيمان فخفف الله عليه مؤونة الطاعة ، وبغّضه فى المعصية ، وأعانه على مهمته . أما الذى تأبى على الله ، ولم يستجب لهداية الدلالة أيعينه الله ؟ لا . إنه يتركه فى غيِّه ويخلى بينه وبين الضلالة ، ولو أراده مهديًّا لما استطاع أحد أن يغير من ذلك . وسبحانه منزه عن التجنى على أحد من خلقه ، ولكن الذين حق عليهم الضلالة حصل لهم ذلك بسبب ما فعلوا .

﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية ، أمّا من يقول إنها

هداية فهذا تبجح وكفر ؛ لأنه يرد الحكم على الله . وخير للذين يرتكبون المعاصى أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصى حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ؛ لأنه ينتقل من مرتبة عاصٍ إلى مرتبة كافر والعياذ بالله .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرّم ، وأنهم لم يقدروا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية فى الفعل . وهذا الأمر يشيع فى معاصٍ كثيرة مثل الربا ، فنجد من يقول : إنه حلال ، ونقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر على نفسى ، فتدخل فى زمرة المعصية ، ولا تدخل فى زمرة الكفر والعياذ بالله ، ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ، ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال !! فهذا هو الخطر ؛ لأنك تبتعد وتخرج عن دائرة المعصية وتتردى وتقع فى الكفر ، اربأ بنفسك عن أن تكون كذلك واعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدَّر أن عبيده يخطئون ويصيبون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فلماذا تخرج من حيز يمكن أن تخرج منه إلى حيز يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

والزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشىء ، وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

هذا يعنى أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة . أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون فى مهمات حياتهم ، وكل مهمة فى الحياة لها زيها ولها هندامها ؛ فالذى يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل فى « الحِدَادَة » له زى خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يُضَايِق غيره ، فإن كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يُؤذَى أحد بالوجود بجانبك ؛ لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلابد أن تحتفى بهذا اللقاء .

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرّم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذى أُحلّ لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة ، فهى حلال لك بشرط ألا تُسرف . ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك فى الحلال ما يغنيك عن الحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود . ولا سرف فى حل ، إنما السرف يكون فى الشىء المحرم ، ولذلك جاء فى الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً فى حِلٍّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً فى محرم لاعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى كل نعمة حقها

بشرط ألا يؤدى بك ذلك إلى البطر ، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون ، وقد أراد أن يترهب ، ويتنسك ، ويسيح فى الكون ، وقال لرسول الله : يا رسول الله ، إننى أردت أن اختصى ؛ أى أن يقطع خصيتيه ؛ كى لا تبقى له غريزة جنسية ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عثمان خصاء أمتى الصوم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى شأن من لم يستطع الزواج : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1] .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم : أبو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد وسلمان وعبدالله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن فى بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ويجبّوا مذاكيرهم »[2] . فكان التوجيه النبوى أن حمد الرسول صلى الله عليه وسلم ربه وأثنى عليه وقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »[3] .

ويتابع الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ومادام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم ، وما ينفع منها للإناث جعلتها السنّة

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) فتح البارى .

(٣) رواه مسلم .

للإناث ، وما يصلح منها للذكور أحلتها السنّة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات . ولنلحظ دقة الأسلوب هنا فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ثم يتابع سبحانه :

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

فكأننا أمام حالتين اثنتين : حالة فى الدنيا ، وأخرى فى يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة فى الحياة الدنيا غير خالصة ؛ لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهي من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن وللكافر ، وربما كان الكافر أكثر حظًا فى الدنيا من المؤمن ، ولكن فى الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها الكافرون .

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطى اليقظة الإيمانية فى المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنى والفقر والقوة والضعف . وهكذا يكون الإنسان فى الدنيا ؛ فهى دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ؛ لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوؤك.إنها تسوؤك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبت شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك للفتك الله إلى حكمته .

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها فى قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى : أنها غير خالصة للمؤمنين فى الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها

فى الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأتى لهم فيها الأغيار .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

معنى « نفصل الآيات » أى لانأتى بالآيات مجملة بل نفصل الآيات لكل مؤمن ، فلا نترك خللاً ، ونأتى فيها بكل ما تتطلبه أقضية الحياة ، بتفصيل يُفهمنا قضايانا فهماً لا لبس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

والحق سبحانه ـ قد بدأ الآية بـ « إنما » التى هى للحصر : أى ما حرم ربى إلا هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حراماً ، لأنها لا تدخل فى هذه ، وقول الله فى الآية السابقة : ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ هو على صيغة استفهام لكى يجيبوا هم . ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله . لأن الحق قد وضح وبيّن ما حرم فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونتأمل الخمسة المحرمات التى جاءت بالآية ؛ فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة فى الأرض ليبقى الإنسان خليفة فيها نرى أنه لابد من صيانة أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شيء أن يسلم للمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أى الإنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ؛ لأن الإنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه ، ويرعاه ويربيه . أما إذا تشكك فى هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يربيه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث من أن شكاً طرأ على الأب فى أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالى إن رآه أم لم يره ، ولا يبالى أهو فى البيت أم شرد ، لا يبالى أكل أم جاع ، لا يبالى تعرى أم لا .

إذن فطهارة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع ؛ لأن المجتمع سيكون بين مربٍّ يقوم على شأن وصغير مربًّى ، المربى قادر على أن يعمل ، والمربًّى صغير يحتاج إلى التربية . ولذلك حرم الله الفواحش.والفحش ـ كما قلنا ـ ما زاد قبحه ، وانتهوا على أنه هو الزنا ؛ لأن أثره لا يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع . بل يتعدى إلى الأنسال . وما تعدى إلى الأنسال فهو تعد إلى المجتمع ، ويصير مجتمعاً مهملا لا راعى له .

والإثم : أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ . لقد انتهى العلماء على أن الإثم هو الخمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص :

﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة فى الإنسان وهو العقل وأن

الخمر تغيب العقل ، والإنسان مطالب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة مواجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تزيده صلاحاً ولا تتعدى على الإنسان . فإذا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل ، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة . والذين يأتون ويشربون ويقولون : نريد أن ننسى همومنا نقول لهم : ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهمه ؛ لأنه إن نسى كل واحد ما أهمه فلن يحتاط أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التى تضمن السلامة .

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التى تعانى منها بعقل مضاعف لتزيلها . أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة ، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك . فإن كانت المشكلة قد نشأت من أنك أهملت فى واجب سببى أى له أسباب وقد قصرت فى الأخذ بها فأنت الملوم . وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس فى قدرتك ، أى هبطت عليك قضاءً وقدراً ؛ فاعلم أن مُجريها عليك له فيها حكمة .

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها ، لأن كل ذى نعمة محسود ، وحتى لا تتم النعمة عليك ؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها ، وأنت ابن الأغيار وفى دنيا الأغيار ، وإن تمت النعمة لك فقد تتغير النعمة بالنقصان .

إذن فالتفكير فى ملافاة الأسباب الضارة وتجنبها يأتى بالعقل الكامل ، والتفكير فى الأشياء التى ليس لها سبب يأتى من الإيمان ، والإيمان يطلب منك أن تَرُدَّ كل شيء إلى حكمة الحكيم . إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب الخمر ؛ لأن العقل يدير حركة الحياة .

البغى نعرف أنه مجاوزة الحد ظلماً أو كبراً ، أو بخلاً . والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيزهد فى العمل ؛ لذلك يحرّم الحق أن يبغى أحد على أحد . لا فى عِرضه ، ولا فى نفسه ، ولا فى ماله . ويجب أن نصون العرض من الفواحش ؛ لأن كل فاحشة قد تأتى بأولاد من حرام . وإن لم تأت فهى تهدر العرض ، والمطلوب صيانته ، كذلك لا يبغى أحدٌ على محارم أحد ، وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل .

ويصون الحق المال فيمنع عنه البغى فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً ، ومظاهر البغى كثيرة . ومن البغى أن تأخذ سلطة قسراً بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق ، فإن كنت ـ على سبيل المثال ـ تركب سفينة ، ثم قامت الرياح والزوابع ، وأنت أمهر فى قيادتها أتترك الربان يقودها وربما غرقت بمن فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومن فيها ، إنك فى هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس ، وهذا بغى بحق ، وهو يختلف عن البغى بغير الحق . وحتى نفرق بين البغى بحق والبغى بغير الحق نقول . إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له ، فنكون قد أخذنا حقا من صاحبه رعاية لهذا الحق ، فهو وإن كان فى ظاهره بغيا على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغى بحق أو أنه سمى بغيًا ؛ لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلماً ، ويسمى هذا فى علم البلاغة مشاكلة وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير ، ونقرأ أيضاً قول الله :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الشورى)

فهل جزاء السيئة يكون سيئة ؟ لا . وإنما هى سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه ؛ لأنه لمّا عمل سيئة واختلس مالا ـ مثلا ـ وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعبته ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ ﴾

(سورة النحل)

ومن بغى بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه ، وأن يتوقع أن يناله بغى ممن هو أكثر قدرة منه .

وينبهنا الحق إلى العمل الذى لا غفران له : ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ .

ومحال أن ينزل الحق الذى نعبده شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة

على أنه شريك له ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ؛ لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفى هذا الشرك بأدلته العقلية وأدلته النقلية .

وإذا كان الحق قد قال لنا فى هذه الآية :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، فى إطار إيجازى ومع المقابل أيضاً ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

لقد جاء بالفحشاء فى هذه الآية ليؤكد طهارة الأنسال ، وجاء أيضاً بتحريم المنكر والبغى ، وزاد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الإثم فقط . وكأن الإثم فى آية الأمر بالعدل والإحسان والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، مطمور فى « المنكر » ، والمنكر ليس محرماً بالشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصى تعود عليه بالضرر ، هنا يقول : أعوذ بالله منها . وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيح لنفسه أن يفتح أعينه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة . لكنه ساعة يرى إنساناً آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلا إنّه يرى فى ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لابد أن تجعل للمنكر حدًّا يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذى تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حدد بصرى من أن يتمتع بجسم يسير أمامى ، إنه ـ سبحانه ـ كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جميعاً أن ينظروا إلى محارمك ؛ وفى هذا صيانة لك .

وبعد أن حلل هذه الطيبات والزينة ، وحرم الفواحش والمنكر والبغى والإثم يقول سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

نحن هنا أمام نص قرآنى تثبته قضايا الوجود الواقعى ؛ فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم فى طغيانهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجرى الحق هذا الانتقام من الطغاة لصيانة سلامة المجتمع . فإن رأيت فساداً أو طغياناً إياك أن تيأس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلاً ، بداية ونهاية ، ففى أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاغية يجب أن يتمثل هذه الآية :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عضة تجعلهم يصرخون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه ، والألم وسيلة العافية لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعى ، وعلى ذلك فالمسائل التى تحدث فى الكون وهذه الأمم التى تظلم . وتضطهد . ولها جبروت وطغيان إنما تفعل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تيأس ، ولكن عليك أن تستشرف إلى الحق . وإلى جناب الله فتلوذ به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا واحة الإيمان بالله ؛ ففروا إلى بيته حجاجاً وإلى مساجده عماراً وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وننظر إلى هذه الأمور ونقول : إن الطاغية الفاجر مهما فعل فلابد أن يسخره الله لخدمة دينه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأخنى عليهم كأن سلط عليهم ظالماً لما فروا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

إن فى واقع حياتنا يعرف كل منا أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يصلى ولا يصوم ولايذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائذاً به ملتجئا إليه ، ولذلك نقول للظالم : والله لوعرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لندمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصبة ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتى به طغيانك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعته أنت ، إنّ لكل أمة أجلاً ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

وانظر إلى التاريخ تجد بعض الدول أخذت فى عنفوانها وشدتها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الخيبة وتأتى السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل . إن الحق يعمى بصائرهم فى تصرف ، يظنون أنه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف يغلبهم ويسيطر عليهم . وإذاجاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيره ؛ لأن التوقيت فى يد قيوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، ونلحظ هنا وجود كلمة « ساعة » ، والساعة لها اصطلاح عصرى الآن من حيث إنها معيار زمنى لضبط المواقيت ، ونعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكبر من الساعة هو اليوم . ومن يدرى فقد يخترع البشر آلاتٍ لضبط الجزء من الثانية .

وكذلك تطلق الساعة على قيام القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هنا ينادى الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أنه أحل لهم الطيبات والزينة وحرم

عليهم المسائل الخمسة من الفاحشة والمنكر والبغى والإثم والشرك ، ووضع لهم نظاماً يضمن سلامة المجتمع ، وطمأنهم بأنه منتقم من أى أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً . فعليكم يا بنى آدم أن تأخذوا أمور حياتكم فى إطار هذه المقدمات .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال الملهوف المستشرف المتطلع إلى ما يحميه وإلى ما ينفعه ؛ لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ما أحله الله من طيبات الحياة وملاذها ، ويبين لكم ما حرم الله ليحيا المجتمع سليماً .

كان المظنون أن ساعة يأتى الرسول نجد المجتمع يحرص على ملازمته وعلى تلقى البلاغ منه ، لا أن يظل الرسول يدعو باللين بينما المجتمع يتأبى عليه . لكن من رحمة الله أن يتأبى المجتمع ويلح الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كى يأخذ كل إنسان ما يساعده على أمر حياته ويهتدى إلى الصراط المستقيم ، وأنت إذا ما أصبت فى عافيتك تلح على الطبيب وتبحث عنه ، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول ليبلغنا منهج الله فى إدارة حركة الحياة أن نتشوق إليه ونتطلع ، لا أن نعاديه ، وعادة ما يسعد بالرسول أهل الفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول : إنه رسول ومعه آية صدقه . ويقيس أهل الفطرة السليمة قول الرسول بماضيه معهم ، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم . وهذه فائدة قوله الحق :

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلم يأت لكم إنسان لا تعرفونه بل لكم معه تاريخ واضح وجلى ، ولذلك نجد الذين آمنوا برسول الله أول الأمر لم ينتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن ، لكنهم آمنوا به بسوابق معرفتهم له ؛ لأنهم عايشوه ، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه . ومثال ذلك : عندما أخبر محمد صلى الله عليه وسلم سيدتنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ بنبأ

رسالته وأسرّ لها بخوفه من أن يكون ما نزل إليه هو من أمور الجن أو مسها ، أسرعت إلى ورقة بن نوفل ؛ لأنه عنده علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم » .

وكل هذه المقدمات تدل على أنك ـ يارسول الله ـ فى حفظ الله ورعايته ؛ لأنك كنت مستقيم السلوك قبل أن تُنَبَّأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقول أن مَن يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟! وكذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق بمجرد ما أن قال رسول الله : أنا رسول ، قال له : صدقت .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صدق الفطرة ، وهذه هى فائدة ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ أو من جنسكم البشرى حتى نجد فيه الأسوة الحسنة . ولو جاء لنا رسول من الملائكة وقال لنا : هذا هو المنهج ولكم أسوة بى ، كنا سنرد عليه الرد المقنع السهل اليسير : وهل نقدر أن نفعل مثلك وأنت ملَك مفطور على الخير ؟ . لكن حين يأتينا رسول من جنسنا البشرى ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ، وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموجودة ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن قالوا ما جاء به القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه الغباء وقصر النظر والغضب ؛ لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل كانوا يريدون مَلَكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طبائع البشر ؟ . ولذلك يرد الحق الرد المنطقى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وذلك حتى تتحقق لنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يقتحم وجودكم التكليفى ، ولم يُدخلكم فى أمر يشتد ويشق عليكم لكنه جاء لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه . ولم يأت به من جنس آخر .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

وانظر قوله : ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ ، لقد جاء بكلمة « يقصّون » لأن القصص مأخوذة من مادة « القاف » و « الصاد المضعّفة » ؛ وهذا مأخوذ من « قصّ الأثر » ، وكان الرجل إذا ما سرقت جماله أو أغنامه يسير ليرى أثر الأقدام . إذن ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ أى أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا ينحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثر فى الأثر .

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

و « التقوى » هو أن تجعل بينك وبين شىء يضرك وقاية . ولذلك يقول الحق: ﴿ اتقوا النار ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بالعمل الصالح لهيب النار . وإذا قيل: ﴿ اتقوا الله ﴾ أى اتقوا متعلقات صفات الجبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بفعل الأوامر وتلتزموا أيضاً بترك النواهى . والأمر بالتقوى هنا يعنى ألا ننكر ونجحد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإنقاذ البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمنهج الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

و « أصلح » تدل على أن هناك شيئاً غير صالح فجعله صالحاً ، أو حافظ على صلاح الصالح ورقّى صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود بئر نشرب منه ، فإن كانت البئر تؤدى مهمتها لا نردمها ، ولا نلقى فيها قاذورات ، وبذلك نبقى الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نزيد من صلاح البئر بأن نبنى حول فوهتها سوراً ، أو أن نقوم بتركيب مضخة تمتص الماء من البئر لضخه إلى البيوت . وبذلك نزيد الصالح

صلاحاً ، والآفة فى الدنيا هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فحين تقدم على أى عمل لابد أن تعرف مقدمات هذا العمل ، وماذا ستعطيه تلك المقدمات ، وماذا سوف تأخذ منه . وأبق الصالح فى الكون على صلاحه أو زده إصلاحاً ، وهنا لا خوف عليك ولن تحزن على شىء فاتك ليتحقق قول الحق :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

وما المقابل لمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ أى هؤلاء الذين أصلحوا واتقوا ؟ المقابل هو ما يأتى فى قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين ؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا فى حسابهم أن يكون لهم نصيب فى الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية ، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ فى الدنيا ، فلماذا نسى أنها موقوتة العمر ؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن فى الآخرة ؟ . عليك أن تعلم أنك فى هذه الدنيا ، خليفة فى الأرض ، ومادمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلابد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شيء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هى لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية فى الكون هى الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذى يستكبر عن آيات الله هو من دخل فى صفقة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان فى الدنيا قليل ، وزمن الآخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان فى الدنيا مظنون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله .

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأعراف)

وأصحاب النار . يعنى أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على إلف بالعاصين ، وهى التى تتساءل: ﴿ هل من مزيد ﴾ ؟ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

و﴿ فمن أظلم ﴾ تأتى على صيغة السؤال الذى لن تكون إجابته إلا الإقرار . ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولاً ظلم نفسه ، وظلم أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزار ما يفعلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً. ﴿ أو كذب بآياته ﴾ .

أى قوَّل الله ما لم يقله ، أو كذَّب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للآخر . والآية ـ كما نعلم ـ هى الأمر العجيب ، والآيات أُطلقت فى القرآن على معانٍ متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وكذلك أطلقت على المعجزات التى يرسلها الله تأييداً لرسله .

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فالآيات هنا هى المعجزات أى الأمور العجيبة .

وحدثنا القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

فالآية إذن هى الشىء العجيب وهى تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون

كله تقول لنفسك : هذا شيء عجيب ، لأن الذى جاءت على لسانه هذه الآيات نبى أمى ، ما عُرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً ، أو له رياضة فى الكلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، وما درس تاريخ الأمم حتى يستنبط القوانين التى أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهبت بمنهجها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجئ الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلخص فى نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس . وبعد أن جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم ينجح فى إدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التى نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل فى فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب .

إذن فالعجائب فى الآيات هى آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ . ألا ينظرون إلى الكون ، وما فيه من دقة صنع وهندسة بناء تكوينى لا تضارب فيه ؟ وهى آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا فى آيات الكون ليستنبطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التى جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقمتها آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ، تساءل : كيف تقولون . إنه سحر الناس فآمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ . وحينما قالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

قال الحق :

﴿ لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

وقالوا :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

فيُعَلِّم الحق رسوله أن يقول :

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة يونس)

وهنا يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشىء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ إنهم خلق من خلق الله ، والله استدعاهم إلى الوجود ؛ لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب الكون أن تكون فى خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هى فى خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يُحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه خلق فلا بد أن يرزق ، والنواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصى ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلا .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذى قَدَّر لهم ، من الرزق والحياة ، ما هو مسطر فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

أو ينالهم ، أي يصيبهم عذاب مما هو مبين فى الكتاب الذى أرسلناه ليوضح أن الطائع له الثواب ، والعاصى له العقاب ، فيقول الحق هنا :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

وساعة تسمع ﴿ يتوفونهم ﴾ تفهم أن الحياة تنتهى ، وتنفصل الروح عن الجسد فهذا هو « التوفى » ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة ينسب إلى المَلَك ، ومرة يراد منه أتباع المَلَك أي جنوده يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة ملتقية ؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أخذ التلقى من الله ، فالأمر الأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسل .

و « التوفى » على إطلاقه هو استيفاء الأجل ، فإن كان أجل الحياة فهو توفية بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التى بين القبر والحساب . إلى أن يجئ ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفى أجلهم الثانى ؛ لأن كل إنسان له أجلان : أجل ينهى هذه الحياة ، والأجل الذى يأخذه فى البرزخ إلى أن يجىء الحساب . وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتى بموته ؛ لأن للقيامة مراحل بدءا من القبر ونهاية بالخلود فى الجنة أو فى النار .

وحين تسألهم الملائكة :

﴿ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختفوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ ﴾

(من الآية ١٠ سورة السجدة)

وهم ـ إذن ـ يقرون غياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن فى دار قهر لكل ما يريده الله ؛ ففى دار التكليف كان الإنسان حرًّا أن يفعل أو ألاّ يفعل ، ولكن فى الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذى يصيبهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ ﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿ كن ﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذى يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقى كله فى الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التى سبقت هو الذى قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التى سبقت كانت أسوة فى الضلال للأمة التى لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنوهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يغريه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان فى السجن ألا يلعن الأول الثانى ؟

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجتمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

فإن قلت الأخرى أى التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القدوة فى الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ ، أى أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا . ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ .

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاطبوا ؛ ولأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هؤلاء أضلونا ﴾ فهؤلاء ، هذه إشارة إليهم ، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون لربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

فقال الله لهم جميعاً : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت . ونفهم أن الضِّعْف معناه « شيء مساوٍ لمثله » ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثّرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتم الناس باتباعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتم أيضاً ، وأنتم لا تعلمون أن من يحاسبكم دقيق فى الحساب ، ويعطى كل إنسان حقه تماماً .

وماذا تقول أولاهم لأخراهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى ما دمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ومعلوم أن التذوق فى الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ . لا ، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، و الحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو فى الجسم حساسية الذوق كالتى فى اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذه هى الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد . (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعى فى التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنع ، وفى السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعى ، وهذا هو الخطر الذى يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والحق يريد أن يعطى حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليُعرف بجريمته ، وهى جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأنّ من يرتكبها يلقى حكماً وعقاباً . (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأى إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، هذا الانسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له من الجاه ولا السلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يكذب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له أبواب السماء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وبذلك نعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء .. إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) .

و « سم الخياط » هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لا تدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين نأتى بالجمل ونقول له : ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بعض الناس قالوا : وما علاقة الجمل بسم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضا على الحبل الغليظ المفتول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

ولـو أن مـا بـي مـن جـوى وصـبـابـة
عـلى جمـل لـم يـدخـل النـار كـافـر

لأن الجوى والصبابة التى يعانى منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل فى سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا : إن دخل الجمل فى سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة .

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هى الغطاء ، أى أن فرش هذا المهاد وغطاءه جهنم . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الزمر)

إذن الظلل والغواشى تغطى جهتين فى التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى : الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ، والغواشى تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .

وجهنم مأخوذة من الجهومة وهى الشىء المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتى بالمقابل ليشحن النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو فى مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك فى حدود وسع المكلَّف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال فى أهل النار :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فى الأولى قال : ـ سبحانه ـ (وكذلك نجزى المجرمين) .
وفى الثانية قال : (وكذلك نجزى الظالمين) .
فكان الإجرام كان سبباً فى ألاّ يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من فوقهم غواش ، ولهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التى تكرَّهنا فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وبسبب بشاعة جزائهم ثانيا ؛ أن نتلهف على المقابل . فقال سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » جاء بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضى ؛ لأن الأسلوب يقتضى إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت « لا نكلف نفساً إلا وسعها » بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع « والذين آمنوا » فهذا عمل قلبى ، ونسمع بعده « وعملوا الصالحات » وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أى بعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو ما يسهل دائما السلوك الإيمانى ويجعل مشاق التكاليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أنى قد كلفتكم فوق طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا ما فى الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولى: « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » هو رغبة فى إرهاق نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأننى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلَّف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد . وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف

الآلة الصماء فوق ما تطيق ، أيكلف الذى خلق البشر فوق ما يطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن علق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فاحكم بأن ذلك فى الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أنّ غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لا يشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لا يمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لا لصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ«افعل» و«لاتفعل» وسبحانه لايكلف الإنسان إلّا إذا كان قادراً على أن يؤدى مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، ولذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذى يضع نفسه فى موضع الشطط . فقال :

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾

(من الآية ٧ سورة الطلاق)

« قدر على رزقه » أى ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الطلاق)

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش فى حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوى دخلك ؛ لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك .

ولننظر إلى ما آتانا الله ؛ لذلك لا تدخل فى حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق ،

ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتانى الله ، لا ، عليك ألاّ تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت فى نطاق ما أحل الله يعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التى تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك ـ على سبيل المثال ـ وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما فى طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت فى الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفى ذلك لفت لقضايا الله فى كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغنى قد صار فقيراً ، فلا شىء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتى إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذى لا يتأبى على قدر الله فى رزقه وفى عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفى الجنة يُخلى الله أهلها من الأغيار .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله الحق: «ونزعنا ما فى صدورهم من غل» ينطبق - أيضا - على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم فى الدنيا ، واختلفوا ، هؤلاء يبعثون يوم القيامة وليس فى صدر أحدهم غل ولا حقد . ولذلك تجد سيدنا الإمام علياً - كرم الله وجهه - حين يقرأ هذه الآية يقول : «اللهم اجعلنى أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء» . لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف فى مسألة الخلافة ، وكل منهم صحابى ومبشر بالجنة ، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم فى دار الجزاء فى الآخرة ؛ لأن الله يقول : (ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ) .

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك فى أغيار الدنيا شىء من عمل القلب ، فأوضح سبحانه : إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم فى الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله ، وفى الآخرة لا اجتهاد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله فى الزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، أو لأن والدها له جاه أو غنى ، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغنى شيئاً من ماله فيقول : غشنى وزوجنى ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقى فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهها ، ونقول لمثل هذا الرجل : مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار .

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبحاً ، فلن يصحبه هذا القبح فى الآخرة ، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها فى الأبناء أو فى البنات ، بل فى الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة . فبيّن للرجل : إياك أن تتخيل أن المرأة التى غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة ستصاحبها فى الآخرة ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التى كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـٰرُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة : « تجرى تحتها الأنهار » ومرة يقول : « تجرى من تحتهم الأنهار » ، ونجد « مِن » فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر فى قصر ونجد الماء منساباً حوله وتحته يسر العيون ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء فى الدنيا سنسر به أضعاف ذلك فى الآخرة . وقد تجرى المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجرى من تحت جنانكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ؛ لأن كل شىء ممسوك لا بالأسباب كما فى الدنيا ، ولكن بـ« كن » التى هى لله . ولذلك يقول العباد فى جنة الآخرة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هى عبادة يقولها المؤمنون فى الآخرة ؛ لأنهم أدوا حق الله فى تكاليفه فى الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون فى الآخرة . ونعيم الآخرة لا قيد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما فى الجنة ؛ لأن الشىء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك . (وقالوا الحمد لله) .

وهذا الحمد لله كان فى الدنيا عبادة تكليف ، أمّا فى الآخرة فهو « عبادة غبطة وسرور وتلذذ . (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

يقولها المؤمن ؛ لأن الله لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصى لما وصل إلى الجنة . والهداية ـ كما قلنا ـ هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تضع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهجه المنزل على رسوله .

ومادامت الهداية من الله فسبحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه ينزل الرسل يتلون علينا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتى الحق فى الآية نفسها بقوله الحكيم :

﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

أنت فى الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فأنا أنصحك أن تمشى إلى المكان الفلانى واذهب إليه عن الطريق الفلانى ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته ونفذت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم .(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وكأن الحق يوضح لنا ونحن فى دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من منهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا ـ جزاهم الله خيراً ـ وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة
قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟
قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة[١] .

وأقول : ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم الذى بلغ عن الله سبحانه ، بل بينهما تأييد ؛ فالحق ساعة ما شرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة ، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه ، بل هو الذى يعطيه لنا فضلا منه ؛ فليس لأحد حق على الله ؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة على الله ، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير ، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالفضل من الله . وينبهنا القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لا تعارض بين نص حديثى ونص قرآنى . يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنّه يأخذ مكافأته على فعله ، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء الفعل فهى من الفضل ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

وسبحانه أيضاً هو القائل :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة ناضجة تقول : هذه « اللام » للملك . وتفيد أنه لا حق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله ، وأنّ هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق والمرضى ومسلم فى صفات المنافقين والترمذى فى الجنائز وأبو داود فى الجنائز ، والنسائى فى الجنائز ، وابن ماجه فى الزهد ، وأحمد فى مسنده ٦/١٢٥ .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئا زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن هذه الصلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهى صلاة على ميت مسلم ، وإسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

أى أن الآباء والأبناء يشتركون معاً فى الإيمان وفى العمل ، وقوله تعالى :

﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكل قد اشتركوا فى الإيمان ، وكان الآباء يتحرون الحلال فى إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناء جار له يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعيشون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة .

﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

و « أورثتموها » من « الإرث » وتدل على أن هناك شيئا آل إلى الغير . ونعلم أن الله ، علم أزلا كيف سيسلك كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه فى الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل

واحد من خلقه مكاناً فى النار على أساس أنه سيكفر .

إذن فقد أعدَّ سبحانه جناناً بعدد خلقه ، وأعدَّ أماكن فى الجحيم بعددهم ، فليست هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و ـ والعياذ بالله ـ إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق بفضل منه يمنحها المؤمنين .

إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام فى الجنة والجزاء وفى حمد التلذذ والسرور والغبطة وفى عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لنا الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا التراثى من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن بمنهج الله من عاداه وقهره وآذاه وهو فى النار فهذا من تمام اللذة . والآخر حين يرى مخالفه فى الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة . فهل ـ يا أهل النار ـ وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقى واحد ؛ فأهل الجنة يقولون : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » ، ولم يأت بالكاف فى كلمة ماوعد (الثانية) بل قال : « فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله . فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم فى الجنة فضلاً من الله ، وأهل النار فى النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله .

وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم) .

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدى الذى عاشوه واقعاً بعد أن كان وعيداً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين فى غير مشهد ، وهم فى الدنيا قبل أن يوجد المشهد كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم فى النار .

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأعراف)

أى فينادى مناد من الملائكة يُسمع أهلَ الجنَّة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

والذى يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أى ضلّ فى ذاته ثم أضل غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويذمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ لينصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عمّا شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يتراءون من خلاله ، وبيّنه الحق سبحانه فقال :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النارفيه العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم في أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتمسون الهدى في غير موطن الهدى ؛ فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب في نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله في الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به . وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس في مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

و « كُلّا » المعنيّ بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقدم عندنا فريقان ؛

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و « الأعراف » جمع « عُرف » مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه ، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم ، فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلًا لا ستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل فى منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه . وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة - أصحاب الأعراف - يقول للأعلى - أصحاب الجنة - سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم فى ميزان العدل الإلهى الذى لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

والقرآن يقول :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾

(سورة القارعة)

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين .. فريقا ثقلت موازينه ، وفريقا خفت موازينه ، ومنتهى المنطق فى القياس الموازينى أن يوجد فريق ثالث هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فيدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على « لجنة الرحمة » فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوها ، ولكنهم يطمعون فى أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

وبطبيعة الحال ليس فى هذا المكان غش ولا خداع .
وماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

انظر إلى التعبير القرآنى « صرفت أبصارهم » أى أنهم لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكأن فى « صرفت أبصارهم » لونا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء » أى جهة أصحاب النار يقولون : (رَبَّنَا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف : يارب جنبنا أن نكون معهم . إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعيذون به ألاّ يدخلهم معهم .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ



وكأن أصحاب الأعراف قد صُرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين ، فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق ومع الحق ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) .

وكأنهم يقولون لهم : إنّ اجتماعكم على الضلال فى الدنيا لم ينفعكم بشىء . . شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئاً ؟ لا . لم يغن عنكم شيئاً .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله ؟ هم إذن ـ أهل الأعراف ـ قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكأنهم نسوا موقفهم فى انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار ، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفصل فى هذه المسألة ، وهنا يدخل الحقُّ سبحانه أصحاب الأعراف جنته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأعراف)

وهؤلاء ـ كما قلنا ـ هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ وهم الطائفة التى جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، ولم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفيضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم فى الجنة ، فيقول أهل الجنة : نحن مربوطون الآن بـ « كن » ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أى شىء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . وحين يطلب أهل النار الماء ، فهم يطلبون أوليات الوجود ، فى نار أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هى اللعب ثم تأتى له مرحلة اللهو . ونعلم أن كل فعل تُوَجَّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن تُوجّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كى يحدد الغاية من الجهد . وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضُرّاً . وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، فهو لعب .

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له ؟ .لا ؛ لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لُعَبُهُ . والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة .

ولكن حين تُوَجِّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئا وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذى يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا .

ولذلك نجد النبى ﷺ يطلب من الأهل أن يدربّوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر فى زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقَب ؛ لأن الحَكم يرقب المباراة ، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأتساءل : لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهى الطاولة ويترك الشغل الذى ينتج له الرزق ، وليت هذا اللهو مقصورٌ على اللاهى ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهى ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذى كان يجب أن يُستغل فى طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتى من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن فاللهو طاقة معطلة . (اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتّهم الحياة الدنيا) .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتى من الأسباب التى خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذى يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأعراف)

فهل يعنى قوله عز وجل : « ننساهم » أنه يتركهم لما يفعلون ؟ . لا ، بل تأخذهم

جهنم لتشويهم ، ونسيانهم هنا هو أنه ـ سبحانه ـ لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلفح وجوههم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هي المكان الذى يعد فيه الإنسان مكانه فى الآخرة ، فإن أراد مكاناً فى عليين فعليه أن يؤدى التكليف الذى يعطيه مكانه فى عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدى العمل الأقل . كأن الإنسان بعمله هو الذى يحدد مكانه فى الآخرة ؛ لأن الحق لا يجازى الخلق استبدادا بهم و افتياتاً أو ظلماً ، ولكنه يجازى الإنسان حسب العمل ؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذى يُنزله لنا الحق قرآناً ينذرنا ويبشرنا هو دليل لكل مسلم حتى نتنافس على أن تكون مواقعنا فى الآخرة مواقع مشرفة .

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وحين يقول الحق سبحانه : « وما كانوا بآياتنا يجحدون » فالآيات إما آيات كونية :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وإما آيات قرآنية كقوله سبحانه :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وإما أن تكون آيات معجزات لإثبات النبوة كقوله سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

هم إذن جحدوا الآيات كلها ، وكان أول جحود هو جحود بالآيات الكونية التى

شاهدوها قبل أن يأتى التكليف ، فهم عاشوا الليل والنهار . وتنفسوا الهواء ، واستمتعوا بدفء الشمس ، وروى المطر أراضيهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطى الإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة ، وكان يجب أن تلفتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً هو الحق الأعلى . وحين جاء لهم الموكب الرسالى جحدوا آيات المعجزات التى تدل على صدق الرسل . وحين جاء القرآن معجزاً جحدوا الآيات التفصيلية التى تحمل المنهج . إذن فلا عذر لهم فى شىء من ذلك لأن الحق يقول :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أى لا عذر لهم فى شىء من هذا الجحود ؛ لأن الكتاب مفصل ، وقد يقولون: إن الكتاب طارىء علينا ، وكذلك الرسول الذى جاء به . إذن فما موقفهم من الآيات الكونية الثابتة ؟ لقد جحدوها أيضا . (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم) .

و« فصلناه » أى أنه سبحانه لم ينزل كلاما مجملاً أو مبهماً ، لا ، بل فيه تفصيل العليم الحكيم ، إنه فصّل أحكامه ومعانيه ومواعظه وقصصه حتى جاء قيما غير ذى عوج ، وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان .

إنه حينما يأتى إلينا من يستفتينا فى أى أمر ويحاول أن يلوى فى الكلام لنأتى له بفتوى تبرر له ما يفعله ، فنحن نقول له : ليس لدينا فتوى مفصلة ؛ لأن الفتاوى التى عندنا كلها جاهزة ، ولك أن تدخل بمسألتك فى أى فتوى .

﴿ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأعراف)

وهناك أناس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واهتدوا ، فلماذا اهتدى هؤلاء وضل هؤلاء ؟ لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا فى سورة البقرة :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فقد آمن بالقرآن من اهتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع ، وأيضاً هناك من لا يلمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك تجد الحق يرد عليهم بقوله سبحانه :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾

(من الآية ٤٤ سورة فصلت)

سبق أن ضربنا المثل بأن الفعل في بعض الحالات واحد ، لكن القابل للفعل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال : إذا كنت في الشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً ، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد، فتضم قبضتيك معاً وتنفخ فيهما ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة منك لتدفيء يديك . وكذلك حين يأتي لك كوب من الشاي الساخن جداً ، وتحب أن تشرب منه ، فأنت تنفخ فيه لتأتي له بالبرودة . والنفخة من فمك واحدة ؛ تأتي بحرارة ليديك ، وتأتي بالبرودة لكوب الشاي ، وهكذا فالفعل واحد لكن القابل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان عنده استعداد للإيمان فهو يهتدي به ، ومن لا يملك الاستعداد فقلبه غلف عن الإيمان .

وموقف هؤلاء العاجزين عن استقبال الرحمة موقف غير طبيعى ، وماذا ينتظرون بعد هذا الكفر ، وبعد الافتئات وبعد الاستكبار وبعد التأبى وبعد اتخاذ الدين لهواً ولعباً ، ماذا ينتظرون ؟

ها هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وما معنى التأويل ؟ . . التأويل هو ما يؤول إليه الشيء ، هو العاقبة التى يعدها الحق ، فالرحمة والجنة لمن آمن ، والنار لمن كفر ، والحق هو من يقول ويملك قوله لأن الكون كله بيده .

وهنا يقول سبحانه وتعالى : (هل ينظرون إلا تأويله) .

أي هل ينتظرون إلا المرجع الذى يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتى تأويل وغاية وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتى يوم القيامة ويتضح الحق ويظهر صدق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذا سيكون قولهم ؟ . . سيقولون ما أورده سبحانه على ألسنتهم : (يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) .

أى أنهم سيعلنون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا فى دار التكليف ، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك .

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

هم إذن يقرون بأن الرسل حملت المنهج الحق ويتساءلون عن الشفيع . ونعلم أن الشفيع لابد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن فى الدنيا نجد من يبحث لنفسه عمن يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيرا وعزيزا لديه ، أو يكون له كلمة وفضل عليه فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتى يوم القيامة بالشفاعة لهؤلاء ؟ . . لا أحد ، وسنجدهم يتخذون الشفعاء من الذين اتخذوهم أنداداً لله . وسيعلن هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ، ولو مكنهم الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ؛ ففى الدنيا كان هؤلاء مؤتمرين بأمر البشر وضلالاتهم . أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإرادة أحد ، حتى الجوارح لا تخضع لإرادة صاحبها ، بل هى خاضعة للحق الأعلى . وفى الآخرة لا مرادات لأحد .

وقد ضربنا من قبل المثل وقلنا : هب أن سرية فى جيش ما وعليها قائد صغير برتبة ضابط ، ومفروض فى جنود السرية أن ينفذوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الضابط الصغير أوامر خاطئة بما له من فرض إرادة عليهم فنفذوا ما أمروا به . ولحظة أن يعودوا ويحاسبهم القائد الأعلى فسيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الضابط المكلف بقيادتنا ، وكذلك ستأتى الجوارح فى الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم وجلودهم .

إذن فالأبعاض سترفع شكواها إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملك سواه ، ويومئذ سيقول المكذبون الصدق الذى لن ينفعهم .

﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

وسوف يبحثون عن شفاعة ، لكنهم لن يجدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم .

ولذلك نجد قوله الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وما ذنب المعبود ؟ . . إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن يشفى نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعطوه غير حقه . ولذلك نجد أن الأحجار التى عُبدت تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار ؛ لأن القائم فى الأسحار من الأغيار قد يختار أمراً غير هذا ، ولكنا كنا مقهورين على الطاعة ، وقد اتخذوا صمتنا علينا دليلاً .

إن الأحجار تعلن أنها لم تكن تملك قدرة رفض أن يعبدها أحد أو أن تبعده عنها وتعلن له غباءه .

والشاعر يقول :

قد تجنوا جهلا كما قد تجنوا ... على ابن مريم والحوارى
للمغالى جزاؤه والمغالى ... فيه تنجيه رحمة الغفار

وهكذا يأتيهم الحق واضحاً يوم القيامة .

إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا ، وهذا من الخيبة ؛ لأن مثل هذا الإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالغيب لا فى المشهد . وحتى ولو عادوا ، فلن يؤمنوا ! . والحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأنعام)

وكأنهم نسوا لحظة إقرارهم أنهم من الأغيار ، وأتى فيهم القول الفصل من الله .

﴿ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

لقد جاء لهم الخسران بعد أن غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله فى الدنيا ، إنهم

رفضوا عبادته ـ سبحانه ـ وعبدوا غيره أصناماً صارت وقوداً للنار التى سيصلونها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥٤)

هنا ربوبية ، وهنا ألوهية : « ربكم الله » ولا أحد يختلف فى مسألة الربوبية لأن الحق يقول على ألسنة الكافرين والمشركين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الزمر)

وكذلك إن سألتهم من خلقهم ؟ سيقولون : الله ، ولم يدّع أحد لنفسه مسألة الربوبية ، لأن الربوبية جاءت بنفع لهم ، لكن الألوهية دخلت بمنهج هو : « افعل ولا تفعل » ؛ لأن التكليف من الإله الرب ، والتكليف نعمة منه وهو لمصلحتكم أنتم ، فلا شىء فى التكليف يعود على الله . وفعلكم الحسن أو السيىء لن يعطى لله صفة لم تكن له ؛ لأن صفات الكمال أزلية ، وبصفات الكمال خلقكم أنتم ، إذن فأنتم لن تأتوا بصفة ما ، بل بصفات الكمال أوجدكم . وإن كنتم أنتم فى شك فى هذه الربوبية فربكم هو الله ـ ولله المثل الأعلى ـ منزه عن التشبيه ، كأن تقول الأم للولد : قال لك أبوك لا تسهر خارج المنزل ليلاً ، فيتأبى الولد . وتنبه الأم ولدها : إن أباك هو الذى يأتى لك بالأكل والشرب ، والملابس ويعطيك مصروف اليد .. إلخ .

وقد ضربت هذا المثل لأشرح كيف أن المُكَلِّفَ هو الرزّاق ولا أحد سواه يرزق ،

لذلك كان يجب أن تقبل تكاليفه لأنه سبق لك بالفضل بأن أعطى لك وسخر لك الدنيا .

ومن قبل فصل الحق سبحانه لنا خلق الإنسان ، ويفصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود الإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتى له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألتان ينشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لا يُقبل ؛ لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا ممن خلق الخلق ليقول لكم كيف خلق الخلق .

هو سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض ـ كما أوضحت ـ وهو الظرف الوجودى للإنسان الخليفة ، وطرأ الإنسان على هذا الكون بكل ما فيه من قوى ونواميس ، فكأن الله أعد الكون للخليفة قبل أن يُخلَق الخليفة ليجيء الخليفة فيجد كوناً مسخراً له ؛ ولا يستطيع أى كائن منه أن يخرج عن مراد الله فى شىء (إن ربكم الله الذى خلق) .

ومعنى « خلق » أى أوجد شيئاً كان معدوماً وبرأه على غير مثال سبقه . فربنا سبحانه قدر كل شىء بنظام دقيق غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة « الخلق » مادتها الفاعلة هى : خالق ، وسبحانه وتعالى يجمعها مع أنه الخالق الوحيد فيقول :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

إذن فهناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضا أشرك خالقاً غيره معه فقال

جل وعلا : (فتبارك الله أحسن الخالقين) . كيف ؟ ؛ لأن الخلق إيجاد شيء معدوم ، والذى صنع الميكرفون يقال خلقه ، والذى صنع الكوب يقال خلقه ، والذى صنع المصباح يقال خلقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأوجده . لكن الفارق أن الخالق من البشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتى بمادة جديدة ؛ فمن أخذ المواد الموجودة فى الكون وصمم منها المصباح وصهر الرمل وفرغ الهواء داخل الزجاج يقال له : خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود .

لكن الخالق هو خير الخالقين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجدون شيئا معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شيء ، وأيضاً فإنكم حين تخلقون أى صنعة تظل جامدة على هيئة صناعتها ، فمن صنع الكوب من الرمل المصهور يظل الكوب هكذا ، ولا نستطيع ـ كما سبق أن قلت قديماً ـ أن نأتى بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، ونضعهما معاً فى مكان ونقول لهما :أنجبا لنا أكواباً صغيرة .

لكن ما يخلقه ربنا يعطى له سر الحياة ويجعله بالقانون ينتج غيره وينمو ويكبر . إذن فهو أحسن الخالقين .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض . وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جاءت مجموعة . أما الأرض فجاء بها مفردة . لكنه جل وعلا قال فى آية أخرى :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الطلاق)

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ . . لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ ؛ لأن كلمة « أراضين » ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها ويسر نطقها .

والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، هذا معنى السماء فى اللغة . لكن هل السماء التى يريدها الله هى كل ما علاك ؟ . . إن النجم هو ما علاك ؛ وقد يقال : إن الشمس علتك ، والقمر علانا جميعاً . ونلفت الانتباه هنا ونقول للناس الذين أحبوا أن يجعلوا

السموات هى الكواكب إنها ليست دائما ما علانا ؛ فالشمس تعلو وقتا وتنخفض وقتاً آخر . وكذلك القمر .

إذن فالوصف منحسر عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أن يوصف أى منهما بأنه سماء دائما . وشىء آخر وهو أنهم حينما قالوا على الكواكب التى كانت معروفة بأنها كواكب سبعة وقالوا : إن هذه هى السماء ، إنهم بقولهم هذا قد وقعوا فى خطأ . وأوضح الحق لنا بالعلم أن للشمس توابع أخرى . فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هى السماء ، وبقيت السماء هى ما فوق هذا كله ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾

(سورة الصافات)

هذه ـ إذن ـ زينة للسماء الدنيا ، والسماء التى يقصدها ربنا ليست هى التى يقولون عليها ، بل السماء خلق آخر لا يمكن لأحد أن يصل إليه ، وكان الجن قديماً يقعدون منها مقاعد للسمع « فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا » . وحدث هذا بعد بعثته ﷺ والحق هو من قال لنا ذلك . ولم يوضح الحق لنا حقيقة هذه السماء ونظامها ، أى أن ربنا يريد لعقولنا أن تفهم هذا القدر فحسب ، وسبحانه خالق السماء التى فوقنا ، وهو جل وعلا خالق أراضين . وأين هى هذه الأراضين ؟ . . أهى أراضين مبعثرة ؟

ولقد أثبت العلم أن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية ، وكل مجموعة شمسية فيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ عديدة ، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التى هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء : إن فى هذا العالم العالى توجد أراضٍ ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولاً .

والحق هو القائل :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩ ﴾

(سورة الشورى)

ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هى كل ما علاك والأرض كل ما أقلك . ومادامت سبع سموات ، والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء ، وتأتى بعدها السماء الثانية تُظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى . ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التى نحن عليها مخلوقة لله . والحق يقول :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وقوله:« فى ستة أيام » هو ظرف للخلق . واليوم نعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لابد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية .

فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة سبأ)

أى هناك ليل وهناك يوم ، إذن فاليوم عند الحق غير اليوم عندنا ؛ لأننا نطلق اليوم على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم فى العرف الفلكى : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق : (سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين) .

يعنى أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد أن وجدت الشمس ؟ . . وإذا كانت الشمس هى التى تحدد لنا اليوم فكيف عُرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خُلقتا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن خلقه ، وخاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم . ألم تقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة مريم)

وليس فى الآخرة بكرة ولا عشى ، إذن سبحانه قد قدر البكرة وقدر العشى ، وكذلك

« فى ستة أيام » وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق : ستة أيام ، ولكن آية التفصيل للخلق ، جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام . اقرأ معى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾

(الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ومن الآية ١٢ سورة فصلت)

والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول : إنها ستة أيام ، ومن هذه النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا زوراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية . ونقول : إنه - سبحانه - خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تتمة أربعة أيام ويضم إليها خلق السموات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المفصل على المجمل ، فحين يقول الحق :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

فهل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد ؟ . . إن ربنا يخلق بـ « كن » ، ونحن البشر نعالج على حسب قدرتنا لنخلق شيئاً ، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمناً ، لكن من يخلق بكلمة « كن » فالأمر بالنسبة له هين جداً - سبحانه وتعالى - لكن لماذا جاء بخبر الخلق فى ستة أيام ؟

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشىء وبين تهيئته للميلاد . وكنا قد ضربنا المثل سابقا - ولله المثل الأعلى - بصانع الزبادى ، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافىء ، ثم يضع فى

كل منها جزءاً من خميرة الزبادى ، ويضع تلك الأكواب فى الجو المناسب . فهل يؤدى هذا الرجل عملاً لمدة أثنتى عشرة ساعة فى كل كوب ، وهى المدة اللازمة لتخمر الكوب ؟ . . طبعاً لا ، فقد اكتفى بأن وضع فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج .

ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى . ويأخذ الأمر تسعة شهور ، وسبحانه جل وعلا لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : « كن » وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام . وفى القرآن آية من الآيات أعطتنا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لا يعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر « كن » فكانت السموات والأرض . والآية التى بعدها فوراً تقول : (فاصبر على ما يقولون) .

وكأن قوله سبحانه هنا جاء لتسلية الرسول ﷺ موضحاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب فى أن نأخذهم أخذ عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام . ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إن ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

إذن كان ربنا هو القادر على أن ينجز خلق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر « بكن » وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكل ذلك ليعلمنا التأنى ، وألا نتعجل الأشياء ؟ لأنه وهو القادر على إبراز السموات والأرض فى لحظة ، خلقها فى ستة أيام ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة ق)

أى لا ترهق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

وهناك من يتساءل : كيف خلق الكون بما فيه من الرواسى والكائنات ؟ . . ونقول : إنه الإنجاز الذى أخبر به سبحانه مرة واحدة ، وانفعلت الكائنات للقدرة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع لقدرة الله ، فى كل جزئية من جزئيات الفعل ، وأخذ الأمر ستة أيام . واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

ولابد أن نعرف العرش ماهو . وسبحانه يقول فى ملكة سبأ :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النمل)

فالعرش إذن هو سرير الملك ؛ لأن الملك لا يجلس على العرش إلا بعد أن تستقر الأمور .

فكأن قوله : « استوى على العرش » كناية عن تمام الأمور ؛ وخلقها وانتهت المسألة . لكن العلماء حين جاءوا فى « استوى » ، اختلفوا فى فهمها ؛ لأن العرش لو كان كرسياً يجلس عليه الله ، لكان فى ذلك تحييز لله ووضعه وضمه فى جرم ما . وسبحانه منزه عن أن يحيزه شيء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معانى لكلمة « استوى » منهم من قال : إن معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استعلى وارتفع أمره ، ومنهم من قال : « صعد » أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة فصلت)

وكلها معانٍ متقاربة . وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات ؛ فقالوا : المقصود بـ « استوى » أنه استولى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا ندخل فى متاهات التشبيهات ، أو متاهات التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شىء منسوب إلى الله فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

فحين يقول سبحانه :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

ونحن نفهم أن لليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يخاطبنا بها سبحانه ، فالقول أن لله يداً فهذا دليل على قدرته . واستخدام الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة . والإنسان عليه أن يأخذ كل شىء منسوب إلى الله مما يوجد مثله فى البشر ، فى إطار « ليس كمثله شىء » ، فنقول : سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر . وله وجه ليس كوجه أحد من البشر . ولذلك حينما سئل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأله : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بنا فى متاهة التشبيه ومتاهة التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن معنى الاستواء ؟ . . لا ؛ لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلق شىء من معناها فى أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ . إنهم فهموها بفطرتهم التى فطرهم الله عليها فى إطار ما يليق بجلال الله وكماله .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ . . إن كان يعلم لأخبرنا بها ، وإن لم يخبرنا فقد أراد أن يكتمها . وإن لم يكن قد علم الأمر . . فهل تطلب لنفسك أن تعلم ما لم يعلمه ﷺ ؟

أو أنّه ﷺ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن فى إطار « ليس كمثله شىء » والذين

يمنعون التأويل يقولون : إياك أن تؤول اليد بالقدرة ؛ لأنه إن قال : إن له يداً ، فقل ليست كأيدينا فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ لأنه سبحانه له حياة ، وأنت لك حياة ، أحياته كحياتك ؟ . لا ، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك ؟ . . إذن لابد أن ندخل على كل صفة لله فننفى عنها التعطيل وننفى عنها التشبيه . ثم إن من يمنعون التأويل نقول لكل منهم : أنت ستضطر أخيراً إلى أن تؤول ؛ لأن الحق يقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومادام « كل شىء هالك إلا وجهه » فكل ما يطلق عليه شىء يهلك ، ويبقى وجهه سبحانه فقط ، فلو أنت قلت الوجه هو هذا الوجه ، فكأن يده تهلك ورجله تهلك وصدره يهلك ، وحاشا لله أن يحدث ذلك . وتكون قد دخلت فى متاهة ما لها من آخر . لذلك نقول : لنأخذ النص وندخله فى إطار « ليس كمثله شىء » . وآية الاستواء على العرش هذه ، مذكورة فى سور كثيرة ، وهى تحديداً فى « سبعة مواضع » ؛ فى سورة الأعراف التى نحن بصددها ، وسورة يونس ، وسورة الرعد ، وسورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة السجدة ، وسورة الحديد .

وهنا يقول الحق بعد الحديث عن الاستواء على العرش : (يغشى الليل النهار) .

الله ـ سبحانه ـ قد خلق السماء والأرض للخليفة فى الأرض وهيأ له فيها أصول الحياة الضرورية ودلّه على ما يحتاج إليه ، فماذا سيفعل هذا الخليفة ؟ . . لابد أن يقوم بكل مقومات الحياة ، وإذا ما عمل فسيبذل جهداً ، والجهد يقتضى راحة . ومن يشتغل ساعة لابد أن يرتاح ساعة ، وإن اشتغل ساعتين ولم يسترح ساعة غُلب على نفسه .

ونحن نرى فى الآلة التى تعمل ثلاث ورديات يومياً أى التى تعمل لمدة الأربع والعشرين ساعة دون توقف أنها تُستهلك أكثر من الآلة التى تعمل ورديتين ، والآلة التى تعمل وردية واحدة أى لمدة ثمانى ساعات يطول عمرها أكثر . وكل إنسان يحتاج إلى الراحة . فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن الليل والنهار متعاقبان من أجل هذا الهدف :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

أى لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا الفضل فى النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فلن تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة فى الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل . لذلك أوضح سبحانه لنا : أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً أى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا :

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

ويكون المعنى هنا أن النهار يغشى الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تتابع الليل والنهار لنستنبط منها الدليل على أن الأرض كرة .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

والليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، وفى مصر نكون فى نهار مثلا ، ويكون هذا الوقت فى بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذى كان خلفة للثانى ؟ فلن تجد ؛ لأن كلا الاثنين خلقا معاً . ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطيح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سيأتى أولاً ثم تطلع الشمس على السطح ليوجد النهار . والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خلفة للآخرة ، ولايمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة . كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليغشى النهار الجزء المواجه للشمس ، وليغشى الليل الجزء غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتى النهار خلفة لليل ، ويكون الليل خلفة للنهار .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

(يغشى الليل النهار) ويغشى النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة التى منها قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

أى أن الليل لا يسبق النهار وكذلك النهار لا يسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما خُلقا دفعة واحدة .

والحق يقول هنا : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) .

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ، ولذلك تجد النواميس الكونية التى لا دخل للإنسان فيها ولا لاختياراته دخل فى أمورها تسير بنظام دقيق ، ففى الوقت الفلانى ستأتى الأرض بين الشمس والقمر ، وفى الوقت الفلانى سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس كسوف ، وسيحدث للقمر خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد أن خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون لأحد ، بل ـ سبحانه ـ له الأمر بعد ذلك . وقيوميته باقية ؛ لأنه لم يزاول سلطانه فى ملكه ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فبأمره يُعطل النواميس أحياناً ، ولذلك شاء الحق أن تكون معجزات الأنبياء لتعطيل النواميس ؛ لنفهم أن الكون لا يسير بالطبع أو بالعلة . لذلك يقول : (ألا له الخلق والأمر) .

وإذا نظرت إلى كلمة « الأمر » تجد الحق يقول :

﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

والمقصود هو الأمر الكونى ، أمّا الأمور الاختيارية فلله فيها أمر يتمثل فى المنهج ،

وأنت لك فيها أمر إما أن تطيع وإما أن تعصى ، وأنت حر .

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وحين يقول سبحانه : « تبارك الله » وقال من قبل : « أحسن الخالقين » ، فكل لفظ له معنى ، ففى خلقه من البشر مواهب تَخْلق ولكن من موجود وأوضحنا ذلك .

وفى قول آخر يصف الحق نفسه :

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأنعام)

والناس تتعلم الحساب وخلقوا آلات حاسبة ، وهى آلات تتم « برمجتها » وإعدادها وتهيئتها للجمع والطرح والضرب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة . لكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة . لذلك فهو أسرع الحاسبين ؛ لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد بتعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل ينطبق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سئل علىّ كرم الله وجهه :

— أيحاسب الله خلقه فى وقت واحد ؟

قال : وما العجب فى ذلك ألم يرزقهم فى وقت واحد ؟

وانظر إلى القرآن تجد الحق « أسرع الحاسبين » و « أحسن الخالقين » ، و « أرحم الراحمين » و « خير الوارثين » . وهذه هى الألفاظ التى وردت ، ولله فيها مع خلقه صفة ، لكن صفة الله دائما فى إطار « ليس كمثله شىء » . (تبارك الله رب العالمين) .

و« تبارك الله » أى أنه ـ تعالى ـ تنزّه ؛ لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة ـ وهى قدرة الله ـ والانفعال للقدرة المطلقة بالإرادة وبـ « كن » وهذا هو الانفعال والانقياد وللإرادة والأمر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يعينه عليه . وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة . إذن فإن كنت تطغى أو تتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرض زائل ، والدعاء هو تضرع ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون . واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيمانى . وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتى له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو . ومن كان متكبراً وعنده صلف وغطرسة يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد تجرد من الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ويقول له : أستحلفك برسول الله أن تدعو لى لأنى فى أزمة والذى يسأل الغلبان الزاهد هو رجل عزيز فى قومه لكنه يظن أن الغلبان الزاهد أقرب إلى الله منه .

إذن الدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكى يستديم اليقين الإيمانى .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

وإياك أن تدعو وفى بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء ، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قُدر لها ، والدعاء هو إظهار للخشوع ، وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه منزه أن يكون موظفاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من يطلب بالدعاء أشياء ضارة .

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

والإنسان قد يتعلق قلبه بأمانى قد تضره ؛ لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً

لأمنيات قد تكون شراً عليك ، والحق العليم ينظم لنا أمورنا ، وإياك أيضاً أن تيأس حين لا تجاب دعوتك التى فى بالك ؛ لأن الله يحقق الخير لعباده . ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتى منها الشر ، ويترك الله لأقضيتك أموراً تبين لك هذا ، وتقول : إن الشيء الفلانى الذى كنت أتمناه تحقق وجاء شراً علىّ . مثال ذلك قد تحجز لطائرة لكنك لا تلحق بها فقد أقلعت قبل أن تصل إليها وحزنت لأن بعضاً من مصالحك قد فاتك ولم يتحقق وتفاجأ بأن هذه الطائرة سقطت فى البحر .

إذن ، اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير . واسمع قول الله :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فحين يقول الحق : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » فسبحانه يطلب منا أن ندعوه لأننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن تظل مقهوراً بصفة العجز عن الشيء اذكر أن لك رباً قويا مقتدراً ، وساعة تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان . وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل هماً للحياة ، فإذا كان الذى له أب لا يحمل هماً لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستحى ويعرف أن ربه سيوفر له الخير ؛ لذلك يوضح سبحانه : إذا أعجزتكم الأسباب فاذكروا أن لكم رباً . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا تظن أن حظك من الدعاء أن تجاب إلى ما طلبت ، بل ليكن حظك من الدعاء إظهار التذلل والخشوع لله ؛ فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اغتررت بنفسك . وقد سبق « قارون » إلى الغرور ، فماذا حدث له ؟ . . لقد هزمه الحق وأنزل به شرّ العقاب . وقد يجعل الحق من تأبّى الأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله ، لكن لفتتك لله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس لفتتك لله أن تظهر العجز أمامه والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن فى بالك حين تدعو .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

خُفية لها معنى وهو أن يكون الدعاء دعاءً مستوراً مختبئاً ، ولها معنى آخر وهو أن تكون من الخوف أى أدعو ربكم خوفاً من متعلقات صفات الجلال كالجبار والقهار أو خوفا من أن يردها الله عليك فلا يقبلها منك .

ادعوا ربكم تضرعاً بذلة وانكسار وخضوع خفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجعله عملك الوحيد لأن النبى صلى الله عليه وسلم علمنا حينما كان فى غزوة غزاها فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال :

(أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم)(١).

والدعاء إلى الله خُفية يبتعد بك عن الرياء وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك لأنه حين يوضح لك : ادعنى فى سرّك لأننى سميع عليم ؛ أعلم كل ما ظهر منك وما بطن ، ادع بالخضوع والخشوع والتذلل لتنكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة الغطرسة ، وشهوة الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :

— نعرف قوماً يقرأون القرآن فى محضرنا وما عرفنا لشفاههم حركة ، وعرفنا قوماً يستنبطون الأحكام من كلام الله وما رأينا منهم انفعالاً يصرفهم عناً . إذن فالمسألة تعبر عن شغل باطنى داخلى .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعدنا عن الرياء ويريد أن يستر علينا مطلوباتنا ؛ لأن الإنسان قد يطلب من الله سبحانه وتعالى ما يستحى أن يسمعه آخر .

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

ولو نظرت إلى هذه الآية لوجدت أن كثيراً من الناس يخالفونها مخالفات جماعية ؛ فى

---

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ورواه البخارى ، ومعنى : (اربعوا) ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم .

الليل مثلاً تجد من يصعدون على المآذن أو يصيحون فى مكبرات الصوت التى أغنتهم عن صعود المآذن ، ويكون الواحد من هؤلاء نائما طول النهار لأن رفع الأذان هو عمله ليس غير ، وبعد ذلك يظل يصرخ ويستغيث ويقول : « إن هذه ابتهالات » . بينما من الناس من هو نائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدى عمله نهاراً ، ولا أحد يطلب من هذا النائم إلا أنه إذا جاء الفجر يستيقظ ويؤدى الصلاة . فلماذا نقلق الناس بهذا ؟ إننا لابد أن ننبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله ، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح ؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤذى أحداً ؛ فسبحانه يقول : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ .

والتضرع والخُفية تقتضى ألا أقلق الناس ، أو أن أعلن الأمور التى أريدها لنفسى خاصة بصوت عال مثل من يأتى فى ختام الصلاة ويقول دعاءه بصوت عال وهو رافع يديه ، ولمثل هذا أقول : إن الله سبحانه وتعالى جعل لنا القنوت لندعو فيه ، وترك كل مسلم أن يدعو بما ينفعل له . وأنت حين تدعو فى ختام الصلاة قد يوجد مُصلٍ مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنتين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته ، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته . وتشغله بمنطوق من عندك وبكلام من عندك عن شىء واجب عليه . ومن يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية ، لكنه يسىء إلى عبادة آخر .

إذن فلا بد أن نتنبّه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مطلوبات ، هذه المطلوبات قد تخالفها النفس لغرض ترى أنه حسن ، لكن خذها فى إطار :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فلا بد أن نتنبه إلى مثل هذه المسائل ، وعلينا أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلى الصبح ويذهب إلى عمله ؛ لذلك لا داعى أن يفتح إنسان « الميكروفون » ويعلو صوته بالدعاء ، ومن يفعل ذلك يظن أنه يحرص على أمر مطلوب فيزعج النائم ، بل ويزعج من يصلى بالليل أو « يشوش » على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم . إن على من

يفعل ذلك أن يترك كل إنسان لانفعالاته ، وأن يكون ملك نفسه وملك اختياره .
ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً كهذه فيقول :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(الآية ٣ ومن الآية ٤ سورة مريم)

إذن كلمة « خفى » موجودة فى القرآن ، ولابد أن نتنبه إلى الدعاء الخفى .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

إذن إن لم يكن تضرعاً وخفية فهو اعتداء فى الدعاء ؛ لأنك مكلف والله هو المُكلِف ، وهو يقول لك : ادعونى تضرعاً وخفية . فإن فعلت غير هذا تكن معتدياً ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم معتدون فإما أن يكون الاعتداء فى أسلوب الطلب وإما أن يكون الاعتداء فى المطلوب .

لأن الحق حدد أسلوب الطلب فأوضح : ادعونى بخفاء ، فإن دعوت فى غير الخفاء تكن معتدياً على منهج الله . وكذلك قد يكون الاعتداء فى المطلوب فلا يصح مثلاً أن تقول : إننى أدعوك يارب أن تجعلنى نبياً . إن ذلك لا يصح وربنا سبحانه وتعالى علمنا فيما سرده عن نوح . فقال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ ﴾

(سورة هود)

وهنا نبه الحق نوحاً إلى الاعتداء فى المطلوب فقال الحق :

﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

ولذلك نجد نوحاً يستغفر لأنه سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف ذنبه استغفر الله وقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة هود)

وقال له الحق سبحانه :

﴿ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

إذن فالذى لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه فى الدعاء يكون معتدياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ ﴾

الأرض هى مكان الخليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصيلة لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كلٌ مسخر لك . ولا تحتاج إلى تكليف فيه ، فلا أنت تقول : « يا شمس أشرقى » أو « يا هواء هب » فكل ذلك مسخر لك . وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار ؛ لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الريح ، وأنت لن تستطيع إصلاح مالا يمكن أن تقترب من إفساده ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه . وإنما يأتى الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك ، ولم يتركنا الله أحراراً فيها ، بل حددها بمنهج يحمى حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآناً ،

والقرآن فيه منهج يحمى اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

وهنا يعود الحق مرة أخرى للحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء تضرعاً وخفية ، وهنا يوضح الحق سبيلاً ثانيا للدعاء : (وادعوه خوفاً وطمعاً) .
خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعا فى صفات غفرانه ورحمته ؛ لأن لله صفات جمال وصفات جلال ، وادعوه خوفاً من متعلقات صفات الجلال ، وطمعاً فى متعلقات صفات الجمال . أوخوفاً من أن تُرد وطمعاً فيما أنت ترجو .

﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

إذن من الذى يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحسن قربت منه الرحمة والزمام فى يد الإنسان ؛ لأن الله لا يفتئت ولا يستبد بأحد.فإن كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .
ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول :
(لا أملّ حتى تملّوا) .

(من حديث قدسى)

وأنت تدخل بيوت الله تصلى فى أى وقت ، وتقف فى أى مكان لتؤدى الصلاة ، إذن فاستحضارك أمام ربك فى يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها فى يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدى الله فى أى لحظة . وسبحانه يقول :
(ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة) .

(من حديث قدسى)

وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت وسآتى لك أنا ؛ لأن الجرى قد يتعبك لكنى لا يعترينى تعب ولا عى ولا عجز . وكأن الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه . إذن فالمسألة كلها فى يدك ، ويقول سبحانه :
(من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه) .
(من حديث قدسى)

وهكذا يؤكد لك سبحانه أن رحمته فى يدك أنت وقد أعطاها لك ، وعندما تسلسلها تجدها تفضلاً من الله ، ولكن فى يدك أنت . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات (الله) وهو واهب الوجود ، وله كل صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ؛ الرحمة لها متعلق ، والبعث له متعلق فمن أسمائه سبحانه « الباعث » ؛ وإياك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسبحاً لذاته العلية دائماً . وقد تقول : يارب أريد أن ترحمنى فى كذا ، وقد لا ينفذ لك ما طلبت ، لكن ذلك لا يجعلك تبتعد عن التسبيح للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو فى مصلحتك وخير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة « قريب » هذه ، وتساءل بعضهم عن سرّ عدم مجىء تاء التأنيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ يستوى فيها التذكير والتأنيث ، وما يقال للمذكر مثلما يقال للمؤنث ، فنقول : « رجل صبور » ، و « امرأة صبور » ، ولا نقول : صبورة ونقول : « رجل معطار » أى يكثر استخدام العطر ، و « امرأة معطار » أى تكثر استخدام العطر . ونقول : قريب مثلما نقول : قتيل بمعنى مقتول . فيقال : « رجل قتيل » و « امرأة قتيل » ، ولا يقال : « قتيلة » إلا إذا لم يذكر معها كلمة امرأة أومايدل على التأنيث ، لأن القتيل للذكر وللأنثى .

هذه هى ألفاظ صحيح اللغة . وقد صنعت اللغة ذلك بأسانيد ، فأنت حين تقول : « رجل صبور » أو « امرأة صبور » فالصبر يقتضى الجلد والعزم والشدة ؛ لذلك لا نقول : « امرأة صبورة » بل نأتى بالوصف المناسب للجَلَد والشدة . وإياك أن تضعفها بحكاية التأنيث ، وكذلك « رجل معطار » و « امرأة معطار » ، والرجل المعطار هو من تعرفه الناس من نفاذ رائحة عطره ، والمرأة مبنية على الستر . فإن تعطرت فهى قد تشبهت بالرجل ويقال لها : « امرأة معطار » ، وحين ننظر إلى كلمة « قريب » فهى من صيغة « فعيل » التى يستوى فيها المذكر والمؤنث ؛ بدليل أن الله قال :

﴿ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة التحريم)

والملائكة لفظها لفظ مؤنث ، ولم يقل الحق « ظهيرة » ، لأن « ظهير » يعنى مُعين ، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدل على القوة وهو « ظهير » . وكذلك قوله الحق :

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

و « قريب » بوزن « فعيل » بمعنى مفعول ، ولعل بعض الناس يفهم أن « قريب » بمعنى فاعل أى قارب . مثل رحيم وراحم . أى أن رحمة الله هى التى تقرُب من المحسنين ، والأمر ليس كذلك ، فإن الرحمة هى المقروبة ، والإحسان هو الذى يُقرِّبُ إليها فيكون فعيل هنا بمعنى مفعول الذى يستوى فيه المذكر والمؤنث ، أو يكون جاءت كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة لموصوف محذوف أى شىء قريب ، أو لأن تانيث الرحمة غير حقيقى ، أو أن الرحمة مصدر ، وحق المصدر التذكير .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وتصريف الرياح إهاجة للهواء فى الكون ، والإهاجة للهواء فى الكون تأتى منها فوائد كثيرة للغاية ، ونحن حين نجلس فى مكان مكتظ وممتلىء بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة : « لنهوى الغرفة قليلاً » . وإن لم يكف هواء النافذة نأت بمروحة لنأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير . إذن فإرسال الرياح ضرورة حتى

لا يظل الهواء راكداً . ويتلوث الجو بهذا الركود ، ولو أن كل إنسان سيستقر فى مكان مكتوم الهواء لامتلأ المكان بثانى أكسيد الكربون الخارج من تنفسه ، ثم لا يلبث أن يختنق ، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة فى كل شىء ، وهى أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمقومات الحياة من نَفَس وماء وطعام ، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذى نتنفسه ، وكذلك تكوين الماء . لأنه سبحانه القائل عن الرياح :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

والرياح هى التى تساعد فى تكوين الأمطار التى تنزل على الأرض فتروى التربة التى نحرثها ، وهكذا تكون الرياح بشرى فى ثلاثة أشياء : الشىء الأول تحريك طبقات الهواء وإلا لفسد الجو فى كل جماعة تستقر فى مكان ولاستنشقوا الهواء الفاسد . والعنصر الثانى لمقومات الحياة هو الماء ، لأن الرياح هى التى تحمل السحاب وتحركه وتنزل به مطراً على الأرض ونحرث نحن الأرض ونزرعها . وهو سبحانه قال : « بشرا » ، لأن هناك فرقا بين بشرى ، وبشراً ؛ فالبشرى مفرد ، وقد وردت فى قوله الحق :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة هود)

أى التبشير . لكن بشراً جمع بشير وهى كلمة مخففة ، والأصل فيها بُشُر . والحق يقول : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ .

وجمع البشير « بُشُر » مثل : « نذير » و « نُذُر » ، بضم الشين فسكنت تخفيفا ، فتنطق بُشْراً وبُشُراً . (بشراً بين يدى رحمته) .

هى بين يدى رحمته لأنها ستأتى لنا بالماء ، وهو الرحمة فى ذاته ، وبواسطته يعطينا رى الأرض ، ونحن نرتوى منه مباشرة أيضاً . ونلحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهى تأتى للخير ، أما حين يكون فيها شر فيأتى بكلمة « ريح » مفردة ، مثل قوله :

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحاقة)

فإذن عندما ترى كلمة « رياح » فاعلم أنها خير ، أما كلمة « ريح » فاعلم أنها شر لماذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً فى حجرة فيها فتحة نافذة يأتى منها الهواء ، ويتسلط التيار على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتى من مكان واحد ، لكن حين تجلس فى الخلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعبّ ؛ لأن الرياح متعددة . ولكن الريح تأتى كالصاروخ .

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدى رحمته ؛ حتى إذا أقلت أى حملت يقال : « أقل فلان الحمل » أى رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهده ، أقلت أى حملت ، وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته ، وإذا كان الجهد أقل من الذى حملته لابد أن ينزل إلى الأرض . وأقلت سحاباً أى حملت سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر ؛ ونرى ذلك فى الماء المقطر الذى يصنعونه فى الصيدلية ؛ فيأتى الصيدلى بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلى الماء فيخرج البخار ليسير فى الأنابيب التى تمر فى تيار بارد فيتكثف البخار ليصير ماء . (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت) .

وقال الحق : « سقناه » بضمير المذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب فى اسم جنسه ، أو نظر إلى لفظه ، وجاء بالوصف مجموعاً فقال : « ثقالا » نظراً إلى أن السحاب جمع سحابة فرق بينه وبين واحدة بالتاء ، وما دامت السحب كلها داخلة فى السّوق فليس لها تعددات فكأنها شىء واحد .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثر من مكان . لكن الحق سبحانه وتعالى يقول : (سقناه لبلد ميت) .

والميت هو الذى لا حراك فيه وانتهى اختياره فى الحركة ، كذلك الأرض ، فالماء

ينزل من السماء على الأرض وهي هامدة ليس بها حركة حياة أي أن الله يرسل السحاب ويزجيه إلى البلد الميت في أي مكان من الأرض .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

إذن فالأرض التي لا يأتيها الماء تظل هامدة أي ليس بها حركة حياة مثل الميت .

﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا وينبهنا إلى القضية اليومية التي نراها دائما في صور شتى ، وهي أن الأرض تكون في بعض الأحيان جدباً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل ، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل في اليوم الثالث وهو مخضر ، فمن الذي بذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه . وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة في الأرض فيها مقومات الحياة .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

فالماء الذي ينزل على الأرض الميتة يحيي الأرض ؛ لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، وحين يوضح لنا سبحانه أنه سيبعثنا من جديد فليس في هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله القضية الكونية مرئية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ؛ لأنها أمر حسيّ مشاهد ، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى

خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إذن الآية السابقة عالجت قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة ؛ فالرياح التى تحمل السحاب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع . والأرض كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية ، ويأتى فى هذه الآية بقضية دينية أيضا : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ .

والبلد الطيب هو البلد الخصب الذى لا يحتاج إلا إلى المياه فيخرج منه الزرع ، أما الذى خبث ، فمهما نزل عليه الماء فلن يخرج نباته إلاّ بعد عناء ومشقة وهو مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يخدم الحق قضية دينية مثلما خدم القضية الدينية فى البعث أولاً . وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[1]

إذن فالمنهج ينزل إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسمع فينفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فينفع غيره مثل الأرض الخصبة شربت الماء وقبلته ، وأنبتت الزرع ، وقسم يحملون المنهج ويبلغونه للناس ولا يعملون به وينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

صحيح سينتفع الناس من المنهج ، ولذلك قال الشاعر :

خذ بعلمى ولا تركن إلى عملى   واجن الثمار وخل العود للنار

ويقول صلى الله عليه وسلم : (من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة)[1] .

فستر المؤمن على المؤمن مطلوب وستر المؤمن على العالم آكد وأشدّ طلبا ؛ لأن العالم غير معصوم وله فلتات ، وساعة ترى زلته وسقطته لاتُذِعْها لأن الناس سينتفعون بعلمه . فلا تشككهم فيه ، والقسم الثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسقيه لغيره أى الذى لا ينتفع هو ، ولا ينفع غيره .

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(الآية ٥٨ سورة الأعراف)

إذن منهج الله مثله مثل المطر تماماً ؛ فالمطر ينزل على الأرض ليرويها وتخرج النبات وهناك أرض أخرى لا تنتفع منه ولكنها تمسكه فينتفع غيره ، وهناك من لا ينتفع ولا ينفع ، فكذلك العلم الذى ينزله الله على لسان رسوله . (والذى خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات) .

قلنا من قبل : إن الآيات تطلق على معانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى نراها واقعة فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وآيات هى آيات القرآن ، والآيات التى تكون هى المعجزات للأنبياء .

﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأعراف)

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

الآيات هنا هي الكونية كالماء الذي ينزل ، إنه مثل المنهج . من أخذ به فاز ونجا ، ومن تركه ضل وغوى وكل آيات الله تقتضي أن نشكر الله عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن العاصين في الدنيا ، وتكلم عن مواقف الآخرة الجزائية في أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والأعراف أراد أن يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه لأهل الأرض لابد أن تلقى عنتاً وتضييقاً ، وتلقى إعراضاً ، وتلقى إيذاء ، إنه ـ سبحانه ـ يريد بذلك أن يعطي المناعة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فيوضح له : لست أنت بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل بالاضطهاد ، وقوبل بالتكذيب ، وقوبل بالنكران ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كل رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدوداً ، ومكاناً محصوراً فأنت يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهاً لمصاعب تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت في قمة الرسل ، وستكون الإيذاءات التي تنالك وتصيبك قمة في الإيذاء ، فلست بدعاً من الرسل ، فوطّن نفسك على ذلك . وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتمال في الله ، وقص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قص القصص بقوله :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكأن القصص تثبيت لفؤاده صلى الله عليه وسلم ، فكلما أهاجه نكران ، أو كلما أهاجه جحود ، قص عليه الحق ـ سبحانه ـ قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ليثبت به فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شيء ويوطنون أنفسهم

على هذا العنت ؛ فلم يقل الحق لأتباع محمد : إنكم مقبلون على أمر والأرض مفروشة لكم بالورود ، لا . إنما هى متاعب لتجابهوا شر الشيطان فى الأرض . والقصص له أكثر من هدى يثبت به فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ويبين له أنه ليس بدعاً من الرسل ، ويقوى نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجمع وولىّ الدبر ، وأنهم منصورون دائما فهذا يقوى يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين مثلما قال الحق عن واحد من أكابر قريش . (سنسمه على الخرطوم) .

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون حينئذ أن يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمن يحميه ، وينزل قوله الحق بعد ذلك فى الوليد بن المغيرة « سنسمه على الخرطوم » ، والوليد بن المغيرة سيد فى قومه ، ويأتى يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فمن ـ إذن ـ يحدد ضربة قتال بسيف فى يد مقاتل قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

وأيضا فقصص الرسل إنما جىء بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ؛ لأنه رسول أمىّ ؛ والأمة أمية ، ولم يدّع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتاباً ، فمن أين جاءته هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى فى الآيات التى يأتى فيها : « ما كنت » مثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ومثل قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته .

وقصة سيدنا نوح من القصص التى وردت كثيراً فى القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر فى بعض السور ، لكن السورة التى سميت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التى تعتبر من عيون القصة ، إنها تعالج لقطات أخرى ؛ تعالج إلحاحه فى دعوة قومه ، وأنه ما قصّر فى دعوتهم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب فى سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها فى سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح فى سورة « نوح » وقد خلت من عناصر مهمة فى القصة ، وجاءت هذه العناصر فى سورة « هود » أو فى سورة « الأعراف » التى نتناولها الآن بالخواطر الإيمانية .

إذن ، كل قصة من القصص القرآنى تجدها قد جاءت تخدم فكرة ، ومجموعها يعطى كل القصة ؛ لأن الحق حين يورد القصص فهو يأتى بلقطة فى سورة لتخدم موقفاً ، ولقطة أخرى تخدم موقفاً آخر وهكذا . وحين شاء أن يرسل لنا قصة محبوكة تماماً ، جاء بقصة « يوسف » فى سورة يوسف ولم يكررها فى القرآن ، لأنها مستوفية فى سورة يوسف ، اللهم إلا فى آية واحدة :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة غافر)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد وردت فى سورة يوسف حياة يوسف منذ أن كان طفلا حتى أصبح عزيز مصر ، وهكذا نرى أن الحق حين يشاء أن يأتى بالقصة كتاريخ يأتى بها محبوكة ، وحين يريد أن يلفتنا إلى أمور فيها مواقف وعظات ، يوزع لقطات القصة على مواقع متعددة تتناسب وتتوافق مع تلك المواقع لتأكيد وخدمة هدف .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وساعة ترى « اللام » و « قد » فاعرف أن هذا قسم ، وكأن الحق يقول : وعزتى وجلالى لقد أرسلت نوحاً . وهو بهذا يؤكد المقسم عليه .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ؛ لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ؛ تسمع من أبيها أو من أخيها أو من زوجها ، ولذلك قالت النساء للنبى : غلبنا عليك الرجال .

أى أننا لا نجد وسيلة لنقعد معك ونسألك ، فاجعل لنا يوماً من أيامك تعظنا فيه ، فجعل لهن يوماً ؛ لأن المفروض أن تكون المرأة فى ستر ، وبعد ذلك ينقل لها الزوج المنهج . إن سمع من الرسول شيئاً ، وكذلك الأب يقول لابنته ، والأخ يقول لأخته .

فإذا تكلم الرسول يقال : إن الرسول واجه القوم ، من قولهم هو قائم على كذا . وقيم على كذا . ولذلك الشاعر العربى يقول :

وما أدرى ولست أخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

وجاء هنا بالقوم ، والمراد بهم الرجال ، والقرآن يقول :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن فالنساء لا تدخل فى القوم ؛ فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتى المتاعب والتصلب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم .

وسيدنا نوح عليه السلام دعا قومه ونبههم إلى ثلاثة أشياء : عبادة الله ، فقال : « ياقوم اعبدوا الله » ، وبين لهم أنه ليس هناك إله سواه فقال : « مالكم من إله غيره » ، وأظهر لهم حرصه وإشفاقه عليهم إذا خالفوا وعصوا فقال : « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

وهكذا تكلم عن العقيدة فى الإله الواحد المستحق للعبادة ، وليس آلهة متعددة ، ونعبده أى نطيع أمره ونهيه ، ولأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهو يخاف عليهم من عذاب يوم عظيم ، وهو عذاب يوم القيامة . أو أنّ الله كان قد أوحى له بأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وعذاب يوم عظيم أى يوم الإغراق ، و« الخوف » مسألة تتعب تفكير من يستقبلها ويخاف أن يلقاها . فمن الذى يفزع بهذا ؟

إن الذى يفزع هم الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان ووجوه القوم ، وكانوا قد جعلوا من أنفسهم سادة ، أما سائر الناس وعامتهم فهم العبيد والمستضعفون . والذى يهاج بهذه الدعوة هم السادة لأنه ليس هناك إلا إله واحد ، والأمر لواحد والنهى لواحد والعبادة والخضوع لواحد ، ومن هنا فسوف تذهب عنهم سلطتهم الزمنية ، لذلك يوضح الحق لنا موقف هؤلاء من الدعوة حين يقول :

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ ٦٠

والملأ هم سادة القوم وأعيانهم وأشرافهم ، أو الذين « يملأون » العين هيئة ويملأون القلوب هيبة ، ويملأون صدور المجالس بنية .

إنهم خائفون أن تكون دعوة نوح هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وكلامه هو الهداية ؛ فيمنّوا أنفسهم بأن هذا ضلال وخروج عن المنهج الحق : (إنا لنراك فى ضلال مبين) .

أى غيبة عن الحق ، أو فى تيه عن الحق ، و « مبين » أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ويرد نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

هم قالوا له : « إنا لنراك فى ضلال مبين » ، المتبادر أن يكون الرد : ليس فى أمرى ضلال ، لكنه قال هنا : « ليس بى ضلالة » ، أقول ذلك لنعرف أن كل حرف فى القرآن موزون لموضعه . هم قالوا له : إنا لنراك فى ضلال ، فيرد عليهم : ليس بى ضلالة ؛ لأن الضلال جنس يشمل الضلالات الكثيرة ، وقوله يؤكد أنه ليس عنده ضلالة واحدة . وعادة نفى الأقل يلزم منه نفى الأكثر ، مثلاً عندما يقول لك صديق : عندك تمر من المدينة المنورة ؟ تقول له : ليس عندى ولا تمرة واحدة . أنت بذلك نفيت الأقل ، وهذا أيضاً نفى للأكثر . (قال يا قوم ليس بى ضلالة) .

وحين ينفى نوح عن نفسه وجود أدنى ضلالة فذلك لأنه يعرف أنه لم يأت من عنده بذلك ، ولو كان الأمر كذلك لاتهم نفسه بأن هواه قد غلبه ، لكنه مرسل من عند إله حق .

﴿ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

وقوله : « ولكنى » استدراك فلا تقولوا : أنا فى ضلال ؛ فليس فىّ ضلالة واحدة ، لكن أنا رسول يبلغ عن الله ، والله لا يعطى غير الهدى .

(رسول من رب العالمين) أى من سيد العالمين ومن متولى تربية العالمين ، ومن يتولى التربية لا يُنزل منهجاً يضل به من يربيهم ، بل ينزل منهجاً ليصلح من يربيهم ، وسبحانه قبل أن يأتى بهم إلى الوجود سخر لهم كل هذا الكون ، وأمدهم بالأرزاق حتى الكافرين منهم ، ومن يعمل كل ذلك لن يرسل لهم من يضلهم .

ويستمر البلاغ من نوح عليه السلام لقومه فيقول :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ؛ فيقال : بلغت المكان الفلانى . . أى انتهيت إليه . و« البلاغة » هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة ، و« أبلغكم » أى أنهى إليكم ما حملنيه الحق من منهج هداية لحركة حياتكم . (أبلغكم رسالات ربى) .

وكان يكفى أن يقول : « رسالة ربى » إلا أنّه قال : (رسالات ربى) لأن أى رسول يأتى بالمنهج الثابت كما جاءت به الرسالات السابقة حتى لا يقول أحد : إنه جاء ليناقض ما جاء به الرسل السابقون ، فما قاله وجاء به أى رسول سابق يقوله ، ونعلم أنه كانت هناك صحف لشيت ولإدريس . فقال : إنه يبلغ رسالته المتضمنة للرسالات السابقة سواء رسالة إدريس وهو اخنوخ ، وكذلك شيت وغيره من الرسل .

أى أبلغكم كل ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة ، مثلما قال سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وهو الأمور المستقرة الثابتة العقدية ، والأحكام التى لا تتغير . أو « رسالات ربى » ، لأنه كرسول يتلقى كل يوم قسطاً من الرسالة ؛ فاليوم جاءت له رسالة يبلغها ، وغداً تأتى له رسالة يبلغها ، ولو قال : « الرسالة » لكان عليه أن ينتظر حتى تكتمل البلاغات من الله له ثم يقولها ، ولكنْ نوح كان يبلغ كل رسالة تأتيه فى وقت إبلاغه بها ؛ لذلك فهى « رسالات » . أو لأن موضوع الرسالات أمر متشعب تشعباً يماثل ما تحتاج إليه الحياة من مصالح ؛ فهناك رسالة للأوامر ، ورسالة للنواهى ، ورسالة للوعظ ، ورسالة للزجر ،

ورسالة للتبشير ، ورسالة للإنذار ، ورسالة للقصص ، وهكذا تكون رسالات .

أو أن كل نجم ـ أى جزء من القرآن وقسط منه ـ يعتبر رسالة ، فما يرسله الله فى يوم هو رسالة للنبى ، وغداً له رسالة أخرى وهكذا .

وقوله: « أنصح لكم » لأن البلاغ يقتضى أن يقول لهم منهج الله ، ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأن يرقق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادىء وينصحهم ، والنصح أمر خارج عن بلاغ الرسالة .

ولنلتفت إلى فهم العبارة القرآنية . (وأنصح لكم) .

والنصح أن توضح للإنسان المصلحة فى العمل ، وتجرد نيتك مما يشوهه . وهل أنت تنصح آخر بأمر يعود نفعه عليك ؟ إنك إن فعلت ذلك تكون النصيحة متهمة ، وإن نصحته بأمر يعود عليه وعليك فهذه نصيحة لك وله ، ولكن حينما تقول : « نصحت لك » أى أن النصيحة ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح من تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحته » و « نصحت لك » .

﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

وكأن سيدنا نوحاً يخاطب قومه : إياكم أن تظنوا أن ما أقوله لكم الآن هو كل العلم من الله ، ولا كل علم الله ، ولا كل ما علمنى الله ، بل أنا عندى مسائل أخرى سوف أقولها لكم إن اتقيتم الله وامتلكتم الاستعداد الإيمانى ، وهنا ساعطيكم منها جرعات . أو قوله : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » يعنى أنه سيحدث لكم أمر فى الدنيا لم يحصل للأمم السابقة عليكم وهو أن من يُكذب الرسول يأخذه الله بذنبه . وتلك التجربة لم تحدث مع قوم شيت أو إدريس .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

ولم يحدث مثل هذا العقاب قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يُكَذِّبَ سيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

أو « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، أي أن الله أعلمني لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمني أن لكل إخبار بالخير ميلاداً وميعاداً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« أوَعجبتم » وكان من الممكن أن يقول :« أعجبتم » ، لكن ساعة أن يجيء بهمزة الاستفهام ويأتى بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة ؛ أى أنه يقول : أكذَّبْتُم بى ، وعجبتم من أن الله أرسل على لسانى « ذكر من ربكم » . والذكر ضد النسيان ، وأن الشىء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويجرى على اللسان .

وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعانى وقمتها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن :

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكذلك فى قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن يطلق الذِّكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الزخرف)

أى أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى فى القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن « العربى » ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبطا بالقرآن ، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفا جديدا .

أى إن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الأنبياء)

أى فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم ، ويأتى الإسلام الذى ينسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلهم سواسية كأسنان المشط .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) .

وسيظل القرآن عربياً ، وهو معجزة فى لغة العرب ، وبه ستظل كلمة العرب موجودة فى هذه الدنيا . إذن فشرف القوم يجىء من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾

(سورة ص)

أى أن شرفه دائم أبداً . حين يأتى إلى الدنيا سبق علمى ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق العلمى فى القرآن ، ونجد غير المسلمين يعتنون بالقرآن ويطبعونه فى صفحة واحدة ، وعلى ورق فاخر قد لا يستعملونه فى كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن بعض المسلمين ينحرفون قليلاً عن المنهج ، وقد يتناساه بعضهم ، لكن فى

مسألة القرآن نجد الكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد تجد امرأة كاشفة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد تجد من لا يصلى ويركب سيارة يضع فيها المصحف ، وكل هذا ذكر . وتجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، ومجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرفنا أن « الذكر » قد ورد أولا بمعنى القرآن ، وورد باسم الصيت والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ ﴾

(سورة الأنبياء)

أى أن كل ما نزل على الرسل ذكر .
ويقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾

(سورة الأنبياء)

إذن فالمراد بالذكر ـ أيضاً ـ كل ما نزل على الرسل من منهج الله .
ومرة يُطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار . والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

(من الآيتين ٩٠ ، ٩١ سورة المائدة)

والمراد هنا بالذكر : الاعتبار والتذكر وأن تعيش كمسلم فى منهج الله . ومرة يراد بالذكر : التسبيح ، والتحميد . انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ ﴾

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾

(الآية ٣٦ ومن الآية ٣٧ سورة النور)

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالغدو والآصال وهم رجال موصوفون بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويراد منه خير الله على عباده ويراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ؛ فسبحانه يذكرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة . اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

وفي آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة العنكبوت)

ومادام قد قال جل وعلا : « ولذكر الله أكبر » أي ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فذكره فضل وإحسان وهو الكبير المتعال . فهناك إذن ذكر ثانٍ ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة ، وهنا يقول الحق :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ما وجه العجب هنا ؟ نعلم أن العجب هو إظهار الدهشة وانفعال النفس من حصول شيء على غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة ونتساءل كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثت تلك الدهشة وذلك العجب .

وعجبتم لماذا ؟ اقرأ - إذن - قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾

(الآية ١ ومن الآية ٢ سورة ق)

موضع العجب هنا أن جاء لهم منذر ورسول من جنسهم ؛ فمن أى جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من غبائهم أنهم أرادوا الرسول مَلَكاً .

﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة ق)

وجاء العجب أيضاً فى البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبنا وغبنا فى الأرض وصرنا تراباً بعد الموت يجمعنا البعث مرة ثانية ؟!

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات .

العجب عندهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لأن نوحاً عليه السلام يريد منهم أن يبحثوا فى الإيمان بوجود إله . وكان المنطق يقتضى أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون منسقاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإنسان عمن خلق هذا الكون وأن يلحّ فى أن يعرف مَن صنع الكون ، وحين يأتى الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟!

كان القياس أن تتلهفوا على من يخبركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان فى خدمتك أيها الإنسان . لا بقوتك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارىء على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وقلت قديماً : هب أن إنساناً وقعت به طائرة فى مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شىء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وقهره التعب ، فنام ، ثم أفاق من هذه الإغفاءة ؛ وفوجىء بمائدة أمامه عليها أطايب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً فى المكان ، بالله قبل أن يأكل ألا يتساءل عمن أحضرها ؟!! كان الواجب يقتضى ذلك .

إذن أنتم تتعجبون من شىء تقتضى الفطرة أن نبحث عنه ، وأن نؤمن به وهو الإله

الذى لا ينتفع بطاعتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشيء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتعقل وتمنع من المعاصى والمحرمات ، ولكن يُقابِل ذلك الثوابُ فى الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون متاعب التكليف ؟ مادام لا يستفيد . إنّ العقل كاف ليدلنا ـ دون منهج ـ إلى ما هو حسن فنفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذى لا نعرفه أهو حسن أم سيىء . ونضطر له نفعله ، وإن لم نكن فى حاجة له لا نفعله .

ونقول لهذا القائل : لكن من الذى أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إلى الأمر الحسن ، هل حسّن لك وحدك أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك فى الكون . ولنفترض أن هناك قطعة قماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها . لكن الحُسْن الحقيقى أن يفصل فى مسألة ملكية هذه القطعة من القماش مَن يعدل بينك وبين غيرك دون هوى . وألاّ يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لابد أن يوجد إله يعصمنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيىء ؛ لأن الحسن بالمنطق البشرى ستصطدم فيها أهواؤنا .

ومثال آخر : افرض أننا دخلنا مدينة ما ، ورأينا مسكنا جميلا فاخرا وكل منا يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ؛ لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير . فالحسن عند بعض الرجال إذا ما رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبيها أو زوجها ؟ . لا .

إنّ الذى تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطبيعى الفطرى الذى تستلزمه المقدمات . فقد جاءكم البلاغ على لسان رجل منكم . ولماذا لم يقل الحق : لسان رجل ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة آل عمران)

كأنه يقول لهم : إن الوعد الذى وعده الحق لكم قد جاء لكم بالمنهج الذى نزل على الرسل . ومهمة الرسل صعبة ؛ فليست مقصورة على التبليغ باللسان لأن مشقاتها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليدلله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم ـ كما تعلمون ـ لم يشبع من خبز شعير قط ، وأولاده وأهله ـ على سبيل المثال ـ لا يأخذون من الزكاة ، والرسل لا تورث فجميع ماتركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة على الرسول ، وهذه هى الفائدة فى أنه لم يقل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما « على رجل منكم » تعطى البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأعراف)

ماهو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردوا الألوهية والنبوة .

وبعضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة النبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ؛ لأن الملائكة لم تعص ولها هيبة ولا يُعرف عنها الكذب . لكن كيف يصبح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضى المواجهة ، ولابد أن يراه القوم ويكلموه ، والملك أنت لن تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل بهيئة رجل . إذن أنتم تستعجبون من شىء كان المنطق يقتضى ألّا يكون .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقولهم هذا فى قمة الغباء . فقد كان عليهم أن يتهافتوا ويقبلوا على الإيمان ؛ لأن الرسول منهم . وقد عرفوا ماضيه من قبل ، وكذلك أنسوا به ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً لخزى واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . ومادام هو منكم وتعرفون تاريخه وسلوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن تقولوا لأنفسكم : إنه لم يكذب فى أمور الدنيا فكيف يكذب فى أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلابد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهنا فى الآية التى نحن بصددها يقول الحق : ﴿ على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ .

إذن فمهمته أن ينذر ، والإنذار لقصد التقوى ، والتقوى غايتها الرحمة ، وبذلك نجد هنا مراحل : الإنذار وهو إخبار بما يسوؤك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف عنه لأنه سيتعبك ويضايقك . والبشارة ضد الإنذار ، لأنها تخبر بشىء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يجند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم . وأن يبتعد عن الشىء المخيف . وهكذا يكون التبشير والإنذار لتتقى الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان فى التقوى التى تؤدى إلى الرحمة .

إذن فمواطن تعجبهم من أن يجيئهم رسول مردودة ؛ لأن مواطن التعجب هذه كان يجب أن يُلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس إليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول منكم ولم يأت مَلَكاً ليكون قدوة . وكذلك لم يرسله الله من أهل الجاه ومن الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لا يقال إن الرسالة قد انتشرت بقهر العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين على الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، فمخافة أن يقال : إن كل تشريع من الله آزره المبطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدى الذين ليس لهم أتباع ولا هم من أصحاب الجاه والسلطان . ولقد تمنى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولقد كان تمنيهم ان ينزل القرآن على رجل عظيم بمعاييرهم ، وهذه شهادة منهم بأن القرآن فى ذاته منهج ومعجزة . ولم يتساءلوا : وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذى يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وهذه هى العظمة ؛ لأن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا من الذين يفرض عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم وبقوتهم ، ويفرضوا الدين

بقوة سلطانهم ، لا ، بل يمر على أتباع رسول الله فترة وهم ضعاف مضطهدون ، ويؤذون ويهاجرون ، فالمهمة فى البلاغ عن الله تأتى لينذر الرسول ، ويتقى الأتباع لتنالهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتقوى جاءت نتيجة الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإنجاء ، ونعلم المقدمة الطويلة التى سبقت إعداد سيدنا نوح عليه السلام للرسالة ، فقد أراد له الله أن يتعلم النجارة ، وأن يصنع السفينة .

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة هود)

ولم يجىء الحق هنا بسيرة الطوفان التى قال فيها فى موضع آخر من القرآن :

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾

(الآية ١١ سورة القمر)

وجاء الحق هنا بالنتيجة وهى أنهم كذبوه .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

وكانت هذه أول حدث عقابى فى تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح عليه السلام هى أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، وكان الرسل السابقون لنوح عليهم البلاغ فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا فى حرب أو صراع ، والسماء هى التى

تؤدب ، فحينما علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستبلغ الإنسانية رشدها صار أتباع محمد مأمونين على أن يؤدبوا الكافرين .

وفى تكذيب نوح عليه السلام يأتينا الحق هنا بالنتيجة .

(فأنجيناه والذين معه) ولم يقل الحق : كيف أنجاه ولم يأت بسيرة الفلك ، بل أخبر بمصير من كذبوه ، ويأتى بالعقاب من جنس الطوفان .

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

هناك « أعمى » لمن ذهب بصره كله من عينيه كلتيهما ، وهناك أيضا عَمِه وأعْمَهُ ، والعَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر . . أى ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير .

ثم انتقل الحق إلى رسول آخر . ليعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة فيه أيضاً . فبعد أن جاء بنوح يأتى بهود .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وساعة ما تسمع : (وإلى عاد أخاهم هوداً) أى أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، و « أخاهم » موقعها الإعرابى « مفعول به » ويدلنا على ذلك قوله فى الآية السابقة : (أرسلنا نوحا) ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا.وكلمة « أخاهم » تُشْعرُ بأشياء كثيرة ؛ إنه من جنسهم ، ولغته لغتهم ، وأنسهم به ، ويعرفون كل شىء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك إشارات تعطى الأنس بالرسول ؛ فلم يأت لهم برسول أجنبى عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا : لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة علينا . بل جاء لهم بواحد منهم وأرسل إليهم « أخاهم » وهذا الكلام عن « هود » .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأى يقول : إن هودا لم يكن من قوم عاد ، ولأنَّ

الأخوة نوعان : أخوّة فى الأب القريب ، أو أخوّة فى الأب البعيد ، أى من جنسكم ، من آدم ؛ فهو إما أخ من الأب القريب ، وإمّا أخ من الأب البعيد . وقد قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل بالباب يقول إنه أخوك ، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه : ألا تعرف إخوة أمير المؤمنين ؟ وقال له : أدخله ، فأدخله . قال معاوية للرجل : أى إخوتى أنت ؟!

قال له : أخوك من آدم .

فقال معاوية : رحم مقطوعة ـ أى أن الناس لا تتنبه إلى هذه الأخوة ـ والله لأكونن أول من وصلها .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه :

﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد ، لكن قول هود لقوم عاد يأتى : (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

وهنا « قال » فقط من غير الفاء ؛ وجاء فى قول نوح: « فقال » . وهذه دقة الأداء لننتبه ؛ لأن الذى يتكلم إله ورب ، فتأتى مرة بـ« فاء » وتأتى مرة بغير « فاء » رغم أن السياق واحد ، والمعنى واحد والرسول رسول ، والجماعة هم قوم الرسول . ونعلم أن « الفاء » تقتضى التعقيب ، وتفيد الإلحاح عليهم ، وهذا توضحه سورة نوح ؛ لأن الحق يقول فيها :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟

وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة نوح)

إذن فالفاء مناسبة هنا ، لكن فى مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة أو اثنتين أوثلاث مرات ، لكن بلا استمرار وإلحاح ، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضى أن يأتى فى سياق الحديث عنه بـ : « فقال » وألا تأتى فى الحديث عن دعوة سيدنا هود . وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإيضاح بزمن رسالة سيدنا نوح فى قوله الحق :

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

ظل سيدنا نوح قُرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سرًّا وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان ، لذلك يأتى الحق فى أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة . أما قوم عاد فلم يأت لهم « بالفاء » . بل جاء بـ « قال » :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأعراف)

وقال نوح من قبل :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وفى مسألة قوم عاد قال : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

ومع أن الأسلوب واحد والمعانى واحدة ، وكان ذلك يقتضى الإنذار ، لكن لم يقل الحق ذلك ؛ لأن نوحاً كان عنده علم بالعذاب الذى سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب .

العملية التى حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ؛ فالله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك ألمح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال : ﴿ أفلا تتقون ﴾ .

أى أن العذاب قد ينتظركم وينالكم مثل قوم نوح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

فى هذه الآية جاء قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ ، وفى قصة نوح قال سبحانه : ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكتم إيمانه وأخفاه ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى فى شأنهم : ﴿ الذين كفروا ﴾ قد جاء مناسبا للمقام ، لأن فيهم مؤمنا لم يقل ما قالوا من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأعراف)

أما قوم نوح فقد قالوا :

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأعراف)

فقال لهم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبة حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ،وأضافت عاد اتهاماً آخر لسيدنا هود : ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ .

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ، ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن . على حد قوله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

أي يتيقنون ، وجاء بالرد من سيدنا هود :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وفى هذا القول نفى للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبلّغ عن الله بمنهج تؤديه الآية التالية وهى قوله الحق :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

وسبق أن قال سبحانه على لسان نوح :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

فلماذا قال فى قوم نوح : ﴿ أنصح لكم ﴾ ،وقال هنا فى عاد : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ؟

لقد قال الحق : ﴿ أنصح لكم ﴾ فى قوم نوح لأن الفعل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلحّ على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسرًّا ، لذلك جاء الحق بالفعل : ﴿ أنصح لكم ﴾ ليفيد التجدد ، ولكن فى حالة قوم هود جاء سبحانه بما يفيد الثبوت وهو قوله : ﴿ ناصح أمين ﴾ ؛ لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه فى دعوتهم إلى الإيمان كماكان يفعل نوح عليه السلام .

ويقول سبحانه على لسان سيدنا هود :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال : ﴿ لينذركم ﴾ فقط ، وليس كما قال فى قوم نوح : ﴿ ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل لنرتدع ونتقى ، لِكى نُرحم ، إذن فحين يأتى بأول الحلقة وأول الخيط وهو الإنذار فنحن نستنتج الباقى وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

وهذا كلام جديد ؛ لأن قوم نوح هم أول قوم عُذّبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يبلّغهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ، ويقال : إن الطويل منهم كان يبلغ طوله مائة ذراع ، والقصير منهم كان يبلغ طوله ستين ذراعاً ، ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أى نعمه عليهم ، وأول النعم أن أرسل إليهم رسولاً يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير .

فماذا كان ردهم ؟

يقول الحق :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لا أن يعبدوا الشركاء الذين لا ينفعونهم ولا يضرونهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتنكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود : نحن نقلد آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير . وإن كان إلهك ينذرنا بعذاب فأتنا به إن كنت من الصادقين . وهكذا وضح أنه لا أمل فى اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجىء القول الفصل على لسان سيدنا هود :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) ﴾

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قالوا له : ائتنا بالعذاب ، فقال لهم : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ لقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . و « وقع » فعل ماض ، لكنا نعلم أن كلام الله مجرد عن الزمان ماضياً كان أو حاضرا ، أو مستقبلا ، لقد قال سيدنا هود:« وقع » والعذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنّه يؤكد وقوع العذاب حتماً ؛ لأن الذى أخبر به قادر على إنفاذه فى أى وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك . والذى وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أى التقذير ، ضد التزكية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لابد أن له شكلاً سيقع به .

ويسائلهم هو ساخراً : ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ ، وكل اسم يكون له مسمى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الآلهة ، وهل لها مسميات حقيقية لِتعبد ؟ . لا ، بل أنتم خلعتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا مسميات ، وأنتم فى حقيقة الأمر مقلدون لآبائكم . وما تعبدونه أسماء بلا سلطان من الإله الحق .

﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

أى ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون فى الجاهلية إلهاً باسم « العزّى » وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ؛ لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وقيّوما على غيره ؟ وكذلك سموا « اللات » أى الله ومضاف له التاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب :

﴿ فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فانتظروا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضى ، ولكن لنقرأ قوله الحق :

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

و « أتى » فعل ماض ، وفى الظاهر أنه يناقض قوله :﴿ فلا تستعجلوه ﴾ لأن الاستعجال يدل على أن الحدث لم يأت زمنه بعد . ولكن لنا أن نعلم أن الذى أخبر هو الله ، ولا توجد قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون .

يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢ ﴾

ونلحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

أما هنا فى مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه :

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب . وكان العرب قديماً إذا حزبهم أمر ، أو دعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم يذهبون إلى بيت الله ؛ ليضرعوا إلى الله أن يخلصهم منه ، حتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هودا نبيًّا فكذبوه وازدادوا عتوًّا وتجبراً فأصابهم جدب وظل ثلاث سنوات فما كان منهم ألا أن فزعوا إلى الكعبة لكي يدعوا ربهم أن يخفف عنهم العذاب ، وذهب واحد منهم اسمه « قيل بن عنز » ، وآخر اسمه « مرثد بن سعد » الذى كان يكتم إسلامه على رأس جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من العماليق ؛ من أولاد عمليق بن لاوث بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة فى هذا الوقت ، وعلى رأسهم واحد اسمه « معاوية بن بكر » ، فنزلوا عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقة العرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ، فاستمرأوا الأمر ، وظلوا شهراً ، فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب ومافكروا أن يذهبوا إلى الكعبة، ولافكروا فى أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سبّة فيّ . وأخذ يفكر فى الأمر . وكان عنده مغنيتان اسمهما « الجرادتان » . فقالت المغنيتان : قل فى ذلك شعراً ، ونحن نغنيه لهم ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمطرنا غماماً
فيسقى أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا ، والغناء فيه ترديد وخصوصاً إذا كان غناءً موجهاً « ألا يا قيل ويحك قم فهينم » وهينم : أي ادعو الله ، ألم تحضر من أجل الدعاء لعل الله يمطرنا الغمام على أرض عاد ، وينتهى الجدب ، وقد بلغ منهم الجهد أنهم لا يبينون الكلام ، فتنبه القيل ، وتنبه مرثد بن سعد ، وكان قد نمى إلى علم « القيل » أن مرثد بن سعد مؤمن بهود عليه السلام ، فرفض أن يصحبه معه ، وبالفعل ذهب قيل وأخذ يدعو الله ، فسمع هاتفاً يقول له : « اختر لقومك » وقد رأى سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين الثلاثة ، فاختار السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده

اختار السحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدوا السحابة السوداء. فقال لهم : أنا اخترت السحابة السوداء لأنها توحى بماء كثير منهمر ، وقال الحق فى هذا الأمر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأحقاف)

أى أن هذه هى السحابة التى قال عليها «قيل» سوف تعطينا المطر.

فيرد الحق عليهم ويقول لهم :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥ سورة الأحقاف)

إذن فقولهم السابق لسيدنا هود الذى أورده الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأعراف)

أى أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذى جاء به قول سيدنا هود هنا فى سورة الأعراف : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ .

ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لقد يسّر الحق الانقاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتفاً يؤكد له أن فى هذا السحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

إذن فالإنذار للتقوى وللوصول إلى الرحمة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً : إن القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتى به مفصلا ولكن سياقه يوحى بالمراد منه ، ولا يكرر وذلك ليربى فينا ملكة الاستيقاظ إلى استقبال المعانى . والمثال على ذلك فى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النمل)

ويهدد سيدنا سليمان الهدهد قائلاً :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النمل)

ثم جاء الهدهد ليقول :

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النمل)

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدهد إلى قوم سبأ قائلاً :

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

وكأن الهدهد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبأ ، وقالت هي الرد مباشرة . إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متروكاً للفهم من السياق .

وكذلك هنا فى قوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وكلمة « أخاهمْ » هنا تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مأنوساً به عند ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، وسوابقه فى القيم والأخلاق معروفة لهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

والبينة هى الدليل على الصدق فى البلاغ عن الله ، وهى الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل خرج لهم بناقة ونسب ملكيتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لابد أن تكون لها قصة بحيث يعلمون أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوته ، تحداه السادة من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بآلهتنا ، وأنت تستنجد بإلهك ، وإن غلبت آلهتنا تتبعنا ، وإن غلب إلهك

نتبعك ، وجلسوا يدعون آلهتهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح : إن كنت صادقاً فى دعوتك ، هذه صخرة منفردة أمامك فى الجبل اسمها « الكاثبة » فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هى عشراء كالبخت ـ أحسن أنواع الإبل ـ ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، وانشقت الصخرة عن الناقة ، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً من الشك فى أنها آية من الله ظهرت أمامهم . إنها البينة الواضحة . لقد انشقت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشراء ، وَبْرَاء ـ أى كثيرة الوَبَر ـ يتحرك جنينها بين جنبيها ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تتأكد الآية الإلهية دون أن يجرؤ أحد على التشكيك فيها ، وهى ناقة من الله وهو القائل :

﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشمس)

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وترونها رؤية مشهدية وهذه الناقة لها يوم فى الماء لتشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه . وكان الماء قليلاً عندهم فى الآبار .

﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الشعراء)

أى لابد من تخصيص يوم لتشرب فيه هذه الناقة ، ولكم أنتم وإبلكم وحيواناتكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الناقة أن تقف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماءً ، وهى كمية من المياه كانت تكفى كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التى شربتها فى ضرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة منعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذى يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لابد أن تأخذ هيكلاً وحجماً يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقيم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعامها وحجمها ، فمادامت منسوبة لله فلابد أن فيها مواصفات إعجازية ، وكان الفصيل الذى ولدته معها ، وكان إذا ما جاء الحر فى الصيف تسكن الناقة فى المشارف العالية ، وبقية النوق تنزل فى الأرض الوطيئة ، وحين يأتى الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة .

والمعروف أن مدائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة أو « تبوك » أن يمر عليها .

كانت الناقة حرة فى اختيار المكان الذى تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد بقادر أن يمسها بسوء . وكانت هناك امرأتان لهما نياق . وناقة الله تغلب نياق المرأتين فى المراعى والماء . فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه : « أُحَيْمر ثمود : واسمه قُدار بن سالف » ليقتلها ، فقتل الناقة ، فلما قتلت الناقة ، طلع ابنها الفصيل على جبل يسمى « قارة » وخار ثلاثة أصوات ، فنادى سيدنا صالح : يا قوم أدركوا هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فراحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبى أن العذاب قادم ، ففى اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة ، وفى اليوم الثانى تكون محمرة ، وفى اليوم الثالث تكون مسودّة ، فقد كانت الناقة هى ناقة الله المنسوبة له سبحانه ، وقد تأكدوا بالأمر المشهدى من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة للشىء الموعود به . لكنَّ الغباء أنساهم أنها ناقة الله .

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أحيمرثمود الناقة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ

﴿ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ومن قبل قال الحق لقبيلة عاد :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

وهنا قال الحق : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ .

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصتهم مازالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهى بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل لهم فى الأرض منازل يسكنونها ، فاتخذوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المنبسط الذى لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهدم مرتين فى العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن يتخذوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة فى الجبل فهى فرصة لأن يتأمل عظمة الحق فى تنبيه الخلق إلى ما يفيدهم وهى بالفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأعراف)

وآلاء الله ـ كما عرفنا ـ هى نعمه التى لا تحصى ، وينبههم إلى عدم نشرالفساد فى الأرض .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاه لهم ولا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فأقبلوا عليها ، أما الملأ وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يملأون العين هيبة ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين ـ لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر ـ قال هؤلاء الملأ من المستكبرين لمَن آمن من المستضعفين :

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأعراف)

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . فماذا قال الملأ المستكبرون ؟

يقول الحق :

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه الكفر بالعمل وهو قتل الناقة ، ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

والعقر : هو الذبح بالنسبة للنوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الأعراف)

و « الصادقين » تؤول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنبى مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهى خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل عليهم غضب الله المتمثل فى قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

والرجفة هى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز . ويسميها القرآن مرة بالطاغية . فى قوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۞ ﴾

(سورة الحاقة)

والتى أصبحوا من بعدها « جاثمين » ، وهو التعبير الدقيق الذى يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه. أو كما نقول : « انسخطوا على هيئاتهم » .

« فالجاثم » هو من لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرجفة يقول الحق :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ ﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء لذمته ، مثلما يقع واحد فى ورطة فيقول له صديقه : لا أملك لك شيئاً الآن : فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قُتل ، فتقول له : « ياما نصحتك » . وأنت تتكلم لكى تعطى لنفسك براءةالعذر ، أو كما فعل صلى الله عليه وسلم مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم فى قليب بدر ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا أهل القليب ، يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً ، فقال الصحابة :

ـ أو تكلمهم يا رسول الله وقد جيفوا . قال : والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

وكأن سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه .

وبعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتى باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات .

وما هو زمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال . وهى الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلّغ الرسالة لا يتوانى لحظة فى أداء المهمة ، فكأن تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له : « بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وكلمة « قومه » تعنى أنه منهم ، ولماذا لم يقل : « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ؛ فعاد كان « هود » من بيئتهم ، و« ثمود » كان صالح من بيئتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلنلحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً

لم يكن من هذا المكان ، لأن لوطاً وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوطاً طارىء على هذا المكان ، ولم يكن أخاهم المقيم معهم فى البيئة نفسها . ولكنهم « قومه » لأنه عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لنتنبه إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسبحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربى نهاكم عن هذه العملية القذرة وهى إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استفهاماً قد يردعهم عن العملية ويقبحها .

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تقريع ، واستفهام إنكار ، فلم يقل لهم : إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل ، بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للفطرة ، واستنكار فطرى .

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكاريًّا ليحرجهم ، لأن العقل الفطرى يأبى هذه العملية : ﴿ أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

أى أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشتهيها النفس غير السويَّة . ولكنها عملية قذرة تأباها الفطرة السليمة .

وكلمة « فاحشة » تعطينا معنى التزيد فى القبح ؛ فهى ليست قبحاً فقط ، بل تَزَيُّدٌ وإيغال وتعمق فى القبح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أتى الرجل أنثى معدةٍ لهذه العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجا ، وعندما يتزوجها تصير حِلاً له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزيد فى الفحش . وإذا كان هذا الأمر محرماً فى الأنثى التى ليست حلالاً له ويعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق

لمثل هذا الفعل ولا يمكن أن يصير حلالاً ، يكون إتيانه فاحشة بمعنى مركّب .

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وقلنا من قبل: إن « مِن » قد تأتى مرة زائدة ، ويمكنك أن تقول إنها زائدة فى كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك فى كلام ربنا . وقوله : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

أى ما سبقكم أحدٌ من العالمين ، و« أحد » هى الفاعل ، وجاءت « من » لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، مثلما قلنا قديماً ، حين تأتى لواحد لتقول له : « ما عندى مال » . فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يعتد به . وقد يكون معك عدة قروش وهى لا تعتبر مالاً . ولكن إن قلت : ما عندى من مال ، أى ليس عندى من بداية ما يقال له إنه مال ، وقوله الحق :

﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

يعنى أنه لم يسبقكم أى أحدٌ من بداية ما يقال له أحد ، وسبحانه يريد بذلك أن ينفيها أكثر ، و« من » التى فى قوله : ﴿ من العالمين ﴾ هى تبعيضية أى ما سبقكم بها أحد « من بعض » العالمين . فما هذا الأمر ؟ لقد سماها فاحشة ، وهى تزيد فى القبح ووصفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية . لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقليًّا نجد أن الإنسان مخلوق كخليفة فى الأرض وعليه استبقاء نوعه ؛ لأن كل فرد له عمر محدود ، ويخلف الناس بعضهم بعضاً ، ولابد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله للإنسان الأقوات التى تبقيه ، وحلل له الزواج وسيلة لإبقاء النوع ، ومهمة الخلافة تفرض أن يخلف بعضنا بعضاً . وكل خليفة يحتاج إلى اقتيات وإلى إنجاب . و« الاقتيات » خلقه الله فى الأرض التى قدر فيها أقواتها .

والنوع البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ومنهما يأتى الإنجاب الخلافى ؛

فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفة ، ثم فى أمه جنيناً ثم تضعه لترعاه مع والده ، ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ، فحمل الأم فى الطفل تسعة شهور هو أمر شاق ؛ لأن الإنسان منا إن حمل شيئاً طوال النهار سيصاب بالتعب ، لكن الأم تحمل الجنين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسيابيًا بمعنى أن الجنين فى نشأته الأولى لا يبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وبطء لمدة تسعة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجنين كان صغيراً فى بدء تكوينه ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلوجرام فى يوم ولادته ، وبين بدء تكوينه إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمنية ينمو فيها هذا الجنين تدريجيًا ، وبشكل انسيابى ، فهو لا يزيد فى الوزن كل ساعة ، بل ينمو فى كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يناسب هذا الجزء من الثانية ، وهذا يعنى أن الجنين ينمو انسيابيا بما يناسب الزمن .

نلحظ ذلك أيضاً فى أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لا يدربون اللاعب الناشىء على حمل مائة كيلوجرام من أول مرة بل يدربونه على حمل عشرين كيلوجراما فى البداية ، ثم يُزاد الحمل تباعاً بما لا يجعل حامل الأثقال فى عنت ، ويسمون ذلك : انسياب التدريب ؛ لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى تعوّد ، ولهذا لا يتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لا يدرك الزمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأنت إذا نظرت إلى طفلك الوليد ساعة تلده أمه ، وسأقدر جدلاً أنك ظللت تنظر إليه دائماً ، فهو لا يكبر فى نظرك أبداً ؛ لأنه ينمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو غبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستدرك نموّه ، وهذا النمو الزائد قد تجمع فى الزمن الفاصل بين آخر مرة رأيته فيها قبل غيابك وأول مرة تراه بعد عودتك .

ومن لطف الله ـ إذن ـ فى الحمل أن الجنين ينمو انسيابيًا ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى الأم الحامل ، وهى تسير بوهن وتبطىء فى حركتها ، ثم يأتى الميلاد مصحوباً بمتاعب الولادة وآلامها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، ويأخذ سنوات إلى أن يبلغ الرشد . ونعلم أن أطول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ولذلك نجد الأب الذى يريد الإنجاب يتحمل

مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهى أعنف شهوة تأتى من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل نجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

إذن كأن الشهوة هى الطُعم الموضوع فى المصيدة ليأتى بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لنقبل عليها ، وبعد أن نقبل عليها ، ونتورط فيها نتوفر ونبذل الجهد لنربى الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أخللت وملت عن سنة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت خلافة الأرض ، والشىء الآخر أن الرجل فى الجماع يلعب دور الفاعل ، وفى الشذوذ وهو العملية المضادة التى فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى منفعل بعد أن كان فاعلاً .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والفاحشة هى العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحددها سبحانه من البداية كدليل على أنها أمر معلوم بالفطرة ، فساعة يقول : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون الغباء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الواضح :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والإسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعيًا منجبا ، وحيث تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإنجاب ، وتعطيك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتعطيك الإنجاب ، وتشتركان من بعد ذلك فى رعاية الأولاد . وأى خروج

عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوة فحسب ، لكن ينبغى أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإنجاب معاً ؛ لبقاء النوع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

ويأتى الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيدنا لوط :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشذوذ ، لذلك قالوا : ﴿ أخرجوهم من قريتكم ﴾ .

وما هى الحجة التى من أجلها يطلبون إخراج لوط والذين آمنوا معه من القرية ؟

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

فهل التطهر عيب ؟ لا ، لكنهم عاشوا فى النجاسة وألفوها ، ويرفضون الخروج منها ؛ لذلك كرهوا التطهر . والمثال على ذلك حين نجد شابًا يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة فى مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمر ، فنصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يغازلون النساء فحذرهم من مغبة الخوض فى أعراض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم المتزهد المتقشف ، وكأن هذه الصفات صارت سُبة فى نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذى يحيا فى القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وهم حين أرادوا طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازفون .

إنهم بذلك قد تعجلوا العقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لا يحتاج فيه سبحانه إلى أحد ، وإذا تساءل أحد : ومن هم أهل لوط الذين أنجاهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل التدين والتبعية ؟ . إن كان أهله بالنسب فالحق يستثنى منهم « امرأته » ، وهذا دليل على أن أهل البيت آمنوا بما قاله لوط وكذلك الأتباع أيضاً : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ .

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع الإنسان عن الرجس والسوء . ولذلك نجد سيدنا شعيباً حين ينصح قومه :

﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

ويتعجب القوم سائلين شعيبا :

﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة هود)

إنهم يتعجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أعمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفوا أن الصلاة تنهى عن كل سوء . وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله بأنه مجنون :

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ومن قولهم يتأكد غباء تفكيرهم ، فماداموا قد قالوا : ﴿ نزل عليه الذكر ﴾ فمن الذى نزّل هذا الذكر ؟ ، والذكر هو القرآن ، والذى نزله هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ، ثم يتهمون الرسول بأنه « مجنون » ؟ ؛ لأنهم ماداموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر ، وإنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون مجنوناً ؟ إنهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق يقول سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن امرأة سيدنا لوط لم تدخل فى الإنجاء لأنها من الغابرين ، و « غبر » تأتى لمعانٍ متعددة ، فهى تعنى إقامة ومكثا بالمكان ، أو تعنى أى شىء مضى ، كما يقال : هذا الشىء غبرت أيامه ؛ أى مضت أيامه ، ولسائل أن يقول : كيف تأتى الكلمة الواحدة للمعنى ونقيضه ؟ فغبر تعنى بقى ، وغبر أيضاً تعنى مضى وانتهى . نقول : إن المعنى ملتقٍ هنا فى هذه الآية ، فمادام الحق ينجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيت فى المكان الذى نزل فيه العذاب ، وبقيت فى الماضين ، وهكذا يكون المعنى ملتقيا . فإن قلت مع الباقين الذين آتاهم العذاب فهذا صحيح . وإن قلت إنها صارت تاريخاً مضى فهذا صحيح أيضاً : ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ .

ونحن لا ندخل فى تفاصيل لماذا كانت امرأته من الغابرين ؛ لأن البعض تكلم فى حقها بما لا يقال ، وكأن الله يدلس على نبى من أنبيائه ، لا ، نحن لا نأخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به . ونلحظ أيضاً أن الحق تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط فى مسألة الكفر ؛ فقال :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ودقق النظر فى كلمة ﴿ تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ وتساءل البعض عن معنى الخيانة وهل المقصود بهاالزنا ؟ . ونقول : ربنا لا يدلس على نبى له ، لكن أن تؤمن الزوجة أو تكفر ، فهذه مسألة اختيارية . وكأن الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيماناً على امرأته ؛ فالمسألة هى حرية الاعتقاد . وانظر إلى التعبير القرآنى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ .

إياك أن تظن أن أيًّا منهما كانت متكبرة على زوجها ؛ لأن الحق يقول : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا ﴾ أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كانتا تحت عبدين ﴾ لكن الإيمان هو مسألة اختيار ، وهذا الاختيار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك فى مسألة ابن سيدنا نوح :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

وحاول البعض أن يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يجانبون الصدق ، إنه محض افتراء ، وقد نبهنا الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط :

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ولنفهم أن الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأن الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبى الزوجتين ؛ حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه ، ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذه زوجة فرعون المتجبر ؛ الذى « ادّعى الألوهية » ، لكنه لا يقدر أن يمنع

امرأته من أن تؤمن بالله ، وهكذا نجد نبيًّا لا يقدر أن يقنع امرأته بالإيمان ، ونجد مدّعى الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته كافرة مثله ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختيارى محمى بكل أنواع الحماية ؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

وضرب الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

ونلاحظ أن الحق لم يأت بأسماء زوجتى نوح ولوط ، وكذلك لم يأت باسم امرأة فرعون ، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها . فلماذا كان الإبهام أولاً ؟ لنعلم أنه من الجائز جدًّا أن يحصل مثل هذا الأمر لأى امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هى مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها .

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فكلمة « أنجينا » تشير إلى أن عذاباً سيقع فى المكان الذى فيه قوم لوط ، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى ، فلابد أن يدفع الجماعة التى كتب لها النجاة إلى الخروج . وهذا الخروج أراده لهم من يكرهونهم ، فقد قالوا :

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

لكن ربنا هو الذى أخرجهم ، والإخراج كان من العذاب الذى نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإنجاء لوط وأهله مما نزل بهؤلاء الفجرة .

ويأتى العذاب من الحق :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فهل كان ذلك المطر مثل المطر الذى ينزل عادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول :

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

يقول الحق : إنه سيعذبهم بالمطر ، فلننتبه أنه ليس المطر التقليدى ، بل إنه يعذبهم ويستأصلهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : « فانظر » أى فاعتبر يا من تسمع هذا النص ، وهذه القصة تبيّن وتوضح أن الله لا يدع المجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسله دون عقاب .

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

و « مدين » هو ابن من أبناء سيدنا إبراهيم جاء واستقر فى هذا المكان ، فهو علم على شخصه ، وعلم على المكان الذى أقام فيه وسمى المكان باسمه ، فلما تكاثر أبناؤه وصاروا قبيلة أخذت القبيلة اسمه . إذن فـ « مدين » اسم عَلَمٌ على ابن إبراهيم ، وأطلق على المكان الذى استقر فيه من طور سيناء إلى الفرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى هنا يكرر كلمة « أخ » ليبين لك ؛ أنه إن قسا عليهم مرة فسيحنو عليهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوة له ومأنوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شىء ، وكان مدين قد تزوج من رقبة ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثر الاثنان صاروا قبيلة ، ويبلغهم سيدنا شعيب بالقضية العقدية التى يبلغها كل رسول : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

والعبادة هى الطاعة للأمر والطاعة للنهى ، وأنت لا تطيع أمر آمر ولا نهى ناهٍ إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساويا لك ، فبعد أن يقول لك : « افعل كذا » ستسأله أنت : لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شىء ستسأله أيضاً : لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفله : لا تفعل الشىء الفلانى ، فالابن لا يناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكبر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاتيته تتكون ، ويريد أن يعرف الأمر الذى سيقدم عليه .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وما دام قد قال لهم : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولابد أن تكون له معجزة يثبتها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبينة .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

لأن كل المعاصى والكفر تدفع إلى الإخلال فى الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلا بد أن الإخلال فى الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتى ليعالج الأمر الشائع . وهم كانوا يبخسون الكيل والميزان . ويظن الناس فى ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاختلاس فيها هين يسير ، فحين يبخس فى الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه فى آخر الأمر جزءًا كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك فى من يشترى . وستذهب أنت بعد ذلك لتشترى من أناس كثيرين سيفعلون مثلما فعلت ، فإذا ماوفيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ما هو فى مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكى بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصالحك كلها مع الآخرين .

إنك حين تبيع أى سلعة ولو كانت بلحاً وتنقص فى الميزان ، ستحقق لنفسك ربحاً ليس لك فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ما ليس لك ، والقمح والبلح هما بعض من مقومات حياتك ؛ لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فلسوف يفعلون مثلما فعلت فيما يملكون لك ، وبذلك تخسر أنت ويصبح الخسران عاماً .

﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وإذا كانت الخسارة فى الكيل والميزان طفيفة ومحتملة ، فمن باب أولى ألا نبخس الناس أشياءهم فلا نظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا نسرق لأن السارق يأخذ ما تصل إليه يده، ولا نغصب ، ولا نختلس ، ولا نرتشى ، لأنه إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب الله منكم مع أن الخسارة فيه طفيفة ، إذن فبخس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وبذلك نكون أمام أكثر من أمر جاء بها نبى الله شعيب : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهذه العبادة لتربى فيهم مهابة وتزيدهم حبًّا واحتراماً للأمر الأعلى ،

وكذلك ليخافوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يبخسوا الناس أشياءهم ، ثم النهى والتحذير من الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ ، والإصلاح الذى يطلبه الله منا أن نستديمه أو نرقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العنصر الأول فى الحياة المسخرة لك ؛ يصرّفه سبحانه حتى لا يفسد . والنعيم الثانى فى الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذى يخرجه لك من الأرض . والمواشى التى تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح فى الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد الغصب ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، فسيفسد كل شيء ، ولا يعدل كل ذلك ويقيمه ويجعله سويا إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع الإفساد فى الأرض .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

إذن فهذه الأشياء التى هى إيفاء الكيل والميزان يأتى الأمر بها ، ثم يتبعها بما ينهى عنه وهو ألا نبخس الناس أشياءهم وألا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المنهج . أوامر ونواهى ، وقد يبدو فى ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، فنقول : لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمعزل عن المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمراً واحداً ، وهذا الأمر الذى تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التى تحتاج إليها هى بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان . فذلك خير لك ؛ فالذى يقيس لك القماش لا يغشك ،والذى يزن لك ما ليس عندك لا يغشك ، والذى يكيل لك الذى ليس عندك لا يغشك ، إذن فأنت واحد منهى عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس منهيون أن يفعلوا ذلك معك ، وبذلك تكون أنت الكاسب .

وإذا جئت إلى قوله تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ ، فأنت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم ، وكل الناس مأمورون ألّا يبخسوك شيئاً ، وإذا أفسدت فى الأرض بعد إصلاحها فالناس مأمورون أيضاً ألّا يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون أحظ منهم فى كل شىء . ولذلك يجب على كل مكلّف حين يستقبل تكليفاً قد يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه : إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك ، ولكن انظر إلى ما يؤديه إليك من الآخرين ، فإن قال التكليف لك : لا تنظر إلى محارم غيرك ، فقد أمر غيرك ألّا ينظر إلى محارمك ، وفى هذا عزة لك . وإذا أمرك التكليف ألّا تضع يدك فى جيب غيرك وتسرق ، فقد أمر كل الناس ألّا يضعوا أيديهم فى جيوبك ليسرقوك ، وبهذا نعيش فى أمان .

وإذا طلب التكليف منك وأنت غنى أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول : مالى وتعبى وعرقى ؛ لأن المال مال الله ، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا توجيه الحركة ، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله ، والعقل الذى خطط مخلوق لله ، والانفعال الذى انفعل لك فى الأرض من خلق الله ، ولكن الحق احترم عملك وناتجه وفرض عليك أن تخرج منه زكاة مُقدرة. فإياك أن تقول : إنه يأخذ منى ، لماذا ؟ لأن عالم الأغيار بادٍ وظاهر أمامك ، وكم رأيت من قوى ضعفت ، ومن غنى افتقر ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطى الفقير وتقوته ، فإن افتقرت فسيفعل لك ذلك ، وفى ذلك تأمين حياتك ؛ لأنك تعيش فى مجتمع ، فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيمانى لن يتركك ، أنت أو أولادك ، ويقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فانظر للأيتام فى مجتمعك وكن أباً لهم ، وحين تصير أنت أباً لهم ، وهذا أب لهم ، وذلك أب لهم ، سيشعر اليتيم أنه فقد أبا واحداً ، لكنّه يحيا فى مجتمع إيمانى أوجد له من كل المؤمنين آباء ، فلا يحزن ، وكذلك لن تخاف أنت على أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن

غادرتهم إلى لقاء ربك ؛ لأنك رعيت اليتامى وعشت فى مجتمع يرعاهم . ولكنك تحزن عندما ترى يتيماً مضيعاً فى مجتمع لا يقوم على شأنه وتقول لنفسك : أنا إن مت سيضيع أبنائى هكذا .

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هى تأميناً للحياة . ومثال ذلك حين نقول للمرأة : تحجبى ، ولا تبدى زينتك لغير محارمك ، قد تظن المرأة فى ظاهر الأمر أننا ضيقنا على حريتها ، لأنَّها تنسى أن المنهج يؤمِّن لها قبح الشيخوخة ، لأنها حين تتزوج صغيرة ، ثم يصل عمرها فوق الأربعين ويتغير شكلها من متاعب الحمل وتربية الأبناء ، ثم يرى زوجها فتاة فى العشرين وغير محتشمة قد تفتنه وتصرفه عن زوجته ، وينظر إلى زوجته نظر غير المكترث بها ، وغير الراغب فيها . فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهى صغيرة ؛ ليصون لها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها . فإن منعها وهى صغيرة فقد منع عنها وهى كبيرة ؛ كل ذلك إذن من تأمينات المنهج للحياة .

إذن فإيفاء الكيل ، وعدم إبخاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها خير للجميع فى الدنيا ، بالإضافة إلى خير الآخرة ، ولذلك يذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

و « ذلكم » إشارة إلى ما سبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الأمر باستيفاء الكيل والميزان ، وألا نبخس الناس أشياءهم ، وألا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، ووضع الحق ذلك فى إطار ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتى أيضاً لغير المؤمن ، وهكذا تكون كلمة « خير » تشمل خيراً فى الدنيا ، وخيراً فى الآخرة للمؤمن فقط . أما الكافر فسيأخذ الخير فى الدنيا فقط ، ولا خير له فى الآخرة ، فإن كنتم مؤمنين فسيتضاعف الخير لكم ليصير خيراً دائماً فى الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ أى لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد على الطريق قد يمنع من يحاول الذهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعياذ بالله ؛ لأن الشيطان قال لربنا : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ، وهنا ينهى الحق عن القعود بكل صراط ؛ لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل لينهى عنها ، إنما ليذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلاً واحداً يجب علينا أن نتبعه . ولذلك يقول :

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة غوايات منوعة ، فهذا طريق يغوى بالمال ، وذلك يغوى بالمرأة ، وذاك يغوى بالجاه . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التى يدعو إليها كل رسول شائعة فى كل ما حوله ؛ فمن يأتى ناحية أى هداية يجد من يصده . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ، والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتى إجابة الحق : ﴿ وتبغونها عوجاً ﴾ .

إنهم يبغون ويودون شريعة الله معوجة ومائلة وزائغة عن الاستقامة ، أو تصفونها بأنها غير مستقيمة لتصدوا الناس عن الدخول فيها ، ولتنفروا منها ، مثال ذلك السخرية من تحريم الخمر والادعاء بأنها تعطى النفس السرور والانسجام . إن الواحد من هؤلاء إنما ينفر من شريعة الله ، ويدعى أنها شريعة معوجة ، فنجد من يحلل الربا ؛ لأن تحريم الربا فى رأيهم السقيم المنحرف يضيق على الناس فرصهم . إنهم يبغون شريعة الله معوجة ليستفيدوا هم من اعوجاجها ، وينفروا الناس منها .

﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الأعراف)

نعلم أن كل ردع ، وكل توجيه يهدف إلى أمرين اثنين : ترغيب وترهيب ، وعلى سبيل المثال نجد المدرس يقول للتلاميذ : من يجتهد فسنعطيه جائزة ، وهذا ترغيب ، ويضيف الأستاذ قائلاً للتلاميذ : ومن يقصر فى دروسه فسنفصله من المدرسة ؛ وهذا ترهيب . وما دام الناس صالحين لعمل الخير ولعمل الشر بحكم الاختيار المخلوق فيهم لله فلا بد من مواجهتهم بالأمرين بالترغيب فى الخير والترهيب من الشر .

والحق هنا يقول فى الترغيب : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ .

وكأنه يطالبهم بأن يكونوا أصحاب ذوق وأدب ، فنحن نعلم أن مدين تزوج وأنجب عدداً من الذرية وكانوا قلة فى العدد فكثرهم حتى صاروا قبيلة ، وكانوا ضعافاً فقواهم ، وكانوا فقراء فأغناهم ، فمن صنع فيكم ولكم كل هذه المسائل ألا يصح أن تطيعوا أوامره . كان عليكم أن تطيعوا أوامره . وهذا ترغيب وتحنين .

ونعلم أن شعيباً هو خامس نبى جاء بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط . لذلك يذكرهم الحق بما حدث لمن كذبوا الأنبياء الأربعة السابقين . وقد يكون قوم نوح معذورين لأنهم كانوا البداية ، فلم يسبقهم من أخذ بالعذاب لتكذيب رسلهم ، ثم صارت من بعد ذلك قاعدة هى أن من يكذب الرسل يلقى العذاب ، مصداقا لقوله الحق :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

فإذا كان شعيب ينذرهم بأن ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين ممن سبقوهم فهذا تذكير بمن أغرقهم ومن أخذتهم الصيحة ، ومن كفأ وقلب ودمر ديارهم ، ومن جاء لهم بمطر من سجيل ، فإن لم يعرفوا واجبهم نحو الله الذى أنعم عليهم بأن كانوا قليلاً فكثرهم ، فعليهم أن يخافوا عاقبة المفسدين . إذن فقد جمع لهم بين الترغيب والترهيب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن طائفة آمنت ، وطائفة لم تؤمن ، ثم جاء الأمر للطائفتين ، فأمر المؤمنين بالصبر تأنيس لهم ، وأمر الكافرين بالصبر تهديد لهم . وهذه دقة القرآن فى الأداء وعظمة البيان والبلاغة . إذن ، فكلمة : اصبروا نفعت فى التعبير عن الأمر بالصبر للذين آمنوا ، ونفعت فى كشف المصير الذى ينتظر الذين لم يؤمنوا ، فصبر الكافرين مآله وعاقبته ، إما أن يخجلوا من أنفسهم فيؤمنوا ، وإمَّا أن يجدوا العذاب ، وصبر المؤمنين يقودهم إلى الجنة ، وأن الذى يحكم هو الله وهو خير الحاكمين ؛ لأن المحكوم عليهم بالنسبة له سواء ، فلا أحد منهم له أفضلية على أحد . ولا أحد منهم قريبه ، إلا قرابة القربى والزلفى إليه ، وسبحانه هو العادل بمطلق العدل ، ولا يظلم أحداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

علمنا من قبل أن الملأ هم السادة ، والأعيان الذين يملأون العيون هيبة ، ويملأون القلوب هيبة ، ويملأون الأماكن تحيزاً . وقد استكبر الملأ من قوم شعيب عن الإيمان به ، وطغوا وهددوه بأن يخرجوه من أرضهم . وقالوا مثلما قال من سبقوهم . فقد نادى بعض من قوم لوط بأن يخرجوا لوطاً ومن آمن معه من قريتهم . قال تعالى :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النمل)

وكلمة « قرية » تأخذ فى حياتنا وضعاً غير وضعها الحقيقى ، فالقرية الآن هى الموقع الأقل من المدينة الصغيرة . لكنها كانت قديماً البلد الذى توجد فيه كل متطلبات الحياة ، بدليل أنهم كانوا يقولون عن مكة « أم القرى » . وقد وضع الملأ شعيباً ومن آمن معه بين أمرين : إما أن يخرجوهم حتى لا يفسدوا من لم يؤمن فيؤمن ، وإما أن يعودوا إلى الملة .

وهنا « لفتة لفظية » أحب أن تنتبهوا إليها فى قوله : ﴿ أو لتعودن فى ملتنا ﴾ لأن العود يقتضى وجوداً سابقاً خُرِجَ عنه ، ونريد أن نعود إلى الأصل ، فهل كان شعيب والذين آمنوا معه على ملتهم ثم آمنوا والمطلوب منهم الآن أنهم يعودون ؟

علينا أن نتنبه إلى أن الخطاب هنا يضم شعيباً والذين آمنوا معه . وقد يصدق أمر العودة إلى الملة القديمة على الذين مع شعيب ، لكنها لا تصدق على شعيب لأنه نبى مرسل ، وهنا نتنبه أيضاً إلى أن الذى يتكلم هنا هم الملأ من قوم مدين ،

ووضعوا شعيباً والذين آمنوا معه أمام اختيارين : إما العودة إلى الملة ، وإمَّا الخروج ، ونسوا أن الحق قد يشاء تقسيماً آخر غير هذين القسمين . فقد يوجد ويريد سبحانه أمراً ثالثاً لا يخرج فيه شعيب والذين آمنوا معه ، وأيضاً لا يعودون إلى ملة الكفر ، كأن تأتى كارثة تمنع ذلك .

لقد عزل الملأ من قوم شعيب أنفسهم عن المقادير العليا ، لأن الله قد يشاء غير هذين الأمرين ، فقد يمنعكم أمر فوق طاقتكم أن تُخْرِجوا ؛ شعيباً ومن آمن معه ؛ بأن يصيبكم ضعف لا تستطيعون معه أن تخرجوهم ، أو أن يسلط الله عليكم أمراً يفنيكم وينجى شعيباً والذين آمنوا معه . إذن أنت أيها الإنسان الحادث ، العاجز لا تفتئت ولا تفترى وتختلق على القوة العليا فى أنك تخير بين أمرين قد يكون لله أمر ثالث لا تعلمه ، ويأتى الرد على لسان مَن آمنوا مع شعيب :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة الأعراف)

لقد سأل شعيب والذين معه : أيمكن أن يتم قهر أحد على أن يترك الإيمان إلى الكفر ، كأن الكافرين قد تناسوا أن التكليف مطمور فى الاختيار ، فالإنسان يختار بين سبيل الإيمان وسبيل الكفر .

ويتابع القول من شعيب والذين آمنوا معه :

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

وقولهم : ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم ﴾ أى أنهم يعلمون أن

العودة إلى مثل هذه الملة لون من الكذب المتعمد على الله . لأن الكذب أن تقول كلاماً غير واقع ، وتعلن قضية غير حقيقية إن أنت قلتها على مقتضى علمك فهذا مطلق كذب . لكن إن كنت عارفاً بالحقيقة ثم قلت غيرها فهذا افتراء واختلاق وكذب . والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة ملة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوة الإيمان بالله ؛ لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله . ويقولون بعد ذلك :

﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

قد عرفوا أن التكليف اختيار وهم قد اختاروا الإيمان ، وأقروا وأكدوا إيمانهم بأنه سبحانه له طلاقة القدرة ، فقالوا : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ . فمشيئته سبحانه فوق كل مشيئة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن قلوب بنى آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقَلْبٍ واحدٍ يصرفُه حيث شاء »[1] .

وألم يقل سيدنا إبراهيم وهو أبو الأنبياء والرسل :

﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة إبراهيم)

لم يقل : واجنبنا . بل قالها واضحة ودعا ربَّه أن يبعده وينأى به وببنيه أن يعبدوا الأصنام ، لأنه يعلم طلاقة قدرته سبحانه . إذن فمن آمنوا مع شعيب احترموا طلاقة القدرة فى الحق ؛ لذلك قالوا :

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

ولكن الله لا يشاء لمعصوم أن يعود ، وسبحانه يهدى من آمن بهداية الدلالة ويمده بالمزيد من هداية المعونة إلى الطريق المستقيم .

---

(١) رواه أحمد ، ورواه مسلم عن ابن عمر .

ويتابع أهل الإيمان مع شعيب :

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

جاء قولهم : ﴿ على الله توكلنا ﴾ لأن خصومهم من الملأ بقوتهم وبجبروتهم قالوا لهم : أنتم بين أمرين اثنين : إما أن تخرجوا من القرية ، وإمّا أن تعودوا فى ملتنا . وأعلن المؤمنون برسولهم شعيب : أن العود فى الملة لا يكون إلا بالاختيار وقد اخترنا ألا نعود . إذن فليس أمامهم إلا الإخراج بالإجبار ؛ لذلك توكل المؤمنون على الله ليتولاهم ، ويمنع عنهم تسلط هؤلاء الكافرين .

﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

وساعة نسمع كلمة « افتح » أو « فتَح » أو « فتْح » نفهم أن هناك شيئاً مغلقاً أو مشكلاً ، فإن كان من المُحسّات يكون الشيء مغلقاً والفتح يكون بإزالة الأغلاق وهى الأقفال ، وإن كان في المعنويات فيكون الفتح هو إزالة الإشكال ، والفتح الحسى له نظير فى القرآن ، وحين نقرأ سورة يوسف نجد قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة يوسف)

وكلمة ﴿ ولما فتحوا متاعهم ﴾ تعنى أن المتاع الذى معهم كان مغلقاً واحتاج إلى فتح حسّى ليجدوا بضاعتهم كما هى . وأيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الزمر)

ومادام هناك أبواب تفتح فهذا فتح حسّى . وقد يكون الفتح فتح علم مثلما نقول : ربنا فتح علنا بالإيمان والعلم ، ويقول الحق :

﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

فما دام ربنا قد علمهم من الكتاب الكثير فهذا فتح علمى . ويكون الفتح بسوق الخير والإمداد به . والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾

(من الآية ٢ سورة فاطر)

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

والبركات من السماء كالمطر وهو يأتى من أعلى ، وهو سبب فيما يأتى من الأسفل أى من الأرض .

والفتح أيضاً بمعنى إزالة إشكال فى قضية بين خصمين ، ففى اليمن حتى الآن ، يسمون القاضى الذى يحكم فى قضايا الناس « الفاتح » لأنه يزيل الإشكالات بين الناس . وقد يكون « الفتح » بمعنى « النصر » ، مثل قوله الحق :

﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

لقد كانوا ينتظرون النبى صلى الله عليه وسلم لينتصروا به على الذين كفروا ، ومن الفتح أيضاً الفصل فى الأمر ومن قول الحق هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

وهذا القول هو دعاء للحق : احكم يا رب بيننا وبين قومنا بالحق بنصر الإيمان وهزيمة الكفر ، وأنت خير الفاتحين فليس لك هوى ضد أحد أو مع أحدٍ من مخلوقاتك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وهنا يقول الملأ من قوم مدين لمن آمنوا ولمن كان لديهم الاستعداد والتهيؤ للإيمان محذرين لهم من اتباع شعيب حتى لا يظل الملأ والكبراء وحدهم فى الضلال :

وساعة نرى « اللام » فى « لئن » نعلم أن هنا قَسماً دلّت عليه هذه « اللام » . وهنا أيضاً « إن » الشرطية ، والقسم يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج كذلك إلى جواب ، فإذا اجتمع شرط وقسم اكتفينا بالإتيان بجواب المتقدم والسابق منهما ، مثل قولنا : « والله إن فعلت كذا ليكونن كذا » : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ .

وماذا سيخسرون ؟ سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حقهم حين يطففون الكيل ويخسرون الميزان ، والقوى يأخذ من الضعيف ؛ فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل وبخس وخسران الميزان بمنهج . وهذه هى الخسارة فى نظر المنحرف .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

والرجفة هى الهزّة العنيفة التى ترج الإنسان رجًا غير اختيارى ، وصاروا بها جاثمين أى قاعدين على ركبهم ؛ ولا حراك بهم ؛ ميتين ، وفى هيئة الذلة . وهذا يدل على أن كلا منهم ساعة أخِذ تذكر كل ما فعله من كفر وعصيان ، وأراد استدراك ما فاته من مخالفاته للرسول ، وأخذ يوبخ نفسه ويندم على ما فعل ، ولم تأخذه الأبهة والاستكبار ، لأن هناك لحظة تمر على الإنسان لا يقدر فيها أن يكذب على نفسه ، ولذلك نجد أن من ظلم وطغى وأخذ حقوق الغير ثم يأتيه الموت يحاول أن ينادى على كل من بغى عليه أو ظلمه ليعطيه حقه لكنه لا يجده . ولذلك يسمون تلك اللحظة أنها التى يؤمن فيها الفاجر ، لكن هل ينفع إيمانه ؟ طبعاً لا . فى هذه الحالة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

ويتابع سبحانه وصف ما حدث لهم إثر الرجفة :

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وغنى بالمكان : أقام به ؛ فحين صاروا جاثمين وخلت منهم الديار ، كأنهم لم تكن لهم إقامة إذ استؤصلوا وأهلكوا إهلاكاً كاملا ، وإذا كان هؤلاء المكذبون قد قالوا : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فيكون مآلهم هو ما ذكره ربنا بقوله : ﴿ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ .

ويتتابع قوله الحق عن سيدنا شعيب :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

و « تولى عنهم » أى تركهم وسار بعيداً عنهم ، وحدثهم متخيلاً إياهم ﴿ لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ﴾ ، فكأن المنظر العاطفى الإنسانى حين رأى كيف أصبحوا ، تعطف عليهم وأسى من أجلهم ، لكن يرد هذا التعاطف متسائلا متعجباً ﴿ كيف آسى على قوم كافرين ﴾ ؟ إنهم نوع من الناس لا يحزن عليهم المؤمن . فمابالنا بنبى ورسول ؟ إنه يحدث نفسه وكأنه يقول : ما قصرت فى مهمتى ، بل أبلغتكم رسالاتى التى تلقيتها من الله ، والرسالات إذا جمعت فالمقصود منها رسالته ورسالة الرسل السابقين فى الأمور التى لم يحدث فيها نسخ ولا تغيير ، أو رسالاته أى فى كل أمر بلغ به ؛ لأنه كان كلما نزل عليه حكم يبلغه لهم . أو أن لكل خير رسالة ، ولكل شر رسالة ، وقد أبلغهم كل ما وصله من الله ، ولم يقتصر على البلاغ بل أضاف عليه النصح ، والنصح غير البلاغ ، فالبلاغ أن تقول ما وصلك وينتهى الأمر ، و « النصح » هو الإلحاح عليهم فى أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتبعوا نهج الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

وعرفنا من قبل أن القرية هى البلد الجامع لكل مصالح سكانها فى دنياهم .

والمقصود هنا أن القرية التى يرسل إليها الحق رسولاً ثم تُكَذِّب فسبحانه يأخذ أهلها بالبأساء والضراء . والبأساء هى المصيبة تصيب الإنسان فى أمر خارج عن ذاته ؛ من مال يضيع ، أو تجارة تبور وتهلك ، أو بيت يهدم ، والضراء هى المصيبة التى تصيب الإنسان فى ذاته ونفسه كالمرض ، ويصيبهم الحق بالبأساء والضراء لأنهم نسوا الله فى الرخاء فأصابهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتعرفون إليه ، ليكون معهم فى السراء والضراء . والحق يقول :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ

كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

وكان من الواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسه الضراء أن يتجه إلى خالقه ، ولقد جعل الله الضراء وسيلة تنبيه يتذكر بها الإنسان أن له ربًّا ، وفي هذه اللحظة يجيب الحقُّ الإنسان المضطر ، ويغيثه مصداقاً لقوله الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

وإذا صنع الله مع المضطر هذا فقد يثوب إلى رشده ويقول : إن الإله الذى لم أجد لى مفزعاً إلا هو ، لا يصح أن أنساه .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يذكرنا بطلاقة قدرته حين يقول :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأنعام)

وكأنه سبحانه يطلب منا حين تجيء البأساء أن نفزع إليه ولا نعتقد أننا نعيش فى الحياة وحدنا ، بل نعيش فى الحياة بالأسباب المخلوقة لله وبالمسبب وهو الله ، فالذى عزت عليه الأسباب وأتعبته يروح للمسبب ، ولذلك يأخذ سبحانه أية قرية لا تصدق الرسل بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون وذلك رحمة بهم .

ويقول :

﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأنعام)

فهل يتركهم الله فى السراء والضراء دائماً ؟ لا ، فهو سبحانه يجيئهم ويبتليهم بالبأساء والضراء ليلفتهم إليه ، فإذا لم يلتفتوا إلى الله ، فسبحانه يبدل مكان السيئة الحسنة ، لذلك يقول :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ويعطى سبحانه بعد ذلك لهم الرزق ، والعافية ، والغنى ؛ لأن الحق إذا أراد أن يأخذ جباراً أخذ عزيز مقتدر فهو يمهله ، ويرخى له العِنان ليتجبر ـ كفرعون ـ من أجل أن يأخذه بغتة ، وكأنه يسقط من أعلى ، فيعليه ويعليه من أجل أن ينزل به ـ كما يقولون ـ على جذور رقبته : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ﴾ .

(عَفَوْا) أى كثروا عدداً ومالاً وقوة أى أنه ما أخذهم سبحانه بالبأساء والضراء إلاّ وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلتفتوا ، فيمدهم ويعطى لهم العافية وما يسرّهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بغتة .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تكلم على خلافة الإنسان فى الأرض ، وأنه أمده بكل ما تقوم به حياته ،وأمده بالقيم بواسطة مناهج السماء ، وأنزل المنهج مبينا ما أحل ، وما حرم بعد أن كانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، فبيّن لهم الحق أن الذى خلق الخلق عالم بما يصلحهم فأحله ، وعالم بما يفسدهم فحرّمه ، فليس لكم أن تقترحوا على الله حلالاً ، ولا حراماً ،ولكن بعض المشككين فى منهج الله قالوا ـ ومازالوا يقولون ـ : إذا كان الله قد أحل شيئاً وحرم شيئاً فلماذا خلق ما حرم ؟ ونقول : لقد خلق سبحانه كل شىء لحكمة قد تكون لغير الطعام والشراب والكسوة ، فبعض الأشياء يكون مخلوقاً لمهمة وإن لم تكن مباشرة لك ؛ فالبترول مثلاً مخلوق لمهمة أن يوجد طاقة ، لذلك لا نشربه .

والخنزير مخلوق لحكمة لا نعلمها نحن ، وإنما يعلمها من خلق ، لأنه من

الجائز أن يكون أداة لالتقاط الميكروبات التى تنشأ من عفن الأشياء التى يستعملها الناس فى حياتهم ، إذن فكل شيء مخلوق لحكمة ، فلا تُخرّج أنت حكمة الأشياء من غير مراد خالقها ؛ لأن صانع الصنعة هو الذى يحدد الشيء الذى يوجد وينشيء القوة لها . ونحن نعلم ـ مثلاً ـ أن أنواع الوقود كثيرة ، فهناك « البنزين » النقى جداً ويرقمونه برقم (١) وهو مخصص للطائرة ، ووقود السيارة وهو « البنزين » رقم (٢) . فإذا استخدمنا وقود ماكينة وآلة بدل وقود ماكينة أخرى أفسدناها . كذلك خلق الله الإنسان وسخر له كل المخلوقات وأوضح : هذا يصلح لك مباشرة ، وهذا مخلوق ليخدمك خدمة غير مباشرة فدعه فى مكانه .

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى مواقف الجنة ، ومواقف النار ، ومواقف أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ؛وبعد أن بيّن المنهج كله أراد أن يبين أن ذلك ليس نظريًا ، وإنما هو واقع كونى أيضاً . ففرق بين الشيء يقال نظرا ، والشيء يقع واقعاً ، فقص علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم ، فمن كذب بالرسل أخذه الله أخذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع ؛ فذكر نوحاً مع قومه ، وذكر عاداً وأخاهم هوداً ، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً ، ومدين وأخاهم شعيباً ، وقوم لوط وسيدنا لوطا . وبيّن ما حدث للمؤمنين بالنجاة ، وما حدث للكافرين بالعطب والإذلال ، ويوضح الحق سبحانه وتعالى : أننى آخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، لأن الإنسان مخلوق أفاض الله عليه من صفات جلاله ، ومن صفات جماله الشيء الكثير ، فالله قوى ، وأعطى الإنسان من قوته . والله غنى وأعطى الإنسان من غناه ، والله حكيم وأعطى الإنسان من حكمته ، والله عليم وأعطى الإنسان من علمه .

وإذا أردت أن تستوعب ما يقربك إلى كمال العلم فى الله ، فانظر ما علمه لكل خلق الله . ومع ذلك فعلمهم ناقص . ويردون إلى العلم الذاتى فى الحق سبحانه وتعالى ، وربما غرَّ الإنسان بالأسباب وهى تستجيب له ، فهو يحرث ويبذر ويروى ، وإذا بالأرض تعطيه أُكُلها . وهو يصنع الشيء فيستجيب له . كل ذلك قد يغريه بأن الأشياء استجابت لذاتيته فيذكره الله : أن اذكر من ذللها لك .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

(سورة العلق)

وساعة ما يجد الإنسان أن كل الأسباب مواتية له فعليه أن يذكر الله . إن الإنسان بمجرد إرادة أن يقوم من مكانه فهو يقوم . وبمجرد إرادة أن يصفع أحداً فهو يصفعه ؛ لأن الأبعاض التى فى الإنسان خاضعة لمراده ، فإذا كانت أبعاضك خاضعة لمراداتك أنت ، وأنت مخلوق ، فكيف لا يكون الكون كله مراداً للحق بالإرادة ؟ فإذا استغنى الإنسان بالأسباب ، فالحق يلفته إليه . فالقادر الذى كان بفتوته يفعل . يسلب الله منه القدرة بالمرض ؛ فيمد يده ليساعده إنسان على القيام. والذى اعتز بشىء يذله الله بأشياء . لماذا ؟ حتى يلفته إلى المسبِّب ، فلا يُفتن بالأسباب .

ويدع لنا الحق سبحانه وتعالى فى كونه عجائب ، ونجد العالم وقد تقدم الآن تقدماً فضائيًا واسعاً ، واستطاع الإنسان أن يكتشف من أسرار كون الله ما شاء ، ولكن الحق يصنع لهم أحياناً أشياء تدلهم على أنهم لا يزالون عاجزين . فبعد أن تكتمل لهم صناعة الآلات المتقدمة يكتشفون خطأ واحداً يفسد الآلة ويحطمها ، وتهب زوبعة أو إعصار يدمر كل شىء ، أو يشتعل حريق هائل . فهل يريد الله بكونه فساداً وقد خلقه بالصلاح ؟ لا ، إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نغتر بما أوتينا من أسباب . فالذين عملوا « الرادار » لكى يبين لهم الحدث قبل أن يقع ، يفاجئهم ربنا ـ أحياناً ـ بأشياء تعطل عمل « الرادار » ، فيعرفون أنهم مازالوا ناقصى علم .

إذن فالأخذ بالبأساء ، والأخذ بالضراء ، سنة كونية ليظل الإنسان فاهماً وعالماً أنه خليفة فى الأرض لله . وفساد الإنسان أن يعلم أنه أصيل فى الكون ، فلو كنت أصيلاً فى الكون فحافظ على نفسك فى الكون ولا تفارقه بالموت . وإن كنت أصيلاً فى الكون فذلل الكون لمراداتك . ولن تستطيع ؛ لأن هناك طبائع فى الكون تتمرد عليك ، ولا تقدر عليها أبداً .

وترى أكثر من مفاعل ذرى ينفجر بعد إحكامه وضبطه لماذا ؟! ليدل على طلاقة القدرة وأن يد الله فوق أيديهم ، إذن فاخذ الناس بالبأساء والضراء ، وبالشىء الذى نقول إنه شر إنما هو طلب اعتدال للإنسان الخليفة ، حتى إذا اغتر يرده الله سبحانه وتعالى من الأسباب إلى المسبِّب . وحين يأخذ الله قوماً بالبأساء التى تصيب الإنسان فى غير ذاته : مال يضيع ، ولد يفقد ، بيت يهدم ، أو يأخذهم بالضراء

وهى الأشياء التى تصيب الإنسان فى ذاته ، فذلك ليسلب منهم أبهة الكبرياء ، فلا يجدون ملجأ إلا أن يخضعوا لرب الأرض والسماء ، ولكى يتضرعوا إلى الله ، ومعنى التضرع ـ كما عرفنا ـ إظهار الذلة لله . وإذا لم يُجْدِ وينفع فيهم هذا ، وقالوا : لا ، إن البأساء والضراء مجرد سنن كونية ، وقد تأتى للناس فى أى زمان أو مكان . نقول لهم : صحيح البأساء والضراء سنن كونية من مكوّن أعلى من الكون، فإذا لم يرتدعوا بالبأساء والضراء ويرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه يبتليهم الله بالنعماء ، فهو القائل :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق ينتقم منهم انتقاماً يناسب جرمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية ؛ لذلك يوسع عليهم فى كل شىء حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضربة قوية قاصمة ويصيبهم اليأس والحسرة .

وقديماً قلنا تعبيراً ريفيًّا هو : إن الإنسان إن أراد أن يوقع بآخر لا يوقعه من على حصيرة ، إنما يوقعه من مكان عال . وربنا يعطى للمنكرين الكثير ويمدهم فى طغيانهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقد دلت وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبار فى الأرض والحق يملى له فى العلو ويمد له فى هذه الأسباب ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يضبط الإنسان أشياء تُعْلمه بواقع الشر فى مستقبله . مثلها مثل « الرادار » الذى يكشف لنا أى خطر فى الأفق قبل أن يأتى ، وحين يقول سبحانه : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى ليس عندهم حساب ولا مقاييس تدلهم على أن شرًّا يحيق بهم .

وأنت لو نظرت إلى هذه المسألة لوجدت الإنسان بعقله وفكره الذى لم يسلك فيه طريق الله بل سلك فيه السبيل غير الممنهج بمنهج الله ،وبينما لايلتفت الانسان إلى مجىء الكارثة ، ويتساءل : لماذا تجرى هذه الحيوانات ؟ ! إنه فى هذه الحالة يكون أقل من الحيوانات ؛ لأن الحيوان من واقع الأحداث فى بلد تحدث فيه الزلازل يكون أول خارج من منطقة الزلزال ، إن الله قد سلبه هذه المعرفة حتى تتمكن منه الضربة ، إننا نجد الحمار يجرى ليغادر مكان الزلزال ، بينما يظل الإنسان واقفاً حتى يحيق ويحيط به الخطر ، فأى إحساس وأى استشعار عند الحيوان ؟ إنه استشعار غريزى خلقه ربه فيه ؛ لأنه سلب منه التعقل فأعطاه حكمة الغرائز .

ومادام الحق قد نبه الإنسان بالبأساء فلم يلتفت ، وبالضراء فلم ينتبه إلى المنهج ؛ لذلك يأتى له الحق ويمد له بالطغيان .

لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

أى أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً ونهيًا تسلم آلاتهم ،لأن الصانع من البشر حين يصنع آلة من الآلات،يحدد ويبيّن الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاصا لتؤدى مهمتها ، فمابالنا بمن خلق الإنسان ، إذن فالبشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان فى كل خير ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، تأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردتها بركات مادية تجدها فى المطر الذى ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النبات ، وكذلك كنوزها التى تستنبط منها الكماليات المرادة فى الحياة .

وما معنى البركة ؟ . البركة هى أن يعطى الموجودُ فوق ما يتطلبه حجمه ؛ كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجده يعيش هو وأولاده فى رضا وسعادة ، ودون ضيق ، فنتساءل : كيف يعيش ؟ ويجيبك : إنها البركة . وللبركة تفسير كونى لأن الناس دائماً ـ كما قلنا سابقاً ـ ينظرون فى وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويغفلون رزق السلب . رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه ويسلب عنك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .

إذن فقوله : ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ أى أن يعطى الحق سبحانه وتعالى من القليل الكثير فى الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذى جاء من الحرام كالربا ، ولذلك سمى المال الذى نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماه زكاة مع أن الزكاة فى ظاهرها نقص ، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك فى الظاهر . وإن أقرضت أحداً بالربا مائة جنيه فأنت تأخذها منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمى النقص فى الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة فى الثانية محقا وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيانته من خالقه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جبروت من الخالق ، وإنما هى عدالة منه سبحانه ؛ لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فماذا يقول غير المفسدين ؟ . سيقول الواحد منهم : مادمنا قد استوينا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على ما يرام ، إذن فلأفسد أنا أيضاً . وذلك يغرى غير المفسد بأن يفسد ، ويعطى لنفسه راحتها وشهواتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكتسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضربنا المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملأ عينيه منها ، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسنها ، فهو يناور ويتحايل ، وتتضارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف فى ذلك عن صاحب الحلال الذى تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكنْ هؤلاء المفسدون تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فقال فيهم الحق : إنهم يكسبون الفساد ، ولا يجدون فى ارتكابه عنتا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلحظ وجود « همزة استفهام » و « فاء تعقيب » فى قوله الحق : ﴿ أفأمن ﴾ وهذا يعنى أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل عليهما الاستفهام ، أى أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابنا بياتا أو ضحى كما صنع بمن كان قبلهم من الأمم السابقة ؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بغتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ؟ والبأس هو الشدة التى يؤاخذ بها الحق سبحانه الأمم حين يعزفون عن منهجه . وما الذى جعلهم يأمنون على أنفسهم أن تنزل بهم أهوال كالتى نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحين يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما تتطلبه الأحداث من زمان

ومكان ؛ لأن كل حدث لابد له من زمن ولابد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان هنا هو القرى التى يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتى فيه البأس ، وهو قد يأتى لهم بياتاً وهم نائمون ، أو يأتى لهم ضحى وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان فى مواجهة الشمس فالدنيا تكون بالنسبة له نهاراً . والمقابل له يكون الليل . وقد يجىء البأس على أهل قرية نهاراً ، أو ليلاً فى أى وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما فى الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفى كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمن يا صاحب النهار أن يأتى البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أن يكون البأس نهاراً أو ليلاً .

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم :

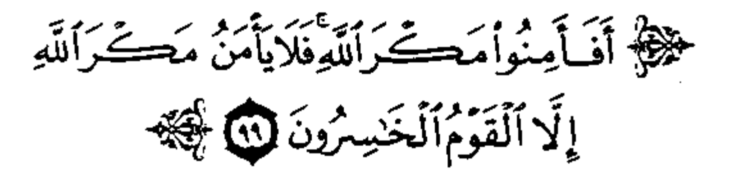
﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

ومادامو قد كذبوا فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم بـ « افعل » و « لا تفعل » .

إذن فنهارهم هو حركة غير مجدية ، وغير نافعة ، بل هى لعب فى الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفقد للحركة ، أو عبث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على غير منهج الله يقضى ليله نائماً أو لاهيًا عاصيًا ، ونهاره لاعباً ؛ لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل فى الآخرة من الجزاء الحسن .

ويقول الحق بعد ذلك :



و « الأمن » هو الاطمئنان إلى قضيه لا تثير مخاوف ولا متاعب ، ويقال: فلان

« آمن » ؛ أى لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول : وهل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة آل عمران)

والمكر أصله الالتفاف . وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة فى أعلى إلى غصن معين ؛ لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض ، وكذلك نرى هذا الالتفاف فى النباتات المتسلقة ونجد أغصانها مجدولة كالحبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة . ولكى تتمكن من خصمك فأنت تبيت له أمراً لا يفطن إليه ، وإذا كان الإنسان من البشر حين يبيت لأخيه شرًا ، ويفتنه فتناً يُعمى عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوى الذى يمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبييت لا يكتشفه أحد فهو مكر وتبييت الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير ؛ لأن الله يحمى الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم .

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهناك من يسأل : هل أمن الأنبياء مكر الله ؟ نقول نعم . لقد أمنوا مكر الله باصطفائهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟!

نقول : لقد جاء فى منهج الرسل جميعاً أن الذى يأمن مكر الله هو الخاسر ؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذى أنزل المنهج ليختار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به يخسر طمأنينة الإيمان فى الدنيا وإن كسب فيها مالا أو جاها أو علماً ، ويخسر الآخرة أيضاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

و « يهد » أى يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير ، ومعنى ﴿ يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقبهم . وحين يستقرىء الإنسان الوجود الحضارى فى الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما فى يدك وملكك جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذى يأتى على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، ومادمتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل فى بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فالمسألة دُوَلٌ ، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى فى حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويعزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتى آخر من بعده . ولذلك يقال : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسنت الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك ؛ فيجب أن تفطن وتتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يعز عليك فراقه يوماً .

واحذر أن تحسن الدخول فى أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج منه .

واستمع إلى قول الشاعر فى هذا المعنى :

إن الأميرَ هو الذى يُمسى أميراً يوم عزلهْ
إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطانُ فضلِهْ

وحين يقول الحق : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ .

نلحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول ، فلم يقل : أو لم يهد الذين ، بل قال : « يَهْد للذين » ، فما الحكمة فى ذلك ؟ . نعرف أن « الهداية » هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أى أنك قد هَدَيْت غيرك لصالحك . وقد تكون الهداية وهى الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذى هَدَى وعلى المَهْدِىّ معاً ، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على مَن هداك ، أتشك فى هدايته لك ؟ لا ، إن من حقك أن تشك فى الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هَدَى ، أو يعود أمرها على الاثنين ؛ ففى ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يَهْدِى ويعود كله لمن يُهْدَى فليس فى ذلك أدنى شك .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

« .. يا عبادى لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخْيط إذا أُدْخِل البحر »[1] .

إذن فحين يهديكم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذى يعود عليه سبحانه من صفات الكمال بهذا العمل ؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلن ينشىء خلقه

(١) رواه مسلم ـ واللفظ له ـ ورواه الترمذى .

لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا نرى أن كل هداية راجعة إلى المَهْدِىّ . وبذلك يتأكد قوله : ﴿ يهد للذين يرثون الأرض ﴾ ما هو مصلحتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : ﴿ لو نشاء ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : ﴿ أصبناهم بذنوبهم ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هى أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، وسبحانه يقول :

﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

وما الذى يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً ؟ . لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة ، وذلك يثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعطى صفة المحبوبية للمشرع الأعلى ، ثم إنه ـ سبحانه ـ خلق خلقاً لهم اختيار فى أن يطيعوا وأن يعصوا .

فالمخلوق الذى اختصه سبحانه بقدرة الاختيار فى أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصى ، ثم آمن يكون إيمانه دليلا على إثبات صفات المحبوبية للإله .

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبية للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه فى الآية نفسها :

﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق لم يقل أن لو نشاء أصبناهم لذنوبهم وذلك رحمة منه ، بل جعل العقاب بالذنوب التى يختارونها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا فى أول سورة البقرة . عن كلمة « الطبع » ؛ وهو الختم :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

لأن القلوب وعاء اليقين الإيمانى ؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر ، فهذا يعنى أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده ؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له : أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطرى الذى خلق الله الناس عليه . لأنك أنت قد سَبَّقت ووضعت فى قلبك قضية يقينية على غير إيمان ؛ لأن أصول الإيمان أن تُخْرِج ما فى قلبك من أى اعتقاد ، ثم تستقبل الإيمان بالله ، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان .

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه : قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل للإنسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد حيز ، والحيز ـ كما قلنا ـ لا تداخل للمحيِّز فيه ؛ فحين نأتى بزجاجة فارغة ونقول:إنها « فارغة » فالذى يدل على كذب هذه الكلمة أننا حين نضع فيها المياه تخرج منها فقاقيع الهواء ، وخروج فقاقيع الهواء هو الذى يسمح بدخول المياه فيها ، لأن الزجاجة ليست فارغة ، بل يخيل لنا ذلك ؛ لأن الهواء غير مرئى لنا . ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق فى صناعتها لتلك المهمة لكان من الحتمى أن تنكسر . والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر ـ والعياذ بالله لا يسع الإيمان ، والعاقل هو من يطرح القضيتين خارج القلب ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مفيداً لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قلبى بالكفر فهذه عملية لا تؤدى إلى نتيجة .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أو لم يتبيّن للذين يُستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصى والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى السماع المؤدى إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

هذا هو المراد فى سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوضحه الحق فى موضع آخر من القرآن فقال :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شىء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم . وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما فى رسالته من العلو فلابد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوى ابتلاءات الرسل جميعاً .

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟

﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والطبع ـ كما قلنا ـ هو الختم ، لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ؛ لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا قهراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، وردوا منهج الله الذى أرسله على ألسنة رسله . كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذى أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وقد يقف العقل فى أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة فى آدم ؛ لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عَقِلْنا ذلك أو لم نعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أى إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لآبائكم ، وهذا يدل على أن الإنسان وجد من حيوان منوى حى انتقل إلى بويضة حيّة من أمه فنشأ هذا الإنسان . ولو طرأ على الحيوان المنوى موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء

من حياة أبيه ، وإن سلسلت ذلك فستصل لآدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جزىء حى من آدم . ومادام فيه جزىء حى من آدم فقد شهد الخلق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سؤال التقرير ويقول : ﴿ ألست بربكم ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ بلى ﴾ .

وضربنا المثل لنقرب وقلنا إن الذرة الشائعة فى شىء ، تشيع فى أضعاف الشىء ، وسبق أن قلنا : إننا إذا جئنا بمادة ملونة حمراء - مثلاً - فى حجم سنتيمتر مكعب ، ثم أذبناها فى قارورة ، وبذلك يصبح كل جزء فى القارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت القارورة وألقيتها فى برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جزىء من المادة الحمراء ، وإن أخذت ماء البرميل وألقيته فى البحر فكل ذرة فى البحر الواسع يصير فيها جزىء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من ذهن كل منا أن فى كل إنسان جزيئاً من آدم ، وقد شهد هذا الجزىء العهد الأول . ولقائل أن يسأل : كيف يخاطب الله الذر الذى كان موجوداً فى ظهر آدم ؟ . نقول : كما خاطب الأرض وخاطب السماء ، فهو القائل :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدح فى أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذا بالنسبة للعهد الأول ، وبعده العهد الثانى الذى أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم هناك عهود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُرْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(سورة يونس)

إنهم لا يسلمون أنفسهم للعطب ، ولا يغترون بجاههم وبالأسباب التى عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا يغشون أنفسهم بل يلجأون صاغرين إلى الله قائلين :

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد فى حادثة ، فلما أنجاهم الله أعرضوا ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما أن يكون عهداً خاصًّا .

والحق يقول : ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ .

أى أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد والخروج عنه ؛ لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من المواثيق ، وهو حر فى أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملزماً ووجب عليه أن ينفذ العهد باختياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته فى إطار هذا العهد ، فإن خرج بحركته عن إطار هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل فى الفسق

أنه خروج الرطبة من القشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا تُدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال:فسقت الرطبة أى خرجت عن قشرتها . كأن ربنا جعل التكليف تغليفاً حماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطبة عن الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث وللميكروبات ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفاسق ، لأنه خرج عن الإطار الذى جعله الله له ليحميه من المفاسد ، ومن العطب الذى يقع عليه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما دار بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أراد أن يأتى بتاريخ رسول من أولى العزم من الرسل ، أى من الذين تعرضوا فى رسالاتهم لأشياء لا يتحملها إلا جَلْد قوى . وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطاً وافراً فى القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هى أطول قصص القرآن ؛ لأن انحرافاتهم ونزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبياؤهم كثيرين ، ولذلك فهم يفتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا : نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم : إن كثرة أنبيائكم تدل على تأصل دائكم ؛ لأن الأطباء لا يكثرون إلا حين يصبح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولاً واحداً لا يكفيكم ، بل لابد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ .

وكلمة « بعث » ـ كما نفهمها ـ توحى وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون ، واختيرت كلمة « بعث » للرسالات لأن البعث يقتضى أن شيئاً

كان موجوداً ثم انطمر ثم بعثه الحق من جديد ، والإيمان يتمثل فى عهد الفطرة الأول الذى كان من آدم ؛ لأن الله خلقه بيديه خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للذرية ، وهذه الصورة الأصلية هى التى تضم حقائق الإيمان التى كانت لآدم ، وحين يبعث الله رسولاً جديداً ، فهو لا ينشىء عقيدة جديدة ، بل يحيى ما كان موجوداً وانطمر ، وحين يطم الفساد يبعث الله الرسول ، فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مقومات الحياة ممن سبقه لظل الإيمان مسألة رتيبة فى البشر .

إننا نأخذ الأشياء التى أورثها لنا أجدادنا وتنفعنا فى أمور الدنيا نحتفظ بها ونحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم ؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها فى إطارها الصحيح . والإنسان يريد أن ينفلت من تقييد حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه : « أرسل » الرسل ، ومرة أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يجىء بشىء جديد ، ولكنه جاء بشىء كان المفروض أن يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التى ورّثها لكم أسلافكم وتنتفعون بها ؛ مثال ذلك : نحن ننتفع برغيف الخبز وننتفع بخياطة الإبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية ونسينا الأشياء المنهجية ؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهى تحارب الشهوات .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

والآيات ـ كما نعلم ـ جمع آية ، وهى الأمر العجيب الذى يقف العقل عنده مشدوهاً . وتُطلق الآيات ثلاث إطلاقات ؛ فهى تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبيًّا معبرة عن كل كمال يوجد فى الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارىء لها يأخذ منها على قدر ذهنه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة فى خلق الأرض والسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضى مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضى باعثاً وهو الله ، ومبعوثاً إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المنهج .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والآيات التى بعث الله بها موسى هى أدلة صدق النبوة ، وهى أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج ليشاهدها ويسمع لها فرعون وملؤه ، والملأ ـ كما عرفنا من قبل ـ هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملأ ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أى الأشراف والسادة . ولماذا حدد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط ؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اهتدى الكبار ، والغالب والعادة أن الذى يقف أمام منهج الخير هم المنتفعون بالشر ، وهم القادة أو من حولهم ، ولا يرغبون فى منهج الخير لأنه يصادم أغراضهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف فى وجه الذين عضوهم بمظالمهم وعضوهم بطغيانهم ، تصبح قلوبهم مع هذا المنقذ !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

وإن كانت الآيات هى الكلمات المؤدية للمنهج الموجودة فى التوراة ، أو كانت الآيات هى المعجزات التى تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضى إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التى أرسلها الحق مع موسى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الإسراء)

ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها فى الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو علة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة « سنين » تأتى للجدب الشديد الذى يستمر لفترة من الزمن بحيث يلفت الناس إلى حدثٍ فى زمان ، ولذلك نقول : كانت سنة عصيبة ؛ لأن السنة عضة من الأحداث ، تهدم ترف الحياة ، ثم تأتى لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيصيبهم بنقص الثمرات ، وهو الجدب والقحط ، وسمى الجدب سنة ، وجمعه سنين ، لأنه شىء يؤرخ به ، فماذا كان استقبال فرعون وملئه للآيات التى مع موسى عليه السلام ؟ يقول الحق : ﴿ فظلموا بها ﴾ .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتى ؟ .

لقد ظلموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظلوا على فسادهم ، والمفسدون ـ كما نعلم ـ هم الذين يعمدون إلى الصالح فى ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختياراته ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإنسان فى الأشياء التى بها مقومات الحياة ، مما لايدخل فى اختياره يجدها على منتهى الاستقامة .

إننا نجد الإنسان لا يتحكم فى حركة الشمس أو حركة القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريدها الله ، ولا يأتى الفساد إلا فى الأمر الذى للإنسان مدخل فيه ، والناس لا تشكو من أزمة هواء ـ على سبيل المثال ـ لأنه لا دخل فى حركة الهواء لأحد ، لكنهم شَكَوْا من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ونجد شكواهم من أزمة المياه أقل ؛ لأن مدخل الإنسان على الماء قليل .

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذى يدير حركتك الوقودية لك فيه بعض من الدخل ، فيجعل من جسمك ـ على سبيل المثال ـ مخزناً للدهون ليعطيك لحظة الجوع ما كنزته فيه من طاقة . ومن العجيب أن الدهون هذه هى مادة واحدة وساعة نحتاج إلى التغذية منها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التى نحتاج إليها .

تحتاج مثلا إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، تحتاج إلى كربون ، يعطى لك الدهن الكربون ، تحتاج إلى فوسفور يعطيك فوسفوراً ، تحتاج إلى مغنسيوم يعطيك الدهن المغنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المخزون فى أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر المخزون في هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شهيق وزفير ، ولو أن إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمنعه عنك لحظة الغضب ، لمت قبل أن يرضى عنك ، لكن إن منع عنك الماءفترة فقد يحن قلب عدوك أو يأتى لك أحد بالماء أو قد تسعى أنت بحيلة ما لتصل إليه .

إذن فالأمر الذى لا دخل للإنسان فيه نجده على منتهى الاستقامة ، ولا يأتى

الفساد إلا من الأمر الذى للإنسان فيه دخل .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن آخر الأمر سيعاقب الله المفسدين .

وأراد سبحانه أن يَذْكُر سلسلة القصة لا من بدء سلسلتها ، بل يبدأ من نهايتها ، فسبحانه لا يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، واللقطة التى يريدها فى هذا السياق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه فى هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف أوحى لأمه أن تلقيه فى البحر ، ولم ترد حادث ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

ويشرح لنا القرآن أمر بلاغ موسى لفرعون وقومه بأن الله واحد أحد وهو رب العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك يبلغهم موسى بأن الإله واحد :

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ونجد موسى يعدد كلمة الربوبية فى آيات أخرى ؛ ليأتى بالمظهر الذى دُسَّت فيه دسيسة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ، فقال موسى : إننى أتكلم عن الإله الواحد الذى هو رب السماء والأرض معاً فلا إله إلا الله وحده . وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فأبلغهم موسى بأنه

إله واحد ، وكانوا يعتقدون أن للأحياء إلهاً ورباً ، وللأموات إلهاً ورباً ، فقال لهم موسى :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويبلغ هنا موسى فرعونَ وقومَه :

﴿ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأعراف)

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

فأى هذه الأمور هو الذى يحتاج إلى بينة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين ؟ إن هذا القول يدلنا على أن موسى اختلف مع فرعون أولاً فى أن موسى رسول ، وأن للعالمين ربًا واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه ـ إذن ـ ثلاث قضايا خلافية بين موسى وفرعون . ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا فى قضية واحدة هى : هل هو رسول مبلغ عن الله بالقول الحق ؟ فماذا طلب منه ؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى .

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى فى مسألة أن للعالمين ربًّا ، وأن هذا الرب

لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلابد أن يرسل رسولاً ، بل وقف فرعون فى مسألة : هل موسى رسول مبلغ عن الله أو لا ؟

ولذلك يقول موسى :

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

(سورة الأعراف)

كأن مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بنى إسرائيل . ونعرف أن قصة بنى إسرائيل ناشئة من أيام نبى الله يعقوب وابنه يوسف حين كاد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا فى أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه فى غيابة الجب ، لقد جاء الحق بقصة بنى إسرائيل على مراحل لنتدرج بالانفعال معها . فمراحل الانفعال النفسى أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين : صورة تدل على تصعيد الرحمة فى قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر فى قلبك ، مثال ذلك : لنفترض أن لك خصماً وصنع فيك مكيدة ، وتحكى أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فتقول : أريد أن انتقم منه بضربه صفعتين ، ثم تصعد الشر فتقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخيّر فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصفعه أو أشتمه وأسبّه فهذا تصعيد فى الخير . إذن . يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب طاقة الخير أو الشر التى فى النفس . وهكذا نجد إخوة يوسف وهم يكيدون له ، فقالوا :

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

هم يعترفون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون على ذلك ، ويظهرون البينة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر القرآن هذه البينة لنعرف أهميتها ، حتى لا يغفل أحد عنها . لقد كان قلب نبى الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقوياء أشداء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع فى قلب الأبوة والأمومة من الرحمة على قدر ضعف الوليد الصغير . فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون

قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب . ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بنيك إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن فقول إخوة يوسف : ﴿ ونحن عصبة ﴾ . هو بينة ضدهم . وكان المنطق يقتضى أن يعرفوا أنهم ماداموا عصبة فلابد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسباط وذريّة أنبياء ، نجدهم يصعدون الخير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه فى أرض بعيدة نائية ليستريحوا منه ويخلو لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقاءه فى غياهب الجب ؛ بدأوا بالقتل فى لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ، أى أن يتركوه فى مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقائه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن يضروه ، أو كانوا يفكرون فى نجاته ؟ . إذن فهذا تصعيد للخير .

وتوالت الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل فى مصر وكثرت أعدادهم . وعندما نستقرىء التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم ملك ، فهناك فرعون وهناك ملك .

فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

هكذا نجد الحق يسمى حاكم مصر « فرعون » وفى أيام سيدنا موسى أيضاً يسميه الحق فرعون . لكن فى أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سمَّاه ملكاً :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

وبعد أن اكتشف العالم الفرنسى شامبليون ـ حجر رشيد ـ عرفنا أن الفترة التى دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القرآن هذه الحقيقة التاريخية حين سمى حكام مصر قبل يوسف فراعين ، وفى الفترة التى جاء فيها سيدنا يوسف سماهم « الملوك » ، وهؤلاء هم من أغاروا على مصر وحكموها وساعدهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشّر إلى من أعان الهكسوس ؛ فبدأوا فى استذلال بنى إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس إبّان حكمهم مصر . وأراد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول الحق على لسان موسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

كأن موسى يريد أن يخلص بنى إسرائيل ، أما مسألة الألوهية وربوبية فرعون فقد جاءت عرضاً .

ويقول فرعون :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يُظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن ففرعون يعتقد أن لله آيات تثبت صدق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .

ويكشف موسى عليه السلام الآية :

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مدين ورأى ناراً وبعد ذلك قال لأهله :

﴿ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة طه)

ثم سمع خطاباً :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة طه)

وحين يقال له : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ ، كان يكفى أن يقول فى الجواب : عصاى ، ولا داعى أن يقول : « هى » ولا داعى أن يشرح ويقول : إنه يتوكأ عليها وأن له فيها مآرب أخرى ؛ لأن الحق لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن فجواب موسى قد جاوز فى الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من الواجب أن يعطى الجواب على قدر السؤال . لكن من يقول ذلك ينسى أنه لا يوجد من يزهد فى الأنس بخطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

ولقد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيبة المخاطب فكان تهافته على الخطاب حبًّا لأنسه فى الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ كان من الممكن أن يقول استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللعصا أكثر من إلقاء ، إلقاء الدربة والتمرين على لقاء فرعون حين أمره الحق :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

فماذا حدث ؟ قال له الله :

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

(سورة طه)

فساعة خاف ، دل على أن ما حدث للعصا ليس من قبيل السحر ؛ لأن الساحر حين يلقى عصاه أو حبله يرى ذلك عصا أو حبلاً ، بينما يرى ذلك غيره حية ، ولذلك يقول الحق عن السحرة :

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن حقيقة الشيء في السحر تظل كما هي في نظر الساحر ، لكن موسى أوجس في نفسه خيفة ، فهذا يدل على أن العصا انتقلت من طبيعتها الخشبية وصارت حية .

وكان من الممكن أن تورق العصا وتخضر على الرغم من أنها كانت غصناً يابساً . ولو حدث ذلك فسيكون معجزة أيضاً ، ولكن نقلها الله نقلتين : نقلها من الجمادية ، وتعدى بها مرحلة النباتية إلى مرحلة الحيوانية .

وكأن الحق العليم أزلاً يرد على من أراد اللغط في مسألة إلقاء العصا ، وقد ظن بعض الجاهلين أن ذلك تكرار في الكلام في قصة واحدة . ولم يلحظوا أن جهة الإلقاء للعصا كانت منفكة ، ففي القرآن ثلاثة إلقاءات للعصا : إلقاء التدريب حينما اصطفى الله موسى رسولاً وأعلمه بذلك في طور سيناء :

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وبعد ذلك قال له :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾

(سورة طه)

وإلقاء التدريب على المهمة هدفه طمأنة موسى ، حتى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو على يقين أن العصا ستستجيب له فتنقلب حية بمجرد إلقائها ، ولو أن الله قال له خبراً « إذا ذهبت إلى فرعون فألق العصا فستنقلب حية » ، فقد لا يطمئن قلبه إلى هذا الأمر . فأراد الله أن يدربه عليها تدريباً واقعيًّا ، ليعلم أن العصا ستستجيب له حين يلقيها فتنقلب حية ، وكان ذلك أول إلقاء لها ، أما الإلقاء الثانى فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين ، وإعلامة بالبينة ، وهو ما نحن بصدده الآن فى هذه الآية التى نتكلم بخواطرنا الإيمانية فيها .

ثم هناك إلقاء ثالث وهو إلقاء التحدى للسحرة ، ولأن لكل إلقاء موقعاً فلا تقل أبداً :أن ذلك تكرار . وإنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملابسات ، فلكل موقف ما يتطلبه ، فلا تغنى لقطة هنا عن لقطة هناك .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومرّة يقول عن العصا : ﴿ كأنها جان ﴾ .

ويقول المشككون فى كلام الله من المستشرقين : كيف يقول مرة إنها ثعبان مبين . ثم مرة أخرى يقول : ﴿ فإذا هى حية تسعى ﴾ ، ومرة ثالثة يقول : ﴿ كأنها جان ﴾ . ونقول : إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، ومختلفات تتكامل ، فهى ثعبان مرة ، وهى حية مرة ثانية ،وهى جان ؛ لأن الثعبان هو الطويل الخفيف الحركة ، والحية هى الكتلة المخيفة بشكلها وهى متجمعة ، والجان هو الحية المرعبة الشكل . فكأنها تمثلت فى كل مرة بمثال يرعب من يراه ، وكل مرة لها شكل ؛ فهى مرة ثعبان ، ومرة حية ، وثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان ، وتكون حية عند من تخيفه الحية ، وتكون جاناً عند من يخيفه الجان ، ولذلك تجد أن إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم .

ومثال ذلك إبهام الحق لأمر الموت ، فلا يحكمه سن ، ولا يحكمه سبب ، ولا يحكمه زمان ، وفى هذا إبهام لزمانه وإبهام لسببه مما يجعله بياناً شائعاً تستقبله

بأى سبب فى أى زمان أو فى أى مكان، وهكذا يأتى الإبهام هنا لكى يعطينا الصور المتكاملة ، وقال بعض المستشرقين : إن المسلمين يستقبلون القرآن بالرهبة وبالانبهار . ولا يحركون عقولهم لكى يروا المتناقضات فيه ، لكن غير المسلم إن قرأ القرآن يتبين فيه أشياء مختلفة كثيرة ، قالوا بالنص: « أنتم تعلمون بقضايا اللغة أن التشبيه إنما يأتى لتُلْحِق مجهولاً بمعلوم » ، فيقال : أنت تعرف فلاناً ، فتقول : لا والله لا أعرفه . فيقول لك : هو شكل فلان ؛ فى الطول ، وفى العرض ، وفى الشكل ، إذن فقد ألحق مجهولاً بمعلوم ليُوضحه . فكيف يلحق القرآن مجهولاً بمجهول ، إن هذا لا يعطى صورة مثلما تكلم القرآن عن شجرة الزقوم فقال :

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فكيف توجد شجرة فى الجحيم ، إنها أشياء متناقضة ؛ لأن الشجرة فيها خضرة ، وتحتاج إلى رى ، ومائية ، والجحيم نار وجفاف ، ثم إن الشيطان غير معلوم الصورة للبشر ، وشجرة الزقوم غير معلومة لأنها ستأتى فى الآخرة ، فكيف يُشَبِّه الله مجهولاً بمجهول . واستخدم المستشرقون ذلك كدليل على أن المسلمين يأخذون القرآن بانبهار ولا يبحثون فيه ، ونرد عليهم : أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة ، بل عرفتموها صناعة ، ولم تتفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب . وقد تخيلت لغة العرب أشياء رأت فيها البشاعة والقبح ؛ كأن قالوا : « ومسنونة زرق كأنياب أغوال » ، والغول كائن غير موجود ، لكنهم تخيلوا الغول المخيف وأن له أنياباً . . . إلخ .

إذن التشبيه قد يكون للأمر المُتَخَيَّل فى أذهان الناس ، والأصل فى التشبيه أن يلحق مجهولاً ليُعلم ، وشجرة الزقوم لا نعرفها ، ورءوس الشياطين لم نرها ، وهكذا ألحق الله مجهولاً بمجهول ، ولماذا لم يأت بها فى صورة معلومة ؟ . لأنه ـ سبحانه ـ يريد أن يشيع البيان ، ويعمم الفائدة ويربيها ؛ لأن الإخافة تتطلب مخيفاً ، والمخيف يختلف باختلاف الرائين ، فقد يوجد شىء يخيفك ، ولكنه لا يخيف غيرك ، وقد تستقبح أنت شيئاً ، ولكن غيرك لا يستقبحه ، ولذلك ضربنا ـ سابقاً ـ مثلاً . وقلنا : لو أننا أحضرنا مجموعة من كبار رسامى الكاريكاتور فى

العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان تخيلوا الشيطان وارسموه ، أيتفقون على شكل واحد فيه ؟ لا ؛ لأن كل رسام سيرسم الشيطان من وحى ما يخيفه هو .

ولقد قال الله فى صورة : شجرة الزقوم ﴿ طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ ؛ ليتخيل كل سامع ما يخيفه من صورة الشيطان ، فتكون الفائدة عامة من التخويف من تلك الشجرة . لكنه لو قالها بصورة واحدة لأخاف قوماً ولم يخف الآخرين . ومثال ذلك أمر عصا موسى ، فهى مرة ثعبان ، ومرة جان ، ومرة حية ، وكلها صور لشيء واحد مخيف ، ويقول الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ .

وقوله : ﴿ فإذا هى ﴾ يوضح الفجائية التى أذهلت فرعون ، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخم فى لمح البصر بمجرد إلقائها ، ومن فوائد تدريب سيدنا موسى على إلقاء العصا فى طور سيناء أن موسى لن تأخذه المفاجأة حين يلقيها أمام فرعون ، بل ستأخذ المفاجأة فرعون . كأن التدريب أولاً لإقناع موسى وضمان عدم خوفه فى لحظة التنفيذ ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب ؛ لأن العصا صارت ثعباناً وحيَّة حقيقية ، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا فى عين الساحر ولا يخاف منها ، إذن خوفه منها إبَّان التدريب دليل على أنها انقلبت حقيقة ، لا تخيلاً ، وتلك هى مخالفة المعجزة للسحر ، فالمعجزة حقيقة والسحر تخييل ، وهذا هو الذى سيجعل السحرة يخرون ساجدين لأنهم قد ذهلوا مما حدث .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « مبين » أى بيِّن ، وواضحة ملامحه المخيفة التى لا تخفى على أحد ، ويقدم موسى عليه السلام الآية الثانية ، فيقول الحق :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

وهذه آية معجزة أخرى . وقوله : « ونزع » تعنى إخراج اليد بعسر ، كأن هناك

شيئاً يقاوم إخراج اليد ؛ لأنه لو كان إخراج اليد سهلاً ، لما قال الحق : «ونزع يده»لأنَّ النزع يدل على أن شيئاً يقاوم ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

لأن نزع الملك ليس مسألة سهلةً ؛ ففى الغالب يحاول صاحب الملك التشبث بملكه ، لكن الحق ينزعه من هذا الملك . كذلك قوله : « ونزع يده » ، وهذا يدل على أن يده لها وضع ، ونزع يده وإخراجها بشدة له وضع آخر ، كأنها كانت فى مكان حريص عليها . إذن ففيه لقطة بينت الإدخال ، ولقطة بينت النزع ، وهما عمليتان اثنتان . وقال سبحانه فى آية ثانية :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النمل)

و « الجيب » هو مكان دخول الرأس من الثوب ، وإن كنا نسمى « الجيب » فى أيامنا مطلق شىء نجعله وعاء لما نحب ، وكان الأصل أن الإنسان حين يريد أن يحتفظ بشىء ، يضعه فى مكان أمامه وتحت يده ، ثم صنع الناس الجيوب فى الملابس ، فسميت الجيوب جيوباً لهذا .

والحق قال فى موضع آخر :

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

إذن ففيه إدخال وإخراج ، وكل آية جاءت بلقطة من اللقطات ؛ فآية أوضحت دخول اليد فى الجيب ، وأخرى أوضحت ضم اليد إلى الجناح ، وثالثة أوضحت نزع اليد ، وهذه لقطات متعددة ، تكوّن كلها الصورة الكاملة ؛ لنفهم أن القصص فى القرآن غير مكرَّر ، فالتكرير قد يكون فى الجملة . لكن كل تكرير له لقطة تأسيسية ، وحين نستعرضه نتبين أركان القصة كاملة . فكل هذه اللقطات تجمّع لنا القصة . وقلنا قبل ذلك : إن الصراع بين فرعون وموسى لا ينشأ إلا عن عداوة ،وحتى يحتدم الصراع لابد أن تكون العداوة متبادلة ، فلو كان واحد عدوًا

والثانى لا يشعر بالعداوة فلن يكون لديه لدد خصومة ، وقد يتسامح مع خصمه ويأخذ أمر الخلاف أخذاً هينا ويسامحه وتنفض المسألة . لكن الذى يجعل العداوة تستعر ، ويشتد ويعلو لهيبها أن تكون متبادلة . وتأتى لنا لقطة فى القرآن تثبت لنا العداوة من فرعون لموسى ، ولقطة أخرى تثبت العداوة من موسى لفرعون ، فالحق يقول :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

هذه تثبت العداوة من فرعون لموسى .

ويقول الحق :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهذه تثبت أن موسى عدوٌّ لهم . وكلتا اللقطتين يُكمل بعضها بعضاً لتعطينا الصورة الكاملة .

والحق هنا يقول :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾

(سورة الأعراف)

ونعرف أن موسى كان أسمر اللون ، لذلك يكون البياض فى يده مخالفاً لبقية لون بشرته ، ويده صارت بيضاء بحيث ساعة يراها الناس يلفتهم ضوؤها ويجذب أنظارهم ، وهى ليست بيضاء ذلك البياض الذى يأتى فى سُمرة نتيجة البرص ، لا ؛ لأن الحق قال فى آية أخرى :

﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

وكل لقطة كما ترى تأتى لتؤكد وتكمل الصورة . إذن فقوله : ﴿ بيضاء للناظرين ﴾ يدل على أن ضوءها لامع وضىء ، يلفت نظر الناس جميعاً إليها ،

ولا يكون ذلك إلا إذا كان لها بريق ولمعان وسطوع ، وقوله : ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ ﴾

عرفنا أن الملأ هم القوم الذين يتصدرون المجالس ، ويملأونها أو الذين يملأون العيون هيبة ، والقلوب مهابة وهم هنا المقربون من فرعون . وكأنهم يملكون فكرة وعلما عن السحر . وفى سورة الشعراء جاء القول الحق :

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن فهذه رواية جاءت بالقول من الملأ ، والآية الأخرى جاءت بالقول على لسان فرعون ، وليس فى هذا أدنى تناقض ، ومن الجائز أن يقول فرعون : إنه ساحر ، وأيضاً أن يقول الملأ : إنه ساحر . وتتوارد الخواطر فى أمر معلوم متفق عليه . وقد حدث مثل هذا فى القرآن حينما نزلت آيات فى خلق الإنسان وتطوره بأن كان علقة فمضغة إلخ فقال كاتب الوحى بصوت مسموع :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وافقت ربى فى أربع : نزلت هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ الآية قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1] .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

وعن زيد بن ثابت الأنصارى قال : أملى علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله : ﴿ .. خلقاً آخر ﴾ فقال معاذ : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مِمّ تضحك يارسول الله ؟ فقال : « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

لقد جاءت الخواطر فى الحالة المهيجة لأحاسيس الإيمان لحظة نزول الوحى بمراحل خلق الإنسان .

فماالذى يمنع من توارد الخواطر فيجىء الخاطر عند فرعون وعند الملأ فيقول ويقولون ؟ أو يكون فرعون قد قالها وعلى عادة الأتباع والأذناب إذا قال سيدهم شيئاً كرروه .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ولم يصفوا فعل سيدنا موسى بأنه ساحر فقط بل بالغوا فى ذلك وقالوا : إنه ساحر عليم . وأضافوا ما جاء على ألسنتهم بالقرآن فى هذه السورة .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

إنها نكبة جاءت لفرعون الذى يدعى الألوهية ، ونكبة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل فى هيئته وهيبته ؛ قال عن موسى : إنه ساحر ، لكى يصرف الناس الذين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والاقتناع به ، وأنه رسول رب العالمين ، وبعد ذلك يهيج فرعون وطنيتهم ويهيج ويثير غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكانهم فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وأورده ابن كثير فى تفسيره وقال : وفى إسناده جابر بن زيد الجعفى ضعيف جدا ، ونرى أن خبر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصح .

اتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يخرج الناس بسحره من أرضهم ، وهذا القول من فرعون ومن معه له هدف هو تهييج الناس وإثارتهم ؛ لأن فرعون أقنع الناس أنه إله . وهاهي ذى الألوهية تكاد تنهدم فى لحظة ، فقال عن موسى إنه ساحر ، وبين قوم لهم إلف بالسحر ، وقوله : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ على لسان الملأ من قوم فرعون تدل على أن القائل للعبارة أدنى من المقول لهم ، فالمفروض أن فرعون هو صاحب الأمر على الجميع ، ومجىء القول : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ يدل على أن الذى يأمر فى مسائل مثل هذه هو فرعون ، وهذا يشعر بأن فرعون قد أدرك أن مكانته قد انحطت وأنه نزل عن كبريائه وغطرسته . أو أن يكون ذلك من فرعون تطييباً لقلوب من حوله ، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، فكيف تشاور الناس يا فرعون وأنت قد غرست فى الناس أنك إله ؟ وهل يشاور الإله مألوهاً ؟ . إن قولك هذا يحمل الخيبة فيك لأنك تدعى الألوهية ثم تريد أن تستعين بأمر المألوه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

و «أرجه» أى أخّره مثل قوله الحق :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة التوبة)

أى أنهم مؤخرون للحكم عليهم وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فخلفوا وأرجىء أمرهم حتى نزل فيهم قوله سبحانه : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ إلخ الآية .

وقولهم :

﴿ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

وهكذا كان طلب الإرجاء لأن المسألة أخطر من أن يُتَصَرَّف فيها تصرفاً سريعاً

بل تحتاج إلى أن يؤخّر الرأى فيها حتى يجتمع الملأ ، ويرى الجميع كيفية مواجهتها ، فهى مسألة ليست هينة لأن فيها نقض ألوهية فرعون ، وفى هذا دك لسلطان الفرعون وإنهاء لانتفاعهم هم من هذا السلطان . فإذا كان قد قال لهم : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ .

فكأنه كان يطلب منهم الرأى فوراً ، لكنهم قالوا إن المسألة تحتاج إلى تمهل وبطء ، وأول درجات البطء والتمهل أن يُستدعى القوم الذين يفهمون فى السحر . فمادمنا نقول عن موسى:إنه ساحر ، فلنواجهه بما عندنا من سحر : وقبول فرعون لهذه المشورة هدم لألوهيته ؛ لأنه يدعى أنه إله ويستعين بمألوه هم السحرة ، والسحرة أتباع له . وقوله الحق على ألسنتهم :

﴿ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

يدل على أن السحر كان منتشراً ، ومنبثاً فى المدائن وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملأ بقوله :

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

ولأن المستشرقين يريدون أن يشككونا فى القرآن قالوا : ولماذا قال فى سورة الشعراء : ﴿ يأتوك بكل سحّار عليم ﴾ . وكأن هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين ﴿ ساحر عليم ﴾ و ﴿ سحّار عليم ﴾ ؛ ولأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن « سحّار » تفيد المبالغة من جهتين . فكلمة « ساحر » تعنى أنه يعمل بالسحر ، و « سحّار » تعنى أنه يبالغ فى إتقان السحر ، والمبالغات دائماً تأتى لضخامة الحدث ، أو تأتى لتكرر الحدث . فـ « سحّار » تعنى أن سحره قوى جدًّا ، أو يسحر فى كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر ، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً . ومادام القائلون متعددين . . فواحد يقول : ساحر ، وآخر يقول : سحّار وهكذا . والقرآن يغطى كل اللقطات .

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢ ﴾

(سورة الأعراف)

و « حاشرين » تعنى مَن يحشر لك السحرة ويجمعهم لا بإرادتهم ولكن بقوة فرعون وبطش جنده .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ ﴾

وقوله : ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ يدل على بطش الآمر ، أى أنه ساعة قال الكلمة هُرِع الجند بسرعة ليجمعوا السحرة . وقد ولغ بعض المستشرقين فى هذه اللقطة أيضاً فتساءلوا : ولماذا جاء بقول مختلف فى سورة أخرى حين قال :

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

لقد جاء بها بهمزة الاستفهام ، وفى سورة الأعراف جاء بها من غير همزة الاستفهام ، وهذه آية قرآنية ، وتلك آية قرآنية . وأصحاب هذا القول يتناسون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد انفعل انفعالاً أدى به مطلوبه ؛ فالذى يستفهم من فرعون قال : « أإن » ، والشجاع قال لفرعون : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ . وفى القضية الاستفهامية لا يتحتم الأجر لأنه من الجائز أن يرد الفرعون قائلا : أنْ لا أجر لكم ، ولكن فى القضية الخبرية « إن لنالأجراً » أى أن بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الأجر ، وقد غطى القرآن هذا الاستفهام ، وهذا الخبر .

وتأتى إجابة فرعون على طلب السحرة للأجر :

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

و « نعم » حرف جواب قائمة مقام جملة هى : لكم أجر ، وأضاف أيضاً : ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ .

وهذا دليل على أنه ينافقهم أو يبالغ فى مجاملتهم ؛ لأنه يحتاج إليهم أشد الحاجة . وهكذا نجد ألوهية فرعون قد خارت أمام المألوهين السحرة . وقوله : ﴿ لمن المقربين ﴾ هذه تدل على فساد الحكم ؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء . لكن إذا ما كان هناك مقربون فالدائرة الأولى منهم تنهب على قدر قربها ، والدائرة الثانية تنهب أيضاً ، وكذلك الثالثة والرابعة ، فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناس مصنفين عند الحاكم .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه كان يسوّى بين الناس جميعاً فى نظره حتى يظن كل إنسان أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يدنى أحداً ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع بأنه مقرب . .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

ونلحظ أنهم لم يؤكدوا لموسى رغبتهم فى أن يلقى هو أولا عصاه . ولكنهم أكدوا رغبتهم فى أن يكونوا هم أول الملقين . فجاءوا بضمير الفصل وهو (نحن) الذى يفيد التأكيد .

ونعلم أن مَن يعقّب ويكون عمله تاليا لمن سبقه ، فإن فعله هو الذى سيترتب

عليه الحكم . ولابد أن يكون قوى الحجة . هم يريدون أن يكونوا هم المعقبين ، وأن موسى الذى يبدأ ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدأوا هم أولاً ؛ لذلك جاءوا بالعبارة التى تحمل المعنيين :

﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة الأعراف)

فعلم موسى أنهم حريصون ، على أن يبدأوا هم بالإلقاء فأتوا بكلمة (نحن) . وفكر موسى أن من صالحه أن يلقوا هم أولاً ؛ لأن عصاه ستلقف وتبتلع ما يلقون ؛ لذلك يأتى قوله سبحانه :

﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

هم - إذن - سحروا أعين الناس ، والسحر - كما نعلم - لطف حيلة يأتى بأعجوبة تشبه المعجزة . وكأنها تخرق القانون ، وهو غير الحيلة التى يقوم بها الحواة ؛ لأن الحواة يقومون بخفة حركة ، وخفة يد ، ليعموا الأمر على الناس . لكن « السحر » شىء آخر ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جنس بقانون ؛ خلق الإنس بقانون ، وخلق الجن بقانون ، وخلق الملائكة بقانونها :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

وكل قانون له خصائصه ومميزاته التى تناسب عنصر تكوينه ، فالإنسان - مثلاً - لأنه مخلوق من الطين له من الكثافة ما يمنعه من التسلل من خلال جدار ؛ لأنك لو كنت تجلس وهناك تفاحة وراء الجدار الذى تجلس بجواره فلن يتعدى ريحها ولا طعمها إلى فمك ؛ لأن الجدار يحول بينك وبين ذلك ، لكن لو كانت هناك جذوة من نار بجانب الجدار الذى تستند عليه لكان من الممكن أن يتعدى أثرها

لك ؛ لأن للنار إشعاعات تنفذ من الأشياء ، ولأن الجن مخلوق من نار ، لذلك نجد له هذه الخاصية .

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فإذا كان الجن له قانون والإنس له قانون ، فهل القانون هو الذى يسيطر ؟ لا ، بل رب القانون هو الذى يسيطر لأنه جل وعلا فوق القانون . فيأتى الله للإنس ويُعَلِّم واحداً منهم بعضاً من أسرار كونه ليستذل الجن لخدمته ، برغم ما للجن من خفة حركة ، فسبحانه يوضح : لا تظن أيها الجن أنك قد أخذت خصوصيتك من العنصر الذى يكونك لأن هناك القادر الأعلى وهو المعنصر لك ولغيرك ، بدليل أن الإنسان وهو من عنصر آخر يتحكم فيك بعد أن علمه الله بعضاً من أسرار كونه . ولنتنبه دائماً أن العلم بأسرار تسخير الجن هو من ابتلاءات الحق للخلق ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فكأن هاروت وماروت وهما يعلّمان الإنسان كيف يمارس السحر ، ينصحان الإنسان الذى يرغب فى أن يتعلم السحر أولاً ، ويوضحان له أنهما فتنة أى ابتلاء واختبار ويقولان له : ﴿ فلا تكفر ﴾ ، مما يدل على أن كل من يتعلم السحر ؛ إن قال لك : إنى سأستعمله فى الخير فهو كاذب ؛ لأنه يقول ذلك ساعة صفاء نفسه تجاه الخلق ، لكن ماذا إن غافله إنسان من أى ناحية وغلبه على بعض أمره وهو يملك بعضاً من أسرار السحر ؟ هل يقدر على نفسه ؟ لقد قال إنه أمين وقت التحمل ، لكن هل يظل أميناً وقت الأداء ؟ إن من يتعلم السحر قد يستخدمه فى الانتقام من غيره ، وبذلك يضيع تكافؤ الفرص ، ونعلم أن تكافؤ الفرص هو الذى يحمى الناس ، ويعطى بعضهم الأمن من بعض ، ويُلزم كل إنسان حدّه .

فإذا أخذ إنسان سلاحاً ليس عند غيره فقد يستخدمه ضد من لايملك مثله ، والإنسى الذى يأخذ سلاح استخدام الجن إنما يأخذ سلاحاً لا يملكه أخوه

الإنسى ، وبذلك يكون قد أخذ فرصة أقوى من غيره وفى هذا ابتلاء ؛ لأن الإنسان قد ينجح فيه وقد يخفق فلا يظفر بما يطلبه ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا تكفر ﴾ يدل على أنهما علما طبائع البشر في أنهم حين يأخذون فرصة أعلى قد يُضْمَنون وقت صفاء نفوسهم ، ولكنهم لا يُضْمَنون يوم تعكير نفوسهم .

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

مادام الحق هو الذى أعطاهم هذه القدرة فهو سبحانه القادر على أن يسلبها منهم ، مثلما يمنح الله سبحانه وتعالى القدرة لإنسان ليكون غنيًا وقادراً على شراء سلاح نارى ، وأن يتدرب على إطلاق النار ، فهذا الرجل ساعة يغضب قد يتصور أن يحل خلافه مع غيره أو ينهى غضبه مع أى إنسان آخر بإطلاق الرصاص عليه . لكن لو لم يكن معه « مسدس » فقد ينتهى غضبه بكلمة طيبة يسمعها ، إذن فساعة ما يمنع الله أمراً فهو يريد أن يرحم ؛ لذلك يقول : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ .

وفى هذا تحذير لمن يتعلم مثل هذا الأمر ، ويريد سبحانه أن يحمى خلقه من هذه المسألة ، ويكفى أن نعلم أنه سبحانه قد قال : ﴿ وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ .

فلو أنك تتبعت هؤلاء لاستذلوك ، واستنزفوك ، ويتركك الله لهم لأنك اعتقدت فيهم ، أما إن قلت : « اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر ، ولكنك احتفظت لنفسك بإذن الضر ، فإنى أعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه ، بحق قولك : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . هنا لن يمكنهم الله منك ، إنما إن استجبت وسرت معهم ، فهم يستنزفونك ، وأراد الله أن يفضح مثل هذه العملية فقال على ألسنة السحرة الذين استدعاهم فرعون :

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

وكأنهم يعترفون بالنقص فيهم ، فعلى الرغم من ادعائهم القدرة على فعل المعجزات إلا أنهم عاجزون عن الكسب الذى يوفى حاجاتهم ؛ لذلك طلبوا الأجر من فرعون ، وهذا حال الذين يشتغلون بالسحر والشعوذة . هم يدعون القدرة ويعانون الفاقة والعوز . هكذا حكم الحق بضيق رزق من يعمل بالسحر ، ويفضحهم الحق دائماً ، وللعاقل أن يقول : ماداموا يَدّعُون الفلاح فليفلحوا فى إصلاح أحوالهم . ومادام الساحر يدعى أنه يعرف أماكن الكنوز المخبوءة فلماذا لا يعرف كنوزاً فى الأرض التى ليست مملوكة لأحد ويأخذها لنفسه ؟ هذا إن افترضنا أن الساحر أمين للغاية ولا يريد أن يأخذ من خزائن الناس .

ولذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بشعى الهيئة ؛ مصابين فى الذرية ؛ لأن الكائن منهم استغل فرصة لا توجد لكل واحدٍ من جنسه البشرى ، وذلك للإضرار بالناس . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾

(سورة الجن)

وهنا يقرر الحق أنهم سيعيشون فى إرهاق وتعب . ولذلك يتحدد موقفنا من السحر بأننا لا ننكره مثلما ينكره آخرون . فقد قال بعض من العلماء : إن السحرة جاءوا بعصىّ وضعوا فيها زئبقاً ،وعند وجود الزئبق تحت أشعة الشمس تعطى له حرارة فتتلوى العصى ، لكن نحن لا ننكر السحر ، كما لا ننكر الجن لأنه لا يفوتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن عفريتا من الجن تفلّت علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة فأمكننى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى ﴾ »[1] .

فمادام الحق قد قال : إنه خلق خلقاً لا تدركهم بإحساسك ، فنحن نقر

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم والنسائى .

بما أبلغنا به الحق ؛ لأن وجود الشيء أمر وإدراك وجوده أمر آخر ، وكل مخلوق له قانونه ، فالعفريت من الجن قال لسيدنا سليمان عن عرش بلقيس :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

وكأن الجن يطلب زمناً ما ، فقد يجلس سليمان في مقامه معهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثا ، لكن الذى عنده علم من الكتاب يقول :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

ولابد أن يكون طرفه قد ارتد فى أقل من ثانية بعد أن قال ذلك ، ولهذا نجد القرآن يورد ما حدث على الفور فيقول : ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾ .

مما يدل على أن الله قد خلق الأجناس ، وخلق لكل جنس قانوناً ، وقد يكون هناك قانون أقوى من قانون آخر ، لكن صاحب القانون مخلوق لذلك لا يحتفظ به ؛ لأن خالق القانون يبطله ، ويسلط أدنى على من هو أعلى منه . ولندقق فى التعبير القرآنى : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ .

ونحن أمام أشياء هى العصى والحبال . وجمع من البشر ينظر . ونفهم من قوله الحق : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ أن السحر يَنْصَبُّ على الرائى له ، لكن المرئى يظل على حالته ، فالعصى هى هى ، والحبال هى هى ، والذى يتغير هو رؤية الرائى . ولذلك قال سبحانه فى آية ثانية :

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة طه)

إذن فالسحر لا يقلب الحقيقة ، بل تظل الحقيقة هى هى ويراها الساحر على طبيعتها . لكن الناس هى التى ترى الحقيقة مختلفة . إذن فالسحرة قد قاموا بعملهم وهو : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ .

واسترهبوهم أى أدخلوا الرهبة فى نفوس الناس من هذه العملية ، وظن السحرة أن موسى سيخاف مثل بقية الناس المسحورين ، ونسوا أن موسى لن ينخدع بسحرهم ؛ لأنه باصطفاء الله له وتأييده بالمعجزة صار منفذاً لقانون الذى أرسله فجعل عصاه حية ، وصاحب القانون هو الذى يتحكم . وهم قد جاءوا بسحر عظيم ، وهو أمر منطقى ؛ لأن العملية هى مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاء ألوهيته ، لذلك لابد أن يأتوا بآخر وأعظم ما عندهم من السحر .

ويقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

ولماذا احتاجت هذه المسألة إلى وحى جديد خصوصاً أنه قد سبق أن تم تدريب موسى على إلقاء العصا ؟ . ونقول : فيه فرق بين التعليم للإعداد لما يكون ، والتنفيذ ساعة يكون ، فساعة يأتى أمر التنفيذ يجىء الحق بأمر جديد ، فربما يكون قد دخل على بشرية موسى شىء من السحر العظيم ، والاسترهاب ، هذا ونعلم أن قصة موسى عليه السلام فيها عجائب كثيرة . فقد كان فرعون يقتل الذكران ، ويستحى النساء ، وأراد ربنا ألا يُقتل موسى فقال سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وقوله سبحانه : ﴿ أرضعيه فإذا خفت عليه ﴾ يدل على أن العملية المخوفة لم تأت بعد ، بل ستأتى لاحقاً . وهات أيّة امرأة وقل لها : إن كنت خائفة على ابنك من أمر ما فارميه فى البحر . من المؤكد أنها لن تصدقك ، بل ستسخر منك ؛ لأنها ستتساءل : كيف أنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ . وهذا هو الأمر الطبيعى ، لكن نحن هنا أمام وارد من الله إلى خلق الله ، ووارد الله لا يصادمه شك . إذن فالخاطر والإلهام إذا جاء من الله لايزاحمهما شىء قط . ولا يطلب

الإنسان عليه دليلاً لأن نفسه قد اطمأنت إليه ؛ لذلك ألقت أمام موسى برضيعها فى البحر .

ويقدّر الله أنها أم فيقول :

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولن يرده إليها فقط ، بل سيوكل إليه أمراً جللاً :

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكأن الحق سبحانه يوضح لأم موسى أن ابنها لن يعيش من أجلها فقط ، بل إن له مهمة أخرى فى الحياة فسيكون رسولاً من الله . فإذا لم تكن السماء ستحافظ عليه لأجل خاطر الأم وعواطفها ، فإن السماء ستحفظه لأن له مهمة أساسية ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يأت بسيرة التابوت لكنه فى آية ثانية يقول :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾

(سورة طه)

ولم يقل فى هذه الآية : ﴿ ولا تخافى ولا تحزنى ﴾ ؛ لأنه أوضح لها ما سوف يحدث من إلقاء اليم له بالساحل . وقوله فى الأولى : ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ . هو إعداد للحدث قبل أن يجىء ، وفى هذه الآية ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . . ﴾ إلخ تجد اللقطات سريعة متتابعة لتعبر عن التصرف لحظة الخطر . لكن فى الآية الأولى : ﴿ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ نجد البطء والهدوء والرتابة ؛ لأنها تحكى عن الإعداد . لما يكون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعطى كل جنس قانوناً ، وكل قانون يجب أن يُحترم

فى نطاقه ، لأن تكافؤ الفرص بين الأجناس هو الذى يريده الله . وحينما أراد سبحانه وتعالى أن يبين لنا هذه المسألة أوضح أن على المؤمن أن ينظر إلى المعطيات من وراء التكاليف ، وفى آية الدَّيْن ـ على سبيل المثال ـ نجد الحق يوصى المقترض « المدين » ـ وهو الضعيف ـ أن يكتب الدَّيْن ، ويعطى بذلك إقراراً للدائن وهو القوى القادر فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والمسألة هنا فى ظاهر الأمر أنه يحمى الدائن ونقوده ، لكن علينا أن ننتبه إلى أنه يحمى المدين من نفسه ؛ لأن الدَّيْن إن لم يكن موثقاً فالمدين لن يبذل الجهد الكافى للسداد ، وباجتهاد المدين نفيد الوجود بطاقة فاعلة . ولكن إن لم نوثق الدَّيْن ، وتكاسل المدين عن العمل والسداد فقد تشيع الفوضى فى المجتمع ويرفض كل إنسان أن يقرض أحداً ما يحتاج إليه . وبذلك تفسد الأمور الاقتصادية .

إذن فسبحانه حين يأمر بتوثيق الدَّيْن ، وإن كان فى ظاهر الأمر حماية للدائن . لكنّه فى باطن الأمر يحمى سبحانه المدين ، لأن هناك فرقاً بين ساعة التحمل للحكم ، وساعة أداء الحكم .

مثال ذلك حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندى ألف جنيه وخائف أن يضيع منى فخذه أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودَع عنده إن شاء أنكر ، وإن شاء أقر . ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك . يقول ذلك وفى ذمته ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتى ليطلبه يعطيه له ، إنه يَعِدُ ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتى له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتعلل بالحجج ليبعد صاحب المال عنه .

إذن هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة التحمل وساعة الأداء لهذه

الأمانة . والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معاً ، إنّ بعض الناس يرفض تحمل الأمانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء .

والذى يتعلم شيئاً يناقض ناموس وجوده كتعلم السحر نقول له : احذر أن تُبتلى وتُفتن ، بل ابتعد واحفظ نفسك ولا تستعمل ذلك ، واحذر أن تقول أنا سأستعمل ما تعلمته من سحر فى الخير ، ومن يأتى لى وهو فى أزمة سوف أحلها له بالسحر . ونقول : لهذا الإنسان : أنت تتكلم عن وقت التحمل ، ولكنك لا تتكلم عن وقت الأداء .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والإفك هو قلب الشىء على وجهه ، ومنه الكذب . وعلمنا من قبل أن كل شىء له نسبة كلامية وله نسبة واقعية ، فإذا قلت مثلاً « محمد مجتهد » فهذه نسبة كلامية ، لكن أيوجد واحد فى الواقع اسمه محمد وموثوق فى اجتهاده ؟ . إن كان الأمر كذلك فقد وافقت النسبة الكلامية النسبة الواقعية ، ويكون الكلام هو الصدق ، أما الكذب فهو أن تقول « محمد مجتهد » ولا يوجد إنسان اسمه محمد ، وإن كان موجوداً فهو غير مجتهد ، ويكون الكلام كذباً لأن النسبة الكلامية خالفت النسبة الواقعية ، وحين يكذب أحد فهو يقلب المسألة ونسمى ذلك كذباً ، وشدة الكذب تسمى إفكاً . أو الكذب ألا يكون هناك تطابق ، وإن لم تكن تعلم ، والإفك أن تتعمد الكذب ، وهذا أيضاً افتراء . ﴿ أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « فإذا » وهى تعبر عن الفجائية حيث ابتلعت عصا موسى ـ بعد أن صارت حية ـ ما أتى السحرة وجاءوا به من الكذب والإفك وسحروا به أعين الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

وقوله : ﴿ فوقع الحق ﴾ أى صار الحق النظرى واقعاً ملموساً ؛ لأن هناك فارقاً بين كلام يلقى نظريًا وكلام يؤيده الواقع ، والوقوع عادة يكون من أعلى بحيث يراه ويعرفه كل من يراه .

وقوله سبحانه : ﴿ فوقع الحق ﴾ أى ثبت الحق ، فبعد أن كان كلاماً خبريًا يصح أن يصدَّق ويصح أن يُكذب ، صار بصدقه واقعاً . ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ .

والذى بطل هو ما كانوا يعملون من السحر . إن الحق جعل صدق موسى واقعاً مشهوداً . وبذلك غُلب السحرة .

ويقول الحق :

﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ولم يغلب السحرة فقط ، بل غلب أيضاً فرعون وجماعته ، وعاش كل من هو ضد موسى فى صَغَار ، صغار للمستدعِى وصغار للمستدعَى . لذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أى أذلاء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ولم يقل الحق : وسجد السحرة ، ولكنه قال : « وألقى » مما يدل على أن

خرورهم للسجود ليس برأيهم ، ولكنه عملية انبهارية مما حصل أمامهم ، كأن شيئاً آخر ألقاهم ساجدين ، وهو الانبهار بالحق . فالساحر منهم كان يعتقد أنه هو الذى يسحر ، ثم يفاجأ مجموع السحرة أن موسى حين ألقى عصاه رأوها حية بالفعل فعرفوا أن المسألة ليست سحراً ، وحينما ألقوا عصيهم وحبالهم التى جاءوا بها من كل المدائن ، قيل إنها حُملت على سبعين بعيراً وشاهدوا كيف أن العصا التى صارت حية أو ثعباناً لقفت كل هذا وابتلعته ! وحجم العصا هو حجم العصا مهما طالت ، وهكذا تيقن السحرة أن هذا لا يمكن أن يكون من فعل ساحر ، وانظر إلى الاستجابة منهم لمَّا رأوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (١٢١)

وهل هم سجدوا بعد الإيمان ؟ أم آمنوا بعد السجود ؟ النص هنا يظهر منه أنهم آمنوا بعد السجود ، ولكن كان الأمر يقتضى ألا يسجد أحد إلا لأنه آمن ، لكن نحن نعرف أن الإيمان عمل قلبى ، والسجود عمل عضلى وسلوك عملى ، فكل منهم آمن بقلبه فسجد .

وهناك فرق بين أن يؤمنوا فيسجدوا ثم يعلنوا إيمانهم ؛ فيقولوا : آمنا برب العالمين ؛ لذلك نحن لا نرتب السجود على إيمان ، بل نرتب السجود مع القول بالإيمان وبإعلان الإيمان ؛ لأن إعلان الإيمان شيء ، والإيمان شيء آخر ، فكأنهم آمنوا فخروا ساجدين وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان ، وكأن الناس سألوهم : ما الذى جرى لكم ؟ فقالوا : ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

إذن فمن يحاول أن يستدرك على النص فعليه أن ينتبه إلى أن إخبارهم عن الإيمان يعنى وجود الإيمان أولاً ، والسحرة قد آمنوا فسجدوا ، فاستغرب منهم الناس هذا السجود ، وهنا قال السحرة : لا تستغربوا ولا تتعجبوا فنحن قد آمنا برب العالمين .

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢١) ﴾ (سورة الأعراف)

وقيل فى بعض التفاسير : إن فرعون قال : أنا رب العالمين . لكن السحرة لم يتركوا قوله هذا فأعلنوا أن رب العالمين هو : ﴿ رب موسى وهارون ﴾ . وقال فرعون : لقد ربيت أنا موسى ، فقالوا : لكنك لم ترب هارون .

ولذلك أوضح الحق هنا أن رب العالمين هو :

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

ولأن السحرة أعلنوها واضحة بالإيمان برب العالمين رب موسى وهارون ، وكان لابد أن يغضب فرعون ، فيأتى القرآن بما جاء على لسانه :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وكأن فرعون مازال يحاول تأكيد سلطانه ، ونعلم أن بنى إسرائيل اختلطوا بالناس فى مصر ، ومنهم من تعلم السحر . ولذلك اتهم فرعون السحرة بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون فى مأزق ويريد أن يخرج منه ؛ لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة ، وهو لا يريدهم أن يتشككوا فى ألوهيته ، فينهدم الصرح الذى أقامه على الأكاذيب ؛ لذلك قال للسحرة : إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة . . أى أنكم اتفقتم مع موسى ، وسيأتى ويقول : اتهاماً لموسى :

﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ (من الآية ٧١ سورة طه)

ونتيجة لهذا المكر المتوهم بين بنى إسرائيل وموسى يتوعدهم فرعون :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

والوعيد ـ كما نراه ـ قاس وفظيع ، فتقطيع الأيدى والأرجل ثم الصلب كلها أمور تخيف ، فماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ؟ إنهم يقولون :

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

إنك قد عجلت لنا الخير لأننا سنكون فى جوار ربنا ، فأنت بطيشك وحماقتك قد أسديت لنا معروفا وخيرا من حيث لا تدرى . ويزيدون فى تقريع فرعون بما يجىء فى القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

ما الذى تكرهه منا لأن « تنقم » تعنى تكره ، وقولهم لفرعون : أليس الذى تكرهه منا أنّا آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ؟ وهل الإيمان بآيات الإله حين تجىء مما يُكره ؟!! ويسمون ذلك فى اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم ؛ كأن يقول إنسان : ماذا تكره فىّ ؟ أصدقى ؟ أمانتى ؟ أجودى ؟ أعلمى ؟

كأنه يعدد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنها لا تُكره ، لكن الخطأ فى مقاييس من يكره الصواب ، فهى أمور لا تستحق أن تُكره أو تعاب أو تُذَم . لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير وكلهم يفضل جوار الله على جوار فرعون . وهذا الذى يعتبره فرعون عقاباً إنما يثبت خيبته حتى فى توقع العقوبة ؛ لأنه لو لم يهددهم بهذه الميتة فهم سيموتون ليرجعوا إلى الله ، وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن ينقلب إلى الله ، وكأنهم أبطلوا وعيد فرعون حين قال لهم :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يتجهون إلى ربهم وخالقهم فيقولون : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ .

و « الإفراغ » أن ينصب شىء على شىء ليغمره ، وكأنهم يقولون : أعطنا يا رب كل الصبر ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم . ولذلك قال بعض العارفين بالله : عجبى لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء بررة .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

وهكذا نعرف أن المقربين من فرعون هم أول من خافوا على سلطانهم ، ويدل

هذا القول أيضاً على أن فرعون لم يتعرض لموسى بأى أذى ؛ لأنه مازال يعيش فى رهبة اليقين وصولة الحق مما جعله متوجساً وخائفاً من موسى ؛ لأن فرعون أول من يعلم أن مسألة ألوهيته كذب كلها ، ويعلم جيداً أن موسى على حق ، لكن إعلان انهزامه أمام الجمع ليس أمراً سهلاً على النفس البشرية ، وسأل الملأ من قوم فرعون الذين اهتز أمامهم سلطانه ومكانته ، قالوا لفرعون : أتترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ؟ . أو فيما يبدو أن موسى وهارون تركا المكان بعد أن انتهيا من أمر السحرة ، ولم يقبض عليهما فرعون ؛ لذلك تساءل الملأ من قوم فرعون :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

و « يذرك » أى يدعك ويتركك ، وكان فرعون يعتقد أن هناك آلهة علويين وآلهة سفليين ، وهو رب العالم السفلى كله . لذلك قالوا : « ويذرك وآلهتك » . وهناك قراءة أخرى « ويذرك إلاهتك أى عبادتك » . أى يتركك أنت ويترك عبادتك . ويقول فرعون : ﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ﴾ .

وحتى تلك اللحظة لم يتعرض فرعون لموسى ، ولا يزال خوفه من موسى يمنعه من الاقتراب أو الدنو منه أو الاتصال به ولو بكلمة ، إنه يأخذ الحذر من أن يقدم على شىء ضد موسى ، فيفاجئه موسى مفاجأة ثانية . ويقال إن الثعبان الذى ظهر ساعة ألقى موسى عصاه فتح شدقيه واتجه إلى فرعون ، فقال : كف عنى وأومن بما جئت به . وهو أمر محتمل ؛ لأن فرعون حتى هذه اللحظة لم يجرؤ على الاقتراب من موسى ، وجاء بخبر قتل الأبناء وسبىْ النساء ولم يأت بسيرة موسى .

﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

والقوى حين يملك القدرة على الضعيف لا يشد الخناق عليه شدًّا ليفتك به ؛ لأنه يعرف ضعفه ، ويستطيع أن يناله فى أى وقت ، لكن لو كان الخصم أمامك قويًّا فأنت ترهبه بالقوة حتى يخضع لك . وهنا يقول فرعون : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ .

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم مسيطرون وغالبون ، ولن يستطيع قوم موسى أن يفلتوا منهم . ويؤكد فرعون : سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ؛ لأن الأبناء هم العدة ، والنساء عادة شأنهن مبنى على الحجاب ، وعلى الستر ، وفى إبقاء المرأة وقتل الرجل إذلال للرجال ؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء . ولذلك كان العرب حين يغيرون على عدو ، يصحبون نساءهم لتزيد الحمية ولا يخور ولا يجبن واحد وتراه زوجه أو أخته أو ابنته وهو على هذا الحال ، وكذلك كان العرب يخافون الانهزام حتى لا يمسك العدو نساءهم ويأخذهن سبايا .

وهنا يؤكد فرعون إصراره على إذلال قوم موسى بأن يعيد قتل الأبناء ، وأن يستحيى النساء ، وكان الفرعون يفعل مثل ذلك الأمر من قبل ، والسبب فى ذلك أن بنى إسرائيل كانوا يساعدون ملوك الهكسوس ، وبعد أن طرد الفراعنة الهكسوس ، اتجهوا إلى إيذاء بنى إسرائيل الذين كانوا فى صف الهكسوس ، ومن بقى من بنى إسرائيل تعرض لتقتيل الأبناء ، لكن الحق أنقذ موسى حين أوحى لأمه أن تلقيه فى اليم ليربيه فرعون . وهاهو ذا فرعون يعيد الكرة مرة أخرى بالأمر بتقتيل الأبناء وسبى النساء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ويقرر موسى الحقيقة الواضحة وهى أن الأرض ليست لفرعون ، والعاقبة لا تكون إلّا للمتقين . وكأنه بهذا القول يريد أن يردهم إلى حكم التاريخ حيث تكون العاقبة دائماً للمتقين ، فإن قال فرعون : وإنا فوقهم قاهرون ، مستعلون غالبون مسلطون مسيطرون ، فإن موسى يرد على ذلك : أنا أستعين بمن هو أقوى

منك . إن موسى عليه السلام يأمر قومه بأن يستعينوا بالله ، ويصبروا على ما ينالهم من بطش فرعون وظلمه .

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمّنهم فى الأرض ويمكن لهم فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق . ولكن ماذا كان موقف قوم موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، والنصر لهم ؟ . نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أوذينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، وبعد أن جئت هانحن أولاء نتلقى الإيذاء . كأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً . إذن هم نظروا للابتلاءات التى يجريها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى المنة والمنحة والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك هزمهم موسى ، وكان يجب أن يكون ذلك تنبيها لهم لقدر عطاءات الله ، هم يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسبوا أيام الرخاء .

وقوله : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ يدل على أنهم سوف يخونون العهود ، ويفعلون الأشياء التى لا تتناسب مع هذه المقدمات . وفى الإسلام نجد عمرو بن عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رغيف أو رغيفان ، فقال : التمسوا رغيفاً لابن عبيد . فرد عليه العامل : لا نجد . فلما ولى الخلافة وعاش فى ثراء الملك ونعمته دخل عليه ابن عبيد وقال : لقد صدق معكم

الحق يا أمير المؤمنين فى قوله :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقد قال موسى لقومه هذا القول بعد أن عايروه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا ، أى بالتذبيح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكأن مجيئك لم يفدنا شيئاً لأننا مقيمون على العذاب الذى كنا نُسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة فى أن تكون موجوداً ؛ بدليل أن الذى حدث بعدك هو الذى حدث قبلك .

ولم يلتفتوا إلى أن الإيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكأن موسى يرد عليهم بأن أسباب الإيذاء ستنتهى ، وأن الله سيهلك عدوكم الذى آذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد . ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة ؛ بل يزيدكم بأن يستخلفكم فى الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكأن هنا أمرين : الأمر الأول سلبى : وهو إهلاك العدو ، والأمر الثانى إيجابى : وهو استخلافكم فى الأرض وهذا أمر لكم ، ووعد من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تتنبهوا إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم فى الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة ؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى ﴿ عسى ﴾ فهى كلمة ـ كما يقول علماء اللغة ـ تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول . وهناك فرق بين التمنى وبين الرجاء . فالتمنى أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون فى الحصول عليه عسر ، ولكنك تريد ـ فقط ـ بالتمنى إشعار حبك له ، فأنت إذا قلت : ليت الشباب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حبك لمرحلة الشباب . وقصارى ما يعطيه أن يعلمنا أنك تحب هذا المتمنَّى . لكن هل يتحقق أو لا يتحقق . . فهذه ليست واردة .

لكن « الرجاء » شيء محبوب يوشك أن يقع ، وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمنى . وأداة التمنى « ليت » ، وأداة الرجاء « عسى » . وحين يكون بعد « عسى » ما يُرْجَى فلذلك مراحل تتفاوت بقوة أسباب الرجاء فى الوقوع . فأنا مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إلىّ أنا ، لأنَّ إكرامى لك يقتضى بقائى ، وعدم تغير نفسى من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسى قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامى لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغيار ، ومادمت صاحب أغيار فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكنى لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسى عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل فى حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى أن يكرمك فلان وهو مساويه ، فهذا أمر مستبعد قليلاً ؛ لأن من يقول ذلك لايملك أن يقوم فلان بإكرام المساوى له ، لأنه صاحب أغيار .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يعجزه شيء عن إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك ؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فسبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أويستعصى أو يتأبى عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : ﴿ عسى ربّكم ﴾ فقد انتهت المسألة وتقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هى : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن يعلنه الحق بالإكرام أو بالرحمة .

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

والكلام كما نراه هو من موسى ، ولايقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء ؟ . نعلم أن موسى رسول أرسله الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ .

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمفردها ، أما أن يهلك الله عدوى ويعطينى الحق مكانة عدوى العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا ما سوف يحدث يوم القيامة ؛ لأن الحق يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فمابالك بمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ . لقد نال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هى : ﴿ ويستخلفكم فى الأرض ﴾ . لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون ؟ . هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها ؟ فالإنسان ظلوم كفار .

وكلمة « ينظر » إذا جاءت على الإنسان فُهِم المراد منها أى يراك بناظره . وإذا أسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حدقة عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو ـ سبحانه ـ عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ فى مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه . وعميد الكلية يقول له : ما رأيك ؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثانى لابد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذى رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت فى الحكم ؛ ولو مكنتنى من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدى الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب فى الامتحان .

إن الله سبحانه حين يقول : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ . هو سبحانه لاينظرها ليعلمها ـ حاشا لله ـ فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكن يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم أزلاً بكل من يهدى ومن يضل ، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن فى الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن فى

النار لا تسع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسع كل الخلق ، ولم يحكم بعلمه فى هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً آمنتم فلكم كلكم أماكن فى الجنة . وعلى فرض أنكم ـ والعياذ بالله ـ كفرتم فلكم أماكن فى النار ، وسبحانه لن ينشىء شيئاً جديداً ، بل أعد كل شىء وانتهى الأمر .

وحين يأتى أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلن لأهل الجنة : أورثتموها وخذوها أنتم :

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وهى ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها . فإياك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً .لا . إنه العليم أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وسبحانه يعلم أزلاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذى يكون حجة على الخلق . وهنا فى الآية التى نحن بصددها ثلاثة شياء : أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن يستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون . ونحقق فيما تحقق منهما .

وجاء سبحانه فى مقدمة الإهلاك ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ

ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

وهكذا نرى أن الإهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله .

نحن نعلم أن السنة هى العام . . أى من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تطلق ـ أيضاً ـ على الجدب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعائه على قومه :

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »[1]

أى أن ينزل بهم سبحانه بعضاً من الجدب ليتأدبوا قليلاً .

ويقال: « أسنت القوم » أى أصابهم قحط وجدب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجدب .

ولماذا سماها سنة ؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقه بالشرِّ قليلة فى الكون ، وسبحانه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يبتليهم فى لحظة ، فإذا ما ابتلاهم فى وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا . فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المفجعة ؛ لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذى يعد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة التى عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء ؟ ونجد أن أيام الرخاء هى أكثر من أيام البلاء : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ .

وعرفنا أن السنين ـ كما قلنا ـ تعنى الجدب والقحط ، أما قوله سبحانه : « ونقص من الثمرات » فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، أو كان الجدب

(١) رواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى المنافقين ، وأحمد ١ ـ ٣٨٠ ، ٤٤١

والقحط فى البادية ، أما « نقص الثمرات » فكان فى الحضر ، ويقال:إن النخلة الواحدة فى الحضر كانت لا تطرح فى السنة إلا بلحة واحدة . ولماذا هذه البلحة ؟ لأن أسباب رحمته سبحانه يجب أن تبقى فى خلقه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لا نقطع نسل النخيل ؛ لذلك يُبقى الله أسباب رحمته لنا .

إننا نرى فى واقعنا أنهم مهما حاولوا أن يستزرعوا فواكه بدون بذور بواسطة التقدم العلمى المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا ؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الثمار بلا بذور ثم أكلناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً ؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق فى استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الثمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تَنْضج بذرتها ، فأنت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها . لكن حين يسودّ بذرها ويكون صالحاً لأن تعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصير مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفى هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العاصين نجده سبحانه يستبقى الرحمة معهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ يعنى أن على الإنسان أن يتذكر أنه الخليفة فى الأرض وأنه غير أصيل فى الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذى يفسد العالم أن الإنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، وسننها الكونية ويحرث ويبذر ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويستخرج المياه من الآبار ينسى أن كل ذلك « أسباب » ولا يتذكر المُسبِّب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال فى حياتنا اليومية أن الإنسان منا إذا جاء ليفتح صنبور المياه فى البيت فلم يجد ماءً فيتجه أول ما يتجه إلى محبس المياه الذى يتحكم فى مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سدد ، وإن وجده سليماً ، يبحث هل أنبوبة وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أو لا ؟ وإن كانت ماسورة المياه سليمة فهو يبحث عن الخلل فى

آلة رفع المياه ، ويظل يبحث فى الأسباب الكثيرة ، وقديماً لم تكن المياه تأتى إلا من الآبار وعندما لا يوجد فى البئر ماء يقول العبد : يا رب اسقنى . والحضارة الآن أبعدتنا بالأسباب عن المسبِّب .

والحق قد أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يلتفتوا إلى المسبِّب ويقولون : « يا رب » ويقول القرآن عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالإنسان يذكر المسبِّب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات الحياة ، فإذا امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان : يارب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ليذكروا خالقهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

والحسنة إذا أطلقت فهى الأمر الذى يأتى من ورائه الخير . ولكن الحسنة مرة تكون لك ، ومرة تُطْلَب منك ، فالحسنة التى لك فى ذاتك أولاً أن تكون فى عافية وسلام ، ثم الحسنة فى مقومات الذات ومقومات الحياة ، وهى فى النبات ، والحيوان ، والخصب والثروة . والحسنة المطلوبة منك هى أيضاً لك . فسبحانه يطلب منك عمل شىء يورِّثك فى الآخرة حسنة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذه هى الحسنة التى تعطى الإنسان خيراً فيما بعد . إذن فالحسنة التى فى ذاتك من عافية وسلامة أو فى مقومات الذات من ثمرات وحيوانات وخصب وأعشاب وثراء فكلها موقوتة بزمن موقوت هو الدنيا . والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود . فأى الحسنات أرجح وأفضل بالنسبة للإنسان ؟ . إنها حسنة الآخرة .

وقوله الحق : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أى جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الرزق يقولون : « لنا هذه » أى أننا نستحقها ؛ فواحد يقول : أنا أستحقها لأننى رتبت لها وأتقنت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون :

﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

وأجرى عليه الحق التجربة ، فمادام يدعى أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذى عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته . وهم قالوا عن الحسنات التى يهبها الله لهم : « قالوا لنا هذه » أى نستحقها ، لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج . وجرت العادة قديماً بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض ، ثم يبذرون الحب وينتظرون الثمار . فإن جاءت لهم سيئة مثل أخذهم الله لهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٣١ سورة الأعراف)

فإذا ما جاءتهم سيئة يطَّيَّرون أى يتشاءمون لأن الطيرة هى التشاؤم ، وضده التفاؤل ، ويقال : « فلان طائره نحس » ، و « فلان طائره يمن وسعد » . وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويزجره ويثيره ، فإن طار يميناً فهذا فأل حسن ، وإن طار يساراً فهذا فأل سيىء ،

والحق هنا يوضح : لا تظلموا موسى ، لأن شؤمكم أو حظكم السيىء ليس من موسى ؛ لأن موسى لا يملك فى كون الله شيئاً ، وإنما المالك للكون هو رب موسى . وكأن الحق يريدهم أيضاً ألا يفتنوا فى موسى إن صنع شيئاً يأتى لهم بخير ، وهنا يقول لهم لا تتطيروا بموسى ، لأن طائركم من عند الله .

ولأن أحداث الحياة صنفان : حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذى لم يذاكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة . وهنا لا غريم لهذا الإنسان ، بل هو غريم نفسه . وهناك شىء يقع عليك ، واسمه حدث قهرى ، فالإنسان فى الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره فى شىء . وإمَّا أحداث قدرية تنزل بالإنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإنسان ؛ لأن الإنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء ، وإلى عاجل الأمر فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر . ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل .

مثال ذلك : أن يكون للإنسان ابن نجيب وذكى وترتيبه دائماً من العشرة الأوائل ، ثم جاء فى ليلة الامتحان أو فى يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول : إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، وسبحانه منزه عن العبث ، بل حكيم ولابد أن له حكمة فى مثل هذه الأمور . وبعد مدة تتبين الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين الحسود . وحدث له ما يكره ، فكأن الله يصنع له تميمة يحميه بها من الحسد . وقديماً حين كانوا يصنعون للطفل الجميل « فاسوخة » ، ولا يهتمون بنظافته ولا بملابسه ، لماذا ؟ يقال حتى لا تتجه إليه عين العائن الحاسد .

وأقول : وما الذى يدريك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطارىء ليرد عنه العين ، ويُسكت الناس عنه ؟ وما الذى يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذى يدخله الكلية التى يريدها ، ثم يستذكر فى العام التالى وتكون المذاكرة سهلة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك

على أنك لم تنجح فى العام السابق وأن الله أراد بك خيراً . . لتبذل جهداً وتنجح وتنال المجموع الذى أردته لنفسك .

إذن فالمقادير التى تجرى على الناس بدون دخل لهم فيها ، فلله فيها حكمة ، وهنا يقال : ﴿ طائركم عند الله ﴾ ، أما إن كان للإنسان دخل فيما يجرى له فيقال : طائرك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك .

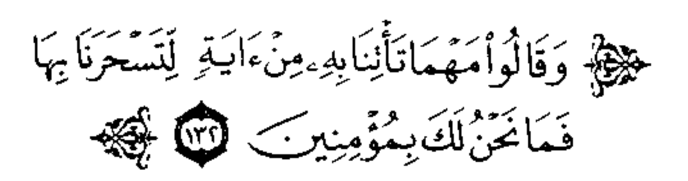
﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ألم يتطير اليهود فى المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجىء هذا الرجل ، ولم يتفهموا حكم الله . لقد كانوا سادة فى الجزيرة ؛ لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق التجارية ، وتعاملوا فى الربا وتجارة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ، وأراد الله أن يشغلهم بأخذ شىء من أسبابهم ويهد كيانهم ليلفتهم إلى أنهم خرجوا عن المنهج إلى أن هناك رسولاً قد جاء بعودة إلى المنهج .

وقوله الحق : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يفيد أن هناك قلة تعلم . فما موقف هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة ؟ . كان موقفهم هو الصمت خوفاً من الطغيان ؛ لأن الطاغية أجبرهم وقهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على باطل ، ونرى فى حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور ويعلمون الطغيان ولكنهم لا يتكلمون .

ويقول الحق بعد ذلك :



أى وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام : أى شيء تأتينا به من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك ، وسموا ما جاء به موسى « آية » استهزاء منهم وسخرية . وكل هذه مقدمات تبرر الإهلاك الذى قال الله فيه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وأعلنوا أن ما جاء به موسى هو سحر على الرغم من أنهم رأوا السحرة الذين برعوا فى السحر وعرفوا طرائقه وبذوا فيه سواهم قد خروا ساجدين وآمنوا ، كيف يحدث هذا والسحرة كلهم جُمِعوا إلى وقت معلوم ؟ وشهد كل الناس التجربة الواقعية التى ابتعلت فيها عصا موسى كل سحر السحرة فآمنوا وسجدوا ، فكيف يتأتى لمن لا يعرفون السحر أن يتهموا موسى بالسحر ؟ وكيف يظنون أن ما يأتى به من آيات الله هو لون من السحر ؟ . إنهم يقولون كلمة « مهما » وهى تدل على استمرارية العناد فى نفوسهم مثلما يقول واحد لآخر : لقد صممت على ألا أقبل كلامك ، فيكرر الرجل : انتظر لتسمع حجتى الثانية فقد تقنعك ، فيقول : مهما تأتنى من حجج فلن أسمع لك ، وهذا يعنى استمرارية العناد والجحود والتمرد ويقدمون حيثيات هذا الجحود فيقولون :

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وإذا كانوا يظنون أن آيات الله التى مع موسى من السحر ، فهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ . ولو كانت المسألة سحراً لسحركم وانتهى الأمر . وقلنا قديماً فى الرد على الذين قالوا : إن محمداً يسحر الناس ليؤمنوا به ، قلنا إذا كان هو قد سحر الناس ليؤمنوا به ، فلماذا لم يسحركم لتؤمنوا وتنفض المسألة ؟ إن بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحر .

وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرطاً ، وله جواب ، ويقول العلماء : إن أصلها « مه » أى كُفّ عن أن تأتينا بأية آية فلن نصدقك . وهذا يعنى أن هناك إصراراً وعناداً على عدم الإيمان .

ويبين الحق عقابه لهم على ذلك :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وكلمة « الطوفان » يراد بها طغيان ماء ، والماء ـ كما نعلم ـ هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بذاتيتها ، بل بتوجيهات القادر عليها ، وعندما ننظر إلى الطوفان الذى أغرق من قبل قوم نوح ، ولم ينج أحد إلا من ركب مع نوح فى السفينة ؛ وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على طغيانهم . وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بنو إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقى فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ، ويظل هكذا ، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام ، لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بنى إسرائيل لا تلمسها المياه ، وهذه معجزة واضحة ، لقد عمّ الطوفان وأراد الحق أن ينجى بنى إسرائيل منه دون حيلة منهم حتى لا يقال آية كونية جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة ، لكن الطوفان جاء لبيوتهم ولم يلمس بنى إسرائيل .

وقال الرواة : إن الطوفان دخل على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى ، وقال له : كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان . لكنهم عادوا إلى الكفر .

وجعلْ الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح ربنا : أنا عذبت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعطينا ملامح تشعرنا بصدق القضية ، فيهبط السيل فى أى بلد ويهدم الديار ويغرق الزرع والحيوانات ، لنرى صورة كونية ، وكذلك الجراد يرسله الله على فترات فيهبط فى أى وقت من الأوقات ، ونقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التى حكى الله عنها ، فلو لم يوجد جراد ولا طوفان لكنا عرضة ألا نصدق . وابتلاهم الله بالقمل كذلك .

« والقُمَّل » هو غير القَمْل . فالقَمْل هو الآفة التى تصيب الإنسان فى بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذى يصيب الحبوب ، ومفردها قُمَّلَة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التى تهلك النبات والحرث ، وحين نراه نفزع ونبحث عن تخليص الزرع منه باليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للخلق ، وهى مجرد تنبيه وإرشاد ولَفْتٌ للالتفات إلى الحق .

وكذلك يرسل الله عليهم « الضفادع » ، وعندما يضع أى إنسان منهم يده فى شىء يجد فيها الضفادع ؛ فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والمياه التى يشربها يجد فيها الضفادع !! وإن فتح فمه تدخل ضفدعة فى الفم !! . فهى آية ومعجزة ، وكذلك « الدم » ، فكان كل شىء ينقلب لهم دماً .

ويقال:إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بنى إسرائيل وقالت لها : خذى الماء فى فمك ومُجيه فى فمى ، كأنها تريد أن تحتال على ربنا وتأخذ مياها من غير دم ، فينتقل من فم الإسرائيلية وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التى هى من قوم فرعون صار دماً .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ مفصلات ﴾ أى لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعة مع بعضها البعض لتفزعهم دفعة واحدة وتختبرهم أيعلنون الإيمان أم لا ؟ بل جاء سبحانه بكل آية مُفصلة عن الأخرى ؛ فلا توجد آية مع آية أخرى فى وقت واحد ، أو جاء بها علامات واضحات فيها مواعظ وعبر ، مما يدل على موالاة الإنذارات للرغبة فى أن يَذّكروا ، وأن يرتدعوا ، فلو اذكروا وارتدعوا من آية واحدة يكف عنهم سبحانه البأس .

وأرسل سبحانه الآيات وهى : طوفان ، جراد ، قمل ، ضفادع ، دم ، هذه آيات خمس فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ومن قبل قال الحق إنه

أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبعاً ، ومن قبل كانت عصا موسى التى تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثمانى آيات ، وكذلك « اليد البيضاء » التى أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هى : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات . . هى عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلطها الله على مَن يريد إذلاله ، ويبتلى الله بها نوعا من الناس ولا يبتلي بها قوماً آخرين . فماذا كان موقفهم من الآيات العجائب ؟ نجد الحق يذيل الآية : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا فى حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذى عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون فى عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقدية هى أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبولُ الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطى الإيمان بالله .

﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة الأعراف)

أى ادع ربّك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسوله المؤيَّد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ماجئت به ولنرسلن ونطلقن معك بنى إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم فى أحط وأرذل الأعمال ، ولكنهم فى كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

فكأن لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين : بين قوله الحق : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ وبين قوله السابق : « ادع لنا ربك بما عهد عندك لأن كشفت عنا الرجز ﴾ ، فمن إذن يكشف الرجز ؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يعرفها الحق ، فهو القائل : ﴿ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ .

والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه :

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب فى ذواتهم ، وفى مقومات حياتهم ، وفى معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا ؛ لأنه لا فائدة منهم ؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قدرة ، بل عن عدالة تقدير ؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم . ويلاحظ هنا أن أهم ما فى القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث الذى جاء فى سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق ؛ لأن كل آية فى القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج لقطة من اللقطات ؛ لأن القصة تأتى بإجمال فى موضع وبإطناب فى موضع آخر ، وهنا يأتى موقف الإغراق بإجمال : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ﴾ .

وكلمة « فأغرقناهم » لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرضاً آخر فى سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : ﴿ إنا لمدركون ﴾ . مدركون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله علم أن الله لن يخذله ؛ لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام ممتلئاً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

هو يقول : « كلا » أى لن يدركوكم لا بأسبابه ، بل بأسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحيثيتها معها وقال : ﴿ إن معى ربى سيهدين ﴾ . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذى أوى إلى ركن شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهى عند هذا الوضع ؛ لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : « كلا » بملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوع بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأتبع ذلك بقوله : ﴿ إن معى ربى

سيهدين » بالحفظ والنصرة . . أي أن الأسباب التي سبق أن أرسلها معي الله فوق نطاق أسباب البشر ، فالعصا سبق أن نصره الله بها على السحرة ، وهي العصا نفسها التي أوحى له سبحانه باستعمالها في هذه الحالة العصيبة قائلا له :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

ونعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التي تعينه على الاستطراق ، ولو لم يكن الماء سائلاً ، وبه جمود وغلظة لصار قطعاً غير متساوية ، ولكن الذي يعينه على الاستطراق هو حالة السيولة ، ولذلك حين نريد أن نضبط دقة استواء أي سطح نلجأ إلى ميزان الماء .

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة وفقد قانون الاستطراق ، ويصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : ﴿ فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ . أي صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد في الجبل الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سنة كونية ، والذي خلق هذه السنة الكونية هو الذي يستطيع أن يبطلها . وحين سار موسى وقومه في اليابس ، وقطع الجميع الطريق الموجود في البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون وجنوده ، وهذا تفكير بشري أيضاً ، ويأتي لموسى أمر من الله :

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أي اترك البحر ساكناً على هيئته التي هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُغرى الطريق اليابس

فرعون وقومه فيأتوا وراءكم ليلحقوا بكم ، فإذا ما دخلوا واستوعبهم اليابس ؛ أعدنا سيولة الماء واستطراقه فيغرقون ؛ ليثبت الحق أنه ينجي ويهلك بالشيء الواحد ، وكل ذلك يجمله الحق هنا في قوله : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ﴾ . و « اليم » هو المكان الذى يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً فى قصة أم موسى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا فى سورة الأعراف هو البحر . ويأتى سبب الإغراق فى قوله : ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

كيف إذن يعذبهم ويغرقهم نتيجة الغفلة ، ونعلم أن الغفلة ليس عليها حساب ؟ بدليل أن الصائم قد يغفل ويأكل ويصح صيامه . ويقال إن ربنا أعطى له وجبة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه غافل . لكن هنا يختلف أمر الغفلة ؛ فالمراد بـ « غافلين » هنا أنهم كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعراضاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمنهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ثم يأتى بعد ذلك القول الذى يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ويقول الحق تأكيداً لذلك :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ

مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أى صارت مصر والشام تحت إمرة بنى إسرائيل ، وهى الأرض التى باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شىء من مقومات الحياة ، وترف الحياة : ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أى استمرت عليهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل فى الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة ؛ لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه التى جاءت على لسان موسى :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

ونعلم أن كلمة « مشارق ومغارب » تقال بالنسبيات ، فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاهات نسبية ؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له « مغرب » بالنسبة لمكان آخر . وحين ينتقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر . وعلى سبيل المثال نجد من يسكن فى الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن

يسكنون أوربا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء « بالمشرق والمغرب » بصيغة الجمع كما هنا فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً ؛ فإذا غربت الشمس فى مكان فهى تشرق فى مكان آخر . وفى رمضان نجد الشمس تغرب فى القاهرة قبل الإسكندرية بدقائق .

ونعلم أن سبب هذه الدورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله فى كل أوقات الله ، مثال ذلك حين نصلى نحن صلاة الفجر نجد أناساً يصلون فى اللحظة نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون صلاة المغرب ، وغيرهم يصلى صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله فى أن هناك عبادة فى كل وقت وفى كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً « الله أكبر » لينادى لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : « الله أكبر » منادياً لصلاة الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف فى المطالع أراد به سبحانه أن يظل اسمه مذكوراً على كل لسان فى كل مكان لتعلو « الله أكبر ، الله أكبر » فى كل مكان .

وأنت إذا حسبت الزمن بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من « لا إله إلا الله » أبداً : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ . ونعلم أن كلمة « الحسنى » وصف للمؤنث ، و« كلمة » مؤنثة ، والكلمة هى قول الحق :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد قال الحق القصة بإيجاز ، وهذه هى التى قالها ربنا وهى كلمة «الحسنى» لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنقاض العدو ، فهى نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن جعلهم أئمة وهداة وورثهم الأرض : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

وهم بالفعل قد صبروا على الإيذاء الذى نالوه وذكره سبحانه من قبل حين قال :

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

وجاء عقاب الله لقوم فرعون :

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

والتدمير هو أن تدك شيئاً وتخربه ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقيًا فى الآثار التى تدلك على عظمة ما فعلوا ، وتجد العلماء فى كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة . ومن العجيب أن كل كشوف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أثرى جاء من فوق الأرض أبداً .

وكلمة « دمرنا » تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعرية لتغطيها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطينا نوع ما عمّروا ؛ كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة فى وادى الملوك ، وكانت مغطاة بالتراب بفعل عوامل التعرية التى تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن غبت عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر ؛ ثم تعود فتجد التراب يغطى جميع المنزل والأثاث ؛ كل ذلك بفعل عوامل التعرية التى تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التى تثبت الأرض نجد طرقات القرية التى تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل له قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعلو ، وكل ذلك من عوامل التعرية التى تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالتنقيب ، إذن فكلمة « دمرنا » لها سند . والحق يقول عن أبنية فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف تتماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء

الهرم قد تم بأسلوب تفريغ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون الصخرة التى علي قمة الهرم . إذن فقد كانوا على علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثاراً وتحنيطاً لجثث القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن القائمين به كانوا من الكهنة المنسوبين للدين ، لتأكدنا أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال الدين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد حُرِّف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو الذى هدى الناس من أول الخلق إلى واسع العلم .

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « يعرشون » أي يقيمون جنات معروشات ، وقلنا من قبل : إن الزروع مرة تكون على سطح الأرض وليس لها ساق ، ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له عريشة أو كما نسميه نحن التكعيبة لتحمله وتحمل ثمرهُ .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغمورين فى نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلافاً فى الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طلعوا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حسدوا من يجهلون قيمة الإيمان ويعكفون على عبادة الأصنام ، ويعكف تعنى أن يقيم إقامة لازمة ، ومنه الاعتكاف

فى المسجد ، أى الانقطاع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبادة الله فى بيته .

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأعراف)

وهذا القول من قوم موسى هو قمة الغباء ، كأن الإله بالنسبة لهم مجهول على رغم أنه قد أسبغ عليهم من النعم الكثير ، وهذه أول خيبة ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكمالاته وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقليتهم لم تستوعب النعم الغامرة وقلوبهم مغلقة لم يعمها الإيمان . وقالوا : اجعل لنا إلهاً ! وأرادوا أن ينحت لهم الأصنام ، وقد يقول واحد منهم : رأس الإله كبيرة قليلاً صغرها بعض الشىء ، وأنفه غير مستقيمة فلنعدلها بالإزميل ، وقولهم : ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإيمان ؛ لذلك يقول لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ .

ولم يقل لهم : « لا تعلمون » بل قال : « تجهلون » لأن هناك فارقاً بين عدم العلم بالشىء ، وبين الجهل بالشىء ، فعدم العلم يعنى أن الذهن قد يكون خالياً من أى قضية ، أما « الجهل » فهو يعنى أن تعلم مناقضاً للقضية ، إذن فهناك قضية يعتقدها الجاهل ولكنها غير واقعية . أما الذى لا يعلم فليس فى باله قضية ، وحين تأتى له القضية يقتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمى مثلا الذى لا يعلم ، لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذى يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما فى نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطى له القضية الجديدة ، إن الذى يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمى حين تعطى له المعلومة فليس عنده ما يناقضها . لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ

﴿ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩ ﴾

و « مُتبرٌ » أى هالك ومدمر ، وهنا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التى تعبد الأصنام ؛ وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها فلا بد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يُستقرأ ، ومثال ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طلب من كل واحد على انفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف فى الوصف لأننا نستوحى واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعة فكل واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضى يحاور الشهود محاورات ليتبيّن ما يثبتون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يستوحون حقيقة واقعة ، فلن يختلفوا فى روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربى يقول : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » أى إن كذبت ـ والعياذ بالله ـ وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تتذكر كذبتك ، وأنت لن تتذكرها لأنها أمر متخيّل وليس أمراً ثابتاً . وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولمعاناً فنقول : إياك أن تغتر بهذه الزهوة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝١٧ ﴾

(سورة الرعد)

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو السائل أو الماء من الرغوة والقش والمخلفات التى تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى . ونحن نختبر المعادن لنعرف هل هى مغشوشة أو لا . . ونعرضها على النار ، فيطفو ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى فى القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : لبقية الجوارح ، وكل الأحداث ناشئة عن قول أوعن فعل ، والقول والفعل معاً هما « عمل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل .

وقوله الحق : ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ إن الأصنام التى كانوا يصنعونها ويعبدونها ، كانت تقوم على أقوال وأفعال ، كأن يقولوا : ياهبل ، يا لات ، يا عزّى ، ويناجون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقفون أمامها صاغرين أذلاء ، إذن فقد صدر منهم قول وفعل يضمهما معاً العمل .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ ، ثم قال : ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام

من دون الله إنما يفعلون باطلاً ؛ فقال : ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ أغير الله ﴾ أى أن الإله الذى عرفتم بالتجربة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعدوكم الذى استذلكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلبوا ربًّا غيره ؟

وقوله : ﴿ قال أغير الله أبغيكم ﴾ أى أأطلب لكم إلهاً غيره ؟ وفى سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم بقمة التفضيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

وإذا سمعت « إذ » فافهم أن معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، و« إذ » يعنى اذكروا جيداً ولا يغب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشده .

ويقول بعدها مبيناً ومفسراً ذلك العذاب : ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ .

ونلحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب ؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هى تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفى آية ثانية يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفى آية ثالثة يقول :

﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة إبراهيم)

لقد جاء بـ « الواو » هنا للعطف . لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقمة النعم . لكن : ﴿ إذ قال موسى لقومه اذكروا ﴾ ، فموسى يمتن بكل النعم التى ساقها الله إلى بنى إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر فى الهم والحزن على من يستبقى من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن فى الخدمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وعلمنا من قبل فى مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالى ،

والثانى تفصيلى ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه فى سورة البقرة يقول :

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

جاء بها هناك بالإجمال . ولكنه شاء هنا فى سورة الأعراف ألا يأتى بها مرة واحدة مجملة . بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمّها الحق بعشر أخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال . لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحْمَل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصَّل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال .

وضربنا من قبل المثل فى خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتى بخبر الستة الأيام وهى مجملة . لكنه شاء سبحانه فى موضع آخر بالقرآن أن يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها فى ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾

(الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ سورة فصلت) .

وهنا فى موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل فى ظاهر

الأمر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكى أنها ستة أيام فقط .

فهل هى ستة أيام أو ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه فى بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا فى الثلاث الساعات : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه ـ سبحانه ـ سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، فى مدة الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر أخر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ؛ لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنفه ويشتد عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفى ذلك يقول الحق على لسان هارون :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة طه)

فكأن العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة فى سورة البقرة .

وهنا يقول الحق فى سورة الأعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

و « اخلفنى » أى كن خليفة لى فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون بامتداد إرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التى تجمع بين موسى وهارون :

﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة طه)

لأن كلًّا منهما رسول ، وقول الحق : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ فيه التحنن ، أى أننى لى بك صلة قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لى ، ومن حقى عليك أن تسمع كلامى وتخلفنى . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معى فى الرسالة ، إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومى » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهيًا فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بطهر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوضح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل علىّ بريح المسك فزد عشرة أيام ؛ حتى تأتى كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وهنا أمر ونهى « أصلح » هى أمر ، و « لا تتبع » هى نهى ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة فى « افعل كذا » ، و « لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلَّفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلا بد أن يكونوا صالحين أيضاً للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبلٍ أن الله ركز كل التكليف فى مسألة آدم وحواء فى الجنة فقال : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهى : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

وكلمة « أصلح » تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء أن يزيد فيه صلاحاً فليفعل . وقوله : ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ لأنه قول موجه لنبى وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكنَّ موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكأن موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألَّا يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك سيقول هارون بعد ذلك مبرراً تركه بنى إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده فى منعهم وإنذارهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه .

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

(من الآية ٩٤ سورة طه)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

والميقات هو الوقت الذى يعد لعمل من الأعمال ، ونسميه وقت العمل . وغلب على أشياء فى الإسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظْرَف فيهما ، أى يكونان ظرفاً له ؛ فلا بد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف الزمان ، وظرف المكان . إلا أن ظرف الزمان غير قار أى غير ثابت ؛ فقد يأتى الصبح ويذهب ويأتى بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .

والمواقيت ـ إذن ـ إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة « الصوم » لها زمن محدد وهو رمضان . فالذى يتحكم فى الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث فى أى مكان . وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضاً الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس فى أى مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحاج . ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معاً . والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما يسمى بالميقات المكانى ولكل أهل جهة ميقاتهم المكانى الذى يطلب منهم ألاّ يمروا عليه إلاّ وهم محرمون . فمرة يتحكم الزمان ، ومرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معاً .

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى للميقات أو جاء فى الميقات ؟ لقد جاء فى الميقات ، واللام تأتى بمعنى « عند » . ونعلم أن « اللام » تأتى بمعنى « عند » كثيراً فى القرآن ، مثل قوله :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

أى أقم الصلاة عند دلوك الشمس أى عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل . ومن الدلوك إلى الغسق نجد صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقى الفرض الخامس وهو الفجر ، وقال فيه الحق :

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

ولماذا بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة فى المعراج ، فكانت أول فريضة هى الظهر ، وكأن الحق يعنى خذ الغاية وخذ البداية ، وكانت البداية هى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقى الفجر ،

وجاء فيه : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوع .

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ .

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : ﴿ وكلمه ربُّه ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال فى مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلاماً عاماً :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

وفى هذا نفى أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث : الوحى أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحى بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى فى قلب النبى دفعة ، مع العلم اليقينى بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يراد بالوحى الإلهامات ؛ مثل الوحى إلى أم موسى ، والوحى إلى الحواريين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحى : التسخير ؛ كالوحى للأرض ، والنحل .

وبعد ذلك . . « أو من وراء حجاب » أى أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، « أو يرسل رسولاً » هو جبريل عليه السلام . والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات .

وهنا فى كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه غيب لم يكشف لنا عنه ونترك الأمر فيه لله .

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها فى البشر . فليس وجود الإنسان كوجود الله ،وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ، لأن كل شيء يخص الله إنما نأخذه فى إطار « ليس كمثله شيء » . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأعراف)

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد فى البشر ، ويوجد مثله . فى وصف الله مثل « استوى » ، و « جلس » و « وجه » ، و « يد » نأخذ كل ذلك فى إطار « ليس كمثله شيء » .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراق اصطفائى ، وكأنه قال لنفسه : مادام قد كلمنى فقد أقدر أن أراه ؛ لأن استطابة الأنس تمد للنفس سبل الأمل فى الامتداد فى الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

كان الجواب يكفى أن يقول : « عصا » لكنه قال :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟ وأراد بالكلام أن

يطيل الأنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال . ولله المثل الأعلى ـ نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إيناساً له . وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرفت نفسه أن يراه : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ﴾ .

لم يقل موسى : أرنى ذاتك . بل قال : ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشيئة الحق . وقدم موسى الطلب معلقاً بمشيئة الله وإرادته ؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله ؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى فى الوحى والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفى من الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفى من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل الناس كلام الله ؛ لأن الصفات الكمالية العليا الخالقة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق .

ضربنا المثل من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ بصناعات البشر ، وأن الإنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأى شىء ، فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يحطم الأشياء التى هى أقل منه أو تحطمه الأشياء التى هى أكثر صلابة منه ؛ وإن اصطدم بشىء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد ينكسر الإنسان . ولذلك ترك الإنسان فى البيت شيئاً من النور الضئيل ؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيضع ما نسميه « الوناسة » قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود فى المنزل ؛ لأنها تفسد فوراً ، لذلك يأتى لها بمحول يأخذ من القوى ويعطى الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذى لا يأخذ من القوى إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الواسطة من البشر اصطفاء ومن الملائكة اصطفاء ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطى مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطى المصطفى من البشر للبشر . كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطى الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين

تبرزون فى الآخرة وتعدون إعداداً آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

ولا يستوى الناس فى ذلك ؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق . يقول تعالى فى شأن الكفار : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فلا يستوى المؤمن والكافر فى هذه الحالة ، فمادام الكافر محجوبا فالمؤمن غير محجوب ويرى ربّه . وقال موسى : ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ . قال الحق : ﴿ قال لن ترانى ﴾ .

وفى اللغة نجد أن « لن » تأتى تأبيدية ، أى تؤيد المستقبل أى لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها . فهل معنى ذلك أن قول الحق : ﴿ لن ترانى ﴾ أن موسى لن يرى الله فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ . ونقول : ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا ؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفى أن أهل الجنة سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجىء « لن » فى قوله الحق : ﴿ لن ترانى ﴾ تأبيدها إضافى ، أى بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح : لن ترانى ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتى انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك ؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك أن ترانى . إن الجبل بحكم الواقع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من

الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل اندك . والدكُّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوّى بشيء أسفل منه . والحق هو القائل :

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾

(سورة الفجر)

وهنا فى موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلى على خلق من خلقه ، ولكن أيقدر المتجلّى عليه على هذا التجلى أم لا يقدر ؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلى له ربه اندك ، إذن فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلى أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلى لله بدليل أن الأقوى منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية . ويبين لنا أن موسى قد صعق لرؤية المتجلّى عليه فكيف لو رأى المتجلّى ؟ !! ﴿ فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا ﴾ . ويقال : خر الشىء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق فى آية قرآنية :

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة ص)

والحق يخبرنا هنا : ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ، وصعقه تُطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماءة الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

إذن النفخة الأولى لصعق وموت الجميع ، ثم تأتى النفخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك ﴾ . وهذا يدل على أن الصعقة ليست هى الصعقة المميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : « فلان فاق

لنفسه » وهنا « أفاق » موسى على حاجتين اثنتين ، أفاق من الغشية التى حصلت له من الصعقة ، وكأنه تساءل : لماذا انصعقت ؟ لقد انصعق لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك ﴾ ، وساعة تسمع كلمة « سبحانك » اعرف أنه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذى نحن بصدده وهو رؤيته ـ تعالى ـ أى تنزيها لك يارب أن يراك مخلوقك ؛ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئى ، ومعنى: « رأيت الشىء » أى أن عين البشر قد قدرت على الشىء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعنى أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً ؛ لأن المقدور لا ينقلب قادراً ، والقادر لا ينقلب مقدوراً .

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون ، وأنَّ ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التى يعطيها الله له ويتنعم بفيض جود لا ببذل مجهود ؟ .

ويقرر موسى ويقول : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ، أى بأنّ ذاتك ـ سبحانك ـ لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له : لا تلتفت إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك :

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة ، وقوله : ﴿ اصطفيتك على الناس ﴾ تعبير

فيه دقة الأداء لأنه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يُفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد فى دائرة الاصطفاء البشرى : ﴿ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ . ولقائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة آل عمران)

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة منفردة ، وبين اصطفاء فى رسالة ومعها شىء زائد ، وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فإذا جئت كمدرس لتلاميذ وأعطيت واحداً منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثانى قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر باجتماع قلم وزجاجة حبر فى هدية واحدة . والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرف الكلام : ﴿ اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ .

وعرفنا من قبل أن « رسالاتى » هى فى مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة فى النزول ، فكأن كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخير رسالة ، فهى رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى لا تنظر إلى ما منعتك ، بل اذكر أنى اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لى هذا . ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقى له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفائل ينظر إلى الكوب الذى نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب ملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، وبرغم أن كُلًّا منهما

يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل نظر إلى ما بقى من نعم الله .

إننا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموى فى دمشق وجرحت رجله فى أثناء السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عناية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً أى دواء تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإنى لا أريد أن أغفل عن ربى لحظة عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنوها ، فقال هاتوها . فأحضروها له وأمسك بها وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو فقد عافيت فى أعضاء .

هذه نظرة المؤمن الذى لا ينظر إلى ما أُخذ منه ، بل ينظر إلى ما بقى له . وكذلك كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

والكتْب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أى شيء ، وعندما يقول ربنا : ﴿ وكتبنا ﴾ فالله لم يزاول الكتابة بنفسه ، ولكن رسله من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يس)

وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هى بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى الأعلى ، أو ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا ﴾ .

ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً . وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذى أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جدًّا لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يسمونه لوحاً .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ من كل شيء ﴾ يعنى : من كل شيء تتطلبه خلافة الإنسان فى الأرض فى الوقت المناسب له ؛ فالرسل تأتى بعقيدة ، لكن قد يأتى تشريع مناسب للفترة الزمنية التى جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتى من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب فى الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعنى ألَّا تنشىء حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذى لا يُنشىء مسائل جديدة . بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة ﴾ أى أن الكلام لم يأت مجملاً ، بل يأتى بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التى فى الألواح بقوة . ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهى نهيا قد يكون هذا النهى مخالفاً لرتابة ما ألف . وبذلك ينزع هذا النهى أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان فى هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تتغلب على الشهوة الرتيبة التى

تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن المنهج سوف يخرجه مما ألف ، ولابد له أن يقبل على المنهج بقوة وعزم ليواجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : « افعل » وعلى المؤمن ـ إذن ـ أن يأخذ التكاليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق متع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطى متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطى للمؤمن نفعاً يتناسب مع طلاقة قدرة الله فى النفع . إذن لابد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك فى المنهج ، بل معك غيرك . فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أيحدد المنهج حريتى ؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدى عليك آخرون ؛ فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب فى هذه الحالة . ويتابع الحق بيان ما فى الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهى « حسن » ؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابته مصيبة من أحد يعتبره غريماً له ، فإذا ما كان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به . وهذا ما يبيحه الله فى القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يعفو ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره مادامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « الأحسن » ، وجاءت هذه الترقيات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة فى حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز . كيف ؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ،ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل

بقاء النوع . لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع فى أعراض الناس وانتهاك حرماتهم ، وحب الاستطلاع غريزة ، والذين اكتشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود . لكن لا يصح ولا ينبغى أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستذلالى .

إن للإنسان غرائز يعليها الشرع ؛ أمَّا الحب فهو مسألة عاطفية . فالمشرع ، يقول لك : أحبب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلمْ من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت .

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة حين قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين »[1] .

فقال عمر : كيف ؟ .

وكررها رسول الله فعلم عمر ـ رضى الله عنه ـ بفطرته أن ذلك أمر تكليفى . وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلى . فيقول المؤمن لنفسه : من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكل مؤمن يحب رسول الله حبًا عقليًا ، وقد يتسامى إلى أن يصير حبًّا عاطفيًا . والإنسان منا ـ كما قلنا سابقاً ـ يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مُرّ ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتى له به .

إذن التكليف يتطلب الحب العقلى . ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما مرّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : ازو نفسك عنى فأنا لا أحبك ، فرد الرجل بكل جرأة إيمانية : أو عدم حبك لى يمنعنى حقًا من حقوقى ؟ . قال عمر : لا ، قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والحق يقول هنا : ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ فمثلاً ، حين يُقْتَلُ إنسان فلولى الدم أن يقتص ، لكن الحق يحنن قلب ولى الدم على القاتل فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدىء من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة . ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجىء أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك فى المرض ؟ وممن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انفعالك ؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على ماأصابك ﴾ أى مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام » ؛ لأن لك غريماً يهيجك ساعة أن تراه ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

يعنى إذا وجدت لهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن ، لماذا ؟ ؛ لأن الإنسان إذا روّض نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسيء إليه ، فعليك أن تراعى فى ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقوله الحق سبحانه :

﴿ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

ولكن مَن منا يتصف بالدقة فى الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى ؟ فإن كان هناك من صفعك وتريد أن ترد الصفعة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذى فى صفعتك له ؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة . إذن لماذا تدخل نفسك فى متاهات ، ولماذا لا تعفو وينتهى الأمر ؟

وحين يدلك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهى شراسة النفوس وضغن الصدور . فحين يقتل إنسانٌ إنسانا آخرَ ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا ولىّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من ولىّ الدم فيستحى القاتل ـ بعد ذلك ـ أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد ولىّ الدم أو من ينسب إلى ولىّ الدم ، وحينذاك تنتهى أى ضغينة أو رغبة فى الثأر ، ولذلك نجد البلاد التى تحدث فيها الثأرات وتستشرى فيها عادة الأخذ بالثأر ـ مثل صعيد مصر ـ نجد القاتل إذا ما أخذ كفنه على يده ودخل على ولىّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه ولىّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من ولىّ الدم ، وتصفى الثأرات وتنتهى . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ . ومثال آخر على الأخذ بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفى الدين ، هنا نجد الحق يقول :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

اقترض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهوعكس السؤال الذى قد يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشىء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض تتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرِض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

إذن فهناك حَسَن وهناك أحسن ، الحَسَن هو أن تأخذ حقك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا

المثل والأسوة فى سيدنا الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ الذى أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعل الله فى جانبنا » . ودائماً أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أسىء إليه ، وكذلك الأمر فينا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله ؛ نجد رب الخلق مع من أسىء إليه ، وعلى من أسىء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذى أساء إلى قد جعل ربنا فى جانبى ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الزمر)

وفى آية ثانية يقول الحق :

﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الزمر)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ .

ودار الفاسقين هى النار ، وكأن الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتى سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبتعد عن كل أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبنى إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكأن الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا المآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ معناه حملهم على ما فى الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل الله . أو ﴿ دار

الفاسقين ﴾ هي المدائن التي دمّرت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تمرون عليها في الغدو والرواح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

والآيات جمع آية وهي الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول في البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعتبار في آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق سيبطل كيدهم في أن يتجهوا للحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .

إذن وجه الصرف أن يسلط الحق عليه من الكبر ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة ، ومقومات الكبر قد تكون قوة ، لكن ألم يرَ المتكبر قويًا قد ضعف ؟ وقد يكون الثراء من مقومات التكبر ، لكن ألم يرَ المتكبر غنيًا قد افتقر ؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم يرَ المتكبر ذا جاه صار ذليلاً ؟ .

إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاتى لا يُسْلَب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً ؛ لأنه لا يوجد فى الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغيار التى تحدث وقد تزول . فكلها من الله وليست أموراً ذاتية ؛ لأن القوة فيك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الثراء ذاتيًا فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن فمقومات الكبرياء فى البشر غير ذاتية .

وقوله سبحانه : ﴿ يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك فى ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك فالكبرياء لله وحده . واعلموا أن كل متكبر فى الأرض لا يخطر الله بباله ؛ لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله فى باله لتضاءل ؛ لأن الله يخطر فقط ببال المتواضعين من الناس ، ولذلك نضرب هذا المثل : إننا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومرؤوس لآخر ، وهناك مرؤوس فقط . والرئيس المرؤوس لا يستطيع أن يجلس مع المرؤوسين له بتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطى أوامر ؛ لأنه قد يلتفت فيجد رئيسه وقد دخل عليه . فلو فعل الرئيس المرؤوس ذلك لضحك منه المرؤوسون له . فكذلك الناس الذين لا يستحضرون الله فى بالهم نجدهم مثار سخرية ، لكن الذين يستحضرون الله الذى له الكبرياء فى السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر فى الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطبع على قلوبهم ، فما بداخل هذه القلوب من الكفر

لا يخرج ، وما فى خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم فى الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته فى الكون .

﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العِنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذى يحرمه من شىء ليعطيه أشياء أثمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلحظ أن كلمة السبيل تأتى مرة كمذكر كقوله ؛ ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ ، ومرة تأتى مؤنثة ، فالحق يقول : ﴿ قل هذه سبيلى ﴾ .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الغى من أهل الكبر : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ . وقديماً قلنا إن الغفلة لا توجب الجزاء عليها ؛ لأن الغافل ساهٍ وناس ، ولكن هؤلاء صدفوا عن الأمر صدوفاً عقليًا مقصوداً ، لدرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أى التفات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ الْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ . ويقول أيضاً : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

إذن فالمسألة كلها مناطها فى الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صدق مَنْ أُرسل من الرسل ، والقرآنية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَـآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأعراف)

ويقال:حبط الشىء أى انتفخ وورم من علة أو مرض . أى أنهم فى ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالا حسنة ولكنها فى الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس فى باله أنه يفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشهرة لينتشر ذكره ويذيع صِيته ويثنى الناس عليه ، أو للجاه والمركز والنفوذ . ولذلك حين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد ؟ . قال :

« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليفتخر به . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ونقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت فى بالهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس فى بالهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم فى الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

فمن زرع وأحسن اختيار البذور ، واختيار التربة وروى بنظام يأتى له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب ، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكل مَن خلق الله ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاصيًا أو طائعاً ، لكن عطاء الألوهية يكون فى اتباع المنهج بـ « افعل ولا تفعل » وهذا خاص بالمؤمنين ، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة فى السنن الكونية . يأخذون حظهم منها ، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب ؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم . وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم . أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لرب الآخرة ، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول فى حقهم :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وكذلك يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

فالكافرون مثلهم مثل الظمآن الذى يسير فى صحراء ويخيل له أن أمامه ماء ، ويمشى ويمشى فلا يجد ماء . أماغير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يمنى نفسه بأن المياه قادمة وأنه سيحصل عليها .

﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً . بل يفاجأ : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ . إنه يفاجأ بأن الإله الذى كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة فيوفيه حسابه ويجزيه على عمله القبيح . إذن فإن عمل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس فى باله الله فعليه ألا يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر فى قانون نواميس الحياة الكونية ، لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

(سورة الأعراف)

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذى أنزل هذا المنهج ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) ﴾

وقوله : ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات ربه بعد أن قال لهارون : ﴿ اخلفنى فى قومى ﴾ .

بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حليهم عجلاً جسداً له خُوار ، ونعرف أن الحلى هو ما يُتزين به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلى هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر يسهل إصلاحه ، كما أن كسر الذهب بطىء ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان

الطيب ،كسره بطيء ، وانجباره سهل .

وساعة نسمع كلمة « زينة » قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلى . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجواهر ، أو بالماس . ولذلك إذا أطلقت كلمة « الحلى » فالمراد بها الذهب .

وهذه الزينة هي التي صنع منها موسى السامرى تمثال العجل ، وبطبيعة الحال أخذ الحلى الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلى وقد كانوا مستضعفين ، ومستذلين ؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحلى كسلفة سيردونها من بعد ذلك . ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلى معهم !

وغرق قوم فرعون وبقيت الحلى مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحلى عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله : ﴿ عجلاً جسداً ﴾ أى أنه مُحَجَّم ، أى له حجم واضح . وأخذ أهل التفسير من كلمة « جسداً » أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : « فلان هذا مجرد جثة » . أى كأنه جثة بلا روح .

وقوله الحق : ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها حياة ؛ لأنه لو كان جسداً فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عجلاً جسداً له خوار ، ولا كتفى بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : ﴿ له خوار ﴾ دليل على أن الجسدية فى العجل لا تعطى له الحياة . وجاء بالوصف فى قوله : ﴿ له خوار ﴾ والخُوار هو صوت البقر . وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه ـ كما نعرف ـ من الحلى المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دبره هبة الهواء ؛ صنعت وأحدثت فى جوفه صوتاً يشبه صوت وخوار البقر الذى يخرج من فمه ، وهذه مسألة نراها فى الناى وهو أنبوبة من القصب مما يسمى الغاب البلدى وتصنع به ثقوب ، ويعزف عليه العازف ليخرج منه النغمة التى يريدها .

وحين صنع موسى السامرى العجل بهذه الحيلة ، حدث هذا الصوت مشابها لخوار البقر . وقصة هذا العجل تأتى فى سورة طه بوضوح وسنتعرض لها حين نتعرض بخواطرنا الإيمانية لسورة طه بإذن الله :

﴿ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

ولماذا اختار السامرى العجل ؟ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوة ، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة ، وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم . وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل . حين يريدون حرث الأرض . وكان أَيِّدًا ، أى قويًا وشديداً فى حرث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عجلاً يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله ؟ . وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز ببنى إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون الأصنام ؛ فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

ويأتى القول من الحق :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لابد أن يتلقى من المعبود أوامر ، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن ينفذه ، وأن يأتى المنهج بواسطة رسل يبلغون رسالات الله وكلام الله للبشر . أما الذين يعبدون الشمس - مثلاً - فنسألهم : لماذا تعبدونها ؟ وما المنهج الذى أرسلته الشمس لكم ؟ . إن العبادة هى طاعة العابد للمعبود فى « افعل » و « لا تفعل » فهل قالت لكم الشمس « افعلوا » و « لا تفعلوا » ؟ لا ؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ، وكيف يوجد - إذن - معبود بدون منهج للعابد ؟ وهل قالت : إن من يعبدنى سأشرق

عليه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعبدنى فلن أعطيه شيئاً من ذلك ؟ لم تقل الشمس ذلك فهى تعطى من آمن بها ومن كفر ، ولم ترسل خبراً عن الآخرة وقيام القيامة .

وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضى أمراً ونهيا ، فى « افعل » و« لا تفعل » ولم يقل معبود من هؤلاء ما الذى نطيعه وما الذى نعصاه . والأصل فى المعبود أنه يهدى العابد السبيل الموصل إلى خيره فى الدنيا وفى الآخرة . لذلك يقول الحق : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ . و﴿ كانوا ظالمين ﴾ لأنهم أعطوا حقًا لمن ليس له الحق ، والحق سبحانه أعلى قمة فى الحق ، ولذلك قال عن الشرك به : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور . لكن الناس الذين امتلكوا قدراً من البصيرة ، أو بقية إيمان قالوا : هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها وندموا على ما كان ، ويقال : سُقِط فى يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية التى لا تختلف فيها أمة عن أمة ، بل هى فى كل الأجناس ، وفى كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلا وحدث له عكس ما يفعل يعض على الأنامل ندماً وغمًّا ، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبعى فى المخاطبات ، فى كل الأجناس . ويعض الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن يعمله ، فإذا كان الشىء عظيماً فهو لا يكتفى بالأنملة بل يمسك يده كلها ويعضها . والحق يقول : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾

« وسُقط فى أيديهم » أى جاءت أنيابهم على أيديهم ، كأن الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم ورأوا أن ذلك باطل وخسران . أى قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسِفاً ، يدلنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل . والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها : « المواجيد النفسية » ، أى الشيء الذى يجده الإنسان فى نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقاً بين من يحزن ويكبت فى نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا اسمه : غضبان . وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ؛ وقدّم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفى فى مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح .

وقديماً قلنا : إن كل تصور شعورى له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى . مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية فى النفس ، ثم مرحلة نزوعيه بالحركة ، وضربنا المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذا إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويطمئن لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطفها فهذا نزوع

حركى . والتشريع لم يقنن للإدراك أو للوجدان لكنه قنن للسلوك . إلا فى غض البصر عما حرم الله وذلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، ونلحظ أنه يأتى بكلمة أسِف . وهى مبالغة . فهناك فرق بين أسِف وآسف ، آسف خفيفة قليلاً ، لكن أسِف صيغة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد اشتد عليه وتمكن منه .

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أى استبطأتمونى ، وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتممها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أننى لن آتى ؟ أو أننى أبطأت عليكم؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلى أو من أجل إله قادر ؟ . ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى :

« من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتمونى أو خفتم أن أكون قد مت . فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا .

﴿ أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح ﴾ ، ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقدر موسى على أخيه : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ﴾ وهذا « النزوع الغضبى » الذى جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأخوة هنا لا نفع لها ، فماذا كان رد الأخ هارون : ؟

﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

نلحظ أنه قال : « ابن أم » ولم يقل : « ابن أب » لأن أبا موسى وهارون طُوى

اسمه فى تاريخ النبوات ولم يظهر عنه أى خبر ،والعلم جاءنا عن أمه لأنها هى التى قابلت المشقات فى أمر حياته ، لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز فى حياتها ، ولأن الأمومة مستقر الأرحام ؛ لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ، وأخوة من الأب والأم ، والأخوة من الأب والأم أمرهم معروف . لكن نجد فى أخوة الأم حناناً ظاهراً ، ويقل الحنان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما - موسى وهارون - وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر فى تاريخهم . أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التى جاءت عن موسى متعلقة بأمه ، لذلك نجد أخاه هارون يكلمه بالأسلوب الذى يحننه : ﴿ قال ابن أمّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ﴾ .

ومادام قد قال : ﴿ وكادوا يقتلوننى ﴾ فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذى أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكروا فى قتله ، ويتابع الحق بلسان هارون : ﴿ فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

والشماتة هى إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم . وقوله : ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ . . إجمال للرأس فى عمومها ، وفى آية أخرى يقول : ﴿ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ .

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال : إن القوم استضعفونى لأنى وحدى وكادوا يقتلوننى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة فى الحياة ؛ حتى أنهم كادوا يقتلونه ، إذن فهو لم يوافقهم على شىء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

وكأنه يقول : لموسى إنك أن آخذتنى هذه المؤاخذة فى حالة غضبك ، ربما ظُنَّ بى أننى كنت معهم ، أو سلكت مسلكهم فى اتخاذ العجل وعبادته . وأراد الحق سبحانه

أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه ؛ فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذى بيّن العلة فى أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولايمكن أن يطلب منه فوق هذا ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقى الألواح وفيها المنهج ؟ والأمر الثانى : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق منه ؟

ويقول الحق على لسانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

قال يا رب اغفر لى إن كان قد بدر منى شىء يخالف منطق الصواب والحق . واغفر لأخى هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ فى قتال من عبدوا العجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولو مادون القتل جرحاً أو خدشاً أو . . أو . . . إلخ .

ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة :

﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأعراف)

وحين تسمع ﴿ أرحم الراحمين ﴾ ، أو ﴿ خير الرازقين ﴾ ، أو ﴿ خير الوارثين ﴾ ، أو ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه. فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملا وإن كان محدودا يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلا على أنها عطاء ومنحة منه ـ سبحانه ـ أما صفات الله فهى صفات لا محدودة ولا متناهية جلالا وكمالا وجمالا فسبحانه ﴿ ليس كمثله

شىء ﴾ ، فإذا كان الله هو ﴿ أرحم الراحمين ﴾ فهذا يعنى أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خلقه على خلقه ؛ فمن رحم أخاه سُمىَ رحيماً ، وراحما ، ولكن الله أرحم الراحمين ؛ لأن الرحمة من كل إنسان ضمان لمظهرية الغضب فى هذا الأحد ، يقال : « رحمت فلاناً » أى من غضبك عليه وعقوبتك ، وإنّ عقوبتك على قدر قوتك ، لكن الله حين يريد أن يأخذ واحداً بذنب فقوته لا نهاية لها ، وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

حين يقال : ﴿ اتخذوا العجل ﴾ قد نجد من يتساءل : هل اتخذوه مذبوحاً يأكلونه ؟ أو يثير الأرض أو يسقى الحرث ويدير السواقى ؟ لأن العجل موجود لهذه المهام ، لكنهم لم يأخذوا العجل لتلك المهام ، بل إنهم قد اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً ، أما اتخاذه فيما خُلِقَ له فلا غبار عليه ، وهو هنا محذوف ومتروك لفطنة السامع ؛ فإذا اتخذنا العجل فيما خُلِقَ له العجل لا ينالنا غضب من الله ، أما الذين سينالهم غضب الله فهم من اتخذوا العجل فى غير ما خُلِقَ له ، إنهم اتخذوه إلهاً : ﴿ سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ﴾ .

وقوله : ﴿ سينالهم ﴾ يدل على أن أوان الغضب والذلة لم يأت بعد ، وسيحدث فى المستقبل ، ومستقبل الدنيا هو الآخرة ، ولكن الحق هنا يقول : إن الذلة ستحدث فى الدنيا ، فكيف يكون ﴿ سينالهم غضب ﴾ مع أنهم تابوا ؟ ويوضح سبحانه لنا ذلك فى قوله : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ﴾ .

فبعضهم تاب إلى بارئه وقتل نفسه فلماذا إذن الغضب ؟

ويوضح الحق لنا أن الذى نالهم من الغضب هو ما ألجأهم إلى أن يقال لهم : « اقتلوا أنفسكم » ، وهكذا نفهم أن قوله تعالى : « سينالهم غضب » أى قبل أن يتوبوا ، وقتل النفس هو منتهى الذلة ومنتهى الإهانة .

﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأعراف)

أى أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم ، فكل مفتر يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لابد أن يناله هذا الجزاء ؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث فى تاريخهم ؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك ـ سبحانه ـ أن يعتبر السامع للقصة فى نفسه . واعتبار السامع للقصة فى نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيها وتحذيراً : ﴿ وكذلك نجزى المفترين ﴾ أى احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم ، وهو سبحانه ينبه كلا منا لينتفع من هذه العبرة وهذه اللقطة فإنَّ التاريخ مسرود لأخذ العبرة ، والعظة ليتعظ بها السامع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

وهذا ما حدث ، فبعد أن اتخذوا العجل ، وقال لهم : اقتلوا أنفسكم توبة إلى بارئكم ، ثم تابوا ورجعوا إلى الله وآمنوا بما جاءهم ، غفر الله لهم . وإذا كان الحق قد قص علينا مظهرية جباريته فإنه أيضاً لم يشأ أن يدعنا فى مظهرية الجبارية ، وأراد أن يدخلنا فى حنان الرحمانية . لذلك يقول هنا :

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ ثم تابوا ﴾ أى ندموا على ما فعلوا وأصروا وعزموا على ألاَّ يعودوا ، ونعلم من قبل أن التوبة لها مظهريات ثلاثة ؛ أولاً : لها مظهرية التشريع ، ولها مظهرية الفعل من التائب ثانيا ، ولها قبولية الله للتوبة من التائب ثالثاً . ومشروعية التوبة نفسها فيها مطلق الرحمة ، ولو لم يكن ربنا قد شرع التوبة فى ذاتها لتعب الخلق جميعاً ؛ لأن كل من عمل سيئة ، ولم يشرع الله له التوبة سيستشرى شره فى عمل السيئات . لكن حين يشرع ربنا للمسىء التوبة ، ويدعو العبد للكف عن السيئة فهذه رحمة بالمذنب ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه المذنب . بعد ذلك يتوب العبد ، ثم يكون هنا مظهرية أخرى للحق ، وهو أن يقبل توبته .

التوبة ـ إذن ـ لها تشريع من الله ، وذلك رحمة ، وفعل من العبد بأن يتوب ، وذلك هو الاستجابة ، وقبول من الله ، وذلك هو قمة العطاء والرحمة منه سبحانه .

وقوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأعراف)

إنَّ هذا القول يدل على أن عمل السيئة يخدش الإيمان ، فيأمر سبحانه عبده : جدّد إيمانك ، واستحضر ربك استحضاراً استقباليًّا ؛ لأن عملك السيئة يدل على أنك قد غفلت عن الحق فى أمره ونهيه ، وحين تتوب فأنت تجدد إيمانك وتجد ربك غفوراً رحيماً : ﴿ إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ .

إن ذنب العبد يكون فيما خالف منهج ربه فى « افعل » و « لا تفعل » ، ومادام العبد قد استغفر الله وتاب فسبحانه يقبل التوبة . ويوضح : إذا كنت أنا غفورا رحيماً ، فإياكم يا خلقى أن تُذَكِّروا مذنباً بذنبه بعد أن يتوب ؛ لأن صاحب الشأن غفر ، فإياك أن تقول للسارق التائب : « يا سارق » ، وإياك أن تقول للزانى التائب : « يازانى » ، وإياك أن تقول للمرتشى التائب : « يامرتشى » لأن المذنب

مادام قد جدّد توبته وآمن ، وغفر الله له ، فلا تكن أنت طفيليًا وتبرز له الذنب من جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وهل للغضب سكوت ؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت ؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعيًّا أمام من أذنب ، فكأن الغضب يلح عليه ، ويقول للغاضب : اضرب ، اشتم ، اقتل . كأن الغضب قد مُثِّل وصُوِّر فى صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر ، فشبَّه الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى فى أن يفعل كذا ، ويفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه .

أو هو كما قال إخواننا العلماء : من القلب فى اللغة ، أى أنه يقلب المسألة ، اتكالاً على أن فطنة السامع سترد كل شىء إلى أصله ؛ كما نسمع فى اللغة : خرق الثوبُ المسمارَ ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذى قام بخرق الثوب ؛ لأننا لن نتخيل أنّ الثوب يخرق مسماراً . ويسمى ذلك « القلب » أى أن يأتى بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة السامع . أو أن المسمار مستقر فى مكانه ، والثوب هو الذى طرأ عليه فانخرق ، فيكون سبب الخرق من الثوب ، فكأن الفاعلية الحقيقية من الثوب : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ .

أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غضبان أسفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقى ، فالغضب جعله يلقى الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فأخذها ثانية .

﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

النسخة من الكتاب مأخوذة من الشيء المنسوخ أى المنقول من مكان إلى مكان ، ويقال : نسخت الكتاب الفلانى من الكتاب الفلانى . . أى أن هناك كتاباً مخطوطاً ثم نقلناه بالطباعة أو بالكتابة إلى نسخة أو عدد من النسخ ، أى أخذته من الأصل إلى الصورة ، واسمه منسوخ ، وكلمة نُسخة على وزن « فُعْلَة » وتأتى بمعنى مفعولة ، فنسخة تعنى منسوخة ، وفى القرآن مثل هذا كثير . والحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

و « غُرْفة » أى مغروفة ، وهى القليل من المياه فى اليد لتبل الريق فقط ، والغرفة أيضاً تكون فى البيوت ؛ لأنها مكان مقتطع من مكان آخر ولها جدران تحددها ، واسمها غرفة لأنها مغروفة من المكان فى حيز مخصوص . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وفى نسختها هدى ورحمة ﴾ .

و « هدى » المقصود بها المنهج الموصل للغاية فى « افعل » و « لا تفعل » . إنّه يوصل للغاية وهى ثواب الآخرة . إذن فالهدى والرحمة شيء واحد له طرفان ، فالهدى هو المنهج الذى إن اتبعته تصل إلى الرحمة ، ولذلك يقول الحق : ﴿ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ .

وهكذا نجد المنهج هدى ورحمة ، فمن يسمع كلام الله ويتبعه يهتدى ويرحمه

ربنا ؛ لأنه جعل الله فى باله ، وخاف من صفات الجبارية فى الحق ، ولهذا لابد أن يستحضر الإنسان أو المؤمن رهبته لربه وخوفه منه ـ سبحانه ـ ليكون المنهج هدى ورحمة له . ويكون من الذين يرهبون ربهم .

وساعة ترى المفعول تقدم فى مثل قوله سبحانه هنا :

﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

نفهم أن هذا هو ما يسمى فى اللغة « اختصاص » وقَصْر مثلما قال الحق فى فاتحة الكتاب : ﴿ إياك نعبد ﴾ .

وما الفرق بين « إياك نعبد » و « نعبدك » ؟ إن قلنا : « نعبدك » فهو قول لا يمنع من العطف عليه ، فقد نعبدك ونعبد الشركاء معك ؛ لكن قولنا:« إياك نعبد » أى خصصناك بالعبادة وقصرناها عليك سبحانك فلا تتعدى إلى غيرك .

إذن حين تقدم المفعول فهذا هو عمل الاختصاص . ومثال ذلك فى حياتنا حين نقول : « أكرمتك » ، ولا مانع أن نقول بعدها « وأكرمت زيداً وأكرمت عمراً » . لكن إن قلت : إياك أكرمت ، فهذا يعنى أنى لم أكرم إلا إياك . وهنا يقول الحق : ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ . ولقائل أن يقول : ألا يمكن أن يدعى أحد الرهبة ظاهراً وأنه ممتثل لأمر الله رياء أو سمعة حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإسلام ، ويأخذون فى الثناء عليه ؟ ولكن هنا نجد التخصيص الذى يدل على أن العبد لا يرهب أحداً غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله ، وليست رياء ، ولا سمعة ، ولا لقصد الثناء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن

قَبْلُ وَإِيَّىٰ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وكلمة « اختار » تدل على أن العمل الإختيارى يُرجح العقل فيه فعلاً على عدم فعل أو على فعل آخر ، وإلا فلا يكون فى الأمر اختيار ؛ لأن « اختار » تعنى طلب الخير والخيار ، وكان فى مكنتك أن تأخذ غيره ، وهذا لا يتأتى إلا فى الأمور الاختيارية التى هى مناط التكليف ، مثال ذلك : اللسان خاضع لإرادة صاحبه فخضع للمؤمن حين قال : لا إله إلا الله ، وخضع للملحد حين قال ـ لعنه الله ـ : لا وجود لله ، ولم يعص اللسان فى هذه ، ولا فى تلك . والذى رجح أمراً على أمر هو ترجيح الإيمان عند المؤمن فى أن يقول : لا إله إلا الله ، وترجيح الإلحاد عند الملحد فى أن يقول ما يناقض ذلك . والحق هنا يقول : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً ﴾ .

والذين درسوا اللغة يقولون : إن هناك حدثاً . وأنّ هناك موجدا للحدث نسميه فاعلاً مثل قولنا : « كتب زيد الدرس » أي أن زيداً هو الذى أدى الكتابة ، ونسمي « الدرس » الذي وقعت عليه الكتابة مفعولاً به ، ومرة يكون هناك ما نسميه « مفعولاً له » أو « مفعولاً لأجله » مثل قول الابن : قمت لوالدى إجلالاً ، فالذى قام هو الابن ، والإجلال كان سبباً فى إيقاع الفعل فنسميه « مفعولاً لأجله » ونقول : « صُمْت يوم كذا » ونسميه « مفعولاً فيه » ، وهو أن الفعل ، وقع فى هذا الزمن . فمرة يقع الحدث على شيء فيكون مفعولاً به ، ومرة يقع لأجل كذا فيكون مفعولاً لأجله ، ومرة يقع فى يوم كذا ؛ العصر أو الظهر فيكون مفعولاً فيه ، ومرة يكون مفعولاً معه « مثل قولنا : سرت والنيل : أى أن الإنسان سار بجانب النيل وكلما مشى وجد النيل فى جانبه .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولأن اختيار موسى للسبعين كان وقع من القوم ؛ فيكون المفعول قد جاء من هؤلاء القوم ، ويسمى « مفعولاً منه » ؛ لأنه لم يخترهم كلهم ، إنما اختار منهم سبعين رجلاً لميقاته مع الله سبحانه .

وقالوا في علة السبعين إن من اتبعوا موسى كانوا أسباطاً ، فأخذ من كل سبط عدداً من الرجال ليكون كل الأسباط ممثلين في الميقات ، وكلمة « ميقات » مرت قبل ذلك حين قال الله :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وهل الميقات هذا هو الميقات الأول ؟ لا ؛ لأن الميقات الأول كان لكلام موسى مع الله ، والميقات الثاني هو للاعتذار عن عبدة العجل .

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولماذا أخذتهم الرجفة ؟

لأنهم لم يقاوموا الذين عبدوا العجل المقاومة الملائمة ، وأراد الله أن يعطي لهم لمحة من عذابه ، والرجفة هي الزلزلة الشديدة التي تهز المرجوف وتخيفه وترهبه من الراجف . وحين أخذتهم الرجفة قال موسى : ﴿ ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ .

أوضح موسى : لقد أحضرتهم من قومهم . وأهلوهم يعرفون أن السبعين رجلاً قد جاءوا معي ، فإن أهلكتهم يا رب فقد يظن أهلهم أنني أحضرتهم ليموتوا وأسلمتهم إلى الهلاك . ولو كنت مميتهم يا رب وشاءت مشيئتك ذلك لأمتّهم من

قبل هذه المسألة وأنا معهم أيضاً . ويضيف القرآن على لسان موسى والقوم معاً :

﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

أنت أرحم يا رب من أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وهذا القول يدل على أن العملية عملية فعل ، والفعل هو عبادة العجل ؛ فلو أن هذا هو الميقات الأول لما احتاج إلى مثل هذا القول ؛ لأن قوم موسى لم يكونوا قد عبدوا العجل بعد . ولكنهم قالوا بعد الميقات الأول : مادام موسى قد كلم الله ، فلابد لنا أن نرى الله ، وقالوا فعلاً لموسى :

﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

إذن نجد أن ما حصل من قوم موسى بعد الميقات الأول هو قولهم : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ وليس الفعل ، أما هنا فالآية تتحدث عن الفعل : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك ﴾ .

وهكذا نعلم أن الآية تتحدث عن ميقات ثانٍ تحدد بعد أن عبد بعضهم العجل . والفتنة هى الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً فى ذاته ، ولا يقال فى أى امتحان إنه مذموم . إنما المذموم هو النتيجة عند من يرسب ، والاختبار والامتحان غير مذموم عند من ينجح .

إذن فالفتنة هى الابتلاء والاختبار ، وهذا الاختبار يواجه الإنسان الجاهل الذى لا يعلم بما تصير إليه الأمور وتنتهى إليه ليختار الطريق ويصل إلى النتيجة . ولا يكون ذلك بالنسبة لله ؛ لأنه يعلم أزلاً كل سلوك لعباده ، لكن هذا العلم لا يكون حجة على العباد ؛ ولابد من الفعل من العباد ليبرز ويظهر ويكون له وجود فى الواقع لتكون الحجة عليهم . والأخذ بالواقع هو الأعدل .

وقول موسى عليه السلام :

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

هذا القول يعنى : أنك يا رب قد جعلت الاختبار لأنك خلقتهم مختارين ؛ فيصح أن يطيعوا ويصح أن يعصوا . والله سبحانه هو من يُضل ويهدى ؛ لأنه مادام قد جعل الإنسان مختاراً فقد جعل فيه القدرة على الضلال ، والقدرة على الهدى .

وقد بيّن سبحانه من يشاء هدايته ، ومن يشاء إضلاله فقال :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

والسبب فى عدم هدايتهم هو ظلمهم ، وكذلك يقول الحق :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الكفر منهم هو الذى يمنعهم من الهداية . إذن فقد جعل الله للعبد أن يختار الهداية أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قهراً عن الله ؛ لأنه سبحانه لو لم يخلق كلا منا مختاراً لما استطاع الإنسان أن يفعل غير مراد الله ، ولكنه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار ـ أيها الإنسان ـ الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه الله لك ، وسبحانه قد بيّن أن الذى يظلم ، والذى يفسق هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين من يختار الهداية ؛ لأنه أهل أن يعينه الله على الهداية .

ويقول الحق على لسان سيدنا موسى فى نهاية هذه الآية :

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

والولى هو الذى يليك ، ولا يليك إلا من قربته منك بودك له ، ولم تقرّبه إلا لحيثية فيه تعجبك وتنفعك وتباعدك إذا اعتدى عليك أحد أو تأخذ من عمله لأنه عليم . إذن فالمعنى الأول لكلمة الولى أى القريب الذى قربته لأن فيه خصلة من الخصال التى قد تنفعك ، أو تنصرك ، أو تعلمك .

وقول موسى « أنت ولينا » أى ناصرنا ، والأقرب إلينا . فإن ارتكب الإنسان منا ذنباً فأنت أولى به ، إنك وحدك القادر على أن تغفر ذنبه ؛ لذلك يقول موسى : « فاغفر لنا » ، ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً لأن درءها مقدم على جلب المصلحة ، فقدم موسى عليه السلام طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعا ربّه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة . وقد قال ربنا فى مجال درء المفسدة : ﴿ فمن زحزح عن النار ﴾ وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار : ﴿ وأُدخل الجنة ﴾ . وهذا جلب منفعة ومصلحة .

إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، ـ وعلى سبيل المثال ـ إنك ترى تفاحة على الشجرة ، وتريد أن تمد يدك لتأخذها ، ثم التفت فوجدت شابًّا يريد أن يقذفك بطوبة ، فماذا تصنع ؟ أنت فى مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك . وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وهنا درء المفسدة متمثل فى قول موسى : ﴿ فاغفر لنا ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ وارحمنا ﴾ وهذا جلب مصلحة ، والقرآن يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

لأن الداء يقع أولاً ، وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء ، والرحمة ألاّ يجيء لك داء بالمرة . فإذا أخذت القرآن لك نصيراً فلن يأتى لك الداء أبداً .

﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ومثلها مثل قول الحق سبحانه : ﴿ خير الرازقين ﴾ ، و ﴿ وخير الماكرين ﴾ ، و ﴿ خير الوارثين ﴾ و ﴿ خير الغافرين ﴾ هنا ؛ لأن المغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكننا نعرف أن مغفرة الرب فوق مغفرة الخلق ؛ لأن الغافر من البشر قد يغفر رياء ، وقد يغفر سمعة ، قد يغفر لأنه خاف بطش المقابل . لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

ونلحظ أن هذه الآية تضم طلبات جديدة لسيدنا موسى من ربّه بعد قوله : ﴿ فاغفر لنا وارحمنا ﴾ . ونرى أن خير الغافرين تعود لقول موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ فاغفر لنا ﴾ أما الحسنة فى قوله : ﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ فإنها تعود على طلب الرحمة : ﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ﴾ .

هو إذن يطلب الحسنة فى الدنيا وكذلك فى الآخرة ، والحسنة لها معنى « لغوى » ، ومعنى « شرعى » . أما المعنى اللغوى فكل ما يستحسنه الإنسان يُسمى حسنة ، ولكن الحسنة الشرعية هى ما حسنه الشرع ، فالشرع رقيب على كل فعل من أفعالنا وتصرفاتنا ، فالحسنة ليست ما يستحسنه الإنسان ؛ لأن الإنسان قد يستحسن المعصية ، وهذا استحسان بشرى بعيد عن المنهج ، أما الاستحسان الشرعى فهو فى تنفيذ المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » .

والحسنة المعتبرة فى عرف المكلفين من الله هى الحسنة الشرعية ؛ لأن الإنسان قد يستحسن شيئاً وهو غير شرعى لأنه ينظر إلى عاجلية النفع فيه ، ولا ينظر إلى آجلية النفع ، ولاينظر إلى كمية النافع . والنفع ـ كما نعلم ـ فى الدنيا على قدر تصورك فى النفع ، أما النفع فى الآخرة فلا يعلم قدره إلا علاّم الغيوب ـ سبحانه ـ إذن فقوله : ﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ يكون المراد بها الحسنة الشرعية فى الدنيا عملاً ، وفى الآخرة جزاءً .

ونلحظ أن موسى أراد بالحسنة الأولى ما يعم الحسنة الشرعية والحسنة

اللغوية ؛ فهو دعاء بالعافية والنعم الجليلة الطيّبة ، وكل خير الدنيا فى ضوء منهج الله . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

إذن فالحسنة الخالصة هى فى يوم القيامة ، ولكن هناك من ينتفع بها فى الدنيا ؛ فالجماد منتفع برحمة الله ، والنبات منتفع برحمة الله ، والحيوان منتفع برحمة الله ، والكافر منتفع برحمة الله . كل ذلك فى الدنيا ، وهى الرحمة التى وسعت كل شىء ، لكن مسألة الآخرة كجزاء على الإحسان فهو جزاء خاص بالمؤمنين .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ .

و « هاد » أى رجع ، و « هدنا إليك » أى رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه ، وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا ، ومادمنا قد رجعنا إليك يا ربى فأنت أكرم من أن تردنا خائبين . ويرد الحق سبحانه :

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وقوله الحق : ﴿ عذابى أصيب به من أشاء ﴾ أى لا يوجد من يدفعنى ويرشدنى فى توجيه العذاب لأحد ؛ فحين يذنب عبد ذنباً أنا أعذبه أو أغفر له ؛ لذلك لا يقولن عبد لمذنب إن الله لابد أن يعذبه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وما المقصود بالرحمة هنا ؟ أهى الرحمة فى الدنيا أو الرحمة فى الآخرة ؟ إنها الرحمة فى الدنيا التى تشمل الطائع والعاصى ، والمؤمن والكافر ، ولكنها خالصة

في اليوم الآخر ـ كما قلنا ـ للمؤمنين .

وقوله سبحانه : ﴿ فسأكتبها ﴾ يدل على أن هذا سيكون في الآخرة . أي أن رحمة الله وسعت كل شيء في الدنيا ولكنها رحمة تنتهي بالنسبة للكافرين في إطار الدنيا ، ولكن بالنسبة للمؤمنين فهي رحمة مستمرة قد كتبها الله أزلا وتعطى للمؤمنين فضلاً ومنّة وعطاء منه ـ سبحانه ـ

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وعندما سمع بعض اليهود ذلك قالوا : نحن متقون ، فقيل لهم : في أي منهج أنتم متقون أفي منهج موسى ؟ لو كنتم متقين في منهج موسى ـ كما تزعمون ـ لآمنتم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن من تعاليم موسى أن تؤمنوا برسول الله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فهذه تسع صفات لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي أن الله أوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ، وأنه صاحب المعجزات ، وأنه بلّغ ونبأ بأفضل وأتم العقائد والعبادات والأخلاق - وهو - عليه الصلاة والسلام - الأمى الذى لم يمارس القراءة والكتابة ولم يجلس إلى معلم ، فهو - عليه السلام - باقٍ على الحالة التى ولد عليها ، وقد ذكره ربّه - جل وعلا - باسمه وصفاته ونعوته عند اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل وقد كتمها الكافرون منهم أو أساءوا تأويلها ، كما وصفه ربه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلفهم بفعل كل ما تدعو إليه الطبائع المستقيمة والفطر السليمة ؛ لأن فى ذلك النجاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - يزجرهم وينهاهم عن كل منكر مستهجن تستقبحه الجبلة القويمة ، والخلقة السوية ، ويحل لهم ما حرم عليهم من الطيبات التى منعوا منها وحظرها الله عليهم جزاء طغيانهم وضلالهم ، ويحرم عليهم كل ضار وخبيث : كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش ، ويخفف عنهم ما شق عليهم وثقل من التكاليف التى كانت فى شريعة موسى - عليه السلام - كقطع الأعضاء الخاطئة وتحريم الغنائم عليهم ووجوب إحراقها ، وكذلك يخفف الله ويحط عنهم المواثيق الشديدة التى فرضت عليهم عقابا لهم على فسوقهم وظلمهم .

يقول - جل شأنه - :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين على سيدنا رسول الله أن يبلغوا أقوامهم بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يؤمن الأقوام التى يشهدون ويعاصرون رسالته صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن رسول الله لم يكن معاصراً لأحد من الرسل ، ولكن البشارة به قد جاءت بها أنبياؤهم وسجلت فى الكتب المنزلة عليهم ، وكل رسول سبق سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، قد أمره الله أن يبلغ الذين أرسل إليهم أن يتبعوا الرسول محمداً ويؤمنوا به ولا يتمسكوا بسلطة

زمنية ويخافوا أن تنزع منهم . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه معجزة وبينة فلابد أن يؤمنوا به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خميرة إيمانية حتى لا يتعارض اتباع الأديان . ولا يفهم أصحاب دين موجود أن ديناً آخر جاء لينسخه ويأخذ منه السلطة الزمنية ؛ لأن رسالة الإيمان موصولة وتحدث الأقضية للناس بامتداد الزمان . فكل الرسل يحرصون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المواهب ولا تتعاند فيها الحركات . وقد طلب الحق من الرسل ذلك وأخذ عليهم العهد وبعد ذلك أكده فقال :

﴿ أأقررتم ﴾ واستوحى منهم الكلام الذى يؤيد هذا المنهج . ولذلك لا يصح لتابع نبى أن يصادم رسالة جديدة مؤيدة بمعجزة ومؤيدة بمنهج يضمن للإنسان الحياة وسلامتها وسعادتها .

ولم يكتف الحق بأن يجعل الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد خبر ، بل وضع لمحمد وحده سمة فى الكتب التى سبقته ، ووصفه لهم مشخصاً ، وحين يصفه مشخصاً فهذا أوضح من الخبر عنه بكلام . ولذلك قال عبدالله بن سلام عندما سأله عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منّى يا بنى . قال : وَلِمَ ؟ قال : لأنى لست أشك فى محمد أنه نبىّ ، فأما ولدى فلعل والدته قد خانت ، فقبّل عمر رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ .

ولاشك أن الإنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سمات خاصة وهى التى تثبت شخصيته صلى الله عليه وسلم المادية ، وليس الأمر فى رحلة الإسراء والمعراج مجرد كلام ، بل إنه حينما سئل عن هذه

الرحلة قال : « رأيت موسى وإذا رجل ضَرْبٌ ، رَجِلٌ[1] كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى فإذا هو رَبعة أحمر كأنه خرج من ديماس - الحمَّام - وأنا أشبه ولد إبراهيم به »[2] .

وكذلك أعطى الله فى التوراة والإنجيل لا الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أعطى تفاصيل صورته بحيث تتشخص لهم ، فلا يلتبس به عند مجيئه مع التشخيص شريك ، فيقول سبحانه : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . ولكن فريقاً منهم كتموا الحق ليحتفظوا بالسلطة الزمنية ، لأنهم كانوا يظنون أنه حين يأتى دين جديد سيأخذ منهم هذه السلطة الزمنية ويقود الأمم والشعوب . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل رسل السماء إلى الأرض متعاونين لا متعاندين ، ينصر بعضهم بعضاً . كما جاء فى سورة الفتح :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

لقد جاء الحق بصورة المؤمنين برسالة رسول الله فى التوراة والإنجيل ، لأن الدين الإسلامى الذى نزل على محمد لن يأتى دين بعده ؛ لذلك جاء بسيرة رسول الله وصفاته وصفات أتباعه فى التوراة والإنجيل ، وفى هذا الدين ما تفتقده اليهودية

(١) الضَّرْب : الخفيف اللحم ، والرَّجِل هو من شعره بين السبوطة والجعودة ، وقوله : من رجال شنوءة أى طويل ؛ لأن هذه القبيلة كانت مشهورة بطول قامة رجالها ، ورَبْعة أى مربُوع الخَلْق لا طويل ولا قصير .

(٢) متفق عليه .

التى انجرفت إلى مادية صرفة وتركت الروحانيات ؛ لذلك تأتى سيرة أتباع محمد فى التوراة : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ .

حين أسرف اليهود فى المادية أراد الله أن يأتى برسول يجنح ويميل إلى الروحانية وهو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام . . ليحصل الاعتدال فى تناول الحياة دون إفراط أو تفريط .

إذن فالحق سبحانه وتعالى مهد لكل رسول بأن يبشر به الرسول السابق لأنه لا معاندات فى الرسالات . ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الموكب الرسالى ، كان ولابد أن يصفه الله ـ سبحانه ـ وصفًا ليس بالكلام ، بل يصفه كصورة ، بحيث إذا رأوه يعرفونه ، ولذلك نجد سيدنا سلمان الفارسى حين رأى رسول الله فى المدينة ورأى منه علامات كثيرة أحب أن يرى فيه علامة مادية ، فرأى فى كتف الرسول خاتم النبوة .

ولكن هل نفع ذلك ؟ نعم ، فكثير من الناس آمن به . وقد أقام رسول الله مناظرة بينه وبين اليهود بواسطة عبدالله بن سلام ، الذى قال بعد أن أسلم بين يدى رسول الله : « يارسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى[1] عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أى رجل فيكم عبدالله بن سَلّام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ؟ فخرج عبدالله إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه »[2] .

إذن فالأوصاف الكلامية والأوصاف الشخصية المشخصة جاءت حتى لا يقال : إن أديان السماء تتعاند ، إنها كلها متكاتفة فى أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زماناً ومكاناً . وقديماً كان العالم معزولاً عن بعضه ، وكل

(١) بهتونى : قالوا علىَّ ما لم أفعل ، من البهت والبهتان وهو الباطل والكذب والافتراء .
(٢) من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب بدء الخلق ـ عن أنس ـ رضى الله عنه ـ

بيئة لها أجواؤها وداءاتها ؛ فيأتى الرسول ليعالج فى مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداءات في الدنيا ؛ جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداً بتعاليمه التي تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإصر هو الحِمْل الثقيل ، والأغلال جمع غُلّ وهو الحديدة التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .

وقد ذكر الحق الأوصاف ومهَّد الأذهان إلى مجىء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بالنور الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هى الجامعة المانعة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

هنا يأمر الحق رسوله بالآتى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ فى رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفى ذلك يقول رسول الله :

« أعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلى .. نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة »[1] .

(١) متفق عليه .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة بعمومية تسخير الكون للخلق ؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ . وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسل إليهم : ﴿ إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وأراد سبحانه أن يعطينا الحيثيات التي تجعل لله رسولاً يبلغ قومه وكافة الأقوام منهج الله في حركة حياتهم ، فقال : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ .

ومادام هو الذي يملك السموات والأرض ، ولم يدّع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفي السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد . ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك . وفي هذا يقول الحق :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

إذن فمادام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأوْلى أن يعبد ، وأول قمة العبادة أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحيثية ألوهيته الأولى أن له ملك السموات والأرض . ومادام إلهاً فلابد أن يطاع ، ولا يطاع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية إنه هو التوحيد . وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة فقال : ﴿ يحيي ويميت ﴾ . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً ؛ لأن الله هو الذي له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيي ويميت . ولذلك نجد من حاجّ إبراهيم في ربه يقول الحق عنه :

﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وحاول هذا الملك أن يدير حواراً سفسطائيًّا مضللا ليفحم ويسكت إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال :

﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وذلك بأن يأمر بقتل انسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لايميته بل يحييه فى منطق السفسطائيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت ؟ . طبعا لا ؛ لأن هناك فارقا بين الموت والقتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميته ؛ لأن الموت يأتى بدون هدم بنيته بشىء ؛ برصاصة أو بحجر أو بقنبلة . ولا أحد قادر على أن يميت أحداً إذا رغب فى أن يميته ، فالموت هو الحادث بدون سبب . لكن أن يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأعراف)

وانظروا إلى الدقة فى الأداء ؛ فمادام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إنى رسول الله إليكم جميعاً ، وحيثية الإيمان هى الإقرار والاعتقاد بوحدانية الإله الذى له ملك السموات والأرض ، وهو لا إله إلا هو ، وهو يحيى ويميت ؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ .

لم يقل محمدٌ وآمنوا بى ؛ لأنها ليست مسألة ذاتية فى شخصك يا محمد ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصيلة ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ ، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . وبعد ذلك قال فى وصف النبى : ﴿ النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ﴾ . والأمية ـ كما علمنا من قبل ـ شرف فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله ، وهى إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن ، وإمّا بالذى قاله موسى لقومه : « واجعل كلامى فى فيه » .

ويقول فيه عيسى ـ الذى لا يتكلم من قِبَل نفسه ـ ، وإنما تأتى له كلمات ربنا فى فمه ، والقول الشامل فى وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم : ما بيّنه الحق فى قوله :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾

(سورة النجم)

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه :

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد ؟ ونقول : إنه سبحانه قد علمه أزلاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أى شىء هو أزلى فى علم الله ، وكأنه يقول للشىء : اظهر يا كائن للوجود ليراك الناس بعد أن كنت مطموراً فى طىّ قدرتى .

وسواء أكانت الكلمة بخلق الأسباب ، مثل خلق الشمس والقمر أم بخلق شىء بلا أسباب ، كعيسى ـ عليه السلام ـ فإنه « كلمة منه » أى كلمة تخطت نطاق الأسباب ؛ بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفى هذا تخطٍ للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ بكلمة منه ﴾ . ونعلم أن كل شىء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هى أيضاً الآيات التى فيها منهج الأحكام ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويروى لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

« إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتى قال : تلك أمة أحمد »[1] .

(١) ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ... ﴾ الخ .

وقول موسى آمنوا بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، هو الذى يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة البقرة)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . و « لعل » رجاء وطلب . ونعلم أن كل طلب يتعلق بأحد أمرين : إما طلب لمحال لكنك تطلبه لتدل بذلك على أنك تحبه ، وهو لون من التمنى مثل قول من قال : ليت الشباب يعود يوماً ، إنه يعلم أن الشباب لا يعود لكنه يقول ذلك ليشعرك بأنه يحب الشباب . أو كقول إنسان : ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح ، وهذا طلب لمحال ، إلا أنه يريد أن يشعرك بأن هذا أمر يحبه ، وإمَّا طلب ممكن التحقيق . وهو ما يسمى بالرجاء . وله مراحل : فأنت حين ترجو لإنسان كذا ، تقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والإدخال فى باب الرجاء أن تقول : لعلى أعطيك ؛ لأن الرجاء منك أنت ، وأنت الذى تقوله ، ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه ، والأقوى أن تقول : لعل الله يعطيك . ولكنها من كلامك أنت فقد يستجيب الله لك وقد لا يستجيب ، أما إذا قال الله : لعلكم ، فهذا أرجى الرجاءات ، ولابد أن يتحقق .

وحينما يتكلم الحق عن قوم موسى ، يتكلم عنهم بعرض قصصهم ، وفضائحهم ونقضهم للعهد بعد نعم الله الواسعة الكثيرة عليهم ، وأوضح لنا : إياكم أن تأخذوا هذا الحكم عاماً ؛ لأن الحكم لو كان عاماً ، لما وُجِد من أمة موسى من يؤمن بمحمد . ولذلك قلنا قديماً إن هناك ما يسمى « صيانة الاحتمال » . ومثال على ذلك نجد من اليهود من آمنوا برسالة رسول الله مثل مخريق الذى قال فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مخريق خير يهود » . وعبدالله بن سلام إن بعض اليهود كانوا مشغولين بقضية الإيمان ، ولذلك لا تأخذ المسألة كحكم عام ؛ لأن من قوم موسى من يصفهم الحق بالقول الكريم :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

وحين يسمع قوم موسى هذا القول سيقولون فى أنفسهم إنه يعلم ما في صدورنا من تفكير فى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن لو عمم الحكم فمن يفكر فى الإيمان بمحمد يقول : لماذا يصدر حكماً ضدى وأنا أفكر فى الإيمان ؟ لكن الحق « صان الاحتمال » وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يفكرون فى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى يدلون الناس على الحق ويدعونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون فى حكمهم بين الناس ولا يجورون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟

مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

وحين يقول الحق « قطعناهم » فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يخصص كأى كتاب فصلاً لموسى وآخر لعيسى وثالثاً لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإيمانى عجينة واحدة فى الدعوة ، فيأتى بقضية عيسى ، ثم يدخل فى الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كى يستغل انفعالات النفس بعد أى قصة من القصص .

وهنا يعود الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى . فبعد أن أنصفهم وبيّن أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ . والمقصود هنا بنو إسرائيل ، ومعنى « قطعت الشىء » أن الشىء كان له تمام وجودى مع بعضه ، ثم قطعته وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم « أسباطاً » ، و « السبط » هو ولد الولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثنى عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾

(من الآية ٤ سورة يوسف)

وحين تعد وتحصى ستجد أحد عشر كوكباً مرئية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائى ، فيصير العدد أربعة عشر واترك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، وخذ الأحد عشر كوكباً ، وأضف الرائى وهو يوسف فيكون العدد اثنى عشر . وهؤلاء هم الاثنا عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثنى عشر ابناً من أمهات مختلفة ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميول الأهوائية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تنبأ سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف :

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يوسف)

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سبب من أسباب وحيثية التقطيع : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً ﴾ .

وفى سورة يوسف نقرأ :

﴿ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة يوسف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك فى الماء تحسباً للاختلاف فيما بينهم ، فجعل الحق لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ليعالج ما فيهم من داءات الغيرة والحقد على بعضهم البعض ؛ لأن الحق قال عنهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأسباط فى أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل فى أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل « العرب » يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسمونهم « أسباطاً » ، ونعرف أن لفظ « اثنتى » يدل على أنهم إناث ، و « عشرة » أيضا إناث ، لأننا نقول : « جاءنى رجلان اثنان » و « امرأتان اثنتان » ؛ أى اثنان للذكور ، واثنتان للإناث ، وكلمة « اثنتى عشرة » عدد مركب وتمييزه يكون دائماً مفرداً ، ولذلك يقول الحق : ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ .

إذن « اثنتا عشرة » يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا « سبط » وسبط مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذا جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : « كل جمع مؤنث » وأيضاً فالمراد بالأسباط القبائل ، ومفردها قبيلة وهى مؤنثة ، وقطعهم أى كانت لهم - من قبل - وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شىء واحد ، فجاء بكلمة « أسباط » مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : « اثنتا عشرة قبيلة » ،

ولا يقال اثنتا عشرة قبائل ، فوضع أسباطاً ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تضم أسباطاً لذا جاء التمييز مذكراً . .

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

أى جعلنا كل سبط أمة بخصوصها . والواقع الكونى أثبت أنهم كذلك ؛ لأنك لا تجد لهم ـ فيما مضى ـ تجمعاً قوميًّا وهو ما يسمونه « الوطن القومى لليهود » برغم أن الدول الظالمة القوية أعانوهم وأقاموا لهم وطناً على أرض فلسطين ، ومع ذلك نجد فى كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التى تحيا فى رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا فى الشعوب ، ففى باريس ـ مثلاً ـ تجد « حى اليهود » ، وفى لندن المسألة نفسها ، وفى كل مدينة كبيرة تتكرر هذه الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، وبعاداتهم معزولين عن الشعوب ، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً امماً ﴾ .

وقطعهم ربنا فى الأرض أى أنه نشرهم فى البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً مستقلاً ، ولذلك ستقرأ فى سورة الإسراء إن شاء الله : ﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ .

أى أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى : اسكنوا الأرض وحين تقول لنا يا رب : « اسكن » فأنت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإنسان فى الإسكندرية أو القاهرة أو الأردن او سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن « اسكنوا الأرض » فهذا يعنى أن انساحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ .

أى أنه حين يجىء وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم ـ أيها اليهود ـ لأن عدوكم لن يتتبعكم فى كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم فى كل مكان تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتى بهم الحق لفيفاً ويتجمعون . فى هذا الوطن القومى الذين يفرحون به ، ونقول لهم : لا تفرحوا

فهذا هو التجمع الذى قال الله عنه : « جئنا بكم لفيفاً » لتكون الضربة موجهة لكم فى مكان واحد تستأصلكم وتقضى عليكم .

ويأتى الحق بعد ذلك بخبر المعجزات :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

و « استسقى » المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هى طلب الماء الذى يمنع عن الإنسان العطش ، ومادام قد طلبوا السقيا فلابد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم فى التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرِّى .

والحق يقول : ﴿ إذ استسقاه قومه ﴾ ، أى طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتى أرويكم ، ولكن سأستسقى لكم ربى ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودى الاضطرارى : الهواء والماء والطعام . وساعة ترى « همزة » وسيناً « وتاء » واقعة على شىء من الأشياء فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين سار موسى والعبد الصالح ونزلا قرية استطعما أهلها ، أى طلبا طعاماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهنا « استسقى » أى طلب المقوم الثانى وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغنى عنه . لذا لم يضعه الله فى يد أحد بل أعطاه ومنحه كل الخلق .

ولما كان الهواء غير مملوك وهو مشاع ؛ لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعام يُمكن أن يُملك ، والماء يُمكن أن يُملك ، فقال سبحانه مرة « استطعم » ، وقال هنا « استسقى » ، ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد فى القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه :

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

أي طلبت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريده الله .

وقصة الاستسقاء وردت من قبل في سورة البقرة : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ . وفي سورة الأعراف التي نحن بصدد خواطرنا عنها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض ؟ . طبعاً لا ؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار ؟ لا ؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الواهب للماء ؛ فقال هنا : « إذ استسقاه قومه » ، وفي سورة البقرة قال : ﴿ وإذا استسقى موسى لقومه ﴾ .

وهذا ترتيب طبيعي . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار ؛ لأن المستسقي هنا القوم ، والمستسقى لهم هنا هو موسى والمستسقى منه هو الله -جلت قدرته- وهذا أمر طبيعي .

والحق سبحانه يقول في سورة البقرة :

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

ونجد الوحي نزل إلى موسى بقوله : ﴿ فقلنا اضرب ﴾ ؛ وهنا في سورة الأعراف نجد الحق يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولنا أن نعرف أَنَّ « قُلْنَا » تساوي « أوحينا » تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مناطات تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المناط في قوله الحق : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ .

فليس كل وحي لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحى له من بعد ذلك كغيره من الرسل .

وقوله الحق :

﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فينبجس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرةالله فى أن يعطى ويمنع بالشىء الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التى فى يد الله يحركها كيف يشاء . ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أى كالجبل ، وامتنعت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فأوحى له الله : ﴿ اترك البحر رهواً ﴾ .

أي اتركه كما هو عليه ؛ لأن الله يريد أن يغتر فرعون وقومه بأن يروا اليابس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا النفاذ منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته فغرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشىء الواحد ، وكذلك فى أمر العصا ؛ إنها هى حين ضربت الماء فلقته فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب .

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهنا تعبير « انبجست » ، وهناك تعبير « انفجرت » ، ونعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ؛ فالانبجاس أن يأتى الماء قطرة قطرة ، ثم يأتى الانفجار وتتدفق المياه الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتى وتجىء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك . إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التى أعقبت الضربة فى لقطات متعددة لمظهر واحد ؛ له أولية وله آخرية .

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلمٍ علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً وابن البتول فعلَّم الإنجيلا
ثم جاء لسيدنا محمد وقال :
وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع فى العبارة حين قال : « فسقى الحديث » ، فالحديث سقيا أما القرآن فمناولة من الله لخلقه . والحق يقول : ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾ .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تنبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتى عشرة عينا وعلم كل أناسٍ مشربهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون المكان متسعاً . وأن هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال من الأرض .

﴿ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذى يخصه ؟ إنها قسمة الله وصارت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهذا يدل أيضاً على التساوى ، فلم تتفجر عين بماء أكثر من الأخرى فتثير الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أراده الحق : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بنى إسرائيل فى التيه ، وفى الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجاءت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط غمامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يضعهم فى عشرين خيمة مثلا ، فهل يعجز ربنا عن ذلك ؟ طبعاً لا .

وإذا كان الحق قد ضمن لنا فى الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نعرى ، ولا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقى أمر الطعام لهؤلاء . فقال :

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ساعة تأتى كلمة « أنزلنا » نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يُفترض أن يكون مكانها عاليًا ، لكن هى مسألة جاءت من أعلى من قدرتك ، أى من فوق أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و « المنّ » مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الزئبق . يجدونه على الشجر . ولا يزال هذا الشجر موجوداً إلى الآن فى العراق ، يهزونه صباحاً فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاءة بيضاء واسمه عندهم المنْ - أيضاً - وهو فى طعم القشدة وليونتها ، وحلاوة العسل .

و « السلوى » هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوربا وحوض البحر المتوسط واحدته « سَلواة » وهو « السُّمانى » ويسميه أهل السواحل « السُّمان » وهو يأتى مهاجراً ولم يربه أحد ، وفى هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد وأسبابهم .

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهناك مصانع تصنع المن فى أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسلوى - كما قلنا - هو طائر « السمان » الموجود فى بيئة أخرى يغريه ربنا بالطقس الدافىء فيأتى إلينا لنأخذه ، وهذه الطيور جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبعثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدلل على أنه حين يريد أن يأتى لهم برزق غيبى يمدهم ويمنحهم المن والسلوى كما أخرج من الحجر الماء ، وكما ظلّلهم بالغمام ، وبذلك صارت حاجاتهم قدريّة ليس لهم فيها أسباب وجاءت لهم بالهناء . فقالوا : ومن يدرينا أن الرزق الذى يأتينا من المن والسلوى سيستمر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد ؟ إنهم قالوا لنبيهم سيدنا موسى

ما حكاه القرآن بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أى مِصْرٍ من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون : ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ، إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل تمردوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً فى سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وإذ قيل لهم ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ؛ لأن طبيعة الأمر فى الأسباط أنه سبحانه جعل لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يأتلفون ؛ فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء ، والنقباء يقولون للناس .

وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفى آية أخرى قال الحق : ﴿ وإذ قلنا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة توضح أن

المصدر الأصيل فى القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح الحق هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « وإذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هى بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا : لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

والحق لا يبين لنا القرية فى هذه الآية ؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التى لها وزنها وخطرها وهى تنفيذ الأمر على أى مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم فى التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء من صخر ، ومَنّ وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وقديماً كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

والحطة تعنى الدعاء بأن يقولوا : يا رب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التى أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفّههم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أى سلب مضرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك فى سورة البقرة قد جاء النص التالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً فى الألفاظ واللقطات عن الآية التى وردت فى سورة الأعراف . أول خلاف ﴿ وإذ قلنا ﴾ ، ﴿ وإذ قيل ﴾ ، وشاء الحق ذلك ليأتى لنا بلقطة مختلفة كما أوضحنا من قبل . ففى آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادخلوا ﴾ وفى آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسكنوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهى السكن أى ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله فى سورة الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة . وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية ؛ لأنه لا يسكن أحد فى القرية إلا إذا دخلها .

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتى لتكرار ، بل للتأسيس وللإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وفى آية سورة البقرة يقول : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والتوّ بتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رغداً » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ؛ لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وتأن . وقال الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ . أى أنه قدم قولهم « حطة » على السجود ، وفى آية سورة البقرة قدم السجود فقال :

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من ينفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وفى سورة البقرة يقول : ﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ .

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تأنيث ، ففى جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « قفل » فنقول فى جمعها « أقفال » . أما فى جمع التأنيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد فى المفرد من علامة تأنيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و « فاطمات » ، و « أكلة » ، و « أكلات » وهذا جمع مؤنث سالم ، أى أن ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة . لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء - سبحانه - بجمع المؤنث السالم الذى يدل على القلة وبجمع التكسير الذى يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن المخاطبين غير متساوين فى الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً فى عجز الآيتين ، فقال فى سورة البقرة : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ . وجاء عجز سورة الأعراف بدون « واو » فقال : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعانا الحق إلى أن نقول : اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة . وهنا يوضح سبحانه : أنا لن أكتفى بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكنى سأزيدكم حسناً ، وفى هذا سلب للضرر وجلب للنفع . كأن الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذى ينبىء ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و « خطيآتكم » التى تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يا رب فقيل ؟ لهم : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ هل سيغفر لنا فقط ، أو أنه سيجازينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى

﴿ قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

هذه الآية تدل على أنهم افترقوا فرقتين ؛ لأن الحق سبحانه مادام قد قال : ﴿ منهم ﴾ فهذا يعنى أن بعضهم قالوا وفعلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : « حطة » وطلب منهم أن يدخلوا سجداً . والتغيير منهم جاء فى القول ؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرئى مما يدل على أن بعضهم يرائى بعضاً ، ففى القول أرادوا أن يهذروا ويتكلموا بما لا ينبغى ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : « حطة » قالوا : « حنطة » استهزاءً بالكلمة .

وهكذا نرى أن التبديل جاء فى القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبديل أيضاً حدث من بعضهم فى الفعل . فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مقعداتهم ، كنوع من التعالى ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك ؛ لأن سلوكهم فى الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل .

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

وكأن الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم فى أثناء التيه وكيف ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، واستسقى لهم موسى فجاءت المياه . لكن غريزة التبديل والتمرد لم تغادرهم . وماداموا قد بدَّلوا فى كلمات الله ، فعليهم أن ينالوا العقاب : ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء ﴾ .

وهناك آية ثانية فى سورة البقرة يقول فيها الحق : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ . والفارق بين « الإنزال » وبين « الإرسال » أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه فى

المطر : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن فى الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ . فالذى يحتاج إلى استمرارية فى الفعل يقول فيه الحق : « أرسل » بدليل أن الله حينما أراد أن يجىء بالطوفان ليغرق المكذبين بموسى قال :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود فى الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم :

﴿ وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة هود)

إذن فالإرسال يعنى التواصل ، أما الإنزال فهو لمرة واحدة ، وأراد الحق سبحانه من قصة بنى إسرائيل أن يأتى لنا بلقطة فجاء بكلمة « أنزلنا » ، ولقطة أخرى جاء فيها بـ « أرسلنا » ؛ لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، فهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنبه أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه ؛ فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عقاباً على قدر ذنبه . ومن تمادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنوبه الكبيرة .

وهنا يقول الحق :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

و « رجزاً » أى عذاباً ، وهناك رِجْز ، ورُجْز ، والرِّجز يُولد من الرُّجْز ؛ وينشأ مثل قوله الحق : ﴿ والرُّجزَ فاهجر ﴾ . أى اهجر الرُّجْز . . أى المآثم والمعاصى والذنوب لتسلم من الرِّجز . . أى من العذاب . وهنا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك فى الآية الأخرى قال : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ .

والفسق يسبق الظلم ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا

فسق أولاً ، ولذلك جاء الحق بالمسبَّب وجاء بالسبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة فى القرآن جاءت لمعنى أساسى تؤديه ولا تكرار إلا لمجموع القصة فى ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً فى كل شىء لتعطى معانى ولقطات جديدة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

هنا سؤال عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التى دخلوها هى « بيت المقدس » ولم تكن على البحر ، والقرية التى كانت على البحر هى « أيلة » أو « مدين » أو « طبرية » ، المهم أنها كانت « حاضرة البحر » أى قريبة من البحر ومشرفة عليه ؛ لأننا نقول فلان حضر ، أى كان بعيداً فاقترب . فمثل الإسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .

وقوله : « واسألهم » والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه السؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا فى كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحى من الله إليه ؛ لأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ فى كتاب ، وإنما علّمه من أرسله ، إنّه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يَعْلَم منهم ، بل يريد أن يُعْلِمَهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مصدر له كعلم سائر البشر ؛ لا جلس على معلم ولا قرأ فى كتاب ولذلك تجد « ماكُنّات »

القرآن أى قوله الحق : « ما كنت » و « ماكنت » و « ما كنت » و« ما كنت » مثل قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

إذن فأنت يا رسول الله لم تكن معهم لتقول لهم ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم فى كتبهم ، إذن فالذى علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وفى هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليتيقنوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به .

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « واسألهم » تحل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألونى عن أشياء من بيت

المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلىّ أنظر إليه ، ما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلى وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس شبها به عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبهاً به صاحبكم ـ يعنى نفسه ـ فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل : يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأنى بالسلام »[1] .

وتأتى آية فى القرآن تقول :

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الزخرف)

والأمر لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسل الله من قبله ، ومتى يسألهم ؟ لابد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل . إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالخبر مصدق لأنه قد أدى أمر الله : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ . والسؤال هنا سؤال للتقرير والتقريع والتوبيخ : وما قصة القرية التى كانت حاضرة البحر ؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أى القريبة من البحر ، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أنّ للبحر فيه مدخلاً ؛ لأن المسألة متعلقة بالحيتان والسمك والصيد ، لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية .

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وحيتان جمع حوت ، مثلما يجمعون « نُوناً » ـ وهو الحوت أيضاً ـ على « نينان » ؛ وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل فى يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم « السبت » ، ومازالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحداً منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه .

ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالى . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى هذه مُثل وعِبَر لأى منحرف ، ولكل منحرف نقول : إياك أن تظن أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها ، لا ؛ لأن ربنا قادر أن يبتليه بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتشى مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب فيضيع عليه كل شىء أخذه .

إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم . وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم ؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة ، فحرم عليهم العمل فى يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريباً من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم ، ويرون السمك فى المياه وهو يرفع زعانفه كشراع المركب ، وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم فى بيوتهم ، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب ؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويرون هذا السمك أمامهم فى يوم السبت ، لكن فى بقية الأيام التى يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة : ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

وهنا قالوا : مادام ربنا قد حرم علينا أن نصطاد يوم السبت فعلينا أن نحتال . وصنعوا كيساً من السلك المضفر والذى نسميه « الجوبية » وهم أول من صنعوا هذه الجوبية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتى السمك يوم السبت ويدخل فى الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد . وفى هذا اعتداء . أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفى هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله ؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلابد أن هناك أناساً قيل لهم هذا القول . إذن ففيه « قوم واعظون » ، و« قوم موعوظون » ، و« قوم مستنكرون وعظ الواعظين » . وهكذا صاروا ثلاث فرق :

الذين قالوا وعظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله ؟ هؤلاء هم المؤمنون حقًّا . وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصلحاء من أهل القرية الذين يئسوا من صلاح حال المخالفين للمنهج .

وحين ندقق فى الآية :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأعراف)

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن وعظوا ؛ لأنهم رأوا أن الوعظ مع الخارجين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلعلك باخع نفسك ألّا يكونوا مؤمنين ﴾ .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تُحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك . وهنا قال بعض بنى إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين فى الكفر ، لماذا ترهقون أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون ؟ : ﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

وما هى المعذرة إلى الله ؟ . يقال : عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان فى

ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر فى فعله ، كأن تقول : لقد جعلتنى انتظرك طويلاً وتأخرت فى ميعادك معى . أنت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر فى ميعادٍ ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت منى السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر . إذن فمعنى « العذر » هو إبداء سبب لأمر خالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أنذر ، والحق يقول :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة التوبة)

ونعلم أيضاً أن هناك مُعْذِراً ، ومُعذِّراً . والمُعَذِّر هو من يأتى بعذر كاذب ، والمُعْذِر هو من يأتى بعذر صادق . وقال الواعظون : نحن نعظهم ، وأنتم حكمتم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكنا لم نيأس ، وعلى فرض أننا يئسنا من فعلهم ، فعلى الأقل نكون قد قدمنا لربنا المعذرة فى أننا عملنا على قدر طاقتنا .

وكلمة « وَعْظ » تقتضى أن نقول فيها : إن هناك فارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم ؛ فالوعظ أن تكرر لموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله . كأن تقول لإنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها .

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت الوعَّاظ . وهم من يقولون للناس الأحكام التى يعرفونها ، ليعملوا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد .

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ ليس مراداً به الفئة التى لم تفعل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به الفئة الموعوظة ، كأن الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا ؟ . ونقول : لا ؛ لأن عجز الآية ينافى هذا . فالحق يقول : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

ومجىء « لعلهم » يؤكد أن هذا خبر عن الغير لا أنَّه من الموعوظين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاءً لخروجهم وفسوقهم عن المنهج وأنجى الله الفرقة الواعظة . وماذا عن الفرقة الثالثة التى لم تنضم إلى الواعظين أو الموعوظين ؟ الذين قالوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ إن قولهم هذا لون من الوعظ ؛ فساعة يخوفونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ يدل على أنه قد وعظهم غيرهم وذكروهم . ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا مَن وعظوهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد ؛ فالمسألة ليست تعنتاً من الله ؛ لأنهم السبب فى هذا ، إما بفسق ، وإمّا بظلم للنفس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يزهق حياتهم ويميتهم ؛ لأن العذاب هو إيلام من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهى الإحساس بالألم ، ولنتعرف على الفارق بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول سيدنا سليمان حين تنبه لغياب الهدهد عندما وجد مكانه خاليا :

﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآيتين ٢٠ ، ٢١ سورة النمل)

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه ﴾ و « عتوا » تعنى أبوْا وعصوْا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذى أوضحه قول الحق : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ .

لأن « العتو » كبرياء وإباء ؛ فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات ، فصيرهم أشباه القرود ، كل منهم مفضوح السوءة ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قردة ؟ . نعم ؛ لأنك حين تأمر إنساناً بفعل . . ألاَ تُقَدِّر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل ؟ . وحين يقول الله : ﴿ كونوا قردة ﴾ فهل فى مكنتهم أن يصنعوا من أنفسهم قردة ؟ . ونقول : إن هذا اسمه « أمر تسخيرى » أى اصبحوا وصُيِّروا قردة . وقد رأوهم على هذه الهيئة من وعظوهم ، وهى هنا مقولة « خبر » نصدقه بتوثيق من قاله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمنْ شاهده .

ولذلك نجد المعجزات التى حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذى وصلنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبرونا بالخبر ، وكان ذلك آية تُثبِّت يقينهم وإيمانهم . وتثبت لنا خبراً ، فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك ؛ لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، وكل معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويذعن .

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ بأنه أوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قردة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عمَّا نهوا عنه . والذين وعظوهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .

وهل الممسوخ يظل ممسوخاً ؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالماً ، ثم بعد ذلك يموت وينتهي .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

وتَأَذَّن نجد مادتها من الهمزة والذال والنون ، فمنه أُذُن ، ومنها أَذَان ، وكلها يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هى الأذن والسمع ،حتى الذى سنُعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » إلخ ، ثم تهجاها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل فى المعلومات ، ونقرأ فى القرآن :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

وأذنت لربها . . أى سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها : « انشقى » امتثلت وانشقت .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكلام هنا بالنسبة لبنى إسرائيل ، ويبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين فى أن يفعلوا ، « فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال

فى نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولماذا ؟ .

لأنهم منسوبون لدين ، والله لايسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله له رسولا. ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً ؛ إذا فسد مع كون الناس ويعلمون عنه أنه تابع لنبى ، وأن له كتاباً ، حينئذ يكون أسوة سيئة فى الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد منسوب لمن هو منسوب إلى الله . وعرفنا أن مادة أذن كلها مناط الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال :

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

إنَّ الحق ـ سبحانه ـ يسمى العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أى ليس عندهم شىء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لنا وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهى وسائل العلم التى تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها فى أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد ـ كما قلنا سابقاً ـ ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف ؛ لأن عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت فى أذنه وصرخت انفعل .

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ، ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون للطفل مثلاً : إياك أن تقبل على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها ، فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أن لسعته النار مرة واحدة ، لم يعد فى حاجة إلى أن يتكرر له القول : بأن النار محرقة . فقد تكونت عنده معلومة عقلية . فأولاً

يأتى السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتى الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أمدكم بوسائل العلم ليخرجكم من أميتكم .

وهناك لفتة إعجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هى الآلة التى تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففى طبيعة تكوينها حجاب لتغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمناط السمع واحد ، لكن فى أى منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة فى أن تراه ، فتفتح عينيك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مرائيها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك فى أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختيار فى أن ترى أو لا ترى ، وهذه أمور رتبها لنا الحق فى القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد فى السمع ، وجمع فى البصر مع أنهما فى مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جاءت فى القرآن :

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هى الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا فى آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة السجدة)

هنا قدّم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتى سنرى تغيراً فى الكون قبل أن نسمع شيئاً .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وتأذّن أى أَعْلم الله إعلاماً مؤكداً بأنّكم يا بنى إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

وكذلك مثلما حدث من بختنصر ، وهتلر . إذن « وإذ تأذن ربك » أى أعلم ربك إعلاماً مؤكداً ؛ لأن البشر قد يُعْلمون بشىء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكى يعملوا ما أعلموا به ، فإذا أعلمت أنت بشىء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أمّا الله ـ سبحانه ـ فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يُعْلم بالشىء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعده على أن ينفذ . مثال ذلك : صحابة رسول الله الأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ؛ منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوى يحتمى به ، فينزل الله فى هذه الظروف العصيبة آية قرآنية لرسول الله يقول فيها :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

وتساءل البعض كيف يُهزْمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أى جمع يُهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثب فى الدروع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، فعرفت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أَعْلَمَ بالنصر ، وهو قادر على إنفاذ ما أعْلَم به على وفق ما أعَلم ؛ لأنه لايوجد إله آخر

يصادمه . إذن « وإذ تأذن ربك » يعنى أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحيثية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

أى يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلى بينه وبينهم ، فلا يمنعهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

(سورة مريم)

أى أنه ـ سبحانه ـ أرسلهم لهذه المهمة وخلّى بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ .

وكلمة « إلى يوم القيامة » تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى فى الكون كخميرة (عكننة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا ؟!

هم يقومون بمهمة الشر فى الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود فى الوجود ، ويعض الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهافت على الحق وعلى الخير . فالشر ـ إذن ـ جاء ليعضّ الناس بآلامه وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعتمل فى صدور المسلمين وأقوى نزوع حركى إلى الإسلام حين يجدون مَن يضطهد قضية الإسلام .

إن مهمة الشر فى الوجود أنه يجمع عناصر الخير فى الوجود ، ومهمة الباطل فى الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير. ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

(ويسوم) من مادتها سام ، ونسمعها فى البهائم ونسميها السائمة وهى التى تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذى يجهز لها مقومات حياتها . أما البهائم التى تُرْبط وليست سائمة فهى التى تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل « سام » أى طلب ، وبهيمة سائمة أى تطلب رزقها وأكلها بنفسها .

و « سام » أيضاً أى طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته فى التعذيب . فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أى أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهد طاقته ، فإذا فترت طاقته أو ضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره .

إذن فطلب العذاب معناه أنّه : عَذَّب هو ، ولم يكتف بأنه عذَّب بل طلب لهم عذاباً آخر ، و « يسومهم سوء العذاب » أى العذاب السيىء الشديد . ويذيل الحق الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

ومعنى سرعة الشىء أن تأخذ زمناً أقل مما يتوقع له ؛ لأن السرعة هي اختصار الزمن . « لسريع العقاب » هى للدنيا وللآخرة ، فساعة يقترفون ذنباً . يسلط عليهم من يعذبهم فى الدنيا ، أما الآخرة ففيها سرعة عالية ؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هى عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهى الدنيا بالنسبة له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[1] .

إن هناك سرعة لحساب الأخرة . وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهى الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أى إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا .

(١) رواه الديلمى عن أنس مرفوعاً .

وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب « وإنه لغفور رحيم » قد نجد من يسأل كيف والحديث هناعن العقاب ؟ ونقول : إنه سبحانه الذى يتكلم . وهو القادر ، فإذا قال : إنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظَّلَمَة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه ـ سبحانه ـ يأتى بالمقابل لكى يشجع كل إنسان على الدخول فى رحمته .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٦٨ ﴾

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً :

﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولكن القول هنا يجيء لمعنى آخر : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لايبقى لهم وطن ، ويعيشون فى ذلة ، لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضا منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم . وهنا يقول الحق : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً ﴾ .

ومعنى « قطعنا هم » أى أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتى فى نفسها ، وأيضاً لا تشيع فى المكان الذى تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون فى المجتمعات أبداً ، ـ كما قلنا ـ فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حيًّا خاصًّا ، كذلك فى

فرنسا ، وألمانيا ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق ذلك بعد أن قال لهم :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

فبعد أن مَنَّ عليهم بأرض يقيمون فيها ، قالوا :

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطنا واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم فى الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط فى دائرتهم التى يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن للدنيا كلها أن فسادهم فساد عام . ولذلك فهم إن اجتمعوا فى مكان فلابد أن تتألب عليهم القوى وتخرجهم مطرودين أو تعذبهم ، وأظن حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل فى شرح قوله الحق :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

لقد قلنا : إن السكن فى الأرض هو أن يتبعثروا فيها ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لم يحدد لهم مكانا يقيمون فيه ، فإذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضربة واحدة ، ويأتى الحق بهم لفيفاً تمهيداً للضربة القاصمة : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

هناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بنايةٍ للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالذى دخل منهم فى الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، والحق قد قال :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقلنا إن هذه تسمى صيانة الاحتمال لمن يفكرون فى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ . و « دون » أى غير ، فالمقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون فى القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً . فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط . ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

كلمة « لعلهم يرجعون » هى التى جعلتنا نفهم أن قول الحق سبحانه وتعالى : إن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أى كافرون ؛ لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق بـ ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و « بلونا » أى اختبرنا ؛ لأن لله فى الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك لأنه ـ سبحانه ـ عالم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلى لا يُعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أتغرنا الأسباب فى الدنيا عن المُسبِّب الأعلى الذى وهبها :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها فى مظان الخير لها . فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار . إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أى ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إننا نجد من يقول : « ربى أكرمن » . ومَن يقول : « ربى أهانن » والحق يوضح : أنتما كاذبان . فليست النعمة دليل الإكرام ، ولا سلب النعمة دليل الإهانة . ولكن الإكرام ينشأ حين تستقبل النعمة بشكر ، وتستقبل النقمة بصبر . إذن مجيء النعمة فى ذاتها ليس إلا اختبارا . وكذلك إن قَدَر الله عليك رزقك وضيقه عليك ، فهذا ليس للإهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

ويوضح الحق جل وعلا :

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أنتم لا تطعمون فى مالكم يتيماً ولا تحضون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة ؟ إنه نقمة عليكم . وهنا يقول الحق : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ . ولله المثل الأعلى ، نقول : إن فلاناً أتعبنى ، لقد قلبته على الجنبين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سخائى عليه نفع فيه ، ولا ضنى عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بنى إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تأصل فيهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ

مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

والخَلَف أو الخَلْف أو الخليفة هو من يأتى بعد ذلك ، ويقال : فلان خليفة فلان ، ومن قبل قرأنا أن سيدنا موسى قال لسيدنا هارون :

﴿ ٱخْلُفْنِي فِى قَوْمِى ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

أى كن خليفة لى ، إلا أنك حين تسمع « خَلْفُ » بسكون اللام ، فاعلم أنه فى الفساد ، وإن سمعتها « خَلَفٌ » بفتح اللام فاعلم أنه فى الخير ، ولذلك حين تدعو لواحد تقول : اللهم اجعله خير خَلَف لخير سلف . وهنا يقول الحق : ﴿ فخلف من بعدهم خَلْف ﴾ . والحديث هنا عن أنهم هم الفاسدون والمفسدون ، والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب

الشاعر هنا يبكى موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان يعيش فى رحاب كرمهم وسماحتهم ؛ فقد ذهب الذين يُعاش فِي أكنافهم أى جوارهم ؛ لأن هذا الجوار كان نعمة أيضاً . وحين يجاور رجل ضُيِّق وقُدِر عليه رزقه رجلاً طيبًا عنده نعمة ، فتنضح عليه نعمة الرجل الطيب . والشاعر هنا قال : « وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب » أى أن جلده قريب ولاصق لكنه جلد أجرب .

وعرفنا قصة « أبودلف » وكان رجلاً كريماً فى بغداد . يعيش فى نعمته كل الناس ومن يحتاج يعطيه . وطرأ طارىء على جار فقير له ، وأراد أن يبيع داره ، فعرض الدار للبيع ، وسألوه عن الثمن الذى يرتضيه ، فقال : دارى بمائة دينار .

لكن جوارى لأبى دلف بألف دينار ، فبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال : إن رجلاً قدر جوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لحقيق ألا يفرّط فيه . قولوا له : فليبق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال :

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ . والكتاب هو التوراة ، والخَلْف أخذوه ميراثاً ، والشيء لا يكون ميراثاً إلا إذا حمله السابق بأمانة وأدّاه للاحق ، ولكن لأنهم أهل إفساد فلنر ماذا فعلوا فى الكتاب ؟ لقد ورثوه . وبُلِّغ إليهمُ وعرفوا ما فيه .

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

أى لا حجة لهم فى ألاّ يكونوا أصحاب منهج خير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما فى الكتاب ـ التوراة ـ من المواثيق ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا ؛ لم يلتفتوا لكل هذا ؛ لأنهم قالوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطى النعيم البعيد فى الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ . وبذلك أخذوا عَرَض الحياة الأدنى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمنهج الله ، والدنيا فيها جواهر وأعراض ، والجوهر هو الشيء الذاتى ، فالإنسان بشحمه ولحمه « جوهر » أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا عَرَض ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وغنيًّا أو فقيراً فهذا عرض . إذن فالأعراض هى ما توجد وتزول ، والجواهر هى التى تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق : الجوهر ما قام بنفسه ، والعَرَض ما قام بغيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل فى المال الحرام ، وأن يغشوا ويستحلوا الرشوة . ونعلم أن الإنسان ـ حتى المؤمن ـ قد تحدث منه معصية ولا يمنع ربنا هذا ؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذْنٌ بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

إنَّ معنى هذا القول أن المؤمن قد تسول له نفسه أَنْ يسرق مثلاً ، ولم يترك

الحق هذا الجرم بدون عقوبة . وإن رأينا مسلماً يسرق ، نقل له هذا فعل مُجَرَّم من الإسلام ، وله عقوبة ، والمُجْرِم لا يمكن أن يرتكب الجُرْم وهو ملتزم بالدِّين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنباً أو معصية ثم يندم ويتوب ويعزم على أنه لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو ألحَّت عليه معصيته فيعود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه فى كل مرة لا يصر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب . وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا ، بل إنهم لم يفكروا فى التوبة ، ووجدنا منهم من يقول :

﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

ويأتى الرد :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

إذن هم يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويحكمون فى أخذهم بهذا العرض أنه سبحانه سوف يَغْفِر لهم . وبذلك استحلوا الحرام وانتقلوا من منطقة المعصية إلى منطقة الكفر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تفعل الشيء وتقول هو معصية . لكن أن يرتكب الإنسان المعصية ويقول : ليست بمعصية ، فهذا انتقال من العصيان إلى الكفر . ومثال ذلك الربا حين نجد من يحلله ، نقول له : اقْبَلْ أن تكون عاصيًا ولا تدخل نفسك فى الكفر ؛ لأنك إن حللت ما حرم الله يقع عليك الكفر وتوصف به والعياذ بالله ، أما إن قلت : هو حرام ولكن ظروفى صعبة ولا أقدر على نفسى فقد يغفر الله لك . لكن قوم موسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا :

ويقول الحق : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ .

وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرض الحياة الأدنى ويتمادون فى غيهم ويرتكبون المعاصى تلو المعاصى دون أن يدقوا باب التوبة . لذلك ينبههم الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

لقد ورثوا الكتاب ، وفى الكتاب قد أُخذ عليهم عهدٌ موثقٌ ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق ؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما فى هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق :
﴿ ودرسوا ما فيه ﴾

وكلمة « دَرَسَ » تدل على تكرر العمل ، فيقال : « فلان درس الفقة » أى تعلمه تعلما متواصلاً ليصير الفقه عنده ملكة . وهو مختلف عمن قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصبح الفقه عنده ملكة . وحتى نفهم الفرق بين « العلم » و« الملكة » ، نقول : إن العلم هو تلقى المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آلية ، فهذا هو من امتلك ناصية العلم حتى صار العلم عنده ملكة .
إذا التقى صائم ـ مثلا ـ بفقيه وسأله عن فتوى فى أمر الصيام يجيبه فوراً ؛ لأنه علم كل صغيرة وكبيرة فى الفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئا فى الأزهر فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليعثر على الإجابة ؛ لأن الفقه لم يصبح لديه ملكة .
والملكة فى المعنويات هى مقابل الآلية فى الماديات التى تحتاج إلى دُرْبة ، فمن يمسك النول لينسج النسيج ويتقن تمرير المكوك بين الفتلتين لا يفعل ذلك إلا عن دُرْبة . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

إذن فقوله : ﴿ ودرسوا مافيه ﴾ أى تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا مافيه من علم . ونحن أخذنا « درس العلم » من مسألة حسية هى « درس القمح » ، ويعلم من تربى فى الريف كيف ندرس القمح ، حين يدور النورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى « درس القمح » .
إن مافعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق فى ألاّ يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما فى الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتى لنا بمقابل العرض الأدنى فيوضح لنا أن مصير من يريد الدار الآخرة هو الثواب الدائم ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

من الآية ١٦٩ سورة الأعراف

وهذا يعنى التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير ، وأن تتركوه إن كان يعطى الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾

إنّ الكثير من بنى إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرض الأدنى ، ولم يزنوا الأمور بعقولهم ؛ لذلك لم يتمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هواهم ؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذى ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ؛ فالذى يجعل الانسان متصلاً بالشىء هو ماسكه ، وتقول : « مسَكَ » وتقول : « مَسَّكَ » ، و « أمسك » ، وتقول «استمسك » ، و« تماسك » ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : « يمسِّكون » مبالغة فى المسك ، مثل قطع وقطّع ، ولكن قطّع أبلغ .

و(مسّك) يعنى أن الماسك تمكن مما يمسك ، و(استمسك) أى طلب ، و(تماسك) أى أنّ هناك تفاعلاً بين الاثنين ؛ بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب . بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملت إلى القرب منى والزلفى إلىّ ، فاترك الباقى عنك فالمعونة منىّ أنا ، ولذلك يدلنا على أن من ينفذ منهج القرآن لايلقى الهوان أبدا ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ وهنا يستخدم

الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسك ، فمن وجه نيته فى أن يفعل يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى :

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلىّ بشبر ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة[1] » .

فأنت بإيمانك بالله تعزز نفسك وتقويها بمعونه الله لك . فإن أردت أن يذكرك الله فاذكر الله ؛ فإن ذكرته فى نفسك يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملأ يذكرك فى ملأ خير منه ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، فماذا تريد أكثر من ذلك ، خاصة أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن فالموقف فى يدك ، فإذا أردت أن يكون الله معك فسر فى طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به ..

ولذلك قلنا من قبل : إن الأنسان إذا أراد أن يلقى عظيماً من عظماء الدنيا وفى يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما ألاّ يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير مكتبه عن الموضوعات التى ستتكلم فيها ، وحين تقابله وينتهى الوقت ، فهو يقف من كرسيه لينهى المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم الأعظم الأعلى الذى تلتقى به فى الإيمان ؟ أنت تلقى الله فى أى وقت ، وفى أى مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذى تنهى المقابلة ، ألا يكفى كل ذلك لتستمسك بالإيمان ؟ .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكتاب هنا هو الكتاب الموروث ، والمقصود به التوراة وهو الذى درسوا

(١) من صحيح البخارى فى كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه بثلاث طرق عن أبى هريرة ، كما أخرجه الترمذى وابن ماجه .

ما فيه ، وقد أخذ الله فى هذا الكتاب الميثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإسلام - غير الصلاة - قد فرضت بالوحى .

لقد قلنا من قبل ولله المثل الأعلى ، إن رئيس أى مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً رُوتينياً ، فهو يوقع الورق الذى يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : « يعرض على فلان » ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ، فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية فى الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم للولاء لله خمس مرات فى اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك تنفلا وتهجدا فعلت .

إنك بالصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالى الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم فى شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة فى العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ؛ لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إنها الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تنفصل ، ويكفى أن ينطقها الإنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتى أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان مال يخرج عنه الزكاة ؛ فلا يجب عليه إخراج شىء حينئذ ، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم .

إذن فبعض فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهى لا تسقط أبداً ؛ لأن فى الصلاة فى ظاهر الأمر قطعا لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف الساعة ، فالإنسان يقتطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم فى أداء الصلاة . والوقت عزيز عند الإنسان . ففى الصلاة بذل لبعض الوقت الذى يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالاً ، وفيها أيضا الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات ، ففيها كل مقومات أركان الإسلام ، لذا فهى لا تسقط أبدا .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآيه ١٧٠ سورة الأعراف)

إذن الاستمساك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمساك بمنهج الإيمان . ولذلك نسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسى والإشراق الروحى ، وعشنا مع التجلى والنور الذى يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، وساعة كنت تسمع الأذان كنت تجرى وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كأحد المصلحين . لأنه القائل : ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وقوله : ﴿ لا نضيع أجر المصلحين ﴾ بعد قوله : ﴿ يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ دليل على أن أى إصلاح فى المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استدمت أنت صلتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المندمجة فى بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : ﴿ والجبال أرساها ﴾ ولا يقال أرساها إلا إذا كان وجد شىء له ثقل ، فأنت لا تقول : « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول : « أرسيت لوح الزجاج على المكتب ليحميه » ، وأنت بذلك ترسى شيئاً له وزن وثقل .

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها فى الأرض أوتادا، والوتد - كما نعلم - ممسوك من الموتود والمثبت فيه، بدليل أنه لو تخلخل فى مكانه نضع له ما نسميه «تخشينة» لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه، وهنا يقول الحق : ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ « نتقنا » أى قلعنا، وهناك قول آخر :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة النساء)

وقال الحق أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

وهنا اختلاف بين « نتق » و « رفع »؛ لأن الجبل راس فى الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض، ثم يأتى من بعد ذلك الرفع، و « نتقنا» تعنى نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم، أى أن هناك ثلاث عمليات : نتق أى نزع وخلع، ثم رفع، ثم جعله سبحانه ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه فى المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول : « وإذ » أى اذكر إذ نتقنا الجبل، أى نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أى لنجعله ظلة، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة « عذاب »؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له : إن أحكام هذه التوراة شديدة. وللإنسان أن يتساءل: لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التى جاءت لمصلحة البشر ؟. وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم ﴿ كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

لذلك نجد أن كل يهودى يسجد على حاجبه الأيسر، على الرغم من أن السجود

يقتضى تساوى وضع الجبهة على الأرض، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأوا الجبل فوقهم وتملكهم الخوف من سقوط الجبل، وكانوا يسجدون وفى الوقت نفسه يرقبون الجبل، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم، وصاروا لا يسجدون إلا على حاجبهم الأيسر، بسبب حكاية الجبل الذى نتقه الله وقلعه ورفعه فصار فوقهم. ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

والظن هو رجحان قضية، وقد يأتى ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين، مثل قوله الحق : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾

وحين بقيت الحالة هذه، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويتمردون على ما فيه؛ لذلك قال لهم الحق :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

و « خذوا » فعل أمر، والأمر يقتضى آمرا، ولابد له من شىء يأمر به. وكلمة «القوة» هذه هى الطاقة الفاعلة، والأصل فى الكون كله أن نقبل على كل شىء بقوة؛ لأن الكون الذى تراه مسخراً ليس له رأى فى أن يفعل أو لا يفعل، بل هو فاعل دائما إذا أُمر، وكما قلنا من قبل : لم تغضب الشمس على الناس وقالت : لن أطلع هذا اليوم، وكذلك لم يمتنع الهواء، وأيضا لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث، أو أن ينظفه صاحبه ويأتى له بـ « البرذعة » ليجعله ركوبة متميزة، الحمار إذن لا يعصى هنا ولا يعصى هناك، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة يس)

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف، والمحكوم بالغريزة الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلى، ومع هذا الاختيار

فالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يَدْرِى عنها شيئا مع أن بها قوام حياته، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : دَق، والرئة كذلك وحركة التنفس، والحركة الدودية فى الأمعاء، والحالب، ويرغب الإنسان فى دخول دورة المياه عندما تمتلىء المثانة بالبول، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبدا، والأمور المحكومة بالغرائز ليس لنا فيها اختيار، كأن يأكل الإنسان ويتكلم فى أثناء تناول الطعام فتنزل حبة أرز فى القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال، هذا اسمه « غريزة » أى أمر غير محكوم بالفعل الاختيارى.

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاما فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه. أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع، وحين يقول له مُضيفه - على سبيل المثال - : أنت لم تذق هذا اللون من اللحم، فيأكل. ولهذا نجد أن الأمراض فى الانسان أكثر من الأمراض فى الحيوان؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضر به وتؤذيه.

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان، نجد الإنسان يغلى النعناع ويشربه، ويطبخ الملوخية ليأكلها، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية، رغم تشابه أوراقهما. لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب، وهما يفعلان ذلك بالغريزة، فالمحكوم بالغريزة له نظام، ولو كان الحيوان مختارا لارْتَبكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها.

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة، وهذه القوانين موجودة فى الكون لتخدمنا نحن بنى البشر. فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن ننتفع بها، لكن بعد ذلك انتفعنا بها، وكذلك الجاذبية، كانت موجودة فى الكون منذ الأزل، لكننا لم ننتبه لها، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار فى

بعض الأمور، وله جهة قهر فى البعض الآخر، فهو يشارك الكون فى القهر، ويتميز عن بقية المخلوقات - عدا الجن - بالاختيار فى أمور أخرى. ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذى يعانى قلبه من ضعف ما، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً ينهج ويتتابع نَفَسه من الإعياء وكثرة الحركة، لأنّ غريزته المحكوم بها تُنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطى الأوكسجين الذى يساعد على الصعود.

ومثال آخر، نجد الذكر من الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها، فإن وجدها حاملاً لا يقربها، والحيوان فى هذا الأمر مختلف عن الإنسان؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التى تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع، ومادامت الأنثى قد حملت، فالذكر لا يقربها، فاختلف الإنسان عن الحيوان فى هذا الأمر؛ فلذة الإنسان فى الجنس أعلى من لذة الحيوان؛ لأنها فى الحيوان ترضخ للغريزة فحسب، أما فى الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضا للاختيار الذى منحه الله للإنسان.

ومن رحمة الله - إذن - أن يكون الإنسان مقهوراً فى بعض الأشياء ومختاراً فى أشياء أخرى، بـ« افعل » و« لا تفعل » حتى يختار بين البديلات.

وهنا يقول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾

أى خذوا ما آتاكم فى الكتاب بجد واجتهاد. وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم فى شرح معنى القوة. وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقعه المادى، فصرنا نرى الطاقة التى تعطى القوة. وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية، القانون الأول والثانى والثالث، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه، فإن كان ساكناً يبق على سكونه إلى أن يأتى محرك يحركه. وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسكه ماسك. وسمّى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتى. أو التعطل، أى أن الساكن يُعَطّلُ عن الحركة إلا أن يحركه محرك، والمتحرك يُعَطّلُ عن السكون إلا أن يوقفه موقف، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير، فإنك تظل ساكناً، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشىء.

وفى الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتى بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً، ثم يحرك المفرش بخفة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش.

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة، وقلنا: إنّ العطالة تعنى أن الساكن يتعطل عن الحركة، والمتحرك يتعطل عن السكون، وهذه هى القضية المادية فى الكون التى خدمت العلم الفضائى الخاص بسفن الفضاء والصواريخ. ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور فى الفضاء بالوقود، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذى يسيرها لسنوات، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة إنّها بدون وقود، وهى تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكونى، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف. ونرى ذلك فى التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدها، وهى تقع بعد مسافة معينة؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف، أما فى الفضاء الخارجى فليس هناك هواء؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء، لأنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة.

وهذه السفن الفضائية تعتمد فى صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجى. والصواريخ تسير بالغاز المتفلت الذى أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن، وهو القانون القائل: إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاد له فى الاتجاه، وحين يسخن هذا الغاز المتفلت يخرج من خلف الصاروخ بقوة فيندفع الصاروخ للأمام.

وهكذا نرى قول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ فى الواقع المادى والواقع القيمى. وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين فى بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها، فالواحد منهم لا يصلى، ولا يزكى، ولا يقول كلمة معروف، وهو فى ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله. ونجد أيضا من غير المتدينين من يشرب خمرة. أو يزنى أو يسرق أو يرتشى. وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده

عن مثل هذه الحركة. ولذلك نقول : إن الإنسان فى أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير، وإن كان متحركا إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيمانى فى « افعل »، و « لا تفعل ». فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صلّ. ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه، إذن فالقوة الشرعية تكون فى المنهج بـ «افعل » ليحرك الساكن، و « لا تفعل » ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة فى ضوء المنهج.

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستغلق علينا فى قوانين الكون، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمناها نحن فى إطار الماديات والمعنويات، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين فى الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم، بل علينا أن نشحذ الهمم لنتقدم فى العلم الذى يُسير أمور الحياة، ولنعلم أنه لا شيء ينشيء فينا فطرة جديدة؛ لأن البشر من قديم مفطورون على الفطرة السليمة التى تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد. بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين، وهم ببحثهم وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شيء لا يظن وجوده. ولأنهم جميعا يعلمون أن الإنسان طرأ على كون، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعا أن تأتى بمثلها، إذن لابد لهذا الكون من خالق.

لقد بيّنا أن القوانين التى تظهر لنا فى المادة تتماثل مع قوانين القيم، إلا أن الناس يتهافتون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شرا، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التى تحقق له السعادة العاجلة فى الدنيا والآجلة فى الآخرة، أما قوانين المادة فى الأرض فتركها الله لنشاط العقل، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها، ويتهربون من قوانين القيم لأنها تحد من شهوات النفس، وتتعب بمشقة التكليف، فشاء الحق

سبحانه وتعالى أن يقول فيها :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم فى الفعل ورد الفعل، لنفهم أن كل حركة للشر قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له فى الحركة ومضاداً له فى الاتجاه، فإن كنت ترتاح فى هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذى يأتيك بالعقاب عليه، وكذلك مشقات التكليف، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى هذا القول فعل ورد فعل، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنىء فى الآخرة. ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة التوبة)

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل. ويأتى الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فلسوف تتلقى العقاب.

ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . وإياكم أن تطرأ عليكم الغفلة من هذه الناحية ، فالذى يتعب الناس فى مناهج الله أنهم يغفلون عنها ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء ، والمعاصى تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل فى هذه القيم .

ونعلم أن الذِّكْر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأنا أعظ من علَمَ الحكم ؛ لأنى أريد أن يفعله ، فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الوَاعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاءنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل فى تطبيق هذا العلم . ونظل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

ولماذا هذا التذكير ؟ . يجيب الحق :

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهى عن المنكر عظة قولية ، ويعددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول فى الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » [1] .

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهى وهو قول أيضاً إلى أن نباشرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين

(١) رواه مسلم

المعلومة التى تدخل الذهن، وحمل النفس على مطلوب المعلومة. ولذلك نحن ندرس الدين فى مدارسنا، وندرس فيها أيضا الجبر والهندسة، والكيمياء، والطبيعة، والمتعب ليس تدريس الدين، بل الذى يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين. لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء، فهذه علوم تعطى الإنسان خير الدنيا فيذهب لها، لكن مسألة الدين مسألة قيم؛ لذلك لا يكفى أن نعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم، وتنفيذ هذه المسألة يكون بالتطبيق فى سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة.

وهب أن الذى يُعلم الّدين يدرسه معلومة ويدخلها فى نفوس التلاميذ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نضحاً على سلوك مَن علَّمها، ماذا يكون الموقف؟. هنا تضعف ثقة التلميذ في أستاذه، وتضعف ثقته فى الدين؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه، وفى هذا فشل فى تعليم منهج الدين. والخطأ إذن فى أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية، لا. إن تعليم الدين يقتضى تنفيذ ما فيه من معلومات، عكس العلوم الأخرى التى تعطى المعلومة فقط. وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها فى حياته انتفع، وإن لم يرد فهو حر فى ذلك.

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهى عن المنكر، ومرة يكون بالفعل، « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه »، وماذا يعنى التغيير باللسان؟. يعنى أن الإنسان إن كان عنده حسن تأد واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح فله أن يقبل على تناول العظة. وليس كل إنسان صالحا لأن ينصح؛ لأن المنصوح يخالف المنهج، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج، إنه يخرجه عما ألف وأحب، لذلك يجب أن يتلطف الناصح فى النصح.

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء، والدواء قديماً كان كله مراً. وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء. وحين ارتقت صناعة الدواء، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب المرارة. ليلتطفوا مع مريض الجسم، فما بالنا بمريض القيم؟. إنه يحتاج إلى المسألة نفسها. لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً، ولا نجمع على المنصوح بين

أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب، ولذلك قلنا : إن النصح ثقيل، لأنك حين تنصح إنسانا فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وهو أقل منك فى ذلك، وهذا هو أول مطب، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه. ولهذا قالوا فى الأثر : النصح ثقيل فلا ترسله جبلا، ولا تجعله جدلاً. وقيل أيضا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان. هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر، وهذا لا يأتى إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغيَّر يثبت فيها المغيِّر أنه يحب مصلحة المغيَّر. وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول. كأن تكون أباه أو أمه، والأب والأم يقومان برعاية الابن، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً. وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن. وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب. فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئا من المعروف فيتحمل منك النصح.

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن. ثم تأتى له بالساعة وتقول له : يا ولد أنت أردت منى ساعة وأحضرتها لك، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لى إنك غير مهتم بدروسك، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة. وقد توجه له توبيخاً فيضحك لأنك قد حننت قلبه، وبينت له أنك تحبه فيقبل النصح، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته. إذن للتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول، وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب.

﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ والأصل فى التقوى أن تتقى شيئاً بشىء؛ تتقى مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه، وهى تأتى كما علمنا فى المتقابلات؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساءل : كيف يقول : « اتقوا الله»، و«اتقوا النار»؟

نقول : نعم ؛ لأن اتقوا الله تعنى اتقوا غضب الله عليكم، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية، ولابد أن تجعل بينك وبين النار وقاية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كما علمنا له صفات جلال وصفات جمال، وصفات الجمال هى التى تسعد الإنسان ككونه - سبحانه - "غفوراً"، و"رحيماً"، "باسطاً"، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة، فهو - جل شأنه - جبار ومنتقم. فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التى منها جبار ومنتقم.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ ١٧٢

وإذ تنصرف إلى الزمن، أى اذكر وقت أن أخذ الله من بنى آدم، والآخذ هو الله، والمأخوذ منه بنو آدم، والشيء المأخوذ هو ذريتهم، هذه هى العناصر. ولنتأمل

ذلك بدقة، إن الرب هنا هو الآخذ، وبنو آدم مأخوذ منهم، والمأخوذ هو الذرية. وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه، ولابد أن نرى تصريفاً في هذا النص؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً، والمأخوذ بعضه.

والمثال: إن أنا أخذتُ منك شيئاً، فالمأخوذ منه هو الكل، والمأخوذ بنفسه هو البعض. لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه:

(لما خلق الله أدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال: أيْ رَبِّ. من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم. فأعجبه وميض ما بين عينيه. فقال: أي رب. من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما قُضي عُمُر آدم جاءه ملك الموت. فقال: أو لم يَبْقَ من عُمُري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدمُ فجحدتْ ذُريته، ونسي فنسيت ذريته. وخطئ آدم فخطئت ذريته)[1].

إذن ذرية آدم أُخذت من ظهر آدم. وعرفنا من قبل أنّ كُلاًّ منا قبلَ أن تحملَ به أمّه كان ذَرَّةً في ظهر أبيه، وأبوه كان ذرّة في ظهر أبيه حتى آدم. وهكذا نجد أنَّ كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية، هناك أناس يؤخذون- كذرية- ولا يؤخذ منهم، مثل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً، وكذلك آخرُ جيل تقومُ عليه الساعة، ولن ينجبوا. وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق، وهو غير مأخوذ من أحد. وما بين الأب آدم وآخر ولد؛ مأخوذ ومأخوذ منه. وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه، وهكذا يستقيم المعنى.

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح.

والمأخوذ منه آدم ثم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجيل الأخير الذى سينقطع عن النسل.

وأوضح النبى صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهر آدم وأخرج منه الذرية، وقال لهم : ألست بربكم؟ قالوا : بلى. وبهذا عَلمْنا أنَّ كل ذرّة من الذرات قد أُخذت مما قبلها، وأُخذ منها ما بعدها؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه، اللهم إلا القوسين؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شيء، والقوس الثانى : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه؛ لأن الإنسان منا وُجد من حيوان أبيه المنوىّ. ولو أن الحيوانَ المَنوىَّ أصابه موت لما أنجب الأب. ومن وُلد من حيوان مَنوىّ لأب، هذا الأب مأخَوذ من حيوان مَنَوىًّ حىّ من الجد أيضاً، وسلسلها إلىَ آدم؛ ستجد أن كل واحد منا فيه جزىء حَىّ من لدن آدم لن يدركه موت أبداً.

لذلك يقول ربنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ولا تقل إن الكل سيكون فى ظهره؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود فى ظهره، ومادام كل شئ يتكاثر فهو قد وجد من أقل شيء ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً. وقد أخذ ربنا من ظهور بنى آدم الذريةَ وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿ ألست بربكم﴾ ؟.

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على النطق؛ إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر؛ لتتحد مثلاً بـ" البويضة " فى رحم الأم ؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمرُ صعب ؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يَتعلَّم عَشْرَ لغات، ويتزوجَ من أربع سيدات، وكل سيدة ينجب منها ذرية، ويقعد يوماً عند سيدّة وذريتها ويعلمها اللغة الإنجليزية مثلا، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية وهكذا، بل يستطيع أن يتفاهم حتى

بالإشارة معَ من لا يعرف لغته. وإذا كان الإنسانُ يستطيع أن يعدد وسائل الأداء، ألا يقدر أن يعدد ربنا وسائل الأداء لمخلوقاته ؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال :

﴿ يا جبال أوبى معه ﴾

(من الآية ١٠ من سورة سبأ)

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أياً من مخلوقاته؟. إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر. وهو القائل سبحانه :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء)

ونعلم من القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الإسراء)

وحتى ذرات يد الكافر تسبح، وإن كان تسبيحها لا يوافق إرادته.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسبيح داوود وتلاوته للزبور، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق، فنحن - على سبيل المثال - نقرأ فى القرآن الكريم أن ربنا أوحى إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. إذن فلله مع خلقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات، وله سبحانه خطاب بألفاظ، وخطاب إشارات، وخطاب بإلهام، وخطاب بوحى، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لذرية آدم : ألست بربكم ؟ فهذا يعنى أنه قالها

لهم باللغة التى يفهمونها، لأنه هو سبحانه الذى قال للسماء والأرض:

﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

(من الآية ١١ من سورة فصلت)

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها، ولو لَمْ يُعْلِم اللهُ سليمانَ كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت:

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة النمل)

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها، ولكن سليمان نبى من أنبياء الله، ولن يعتدى على خلق الله، والنملة التى تكلمت كانت تحرس بقية النمل. وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها.

إذن فالله عز وجل يخاطب جميعَ خلقه، ويجيبُه جميعُ خلقه، فلا تقل: كيف خاطب المولى سبحانه الذر، والذر لم يكن مكلفاً بعد؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا فى هذه المسألة؛ لأنها فى ظاهرها بعيدة عن العقل، ويكفى أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلا: ألست بربكم؟. قالوا: بلىَ. ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للفطرة المودعة فى النفس البشرية. وكأنه سبحانه قد أودع فى النفس البشرية والذات الإنسانية فطرةً تؤكد له أنَّ وراءَ هذا الكون إلهاً خالقاً قادرا مدبرا.

وقديماً قلنا: هب أنَّ طائرةً وقعت بك فى صحراء، وحين أفقت من إغماءة الخوف؛ فكّرت فى حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً، وأصابك غمٌّ من هذه الحالة فنمت، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطايب الطعام والشراب، ألا تتلفت لتسأل من الذى أقام لك هذه المأدبة قبل أن تمد يدك إلى أطايب الطعام؟. كذلك الإنسان الذى طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع؛ البديع

التكوين؛ ألا يجدربه أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون ؟.

إننا نعلم أن المصباح الكهربى احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة، وحين نرى الشمس تنير الكون كله، ولا يصيبها كللٌ أو تعبٌ ولا تحتاج منا إلى صيانة، ألا نسأل من صنعها ؟. وخصوصاً أنَّ أحداً لم يدَّع أنه قد صنعها، وقد أبلغنا المولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذى خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً؛ فنعبده، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عمن صنع وخلق الكون لنعبده.

وبما أن أحداً لم يَدَّع لنفسه صناعة هذه الكائنات، فهى تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله. إذن فالفَطرة تهدينا أن وراء هذا الكون العظيم قدرةً تناسب هذه العظمة؛ قدرة تناسب الدقة؛ هذه الدقة التى أخذنا منها موازين لوقتنا؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن؛ ولولا حركة الأفلاك التى تنظم الليل والنهار؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية؛ لما استطعنا أن نَعُدَّها مقياساً للزمن.وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

نجد أن كلمة "بحسبان" وردت مرتين، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى : أنه جعل الشمس والقمر بحسبان، أو حسبانا، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثا بل لحكمة عظيمة.

﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

فقد أخذنا من دورة الشمس والقمر مقياساً، ولم نكن لنفعل ذلك إلا إن كانت مخلوقة بحساب؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة

والإحكام، لهذا يجب أن نلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته. لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل ؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أنَّ هناك قوةً ولا يعرف العقل اسم هذه القوة، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة، وكان لابد أن يأتي لنا رسولٌ من طرف تلك القوة ليقول لنا مرادَها ، وجاء الموكب الرسالي فجاءت الرسل ليبلغ كلُّ رسول مرادَ الحق من الخلق، فقال كلُّ رسول : إن اسم القوة التي خلقتكم هو الله، وله مطلق التصرف في هذا الكون ، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون في ضوء منهج عبادة الحق الذي خلق الإنسان والكون. وكل هذه أمور ما كانت لتدرك بالعقل.

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمانٌ بقوة خالقة وراءَ هذا الكون ، وتستوي العقول الفطرية في هذه المسألة. أما اسم القوة والمنهج المطلوب لهذا الاله فلابد له من رسول .

وأرهق الفلاسفة أنفسهم في البحث عن هذه القوة ومرادها. وسموا مجال البحث "الميتافيزيقا" أي "ماوراء الطبيعة" وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان : ومن الذي قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟.

وغالباً ما يقول الفيلسوف منهم : إنها الفطرة التي هدتني إلى ذلك. وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة. وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة، وهذا هو الخلل؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة، ولا يمكن له أن يتصورها. وغرق الكثيرون من الفلاسفة في القلق النفسي المدمِّر. وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان. وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلّوا لنا هذا اللغز، بدلاً من إرهاق النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة، وبين تصور هذه القوة.

وإنني في هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو ألا تنسوه أبداً : إننا إذا كنا قاعدين في حجرة، والحجرة مغلقة الأبواب. ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالباب؛ وهذا الشيء المجمع عليه من الكل يَعدُّ تعقلاً، لكن أنستطيع

أن نتصور من الطارق ؟ رجل؟ امرأة؟ شاب ؟ شيخ؟. المؤكد أننا سنختلف فى التصور وإن اتحدنا فى التعقل.

ونقول للفلاسفة : أنتم أولى الناس بأن ترهفوا آذانكم لمجئ رسول يحل لكم لغز هذا الكون، واسم القوة التى وراء هذا الكون، ومطلوب هذه القوة منا.

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل، ويقول هنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهذه شهادة الفطرة، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة فى الطفل المولود الذى يبحث بفمه عن ثدى أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدى ليرضع بالفطرة وبالغريزة، وهذه الفطرة هى التى تصون الإنسان منا فى حاجات كثيرة، وفى رد الفعل الانعكاسى ؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل، فيغمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك.

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن فى عالم الذر :

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾

ويقال " أشهدته " أى جعلته شاهداً، والشهادة على النفس لَوْنٌ من الإقرار، والإقرار سيد الأدلة ؛ لأنك حين تُشهد إنساناً على غيره ؛ فقد يغيِّر الشاهد شهادته، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة :

﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾

فحين يأتى يوم الحساب، لا داعى أن يقولَن أحد إننى كنت غافلاً.

ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله :

﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

كأن الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فينبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة فى كل إنسان ؛ حيث شهد كل كائن بأنه إلهٌ واحدٌ أحَدٌ، ويذكرنا سبحانه بهذا العهد الفطرى قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا.

﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وهل كان أحد من الذر وهو فى علم الله وإرادته وقدرته يجرؤ على أن يقول : لا لست ربى ؟. طبعاً هذا مستحيل ، وأجاب كل الذر بالفطرة "بلى ". وهى تحمل نفى النفى ، ونفى النفى إثبات مثل قوله الحق :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(الآية ٨ سورة التين)

و " أليس " للاستفهام عن النفى ؛ ولذلك يقال لنا : حين تسمع " أليس " عليك أن تقول " بلى " وبذلك تنفى النفى أى أثبتّ أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غيره سبحانه ، وهنا يقول الحق : " ألست بربكم " ؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا . ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب ، والذى جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرّك شهواتهم فى نطاق الاختيار ، ومع وجود الشهوات فى نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم؟ يقولون : الله ، ومادام الله هو الذى خلقهم فهو ربهم.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة العنكبوت)

وجاء الحق بقصة هذه الشهادة حتى لا يقولَنَّ أحدٌ : ﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾

وبذلك نعلم أن أعذار العاصين وأعذار الكافرين التي يتعللون ويعتذرون بها تنحصر في أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر، وتقليد الآباء.

وما الغفلة؟ وما التقليد؟. الغفلة قد لا يسبقها كفر أو معصية، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك. والمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوى المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللائق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك. ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة، ثم جاء إشراك الآباء في المرحلة الثانية؛ لأن كل واحد لو قلد أباه في الإشراك؛ لانتهى الشرك إلى آدم، وآدم لم يكن مشركاً، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بني آدم، وكانت هذه الغفلة نتيجة توهم أن هناك تكاليف شاقةً يتطلبها المنهج، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد في بؤرة شعورهم؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود في بؤرة شعوره. أما الشيء الذي سيكلفه مَشقَّة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهي الغفلة في آبائهم. وهنا يضاف عاملان اثنان : عامل الغفلة، وعامل الأسوة في أهله وآبائه. ولم تكن القضايا الإيمانية في بؤرة الشعور، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره في بؤرة الشعور، ويُخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور. ولأن البعض قد يتصور أن في التكليف الإيماني مشقة، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه وينساه، وكذلك يحاول هذا البعض أن ينأى بنفسه عن هذه التكاليف.

ونأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مَديناً لمحل بقالة أو لنجارٍ وليس عنده مال يعطيه له، لذلك يحاول أن يبتعد عن محَل هذا البقال، أو أن يسِّير بعيدا عن

أعين النجار. وهكذا يكون افتعال الغفلة فى ظاهره هو أمرًا مَنْجياً من مشقات التكاليف ، لكن البشر فى ميثاق الذر قالوا : ﴿ بلى شهدنا ﴾

وقد أُخذَ ذلك العهدُ عليهم ، وأقرُّوا به واستشهد الحقُّ بهم ، على أنفسهم حتى لا يقولوا يوم القيامه ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لأنه لا يصح أن نغفل عن هذا العهد أبداً ، ولكنَّ الحقَّ تبارك وتعالى عرَفَ أنَّنا بشرٌ ، وقال فى أبينا آدم :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾

(من الآية ١١٥ من سورة طه)

ومادام آدم قد نسى ، فنسيانه يقع عليه حيث بيَّن وأوضح لنا الإسلام أن الأمم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر واضح : فقال عليه الصلاة والسلام :

(رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) [1] .

والخطأ معلوم ، كأن يقصدَ الإنسانُ شيئاً ويحدث غيرُه ، والنسيانُ ألاَّ يجيءَ الحكمُ على بال الإنسان. والمُكْرَهُ هو من يقهره من هُو أقْوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حريته وتقييدها مالم يفعل ما يؤمر به ، وفى الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم . وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينساه المسلم . وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤاخذون به. وإذا سلسلنا ما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذى خُلق بيد الله المباشرة ، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون ؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد علاقة زوجية فيأتى النسل.

وقد كلف الله آدم فى الجنة التى أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهى ؛ فقال له سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان، والدار قطنى والطبرانى والحاكم فى المستدرك من حديث ابن عباس رضى الله عنهما

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إذن فقصارى كل تكليف هو أمر فى "افعل" ، ونهى فى " لاتفعل" ، وقد نسى آدم التكليف فى الأمر الواحد البسيط وهـو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة ، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذى يتذكره ؟ وما كان يصح أن ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ، ومكلف من الله مباشرة ، والتكليف وإن كان بأمرين ؛ لكن ظاهر العبء فيه على أمر واحد ؛ الأكل من حيث شاء هو أمر لمصلحة آدم ، و« لاتقرب » هو تكليف واحد .

- ولذلك قال الحق فى آية أخرى : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

وهو عصيان لأنه نسيان لأمر واحد ، ما كان يصح أن ينساه . لعدم تعدده ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الأعراف)

جاء هذا القول لينبهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكاليف شاقة ، والإنسان قد يسهو عنها فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

وهذا يعنى أن إيمانهم هو إيمان المقلد ، رغم أن الحق قد أرسل لهم البلاغ ، وإذا كان الآباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن يغفلوا عن صحيح الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

والآيات التى فصلها الحق هنا هى العهود الخاصة، ورفع الجبل ليأخذوا التوراة بقوة، وكذلك العهد العام الذى اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، وجاء سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدةً يجب أن تكون فى بؤرة الشعور، فمن غفل فليتذكر، ومن قلد آباه فى شىء مخالف للمنهج القويم، فليرجع عن هذا التقليد؛ لأن التكاليف الإيمانية تكاليف ذاتية، وسبحانه لا يكلفك وأنت فى حاجة إلى أبيك، أو إلى أمك. لكنه يكلفك من بعد البلوغ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالا كاملا مثل والدك، ومادمت مكتمل الرجولة كوالدك وصالحا للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً، فلا تقل إننى أقلد أبى ولو كان على غير المنهج السليم؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو فى دور الطفولة، حيث الأب يسعى لإطعام أبنائه ورعايتهم، لكن التكليف لا يأتى للإنسان إلا بعد البلوغ، ومعنى بعد البلوغ : أنك صالح لإنجاب مثلك ورعاية نفسك.

ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يدربوا أبناءهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجىء أوان تكليف الله، ويقول النبى عليه الصلاة والسلام :

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم فى المضاجع . . إلخ)(١)

الأب إذن يأمُرُ ويُعاقبُ قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير دربة سهلة لا يتعب منها الإنسان بعد البلوغ.

﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾.

أى أن على الغافل أن يرجع عن غفلته فيتذكر، وأن يرجع المقلد لآبائه

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن (رياض الصالحين صـ١٨١)

عن التقليد، ويقتنع اقتناعاً، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾

(من الآية ٣٣ من سورة لقمان)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

ولأنهم قالوا: ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

والنبأ هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر. ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

كما يقول ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ﴾، كأن هذا النبأ كان مشهوراً جداً، ويقال: إنه قد قيل فى « ابن بعوراء » أو أمية بن أبى الصلت، أو عامر الراهب، أو هو واحد من هؤلاء، والمهم ليس اسمه، المهم أنّ إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلخ من الآيات، فبدلاً من أن ينتفع بها صيانة لنفسه، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسلخ منها ﴾ واتبع هواه ومال إلى الشيطان .

و كلمة « انسلخ » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها؛ لأن الأصل فى السلخ إزاحة جلد

الشاة عنها، فكأن ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسلخ منها، وهذا يعنى أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه شرايين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمى الخارج عن منهج الله « فاسقاً » مثله مثل الرطبة من البلح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء، فتنكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها وتظهر الرطبة من القشرة، ولذلك سمى الخارج عن المنهج « فاسقاً » من فسوق الرطبة عن قشرتها، والله عز وجل يقول هنا: ﴿ آتيناه آياتنا ﴾. وكان يجب ألا يغفل عنها، لأن الإتيان نعمة جاءت ليحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسلخ من الآيات.

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً، ويغير الثعبان جلده كل فترة، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذى تحته قد نضج، وصلح لتحمل الطقس والجو، وكذلك حين يندلق سائل ساخن على جلد الإنسان، تلحظ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها، ولو أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب، أما إذا تركها فهى تحمى المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتنفصل عن الجسم، وكذلك نعلم أن الشاة ـ مثلاً ـ لا تسلخ نفسها. بل نحن نسلخها، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يس)

فكأن الليل كان مجلداً ومغلفاً بالنهار، والليل أسود، والنهار فيه الضوء، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف : الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلى، البنفسجى، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التى تأتى عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً. والأبيض هو مزيج من

ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك. وقوله الحق: ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار.

وإذا انسلخ من آتاه خبر الإيمان عن المنهج يقول الشيطان: إنه يصلح لأن يتبعني، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل، فهو يجرى وراءه مخافة أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج، ويزكى الشيطان فى نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا.

وقلنا من قبل: إن المعاصى تأتى مرة من شهوة النفس، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق، وقلنا: إن الشيطان لا يجرؤ عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان فى الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها، والشيطان لا يذهب - مثلا - إلى الخمارة، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التى تتجه إلى الخير، أما الآخرون فنفوسهم جاهزة له. إذن فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ فى الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه مخافة أن تستهويه الآيات ثانية، ولذلك لابد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزغ الشيطان، فإن جاءت المعصية وحدثتك نفسك بأن تفعلها ثم عزت عليك تلك المعصية لأى ظرف طارىء ثم ألححت عليها ذاتها مرة ثانية، فاعلم أنها شهوة نفسك. لكن إن عزت عليك ثم فكرت فى معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك، فاعلم أنها من نفسك، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها، ثم فكرت فى معصية ثانية. فهذا نزغ من الشيطان - ويقول الحق:

﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

(من الآية ١٧٥ سورة الأعراف)

الغاوى والغَوِىّ هو من يضل عن الطريق وهو الممعن فى الضلال، ونعلم أن الهدى هو الطريقَ الموصل للغاية، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه فى الصحراء. وهو الذى يُسمى « الغاوى »، ومادام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد فى نفسه ويفْسد غيره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٧٦)



وهنا أمران اثنان، الرفعة : وهى العلو والتسامى، ويأتى بعدها الأمر الثانى وهو الإخلاد إلى الأرض أى إلى التسفل، والفعلان منسوبان لفاعلين مختلفين.

﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾، والفعل رفع هنا مسند لله. ولكنه اختار أن يخلد فى الأرض. وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله. لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون. وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج، وحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ ولو شئنا ﴾ أى أنها مشيئتنا. فلو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صالحة، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار، والحق يريد أن يُبقَى للإنسان الاختيار، فإن اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة، وإن أراد الضلال فلسوف يَلْقى العذاب الحق، ولمزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأبّ على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ﴾ .

وفى هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .

وماذا قال العبد الصالح ؟ لقد عذر موسى وقال :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك ، بل لأنك سترى أمورا لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ﴾ وأصرّ موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصى له أمرا ، واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شىء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظرى ، فيه أخذ ورد ، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماما . بعد أن ركبوا فى السفينة وخرقها العبد الصالح ، لم يصبر سيدنا موسى بل قال :

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ من سورة الكهف)

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح ،

وحين ذكره العبد الصالح بما وعد به من ألا يسأل، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير. إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ لماذا ؟ . لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريده، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاءً، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يثيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

و بمقتضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويثيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم فى كل فعل.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

و ﴿ أخلد إلى الأرض ﴾، أى أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ونخطىء حين نفهم أن « تعالوا » بمعنى « أقبلوا » فقط وهذا فهم ناقص، إنها دعوة للقبول وإلى العلو، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى. بل نرتقى ونأخذ منهج الله الذى يضمن لنا العلو. وكأنه سبحانه يقول : تعالوا وتساموا فى أخذ منهجكم من الله العلى الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء فى شرع الله، لأن فى هذا تسفلا ونزولا إلى الحضيض.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ويقال: «حملت على الكلب»، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره، فهذا نفسير لقوله: «تحمل عليه»، أى أنك تحمل عليه طردا أو زجراً؛ لذلك يلهث، وأن تركت الكلب بدون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو أيضا يلهث، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً، وهذه الخاصية فى الكلب وحده، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه.

ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا إن فزعت فتجرى، لتفوت من الألم أو من العذاب الذى يترصدها من كائن آخر، وحين يجرى الحيوان فهو يحتاج لطاقة، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم، ولابد للقلب أن يتعاون مع الرئة التى تمد الدم بالهواء. ونلحظ أن الكائن الحى حين يجلس برتابة فهو لا يلحظ تنفسه، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنبسط لتسحب «الأوكسجين» من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة، فيحاول أن يتنفس أكثر. ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجة، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها، جائعا أو شبعان، عطشان أو غير عطشان، مزجوراً أو غير مزجور، إنه يلهث دائماً. ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث ؟؟ لأن الذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه متبع لهواه، وتتحكم فيه شهواته. وحين تتحقق له شهوة الآن، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً ؟ وتتملك الشهوة كل وقته، لذلك يعيش فى كرب مستمر، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن، جائعاً أو غير جائع، عطشان أو غير عطشان.

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

هكذا يكون مصير من كذّب بالآيات.

وقول الحق : ﴿ فاقصص القصص ﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتى سبحانه بلقطة جديدة، لتعدد ما فى القصة الواحدة من العبر، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة. ونجد فى القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل، ومن قصص المبطلين مع المحقين، ومن قصص المعاندين مع الرسل؛ لأن القصة أمر واقعى، والتقنين للمناهج أمر لفظى، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع؛ لأن واقع الحياة يعطى القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظرى معزول عن الواقع.

وهكذا بيّن الحقّ سبحانه وتعالى فى هذه الآية، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً، وتوظيف ما علم ثانياً، وبذلك يرتفع من منطق الأرض إلى منطق السماء. ومن يعطيه الله ذلك المنهج، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء، ليهبط إلى مستوى الأرض. وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم، وعلى وفق نظمهم، ويتركون منهج الله الذى خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صيانتهم.

وهذا كلام نظرى له واقع فى ابن « باعوراء »، هذا الذى آتاه الله العلم، ولكنه أخلد إلى الأرض ولم يتبع ما علم، فانسلخ من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق :

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحى بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد

الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب، مع الفارق بين الاثنين ؛ لأن الكلب يلهث غريزة. فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه، ولا يذم على هذه ولا على تلك، لكن الإنسان الذى فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقلى يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغى أن تقولوا : وما ذنب الكلب فى أنه يلهث، ويضرب به المثل فى الكفر ؟ لأن الكلب يفعلها غريزة، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء، أما الإنسان الذى ارتفع بفكره وميزه الله بأن يختار بين البديلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى، ومثل هذا السلوك فى الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا، وإياك أن تقول : لماذا ربنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هى ؟

والحق - سبحانه - هو القائل عن اليهود :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما فى الأسفار؟ الجواب لا ؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما فى الأسفار ، بل مهته أن يحمل ما عليه فقط، وكأن الحق يقول : لا تكونوا مثل الحمار الذى يكتفى من الخير بأن يحمله، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تنتفعوا بما يحويه من التشريع . إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب، ولا هى ذما للحمار. إنما ذم لمن يتشبه بهما ؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يرده الله لها، وأراد الله المثل فيها بشىء لاتذم منه، ولكنه مذموم من الإنسان.

والإنسان الذى لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة فى الحياة، حتى وإن كان فى نعمة، لأنه معزول عن الله، ومادام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل : أيدوم لى هذا النعيم أو لا يدوم ؟ ويعيش دائما فى قلق ورعب مخافه أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبه.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية في هذا الرجل المسمى " ابن باعوراء " ، فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل.

أي أن الذي يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسلخ من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، ولستم بدعاً في هذا ، فالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلدون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة " مثل " إذا سمعتها هي من مادة الـ " م " والـ " ث " والـ " لام " ، وتنطق كما يأتي : إما أن تنطقها مِثْل «بكسر الميم وسكون الثاء» ، وإما أن تنطقها مَثَل «بفتح الميم والثاء» ، والمِثْلَ هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مِثْل فلان في الكرم ، في العلم ، في الطول ، في العرض ، وبذلك أعطيت تشبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

أي لا أحد يشبهه في شيء ؛ لأنه مُنَزّه في الذات والصفات والأفعال.

وأيضاً نقول : هذا مَثَل هذا ، أي أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك . وإن كان المشبه به ذائع الصيت ؛ بحيث يجري اسمه على كل لسان ؛ فنحن نقول : إنَّه مَثَلٌ ؛ كقولنا عن الكريم : " هو حاتم " لأن شهرة حاتم في الكرم جعلته مَثَلاً. والفرق أنك إذا قلت في فلان إنه يشبه حاتماً في الكرم ، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتي بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان ؛ فهذا مَثَل ، كأن تقول : مَثَل حاتم في الكرم ، أو مَثَل عنترَة في الشجاعة. والمَثَل في الذكاء إياس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر [1] الخليفة [2] قال فيه :

(١) أبو تمام (٢) أحمد بن المعتصم

إقدام عمرو [١] (فى شجاعته) فى سماحة حاتم (أى الطائي) فى حلم أحنف (الأحنف [٢] بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب) وفى ذكاء إياس [٣].
وقال رجل من القوم : كيف تُشَبِّهُ الأميرَ بصعاليك العرب ؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً .

ما عمرو بالنسبة للأمير ؟!

وما حاتم بالنسبة للأمير ؟!

فقال الشاعر :

وشبهه المدّاح فى الباس والندى

بمن لو رآه كان أصغر خـادم

ففى جيشه خمسون ألفاً كعنتر

وفى خُـزنه أُلف ألف كحاتم

أى أن عنده أمثالَ حاتمٍ وأمثال عنترة. فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته وبديهته ؛ فقال :

« لاتنكروا ضربى لـه من دونه

مثلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقـل لنوره

مثـلا من المشكاة والنبراس

وكأن الشاعر يقول : أنا ضربت بهم المثَل لأنهم أصبحوا المثل المشهور والأمثال لا تتغير .

---

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن (٢) من سادات التابعين كان شهما حليما (٣) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء.

وأنت تقدر في المثل، فقد تقول : فلان حاتم، وحاتم انقضى عمره، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً في التاريخ ، أو تقول : "فلان عنتر" ، أو "فلان إياس" ، وفي ذلك يرتقي التشبيه، بأن صار المشبَّه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به .

ويُعَرفون المَثَل بأنه : قول شبِّه مورده بمضربه ، أي أنك تشبه الحالة التي قيل فيها المثل أولاً، ومثال ذلك : حينما أرسلَ عظيمٌ من عظماء العرب خاطبةً اسمها "عصام" لتخطب له أمَّ إياس ؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف، فذهبت الخاطبة وخلَّت أم الفتاة بينها وبينها، وقالت لها : يا هذه ، هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض أمرك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك به . ثم أرسلت إلى خباء ، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً. فلما عادت إلى من أرسلها، وكان ينتظرها في شوق وكأنه على أحر من الجمر ، قال لها : "ما وراءكِ يا عصامُ ؟" قالت : "أبدى المخض عن الزُّبد» أي أن الرحلة جاءت بفائدة.

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولاً ذكرا أو أنثى أو مثنى أو جمعاً؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : "ما وراءك يا عصام ؟" ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدي الجهد فيه يقال عنه : "أبدى المخض عن الزبد" . فحين ينجح الولد ويأتي بالمجموع المناسب يقال : "أبدى المخض عن الزبد" .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وكانوا قد قالوا : كيف يضرب الله المثل ببعوضة ؛ وقال سبحانه :

﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

لقد فهموا قوله : "فما فوقها" أنها أكبر منها، والمراد غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل ؛ لذلك قال : "فما فوقها" من باب فما فوقها في الاحتقار منكم والقلة في الحجم مما تنكرونه ، وهو الضآلة. وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويرد السامع وفلان فوقه في المرض . ونجد "فوقه" هنا لا تعني المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

والكلام موجه لليهود : أي أنتم يابني إسرائيل مَثَلكم مثل الرجل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم في التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذي جاء ذكره في التوراة، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به. وصار مثلكم كمثل الرجل الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها. ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾

وهم بعنادهم وبغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التي يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التي يثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله، وكذلك آيات القرآن التي تحمل منهج الله.

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان، وأنت لن تحكي الأمر التافه، بل ستحكي ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنتفع بها حركة المجتمع.

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكر والتذكر والتدبر.

والتفكر - كما نعرف - هو عمل العقل فى المقارنات بين البديلات المتنوعة لِيُرَجّح بديلاً على بديل فتُعقلَ به القضايا.

والتذكر يعنى إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيح عنك الغفلة عن القضية المعلومة.

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي. فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة، لتجد المعنى الخفى فيما يقال. والمثال فى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وحين تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى "فما فوقها" لا يعنى الأعلى منها فى القوة، بل الأعلى منها فى الضعف الذى أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط، بل لما خلف اللفظ، ومعطياته.

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أى يتفكرون فى أسلوب توجيه المنهج ؛ لعلهم يؤمنون. وهذه فائدة القصص.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

والحق قال فيهم من قبل : إنهم كذبوا بآياتنا ، وضرب لهم المثل بابن باعوراء وكان مشهوراً في أيامهم. لكنهم فاقوا ابن باعوراء لأنه كان فرداً وهم جماعة ؛ لذلك لا تقل إن في المسألة تكراراً ؛ لأن المثل من قبل كان على فرد واحد، أوتى آيات الله فانسلخ منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلاخهم عن المنهج يجعل موقفهم أشد سوءاً.

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾

و " ساء " أي قَبُح ، وحين نقول : ساء فلان ؛ أي قبح أمره ، ولكن أي أمر من أموره هو القبيح ؟ فنقول : ساء صحةً أي صار مريضاً أو ساء حالاً أي صار فقيراً ، أو ساء خلقاً أي صار شرساً، وأنت حين تقول : ساء، فهذا السوء عام له جوانب متعددة ، ويقتضي الأمر التمييز.

و " ساء مثلاً " أي ساء من جهة المثل ، والمثل في ذاته لا يسوء ؛ لأن الله تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يجئ ليبين ويشرح ويوضح. والمعنى هنا : ساء مثلاً حال القوم . أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا . لأنهم حين كذبوا بالآيات ظلموا أنفسهم، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله في الأرض، ولم يعرقلوا بالتكذيب شيئاً في كون الله تعالى ، فالكون بنظامه ونسقه يسير بإرادته سبحانه وآيات الكون سائرة. إذن تكذيبهم بآيات الله لن يضير أبداً في أي شيء. والخيبة إنما تقع عليهم. وإن كان التكذيب في الآيات المعجزات فقد بقى ذكر المعجزات إلى الآن. وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أي شيء . وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم في ذلك مثل المريض الذي لم يسمع كلام الطبيب فإنه يسيء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شئ، والله سبحانه قد أعطانا المنهج لتستقيم به حركة الحياة، فمن يأخذه ينفع نفسه، ومن لا يأخذه لن يضر الله شيئاً.

هم إذن ظلموا أنفسهم، ومن يظلم نفسه كان هو أول عدو لها ولن يضر الله شيئاً، ولا الرسول، ولا المجتمع.

﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة الأعراف)

وحين تجد معمولاً تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فاعلم أن هناك مايسمي بالقصر في علم البلاغة، وقد نقول: "يظلمون أنفسهم" ويصح أن تعطف قائلاً: ويظلمون الناس. ولكن حين نقول: أنفسهم يظلمون، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص، مثلما نقول: ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾، أي أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وهذه الآية هي الوحيدة التي جاء فيها قوله سبحانه وتعالى: "المهتدي" - بالياء - بينما جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة "المهتد" - من غير ياء - في آيات متعددة عدا هذه الاية:

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الإسراء)

ويقول الحق: ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحديد)

وكذلك تأتي الكلمة بدون "ياء" في قوله سبحانه:

﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾.

(من الآية ١٧ سورة الكهف)

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر فى الأذهان، لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمضل، فلماذا يعذبنى إن ضللت ؟ . وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة. ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ . إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التى جاءت لك هى مكسب تركته وأخذت المسألة التى فيها ضرر . ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم.

وضَرَبنا من قَبْلُ أمثلةً كثيرة. لنفرق فى هذه المسائل بين المختلفين ؛ لأن الجهة عندهم منفكة. وهم قد ناقشوا مسألة "خلق أفعال العباد" وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال ؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟.

ونسأل : ما هو الفعل ؟. إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ؛ فطاقة اليد أنها تعمل أيَّ عمل تريده منها ؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض، أو تربت بها على اليتيم .

إذن ففى اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً ؛ فأى عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب ؟. إنك بمجرد رغبتك فى أن تضرب ، تضرب ؛ عكس الإنسان الآلى حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل . وكلها آلات.

وأنت حين تربت على كتف يتيم ، ما هى الأعضاء والأجهزة التى تحركها لتعمل هذا العمل ؟. إذن فالله هو الذى خلق فيك الانفعال للفعل. فإن نظرت إلى ذلك ، فكل فعل من الله ، ولكن توجيه الجارحة إلى الفعل هو محل التكليف.

إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت، لا لأنك خلقت ؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى ، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة

مخلوقة لبيان ما فى النفس ؛ إن أردت أن تقول بها " لا إله إلا الله " صلحت، وصلحت كذلك عند الملحد أن يقول - والعياذ بالله - لا يوجد إله . واللسان لم يعص فى هذه ولا فى تلك .

إذن فالذى خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله. وأنت توجه الجارحة، إذن فكل الافعال مخلوقة لله، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما يكون من العبد. والحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع بالمنهج، ومن يقبل عليه بنيَّة الإيمان ، يعينه على ذلك ، ولذلك لا يصح أن نختلف فى مسألة مثل هذه، وأن نسأل من خلق الأفعال، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد، وما دور الإنسان فيها ؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث، مثل من يريد أن يؤذى إنساناً بيده لكنه يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو الذى يخلق لرفع يده وآذى بها من أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل.

وعلى ذلك تكون الهدايةُ نوعين : هداية دلالة ، وهى للجميع ؛ للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به، فمن يُقْبل على الإيمان به ؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة . فيأخذ بيده ، ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه، ويعطى له طاقة لفعل الخير، ويشرح له صدره وييسر له آمره : وسبحانه القائل :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة الأعراف)

فإذا كان الله قد عمّم حكماً ثم خصّصه، فالتخصيص هو الذى يحكم التعميم.

ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية ،

ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدى وهذه معونة من الله، والكافر لا يهتدى وكذلك الظالم، والفاسق؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة.
ونقرأ فى القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة، فهو سبحانه يقول:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

والهداية التى كانت لقوم ثمود إنما هى هداية الدلالة، وليست هداية المعونة.

ويقول سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾

(سورة محمد)

أى أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية، والحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

(من الآيه ٥٦ سورة القصص)

أى أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك.

ويقول سبحانه لرسوله:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

أى أنك يا محمد تهدى هدايةَ الدّلالة بالمنهج الذى أنزله الله إليك.

إذن إذا رأيت فعلاً أو حدثا مُثبتاً لواحد ومنفياً عنه.. فاعلم أن الجهة منفكة، والكلام هنا لحكيم عليم. ولماذا يقول الحق سبحانه:

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده ، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه . ويعيش وحالته كرب ، سواء كان في يسر مادى أو في عسر . هذا إن اعتبر أن الدنيا هي كل شيء ، فإذا أضيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة ، فالخسارة تكون كبيرة حقاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وذرأ ، بمعنى بث ونشر ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء :

﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾

كما يقول الحق أيضا : ﴿ يذرؤكم فيه ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنس والجن ؛ لأن كلا منهما في سلك الاختيار ، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن :

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾

وذرأنا معناها بثثنا ونشرنا وكثّرنا، وكلمة كثير لا تعني أن المقابل قليل، فقد يكون الشيء كثيراً ومقابله أيضاً كثير، والحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق في ذات الآية :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

أي هناك كثير يسجدون ويخضعون لله. ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب. وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

فقد يثور في الأذهان سؤال هو :

هل أنت خالقهم يارب لجهنم. ماذا يستطيعون إذن ؟ ولا شيء في قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك ؟

ونقول : لا. ولنلفت الأنظار إلى أن في اللغة ما يسمى « لام العاقبة »، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد في الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾

(سورة الذاريات)

ومعنى العبادة طاعة الأمر، والكف عن المنهى عنه، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل، فالعبادة - إذن - تستدعى وجود طائع ووجود عاص، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى : يأتى لك من يروى لمحة من سيرة إنسان ويقول لك : لماذا يقف منك هذا الموقف العدائى، أليس هو الذى أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه : « زرعته ليقلعنى ». هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك ؟ لا . ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا.

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار. لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه « لام العاقبة » ، أى ما صار إليه الأمر غير مرادك منه، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾

(من الآية ٧ ومن الآية ٨ سورة القصص)

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً ؟ لا ، لأن زوجة فرعون قالت :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾

(من الآية ٩ سورة القصص)

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هى أن يكون قرة عين، لكنه صار عدواً فى النهاية، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة.

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار، فى قوله الحق :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ﴾

لأن علة الخلق فى الأصل هى العبادة، والعبادة تقتضى طائعاً وعاصياً، فالذى يطيع يدخل الجنة، والذى يعصى يدخل النار، ولله المثل الأعلى، أذكركم بالمثل الذى

ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحددهم . لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم في إجابات الطلبة، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

يعني أننا نشرنا وبثثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، وهم من يعرضون عن منهجنا، ثم يأتي الحق بالحيثيات لذلك وهي أولا :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثانياً :

﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثالثاً :

﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولقائل أن يقول : إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ . ومادامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك مادامت الآذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون ؟ . ونقول : لا، لم يخلقهم الله للعذاب، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم، وصارت عقولهم لا تفكر في شيء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها، وكذلك الآذان. وكل منهم يرى غير مراد الرؤية، ويسمع غير مراد السمع.

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التي تنتهي إليها الإدراكات. ونعلم أن الإدراكات تأتي بواسطة الحواس

الخمس، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق.

إذن لكل وسيلة إدراك، وهى من المحسَات، وبعد أن تتكون المحسَات يمتلك الإنسان خميرة علمية فى قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلماً بها.

وكلنا يعرف أن النار محرقة؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه، فيعرف أن النار محرقة، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى. إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتها الحواس الظاهرة، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل. وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل؛ لأنك حين تحمل شيئا قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً.

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد، فهذه اسمها حاسة البعد، وكذلك حاسة البين وهى التى تميز بها سمْك القماش مثلاً.

كل الحواس - إذن - تربى المعانى عند الإنسان وحين تربى المعانى فى النفس الإنسانية تتكون القضايا التى تستقر فى القلب.

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾

والفقه هو الفهم، ويصير الفهم قضية مرجحة انتهى إليها الاقتناع من المرائى والمحسّات، لكنّ هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلا هواهم، وكذلك لا تسمع

آذانهم إلا ما يروق لهم، فلا يستمعون إلى هدى، ولا يلتفتون إلى الآيات التى يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه، فهم إذن لهم قلوب وأعين وآذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التى تروق لانحرافهم.

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو: ما ذنب الأنعام التى يُشبه بها الكفار؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأى منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله. هى فقط ترى المرعَى فتذهب إليه، وترى الذئب فتفر منه، وتتعود على أصوات تتحرك بها، وكافة الحيوانات تحيا بآلية الغريزة، ويهتدى الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التى أودعها الله فيه، لا بعقله.

والإنسان منا لا يبتعد عن الضر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً. لكن الحيوان يبتعد عن الضر من غير تجربة بل بالغريزة، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البديلات، وفطره الله على غريزة تُسَيِّرُه إلى مقومات صالحة، ومثال ذلك: أنه قد يوجد الحيوان فى بيئة ما، ويعطى الله له لوناً يماثل لون هذه البيئة ليحمى نفسه من حيوانات أقوى منه.

ومثال آخر: نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان، ولابد أن يتناسل ليؤدى ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هى فى الإنسان، حيث تصير فى بعض الأحيان غاية فى ذاتها، بجانب أنها وسيلة للنسل. ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

إذن فالغراب مَهْدِىّ بغريزته إلى كل متطلباته، ولذلك نجد من يقول : كيف نشبه الضال بالأنعَام ؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام فى أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حيث لم يستخدم العقل كى يختار به بين البدائل. وبذلك صار أضل من الأنعام، وكلمة « أضل » تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة، لأنها محكومة بالغريزة لا اختيار لها فى شىء. لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجهنم من الجن والإنس، لا يعرفون ربهم، بينما الأنعام، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده. وفى آية أخرى يقول المولى تبارك وتعالى :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾

(من الآية ٤١ سورة النور)

وعلى ذلك فكل الجماد - إذن - يعلم صلاته وتسبيحه.

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم البعض كوسيلة تنشيط إلى غايات وأهداف سامية. والعارف بالله من هؤلاء الصالحين يستقبل الأحسن منه فى العبادة بالضحك، أما الأحسن منه فى أمور الدنيا فيستقبله « بالتكشير »، وقال واحد منهم لآخر : أتشتاق إلى ربك ؟ فرد عليه : لا.

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك؟.

قال له : نعم. إنما يُشْتَاقُ إلى غائب.

﴿ أُولَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولا تظنن أن الضلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مُذَكِّر، أو لعدم وجود مُنْذِر أو مُبَشِّر. بل هي غفلة منهم، فالأمور واضحة أمامهم، لكنهم يهملونها ويغْفَلون عنها.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ نقول: إنه لا يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنى، إن قلت عن إنسان إنه « كريم »، فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه « حليم »، وكلها صفات عارضة في حادث، ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها. فأنت - مثلا - لك قدرة تفعل أفعالاً متعددة، ولله قدرة، لكن قدرتك حادثة من الأغيار، بدليل أنها تسلب منك لتصير عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحدها شيء. فهي قدرة مطلقة. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، ولله غنى، لكنّ ثراءك محدود، وأمَّا غنى الله فإنه غير محدود.

إذن الأسماء الحسنى على إطلاقها هي لله، وإن وجدت في غيره صارت صفات محدودةً مهما اتسعت.

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحسنى.. تأنيث لكلمة « الأحسن » اسم تفضيل، وهي الأسماء الحسنى في صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية. وحين تقول عنه سبحانه: إنه « رحيم »، فهذا أمر حسن عندي وعندك لأنني أنظر إلى رحمته لي، وأنت تنظر إلى رحمته لك. وحين تقول: « غفار »، فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه.

وحين تقول : « قهّار » وأنت مذنب ستخاف ، وهي صفة حسنى بالنسبة للإله ؛ لأن الإله لابد أن تكون له صفات جمال وصفاتُ جلال ، فصفات الجمال لمن أطاع ، وصفات الجلال لمن عصى . ولذلك لا تأخذ النعّم بمدلولها عندك ، بل خذ النعم بمرادات الله تعالى فيها .

وساعة يتكلم الحق سبحانه وتعالى قائلا :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل إرسال الشواظ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟

نقول : نعم ، هى نعمة كبيرة ، لأنه سبحانه وتعالى ينبهنا قبل أن توجد النار ، أن النار قوية ، ويعطى لك نعمة العظة والاعتبار . وعظته وتنبيهه - إذن - قبل أن توجد النار نعمة كبرى ، وأيضاً هى نعمة بالنسبة للمقابل ، فحين يطيعه المؤمنون فى الدنيا ويلزمون أنفسهم بمنهج الله ، فلهم ثواب حق الالتزام ، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية ، يتوعدهم سبحانه بالعقاب ، وهذه نعمة كبرى

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه ، لأننا قد نعرف مسماه من

القوى القادرة وهى التى تعرف بالعقل ، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم . وسبق أن قلت : لنفترض أن أناساً يجلسون فى حجرة ثم طرق الباب . هنا يجمع الكل على أن طارقاً بالباب ، لكن حين دخلوا فى التصور اختلفوا ، فواحد يقول : إن الطارق رجل ، فيرد الآخر : لا إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة ، ويقول ثالث : هذه النقرة على الباب تأتى من أعلاه وهى دليل على أن الطارق ضخم ، وهو نذير لأنه يطرق بشدة ، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق ، ولا أحد يعرف اسمه . إذن حين تريد أن تعرف من الطارق ، فأنت تسأله من أنت ؟ فيقول لك « اسمه » .

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل . ومن خلق الخلق كله قوى ، قادر ، حكيم ، عليم ، لأن عملية الخلق تقتضى كل هذا . أما اسم الله . فهذه مسألة لا يعرفها العقل وتحتاج إلى توقيف . إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية ، فحين يقول لنا : هذه أسمائى فإننا ندعوه بها ، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به ، و لذلك يقول تعالى : ﴿ فادعوه بها ﴾

فإذا أنت نقلت هذا إلى غيره . فأنت تدعو بالأسماء الحسنى سواه ، مثلاً كذاب اليمامة مسيلمة سمى نفسه الرحمن ، وبذلك ألحد فى اسم الله حيث نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته ، ومثله فعل غيره ، ألم يسموا « اللات » من الله ؟ . ألم يسموا « العزّى » من العزيز ؟ . ألم يسموا « مناة » من المنان ؟ . كل هؤلاء ألحدوا فى أسماء الله التى لا ندعو غيره بها ، ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله فى دعائه : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك أسالك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء همى وذهاب حزنى وغمى »(١) .

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا لنفسه ، لأنها لا تعرف بالعقل . أما إذا نظرت إلى الأوصاف المبدعة للخلق فأنت تتعرف على هذه الأوصاف ؛ لأنه تعالى

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم فى المستدرك.

خلق الكون بحكمة وتدبير وقدرة. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع المصابيح، فنصنع زجاجاً ونفرغه من الهواء، ونضع داخله أسلاكا تتحمل ذبذبة الكهرباء، وبعد استخدام هذه المصابيح لفترة تفسد، بينما الشمس تضيء الكون كل هذا العمر، من بدء الخلق، ولا تحتاج منا إلى قطعة غيار.

وحين نقول هو : « حكيم »، نقولها ونرى أثر ذلك فى حركة الكواكب التى تسير منسجمة، وكل كوكب يدور فى فلكه ولا يصطدم بآخر، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة.

وينبهنا الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكروه؛ لأنه هو الرب الذى خلق من عَدَم، وأمد من عُدْم. وصان الخلق بقيومية، وحين تأتى لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادى الله بها، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذى وضعه لنفسه وهو « الله »، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات.

ولله المثل الأعلى : أنت تقول : « زيد » فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد، ثم له صفات أخرى، كأن يكون تاجراً، أو عالماً متفقها فى العلم، أو مهندساً. لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذى لا يشترك معه أحد من معارفك فيه وهو زيد، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره.

والأسماء لله نوعان، اسم يدل على ذات الله، الذات المجردة عن أى شيء وهو الله، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن، وهذه صفات ارتقت فى السمو والعلو لأنه لا أعلى منها، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاق الكمال الأعلى لا تنصرف إلا لله. فصارت أسماء.

قد نقول فلان غنى، وفلان كريم، وفلان حكيم، لكن الغنى على إطلاقه هو لله تعالى.

والأسماء الحسنى ناشئة من صفات مبالغة في العلو فيها، لأنه سبحانه الأكمل فيها وهي في الأصل صفات لها متعلقات فعلية، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق على الله منها اسم ومقابله، ونوع يطلق عليه الاسم ولا يطلق عليه المقابل، ونأتي بصفة شبيهة بالاشتقاق، فنقول : « غني »، ونقول : « مغني » فهو غني في صفة ذاته قبل أن يوجد من يُغنيه، ومغني وجدت بعد وجود من يُغنيه من عباده، وسبحانه حي في ذاته، ومحيي لغيره، والإحياء صفة فعل في الغير. ولابد لها من مقابل، فنقول : محيي ومميت. ولم نقل حي ومقابله، إذن فالاسم الذي ترى له مقابلاً هو صفات الفعل، أما صفات الذات فهي التي لا يوجد لها المقابل. ويلحدون في أسماء الله أي يُميلونها إلى غير الله وينقلها الواحد منهم لغير الله أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً ليس له معنى أو لا يُفهَم منه أي معنىَ على الله. إذن "الإلحاد" يأتي في ثلاثة أشياء : إما أن ينقل أحد أسماء الله إلى غير الله، أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً لله من غير أن يكون قد أنزله الله توقيفياً.

﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾

ونعلم أن " العمل " هو اسم للحدث من أي جارحة ؛ فنطق اللسان عمل، وشم الأنف عمل، ونعلم أن هناك مايسمى بـ[قول وفعل]، والفعل عمل الجوارح ما عدا اللسان؛ والقول عمل اللسان، والاثنان يطلق عليهما عمل، ولذلك يقول الحق : تبارك وتعالى في سورة الصف :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ ﴾

إذن فالقول مقابله الفعل، والجزاء هنا على الفعل والقول لأن كليهما عمل.

وإذا كان لله أسماءٌ كثيرةٌ، فهل يجوز لنا أن نأخذ من فعل الله في شيء اسماً له ؟ وخصوصاً انه القائل :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

وهو القائل أيضاً :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

هل يمكن أن نقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله :

﴿ وأكيد كيداً ﴾

(سورة الطارق)

اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

وبعد أن قال سبحانه : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس " أراد أن يطمئن أهل منهج الله ، فلم يقل : "كل الناس" ، بل كثير من الجن والإنس " ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ أى كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعنى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أن كون الله لايخلو من هداة مهديين ، لتستمر الأسوة السلوكية فى المجتمع .

والأسوة السلوكية فى المجتمع هى التى تربى عقائد المواجيد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلى، ولا كيف يصوم، ولا يميز بين الكذب والصدق ولكنّه يتعلم بالتقليد لوالديه، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يُؤَذِّنُ للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان فى سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعى للخوض فى سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض فى سيرة الغير، لأن الأسوة السلوكية تنضح عليه، بدليل أن الصغير الذى لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليُحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته.

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾

إنهم فى حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو نفى الشرك، وقد يكون العدل فى مسألة الكبائر، أو يقيمون العدل فى مسألة الحقوق بين الناس.

﴿ وممن خلقنا أمة ﴾

وقوله فى الآية الكريمة : "أمة" يعنى أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز بالصدق ، وآخر فى الشجاعة، وثالث فى الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة فى مجموع الصفات الحسنة، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه السلام- فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أنه جامع لخصال الخير التى لا توجد إلا فى مجتمع واسع،

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وأى أمة من أمم الأرض - إذن - هى التى تهدى بالحق ؟ لقد قال سبحانه فى قوم موسى!

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأعراف)

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده، لذلك تظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة.

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً ، وكلما زاد الناس فى الإلحاد، زاد الله فى المدد، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة فى الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين التابعين لمنهج الله.

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر ، ولسائل أن يسأل : ما لزوم هذا الشر فى كون خلقه الله على هيئة محكمة ؟ نقول! لولا أن الناس يضارون بالشر ؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير ، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء؛ ما تحمس للحق أحدٌ، ولا عرف الناس ضرورة أن يتأصل الحق فى الوجود ، فللشر - إذن - رسالته فى الوجود . وهو أن يهيج إلى الخير ، فكما ذرأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ أوضح سبحانه وتعالى فى قوله : « وَمِمَّنْ خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » فى الحكم، عدلاً فى القمة؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً ، لأن أول مخالفة لقضية العدل هى مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم، فالشرك والعياذ بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه، وكذلك تحريم ما أحل الله ، أو حل ما حرم الله، وكل ذلك ظلم، وكذلك عدم حفظ التوازن فى الحقوق بين الناس، فإن لم يحصن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولى ومسلط؛ سنجد كل إنسان وهو يضن بجهده فى الحياة يكتفى بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً، فلا يتحرك فى الحياة إلا حركة محدودة، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط ، فإذا ما حدث ذلك؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أى فائض ليعيشوا به.

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عَرَق وتعب كل واحد . فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك . لكنْ لله حق فيه، وأنت لك الباقى، حتى يجد الضعيف الذى لا يقدر على حَرَكة الحياة من يقيته. ولذلك يحذرك المنهج الإيمانى بقوله : إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف، لأن قُوَّتك التى استعملتها فى تحصيل هذا المال إنما هى عرض لا يدوم لك ، فإن أخذنا منك وأنت قوىٌ قادر على الحركة، سنأخذ لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة، وذلك هو التأمين والعدالة.

وبالنسبة للأمة فى تلك الآية ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾

فقد جاء فى الآثار أن المراد بالأمة فى هذه الآية الأمة المحمدية، قال قتادة : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا قرأ هذه الآية : هذه لكمْ وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها«ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»(١)

ويخاطب النبى صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله : هذه لكم، أى فى أمتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وكلمة "للناس" هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهى أمة الإجابة للمؤمنين فقط، بل جعل خيريتها للناس جميعاً ؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وذكر " أمة " لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع فى إنسان واحد، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير، هذا فيه ذكاء ، وذاك فيه شجاعة ، وذاك عنده مال، وذلك له خلق. فكأن الأمة المحمدية قد وجد فى أفرادها ما يجمع المواهب

(١) تفسير ابن كثير المجلد الثانى، والطبرى المجلد السادس.

الصالحة للخلافة فى الأرض.

ويأتى الحق بعـد ذلك بمقـابلهم ، لأن مـجىء الشىء بمقـابله أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ ﴾

(سورة الأعراف)

وهؤلاء هـم المقـابلون للذين خلقـهم الله أمـة يهـدون بالحق وبه يعـدلون ، والآيات جـمع آية ، وقلنا : إن الآيات التى فى الكون ثلاث ؛ آيات تنظرها لتهتدى بها إلى من صنع ذلك الكون المترامى الأطراف بتلك الدقة العظيمة ، وذلك الإحكام المتقن ، آيات تلفتك مثل الليل والنهـار والشـمس والقـمر ، وكذلك آيات تخرق نامـوس الكون لتثبت صدق الرسـول بالبـلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل منهج الله. والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها ، ولم يستنبطوا منها وجـود إله قـوى قـادر حكيم ، وكـذبوا الآيات المعـجزات لصدق النبوة. وكذلك كذبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها ، ولم يتمسكوا بها ؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن يدخلهم الحق النار فقط ، بل لهم عذاب أقرب من ذلك فى الدنيا ، لأن المسألة لو أجلت كلها للآخرة لاستشرى بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة ، لكن من يؤمن بالآخرة هو من سيحيا بأدب الإيمان فى الكون ، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج. عكس من يعربد فى الكون ؛ لذلك لابد أن يأتى العقاب لمن يعربد فى الكون أثناء الحياة الدنيا ، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى أن لهم عذاباً قبل الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب فى الدنيا :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾

وحين تقول : أنا استدرجت فلانا ، فأنت تعنى أنك أخذت تحتال عليه حتى يقر بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم ، ويحاصره بالأسئلة من هنا ، ومن هناك ، إلى أن يقر ويعترف ، وهذا هو الاستدراج. و " الاستدراج " من الدرج ونسميه فى لغتنا اليومية " السلَّم " وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلا فى عمارة ما ، ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثنى عشر سنتيمتراً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويضعها على الدرج دون إرهاق النفس ، وهذا يعنى أننا نستدرج العلو لنصل إليه أو ننزل منه.

وقد خصوا فى الآخرة الجنة بالدرجات العليا ، والنار بالدركات السفلى.

وهنا يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى نأخذهم درجة درجة ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهقهم بما وصلوا إليه ، كما قال سبحانه من قبل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه فى حق أخيه الإنسان فى الدنيا يأخذه من أول جرم ؛ لأن الأخذة فى هذه الحالة ستكون لينة ، لكنه يملى له ويعليه ثم يلقيه من عَلُ.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكونُ الآخذُ أخذ عزيز مقتدر.

وحين يَستدرجُ البشرُ، فإن الطرف المستدرج له أيضا ذكاء، ويعرف أن هذا نوع من الكيد وفخ منصوب له، لكنْ حين يكون ربنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحد كيف يفلتَ. والعلة فى قوله: "سنستدرجهم" هى قوله: ﴿من حيث لا يعلمون﴾؛ لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

والإملاء هو الإمهال وهو التأخير، أى أنه لا يأخذهم مرة واحدة، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات، ونسمع دائماً من يقول: لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناسُ بعضهم بعضاً، فالإيمان يعطى الأسوة واليقين. والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بلَ هو إمهال فقط، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وهنا يوضح الحق: إذا كنت سأستدرج وسأملى فاعلم أن كيدى متين. والكيد هو المكر، والمكر أخذهم من حيث لا يشعرون وهو عملية خفية تسوء الممكور به.

وهو تدبير خفى حتى لا يملك الممكور به ملكات الدفع. وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيدة أو مكراً؛ أيستطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً؟. طبعاً لن يستطيع أحد ذلك. هذا هو معنى ﴿ إن كيدى متين ﴾؛ ومتين أى قوى، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر، ونعرف أن الظهر مُكوَّنٌ من عمود فقرى وفقرات عظمية، تحيط بها عضلات. فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان

أي حمل عليه يكسره. فشاءت تجليات رَبنا عزوجل واقتضت رحمتُه وقدرتُه أن يحاط هذا العظام بعضلتين كبيرتين، وهما مانسميه في عرف الجزارين "الفلتو" لحماية الظهر وتقويته ووقايته.

وإذا نظرنا إلى كلمة "متين"، نجد "المتن" هو الشيء العمودي في الأشياء، وفي العلم مثلاً ندرس الفقة وندرس النحو، ويقال: هذا هو المتن في الفقه، أي الكلام الموجز الذي يختزل العلم في كلمات محددة، والذكي هو من يستوعبه. وغالباً نجد مع المتن الموجز شرحاً للمتن، ثم حاشية للمتن.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾

وهنا يُنَبّه الحقُّ سبحانه وتعالى كلَّ الخلق أن يتفكروا في أمر الرسول المبلغ الذي ينقلُ عن القوة العليا مرادَها من الخلق. وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الإنسان الذي يقول إنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولقد ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نزول الرسالة عليه، وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله. لكنهم لا يريدون أن يسمعوا، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالنكوص عن المنهج، فقال بعضهم اتهاما للرسول: إنه مجنون، مثلما قال بعضهم من قبل: إنه ساحر، وكاهن، وقالوا: شاعر، ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل.

ونتساءل: من هو المجنون ؟.

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكري في الاختيار بين البدائل، وحين يأخذ الله منه هذه القدرة على التوازن الفكري، يصبح غير أهل للتكليف؛ لأن التكليف فيه اختيار أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح.

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل ؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه ؛ لذلك نلاحظ الطفل وهو صغير يختار له والدُه أو والدتُه الملابس والطعام ، وبعد أن يكبر نجد الطفل قد صار مراهقاً يتمرد ويقرر أن يختار لنفسه مايريده لأنه قد صارت له ذاتية ، والذاتية - كما نعلم - توجد في النبات وفي الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منها قادراً على إنجاب مثله ، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان. أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية في الإنجاب والنسل ، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة في التفكير ؛ فهنا يسقط عنه التكليف ؛ لأنه مكره بفقدان العقل.

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذى لم يَبْلغ ، والمجنون والمكره بمن هو أقوى منه ، وهذه عدالة الجزاء من الحق ، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله ، وبهذا يحرس ربُّنا الكون بقَيُّوميَّته .

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلى الذى يختار بين البديلات ، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكن قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات ، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عنده كل غالٍ نفيس لهم حتى وهم كافرون به . وخلقه الفاضل ذاتي مستمر ودائم .

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له ، وبغَوْغَائيَّة ، وكل واحد يلقى اتهاماً ليس له من الواقع نصيب ؛ لذلك قال الحقَ تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أى أن يجلس كل اثنين ويتدارسا : هل محمد عاقل أم مجنون ؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أنَّ محمداً هو أكثر الناس أمانة ، وكان الجميع يسمونه

الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحى ، وليس من المعقول أن يضره الوحى ، أو أن يفقد بالوحى توازنه الخلقى ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم خُلُقاً عظيماً ؛ لأن الخُلُق هو الصفات التى تؤهل الإنسان لأن يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم . ومادام خُلُقه سليماً ، فمعيار الحكم عنده سليم .

وبعد ذلك قالوا عنه : إنه "ساحر" ، ونقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر كبار رجال قريش ليؤمنوا برسالته ؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس فيها سحر على الإطلاق .

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلاّ نذير مبين ﴾

الجِنَّة التى تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم – هى مَنْتهى العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم نذير واضح ، جاءكم أولاً بالبشارة ، لكنكم فى غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥ ﴾

وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذى يأخذ بيدهم إلى الإيمان الأعلى ، ينتقل الجدل إلى التفكر ومسئوليته :

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾

والتفكر هو إعمال العقل حتى لا يقولَنَّ أحد : إن رسول الله مجنون، لأن مجرد النظر فى الكون يجعل الإنسان رائيا للسماء مرفوعة بلا عمد، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك فى انتظام دقيق.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

إذن فوقَنا سماء، وهناك ما فوق السماء، وتحتنا الأرض، وفيها ما تحت الأرض، وهناك ما بين السموات والأرض. وما نراه فى الظاهر هو ما يسمونه « مُلْك » أما الخفى عنك الذى لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه « ملكوت ».

ويقول سبحانه فى سيدنا إبراهيم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

فكلمة « ملكوت » معناها مبالغة فى الملك، مثل رهبوت أى الرهبة الشديدة، ورحموت أى الرحمة الشديدة، وكلها صيغة « فعلوت » وهى صيغة المبالغة.

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ﴾

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح، ولكن العظمة والسر ليسا فى السماء والأرض فقط، بل هناك أشياء دقيقة جداً، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق. وأنت قد ترى ساعة « بيج بن» الشهيرة فى لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة فى العالم، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة فى حجم الخاتم، وننبهر ونعجب بدقة عمله وصنعته. فما بالنا بالخالق الأعظم الذى يعظم خلقه من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة

لا تستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر، كالميكروب، أو تدركها بصعوبة كالذبابة والبعوضة وبكل هذه الكائنات كل مقومات حياتها، حتى الكائن الذى لا معدة له يجهزه خالقه بقدرة على امتصاص الدماء مباشرة بعقله أو غريزته ويسعى ليأكل ويملأ معدته وله أجهزة تحول غذاءه ليكون دماً.

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط، لذلك يقول الحق:

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾

أى من أول شىء يقال له شىء، صار محكوماً عليه وجودياً، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التى تعطى له الحياة، وتعينه، حتى وإن كانت حواس استشعارية فى ذات هذا الكائن، ولا يقوى عليها صاحب العقل. مثال ذلك: نجد أن ما يفر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التى نتهمها بالغباء.

وحين يتأمل العقل ما وصل اليه العلم فى البحث فى عالم الحيوان وعالم البحار، سنجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم. وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم.

إننا نعلم أن الإنسان جنس، وأن له نوعين: نوع ذكورة، ونوع أنوثة، وبينهما جنس مشتبه نسميه الخنثى، والأجناس لها أفراد متعددة. وكل واحد له خلق، وكل واحد له موهبة، وكل واحد له مهمة. وساعة يطلب منا الحق: إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد غيرك، وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك، ويجب عليك أن تجعل كلمة «شىء» هذه هى المقياس، ولذلك يقول لك الشرع: إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها، بل قل هى ليست بشىء ذى بال. وإن همّ واحد بعمل سيئة فلا يقل: وماذا ستفعل لى سيئة واحدة؟

مستصغراً شأن هذه السيئة. وهذا نقول له: لا، لأن كلمة « شيء » يجب أن تحكم الكون. إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً ضئيل التكوين، ولا بسطة له فى جسمه، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة؛ لأن الله قد يعطى الضئيل فكرا عميقاً، أو حيلة كبيرة، أو موهبة خاصة فى أى شيء. فلا تنظر إلى شيء قليل فى أى إنسان، بل انظر إلى الشيء الجميل الذى فيه وهو المخفى عنك فى نفسك.

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

ولماذا تأتى هنا حكاية اقتراب الأجل ؟ وللإجابة عن التساؤل أقول : إنها هامة جداً؛ لأننا مادمنا أفراداً أى جنسين أو ثلاثة أجناس، وقال عنا ربنا إننا خلفاء فى الأرض، فعلينا أن نعلم أن الخليفة فى الأرض جاء ليخلف من سبقوه، وقد يُميت ربنا أى إنسان فى سن شهر أو سنة، أو سنتين أو خمسين عاماً؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق - تبارك وتعالى- نفسه ولا يعلمه أحد؛ لأن غاية المتساوى لابد أن تكون متساوية، وعلى سبيل المثال: إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا : لنيل إجازة الليسانس، وسنجد منهم الطويل، والقصير، والأبيض، والأسود، والذكى والغبى، والقوى والضعيف، وهم لا يتفقون إلا على دراسة الحقوق، وكذلك لا نتساوى جميعاً كبشر إلا أمام الموت، فهناك من يموت وهو فى بطن أمه، ومن يموت وهو طفل، ومن يموت وهو فتى. وإن كنا نختلف فيما بقى بعد ذلك، والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول: لا لن أموت.

ومادمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت، لتثاب على ما فعلت فى الدنيا بدلاً من أن تعاقب، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل، والإبهام هو أوضح أنواع البيان، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً توضيحاً كاملاً فهو يبهمه.

ومثال ذلك: لو جعل الله للموت سنّاً، لصار الأمر محدداً بلا أمل. لكنه

سبحانه لم يجعل للموت سناً أو سبباً، وأشاعة فى كل زمن، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت فى أى لحظة، ونزول الموت لا يتوقف على سبب، فقد يأتى بسبب وقد يأتى بغير سبب، ومادام الإنسان يستقبل الموت فى أى وقت، فعلى العاصى ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله.

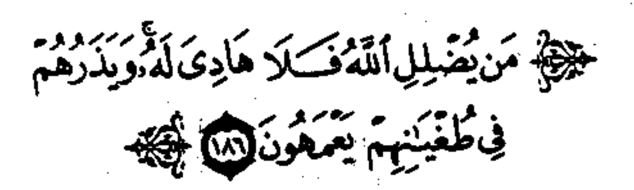
وإياك أن تقول: كيف مات فلان وهو غير مريض ؟؛ لأن هناك العديد من الأسباب للموت، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب، فالإنسان الذى نفقده بالموت، مات لأن أجله قد انتهى، والحق هنا يوضح: أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره سنتان، ومن مات وعمره ثلاث سنوات، ومن مات وهو ظالم، ومن مات وهو مظلوم، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تساوى هذه الحياة ؟. وما ذنب الذى لم يعش فى الدنيا إلا شهرا ؟ لابد إذن أن تعرفوا أن هناك غاية ثانية تنتظركم، غايات فردية هى آجال الناس بذواتهم، وآجال إجماعية تتمثل فى يوم القيامة.

وفى قوله تعالى ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

يوضح الحق تبارك وتعالى: أنه إذا كان هذا الحديث الذى أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع، ويجمع كل أنواع الكمالات، فماذا يريدون أكثر من ذلك ؟

وهل في اتباعهم للأهواء ولتقنينات بعضهم لبعض سعادة لهم ؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك. وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى :



وقد كرر الحق هذا التحذير كثيراً؛ لأن الأشياء التي قد يقف العقل فيها، أو تأخذه مذاهب الحياة منها، ويكررها الله، ليجعلها في بؤرة الاهتمام دائماً، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من السامع. وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه في سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة:

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر في ذهن السامع.

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

وسبحانه لا يرغم واحداً على أن يهتدى، فإن اهتدى فلنفسه، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال.

وكلنا يعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض، ليتم الشفاء بإذن من الله، الدواء إذن وسيلة إلى العافية، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل في ذلك إساءة للطبيب؟ لا. وكذلك منهج الله.

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

لكن هل يريد الله الضلال لأحد، لا، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء. ولذلك يقول لنا الشرع: إياك أن تشرك بالله شيئاً في أي عمل؛ لأن ربنا يقول لنا في الحديث القدسي الذي يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه ﴾ [1]

ومعنى الشركة في عرف البشر، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم، وموهبة كل منهم، لا تكفى لإقامة مشروع ما، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين، فهل هناك ما ينقص ربنا ليستكمله من آخر؟ حاشا

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في باب تحريم الرياء.

لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكا يجعل الله رافضاً لعبادة العبد المشرك . لذلك يقول فى الحديث القدسى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه» . ومادام ربنا قد تنازل عن رعايته له فليتلق المتاعب من حيث لا يدرى .

ومن قوله تعالى :

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

نتبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن يعدِّل على الله ، ليجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من فى قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً ويتركهم فى طغيانهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو فقدان العين للبصر .

ويقول الحق - تبارك وتعالى - بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

والمسئول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، فكان الجواب منه مطابقاً لما عندهم فى التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذى يقوله محمد إنما يأتى منه جزافاً

بدون ضابط وليس من رب يُنْزِلُه . فلما أجاب بما عندهم فى التوراة، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده، ولذلك سألوه أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم، وكانوا جماعة فى الزمن الماضى، واتفقوا معه على كل شيء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه :

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فقال اليهود : الثلاثمائة سنة نعرفها، أما التسعة فلا نعرفها، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

إذن التوقيتات كلها حسب التوقيت العربى، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال، والمثال أن كل عَالَم البحار تكون الحسابات المائية فيها كلها بالهلال، لأنه أدق، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل، بينما القمر دلالة شهرية، ومجموع الاثنى عشر هو الدلالة السنوية . لكنهم لم يفطنوا إلى هذه، وأخذوها على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسى، وأضاف الحق : ﴿. وازدادوا تسعا ﴾ لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين .

ومادة السؤال فى القرآن ظاهرة صحية فى الإيمان؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل »، وساعة يقول الشرع : افعل، ففى ظاهر هذا الفعل مشقة، وساعة يقول : لا تفعل ففى ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب، والمنع عنه يناقض شهوات النفس . وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحية من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة موجهة لرسول الله من أمته، حكاها القرآن بصور متعددة، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله : « ويسألونك»؛ ومرة

ورد بصورة فعل ماض « وإذا سألك ». وكثيراً ما جاء السؤال بهيئة المضارع « يسألونك »، لأن المضارع يكون للحال وللاستقبال.

وجاءت الأسئلة بالقرآن فى صيغة المضارع خمس عشرة مرة، وجاءت بصيغة الماضى مرة واحدة. وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً. وإذا نظرنا إلى مادة الفعل « يسأل » فى القرآن وبترتيب المصحف، نجد القرآن يقول:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول فى ذات الآية السابقة:

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ويقول عز وجل :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾

وبعد ذلك فى سورة الأعراف يقول :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾ (من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

ثم يقول الحق :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (من الآية ١ سورة الأنفال)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (من الآية ٨٥ سورة الإسراء)

ويقول المولى سبحانه :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة طه)

و يختم هذه الأسئلة بقوله :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النازعات)

تلك هى خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله « يسألونك »، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

والآيات الخمس عشرة التى جاء فيها الحق بصيغة المضارع « يسألونك » نجد كل جواب فيها مُصدرا بـ « قل » وهو أمر للرسول : قل كذا، قل كذا، ولكن فى الآية الواحدة التى جاء فيها بصيغة الفعل الماضى و « إذا سألك »، لم يقل : فقل إنى قريب، بل قال : « فإنى قريب أجيب دعوة الداع »، لأن الله يعلم حب محمد لأمته، وحرصه عليهم ولذلك يقول :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

(سورة الكهف)

ولذلك حين علم الحق علم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسوؤه فيها ، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه في أمته . وقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ ربِّ إنهنَّ أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفرلهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (فرفع يديه فقال : أمتي أمتي ويكى فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك) [1]

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسو له على أمته ، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرّم به الرسول ، فجاء الخطاب في آية الدعاء بدون «قل» .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمته أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط ، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه . لذلك نجد أربع عشرة آية تأتي فيها « يسألونك » وتكون الإجابة « قل » ، والآية الخامسة عشرة جاء فيها « يسألونك » وكانت الإجابة «فقل» لتدل « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد ، فكأن الفاء دلت على شرط

(١) رواه مسلم

مقدر هو : إن سألوك فقل ينسفها ربى نسفاً، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و« يجلّيها » أى يُظهرها، وهناك ما يسمى « الجلوة » وما يسمى « الخلوة »، و«الجلوة» أن يظهر الإنسان للناس، و«الخلوة » أن يختلى عن الناس ، و«لايجليها» أى لا يظهرها، و« لوقتها » ترى أنها مسبوقة باللام، ويسمونها فى اللغة العربية « لام التوقيت »، مثلما يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

وهى بمعنى « عند »، ومعنى دلوك الشمس، أنها تتجاوز نصف السماء، وتميل إلى المغرب قليلاً. وقوله : « لا يجليها لوقتها إلا هو » أى لا يبيِّنُها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

والثقل يعنى أن تكون كتلة الشىء أكبر من الطاقة التى تحمله؛ لأن الكتلة إن تساوت مع الطاقة فهى لا تثقل على الحمل.

أو أن الطاقة التى تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض؛ فيكون الشىء ثقيلاً، وقد يكون هذا الثقل أمْراً ماديا، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أردباً من القمح فيقدر على حمله، لكنه إن زاده إلى أردب ونصف ، فالحمل يكون ثقيلاً على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن « فينخ » به.

﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط، بل هو ثقل فكرى وعقلى أيضاً، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل تمرين هندسي أو تمرين في مادة الجبر، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره، وصعب الحل في بعض الأحيان.

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس في ملكاتها، مثل الهم جاثم على الصدر وثقيل عليه، وهو أقسى أنواع الثقل، ولذلك فالشاعر القديم يقول:

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال: ثقل مادى، وثقل فكرى، وثقل نفسى.

و﴿ ثقلت في السموات ﴾، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة. ونعلم أن الملائكة أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر، أما الملائكة فهى ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها، وبعضها يخدم البشر، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه، وبحياته، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيداً جديداً للكون. فكونوا جميعاً مسخرين في خدمته، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون، ولهم إلف بالخلق، إلف كاره للعاصى، وإلف محب للطائع. ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به. وإن وقع من الطائع زلة، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى. ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً»[1]

ونعلم أن المنفق سيأخذ ثواب إنفاقه، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه. وهكذا تدعو لنا الملائكة.

(١) رواه الدار قطنى فى سننه.

و« ثقلت » هنا تعنى أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم فى السموات وكذلك من هم فى الأرض، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعطى لها صورة توضح قوله الحق:

﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التى تأتى عليها فيقول: « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه »[1]

ومثل هذه التوقعات تخيف.

وقوله الحق:

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

أى أن الواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة، أى يجىء من غير استعداد نفسى لاستقباله. ويتابع سبحانه:

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾

وحفىَ من الحفاوة، والحفىّ هو المُلِحُّ فى طلب الأشياء، مثل التلميذ الذى يتوقف عند درس لا يفهمه، فيسأل هذا، وذاك إلى أن يجد إجابة.

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه، والحفى أيضا عالم بما يسأل عنه، وسبب العلم أنه ألحّ فى السؤال عليها.

والأمور التى يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر فى مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتهَ بمكان، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن

(١) رواه سعيد عن قتادة.

يعالجه، فيقطع المسافة إلى المكان الثانى لتحقيق هذه المهمة، إنما يمشى ويسعى على رجليه، و« يدوب » النعل الذى يضعه فى قدميه من المشى فيقال عنه إنه : «حافى». ولذلك يقال : حفى فلان إلى أن وصل للشىء الفلانى، أى سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات، مزقت نعله حتى جعلته يمشى حافياً. وهنا يقول الحق على ألسنة القوم : ﴿ كأنك حفى عنها ﴾ أى أنك مُعْنى بها، ودائب السؤال عنها، وعارف لها.

وتأتى الإجابة من الحق :

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾

وفى ذات الآية سبق أن قال : ﴿ علْمها عند ربى ﴾

والربوبية متعلقها الخلق، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر، والألوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج، وجاء الحق فى هذه الآية، مرة بالربوبية، ومرة بالألوهية. والأولى هى علة الثانية، فأنت أخذت الله معبوداً، وأطعته لأنه خلقك ووضع لك المنهج، ولا يدخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شىء ويمنحه البركة، وكذلك يعطى الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب فى الدنيا أو الآخرة، لذلك هو الإله الحق الذى نتبع منهجه.

﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها، وسبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾
(سورة طه)

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله.

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾

ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله : أنتم تسألوننى عن الساعة، وأنا بشر، ومتلقّ فقط، والإرسال بالمنهج يأتى من الله وأنا أبلغه، ولا علم لى بموعد قيام الساعة، ولا أملك لنفسى لا ضراً ولا نفعاً، أى لا أملك أن أدفع الضر عنى أو أجذب النفع لنفسى، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر، فالإنسان يملك ما يعطيه الله، والعاقل حين يملك، يقول : إن هذا ملك عَرَضى، لا آمن أن ينزع منى. ولذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾ (سورة آل عمران)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾

أىْ أنَّ أحداً لا يملك شيئا إلا ما شاء الله أن يملكه، ورسول الله من البشر. ويضيف :

﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)

فهرس آيات المجلد السابع

سورة الأعراف	الصفحة
الآية : ٦٧	٤٢٠٩
الآية : ٦٨	٤٢٠٩
الآية : ٦٩	٤٢١٠
الآية : ٧٠	٤٢١١
الآية : ٧١	٤٢١٢
الآية : ٧٢	٤٢١٣
الآية : ٧٣	٤٢١٦
الآية : ٧٤	٤٢١٩
الآية : ٧٥	٤٢٢١
الآية : ٧٦	٤٢٢١
الآية : ٧٧	٤٢٢٢
الآية : ٧٨	٤٢٢٢
الآية : ٧٩	٤٢٢٣
الآية : ٨٠	٤٢٢٤
الآية : ٨١	٤٢٢٨
الآية : ٨٢	٤٢٢٩
الآية : ٨٣	٤٢٣٠
الآية : ٨٤	٤٢٣٤
الآية : ٨٥	٤٢٣٤
الآية : ٨٦	٤٢٤٠
الآية : ٨٧	٤٢٤٢
الآية : ٨٨	٤٢٤٣
الآية : ٨٩	٤٢٤٤
الآية : ٩٠	٤٢٤٨
الآية : ٩١	٤٢٤٨
الآية : ٩٢	٤٢٤٩
الآية : ٩٣	٤٢٤٩
الآية : ٩٤	٤٢٥٠
الآية : ٩٥	٤٢٥٢
الآية : ٩٦	٤٢٥٦
الآية : ٩٧	٤٢٥٨
الآية : ٩٨	٤٢٥٨
الآية : ٩٩	٤٢٥٩
الآية : ١٠٠	٤٢٦١
الآية : ١٠١	٤٢٦٥
الآية : ١٠٢	٤٢٦٦
الآية : ١٠٣	٤٢٦٩
الآية : ١٠٤	٤٢٧٣
الآية : ١٠٥	٤٢٧٤
الآية : ١٠٦	٤٢٧٧
الآية : ١٠٧	٤٢٧٨
الآية : ١٠٨	٤٢٨٢
الآية : ١٠٩	٤٢٨٥
الآية : ١١٠	٤٢٨٦
الآية : ١١١	٤٢٨٧
الآية : ١١٢	٤٢٨٨
الآية : ١١٣	٤٢٨٩
الآية : ١١٤	٤٢٩٠
الآية : ١١٥	٤٢٩٠
الآية : ١١٦	٤٢٩١
الآية : ١١٧	٤٢٩٦
الآية : ١١٨	٤٣٠٠
الآية : ١١٩	٤٣٠٠
الآية : ١٢٠	٤٣٠٠
الآية : ١٢١	٤٣٠١
الآية : ١٢٢	٤٣٠٢
الآية : ١٢٣	٤٣٠٢
الآية : ١٢٤	٤٣٠٣
الآية : ١٢٥	٤٣٠٣
الآية : ١٢٦	٤٣٠٣
الآية : ١٢٧	٤٣٠٤
الآية : ١٢٨	٤٣٠٦
الآية : ١٢٩	٤٣٠٧
الآية : ١٣٠	٤٣١١
الآية : ١٣١	٤٣١٤
الآية : ١٣٢	٤٣١٧
الآية : ١٣٣	٤٣١٩
الآية : ١٣٤	٤٣٢١
الآية : ١٣٥	٤٣٢٢
الآية : ١٣٦	٤٣٢٢
الآية : ١٣٧	٤٣٢٥
الآية : ١٣٨	٤٣٢٩
الآية : ١٣٩	٤٣٣٠
الآية : ١٤٠	٤٣٣٢
الآية : ١٤١	٤٣٣٣
الآية : ١٤٢	٤٣٣٤
الآية : ١٤٣	٤٣٣٨
الآية : ١٤٤	٤٣٤٥
الآية : ١٤٥	٤٣٤٧
الآية : ١٤٦	٤٣٥٤
الآية : ١٤٧	٤٣٥٦
الآية : ١٤٨	٤٣٥٩
الآية : ١٤٩	٤٣٦٢
الآية : ١٥٠	٤٣٦٣
الآية : ١٥١	٤٣٦٦
الآية : ١٥٢	٤٣٦٧
الآية : ١٥٣	٤٣٦٨
الآية : ١٥٤	٤٣٧٠
الآية : ١٥٥	٤٣٧٢
الآية : ١٥٦	٤٣٧٨
الآية : ١٥٧	٤٣٨٠
الآية : ١٥٨	٤٣٨٥
الآية : ١٥٩	٤٣٩٠
الآية : ١٦٠	٤٣٩٠
الآية : ١٦١	٤٣٩٩
الآية : ١٦٢	٤٤٠٢
الآية : ١٦٣	٤٤٠٥
الآية : ١٦٤	٤٤٠٩
الآية : ١٦٥	٤٤١١
الآية : ١٦٦	٤٤١١
الآية : ١٦٧	٤٤١٣
الآية : ١٦٨	٤٤١٩
الآية : ١٦٩	٤٤٢٢
الآية : ١٧٠	٤٤٢٧
الآية : ١٧١	٤٤٣٠
الآية : ١٧٢	٤٤٤١
الآية : ١٧٣	٤٤٤٩
الآية : ١٧٤	٤٤٥٣
الآية : ١٧٥	٤٤٥٤
الآية : ١٧٦	٤٤٥٧
الآية : ١٧٧	٤٤٦٧
الآية : ١٧٨	٤٤٦٩
الآية : ١٧٩	٤٤٧٣
الآية : ١٨٠	٤٤٨٠
الآية : ١٨١	٤٤٨٥
الآية : ١٨٢	٤٤٨٩
الآية : ١٨٣	٤٤٩١
الآية : ١٨٤	٤٤٩٢
الآية : ١٨٥	٤٤٩٤
الآية : ١٨٦	٤٤٩٨
الآية : ١٨٧	٤٥٠٠
الآية : ١٨٨	٤٥١٠

ومحمد صلى الله عليه وسلم لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، فقد حارب ، وانتصر ، وحارب وانهزم ، وتاجر فربح ، ويسير عليه ما يسير على البشر ، ومرة يدبر الأمر الذى لم يكن فيه منهج من السماء ، فمرة يصيب ومرة يخطىء . فيصحح له الله ؛ لذلك يأتى القول على لسانه بأمر من الله : لو كنت أعلم الغيب لما وقعت فى كل هذه المسائل ، وكان أهل رسول الله من قريش قد قالوا : إننا أقاربك ، فقل لنا على موعد الساعة . حتى نستعد لملاقاتها .

ويتابع المولى سبحانه قوله : ﴿ وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾

وساعة ترى « إن » فهى مرة تكون شرطية مثل : « إن ذاكرت تنجح »، ومرة تكون للنفى وتجد بعدها اسما ، والمعنى : ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون . والكلام موجه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالنذارة وبالبشارة ، وما يُنذروا به لا يفعلوه ، وما يبشروا به يفعلوه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

وقوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة » المقصود بها آدم ، وقول الحق : « وجعل منها زوجها» المقصود بها حواء ، ونلحظ فى الأداء فى هذه الآية أن الضمير عائد إلى مؤنث .

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ﴾

ثم جاء بالتذكير فى قوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

إذن فصل الذكورة عن الأنوثة جاء عند « ليسكن ». فكأن الكلام فى النفس معنىٌّ به جنس بنى آدم وهو الذى نسميه « الإنسان » ومنه ذكورة ومنه أنوثة، ولذلك فسبحانه حينما يتكلم عن الذكورة كذكورة، والأنوثة كأنوثة، يأتى بضمير المذكر، أو بضمير المؤنث، وقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جُعلَت للرجل سكناً، لا يقال : إنها له سكن إلا إذا كان هو متحركاً، كأن الحركة والكدح فى الحياة للرجل، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان، بالعطف، بالرقة. أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له. وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وجعل منها زوجها ﴾

يذكرنا بما عرفناه من قبل من أن الله خلق آدم من الطين ومن الصلصال ثم نفخ فيه ربّنا الروحَ، أما حواء فقد ذكرها فى هذه المسألة، وأوضح : أنا جعلت منها زوجها، و« منها » أى أنها قطعة منه، وقيل : إنها خلقت من ضلع أعوج، ومن يرجح هذا الرأى يقول لك : لأن الله يريد أن يجعل السكن ارتباطاً عضويا، فالمرأة بعض من الرجل، ونعرف أن الواحد منا يحب ابنه لأنه بعض منه. وعلى ذلك فهذا القول جاء لتقديم الألفة. وهناك من يقول : إن حواء خلقت مثل آدم فلماذا جاء ذكر آدم ولم يأت بذكر حواء؟

ونقول : إن آدم أعطى الصورة فى خلق الإنسان من طين، لأن آدم هو الرسول وهو المسجود له. ونعلم أن المرأة دائما مبنية على الستر. ومثال ذلك نجد الفلاح فى مصر لا يقول : زوجتى، بل يقول : « الجماعة » أو « الأولاد » أو يقول : « أهلى » ولا يذكر اسم الزوجة أبداً.

والحق يقول هنا : « وجعل منها »، فإن كانت مخلوقة من الضلع فـ« مِنْ »

تبعيضية، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون « مِنْ » بيانية، أى من جنسها، مثلها مثلما يقول ربنا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

أى الرسول من جنسنا البشرى ليكون إلف المبلغ عن الله، والمبلغ عن الله واحدا منا ونكون مستأنسين به، ولذلك قلنا : إن اختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم من البشر فيه رد على من أرادوا أن يكون الرسول من جنس آخر غير البشر، فقال الحق على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويأتى الرد عليهم :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ثم لو كان الرسول من جنس الملائكة فكيف كانوا يرونه على حقيقته ؟ كان لابد أن يخلقه الله على هيئة الإنسان.

ويتابع سبحانه :

﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً ﴾

و« تغشاها » تعبير مهذب عن عملية الجماع فى الوظيفة الجنسية بين الزوج والزوجة، والغشاء هو الغطاء، وجعل الله الجماع من أجل التناسل ليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .

والمعنى هنا أنها حملت الجنين لفترة وهي لا تدرى أنها حامل، لأن نمو الجنين بطيء بطيء لا تشعر الأم به.

﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

ومرت به، مقصود بها أنها تتحرك حركة حياتها قياماً وقعوداً إلى أن تثقل وتشعر بالحمل في شهوره الأخيرة.

وهنا عرف الزوج أن هناك حملا ورفع الاثنان أيديهما بالدعاء لله عز وجل أن يكون الولد صالحاً بالتكوين البدني وصالحاً للقيام بقيم المنهج.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

أي أن الذكورة قد انفصلت عن الأنوثة، وصار الذكر يسكن عند الأنثى.

وهكذا كان الأمر الخاص بآدم، ثم جاء الكلام للذرية، وخصوصا أن حواء كانت تحمل بذكر وأنثى، وآدم وحواء وأولادهما هم أصل التواجد البشرى وأصل التوالد.

والقرآن قد يتكلم في موضوعات تبدو متباعدة. لكنها تضم قيماً ذات نسق فريد، فنجد الحق يتكلم في أمر ثم يتكلم في آخر، مثل قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

ولم يأت بسيرة البر هنا، بل تكلم بالبر والبحر ثم انتقل إلى الحديث عن مجىء الموت، وأيضاً انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا يوصى الحق الإنسان بوالديه، بالأب وبالأم، ثم يتابع :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ولم تأت سيرة الرجل بل كل الحيثيات للأم.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

ويروى أن هذه الآية قد نزلت فى « قُصَىّ » وهو جد من أجداده صلى الله عليه وسلم، فقد طلب قُصَىّ من الله أن يعطى له الذرية الصالحة، فلما أعطاه ربنا الذرية الصالحة سماها بأسماء العبيد، فلم يقل : عبدالله، أو عبدالرحمن، بل قال : عبد مناف، عبدالدار، عبدالعزى. وجعل لله شركاء فى التسمية، ولهذا جاء قول الحق : « جعلا له شركاء فيما آتاهما » ؛ ليدلنا على أن الإنسان فى أضعف أحواله، أى حينما يكون ضعيفاً عن استقبال الأحداث، يخطر بباله ربنا ؛ لأنه يحب أن يسلم نفسه لمن يعطى له ما يريده، وبعد أن ينال مطلبه ينسى، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَـٰنَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فائدة الضر أنه يجعلنا نلجأ إلى ربنا، ولذلك نجد الإنسان أحسن ما يكون ذكراً لله وتسبيحا لله حينما يكون فى الشدة وفى المرض، ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه فى مرضه وشدته، لا أقول : إنه قد يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة. لا، بل عليه فقط ألا يضجر وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما قال: ﴿ اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربى. إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوٍّ ملّكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ﴾ (١)

والإنسان ساعة يوجد فى المرض عليه أن يعرف النعمة فيه، فهو فى كل حركة من حركاته يذكر الله، وكما تخمد فيه طاقات الاندفاعات الشهوانية، يمتلىء بإيجابيات علوية، ولذلك نجد الحديث القدسى يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال : وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يا رب . كيف أطعمك، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان، فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال: يارب . كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ﴾ (٢)

إذن ماذا عن حال مريض يستشعر أن ربه عنده، ويكون فى المرض مع المنعم، وفى الصحة مع النعمة.

(١) السيرة النبوية لابن هشام.
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى باب فضل عيادة المريض.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومعنى هذا أن ربنا تبارك وتعالى ينزه نفسه عما يقول فيه المبطلون ويشركون معه ما يزعمون من آلهة. ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾

أيشركون في عبادة الله من لا يخلقون شيئاً، وهم أنفسهم مخلوقون لله، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون ﴾

ولذلك فإن هناك آية أخرى تفضح زعمهم يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ونعلم أن البشر في المعامل قد عرفوا العجز عن خلق خلية واحدة وهي التي لا ترى بالعين المجردة، ولذلك أوضح الحق أن المسألة ليست أمر خلق، بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو في خرطومه شيئاً، لن يستطيع أحد أن يسترد المأخوذ منه، فقد ضعف الطالب والمطلوب.

والخلق - كما نعلم - أول مرتبة من مراتب القدرة، فإذا كانت الأصنام التي اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم، فكيف يعبدونها ؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل. بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم. ونلحظ أن الحق جاء هنا بالقول : « أيشركون » بصيغة تعجب، والتعجب ينشأ عن إنكار ما به الاستفهام، أي تعجب منكراً على وفق الطباع العادية، مثلما

يقول لنا :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

أى قولوا لنا ما الطريقة التى بها تكفرون بالله وتسترون وجوده، مع هذه الآيات البينات الواضحات ؟ فكأن ذلك أمْر عجب يدعو أهل الحق للدهشة والاستغراب والإنكار الشديد، وحينما يتكلم الحق بإنكار شىء لأنه أمر عجيب، يوجه الكلام مرة إليهم، ومرة أخرى يوجهه إلى غيرهم، مثل قوله هنا :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

والكلام للمؤمنين لأنه يريد أن يعطى لقطتين فى الآية، اللقطة الأولى : أن ينكر ما فعله هؤلاء، وأن يزيد القوم الذين لم يفعلوا ثقة فى نفوسهم، وفرحة بمواقفهم الإيمانية، حيث لم يكونوا مثل هؤلاء.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

وفى الآية الكريمة وقفة لفظية فى الأسلوب العربى نفسه قد تثير عند البعض إشكالا، فى قوله تعالى : « ما لا يخلق شيئاً ». و« ما » تعنى الذى لم يخلق شيئاً، و« يخلق » هنا للمفرد، وسبحانه وتعالى جعل للمفرد هنا عمل الجمع فقال :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾

وأقول : إن الذى يقف هذه الوقفة، ويلاحظ هذا الملحظ إنسان سطحى الثقافة بالعربية، لأنه لا يعلم أن « ما » و« من » و« الـ » تطلق على المفرد والمفردة، وعلى المثنى والمثناة، وعلى جمع الذكور وجمع الإناث، فتقول : جاءنى من أكرمته، وجاءتنى من أكرمتها، وجاءنى من أكرمتهما، وجاءت من أكرمتهما، وجاء من أكرمتهم وجاء من أكرمتهن.

وكذلك « ما ». إذن فقول الحق : « ما لا يخلق » فى ظاهرها مفرد، ولكن اللفظ

يطلق على المفرد والجماعة؛ لذلك جاء في الأمر الثاني وراعى الجماعة، إذن « يخلق » للمفرد، و« هم يخلقون » للجمع لأن قوله : « ما » صالح للجميع أي للمفرد وللمثنى وللجمع وللمذكر وللمؤنث.

ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وسبحانه قال هنا : « ومنهم من يستمع إليك »، ولم يقل : « حتى إذا خرج من عندك » بل قال : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا » أي أنه جاء بالجماعة، فإذا رأيت ذلك في « ما » و« من » و« الـ » فاعلم أن هذه الألفاظ يستوي فيها المفرد والمفردة والمثنى والمثناة وجمع الذكور وجمع الإناث. ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾.

وهنا في هذه الآية وقفة لغوية أخرى في قوله : «هم» وهي لا تطلق إلا على جماعة العقلاء، فكيف يطلق على الأصنام « هم » وليست من العقلاء ؟ وأقول : إن الحق سبحانه وتعالى لما علم أنهم يعتقدون أنها تضر، وأنها تنفع، فقد تكلم معهم على وفق ما يعتقدون، لكي يرتقي معهم في رد الإنكار لكل ما يستحق الإنكار. فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثاني مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية؛ لأنهم لا يخلقون. وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يُخْلَقون وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثاني فهل هم قادرون على نصر غيرهم ؟ ها هو ذا سبحانه يترقى في الحوار معهم ترقية أخرى فيقول :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾

إذن فلا أحد من الأصنام قادر على أن ينصر نفسه أو يضمن نصر غيره.

وهكذا نجد الترقى فى الحوار على أربع مراحل، أولاً: لا يخلقون، ثانياً: هم يُخلَقون، ثالثاً: لا ينصرونكم، ورابعاً: ولا ينصرون أنفسهم. ثم تأتى المرحلة الخامسة فى قوله الحق :

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

وعلى ذلك فهى خمس مراحل - إذن - ، أكررها لتستقر فى الذهن، أولها أنه من الجائز أنه لا يَخلُق، ومن الجائز أن يكون مخلوقاً، ومن الجائز أنه لا يقدر أن ينتصر لغيره لأنه ضعيف، ولا ينتصر لنفسه لأنه أضعف، ومع ذلك إن أردت أن تهديه إلى شيء من ذلك أو إلى شيء من العلم فلا يقبل منك.

وكانوا فى الجاهلية حين يفزعهم أمر جسيم ينادونهم ويقولون : يا هبل، يا لات، يا عزى. وإن لم يصبهم أمر سكتوا عن نداء الأصنام؛ لذلك يقول لهم الله من خلال الوحى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى إن دعوتكم لهم لا تفيد فى أى أمر تماماً كصمتكم.

ونلحظ أن الأسلوب هنا مختلف « سواء عليكم أدعوتموهم » فلم يقل : « أدعوتموهم أم صَمَتّم »؛ لأن الفعل يقتضى الحدوث، ولنا أن نعرف أنهم كانوا لا يفزعون إلى آلهتهم إلا عند الأحداث الجسام. أما بقية الوقت فقد كانوا لا يكلمونهم أبداً؛ لذلك جاءت « صامتون » لازمة، لأنها اسم، والاسم يقتضى الثبوت والاستمرار، أما الفعل فيقتضى الحدوث والتجدد.

والحق هنا يبلغ المشركين : سواء عليكم أدعوتموهم أم لم تدعوا، فعدم الاستجابة متحقق فيهم وواقع منهم، وعدم النصر لأنفسهم ولغيرهم متحقق منهم.

ثم يتكلم الحق عن قضية أخرى فيقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

و« تدعون » لها معنيان، المعنى الأول يعنى أنكم قد تتخذونهم آلهة وتعبدونهم، والمعنى الثانى هو أن يقال : « تدعونه » أى تطلب منه شيئاً. والمعنيان يجيئان فى هذه الآية :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم ﴾ .

وعندَما يسمع الإنسان كلمة « عباد » يفهم أنها من الجنس المتعقل الحى، فكيف تكون الأصنام عباداً ؟ وأقول : نحن هنا نأخذها على شهرة اللفظ، أما إذا أردنا تحقيق اللفظ وتقعيده، فالبناء مأخوذ من التذلل والخضوع، ألم يقل موسى لفرعون : ؟

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أذللتهم. وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تكون الأصنام عباداً أمثالهم فى أنهم يُذلون؛ لأن السيل إذا نزل أو هبت الريح نجد هذه الأصنام قد وقعت وتكسرت رقابها، فيهرع المشركون ليأتوا بمن يعيد ترميم هذه الآلهة !! إذن فأنتم أيها المشركون؛ لأنكم مخلوقون بالله قد تملكون قدرة، وقوة تستطيعون بها إن جاء لكم ضر أن تدفعوا الضر عنكم، أما الأصنام فليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها، أو يكسرها، أو يقلبها، فهى أضعف منكم. وبذلك تكون كلمة « عباد أمثالكم » لوناً من الترقى.

وعلى فرض أنهم عباد أمثالكم، فالعبد من الأحياء حينما يأتى شيء يستذله، قد يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض الشيء إلا إن كان الشيء قويا فوق طاقته. فالمراد والمقصود أنهم عباد أمثالكم أى مذللون ومسخرون ولا يستطيعون دفع شيء عن أنفسهم. وأنت إذا ما نظرت إلى هذه المسألة وأخذت معنى عباد على معناها الإطلاقى، فأنت تعلم أن العبد هو كل مسخر مذلل من العباد.

لكن هناك مذلل ومسخر فيما لا اختيار له فيه، وآخر مذلل ومسخر فيما له فيه اختيار أيضاً، والفرق بين الاثنين أن الكافر فيما له اختيار؛ إما أن يؤمن وإما أن لا يؤمن ويختار الكفر، بل إن الإنسان المؤمن له الاختيار فى أن يطيع أو يعصى. ولكن هناك أشياء أخرى تجرى على الإنسان لا اختيار له فيها، كأن يمرض ولا يقدر أن يقول: لا لن أمرض، أو قد يأتيه الموت فلا يقدر أن يقول: لن أموت. وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع دفع القدر، وكل هذه أمور قهرية يكون الإنسان فيها مذللاً مسخراً، والكافر والمؤمن فى هذه الأمور سواء.

والمؤمن يتميز بأنه يتبع منهج الله فيما له فيه اختيار، وهذه فائدة الإيمان، وبذلك يخرج المؤمن عن الاختيار المخلوق لله، إلى مراد الله منه فى الحكم، ويستوى بكل شيء مسخر لله، ولذلك نقول للذين يكفرون: كفرتم وتأبيتم بما خلق فيكم من الاختيار عن الإيمان بالله.

وقد جعلها الله لكم بقوله:

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ومادام الواحد منكم أيها الكافرون يتأبى ويستكبر على حكم الله، إذن فللواحد منكم أيها الكافرون رياضة على التمرد، فلماذا لا تقول للمرض لن أستسلم لك. ولن يستطيع أحد الكافرين ذلك، لأنه إنما يكفر بما له حق ممنوح من الله فى منطقة الاختيار، أما فى غير ذلك فالكل عباد مذللون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وقول الحق تبارك وتعالى : « فادعوهم » أى اطلبوا منهم أن يلبوا لكم أى طلب، وهم لن يستجيبوا لكم ؛ لأنهم لا يقدرون أبداً. وفى هذا القول لون من التحدى « فليستجيبوا لكم » لكنهم لن يستجيبوا، فليست لهم قدرة لأن يخرجوا على أمر ربنا ويقولوا سنعطيكم ما تطلبون، لأن طاقتهم وطبيعتهم لا تقدر أن تستجيب.

وبعد أن قال الحق عن الأصنام : إنهم عباد أمثالكم، أراد أن ينزلهم منزلة أدنى من البشر فقال :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (١٩٥)

وينبه الحق تبارك وتعالى كل مشرك، وكأنه يقول له : أنت لك رجل تمشى بها، ولك يد قد تبطش بها، ولك أذن تسمع، ولك عين تبصر، فهل للأصنام حواس مثل هذه ؟. لا، ليست لهم، إذن، فالأصنام أقل منك، فكيف تجعل الأقل إلهاً للأكبر ؟ إن هذا هو جوهر الخيبة.

وقوله : « يمشون بها »، و« يسمعون » و« يبصرون » جاءت لأن المشركين صوروا التمثال وله رجلان وله اذنان وله عينان ويضعون فى مكان كل عين خرزة لتكون مثل حدقة العين، وحين ينظر إنسان منهم إلى التمثال يخيل إليه أن التمثال ينظر إليه. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ١٩٨ سورة الأعراف)

وفى قوله تعالى :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

حين يعرض الحق مثل هذه الأمور بأسلوب الاستفهام. فإنما يريد أن يحقق المسائل عن أقوى طريق، لأن الاستفهام لابد له من إجابة. والكلام من الله عند الكافر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب. وإجابة الكافر ستكون قطعاً بعدم استطاعة الأصنام المشى أو اللمس أو الرؤية أو السماع؛ لذلك أراد الحق ألا يكون الحكم من جهته. بل الحكم من جهة المشركين، وفى هذا إقرار منهم. ولذلك يقول الحق مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾

(سورة الانشراح)

أما كان يستطيع سبحانه وتعالى أن يقول : شرحنا لك صدرك ؟ كان يستطيع ذلك. ولكنه يأتى بالاستفهام الذى يكون جوابه : بلى لقد شرحت لى صدرى. وينبه قوله تعالى :

﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ﴾

إلى مقارنة الأصنام بالبشر. فالبشر لهم أرجل وأيْد وأعين وآذان، وكل من هذه الجوارح لها عمل تؤديه، وهكذا يتأكد للمشركين أنهّم أعلى مرتبة من أصنامهم.

فكيف يجوز فى عرف العقل أن يكون الأعلى مرتبة مربوباً للأدنى مرتبة ؟ إن ذلك لون من الحمق .

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾

ورسول الله جاء بهذا القول ليدحض إيمانهم بهذه الأصنام التى اتخذوها آلهة وليسفه أحلامهم فيها ، وبذلك أعلن العداوة ضدهم - العابدين ، والمعبودين - وصارت خصومة واقعة ، وسألهم أن يدعوا الشركاء ليكيدوا لرسول الله بالأذى أو التعب أو منع النصر الذى جاء للإسلام ، إن كانت عندكم أو عندهم قدرة على ضر أو نفع.

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾

ويتحداهم صلى الله عليه وسلم أن يكيدوا هم وآلهتهم ، والكيد هو التدبير الخفى المحكم. وانظروا ما سوف يحدث ، ولن يصيب رسول الله بإذن ربه أدنى ضر.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى قد أجرى على رسول الله أشياء ، ليثبت بها أشياء ، وقد قالوا : إن واحداً قد سحر النبى ، ولنفرض أن مثل ذلك السحر قد حصل ، فكيف ينسحر النبى ؟ ونقول : ومن الذى قال : إنه سحر ؟. إن ربنا أعلمه بالساحر وبنوع السحر ، وأين وضع الشىء الذى عليه السحر ، ليبين لهم أن كيدهم حتى بواسطة شياطينهم مفضوح عند الله.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

وهم كانوا قد بيتوا المكر لرسول الله وأرادوا أن يضربوه ضربة واحدة ليتفرق دمه فى القبائل ، فأوضح ربنا : أنتم بيتم ، ولكن مكركم يبور أمام أعينكم. وليثبت لهم أنهم بالمواجهة لن يستطيعوا مصادمته فى دعوته. ولا بالتبييت البشرى يستطيعون أن يصدموا دعوته ، ولا بتبييت الجن - و هم أكثر قدرة على التصرف - يستطيعون

مـواجهـة دعوته. ومـاداموا قـد عـرفوا أنهـم لن يظهروا على الرسـول، ولن يفيد مكرهم أو سحرهم أو كيدهم مع شياطينهم، إذن فلابد أن ييأسوا، ولذلك تحداهم وقال :

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

وأنظره يعنى أخره، والقول هنا : لا تؤخروا كيدكم مع شركائكم،

بل نفذوا الكيد بسرعة، وقد أمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما آوى إلى ركن شديد؛ لذلك يقول رسول الله بأمر الحق :

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

ومادام الوليّ هو الله، فالرسول صلى الله عليه وسلم لايبالى بهم، و "الولى" هو الذى يليك، وأنت لا تجعل أحداً يليك إلا أقربهم إلى نفسك، وإلى قلبك، ولا يكون أقربهم إلى نفسك وإلى قلبك، إلا إذا آنست منه نفعاً فوق نفعك، وقوة فوق قوتك، وعلماً فوق علمك، وقول الرسول بأمره سبحانه وتعالى :

﴿ إن وَلِيِّىَ الله ﴾

أى أنه ناصرى على أى كيد يحاول معسكر الشرك أن يصنعه أو يبيته لى. فالله هو ولى الرسول أى ناصره، والقريب منه بصفات الكمال والجلال التى تخصه سبحانه وتعالى، وعندما يكون لمؤمن خصلة ضعف فهو يذهب لمن عنده خصلة قوة، ولذلك قلنا فى قصة موسى عليه السلام حين التفت قومه ووجدوا قوم فرعون فقالوا :

﴿ إنا لمدركون ﴾

أى أن جيش فرعون سيدركهم، لأن البحر أمامهم والعدو وراءهم. وليس أمامهم فسحة أمامية للهرب ولا منفذ لهم إلا أن يصمدوا أمام جيش فرعون وهم بلا قوة، ولم يكذبهم موسى عليه السلام فى قولهم. بل قال لهم يطمئنهم :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهنا خرجت المسألة عن أسباب البشر وانتهت إلى الركن الشديد الذى يأوى إليه الرسل. ولا يقول هذا القول إلا وهو واثق تمام الثقة من نصرة الله، وسبق أن رويت لكم حكاية المرأة الأوربية التى أسلمت لأنها كانت تقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كبطل من أبطال العالم، صنع أكبر انقلاب فى تاريخ البشرية، ولما مرت فى تاريخه صلى الله عليه وسلم، قرأت أن صحابته كانوا يحرسونه من خصومه وأعدائه، إلى أن فوجئوا فى يوم ما بأن قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا عنى . فإن الله أنزل علىّ :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

واستوقفت هذه الواقعة هذه المرأة فقالت : إن هذا الرجل إن أراد أن يكذب على الناس جميعاً ما كذب على نفسه، ولايمكن أن يُسلم نفسه لأعدائه بدون حراسة إلا إذا كان واثقاً من أن الله أنزل عليه هذا، وأنه قادر أن يعصمه، وإلا دخلَ بنفسهِ فى تجربة. والباحثة من هذه الواقعة قد أخذت لفتة العبرة. وفى مثل هذا يقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

وكأنه صلى الله عليه وسلم يستدعيهم إلى التحدى بالمعركة بالمكر والتبييت، وألا يتأخروا عن ذلك وهو واثق من أن الله عز وجل ينصره.

﴿ إِنَّ وَلِيِّـىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله الكتاب المبين ليبلغه للخلق، ولا يمكن أن يسلمه إلى عدو يمنعه من تمام البلاغ عن الله. لقد أنزل الحق الكتاب على رسوله ليبلغه إلى الكافة ولا يمكن أن يتخلى عنه. ﴿ إن وليِّيَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾

وقوله: " وهو يتولى الصالحين " أى أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم، بل يقول لكل واحد من أتباعه: كن صالحاً فى أى وقت، أمام أى عدو، ستجد الله وهو يتولاك بالنصر، وساعة يعمم الله الحكم؛ فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية فى قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم. وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئاً ما سوف يكون له هذا التأييد، وسبحانه الذى جعل رسوله مُبلغاً عنه المنهج، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح فى الكون، وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه، أو أن يزيده صلاحاً إن أمكن.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ ﴾

لأن الذى لا يستطيع نصرك. يجوز أن يكون ضنيناً بنصرتك؛ لأن حبه لك حب رياء، أو لأنه يرغب فى أن يحتفظ بما ينصرك به لنفسه، أما حين يكون غير قادر

على نصرتك ؛ لأنه لا يملك أدوات النصر ، فهذا يبين عجز وقصور من اتخذته وليا ، وهكذا كان حال المشركين. وفي يوم الفتح جاء المسلمون بالمعاول وكُسرت الأصنام ، ولم يقاوم صنم واحد . بل تكسرت كلها جميعا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

وبطبيعة الحال لو أن أحدا دعا هذه الأصنام إلى الهداية فلن تهتدى الأصنام لأنها من الجماد الذى لا تصلح معه دعوة أو فهم. رغم أن الصنم منها له عيون كالتى تراها حاليا فى معابد الهندوس أو البوذيين ، حين يضعون للتماثيل فى مكان حدقة العين خرزاً ملوناً يشبه العين ، وتوجه الحدقة بميلها وكأنه ينظر إليك وهو لا يرى شيئاً.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :



وهذه آية جمع فيها المولى سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق .

وبعد أن أبلغ الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدعو المشركين لأن يكيدوا له مع شياطينهم وأصنامهم ولن يستطيعوا . بعد ذلك يوضح له : أنا أحب أن تأخذ بالعفو ، وفى هذا تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن يتبعه ، وكلمة " العفو " ترد على ألسنتنا ، ونحن لا ندرى أن لها معنى أصيلاً فى اللغة . وقد يسألك سائل : من أين أتيت بهذا الشىء ؟ فتقول له : جاءنى عفواً ، أى بدون جهد ، وبدون مشقة ، وبدون سعى إليه ولا احتيال لاقتنائه .

ويقال أيضاً : إن هذا الشيء جاء لفلان عفو الخاطر ، أى لم يفكر فيه ، بل جاء ميسراً. هذا هو معنى العفو. والحق هنا يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو ، أى أن يأخذ الأمر الميسر السهل ، الذى لا تكلف فيه ولا اجتهاد؛ لأنك بذلك تُسهل على الناس أمورهم ولا تعقدها ، أما حين تتكلف الأشياء ، فذلك يرهق الناس ، ولذلك يأمر الحق رسوله أن يقول :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (سورة ص)

وقوله : " وما أنا من المتكلفين " أى أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف الأمور حتى تصير الحياة سهلة ولا يوجد لدد بين الناس؛ لأن الذى يوجد اللدد هو التكلف وقهر الناس ، ويجب أن تقوم المعاملة فيما بينهم بدون لدد أو تكلف . ولذلك يقال : إن المؤمن هو السمح إذا باع ، والسمح إذا اشترى ، والسمح إذا اقتضى ، والسمح إذا أقتُضِى منه : أى أنه فى كل أموره سمح.

وللأمر بأخذ "العفو" معنى آخر وهو أن تعفو عمن ظلمك؛ لأن ذلك ييسر الأمور.

والعفو أيضاً له معنى ثالث ، هو الأمر الزائد ، مثل قوله الحق تبارك وتعالى من قبل أن تفرض الزكاة :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ثم حدد الحق بعد ذلك الزكاة وأوجه إنفاقها ، ونلحظ أن الأمر بالإنفاق من قبل أن تفرض الزكاة ، والإنفاق بعد أن نزل الأمر بالزكاة يلتقيان فى السهولة؛ لأن المؤمن لا ينفق مما يحتاجه . بل من الزائد عن حاجته .

وقول الله سبحانه وتعالى فى الآية « خذ العفو » فيه أمر « خذ » ومقابله «أعْط» وقد تعطى إنساناً فلا يأخذ منك إن رأى أن ما تعطيه له ليس فى مصلحته ، لكن إذَا قال الحق تبارك وتعالى : « خذ » ، فهذا أمر يعود نفعه عليك ، فإن كان العفو عمن ظلمك فى ظاهر الأمر ينقصك شيئاً ، فاعلم أنك أخذت العفو لنفسك .

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هينا ليناً مع إخوانه من المؤمنين. فإن عز عليه أخوه المؤمن فَلْيَهنْ له، فإن تعالى أو تعالم أخ مسلم عليك، فلا تتعال عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركة بينكما، بل تواضع أنت، ليزيدك الله رفعة وعزة.

وكأن الله سبحانه وتعالى يؤكد لك: أنك حين تعطى العفو تأخذ الخير من خلاله. ودائماً أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت حين تدخل إلى منزلك وتجد ابناً لك قد أساء إلى أخيه فيتجه قلبك وحنانك إلى المظلوم. ونحن عيال ربنا، فإن ظلم واحدٌ آخرَ، فالظالم بظلمه يجعل الله فى جانب المظلوم، ولذلك يحتاج الظالم إلى أن نحسن إليه حيث كان سببا فى رعاية الله لنا فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصرى عندما قيل له: إن فلاناً اغتابك بالأمس. ونادى سيدنا حسن البصرى الخادم وقال له: جاءنا طبق من باكورة الرطب. اذهب به إلى فلان - وحدد للخادم اسم من اغتابه - وتعجب الخادم: كيف تبعث بالرطب إليه وهو قد اغتابك؟ فقال: أفلا أحسن إلى من جعل الله بجانبى، قل له: «يقول لك سيدى بلغه أنك قد اغتبته فأهديت إليه حسناتك، وهو أهداك رطبه».

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾

وتتناول الآية الكريمة الأمر بالعرف:

والعرف هو السلوك الذى تعرف العقول صوابه، وتطمئن إليه النفوس، ويوافق شرع الله، ونسميه العرف؛ لأن الكل يتعارف عليه، ولا أحد يستحيى منه، لذلك نسمع فى شتى المجتمعات عن بعض ألوان السلوك: هذا ما جرى به العرف. وما يجرى به العرف عند المجتمعات المؤمنة يعتبر مصدراً من مصادر الأحكام الشرعية.

وخير مثال على ذلك: أننا نجد الشاب لا يخجل من أن يطرق باب أسرة ليطلب يد ابنتها، لأن هذا أمر متعارف عليه ولا حياء منه، بينما نجد المجتمع المسلم يستحيى

أن يوجد بين أفراده إنسان يزنى، والغاية من الزنا الاستمتاع، والغاية من طلب يد الفتاة هو الاستمتاع، لكن هناك فارق كبير بين متعة يحرمها الله عز وجل، ومتعة يُحلّها الله تعالى.

وفى نهاية الآية يقول الله تعالى:

﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾

وكيف يكون الإعراض عن الجاهلين؟. يخطىء من يظن أن الجاهل هو الذى لا يعلم، لأن من لا يعلم هو الأمى، أما الجاهل فهو من يعلم قضية تخالف الواقع. ونلحظ أن المشكلات لا تأتى من الأميين الذين لا يعلمون، فالأمى من هؤلاء يصدق أى قضية تحدثه عنها وتكون مقبولة بالفطرة؛ لأنه لا يملك بديلاً لها، أما الجاهل فهو من يعلم قضية مخالفة للواقع ويحتاج إلى تغيير علمه بتلك القضية، والخطوة الثانية أن تقنعه بالقضية الصحيحة.

والحق هنا يوضح: أعرضْ عن الجاهل الذى يعتقد قضية مخالفة للواقع ويتعصب لها، وأنت حين تعرض عن الجاهل، يجب ألا تماريه، أى لا تجادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدى إلى نتيجة مفيدة؛ لذلك أقول لكل من يواجه قضية التدين ولم يقرأ عن الدين كتاباً واحداً، وقرأ فى كتب الانحراف عن الدين المئات، أقول له: كما قرأت فيما يناهض الدين مئات الكتب فمن الحكمة يجب عليك أن تكون عادلاً ومنصفاً فتقرأ فى مجال التدين بعض الكتب الخاصة به مثلما قرأت فى غيرها. وإن أردت أن تبحث قضية الدين بحثاً منطقياً يصحح لك عقيدتك، فعليك أن تخْرج كل الاقتناعات المسبقة من قلبك ووجدانك. وتدرس الأمرين بعيداً عن قلبك، ثم أَدخل إلى قلبك الأمر الذى ترتاح إليه، لكن لا تحتفظ فى قلبك بقضية وتناهض منطوقها بظاهر لسانك. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

فأنت لك قلب واحد، إما أن يمتلىء بالإيمان واليقين وإما بغير ذلك . والقلب حيز واحد فلا تشغله أنت بباطل، حين تبحث قضية الحق، بل أخرج الباطل من قلبك أولاً، واجعل الباطل والحق خارجه، وابحث بعقلك، والذى ييسرُ إليك أن تدخله إلى قلبك فأدخله .

وفى بيان معنى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها روى لنا أبىّ قال : لما أنزل الله عز وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك » .(١)

وسبحانه - إذن - يريد أن يعلمنا قضية إيمانية إنسانية؛ لأنك كمسلم تساعد المصاب فى بدنه، فما بالك بالمصاب فى قيمه، ألا يحتاج إلى معونتك ؟ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

و « نزغ » تساوى كلمة « نخس » أى أمسك بشىء ووضع طرَفَه فى جسد من بجانبه أو من أمامَه. ويتضح من معنى « نخس » أن هناك مسافة بين الناخس والمنخوس ووسيلة أو أداة للنخس .

وعملية النخس لا يدرك بها الناخس أو المنخوس حرارة بعضهما البعض، أما كلمة « مس » فقد يشعر الماس والممسوس كل واحد بحرارة الآخر منهما بسرعة، لكن أحدهما لا يدرك نعومة الآخر، أما اللمس ففيه إدراك لنعومة وحرارة اللامس والملموس. ومعارك الحرب كلها تدور فى هذا النطاق، فحين يكون العدو بعيداً يحتاج خصمه إلى أن يبتعد عنه كيلا يصيبه بالنبال أو السهام، ويحاول هو أن يصيب

---
(١) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

خصمه بالنبال أو السهام. وكما تفعل الجيوش الحديثة حين ترسل طائراتها لترمى القنابل على قوات الخصم. وتقاس قوة الدول بقدرتها على ضرب القوات المعادية دون قدرة تلك القوات على الرد، لأنها تصيبه من بعد فى عصر الصواريخ بعيدة المدى. ونجد الإشارة فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وأوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى القوة فيما رواهُ عنه عقبة ابن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوه الرمى.(١)

لأن الرمى يُمكّن قذيفتك من عدوك، وأنت بعيد عنه فلا يقدر أن يصيبك بما يرميه.

وقديماً كانت الجيوش تزحف، فيُلقى الخصوم عليها النبال والسهام، وإذا ما اقتربت الجيوش أكثر من خصومها فكل فريق يوجه الرماح إلى ما يقرب من أجساد الفريق الآخر. وإذا حمى وطيس المعركة تتلاقى السيوف. إذن كلها من النخس، والمس، واللمس.

وحينما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه قائلاً : يارب كيف بالغضب ؟ أى كيف يكون علاج الغضب ؟ نزل قول الحق :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يستفهم قائل فيقول : أينزغ الشيطان الرسول ؟. وأقول : إنّ الحق تبارك وتعالى لم يقل : « إذا نزغك الشيطان »، ولكنه قال : « وإما ينزغنك » أى إن حدث

(١) أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد وابن ماجه وأبو داود.

ذلك، وهو قول يفيد الشك - ثم لماذا يحرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من لذة مجابهة الشيطان ؟ . ونعلم عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك ؟ قال : وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير) . [١]

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشّيطانِ نزغ فاستعذْ بالله ﴾ .

والاستعاذة تعنى طلب العون والملجأ والحفظ وأنت لا تطلب العون ولا تلجأ ولا تستجير إلا بمن هو أقوى ممن يريد أن ينالك بشر . ومعلوم أن الشيطان له من خفة الحركة، وقدرة التغلغل، ووسائل التسلل الكثير ؛ لذلك فينبغى ألا تستعيذ بمثله أو بمن هو دونه، ولكنك تستعيذ بخالق الإنس والجن وجميع المخلوقات، وهو القادر على أن يعطل فاعلية الشيطان . وسبحانه سميع عليم، والسمع له متعلق، والعلم له متعلق، فحين تستحضر معنى الاستعاذة وأنت مشحون بالإيمان وتلجأ إلى من خلقك . وخلق ذلك الشيطان ؛ عندئذ لابد أن يهرب الشيطان من طريقك لأنه يعلم أنك تلجأ إلى الخالق القوى القادر وهو ليست له قوة على خالقه، وسبحانه سميع لقولك : « أعوذ بالله »، عليم بما فى نفسك من معنى هذه الكلمة .

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هنا قد تكلم عن حضرة النبى عليه الصلاة والسلام، وقال : ﴿ وإمّا ينزغنك ﴾

أى أن الشيطان بعيد، وهو يحاول مجرد النزغ، فماذا عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء هذا ؟ . هنا يقول الحق تبارك وتعالى :-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الجزء الأول، وجامع الأحاديث للسيوطى جـ ٥ صـ ٦٠٨

ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مسّهم » ولم يقل : « لمسَهم ». لأنهم من الذين اتقوا، أي وضعوا بينهم وبين صفات جلال الله وقاية تجعلهم يقفون عند حدوده ولذلك يقول : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾.

والطائف هو الخيال الذى يطوف بالإنسان ليلاً، وبما أن الشيطان لا يرى، لذلك نصوره على أنه خيال، فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا وتذكروا خالق الشيطان وخالقهم، وتذكروا منهج الله الذى يصادم شهواتهم، وتذكروا أن عين الله تراهم ولا تغفل عنهم، وأن محارم الله واضحة وبينة، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: في الحديث الذى يرويه عنه النعمان بن بشير : (الحلال بيّن والحرامُ بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من النّاس، فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب).(١)

وإذا ما تذكر المؤمنون العقوبة المترتبة على أى فعل شائن يزينه الشيطان لهم، هنا تزول عنهم أى غشاوة ويبصرون الطريق القويم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :



ونحن حين نتتبّع كلمة « يمدونهم » فى القرآن، نجدها مرة « يمدونهم »، ومرة يمددكم كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة نوح)

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان جـ ١ صـ ١٨٥

ونعلم أن الشياطين لن تترك المؤمنين فى حالهم ، بل تظل فى محاولة الغواية ، وتحاول الشياطين غواية المؤمنين الطائعين أكثر من محاولتهم غواية العاصين ؛ لأن العاصى إنما يعاون الشيطان باتباعه شهوات نفسه، ولا يقصر العاصى أو الشيطان فى ذلك، بل يحاول العاصى أو الشيطان غواية المؤمنين و«أقصر» من مادة «قصر»، أى أنه قادر أن يطول المسافة لكنه يقصرها . وهكذا إلحاح الشياطين لغواية المؤمنين .

فالشيطان - كما جاء فى القرآن - يعترف بموقفه من ملاحقة المؤمنين بالوسوسة وتزيين المعاصى .

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

والشيطان يعلم أن من لا يتقى الله لا يحتاج إلى تزيين أو غواية ؛ لأنه يرغب ويميل للمعاصى والعياذ بالله؛ لذلك لا يبذل الشيطان لغوايته جهدا كبيرا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

وقد جاء الحق تبارك وتعالى من قبل بكلمة « آيات »، والآيات - كما أوضحنا- إما آيات كونية وإما آيات المعجزات الدالة على صدق الرسل ، وإما آيات الأحكام .

والله سبحانه وتعالى جاء هنا بكلمة : « آية » لا « آيات » ، والكون أمامهم ملىء بآياته ، والمنهج المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام واضح ، ولا ينقص إلا أن

تأتى الآية المعجزة - من وجهة نظرهم - وينبه الحق هؤلاء بقوله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالآياتُ المعجزاتُ التى طلبوها ، لا يأتى بها الرسول من عنده ، والآيات التى ينزل بها المنهج أيضاً ليست من عنده ، بل هى تنزيل من لدن عزيز حكيم . وكانوا يتهمونه صلى الله عليه وسلم أنه يفترى القرآن . لذلك طلبوا منه صلى الله عليه وسلم المعجزة الحسية متناسين ما جاءت به آيات القرآن الكريم من معجزة لم يستطيعوا هم أن يأتوا بآية واحدة من مثل آياتها ؛ وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ﴾

يأمره هنا ربه أن يقول : ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلىَّ من ربى ﴾

أى أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مكلف بأن يبلغهم بما يأتى به الوحى يحمله الروح الأمين جبريل عليه السلام من آيات القرآن الحاملة للمنهج الإلهى ، وهذا المنهج فى حد ذاته معجزة متجددة العطاء ، لذلك يضيف :

﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ففى القرآن الكريم بصائرُ وهدىً ورحمةٌ ، والبصائر جمع بصيرة ، من الإبصار ، إذا امتلأ القلب بنور اليقين الإيمانى فإن صاحبه يعيش فى شفافية وإشراق ، ويسمى صاحب هذه الرؤية المعنوية صاحب بصيرة ، أما البصر فهو مهمة العين فى الأمور الحسية ، لكنْ هناك أمور معنوية لا تكتشفها إلا البصيرة ، والبصيرة تضئ القلب بالنور حتى يستكشف تلك الأمور المعنوية ، ولا يمتلك القلب البصيرة إلا حين يكونُ مشحوناً باليقين الإيمانى .

والقرآن الكريم بصائر ؛ لأنه يعطى ويمنح من يؤمن به ويتأمله بصائر ليجدد الأمور المعنوية وقد صارت مُبْصَرَةً ، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عينُ اليقين .

وهذا القرآن المجيد بصائرُ وهدى ، أى يدل الإنسان ويهديه إلى المنهج الحق وإلى طريق الله المستقيم ، وهو رحمةٌ أيضاً لمن لا يملك إشراقات القلب التى تهدى للإيمان ولا يملك قوة أخذ الدليل الذى يوصله إلى الهداية ، إذن فهو رحمة لكل الناس ، وهدى لمن يسأل عن الدليل ، وبصائر لمن تيقن أصول الإيمان مشهدياً ،

وكما قلنا من قبل : إنَّ الله قد أخبر المؤمنين بأمور غيبية ، ومن هذه الأمور الغيبية أن له جنةً وأن له ناراً ، وصدق المؤمنون بكل ما جاءهم من البلاغ عن ربهم ، وعلموا أن ذلك من الله ، وصار هذا العلم علم يقين كقدر مشترك فيما بينهم ، فإذا جاءَ يوم القيامة ورأوا الصراط مضروباً على متن جهنم مطابقاً لما صدقوه وصار عين يقين ، وإذا ما دخل بعضهم النار - والعياذ بالله - تكفيراً لذنوب ارتكبوها ، فهذا حق يقين . وضربت المثل من قبل - ولله المثل الأعلى - كان الجغرافيون يحدثوننا ونحن طلاب عن خريطة الولايات المتحدة ، ويقولون : إن عاصمتها « واشنطن » ، والميناء الكبير فيها اسمه « نيويورك » ، وفى « نيويورك » توجد ناطحات السحاب وهى مبان

ضخمة يزيد ارتفاع المبنى الواحد من هذه المبانى على مائة طابق أى أكثر من مائتى متر ، وصدقنا نحن أستاذ الجغرافيا ، وعندما أتيحت للبعض منا فرصة السفر ورأوا واشنطن ونيويورك من الطائرة ، صارت الرؤية عين يقين بعد أن كانت علم يقين . وعند هبوط الطائرة فى مطار واشنطن صارت الرؤية حق يقين .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى لنا الإيمان ببعض من الغيب فى قوله تعالى :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾

(سورة التكاثر)

أورد سبحانه هنا « علم اليقين » « وعين اليقين » ، وأما « حق اليقين » فقد جاء فى قوله :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمنون المصدقون بأخبار الغيب على درجات مختلفة . . فهناك من صدق الله فى الخبر عن الغيب كعين يقين ، وهناك من صدق قول الله حق اليقين ، ولذلك فإننا نجد الإمام عليا - كرم الله وجهه - يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا »

وفى الحوار الآتى الذى دار بين حضرة النبى صلى الله عليه وسلم، والصحابى الجليل الحارث بن مالك ما يكشف لنا جوهر هذا اللون من الإيمان :

« فقد روى الحارث بن مالك الأنصارى : أنه مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقّاً ، قال : «انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون[1] فيها . فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً »[2]

هذا الصحابى الجليل وصل إلى أن كل ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم قد صار حق يقين ، وامتلك البصيرة التى رأى بها كلَّ ذلك .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نجد القرآن الكريم بصائر لأصحاب المنزلة والدرجات العالية ، وهدى لأصحاب الاستدلال ورحمةً للجميع .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾

ومادام قد أوضح لك المولى سبحانه وتعالى من قبل أن هذا القرآن بصائر من ربنا

(١) يتضاغون : أي يرفعون أصواتهم بالصراخ والعويل .
(٢) أخرجه الحافظ الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى .

وهدى ورحمة ، ألا يستحق أن تحتفي به أيها المؤمن ؟ . ألا تجذبك هذه الحيثيات الثلاث لأن تعطي له أذنك وألا تنصرف عنه ؟ .

إذن لابد أن تنصت للقرآن الكريم لتتلقى الفوائد الثلاث ؛ البصائر ، والهدى ، والرحمة ، وهو حقيق وجدير أن يُحْرَص على سماعه إن قُرِئ .

ولنلحظ أن الله تعالى قال : ﴿ فاستمعوا له ﴾ ولم يقل « اسمعوا » ، لأن الاستماع فيه تعمد أن تسمع ، أما السمع فأنت تسمع كل ما يقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، ومن الرحمة المحمدية يقول حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ناهياً عن التسمع لأسرار الغير تجسساً عليهم بالبحث عن عوراتهم فيما يرويه عنه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسَّسُوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا »(١)

وفي هذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التي منها التلصص والتصنت إلى أسرار الناس .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والإنسان قد يصمت ويستمع ولكن بغير نيه التعبد فيحرم من ثواب الاستماع ، فاستمع وأنصت بنية العبادة ، لأن الله هو الذي يتكلم ، وليس من المعقول والتأدب مع الله أن يتكلم ربك ثم تنصرف أنت عن كلامه ، وقد لفت أنظارنا سيدنا جعفر الصادق (٢) : ونبهنا إلى ما فيه الخير حيث يقول :

« عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تبارك و تعالى : « حسبنا الله ونعم

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) جـ١٦ صـ١١٩ .
(٢) الإمام جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر ، بن سيدى على زين العابدين ابن سيدنا الحسين .

الوكيل»، فإنى سمعت الله عقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ».

وعجبت لمن اغتم ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فإنى سمعت الله عقبها يقول :

« فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين » .

وعجبت لمن مُكر به ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » . فإنى سمعت الله عقبها يقول :- « فوقاه الله سيئات ما مكروا» .

وعجبت لمن طلب الدنيا ولم يَفْزَع إلى قوله تبارك وتعالى : « ما شاء اللهُ لا قوة إلا بالله » . فإنى سمعت الله عقبها يقول : « فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك » .

ونحن حين نستمع لقراءة القرآن الكريم بنية التعبد فذلك هو حُسْن الأدب الذى يجب أن نستقبل به العبر التى تعود بالفائدة علينا .

ووقف العلماء حول الإنصات سماعاً للقرآن ؛ أيكون الإنصات إذا قرئ القرآن مطلقاً فى أى حال من الأحوال ، أو حين يُقرأ فى الصلاة ، أو حين يُقرأ فى خطبة الجمعة ؟

وقد اختلفوا فى ذلك ، فبعضهم قال : إن المقصود هو الإنصات للقرآن حين يُقرأ فى الصلاة ، والسبب فى ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، يعيدون بعده كل جملة قرأها فإذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ قالوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » ، قالوا : « الحمد لله رب العالمين » فينبههم الله عز وجل إلى أن يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهم يستمعون إليه دون ترديد للقراءة .

وقال آخرون من العلماء : الإنصات للقرآن الكريم يكون في الصلاة ، وفي خطبة الجمعة أو العيدين ، لأنها تشتمل على آيات من القرآن ، ولكن اشتمالها على الآيات أقل مما يقوله الخطيب ، ونبه البعض إلى أن الإنصات للخطبة ثبت بدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام :

(إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت)(١)

إذن الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة .

وهناك قول بأن الاستماع مطلوب للقرآن في أي وضع من الأوضاع حين يُقرأ ؛ ففي هذا احترامٌ ومهابةٌ لكلام الله عز وجل ، وينسب هذا القول إلى إمامنا وسيدنا ومولانا سيدي « أبي عبد الله الحسين » ، فيقول :

إذا قُرئ القرآن سواءٌ إن كنت في صلاة أو كنت في خطبة ، أو كنت حراً فأنصت ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يميز القرآن على مطلق الكلام ، فميزه بأشياءَ ، إذا قُرئ ننصت له ، وإذا مسّ المصحف لابد أن يكون على « وضوء » حتى لا يجترئ الناس ويمسّوا المصحف كأي كتاب من الكتب ، وهذا يربي المهابة فلا تمسك المصحف إلا وأنت متوضئ ، فإذا علمنا أولادنا ، نقول للواحد منهم : لا تقرب المصحف إلا وأنت متوضئ ؛ فتنشأ المهابة في نفس الولد .

وأيضاً في « الكتابة » شاء الحق تبارك وتعالى لبعض ألفاظه كتابة خاصة غير كتابة التقعيد الإملائي ؛ حتى يكون للقرآن قداسة خاصة ، فهو كتاب فريد وليس ككل كتاب وكلامه ليس ككل كلام .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وبعض العلماء قال : ليس المطلوب مجرد الاستماع بالآذان ، بل المقصود

(١) رواه الإمام مالك في مسنده، ورواه الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي، وأبو داود والنسائي - عن أبي هريرة.

بالاستماع هنا هو أن نستجيب لمطالبه ، ألا تقولون لبعضكم حين يدعو بعضكم لبعض : « الله يسمع دعاك » ؟ إنك تقولها وأنت تعلم أن الله سامعك ، ولكنك تقصد بها أن يستجيب سبحانه وتعالى لهذا الدعاء ، إذن فالاستماع للقرآن يقتضى الاستجابة لمطلوبات القرآن . لماذا ؟ لننال الرحمة من الحق فهو الرحمن الرحيم . ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ .

ونعلم أن « لعل » « وعسى » حين تقال يقصد بها الرجاء ، و « ليت » تعنى التمنى وهو مستحيل ولا يُتَوَقَّع ، ونحن نتمنى لنظهر أن هذا أمر محبوب لنا ، لكننا نعلم أنه مستحيل ، مثلما قال الشاعر العجوز :

ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

إنه يعلم يقيناً أن الشباب لن يعود ولكن قوله يدل على أن الشباب فترة محبوبة . ومثل قول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ... عقود مدح فما أرضى لكم كَلِم

ولن تدنو الكواكب .

إذن ساعة تسمع « عسى » أو « لعل » يتبادر إلى ذهنك أن هذا رجاء لأن يحدث ، وإذا كان رجاء من الله ، فهو رجاء من كريم لابد له من واقع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

والذكر مرور الشئ ، إن كان بالبال ، فهو ذكر فى النفس ، وإن كان باللسان ولا يُسْمِع الغير ويُسْمِعك أنت فهذا ذكر السر ، وإن كان جهرا فهو قسمان ؛ جهر

مقبول، وجهر غير مقبول، والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذكر إلى إزعاج والعياذ بالله، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الإسراء)

ولعل إخواننا القراء يتنبهون إلى هذه الآية ؛ تنبهاً يجعلهم يلتفتون إلى أداء أمر الله في هذا المجال فلا يجهرون ولا يرفعون أصواتهم به لدرجة الإزعاج ، لأني أقول لكل واحد منهم : إن ربك لم يطلب منك حتى الجهر، إنما طلب دون الجهر، وأقول ذلك خاصة لهؤلاء الذين يفسدون نعمة الله على خلقه؛ فيصيحون ليلا ويمنعونهم من رحمة الله ليلا التي قال عنها :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

فلا تفسدوا على الناس رحمة ربنا؛ لأن الدعوة إلى الله ليست صياحاً على المنابر، اللهم إلا إذا كنتم تصنعون لأنفسكم دعاية إعلامية على مساجد الله وعلى منابر الله . وهذا أمر مرفوض وغير مقبول شرعاً.

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ﴾ والحق تبارك وتعالى يقول مرة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ومرة يقول: ﴿ واذكر ربك ﴾

وقوله : « اذكر الله » يستشعر سماعها التكاليف؛ لأن الله هو المعبود ، والمعبود

هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله : « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال ؛ خلقك ورباك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يعد ولا يحصى . فاذكر ربك ؛ لأنك إن لم تعشقه تكليفاً ، فأنت قد عشقته لأنه يمدك بالنعم ، وسبحانه يتفضل علينا ويوالينا جميعاً بالنعم .

وأضرب لك هذا المثل - ولله المثل الأعلى وهو منزه عن التشبيه - وأنت لك أولاد ، وتعطى لهم مصروفاً ، وحين تعطى لهم المصروف كل شهر ، تجدهم لا يحرصون على أن يروك إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطى لهم مصروفهم يوميا فأنت تلتفت لتجدهم حولك ، فإن كنت نائماً يدخل ابنك لغرفة نومك يسير بجانبك ويتنحنح ليقول إنه يحتاج لشئ موجود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عبد لإحسان ربك ؟ وما دمت عبد الإحسان فاذكر من يحسن إليك ، اذكر ربك دائماً .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً . أى بذلة ، لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلة عبودية لمقام الربوبية ، واذكر ربك « خيفة » أى خائفاً متضرعاً ؛ لأنك كلما ذللت له يعزك ، ولذلك نجد العبودية مكروهة فى البشر وهى استعباد ، والناس ينفرون ممن يستعبدهم ؛ لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيان كبير وظلم عظيم فهى تعطى خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطى خير الله لك . ولذلك نجد الحق يمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كبرى بحادث الإسراء ، وكان الحديث عنها بامتنان من الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

والشاعر المؤمن يقول :

حسب نفسى عزاً بأنى عبد　　　يحتفى بى بلا مــواعيد رب

هـــو فى قدسه الأعز ولكن　　　أنـــا ألقى متى وأين أحب

وأنت أيها العبد المؤمن تلقى الله متى أردت، وإذا أسلمت زمامك للإيمان ؛ فالزمام فى يدك. يكفى أن تنوى الصلاة وتقول : الله أكبر فتكون فى حضرته سبحانه سواء كنت فى البيت أو فى الشارع أو فى أى مكان . وفى هذا منتهى العزة لك.

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف)

ولم يقل هنا رب العالمين : بل ربك أنت يا محمد، وهذه قمة العطاءات التى جاءت للناس، فهذا العطاء الذى جاء بمحمد رسولاً، نعمةٌ ومنةٌ من الله على المؤمنين برسالته، وبعد ذلك ينسب لكل مسلم العطاء الذى جاء لمحمد . وقوله تعالى لرسوله : «واذكر ربك فى نفسك » أى أنه سبحانه لم يجعل دليل عنايته بك مقصوراً على مايشاهد فى الخارج والبعيد عنك فقط ؛ لأنك قد لا ترى شيئاً فى الكون أو لا تسمع شيئاً فى الكون؛ لأن الكون منفصل عنك، إنما انظر إلى نفسك أنت وستجد الآيات كلها تذكرك بخالقك،

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

فقبل أن يجعل ربنا الدليل فى الكون الذى حولك، جعل لك الدليل أيضا فى نفسك؛ لأن نفسك لا تفارقك وأنت أعلم بملكاتها وبجوارحها، وبنوازعها، ولهذا كان التضرع إلى الله والخيفة منه لهما مجال هنا؛ لأنك تستطيع أن ترى سر صنعته فيك، وستجد الكثير من الآيات، وهى آيات أكبر منك، لذلك أنت تتضاءل أمام من وهب لك كل هذا، وتخاف ألا تؤدى حقه لديك.

ونعود إلى قول الله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ﴾ والذكر حَدَثٌ، والحدَثُ يحتاج إلى زمان وإلى مكان. والغدو والآصال زمنان يستوعبان النهار ؛ فالغدو هو أول النهار، والآصال هو من العصر للمغرب، مثلما نقول " شمس الأصيل " . وهذه الآية الكونية تتكرر في القرآن الكريم كثيرا، فالحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكما يقول عز وجل :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفتح)

و " الأصيل " هنا مشترك، ومقابل الأصيل يطلق الحق عليه مرة بكرة، وأخرى يطلق عليه : الغدو، وسبحانه القائل :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة النور)

إنك ساعة أن تقرأ " في بيوت " تعرف أن هنا حدثاً؛ لأن قوله : " في بيوت "

شبه جمله " في معنى الظرف، وإذا استقرأت ما قبلها ، لم تجد لها مُتَعلَّقاً . والحظ إذن أن ما قبلها هو ﴿ نور على نور ﴾ ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ فأنت حين تذهب إلى المسجد لتلقى الله، فذلك نور، وتصلي له فذلك نور، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك في بيته، وكل هذا نور على نور، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل؛ فليكثر من الذهاب إلى بيوت الله، وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة، ونعلم أن الصلاة هي الخلوة التي بين العبد وربه، وكان رسول الله إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . وأنت إذا ما اتبعت حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وتصلي ركعتين لله إن حزبك أمر وعزت عليك مسألة وكانت فوق أسبابك ثم ذهبت بها إلى الله فلن يخرجك الله إلا راضياً. ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ .

والغدو والآصال أو البكرة والأصيل كما عرفنا هي أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل.

ولماذا أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل ؟

لأن هذه الأزمنة هي التي يطلب فيها الذكر . فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم، لذلك إياك أن تشغلك الحياة عن واهب الحياة، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تؤديه وتقوم به وأن تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة : (الحمد لله) وعندما ترى أي جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أن تقول: « ما شاء الله » وعندما ترى أي شيء يعجبك تقول: (سبحان الله).

ولذلك حينما دعا الله خلقه المؤمنين به إلى الصلاة قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الجمعة)

وهذا التكليف فى صلاة الجمعة المفروضة كصلاة للجماعة، والجماعة مطلوبة فيها، ومن الضرورى أن نتواجد فيها كجمع؛ لأن الجماعة مشروطة فيها فلا تصح بدون الجماعة.

ونعرف أن الصلاة إنما هى ذكر لربنا، فماذا بعدها ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

أى إياك أن يشغلك انتشارك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله، والأخذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله، بل عليك أن تذكره سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى لا تكن من الغافلين عن مطلوبات الله بالحدود التى بينها الله عز وجل؛ لأن الغفلة معناها انشغال البال بغير خالقك، وأنت إن جعلت خالقك فى بالك دائما فإنك لاتغفل عن مطلوباته فى الغدو والآصال وفى كل وقت، سواء كنت فى الصلوات الخمس، أو كنت تضرب الأرض فى أى معنى من المعانى، وتأس أيها المؤمن بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان الملائكة والذين لم يرتكبوا أية معصية وليس لهم موجبات المعصية، ولا يأكلون ولا يتناسلون، وليس لهم شهوة بطن ولا شهوة فرج، وكل المعاصى جميعها تأتى من هذه الناحية، مع ذلك يجب عليك أن تتأسى بهم؛ لأنهم هم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لايستكبرون عن عبادته، ويسبحونه؛ وله يسجدون، لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

وإذا كنا كلنا عند ربنا وفى حضرة ما منحه لنا من خَلْق وما أمدنا به من إيجاد من عُدم سواء، فلماذا خص هؤلاء بالعندية ؟.

إياك أن تفهم من العندية أنها عندية المكان؛ لأن المكان مُحَيِّز، وربنا عز وجل لا يتحيز فى مكان، والعندية هنا عندية الفضل، وعندية الرحمة، وعندية الملك، وعندية العناية. أو إن كل خلق لله جعل لهم أسباباً ومسبَّبات، ولكن خلقاً من خلقه يسبحونه بذاته، وليس لهم عمل آخر، ويعرفون بالملائكة العالين، لا الملائكة المدبرات أمراً أو الحفظة. ولذلك قلنا سابقاً: إن الحق سبحانه وتعالى حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتنع إبليس، قال له:

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

و "العالين" هم الذين لم يشملهم أمر السجود، فهم ملائكة موجودون ولا عمل لهم إلا تسبيح الذات العلية ولا يدرون عن الخلق أو الدنيا شيئاً. وهم غير الملائكة المسخرين لخدمتنا؛ فالذين عند ربنا هم الملائكة المُهيَّمون الذين لا يعرفون شيئاً إلا الذات الإلهية وتسبيح الذات وعملهم يحدده الله هنا: ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾

واختلف العلماء فى كيفية سجود الملائكة، أهو الخضوع؟ أهو الصلاة ؟ أهو السجود الذى نعرفه نحن ؟ والسجود عندنا هو منتهى ما يمكن من الخضوع لله عز وجل وقت الصلاة. لأنه نزول بأشرف شئ فى الإنسان وهو الوجه الذى يضعه المؤمن على الأرض خضوعاً لله عز وجل. ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

أننا إذا مررنا على آية سجدة من آيات كتاب الله فيها مثل ذلك فعلينا أن نستجيب لها استجابة حقيقية ونسجد لها سجدة تسمى سجدة التلاوة، ويكون ذلك عند تلاوتها أو سماعها من القارئ، وحصرها العلماء فيما تجدونه فى المصحف عند كل سجدة وجعلوا عندها علامة ووضعوا تحت الكلمة التى نسجد عندها خطاً. وحين قام العلماء ببيان المواضع التى تطلب فيها هذه السجدات وجدوها قد ابتدأت بسجدة آخر سورة "الأعراف" التى نتناولها بخواطرنا الآن، وانتهت بسجدة "العلق":

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وبينهما سجدات، وبعض العلماء عدّ فى سورة الحج سجدتين وبعضهم أهمل السجدة الثانية فى هذه السورة. فمن حسبها خمس عشرة سجدة، عدّ سجدة الحج الثانية المختلف عليها مع سجدة الحج الأولى - المتفق عليها - وبعض العلماء قال: إنها أربع عشرة سجدة؛ لأنه لم يحسب سجدة الحج الثانية.

وهب أنك أردت أن تسجد لله شكراً فى أى وقت، وعند أى آية فاسجد لله سجدة الشكر، وهى سجدة واحدة كسجدة التلاوة وتستحب عند تجدد نعمة أو انقشاع غمّه، أو زوال نقمة ولا تكون إلا خارج الصلاة.

والسجود بطبيعة الحال تبدأه بالتكبير، ورفع اليدين كأنك تبدأ الصلاة، والمفترض أن تقول: "سبحان ربى الأعلى"، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا ما نقوله فى السجود للتلاوة، وروى عن ابن عباس قال: كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال: إنِّى رأيتُ البارحَة - فيما يرى النائم كأنِّى أصلى إلى أصل شجرة، فقرأت السجدةَ فسجدت الشجرةُ لسجودى فسمعتها تقول: اللهم احطُطْ عنى بها وزْراً، واكتُب لى بهاَ أَجْراً، واجْعلْها لى عندكَ ذُخْراً. قال ابنُ عباس: فرأيت النَّبى صلى الله عليه وسلم قرأ السجدة فسجد، فسمعته يقول فى

سجوده مثل الذى أخبره الرجلُ عن قولِ الشجرة »[1]

وبذلك تختم سورة الأعراف، والتسمية للسورة فى ذاتها متناسبة؛ لأن "الأعراف" هو المكان العالى البارز الذى يجلس عليه القوم ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم لينظروا إلى أهل الجنة وينظروا إلى أهل النار، وهكذا تكون الأعراف مكاناً يزيد فى الارتفاع، وهى مأخوذة من "عرف الفرس"، وعرف الفرس أعلى شئ فيه، والأنفال أيضاً هى الزيادة؛ ولذلك فإن التسمية متناسبة سواء بالنسبة لسورة الأعراف أو الأنفال، وأيضاً يوجد التناسب فى المعنويات، وهذا التناسب نلحظه عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى فى أواخر سورة الأعراف :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يأتى قوله سبحانه وتعالى فى أول سورة الأنفال :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾

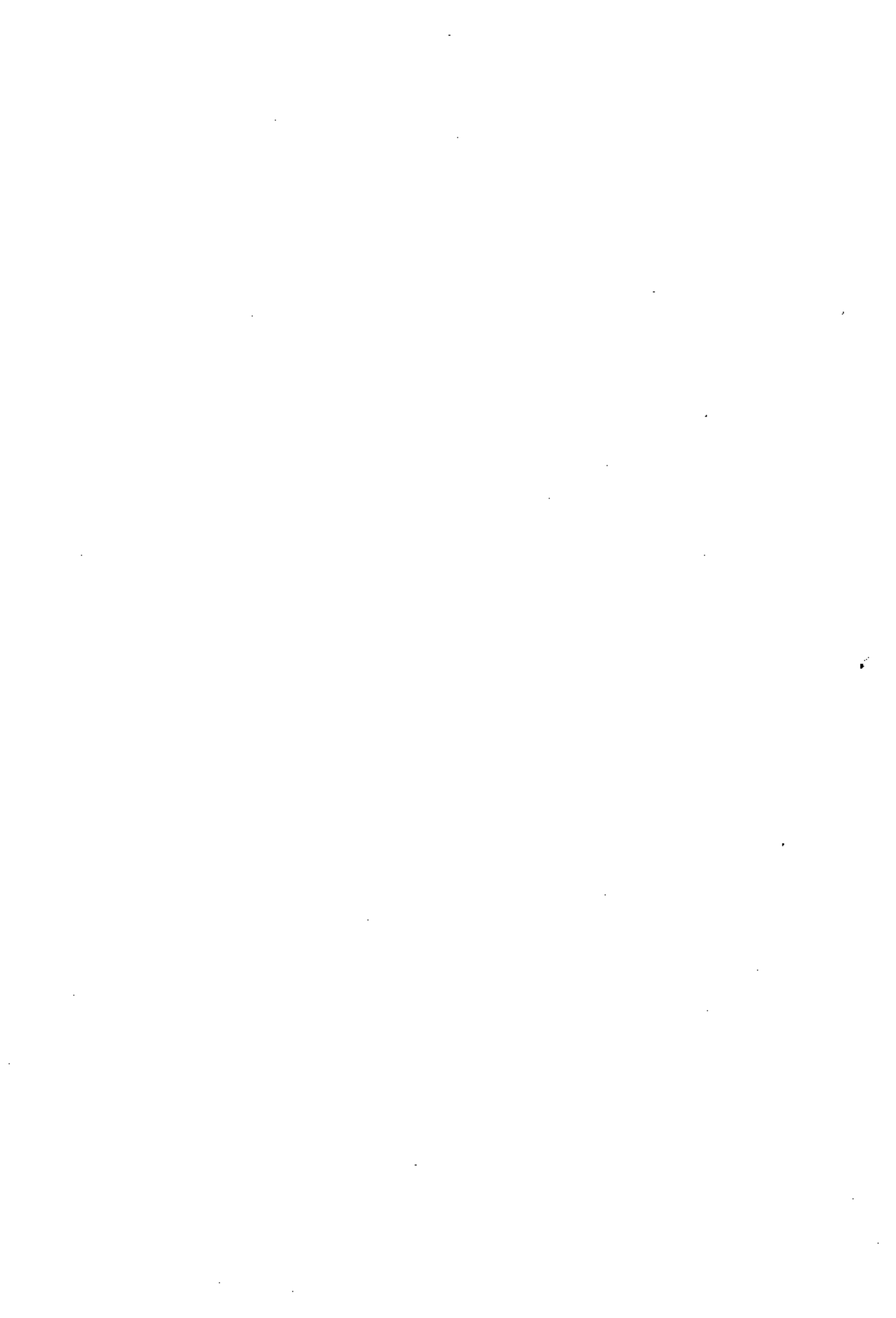
(من الآية ١ سورة الأنفال)

لأن من مهام الشيطان أن يفرق بين المؤمنين بوسوسته لهم، فإذا ما تذكروا الله وما أعده لأهل الإيمان؛ فهم يبصرون الحقيقة الأولى التى ترتفع على كل شئ وهى الإيمان بالله، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يكدرها حتى تكون خالصة نقية.

(١) رواه ابن ماجه والترمذى وزاد فيه : وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام.



(٨)
سُورَةُ الأنفال
مدنية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الحق سبحانه وتعالى مفتتحاً سورة الأنفال :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

السؤال يقتضى سائلاً : وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقتضى مسئولاً هو الرسول عليه الصلاة والسلام، ويقتضى مسئولاً عنه وهو موضوع السؤال المطروح .

والمسئول عنه قد يوجد بذاته، مثلما نسأل صديقنا : ماذا أكلت اليوم ؟ هذا السؤال فيه تحديد لمنطقة الجواب، والجواب عنه أيضا يحدد المنطقة .

وموضوع السؤال فى قول الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

يدل عليه الجواب، فهم لم يسألوا عن أسباب المحيض ، أو لماذا ينقطع عن الحامل أو من بلغت الكبر، لكن كان موضوع السؤال الذى هو واضح من إجابة الحق تبارك وتعالى : أيجوز أن يباشر الرجل المرأة أثناء المحيض أم لا ؟

وسؤال آخر سألوه للرسول صلى الله عليه وسلم عن اليتامى، ويحدد الجواب

موضوع السؤال : يقول الله تعالى :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة)

لأنهم كانوا يتخوفون من مخالطة اليتامى فى الأموال ومن مؤاكلتهم، وغير ذلك من ألوان التعامل، ورعاً وبعداً عن الشبهات وجاءت الإجابة لتحدد موضوع السؤال :

ومرة يأتي السؤال وفيه تحديد مناط الإجابة لأنها عامة مثل قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾

(من الآية ١٨٩ من سورة البقرة)

هم سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم : لماذا يبدأ الهلال صغيراً ولماذا يكبر، ثم لماذا يختفي في المحاق ؟ . وهذا سؤال فى الفلك . ولم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا فى الحدود التى يستفيدون منها وهى القيمة النفعية العملية، وجاءت الإجابة : ﴿ قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ .

لأننا ورغم وجودنا فى هذا القرن العشرين إلا أن البعض من الناس مازال يكذب الحقيقة العلمية التى ثبتت بما لا يدع مجالاً لأى شك . ونقول للعامة : إن الهلال يشبه قلامة الظفر ثم يكبر ليستدير ثم يختفى قليلاً قليلاً . وفى هذا يقول الشاعر :

وغاية ضوء قمير كنت آمله   مثل القلامة قد قدت عن الظفر

ولو قال لهم : إن الهلال يظهر حين تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ثم يبدأ

فى الاكتمال تباعاً، لما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه المسألة، فجاء لهم بالحكمة المباشرة النفعية التى تدركها عقولهم تماماً، ثم ارتقت العقول بالعلم ووصلنا إلى دراسة حركة الأفلاك التى توضح كل التفاصيل الفلكية.

وهناك سؤال يجىء فى أمر محدد، مثل قول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢١٧ من سورة البقرة)

وهكذا عرفنا أن موضوع السؤال هو عن حكم القتال فى الشهر الحرام، لا طلب تحديد الأشهر الحرم بالذات.

ويقول الحق تبارك وتعالى هنا : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ والأنفالُ جمعُ نَفَل (بفتح الحرف الأول والثانى)، مثل كلمة سَبَب وأسباب، والمراد بالنَفَل هنا الغنيمة ؛ لأنها من فضل الله تعالى وهى من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختصت بها هذه الأمة دون الأمم السابقة، والنفْل بالسكون الزيادة، ومنه صلاة النافلة ؛ لأنها زيادة عن الفريضة الواجبة، وفى هذا المعنى يقول ربنا عز وجل فى آية ثانية : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ .

ونافلة تعنى أمراً زائداً غير مفروض، ولذلك نقول : إن النفل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرض عليك ؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصى، بل يعبد العبد ربه بأى لون من ألوان العبادة التى شرعها الله، وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

النفل إذن هو أمر تعبدى زائد عن الأصل .

وحينما ابتلى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل ، جاءه الابتلاء لا بوحى صريح ، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق ، فلم يكن الابتلاء - مثلا - أن يذبح إنسان آخر سيدنا إسماعيل ، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقده ، لا بل هو الذى يقوم بذبح ولده إسماعيل . وهكذا كان الابتلاء كبيراً ، خصوصاً أنه لم يأت إلا فى آخر العمر . وكانت هذه المسألة من الملابسات القاسية على النفس . ولذلك أوضح ربنا عز وجل أن سيدنا إبراهيم كان أمة ، أى اجتمعت فيه صفات الإيمان اللازمة لأمة كاملة .

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولنر رحموت النبوة فى سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء لينفذ أمر الرؤيا بذبح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحى ؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذاً دون أن يطلعه على الحقيقة ؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده لحظة لهاجس عقوق لأبيه ، وقد يقول الابن : أى رجل هذا الذى يذبح ابنه ؟ . وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك فى الثواب ، وأن يكون الابن خاضعاً لأمر الحق تبارك وتعالى كأبيه فقال له :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذى جاءه كرؤيا فى المنام. فماذا يقول الابن إجابة على سؤال أبيه ؟

﴿ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن إسماعيل عليه السلام أسلم زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى، ويواصل المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح الابن فيقول تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فبعد أن رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وسلما أمرهما لله تعالى وامتثلا للأمر بالقضاء، رفع الله برحمته هذا القضاء؛ لذلك يصف الحق تبارك وتعالى هذا البلاء وتكرمه بالفداء فيقول :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله، إياك أن تجزع، إياك أن تسخط، إياك أن تغضب، إياك أن تتمرد؛ لأنك بذلك تطيل أمد القضاء عليك، ولكن سلم لقضاء الله فيُرفع هذا القضاء؛ لأن القضاء لا يُرفَع حتى يُرْضى به. وهكذا لم يكن جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى البشرى بمزيد من العطاء فيقول :

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه لم يرزقه بولد ثان فقط ، بل بولد يكون نبياً وصالحاً . وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذكره فقط ، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكل ذلك نافلة من الله ، أى عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء .

إذن النفل هو الأمر الزائد عن الأصل . ومثال ذلك ما خص الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة)[1] .

إذن تشريع الله للغنائم فى الإسلام أمر زائد عن الأصل ؛ لأن الغنائم لم تحل لأحد من الأنبياء قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم .

وهناك نفل ، وهناك غنيمة ، وهناك فىء ، وهناك قبض .

وسنوجز معنى كل منها :

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه . وجامع الأحاديث للسيوطى حـ ١ ص ٦٣٥ .

الغنيمة : هى ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين ، وتقسم فيما بينهم بنسب معينة ، فللرجل المقاتل سهم واحد ، وللفارس سهمان ، وهذا على سبيل المثال فقط وتقسيمها حسب تشريع الله عز وجل ، وسبق بيان النفَل والنفْل بفتح الوسط وسكونه ، والفيء هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر - « والقبَض » بتحريك الوسط بمعنى المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

لكن إذا جاء ولى الأمر وبين للمقاتلين مشجعاً لهم على حركة الحرب مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(من قتل كافراً فله سلبه)(١) .

فذلك أمر زائد فى حصته فى الغنيمة .

وقد يبعث القائد سريةً ويشجعها على خوض الصعاب فيقول لأفراد تلك السرية : لكم نصف ما غنمتم ، أو الربع أو الخمس ، فهذا يعنى أن من حقهم أن يأخذوا النسبة التى حددها لهم القائد كأمر زائد ، ثم تقسم الغنائم من بعد ذلك ، وساعة يأخذ المقاتلون الأسلاب والمتاع ، والعتاد والأموال من الأسرى ، فهذه تسمى غنائم ، أما حين تُجْمع الغنائم عند ولى الأمر فيصير اسمها القبَض وقد سبق بيانه .

وفى يوم بدر حدثت واقعة يرويها الصحابى الجليل سعد بن مالك رضى الله عنه قائلاً :

قلت يا رسول الله : قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا السيف لا لك ، ولا لى ، فضعه » ، قال : فوضعته ، ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى ، قال : فإذا رسول الله يدعونى من ورائى . قال الصحابى : قد أنزل الله فى شيئاً ؟ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى ، وأنه قد وُهب لى ، فهو لك ، قال : وأنزل الله هذه الآية :

(١) رواه البيهقى وأبو داود والترمذى عن ابن قتادة .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَـالِ قُلِ ٱلْأَنفَـالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآيه ١ سورة الأنفال)

أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحكم فى أمر السيف إلا بعد أن ينزل حكم الله عز وجل. ونعلم جميعاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غزوة بدر ولم يكن يقصد القتال، بل كان الخروج للعير التى تحمل بضائع قريش القادمة من الشام، وليس معها إلا أربعون رجلاً يحرسونها، ولذلك خرج المسلمون وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم عدة أو عتاد، بل لم يكن لديهم إلا فرسان اثنان لأنهم لم يخرجوا لقتال، بل خرجوا للعير بغية أن يعوضوا أنفسهم شيئاً مما سُلبوه فى مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان سلك طريق الساحل. أى سار فى طريق بعيد عن المسلمين ولم يأت من جهة الرسول والذين معه، واستنفرت قريش كل رجالها ليحموا العير، وصار الأمر بين أن يرجع المؤمنون دون حرب، وإما أن يواجهوا النفير، وهو التعداد الكثير، وكانوا ألفاً ومعهم العُدّة والعتاد، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع الفتيان على الحرب فقال لهم : « من قتل كافراً فله سلبه »، أى أنه خصّهم بأمر زائد عن سهمهم فى الغنيمة. فلما علم الكبار من الصحابة والشيوخ، قالوا : يا رسول الله هم قاتلوا وقتلوا، لكن نحن كنا عند الرايات، يفيئون إلينا إن وقعت عليهم هزيمة فلابد أن نتشارك، وحدث لغط وخلاف، فحسم الله سبحانه وتعالى هذا اللغط بأن أنزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله ﴾.

فبين سبحانه أن الحكم فى قسمة الغنائم بين الجميع لله وللرسول وإياكم أن تخرجوا عن أمر الله فيها، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية. فلا تنازعوا ولا تختلفوا ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾.

إن كان قد حصل بين الطرفين، الشبان والشيوخ الكبار قليل من الخلاف فأصلحوا ذات بينكم. وساعة تسمع ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قد تسأل : ما هو البين ؟ الجواب « البين » هو ما بين شيئين، فحين يجلس صف من الناس بجانب بعضهم

البعض، فما بين كل منهم هو ما يُسمى « البين »، وقد يكون الذى يفصلنا عن بعض « بين مودة » أو بين جفوة، إذن فالبين له صورة وله هيئة، فإن كانت الصورة التى بينكم وبين بعضكم فيها شىء من الجفوة فأصلحوا السبب الذى من أجله وُجِدَ «البين» حتى لا يكون بينكم جفوة ونزاع.

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وقلنا إن أمر الطاعة معناه الامتثال، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهى أيضاً، لأن الأمر طلب فعل، والنهى طلب عدم فعل، وكلاهما طلب. وحينما يقول الحق : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾.

تفهم هذا القول على ضوء ما عرفناه من قبل وهو أن مسألة الطاعة أخذت فى القرآن صورا ثلاثا، الصورة الأولى : يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول، ولكنه يفرد الأمر بالطاعة.

ومرة ثانية يقول المولى عز وجل :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

أى أنه سبحانه يكرر المطاع، ويكرر الأمر بالطاعة.

ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾. لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواردت السنة مع النص القرآنى، فنحن نطيع الله والرسول فى الأمر الصادر من الله. وهناك بعض من التكاليف جاءت إجمالية، والإجمال لابد له من تفصيل، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

إذن فالله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الإجمال تفسيراً وتطبيقاً فهى خمس صلوات، ركعتان للصبح، وأربع ركعات للظهر، وأربع ركعات للعصر، وثلاث ركعات للمغرب، وأربع ركعات للعشاء، وحدد الرسول عليه الصلاة والسلام الصلوات التى نجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن، وحدد الصلوات التى لا نجهر فيها بالتلاوة.

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أطيعوا الله ﴾، أى أطيعوه فى مجمل الحكم، وحين يقول : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أى أطيعوه فى تفصيل الحكم، وإذا ما قال : ﴿ أطيعوا الله والرسول ﴾ فهذا يعنى أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ، والمراد واحد، وإذا لم يكن لله أمر، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾، وسبحانه قد أعطى رسوله تفويضاً بقوله :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

أى أن كل أمر من الرسول إنما يأتى من واقع التفويض الذى أكرمه الله به، وهنا يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ ﴾

(سورة الأنفال)

أى إن كنتم مؤمنين حقا فاتقوا الله الذى آمنتم به واتّبِعُوا الأمر الصادر من الله

ورسوله لكم، لأن مدلول الإيمان هو اقتناع القلب بقضية لا تطفو للمناقشة من جديد، وكذلك اقتناع بأن هذا الكون له إله واحد، وله منهج يبلغه الرسول المؤيد من الله عز وجل بالمعجزة، وهذا الإيمان وهذا المنهج يفرض عليكم تقوى الله بإصلاح ذات البين، ويفرض عليكم طاعة الله والرسول فى كل أمر، ومن هذه الأمور التى تتطلب الطاعة هو ما أنتم بصدده الآن، لأنه أمر فى بؤرة الشعور.

ويأتى الحق بعد ذلك ليبين من هم المؤمنون فيقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

وفى هاتين الآيتين الكريمتين خمسُ صفات لها ترتيب عقائدى وحركى وجوارحى، وبذلك يتحدد تشخيص كلمة « المؤمنين »، هذه الصفات هى الأولى : أنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وثانية الصفات أنه : إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً، ثالثة الصفات : أنهم على ربهم يتوكلون، ورابعة الصفات : أنهم يقيمون الصلاة، وخامسة الصفات : أنهم ينفقون مما رزقهم الله.

والصفة الأولى للمؤمنين هى :

﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الأنفال)

والوجل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب فى القلب، وحينما أراد الشعراء أن يعطوا صورة بهذا الإحساس، نجد شاعراً منهم يقول :

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطـاط غرها شرك تجا ذبه وقد علق الجنـاح

فالشاعرُ يصور حالة قلبه حين سمع بنبأ سفر حبيبته، كأنه صار مثل حمامة تحاولُ أن تخلّص نفسها من شبكة أو مَصْيدة وقعت فيها، إنها تجاذب المصيدة حتى تخرج، وهى ترجف فى مثل هذا الموقف، هكذا حال القلب لحظة فراق المحبوبة عند الشاعر.

وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى : ؟

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتى بأحوال متعددة، فإن كان الإنسان مسرفاً على نفسه، فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه. وإن كان الإنسان يراعى حق الله فى كل عمل قَدْر الاستطاعة، فلابد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

إذن فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مَهابة وسطوة صفات الجلال. والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال. ولذلك تجمعهما آية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سوزة الزمر)

فالجلود تقشعر خوفاً ووجَلاً ومهابة من الله عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنّان سبحانه وتعالى، لأن ربّنا قال :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فلا يقولن أحد إن هناك تعارضاً بين الوجل والاطمئنان، فكلها من ذكر الله بالأحوال المتعددة للإنسان، فإذا ما وجل الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

وهل يزيد الإيمان أو ينقص ؟

اختلف العلماء فى هذا الأمر . ونحن عندما ننظر إلى قول الحق نجده يؤكد زيادة الإيمان، وحينما نسأل ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ . . . . إلخ نجد الجواب فى توضيح الرسول صلى الله عليه وسلم ورده على السائل فى الحديث الآتى والذى يرويه الصحابى الجليل سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه حيث قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله : ما الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال يا رسول الله : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله : متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها فذلك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاءُ البَهْم فى البنيان فذاك من أشراطها فى خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا صلى الله عليه وسلم : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ردوا عليّ الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم [١] .

وجبريل عليه السلام حين جاء يسأل ليعلم بعضاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الرسول عليه السلام عن الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفي رواية أخرى ذكر القضاء والقدر خيره وشره .

وهذه كلها أمور غيبية ، ولا يقال في الأمر المحسّ إيمان ، فلا يقول واحد : أنا مؤمن أني أتحرك على الأرض ؛ لأن هذا أمر حسيّ . والإيمان لا يكون إلا بالأمور الغيبية وأولها أن تؤمن بإله واحد لا تدركه الأبصار وهو غيب ، وبملائكته وهي غيب ، وصدقنا وجودها لأنه أبلغنا بذلك الوجود . وكذلك أن نؤمن بالكتب المنزلة على الرسل . وبالرسل ، وصحيح أن الكتاب أمر حسيّ والرسول كذلك له وجود حسيّ ، لكن لم نشاهد الوحي وهو ينزل الكتاب على الرسول . إذن فهو أمر غيبي ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر أمر غيبي أيضاً ، والإيمان بالقضاء والقدر وهو ما غابت عنا حكمته ، وكلها إذن أمور غيبية .

هذا الإيمان في القمة ، لكن هناك إيمان آخر يجيء لأننا نعلم أن التشريعات لم تأت مرة واحدة ، بل كانت تأتي على مراحل ، فتشريع ينزل أولاً بأن نؤمن أنه من الله . إذن فالذى يزيد وينقص من الإيمان هو الإيمان بالتكليفات ، وأنها صادرة من الله عز وجل ، وكلما كانت تنزل آية بتشريع جديد كانت تزيد المؤمنين إيماناً ، فعندما نزل الأمر بالصلاة آمنوا بإقامتها واستجابوا ونفذوا ، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به ، ثم يجيء الأمر بالزكاة فتكون الطاعة والتنفيذ ، وطبعاً هناك فرق بين أن تؤمن بالشيء ، وأن تفعل الشيء . فالإيمان شيء ، وفعله شيء ؛ لأن الإسلام هو الانقياد الظاهرى للمنهج ، وتطبيق كل ما يجيء به الإسلام هو إيمان مستمر متزايد ؛ لأننا آمنا بأن ما يجيء من المنهج هو من الله . إذن فالذى يزيد هو توابع الإيمان من التكليفات والامتثال لهذه التكليفات ، مثال ذلك : كلنا نعرف قول الحق :

---

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه الجزء الأول ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ كتاب الإيمان .

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

لكن هناك أناس يتمسكون بحرفية قوله الحق :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

والذين يتمسكون بحرفية القول الحق لم يتساءلوا : كفر بماذا ؟ هل كفر لأنه لم يحج ؟ لا ، إن كفره فى هذه المسألة لا يكون إلا بأن ينكر أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالمطلوب منا إيمانياً أن نقر بالحج كركن من أركان الإسلام فى حدود الاستطاعة ، فإن فعله الإنسان كان قد نفذ الحكم ، أما إن لم يفعله فقد يكون ذلك فى حدود عدم الاستطاعة .

ويذيل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها بقوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

ومُتَعلّق الجار والمجرور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور؛ لذلك ففى الأسلوب حصر وقصر ، مثلما نقول : « لزيد المال » أى أن المال ليس لغيره ، وقول الحق : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى لا يتوكلون على غيره ، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى ، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشىء الذى لا تقوى عليه تقول بصدده : « وكلت فلاناً ينجزه لى على خير وجه » وحتى تختار الذى توكله ويكون مناسباً لأداء تلك المهمة فأنت تعلن باطمئنان : أنك قد وكلت فلانا .

إذن معنى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى أنهم يكلون أمورهم على من ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق سبحانه وتعالى القادر العظيم الذى خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدى إلى مسبَّبات الأسباب مقدمة ، والمسبّبات هى النتيجة . وبعد ذلك ترك

أموراً ليس فيها أسباب ، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعز عليك فى أسبابه ؛ إياك أن تيأس من أنه لا يحدث ، بل قل : تلك هى قضية الأسباب ، أما أنا فلى رب خلق الأسباب . وهو القادر فوق كل الأسباب ، وفى حياتنا اليومية نلحظ أن الناس يخلطون بين عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويظن إنسان ما أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ويركن إلى الكسل ويقول : أنا متوكل على الله، وهذا نقول له : لا ، إن هذا منك تواكلٌ وليس توكلاً ؛ لأن التوكل ليس عمل جوارح، التوكل عمل قلوب .

والمؤمن الذى يستقبل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التى يجب أن يأخذها ، وسبحانه وتعالى هو المسبب الأعلى ، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، فعلى الجوارح أن تحرث الأرض ، وأن تختار البذرة الطيبة ، وتنثرها فى الأرض ، ثم ترويها ، وتتعهدها ، وهذه العمليات اسمها الأسباب ، ثم لا تركن إلى الأسباب فقط ، بل عليك أن تقول : إن فوق كل الأسباب هناك المسبِّبُ . فمن الجائز أن يخضر الزرعُ وينمو ، ثم تأتى له آفةٌ من مطر أو حر وتضيعه .

ومن ينقل التوكل إلى الجوارح . نقول له : أنت تواكلت ، أى نقلت عمل القلب إلى الجوارح . ومن يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس . لأنه تكاسل عن الأخذ بالأسباب وادّعى أنه متوكل على الله . ولو كان الواحد من هؤلاء صادقاً فى توكله على الله لأخذ بالأسباب . وعادة فإنى دائما أقول لمن يدّعى التوكل مع الكسل : لماذا لا تترك الطعام يأتى إلى فمك، لماذا تمد إليه يديك ؟ . إن من يكسل إنما يكذب فى التوكل ، فلا أحد مثلاً يترك قطعة اللحم تقفز من طبق الطعام إلى فمه ، لكنه يأخذها بيده . ويمضغها بأسنانه ، ويبلعها بعد المضغ ، ولو كان صادقاً فى أن التوكل هو ألا تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك ، لكنه يكذب ويتواكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه ، ولا يستعملها فى الأمور التى تتعبه . وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾

هذا القول يعنى أنهم يؤمنون بأن الأسباب من خلق الله . وحين يأخذ المؤمن

بالأسباب فهو يؤمن أنه لاجئ إلى الله ومعتمد عليه ، لكن إن عزت عليه الأسباب فهو يعلم أن له رباً ، ولذلك قال : ﴿ وعلى ربهم ﴾ ، والرب هو الخالق من عَدَم ، والممد من عُدْم ، ومادام قد خلقك وأمدك من عُدْم قبل أن يكلفك ، فهل من المعقول أن يظلمك ؟ طبعاً لا . لكن عليك أن تفطن أنه خلق لك جوارح ، فاستعملْ الجوارح فيما خلقت من أجله .

وتأتى الآية التالية لتوضح عمل الجوارح ، وهى تحمل الصفتين الرابعة والخامسة من صفات المؤمنين :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الأنفال)

والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والتكبير فى الصلاة عمل جوارح ، وكذلك الزكاة هى عمل ناتج من عمل سبق ، فحتى تخرج الزكاة لابد أن تبذل الجهد وتأخذ بالأسباب لتنتج ما يعولك أنت ودائرتك القريبة من زوجة وأبناء ثم أقارب ، ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه الزكاة ، وهذه بطبيعة الحال غير زكاة الزروع التى تُخْرَج فى يوم الحصاد .

﴿ وَءَاتُواْ حَقَّـهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ودائما ما نجد الصلاة والزكاة وهما مقترنتان ببعضهما ، ولا تجد آية فيها ذكر للصلاة إلا وفيها ذكر للزكاة أيضاً ؛ لأن الصلاة تعنى ترك أمورك الحياتية التى تسعى فيها لدنيا الأسباب ، وتذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه ، أى أنك قد اقتطعت جزءاً من الزمن الذى كنت تقضيه فى حركة حياتك لتقف فيه أمام ربك خالق الأسباب .

والزكاة تعنى أنك تقتطع جزءاً من مالك ، ولذلك قلنا : إن الصلاة فيها زكاة

وزيادة ، فأنت تخرج مقدار اثنين ونصف فى المائة مما يتبقى معك من مال يبلغ نصاباً ويكون زائداً عن الحاجة الأصلية ، لكنك بالصلاة تضحى ببعض الوقت الذى تقضيه فى العمل الذى يأتى لك بأصل المال ، إذن ففى الصلاة زكاة وأكثر . وأنت فى الزكاة تتنازل عن بعض المال ، لكنك فى الصلاة تتنازل عن الوقت الذى هو محل العمل ، وهو الذى تنتج فيه الرزق ، والرزق وعاء الزكاة .

ويذيل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية قائلاً :

(ومما رزقناهم ينفقون) ونعلم أن الرزق كما ذكر العلماء هو كل شئ ينتفع به الإنسان ، وحتى اللص الذى يسرق وينتفع بسرقته يعد هذا بالنسبة له رزقاً لكنه رزق غير طيب وله عقاب فى الدنيا إن تم ضبطه ، ولن يفلت من عقاب الله الحاكم العادل فى الدنيا والآخرة ، وهو بطبيعة الحال غير الرزق الحلال الذى يأتى من عمل مشروع ، والمؤمن الحق هو من ينفق من هذا الرزق الحلال ؛ سواء لمتطلبات حياته أو رعاية المجتمع الإيمانى .

وبعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾

و « أولئك » تشير إلى من أنعم الله عليهم بالصفات الخمس السابق ذكرها ، وهؤلاء هم من وجلت قلوبهم من ذكر الله ، وزادتهم الآيات فى إيمانهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، هؤلاء هم المؤمنون حقاً ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

ولنعلم أن الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا تذهب به الأغيار ، ويخضع له كل الناس لأنه يتعلق بمصالح حياتهم . وإن جاء الباطل ليزحزح الحق ، نجد الحق ثابتاً لا يتزحزح لأنه قوى . ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

وحين ينزل المطر من السماء، يأخذ من مائه كل واد من الوديان على قدر اتساعه وعمقه، ويمتلىء، ترى الرغاوى وهى الزبد تطفو فوقّ السيْل، وهى عبارة عن هواء سببه وجود الشوائب من قش وغيره، وهذا مثل نراه فى حياتنا، ونجد الأرض والناس وكل المخلوقات تنتفع بالمياه، لكنها لا تنتفع بالزبد أو الرغاوى. ثم ينتقل الحق فى ذات الآية من ضرب المثل بالماء، إلى ضرب المثل بالنار فيقول:

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وأنت حين ترى قطعة الحديد وهى تتحول إلى السيولة بالانصهار فى النار، تجد شرراً يتطاير منها، ويطفو فوق سطح الحديد المصهور، وهو ما يسمى بـ « خبث الحديد » وتتم إزالة هذا الخبث ليبقى الحديد صافياً لتصنع منه السيوف أو الخناجر وغيرها، وهذه الحالة تحدث فى الذهب حين يصهره الصائغ ليزيل عنه أية شوائب ويعيد تشكيله ليكون حلياً.

وزبد الماء وزبد الحديد وزبد الذهب يتجمع على الجوانب ويبقى الماء صافياً، وكذلك الحديد والذهب، ولهذا يقول الحق:

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن الحق يبقى صافياً ثابتاً، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الجوانب ليذهب بغير فائدة.

ويوضح الحق علو كلمته سبحانه وتعالى فى آية أخرى فيقول:

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة التوبة)

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين، أما كلمته سبحانه وتعالى فلها العلو الثابت.

والحق هنا يبين أن المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات الخمس هم مؤمنون حق الإيمان فيقول عز وجل: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾.

ومعنى هذا أن هناك مؤمنين ليسوا على درجة عالية من الإيمان، أى أن هناك منازل ودرجات للإيمان متفاوتة، ولكل قدر من الصفات منزلة وعطاء مناسب.

ونحن نرى البشر حينما يخصهم واحد بوده يفيضون عليه من خيراتهم، فنجد غير العالم يأخذ ممن يودهم من العلماء بعض العلم، والضعيف الذى يعطى وده لقوى، يعينه القوى ببعض من قوته، والفقير الذى يعطى وده لغنى، يعطيه الغنى بعضاً من المال، والأرعن يأخذ ممن يودهم من العقلاء قدراً من التعقل للأمور.

إذن أهل المودة والقرب والتقوى يفاض عليهم من المولى وهم ممن اختصهم الله بالعطاءات، فالذى وجدت فيه هذه الصفات، ومؤمن حقاً تكون له درجات عند ربه تناسب حظه من الحق وحظه من الصفاء، ولنعرف أن السير فى درب الحق يعطى الكثير. والمثال الذى نقدمه على ذلك أننا نجد من يصلى الأوقات الخمسة فى مواعيدها، وهذا هو المطلوب العام، إذا ما صلى ضعف ذلك بالليل، أو واظب على الصلاة فى الجماعة ويلزم نفسه بمنهج الله، سوف يأخذ حظاً من الصفاء لم يكن موجوداً عنده من قبل ذلك، وسيجد فى قلبه إشراقات وتجليات، وتسير أمور حياته بسهولة ويسر.

وقد يكون الإنسان من هؤلاء - على سبيل المثال - خارجاً من البيت وسألته زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ ويجيبها : لنقض هذا اليوم بما تبقى عندنا من الأمس. وعندما يعود قد يفاجأ بأن شقيقه قد قدم من الريف، وأحضر له هدية من البط، والقشدة والفطائر. فتسأله زوجته : أكنت تعلم بمجيء أخيك ؟ فيقول : لم أكن أعلم، وهذا مجرد مثال، لكن عطاءات الصفاء تكون أكثر من ذلك مادياً ومعنوياً، ومن يستمر فى العبادة ويزيد عليها ويؤدى كل ذلك بحقه، سيزيد عطاء الله له؛ لأن الله لا يمل عطاء أهل الصفاء أبداً. ومن يجرب مثل هذه العبادة ويزيدها سيجد عطاء الله وهو يزيد.

ودائما أضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى وهو منزه سبحانه وتعالى عن التشبيه لنفترض أن إنساناً أراد أن يسافر من القاهرة إلى الإسكندرية، وسأل إنساناً آخر، فقال له : إن ذهبت من الطريق الفلانى ستجد استراحة طيبة، عكس الطريق الفلانى.

ويتبع المسافر نصائح من أرشده، فيجده صادقاً، فيرتاح من بعد ذلك لرأيه، وكذلك أهل الصفاء، هم أهل العطاء، وعلى قدر صفائهم يكون هذا العطاء. والذى يشجع الناس الذين يبالغون فى التعبد هو هذا الإشراق، وهناك من يصف الواحد منهم بأنه مجذوب وإن من يطلق على المتعبد الزاهد هذا الوصف يرى المنزلة العالية وهى تشد هذا المتعبد إليها، وهو من جهة أخرى ينظر هذا الزاهد إلى من يتعثرون فى طلب الدنيا، ويصفهم بينه وبين نفسه بأنهم من « الغلابة » ويدعو لهم.

وأقول لمن يرى واحداً من هؤلاء : لا شأن لك بأى إنسان من هؤلاء وإياك أن تتعرض لهم واتركهم فى حالهم، مادام الواحد منهم لا يسألك شيئا. (لهم درجات عند ربهم).

والدرجات عند البشر هى ارتقاءات يسعى إليها، فما بالنا بالدرجات التى عند الرب ؟ ومادام الله سبحانه وتعالى قد وعدهم بالدرجات العالية عنده فقد ضمنوا المغفرة؛ لأن الواحد منهم سيطهر بالمغفرة، وجاء الحق بعطاء الدرجات قبل المغفرة

لأنه سبحانه خلق الخلق ويعرف أنهم أهل أغيار، ويعلم أن هناك من أسرفوا على أنفسهم، ويحاولون فعل الخيرات لأنهم يؤمنون بأن الحسنات يذهبن السيئات، وسبحانه علمنا أن معالم الدين تأخذ حظها من المسرفين على أنفسهم، لأن من لم يسرف على نفسه تجده يطيع الله طاعة هادئة رتيبة فليس وراءه ما يلهب ظهره. أما من عملوا السيئات فإن هذه السيئات تقض مضاجعهم. والمسرف على نفسه لحظة الإسراف يظن أنه أخذ من الله شيئاً واحداً من خلف منهجه، فيوضح له ربنا: إياك أن تظن أن هناك من يخدع الله. فأنت ستعمل كثيراً وبشوق لخدمة منهج الله، ونجد المسرف على نفسه لحظة الإفاقة والتوبة، وهو يندفع إلى فعل الخيرات. مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

﴿ إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر ﴾ (١).

لأن فجر الفاجر يتجسد أمامه ويريه سوء المصير، فيندفع إلى فعل الخيرات ليمحو السيئات، أما من لم يخطىء فنجده هادىء القلب، مطمئن النفس، لا يلهب ظهره شيء.

﴿ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٌ وَرِزۡقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأنفال)

وهل هذا الرزق ناشىء من كريم؟ الجواب لا؛ لأن الكرم تعدى من الكريم الأصيل، إلى أن صار الرزق نفسه كريماً، وكأن هذا الرزق يتعشق صاحبه؛ لأن ربنا ساعة يعطي إنساناً نعمةً، ثم يستعملها العبد في الطاعة، تحس النعمة أنها مسرورة بالذهاب إلى هذا الإنسان لأنه استعملها في الطاعة وفيما يرضي الله عز وجل.

ولك أن تعرف أن الرزق أعلم بمكانك منك بمكانه. فلا أحد يعرف عنوان الرزق الذي قدره الله له، لكن الرزق يعرف عنوان صاحبه، ويبحث عنه في كل مكان إلى

(١) جامع الأحاديث للسيوطي جـ ٢ صـ ٣٢٥ رواه الطبراني.

أن يجده. هكذا نفهم أن الكرم يتعدى إلى الرزق نفسه فيصبح الرزق كريماً.

وجاء كل هذا الحديث بمناسبة الخلاف على الغنائم والأنفال، وفصل ربنا بالحكم وبين وأوضح أن الأنفال لله والرسول ولم يعد لأحد كلام بعد كلام الله، وهذه الحادثة في الأنفال حدثت في الخروج إلى الحرب، فحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج للحرب، كان هناك فريق منهم كاره لهذا الخروج ثم رضى به. لكن حالهم اختلف في الغنائم فطالب بعضهم بأكثر مما يستحق؛ لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ ﴾

و «كما» تدل على تشبيه حالة بحالة، فهم قد رضوا بقسمة الله في الغنائم بعد أن رفضوها، وكذلك قبلوا من قبلُ أن يخرجوا لملاقاة النفير بعد كراهيتهم لذلك. لكنهم خرجوا وحاربوا وانتصروا ثم اختلفوا على الغنائم، ورضوا أخيراً بقسمة الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام.

فهل ذكر مسألة كراهيتهم للخروج إلى الحرب هي طعن فيهم؟ لا، فهذا القول له حيثية بشرية؛ لأن الذي يريد أن يخوض معركة لابد أن يغلب عليه الظن بأنه سوف ينتصر، وإلا سينظر إلى أن عملية الخروج إلى القتال فيها مجازفة. وكان المسلمون في ذلك الوقت قليلي العدد، وليس معهم عُدَد، بل لم يكن لديهم من مراكب إلا فرسان اثنان. وكان خروجهم من أجل البضائع والعير، لا لملاقاة جيش كبير، وهكذا لم تكن الكراهية لهذه المسألة نابعة من التأبي على أوامر الله تعالى، أو مطالب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكنهم نظروا إلى المسألة كلها بالمقاييس البشرية فلم يجدوا فيها التوازن المحتمل.

ويريد الله أن يثبت لهم أنهم لو ذهبوا وانتصروا على العير فقط، لقيل عنهم إنهم جماعة من قطاع الطرق قد انقضوا على البضائع ونهبوها، فلم يكن مع العير إلا أربعون رجلا، والمسلمون ثلاثمائة ويزيدون، ومن المعقول أن ينتصروا، ولكن ربنا أراد أن ينصرهم على النفير الذى استنفره الكفار من مكة، هذا النفير الضخم فى العدد والعدة ويضم جهابذة قريش وصناديدها، وتتحقق إرادة الحق فى أن يزهق الباطل. ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾.

والخروج من البيت هنا مقصود به خروج الرسول من المدينة لملاقاة الكفار، وهذا الفريق من المؤمنين لم تخرجهم الكراهية عن الإيمان؛ لأن معنى « فريق » هم الجماعة الذين يفترقون عن جماعة ويجمعهم جميعاً رباط واحد، فالجيش مثلاً يتكون من فرق، يجمعهم الجيش الواحد.

وهذه الفرق التى يأتى الحديث عنها هنا هى الفرق التى كرهت أن تخرج إلى القتال رغم أنهم مؤمنون أيضاً، ونعلم أن كراهية القتال أمر وارد بالنسبة للبشر، وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

و « يجادلونك فى الحق »، أى يجادلونك فى مسألة الخروج لملاقاة النفير، بعد ما

تبين لهم الوعد الحق من الله عز وجل وهو وعده سبحانه وتعالى بأن تكون لهم إحدى الطائفتين ، وهما طائفة العير أو النفير الضخم الذى جمعته قريش لملاقاتهم . ومادام الحق قد وعدكم إحدى الطائفتين ، فلماذا لا تأخذون الوعد فى أقوى الطوائف ؟ لماذا تريدون الوعد فى أضعف الطوائف ؟! لقد وعدكم الحق سبحانه وتعالى أن إحدى الطائفتين ستكون لكم ، فكان المنطق والعقل يؤكدان أنه مادام قد وعدنا الله عز وجل إحدى الطائفتين ، فلنقدم إلى الأنفع للإسلام والحق الذى نحارب من أجله ، وأن نواجه الطائفة ذات القوة والشوكة والمنعة ؛ لأنه قد يكون من الصحيح أن النصر مؤكد على طائفة العير ، لكن هذا النصر سيبقى من بعد ذلك مجرد نصر يقال عنه! إنه نصر لقطاع طريق ، لا أهل قضية إيمان ودين .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فالمنطق إذن يفرض أن الله عز وجل مادام قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين ، طائفة فى عير والأخرى فى نفير ، كان المنطق يفرض إقبال المؤمنين على مواجهة الطائفة القوية ؛ لأن النصر على النفير هو أشرف من النصر على طائفة العير . ﴿ يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ .

ونلحظ أن هناك « سوق » ، وهناك « قيادة » ، والقيادة تعنى أن تكون من الأمام لتدل الناس على الطريق ، و « السوْق » يكون من الخلف لتحث المتقدم أن يقصر المسافة مع تقصير الزمن ، فبدلاً من أن نقطع المسافة فى ساعة - على سبيل المثال - فنقطعها فى نصف ساعة .

وقوله تعالى :

﴿ يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦ من سورة الأنفال)

أى أنهم غير منجزين للسير . بل هم مدفوعون إليه دفعاً، وهم ينظرون بشاعة الموت، لأنهم تصوروا أن مواجهتهم لألف فتى من مقاتلى قريش مسألة صعبة، فألف أمام ثلاثمائة مسألة ليست هينة؛ لأن ذلك سيفرض على كل مسلم أن يواجه ثلاثة معهم العدة والعتاد، فكأن الصورة التى تمثلت لهم صورة بشعة، لكنهم حينما نظروا هذه النظرة لم يلتفتوا إلى أن معهم ربًا ينصرهم على هؤلاء جميعاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

والوعد من الله عز وجل يجب أن يستقبل من الموعود بأنه حق؛ لأن الذى يقدح فى وعد الناس للناس أن الإنسان له أغيار، فقد تعد إنساناً بشىء، وقد حاولت أن تفى بما وعدت ولكنك لم تستطع الوفاء بالوعد. أو كانت لك قوة وانتهت. أو قد يتغير رأيك. إذن فالوعد من المساوى من الخلق غير مضمون، لكن الوعد من القادر القوى، الذى لا تقف عراقيل أمام إنفاذ ما يريد، هو وعد حق ويجب أن يتلقوا هذا الوعد على أنه حق. ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾.

أى إن كنتم تميلون وتحبون أن تكون لكم الطائفة غير ذات الشوكة التى تحرس العير - والشوكة هى شىء محدد من طرف تحديداً ينفذ بسهولة من غيره، وأنت تجد الشوكة مدببة رفيعة من الطرف ثم يزداد عرضها من أسفلها ليتناسب الغلْظُ مع القاعدة لتنفذ باتساع. وذات الشوكة أى الفئة القوية التى تنفذ إلى الغرض المرادَ، ولا يتأبى عليها غرض، ولذلك يقال « شاكى السلاح ». فإن كتم تتمنون وتريدون عدم ملاقاة جيش الكفار فى معركة فالمولى عز وجل يقول لكم ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾.

أى أن الله تعالى يريد أن ينصر الإسلام بقوة ضئيلة ضعيفة بغير عتاد على جيش قوى فيعرفون أن ربنا مؤيدهم، وبذلك يحق الحق بكلماته أى بوعده. وهناك الكلمة من الله التى قال فيها:

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

(من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف)

هكذا كان وعد الله الذى تحقق. ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾

والدابر والدُبر هى الخلف، وتقول: « قطعت دابره » أى لم أجعل له خلفاً.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قال من قبل ويريد الله أن « يحق الحق »، وهنا يقول: « ليحق الحق » والمراد بالحق الأول نصر الجماعة الضعاف، القلة الضعيفة على الكثرة القوية، هذا هو الحق الأول الذى وعد به الحق بكلماته، ليحق منهج الإسلام كله، ولو كره المجرمون.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾

ومادة « استغاث » تفيد طلب الغوث، مثل « استسقى » أى طلب السقيا، و «استفهم » أى طلب الفهم، و « الألف » و « السين » و « التاء » توجد للطلب. و « استغاث » أى طلب الغوث من قوى عنه قادر على الإغاثة، وأصلها من الغيث وهو المطر، فحين تجدب الأرض لعدم نزول المطر ولا يجدون المياه يقال: طلبنا الغوث، ولأن الماء هو أصل الحياة؛ لذلك استعمل فى كل ما فيه غوث، وهو إبقاء الحياة، وفى حالة الحرب قد يفنى فيها المقاتلون؛ لذلك يطلبون الغوث من الله عز وجل ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾.

و « تستغيثون ربكم » بضمير الجمع، كأنهم كلهم جميعاً يستغيثون فى وقت واحد، وقد استغاث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصطف القوم وقال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه واستقبل القبلة وقال: « اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم ائتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض »(١).

ويدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان يستغيث بالخالق الذى وعد بالنصر، ورد القوم خلفه: آمين، لأن أى إنسان يؤمن على دعاء يقوله إمام أو قائد فهو بتأمينه هذا كأنما يدعو مثلما يقول الإمام أو القائد. فمن يقول: « آمين » يكون أحد الداعين بنفس الدعاء. والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ

(١) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب.

﴿ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهذا ما جاء فى القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعدها:

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة يونس)

مع العلم بأن سيدنا موسى عليه السلام هو الذى دعا، وقوله سبحانه من بعد ذلك « أجيبت دعوتكما » دليل على أن موسى دعا وهارون قال: « آمين » فصار هارون داعياً أيضاً مثل أخيه موسى.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأنفال)

« فاستجاب لكم » الألف والسين والتاء - كما علمنا - تأتى للطلب، وقول الحق سبحانه وتعالى « فاستجاب » يعنى أنه طلب من جنود الحق فى الأرض أن يكونوا مع محمد وأصحابه؛ لأن الله سبحانه وتعالى، خلق الكون، وخلق فيه الأسباب. نراها ظاهرة، ووراءها قوى خفية من الملائكة. والملائكة هم خلق الله الخفى الذى لانراه ولانبصره، إلا أن الله أخبرنا أن له ملائكة.

فالملائكة ليست من المخلوقات المشاهدة لنا، وإنما إيماننا بالله، وتصديقنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن الله تعالى جعلنا نعرف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الملائكة، وأخبرنا أيضاً أنه خلق الجن وصدقنا ذلك، إذن فحجة إيماننا بوجود الملائكة والجن هو إخبار الرسول الصادق بالبلاغ عن الله تعالى ومن يقف عقله أمام هذه المسألة ويتساءل: كيف يوجد شيء ولا يرى، نقول له: هذه أخبار من الله.

وهناك من أنكر وجود الملائكة والجن وقال: إنها القوى الميكانيكية في الأسباب، ولم يلتفتوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبي، فسبحانه يترك في مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبي إلى الذهن، فيجعلك لا تعرف وجود أشياء تشعر بآثارها، ثم بمرور الزمن تدرك وجودها، وهذه الأشياء لم تُخلق حين اكتشفتها، وإنما هي كانت موجودة لكنك لم تتعرف عليها، وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك وجود الشيء. ومثال ذلك كان اكتشاف الميكروب في القرن السابع عشر وهو موجود من قبل أن يكتشف، وكان يدخل في أجسام الناس، وينفذ من الجلد، وحين اكتشفوه، دلّ ذلك على أنه كان موجوداً لكننا لم نكن نملك أدوات إدراكه. إذن فإن حُدثت بأن لله خلقاً موجوداً وإن لم تكن تدركه، فخذ مما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه.

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى بوجود الملائكة، وكل شيء له ملائكة يدبرونه، وهم: «المدبرات أمرا»، والملائكة الحفظة، وسبحانه القائل:

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وسبحانه أيضاً القائل:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بمصالح الإنسان في الأرض، المطر مثلاً له ملكه، الزرع مثلاً له ملكه، وكل شيء له ملك. وهو سبب خفي غير منظور يحرك الشيء.
﴿ فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة ﴾.

والإمداد هو الزيادة التي تجيء للجيش، لأن الجيش إذا ووجه بمعارك لا يستطيع أن يقوم بها العدد الموجود من الرجال أو السلاح، حينئذ يطلب قائد الجيش إرسال

المدد من الرجال والعتاد.

﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

ونعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لآدم، لم يكن الأمر لكل جنس الملائكة، بل صدر الأمر إلى الملائكة الموكلين بمصالح الأرض. أما الملائكة غير الموكلين بهذا، فلم يدخلوا في هذه المسألة، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما عنف إبليس، قال له:

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

والمقصود بـ « العالين » هم الملائكة الذين لم يشملهم أمر السجود.

والحق تبارك وتعالى هنا في هذه الآية يبين أنه سبحانه وتعالى قد أمد المسلمين المحاربين في غزوة بدر بـ: ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾

والردْفُ هو ما يتبعك، ولذلك يقال: « فلان ركب مطيته وأرْدَفَ فلاناً »، أي جعله وراءه. والمرُدف هو من يكون في الأمام، والمردَف هو من يكون خلفه. والآية توضح لنا أن الملائكة كانت أمام المسلمين؛ لأن جيش المسلمين كان قليل العدد، وجيش الكفار كان كثير العدد، وجاءت الملائكة لتكثير عدد جيش المسلمين، فإذا كان العدد مكوناً من ألف مقاتل، فقد أرسل الحق ملائكة بنفس العدد ويزيد بذلك جيش المؤمنين بعدد المؤمنين. وكان يكفي أن يرسل الحق ملكاً واحداً، كما تحكي الروايات عما حدث لقوم لوط، فقد روي أن جبريل عليه السلام، أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط، وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار، ونباح الكلاب، وصياح الديوك، ولم تنكفيء لهم جرّة، ولم ينسكب لهم إناء، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض.

وصيحة واحدة زلزلت قوم ثمود. لماذا إذن أرسل الحق تبارك وتعالى هنا ألفاً من

الملائكة ؟ . حدث ذلك لتكثير العدد أمام العدو وليفيد فى أمرين اثنين :

الأمر الأول : أن تأخذ العدو رهبة ، والأمر الثانى : أن يأخذ المؤمنون قوة لكن أكان للملائكة فى هذه المسألة عمل ؟ أو لا عمل لهم ؟ هنا حدث خلاف .

ونجد الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

أى أن الملائكة هى بشرى لكم ، وأنتم الذين تقاتلون أعداءكم ، وسبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك للمؤمنين وهم يدخلون أول معركة حربية ، ويواجهون أول لقاء مسلح بينهم وبين الكافرين ، لأنهم إن علموا أن الملائكة ستقاتل وتدخل ، فقد يتكاسلون عن القتال ويدخلون إلى الحرب بقلوب غير مستعدة ، وبغير حمية ، فأوضح ربنا : أنا جعلت تدخل الملائكة بشرى لكم ، و « لتطمئن به قلوبكم » ، أى أن عدد الملائكة يقابل عدد جيش الكفار ، والزيادة فى العدد هى أنتم يا من خرجتم للقتال . واعلموا أن الملائكة هى لطمأنة القلوب . لكن الحق يريد أن يعذبهم بأيديكم أنتم ؛ لأن الله يريد أن يربى المهابة لهذه العصبة بالذات ، بحيث يحسب لها الناس ألف حساب .

واختلفت الروايات فى دور الملائكة فى غزوة بدر ، فنجد أبا جهل يقول لابن مسعود : ما هذه الأصوات التى أسمعها فى المعركة ؟ فقد كانت هناك أصوات تُفزع

الكفار في غزوة بدر - ويرد ابن مسعود على أبي جهل : إنها أصوات الملائكة . قال : إذن بالملائكة تغلبون لا أنتم . .

فإياكم أن تفتنوا حتى بالملائكة ؛ لأن النصر لا منكم ولا من الملائكة ، ولكن النصر من عندي أنا ؛ لأن الذي تحب أن ينصرك ، لابد أن تكون واثقاً أنه قادر على نصرتك ، والبشر مع البشر يظنون الانتصار من قبل الحرب ، ومن الجائز أن يغلب الطرف الآخر ، لكن النصر الحقيقي من الذي لا يُغْلَب وهو الله سبحانه وتعالى :
﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾

وأنت حين تستنصر أحداً لينصرك على عدوك فهذا الذي نستنصر به إن كان من جنسك يصح أن يَغْلب معك ويصح أن تنغلب أنت وهو ، لكنك تدخل الحرب مظنة أنك تغلبَ مع مَن ينصرك وقد يحدث لكما معاً الهزيمة أمّا الحقُّ سبحانه وتعالى فهو وحده الذي لا يُغَالَب ولا يُغْلَب . ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وهو سبحانه وتعالى الناصر ، وهكذا يكون المؤمن الذي يقاتل بحمية الإيمان واثقاً من النصر ، لكن إياكم أن تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمةً ، فإن تهاونتم في أي أمر يُسلب منكم النصر ؛ لأن الله لا يغير سننه مع خلقه ، وقد رأينا ما حدث في غزوة أحد حين تخاذلوا ولم ينفذوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتصروا ؛ لأن الحكمة اقتضت ألا ينتصروا ، ولو نصرهم الله لاستهانوا بعد ذلك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقال بعض منهم : خالفناه وانتصرنا ، وهكذا نجد أن طاعة الله والرسول والأخذ بالأسباب أمر هام ، فحين جاء الأمر من رسول الله في غزوة أحد بما معناه : يا رماة لا تتركوا أماكنكم ، ولو رأيتمونا نفر إلى المدينة ، فلا شأن لكم بنا ، وعلى كل منكم أن يأخذ دوره ومهمته ، فإذا رأى أخا له في دوره قد انهزم فليس له به شأن ، وعلى كل مقاتل أن ينفذ ما عليه . لكنهم خالفوا فسلبهم الله النصر . وهكذا يتأكد لهم أن النصر من عند الله العزيز الذي لا يغلب . وقال البخاري عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من

الرماة ، وأمَّر عليهم « عبد الله بن جبير » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لاتبرحوا وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا». [١]

ونلحظ أن المدد بالملائكة ورد مرة بألف ، ومرة بثلاثة آلاف في قول الحق سبحانه

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإن لم يكفكم ثلاثة آلاف سيزيد الله العدد ، لذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن المدد يتناسب مع حال المؤمنين ، ويبين ذلك قوله سبحانه : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾

فالصبر إذن وحده لا يكفي بل لابد أيضا من تقوى الله ، ولابد كذلك من المصابرة بمغالبة العدو في الصبر ؛ لذلك يقول المولى تبارك وتعالى في موقع آخر : ﴿ اصبروا وصابروا ﴾ وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضاً ميزة الصبر ؛ لهذا يزيد الله الصابر ، فإن صبر العدو على شيء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه .

وقد جعل الله عز وجل الإمداد بالملائكة بشرى لطمأنة القلوب وثقة من أن النصر من عند الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(الآية ١٠ من سورة الأنفال)

---

(١) رواه البخاري .

وما أن بدأت المعركة حتى بدأ توالى النعم التى سوف تأتى بالنصر، إمداد بالملائكة، بشرى لتطمئن القلوب، وثقة من أن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

ثم يأتى التذكير بالدلالة على ذلك فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

والنعاس عبارة عن السِّنة الأولى التى تأخذ الإنسان عندما يحب أن ينام، ويسميها العامة فى مصر « تعسيلة » ويقولون : « فلان معسل » أى أخذته سنَة النوم، وهى ليست نوماً بل فتور فى الأعصاب يعقبه النوم، وهذا من آيات الله تعالى فى أن يهب الإنسان راحة مؤقتة وليست نوماً. وسبحانه يقول عن ذاته العليا :

﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

أى أنه - جل وعلا - لا يأخذه النومُ الخفيفُ ولا النوم الثقيل. لأنّ السِّنة هى إلحاح من الجسم فى طلب النوم، ويكون نوماً خفيفاً، وسبحانه وتعالى ليس كمثله شىء فهو عز وجل لا يتجسد أو يتمثل فى شىء، لا السِّنة تأخذه ولا النوم يقاربه، ونلحظ أن الإنسان إذا ما تكلم بجانب من تأخذه السِّنة فهو يصحو وينتبه. أما النائم بعمق فقد لا يصحو.

فالسِّنة - إذن - هى الداعى الخفيف للراحة . أما النوم فهو الداعى الثقيل . وهنا أنزل الله عليهم النعاس بمثابة مقدمة للنوم ليستريحوا قليلاً . ونعلم أن النوم آية من آيات الله عز وجل فى كونه ؛ لأن الجسم حين يعبر عن نفسه بالحركة والطاقة ويأكل الغذاء ويشرب الماء ويتنفس الهواء ، كل ذلك يتحول إلى طاقة ثم إلى وقود للحركة .

وهذه الطاقة تتكون بالتفاعل بين العناصر المختلفة ، من تمثيل للغذاء وتحويل الطعام إلى نوعيات مختلفة لتغذية كل خلية من خلايا الجسم بما يناسبها ، ثم استخلاص « الأوكسجين » عبر التنفس وطرد ثانى أكسيد الكربون ، وعشرات الآلاف من التفاعلات الكيميائية لا توجد بها فضلات لتخرج ، وهى تختلف عن التفاعلات الأخرى التى تخرج منها الفضلات من أحد السبيلين ، أو من صماخ الأذن أو غير ذلك .

ومثل هذه الفضلات إنما تنتج من الاحتراقات التى نقول عنها : « العادم » فى الآلات الميكانيكية . والعادم هو نتيجة الاحتراق وهى غازات تنفصل لتسير الحركة . وفى الإنسان نجد العادم يتمثل فى الغائط ، وما خرج من صماخ الأذن ، و « عماص العين » ، والعرق ، كلها عوادم . لكنْ هناك لون من تركيبة هذه التفاعلات يُمثل لإيجاد الطاقة وليس له عادم .

والوسيلة الأساسية لاستعادة التوازن الكيميائى المناسب للإنسان هى أن نريح الجسم ، وتتفاعل مواد الجسم مع نفسها ويعود طبيعياً . وهذا لا يحدث إلا بالنوم . ولذلك نجد الإنسان حين يسهر كثيراً ويذهب إلى النوم يشعر برجليه وقد «خدلت» أو كما يقال : «نملت» . وهذا نتيجة عجز مواد الجسم عن التفاعل الذى تحتاجه نتيجة اليقظة ، وهذه كلها مسائل لا إرادية . بدليل أن الإنسان يرغب أحياناً فى أن ينام ، ويتحايل أحيانا على النوم فلا يأتيه ؛ لأن النوم من

العمليات المختصة بالحق سبحانه وتعالى، وهو آية من آيات الله فى هذا الكون، ومن ضمن الآيات العجيبة. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الروم)

وحين حاول العلماء الباحثون أن يفسروا ظاهرة النوم، وضعوا عشرات النظريات، وآخر التجارب التى أجريت أنهم أحضروا إنسانا وعلقوه كالرافعة من وسطه، وكأنه عصا مرفوعة من وسطهابتوازن، وجعلوا كل نصف من النصفين متساوياً فى الوزن، وحين جاء النوم لهذا الإنسان محل التجربة وجدوا أن جهة من النصفين مالت، وكأن ثقلاً ما جاءها من النصف الآخر فزادت كتلتها، وهذا آخر ما درسوه فى النوم، هذه التجربة أثبتت أن النوم عجيبة من العجائب التى تستحق أن يقول الحق تبارك وتعالى عنها : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

وانظر إلى كلمة « والنهار » هذه تر فيها الرصيد الاحتياطى الموجود فى آية النوم؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل ﴾ .

وفى هذا القول رصيد احتياطى لمن جاء له ظرف من الظروف ولم ينم بالليل، فيعوض هذا الأمر وينام بالنهار، ومن حكمة الله تعالى أنه ذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾.

وهذا بسبب أن النوم يعطل كل طاقات الجسم، فعندما ينام الإنسان لا يقدر جسمه على أن يتحرك التحرك الإرادى، إلا السمع فهو باق فى وظيفته؛ لأن

به الاستدعاء، وإنَّ العين - مثلاً - لا ترى أثناء النوم ، إنما الأذن تسمع ولا تتخلى عن السماع أبداً؛ لأن بالأذن يكون الاستدعاء ، فإذا ما نادى الأب ابنه وهو نائم فهو يسمع النداء . لذلك قلنا سابقاً : إنَّ الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينيم أهل الكهف ثلثمائة سنة وازدادوا تسْعا ، قال تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأنه لو لم يضرب على آذان أهل الكهف لظل السمع باقياً ، فإذا ظل السمع ، أهاجته الأعاصير ، وعواء الذئاب ، وزئير الأسود ، ولما استطاعوا النوم طيلة هذه المدة .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال هو :

وهل هناك نعاس غير أمنة ؟ والجواب نعم؛ لأنه مجرد الراحة من تعب لتنشط بعدها ، هذا لنفهم أن «أمنة» جاءت لمهمة هى تهدئة أعماق المؤمنين فى المهيجات المحيطة ، فهذا عدو كثير العدد ، وهم بلا عتاد؛ لذلك شاء الحق تبارك وتعالى ألا يضيع منهم الطاقة اللازمة للمواجهة ، ولا تتبدد هذه الطاقة فى الفكر؛ لذلك جعل نعاسهم نعاساً مخصوصاً يغلبهم وهو «نعاس أمنة» ، وجعل المولى عز وجل من هذا النعاس آية ، حيث جاءهم كلهم جميعا ، وهذه بمفردها آية من آياته سبحانه وتعالى ولو غلبهم النوم العميق لمال عليهم الأعداء مَيْلَة واحدة ، ولكنهم أخذوا شيئاً من الراحة التى فيها شئ من

اليقظة . ﴿ إذ يُغَشِّيكم النعاسَ أمنةً ﴾.

وهنا النعاس مفعول به ، وهو أمنة من الله ، وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

هنا فى آية الأنفال نعاس وأمنة ، وهناك فى آية آل عمران أمنة ونعاس ؛ لأن الحالتين مختلفتان - فتوضح آية آل عمران أن النعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين فى غزوة أحد بعد أن أصابهم الغم فى هذه الغزوة، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما فى سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبهم جميعا ولا يوجد بينهم منافق أو مرتاب فغشيتهم جميعا هذه الأمنة بالنعاس؛ لأنه يزيل الخوف، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثقة بنصر الله .

ويقول الحق تبارك وتعالى متابعاً فى ذات الآية :

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

ومعنى التطهير أن هناك حادثاً يستحق التطهر منه وهم لم يجدوا ماءً ليتطهروا به حيث كان المشركون قد غلبوا المسلمين على الماء فى أول الأمر ، فظمئ المسلمون وانشغلوا بالعطش ، وبالرغبة فى تطهير أجسامهم ، وهذا يدل على أن المؤمن يجب أن يظل نظيفاً ، رغم الوجود فى المعركة التى لو استمر فيها الواحد منهم يوماً أو اثنين دون استحمام ، لما لامه أحد على ذلك ، وجاء

هذا القول ليدل على حرص المؤمن على النظافة إن خرج شيء من الإفرازات والعرق ، أو كان التطهر من رجز الشيطان ؛ لأن الشيطان خيل لهم منامات جنسية ، وأخذ يوسوس قائلا لهم : أنتم تقولون إنّكم على حق ، فكيف تصلون وأنتم جنب ؟ وكان مجرد حدوث هذا الأمر لهم جميعاً هو آية أخرى من الآيات . فأغاظ الله الشيطان وأنزل عليهم الماء ليشربوا ويتطهروا .

ويقول المولى سبحانه وتعالى فى ذات الآية : ﴿ وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن المؤمنين فلا تتوزع أو تتشتت مشاعرهم ، وما أن نزل المطر حتى حفروا الحفر ليتجمع فيها الماء ، وهكذا حماهم سبحانه وتعالى من نقص الماء ، كما أن نزول المطر على الأرض الرملية نعمة كبرى - من جهة أخرى - حيث يثبت الرمال على الأرض فلا تثير غباراً ، ونعلم أن الإنسان حين يسير على الأرض ، فإن ثقله يدك ما تحته مما يحتمل الدك على قدر وزنه ، فالطفل الصغير حينما يمشى على الرمال ، فأثر سيره يكون بسيطاً ، عكس الرجل الضخم ، وإن قستها بالنسبة لوزن الصبى أو الغلام ، وبوزن الرجل الممتلىء ، تجد أن الأرض قد غاصت بنسبة الكتلة التى سارت عليها ، وحين يسير الناس دون عمل ولا يقصدون غير السير ، يكون الثقل خفيفاً ، أما حين يدخل الرجال الحرب فالأقدام قد تغوص فى الرمال وقد يصير جزءٌ من جسد المقاتل معطلاً عن الحركة ؛ لأن القدم هى التى تحقق التوازن.

إن هذه من حكمة الله تعالى ، ونحن نرى ذلك فى حياتنا ، فنجد أهل الريف يضعون فوق جداول الماء جزع نخلة أو «عرقاً» من الخشب ليسير عليه الإنسان بين الشطين ، وإن فكر السائر فى هذه المسألة قد يقع فى الماء ، لكنه إن ترك رجليه للسير تلقائيا ، فهو يمشى محققاً التوازن ، ومثل هذا الأمر يحدث

فى صناعة سلالم البيوت ، إننا نجدها متساوية فى ارتفاع درجاتها ليصعد الإنسان صعوداً رتيباً من غير تفكير ، فإذا اختلت درجة واحدة فى السلم بأن كان ارتفاعها مختلفا عن بقية الدرجات يختل التوازن ويقع الإنسان ؛ لأن الساق ضبطت نفسها آليا على هذا الوضع.

ولذلك نجد الصعود على السلالم الحلزونية متعباً لأن السلالم الحلزونية فيها جهة واسعة وأخرى ضيقة. وقد يرتبك الإنسان أثناء الصعود ، ولهذه الأسباب نجد الجيوش تكشف طبياً على المجندين ، ولا يختارون إلا الشخص المستوى القدمين لتستقبل أقدامه كل الظروف ويكون قادراً على مواجهة الظروف غير العادية ، ومن عظمة الخالق سبحانه وتعالى أن جعل كل عضو من الأعضاء له مواصفات خاصة .

وسبحانه يذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ .

وتثبيت الأقدام من جهة يمثل أمراً معنوياً ، ومن جهة أخرى يكون تثبيت الأقدام «بمعنى أن نزول المطر جعل الأرض ثابتة » ولا تثير الغبار أو الرمال ، وسبحانه هو القائل فى مناسبة أخرى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نفهم أن تثبيت الأقدام له ألوان متعددة ، حسّية ومعنوية .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

والمولى سبحانه وتعالى هنا يبين أنه أوحى إلى الملائكة بالإلهام : أنى معكم بالنصر والتأييد ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ .

أى قوُّوا عزائم المؤمنين وثبتوا قلوبهم. أى اجعلوا قلوبهم كأنها مربوطة عليها فلا يخافون أية أغيار من عدوهم ، ويزيد الإيضاح للمؤمنين : إياكم أن تظنوا أن كثرةَ العدَد أو قوةَ العُدَد هى التى تصنع النصر. بل النصرُ دائماً من عند الله تعالى وسبحانه القائل :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وذلك لأن النسبة بين المؤمنين والكافرين غير متوازنة وتحتاج إلى مدد عال من الله تعالى. وقلنا إن السماء تتدخل إذا كان الأمر فوق أسباب الخلق ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وإن قال قائل : أنا أدعو الله أكثر من مرة ولا يجيبنى.. نرد عليه ونقول له : أنت لم تدع دعوة المضطر، بل دعوت دعوة المترف، مثلما يدعو ساكن فى شقة بأن يرزقه الله بقصر صغير. أو يدعو من يسير على أقدامه وتحمله سيارة العمل طالباً سيارة خاصة، أو يدعو من يملك «تليفزيونا» بأن يهبه الله جهاز «فيديو»، هذه كلها ليست دعوة اضطرار؛ لأن المضطر هو من فقد أسبابه.

ويتابع الحق القول فى ذات الآية :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

وإذا ألقى الله عز وجل الرعب والخوف فى قلوب العدو مهما كان عَدَدُه ومهما كانت عُدَدُه، فسيترك هذا العدو كل ما معه ويفر من حالة الرعب والفزع، وقد فعل بعض من الكفار ذلك . وقد امتنّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأن أمدهم بالملائكة بشرى واطمئناناً، وهيأ لهم الماء، وطهرهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان، وكل هذه مقدمات المعركة مستوفاة من جانب الحق تبارك وتعالى إمداداً لكم، وما عليكم أيها المؤمنون سوى أن تُقبلوا على المعركة بعزيمة صادقة، عزيمة المقاتل الشجاع المحارب الذى له من العقل ما يفكر به ويدبر فى التخطيط، وفى الكر والفر.

وكانت أدوات القتال قديماً هى السيوف والرماح والنبال، وكان المقاتل يحتاج رأسه ليخطط به، ويحتاج يديه وأنامله ليمسك بها السيف، ولذلك ينبه الحق المؤمنين إلى هاتين النقطتين المؤثرتين فيقول: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ .

والضرب لما فوق الأعناق هو ضرب الرأس فيفقد القدرة على التفكير ، أو تذهب حياته لينتهى ، وإن بقى على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائه وذلتهم. والضرب منهم فى كل بنان.. أى ضربهم بالسيوف فى أيديهم ؛ لأن الضرب فى الأيدى إنما يجرحها ويجعلها عاجزة عن القتال .

لماذا؟ . يجيب الحق فى الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾

وهنا يوضح الحق سبحانه وتعالى : أن هذا النصر المؤزر للنبى وصحبه والهزيمة للمشركين ؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ، و "شاقوا" من "الشق" ومعناه أنك تقسم الشئ الواحد إلى اثنين. وكان المفروض فى الإنسان منهم أن يستقبل منهج الله الذى نظم له حركته فى هذا الكون ، ولم يكن هناك داع لتبديد الطاقة بالانشقاق إلى جماعتين ؛ جماعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وجماعة مع الكفر والشرك ؛ لأن الطاقة التى كانت معدة لإصلاح أمر الإنسان والكون للخلافة ؛ إنما يتبدد جزء منها فى الحروب بين الحق والباطل ، ولو توقفت الحروب لصارت الطاقة الإنسانية كلها موجهة للإصلاح والارتقاء والنهوض وتحقيق الخير لبنى الإنسان ، لكنهم شاقوا الله ورسوله ، فجعلوا أنفسهم فى جانب يواجه جانب المؤمنين بالله والرسول ؛ لذلك استحقوا عذاب الله وعقابه ، وبسبب أنهم شاقوا الله ورسوله ، عليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأنفال)

وهذه قضية عامة، وسنة من الله فى كونه تشمل هؤلاء الذين شاقوا الله ورسوله من بدء الرسالة، وإلى قيام الساعة.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

وذلكم إشارة للأمر الذى حدث فى موقعة بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق، وضرب كل بنان كافر، وإن ربنا شديد العقاب، وهذا الأمر كان يجب أن يذوقه الكافرون. والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً، إلا أنه تعدى كل محسّ به ولو لم يكن مطعوماً أومشروبا ويقول ربنا عز وجل :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

أى ذق الإهانة والمذلة لا مما يُطعم أو مما يُشرب، ولكن بالإحساس؛ لأن ذوق الطعام هو الحاسة الظاهرة فى الإنسان؛ قد يجده بالذوق حريفاً، أو حلواً، أو خشناً أو ناعماً إلى غير ذلك. وها هو ذا الحق يضرب لنا المثل على تعميم شىء : فيقول عز وجل :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

والجوع سلب الطعام، فكيف تكون إذاقة الجوع ؟ الجوع ليس مما يذاق، ولا

اللباس مما يذاق، ومن قول الحق تبارك وتعالى نفهم أن الإذاقة هى الإحساس الشديد بالمطعوم، واللباس - كما نعلم - يعم البدن ، فكأن الإذاقة تتعدى إلى كل البدن، فالأنامل تذوق ، والرجل تذوق، والصدر يذوق، والرقبة تذوق؛ وكأن الجوع قد صار محيطاً بالإنسان كله. وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ذلكم فذوقوه﴾.

والذوق غير البلع والشبع ، ونرى ذلك فى عالمنا السِّلعى والتجارى؛ فساعة تشترى - على سبيل المثال - جوافة، أو بلحاً أو تيناً، يقول لك البائع : إنها فاكهة حلوة، ذق منها، ولا يقول لك كل منها واشبع، إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشترى لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك. وما نراه فى الدنيا هو مجرد ذوق ينطبق عليه المثل الريفى "على لسانى ولا تنسانى" ، والعذاب الذى رآه الكفار على أيدى المؤمنين مجرد ذوق هيّن جداً بالنسبة لما سوف يرونه فى الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم، وسيأتى الشبع من العذاب فى الآخرة، لماذا؟ ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾.

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء الكفار المعاندين، مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله على الكفر، وفى يوم القيامة يطبق عليهم القانون الواضح فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾.

إذن فالهزيمة لمعسكر الكفر والذلة هى مجرد نموذج ذوق هين لما سوف يحدث لهم يوم القيامة من العذاب الأليم والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً، و « العذاب » هو إيلام الحس، إذا أحببت أن تديم ألمه، فأبق فيه آلة الإحساس بالألم، ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن سليمان والهدهد يقول :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النمل)

كأن الذبح ينهى العذاب، بدليل أنّ مقابل العذاب فى هذا الموقف هو الذبح.

وماذا عن عذاب النار ؟. إن النار المعروفة فى حياتنا تحرق أى شىء تدخله فيها، لكنّ نار الآخرة تختلف اختلافا كبيرا لأن الحق هو القائل :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾

ونعلم أن نداء الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾، إما أن يكون بعدها أمر بمتعلق الإيمان ومطلوبه، وإما أن يكون بعدها الإيمان نفسه، ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

وبعضهم يقول : كيف ينادى مؤمنين ثم يقول لهم : « آمنوا » ؟ ، وهؤلاء المستفهمون لمْ يلتفتوا إلى أن الحق حين يكلم المؤمنين يعلَم أنهم مؤمنون بالفعل ، ولكن الأغيار فى الاختيار قد تدعوهم إلى أن يتراخى البعض منهم عن مطلوبات الإيمان. و « آمنوا » الثانية معناها : أنشئوا دائما إيماناً جديداً أى مستمراً يتصل بالإيمان الحاضر والإيمان المستقبل ، ليدوم لكم الإيمان.

فإذا كان ما بعد ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ أمراً بمطلوب الإيمان ، من حكم شرعى ، أو عظة أخلاقية. يكون أمرها واقعاً ، والمعنى : يا من آمنتم بى إلهاً قادراً حكيماً ، ثقوا فى كل ما آمركم به لأنى لا آمركم بشىء فيه مصلحة لى ؛ لأن صفات الكمال لى أزلية ، فخلقى لكم لم ينشىء صفة كمال ، فإن كلفتكم بشىء ، فتكليفى لكم يعود عليكم بالنفع والمصلحة لكم ، وضربنا المثل - ولله المثل الأعلى منزّه عن كل مثل - أنت تذهب إلى الطبيب بعد أن تتشاور مع أهلك وزملائك وتكون واثقاً بأن هذا هو الطبيب الذى ينفع فى هذه الحالة التى تشكو منها ، وساعة تذهب إليه يشخص لك المرض ويكتب لك الدواء ، وسواء استخدمت الدواء أم لم تستخدمه فأنت حر وأثر ذلك يعود عليك وعدم استعمالك الدواء لن يضر الطبيب شيئاً ، بل أنت الذى تضر نفسك ، كذلك منهج الله الذىْ جعله لصلاحية حركة الحياة. إن اتبعته وطبقته تنفع نفسك ، وإن تركته فلم تطبقه فسوف تضر نفسك ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

إذن فالاختيار لك والله سبحانه وتعالى قد خلقك ، وخلق الكون الذى يخدمك من قبل أن توجد ، وأنت طارىء على هذا الكون ، طارىء على الشمس وعلى القمر ، وعلى الأرض ، وعلى الجبال ، وعلى الماء وعلى أى

شىء فى هذا الوجود. والذى خلق ما سبقك لابد أن تكون له صفات الكمال المطلق. فهو سبحانه وتعالى قد خلق كل شىء بالحكمة والنظام، ومادامت له سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق المستوعبة، فهو لا يطلب منك بالتكاليف أن تنشىء له صفة كمال جديدة، وهو غنى عنك. فإذا اقتنعت بالإيمان فلمصلحتك أنت، ولم يكلفْك إلا بالأحكام التى تصلح من حالك. وحيثية كل حكم هو تصديره بـ ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾.

إياك أن تبحث عن علة فى الحكم؛ لأنك لو ذهبت إلى الحكم لعلته، لاشتركت مع غير المؤمنين، فالمؤمن - مثلا - حين سمع الأمر باجتناب الخمر، امتثل للحكم لأنه صادر من الله، من بعد ذلك عرف غير المؤمنين - بالتحليل العلمى - أن الخمر ضارة فامتنعوا عنها، فهل امتناعهم هو امتناع إيمانى ؟ لا .

إذن فإن المؤمن يأخذ الأمر من الله عز وجل لا لعلة الأمر بل لمجرد أنه قد صدر من الله؛ لذلك يمتثل للأمر وينفذه.. فالمسلم يمتثل لأوامر الله ويؤدى العمل الصالح دون بحث أو تساؤل عن علته، فحين يقال - على سبيل المثال - إن من فوائد الصيام أن يذوق الغنى ألم الجوع، ويعطف على الفقير، حين أسمع من يقول ذلك أقول له : قولك صحيح لأن فيه لمسة من فهم، لكن ماذا عن صوم الفقير الذى ليس عنده ما يعطيه لغيره، ألا يصوم أيضاً ؟.

إن المؤمن يصوم لأن الأمر جاء من الله بالصيام. ومعظم أحكام الله تأتى مسبوقة بقوله: ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾، أى : يا من آمنتم بى إلهاً أقبلوا علىّ، فإنكم إن بحثتم عن العلة، ثم نفذتم الحكم لعلته فأنتم غير مؤمنين بالإله الآمر والمشرع، لكنكم مؤمنون بعلة المأمور به، والله يريدك أن ترضخ له فقط، ولذلك يأمرك بأوامر وينهاك بنواه، فأنت - مثلا - حين تحج بيت الله الحرام، تسلم على الحجر الأسود بأمر من الله، وقد تتيح لك الظروف أن تقبّل هذا

الحجر كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت فى كل ذلك لا ترضخ للحجر. بل للآمر الأعلى الذى بعث محمداً بحرب على الأصنام وعلى الأحجار، وأنت تتبع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنتهى التسليم والإيمان، وتذهب بعد ذلك لترجم الأحجار التى هى رمز إبليس. وتفعل ذلك تسليماً لأوامر الله تعالى التى بلغتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فمادمت قد آمنت بالإله، لابد أن تدافع عن منهج الإله؛ لأن هذا أيضاً لمصلحتك؛ لأنك بإيمانك بالله أيها المؤمن ينتفع المجتمع كله بخيرك، ولن يأمرك سبحانه إلا بالخير، فلن تسرق، ولن تزنى، ولن تشرب خمراً، ولن تعربد فى الناس، ولن ترتشى، وبكل ذلك السلوك ينتفع المجتمع؛ لأن المجتمع يضار حين يوجد به فريق غير مهتد. وأنت حين تقاتل لتفرض الكلمة الإيمانية على هؤلاء، فهذا يعود إلى مصلحتك، ولذلك فإن اتصافك بالإيمان لا يتحقق إلا إن عديته لغيرك، ومن حبك لنفسك، أن تعدى الإيمان بالقيم التى عندك إلى غيرك لتنتفع أنت بسلوك من يؤمن، وينتفع غيرك بسلوكك معه، ومن مصلحتك أن يؤمن الجميع.

وحين يكلفك الحق تبارك وتعالى بالجهاد فى سبيل الله فأنت تفعل ذلك لصالحك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

وزحفاً مصدر زَحَفَ، والزحْف في الأصل هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر بالنصف الأعلى من الجسم. وتقول: « الولد زحف » أي تحرك من مكانه بنقل يديه وشد بذلك بقية جسمه. كما نقول: « حبا » . أي استعمل الوركين والركبتين ليتحرك بجسده على الأرض، ثم نقول: « مشى » أي وقف على قدميه وسار، فتلك إذن مراحل تبدأ من زَحْف ثم حَبْو ثم مَشْى، والطفل يبدأ حركته الأولى بالزحف، بعد أن يتمكن من السيطرة على رأسه، ويمتلك القدرة على تحريكها بإرادته، ويقوى نصفه الأعلى، فيقعد، ثم يزحف، وبعد ذلك تقوى فخذاه فيحبو، ومن بعد ذلك تقوى الساقان فيمشى.

إذن قوة الطفل تبدأ من أعلى.

ولكن ما حكاية « زحفا » هنا في هذه الآية الكريمة ؟ ولماذا لم يقل هَرْولوا إلى القتال ؟. ونقول : إن الزحف هو انتقال كتلة لا ترى الناقل فيها، فمن يراها يظن أن الكتلة كلها تتحرك.

وكأن الحق تعالى يقصد : أريد منكم أن تتحركوا إلى الحرب كتلة واحدة متلاصقين تماماً فيظهر الأمر وكأنكم تزحفون . وزحفاً أصلها زاحفين، وقد عدل سبحانه وتعالى عن اسم الفاعل وجاء بالمصدر، مثلما نقول عن إنسان عادل : إنه إنسان عدل، أي أن عدله مجسم. ولذلك نجد الشاعر يقول عن الجيش الزاحف :

خميس (١) بِشَرْقِ الأرضِ والغربِ زحفُه

وفى أذنِ الجــوزاءِ منه زمــازم (٢)

---

(١) وسمي الجيش بذلك؛ لأنه خمس فرق : المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساق.
(٢) زمازم : جمع زمزمة؛ وهو صوت الرعد.

والخميس هو الجيش الجرار ، ويريد الشاعر أن يصوّر الزحف كأنه كتلة واحدة متماسكة ومترابطة ، بحيث لا تستطيع أن تميز حركة جندى من حركة جندى آخر ، حتى ليخيّل إليك أن الكتلة كلها تسير معاً. ومن يريد أن يتأكد من ذلك ندعو الله أن يكتب له الحج ويصعد إلى الدور الثانى من الحرم المكى الشريف ويرى الطائفين ، ويجدهم ملتحمين جميعاً كأنهم كتلة واحدة تسير ، ولذلك سمّوها «السيل» .

و« سالت بأعناق المطى الأباطح »

مَثلُهم مثل السيل فى تدفقه لا تفرق فيه نقطة عن أخرى.

والحق تبارك وتعالى يوضح لنا هنا أن لقاء الكفار يجب أن يكون زحفاً أى كتلة واحدة متماسكة ، فيصيب المشهد الكافرين بالرعب حين يرون هذه الكتلة الضخمة التى لا يفرق أحد بين أعضائها ، وهكذا تكون المواجهة الحقيقية.

ويواصل الحق سبحانه وتعالى التنبيه فيقول :

﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

أى لا تعطوهم ظهوركم ، وهو سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول :

﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

ويريد الله أن يعطى صورة بشعة فى أذن القوم؛ لأن « الأدبار» جمع « دبر » والدبر مفهوم أنه الخلف ويقابله القُبُل ، وهذا تحذير لك من أن تمكن عدوك من ظهرك أى دبرك ، لأن هذا أمر مستهجن ، ولذلك نجد الإمام عليا - كرّم الله

وجهه - يرد على من قالوا له إن درعك له صدار وليس له ظهار ، أى مغطى من الصدر ، وليس له ظهر. وهنا يقول الإمام على رضى الله عنه : « ثكلتنى أمى إن مكّنت عدوى من ظهرى » ، وكأن شهامة وشجاعة الإمام تحمله على أنه يترك ظهره من غير وقاية.

وفى قول الحق جل وعلا « فلا تولوهم الأدبار » تحذير من الفرار من مواجهة العدو.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة لم يرتب الغضب منه إلا على من يولى الدبر هَرباً وفراراً من لقاء الأعداء. أما الذى يولى الدبر احتيالاً ولإيهام العدو بأنه ينسحب وفى ذات اللحظة يعاود الكرّة على العدو مطوّقاً له ، فهذا هو المقاتل الحق والصادق فى إيمانه الذى يمكر بالعدو. وكذلك من يولى الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضيع منه حياته بلا ثمن ، فهذا أيضاً من أعمل فكره ليُنزل بالعدو الخسارة ؛ لأن المؤمن يحرص دائما على أن يكون موته بمقابل ، فإذا ما وعده الله بالجنة. ألا يقاتل هو ليصيب الأعداء بالهزيمة ؟. وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة كافرين ، بمعنى أن الله تعالى منح كل مؤمن قوةً تغلب عشرة ، مصداقاً لقوله عز وجل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولكن علم الله أن بالمؤمنين ضعفاً فجعل مقابل المؤمن فى المعركة اثنين من الكفار، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولذلك فإننا نجد الذى يفر أمام ثلاثة من الأعداء لا يسمى فاراً فى الحكم الشرعى. لكن من يفر من مواجهة اثنين، يعد فاراً ؛ لأن الحق تعالى قال قبل أن يوجد فينا الضعف :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى أن المقاتل المؤمن كان يمكنه أن يواجه عشرة من الكافرين. فإن كان المقابل أقل من عشرة كافرين ، فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه حتى لا يموت رخيص الثمن. ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى أن الضعف سيصيب المؤمنين ؛ لذلك قال :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

وهكذا انتقلت النسبة بين المؤمنين والكافرين من واحد لعشرة ، إلى مؤمن مقابل اثنين من الكفار ، وهذا من رحمة الله تعالى ، فمن رأى نفسه فى مواجهة أكثر من اثنين من الأعداء يوضح له الحق تعالى : عليك أن تنحاز إلى فئة من المؤمنين تعصمك من نيلهم منك بلا ثمن.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

وعرفنا أن المتحرف للقتال هو صاحب الحيلة ، ونقول فى ألفاظنا التى تجرى على ألسنتنا فى حياتنا اليومية : « فلان حريف » أى لا يغلبه أمر ويحتال عليه ، وهكذا يكون المتحرف فى القتال الذى يكيد للكافرين ويدبر لهم أشياء فيظنون الانهزام ، وهى فى الواقع مقدمات للنصر ، وقوله سبحانه : « أو متحيزا » مأخوذ من « الحيز » ، وهو المكان الذى يشغله الجسم ، وكل واحد منا له « حيز » فى مكان يشغله ، أى أن كل واحد منا متحيز ، والحيز هو الظرف المكانى الذى يسع الإنسان منا واسمه ظرف مكان ، وكل واحد من المخاطبين له مكان وهو متحيز بطبيعته ، وجاءت كلمة «متحيز» فى هذه الآية لتوجه كل مؤمن مقاتل أن يأخذ لنفسه حيزاً جيداً يمكنه من إصابة الهدف ، وكذلك تفيد ضرورة انضمام المقاتل دائما إلى فئة مع إخوانه بهدف تقوية المواجهة مع العدو. ومن لا يفعل ذلك فعليه أن يتلقى العقاب من الله ، وقد بينه تعالى فى قوله سبحانه :

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

و « باء » تعنى رجع ، والتعبير الأدائى فى القرآن الكريم مناسب لما فعلوه ؛

لأن من يعطى الأعداء دبره فهو الراجع عن الزحف والقتال. لكن من يرجع بهدف الكيد للأعداء والمناورة فى القتال أو لتقوية جماعة أخرى من المؤمنين، فهذا له وضع مختلف تماما، إنه ناصر لدين الله، عكس المنسحب الفار الذى يصحبه فى انسحابه غضب من الله، والغضب من الله - كما نعلم - هو سبب من أسباب إنزال العذاب، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٦ من سورة الأنفال)

والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان، ونعلم أن الواحد منا حين يرغب فى الراحة فهو يأوى إلى المكان الذى يجد فيه الراحة والأمن من كل سوء.

والفارُّ من مواجهة العدو فى معارك الإسلام لن يجد مأوى إلا النار، بل وترحب به النار ويدور حوار بينها وبين الحق عز وجل يوم القيامة توضحه الآية الكريمة :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

ويُثْبتُ الحق فى قرآنه الكريم أن النار تغتاظُ من الكافرين لأنها جندٌ من جنود الله تعالى ومسخرة لتنفيذ حكم الله، فمن خالف المنهج فى الدنيا تتلقاه النار بتغيظ وزفير، ويسمع الكافرون تغيظها حين تراهم من بعد، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وحين تكون النار هى المأوى، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟.

كأن الراجع من الزحف والفارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أن يُقتل، سيذهب إلى شىء شر من القتل.

ثم يربب الحق فى المؤمنين ويطلب منهم ألآيفتتنوا بالأسباب فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وقول الحق تبارك تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

مثل قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وفى هذا تربيب من الحق تبارك وتعالى للمؤمنين، فكما أن النصر من عند الله عز وجل لمن أخذ بالأسباب، كذلك قتل الكافرين كان بإرادته سبحانه لمن كفر ووقع هذا القتل بيد المؤمن، فالمؤمن يضرب بالسيف، وينجرح العدو وينزف، لكن ألم تر جريحاً لم يمت، وألم تر غير مجروح يموت ؟. إذن فالقتل هو من الله .

سبحـــــان ربى إن أراد فـــلا مرد له يفوت

كم من جريح لا يموت وغير مجروح يموت

إذن فالمؤمنون حين حاربوا أهل الكفر. إنما يجرحونهم فقط، أما الموت فهو واقع بهم من الله سبحانه وتعالى.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

ولقائل أن يقول : إن الحق تبارك وتعالى قال فى موقع آخر :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

إذن فللمؤمن المقاتل مظهرية القتال، وللحق حقيقة القتل. ولذلك يأتى سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

وفى هذا القول الكريم عطاء لشىء كان مجهولا لهم بشىء عُلم لهم، وبذلك قاس غير معلوم بمعلوم. وعرفنا من قبل أنك إذا رأيت حدثا أو فعلاً منفياً ومثبتا له فى وقت واحد، قد يبدو لك أن فى الكلام تناقضاً. وهنا - على سبيل المثال - ينفى الحق الحدث فى قوله : « وما رميت » ويثبته فى قوله : « إذ رميت ». والرمى معروف. والفاعل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف ينفى عنه الفعل أولاً، ويثبته له ثانياً ؟.

ونعلم أن القائل هو رب حكيم، وأسلوبه على أعلى ما يكون. وحتى نفهم هذه المسألة، نحن نعرف أن كل حدث له هيئة يقع عليها وله غاية ينتهى إليها، فمرة يوجد الحدث، لكن الغاية منه لا تتحقق، مثلما يقول الوالد لولده : لقد قرب الامتحان فاجلس فى حجرتك وذاكر. ويجلس الولد فى حجرته وأمامه كتاب ما يقلب صفحاته، وبعد ساعة يدخل الأب حجرة ابنه ليقول : هات كتابك لأسألك فيما ذاكرته. ويسأل الأب ابنه سؤالاً ثم ثانياً فلا يعرف الابن الإجابة عن الأسئلة، فيقول الأب : ذاكرت وما ذاكرت. أى كأنه لم يذاكر، بل فعل الفعل شكلياً، بأن جلس إلى المذاكرة، ولم يؤد ما عليه لأن أثر الفعل وهو المذاكرة لم يتحقق.

وفى غزوة بدر استنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه واستغاث ودعا الله ورفع يديه فقال :

(يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم) فأخذ صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلاّ أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين (١) ومعلوم أنه ساعة تأتى ذرة تراب فى عينى الإنسان يشتغل بعينيه عن كل شىء. إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

أى أنك يا رسول الله ما أرسلت بالرمية الواحدة - حفنة التراب - إلى عيون كل الأعداء ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد، ولكنك « إذ رميت » أى أديت نصيحة جبريل لك، أما الإيصال إلى عيون العدو فهذا من فعل الله

(١) رواه الطبرى والقرطبى وابن كثير.

القوىّ القادر.

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

والبلاء الحسن هنا هو خوض المعركة وحسن أداء القتال فيها.

ويخطىء الإنسان حين يظن أن البلاء هو نزول المصائب، لا، إن البلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور . فالطالب الذى استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسناً، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئاً. إذن فالابتلاء غير مذموم على إطلاقه، ولا ممدوح على إطلاقه، لكن بنتيجة الإنسان فيه هل ينجح أم لا.

وحتى نعرف أن القرآن يفسر بعضه بعضا فلنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنبياء)

فالخير بلاء، كما أن الشر بلاء، وحين تستخدم الخير فى خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله، فهذا كله اختبار من الله عز وجل ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وهذا هو الابتلاء بالخير ، أما الابتلاء بالشر فيقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

والابتلاء بالخير أو بالشر هو مجرد اختبار، والاختبار كما وضحنا غير مذموم على إطلاقه، ولا ممدوح على إطلاقه، ولكنه يذم ويمدح بالنسبة لغايته التي وصل إليها المبتلى أو من يمر بالاختبار، فإن نجح، فهذا ابتلاء حسن، وإن فشل، فهو ابتلاء سيىء.

ونلحظ – على سبيل المثال – أن الطالب الذى ركز فكره ووقته وحبس نفسه وبذل كل طاقته فى التحصيل والاستذكار طوال العام الدراسى، هذا الطالب حين يدخل الامتحان. فهو يحاول أن يثأر من التعب الذى عاناه فى التحصيل والإحاطة؛ لذلك يجيب على الأسئلة بدقة، وكلما انتهى من إجابة سؤال إجابة صحيحة، يشعر ببعض الراحة، وإن حاول زميل له أن يشوش عليه فهو يصده ولا يلتفت إليه، بل قد يستدعى له المراقب.

والمؤمن الذى يشترك مع المؤمنين فى البلاء الحسن هو مثل التلميذ الذى يؤدى ما عليه بإخلاص.

والذى يسمع همسة كل مؤمن ويرى فعله هو الحق سبحانه وتعالى، ولذلك جاء بعد الحديث عن البلاء الحسن بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

« من الآية ١٧ سورة الأنفال »

إذن فالله سبحانه وتعالى سميع بما تجهرون به وعليم بما تخفونه فى صدوركم. وهو جل وعلا يعلم من حارب بقوة الإيمان، ومن خالطته الرغبة فى

أن يرى الآخرون مهارته فى القتال ليشيدوا ويتحدثوا بهذه المهارة. ولا أحد بقادر على أن يدلس على الله عز وجل.

ويقول سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

و « ذلكم » إشارة إلى أن الأمر كان كذلك، وسبحانه وتعالى هنا يخبرنا أنه موهن كيد الكافرين، أى يضعف هذا الكيد، ولسائل أن يقول : لماذا لا ينهاهم ؟ ولماذا يضعف الكفر فقط ؟ ونقول : إن إضعاف الكفر يُهَيِّج على الإيمان ويحسب المؤمنين فى الإيمان حين يرون آثار الكفر التى تفسد فى الأرض وهى تضعف، ولأن الحمية الإيمانية تزيد حين يهاج الإسلام من خصومه. إذن فبقاء الكفر لون من استبقاء الإيمان.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

و « تستفتحوا » من الاستفتاح وهو طلب الفتح ؛ لأن الألف والسين والتاء تأتى بمعنى الطلب، فنقول : استفهم أى طلب الفهم، و « إن تستفتحوا »، أى تطلبوا الفتح، ونعلم أن المعنويات مأخوذة كلها من الأمر الحسىّ ؛ لأن أول إلف للإنسان فى المعلومات جاء من الأمور الحسّية، ثم تتكون للإنسان المعلومات العقلية. ومثال ذلك قولنا : « إن النار محرقة »، وعرفنا هذا القول

من تجربة حسّية مرت بأكثر من إنسان ثم صارت قضية عقلية يعرفها الإنسان وإن لم ير ناراً وإن لم ير إحراقاً.

وعندما تجتمع المحسات تتكون عند الإنسان خمائر معنوية وقضايا كلية يدير بها شئونه العامة، ومثال ذلك : إننا نعرف جميعاً أن المجتهد ينجح، وأخذنا هذه الحقيقة من الواقع ، تماماً كما أخذنا الحقيقة القائلة : إن المقصر والمهمل كل منهما يرسب.

وسبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه فيقول :

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

أى أن الإنسان منا مخلوق وهو خالى الذهن، وخلو الذهن يطلب الامتلاء، وكل معلومة يتلقاها الذهن الصغير يستطيع أن يستظهرها فوراً، ولذلك نجد التلميذ الصغير أقدر على حفظ القرآن الكريم من الشاب الكبير؛ لأن هذا الشاب الكبير قد يزدحم ذهنه بالمعلوم العقلى.

وقد شرح لنا علماء النفس هذه المسألة حين قالوا : إن لكل شعور بؤرة هى مركز الشعور. والأمر الذى تفكر فيه تجد المعلومات الخاصة به فى ذهنك فوراً. وقد تتزحزح هذه المعلومات من ذاكرتك إذا فكرت فى موضوع آخر، كما تتزحزح المعلومات الخاصة بالموضوع السابق إلى حافة الشعور لتحل مكانها المعلومات الخاصة بالموضوع الجديد فى بؤرة الشعور.

والحيز فى المعنويات مثله مثل الحيز فى الحسِّيات، فأنت حين تملأ زجاجة بالمياه لابد أن تكون فوهة الزجاجة متسعة لتدخل فيها المياه ويخرج الهواء الذى بداخل الزجاجة. لكن إن كانت فوهة الزجاجة ضيقة كفوهة زجاجة العطر مثلا

فهذه يصعب ملؤها بالمياه إلا بواسطة أداة لها سن رفيع كالسرنجة الطبية حتى يمكن إدخال المياه وطرد الهواء الموجود بداخل الزجاجة ذات الفوهة الضيقة.

وهكذا نرى أن الحيز فى الأمور المحسة لا يسع كميتين مختلفتى النوعية، ويكون حجم كل منهما مساوياً لحجم الحيز. وتقترب المسألة فى المخ من هذا الأمر أيضاً، فأنت لا تتذكر المعلومات الخاصة بموضوع معين إلا إذا كان الموضوع فى مركز الشعور، فإذا ما ابتعد الموضوع عن تفكيرك بعدت المعلومات الخاصة به إلى حاشية الشعور البعيدة. والطفل الصغير يكون خالى الذهن لذلك يستقبل المعلومات بسرعة ويكون مستحضرا لها.

ولذلك لا يجب أن نتهم إنساناً بالغباء وآخر بالذكاء لمجرد قدرة واحد على سرعة التَّذكر وعجز الآخر عن مجاراة زميله فى ذلك، فالذكاء له مقاييس متعددة مازال العلماء إلى الآن يختلفون حولها. لكن فى موضوع التذكر اتفق جانب كبير من العلماء على أن الذهن كآلة التصوير يأخذ المعلومة من أول لقطة شريطة أن تكون بؤرة الشعور خالية لهذه المعلومة. أما إن كانت بؤرة الشعور مشغولة بأمر آخر فهى لا تلتقط المعلومة. والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

والسمع والأبصار هما عمدة الحواس، نأخذ بهما محسّات ونُكَوّنُ منها معلومات عقلية.

والحق تبارك وتعالى هنا يقول :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والفتح يُطلق إطلاقات متعددة ، منها الحسّى ، مثل فتح الباب أو فتح الكيس ويقصد إزالة إغلاق شىء يصون شيئاً ، مثل فتح الباب ، والباب إنما يصون ما بداخل الغرفة. والفتح الحسّى يمثله القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة يوسف)

أى إن إخوة يوسف حين فتحوا الأخراج - وكانت هى بديلة الحقائب - وجدوا البضاعة التى كانوا قد أخذوها معهم ليستبدلوا بها سلعاً أخرى. وهذا هو الفتح الحسّى.

وقد يكون الفتح فى الأمور المعنوية كالفتح فى الخير وفى العلم مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾

(من الآية ٢ سورة فاطر)

إذن ففتح الرحمة فتح معنوى.

وقد يكون الفتح فى الحكم ؛ لأن الحكم يكون بين أطراف مشتبكة فى قضية ، وكل طرف يدّعى على الآخر ، ويأتى الحكم ليزيل خفاء القضية ويَفْتَحها.

ومثال ذلك ما حدث بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه. فقومه قالوا :

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الشعراء)

فماذا قال سيدنا نوح عليه السلام ؟ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أن سيدنا نوحاً عليه السلام قد دعا الله أن يفصل فى القضية التى بينه وبين قومه بالحق وهو يعلم أن الله تعالى معه. لذلك طلب منه النجاة لنفسه ولمن معه من المؤمنين.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الفتح يأتى بمعنى الحكم الذى يفصل بين المتنازعين، وهو صلب حكم يفصل بين فريقين، فريق الهدى والداعى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين، وفريق الضلال وهم كفار قريش.

وقد استفتح الفريقان، فقد قال أبو جهل حين التقى القوم: « اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحنه [1] الغداة» [2].

لقد ظن أبو جهل أن سيدنا محمدا صلى الله عليه ويسلم يقطع رحمهم، ويجعل الولد يترك أباه وأمه، وأيضاً كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى

(١) أحِنْهُ : أى أهلكه .
(٢) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا :

« اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين »

هكذا كان دعاء الكفار.

أما دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو قوله :

(يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً) .

والاستفتاح من الطرفين يدل على أن كلا منهما مجهد بأمر الآخر ، فلو كان أحدهما مرتاحاً والآخر متعباً لطلب المتعب الفتح وحده.

وجاء الحكم من الله سبحانه وتعالى فى القضية هذه ، حيث حكم تبارك وتعالى على الكافرين بأن يُسلبوا ويقتلوا ويصبحوا مثار السخرية من أنفسهم وممن يرونهم وقد استحقوا ذلك بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم ومحاربتهم للحق ، والذى رجح أن الفتح جاء أيضاً من المؤمنين أن الحق قال :

﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

أى إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح ، وهذا الفتح كان فى صالح المؤمنين ، وأيضاً فى صالح دعاء الكافرين ، إنه جاء فى الأمرين الاثنين ؛ فتح للمؤمنين ، وفى صالح دعاء الكفار. فأنتم - أيها الكافرون - قد دعوتم ، فإما أن تكونوا قد دعوتم والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم ، وهذا دليل على أنكم أغبياء فى الدعاء ، ومادام الفتح قد جاء ، كان الواجب أن ينتهى كل فريق عند الحد الذى وقع ، وكان على الكافرين أن يقتنعوا بأنهم انهزموا ، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا.

﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

و « تنتهوا » هذه صالحة أولاً بظاهرها للكفار ، أى إن تنتهوا عن معاداة الرسول وخصومته ، واللجج فى أنكم جعلتموه عدوا ، وتتكتلون وتتآمرون عليه ، فإن تنتهوا فهذا خير لكم فى دنياكم لأنكم قد رأيتم النتيجة. حيث قتل البعض من صناديدكم ، وأسر البعض الآخر ، وأخذت منكم الأسلاب والغنائم. فإن انتهيتم عن العمل الذى سبب هذا فهو خير لكم فى دنياكم ، وخير لكم أيضاً فى أخراكم ؛ إذا كان الانتهاء سيئول بكم إلى أن تنتهوا عن مخاصمة الدين الذى تخاصمونه وتصبحوا من المنتمين إليه.

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وإن لم تنتهوا وعدتم إلى العداء ومحاربة هذا الدين فسنعود لنصرة المؤمنين ، وإياكم أن تقولوا إنكم فئة كثيرة ؛ ففئتكم لن تغنى من الله عنكم شيئاً ، والدليل على ذلك أنكم هزمتم فى بدر وأنتم كثرة ، وأصحاب عدد ، وأصحاب عدة. فما أغنت عنكم كثرتكم ولا عدتكم شيئا.

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وكان المؤمنون قلة ورغم ذلك كانوا هم الغالبين.

وما تقدم إنما يعنى الكلام بالنسبة للكفار ، فماذا إذا كان الكلام والاستفتاح

بالنسبة للمؤمنين، ففي أي شيء ينتهون ؟.

إن عليهم أن ينتهوا عن اللجاج والخلاف في الغنائم، الذي جاء فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وهم قد اضطروا أن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ربه، فإن عادوا للنزاع والجدل فيما بينهم وكأنهم فريقان متعارضان غير مجموعين على إيمان، فلن تغني فئة عن أخرى شيئا، وعليكم أن تعلموا يا أهل الإيمان أنه إن عزت طائفة منكم، فلتهن أمامها الطائفة الأخرى، ولا تظنوا أنكم بالنصر قد صرتم كثيراً لأن النصر لم يكن لا بالفئة ولا بالملائكة، ولكن النصر كان من عند الله العزيز الحكيم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا نداء واضح من الله عز وجل للمؤمنين، وأمر محدد منه بطاعة الله والرسول؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم القلبي بالله وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وعلى المؤمنين أن يؤدوا مطلوب الإيمان. ومطلوب الإيمان - أيها المؤمنون - أن تنفذوا التكاليف التي يأتي بها المنهج من الله عز وجل، ومن المبلغ عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الأوامر وفي النواهي.

وقد فصلنا من قبل مسألة الطاعة، الطاعة لله تكون فى الأمر الإجمالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تكون فى اتباع الحكم التفصيلى التطبيقى الذى يأتى به رسول الله للأمر الإجمالى. وكذلك تكون طاعة الرسول واجبة فى أى أمر أو حكم؛ لأن الله قد فوض رسوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

ويتمثل التفويض من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الملحظ الجميل فى الأداء القرآنى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والتولى - كما نعلم - هو الإعراض، والأمر هنا بعدم الإعراض، ومادمتم قد آمنتم فلا إعراض عما تؤمنون به. والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقل : ولا تولوا عنهما . قياساً بالأسلوب البشرى. لكنه قال : « ولا تولوا عنه » أى أنه سبحانه وتعالى قد وحد الكلام فى أمرين اثنين؛ طاعة الله وطاعة الرسول، ولأن الرسول مبلغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين؛ لأن طاعة الرسول هى طاعة لله تعالى.

أو نقول : إن التولى لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله ، فلا أحد بقادر على أن يتولى عن الله ؛ لأن الله لاحقه ومدركه فى أى وقت.

لذلك نجد الحق تبارك وتعالى يقول فى آية ثانية :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهو سبحانه وتعالى فى هذا القول يوحد بين رضاء الله والرسول فيجعله رضاءً واحداً ، فالواحد من هؤلاء يقسم أنه لم يفعل الفعل المخالف للإيمان إرضاءً للمؤمنين ، وليبرىء نفسه عند البشر ، لكن هناك رضاء أعلى هو رضاء مراعاة تطبيق المنهج الذى أنزله الله عز وجل وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهناك قيوم أعلى يرقب كل سلوك ، ويعلم ما ظهر وما بطن. فلو كنا متروكين لبعضنا البعض لكان لأى إنسان أن يواجه الآخر ، كل بقوته ، لكن نحن فى الإيمان نعلم أننا تحت رقابة المقتدر القيوم ، فمن ظلم أخاه ؛ وغفر المظلوم لظالمه ، فالله سبحانه وتعالى رب الظالم ورب المظلوم - لا يغفر للظالم بل يؤاخذه.

وسبحانه وحد أيضاً فى هذه الآية بين رضاء الله ورضاء الرسول ولم يقل : والله ورسوله أحق أن يرضوهما بظاهر الأسلوب فى لغة البشر ، لكنه شاء أن يوحد الرضاء ؛ لأنه يدور حول أمر واحد بطاعة واحدة ، وحول نهى واحد بانتهاء واحد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا الأمر بطاعة الله تعالى والرسول بلاغ من الله، والبلاغ أول وسيلة له الأُذن، لأن الأُذن أول وسيلة للإدراكات، ولذلك فإنّ الرسول يبلغ الأوامر بالقول للناس، ولم يبلغهم بالكتابة؛ لأن كل الناس لا تقرأ، فأبلغ صلى الله عليه وسلم الناس قولاً كما أمر أن يكتب القرآن ليظل محفوظا.

ونعلم أن السماع هو الأصل فى القراءة. وأنت لا تقرأ مكتوباً، ولا تكتب مسموعاً إلا إذا عرفت القواعد، وعرفت كيفية نطق الحروف.

والمعلم يعلم طالب المعرفة القراءة والكتابة عن طريق السماع أولاً، إذن فالسماع مقدم فى كل شيء، ولن يستطيع واحد أن يقول فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تبلغنى الدعوة؛ لأن الدعوة أبلغت للناس بالسماع، وقوله: « وأنتم تسمعون » تعطينا أن الإنسان إن لم تبلغه الدعوة، فليس مناطاً للتكليف، لأن ربنا سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

والمجتمعات التى تعيش فى غفلة وليس عندهم رسول ولم يبلغهم المنهج، لن يعذبهم الله، وهذا أمر وارد الآن فى البلاد النائية البعيدة عن الالتقاء بالإسلام وبمنهج الإسلام، وبالسماع عن الإسلام؛ لأنهم ما سمعوا شيئاً عن الدين ولم يعرفوا منهجه. وهؤلاء ناجون من العذاب طبقاً لقول الله تعالى:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

فثمرة بعث الرسول أن يبلغ الناس، ولذلك أخذنا حكما هاماً من الأحكام من قوله الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

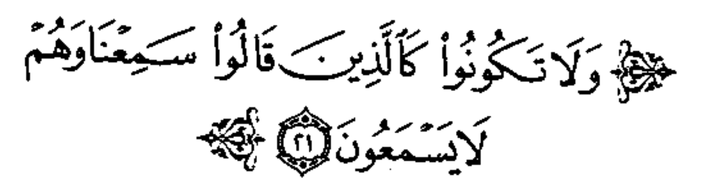
(من الآية ٢٠ سورة الأنفال)

أخذنا من هذا القول أن من لم يبلغهم المنهج لا يحاسبون. ولكن أيكفى السماع فى أن نعلم المنهج . لا ، لا يكفى فى السماع أن نعلم أن هناك رسولاً جاء ليعقب على رسول سبق ، ولكن عليك أن تبحث أنت. فإن كان فى الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناجٍ ، وإن كان قد بلغه خبر رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه ، بدليل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها ، ويشغل نفسه بالبحث.

ولنفرض أن إنساناً قال فى قرية : إن الدولة ستغير بطاقة التموين ، ألا يتجه كل فرد فى القرية ليسأل عن هذا الأمر ويهتم به كل الاهتمام ؟. إذن كان يكفى فى وصول البلاغ أن يسمع الإنسان رسولاً فى العرب قد جاء للناس كافة برسالة عامة ، وأن هذه الرسالة تعقب الرسالات السابقة ، ومن سمع هذا السماع كان عليه أن يعامل هذا الخبر معاملة المصالح الدنيوية الأساسية لأنه اذا كان أمر الدنيا هاماً فما بالنا بأمر صلاح الدنيا والآخرة ؟.

وجزء من التبعة فى ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجدُّوا ويبلغوا منهج الله ودين الله إلى غيرهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :



﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ﴾

ففى هذه الآية الكريمة ينهانا الحق جل وعلا أن نكون مثل من قالوا :

«سمعنا» وحكم الله بأنهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا ؛ لأن المراد بالسماع ليس أن تسمع فقط ، بل أن تؤدى مطلوب ما سمعت ، فإن لم تؤد مطلوب ما سمعت ، فكأنك لم تسمع. بل تكون شراً ممن لم يسمع ؛ لأن الذى لم يسمع لم تبلغه دعوة ، أما أنت فسمعت فبلغتك الدعوة ولكنك لم تستجب ولم تنفذ مطلوبها.

إذن قول الله تعالى :

﴿ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأنفال)

يفسر لنا أن هذا السماع منهم كان مجرد انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة التى تحدث ، ولم يأخذوا ما سمعوه مأخذاً جاداً ليكون له الأثر العميق فى حياتهم. فإذا لم يتأثروا بالمنهج ، فكأنهم لم يسمعوا ، وياليتهم لم يسمعوا ؛ لأنهم صاروا شراً ممن لم يسمع.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أو أن السمع يراد ويقصد به القبول ، مثلما نقول : اللهم اسمع دعاء فلان ، وأنت تعلم أن الله سميع الدعاء وإن لم تقل أنت ذلك ، لكنك تقول : اللهم اسمع دعاء فلان بمعنى « اللهم اقبله » ، فيكون المراد بالسمع القبول.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وكلمة « دابَّة » تعنى كل ما يدب على الأرض، ولكنها خُصَّتَ عرفاً بذوات الأربع. وجمع دابة دوابّ.

و « الدواب » كما نعلم هى القسم الثالث من الوجود، لأن الوجود مرتقى إلى حلقات؛ أولها الجماد، وثانيها النبات، وثالثها الحيوان، ورابعها الإنسان، ويجمع هذه الأشياء الأربعة رباط واحد، فنجد أن أعلى مرتبة فى الأدنى، هى أول مرتبة فى الأعلى، فالأدنى هو الجماد، وفوقه النبات، وأعلى شىء فى الجماد، يُمثل أول شىء فى النبات، مثل المرجانيات، كأن الجماد نفسه له ارتقاءات فى ذاته تتوقف عند مرحلة معينة لا يتعداها، فلا ترتقى إلى أن تصير نباتاً، أو أن يصبح النبات حيواناً، لا، إن كل قسم يظل مستقلا بذاته وفيه ارتقاءات تقف عند حد معين. وإذا كان أعلى شىء فى الجماد يكاد أن يماثل أول شىء فى النبات. فهو لا يتحول نباتاً مثل ظاهرة نمو الشعاب المرجانية التى أخذت ظاهرة النبات، لكنها لا تنتقل إلى نبات، بل تظل أعلى قمة فى الجماد. وكذلك النبات، نجده يرتقى إلى أن ينتهى إلى أعلى مرحلة فيه. فالنبات مراحل، وآخر مرحلة فيه أن يوجد نبات يُحسّ، لأن الإحساس فرع الحياة، وهذا ما نراه فى نباتات الظل التى نشاهدها وهى تتجه بطبيعة تكوينها إلى نور النهار. وكأن فيها نوْعاً من الإحساس. وإن تغير مكان الضوء، فإنها تُغيِّر اتجاهها إلى المكان الجديد.

وهناك نوع من النبات يذبل فور أن تلمسه. ونسمع عن نبات يسمى فى الريف « الست المستحية » وهى تغلق أوراقها على ثمرتها فور اللمس، وأخذت

أعلى مرتبة فى النبات، وهى أول مرتبة فى الحيوان، لكنها لا ترتقى إلى حيوان. بل تظل فى حلقتها كنبات.

ونأتى إلى الحيوانات لنجدها ترتقى، فهناك حيوانات تستأنس، وحيوانات لا تستأنس، بل تظل متوحشة، وقد خلقها ربنا لحكمة ما. فالإنسان يستأنس الجمل ولا يستطيع أن يستأنس الثعبان، ولا البرغوث، كأن الله يريد بذلك أن يعلمنا أننا لم نستأنس الحيوانات التى نستأنسها بقدرتنا وبذكائنا؛ بل هو الذى جعلك تأنس بها، فأنت أنست بالجمل، وقد ترى البنت الصغيرة وهى تقوده، وتأمره بالقيام والقعود، بينما البرغوث الصغير قد يجعل الإنسان ساهراً طوال الليل لا يعرف كيف يصطاده. إذن هذه الأمور تعطينا حكمة أوجزها الحق تبارك وتعالى فى قوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(سورة يس)

ولو لم يذلل الحق تبارك وتعالى هذه المخلوقات، لما استطاع الإنسان تذليلها، ونرى المخلوق الصغير وقد عجز الإنسان أمام تذليله، ليعرف أن المذلل ليس الإنسان، بل المذلل هو الله سبحانه وتعالى. وفى المستأنس من الحيوانات تجد نوعاً تُعوده على بعض الأشياء فيعتادها ويقوم بها مثل القرد الذى يقول له مدربه اعجن عجين الصبية، أو العجوزة، فيقلد القرد الصبية أو «العجوزة»؛ لأن فيه قابلية التقليد، فهو يملك درجة من الفهم وهو أعلى مرتبة فى الحيوان، ويقف عندها ولا يتطور إلى خارجها، بدليل أنك إن علمت قرداً كل شىء، فهو يصنع ما تعلمه له من الحركات ويضحك الناس منه، لكن القرد لا يستطيع أن يعلمها لبنى جنسه. وكذلك نجد من يدرب الأسد والنمر ليؤدى

فقرات ترفيهية في السيرك، لكن الأسد لا يعلم أولاده من الأشبال ما تعلمه من مدرب السيرك.

إذن فالوجود بحلقاته الأربع؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً لا ترتقى فيه حلقة إلى الأعلى منها؛ بل تقف عند حد معين، وتلك هي الشبهة التي أصابت بعض المفكرين في أن يظنوا أن أصل الإنسان قرد؛ لأن المخلوقات حلقات يسلم بعضها لبعض، وأدنى مرتبة في الأعلى لكل حلقة هي أعلى مرتبة في الأدنى وتقف في حدودها. والذي يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

أي أن كل الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله، ولا يوجد جنس قد نشأ من جنس آخر.

ونقدم هذا الدليل العقلي لغير المتدينين، فنقول : لماذا لم تؤثر الظروف التي أثرت في القرد الأول ليصير إنساناً، في بقية القرود لتكون أناساً ؟

وهكذا تنهدم النظرية - نظرية داروين - من أولها لآخرها، وعلماء الأجناس يهدمونها الآن. والحق تبارك وتعالى أخبرنا أن هذه المخلوقات التي تقع في المرتبة تحت الإنسان، لا تستطيع أن ترتب المقدمات، وتأخذ منها النتائج. ولا تعرف البديلات في الاختيار، والحيوان وهو أرقى الأجناس ليس عنده بديلات؛ إنه يتعلم مهمة واحدة وتنتهي المسألة؛ لأنها دواب لا تعقل، لكن الإنسان يملك القدرة على الاختيار بين البديلات. وجرب أن تعاكس قطة فإنك تجدها تهاجمك وتجرحك بمخالبها إلا إن كنت أنت مستأنسها وتعرف أنك

تداعبها. أمَّا المؤمن العاقل المكلف فهو يتصرف في المواقف بشكل مختلف. فإن قام إنسان بإيذائه فقد يعاقبه بمثل ما عوقب، وقد يعفو عنه، وقد يكظم غيظه.

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إذن فأنت أيها المؤمن عندك بديلات كثيرة، لكن الحيوان لا يملك مثل هذه البديلات.

ولذلك ضربنا من قبل المثل : لو أنك علفت حيواناً إلى أن أكل وشبع ثم جئت إليه بعد شبعه بشيء زائد من أشهى طعام عنده؛ تجده لا يأكله. بينما الإنسان إن شبع فقد لا يمانع أن يأكل فوق الشبع من صنف يحبه.

ومثال آخر : نرى في الريف أن الحمار حين يرى جدولاً من المياه ويكون اتساع الجدول فوق قدرته على أن يقفز عليه ليعبره، نجد الحمار قد توقف رافضاً القفز أو المرور فوق هذا الجدول. فهل قاس الحمار المسافة بنظره ووازنها بقدرته ؟! إنه يقفز فوق الجداول التي في متناول قدرته، لكنه يرفض ما فوق هذه القدرة، رغم أننا نصف الحمار بالبلادة.

وهذا يبين لنا أن كل جنس يسير في ناموس تكوينه ليؤدي مهمته التي أرادها له الله. ولقائل أن يقول : كيف يقول الحق تبارك وتعالى : « إن شر الدواب عند الله » بينما الحيوانات كلها مسخرة ؟ ونقول : إذا كنت أيها الإنسان تأخذ وظيفة الأدنى فأنت تختار أن تكون شراً من الدابة ؛ لأن الأدنى مسخر بقانونه ويفعل الأشياء بغرائزه لا بفكره، فكأن فكر الاختيار بين البديلات غير موجود فيه، لكنك أيها الإنسان ميزك الله بالعقل الذي يختار بين البديلات، فإن أوقفت عقلك عن العمل، وسلبت قدرتك على القبول لما تسمع من وحي ألا تكون شر الدواب ؟

وحين نتأمل كلمة « شر وخير » نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾

(سورة الزلزلة)

فالخير يقابله الشر ، وحين يقابل الخير الشر ، فالإنسان يميز الخير ، لأنه نافع وحسن ، ويميز الشر ؛ لأنه ضار وقبيح.

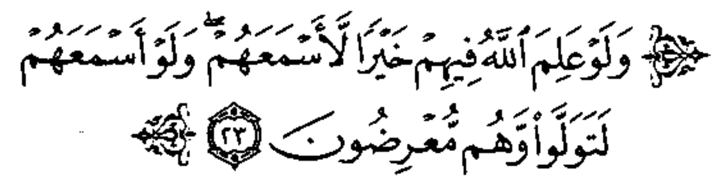
ولكن كلمة « خير » تستعمل أحياناً استعمالاً آخر لا يقابله الشر ، بل يقال : إن هذا الأمر خير من الثانى ، رغم أن الثانى أيضاً خير ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه :

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍ خير). [١]

إنّ كلاً منهما - أى المؤمن القوى والمؤمن الضعيف - فيه خير ، لكن فى الخير ارتقاءات ، هناك خير يزيد عن خير ، ويخبر المولى فى قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون).

أى أن الكفار شر مادبَّ على الأرض لأنهم قد افتقدوا وسيلة الهداية وهى السماع ، وبذلك صاروا بكماً أى لا ينطقون كلمة الهدى.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :


﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ﴾

فهو سبحانه وتعالى قد علم أنه ليس فيهم خير ، فلم يسمعهم سماع الاستجابة.

---

(١) رواه مسلم .

والمولى سبحانه وتعالى منزه من أن يبتدئهم بعدم إسماعهم؛ لأنهم لم يوجد فيهم خير، والخير هنا مقصود به الإيمان الأول بالرسول، وهم لم يؤمنوا. فلم يستمعوا لنداء الهداية منه صلى الله عليه وسلم كمبلغ عن الله تعالى. إذن فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهم - إذن - سبقوا بالكفر فلم يهدهم الله.

وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله.

وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة المائدة)

وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله.

والله منزه عن الافتئات على بعض عباده، فلم يسمعهم سماع الاستجابة لنداء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)

وعلم الله تعالى أزلي، لكنه لا يحاكم عباده بما علم عنهم أزلاً. بل ينزل لهم

حق الاختيار فى التجربة الحياتية العملية. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى- تجد أباً يعانى من مأساة فشل ابنه فى الدراسة أو فى الاعتماد على نفسه فى الحياة، ويحيا الولد لاهياً غير مقدر لتبعات الحياة، فيقول أصدقاءالوالد له : لماذا لا تقيم لابنك مشروعاً يشغله بدلاً من اللهو، فيرد الأب : إننى أعرف هذا الولد، سيأخذ المشروع ليبيعه ويصرف ثمنه على اللهو. والأب يقول ذلك بتجربته مع الابن. لكنْ ألا يُحتمل أن يكون هذا الابن قد ملَّ الانحراف واللهو وأراد أن يتوب، أو على الأقل ليثبت للناس أن رأى والده فيه غير صحيح ؟ لذلك نجد الأب يفتح لابنه مشروعاً، لكن الولد يغلبه طبعه السيىء فيبيع المشروع ليصرف نقوده فى الفساد.

هل حدث ذلك من نقص فى تجربة الوالد ؟ لا، بل عرف الأب عدم الجد عن ابنه، وسهولة انقياده لهواه. فما بالنا بالحق الأعلى العليم أزلاً بكل ما خفى وما ظهر من عباده ؟.

ولكنّه سبحانه وتعالى شاء ألا يحاسب عباده بما علمه أزلاً، بل يحاسبهم سبحانه وتعالى بما يحدث منهم واقعاً، فهو القائل :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

فسبحانه وتعالى العالم أزلاً، لكنه شاء أن يعلم أيضاً علم الإقرار من العبد نفسه؛ لأن الله لو حكم على العباد بما علم أزلاً، لقال العبد : كنت سأفعل ما يطلبه المنهج يارب. لذلك يترك الحق الاختيار للبشر ليعملوا على ضوء اختياراتهم ويكون العمل إقراراً بما حدث منهم.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وحتى لو أسمعهم الله عز وجل لتولوا هم عن السماع وأعرضوا عنه؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم اختاروا أن يكونوا شراً من الدواب عنده، وهم الصم الذين لا يسمعون دعوة هداية، وبكم لا ينطقون كلمة توحيد، ولا يعقلون فائدة المنهج الذى وضعه الله تعالى لصلاح دنياهم وأخراهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وهنا نقل المسألة من سماع إلى استجابة؛ لأن مهمة السماع أن تستجيب.

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾

أى استجيبوا لله تعالى تشريعا، وللرسول صلى الله عليه وسلم بلاغاً، وغاية التشريع والبلاغ واحدة، فلا بلاغ عن الرسول إلا بتشريع من الله عز وجل، بل وللرسول صلى الله عليه وسلم تفويض بأن يشرع. ورسول الله لم يشرع من نفسه، وإنما شرع بواسطة حكم من الله تعالى حيث يقول :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - : نسمع أن فلاناً قد فُصل لأنه غاب خمسة عشر يوماً عن عمله فى وظيفته، ويعود المحامى إلى الدستور الذى تتبعه البلد فلا يجد فى مواد الدستور هذه الحكاية، ويسمع من المحامى الأكثر خبرة

أن هذا القانون مأخوذ من تفويض الدستور للهيئة التى تنظم العمل والعاملين.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض من ربه بالبلاغ وبالتشريع.

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤سورة الأنفال)

ونجد هنا أيضاً أن الحق تبارك وتعالى قال : « إذا دعاكم » ولم يقل : إذا دعَوَاكُمْ ، وفى ذلك توحيد للغاية ، فلم يفصل بين حكم الله التشريعى وبلاغ الرسول لنا. ونعلم أن الأشياء التى حكم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حكماً ثم عدّل الله له فيها الحكم ، هذا التعديل نشأ من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم لم ينشىء حكماً عدّله الله تعالى إلا فيما لم يُنزِل الله فيه حكماً. وحين ينزل الله حكماً مخالفاً لحكم وضعه الرسول ، فمن عظمته صلى الله عليه وسلم أنه أبلغنا هذا التعديل ، وهكذا جاءت أحكامه صلى الله عليه وسلم إذا وافقت حقّاً فلا تعديل لها ، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو صلى الله عليه وسلم يعدل لنا. وبذلك تنتهى كل الأحكام إلى الله تعالى. فإذا قال قائل : كيف تقول إن قول الرسول يكون من الله؟ نجيب : إنه سبحانه القائل :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾

(سورة النجم)

و « الهوى » - كما نعلم - أن تعلم حكماً ثم تميل عن الحكم إلى مقابله لتخدم هوًى فى نفسك ، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما عمد إلى أى حكم شرعه ولم يكن عنده حكم من الله عز وجل ، فإن جاءه تعديل أبلغنا . إذن ما ينطق عن الهوى . أى من كل ما لم ينزله الله ، وحكم فيه صلى الله عليه وسلم ببشريته ، ولم يكن له هوى يخدم أى حكم ، ونجد فى قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

أنَّ كلمة « دعاكم » مفردة، مثلها مثل كلمة « يرضوه » فى قوله لكم :

﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة التوبة)

ومثلها مثل الضمير فى « عنه » فى قوله تعالى :

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنفال)

وفى هذه الآيات الكريمة توحيد للضمير بعد المثنى، وهذا التوحيد كان مثار شبهة عند المستشرقين، فقالوا : كيف يخاطب اثنين ثم يوحدهما ؟ ونقول لمن يقول ذلك : لأنك استقبلت القرآن بغير ملكة العربية. فلم تفهم، ولو وجد الكفار فى أسلوب القرآن ما يخالف اللغة لما سكتوا، فهم المعاندون، ولو كانوا جربوا فى القرآن كلمة واحدة مخالفة لأعلنوا هذه المخالفة. وعدم إعلان الكفار عن هذه الشبهات التى يثيرها الأعداء، يدل على أنهم فهموا مرمى ومعنى كل ما جاء بالقرآن، وهم فهموا - على سبيل المثال-الآية التى يكرر المستشرقون الحديث عنها ليشككوا الناس فى القرآن الكريم، وهى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وتساءل المستشرقون - مستنكرين - : كيف يتحدث القرآن عن طائفتين، ثم يأتى الفعل الصادر منهما بصيغة الجمع ؟. ونقول : إن « طائفتان » هى مثنى طائفة، والطائفة لا تطلق على الفرد، إنما تطلق على جماعة، مثلما نقول : المدْرَسَتان اجتمعوا؛ وصحيح أن المَدْرسة مفرد. لكن كل مدرسة بها تلاميذ كثيرون، وكذلك « طائفتان »، معناها أن كل طائفة مكونة من أفراد، وحينْ يحدث القتال فهو قتال بين جمع وجمع ؛ لذلك كان القرآن الكريم دقيقاً حين قال :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾

ولم يقل القرآن الكريم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا ؛ لأن هذا القول لا يعبر بدقة عن موقف الاقتتال لأنهم كطائفتين، إن انتهوا فيما بينهم إلى القتال. فساعة القتال لا يتحيز كل فرد لفرد ليقاتله، وإنما كل فرد يقاتل فى كل أفراد الطائفة الأخرى، وهكذا يكون القتال بين جمع كبير من أفراد الطائفتين.

وبعد ذلك يواصل الحق تبارك وتعالى تصوير الموقف من الاقتتال بدقة فيقول سبحانه :

﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾

(من الآية ٩ سورة الحجرات)

وهنا يقول سبحانه وتعالى : « فأصلحوا بينهما »، ولم يقل : أصلحوا بينهم. وهكذا عدل عن الجمع الذى جاء فى الاقتتال إلى المثنى ؛ لأننا فى الصلح إنما نصلح بين فئتين متحاربتين، ونحن لا نأتى بكل فرد من الطائفة لنصلحه مع أفراد الطائفة الأخرى. ويمثل كل طائفة رؤساؤها أو وفد منها، وهكذا استخدم الحق المثنى فى مجاله، واستخدم الجمع فى مجاله، وسبحانه

وتعالى منزه عن الخطأ.

وهنا فى الآية التى مازلنا بصدد خواطرنا عنها وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

وفى أولها نداء من الله للمؤمنين، والنداء يقتضى أولاً أن يكون المنادى حياً؛ لأنه سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إذن : كيف يقول سبحانه لمن يخاطبهم وهم أحياء : « دعاكم لم يحييكم » ؟.

وهنا نقول : ما هى الحياة أولاً ؟. نحن نعلم أن الحياة تأخذ مظهرين، مظهرَ الحسّ ومظهرَ الحركة، ولا يتأتى ذلك إلا بعد أن توجد الروح فى المادة فتتكون الحياة، وهذه مسألة يتساوى فيها المؤمن والكافر. وثمرة الحياة أن يسعد فيها الإنسان، لا أن يحيا فى حرب وكراهية وتنغيص الآخرين له وتنغيصه للآخرين، والحياة الحقيقية أن يوجد الحسّ والحركة، شرط أن تكون حركة كل إنسان تسعده وتسعد من حوله، وبذلك تتآزر الطاقات فى زيادة الإصلاح فى الأمور النافعة والمفيدة، أما إذا تبددت الطاقات الناتجة من الحسّ والحركة وضاعت الحياة فى معاندة البعض للبعض الآخر، فهذه حياة التعب والمشقة، حياة ليس فيها خير ولا راحة. وهذا ما يخالف ما أراده الحق سبحانه وتعالى

للخلق، فقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة له فى الأرض ليصلح لا ليفسد، وليزيد الصالح صلاحاً، ولا تتعاند حركة الفرد مع غيره؛ لأن كل إنسان هو خليفة لله، ومادمنا كلنا خلفاء لله تعالى فى الأرض. فلماذا لا نجعل حركاتنا فى الحياة متساندة غير متعاندة ؟

وعلى سبيل المثال : إن أراد إنسان أن يخدم نفسه ومن حوله بحفر بئر، هنا يجب أن يتعاون معه جميع من سوف يستفيدون من البئر؛ فمجموعة تحفر، ومجموعة تحمل التراب بعيداً، ليخرج الماء ويستفيد منه الجميع، لكن أن يتسلل إنسان ليردم البئر، فهذا يجعل حركة الحياة متعاندة لا متساندة.

وقد نزل المنهج من الله عز وجل ليجعل حركة الحياة متساندة؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

والنداء هنا من الله للمؤمنين فقط، فإذا قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لما آمنتم به؛ فهو لم يطلب أن تستجيب لمن لم تؤمن به، بل يطلب منك الاستجابة إذا كنت قد دخلت فى حظيرة الإيمان بالله، واهتديت إلى ذلك بعقلك، وبالأدلة الكونية واقتنعت بذلك، وصرت تؤمن أنه إذا طلب منك شيئاً فهو لا يطلب منك عبثاً؛ بل طلب منك لأنك آمنت به تعالى إلهاً، ورباً، وخالقاً، ورازقاً، وحكيماً، وعادلاً.

حين يأمرك من له هذه الصفات، فمن الواجب عليك أن تستجيب لما يدعوك إليه. ولله المثل الأعلى؛ نجد فى حياتنا الأب والأم يراعيان المصالح القريبة للغلام، ويأمره الأب قائلا :

اسمع الكلام لأنى والدك الذى يتعب من أجل أن تنعم أنت. وتضيف الأم قائلة له : اسمع كلام والدك، فليس غريباً عنك، بل لك به صلة وهو ليس عدواً لك، وتجربته معك أنه نافع لك ويحب لك الخير، هنا يستجيب الابن. وكلنا عيال الله، فإذا ما قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول المبلغ عن الله لأنه سيدعوكم لما يحييكم فعلينا أن نستجيب للدعوة.

الداعى - إذن - هو الله تعالى وقد سبقت نعمه عليك قبل أن يكلفك، وهو سبحانه قد أرسل رسولاً مؤيداً بمعجزة لا يستطيع واحد أن يأتى بها، ويدعو كل إنسان إلى ما فيه الخير، ولا يمنع الإنسان من الاستجابة لهذا الدعاء إلا أن يكون غبيا.

ونلحظ فى حياتنا اليومية أن الإنسان المريض، المصاب فى أعز وأثمن شىء عنده وهو عافيته وصحته، وهو يحاول التماس الشفاء من هذا المرض ويسأل عن الطبيب المتخصص فيما يشكو منه، وهناك لكل جزء من الجسم طبيب متخصص، فإذا كان له علم بالأطباء فهو يذهب إلى الطبيب المعين، وإن لم يكن له علم فهو يسأل إلى أن يعرف الطبيب المناسب، وبذلك يكون قد أدى مهمة العقل فى الوصول إلى من يأمنه على صحته. فإذا ما ذهب إلى الطبيب وشخص له الداء وكتب الدواء، فى هذه اللحظة لن يقول المريض : أنا لا أشرب الدواء إلا إن أقنعتنى بحكمته وفائدته وماذا سيفعل فى جسمى ؛ لأن الطبيب قد يقول للمريض : إن أردت أن تعرف حكمة هذا الدواء، اذهب إلى كلية الطب لتتعلم مثلما تعلمت. وطبعاً لن يفعل مريض ذلك ؛ لأن المسألة متعلقة بعافيته، وهو سيذهب إلى الصيدلية ويشترى الدواء ويسأل عن كيفية تناوله، والمريض حين يفعل ذلك إنما يفعله لصالحه لا لصالح الطبيب أو الصيدلى.

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يدعونا لما يحيينا به، إنما يفعل ذلك لأن الله تعالى أوكل له البلاغ بالمنهج الذى يصلح حالنا، وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة، بعد أن تأتى الروح فى المادة، يواجه الإنسان ظروف الحياة من بعد ذلك إلى الممات. وهذه حياة للمؤمن والكافر، وقد يكون فى الحياة منغصات وتمتلىء بالحركات المتعاندة، وقد يمتلىء البيت الواحد بالخلافات بين الأولاد وبين الجيران، ويقول الإنسان : هذه حياة صعبة وقاسية. والموت أحسن منها. والشاعر يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وشاعر آخر يقول :

ذل من يغبط الذليل بعيش

رب عيش أخف منه الحِمام

والحمام هو الموت، وكأن الموت - كما يراه الشاعر - أخف من الحياة المليئة بالمنغصات. إذن فليس مجرد الحياة الأولى هو المطلوب، بل المطلوب حياة خليفة يأتى فى مجتمع خلفاء لله فى الأرض. وكل منا موكل بالتعاون وإصلاح المجال الذى يخصه. ولا يصح للوكلاء أن يتعاندوا مع بعضهم البعض، بل عليهم أن يتفقوا ؛ لأنهم وكلاء لواحد أحد. كذلك خلف الله الإنسان، خلفه خليفة له فى الأرض وأنجب الخليفة خلفاء؛ ليؤدوا الخلافة بشكل متساند لا متعاند.

إننا - على سبيل المثال - حين نرغب فى تفصيل جلباب واحد، نجد الفلاح يزرع القطن، والغزّال يغزله، والنسّاج ينسجه، ومن بعد ذلك نشتريه لنذهب به إلى الخيّاط الذى يأخذ المقاسات المناسبة للجسم، ثم يقوم بحياكة الجلباب

على آلة اشتراها بعد أن صنعها آخرون. إذن فجلباب واحد يحتاج إلى تعاون بين كثير من البشر ، هكذا تتعاضد الحياة.

وإذا نظرنا إلى العالم الذى نحيا فيه نجده مليئاً بالتعب ، خصوصاً الأمم المتخلفة ، وأيضاً نجد التعب فى الأمم المتقدمة ؛ لأننا نجد صعاليك من أية دولة يصعدون إلى طائرة تتبع دولة كبرى ويهددون بتفجير الطائرة بمن فيها ويفرضون الشروط ، ويُزِلُّون الدولة الكبرى .

إذن فالحياة حتى فى الدول الراقية متعبة.

وعلى سبيل المثال : الحروب التى قامت فى منطقتنا منذ عام ١٩٤٨ مع إسرائيل واستمرت كل هذه المدة الطويلة ،ثم الحرب الأهلية فى لبنان، ثم الحرب التى دارت بين العراق وإيران ؛ هذه الحروب تكلفت المليارات التى لو استخدمت فى وجه آخر لرفعت من شأن تقدم بلادنا.

إذن الذى يتعب العالم هو الحركة المتعاندة، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا متساندة. فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد، وصار كل منا مكلفاً بالتعاون مع غيره، وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله تشريعاً والرسول بلاغاً، وبهذا تتساند الحياة وتصبح حياة لها طعم. وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

(سورة النحل)

أمَّا من يحيا بغير منهج فتكون حالته كما يبينها قول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

وعلى هذا : فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهى لا يتأخر إلى يوم القيامة، ولكن الحياة فى الدنيا تكون مرهقة، والمعيشة ضنكا.

إذن إياكم أن تفهموا أن المنهج الدينى لله غايته الآخرة فقط، لا. بل إن اتباع المنهج الدينى لله جزاؤه فى الآخرة، وأما ثمرته ففى الدنيا. فمن يوفق فى هذه الدنيا، وحركته متساندة مع غيره، يعطى له الله الجزاء فى الحياة المستريحة فى الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة. وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا، أما الآخرة فهى جزاء على هذا الاختبار الدنيوى.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

أى يعطيكم منهجاً من إله واحد؛ لا يعود بالخير عليه ولا على المبلغ عنه وهو الرسول، وإنما يعود بالخير عليكم أنتم، وتلك هى حيثيات الاستجابة، ومن لا يستجب لهذه فهو الأحمق.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

إذن فالخير يأتى من أمر إله واحد؛ فلا يجعل كل منا إلهه هواه، حتى لا تتعدد الأهواء :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

ولذلك لا يتعرض التشريع من الله سبحانه وتعالى إلا ما للأهواء فيه مدخل، أمَّا الشيء الذي ليس للأهواء فيه مدخل فهو يترك الإنسان ليواجهه بملكاته التي خلقها الله له، والشرع يتدخل فقط فيما يمكن أن يخضع للهوى، أما الأمور التي لا تخضع للهوى فألد الأعداء يتفقون فيها.

والحياة الآن فيها موجة ارتقاء طموحي علمي، وهذا الطموح العلمي نشأ عن التجربة في المعمل حيث يجلس العلماء الوقت الطويل ليخترعوا ويطوروا، مثال ذلك : « أديسون » الذي قضى وقتاً طويلاً ليخترع المصباح الكهربي، وغيره من العلماء طوروا مخترعاته وجاءوا باختراعات جديدة، ولم ندر عنهم شيئاً إلا أننا نفاجأ بمخترع قد أتى منهم، والعالمُ من هؤلاء تجده أشعث أغبر، لا يفكر في العناية بحسن مظهره وقد لا يأكل ولا يشرب، ولا تدرى أنت به إلا إذا الثمرة من عمله واختراعه جاءت، ويقال : فلان اخترع الشيء « الفلاني ». وتنتفع أنت بما اخترع رغم أنك لم تَشْقَ شقاءَه حين أخذت الخير الناتج منه.

ونرى المعسكرات المتضادة في عالمنا المعاصر تحاول أن تسرق تجارب غيرها في العلوم، وهذه المعسكرات تختلف فقط في الأهواء، فذلك شيوعي، وآخر رأسمالي، وثالث وجودي. الخلاف - إذن - في الأهواء غير المحكومة بالمادة أو بالتجربة. ومن المؤسف حقًّا أن ما اتفقنا عليه كالعلوم المادية الكونية التي هي وليدة التجربة، هذه المخترعات نستعملها في فرض ما نختلف فيه، وهكذا تجد أن التعب في العالم إنما يأتي من الطموح الأهوائي لا الطموح المادي العلمي؛ لذلك يتدخل الشرع في الأهواء ويحسمها؛ ليكون كل منا عبداً لله تعالى،

وكل منَّا حر أمام غيره.

والرسول صلى الله عليه وسلم بمنهجه الذى جاء به من الله يدعو الحىّ - صاحب الحس والحركة - إلى أن تكون حياته حياة طيبة ليس فيها ضنك؛ هذا إن نظرنا إلى كيفية الحياة. فإن قسنا الحياة بعمر الآخرة، فهى لا تساوى إلا القليل؛ لأن ما لا نختلف فيه كأفراد فى الخلافة يجب أن يكون غاية للخلفاء، فربنا قد يخلق واحدا ليموت فى بطن أمه، وواحدا يموت بعد ساعة من مولده، وثالثا يموت بعد شهر من ميلاده، ومنا من يعمر مائة سنة، ولا يمكن أن يكونَ الأمر المُخْتَلَف فيه غاية للمتحدين فى الجنس، فالغاية أن نعمر الدنيا بالعمل الصالح لنسعد بها، ونعبر منها إلى ما هو أجمل وهى الآخرة، ومأمون فيها أننا لا نموت، ومأمون فيها أننا لن نتعب أبداً، لأنه كلما اشتهيت شيئاً ستجده أمامك. وهذه قمة الحياة الطيبة.

وعلى فرض أنك ستتعب فى سبيل منهج الله حين تبلغه للناس، دفاعاً عنه بالحرب والقتال وبالتضحية بالأموال، فأنت رابح لحياة طيبة أبدية، ويبين القرآن الكريم لنا هذه الحياة فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

فالدار الآخرة ليست مجرد حياة، بل أكبر من حياة؛ لأن حياتك الدنيا موقوتة ومحددة، ونعيمك فيها على قدر إمكانياتك وتصوراتك، ولكن الحياة الأخرى ليست موقوته بل ممتدة، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات خالقك المنعم القادر. وهكذا نتأكد أنه صلى الله عليه وسلم قد دعانا إلى ما يحيينا.

والحق سبحانه وتعالى حينما دعانا إلى الحياة الطيبة سمى المعيشة فى منهجه

حياة، لأنها حياة سعيدة، وتسلم إلى حياة خالدة. ولذلك سمى الحياة الأولى التى تأتى إذا نفخ الله الروح فى المادة، وقال عن آدم وكل بنى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

وأعطى الله سبحانه وتعالى هذه الحياة للمؤمن والكافر. وسمى سبحانه وتعالى ما يحمل المنهج للناس وهو القرآن روحاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والمنهج - إذن - روح من أمر الله سبحانه وتعالى نزل به الروح الأمين، وهذه هى الحياة المطلوبة لله سعادة، وتساندا، وخلوداً فى الجنة. ولذلك أنزل المنهج ليمنع التعاند والتعارض والتضاد بين المؤمنين، وليحمى كل مؤمن نفسه من الزلل، فيقاوم المعصية وهى صغيرة قبل أن تكبر وتستفحل.

ثم يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

وماذا يعنى قوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » ؟.

وأقول : إياك أن تظن أن الكافر - على سبيل المثال - يعلن أن قلبه قد انعقد على الكفر؛ لأنه قد يجرب أن يخلع نفسه من هواه وينظر إلى حقيقة الإيمان

فيقتنع به، ولن يسيطر على هواه، وقد انقلب أكثر من قلب شرير إلى قلب خير، مثل صناديد قريش من الكفار الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كانت قلوبهم معقودة على الشر، لكنها لم تستمر على الشر، بل حال الحق بين كل امرىء منهم وقلبه.

والقلب هو محل التمنيات والأمانى، وأول الأمانى أن تطول حياة الإنسان، خصوصاً وهو يرى أن من فى مثل عمره يموت، ومن فى مثل عمر والده يموت. وأن جده يموت، ولأن الإنسان يحب أن تطول حياته، يرغب فى أن ينجب ولداً ليمتد ذكره، إنه يريد الحياة ولو من غيره، مادام منسوباً له.

كما أن الإنسان يحب الآمال، ويبنى فى أحلامه الكثير مما يريد أن يحققه، والواجب عليه ألاّ ينسى أن لهذا الكون إلهاً قادراً، قد ينهى حياة أى منا رغم أن كل إنسان يحلم أن تطول حياته، وقد يقف بين الإنسان وبين آماله التى يريد أن يحققها، ولا أحد منا معزول عن خالقه، وكل منا فى يد الخالق، وسبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ثم يترك النواميس لتعمل دون إرادته، بل كل النواميس فى يده.

ومادام الحق يحول بين المرء وتمنيات قلبه؛ استطالة حياة، وتحقيق آمال، وستراً للموت وأسبابه وزمنه، كل ذلك لنتجه دائماً إلى فعل الخير لنحيا فى ضوء المنهج وأنت لا تعرف متى ينتهى الأجل، وإلى الله المصير.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

ويأمرنا الحق عز وجل أن نتقى الفتن من بدئها قبل أن يستفحل شأنها. وأن يتجنب الإنسان المعصية، وأن يضرب المجتمع على يد أى انحراف، فمن يسرق الآن الخزائن قد بدأ أولا بسرقة اليسير، سرق من أخيه أو من البيت ثم من الجيران ثم من البنك. ولو أن كل انحراف عوجل بالضرب على يد من فعله وهو صغير لما كبر المنحرف والانحراف. ولتم وأد الجرائم الكبيرة فى مهدها؛ لأن من ارتكب الصغيرة قد عوقب. وإياكم أن يقول أحدكم مادام مثل هذا الانحراف لا يمسنى فليس لى به شأن؛ لأن الذى اجترأ على مثلك، من السهل أن يجترىء عليك. ونحن نعرف جميعاً قصة الثيران الثلاثة؛ الأحمر والأبيض والأسود، فقد هاجم الأسد الثور الأبيض فأكله، ولم يدافع عنه الثور الأحمر أو الأسود. وهاجم الأسد الثور الأحمر بعد ذلك فقال الثور الأسود لنفسه : مادام الأسد لم يأكلنى فلا دخل لى بهذا الأمر. وجاء الأسد إلى الثور الأسود، بينما هو يقترب منه قال : لقد أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنفال)

هذا القول يدلناعلى أن اتقاء الفتنة يبدأ من الضرب على أيدى صانع الفتنة وهى فى بدايتها. وأضرب هذا المثل ليبقى فى الذاكرة دائما؛ إن الأم التى قسمت الأكل بما فيه من لحم وخضر وفاكهة على الأبناء، فأكل أحد الأبناء نصيبه، ثم احتفظت الأم ببقية أنصبة إخوته فى الثلاجة، ومن بعد ذلك لاحظت الأم أن الابن الذى أكل نصيبه يأكل نصيب أحد إخوته من خلف ظهرها ودون استئذانها، وهنا يجب أن تؤنبه وتعاقبه على مثل هذا الفعل حتى لايتمادى فى ذلك.

كذلك إن دخل الابن بلعبة أو بشيء يفوق ثمنه قدرة مصروف يده على الشراء، فعلى الأب أن يضرب على يد الابن حتى لا يتمادى الولد فى إفساد نفسه. ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى جعل الدية فى القتل الخطأ على العاقلة وهم العصبة أى قرابة القاتل من جهة أبيه، ويطلق عليهم العائلة - أى عائلة القاتل - لأن أفراد العائلة حين يرون أن كلاً منهم سوف يصيبه جزء من الغرم، فإنه يضرب على يد من يتمادى فى إرهاب الغير وتهديدهم إن كان من عائلته.

ولذلك ترى أن الناس إذا رأوا الظالم ثم لم يضربوا على يده فإن الله يعمهم بغضب من عنده؛ لأن الظالم يتمادى فى ظلمه وطغيانه ويعربد فى الآخرين. فيستشرى الظلم فى المجتمع ويحق على الجميع عقاب الله. ولذلك نجد سيدنا أبا بكر رضوان الله عليه - يقول، يبين لنا ذلك فيما رواه عنه الإمام أحمد. فقد روى الإمام أحمد قال: قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية:

﴿ يأيها الذين آمنوا لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها.

وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، يوشك الله - عز وجل - أن يعمهم بعقابه ».

ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق الفاصل فى القضايا العقدية والحكمية ويأتى بمثال واضح يتفق عليه الكل، فيقول صلى الله عليه وسلم: فيما يرويه عنه النعمان بن بشير:

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا [1] على

(١) استهموا: اقترعوا.

سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها. فكان الذين فى أسفلها إذا استقوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم ، فقالوا لو أنّا خرقنا خرقاً فى نصيبنا ولم نؤذ منْ فَوْقنا. فإن يَتْركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجواْ ونَجَوْا جميعا ».[1]

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل بقوم ركبوا سفينة ، وأجروا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلى جماعتين ؛ جماعة تجلس فى النصف الأعلى من السفينة أى على سطحها ، وجماعة تسكن فى بطن السفينة ، حسب ما تأتى به قسمة القرعة وهى ما تسمى بالاستهام.

وهذا يدلنا على أنهم أناس طيبون ، ولا توجد فيهم جماعة قوية تفرض شيئاً على جماعة ضعيفة. وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا الأوانى من فوق سطح السفينة إلى النهر.

ولو تُرك الذين فى أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم فى خرق السفينة ليأخذوا الماء من النهر لغرقت السفينة ، لكن إن ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يد من يريدون خرقها لنجوا جميعاً.

وهكذا يكون فهمنا لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولسائل أن يسأل ويقول : إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم، والظالم هو الذى يستحق العقاب على ما وقع منه من ظلم ،ولكن ما ذنب المظلوم ؟

(١) أخرجه البخارى والترمذى .

والجـواب : أن المظلوم قـد كـان فى مكنتـه أن يرد الظلم لكنه سكت عن ذلك فاستحق أن يشمله العقاب.

وإن لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الفتن، أنزل الله بها العقاب، وعقاب الحق تبارك وتعالى أشد من عقاب الخلق.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وبعد كل ما حدث من وقائع، يذكّر الحق عز وجل هنا صاحب الحال الأعلى بالماضى الأدنى، ليثبت له : أن الذى نقلك من أدنى حياة إلى أعلى حياة، موجود ولايزال موجوداً، ومادام قد شاءت قدرته أن ينقلك من الأدنى للأعلى، فقدرته سبحانه وتعالى - إن شاءت - نقلتك من الأعلى إلى الأدنى. فإذا كنت فى حال أعلى؛ إياك أن تنسى أنك كنت فى حال أدنى. وعليك أن تعترف بجميل عطاء الخالق المنعم المتفضل وتقول : إن ربى القوى العظيم هو الذى وهبنى ورفع مكانتى ولم أفعل ذلك بمهارتى، وحتى إن كنت قد ارتقيت بالمهارة، فالمهارة عطاء منه سبحانه وتعالى، لذلك يقول المولى عز وجل هنا :

﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ﴾ .

أى اجعلوا هذا الأمر على بالكم دائما وإياكم أن تخافوا أية قوة مهما بلغت هذه القوة، ولكن أعدوا لكل قوة ما يناسبها من أسلوب المواجهة الكثير؛ لأنكم حملة دعوة، ومن يحمل الدعوة قد يعانى من المصاعب والمتاعب والمشقات؛

لكن يجب ألاّ يفت ذلك فى عضدكم.

لقد كان المسلمون الأوائل قلة تعانى من إذلال واضطهاد الكافرين الأقوياء. وكان المسلم من الأوائل لا يجد أحياناً من يحميه من اضطهاد المتجبرين، فيلجأ إلى كافر يتوسم فيه الرحمة ويقول له : أجرنى من إخوانك الكفرة. وحين بلغ الضعف بالمسلمين الأوائل أشده، ولم يجدوا حامياً لهم من ظلم وتعذيب الكفار، عرض عليهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى الحبشة؛ لأنَّ فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وكانت الهجرة إلى الحبشة هرباً من قوة الخصوم، ولم يظل حال المسلمين كذلك، بل نصرهم الله لا بقوتهم، ولكنه سبحانه وتعالى شاء لهم أن يأخذوا بأسباب منهجه فانتصروا وعلت كلمة الله عز وجل.

إننا نتخذ من هذه المسألة حجة ومثلاً نواجه به من يشككون فى قدرة المسلمين على إدارة الحياة والارتقاء بها؛ لأن العالم كله قد شهد ألف عام كان المسلمون فيها هم قادة العلم والفكر والابتكار، وكانت غالبية الدول تخضع لحكم دولة الإسلام.

لقدسبق أن قلت : إن هارون الرشيد الخليفة المسلم بعث لشارلمان ملك فرنسا بهدية هى ساعة دقاقة بالماء؛ تم تصميمها بدقة عالية تفوق طاقة خيال الناس فى فرنسا، ولحظة أن شاهدوها فى فرنسا ظنوا أن الشياطين هى التى تحركها؛ لأن التقدم العلمى والتطبيقى فى بغداد فى ذلك الوقت فاق كل التصور الأوربى حيث كانوا يعيشون فى تخلف علمى شديد.

لكن المسألة انعكست فى زماننا هذا وصرنا نعانى من تخلف فى الأخذ بأسباب الله للاستفادة بالعلم، فحين جاء « الراديو » وجاء « التليفزيون » إلى بعض البلاد الإسلامية، وجدنا من يقول عن الراديو : إن بداخله شيطاناً يتكلم ويلوّن ويغير من صوته. ولم يغير أصحاب هذا الرأى اندهاشهم ورفضهم

لوجود محطة الإذاعة وأجهزة الاستقبال فى بلادهم إلا بعد أن قلنا لهم : حركوا مؤشر الراديو وستجدونه يذيع القرآن الكريم، وحين فعلوا ذلك استمعوا إلى صوت الشيخ محمد رفعت، وكان يقرأ فى سورة مريم، وقلنا لأصحاب هذا الرأى : إن الشيطان لا يقرأ القرآن ، بل إن الإذاعة وأجهزة الاستقبال هى اختراعات علمية توصل إليها من أخذوا بأسباب الله فى العلم التطبيقى.

وحين جاء اختراع « الميكروفون » وطالب الكثير بوضعه فى المساجد وقت صلاة الجمعة ، وجدنا البعض يرفض دخول الميكروفون إلى المسجد، متجاهلاً أن هناك مساجد كبيرة يحتاج إسماع الناس فيها لخطبة الجمعة وجود أكثر من « ميكروفون » . وقلت لواحد من هؤلاء : ليصلح الله حالك وبالك، لماذا ترتدى نظارة طبية وتضعها على عينيك ؟ أجابنى : لأن نظرى ضعيف والنظارة تكبر لى الكتابة. فقلت : وهكذا « الميكروفون » يكبر الصوت ليسمعه من يجلس بعيداً عن المنبر والإمام، أثناء صلاة الجماعة وصلاة الجمعة.

فإذا كان بعض من الدول الإسلامية قد وصل بها الحال إلى هذا الحد من العجز فى تقبل العلم ، فهذا تنبيه لنا لأن نعيد الأخذ بأسباب الله فى الكون، ولنطور العلوم ، ونخدم بها منهج الله ، بدلاً من أن نظل متخلفين رغم أن منهج الله يحضنا على الأخذ بالأسباب الموجودة فى الكون ، وكلنا يعلم أن كون الله فى يده والنواميس فى يده، يسخرها سبحانه وتعالى لمن يأخذ بالأسباب.

ويذكرنا الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

والخطف هو أخذ بسرعة، أى أن يأخذ إنسان أو جماعة غير الحق، وعرفنا من قبل أنَّ أخذ غير الحق له صُوَر متعددة، والمثال : نجد تاجراً يعرض أىْ يفرش بضاعته من تمر أو تفاح، ويأتى أحد المارة لينظر إلى البضاعة المعروضة والمفروشة وليس معه نُقُود يشترى بها فيخطف تفاحة أو بعضاً من التمر ويجرى بسرعة، ويحاول صاحب البضاعة أن يجرى وراءه فلا يلحق به؛ هذا هو الخطف، لكن إن استطاع صاحب البضاعة أن يلحق به وحاول اللص أن يتخلص ويفلت منه؛ فهذا اسمه « غصب »، أما السرقة، فهى أخذ المال خفيةً من حرز وصاحبه غير موجود. ويختلف كل ذلك عن الاختلاس؛ لأن الاختلاس هو أن تأخذ مما فى حوزتك وأنت مأمون عليه؛ إذن أخذ غير الحق له عدة صور هى : خطف، أو غصب، أو سرقة أو اختلاس. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

أى يأخذونكم دون أن يدافع عنكم أحد. وها أنتم أولاء قد صرتم أقوياء باستقرار الإيمان فى قلوبكم، وبمدد من الله عز وجل؛ لذلك يجب أن تذكروه دائماً امتناناً وتقديرا وعبادة، وشكراً، وخشوعاً. فهو سبحانه وتعالى قد أعطاكم الاستقرار فى المأوى الجديد - المدينة المنورة - ورحب بكم مجتمع الإيمان فى المدينة المنورة.

وعند ما دخلتم إلى المدينة أقمتم المسجد وهو سمة استمرار النور من السماء هداية للأرض. كان هذا هو أول عمل لكم ولم تنشغلوا من قبله بأى عمل آخر. واعتبركم الأنصارُ إخوةً، فصرتم أقوياء بأخوة الإيمان، وصاروا هم أيضا أقوياء بهذه الأخوة بعد أن كان اليهود هناك يستفتحون عليهم بالرسول القادم، جاء

الرسول وكان فى نصرة المستضعفين وصار منهجه قوة لكم وللأنصار، وكان المهاجر منكم يجد الدعوة من الأنصارى إلى بيته، لا للطعام ولا للشراب فقط، بل للإقامة أيضاً.

ثم حدث الملحظ العجيب، فالإنسان إذا أنعم الله عليه بنعم شتى، فقد يحب أن يمتع صاحبه من هذه النعم، إلا المرأة، فالزوج يغار على نسائه. لكن الأنصارى من هؤلاء إن كان متزوجاً من اثنتين، يقول للمهاجر : لقد جئت من مكة إلى المدينة دون أهلك. فانظر إلى زوجتىَّ، فأيهما تعجبك أطلقها وتتزوجها بعد انقضاء عدتها، هذا هو الملحظ العجيب، وهى مسألة لا يمكن أن تمر على خيال العربى أبداً.

ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وقد رزقهم المولى سبحانه وتعالى وأمدهم بالخيرات والأسلحة والنفائس وهزموا صناديد قريش، ولم تكن الغنائم تحل لأحد من الأنبياء من قبل، لكنها أحلت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذن فالذى صنع لكم كل ذلك حقيق أن يُذكر فلا ينسى وأن يشكر دائما.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

والخيانة مقابلها الأمانة، والأمانة هى الشىء يستودعه واحد عند آخر بدون

وثيقة عليه، ولا شهود. بل الأمر متروك إلى من عنده الأمانة، إن شاء أقر بها وإن شاء أنكرها ؛ لأن الأمانة ليس عليها صك ولا عليها شهود . ولا عليها «كمبيالة »، وغير محكومة بأى شيء إلا بذمة من ائتُمن، والحق سبحانه تعالى يقول :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكل الأجناس التى فى الوجود ودون الإنسان من حيوان ونبات وجماد، كلها مُسخرة، ولا تملك الاختيار فى أن تفعل أولا تفعل. الشمس ليس لها اختيار فى أن تقول : سأشرق اليوم على هؤلاء الناس، أو لن أشرق اليوم. والهواء لا يملك إرادة الاختيار، كل الكائنات التى أوجدها الله فى هذا الوجود ما عدا الإنسان مسخرة للمؤمن وللكافر. ورفضت هذه الكائنات أن تحمل أمانة الاختيار، لكن الإنسان قال : أنا لى عقل يختار بين البديلات وأقبل تحمل الأمانة وسوف أؤدى كل مطلوبات الأمانة لأنى أقدر على الاختيار.

لكن الإنسان ادّعى لنفسه القدرة على أداء الأمانة . وكأنه قد وثق من نفسه أنه سيؤديها، وهو لا يعلم بأى شيء حكم ذلك الحكم على أمر غيبى مستقبلى.

صحيح أنه ساعة التحمل كان فى نيته أن يؤدى الأمانة، لكن ماذا عن ساعة الأداء ؟. وأنت لا تعرف ماذا تجيء به الأحداث والأغيار معك، فقد يأتى لك ظرف تضطر أن تبدد فيه الأمانة ؛ لذلك تجد العاقل هو من يقول : ابعد عنى أمانة الاختيار، لأنى لا أعلم ماذا ستفعل بى الأغيار لحظة الأداء. وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمل الأمانة وقبل التسخير، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة

وأنه سيؤديها. ووصفه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

« ظلوماً » لنفسه لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس فى يده. و « جهولاً » لأنه قاس وقت التحمل ولم يذكر وقت الأداء . فلم يضع فى الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار.

ويقول الحق عز وجل هنا :

﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ .

وكثير من التصرفات السلوكية للإنسان تكون مستترة عن أعين الخلق ؛ لأن أعين الخلق حين ترى جريمة ما ، فهى تستدعى رجال القانون ليأخذوا حق المجتمع من المجرم ، لكن ماذا عن الجرائم المستترة ؟.

نحن نعلم أن كل جريمة تطفو وتظهر واضحة إنما توجد تحتها جرائم مختفية ؛ لأن الذى يقتل إنما يخفى جرائم أخرى ؛ مثل شرائه السلاح بدون ترخيص ، وإن كان لا يملك نقوداً فقد يسرق ليشترى السلاح ، ثم يقوم بتجنيد غيره لمساعدته فى القتل ، وكل ذلك جرائم مستترة ، وبالتأكيد هناك سلوكيات باطنة يأتى بعدها السلوك المقلق للمجتمع وهو الجريمة الظاهرة ، وقصارى قانون البشر أن يحرس المجتمع من الجرائم الظاهرة فقط ، لكن عين القانون لا ترى الجرائم الباطنة والخفية ، أما عين الدين فتختلف ، إنها ترشد الأعماق إلى الصواب ؛ لأن الدين أمانة وضعها الحق - الذى خلق الخلق - فى ضمير الإنسان. فإياك أن تخون الأمانة فى الأمور السرية التى لا يعرفها أحد سوى الله ؛ لأن الأمور التى يعرفها الناس يمكن أن تدافع عنها أمام هؤلاء الناس ،

بخلاف الأمور الباطنة وهى المهمة ؛ لأنها هى التى تسيطر على إيجاد السلوك .

فإياك أن تخون الله والرسول ، وتخون الأمانة التى وضعت لك. ولا حجة لك - فى ذلك - إلا اختيارك. إن شئت فعلت وإن شئت تركت ، وعلى الإنسان ألا يخون الأمانة التى بينه وبين ربه وإذا لم تتوافر الحراسة الإيمانية من ضميره على الأعمال الباطنة قد ينحرف ؛ لأن كل جريمة ظاهرة إنما تتم بتبييت أمرٍ باطن.

ومادمت قد آمنت بالله تعالى ربّا بمحض اختيارك ، فالتزم بالأشياء التى جاء لك بها من آمنت به ، وأنت تعلم : أن الإيمان هو علة كل تكليف ، ، وعلى سبيل المثال ؛ أنت تصلى خمسة فروض لأن المشرع أمرك بذلك ؛ تصلى فى الصبح ركعتين ، وفى الظهر أربع ركعات ، وفى العصر أربع ركعات ، وثلاث ركعات فى المغرب ، وأربع ركعات فى العشاء ؛ لأن المشرع وهو المولى سبحانه وتعالى أمرك بذلك. وأنت تصوم لأن الله أمرك أن تصوم ، فإن أدركت من بعد الصيام أن فيه منافع لك ، فهذا موضوع آخر ، ومع ذلك تظل علة الصيام أن الله أمرك به ، وهكذا تكون علة كل حكم هى الإيمان بمن حكم بهذا الحكم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنفال)

وما الخيانة ؟. إن مادة الخيانة كلها الانتقاص ؛ وضده التمام ، والكمال ، والوفاء. ويقابل كل ذلك الاختيان والغدر. فإذا كان الله يقول لنا : لا تخونوا الله والرسول ، فعلينا أن نلتزم ؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة ، بل خاطب رسولاً اصطفاه من خلقه وأيده بمعجزة. وكل بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول.

﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ .

فلا تخن الله فيما جاء فى القرآن، وجاء من الرسول المفوَّض من الله بأن يشرع. وتشريع الرسول واتباعه جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فلله أمانة فيما نص عليها قرآناً، وللرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا بتفويض قائل القرآن للرسول بأن يشرع، فإن أطعت هذا الرسول، فقد أطعت الله.

وعرفنا أن الاختيانَ هو الانتقاص، ومعنى الانتقاص هو الوقوف بعيداً عن الكمال والإتمام المطلوب. والإنسان حين آمن يصبح للإيمان فى النفس أمانة. فأنت قد آمنت أنه لا إله إلا الله، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألاَّ تجعل لمخلوق ولاية عليك ولا ولاء له إلا أن يكون هذا الولاء نابعاً من اتباع منهج الله تعالى. وهذه هى أمانة الشهادة، أما أمانة الرسالة فهى الحرص على تطبيق كل ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه قدر الاستطاعة.

إذن فالأمانة مع الله تعالى أن تلتزم بكلمة الإيمان فى أنه لا إله إلا الله، وإياك أن تعتقد فى أن أحدا يمكنه أن يتصرف فيك، أو يملك لك ضراً أو نفعاً، أو أن مصالحك ممكن أن تقضى بعيداً عن الله، فكل شىء بيد الله سبحانه صاحب الحول والطول ولا إله إلا الله، وإياك أن تفهم أن حكماً يجىء لك عن غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنك إن خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤد أمانة الله ولا أمانة الرسول.

والقمة فى الأمانة هى إيمان بالله، وإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

والله قد أمر بأحكام وحين تقبلها فلها أمانة، وأمانتها هى أداؤها من غير نقص فى شىء سواء كان عاماً أو خاصاً، ولو فى الحديث يجرى أمامك، وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شىء، مثل أمانة أى مجلس توجد فيه، فلا يحق لك أن تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين.

ونعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد بن أبيه وكان شديد الحزم، فوشى واش بهمام بن عبدالله السلولى إلى زياد، وتوقع القوم عقاباً صارماً بهمام؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن، لكن الله ألهم همَّاماً كلمة ظلت دستوراً يطبق، وحين استدعى زياد هماماً، قال زياد : بلغنى أنك هجوتنى. قال همام : كلا أصلحك الله. ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل. فقال : إن هذا الرجل - وأخرج الرجل من الخباء - أخبرنى . فنظر همام إليه فوجده جليساً وصديقاً ومؤنساً، فلما رآه كذلك أقبل عليه وقال : أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت، وإما قلت قولاً بلا علم فأبت - رجعت - من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة الخيانة والإثم، أى إما أنك خائن أو آثم، فإن كنت قد ائتمنتك على كلمة نفست بها عن نفسى فأنت خائن، وإن كنت اختلقتها علىّ فأنت كاذب، فأعجب زياد هذا المنطق، وأقصى الواشى ولم يتقبل منه. ويقال إنه خلع على همام الصلة والعطايا. فكان همام حين يرى الواشى يقول له : هل لك فى وشاية أخرى تغنينى ؟!!

وفى سيرته صلى الله عليه وسلم وقائع حدثت فى تاريخه حتى من بعض الصحابة، وعلى سبيل المثال : نحن نعلم أنه حينما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، جعل عهداً بينه وبين اليهود، فاستقام لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استقاموا للعهد، فلما خالفوا هم العهد؛ أراد رسول الله أن يؤدبهم، فأدبهم، وكان أول ذلك فى بنى النضير وأوضح لهم أنه لن يقتلهم، بل سيكتفى بإخراجهم من ديارهم وإبعادهم إلى الشام. ثم حدثت خيانة من بنى قريظة، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن. فبعثوا

إلى رسول الله من يقول : يا رسول الله إن بنى قريظة يريدون ان تصنع بهم ما صنعته مع بنى النضير، أى أن بنى قريظة يعرضون ترك البلاد إلى الشام، فرفض الرسول ذلك إلا بعد أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ، وكان يحب بنى قريظة وبينه وبينهم صلة، وعرف بنو قريظة أن رسول الله يطمئن إلى حكم سعد بن معاذ فقالوا : لا ولكن أرسل لنا أولاً أبا لبابة، وهذه كُنْيته، أما اسمه فهو مروان بن عبد المنذر، وكان ماله فى يد اليهود يتاجرون له فيه، أى أن بينه وبينهم صلةً مالية.

ذهب أبو لبابة إلى اليهود، فاسْتَشاروه فى الأمر متسائلين : أنرضى بحكم سعد بن معاذ ؟ فماذا قال أبو لبابة ؟ قال : إنه الذبح، وأشار إلى حلقومه، وبعد ذلك لام أبو لبابة نفسه وقال : والله ما جالت قدماى حتى تيقنت أنى خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن انظروا إلى الإيمان، ويقين الإيمان، وترجيح أمر الآخرة على أمر الدنيا، والنظر إلى أن افتضاح الإنسان فى الدنيا أمر هين بالنسبة لافتضاحه فى الآخرة .

ذهب إلى سارية المسجد - أى عمود فى وسط المسجد - على مرأى ومشهد من الناس، وحكم على نفسه بأن يربط نفسه بالسارية بيده ، وظل لا يَطْعَم ولا يَشْرَب سبعة أيام، حتى خارت قواه وغشى عليه وسقط، فعطف الله عليه، وأبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد تاب عليه. فقالوا له : حل نفسك بنفسك لأنك أنت الذى ربطت نفسك، فقال : والله لا أحلها حتى يحلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحله من السارية.

لماذا فعل أبو لبابة ذلك بنفسه ؟ لأنه شعر بأنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه قال لليهود إنه الذبح.

وهناك صحابى آخر هو حاطب بن أبى بلتعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع أمره لفتح مكة وأراد أن يستر مقدمه حتى تفاجأ قريش. وتكون المفاجأة سبباً فى عدم تولد اللدد وليتم الصلح. لذلك كتم الأمر، وبعد ذلك جلس رسول الله بين صحابته وأعلمه الله أن حاطبا قد أرسل إلى قريش يخبرها. فانتدب علياً ومعه صحابيان وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا إلى مكان حدَّده لهم فى الطريق إلى مكة ليجدوا فتاةً معها كتاب إلى قريش، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد وجدوا الفتاة، فقال لها الإمام علىّ: أخرجى ما معك، فقالت : ليس معى شىء. فمسك علىّ بن أبى طالب عقيصتها وأخرج الكتاب من المكان الذى تخبىء فيه أشياءها، فوجد رسالة تحذير لقريش، وعاد علىّ - كرّم الله وجهه - بالرسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم حاطبا : ما حملك على هذا يا حاطب؟

قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن ذلك لا يضرك فى شىء، وأن الله ناصرك.. ناصرك، ولكنى أردت أن أتخذ لى يداً عند قريش، لأننى رجل ضعيف ولا مال لى ولا أهل.

فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أن هذا نوع من اختيان الرسول. ولكنْ عليك أن تعلم أن كل مخالفة لحكم قبلته من الله الذى آمنت به يعتبر خيانة للأمانة.

﴿ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنفال)

أى لا تخونوا الله والرسول فى المنهج ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وأنتم تعلمون، أى ألا يخون أحدكم قومه عن عمد، ويؤخذ من هذا القول ثبوت

المغفرة فى حالة الخطأ والنسيان، والممنوع أن تخون وأنت تعلم وتقصد، لكن إن حدث أمر بسبب فلتة لسان ، فاعلم أن ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم ، وله فضل عظيم، لا يأخذك بالسهو، وأنتم تعلمون بالفطرة أن مثل هذا الفعل رذيلة لا يقبل عليها إنسان كريم، ولو لم يكن متديناً، وعليك أن تقيس الأمر بمقياس واضح هو : أتحب أن يفعل أحد معك نفس ما تفعله مع غيرك ؟. وهذا سؤال تكون إجابته دليل الفطرة. فإن عرفت أن الفطرة ترفض الفعل ولا تتقبله، فعليك ألا تفعله، لأنه مناف لهذه الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها، وعلى سبيل المثال : إن اللص لو تخيل نفسه مسروقاً لما رضى أن يسرق، والمعتدى على العرض، لو تخيل أن هناك من يعتدى على عرضه لما اقترف الاعتداء على عرض الغير بهدف تحقيق شهوة في النفس. وما لا ترضاه لنفسك يجب عليك ألا ترضاه لغيرك. أتحب أن يخونك أحد فى حديث أو فى أمانة ؟ لا؛ لذلك عليك أن تقيس كل أمر لا من الطرف الآخر، بل من طرفك أنت.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى : « وأنتم تعلمون » أى متعمدون، غير ناسين أو ساهين، أو جاء الأمر كفلتة لسان؛ لأنكم إذا كنتم تعلمون، ففى ارتكاب هذه الأفعال خيانة والله ينهى عن ذلك فيقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

« سورة الأنفال »

ونلحظ أن الخطاب هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأمانات أيضاً جماعة، وأنت حين تُفصّل الأمانات المجموعة على القوم المخاطبين بذلك، تعلم أنّ على كل إنسان تكليفاً محدوداً هو ألا يخون أمانته مثلما يقول الأستاذ للتلاميذ : أخرجوا أقلامكم. فهذا أمر لجماعة التلاميذ بأن يخرج كل واحد قلمه.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

وإذا بحثنا عن علاقة هذه الآية بالآية السابقة عليها نجد أن العلاقة واضحة ؛ لأن خيانة الله ، وخيانة الرسول ، وخيانة الأمانات إنما يكون لتحقيق شهوة أو نفع في النفس ، وعليك أن تقدر أنت على نفسك لأنك قد لا تقدر على غيرك ، ومثال ذلك : أنت قد لا تقدر على مطالب أولادك ، وقد لايكفي دخلك لمطالبهم ، فهل يعني ذلك أن تأخذ من أمانة استودعها واحد عندك ؟ لا .

هل يعني ذلك أن تخون في البيع والشراء لتحقيق مصلحة ما ؟ لا .

هل تخون أمانات الناس من أجل مصالح أولادك أو لتصير غنياً ؟. لا .

وقد جاء الحق هنا بالأمرين ؛ المال والأولاد وأخبرنا أنهما فتنة ، والفتنة - كما علمنا من قبل - لا تذم ولا تمدح إلا بنتيجتها ؛ فقد تكون ممدوحة إذا نجحت في الاختبار ، وتكون مذمومة حين ترسب في ذلك الاختبار المبين في تلك الآية الكريمة.

والمتتبعون لأسرار الأداء القرآني يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة ؛ لذلك نجد من يتساءل : لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد ؟. ونقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه. وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد. ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، ومجيء الزوج يحتاج إلى المال ؛ لذلك كان من المنطق أن يأتي الحق بالأموال أولاً ثم يأتي بذكر الأولاد.

وأساليب القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع بألوان مختلفة ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة آل عمران »

وفى هذا القول نجد أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين. ولم يأت بذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة. وعلينا أن نتنبه أنه سبحانه وتعالى جاء هنا بالقناطير المقنطرة، وهى تأتى بعد تحقيق الشهوة الأولى ؛ وهى النساء، والزينة الثانية وهى الأبناء، ونعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع فى المزيد من المال، فإن كانت الوحدة من القناطير المقنطرة هى القنطار، فمعنى ذلك أن الإنسان الذى يملك قنطاراً إنما يطمع فى الزيادة مثلما يطمع من يملك ألف جنيه فى أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه، وهكذا . إذن فالقناطير المقنطرة تعنى الرغبة فى المبالغة فى الغنى.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

« من الآية ٢٨ سورة الأنفال »

ويقول فى آية ثانية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

« من الآية ١٤ سورة التغابن »

وفى هذا القول نجد أن العداوة تأتى من الأزواج قبل الأولاد، ونعلم أن الزوجة فى بعض الأحيان هى التى تكره أولاً ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبه بها الأبناء، وهذا كلام منطقى؛ لأن الذى يتكلم هو رب حكيم.

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾.

وفى هذا القول تحذير واضح : إياكم أن ترسبوا فى هذا الاختبار؛ فمن يجمع المال من حرام لترف أبنائه فهو خائن للأمانه، وهذا له عقاب، ولذلك يذكرنا الحق تبارك وتعالى فى آخر هذه الآية بما يحبب إلينا النجاح فى الاختبار فيقول سبحانه :

﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾.

ونعلم أن النفس البشرية مولعة بحكم تكوينها الفطرى من الله بحب النفع لنفسها، ولكن المختلف فيه قيمة هذا النفع؛ وعمر هذا النفع؛ لأن الذى يسرق إنما يريد أن ينفع نفسه بجهد غيره، ومن لا يسرق يريد أيضاً أن ينفع نفسه ليبارك الله له فى المال وأن يعطيه الرزق الحلال. وهكذا تكون النفعية وراء كل عمل سواء أكان إيجاباً أم سلباً،

والمثال الذى أضربه دائماً لذلك هو الطالب الذى يهمل فى دروسه، ويوقظه أهله كل صباح بصعوبة، ثم يخرج من المنزل ليتسكع فى الشوارع، والطالب الثانى الذى استيقظ صباحاً وذهب إلى مدرسته وانكب على دروسه، إنَّ كلاً من الطالبين قد أراد نفع نفسه، الفاشل أراد النفع الأحمق، والناجح أراد النفع فى المستقبل. ونعرف أن النفع غاية مطلوبة لكل نفس. والمهم هو قيمة النفع، وعمر النفع. فإذا كانت الخيانة ستؤدى لك نفعاً فى أولادك أو أموالك؛ فاذكر ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عز وجل، وضع هذه فى كفة، وضع تلك فى الكفة الأخرى، وانظر أى كفة ترجح، ولابد أن ترجح كفة الأجر عند الله عز وجل.

ولذلك قال المتنبى :

أرى كلنا يبغى الحياةَ لنفسه

حريصاً عليها مستهاماً بها صبًا

فحُبُّ الجبانِ النفسَ أوْرَده التقى

وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أوْرَده الحَرْبَا

فكلنا نحب الحياة؛ الجبان الخائف من الحرب يحب الحياة، والشجاع الذى يحب نفسه ويعلم قيمتها عند خالقها يخوض الحرب رغبة فى حياة الاستشهاد، وهى حياة عند الله إلى أن تقوم الساعة، ثم تتلوها حياة الجنة حيث يخلد فيها أبداً.

إذن فالمعيار الذى نقيس به النفع هو محل الاختلاف.

وفى عرف البشر نجد أن الأجر يساوى قيمة العمل، لكن الأجر عند الله لا يساوى العمل فقط، بل هو عظيم بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

ويستهل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بنداء الإيمان، ثم يضع شرطاً هو : « إن تتقوا الله »، ويكون جواب الشرط أن يجعل لنا فرقاناً، ويكفر عنا السيئات، ويغفر لنا وسبحانه هو الكريم وصاحب الفضل العظيم.

والمراد بالتقوى هنا أن تكون التزاما بالأحكام؛ وقمة الالتزام بالأحكام هى الإيمان بالله عز وجل، وإذا وجد الاثنان؛ الإيمان بالله والالتزام بالأحكام، لابد أن يتحقق وعد الله المتمثل فى قوله تعالى :

﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

والفرقان من مادة « فرق » « الفاء والراء والقاف »، وتأتى دائماً للفصل بين شيئين؛ مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فكان كل فِرْق كالطود العظيم. وسبحانه و تعالى يقول :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة البقرة)

أى نزع الله سبحانه الاتصال بين متصلين فصار بينهما فرق كبير .

وافرض - على سبيل المثال - أنك أحضرت ثوباً من قماش مُتَساوٍ فى النسيج واللون، ثم شققت من الثوب جزءاً منه؛ هنا لا يقال إنكَ فرقتَ بين القطعتين، بل فصلت بينهما، لكن لا يقال فرْق إلا إذا كان الفصل يؤدى إلى فرقتين؛ فرقة هنا، وفرقة هناك وهذه لها أشياء ومتعلقات، وتلك لها أشياء ومتعلقات.

إذن فالفرق ليس هو الفصل بين متلاحمين فقط، بل هو فصل يؤدى إلى أن يكون لكل فرقة منهج، ومذهب، ورأى.

و « يجعل لكم فرقانا » أى يفصل بين شيئين لم يكن يوجد بينهما اتفاق؛ لأنه لو كان بينهما اتفاق لصارا فرقة واحدة، لكن لأنهما مختلفان لذلك لابد من وجود تناقض بينهما. وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : إنه يجعل لكم فرقاناً، مثال ذلك، هناك من يهتدى، وهناك من يضل. وبطبيعة الحال يوجد فرق بين الهدى وبين الضلال. فالله شرح صدر المهتدى للإسلام، وجعل صدر

الكافر ضيقاً حرجا؛ فيه غل وحقد وحسد ومكر، وخديعة؛ لذلك يفصل ربنا بين من بقلبه طمأنينة الإيمان وبين من يمتلىء صدره بالضغينة، فالمؤمن من فرقة تختلف عن فرقة أصحاب القلوب الحقودة.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

أى أنه سبحانه وتعالى يفصل بينكم أو يفصل بين عموم الحق وعموم الباطل؛ لأنه يريد أن تكون حركة الحياة وحدة متكاملة منسجمة، لا يسودها هوى جماعة ضد جماعة لها هوى آخر؛ لأنهم كلهم خلفاء لله فى الأرض، وكلهم مخلوقون لله، وكلهم متمتعون بخيرات الله؛ لذلك يجب أن تكون حركاتهم متساندة ومتناسقة غير متعاندة.

والتفرق - كما نعلم - إنما ينشأ عن اشتباك؛ بين فريقين اثنين، واحد منهما يمثل فريق الهدى، والثانى هو من حق عليه عذاب الله.

﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ويتمثل الفرقان فى هدى القلب، والبصيرة والعلم؛ وأى شىء يفصل بين الحق والباطل، وأحوال الإنسان - كما نعلم - قسمان : أحوال الدنيا، وأحوال الآخرة، وأحوال الدنيا فيها أمور قلبية مستترة، وفيها أمور ظاهرة، وإن نظرنا إلى حالات الدنيا نجد منها الظاهر وهو الحركة المحسة، ومنها القلبى الذى لا يعرفه من بعد الله إلا صاحب القلب. والفرقان فى أحوال الدنيا القلبية تلمسه حين تجد من اهتدى، ومن ضل؛ ونجد أن المهتدى قد شرح ربنا صدره للإسلام. ونجد أن الضال هو من لم يشرح الله صدره للإسلام والمهتدى يعيش ضمن الفريق الذى لا غل فيه ولا حقد، والضال هو من يعيش فى فريق يتصف

بالغل والحقد، هذا في الأمور القلبية. أما في الأعمال الظاهرة، فالحق يجعل الفرقان بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ بالنصر، والغلبة، والعزة.

وماذا عن الفرقان في الآخرة ؟.

إن الحق يجعل الفرقان في الآخرة بحيث يكون لأهل الإيمان النعيم المقيم والثواب العظيم، ويجعل لأهل الكفر العذاب الشديد والمقت الكبير.

﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

وإذا كنا سنتقي الله فهل سيكون لنا سيئات ؟.

وأقول : إن أردت بقوله : « إن تتقوا الله » إيماناً به، فسبحانه يُكَفِّر عنكم سيئاتكم؛ صغائرها وكبائرها. ولا يضر مع الإيمان معصية، بل تدخل في عفو الله وغفرانه.

وإن أردت بالتقوى « التزام أمر » فتكفير السيئات يعني أن نتقي الله بترك الكبائر فيكفر عنا السيئات وهي الصغائر. والتكفير على نوعين؛ أولا أن يسترها عليك في الدنيا، أو يذهب عنك عقوبة الآخرة، ولذلك يقول سبحانه في ختام جميل للآية :

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم، فمعنى ذلك أنَّ هناك فَضْلاً أقل من عظيم، كما أن هناك فَضْلاً يعلوه تميزاً. نعم، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر؛ هذا يتفضل على هذا بطعام، أو يتفضل عليه بِمَلْبَس، أو يتفضل عليه

بشراب ، أو يتفضل عليه بمسكن ، أى أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل ، لكنهالا توصف بالعظمة ؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط لأنه سيؤول إليه كل فضل من دونه ، فمن أعطى آخر رغيف خبز فلنعلم أن وراءه من أحضر الخبز من المخبز ، ووراءه من جاء بالدقيق من المطحن ، ووراءه من زرع وحصد.

إذن كل فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله عز وجل ، وهذا هو الفضل العظيم. وأيضاً نجد أن الذى يتفضل على واحد لابد أنه يبغى من وراء هذا الفضل شيئاً ، مثل كمال الذات ، وأنه يود الحمد والثناء ، ويبغى راحة نفس إنسانية ، ونرى أناساً يؤدون الفضل لغيرهم ليقللوا من آلامهم ، لا لأنهم يطبقون منهج الله ، بل يرغبون فى مجرد راحة النفس ، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس ، فهم يفعلونها وليس فى بالهم الله ، بل فى بالهم راحة النفس وانسجامها.

إذن فالذى يتفضل إنما يريد شيئاً ، إما كمال مال أو ثناء وإطراء ، وراحة نفس من مناظر الإيلام التى يراها ، وهذا دليل على أنه يعانى من نقص ما ويريد أن يكمله. فإذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل ، ألله نقص فى كمال ؟!!لا. إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه دون رغبة فى كمال أو ثناء ، وأيضاً فكل فضل من دون الله يتضمّن المنّ ، لكن فضل الله تعالى ليس فيه منّ وليس فيه ذلة لأحد. وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئا من إنسان آخر . لكن من الذى يستنكف على فضل الله ؟ . لا أحد . لأنَّ الحياة كلها هبة منه ، ولذلك يُضرب المثل بالفتاة التى قالت لمعن بن زائدة :

فَعُدْ إنَّ الكريَم له معاد
وظنِّى بابْنِ أروى أن يعودا

وكانت الفتاة تطالب ابن زائدة أن يعود إلى التفضل عليهم، فنهرها أبوها، فقالت له : يا أبى إن الملوك لا يُسْتَحَى من الطلب منهم.

﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن تنتبه إلى أن كل مظهر من مظاهر وجودك فى الحياة ومظاهر استبقاء حياتك، ومظاهر نعيمك كلها، إن نسبتها فستصل إلى الله، فإن كنت تشترى - على سبيل المثال - أثاثاً لبيتك، واختَرت خَشَب الورد ليكون هو الخشب الذى يصنع لك منه النجار هذا الأثاث، فأنت تأتى بهذا الخشب من أندونيسيا أو باكستان مثلاً؛ لأن الغابات هناك تنتج مثل هذا النوع من الخشب، وكل شىء فى حياتك إن سلسلته ستجد أن أيدى المخلوقات من البشر تنتهى عند خلق لله وهبه للإنسان، وهذا هو الفضل العظيم من الله تبارك وتعالى.

وبعد أن أوضح الحق سبحانه وتعالى بهذا التوجيه : لا تخونوا الله، ولا تخونوا الرسول، ولا تخونوا أماناتكم، من أجل أولادكم أو أزواجكم، واعلموا أن مرد كل الفضل إلى الله تعالى، واذكروا واقع الدنيا معكم، أصدقت هذه المسائل أم لم تصدق ؟ لقد صدقت كلها، كما قال الحق سبحانه وتعالى من قبل :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وكان هذا القول بالنسبة للمسلمين، فماذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم؟. هنا يقول المولى سبحانه :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأت بمادة الذكر فى جانب النبى صلى الله عليه وسلم. ولم يقل له : واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا ؛لكنه فى جانب الصحابة جاء بمادة الذكر حيث قال: واذكروا إذ أنتم قليل، فما السبب ؟

ذلك لأنه لا يطرأ على البال أن يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكر الله تعالى ؛ لأن الذكر هو مهمته عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾

(سورة الغاشية)

هذا الذكر والتذكير هما وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويختلف هذا عن مهمة الإيمان فى حياة المؤمنين ؛ لأن الإيمان بالنسبة لهم إنما ليعدل من حياتهم. لذلك جاء هنا بالظرف فقط .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا كله شرط وحيثية لقوله تعالى : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

والمكر هو التَّبْييت بشىء خفىّ يضرّ بالخَصْم . والذى يمكر ويبيت شيئاً خفياً بالنسبة لعدوه، لا يملك قدرة على المواجهة، فيبيت من ورائه، ولو كانت عنده

قدرة على المواجهة فلن يمكر ؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف . ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

ثم نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ومادام كيدهن عظيما فضعفهن أعظم . ولذلك نجد الشاعر العربى يقول :

وضعيفة فإذا أصابَتْ فرصةً

قَتَلتْ كذلك قُدْرَةُ الضُّعفاءِ

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية ؛ لذلك يندفع إلى قتل خصمه . أمَّا القوى فهو يثق فى نفسه وقدراته ولذلك يعطى خصمه فرصة ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

أى يذكرون الكيد والتبييت لك بالمكر ، لكنهم لا يعلمون أن مَنْ أرسلك يا رسول الله لا تخفى عليه خافية ، فقد يقدرون على المكر لمن هم فى مثلهم من القدرة ، لكنك يا رسول الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت فى حفظه ورعايته .

إذن فلست وحـدك لأنك تأوى إلى الله ، ويكشف الله لك كل مكرهم ، وهذا المكر والتبييت مكشوف ومفضوح من الله ؛ لذلك يقول لك المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

والمكر منهم له وسائل وغايات ، هم يمكرون ليثبتوك ، ويمكرون ليقتلوك ، ويمكرون ليخرجوك . وكل لقطة من الثلاثة لها سبب . فحين علم كفار قريش أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصروه ؛ هنا فزع كفار قريش وأرادوا أن يضعوا حدّاً لهـذه المسألة ، فاجتمعوا فى دار الندوة يريدون أن يجدوا حلاً يوقف رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليهم أعرابى فوجدهم يتشاورون ؛ وقالوا لنثبته ، والتثبيت ضد الحركة ، وقوله : «ليثبتوك» أى ليقيدوا حركتك فى الدعوة ؛ لأن هذه الدعوة تزلزلهم . ولولا الرسالة ، لظلوا على الترحيب بك يا رسول الله ، فقد كنت فى نظرهم الصادق والأمين ، ولم يرهقهم إلا التحرك الأخير لإشاعة منهج الله تعالى فى الأرض ، لذلك أرادوا أن يقيدوا حركته صلى الله عليه وسلم .

والتقييد إما أن يكون بأن تمنع المتحرك عن الحركة ، وإمّا أن تقيد المتحرك نفسه فتحدد مجال حركته . إذن فالتثبيت يكون بالقيد أو السجن ، وقيل لهم : إن هذا رأى غير صائب لأنكم لو قيدتموه أو سجنتموه فسوف يقوم قومه ويغيرون عليكم ، أو يحتالون ليفكوا عنه القيد أو السجن ، وقد سبق لكم أن حاصرتموه فلم تفلحوا ، وقال آخر : نخرجه من بلادنا ، وناقشوا هذا الأمر فلم يجدوه صواباً ، وقالوا : إنه إن خرج ، فلسوف يؤثر فيمن يخرج إليهم تأثيراً يجعل له منهم أتباعاً ، يأتون إلينا من بعد ذلك ليقاتلونا ، وأشار الأعرابى بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن كبار قريش قالوا : نخاف من

قومه أن يأخذوا بثأره ، فاقترح أبو جهل قائلا : نأخذ من كل قبيلة من قبائلنا فتى جلداً قوياً ، وبعد ذلك يذهبون إلى محمد وهو فى فراشه ويضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا مات تفرق دمه فى القبائل ، ولن تستطيع قبيلة محمد أن تواجه القبائل كلها ، فيرضون بالدية ، وندفعها لهم وننهى هذا الأمر .

هكذا ناقش القوم تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقييد حركته أو إخراجه من بلده أو قتله ، وكل هذا بمكر وتبييت . وكشف الله لرسوله كل ذلك وأخرجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ليوضح لهم أنه سبحانه خير الماكرين حقّاً وصدقاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وقول الحق : « آياتنا » يعنى آيات القرآن؛ لأننا عرفنا من قبل أن الآيات إما أن تكون الآيات الكونية التى تلفت إلى وجود المكوِّن الأعلى مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وإمّا أن تكون الآيات بمعنى المعجزات :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾

(من الآية ٢٠٣ سورة الأعراف)

وهذه الآيات المعجزة علامة على أنه صادق . أو الآيات التى هى قسط من القرآن وهو المنهج .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنفال)

ونفهم من التلاوة أن المقصود هو آيات القرآن الكريم . فماذا قالوا ؟

﴿ قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنفال)

وقولهم : « لو نشاء » هذا يدل على أنهم لم يقولوا؛ لأن « لو » حرف امتناع لامتناع ، مثلما تقول : لو جئتنى لأكرمتك ، فامتنع الإكرام منى لامتناع المجىء منك ، فهذا يعنى امتناع لامتناع ، ومثلما يقول قائل : لو عندى مال لاشتريت قصراً ، ولأنه لا يملك مالاً ، فهو لم يشتر القصر - إذن هم لم يشاءوا ولم يقولوا ؛ لذلك كان كلامهم مجرد « تهويش » وتهديد لا محل له . فلم يحصل منهم هذا ولا ذاك .

إذن ثبت الإعجاز . لقد ثبت لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين قالوا : إن القرآن كثير ولا يقدرون أن يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين فشلوا ، تحداهم بأن يأتوا بسورة ، فلم يأتوا ، وكان هذا تدرجاً فى الإعجاز .

لقد تحداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى التحدى حفز الْمُتَحدَّى أن يُجند كل ما يقوى عليه ليرد التحدى . فإن لم تتجمع لهم المواهب التى تكفل قبول التحدى انسحبوا ؛ لكن واحداً منهم اسمه « النضر بن الحارث » ذهب لفارس ، ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات ، وجاء ليقول وسط قريش : هأنذا أقول مثل محمد . لكن كلامه لم يكن له هدف ولا يحمل منهجاً ولا توجد لكل كلمة فيه قدرة جذب لمعنى ، ولم يوجد فى قوله أى معنى جاذب للكلمة ، لذلك انصرف عنه القوم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا قولهم ، وسبق أن اعترفوا بأنه قرآن ، وسبق لهم أن قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين نقرأ هذه الآيات الكريمة ونقوم بتعداد ما طلبوا منه ، نجد أنهم طلبوا تفجير الأرض بينبوع ماء ، وطلبوا أن تكون له جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، وطلبوا أن تسقط السماء كما زعم عليهم كسفا ، وطلبوا أن يأتي بالله والملائكة قبيلا ، وطلبوا أن يكون له بيت من زخرف ، وطلبوا أن يرقى في السماء ، وكل هذا كلام طويل أثبته القرآن الكريم ، فهل ما قالوه يعد قرآنا ؟ لا ، ولنلتفت إلى دقة أداء القرآن ، فلم يقل كل هذه الطلبات إنسان واحد ، بل قال كل منهم طلباً ، وبأسلوب مختلف ، ولكن بلاغة القرآن الكريم جمعت كل الأساليب فأدتها بتوضيح دقيق وبإعجاز بالغ ، ولذلك لنا أن نلتفت أننا ساعة نسمع نقلا لكلام الغير من القرآن ، فعلينا ألا نأخذه على أن هذا الكلام الذى قيل هو معان قيلت ، وجاء القرآن الكريم بها بأسلوب الله .

وأضـرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إذا جـئت لابنك وقلت له : يا بني اذهب إلى عـمك فلان وقل له : إن أبي يدعوك غداً مساءً لتناول العشاء معه ؛ لأن عنده ضيـوفاً ويحرص على أن تشاهدهم ويشاهدوك وتقوى من مكانته . وحين ذهب الولد لعمه ، هل قال له نفس الكلام ؟ طبعا لا ؛ لأن الأب قد يكون متعلماً ، ولا يستطيع الابن أن يقول ذات الكلمات . أو قد يكون الأب أمياً ، والابن مثقفا ناضجا فينقل الابن رسالة أكثر بلاغة .

إذن فأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً من غير الله على لسان أحد ، فاعلم أن هذا أداء الله لمطلوبات المتكلم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والأساطير جمع أسطورة ، أي الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

و « إذ » تأتي للظرف أيضاً ، ولم يقل سبحانه وتعالى : واذكر أن قالوا ، بل قال : « إذ قالوا » . وقد بلغ بهم العجز إلى أن قالوا إن كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا حجارة ، أو ائتنا بعذاب أليم .

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائليه ؟ بالله لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير، أكانوا يقولون ذلك ؟

ألم يكن من المناسب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، أو فاجعلنا نقبله ؟. ومادامو قد قالوا : « اللهم » فالمنادى هو الله.

﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

إذن هم يعلمون أن لله عز وجل عندية، وفيها حق، وهكذا نرى أنهم اعترفوا بوجود الله، وأنَّ عند الإله حقًا. فكيف إن جاء إنسان وقال لكم : إنني رسول من عند الله، وهذا هو المنهج، وهو منهج ومعجزة فى وقت واحد، ألم يكن من الواجب أن تستشرف آذانكم إلى من يبلغ عن الله هذا الحق وأن تستجيبوا له ؟. لكن مادامو قد استمطروا على أنفسهم اللعنة والعذاب، فهذا دليل كراهيتهم لمحمد، ومن أجل هذه الكراهية دعوا الله أن ينزل عليهم العذاب كما فعل بالأمم السابقة - وطلبهم هذا للعذاب يدل على أنهم علموا أن من يكذب الرسل ويرفض المنهج إنما يتلقى العذاب من الله. وهكذا يتبين لنا أن ما ينقصهم لإعلان الإيمان هو عدم قبولهم لرسول الله شخصياً، ويتمثل هذا فى قول الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

(سورة الزخرف)

إذن لو أن القرآن نزل على شخص آخر ؛ لآمنوا به. وفى هذا اعتراف بأن القرآن معجزة ، ومنهج. وقوله تعالى : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ورد على لسان

أبي جهل وهذا يدل على كثرة جهله وشدة تكذيبه وعناده وعتوه هو ومن معه من المشركين المكذبين . فعن أنس بن مالك : قال أبو جهل بن هشام : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فنزلت : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » [1]

وهؤلاء المعاندون قالوا أيضا :

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾

(من الآية ٩٢ سورة الإسراء)

وهذا دليل على التخبط فى الكلام ، وفقدان الوعى العقلى.

﴿ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يصيب بالعذاب قوماً بعينهم وقادر على نجاة المؤمنين ، وشاء الله سبحانه ألا ينزل العذاب ؛ لأن رؤية المتألم حتى ولو كان عدواً ، فيه إيلام – لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لأن سنة الله مع خلقه المكذبين للرسل ، أنه سبحانه وتعالى قبل أن ينزل العذاب يخرج الرسول والمؤمنين به ، مثال ذلك أمْره نُوحاً عليه السلام بأن يصنع السفينة ؛ لينجو من الطوفان. وكل رسول لم تستجب أمته أصابها شيء

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه .

من هذا ، وعلى ذلك يخرج الرسول أولا ، ثم ينزل الحق عذابه ، كما أنه يقول سبحانه وتعالى موضحا فضل اللجوء إلى الله بالاستغفار :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وهم إن استغفروا الله فمعنى ذلك أنهم آمنوا به ، ولكن الحق جاء بهذا القول ليدلهم على المنقذ الذى يخلص الإنسان منهم من جريمة الكفر ، وفى ذلك رحمة منه سبحانه وتعالى ، وكأنه يحضّهم على أن يستغفروا حتى لا ينزل بهم العذاب. ويرسم لهم وسيلة النجاة.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وتسمى اللام فى « ليعذبهم » بـ « لام الجحود » ، نجحد أن يعذبهم الله وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن فوجود الرسول فيما بينهم أمر له تقدير خاص ، أما هم فالحق تبارك وتعالى يقول بشأنهم :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وهكذا نرى الحقائق الإيمانية ، فالنفس المؤمنة الصافية حين يكون لها عدو ، ثم تحل بالعدو مصيبة ، لا تأتى أبداً كلمة الشماتة على بال المؤمن ، هذا هو الخلق الإيمانىّ الذى قد يؤلمه مظهر الضعف والمهانة للعدو ، فيضنّ الله على أن يعذب قوماً وفيهم من يستغفر ، وكأنه يُوضّح لنا : هب مسيئنا لمحسننا ، أى أن يدارى المحسن على المسىء. ولذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية صُدَّ عن البيت الحرام ، وهذا الصد تسبب فى أنهم يعقدون معه معاهدة هى صلح الحديبية ، وكان هناك من المؤمنين من يعارض هذه المعاهدة ، ومنهم من قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟. والقائل لذلك هو عمر

ابن الخطاب - رضى الله عنه - ، وفى التفاوض ، جاء على بن أبى طالب ليكتب المعاهدة وفى بدئها « هذا ما صالح عليه رسول الله » فاعترض المفاوض عن معسكر الشرك قائلاً : لو كنا مؤمنين بأنك رسول الله لما حاربناك ، بل اكتب : « هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله » ، فامتنع علىّ عن الكتابة ، وقال : لا أكتبها إلا رسول الله. فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتبها كما يقولون لينهى الموقف ، وليعطى معجزة ، فينظر لعلى وهو مغتبط به ، فيقول له :

« اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » ويتحقق ذلك بعد حياة النبى ، وخلافة أبى بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، ثم تجيء الخلافة لعلى وحدث فيها ما حدث . ويتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد »(١)

أى سيقفون منك موقفاً مثل هذا وسوف تقبله ، ولما جاء الخلاف بين معاوية وجنوده ، وبين على وجنوده ، أرادوا أن يوقعوا معاهدة فيما بينهم ليمنعوا النزاع بين المسلمين ، فقال على - كرم الله وجهه - : هذا ما تعاهد وتعاقد عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فقال المفاوض عن معاوية : لو كنت أميرا للمؤمنين أكنّا نحاربك ؟ ، فتذكّر على كرم الله وجهه ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية : « اكتب فإن لك مثلها ..... إلخ » .

ومعنى ذلك أن السياسة تقتضى ألا تتجمد كمن يكون فى قالب حديدى ، بل تفترض السياسة فيمن يعمل بها شيئاً من الليونة وبعد النظر لتنتهى المواقف الصعبة ؛ لأن كل طرف لو أصرّ على موقفه لما وقعت المعاهدة ، وكانت معاهدة صلح الحديبية مطلوبة ومناسبة ليتفرغ المسلمون - بعد الأمن من قريش - للدعوة إلى منهج الله فى الأرض ، وهذا ما حدث خلال السنوات العشر التى تلت هذه المعاهدة ، وانتشر الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ، ومن بعدها إلى آفاق الأرض كلها.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلح .

إذن فوليّ الأمر عليه أن يملك البصيرة التى لا تجعله جامداً ، لأنه لو تجمد لأنهى الخير الموجود فيه وفى قومه ، وهكذا أراد رسول الله أن يعلمنا عدم الجمود بصلح الحديبية على الرغم من أن بعض المسلمين ومنهم عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - قالوا : لا ، علام نعطى الدنية فى ديننا ؟ وبعضهم قالوا متسائلين ، بل وعاتبين : ألم تعدنا يا رسول الله أننا سندخل البيت الحرام؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقلت لكم هذا العام ؟.

ولم ينتبه المسلمون حين سمعوا ذلك إلى أهمية أن تنضج القرارات السياسية لتأخذ طريقها إلى التنفيذ . وكادت الفُرقة أن تحدث بين المسلمين ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجه أم سلمة مكروباً . وقال لها : يا أم سلمة هلك المسلمون . أمرتهم فلم يمتثلوا.

ونرى موقف أم سلمة رضى الله عنها وهى الزوجة الأمينة المشيرة الناصحة ، لقد قالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، لقد جاءوا وفى نيتهم أن يذهبوا إلى البيت الحرام بعد طول فرقة واشتياق ، ثم حُرموا من ذلك وهم بمرأى من البيت ، ولكن قم يا رسول الله فاعمد إلى ما أمرك الله به ، ولا تقل لهم شيئاً ، بل اذبح هديك ، وهم إذا رأوك فعلت فَعَلوا.

وبالفعل خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وذبح الهدى ، وفعل المسلمون مثله . ونجد سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - يقول عن الحديبية : هى الفتح فى الإسلام . وما كان فتح أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس لم تتسع ظنونهم إلى السر من الله. والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة عباده حتى تبلغ الأمور ما يراد لها.

وقد كان المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم غيورين على دينهم ، على قدر علمهم لا علم الله. وشاء الحق تبارك وتعالى أن يبين لهم السبب

فى أنه لم يجعل من الحديبية أرض قتال أو التحام؛ فقال :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

(سورة الفتح)

نعم فقد كان هناك مؤمنون ومؤمنات يختفون بين الكفار، فلم يكن فى مكة قبل الفتح - حىّ للمسلمين الذين يخفون إيمانهم، وحىّ للكفار، بل كان الناس يسكنون معاً، فإذا ما قامت الحرب بين أهل مكة وبين الجيش القادم إلى الحديبية، لقتل المسلم أخاه المسلم الذى لم يعلن إسلامه، ولو أمكن التفريق بين المسلمين الذين لم يعلنوا إسلامهم وبين الكفار، لعذب الله الكفار بأيدى المؤمنين عذاباً أليماً.

وهنا فى هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

ويعنى بذلك أن بعضهم هو الذى يستغفر فيمنع الله عز وجل العذاب عن الكل، مثلما منع تعذيب الكافرين بصلح الحديبية؛ لأن هناك مؤمنين مستخفين فيما بينهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا نتساءل : أى شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله ؟ . إن تعذيبهم هو عدالة ؛ لأنهم فعلوا ما يستحقون عليه التعذيب . لقد صدوا الرسول والمسلمين عن زيارة المسجد الحرام ؛ لأنهم ظنوا أن لهم الولاية عليه ، رغم أن منهم من سمع خبر أبرهة الأشرم حين جاء بالأفيال ليهدم الكعبة. واستولى أبرهة الأشرم على مائه من الإبل كانت لسيد قريش عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه عبد المطلب وقال له : إنك قد أصبت لى مائة بعير فأرجو أن تردها إلىّ. فقال أبرهة الأشرم : جئت لأهدم بيتكم ، وبيت آبائكم ، ثم لا تكلمنى فيه وتكلمنى فى مائة من الإبل أصبتها منك ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .

وهذه كلمة لا يقولها إلا واثق من أن للبيت الحرام ربّاً يحميه .

وجاءت طير أبابيل ترمى أبرهة بحجارة من جهنم فجعلته هو وجيشه كعصف مأكول .

إذن فكيف تصد قريش محمداً والمؤمنين معه عن البيت الحرام ، وهم بإقرار سيدهم قديماً يعلمون أنَّ للبيت ربّاً يحميه ، فكيف تكون لكم على البيت ولاية؟ وكان عليهم أن يعلموا أن ولاية أمر بيت الله باختيار الله ولا تكون إلاَّ للمتقين ، ولم تكن قريش من المتقين .

و حيثيَّات التعذيب إذن هى صدهم عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه. لماذا؟

﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأنفال)

وإذا كان أكثرهم لا يعلم، فأقلهم يعلم علم اليقين حقيقة البيت الحرام، فقداسة هذا البيت التى تعلمها الأقلية ونسيتها الأكثرية من كفار قريش هو قول الحق تبارك وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد جعلهم الله عز وجل فى هذا المكان ليقيموا الصلاة ؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب أن يعبد فى الأرض ولو بواحد فى هذا المكان، ولتظل عبادته دائمة. ومهما علت فئة من البشر مثل قريش فهى بصدها عن البيت الحرام قد اتبعت أهواءها، وسبحانه يحقق ما يريد، فهزم قريشا ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعادت للكعبة حرمتها وصارت مكانا للعبادة لله بصفة مستمرة.

وإننا نجد تشريعات الحق سبحانه فى أوقات الصلاة، فالصبح عند قوم هو ظهر عند قوم آخرين، والظهر عند قوم هو صبح عند قوم آخرين، و العصر عند قوم هو صبح أو ظهر أو مغرب أو عشاء عند أقوام آخرين، وهكذا نجد كل أجزاء النهار مشغولة بأوقات الاتجاه إلى الله، وهناك فى كل لحظة من يتجه إلى بيت الله الحرام بصلاة ما فى ميقاتها، ولا تخلو بقعة فى الأرض من قول: «الله أكبر»، وقد تم بناء البيت الحرام من أجل هذه الصلاة.

لكن قريشاً حولت الصلاة من خضوع وخشوع وعبادة لله تعالى واستحضار لعظمته وجلاله إلى ما يقول عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

حيث كانت صلاتهم مظهرا من مظاهر اللهو واللعب يؤدونها بالمكاء والتصدية، والمكاء هو الصفير الذى يصفرونه، والتصدية هى التصفيق، وكانت صلواتهم هى صفير يسبب صدى للآذان، بالإضافة إلى التصفيق بإيقاع معين، فكيف تكون الصلاة هكذا ؟ . وكيف يصدون عن البيت الحرام ولا ولاية لهم عليه؛ لأن الذى يلى أمر البيت الحرام لابد أن يكون متقياً لله، لكن هؤلاء لم يكونوا أهلاً للتقوى؛ لأنهم لم يقوموا بالصلاة المطلوبة للبيت الحرام والتى يجب أن يذكر فيها الله ويُعبد؛ لذلك كان التعذيب لمن أصر على ذلك بعد أن نزل منهج الله الخاتم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ويبين المولى فى هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدنى نتيجة، وكأن الحق يغرى الكافر بأن يتمادى فى الإنفاق ضد الإيمان، فيخسر الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك .

وحين سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل، وأنه مهما أنفق الكفار ضد دين الله فلن يصلوا إلى أية نتيجة، ومصداق الأحداث يؤكد أن كلَّ ما يجيء به القرآن الكريم حق .

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك ؟ ولم يدخروا أموالهم ؛ وقد نصر الله دينه ؟.

إذن هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء. وحين يأتى القرآن الكريم بقول الله تعالى : « فسينفقونها » أى أن الإنفاق سيكون فى المستقبل، والاستقبال له مرحلتان؛ استقبال قريب ،واستقبال بعيد. فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول : « فسينفقونها » ، وأما إن كان بعيداً فيقول : فسوف ينفقونها مثلما قال القرآن أيضاً :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله ، وجهرا من الصحابة بالخبر ، وأعلمهم القرآن الكريم أيضا ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذى صار من بعد ذلك خبراً يروى دليل افتقادهم لصفاء الفطرة . ؛ لذلك تجيء لهم الحسرة بعد أن أنفقوا المال ، وخسروه فلم يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا آمالهم . ويتابع سبحانه وتعالى تذييل هذه الآية فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

وحينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التى تحدث للكفار من عذاب عظيم فى جهنم ، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار ، لكنه يخوفهم ويرهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحضهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا فى جهنم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تكشف لنا أن المعارك التى تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة ، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى : هذه المعارك إنما هى أمر مراد من الله تعالى : لأن الزلزلة التى تحدث ، حتى لمن آمن ، إنما هى تصفية لعنصر الإيمان ، ومثال ذلك ما حدث فى الإسراء ، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل : أمعقول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس فى ليلة ؟! بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبى بكر يقول : إن كان قد قال فقد صدق . إن الثابت والقوى إيمانه يصدق ، أما من لم يثبت إيمانه فهو يكذب . وهكذا كانت أحداث الإسلام ، فقد جاءت كلها لتميز الخبيث من الطيب ، وتجمع الخبيث بعضه إلى بعض ليصير ركاماً ثم يضعهم الله فى النار .

لقد جاءت أحداث الإسلام للتمحيص ، مثلما تضع الحديد فى النار لتستخرج منه الخبث ويصير صافياً ، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين ، ويقوى إيمانهم ؛ لأنهم يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها ، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة .

ومثل هذه التصفيات تحدث فى المجال الرياضى ، فحملة الأثقال - على سبيل المثال - يدخلون فى مباريات أولية ، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذى يكون مؤهلا لأن يدخل المباريات الدولية ، ليبقى الأقوى .

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثالاً لأحداث تميز الخبيث من الطيب ، فالناس فى الأحوال العادية الرتيبة لا تظهر معادن نفوسهم ؛ لأن الناس إذا كانوا آمنين لا يواجهون ؛ خطراً ، ادعوا الشجاعة و الكرم والشهامة ، وادَّعوا الإيمان القوى المستعد لأى تضحية فى سبيل الله ، فإذا جاءت الأحداث فهى الاختبار الحقيقى لما فى القلوب . فقد يقول إنسان لصديقه : أنا ومالى لك . وإذا ما أصابت هذا الصديق كارثة ، يتهرب منه . فما الذى يحدد - إذن - صدق الحديث عن النفس ؟ إنها الأحداث . وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الحوادث ، وزال الطلاء عن ذوى العقيدة الهشة ؛ ليكون الناس شهداء على أنفسهم ، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة . وحين يميز الله الخبيث من الطيب ، فهو سبحانه وتعالى : يريد تمييز الطيب حتى لا يختلط بالخبيث . والخبيث إنما يكون على ألوان مختلفة وأنواع متعددة ، فهذا خبيث فى ناحية ، وذلك خبيث فى ناحية أخرى ، وثالث خبيث فى ناحية ثالثة ، وغيرهم فى ناحية رابعة ، وخامسة إلى ماشاء الله ، ويجمع الله كل الخبيث فيركمه فى النار جميعاً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

و " قل " أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومادام قد وجد أمر ، فلابد من وجود المبلغ للأمر ، أى أن هناك مخاطباً ومخاطَباً ، والمخاطب هنا هو الله سبحانه ، والمخاطَب هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ لأن الله تعالى قال له : " قل " ، والبلاغ المطلوب منه إبلاغه للناس هو ما يتضمنه قول المولى سبحانه :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

أى إن انتهوا عن الكفر غفرت لهم ذنوبهم التى ارتكبوها أيام كفرهم ، ونلاحظ هنا اختلافاً فى أسلوب الكلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يخاطب الكافرين كان الذى يفرضه السياق أن يقول لهم : إن تنتهوا يغفر لكم ؛ لأن الخطاب لابد أن ينسجم مع المخاطب ، وعادة عندما توجه الخطاب لشخص تكون هناك « لام التوجيه » ، تقول : وجهت الخطاب لفلان ، وتخاطبه بشكل مباشر ، ولكن الله يقول هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وكان سياق الكلام يقتضى القول : إن تنتهوا يغفر لكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى عدل عن إن تنتهوا إلى " إن ينتهوا " ، والكلام مخاطب به الكفار ، والكفار حاضرون فكيف يخاطبهم بصيغة الغائب ؟

لقد أراد الله تعالى أن يأتى الخطاب ليعم كل متكلم يقال له هذا الكلام من أى مؤمن ، فكأنه قد عمم الخطاب ليقطع المعاذير . ومثل ذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأحقاف)

وإذا أخذنا ذات المقياس لكان الكلام يقتضى أن يقال : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه ، ولأن هذه العبارة قيلت من أكثر من كافر فى أماكن متعددة للمؤمنين ، وأراد الله سبحانه وتعالى : أن يلفتنا لذلك ، فعمم الخطاب حتى يشمل جميع الحالات ولا ينطبق على حالة واحدة فقط ، بل ينطبق على كل حالة مماثلة ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وهذا يدلنا على أنهم إن انتهوا عن مقاومة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنادهم معه فهو سبحانه وتعالى يغفر لهم ، لأن العناد والمقاومة ناشئان عن الكفر ، فإن انتهوا عنهما ، صاروا مؤمنين . والإسلام يَجُبُّ ما قبله .

ولذلك عندما أعلن محارب عن إيمانه واعتنق الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم دخل المعركة فاستشهد صار شهيدا ؛ لأنه قد غُفر له بشهادة الإسلام كل ذنوبه التى حدثت منه أثناء الكفر ، وهى الذنوب التى تتعلق بحقوق الله تعالى ، أما ما يتعلق بحقوق الناس ، فعلى ورثته أن يؤدوها عنه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وقوله هنا : « وإن يعودوا » أراد به الله أن يعلمنا أن تجرى هذه الكلمة على اللسان ، فإن عادوا مرة أخرى إلى الكفر والعناد ، يطردوا من رحمة الله ومغفرته ، إذن فشرط الغفران لهم أن يستمروا فى إيمانهم وألا يعودوا للكفر مرة أخرى ، وقوله تعالى : ﴿ فقدمضت سنة الأولين ﴾ .

والسنة هى الطريقة أو الكيفية أو الحالة التى يكونون عليها ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأحزاب)

أى الطريقة التى اختارها الله لمعالجة الأمور بالحق والعدل ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ مضت سنة الأولين ﴾ :

أى الطريقة التى عرفتموها وعالج بها الله عز وجل أمر من عاند الرسل ووقف منهم موقف المنازعة والمعارضة . ومثل ذلك حدث للكفار فى بدر ، فكأن من يقف أمام دعوة الله ومنهجه لا بد أن يتعرض للهلاك كما حدث مع كل من قاوم الأنبياء ، فأنتم تعرفون ما صنعه الله بقوم هود وقوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون . ومر كل ذلك عليكم ، كسنة عامة تشمل كل من قاوم الأنبياء ووقف فى طريق دعوتهم إلى الله .

والخطاب هنا إما أن يكون خطاباً لهم على حالهم فى وطنهم وما حدث للمخالفين فى بدر وقد رأوا مصارعهم ، وإما أن يكون الخطاب مبيناً لسنة الله تعالى وقد شاءت سنته سبحانه إبادة كل مخالف لسنته .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ ﴾

وهذا أمر من الله عز وجل بالقتال ، والقتال مفاعلة تحدث بين اثنين أو أكثر ، أى اشتباك بين مقاتل ومقاتل . ولذلك عندما تسمع كلمة "قتال" يتبادر إلى ذهنك وجود طرفين اثنين وليس طرفاً واحدا ، أو بين فريق وفريق آخر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « وقاتلوهم » نفهم أن هذا أمر للمؤمنين ليقاتلوا الكفار ، ولابد أن يكون الكفار قد فعلوا شيئا يستحق أن يقُاتلوا عليه ، أو أنهم يبيتون للمؤمنين القتال وعلى المؤمنين أن يواجهوهم ويقاتلوهم . ولم يقل الله سبحانه وتعالى : اقتلوهم بل قال : « قاتلوهم » ؛ أى مواجهة فيها مفاعلة القتال . والتفاعل معناه أن الحدث لا يأتى من طرف واحد بل لابد من مقابل معه . فأنت تقول : "قابلت" أى أنك قابلت شخصاً ، وهو قابلك أيضاً ، وهذه مفاعلة . أو تقول : "شاركت" أى أنك اشتركت أنت وآخر فى عمل ما . وهنا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الآنفال)

ومعنى ذلك أن هناك قتالاً يؤدى للقتال . وجاء القتال ليحسم الأمر ؛ لأن ترك هؤلاء الكفار يعتدون على المسلمين ، ويأخذون أموالهم بالباطل ، فيرى الناس المؤمنين أذلة مستضعفين ، والكفار عالين أقوياء فتحدث فتنة فى الدين ، أى يفتن الناس فى دينهم وهم يرون الذل دون أى محاولة أو تحرك لدفعه .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن تنتهى الفتنة . والفتنة هى الاختبار . وكما قلنا : إن الاختبار ليس مذموماً لذاته ، ولكنه يُذم بنتيجته . فإن رسب الطالب فى الاختبار تكون نتيجة الاختبار مذمومة . وإن نجح تكون محمودة . ولقد كان كفار قريش يفتنون الناس فى دينهم بتعذيبهم تعذيباً شديداً حتى تخور قواهم ويخضعوا لأحكامهم . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يضع نهاية لهذا الظلم . فأذن بقتالهم ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستوجب قتالهم .

ونجد قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

بينما نجد أنه قد ذكر فى سورة البقرة بدون "كله" ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : ﴿ ويكون الدين لله ﴾

دون أن تذكر كلمة "كله" ولكل آية لقطة ومعنى ؛ لأن كل لفظ فى القرآن له معنى ، فقوله تعالى : ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾

يعنى أنه لا يجب أن يجتمع دينان فى جزيرة العرب وقد حدث . وأما قوله تعالى : ﴿ الدين لله ﴾

فقد أعطتنا لقطة أخرى ، فالأولى تخص العرب والجزيرة العربية ، والثانية تعنى أن الإسلام للعالم كله ، ويقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصددها :

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

وقوله تعالى : « فإن انتهوا » أى استجابوا وأطاعوا ، وقوله تعالى : « فإن الله بما يعملون بصير » أى فليحذروا أن يتم هذا خداعاً لأن الله بصير بهم ،

ومطلع عليهم ، وماداموا قد انتقلوا من حظيرة الكفر إلى حظيرة الإيمان فالله يمحو سيئاتهم ويبدلها حسنات ؛ لأن قوما عاشوا على الكفر وألفوا خصاله ثم تركوا ذلك إلى الإيمان فهذا أمر صعب يحتاج إلى جهاد شديد مع النفس ، فيثيبهم الله تعالى بقدر مجاهدتهم لأنفسهم ، ويثيبهم المولى سبحانه وتعالى بسخاء .وهناك معنى ثان فى قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

أى : فيا من وقفتم موقف العداء من الإيمان ، وتعرضتم للكافرين التعرض الذى أعاد لهم التهذيب وحسن التعامل مع المؤمنين ، اعلموا أنه سبحانه وتعالى بصير بما عملتم ليكون الدين كله لله .

وهكذا نرى أن كلا من المعنيين يكمل الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يرغب الناس حتى يؤمنوا ، ولكنه فى ذات الوقت يبين لهم أن كثرة عدد المؤمنين ليست هى التى تعلى راية الإسلام وتصنع النصر للإيمان ، فيقول سبحانه : ﴿ وإن تولوا ﴾ .

وهنا شبهة فى أن الله تعالى يحنن هؤلاء على أن يؤمنوا ، وأن يسلموا ، وأن يعودوا إلى حظيرة الحق ، وربما ظن ظان أن الإسلام يريد أن يقوى بهم ، ولذلك قال الحق : ﴿وإن تولوا ﴾ أى إياكم أن يفت ذلك فى عضدكم ، أو أن يقلل هذا الأمر من همتكم وشجاعتكم ؛ لأنكم إنما تنتصرون بمدد من الله

العلى القدير ، فهم إن لم يؤمنوا ، فاعلموا أن الإسلام لا ينتصر بهم ، وانتشاره ليس بكثرة المسلمين أو قلتهم ؛ لأن النصر من عند الله ، وسبحانه ليس محتاجاً لخلقه ، وكثرة جنود الإسلام لا تصنع النصر ؛ لأن نصر الله للمسلمين إن اتبعوا منهجه يتحقق سواء قلوا أم كثروا . ولذلك يلفت نظرهم وينبههم إلى أنه إن تولى هؤلاء ولم يؤمنوا ، فإياكم أن يؤثر ذلك على شجاعتكم ؛ لأنكم لا تنتصرون بمدد من هؤلاء الذين رفضوا الإيمان ، ولكن بمدد من الله سبحانه وتعالى ، فالله هو مولاكم . وإذا كان الله مولى لكم أى ناصراً ومؤيداً فهو سبحانه وتعالى :

﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأنفال)

لماذا ؟ .

لأن المولى إذا كان غير الله فهو من الأغيار ، قد يكون اليوم قوياً قادراً على أن يأخذ بيدنا وينصرنا ، ولكنه قد يموت غداً ؛ لذلك فهو لا يصلح مولى . وقد يسقط عنه سلطانه وقوته ويصبح ضعيفاً محتاجاً لمن ينصره فلا ينفع وليا ولا معيناً لأحد . والمولى الحق الذى يجب أن نتمسك به هو الذى لا تصيبه الأغيار لأنه دائم الوجود لا ينتهى بالموت وهو دائم القوة والقدرة لا يضعف أبداً ، هذا هو المولى الذى تضع فيه ثقتك وتتوكل عليه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أننا يجب ألا نضع ثقتنا وأملنا إلا فيه وتوكلنا إلا عليه سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

أى إذا أردت فعلاً أن تتوكل ، فتوكل على من هو موجود دائما قوى دائماً ،

فتوكل على الله . وقوله تعالى : ﴿ نعم المولى ﴾ يؤكد أن الله قوى قادر دائم الوجود ، وقوله تعالى: ﴿ ونعم النصير ﴾ .

يؤكد أنه سبحانه وتعالى محيط بكل ما يدبره لك أعداؤك ، فلا يغيب عنه شيء . أنت تحاربهم بما تعرفه من الحيل وفنون القتال وهم يفعلون ذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حيلهم فيبطلها ، ويحقق لكم النصر بأن يلهمكم من الحيل ما لا يستطيعون مواجهته . ، يعطيكم مددا من السماء وهذا المدد هو الذى يحقق لكم النصر .

ويتحدث الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك عن الغنائم فيقول :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

ما سبب ذكر الغنيمة هنا ؟ . وما المناسبة ؟ .ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن القتال . ونهاية كل معركة ينتصر فيها المسلمون يكون فيها غنائم .

وهذه مناسبة الحديث عن الغنائم ، وبما أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن مدده للمؤمنين . وأنه ناصرهم ، وأنه نعم النصير ، ولكن الغنائم لا تجيء إلا نتيجة للنصر ، فكأن الله يريد من المؤمنين أن يتأكدوا أن النصر سيكون من نصيبهم ؛ بدليل أن الحديث انتقل إلى الغنائم . والغنيمة هى كل منقول يأخذه المسلم المقاتل من الكافر ، والثابت أن الغنائم لم تكن تحل لأحد من الأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

إذن فلله الخمس وتبقى أربعة أخماس توزع على المقاتلين . والخمس الذى هو لله كيف نقسمه ؟

لقد ذكر القرآن أسلوب توزيع هذا الخمس بطريقة اختلف فيها العلماء ؛ فالآية تقول :

﴿ فان لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

ثم تزيد :

﴿ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وقد قال بعض العلماء تمسكاً بظاهر الآية الكريمة : إن خمس الغنائم يوزع على من سماهم الله تعالى فى كتابه العزيز وهم ستة : (الله ، الرسول ، ذو القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن السبيل) فتكون الأسهم ستة، وجمهور العلماء على أنّ خمس الغنائم يقسم خمسة أسهم فيكون لله وللرسول سهم واحد لأنه لا يوجد فصل بين الله ورسوله ، والأسهم الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على الأنواع الأربعة (ذى القربى - اليتامى - المساكين - ابن السبيل) لكل نوع منهم سهم .

واختلفوا أيضاً فى معنى ﴿ ولذى القربى ﴾ هل هم القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم ممن ؟

ثم بعد ذلك جاء نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل فلم يحدث خلاف فيه - والخلاصة : أن الغنائم كلها تقسم خمسة أقسام خمسها لهؤلاء الخمسة وأربعة أخماسها الباقية للجيش المقاتل ؛ لأن الله تعالى بين حكم الخمس وسكت عن الباقى فدل ذلك على أنه للغانمين ثم يقول الحق :

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وهم بطبيعة الحال مؤمنون بالله ، وكأن هذا القول جاء ليراجعوا إيمانهم إذا اعترضوا على هذا التقسيم . فإن طمع أحد منهم فى الخمس الذى هو لله ورسوله ولم يقنع بأربعة الأخماس المقسمة - كما قال الله تعالى - يكون قد خدش إيمانه بمن أصدر هذا الأمر ، وسبحانه هو الذى أنزل هذا التقسيم . فمن زاغ وتطلعت عينه إلى شىء فليرد هذا الزيغ ؛ لأن الذى قسم هو الله الذى نصر المقاتلين . وإذا كان النصر هو الذى جاء بالغنائم ، فالذى أعطى النصر هو الله سبحانه وتعالى ، والنصر سبب من الله ، وما يوهب للإنسان من الحق ، على العبد أن يقبل فيه قسمة الله .

ومثال ذلك ما أراده الله للإنسان المسلم من حسن التصرف فى ماله ، فهو فى حياته حر ويملك حق التصرف فى هذا المال ، واحتراماً لمشاعرك الاجتماعية والإنسانية والعاطفية فى البيئة التى تحيا فيها ، جعل الله لك الحق فى الوصية بأن تخصص ثلث مالك لما تريد ومن تريد ، فقد ترى أن هناك إنساناً من غير أقربائك وهو بطبيعة الحال لن يرثك ، ولكنه خدمك فى حياتك أو فى مرضك أو فى شيخوختك ، وأنت تريد أن تترك شيئاً من ثروتك له ، اعترافاً بجميله ، أو لعل هناك أناساً من معارفك تعرف أنهم أحوج من أبنائك ، فتخصص لهم بعضاً من المال ، شرط ألا يتعدى الثلث ، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يضع للعواطف الإيمانية الإنسانية فى الناس مجالاً ،

فترك لك الحرية فى أن تتصرف فى ثلث التركة ثم قسم الله سبحانه الثلثين على الورثة .

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى أنه سبحانه قد جعل من الإيمان أن يتم توزيع الغنائم بالشكل الذى حدده الله عز وجل ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

والفرقان هو الشىء الذى يفرق بين الحق والباطل ؛ فرقاً واضحاً بشدة بحيث يكون ظاهراً للجميع . وقد أطلق الله الفرقان على القرآن الكريم فى سورة آل عمران فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾

(من الآيتين ٣ , ٤ سورة آل عمران)

فحينما أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل جاءت التوراة لتفرق بين الحق والباطل ، وأيضاً جاء الإنجيل ليفرق بين الحق والباطل ، وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تطلق كلمة " الفرقان" إلا على القرآن الكريم ؛ لأن القرآن هو الفارق النهائى الذى لن يأتى فارق من بعده ، فلن ينزل كتاب سماوى آخر .

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

الله سبحانه وتعالى يقصد هنا بيوم الفرقان يوم بدر الذى كان فرقاً بين حق وباطل ؛ فرقاً لافتا للأنظار ، وقد أخذت كلمة الفرقان المعنى العام وهو أن يفرق

بين الحق والباطل ، فالمسلمون كانوا قلة والكفار كانوا كثرة ، والمسلمون كانوا خارجين للاستيلاء على القافلة والعير ولم يكن لديهم أى عدة أو عتاد للحرب ، بينما استعد الكفار للحرب والقتال بالعدد والعتاد والفرسان ، وكان المسلمون يتمنون أن تكون قافلة قريش لهم ، وهى قافلة لا يحرسها إلا عدد قليل من الرجال ، لا شوكة لهم ، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يواجه المسلمون وهم قلة جيشاً له شوكة أى له عدة وعتاد ؛ لأن المسلمين ظنوا أن الاستيلاء على القافلة لن يستغرق منهم وقتا طويلا أو جهداً كبيراً ، فحراس القافلة عدد محدود وبلا سلاح قوى. لكن شاء الله عز وجل أن يخوض المؤمنون المعركة وهم قلة وأن ينتصروا ، حتى يعلم الجميع أن هذه القلة المؤمنة انتصرت بلا عدد ولا عُدَّة على من يملكون العدد والعدة ، وبذلك يظهر الفرق بين الإيمانً والكفر ، وبين نصر الله وزيف الشيطان ، ولو استولى المسلمون على قافلة قريش لقيل : إن أية مجموعة من المسلحين كانت تستطيع أن تنهب هذه القافلة ، ولذلك لم يعطهم الله العير ، بل ابتلاهم بالنفير وهو الجيش الخارج من مكة بقصد الحرب وهو مستعد لها ليلفت النظر إلى هؤلاء المؤمنين الذين خرجوا بغير قصد الحرب وقد انتصروا على الكفار الذين خرجوا للحرب واستعدوا لها. وكان المؤمنون ثلاثمائة وجيش الكفار ألفاً ، فإذا جاء النصر ، تأكد الكل أن كفة المؤمنين قد رجحت ، وإذا تعجب أحد كيف ينتصر هذا العدد القليل غير المسلح على هذا العدد الكثير والمسلح ، يمكن أن يرددوا قول الله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وهذه المشيئة الإلهية هى التى قلبت الموازين.

وفى أول سورة البقرة يحكى الحق سبحانه وتعالى لنا قصة طالوت وجالوت ، ويروى كيف طلب بنو إسرائيل من نبى لهم أن تحدد السماء شخصاً

يكون ملكاً عليهم، ليقودهم فى معركة ضد طاغية اسمه جالوت؛ أخرجهم من ديارهم وشردهم، فلما جاء الأمر بأن يكون طالوت هو الملك، جادل بنو إسرائيل فى قيادته لهم.

﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانوا هم الذين طلبوا أن يكون لهم ملك، فلما جاء طالوت باختيار الله اعترضوا عليه. ثم خرج طالوت مع الذين اتبعوه وابتلاهم الله بنهر وهم عطاش، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وابتلاهم الله سبحانه وتعالى بأن مروا على نهر وهم عطاش، وطلب منهم ألا يشربوا إلا أن يأخذ كل منهم قليلاً من الماء فى كف يده ليرطب به فمه، فلما وصلوا إلى النهر، اندفعت أغلبيتهم ليعبوا ويشربوا ما شاء لهم، والأقلية فقط هى التى امتثلت لأمر الله تعالى ولم تشرب، وهؤلاء هم الذين بقوا مع طالوت وعبروا النهر، لكنهم حين رأوا جيش الأعداء، قالت أغلبيتهم ما جاء فى القرآن الكريم وحكاه لنا :

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم خافوا من مواجهة جيش جالوت ورفضوا القتال، إلا الأقلية منهم، وهكذا حدثت لهم التصفية مرتين بالاختيار والابتلاء؛ الأولى بالصبر على العطش، والثانية بمواجهة جيش العدو، وهذه هى الأقلية الصافية التى رسخ إيمانها، وقالوا ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أن هذه الفئة المؤمنة التى بقيت والتى تخشى حساب الله فى الآخرة لم تخفهم قلتهم ولا كثرة جنود جالوت، بل قالوا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وانتصروا بالفعل، وكان هذا فرقاناً ظاهراً من الله عز وجل .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى يوم التقاء جمع المؤمنين وجمع الكفار، وتحقق نصر المؤمنين، رغم قلة العدد والعتاد. ولذلك يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم :

﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى أن الله عز وجل قادر على أن ينصر المؤمنين وهم قلة وغير مستعدين للقتال.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾

ساعة تسمع « إذ » تعرف أنها ظرفٌ، ومعناها : اذكر هذا الوقت، اذكر إذ أنتم بالعدوة الدنيا، والعدوة شاطىء الوادى وجانبه. وهى جبل مرتفع؛ لأن الجبال إن كان بينها فضاء نسمى هذا الفضاء وادياً، فيكون الوادى هو الفضاء بين جبلين، ويكون المكان العالى الذى على يمين الوادى وعلى شماله عدوة.

وقوله تعالى :

﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

توضيح وبيان لجغرافية المعركة، وأهل الإسلام كانوا من ناحية المدينة، وقوله تعالى : « دنيا » تأنيث الأدنى أى الأقرب، فالمسلمون كانوا قريبين من المدينة. وكان الكفار قادمين من مكة، ونزلوا فى المكان الأبعد.

فقوله تعالى :

﴿ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

أى فى مكان قريب، وموقع غزوة بدر - كما نعلم - قريب من المدينة، أما كفار قريش فقد جاءوا من مكة. وبذلك جاءوا من مكان بعيد عن المدينة لذلك سماه الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أى فى المكان البعيد عن مكة، ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله : ﴿ والركب أسفل منكم ﴾

والركب هو العير أى الجمال التى تحمل التجارة، وكان المسلمون قد خرجوا ليأخذوها. ولما عرف أبو سفيان بذلك غيّر سير القافلة واتجه إلى ساحل البحر، ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن سلوك أبى سفيان حينما أمر أن تسير القوافل بجانب ساحل البحر. وساحل البحر - كما هو معلوم - يكون دائماً أسفل من أى أرض يابسة. ويتُخذ سطح البحر إلى الآن مقياساً للارتفاعات والانخفاضات بالنسبة للمقاييس البشرية، فيقال : هذا ارتفاعه مائة متر أو مائتا متر أو أكثر أو أقل بالنسبة لمستوى سطح البحر. وساحل البحر بالنسبة لسطح البحر متساو، أما الأرض والجبال والوديان فهى تختلف فى العلو والانخفاض فلا تصلح مقياساً للارتفاعات والانخفاضات، بينما سطح البحر مستطرق استطراقاً سليماً، بحيث لا توجد فى سطح الماء بقعة عالية وأخرى منخفضة.

وهكذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن أسفل ما فى الأرض هو ساحل البحر وقد اتخذ الناس سطح البحر مقياساً للارتفاعات.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

أى لو أن المؤمنين اتفقوا مع الكفار على موعد ومكان، لجاء بعضهم متأخراً عن الموعد أو منحرفاً عن المكان، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى حدد موعد المعركة ومكانها بدقة تامة فتم اللقاء فى الموعد والمكان المحددين ليتم الأمر كما قدره الله سبحانه وتعالى، والأمر هو معركة بدر، وليلقى المؤمنون الكافرين، لينتصروا عليهم.

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وهل يعنى قول الحق ﴿ ليهلك من هلك ﴾ أن الهلاك هنا هو الموت ؟ لقد مات أيضاً بعض المؤمنين واستشهدوا. وقول الحق : ﴿ ويحيى من حىّ ﴾ وهل الحياة هنا تعنى مجرد البقاء على قيد الدنيا ؟. لقد عاش أيضاً من الكفار كثير رغم أنهم خاضوا معركة بدر. إذن فليس معنى الهلاك هنا الموت، وليس معنى الحياة النجاة، ولكن قول الحق : ﴿ ليهلك من هلك عن بيّنة ﴾ تنطبق على الكفار سواء الذين ماتوا أو الذين نجوا ؛ لأن الهلاك هنا هلاك معنوى، فمن قتل من الكفار هلك. ومن نجا هلك أيضاً ؛ لأنه بقتاله المؤمنين قد أورد نفسه مورد التهلكة بالعذاب الذى ينتظره فى الآخرة، إلا إذا أدركته رحمة الله وآمن قبل أن يأتى أجله. والذين حيوا هم المؤمنون، والمراد - إذن - ليكفر من كفر، ويؤمن من آمن عن يقين.

ولقد قلنا من قبل : إنَّ الحق سبحانه وتعالى أطلق الحياة على معان متعددة، فهناك الحياة التى فيها الحركة والحس، وهذه تتحقق ساعة أن تدخل الروح الجسد ليكون للإنسان حياة. وهذه الحياة هى للمؤمن والكافر. ولكن الحياة بهذا الشكل ؛ حياة منتهية إلى موت غير موقوت ننتظره فى أى لحظة. ولكن الحياة المطلوبة لله هى الحياة التى لا يأتى فيها موت. ولا يكون فيها تعب وشقاء، تلك هى الحياة الآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى أنها الحياة الحقيقية . إذن فالذى يؤمن إيماناً حقيقيا يعطيه الله تعالى حياة الخلود فى الجنة. ولذلك نستمع جميعاً إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ومنا من يتساءل : كيف يخاطب الله الناس وهم أحياء ويقول لهم : إذا دعاكم لما يحييكم ؟ ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد لنا بالإيمان حياة خالدة فى الجنة . ثم يختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾

ومعنى سميع وعليم أنه سبحانه وتعالى مدرك لكل الأشياء والخواطر ، فما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما فى الصدر يعلمه ، وما هو فى أى حس من أحاسيس الإنسان هو عليم به ؛ لأنه أحاط بكل شىء علما .

ووسائل الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، هذه هى الحواس الخمس التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أن هذه الحواس هى التى تعطى الإنسان ما لم يكن قد علمه، وكلما علم شيئاً، فليقل : الحمد لله .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى كيف يتم قدره فيقول :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى إذا أراد معركة فاصلة ، يجعل الخواطر فى كل قوم مهيجة على الحرب ؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد للفئتين أن يشتبكوا ، ويفصل الحق فى المسألة، وهذا الاشتباك لو حدث بالمقاييس العادية ربما جَبُنَتْ الفئة القليلة عن أن تواجه الفئة الكثيرة. ولكى تتم المعركة لابد أن يكون كل من الفريقين المتحاربين واثقا من النصر ؛ لأنه لو أيقن أحدهما أنه سيهزم لما دخل إلى المعركة.

والله سبحانه وتعالى يُعلم رسوله والمؤمنين كيف أعد الله الإعداد النفسى للمعركة ، فأرى النبى فى الرؤيا أن عدد الكفار قليل حتى يؤمن أن المؤمنين سينتصرون عليهم بسهولة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه رؤيا توضح أن عدد الكفار قليل فى أعين المؤمنين ، وأخبر قومه بذلك ، ولقد قلل الله عدد الكفار فى أعين المؤمنين، وقلل عدد المؤمنين فى أعين الكفار، ليتم اللقاء وتحدث المعركة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

إذن رأى المؤمنون الكفار قليلاً، ورأى الكفار المؤمنين قليلاً، ولو كثَّر الله الكفار فى أعين المؤمنين، أو كثّر المؤمنين فى أعين الكفار ما حدثت المعركة. ولكنه سبحانه وتعالى شاء أن يقلل كل فريق فى نظر الآخر ليبدأ القتال، ويحكى سيدنا عبدالله بن مسعود :

لقد قلت لجار لى أظنهم سبعين، فقال : لا بل مائة.

وهكذا كان عدد الكافرين قليلاً فى نظر المؤمنين، وكان عدد المؤمنين بالفعل قليلاً فى عيون الكافرين.

وأيضاً شاء الحق سبحانه أن يجعل فى ذلك بلاغاً من إعلامات النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد رأى النبى عدد الكافرين فى المنام وهم قليل، وأخبر صلى الله عليه وسلم قومه بذلك. ودار القتال الذى أراده الله تعالى :

﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنفال)

والأمر الحاسم هو التقاء الفئتين المتقاتلتين فى معركة بدر ليفصل الله بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر؛ حتى ترجع الأمور إلى الله، فلكل واحد من جنود المعركة جزاءٌ من عند الله سبحانه وتعالى؛ المؤمنون لهم جزاء على قدر نياتهم وإخلاصهم فى الجهاد، والكافرون عليهم غضب من الله تعالى. والغضب منازل، كل منزلة من الغضب حسب أحوال صاحبها.

وقول الحق سبحانه و تعالى : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ نجد فيه كلمة «الأمور » وهي جمع أمر ، وفي المعارك ألوان مختلفة من الأوامر ؛ فلكل جندي أمر ، وهناك أمر عام تنتهي إليه المعارك وهو انتصار طرف وانهزام طرف آخر. ولكي يتم النصر للمؤمنين فإن الله يطلب منهم أن يثبتوا في المعركة ؛ فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « فئة » فاعلم أن معناها جماعة اختصت بخوض المعارك في ميدان القتال ، فليست مطلق جماعة ، بل هي جماعة مترابطة من المقاتلين ؛ لأن كل مقاتل يفيء لغيره من زملائه ، أي جماعة أخرى غير مترابطة تستطيع تفريقهم بصرخة أو عصا ، أما المقاتلون فأنت لا تصرفهم إلا بقوة أكبر منهم ، ويحاو ل كل منهم أن يحمي زميله ، إذن فكل منهم يفيء إلى الآخرين.

والحق تبارك يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

إذن فالفئة هي جماعة في الحرب.

وقوله تعالى :

﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأنفال)

يُقصد به ساعة حدوث المعركة ونشوب القتال ؛ لأن الحرب تقتضى أولاً إعداداً، ثم تخطيطاً يتم قبل الالتحام ثم ذهاباً إلى مكان المعركة . وقوله تعالى : ﴿ إذا لقيتم ﴾ أى أن المسألة قد وصلت إلى المواجهة مع الكفار. ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فاثبتوا ﴾ والثبات هنا معناه المواجهة الشجاعة ، لأن الإنسان إذا ما كان ثابتاً فى القتال ، فالعدو يخشاه ويهابه ، وإن لم يكن كذلك فسوف يضطر إلى النكوص ، وهذا ما يُجرىء الكفار عليكم.

ومادمتم قد جئتم إلى القتال ، فلابد أن يشهد الأعداء شجاعتكم ؛ لأنكم إن فررتم فهذه شهادة ضعف ضدكم.

ولذلك لابد من التدريب على الثبات والقتال ، وهذا هو الإعداد المسبق للحرب ؛ بالتدريب القوى والتخطيط الدقيق ، وألا يتولى أحد منكم ويفر لحظة الزحف لأن هذا العمل هو من أكبر الكبائر ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

﴿ يولهم ﴾ أى يعطيهم ، و ﴿ دبره ﴾ أى ظهره ، وهذا تقبيح لعملية الفرار ؛ لأن الدبر محل الصيانة ومحل المحافظة. ونعلم أن هناك من قال للإمام علىّ - كرم الله وجهه - : إن درعك له صدار وليس له ظهر ، أى أن الدرع يحمى

صدرك إنما وراءك لا يوجد جزء من الدرع ليحمى ظهرك. فقال : ﴿ لا كنت إن مكنت خَصمى من ظهرى ﴾ ، أى أنه - كرّم الله وجهه - يفضل الاستشهاد على أن يُمَكِّن خصمه من ظهره، فلو أنَّ درعه من الأمام ومن الخلف، ففى هذه الحالة يكون فى نيته أن يمكِّن خصمه من ظهره، ولذلك جعل الدرع يحمى الصدر فقط، وهو على يقين أنه لن يدير ظهره لعدوه، ويسمون تلك الحالة الأخرى «ظاهرة ضبط النفس» أى أنها طريق لمنع الشىء أن يحدث ولو فى ساعة الشدة؛ لأن المقاتل حين يدخل المعركة، وهو يحمى صدره فقط فهو لا يتولى ليفر؛ لأنه يعلم أنه لو تولى فسيكشف لهم ظهره وسيتمكن منه عدوه وسوف يُقتل.

والحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فاثبتوا ﴾ لا يطلب هذا الثبات على إطلاقه، ولكن يريد من المؤمنين الثبات والقوة فى القتال. أما إذا كانت الفئة التى يواجهها المؤمنون كبيرة العدد أو كثيرة العتاد فذلك يتطلب الدراسة والاستعداد ، وهنا طلب الحق الثبات ليعلم المؤمنون يقيناً ؛ أنهم لا يواجهون عدوهم بقوتهم ولكن بقوة الله الذى يجاهدون من أجله. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ ، أى تذكروا وأنتم تقاتلون أن الله معكم بعونه ونصره ، فإن لم تستطع أسبابكم أن تأتى بالنصر ، فإن خالق الأسباب يستطيع بقدرته أن يأتى بالنصر.

وكلنا نعلم أن الحق تبارك وتعالى قد وضع فى كونه الأسباب ، فإذا استنفدنا أسبابنا ، اتجهنا إلى خالق الأسباب ، ولذلك نجد أن من لا يؤمن بالله إذا خانته الأسباب ينتحر أو ينهار تماماً أو يصاب بالجنون ، ولكن المؤمن يقول : إذا خانتنى الأسباب فمعى رب الأسباب وخالقها ، ويأوى إلى ركن شديد.

إن الطفل الصغير إذا اعتدى عليه أحد يقول: إن لى أباً أو أخاً سيرد عنى الإيذاء ؛ لأن الأسباب لا تعطيه قدرة الرد ، فكيف لمن له رب قدرته فوق قدرة

الكون كله ، وقوته موجودة دائماً . ولذلك نجد قوم موسى حين وصلوا إلى شاطىء البحر ووجدوا أمامهم الماء ، ونظروا خلفهم ورأوا جنود فرعون مقبلين من بعيد ، قالوا : ﴿ إنا لمدركون ﴾

وكانوا منطقيين فيما قالوه ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم. وليس لهم من طريق للنجاة باستخدام الأسباب العادية في هذا الكون ، ولكن موسى عليه السلام بقوة إيمانه بالله تعالى يقول ما جاء على لسانه في القرآن الكريم : ﴿ قال كلا ﴾ .

أي إن فرعون وجنوده لن يدركونا، ولم يفهم قوم موسى ؛ لأن البحر أمامهم وجنود فرعون وراءهم، وأضاف سيدنا موسى عليه السلام بملء فيه قوله :

﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

أي أنه رفع الأمر من الأسباب إلى المسبب، وإذا بالله يأمره أن يضرب بعصاه البحر ؛ فينفلق ؛ وتظهر الأرض اليابسة. ويعبر بنو إسرائيل البحر، وعندما وصل موسى وقومه إلى شاطىء البحر بعد أن عبروا، أراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى حتى يعود الماء إلى الاستطراق. فلا يتمكن جنود فرعون من اللحاق بهم، ولكن الله سبحانه وتعالى قال لموسى :

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الدخان)

أي لا تتعجل وتضرب البحر ليعود مرة أخرى لاستطراق الماء بل اتركه على حاله ساكناً فما أنجى الله به بني إسرائيل سيغرق به آل فرعون، وبذلك أنجى وأهلك بالشيء الواحد، وهذا لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى .

و هنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها وكيف تعانى النفس من كرب عظيم، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال، ولذلك طلب من المؤمنين أن يتذكروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم فى المعركة وأنه سبحانه وتعالى معهم، فليذكروا هذا كثيراً ليوالى نصرهم على عدوهم؛ لأنهم إذا ما داوموا على ذكر الله تعالى فسيقوى هذا الذكر إيمانهم، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر.

وذكْرُ الحق كلمة ﴿ كثيراً ﴾ هنا يعنى أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأس فقط، فإن جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذكر الله؛ لذلك يؤكد سبحانه وتعالى هنا أن يكون ذكر الله كثيراً، ليوالى الله نصر المؤمن على عدوه. ومثال ذلك : أننا نجده سبحانه وتعالى حينما يستحضر الخلق المؤمنين للصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

يطلب الحق سبحانه وتعالى ذلك من المؤمنين وهو العليم بأنهم يداومون الولاء له سبحانه كل يوم خمس مرات .

ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى، وينبهنا أن نداوم على ذكره فكأنه يقول ؛ إياكم أن تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله، أو تعتقدوا أن ذكر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط، بل داوموا على ذكر الله فى كل أحداث الحياة. فإن فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً فستكونون من المفلحين.

وذكر الله كثيراً معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به. وهكذا تكون الصلة دائمة بينك وبين الله عز وجل فى كل وقت.

مثال ذلك ما حدث فى عام ١٩٧٣ فى معركة العاشر من رمضان، كان ذكر الله يملأ القلوب واستمد الجند من قولهم : ﴿ الله أكبر ﴾ طاقة هائلة واجهوا بها العدو، واقتحموا خط « بارليف ». وأعانهم الحق بمدد الإيمان من عنده، وأوجد فى نفس كل منهم طاقة هائلة تحقق بها النصر ؛ وذلك بإجادة التدريب ومداومة الذكر لله تعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وعرفنا من قبل أن طاعة الله تعالى تتمثل فى تنفيذ ما أمر به فى المنهج، وطاعة الرسول هى طاعة تطبيقية فى السلوك، وهى طاعة لله أيضاً ؛ لأن الرسول مبلغ عن ربه، ولابد للطائع أن يبتعد عن التنازع مع إخوته المؤمنين ؛ لأن التنازع هو تعاند القوى، أى توجد قوة تعاند قوة أخرى، والقوى المتعاندة تهدر طاقة بعضها البعض، فالتعاند بين قوتين يهدر طاقة كل منهما فتصبح كل قوة ضعيفة وغير مؤثرة. فكونوا يداً واحدة ؛ لأنكم إن تنازعتم فستضيع قوتكم

وتقابلون الفشل ، أى لن تحققوا شيئاً مما تريدون ؛ لأنكم أهدرتم قوتكم فى التنازع ، ولم تعد لكم قوة تحققون بها ما تريدون وستذهب ريحكم فى هذه الحالة. والفشل هو إخفاق الإنسان دون المهمة التى كان يرجوها من نفسه.

وانظروا إلى عبارة الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

نحن نعرف أن الريح يُطلق على الهواء الذى حيزه الفضاء على سطح الأرض ، إذن فمكان الهواء هو أى مكان خال على سطح الأرض ، ولذلك نجد العمود المكون من الأسمنت والحديد مثلاً ، لا يوجد فيه هواء لأنه لا يوجد فيه فراغ ، أما الفواصل التى بين الأعمدة فيوجد فيها هواء لأن فيها فراغاً. ونعلم أن مقومات الحياة طعام وشراب وهواء ، ولكن الهواء هو المقوم الأول للحياة ؛ لأنك لا تستطيع أن تصبر على الهواء مقدار شهيق وزفير.

إذن فالهواء هو المقوم الأول لحياتك وحياة كل من فى هذا الكون ، ومادام الهواء محيطاً بالشىء بحيث يتساوى الضغط من جميع نواحيه يكون الشىء ثابتاً ، فإذا فرّغت الهواء من ناحية قام ضغط الهواء بتحطيم هذا الشىء. وفى التجارب المدرسية شاهدنا تأثير ضغط الهواء ، وكانوا يأتوننا بصفيحة وضع فيها ماء ويتركونها تغلى على النار ، فيطرد بخار الماء الهواء الموجود فى الجزء الفارغ من الصفيحة ليملأ البخار هذا الفراغ ، ثم يغلقون الصفيحة بإحكام ويسكبون عليها من الخارج ماءً بارداً ؛ فيتكثف البخار ، ويقل حجمه ، ويصبح جزء من الصفيحة خالياً من الهواء ، فتنهار جدران الصفيحة إلى الداخل بسبب ضغط الهواء خارج الجدران ، وتفريغ الهواء داخل الصفيحة. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يعذب قوماً أو ينزل بهم عقاباً ، فهو يرسل عليهم ريحاً. ويقول جل وعلا :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾

(الآيتان سورة الحاقة)

وكذلك نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾

(من الآيتين ٢٤، ٢٥ سورة الأحقاف)

وأيضاً يقول الحق سبحانه عن الريح التى تغرق بأمواجها العالية :

﴿ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

إذن فكلمة ريح تعبر عن القوة المدمرة للهواء؛ لأن الريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة. ولكن إن قابلتها ريح ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين. ولذلك حين يستخدم الحق كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير. أما إن تكلم عنها للخير فسبحانه يأتى بكلمة « رياح »؛ لأن تعدد اتجاهات الرياح هو الذى يوجد التوازن فى الحياة. فإذا أراد الله أن يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعادل القوتان.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الفرقان)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

أى أن الرياح تنقل اللقاح بين النبات ، فيتم التلقيح وتنبت الثمار ويأتى الخير. ولكن هناك آية واحدة جاءت فيها كلمة « ريح » وكانت تحمل الخير فى قوله تعالى :

﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

وسبحانه وتعالى عندما استخدم كلمة ﴿ ريح ﴾ فى هذه الآية وصفها بأنها ﴿ طيبة﴾ . وهنا فى الآية يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

و « ريحكم » أى قوتكم ؛ لأن الريح هنا معناها القوة التى تدمر عدوكم. ونعلم أن السفن فى الماضى كانت تُبحر بقوة الريح. وعندما تقدّم العلم وجاء البخار والكهرباء أُلغى شراع المراكب واستخدم بدلاً منه ماكينات تدفع حركة السفينة.

وتطلق كلمة ﴿ الريح ﴾ على الرائحة ، فيقال : ﴿ ريح عطرة ﴾ ، وهذه الرائحة تبقى فى المكان حتى بعد أن يغادره من استخدم هذه الرائحة ، ولكل إنسان منا رائحة خاصة ، تماماً كما أنّ لكل إنسان بصمة خاصة ، ولكننا لا نستطيع أن نميزها ، ولكن الكلاب المدربة تميز الرائحة الخاصة بالإنسان ، فيأتى الكلب ويشم رائحة الإنسان ويتتبعه إلى المكان الذى ذهب إليه. أو يستطيع أن

يخرجه من بين عشرات الأشخاص. ولا تختلط رائحة أحد بأحد رغم وجودهم فى مكان واحد، وإلا لما استطاع الكلب المدرب أن يميز رائحة شخص معين ضمن عشرات الأشخاص الموجودين.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ يعنى بأن تنتهوا ولا يكون لكم أثر ؛ لأنه مادام لكم أثر فى الأرض فلكم ريح تميزكم. وتلك التى - كما قلنا - أن الكلاب المدربة تميزها، ولكن الإنسان إذا مات ودفن فلا رائحة له. ويدلنا القرآن الكريم على ذلك حين يتكلم عن قصة يوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته فى الجب. وعثرت عليه قافلة، ثم اشتراه ملك مصر، ثم دخل السجن وخرج وأصبح هو عزيز مصر. وجاءه إخوته وأعطاهم يوسف عليه السلام قميصه ليلقوه على وجه أبيه يعقوب؛ ليرتد بصيراً، بعد أن أذهب الحزن بصره، يقول الحق عن خروج العير من مصر إلى الشام حيث كان يعيش سيدنا يعقوب :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

أى أن القافلة حين خرجت من بين المبانى التى يمكن أن تكتم الريح بقوة كتلتها ؛ لأن المبانى لها إشعاعات قد تكتم الريح وتحجبه، وبعد أن صارت القافلة فى الخلاء عرف يعقوب عليه السلام ريح ابنه يوسف من القميص الذى يحملونه : ﴿ قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

وهذه تتمة الصورة التى يريدنا الله أن نلتفت إليها ، فقد أمرهم الله أن يثبتوا فى القتال ، والقتال يحتاج إلى قوة وإلى عدم تنازع وإلى صبر على الشدائد ؛ خصوصاً إذا كان عدوك صابراً شديد البأس.

إذن ففى المعركة يريد الله عز وجل من المؤمنين الثبات فى القتال وعدم الفرار ، وذكر الله كثيراً ، وعدم التنازع حتى لا تضيع قوة المؤمنين ، ويوصيهم سبحانه بالصبر ؛ لأن عدوهم قد يكون عنده صبر وجلد ، فلابد أن يمتلك المؤمن رصيداً من الجلد والصبر ؛ يُمكّنه من هزيمة عدوه ، وصفة الصبر تدل على المنافسة. وهى مأخوذة عندما كانوا يغطسون فى الماء ، فالذى يبقى تحت الماء أكثر من الآخر يكون نفسه أطول. ولذلك فسيدنا عباس وسيدنا عمر - رضى الله عنهما - دخلا فى منافسة فى الغطس. وقال له : نافسنى ، أى لنرى من الذى سيمكث تحت الماء أكثر - ويكون ﴿ صابرا ﴾ أى يتحمل أكثر فى المواقف الصعبة ويصبر صبراً فوق صبر الخصوم. وقوله الحق عز وجل هنا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

يثبت به سبحانه وتعالى أن كل مؤمن عليه أن يشعر أن الله تبارك وتعالى هو الذى انتدبه ليقوم بهذه المهمة القتالية وهو معه ، فلا تخور نفسه ؛ لأن الضعيف إذا ما تحصن بالقوى ؛ أعطاه الجرأة والقدرة على الاحتمال ، تماماً كالولد الصغير ، إذا مشى فى الشارع وحده قد يعتدى عليه الأولاد الآخرون ، ولكن إذا كان يسير مع أبيه لا يقترب منه أحد ، فما بالك بالإنسان الذى هو مع ربه ؛ لذلك يوصى الحق كل مقاتل أن يتذكر أنه فى معية ربه وأن أى حدث ضار فى الكون لا يستطيع أن يناله مهما كان ضعيفاً لأن قوة الله معه.

ولذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة :

(يابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده .. أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه.. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ؟ قال يارب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى)[1]

فإذا مرض إنسان فقد سُلبت منه العافية فلا يستطيع أن يسير ولا أن يتحرك ، بل يرقد فى فراشه ليتألم ، ويوضح لنا الحق سبحانه وتعالى : أنا إن سلبت منه العافية ، وهى نعمة فأنا عنده . ولذلك إياك أن تفزع إذا تركتك النعمة مادام المنعم معك. والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه.

وحين يكون المسلم فى معيّة الله فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجيء أبداً، والمثال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار ، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. هذا كلام منطقى مع النظرة المادية ، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطمئن أبا بكر وينفى عنه ما جاء فى باله من خوف أن يراهما الكفار . كان المفروض أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر اطمئن ، إنهم لن ينظروا داخل الغار ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما وفى ذلك قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ونحن

---

(١) رواه الإمام مسلم (الترغيب والترهيب جـ ٤ صـ ٣١٧) .

فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما [١]

ومادام الله ثالثهما تكون المعيّة موجودة، وإذا كنت فى معيّة من لا تدركه الأبصار، أتدركك الأبصار ؟. طبعاً لا تدركك أبصار الأعداء والخصوم. اللهم اجعلنا فى معيّتك دائماً.

ثم يكمل الحق سبحانه وتعالى ما يريد ألا يكون عليه المؤمنون فى ساعات الشدة فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

والذين خرجوا من ديارهم بطراً هم الكفار عندما علموا أن أبا سفيان قد نجا بالقافلة ولم يتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها، وهم قد خرجوا من مكة ليخلصوا القافلة من أيدى المسلمين، فلما قيل لهم إنّ القافلة نجت بقيادة أبى سفيان فارجعوا. قالوا : لا يكفينا هذا، بل لابد أن نخرج ونقاتل محمدا ومن معه، وننتصر عليهم وندق الطبول ونذبح الذبائح ليعلم أهل الجزيرة بخبر هزيمة محمد ومن معه فلا يجرؤ أحد أن يتعرض لقافلة من قوافلنا.

إذن فهم لم يكتفوا بأن أموالهم قد رجعت إليهم، بل أرادوا أكثر مما يقتضى الموقف، أرادوا أن يخرجوا فى مظاهرة ضلالية للمفاخرة والتكبر تُثبت أن لهم قوة.

---

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وكان يكفيهم نجاة القافلة وينتهى الأمر. وكان عليهم أن يرجعوا، ولكنهم أرادوا أن يقوموا بمظاهرة لا لزوم لها.

إذن فالمسألة شماتة، وهذا لون من البطر ؛ أن تكون عندك نعمة فلا تقدرها حق قدرها، وتحب أن تعلو عليها. ويقال فلان بطران إذا أحضروا له الإفطار من الفول مثلاً ويقول : إنه يريد المربى والزبد وعسل النحل. وهكذا فعل كفار قريش، فلم يكتفوا بنجاة القافلة، بل استخفوا هذه النعمة فلم يكتفوا بها وطلبوا المزيد.

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ورئاء الناس﴾

أى يريدون بالحرب مع رسول الله والذين آمنوا ؛ السمعة بين الناس، وأن يعرف العرب أنهم خرجوا إلى المدينة وقاتلوا محمداً وصحبه لتكون لهم سمعة وهيبة بين الناس فى الجزيرة العربية.

وقوله تعالى :

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

لأن الناس حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد صارت لهم اليد العليا، وهم يرقصون ويغنون لانتصارهم، ويرون المسلمين وهم مختفون خائفون من مواجهة الكفار، فسوف يغرى ذلك الناس باتباع منهج الكفر، فكأن الكفار برغبتهم فى قتال رسول الله وصحبه إنما يصدون عن سبيل الله . ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى ليوضح : لا تحسبوا أنهم بعيدون عن علمى .

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى محيط بكل أعمالهم ، لا يغيب عنه عمل واحد مما يفعلونه ، هو محيط بهم تماماً وهم لا يستطيعون أن يفلتوا منه .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى دور الشيطان وأعوانه وما يفعله بالكافرين ؛ فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه الكفار وهم قليل وذلك من صنع الله تعالى لتتم المعركة ، وبدأ الشيطان يزين للكافرين أعمالهم ويمتدحها ، ويغويهم : أنتم كثيرون ولا أحد مثلكم فى فنو ن القتال وستحصلون على النصر فى لمح البصر. لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يثبت المؤمنين ويقويهم ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكفار وهم قليل. والواقع أنهم قليل ؛ لأن النصر ليس هنا بالعدد ولكن بتأييد الله تعالى ، ومهما كثر الكفار فهم أمام تأييد الله قليل. ويحاول الشيطان أن يزين للكفار قتال المؤمنين ، أى يجعله محبباً إلى نفوسهم وأنهم سيحققون النصر ، ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة. وهكذا صور الشيطان لهم عملية قتال المسلمين فى صورة محببة إلى قلوبهم. وهنا نرى بوضوح غباء الشيطان وعجزه

عن أن يعلم قضاء الله، فلو علم ما ستنتهى إليه معركة بدر ما زين للكفار دخول المعركة؛ لأن المعركة انتهت بنصر المسلمين وقتل صناديد قريش، وعلت صورة المؤمنين فى الجزيرة العربية كلها. ولم يكن النصر هو ما يريده الشيطان، ولكنه لجهله زين للكافرين المعركة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

أى أن وسوسة الشيطان للكفار كانت فى صورة تضخيم قوتهم وأن أحداً لن يغلبهم فى قتالهم ببدر، وأنه - أى الشيطان - سيناصرهم فى المعركة ويجيرهم إن حدث لهم سوء، ولكن هل للشيطان سلطان على أن يُعين الكفار ؟ نحن نعلم أن الشيطان ليس له سلطان إلا التزيين فقط، فكيف يكون له سلطان على نتيجة المواجهة بين الحق والباطل ؟. إن الشيطان يأتى فى الآخرة فيطلب منه الكفار أن يجيرهم من عذاب الله تعالى ؛ لأنه هو الذى أغواهم وزين لهم سوء أعمالهم وجرهم إلى طريق النار، فيتبرأ منهم ويقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى أنه يقول للكافرين : أنا لم أجبركم على المعاصى، فلم يكن لى عليكم سلطان القهر؛ لأقهركم على أن تفعلوا شيئاً ولا سلطان الحجة لأقنعكم بأن

تفعلوا المعاصى، ولكنى بمجرد أن دعوتكم استجبتم لى ؛ لأنكم تريدون المعصية واتباع شهواتكم. وقوله : ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾

وأصرخ فلاناً أى سمع صراخه فذهب إليه لينقذه، والإنسان عندما يواجه قوة أكبر منه يلجأ إلى الصراخ لعل أحداً يسمع صراخه ويأتى لنجدته. والذى يسمع الصراخ إما أن يكون ضعيفاً فلا يستجيب؛ لأنه لا يستطيع أن ينقذ ذلك الذى يواجه الخطر، وإما أن يكون قوياً فيذهب لنجدته، فيقال: ﴿ أصرخه ﴾ أى أنقذه وأزال سبب صراخه، وقوله تعالى : حاكيا ما يقوله الشيطان ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾

أى أن الشيطان لا يستطيع أن ينجيهم من العذاب وينقذهم منه، فيزيل سبب صراخهم : ﴿وما أنتم بمصرخى ﴾

أى أنتم لا تستطيعون دفع العذاب عنى.

وقد أخذ الشيطان يزين لهم أعمالهم ويعدهم كذباً بأنه سيجيرهم ويؤازرهم ويعمل على نصرهم حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض وأصبحوا على مدى رؤية العين.

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

أى أنه بمجرد الترائى بين المؤمنين والكفار، وقبل أن يلتحموا فى المعركة ويبدأ القتال هرب الشيطان وتبرأ من الكفار وجرى بعيداً، وهذا ما يشرحه الله تعالى فى قوله :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وهذا كلام منطقي مع موقف الشيطان حينما طرده الله ولعنه؛ لأنه رفض تنفيذ أمر السجود لآدم؛ فقال له الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾
(سورة ص)

حينئذ تضرع الشيطان إلى الله تعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾
(سورة الأعراف)

وهكذا أقر الشيطان بطلاقة القدرة لله تعالى وبأنه عاجز لا يقدر على شيء أمام قوة الله، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالشيطان لا قدرة له ولا قوة على فعل شيء، وكل ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم، وما أن صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض، هرب الشيطان وفزع ونكص على عقبيه، وأعلن خوفه من الله؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب.

إذن فمصدر خوف الشيطان هنا هو الخوف من العقاب ومن العذاب الذى سيصيبه حتماً، ولم يفزع الشيطان - إذن - حبّاً لله تعالى .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

« المنافق » كلمة مأخوذة من نافقاء اليربوع، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش فى الجبال فى سراديب، وحين يتتبعه حيوان آخر ليفترسه، فهو يسرع إلى جحره الذى يشبه السرداب، وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج له، ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية، فينجو من الافتراس، فكأنه فتح لنفسه نفقاً، ينافق منه غيره فلا يقوى على اللحاق به. ولذلك نجد المنافق متعارضاً مع نفسه؛ ينطق لسانه بما لا يؤمن به، وبينما المؤمن منسجم النفس؛ ينطق لسانه بما فى قلبه، والكافر أيضا كذلك منسجم ينطق لسانه بما فى قلبه من الكفر، ولكن المنافق متخبط مع نفسه، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يضمر الكفر، وهكذا تتعاند ملكات المنافق، وحينما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد راحة نفسية، وحسبك من المنافق أنه متعاند فى الملكات.

ويصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين بقوله :

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالذاتية ضائعة؛ لأن الإنسان لا يفقد ذاته حينما تكون ملكاته منسجمة ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوازناً، ولكن الذى تتعاند ملكاته يعيش دائما فى قلق نفسى وحيرة. ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه، فيلجأ إلى المخدرات أو غيرها ، وليس الحل بأن يخدر الإنسان نفسه أمام الأحداث، ولكن لابد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها، والمنافق لا يقدر على ذلك فينهار، ويقول الله تعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

وبعد أن ينتصر المؤمنون نجدهم وهم يزدادون إيماناً وثقة فى أنفسهم، وتملؤهم عزة الإيمان، فينظر إليهم المنافقون بحسد وحقد؛ لأنهم يكرهون المؤمنين؛ ولا يتمنون لهم خيراً، فهم فى نفاقهم كفار، فى قلوبهم غل للمؤمنين يخاطب بعضهم البعض ويقولون: أصاب هؤلاء الغرور بدينهم. ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً؛ لأن معنى الغرور أن تغار بخصلة فيك تجعلك متفوقاً على غيرك؛ والمؤمن ساعة النصر لا يغتر بنفسه ولكنه يعتز بالله القوى العزيز، ويزداد تواضعاً له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما حققه له من نصر، أما المغرور فهو من يعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه. والمؤمنون ينسبون كل شيء لله تبارك وتعالى؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطاء من يد الله الممدودة بالنعم التى لاتعد ولا تحصى، ومادامت النعمة لم تبعد الإنسان عن الله، فإن الله يزيده منها؛ لأنه مأمون على النعمة وينسبها لصاحبها، والمغرور يستعلى بأى خصلة يتميز بها عكس المؤمن الذى لا يستعلى أبداً بها؛ لأنه يعلم أنه لا ذاتية له، وأن الفضل لله تعالى، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو يصف المؤمنين:

﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والشدة هنا ليست غروراً، ولكنها طبع وملكة، ولو كانت غروراً لبقيت كما هى، ولكن المؤمن شديد على الكفار ذليل على المؤمنين لا يتكبر عليهم أبداً، ولا يمكن أن يجعله إيمانه فى قالب جامد؛ لأن الإيمان يعطى المؤمنين مرونة أمام الأحداث، لذلك نجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه، لأن هناك مواقف تتطلب الرحمة فى التعامل مع المؤمنين، ولا هو رحيم على إطلاقه؛ لأن هناك مواقف تتطلب الشدة فى مواجهة الكفار.

وكان سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - معروفاً بأنه كان كثير البكاء من خوفه وخشيته لله؛ وقلبه مليء بالرحمة على المؤمنين. ولكن عندما جاءت

حرب الردة لما نعى الزكاة ماذا حدث ؟. جلس هو وعمر بن الخطاب ، والمعروف عن عمر أنه كان شديدا ، وجلسا يتشاوران ، وكان رأى عمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بإنكارهم ومنعهم الزكاة ؛ لأنهم قالوا : لا إله إلا الله ، فقال له أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ».

هذا هو أبو بكر الذى عُرف عنه أنه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى ، وكان قلبه يمتلىء بالرحمة للمؤمنين . إنه يعلن فى قوة وشدة فى الحق أنه سوف يقاتل الخارجين على حدود الله والمانعين المنكرين للزكاة. ولو أن هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس : شدة ألفناها ، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين ؛ فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن فى مواجهة الكفر. المؤمن - إذن - لا هو مطبوع على الشدة المطلقة ولا هو مطبوع على الرحمة المطلقة ، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين ، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين ، وعزيز حين تكون العزة للدين ، وذليل حين تكون الذلة للدين. إذن فقول المنافقين : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ لا يستند إلى حكم صحيح ، بل هو مما يمليه عليهم نفاقهم ، لماذا ؟ .

لأن المؤمنين يتوكلون على الله دائما وينسبون كل الفضل لله تعالى :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

ومادام الله عزيزاً فالذى آمن به عزيز ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(من الآية ٨ سورة المنافقون)

ومادام الله حكيماً فهو يعطى الحكمة للمؤمنين ، والتوكل على الله معناه أن تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى ، وأول هذه الأمور أنه أمرك بالأخذ بالأسباب ، فلا تترك الأسباب أبداً ، بل خذ بها دائما مع التوكل عليه فإذا لم تسعفك فهناك المسبب . فقد قال الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وأمرنا سبحانه وتعالى : بالسعى فقال عز وجل :

﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقاتلوا ويأخذوا بالأسباب ؛ لأنه سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدى المؤمنين ، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن يسعوا فى سبيل الرزق.

وأنت حين تتو اكل تنقل صفة إلى صفة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ، والعمل تقوم به الجوارح ، فلا تجعل التواكل عمل الجوارح ؛ لأن الجوارح تعمل بالأسباب. والقلوب تتوكل على الله ، وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقى للجوارح هو أن تعمل ولذلك فلابد من العمل والأخذ بالأسباب مع التو كل ، ولابد لنا أن نتنبه إلى المنافقين فى بدر الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

والمنافقون - كما قلنا - هم القوم الذين تتصارع ملكاتهم ، وما على ألسنتهم يتناقض مع ما فى صدورهم ، أما الذين فى قلو بهم مرض فهم ضعيفو الإيمان ؛ مسلمون ساعة الرخاء ؛ فارون من الدين ساعة الشدة. إذن فهناك

فريقان ذكرهما الحق سبحانه وتعالى؛ المنافقون وهؤلاء كانوا من الأوس والخزرج ملكاتهم متضاربة؛ لأنهم كانوا يريدون السيادة على المدينة. وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك، وبمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تنتهى منه هذه الفرصة وتضيع فرصة الملك والزعامة، وقد أوجد ذلك فى نفسه حقداً وغيظاً. ولكن ظاهرة الإقبال من أهل المدينة كلهم على الإيمان والدخول فى الإسلام؛ جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة؛ لذلك نطقوا الشهادتين بألسنتهم وبقى فى قلوبهم حقد وضغينة على الإسلام، فالواحد منهم تتجاذبه ناحيتان متعارضتان.

والذين فى قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام، وقد دخلوا إلى الدين ليأخذوا وهم لا يعطون، فإذا أعطاهم الإسلام بعضاً من نعم الدنيا فرحوا بها، وإذا أصابتهم شدة هربوا. ومن هؤلاء بعض الذين أسلموا فى مكة. ولكن إسلامهم لم يصل بهم إلى أن يهاجروا إلى المدينة؛ خوفا من أن يتركوا أموالهم وأولادهم فظلوا فى مكة، ومرضى القلوب هؤلاء لا يعدمون الحياة؛ لأن المرض لا يعدم الحياة، لكنهم كانوا يعانون من عدم صحة الإيمان، ولما جاءت عملية القتال فى غزوة بدر تشاوروا: أيذهبون مع الكفار أو لا يذهبون؟ ومع أى من الفريقين يقاتلون ؟. وقالوا: نخرج مع الكفار فإن وجدنا أنهم أقوى كنا معهم، وإن وجدنا المسلمين هم الأقوياء انضممنا إليهم.

ومن هؤلاء قيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية بن خلف والعاصى ابن منيه بن الحجاج والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وأبو القيس بن الفاكه ابن المغيرة. وتجمع هؤلاء مع بعضهم وذهبوا إلى المعركة لينضموا إلى المنتصر، مؤمنا كان أو كافرا. وهم أخذوا هذا الموقف؛ لأن صحة الإيمان فى قلوب هؤلاء غير موجودة فهم أصحاب قلوب مريضة ومتعلقة بحب الدنيا.

وما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض يدل على الرغبة في اتقاء الضرر، مع أن هؤلاء في المدينة وهؤلاء في مكة ولكنهم قالوا شيئاً واحداً، وهذا دليل على أن إغواء الشيطان للفريقين كان واحداً. ولذلك اتحدت العبارة. وقال هؤلاء وهؤلاء : ﴿غر هؤلاء دينهم﴾

قالها الفريقان (فريق المنافقين وفريق الذين في قلوبهم مرض) مع اختلاف المكان، فبعضهم - كما علمنا - من مكة وبعضهم من المدينة. إذن فلابد من وجود قاسم مشترك دفعهم أن يقولوا قولاً واحداً، أي أن الشيطان وسوس إليهم بهذه العبارة. ولذلك كان الواجب أن ينتبهوا إلى أن اتفاق القول دليل إغواء الشيطان لهم.

وما معنى : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾

غررت فلاناً أي زينت له الأمر تزييناً بحيث يقبل عليه إقبالاً لا ترشحه قوته له، وقويت استعداده لكي يقوم به، فإذا جئت لإنسان محدود الدخل مثلاً وأردت أن تغريه بشراء سيارة. فأنت تقول لتزين له المسألة : اقترض من فلان وفلان وادفع الباقي بالتقسيط، كأنك تغريه أن يتخذ موقفاً غير موقفه الذي كان ينوي القيام به.

ولكن ما وجه الغرور في الدين ؟ .

إن المؤمنين المغترين بدينهم قد أحسوا بكثرتهم رغم أن عددهم قليل. فأقبلوا على الحرب بالرؤيا التي أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن عدد الكفار قليل، وبوعد الله لهم بالنصر، أو غرهم بأن أوضح لهم أنَّ الذي يموت مقتولاً في هذه الحرب يصير شهيداً وتكتب له حياة خالدة، وقد جعل ذلك القوي منهم والضعيف يقاتلان بقوة ؛ لأن الشهيد سيذهب إلى الجنة. وهكذا - في رأي المنافقين - اغتر المؤمنون بدينهم.

ويرد الله عز وجل عليهم بقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

هذا هو الرد عليهم فى أن المؤمنين لم يغرهم دينهم ، بل إنهم متوكلون على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه ، وسبحانه عزيز لا يغلب ، وحكيم يضع الهزيمة فى موضعها والنصر فى موضعه.

إذن فالمسألة أن هؤلاء المؤمنين قد اختاروا الله فأعزهم ونصرهم.

ولكن هل قيلت هذه العبارة من المنافقين علناً ؟ . لا ، إنهم لم يجرءوا أن يعلنوها بل قالوها سرّاً فى أنفسهم ، فأعلم الله سبحانه وتعالى رسوله بما حدث فى نفوسهم ، وكانت هذه لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن فضح حقيقتهم لعلهم ساعة يسمعون ما يدور فى نفوسهم ؛ قد يتركون نفاقهم ويعودون إلى حظيرة الإيمان الصحيح ، خصوصاً إذا انتبهوا إلى قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ففى هذه الآية الكريمة يوضح الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين فى كل معركة يخوضونها ، فهم إما أن ينتصروا ويهزموا الكفار ويقتلوهم ويأخذوا غنائمهم ، وإما أن يستشهدوا فيدخلوا الجنة ، وكلّ من الأمرين خير. وكشف الحق ما يدور فى صدور المنافقين ، وكان ذلك تنبيهاً للمؤمنين بألا يؤثر فيهم كلام المنافقين ؛ لأن المؤمنين قد توكلوا على الله والله غالب على أمره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ﴾

والذى يُوجه إليه هذا الخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه لو كشفنا لك الغيب لترى ، وتلاحظ أن الله سبحانه وتعالى ترك الجواب ، فلم يقل ماذا يحدث لهذا الكافر والملائكة يضربونه ، وإذا ما حذف الجواب فإنك تترك لخيال كل إنسان أن يتصور ما حدث فى أبشع صورة ، ولو أن الحق سبحانه وتعالى جاء بجوابه لحدد لنا ما يحدث ، ولكن ترك الجواب جعل كلا منا يتخيل أمراً عجيباً لا يخطر على البال ، ويكون هذا تفظيعاً لما سوف يحدث.

والصورة هنا تنتقل بنا من عذاب الدنيا للكفار إلى ساعة الموت.

و ﴿يتوفى﴾ أى لحظة أن تقبض الملائكة أرواح الكافرين ، والتوفى وهو قبض الأرواح يجىء مرة منسوباً لله سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله :
﴿ وهو الذى يتوفاكم ﴾ ومرة يأتى منسوباً لرسل من الله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ ومرة يأتى منسوباً إلى ملك الموت وهو عزرائيل : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾

وبذلك يكون التوفى قد أسند مرة إلى الله عز وجل ومرة إلى عزرائيل ومرة إلى رسل الموت ، ونقول : لا تعارض فى هذه الأقوال ؛ لأن الأمر فى كل الأحوال يصدر من الله سبحانه وتعالى ، إما أن يقوم عزرائيل بتنفيذه وإما جنوده وهم كثيرون.

الأمر الأصيل - إذن - من الله ، وينسب إلى المتلقى المباشر من الله وهو عزرائيل ، ويُنسب إلى من يطلب منهم ملك الموت أن يقوموا بهذه العمليات.

وهذا العذاب يحدث ساعة الاحتضار وهى اللحظة التى لا يكذب الإنسان فيها على نفسه؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه فى الدنيا، وقد يكون مريضاً بمرض لا شفاء منه فيقول : سأشفى غداً، ويعطى لنفسه الأمل فى الحياة، وقد يكون فقيراً لا يملك من وسائل الدنيا شيئاً ويقول: سوف أغتنى؛ لأن الإنسان دائما يغلب عليه الأمل إلا ساعة الاحتضار، فهذه لحظة يوقن فيها كل ميت أنه ميت فعلاً ولا مفرّ له من لقاء الله، ولذلك تجد أن الذى ظلم إنساناً لحظة يموت يقول لأولاده : أحضروا فلاناً لقد ظلمته فردوا له حقوقه نحوى وما ظلمته فيه، والإنسان لحظة الاحتضار يرى كل شريط عمله. فإن كان مؤمناً رأى شريطاً منيراً؛ فيبتسم ويستقبل الموت وهو مطمئن. وإن كانت أعماله سيئة فهو يرى ظلاماً، ويتملكه الذعر والخوف لأنه عرف مصيره.

وحينما زين الشيطان للكفار أن يقاتلوا المؤمنين ووعدهم بالنصر، وقال : إننى سأجيركم إذا دارت عليكم الدائرة، فلما أصبح المؤمنون والكفار على مدى الرؤية من بعضهم البعض هرب الشيطان؛ لأنه رأى من بأس الله ما لم يره الكفار، وهذا هو موقف الشيطان دائماً، إذا رأى بأس الله أسرع بالفرار، ويعترف أن كل حديثه لابن آدم إنما هو وعد كاذب سببه الحقد الذى فى قلبه؛ لأنه تلقى العقاب من الله عز وجل بعد أن رفض تنفيذ أمر الله له بالسجود لآدم، وهو الذى أوجب عليه العذاب الذى سيلاقيه. ونرى الشيطان مثلاً كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أى أنه أقسم بجلال الله وعزته . ومعنى عزة الله أنه غنى عن خلقه جميعاً لايحتاج لأحد منهم، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد، ولو آمن به الناس جميعاً

ما زاد ذلك في ملكه شيئاً. ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً. وقسم إبليس بعزة الله إقرار منه بها. وقد أقسم بعزة الله أن يطلب الغواية للإنسان؛ لأن الله سبحانه وتعالى مادام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار، ولو أراد الله الناس مؤمنين ما استطاع إبليس أن يقترب من أحد منهم، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن ؟. لا، ولذلك فهناك استثناء :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أي أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص في إيمانه. ولذلك لابد أن نلتفت إلى قول الشيطان الذي جاء على لسانه في الآية الكريمة :

﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

إذن فمادام إبليس يخاف الله، ومادام يعلم أن الله شديد العقاب فما الذي أذهب عنه هذا الخوف حين أمره الله بالسجود لآدم فعصى ؟. خصوصاً وهو يعلم أن الله شديد العقاب، ولو كان قد عرف أن الله لا يعاقب أو يعاقب عقاباً خفيفاً لقلنا أغرته بساطة العقاب بالمعصية. ولكن علمه بشدة العقاب كان يجب أن يدفعه إلى الطاعة من باب أولى.

ونقول : إنه في ساعة الكبر نسي إبليس كل شيء !!

فأنت في حين يأخذك الكبر تتعالى ولو في مواقع الشدة، حتى وإن علمت أنه قد يصيبك عقاب شديد، ولكن يختفي كل هذا من نفسك إذا دخل فيها الكبر.

ولذلك قد تجد إنساناً يُعذب بضرب شديد ولكن الكبر فى نفسه يجعله لا يصيح ولا يصرخ. ونجد إنساناً قد يتخذ فى لحظة كبر قراراً له عواقب وخيمة ولكنه يتحمله. وإبليس ساعة رفضه تنفيذ أمر السجود كان يمتلىء بالكبر والغرور، فتكبر على أمر الله وملكه الغرور فقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

إذن ففى لحظة الكبر نسى إبليس كل شىء، واندفع فى معصيته يملؤه الزهو وأصر على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب.

وفى قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

نجد أنه قد حذف جواب « لو » والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمرا عظيما فظيعا، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يُقتل الكفار فى المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية ؟ . كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه، فإذا أدار، وجهه ليتقى الضرب، يضربونه على ظهره، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة؛ فالمقبل عليهم

من المؤمنين يضربونه على وجهه، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره وعلى رأسه.

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين. ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة. أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة. ويقال : إن الملائكة معهم مقامع من حديد. أى قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم. ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

إذن فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جدا ولكن هذا الضرب رغم قسوته، والشرر الذى يخرج منه لا ينجيهم فى الآخرة من عذاب الحريق.

ولذلك أقبل صحابى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله.. لقد رأيت فى ظهر أبى جهل مثل شراك النعل. أى علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك ضرب الملائكة، وجاء صحابى آخر وقال : يا رسول الله.. لقد هممت بأن أقتل فلانا فتوجهت إليه بسيفى، وقبل أن يصل سيفى إلى رقبته رأيت رأسه قدطار من فوق جسده. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبقك إليه الملك. وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

(سورة الأنفال)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

أى أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً. فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أُخِذَ وعُذب ربما تحمل العذاب بجلد، ولكنَّه إذا ضُرب أمام الناس كان ذلك أشدَّ إهانة له، فإذا كان الضرب من الذى وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر.

ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم القيامة، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله، ومن قيامهم بإيذاء المؤمنين به والإفساد فى الأرض.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

نحن نعلم أن معظم أعمال الإنسان يزاولها بيده، وقد يفعل أشياء بقدميه أو بلسانه؛ لكن معظم الأعمال تتم باليد؛ لأن اليد تحمل القدرة على الفعل. فسبحانه لم يفتئت عليهم.

و « ذلك » إشارة إلى الضرب والعذاب الذى ينالونه جزاء ما قدمت أيديهم. ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

أى أن العذاب الذى يصيب الكفار يكون نتيجة أمرين؛ ما قدمت أيديهم أى بما كسبت من الآثام والمعاصى، وعدل الله سبحانه وتعالى.

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج:

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

وهكذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد قال: إنه ليس بظلام للعبيد ثلاث مرات فى القرآن الكريم، والذين يحبون أن يستدركوا على كتاب الله يقولون: إنَّه جاء فى القرآن أكثر من مرة أنه سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد. فهل هذا يعنى أن الله - معاذ الله - ظالم ؟. ونقول: لا، فسبحانه ينفى الظلم عن نفسه على إطلاقه. والإنسان حين يظلم فهو ظالم، فإذا اشتد ظلمه وتعدد، يقال: «ظلاَّم». إذن فهذه صيغة مبالغة فى الظلم، مثلما تقول: فلان «آكل» وفلان «أكّال» أى كثير الأكل مبالغة فى تناول الطعام. وتقول: فلان «ناجر» أى أمسك قطعة خشب بدون خبرة وصنع منها شيئاً. ولكنك إذا قلت: «نجّار» كانت هذه صيغة مبالغة تبين إتقانه فى صنعته، كذلك «خائط» و«خيَّاط»، ونقول: فلان «جازر» أى يستطيع أن يذبح، فإذا قلت: «جزَّار» أى عمله هو أن يذبح بإتقان.

إذن « فعَّال » صيغة مبالغة فى الفعل. وصيغ المبالغة لها حالتان ، حالة إثبات وحالة نفى. فأنت حين تقول : فلان « أكّال » أثبت له صفة المبالغة فى الأكل - أى كثرة الأكل ، ومن باب أولى صفة الأكل مطلقاً ، ومادمت قد أثبت له الصفة الأعلى تكون الصفة الأدنى ثابتة ، فإذا قلت : إن فلاناً «خياط» أثبت له أنه يعرف الخياطة ويجيدها . وإن قلت : إنه « نجَّار » أثبت له أنه ناجر متقن للنجارة ، أما من ناحية النفى فإذا قلت : إن فلاناً ليس أكَّالاً تنفى المبالغة ولكنها لا تنفى أنه يأكل ، فإذا قلت : إن فلاناً ليس نجاراً نفيت عنه إتقانه للنجارة ولكنك لا تنفى عنه أنه قد يكون ناجراً ، وإذا قلت : إن فلاناً ليس علاّمة فقد يكون عالماً. وأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى ، وعندما تنفى الأعلى لا تنفى الأدنى . وعندما تقول : إن فلاناً ليس ظلاَّماً ، تكون قد نفيت الأعلى. ولكن لا يلزم نفى الأدنى فقد يكون ظالماً فقط وليس ظلاَّما. إذن فكلمة « ليس ظلّاماً » نفت المبالغة فقط ولكنها لم تنف الظلم. وهذا ما قاله المستشرقون : إن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً ، ففى آية مثلاً يقول : ﴿ ليس بظلاَّم ﴾ فنفى الأعلى ولا يلزم من نفى الأعلى نفى الأدنى. ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النساء)

فنفى الأدنى والأعلى. وهذا فى رأيهم تضارب. نقول : هل إذا نفى الأعلى يلزم أن يثبت الأدنى ؟ طبعاً لا ، إن نفى الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى ولكنه لا يلزم بوجوده.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

نفى مبدأ الظلم، وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

نفى مبدأ المبالغة، والقرآن يكمل بعضه بعضاً، فإذا قيل : إن الله نفى الأعلى وهذا إثبات للأدنى نقول : إن نفى الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى ولا يمنع من وجود الأدنى، فإذا جاءت آية أخرى ونفت الأدنى، إذن فلا هو بظلاَّم ولا هو بظالم. ولابد أن نلتفت إلى الإعجاز القرآنى فى الأسلوب، فالمتكلم هو الله. نقول : هل قال الله سبحانه وتعالى : ليس بظلاَّم للعبد أم ليس بظلاَّم للعبيد؟ لقد قال الحق : ﴿ ليس بظلاَّم للعبيد ﴾ وهى هنا صيغة مبالغة، والمبالغة مرة تكون فى قوة الحدث وإن لم يتكرر، ومرة تكون فى المبالغة فى تكرار الحدث ، والإنسان حين يظلم ظلماً بيّناً مبالغاً فيه يقال عنه : إنه ظلاَّم؛ لأنه بالغ فى الظلم، فإذا لم يبالغ فى الظلم وكان ظلماً بسيطاً ولكنه شمل عدداً كبيراً من الناس يكون ظلاَّما نظراً لتعدد المظلومين.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ ليس بظلام للعبيد ﴾ ؛ ولم يقل : ليس بظلاَّم للعبد، وبما أن الظلم يتناسب مع القدرة. نجد مثلاً قدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود النفوذ؛ وهذه أكبر من قدرة الشخص العادى، فلو كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد من عباده ظالماً ولو مثقال ذرة لقيل : ظلاَّم. وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة، إذن فهو ليس بظلاَّم للعبيد؛ لأنه لو ظلم كل عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد. ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه؛ لأن الله ليس بظلاَّم للعبيد.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى أمثلة قمة الكفر فى الحياة الدنيا فيقول تبارك وتعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

و ﴿ الدأب ﴾ هو العادة التى تتكرر مع الإنسان ويقال : دؤوب على كذا ؛ أى يفعله باستمرار. ويوضح الله سبحانه وتعالى هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم : دأب هؤلاء الكفار معك يا محمد ، أى عادتهم معك ، كدأب آل فرعون مع رسولهم ، أى أنهم يفعلون معك كما فعل آل فرعون مع موسى عليه السلام.

وقوله تعالى : ﴿ والذين من قبلهم ﴾

أى قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ، ما الذى حدث لهؤلاء ؟ ؛ هلاك أو استئصال أو تعذيب أو إغراق أو خسف. إذن فالكفار الذين يعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاربونه ، ويقفون موقف الأذى منه ، هذا الدأب والموقف منهم معه مثل دأب وموقف آل فرعون مع موسى عليه السلام ، وقوم لوط مع لوط عليه السلام ، وكذلك الذين من قبلهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

فهل تركهم الله ؟ . لا . ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

فمنهم من أُغرقوا، ومنهم من أصابتهم الصاعقة، ومنهم من خسف الله بهم الأرض، ومادام الله سبحانه وتعالى قد فعل ذلك مع الكفار السابقين كما هو ثابت. فسبحانه سوف ينزل عقابه على الكفار الذين يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم لن يخرجوا عن قاعدة التعامل مع المكذبين للرسل، وقد حدثت سوابق مشابهة فى الكون وقضايا واقعية. فآل فرعون مثلاً بلغوا قمة التقدم والحضارة فى عصرهم وسبحانه وتعالى يقول عن حضارة الفراعنة :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبالنسبة لثمود إذا ذهبنا إلى مدائن صالح فى السعودية نجد آثار ثمود وقد حفروا بيوتهم فى صخور الجبال، ويقول الحق عن حضارة ثمود :

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وكل الحضارات القديمة قد زالت فى غالبيتها ولا أثر لها، وإن وجد أثر، فهو أثر قليل وبسيط لا يحمل كل سمات الحضارة، إلا آثار الفراعنة؛ حيث تحوى مسلات ضخمة وأعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهى باقية، أما حضارة قوم عاد فالحق سبحانه قد طمس آثارها فلم نعثر منها على شىء حتى الآن. لقد انطمست غالبية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التى يأتى إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها؛ ليتعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم فى التصميم الهندسى، وكيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة إلى الأماكن العليا بدون سقالات، وكيف ارتبطت الأحجار كلها مع بعضها البعض كل هذه السنوات الطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار،

بل تم ذلك بتفريغ الهواء. فكيف استطاعت هذه الهندسة العجيبة أن تفرغ الهواء بين حجرين كبيرين ضخمين؛ ليلتصقا ببعضهما التصاقاً محكماً بغير لاصق ولا يستطيع أحد أن يزحزحه، فإذا كانت حضارة الفراعنة قد وصلت إلى هذا الفن الهندسى باستخدام تفريغ الهواء بين أثقال ضخمة فهى حضارة راقية جداً. هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط، وكذلك إن نظرنا إلى تحنيط الجثث التى لا يعرف أحد سرها حتى الآن، وكيف أمكن المحافظة على المومياوات آلاف السنين دون أن تتحلل. وكذلك إن نظرت إلى الألوان التى طليت بها المعابد والرسومات وبقيت زاهية كما هى رغم كل ذلك الزمن الطويل، وإلى الحبوب التى حُنطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصيبها أى تلف، بل وصالحة للطعام، هذه الحضارة التى احتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن، لابد أن تكون حضارة قوية وعالية، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً وتظل آثارا.

أين ذهب صناع هذه الحضارة وقد بلغوا شأواً كبيرا وملكوا زمام الدنيا فى عصرهم؟ لابد - إذن - من وجود قوة أعلى منهم، قد دكتهم. ولماذا أتى الله بآل فرعون فى هذه الآية بالاسم بينما أتى بالحضارات التى كانت قبلهم إجمالاً؟، فقال تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

لأن آثار آل فرعون قد كشف الله عنها ورَغّبَ فيها البشرية كلها؛ ليأتوا ويروا تلك الحضارة الهائلة التى لم تستطع أن تحمى نفسها، وذلك الفرعون الذى ادعى أنه إله ولم يستطع أن يضمن لنفسه البقاء. وشاء الله سبحانه أن تبقى آثار هذه الحضارة ليشاهدها الناس جميعاً، ثم يروا أن الله عز وجل قد

أهلك أصحابها وأصبحوا أثراً بعد عين ؛ ليعرفوا أن القوة لله جميعاً ، وأن الألوهية لله وحده ، وأن كل شيء هالك إلا الله ؛ لذلك ذكرت حضارة آل فرعون مخصصة ، وهذا الذكر لآثار قوم فرعون من إعجازات القرآن ؛ لأنه ذكر هذه الحضارة تخصيصاً ثم جاء الحق بخبر الحضارات الأخرى إجمالاً ؛ قوم نوح وعاد وإرم وثمود. وكلهم : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

وعرفنا أن الآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الآيات الكونية التى تثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وكذلك المعجزات التى يؤتيها الله رسله لإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام ، ثم آيات القرآن الكريم التى هى محكم منهج الله فى الأرض.

وقول الحق : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ ، نعلم منه أنهم أنكروا وجود الخالق ، والأصل فى الكفر هو الستر ، وكفر يعنى ستر. ولذلك يسمون الزارع بالمعنى اللغوى : كافر ؛ لأنه يحضر الحب ويستره بالتراب ، ويسمون الليل لغويا : كافر ؛ لأنه يستر الأشياء. والشاعر يقول :

لى فيك أجـــر مجـــاهد

إن صـــح أن اللـــيل كافـر

ومعنى « كفروا » أى ستروا وجود الله تعالى ، إذن فالله عز وجل موجود ثابت الوجود قبل أن يستروه بالكفر ؛ لأن الإيمان أصل فى وجود الخلق ، والخلق قد وجدوا على الإيمان ، ثم جاء أناس ستروا هذا الإيمان. إذن فكلمة

الكفـر التى معناها الستر دليل من أدلة الإيمان، وإلا لو لم يكن الله موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود ؟، فإذا قال لك أحد: إنه كفر - والعياذ بالله - تقول : الكفر هو الستر؛ فماذا سترت ؟ لابد أنك سترت ما هو موجود، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

أى كفروا بآياته الكونية فلم يؤمنوا رغم الآيات الظاهرة التى تملأ الكون، وكفروا بآيات الرسل فكذبوا رسلهم رغم أنهم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانين الحياة، ولم يصدقوا آيات الكتاب التى أنزلت من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى :

وقوله تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِئَايَٰتِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

إيجاز معبر يذكر لك لماذا أخذهم الله بذنوبهم :

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

والأخذ فى قوله تعالى : ﴿ فأخذهم ﴾ كان بسبب ما ارتكبوه من ذنوب وإفساد فى الأرض. والإنسان حين يجد سوءاً يحيط به وعذاباً أليماً يأتيه فهو يحاول أن يفرّ منه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة القمر)

أى أن قدرة الله تعالى تمسك الكافر مسكة محكمة فلا يستطيع فرارا أو هروبا.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى أن الله أقوى من كل ما تصنعون فى كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم. ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكنْ لكل جزاؤه على قدر ذنبه ؛ وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله إنما يحدث بقدرات الله ، فمهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

هذا القول لا يدخل فى الجبرية التى يقول عنها الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له

إيــاك إيــاك أن تبتل بالمــاء

ويخطىء من يظن أن الله قد كتب جبرا على إنسان أن يكون كافراً ثم يلقى به فى نار جهنم ، لا ؛ لأن مثل هذا الأمر يتنافى مع عدالة الله سبحانه وتعالى ، فأنت أيها الإنسان مخير بين الطاعة وبين المعصية ، بين الإيمان وبين الكفر. وعلى هذا نفهم قول الحق :

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى بسبب ذنوبهم ، ومادام الحق تبارك وتعالى قد توعدهم بعقاب شديد فهذا دليل على شدة ظلمهم .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى الحيثية لذلك فيقول تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

و « ذلك » إشارة إلى ما تقدم، وأنت إن نظرت إلى بداية البشرية تجد أن الله تعالى خلق آدم ليجعله خليفة فى الأرض، وخلق حواء لإبقاء النوع الإنسانى. وقبل أن ينزل آدم على الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج، ومن آدم وحواء بدأت ذريتهما، ولو ساروا على المنهج الذى علمه آدم لهذه الذرية، لصارت البشرية إلى سعادة. ولكن الذرية تغيرت، وجحدوا النعمة وأنكروا أنَّ للنعمة خالقاً، فهل يبقى الله عليهم الأمن والسلامة والنعم ماداموا قد تغيروا؛ لا . بل لابد - إذن - أن يغير الله نعمه عليهم، وإلا لما أصبح هناك أى منطق للدين؛ لأن الإنسان قد طرأ على النعم، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم. بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أعد له إعداداً كاملاً؛ وفيه كل مقومات الحياة واستمرار الحياة. وظل الإنسان فترة طويلة فى طفولة الحياة يرتع فى نعم الله، فقبل أن يعرف الزراعة؛ وجد الثمار التى يأكلها. وقبل أن يعرف كيف يبحث عن الماء وجد الماء الذى يشربه، وعلمه الله كيف يعيش. وذلل له من الحيوان ما يعطيه اللبن واللحم، وكل هذه النعم وغيرها كان لابد أن يأخذها الإنسان بالشكر واستمرار الولاء لله الخالق المنعم.

ولكن الإنسان جحد نعمة الله تعالى وجحد المنعم، أتبقى له سعادة وحياة مطمئنة فى الأرض ؟ طبعاً لا، ومادام الإنسان قد غير، لابد أن يغير الحق النعمة إلى نقمة، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادىء، فالحق سبحانه منزّه أن يكون البادىء بالظلم، بل بدأ الإنسان يظلم نفسه.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

إذن فذرية آدم بدأت أولاً بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر ، ومن شكر النعمة إلى جحودها ، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم ، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته ؛ لأعاد لهم الله نعَم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة.

ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها ، فيقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وطبقاً لهذا القانون الإلهي نجد أن تغير الناس من الإيمان إلى الكفر لابد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا لأصبح منهج الله بلا قيمة ، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً ، ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط ، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب ؛ حتى لا تكون الدنيا فوضى. ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطى لمن اتبعوا المنهج نفس العطاء الذي يعطيه لمن لا يتبعون المنهج فما هي قيمة المنهج ؟.

إذن لابد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان ، وأن يكون هذا الإيمان متغلغلاً في أعماقك وليس أمراً ظاهريا فقط ، فلا تدَّع الإصلاح وأنت تفسد ، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق ، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابي الغني ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطي نعمه الظاهرة والباطنة إلا لمن يتبعون منهجه. وإذا رأيت قوماً عمّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم لم تتغير رغم أنهم يتظاهرون

باتباع المنهج الإلهى.

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضى الله عز وجل فيغير الله حالنا. ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم . أى أن حالتهم الأولى أنهم كانوا فى نعمة ومنسجمين مع منهج الله ، فغيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة ، أى أن هناك تغييرين أساسيين ، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم ، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

أى أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرّهم وجهرهم، ولذلك إذا غيروا ، سمع الله سبحانه وعلم ؛ لأن التغيير إما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل ، فإن كان التغيير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر فى النفوس ، وإن كان التغيير بالعمل فالحق يراه ويعلمه ولو كان فى أقصى الأرض.

يعود الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون فيقول :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يتساءل البعض : لماذا عاد الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون ولم يأت بها

مع الآية الأولى ؟. نقول : لأن هناك فرقا دقيقا بين كل منهما . فالآية الأولى يقول فيها الحق تبارك وتعالى : ﴿ كفروا بآيات الله﴾ وفى الآية الثانية يقول فيها :

﴿ كَذَّبُواْ بِئَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

والآية الأولى تدل على أنهم كفروا بالآيات الكونية المثبتة لوجود الله تعالى وآيات الرسل وآيات الكتب التى أنزلت إليهم، وفى هذه الآية كذبوا بآيات ربهم أى لم يصونوا النعم التى أعطاها الله لهم، فنعم الله عطاء ربوبية، وتكاليفه ومنهجه عطاء ألوهية، وهم فى الآية الأولى كذبوا بعطاء الألوهية، أى كفروا بالله. وفى الآية الثانية كذبوا بعطاء الربوبية أى بنعم الله، فعطاء الربوبية هو عطاء رب خلق من عَدم وأمَد من عُدم لتكتمل للإنسان مقومات حياته. والله يساوى فى عطاء الربوبية بين المؤمن والكافر وبين العاصى والطائع، ولا يفرّق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

أى لم يكن بينهم مؤمن وكافر بحيث يكون هنا تفرقة بأن ينجى المؤمنين ويغرق الكافرين، بل كلهم ظلموا أنفسهم بالكفر ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾، وذكر سبحانه آل فرعون بالتخصيص ؛ لأنهم الأمة الوحيدة التى بقيت حضارتها تدل على مدى تقدمها، هذا التقدم الذى لم نصل إلى كل أسراره حتى الآن. ولا يمكن أن تنتهى مثل هذه الحضارة إلا بقوة أعلى من قوتها. فكأن الحق قد أراد أن يلفتنا إلى آل فرعون بالذات ؛ لأنه قدر

للبشرية أن تكتشف آثار آل فرعون، وآثارهم لافتة للعالم أجمع، ووضع فى قلوب البشر حب أن يأتوا ليروا حضارة آل فرعون ، ويتعجبوا كيف وصلوا إلى هذه المنزلة العالية من الحضارة، ثم انهارت هذه الحضارة كدليل على وجود قوة أعلى وهى الله سبحانه وتعالى، وقد أهلكهم الحق لأنهم كفروا بالألوهية واتخذوا فرعون إلها وربا من دون الله ، وكفروا بنعمة الربوبية التى أعطاها الله لهم، والتى يذكر الله جزءا منها فى قوله الكريم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إذن فالله تعالى قد أعطاهم الزرع والماء ولم يعطهم بتقتير، بل أعطاهم بوفرة وسعة؛ لذلك قال تعالى : ﴿جنات وعيون﴾

وأعطاهم الثروة والقوة التى تحفظ لهم كرامتهم؛ وتجعلهم أسياد الأرض فى عصرهم، وحققت لهم مقاماً كريماً ولم يجرؤ أحد على أن يهينهم، ولا أن يعتدى عليهم، فقد كان عندهم كنوز الأرض؛ وعندهم القوة التى تحفظ لهم الكرامة فى قوله تعالى :

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الدخان)

وأعطاهم من العلم ما يوفر لهم الترف والحياة الطيبة الرغدة المريحة فى كل شىء، ولكنهم كفروا بنعم الربوبية هذه، كما كفروا بنعمة الألوهية؛ فاستحقوا العقاب، وبقيت آثارهم تدل عليهم؛ نجد فيها الذهب والكنوز، وقد دفنت مع موتاهم، ونجد فيها الحضارة والقوة فى المعارك التى صوروها على معابدهم بتوضيح وإتقان. ونرى فيها النعمة الهائلة التى كان يعيش فيها فرعون

وقومه، ولكنهم لم يؤدوا حقها وكفروا بالخالق واهب النعم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

﴿ **الدواب**﴾ جمع دابة، والدابة هى كل ما يدب على وجه الأرض، فإذا كان هذا هو المعنى يكون الإنسان داخلاً فى هذا التعريف، ولكن العرف اللغوى حدد الدابة بذوات الأربع، أى الحيوانات. وشرف الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعله لا يمشى على أربع، فلا يدخل فى هذا التعريف. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأنفال)

يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق الكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط، فسبحانه خلق الدواب وباقى أجناس الكون مقهورة تؤدى مهمتها فى الحياة بالغريزة وبدون اختيار؛ والشىء الذى يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول، ولذلك نجد كثيراً من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التى لا عقول لها؛ لأن الحيوانات تتصرف بالغريزة، والغريزة لا تخطىء أبداً، فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

نجد أن الغراب الذى لا اختيار له، ولا عقل؛ علم الإنسان الذى له عقل

واختيار. وقد حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريزة. إذن فكل ما يقوم به الحيوان من سلوك هو باختيار الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحيوان مقهور على التكاليف. ومن رحمة الله تعالى أن المخلوقات باستثناء الإنسان خلقت مقهورة؛ تفعل كل شيء بالغريزة وليس بالعقل، ولكن الإنسان الذى كرمه الله بالعقل يكفر ويعصى. رغم أن الحق أنعم على الإنسان بنعمة الاختيار.

ومن العجيب أننا نجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا يخرج سلوكه عن النظام المجبول عليه ويؤدى مهمته كما رسمت له تماماً، فالدابة مثلاً تلد ويأخذون وليدها ليذبحوه فلا تنفعل؛ لأن هذه مهمتها فى الحياة أن تعطى للإنسان اللحم. والحمامة ترقد على بيضها وعندما يخرج الفرخ الصغير تتولاه لفترة بسيطة جداً حتى يعرف كيف يطير وكيف يأكل ثم بعد ذلك تتركه؛ ليؤدى مهمته؛ لأنه محكوم بالغريزة. والغرائز لا تخطىء. ويتصرف بها الحيوان بدون تعليم له.

فإذا جئنا للإنسان نجد أن ألوان السلوك المحكومة بالغريزة فيه لا يتعلمها؛ إذا جاع طلب الطعام دون أن يعلمه أحد كيف يشعر بالجوع، فهذه غريزة. وإذا عطش طلب الماء دون أن يعلمه أحد معنى العطش ولا كيف يشرب. وكل واحد منا فى الغرائز متساو مع الآخر. ونجد الغنى والفقير والحاكم والغفير إذا شعروا بالجوع طلبوا الطعام، وإذا شعروا بالعطش طلبوا الماء. فكل شيء محكوم بالغرائز لا يوجد فيه تغيير.

ومن العجيب - مثلاً - أن الحمار حين يريد أن يعبر مجرى مائيا ينظر إليه، وبمجرد النظرة يستطيع أن يعرف هل سيعبره أو لا، فإن كان قادراً قفز قفزة واحدة ليعبر، وإن لم يقدر بحث عن طريق آخر. ولا تستطيع أن تجبر حماراً على أن يعبر مجرى مائيا لا يقدر على عبوره، ومهما ضربته فلن يستجيب لك ولن يعبر. أما الإنسان إن طلبت منه أن يعبر قناة مائية فقد يقول لنفسه :

سأجمع كل قوتى وأقفز قفزة هائلة، وإن لم يكن قياسه صحيحاً، يسقط فى الماء، ذلك لأنه أخطأ وصورت له أداة الاختيار أنه يستطيع أن يفعل ما لا يقدر عليه. إذن فالمحكوم بالغريزة هو الأوعى.

وعندما نأتى إلى الأكل، نجد الحيوان المحكوم بالغريزة أكثر وعياً؛ لأنه يأكل فإذا شبع لا يذوق شيئاً. ولو جئت له بأشهى الأطعمة. فأنت لا تستطيع أن تجعل الحيوان يأكل عود برسيم واحداً، أو حفنة تبن، أو حبة فول بعد أن يشبع، وتجده يدوس على ما زاد عن حاجته بقدميه. وتعال إلى إنسان ملأ بطنه وشبع وغسل يديه، ثم قالوا له مثلا : أنت نسيت الفاكهة، أو نسيت الحلوى، تجده يعود مرة أخرى ليأكل وهو شبعان؛ فيتلف معدته ويتلف جسده. ولذلك تجد الإنسان مصاباً بأمراض كثيرة لا تصيب الحيوان؛ لأنه يسرف فى أشياء كثيرة، بل تجد أن الأمراض التى تصيب الحيوان معظمها من تلوث بيئة الحيوان مما يفعله الإنسان.

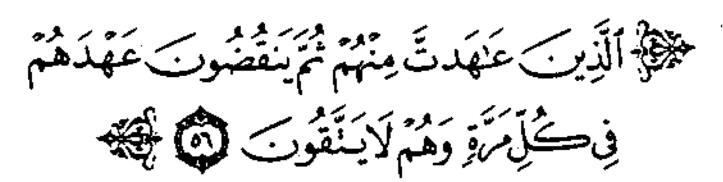
والحق سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر؛ لأن الدابة تؤدى مهمتها فى الحياة تماماً. بينما لا يؤدى الكافر مهمته فى الأرض، بل يفسد فيها ويسفك الدماء، وبذلك يكون شرا من الدابة. ولقد قلنا : إن الدّابة تحملك من مكان إلى مكان ولا تشكو، وتحَمل أثقالك ولا تتبرم. وتظل سائرة فترة طويلة وأنت جالس فوقها فلا تضيق بك وتلقيك على الأرض، لقد خُلقت لهذه المهمة وهى تؤديها كما خلقت لها دون شكوى أو ضجر؛ لأنهَا محكومة بنظام دقيق تتبعه وتنفذه. ولكن الإنسان اخترع السيارة وطور فيها، وقد يجلس أمام مقعد القيادة ويصيبه التعب فينعس ويقع فى حادثة فيصاب فيها ويصيب غيره أيضاً.

وكان من المفروض أن يتبع الإنسان فى حياته منهج ربه الذى أنزله إليه، لكن من البشر من كفر وأخذ يعربد فى الكون، وبذلك يكون شراً من الدابة؛

لأن الكافر لا يستخدم عقله فى أولويات الوجود ، وهو لو استخدم عقله لعرف أنه أقبل على كون قد أعد إعداداً دقيقاً ؛ شمس تضىء نصف الكون لتعطيه النهار ، وتغرب ليطل قمر يضىء بالليل يؤنسه فى الظلام ؛ ونجوم تهديه الطريق فى البر والبحر ، ومطر ينزل لينبت الزرع. وحيوان مسخر له يعطيه اللبن واللحم ويحمل أثقاله. كان لابد - إذن - للإنسان صاحب العقل أن يفكر : من الذى خلق له كل هذه النعم ؟ لأن هذه هى من أولى مهمات العقل الذى يفكر ، ويدلنا على الخالق. وكان لابد فى هذه الحالة أن يعرف الإنسان بعقله أن الذى صنع له كل هذه النعم وسخرها له لابد أنه يريد به خيراً. ولذلك إذا جاءه المنهج من السماء عليه أن يتبعه ؛ لأنه يعلم أن هذا المنهج خير ما يصلح له ؛ لأنه جاء من خالقه.

وفى هذه الحالة كان لابد لأمور الكون أن تستقيم. ولكن بعضاً من بنى الإنسان ستروا وجود الله وكفروا به ولذلك يوضح لنا الحق تبارك وتعالى أنهم شرّ من الدواب، لأنهم لا يؤمنون.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :



﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الكافرين الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتقل هنا للكلام عن الجماعة التى عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يكفوا عنه شرهم، وألا يتعرض لهم الرسول، وهم اليهود، فهل ظلوا على وفائهم بالعهد ؟ لا . بل نقضوا العهد.

بنو قريظة - مثلا - عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يعينوا عليه أحدا، ولما جاءت موقعة بدر مدوا الكفار بالسلاح ونقضوا العهد، ثم عادوا وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ثانياً، وعندما جاءت غزوة الخندق اتفقوا على أن يدخل جنود قريش من المنطقة التى يسيطرون عليها ليضربوا جيش المسلمين من الخلف فى ظهره، فأرسل الله ريحاً بددت شمل الكفار، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنفال)

وهم قد فعلوا ذلك؛ لأنهم تركوا منهج الله وخافوا من رسول الله فحاولوا أن يخدعوه بنقض المعاهدات. وقوله تعالى : ﴿وهم لا يتقون﴾

إنهم لا يتقون الله - عز وجل - الذى يؤمنون به إلها ؛ لأنهم أهل كتاب؛ جاءتهم التوراة، وجاءهم رسول وهو موسى عليه السلام، وهم ليسوا جماعة لم يأتها كتاب بل نزل عليهم كتاب سماوى هو التوراة، ومع ذلك لا يتبعون ما فى كتابهم ولا يتقون الله تعالى، فهم أولاً ينقضون العهد، والنقض ضد الإبرام، والإبرام هو أن تقوى الشىء تماماً كما تبرم الخيط أى تقويه، وعندما تقوى الخيط فأنت تجعله ملفوفاً على بعضه ليصبح متيناً. فالخيط الذى طوله شبران عندما تبرمه يصبح طوله شبراً واحداً ويصبح قويا، فإذا فككته أي نقضته أصبح ضعيفاً، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾

(من الآية ٩٢ سورة النحل)

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى الحكم فى هؤلاء؛ أولئك الذين لا يؤمنون،

ولا يتقون وينقضون عهدهم؛ فيأتى فيهم القول الحق :

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى إن وجدتهم فى أى حرب فشرد بهم من خلفهم .

ولنا أن نلحظ أن كلمة « إما » هى إن الشرطية المدغمة فى « ما » إذا ما حذفنا منها ما ، نجد أنها تصبح إن ، كأنه يقول : « إنْ مَا » ، وأدغمت نون « إن » فى «ما» ، مثلها مثل أن نقول : إن جاءك زيد فأكرمه ؛ هذه جملة شرطية فيها شرط وجواب وأداة شرط ، ولكنه إذا تم مرة واحدة يكون قد انتهى. ولكن «ما» مع إن الشرطية تدلنا على أنه كلما حدث ذلك فإننا نفعل بهم ما أمر الله تعالى به ، كما نقول : كلما جاءك زيد فأكرمه ؛ لأن إما هذه تتضمن ما يفيد الاستمرارية ، مثل « كلما » فكلما جاءك تكرمه ولو جاء مائة مرة ، ولو لم تجىء « ما » لكان يكفى أن تصنعها مرة واحدة .

وقوله تعالى : « تثقفنهم فى الحرب » ، ثقف بمعنى وجد ، أى كلما وجدتهم فى الحرب : فشرد بهم من خلفهم ، أى اجعلهم أداة لتشريد من خلفهم. وعليك أن تؤدبهم أدباً يجعل الذين وراءهم يخافون منكم ، ويبتعدون عنكم ، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع ، وكما يقول المثل العامى : «اضرب المربوط يخاف السايب» . أى أن المطلوب أن نجاهدهم بقوة وبدون شفقة ، حتى لا يفكر فى مساندتهم من جاءوا خلفهم لينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم فى القتال ، ولا تحدثهم أنفسهم فى أن يستمروا فى المعركة ، فشرد بهم ، والتشريد هو التشتيت والتفريق والإبعاد ولكن بقسوة. فحيثما يريدوا أن يذهبوا ؛ امنعهم وشتتهم على غير مرادهم. وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لعلهم يذكرون﴾

أى لكى تكون هذه التجربة درساً لهم ؛ كيلا يفكروا مرةً أخرى فى حربٍ

معك؛ لأنهم سوف يتذكرون ما حدث لهم فيبتعدون عن مواجهتك.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى يبدأ هذه الآية بقوله : « وإما » ومثلها مثل « فإما » في الآية السابقة وقد تم التوضيح فيها، وهنا يتحدث عن الآخرين الذين لا يواجهون بالحرب، بل يدبرون لخيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونقول: هل هذه الخيانة مقطوع بها ؟ أو أنت أخذت بالشبهات ؟. الله سبحانه وتعالى هنا يفرق بعدالته فى خلقه بين الخيانة المقطوع بها والخيانة غير المقطوع بها، فالخيانة المقطوع بها لها حكم، والخيانة المظنون بها لها حكم آخر. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى بلغك أنهم سيخونونك، ماذا تفعل فيهم ؟ .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى أنه مادام هناك عهد والعهد ملك لطرفين، هذا عاهد وذاك عاهد، فإياك أن تأخذهم على غرة، بل انبذ إليهم، والنبذ هو الطرح والإبعاد، أى عليك أن تلغى العهد الذى بينك وبينهم، وتنهيه، وتبعده بكراهية. فساعة تخاف الخيانة

أبعدهم، ولكن لا تحاربهم قبل أن تعلِمَهُم أنك قد ألغيت العهد بسبب واضح معلوم.

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبيلة خزاعة - كانت من حلفائه بعد صلح الحديبية - وكان الصلح يقضى ألا تهاجم قريش حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألا يهاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفاء قريش، وذهب بعض من أفراد قريش إلى قبيلة خزاعة وضربوهم، أى أن قريشاً خانت العهد، ونقضت الميثاق الذى كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بمعاونتها بنى بكر فى الاعتداء على خزاعة حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فماذا فعل الناجون من خزاعة ؟. أرسلوا عنهم عمرو بن سالم الخزاعى يصرخ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة وقال: إن قريشاً أخلفتك الوعد ونقضت ميثاقك، ولما حدث هذا لم يبق رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة سراً، بل أبلغ قريشاً بما حدث. وأنه طرح العهد الذى تم فى صلح الحديبية بينه وبين قريش.

وعندما جاء أبو سفيان إلى المدينة ليحاول أن يبرر ما حدث. رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقابله.

إذن فإن وجدت من القوم الذين عاهدتهم بوادر خيانة فانبذ العهد، أما إن تأكدت أنهم خانوك فعلاً وحدثت الخيانة ففاجئهم بالحرب، تماماً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد أن خانوه فى غزوة الخندق ونقضوا العهد والميثاق.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

فكأن الله تعالى برىء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم برىء، والمسلمون أبرياء أن يخونوا حتى مع الذين كفروا؛ وهذه تؤكد لنا أن الإسلام جاء ليعدل الموازين فى الأرض؛ ليس بالنسبة للمؤمنين به فقط بل بالنسبة للناس جميعاً. ولذلك إن قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

تلاحظ أن الآية لم تقل : بين المؤمنين . ، ولكن قالت: ﴿ بين الناس ﴾؛ حتى لا تكون هناك تفرقة فى العدل بين مؤمن وغير مؤمن، فغير المؤمن مخلوق لله، استدعاه الله إلى هذا الوجود، وسبحانه قد أعد له مكانه فى هذا العالم؛ لذلك لابد أن تراعى العدل معه فى كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه؛ لأنك بذلك تكون أنت مددا من إمدادات الله. وقد كان هذا السلوك العادل الذى أمر به الله سبباً فى دخول عدد كبير فى الإسلام. ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

أى لا تناصر - يامحمد - الخائنين حتى وإن كانوا من أتباعك. وقد نزلت هذه الآية عندما سُرق درع من قتادة بن النعمان وهو من الأنصار، وحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من بيت يقال لهم: بنو أبيرق. فجاء صاحب الدرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعى، فلما علم السارق بما حدث، وضع الدرع فى جوال دقيق وأسرع وألقاه فى بيت رجل يهودى اسمه زيد بن السمين. وقال لعشيرته: إنى وضعت الدرع فى منزل اليهودى زيد بن السمين ، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله إن صاحبنا برىء . والذى سرق الدرع هو فلان

اليهودى. وذهب الصحابة فوجدوا الدرع فى جوال دقيق فى بيت اليهودى. ولكن اليهودى أنكر أنه سرق الدرع وقال: لقد أتى به طعمة بن أبيرق ولم يلحظ طعمة أثناء نقل جوال الدقيق أن بالجوال ثقباً صغيراً ، تسرب منه الدقيق ليصنع علامة على الأرض، وذلك من غفلته؛ لأن الله لابد أن يترك دليلاً للحق يهتدى به القاضى حتى لا يضيع الحق؛ فتتبع المسلمون علامة الدقيق حتى أوصلتهم إلى بيت طعمة بن أبيرق وأصبحت القضية أن السارق مسلم. ولكنه اتهم اليهودى كذباً بالسرقة. وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حكمت لليهودى على المسلم يكون المسلمون فى خسة ودناءة وحرج، وإذا بالوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعصمه من تعدى خواطره فى هذه المسألة :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن لأجل ولصالح الخائنين مدافعا عن أى واحد منهم ولو كان هذا الخائن مسلماً. وهكذا كان عدل الإسلام فى أن حكم الله تعالى لا ينصر مسلماً على باطل ولا يظلم يهوديا، ألا يرون هذا الدين وما فيه من قوة الحق ؟ ألا يدفعهم ذلك إلى أن يتجهوا إلى هذا الدين الإسلامى دين العدالة والإنصاف ليكونوا فى أحضانه ؟!

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى قل لهم إنى ألغيت هذا العهد الذى بينى وبينكم وأصبحت فى حل منه .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾

يبين أنه سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين حتى ولو كانوا من المنسوبين للإسلام.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكفار فى حرب ، قُتل فريق من الكفار ، وأُسر فريق آخر منهم ، وفر فريق ثالث ، وأما الذين قتلوا والذين أسروا فقد أخذوا جزاءهم ، والذين فروا نجوا من القتل ومن الأسر ، فكأنهم سبقوا فلم يلحق بهم المسلمون الذين أرادوا أن يقتلوهم أو يأسروهم . والسبق أن يوجد شىء يريد أن يلحق بشىء أمامه فيسبقه ؛ ولا يستطيع اللحاق به . فكأن الكفار عندما فروا سبقوا المسلمين الذين لو لحقوا بهم لقتلوهم أو أسروهم .

الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا هو ظاهر ما حدث ، ولكن الحقيقة التى يريدنا الله عز وجل أن نفهمها هى أن هؤلاء الكفار الذين فروا وسبقوا ، ولم تلحقهم أيدى المسلمين ، هؤلاء لا يعجزون الله تعالى ولا يخرجون عن قدرته سبحانه وتعالى وسوف يأتيهم العذاب فى وقت لاحق ، إما بانقضاء الأجل وإما فى معركة ثانية .

وعادة نجد أن كلاً من السابق والمسبوق يستخدم أقصى قوته ، الأول ليفر والثانى ليلحق به. ولذلك عندما تراهما فقد تتعجب من القوة التى يجرى كل

منهما بها، وهذه هى الطبيعة الإنسانية، فساعة الأحداث العادية يكون للإنسان قوة وقدرة. وساعة الأحداث المفاجئة تكون له أى للإنسان ملكات أخرى. فإذا غرقت سفينة فى البحر مثلاً وتعلق واحد من ركابها بقطعة خشب من حطام السفينة، تجده يسبح لفترة طويلة دون أن يشعر بالتعب. فإذا وصل إلى الشاطىء خارت قواه.

ولقد عرفنا سر ذلك عندما اكتشف علم وظائف الأعضاء أن الإنسان عنده غدة فوق الكلى هى الغدة الكظرية، إذا وقع فى مأزق مفاجىء تفرز مادة « الادرينالين » وهذه مادة يمكن أن تعطيه عشرة أضعاف قوته، ولكن إذا زال الخطر تتوقف الغدة عن إفراز هذه المادة إلا بالنسبة التى يحتاجها الجسم، ولذلك تجد الإنسان الذى يصارع الموج فى البحر تمده هذه الغدة بالوقود، فإذا وصل إلى الشاطىء توقفت الغدة عن الإفراز الزائد المناسب للخطر فتخور قواه وربما يظل ثلاثة أيام نائماً من التعب.

وهناك قصة خيالية رمزية تروى عن صائد أرسل كلبه يجرى وراء غزال ليأتيه به، والكلب يجرى يريد اللحاق بالغزال، والغزال يجرى طلباً للنجاة، وفجأة التفت الغزال إلى الكلب وقال له : لن تلحقنى ؛ لأنى أجرى لحساب نفسى وأنت تجرى لحساب صاحبك.

فمن يفعل شيئاً لينجو بنفسه يكون قويا. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنفال)

أى إنهم فى قبضة المشيئة لايخرجون عن قدرة الله الذى سيحضرهم ويحاسبهم.

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عمن حارب، ومن عاهد وغدر، ومن

فر وسبق، ومن يريد أن يلحق به، أراد أن ينبهنا إلى حقيقة هامة وهى ألا نقصر فى إعدادنا للقوة التى تعيننا على ملاقاة الأعداء وقت الحرب أو حتى تأتينا الحرب؛ لأننا قد نفاجأ بها فلا نستطيع أن نستعد، ولذلك لا يجب أن يقتصر استعدادنا للقتال إلى أن تأتى ساعة القتال ذاتها، لا، بل يجب أن نستعد سلماً وحرباً. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ﴾ يعنى أن يكون الإعداد لكل من تحدث عنهم، وهم الذين قاتلوا وقتلوا وأصاب أهلهم ضرورة الثأر لمقتلهم، والذين أسروا، والذين نقضوا العهد نقضاً أكيداً أو نقضاً محتملاً، كل هؤلاء لابد أن تعد لهم ما جاء به قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾

وهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة.

ولماذا قدر استطاعتهم ؟

لأن الإنسان محدود بطاقة، ووراء قدرة المؤمنين قدرة الله سبحانه. ولذلك

أنت تعد قدر ما تستطيع ثم تطلب من الله أن يعينك. وإذا ما صنعت قدر استطاعتك، إياك أن تقول : إن هذه الاستطاعة لن توصلنى إلى مواجهة ما يملكه خصمى من معدات يمكن أن يهاجمنى بها، فخصمك ليس له مدد من السماء إنما أنت لك المدد السماوى، ومادام لك هذا المدد فقوتك بمدد الله تجعلك الأقوى مهما كان عدوك، ولذلك عندما يحدث الله تعالى المؤمنين يوضح لهم : إياكم أن تخافوا من كثرة عدد عدوكم، والمطلوب منكم أن تعدوا له ما استطعتم من قوة وحتى أطمئنكم أنى معكم، تذكروا آية واحدة أنزلتها، وهى :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

وساعة يلقى الله عز وجل فى قلوب الذين كفروا الرعب سيلقون سلاحهم ويفرون من ميدان القتال ولو كانوا يحاربون بأقوى الأسلحة، وسيتمكن المؤمنون منهم وينتصرون عليهم بأية قوة أعدوها. وقوله تعالى :

﴿ ما استطعتم من قوة ﴾

هذه القوة قد تكون ذاتية فى النفس بحيث لا تخاف شيئاً، فجسم كل مقاتل قوى ممتلىء بالصحة وله عقل يعمل باقتدار وإقبال على القتال فى شجاعة، بالإضافة إلى قوة السلاح بأن يكون سلاحاً حديثاً متطوراً بعيد المدى، وأن يحرص المؤمنون على امتلاك كل شىء موصول بالقوة. وكان الهدف قديماً وحديثاًأن يمتلك المقاتل قوة تمكنه من عدوه ولا تمكن عدوه منه. وفى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مدى رمى السهام هو رمز القوة. فأول ماتبدأ الحرب يضربون العدو بالنبال، فإذا زحف العدو وتقدم يستخدمون له الرماح، فإذا تم الالتحام كان ذلك بالسيوف. وكانت أحسن قوة فى الحرب هى

السهام التى ترمى بها خصمك فتناله وهو بعيد عنك، ولا يستطيع أن ينالك أو يقترب منك. ولذلك عندما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة قال فيما يرويه عنه عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ، ثم قال : «ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى».[1]

لأنك بالرمى تتمكن من عدوك ولا يتمكن هو منك ، فإذا تفوقت فى الرمى كنت أنت المنتصر عليه .

ولكن كيف ينطبق ذلك على الحرب فى العصر الحديث بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة ؟ لقد صارت المدفعية لفترة من الزمن هى السلاح ؛ لأنها المحقق للنصر لبعد مداها ، ثم جاءت الطائرات لتصبح هى السلاح الأقوى ؛ لأنها تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وتلقى بقنابلها وتعود. وصارت قوة الطيران هى التى تحدد المنتصر فى الحرب ؛ لأنها تلحق بالعدو خسائر جسيمة دون أن يستطيع هو أن يرد عليها مادام غير متفوق فى الطيران ، ثم بعد ذلك جاءت الصواريخ والصواريخ عابرة للقارات ، إلى آخر الأسلحة المتطورة التى تتسابق على اختراعها الدول الآن ، وكلها أسلحة بعيدة المدى ، والهدف أن تنال كل دولة أرض عدوها ولا يستطيع هو أن ينال أرضها. ويضيف الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ورباط الخيل هو القوة التى تحتل الأرض ، فمهما بلغت قدرتك فى الرمى فأنت لا تستطيع أن تستولى على أرض عدوك ، ولكنَّ راكبى الخيل كانوا

---

(١) رواه الإمام مسلم وغيره.

يدخلون المعركة فى الماضى بعد الرمى ليحتلوا الأرض. وهذه عملية تقوم بها المدرعات الآن. فالمعركة تبدأ أولاً رمياً بالصواريخ والطائرات حتى إذا حطمت قوة عدوك انطلقت المدرعات لتحتل الأرض، فالطائرات والصواريخ تهلك العدو وتحطمه ولكنها لا تأخذ الأرض. ولكن الذى يمكننا من الأرض والاستيلاء عليها هو : رباط الخيل ، أو المدرعات، ورباط الخيل هو عقده للحرب، أى أن الخيل تُعد وتُعلف وتدرب وتكون مستعدة للحرب فى أية لحظة، تماماً كما تأتى للمدرعات وتعدها إعدادا جيداً بالذخيرة ، وتصلح ماكيناتها وتتدرب عليها لتكون مستعداً للقتال فى أى لحظة. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعةً أو فَزْعةً طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مظانَّه ، ورجل فى غنيمة فى شَعَفَةٍ من هذه الشعفاء وبطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا فى خير (١) .

أى أنه لا ينتظر بل ينطلق لأى صيحة. ومن الإعجاز فى الأداء القرآنى أنه أعطانا ترتيباً للحرب، فالحرب أولاً تبدأ بهجوم يحطم قوى العدو بالرمى، سواء كان بالصواريخ أم بالطائرات أم بغيرهما ، ثم بعد ذلك يحدث الهجوم البرى، ولا يحدث العكس أبداً. ورتب الحق سبحانه وتعالى وسائل استخدام القوة أثناء القتال، فهى أولاً الرمى، وبه نهلك مكيناً ثم نستولى على المكان، وكان ذلك يتم برباط الخيل الذى تقوم مقامه المدرعات الآن. ونجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى القرآن الكريم بالأداء الذى يعلم ما تأتى به الأيام من اختراعات الخلق، ونجد فى زماننا هذا كل قوة للسيارة أو المدرعة أو الدبابة

(١) رواه مسلم والنسائى ، وورد فى الترغيب والترهيب جـ ٢ صـ ٢٤٧ .

إنما تقاس منسوبة إلى الخيل، فيقال قوة خمسة أحصنة أو خمسمائة حصان.

ويقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالقصد - إذن - من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم؛ لأن مجرد الإعداد للقوة، هو أمر يسبب رهباً للعدو. ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة الدولة، وحين تبين لخصمك القوة التى تملكها لا يجترىء عليك، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر « التوازن السلمى ». والذى يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتى هو التوازن السلمى بين مجموعات من الدول، بالإضافة إلى العامل الاقتصادى المكلف للحرب، فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما. وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب. وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى.

وهكذا صار الإعداد للحرب ينفى قيام الحرب.

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط وقد سلطكم سبحانه عليهم، لا بل عليكم أن تعرفوا أن أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً؛ لأنهم يفسدون الحياة على المؤمنين. وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين. وأن ينكل بهم، وأن يجبرهم إن استطاع على الكفر وأن يغريهم على ذلك. فالحق سبحانه وتعالى لا يغضب؛ لأنهم لم يؤمنوا به، بل لأنهم لا يطبقون المنهج

الذى يسعد الإنسان على الأرض، فسبحانه وتعالى لا يكرههم ولكن يعاقبهم بسبب الإفساد فى الأرض وبغيهم وطغيانهم.

﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم، ولكنَّ هناك خلقاً كثيراً سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أنتم الآن ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يعلمهم، كما يلفتنا سبحانه إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم الذين يظهرون فى ميدان القتال فقط ليحاربوا المسلمين، ولكنَّ هناك كثيراً ممن لا يظهرون فى ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين. وقد ظهر معنى هذه الآية الكريمة ، ولايزال يظهر للمسلمين، فظهرت عداوة الفرس والروم وحربهم ضد المسلمين، وظهرت عداوة الصليبيين وغيرهم. ومع الزمن سوف يظهر من يعلمهم الله ولا نعلمهم نحن. وقد جاءت أحداث الحياة لتؤكد دقة تعبير القرآن الكريم.

ثم يتناول الحق سبحانه وتعالى هواجس النفس البشرية، وهى تنصت لهذه الآيات من الإعداد العسكرى، فالذى يخطر على البال أولاً أن مثل هذا الإعداد يتطلب مالاً، ويتطلب جهداً ، ويتطلب زمناً فوق الزمن لقضاء المصالح والحوائج. فإياكم أن تنكصوا عن الاستعداد؛ لأن كل ما تنفقونه فى سبيل الله محسوب عند الله. وإياكم أن تقولوا: إنّ الإعداد لقوة المجتمع يحتاج مالاً ويقتر على الأبناء؛ لأن الله يرزقكم. ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

أى أن ما تنفقونه مما يقال له : شيء سواء أكان قليلاً أم كثيراً يرد إليكم، ولقد جاء التعبير بـ ﴿ من شيء﴾ في قوله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ أى مما يقال له شيء. ولو جاءت الآية : غنمتم شيئاً ، لما شملت الأشياء البسيطة، ولكن قوله تعالى : ﴿ من شيء﴾ أى من بداية ما يقال له شيء، حتى قالوا : إن الخيط الذى يوجد عند العدو لابد أن يذهب للغنائم، وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

. يعنى أى شيء تنفقونه فى سبيل الله تعالى مدخرلكم ما دمتم أنفقتموه وليس فى بالكم إلا الله عز وجل . أما الإنفاق الذى ظاهره لله وحقيقته للشهرة أو الحصول على الثناء أو للتفاخر أو لقضاء المصالح. فكل ذلك اللون من الإنفاق خارج عن الإنفاق فى سبيل الله ، لكن الإنفاق فى سبيل الله سيرده الله لكم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

أى أن ما تنفقونه فى سبيل الله لا ينقص مما معكم شيئاً.

على أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نأخذ طريق العدل وليس طريق الافتراء ؛ لذلك يطلب منا عز وجل ألا يطغينا هذا الاستعداد للحرب على خلق الله ، فمادام لدينا استطاعة وأعددنا قوتنا وأسلحتنا فليس معنى ذلك أن نصاب بالغرور ونجترىء على خلق الله ؛ ولهذا فإن الله عز وجل ينبهنا إلى ذلك بقوله :

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

أى أن الله لم يطالبنا بأن نكون أقوياء لنفترى على غيرنا، فهو لا يريد منا إعداد القوة للاعتداء والعدوان، وإنما يريد القوة لمنع الحرب ليسود السلام ويعم الكون؛ لذلك ينهانا سبحانه وتعالى أن يكون استعدادنا للقتال وسيلة للاعتداء على الناس والافتراء عليهم. ولهذا فإن طلب الخصم السلم والسلام صار لزاماً علينا أن نسالمهم. وإياك أن تقول : إن هذه خديعة وإنهم يريدون أن يخدعونا؛ لأنك لا تحقق شيئاً بقوتك، ولكن بالتوكل على الله عز وجل والتأكد أنه معك، والله عز وجل يريد الكون متسانداً لا متعانداً. وهو سبحانه وتعالى يطلب منك القوة لترهب الخصوم. لا لتظلمهم بها فتقاتلهم دون سبب. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى إن مالوا إلى السلم ودعوك إليه فاتجه أنت أيضاً إلى السلم، فلا داعى أن تتهمهم بالخداع أو تخشى أن ينقلبوا عليك فجأة؛ لأن الله تعالى معك بالرعاية والنصر، وأنت من بعد ذلك تأخذ استعدادك دائماً بما أعددته من قوتك.

وقول الحق :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى إياك أن تتوكل أو تعتمد على شىء مما أعددت من قوة؛ لأن قصارى الأمر أن تنتهى فيه إلى التوكل على الله فهو يحميك. ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى حيثية ذلك فيقول :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى أنه لا شيء يغيب عن سمعه إن كان كلاماً يقال، أو عن علمه إن كان فعلاً يتم. وإياك أن تخلط بين التوكل والتواكل، فالتوكل محله القلب والجوارح تعمل؛ فلا تترك عمل الجوارح وتدعى أنك تتوكل على الله، وليعلم المسلم أن الانتباه واجب، وإن رأيت من يفقد يقظته لابد أن تنبهه إلى ضرورة اليقظة والعمل، فالكلام له دور هنا، وكذلك الفعل له دور؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

ولنلحظ أن قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هذا القول إنما جاء بعد قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهى آية تحض على الاستعداد للقتال بإعداد العدة له.

ويريد الحق تبارك وتعالى أن ينبهنا إلى أن قوة المؤمنين واستعدادهم الحربى يجب ألا يكونا أداة للطغيان، ولا للقتال لمجرد القتال. ولذلك ينبهنا سبحانه وتعالى إلى أنهم لو مالوا إلى السلم فلا تخالفهم وتصر على الحرب؛ لأن الدين يريد سلام المجتمع، والإسلام لا ينتشر بالقوة وإنما ينتشر بالإقناع والحكمة. فلا ضرورة للحرب فى نشر الإسلام؛ لأنه هو دين الحق الذى يقنع الناس بقوة

حجته ويجذب قلوبهم بسماحته، وكل ذلك لشحن مدى قوة الإيمان، لنكون على أهبة الاستعداد لملاقاة الكافرين، ولكن دو ن أن تبطرنا القوة أو تدعونا إلى مجاوزة الحد، فإن مالوا إلى السلم، علينا أن نميل إلى السلم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد سلامة المجتمع الإنساني. وإن كنتم تخافون أن يكون جنوحهم إلى السلم خديعة منهم حتى نستنيم لهم، ثم يفاجئونا بغدر، فاعلم أن مكرهم سوف يبور؛ لأنهم يمكرون بفكر البشر، والمؤمنون يمكرون بفكر من الحق سبحانه وتعالى؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

فإذا أحسست أن مبادرة السلم التى يعرضونها عليك هى مجرد خديعة حتى يستعدوا لك ويفاجئوك بغدر ومكر، فاعلم أن الله تعالى عليم بمكرهم، وأنه سيكشفه لك، ومادام الله معك فلن يستطيعوا خداعك، وإذا أردت أن يطمئن قلبك فاذكر معركة بدر التى جاءك النصر فيها من الله تعالى وتمثلت أسبابه المرئية فى استعداد المؤمنين للقتال ودخولهم المعركة. وتمثلت أسبابه غير المرئية فى جنود لم يرها أحد، وفى إلقاء الرعب فى قلوب الكفار، وكان النصر حليفك بمشيئة الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ﴾

والخداع هو إظهار الشيء المحبوب وإبطان الشيء المكروه، وتقول: « فلان يخادعنى » أى يأتى لى بشيء أحبه، ويبطن لى ما أكرهه، ولأن الخداع فى إخفاء ما هو مكروه، وإعلان ما هو محبوب، فهل أنت يا محمد متروك لهم، أم أن لك ربا هو سندك، وهو الركن الركين الذى تأوى إليه ؟. وتأتى الإجابة

من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إذن فالله سبحانه وتعالى حسبك وسندك وهو يكفيك ؛ لأنه نصرك وآزرك. وأنت ترى أن هذه قضية دليلها معها ، فقد نصرك ببدر رغم قلة العدد والعُدد.

والتأييد تمكين بقوة من الفعل ليؤدى على أكمل وجه وأحسن حال ، ومادام الله عز وجل هو الذى يؤيد فلابد أن يأتى الفعل على أقوى توكيد ليؤدى المراد والغاية منه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾

والتأييد هنا عناصره ثلاثة : الله يؤيد بنصره ، والله يؤيد بالمؤمنين ، والله يؤلف بين قلوب المؤمنين. والتأليف بين القلوب جاء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل لقوم لهم عصبية وحمية ، وهم قبائل متفرقة تقوم الحروب بينهم لأتفه الأسباب ؛ لأن عناصر التنافر موجودة بينهم أكثر من عناصر الائتلاف.

إن القبيلة مجتمعة تهب للدفاع عن أى فرد فيها مهما كانت الأسباب والظروف ، حتى إنه ليكفى أن يسب واحد من الأوس مثلاً واحداً من الخزرج لتقوم الحرب بين القبيلتين ، ولو أن القلوب ظلت على تنافرها لما استطاعت هذه

القبائل أن تواجه أعداء الإسلام، ولشغلتها حروبها الداخلية عن نصرة الدين والدفاع عنه ومواجهة الكفار. ولكن الله ألف بينهم، وبعد أن كانوا أعداءً أصبحوا أحباباً. وبعد أن كانوا متنافرين أصبحوا متوادين.

وهكذا ألف الله بين قلوب المسلمين بحيث أصبح الإسلام فى قلوبهم وأعمالهم وأسلوب حياتهم هو أقوى رابطة تربط بينهم. فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب. وحين تتآلف القلوب؛ فهذا أقوى رباط؛ لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة فى القلب.

إن القلب هو مصدر النية التى يتبعها السلوك، فالذى يحرك إنساناً مَوْتوراً منك ويثير جوارحه ضدك، إنما هو القلب، فإن وجدت إنساناً يعبس فى وجهك فافهم أن فى قلبه شيئاً، وإن لقيته وحاول أن يضربك فافهم أن فى قلبه شيئاً أكبر، وإن حاول أن يقتلك، يكون فى قلبه شعورٌ أعمق بالبغض والكراهية.

إذن فالينبوع لكل المشاعر هو القلب. ولذلك نرى الإنسان يُضَحِّى بكل شىء وربما ضحَّى بحريته وبماله فى سبيل ما آمن به واستقر فى قلبه، ونحن نرى العلماء فى معاملهم يعيشون سنوات طويلة ويحرمون أنفسهم من متع الحياة الدنيا لأن العلم قد تحول إلى عقيدة فى قلوبهم سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، فكأنما نية القلب وما يستقر فيها هى أقوى ما فى الحياة.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا فضل عظيم منه أن ألف بين قلوب المؤمنين؛ فيقول:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الذى يرويه عنه النعمان بن بشير رضى الله عنهما : (ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله).

والحديث بتمامه: « انّ الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »(١)

ولم تكن المسألة فى تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال؛ لأن المال لايمكن أن يعطى الحب الحقيقى، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح وارتباط قلوب، وارتباط المصالح ينتهى بمجرد أن تهتز أو تنتهى هذه المصالح، لكن ارتباط القلوب يتحدى كل الأزمات، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك حقيقة مهما أعطيته من مال؛ لأن الحب الحقيقى لا يشترى ولا يباع، إنما يشترى النفاق والتظاهر وغير ذلك من المشاعر السطحية. والعرب الذين ألف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما تهمهم الحمية والعصبية، فغالبيتهم يملكون الثروات، ولكن الفُرْقة فيما بينهم نابعة من الحمية والعصبية التى تجعل فى القلوب غلاً وحسداً وحقداً؛ لذلك تنفعل جوارحهم. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنفال)

ومادام الله سبحانه وتعالى له عزة فهو لا يغلب، ومادام حكيماً فهو يضع الأمور فى مكانها السليم، والله سبحانه وحده هو القادر على أن يجعل

(١) رواه الشيخان : البخارى ومسلم.

القلوب تتآلف؛ لأن القلوب فى يد الرحمن يقلبها كما يشاء، لذلك ندعو بدعاء رسول الله: يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، فعن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة رضى الله عنها يا أم المؤمنين ما أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»[1].

وسبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى قضية إيمانية فيقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وإياك أن تظن أن الله عز وجل يعاقب الكفار لأنهم لم يؤمنوا برسل الله فقط، ولكن لأن الكون يفسد بسلوكهم، وهو سبحانه غير محتاج لأن يؤمن به أحد، ثم إن دين الحق سينتصر سواء آمن الناس به أم لم يؤمنوا، وسبحانه يريد بالمنهج الذى أنزله كل الخير والسعادة لعباده؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحجرات)

فإذا دخل أحد فى الإسلام فلا يمن على الله أنه أسلم؛ لأن إسلامه لن يزيد فى ملك الله شيئاً، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليه بهدايته للإسلام وهى لصالحه. ويريد الله من رسوله ألا يلتفت إلى عدد الكفار أو قوتهم؛ لأن

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

معه الأقوى، وهو الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك يقول:

﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

أى يكفيك الله.

وقوله تعالى:

﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

هى داخلة فى ﴿ حسبك الله ﴾. لأن الله هو الذى هدى هؤلاء المؤمنين للإيمان فآمنوا.

ويكون المعنى: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين، أى يكفيكم الله، وعلى ذلك فلا تلتمس العزة إلا من الحق سبحانه وتعالى.

ويمكن أن يكون المعنى يكفيك الله فيما لا تستطيع أن تحققه بالأسباب. ويكفيك المؤمنون فيما توجد فيه أسباب.

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

وهذا النداء إنما يأتى فى الأحداث؛ أما البلاغ فيقول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى ينادى الرسول بـ﴿ يأيها النبى ﴾ حين يكون الأمر متعلقا بالأسوة السلوكية، أما إذا كان الأمر متعلقا بتنزيل تشريع، فالحق سبحانه يخاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ يأيها الرسول ﴾ ذلك أن الرسل جاءوا مبلغين للمنهج عن الله، ويسيرون وفق هذا المنهج كأسوة سلوكية. على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر كل رسول باسمه فى القرآن الكريم

فقال: « يا موسى »، وقال: « يا عيسى بن مريم »، وقال: « يا إبراهيم ». إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد خاطبه بـ: « يأيها النبى »، وبـ« يأيها الرسول »، وهذه لفتة انتبه إليها أهل المعرفة، وهذا النداء فيه خصوصية لخطاب الحضرة المحمدية، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

وينادى سيدنا نوحاً قائلاً سبحانه:

﴿ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وينادى سيدنا موسى فيقول:

﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وينادى سيدنا عيسى فيقول:

﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

فكل نبى ناداه الحق تبارك وتعالى ناداه باسمه مجرداً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقل له قط: يا محمد، وإنما قال: « يأيها النبى »، و«يأيها الرسول». والحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها أراد أن يلفت نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يعلم أنه يكفيه الله والمؤمنين مهما قل عددهم لينتصروا على الكفار.

ثم يأتى النداء الثانى من المولى تبارك وتعالى فى قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾

وساعة تسمع أن فلانا يحرض فلاناً، فهذا يعنى أنه يحثه، ويثير حماسه ويغريه على أن يفعل، وأنواع الطلب كثيرة، فهناك طلب نسميه نداء، أى تناديه، وطلب نسميه أمراً أى تفعله، وطلب نسميه نهياً، أى لا تفعله. هذه كلها أفعال طلب يسبقها النداء. هناك مثلاً طلب أن يُقبل عليه، وطلب آخر أن يبتعد عنه، وطلب ثالث أن يقضى له حاجة، كل هذا يعنى أن المتكلم يعرض على السامع أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا. وهناك لون من الطلب لا يحمل الإلزام، بل هو عَرْض فقط (وهو الطلب برفق ولين) كقولك لمن تعلوه : أنا لا آمرك، بل أعرض عليك فقط. وهناك لون ثالث من الطلب تحمله كلمة «حض» وهو الطلب بشدة؛ لأن المعروض معه دليل الإقبال عليه. فأنت حين تحض ابنك على المذاكرة مثلاً فهناك مبرر الإقبال على المذاكرة وهو النجاح. وأنت حين تحض الإنسان على فعل، فأنت لا تنهاه أو تأمره لأنك تريد أن يقبل على الشيء بحب، ولكن حين تأمره بقسوة قد يكره هذا الشيء. وقد تعرض على إنسان شيئاً فتجده يحب أن يفعله ولو بدون أمر منك.

إذن فقول الله تعالى :

﴿ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى حثهم وحضهم وحمسهم، والفعل يتكون من الحاء والراء والضاد، ومنها « حرض » و « يحرض » ومادة هذه الكلمة معناها القرب من الهلاك. ونجد قول الحق تبارك وتعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم:

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

أى أنك ستستمر فى ذكر يوسف حتى تقترب من الهلاك أو تهلك بالفعل.

ولكن هل معنى « حرِّض » هنا يعنى : قرب المؤمنين من الهلاك ؟ نقول: لا ؛ لأن ما يسمونه الإزالة، وهى أن يأتى الفعل على صورة يزيل أصل اشتقاقه، عندما تقول : « قشرت البرتقالة » أى أزلت قشرتها. وكذلك قولنا : «مرّض » الطبيب فلانا وليس المعنى أن الطبيب قد أحضر له المرض، ولكن معناها أزال المرض، إذن فهناك أفعال تأتى وفيها معنى الإزالة. ويأتى معنى الإزالة مرة بتضعيف الحرف الأوسط مثل « حرِّض » و « قشَّر » ومرة تأتى بهمزة، فتعطى معنى الإزالة، فإذا قلت : « أعجم الكتاب ». فمعناها أنه أزال عجمته، ولذلك نسمى كتب اللغة « المعاجم »، أى التى تزيل خفاء اللغة وتعطينا معانى الكلمات. ومن قبل شرحنا معنى « قسط » و « أقسط »؛ وقسط تعنى « الجور » أى الظلم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

وأقسط أى أزال الظلم. إذن فهناك حروف حين تزاد على الكلمة ؛ تزيل المعنى الأصلى لمادتها. وهناك تشديد يزيل أصل الاشتقاق مثل « قشّر » أى أزال القشر، و « مرَّض» أى أزال المرض. و « حرَّض » أى أزال الحرض.

ومعنى الآية الكريمة : اطلب منهم يا محمد أن يزيلوا قربهم من الهلاك بالقتال. وهذه القاعدة اللغوية تفسر لنا كثيراً من آيات القرآن الكريم. ففى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة طه)

الذين يأخذون بالمعنى السطحى يقولون : « أكاد أخفيها » أى أقرب من أن أسترها ولا أجعلها تظهر ، ونقول : الهمزة فى قوله : « أكاد » هى همزة الإزالة ، فيكون معنى « أكاد » أى أننى أكاد أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى والعلامات الكبرى التى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها. وبعضهم قد أرهق نفسه فى شرح « أكاد أخفيها » ولم ينتبهوا إلى أن إزالة الاشتقاق تأتى إما بتضعيف الحرف الأوسط ، وإما بوجود الهمزة. وقول الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم تحريض المؤمنين على الجهاد وكأنه يقول له : ادع قومك إلى أن يبعدوا الدنو من الهلاك عن أنفسهم ؛ لأنهم إن لم يجاهدوا لتغلب عليهم أهل الكفر ، فأهل الكفر يعيشون فى الأرض بمنهج السيطرة والغلبة والجبروت ، وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليوقفوهم عند حدهم. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

فكأنهم إن لم يحاربوا أهل الكفر سوف يحيط بهم الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة. والله سبحانه وتعالى يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة فى الدنيا والجنة فى

الآخرة. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وضع معياراً إيمانيا فى القتال بين المؤمن والكافر، والمعيار هنا وضعه خالقهم، وخالق قواهم وملكاتهم وعواطفهم. والمعيار الإيمانى هو فى قوله تعالى :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالمعيار الإيمانى باختصار يساوى واحداً إلى عشرة، أى أن القوة الإيمانية تجعل من قوة المؤمن ما يعادل قوة عشرة من الكفار، هذا هو المقياس. وهنا يأتى بعض الناس ليقول : أساليب القرآن مبنية على الإيجاز وعلى الإعجاز، فلماذا يقول الحق سبحانه وتعالى : « عشرون يغلبوا مائتين » . ثم يقول «مائة يغلبوا ألفا»؛ ألم يكن من الممكن أن يقال : إن الواحد يغلب عشرة وينتهى القول ؟.

نقول : إنك لم تلاحظ واقع الإسلام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب مع المؤمنين فى قتالهم ويحضر معهم بعضاً من أحداث القتال التى نسميها « غزوات » . أما البعثات القتالية التى لم يخرج فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يكتفى فيها بإرسال عدد من المؤمنين، فقد كانت تسمى سرايا، وهذه السرايا كانت لا تقل عن عشرين مقاتلاً ولا تزيد على مائة، فذكرها الله تعالى مرة بالعشرين ومرة بالمائة.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٥ من سورة الأنفال)

ونحن نرى أن المقياس هنا ليس بعدد المقاتلين فقط، ولكن لابد أن يكونوا موصوفين بالصبر، وفى آية أخرى بالصبر والمثابرة، فمن الجائز أن يصبر عدوك فعليك حينئذ أن تصابره، أى إن صبر قليلاً، تصبر أنت كثيراً، وإن تحمل مشقة القتال، تتحمل أنت أكثر. إذن فالقوة القتالية لكى يتحقق بها ولها النصر لابد أن تكون قوة صابرة قوية فى إيمانها قادرة على تحمل شدة القتال وعنفه.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى تعليل هذا الحكم الإيمانى الذى أبلغنا به فيقول عز من قائل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالسبب فى أن المؤمن يغلب عشرة من الكفار، هو أن الكفار قوم لا يفقهون، وماداموا لا يفقهون، يكون المقابل لهم من المؤمنين قوما يفقهون. وهنا نقارن بين المؤمنين الذين يفقهون، والكفار الذين لا يفقهون ونقول: إن الكافر حين يقاتل لا يعتقد فى الآخرة، وليس له إلا الدنيا ويخاف أن يفقدها، ولذلك حين يوجد الكافر فى ساحة الحرب فهو يريد أن يحافظ على حياته ولو بالفرار، ولكن الدنيا بالنسبة للمؤمن رحلة قصيرة والشهادة هى الفوز برضوان الله ودخول الجنة بلا حساب، ولذلك فإنه يقبل على القتال بشجاعة من يريد الاستشهاد. ونجد خالد بن الوليد يقول للفرس: أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة.

فلو أن الكفار فقهوا أى فهموا أن الدنيا دار ممر ومعبر للآخرة، وأن الآخرة هى المستقر لأنها الدار الباقية، لا متلكوا قوة دافعة للقتال، ولكنهم يريدون هذه الحياة لأنها بالنسبة لهم هى كل شىء. ولذلك يعلمنا القرآن الكريم فيقول:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى لن يحدث لنا فى هذه الحرب إلا ما هو حسن، فإما أن ننتصر ونقهركم ونغنم أموالكم، وإما أن نُسْتَشْهَدَ فندخل الجنة وكلاهما حسن. ويكمل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى أنكم أيها الكفار لن يصيبكم إلا السوء والخزى. إما عذاب شديد من عند الله بغير أسباب، وإما عذاب بأيدينا أى بالأسباب. إذنْ فالكافر حين يدخل المعركة لا ينتظر إلا السوء، إما أن يقتل ويذهب إلى جهنم - والعياذ بالله - ، وإما أن يصيبه الله بعذاب يدفع الخوف فى قلبه أثناء المعركة. والكفار فى القتال لا يعتمدون إلا على قوتهم وعددهم وعُدتهم؛ أما المؤمنون فيعتمدون أولاً على الله القوى العزيز ويثقون فى نصره. ولذلك يقبلون على القتال ومعهم رصيد كبير من طاقة الإيمان وهى طاقة تفوق العدد والعدة، ويكون المقاتل منهم قويا فى قتاله متحمساً له؛ لأنه يشعر أنه مؤيد بنصر الله. ونعلم أن كل إنسان يحرص على الغاية من وجوده؛ وغاية الكفار متاع الحياة الدنيا المحدود، أما غاية المؤمنين فممتدة إلى الآخرة. ولذلك فالكافر يحارب بقوته فقط وهو مجرد من الإيمان.

ونلاحظ أن النصوص خبرية فى قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والنصوص الخبرية ليس فيها طلب ، ، وإن كان الطلب يخرج مخرج الخبر ليوهمك أن هذا أمر ثابت. وعندما قام بعض المتمردين من سنوات ودخلوا الحرم بأسلحتهم وحاصروا الناس فيه قال بعض السطحيين: إنَّ القرآن يقول:

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وأن هذا خبر كونى معناه أن كل من دخل الحرم كان آمناً ، وقلنا : إن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ هذا كلام الله ؛ فمن أطاع الله فليؤمِّن من يدخل الحرم. وقد تطيعون فتؤمِّنون من يدخل الحرم وقد تعصون فلا تؤمِّنونهم. إذن فالمسألة هى حكم تطيعونه أو لا تطيعونه ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾

(من الآية ٢٢٨ سورة البقرة)

هذا كلام خبرى. فإن أطاعت المطلقة الله ؛ انتظرت هذه الفترة ، وإن عصت لم تنتظر ، وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وقد نرى فى الكون زيجات عكس ذلك ؛ تجد رجلاً لئيماً يتزوج بامرأة طيبة ؛ وامرأة لئيمة تتزوج رجلاً طيباً ، وقد تتساءل : لماذا لم يتزوج الطيب طيبة مصداقاً لقول الحق ، ولماذا لم يتزوج الخبيث خبيثة ؟

ونقول : لقد أخطأت الفهم لقول الله تعالى ، فما قاله الله ليس خبراً كونيا ، ولكنه خبر تشريعى ومعناه : زوجوا الطيبات للطيبين ، وزوجوا الخبيثات

للخبيثين، فإن فعلتم استقامت الحياة، وإن عصيتم لا تستقيم الحياة؛ لأن الرجل الخبيث إن عاير امرأته وأهانها فهى ترد عليه الإهانة بالمثل ويكون التكافؤ موجوداً حتى فى القبح. ولكن الشقاء فى الكون إنما يأتى من زواج الطيب بالخبيثة، والخبيث بالطيبة، وليس معنى الآية - إذن - أنك لا تجد طيباً إلا متزوجاً من طيبة، ولا خبيثاً إلا متزوجاً من خبيثة؛ لأن هذا أمر تكليفى تشريعى، فإن فعلت تكون قد أطعت، وإن لم تفعل تكون قد عصيت.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وفى هذا الحكم تخفيف عن الحكم السابق، الذى جاء فيه أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين، ونعلم أن هناك شروطا للقتال، أولها أن يكون المقاتل قوى البدن وقوى الإيمان وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها بحيث يستطيع أن يناور ويغير مكانه فى المعركة ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة، بل لابد من كرّ وفرّ وإقبال وإدبار وخداع للقتال ومناورات مثلما فعل خالد بن الوليد فى كثير من المعارك.

إذن فلكى تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين لابد أن يتحقق فى هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجلد، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجلد ضعيفاً. وقد تأتى للإنسان فترات ضعف، وتأتيه أيضاً فترات قوة. ومن رحمته سبحانه وتعالى بالمؤمنين أنه خفف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات

ضعف تصيب الإنسان؛ لذلك جعل النسبة واحداً إلى اثنين. وقال سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهل معنى ذلك أن الآية الأولى قد نسخت ؟ نقول : لا، ولكن الآية الثانية أعطت حالات الأغيار والضعف البشرى وحسبت لها حساباً. ولذلك نجد الحكم الأول.قائما وهو الحد الأعلى، كما أن الحكم الثانى - أيضاً - قائم وهو الحد الأدنى، فإذا لقى مؤمن ثلاثة كفار وفر منهم لا يعدُّ فاراً يوم الزحف، ولا يؤاخذه الله على ذلك. لكن إن واجهه اثنان فانسحب وتركهما يعتبر فاراً؛ لأن الحد الأدنى هو واحد لاثنين. وتكون هذه أقل نسبة موجودة. والنسب تتفاوت بين واحد إلى إثنين حتى واحد إلى عشرة، حسب قوة الصبر وقوة الجسم وعدم التحيز إلى فئة. وبطبيعة الحال نعلم أن القوى قد يصير ضعيفاً. وكذلك فإن بعضاً من النفوس قد تضيق بالصبر، وأيضاً حين زاد عدد المؤمنين، فمن المحتمل أن يتكل بعضهم على بعض. ولكنهم عندما كانوا قلة، كان كل واحد منهم يبذل أقصى قوته فى القتال للدفاع عن عقيدته.

والمشرع لا يشرع للمؤمنين بما يحملهم ما لا يطيقون، ولكنه يشرع لهم ليخفف عنهم، والمثال على ذلك نجد أن الله قد أباح الإفطار فى رمضان إذا كان الإنسان مريضاً أو على سفر، وكذلك شرع الحق تبارك وتعالى قصر الصلاة أثناء السفر، إذن فالمشرع قد عرف مواطن الضعف فى النفس البشرية التى تجعلها لا تقوى على التكليف. وفى هذه الحالة يقوم المشرع ذاته بالتخفيف، ولا يتركنا نحن لنخفف كما نشاء.

وبعض الناس يقول : إن الحياة العصرية لم تعد تتحمل تنفيذ هذه التشريعات، وأنه ليس في وسعنا في هذا العصر أن نلتزم، وأن ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ونقول لكل من يقول ذلك : لقد فهمت وسع النفس خطأ، وكان عليك أن تقيس وسعك بالتكليف، ولا تقيس التكليف بوسعك. والسؤال : هل كلَّف الله سبحانه وتعالى أو لم يكلف ؟ فإن كان قد كلف فذلك تأكيد على أنه في استطاعتك، ولا تقل : أنا سأقيس استطاعتي. ثم ابحث هل التكليف في نطاق هذه الاستطاعة أو لا ؟ وعليك أن تبحث أولاً : هل كلفت بهذا الأمر أو لم تكلف؟ فإذا كنت قد كلفت به يكون في استطاعتك أداء ما كلفت به ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها ؛ لا تفرض أنت استطاعة ثم تُخْضع التكليف لها، ولكن اخضع استطاعتك للتكليف.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

و « الآن » تعني الزمن، وقد خفف الله أي هو سبحانه وتعالى الذي رفع المشقة، وأنت تقول هذا الشيء خفيف وهذا الشيء ثقيل. لكن أتعرف بأي شيء حكمت بمقدار المشقة التي تتحملها في أدائه ؟. فإن رفعت قلماً تقول : هذا خفيف، وإذا رفعت قطعة حجر كبيرة تقول : هذه ثقيلة، بأي شيء حكمت ؟ هل بمجرد النظر ؟ لا . فأنت لا تستطيع أن تفرق بالنظر بين حقيبتين متماثلتين لتقول هذه ثقيلة وهذه خفيفة ؛ لأن إحداهما قد تكون مملوءة بالحديد، والثانية فيها أشياء خفيفة ؛ ولا تستطيع أن تحكم باستخدام حاسة السمع ولا

حاسة اللمس؛ لأنك باللمس لا تستطيع أن تحكم على حقيبة بأنها خفيفة والأخرى ثقيلة، ولا بحاسة الشم أيضاً.

إذن فكل وسائل الإدراك عاجزة عن أن تدرك خفة الشيء أو ثقله، فبأى شيء ندرك ؟. ونقول : قد اهتدى علماء وظائف الأعضاء أخيراً إلى أن الثقل والخفة لهما حاسة هى حاسة العضل، فحين يجهد ثقل ما عضلات الإنسان ويحملك مشقة أنه ثقيل، فهو يختلف عن ثقل لا يؤثر على العضل ولا تحس فيه بأى إجهاد؛ لأن هذا الثقل يكون خفيفاً .

إذن فهناك وسائل للإدراك لم نكن نعرفها فى الماضى واكتشفها العلم الحديث. أنت مثلاً حين تمسك قماشاً بين أصابعك تقول : هذا قماش كثيف أو سميك وهذا خفيف أو رقيق، ما هى الحاسة التى عرفت بها ذلك ؟ نقول : إنها حاسة « البين » فقد ابتعدت أصابعك قليلاً فى القماش الثقيل، وقربت من بعضها فى القماش الرقيق، وقد يصل الفرق إلى ملليمتر واحد أو أقل لا تدركه بالنظر؛ ولكن تدركه بحاسة البين.

وإياكم أن تحسبوها رياضيا وعدديا وتقولوا إن النصر بالعدد؛ لأنكم بذلك تعزلون أنفسكم عن الله، أو إنَّما تفتنون بالأسباب، فكل نصر هو بإذن الله ومن عند الله تبارك وتعالى.

ولماذا لم يقل الحق سبحانه : علم فيكم ضعفاً وخفف عنكم ؟ لأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون الترخيص فى الحكم أثبت من الحكم، على أن هذا التخفيف قد يعود إلى عدة أسباب؛ منها أن حكم الله أزلى. ولذلك وضع الله سبحانه وتعالى حدا أعلى يتناسب مع قوة الإيمان فى المسلمين الأوائل، وحدا أدنى يتناسب مع ضعف الإيمان الذى سيأتى مع مرور الزمن، أو يتناسب مع العزوف عن الدنيا بالنسبة للمسلمين الأوائل، وعلى الإقبال على الدنيا بالنسبة لأولئك الذين سيأتون من بعدهم، أو مع قلة الفتن التى كانت فى عصر النبوة وكثرة الفتن فى عصر كالذى نعيش فيه.

ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

وأنت قد تقول : فلان سافر إلى الخليج ومعه عشرون جنيهاً. فإذا اندهش من يسمعك وتساءل : « ماذا يفعل بهذا المبلغ الصغير » ؟ تقول له : إن معه فلاناً «المليونير» فيطمئن السائل . فإن قلت : إن فلاناً وهو رجل كبير السن ذهب إلى الجبل ليحضر صخرة.. نتساءل : كيف ؟. يقال لك : إن معه فلاناً القوى فتطمئن.

إذن فمعية الضعيف للقوى أو الأدنى للأعلى تصنع نوعاً من الاستطراق، وتعطى من القوى للضعيف، ومن الغنى للفقير، ومن العالم للجاهل، إذن فالمعية تعطى من قوة التفوق قدرة للضعيف.

وهنا يوضح المولى سبحانه وتعالى للمؤمنين : إن قوتكم وقدرتكم على الصبر محدودة لأنكم بشر، فلا تعزلوا هذه القوة المحدودة عن قدرة الله غير المحدودة، واصبروا لأن الله مع الصابرين. ولأنه سبحانه معكم فهو يعطيكم من قوته فلا تستطيع أى قوة أن تتغلب عليكم وتقهركم.

ولقد تعرضنا لهذا وقت أن تكلمنا عن الغار، حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه الغار فى طريق الهجرة إلى المدينة وجاء الكفار ووقفوا على باب الغار فماذا قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. وهذا كلام منطقى مع الأسباب. فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له ليطمئنه ؟. قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ولكن ما وجه الحجة فى ذلك ؟. لقد قال : مادام الله ثالثهما، والله لا تدركه الأبصار، فالذين فى معيته لاتدركهم الأبصار.

وفى هذه الآية مثل سابقتها ؛ يتحدث المولى سبحانه وتعالى عن المعارك والنصر.

ومن الطبيعى أن يكون من معايير النصر كسب الغنائم. والغنائم التى تمت فى بدر قسمان ؛ منقولات ، وقد نزل حكم الله فيها بأن لله ولرسوله الخمس ، بقى جزء آخر من الغنائم لم ينزل حكم الله فيه وهم الأسرى ، ففى معركة بدر قتل من قريش سبعون وأسر سبعون ، فاستشار [1] رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس. فقال : ما ترون فى هؤلاء الأسرى ؟ إنَّ الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس.

فقال أبو بكر : يا رسول الله أهلك وقومك ، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم ، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان استبقهم ، وإنى أرى أن تأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك ، فيكونوا لك عضدا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقول يابن الخطاب ؟

قال : يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - حتى يضرب عنقه ، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست فى قلوبنا مودة للمشركين ، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن راعون مؤلفون .

وقال عبدالله بن رواحة : يا رسول الله أنظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً. فقال العباس وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك. قال أبو أيوب : فقلنا - يعنى الأنصار - إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا.

(١) مسند أحمد الأحاديث ٣٦٣٢ - ٣٦٣٤ ، مع اختلاف فى بعض العبارات .

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت، فقال أناس: يأخذ بقول أبى بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة، ثم خرج فقال: إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن [١]، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة. مثلك يا أبا بكر فى الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك فى الأنبياء مثل إبراهيم قال: ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾[٢] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [٣]، ومثلك يا عمر فى الملائكة مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك فى الأنبياء مثل نوح إذ قال: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [٤] ومثلك فى الأنبياء مثل موسى، إذ قال: ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [٥] لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عالة [٦] فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق، ومن بين الأسرى كان عدد من أغنياء قريش.

وسبق له صلى الله عليه وسلم أن استشار الصحابة فى معركة بدر. وحدث أن اختار رسول الله عليه الصلاة والسلام أماكن جيش المسلمين، فتقدم أحد الصحابة وهو الحباب بن المنذر بن الجموح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فأشار الحباب بن المنذر بتغيير موقع المسلمين ليكون الماء وراءهم فيشربوا هم ولا يشرب الكفار.

(١) الواقدى ١/ ١١٠ : « ألين من الزبد».
(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٦ .
(٣) سورة المائدة : الآية ١١٨ .
(٤) سورة نوح : الآية ٢٦.
(٥) سورة يونس : الآية ٨٨ .
(٦) الواقدى ١/ ١٠٩ : « وإن بكم عيلة ».

إذن فلو أنه منزل أنزله الله لرسوله لما جرؤ أحد على الكلام ؛ لأن لله علماً آخر لا نعلمه، فنحن ببشريتنا لنا علم محدود؛ والله له علم بلا نهاية. وكذلك فى مسألة الأسرى؛ لم يكن فيها حكم قد نزل من الله. ولذلك استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته، وكان أمامه رأى فيه شدة لعمر بن الخطاب ومعه عبدالله بن رواحه، ورأى لين يخالف الرأى السابق وكان لسيدنا أبى بكر الصديق.

وكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجز ما قاله الفريقان؛ فريق اللين بقيادة أبى بكر رضى الله عنه وفريق الشدة بقيادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ثم مال النبى صلى الله عليه وسلم إلى رأى الفداء. وجعل فدية الواحد من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم، وكان فى الأسر العباس وهو عم النبى صلى الله عليه وسلم، فسمع النبى أنينه من قيده فقال: فكوا عنه قيده. وفسر بعض الناس هذا على أنه ميل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه، ولكنه كان ردا على جميل فعله العباس فى بيعة العقبة؛ حينما حضر وفد من أهل المدينة إلى مكة ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

وقد حضر العباس هذه البيعة، وكان أول من تكلم فيها رغم أنه كان مازال على دين قومه. فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ..خزرجها وأوسها . قال العباس : إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة من بلده، أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده[1]

(١) سيرة ابن هشام حـ٢ ص ٤٤ طبعة الأنوار المحمدية .

إذن فالعباس قد وقف موقفاً لابد أن يجازى بمثله، ورغم أنه كان كافراً وقتئذ، إلا أن الكفر لم يمنع عاطفة العباس أن ينجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف بمثله؛ لأن المبدأ الإسلامى واضح فى قول الحق:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة النساء)

فلا يؤخذ هذا التصرف - إذن - على أنه مجاملة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه، ولكنها حق على رسول الله من موقف العباس فى بيعة العقبة. وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: يا عباس افد نفسك وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عقبة بن عمرو بن جحدم أخا بنى الحارث بن فهر؛ فإنك ذو مال. فقال: يا رسول الله إنى كنت مسلماً ولكن القوم استكرهونى. فقال رسول الله: الله أعلم بإسلامك إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به. أما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك. وكان المسلمون قد أخذوا من العباس عشرين أوقية من ذهب كغنيمة، فقال العباس: يا رسول الله احسبها لى فى فدائى، فقال الرسول: لا، ذلك شىء أعطاناه الله عز وجل منك. قال العباس: فإنه ليس لى مال. لقد جعلتنى يا محمد أتكفف قريشاً، فضحك النبى وقال: فأين المال الذى وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد، ثم قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا؛ فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقثم كذا وكذا، ولعبيد الله كذا وكذا. قال العباس: والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها، وإنى لأعلم أنك رسول الله. ففدى العباس نفسه بأربعة آلاف درهم، وفدى كلا من ابنى أخيه وحليفه بألف لكل منهم.[1]

إذن ففى التقييم المادى دفع العباس أربعة أمثال ما دفعه الأسير العادى كفدية.

---

(١) القرطبى وابن كثير مع اختلاف فى بعض العبارات.

ثم ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوج ابنته زينب وكان [(١)] فى الأسارى أبو العاص [(٢)] بن الربيع ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته زينب، أسره خراش بن الصمة، فلما بعثت قريش فى فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أبى العاص وأخيه عمرو ابن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يخلى سبيل زينب إليه، وكان فيما شرط عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلم. ما هو، إلا أنه لما خرج بعث رسول الله صلى اللهعليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار، مكانه، فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها [(٣)]، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة [(٤)]، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهز.

ومن بعد ذلك نزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

(١) سنن أبي داود ١/ ٢٦٧ وابن جرير ٢/ ٢٩٠ ، ٢٩١ وابن هشام : ٣٠٦ - ٣٠٨
(٢) ط : « أبو العاصى » .
(٣) سنن أبي داود : « حتى تأتيها بها » .
(٤)شيعة : قريب منه .

و « أسرى » جمع كلمة « أسير »، وتعريف الأسير أنه مشدود عليه الوثاق ممن أخذه بحيث يكون فى قبضة يده، والأسير فى الإسلام هو نبع العبودية والرق؛ لأن الأسير يقع فى قبضة عدوه الأقوى منه و يمكنه أن يقتله أو يأخذه عبداً.

إذن ففى هذه الحالة لا نقارن بين أسير أصبح عبداً وبين حر، وإنما نقارن بين قتل الأسير وإبقائه على قيد الحياة. وأيهما أنفع للأسير أن يبقى على قيد الحياة ويصبح أسيراً أم يقتل ؟.

إن بقاءه على قيد الحياة أمر مطلوب منه ومرغوب فيه. وبذلك يكون تشريع الله سبحانه وتعالى فى تملك الأسرى إنما أراد الله به أن يحقن دماءهم ويبقى حياتهم؛ لأن الأسير مقدور عليه بالقتل، وكانَ من الممكن أن يترك الأسرى ليقتلوا وتنتهى المشكلة. ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يحفظ حتى دم الكافر؛ لأن الله هو الذى استدعاه إلى هذه الحياة وجعله خليفة، ولذلك يحفظه. ولعله من بعد ذلك أن يهتدى ويؤمن. ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد لعن من يهدم بنيان الله إلا بحقه.

على أن الإسلام قد اتهم زوراً بأنه هو الذى شرع الرق، ولكن الحقيقة أنه لم يبتدع أو ينشىء الأسر والرق، ولكنه كان نظاماً موجوداً بالفعل وقت ظهور الإسلام، وكانت منابع الرق متعددة بحق أو بباطل، بحرب أو بغير حرب، فقد يرتكب أحد جناية فى حق الآخر ولا يقدر أن يعوضه فيقول: « خذنى عبداً لك »، أو « خذ ابنتى جارية »، وآخر قد يكون مَديناً فيقول: « خذ ابنى عبداً لك أو ابنتى جارية لك ». وكانت مصادر الرق - إذن - متعددة، ولم يكن للعتق إلا مصرف واحد. وهو إرادة السيد أن يعتق عبده أو يحرره.

ومعنى ذلك أن عدد الرقيق والعبيد كان يتزايد ولا ينقص؛ لأن مصادره

متعددة وليس هناك إلا باب واحد للخروج منه، وعندما جاء الإسلام ووجد الحال هكذا أراد أن يعالج مشكلة الرق ويعمل على تصفيته. ومن سمات الإسلام أنه يعالج مثل هذه الأمور بالتدريج وليس بالطفرة؛ فألغى الإسلام كل مصادر الرق إلا مصدراً واحداً وهو الحرب المشروعة التي يعلنها الإمام أو الحاكم. وكل رق من غير الحرب المشروعة حرام ولا يجوز الاسترقاق من غير طريقها، وفي ذات الوقت، عدد الإسلام أبواب عتق العبيد، وجعله كفارة لذنوب كثيرة لا يكفر عنها ولا يغفرها سبحانه وتعالى إلا بعتق رقبة، بل إنه زاد على ذلك في الثواب الكبير الذي يناله من يعتق رقبة حبا في الله وإيماناً به فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة البلد)

فإذا لم يرتكب الإنسان ذنباً يوجب عتق رقبة ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية، فإنه في هذه الحالة عليه أن يعامل الأسير معاملة الأخ له في الإسلام. فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه سيدنا أبو ذَر رَضي الله عنه:

(إخوانكم خولكم جعلهم الله فتنة تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه)[1]

إذن فقد ساوى هذا الحديث الشريف بين العبد والسيد، وألغى التمييز بينهما؛ فجعل العبد يلبس مما يلبس سيده ويأكل مما يأكل أو يأكل معه؛ وفي العمل يعينه ويجعل يده بيده، ولا يناديه إلا بـ «يا فتاي» أو «يا فتاتي».

إذن فالإسلام قد جاء والرق موجود وأبوابه كثيرة متعددة ومصرفه واحد؛

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والبيهقي وابن ماجه.

فأقفل الأبواب كلها إلا باباً واحداً، وفتح مصارف الرق حتى تتم تصفيته تماماً بالتدريج. وبالنسبة للنساء جاء التشريع السماوى فى قول الله تعالى :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وكان ذلك باباً جديداً من ابواب تصفية الرق ؛ لأن الأمة إن تزوجت عبداً مثلها تظل على عبوديتها وأولادها عبيد، فإن أخذها الرجل إلى متاعه وأصبحت أم ولده يكون أولادها أحراراً، وبذلك واصل الإسلام تصفية الرق، وفى ذات الوقت أزاح عن الأنثى الكبت الجنسى الذى يمكن أن يجعلها تنحرف وهى بعيدة عن أهلها مقطوعة عن بيئتها، وترى حولها زوجات يتمتعن برعاية وحنان ومحبة الأزواج وهذه مسألة تحرك فيها العواطف، فأباح للرجل إن راقت عواطفهما لبعضهما أن يعاشرها كامرأته الحرة وأن ينجب منها وهى أمَة، وفى ذلك رفع لشأنها لأنها بالإنجاب تصبح زوجة، وفى ذات الوقت تصفية للرق.

إن هذه المسألة أثارت جدلاً كثيراً حول الإسلام، وقيل فيها كلام كله كذب وافتراء. والآن بعد أن ألغى الرق سياسيا بمعاهدات دولية انتهت إلى ذات المبادىء التى جاء بها الإسلام وهى تبادل الأسرى والمعاملة بالمثل. وهو مبدأ أول ما جاء، إنما جاء به الإسلام، فليس من المعقول أن يأخذ عدو لى أولادى يسخرهم عنده لما يريد، وأنا أطلق أولاده الأسرى عندى، ولكن المعاملة بالمثل فإن منّوا نمُنّ، وإن فدوا نفد . ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الرق الناشىء عن الأسر مقيداً فى قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ونقول: إن هناك فرقاً بين حكم يسبق الحدث فلا يخالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحكم يجيء مع الحدث، ولابد أن نفرق بين الحكمين؛ حكم يسبق الحدث إن خولف تكون هناك مخالفة ولكنَّ حكماً يأتى مع الحدث، فهذا أمر مختلف، لنفرض أنك جالس وجاء لك من يقول إن قريبك فلان ذهب إلى المكان الفلانى، وأنه ينفق على كذا، وأعطى كمبيالة على نفسه بمبلغ كذا. اذهب إليه لتمنعه، فتذهب إليه وتمنعه، هنا جاء الحكم مع الحدث، فلا تكون هناك مخالفة.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

قد جاء هذا الحكم بعد أن تم أسر كفار قريش وأخذوا إلى المدينة، وتشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابة بشأنهم ووصلوا إلى رأى. إذن فالحكم جاء بعد أن انتهت العملية، والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يغير الحكم، فظل الأسر والفداء. إذن: ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ﴾ أى ما ينبغى لنبى أن يكون له أسرى حتى يقسو على الكفار فى القتال.

ويريد الحق سبحانه وتعالى هنا أن ينبه المؤمنين إلى أنهم لو كانوا يريدون الأسرى لعرض الدنيا، كأن يطمع أى واحد فى من يخدمه، أو يطمع فى امرأة يقضى حاجته منها، أو فى مال يبغى به رغد العيش، كل ذلك مرفوض؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد من المؤمن أن يجعل الدنيا أكبر همه، بل يريد الحق من المؤمنين أن يعملوا ويحسنوا الاستخلاف فى الأرض؛ ليقيموا العدل على قدر الاستطاعة؛ وليجزيهم الله من بعد ذلك بالحياة الدائمة المنعمة فى الجنة.

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

« سورة الأنفال »

وسبحانه العزيز الذى لا يغلب ، والحكيم الذى يضع كل شىء فى موضعه.

ويجىء من بعد ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة تشرح وتبيِّن أن الحق سبحانه وتعالى لا يحاسب أحداً إلا بعد أن ينزل التشريع الذى يرتب المقدمات والنتائج ، ويحدد الجرائم والعقوبات ، ولولا ذلك لنزل بالمؤمنين العذاب لأخذ الأسرى ، من قبل أن تستقر الدعوة ، وبما أن الحق تبارك وتعالى لا ينزل العذاب إلا بمخالفة يسبقها التشريع الذى يحددها ، لولا ذلك لأنزل العذاب بالمؤمنين ، ولكن بما أن هذا الفعل لم يجرَّم من قبل فلا عقاب عليه.

وينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى الغنائم التى حصل عليها المؤمنون فى غزوة بدر فيقول تبارك وتعالى :

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى إياكم أن تنفقوا ما غنمتموه بسفاهة فى أى شىء لا لزوم له، بل اتقوا الله فيما أعطاكم ومنحكم من غنائم. سواء كانت منقولات أم مالا أم أسرى تجعلونهم يقومون بأعمال يعود نفعها وعائدها إليكم . اتقوا الله فى كل هذا ولا تنفقوه بحماقة ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى أن الله تعالى قد غفر لكم ما فعلتم قبل أن تنزل هذه الآية الكريمة :

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الأسرى بعد ذلك فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

أى إن صح كلام العباس فى إسلامه وأنه كتم الإسلام؛ فالله يعلم ما فى قلبه وسوف يعطيه الله خيراً مما أخذ منه. وبالفعل فاء الله على العباس بالخير. فقد أسند الطبرى إلى العباس أنه قال : فىّ نزلت - أى هذه الآية - حين أعلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين أوقية التى أخذت منى قبل المفاداة فأبى وقال : « ذلك فَىْءٌ » فأبدلنى الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالى .

وفى الرواية التى ذكرها ابن كثير (قال العباس فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبداً كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجوه من مغفرة الله عز وجل)[1]، وهكذا تحقق قول الله عز وجل

﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنفال)

(١) الطبرى وابن كثير .

وبعد أن نزلت هذه الآية الكريمة، وكانت موافقة لما اتخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرارات، وأبلغ صلى الله عليه وسلم الأسرى بالحكم النهائي من الله: لا تفكون إلا بالفداء أو بضرب الرقاب. وهنا قال سيدنا عبدالله بن مسعود: يا رسول الله إلا سَهْل بَن بيضاء فإننى عرفته يذكر الإسلام ويصنع كذا وكذا، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىَّ حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سَهْل بن بيضاء، وقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنفال)

أى مادام فى قلوبكم الخير وقد آمنتم أو ستدخلون فى الإسلام؛ فالله يعلم ما فى قلوبكم وسيغفر لكم لأنه غفور رحيم. وعندما استقر الأمر قال بعض من الأسرى: يا رسول الله: إن عندنا مالاً فى مكة، فاسمح لنا نذهب إلى هناك ونحضر لك الفداء، وخشى صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه خدعة واحتيال، فماذا يفعل؟ أيطلق سراحهم ويصدقهم فيحضروا الفدية؟ أم هذه حيلة وقد أضمروا الخيانة والغدر؟.

فنزل قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١ ﴾

ويوضح الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: لا توافقهم على ما يريدون، فهم إن أضمروا لك الخيانة فقد خانوا الله من قبل فمكنك منهم فلا تأمن لهم، وسبحانه يعلم ما فى صدورهم.

وبعد أن تكلم سبحانه عن قصة بدر وأسرى بدر، والمواقف التى وقفها

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته فى هذه القصة، أراد سبحانه وتعالى أن يصنف الأمة الإسلامية المعاصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عناصرها، ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاح بالدعوة الإسلامية فى مكة، ومكة هى مركز سيادة العرب، وكانت قبيلة قريش هى سيدة جميع قبائل العرب وسيدة الجزيرة كلها، لأن قريشاً سيدة مكة، ومكة فيها بيت الله الحرام، وكانت كل قبيلة من قبائل العرب يكون بعض من أبنائها فى بطن سيادة قريش خلال الحج، ومادامت كل قبيلة تذهب إلى مكة فهى تطلب حماية قريش، ولم توجد قبيلة تعادى قريشاً أو تجرؤ على مهاجمتها؛ لأنها تعلم أنه سيجىء يوم تكون فيه تحت حماية قريش وتحت رحمتها حين الحج إلى بيت الله الحرام.

إذن فسيادة قريش نشأت من وجود البيت. ولو أن هذا البيت لم يكن موجوداً لكان مركز قريش كمركز أى قبيلة من العرب، ولو أن البيت قد هدم من أبرهة، لكانت سيادة قريش قد انتهت. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الفيل:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

ثم تأتى بعدها مباشرة السورة الكريمة التى توضح لنا أن الله سبحانه وتعالى حين حفظ بيته وفتك بجيوش المعتدين فجعلهم كعصف مأكول، قد أكد هذه السيادة لقريش فيقول تبارك وتعالى فى السورة التى سميت باسمها:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

(سورة قريش)

إذن فالذى أعطى السيادة لقريش هو بيت الله الحرام. ولذلك تذهب قوافلهم بالتجارة لليمن والشام ولا يجرؤ أحد من القبائل أن يتعرض لها. ولو لم يكن بيت الله الحرام فى مكة وقريش سادة مكة ؛ لما كان لهم هذا الوضع المتميز والمكانة العالية ، إذن فعز قريش فى بيت الله الحرام ، وأمنهم وسيادتهم فى أنهم جالسون فى راحة وتتنقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن. ثم تعود محملة بالخير والربح وهم آمنون مطمئنون. وحين أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته كان ذلك الإعلان فى مكة ، وقد أعلنها صلى الله عليه وسلم فى وجه الجبابرة وأقوياء الجزيرة العربية كلها. ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بدأ دعوته فى قبيلة ضعيفة خارج مكة لقالوا : استضعفهم وغرر بهم، أو لقالوا يريدون به السيادة ، أى أنهم كقبيلة مستضعفة لم يأخذوا رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا ، ولكنهم أخذوها سلماً ليسودوا بها الجزيرة العربية. ولكن شاء الحق تبارك وتعالى أن يكون ميلاد الرسالة فى مكة وأول من سمعها هم سادة قريش ؛ لتأتى فى مركز السيادة ويكون المراد بها هو الحق ، وإعلاءه فى وجه سادة الجزيرة العربية.

ثم كانت المعركة بين سادة قريش والإسلام وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه وحاولوا إيقاف الدعوة بكل الطرق وشتى الحيل. لكن هل انتصروا ؟ ثم هل امتد الإسلام وانتشر من مكة ؟. لا ، بل كانت الهجرة إلى المدينة ، ومن هناك امتد الإسلام.

إذن فقد بدأ الإسلام من مكان السيادة فى الجزيرة العربية ، ولكنه انتشر من مكان لا سيادة فيه ، لماذا ؟ لأن الإسلام لو انتشر من مكة لقالوا : قوم ألفوا السيادة على الناس ، وتعصبوا لواحد منهم ؛ ليمدوا سيادتهم من الجزيرة العربية إلى أماكن أخرى فى العالم. ولكن النصر جاء من المدينة لتعلم الدنيا كلها : أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، وهو الذى حقق النصر لمحمد ،

ولم يخلق العصبية لرسول الله أنه من قريش ، أو أنه من قبيلة اعتادت سيادة الجزيرة العربية.

ويصنف الحق سبحانه وتعالى لنا المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهؤلاء منهم المهاجرون. ومنهم الأنصار ، ومنهم جماعة مؤمنة لم يهاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم هاجروا بعد ذلك. ومنهم جماعة آمنوا ولم يهاجروا من مكة وبقوا فيها حتى الفتح.

إذن : هناك أربع طوائف : الذين هاجروا مع الرسول إلى المدينة ، والأنصار الذين استقبلوهم وآووهم. وطائفة لم يهاجروا مع رسول الله ولكنهم هاجروا بعد ذلك ، وطائفة بقيت فى مكة حتى الفتح.

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢ ﴾

الفئة الأولى فى هذه الآية هم المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

والفئة الثانية هم الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار فيقول عز وجل :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وبعض من العلماء فسر قول الحق : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ على أنها تشمل الالتحام الكامل ، لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضا أولاً - حسب قول العلماء- إلى أن نزلت آيات الإرث فألغت ذلك التوارث الذى كان بينهم.

وقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

أبعدت هذا المعنى ، وبعض العلماء قال : إن الولاية هى النصر ، وهى المودة ، وهى التمجيد ، وهى الإكبار ، فقالوا : هذه صفات الولاية ، وهناك آية أخرى عن الأنصار يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وقد عرفنا الكثير عن الإيثار من الأنصار الذى قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان ، ذلك أن الرجل الذى يعيش فى نعمة وله صديق

أو حبيب يحب أن يتحفه بمشاركته فى نعمته، فإذا كان عنده سيارة مثلاً يعطيها له ليستخدمها، وإذا كان له بيت جميل قد يدعوه للإقامة فيه بعض الوقت، وإذا كان عنده ثوب جميل أو فاكهة نادرة قد يعطيه منها، إلا المرأة فهى النعمة التى يأنف الرجل أن يشاركه فيها أحد.

ولكن عندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم فى مكة، كان الأنصارى يجىء للمهاجر ويقول له: انظر إلى نسائى والتى تعجبك منهن أطلقها لتتزوجها. هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل، وحين يصنعها الإيمان، فهذا الإيمان يجدع أنف الغيرة ويمنعها أن تتحرك، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة ومن هو محروم من المرأة.

وقد حدد الحق لنا ميزة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم: فالطائفة الأولى المهاجرون الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم وجمالهم وزروعهم، ثم بعد ذلك عملوا لينفقوا على أنفسهم بمال يكتسبونه وينفقون منه أيضاً على الجهاد؛ مع أنهم تركوا أموالهم وكل ما يملكون فى مكة، فكأنهم ضحوا بالمال وضحوا بالنفس. ودخلوا وهم قلة بلغت ما بلغت فلن تزيد عن ثلاثمائة ودخلوا فى معركة مع الكثرة المشركة، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلبون الشهادة.

إذن فهم آمنوا، هذه واحدة، وهاجروا، وهذه الثانية، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشجعوا غيرهم على أن يؤمنوا، ولذلك فلهم أجر من سن سنة حسنة، ولهم أجر من عمل بها، وهؤلاء هم السابقون الأولون ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله عز وجل.

والطائفة الثانية الأنصار وهم الذين آووا هذه واحدة، ونصروا هذه الثانية،

وأحبوا من هاجر إليهم، هذه الثالثة. وهؤلاء جمعهم الله فى الولاية أى النصرة والمودة والتعظيم والإكبار. ثم يأتى القول من الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وهؤلاء هم الطائفة الثالثة الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه. ولكنهم لم يهاجروا ولم يتركوا أوطانهم ولا أولادهم ولا أزواجهم ولا أموالهم، إذن فيهم خصلة تمدح وخصلة ثانية ليست فى صالحهم؛ فموقفهم بين بين، ولكن لأنهم لم يهاجروا لذلك يأتى الحكم من الله:

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

إذن فهذه الطائفة آمنت ولم تهاجر، ولكن عدم هجرتهم لا يجعل لهم عليكم ولاية، إلا أن قوله تبارك وتعالى:

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وفى هذا تشجيع لهم حتى يهاجروا، كأن تقول لابنك: ليس لك عندى مكافأة حتى تذاكر. وفى هذا تشجيع له على المذاكرة. ولم يقطع الله سبحانه وتعالى أمامهم الطريق إلى الهجرة لأنهم ربما فهموا أن الهجرة لم تكن إلا فى الأفواج الأولى لأنه قال: « والذين آمنوا وهاجروا » أى أن الباب مفتوح.

وكلمة «هاجروا» مأخوذة من الفعل الرباعى « هاجر »، والاسم « هجرة» والفعل «هاجر». وهجر غير هاجر. فقد يترك الإنسان مكاناً يقيم فيه فيكون هذا

معناه «هجر» أى ترك وهو عن قلة وضيق تدفع إلى الهرب، إنما هاجر لابد أن يكون هناك تفاعل بين اثنين ألجأه إلى أن يهاجر، إذن فهناك عمليتان، اضطهاد الكفار للمسلمين؛ لأنهم لو لم يضطهدوهم وعاشوا فى أمان يعلنون إيمانهم وإسلامهم، ما حدثت الهجرة. ولكن الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون كان تفاعلاً أدى إلى هجرتهم، والمتنبى يقول:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون همو

أى أنك إذا تركت قوماً دون أن يكرهوك على ذلك تكون أنت الذى رحلت عنهم، ولكن المهاجرة التى قام بها المسلمون كانت بسبب أن الكفار ألجأوهم إلى ذلك، إذن هجر تكون من جهة واحدة، واسم الهجرة مأخوذ من هاجر، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: إن الدار التى اضطهدتم فيها كان يصح أن تهجروها. ويوضح الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى لابد أن يكون هناك التضامن الإيمانى دون الولاية الكاملة للمؤمنين الذين لم يهاجروا. فالإيمان له حقه فى قوله تعالى:

﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ولكن النصر هنا مشروط بشرط آخر هو:

﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾

«من الآية ٧٢ من سورة الأنفال»

فاحفظوا هذا الميثاق لأن نقض العهود الميثاقية ليس من تعاليم الدين الإسلامى. ولكن مادام بينكم وبينهم ميثاق فيجب أن تتم التسوية عن طريق التفاهم. فعليكم احترام ما اتفقتم وتعاهدتم عليه. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى يعلم ويرى كل ما تصنعون وقد جمعهم الله سبحانه وتعالى كمؤمنين فى آية واحدة وكلهم فى مراتب الإيمان وهم قسم واحد.

ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن القسم الثانى المقابل فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

فالكفار - كما نعلم - وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض.

فإن لم يتجمع المؤمنون ليترابطوا ويكونوا على قلب رجل واحد، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام. وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط نجد قول الحق تحذيراً لهم من هذا :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فسبحانه يريد لنا أن نعلم أننا إن لم نعش كمسلمين متحدين ننحاز لبعضنا البعض فى جماعة متضامنة، وتآلف وإيمان، إن لم نفعل ذلك فسوف تكون هناك فتنة شديدة وفساد كبير. لماذا ؟. لأن المؤمنين إن لم يتجمعوا ذابوا مع الكافرين، وستوجد ذبذبة واختلال فى التوازن الإيمانى جيلاً بعد جيل. ولو حدث مثل هذا الذوبان، سيتربى الأولاد والأطفال فى مجتمع يختلط فيه الكفر بالإيمان، فيأخذوا من هذا، ويأخذوا من ذاك، فلا يتعرفون على قيم دينهم الأصيلة، وقد يضعف المسلمون أمام إغراء الدنيا فيتبعون الكافرين. ولكن إن عاش المسلمو ن متضامنين متعاونين تكون هناك وقاية من أمراض الكفر، وكذلك لا يجترىء عليهم خصومهم.

أما إذا لم يتجمعوا ولم يتحدوا فقد يتجرأ عليهم الخصوم ويصبحون قلة هنا، وقلة هناك وتضيع هيبتهم، ولكن إذا اتحدوا كانوا أقوياء، ليس فقط بإيمانهم، ولكن بقدرتهم الإيمانية التى تجذب غير المسلمين لهذا الدين. وينشأ الفساد الكبير حين لا يتضامن المسلمون مع بعضهم البعض فيجترىء عليهم غير المسلمين ويصبحون أذلةً وهم أغلبيةٌ، ولا يهابهم أحد مع كثرة عددهم، ولا يكونون أسوة سلوكية. بل يكونون أسوة سيئة للإسلام. ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فهل هذا توجيه من الله جل جلاله لهم، أو إخبار بواقع حالهم ؟

لقد طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، ولكن هل قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ هو طلب للكافرين، كما هو طلب من الله للمؤمنين ؟ نقول: لا؛ لأن الذين كفروا لا يقرأون كلام

الله عز وجل، وإذا قرأوه لا يعملون به.

إذن فهذا إخبار بواقع كونى للكافرين. فعندما يطلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، فهذا تشريع يطلب الله أن يحرص عليه المؤمنون، أما إذا قال إن الكفار بعضهم أولياء بعض. فهذا إخبار بواقع كونى لهم.

إن الإسلام جاء على أهل أصنام من قريش، ويهود فى المدينة هم أهل كتاب، وكذلك كان الأوس والخزرج كفاراً مثل قريش؛ ولكن الإسلام جمعهم وجعل بعضهم أولياء بعض، وكان بين الأوس والخزرج وبين اليهود قبل الإسلام عداء، وإن لم يصل إلى الحرب؛ لأنهم كانوا يحتاجون لمال اليهود وعلمهم وأشياء أخرى، وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج بمجىء النبى محمد المذكور عندهم فى التوراة ويقولون لهم: أطل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم.

إذن كان اليهود يتوعدون الكفار، لما بينهم من عداء عقدى ودينى، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر اليهود برسالته والتحموا مع كفار قريش وقالوا:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة النساء)

أى أن كفار قريش أهدى من الذين آمنوا بمحمد، فالولاء بين الكافرين واليهود جاء لهم بعد أن كانوا أعداء، لكنهم اتحدوا بعد ذلك ضد المؤمنين، فإذا كان هذا قد حدث بين الكفار واليهود؛ فيجب على المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض؛ لأنهم اجتمعوا على شىء يعاديه الجميع. وهذا ينفى مسألة الإرث التى قال بها بعض العلماء من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض أى يرث بعضهم

بعضا ؛ لأنه لو كان هذا صحيحاً فكأن الله يشرع للكافرين - أيضا - أن يرث بعضهم بعضاً ؛ لأنه استخدم كلمة أولياء بالنسبة لهم أيضاً. والحق سبحانه وتعالى لم يشرع للكافرين .

وبعد أن بينا أقسام المؤمنين الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفنا أنهم أربعة ، ذكرنا ثلاثة منهم هم المهاجرون والأنصار والذين آمنوا ولم يهاجروا ، وبقى من هذه الأقسام الذين آمنوا وهاجروا بعد ذلك ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى إياكم أن تقولوا بأنهم لم يهاجروا معكم. وتنكروا أنهم منكم. بل هم منكم وأولياؤكم فهم قد اتبعوكم بإحسان.

وما الذى جعل الحق سبحانه وتعالى يذكر هذا مرة أخرى ؟. لقد تكلم سبحانه وتعالى عن الذين آمنوا وجاهدوا فى سبيل الله والذين نصروا ، ولننتبه إلى أن هذا ليس تكراراً لأنه سبحانه وتعالى يذكر لنا هنا أنهم جاهدوا بالمال والنفس. وقد جاءت هذه الآية لتثبيت الحكم الشرعى. وانظر إلى عجز كل آية لتعرف. ففى عجز هذه الآية :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

والحكم الشرعى بالنسبة لهم هو أن يكونوا أولياء بعض، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة حيث يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى أعطانا الحكم الشرعى فى ولاية بعضهم لبعض. وأوضح أن هؤلاء لابد أن يكونوا أولياء، وهذا هو الحكم المطلوب منهم، ولكنه سبحانه فى هذه الآية الكريمة:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها، وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿ هم المؤمنون حقا ﴾ وهذا حصر يسمونه قصراً، أى أن غيرهم لا يكون مؤمنا حقا، مثلما تقول: فلان هو الرجل، يعنى أن غيره لا تعد رجولته كاملة من كل نواحيها. وهذه مبالغة إيمانية.

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله الكريم:

﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

وهنا يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الجزاء. والجزاء إما أن يكون فى الدنيا،

ولذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقا، وإما أن يكون الجزاء فى الآخرة. وجزاء الآخرة يمحو السيئات ويرفع الدرجات فقوله: ﴿ لهم مغفرة ﴾ أى تمحى سيئاتهم. وقوله تعالى: ﴿ ورزق كريم ﴾ أى تضاعف لهم الحسنات فى الجنة. فكأن الآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الولاية. وهو حكم مطلوب منهم. والآية الثانية تكلمت عن الجزاء وبينت جزاءهم فى الدنيا والآخرة. والجزاء فى الدنيا أنهم هم المؤمنون حقا، أمَّا الجزاء فى الآخرة فهو محو الذنوب حتى لا يعاقبوا. ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب؛ وهو رزق كريم.

والمغفرة لهم على قليل الذنوب؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كبوة فى شىء من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع فى المعاصى، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يغفر لمن ذكرهم فى هذه الآية النزوات الصغيرة، ولهم رزق كريم أيضاً. والرزق هو ما انتفع به الإنسان، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط؛ من مال وأرض وعقار وطعام ولباس، ولكنَّ الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة؛ منها ما هو مادى وما هو معنوى.

فالاستقامة رزق، والفضيلة رزق، والعلم رزق، والتقوى رزق، وكلما امتد نفع الرزق يوصف بأنه حسن وجميل. وهنا وصف الحق الرزق بأنه كريم. والكرم هو مجموع الأشياء التى فيها محاسن. وإذا جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً، فالهواء رزق لا عمل لك فيه؛ يمر عليك فتتنفس، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء، والطعام رزق لك فيه عمل قليل، فأنت بذرت ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر.

إذن فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق فى قمة الكرم، وهناك رزق لك فيه عمل ضئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل. وأنت حين تعطى إنساناً

أجره ليس هذا مناً أو كرما منك لأنه مقابل عمل، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل. ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتهيه تجده أمامك.

إذن فهو رزق في قمة الكرم، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه ولا مكانه لأنك قد تبذل جهداً كبيراً في زراعة أرضك ثم تأتي آفة وتصيب الزرع فلا يعطيك رزقاً. وقد تذهب إلى مكان وأنت خالي الذهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير.

إذن فالرزق يعرف مكانك ويأتي إليك ولكنك لا تعرف أين هو. وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده، وكل رزق مقسوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك، وأنت قد تأكل طعاماً تلتذ به ثم يهيج معدتك فتفرغ معدتك منه، ويأتي طائر ليلتقط بعضه؛ هذا رزق الطائر تعافه أنت . وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات في دمك ثم تذهب تتبرع بهذا الدم إلى غيرك.

إذن فهذا الطعام الذي أكلته وتحول إلى دم في جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم. ولذلك إذا قرأت القرآن تجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

والرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط في الدنيا بأسباب العمل، فالرزق في الآخرة يأتيك بلا عمل.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُوا الۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ اللَّهِۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

إذن فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضاً مغفرة ورزق كريم.

هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها ، فالذين آمنوا هم جميعاً قد انتموا انتماء أوليا إلى الله ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً فى أشياء ومختاراً فى أشياء يفعلها أو لا يفعلها ، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له ؛ ففعل ما قال له : « افعل » ، ولم يفعل ما قال له : « لا تفعل » ، فكأنه اختار مرادات الله فى التشريع.

إن معنى الإيمان أن يستقر فى قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، وأننا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أعد لنا إعداداً جيداً ، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان ، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار فى أشياء ، وجعلنا من رحمته مقهورين فى أشياء.

مثلا دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله عز وجل لا دخل لاختيارك فيها ، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك ، ولكن الأفعال التى تصدر منك بعد فكر ، تلك هى الأفعال التى جعل الله لك فيها اختياراً. ولو أرادك الخالق أن تكون مقهورا لفعل ، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل ؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار ؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ؛ ليعرف مَنْ من عباده أحب الله فأطاعه فى التكليف ، ومَنْ من الخلق قد عصاه.

إذن فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان ، وللإنسان انتماءات أخرى ؛ ينتمى لوطنه ولأهله ولأولاده ولماله ، ولكن الانتماء الأول يجب أن يكون لله تعالى ، بحيث يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأهلهم إذا كان الإيمان يقتضى ذلك. والإنسان المؤمن هو الذى يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل ، ويجعل كل ما يملكه فى خدمة ذلك ؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك ، ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك. إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله. فالذين هاجروا والذين آووا ونصروا ، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حبا فى الله وطاعة له.

فالأنصار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكاناتهم فى إيواء المهاجرين حبا لله ؛ فتنازلوا عن مساكن لهم وأموال لهم ، وتنازلوا عن زوجاتهم فى سبيل الله كل منهم مؤمن حقًا ، أما الفئة الثانية فهناك نقص فى إيمانهم ؛ ذلك أنهم لم يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى ليس مطلوباً أن توالوهم ، لكن إذا استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ، لماذا ؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل ومكان الإقامة. والفئة الثالثة هم الذين جاءوا بعد ذلك ، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا ولكن من آمن منهم وجاهد وترك اختياره وخضع لاختيار الله خضوعاً تاما يكون كالمؤمنين الأوائل ؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى. ثم يختتم الحق سبحانه سورة الأنفال بهذه الآية الكريمة :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)



سورة التوبة (٩)

مدنية

وتنتهى خواطرنا عن سورة الأنفال لتبدأ خواطرنا عن سورة أخرى هى سورة التوبة، ومن عادتنا عند انتهاء سورة وابتداء سورة، أن تبدأ السورة الجديدة بـ «بسم الله الرحمن الرحمن». ولكن سورة التوبة هى السورة الوحيدة التى بدأت بدون البسملة، ووقف العلماء ليحاولوا العلم بسر عدم البدء بالبسملة، وقد اختلفت آراؤهم، ولحظ كل عالم ملحظاً، فمن قائل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد بداية السور ولم يحدد بداية هذه السورة.

ونقول: لا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد مكان الآية فى كل سورة، وقيل إن باقى سور القرآن الكريم وعددها مائة وثلاث عشرة بدأت بالبسملة.

ولم تبدأ سورة التوبة بالبسملة حتى نعرف أن الأمر ليس رتابة انتهاء سورة وابتداء أخرى، بحيث تجىء « بسم الله الرحمن الرحيم » مع بداية كل سورة، ولكن أسماء السور توقيفية، أى أن سيدنا جبريل عليه السلام هو الذى يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما فى القرآن الكريم، ونعلم أن رسول الله كان يراجع القرآن كله مع جبريل فى كل رمضان، وراجعه فى عامه الأخير مرتين مع جبريل، وكل ما جاء بالقرآن الكريم توقيفى كما أبلغه الوحى للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن عظمة الشرع أن ينتقل بالمؤمن من شىء إلى شىء، ليجد فجوة يتوقف العقل عندها، وهنا يأتى دور الإيمان ليمنع العقل من التوقف عند أى فجوة؛ لأن المشرع وهو الله سبحانه وتعالى يريد ذلك، ولو جاءت الآيات على رتابة واحدة لما انتبه الإنسان إلى قيم الإيمان.

على سبيل المثال نحن فى الحج نُقبِّل حجرا ونرجم حجراً ، وجاء هـذا كأمر من الله سبحانه وتعالى بأن هذا حجر يُقدس وذاك حجر يُرجم ويداس ؛ لنعلم أنه لا شيء فى هذا الكون مقدس لـذاته ، ولكن التقديس لأمر الله وبتوجيه منـه سبحانه وتعالى ؛ إن قال : قَبِّلوا ، قبلنا ، وإن قال : ارجموا ، رجمناه .

وفى الجيش مثلاً عندما يأتى الضـابط ويقول للجنود : قف ، فيقف الجنود ، حتى الـذى وضع لقمة فى فمـه يتـوقف عن مضغها . والحكمـة من ذلك هى الانضبـاط ، والانضبـاط الإيمانى أكبر؛ لذلك إذا صـادف المؤمن أشيـاء فى منهج الله يقـف فيهـا العقل يقـول : هذه إرادة الله وسأنفذها لأن الحق تبارك وتعالى أمر بها .

والمثال لنا هـو سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنـه ؛ حينما أُخبر أن الرسول صلى الله عليـه وسلم قد أُسْرِى بـه إلى بيت المقدس ، وعُـرج به إلى السماء: لم يقس المسألـة بعقلـه ولكنه قـال : أَوَ قَال ذلـك ؟ قالـوا نعم ؛ قال : فأنـا أشهـد إن قال ذلك لقـد صـدق. قالـوا فتصـدقه فى أن يأتى الشـام فى ليلـة واحدة ثـم يرجع إلى مكـة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصـدقه بأبعد من ذلك أصدقه ، بخبر السماء ؛ قـال أبو سلمة : فبها سُمِّى أبو بكر الصدِّيق .

ومن العلماء من قال: إن سورة الأنفال كـانت عهوداً ، وسورة براءة هى نقض لهذه العهود ، ونقض العهـد يأتى بعد العهـد ذاته . فجـاءت سورة التـوبة مكملـة لسورة الأنفال ، ولـذلك نجد فى سورة الأنفـال أن الحق سبحانـه وتعالى قال مشرعـا لتوزيع أموال الغنائم : ﴿ **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ** ﴾ [**الأنفال** : ٤١]

وجـاءت سورة التـوبة لتفصل كيف يتم التوزيع لأموال الصـدقات فقال الله جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾
[**التوبة** : ٦٠]

إذن فكان من الطبعي أن تأتى سورة التوبة بعد سورة الأنفال ؛ لأن سورة التوبة تتمة لسورة الأنفال ، وسورة التوبة تتعرض للقطيعة ، وتبدأ بقول الله تبارك تعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

وهذه البداية لا تتناسب مع قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

لأن «بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وهذه براءة ، وقيل فى عدم تسميتها سورة براءة وتسميتها سورة التوبة لأن القطيعة هنا بين الله وبعض عباده الذين ضلوا واختاروا الكفر والنفاق ؛ ولأنه رب رحيم أراد أن يفتح لعباده الذين أبقوا باب الرجوع إليه بالتوبة ؛ فسميت السورة سورة «التوبة» وقد بدأت السورة بقوله تعالى «براءة» واسمها التوبة حتى تسبق التوبة البراءة . ولذلك نجد فيها آيات التوبة فى قول الله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧]

وفى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨]

وفى آية ثالثة : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ [التوبة : ١٥]

إذن فعلى الرغم من أن السورة بدأت بالبراءة إلا أنها جاءت بالتوبة رحمة منه ؛ وقبولها منه تعالى رحمة بالناس .

فالله يَشْرع التوبة ويفتح بابها فضلا منه ورحمة ، فلو لم يشرعها الله ما قبلت توبة أبداً ؛ ولو عن معصية واحدة . والذى ييأس من التوبة وغفران الذنوب يشتد فى المعاصى وينغمس فيها ويحدث نفسه بأنّه ما دامت معصية واحدة سوف تدخله النار، فلا فرق بين معصية وألف . ولابد ـ إذن ـ أن يرتكب كل يوم جريمة ؛ لأن ذنبا واحداً أخرجه من الرحمة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يفتح باب التوبة ليمنع شراسة الإجرام فى المجتمع ، فكل عاص يمكنه أن يعود بالتوبة إلى الإيمان ، ويعيش المجتمع فى أمان وسلام . وهكذا كان تشريع التوبة رحمة ، وقبولها من الله رحمة . ولذلك بعض

الناس يقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨]

ونتساءل كيف تـاب الله عليهم ليتوبوا ؟ نقول : تاب عليهـم أى شرع لهم التوبة ، فإن تابوا قبل الله توبتهم .

إذن فالمسألـة تشريع وقبول . ومادام الله سبحـانه وتعـالى يقبل التوبة فهـو توَّاب . إذن فقد قدم الحق هنـا للإنسان أسلوبين يصحح بهما مساره ، قـد شرع التوبة ، وأذن بقبـولها . ومن عظمته لم يقـل عن نفسه إنـه تـائب ولكنه تـواب . فإذا فعل الإنســان معصية وتـاب ، قبل الله توبتـه ، وإن غلبه الشيطـان أو غلبته نفســه وارتكب معصية أخرى وتاب قبل الله توبته أيضا لأنه تواب رحيم .

وأخذت سـورة التوبـة حيزا مع المشركين وحيـزاً مع اليهود والنصـارى ، وحيزا مع المنافقين ، وكما حددت المؤمنين فى آخر السورة ، حـددت أيضا مواقف كل من هؤلاء، وقد كـان بيان موقف هـؤلاء ضروريا ؛ لأن المنافق مثـلا متعارض الملكات ، والكـافر منسجم الملكات ، فـالمنافق ينطق لسانـه عكس ما فى قلبه ، والكـافر إنما ينطق بما فى قلبه ، ولكن المنافق والكافر يتفقان فى عداوة المؤمن . ولذلك فضَح الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأعـداء وأظهر ما فى أعماق الكـافرين والمنـافقين وخصومتهم للإسـلام ، وحاز المنافقون قسطاً وافراً من الســورة لأنهم ادعوا الإيمان واقتربوا من المسلمين ، وخصومة القريـب أشد على النفس ، فما بالنا بخصومة الإنسان مع نفسه ؟!

هكـذا كـان حـال المنـافقين الـذيـن عـاشـوا بين المسلمين وملكـاتهم متعـارضـة وخصـومتهم للمؤمنين أشـد ؛ لأنهم يتظاهـرون بالإيمان ، ويضمـرون الكفر . ولـذلك كانت معظـم آيات هذه الســورة تفضح حال المنـافقين وتظهر ما أضمـروه من بغض وعداوة لأنهم أشد خطراً على الدين من الكفار .

والله سبحانـه وتعالى يعطينا فى هـذه السورة صورة لتمـرد نوع من خلق الله من بنى الإنسان .

وهم هؤلاء الـذين يكذبون بالله ونعمتـه ويضمرون الكفر والحقد ويتظـاهرون بأنهم مع المسلمين علما بأنهم لم يتسـاووا مع الجمادات وسائر خلق الله من غير بنى الإنسـان حتى الحيـوان ، فإن هـؤلاء جميعـا يسبحـون الله الخالق ويسجدون لـه؛ سجـود إقـرار بالـربوبية ، أما المنـافقون فهم من بنى الإنسان الذين تمردوا على الله خـالقهم، ولذلك اقرأ إن شئـت فى تصنيف الأجناس فى الكـون : الجماد ، النبات ، الحيـوان ، الإنسان ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ** ﴾ [الحج : ١٨]

وهـذه هى الجمادات ، ثم يأتى الخبر بـالنسبـة للنبـات والحيـوان فيقـول الحق جلّ وعلا: ﴿ **وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ** ﴾ [الحج : ١٨]

ثم جاء الخبر فى الإنسان فقـال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحج : ١٨]

أى أن الأمر فى التسبيح والطاعة والسجود لله انقسم عند الإنسان لأن له أغياراً .

ونجد رحمة الربوبية فى أنه ، كما جعل للمؤمـن رزقه ، فقد جعل للكافر رزقه أيضا، وبيّن الله عز وجل أنـه يرزق الكـافر رغم أنـه أراد بالسورة القطع بينه سبحانـه وتعالى وبين الذين نقضـوا العهود ، فإنـه شاء أن يسمى السـورة «سورة التـوبة» ؛ ليفتح لهم باب التوبة فقد يتوبون ويرجعون إلى الإيمان .

وقبل أن نصنف ما جـاء فى سورة التوبـة لبيان الموقف من المشركين ، والموقف من أهل الكتاب ، والمـوقف من المنافقين ، يحسن بنـا أن نفصل الكلام فى مسألة التسمية ـ البسملة ـ لأنها شغلت بال العلماء كثيراً .

ونعلم أن «بسم الله الرحمن الـرحيم» وردت فى القرآن الكريم مـائة وأربع عشرة مرة ؛ منها مـائة وثلاث عشرة مرة فى بدايـة السور ، ومرة فى سياق آيـات سورة النمل ؛ فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠)** ﴾ [النمل]

وهى آيـة مجمع عليهـا، أنها آيـة من سـورة فى القـرآن الكـريم، ولكن مـاذا عن

البسملة فى أوائل سور القرآن الكريم ؟

اتفق العلماء على أنها آية من آيات القرآن الكريم ، ولكن كان الخلاف بينهم حول: هل هى آية من كل سورة ؟ واتفق الجمهور على أنها آية قد نزلت للفصل والابتداء ، ولا يصح أن نقول : إنها للفصل فقط ، بل نقول : هى للفصل والابتداء، وهناك من يقول : إنها فى الفاتحة للابتداء ، أما الفصل فلا يوجد قبل الفاتحة سورة أخرى فى المصحف ، وعلى ذلك فهى للفصل بين الفاتحة وسورة البقرة . ولمثل هذا القائل نرد قائلين : إن المدقق فى علوم القرآن الكريم يعلم أن ترتيب المصحف غير ترتيب النزول ، فالمصحف له ترتيب ، والقرآن نزل منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفاتحة ـ على سبيل المثال ـ نزلت بعد سورة المدثر ، فهى فاصلة بين المدثر والفاتحة .

وحين نتصفح المصحف الشريف نجد أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية من الفاتحة، ولكنها ليست آية من كل سورة . ففى ترقيم آيات الفاتحة نجد ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الآية الأولى . ونجد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾هى الآية الثانية ، بينما فى باقى السور ، تجد أن الآية الأولى تبدأ بعد قوله تعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك لأن جمهور العلماء عَدَّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية فى سورة الفاتحة .

وجزى الله خيراً صاحب المعجم المفهرس الذى وضع معجماً لآيات القرآن الكريم بحيث إذا أحببت أن تعرف موقع آية فى المصحف تستطيع أن تحصل على موقعها بين الكلمات فى هذا المعجم ، إلا أنه من عجيب الأمر واستيلاء النقص على البشر، شاء الحق تبارك وتعالى لهذا الرجل الطيب الباحث ، أن ينسى وضع ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فى الإحصاء ، وجاء بكلمة الله فى ٩٨٠ آية بالرفع ، ٩٢ آية بالنصب ، ١١٥٢ آية جاءت فيها كلمة الله بالجر ، وتنقص آيات الجر ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ .

وأنت حين تقرأ القرآن الكريم تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تقول من بعد ذلك : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لأن القرآن قد بدأ مقروءا باسم الله ، وكذلك يبدأ

متلوا باسم الله ، وها نحن أولاء مع رسول الله حينما كـان فى غار حراء يتعبد ، وجاء له الوحى فقال له : ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق]

واقـرأ تتطلب أحـد أمـرين ؛ الأمـر الأول هـو أن يكون المتلقى لها قـد حفظ شيئـا فيقرأه .

والأمر الثـانى أن يكون أمام رسـول الله صلى الله عليه وسلم كتاب فيقـرأه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن عنـده محفوظ ، ولم يكن أمامه مكتوب . فضـلاً عن أنه صلى الله عليه وسلـم كـان لا يعرف القـراءة والكتابة . ولهذا تسـاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء . وكان صلى الله عليـه وسلـم منطقيا مع نفسه فى هذا الرد . وقال الملك جبريل ثانيا: اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء .

أتعرفون لماذا كـان هذا التكرار ؟ كان ذلك فى فحواه ردا على شعوذة أثـارها خصوم الإسلام وأعداؤه بعـد مجىء رسالة الإسلام بـأربعة عشر قرنا ؛ حينما قـالوا : إن القرآن هو بعض من وسَـاوِس وأحاديث فى نفس محمـد . لكن ها نحن أولاءِ أمام الـرد . لقد جاء الملك جبريل ليقول لمحمد : «اقرأ» وها هو ذا رد محمد «ما أنا بقارىء» .

إننا إذن أمـام شخصيتين متميزتين ، شخصيـة آمرة جـازمة ، وشخصيـة متمنعة ، فلـو كـانت المسألة مسـألة حـديث نفس أو وسـوسـة ، لما كـان هناك سبب لـوجـود الشخصية الامـرة ، ووجود الشخصيـة الثانيـة الممتنعة ، وكل شخصيـة منسجمة مع صفاتها وقـدراتها ، فالشخصيـة التى تقول: «اقرأ» هى الآمـرة بالقـراءة . والشخصية التى تقول «ما أنـا بقارىء» هى شخصية تعرف الأسبـاب وقـدر الأسباب وتعـرف مواقعها من الأمية . إذن فهنا شخصيتان متميزتان لا شخصية واحدة .

وحين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أنـا بقارىء» فهو منطقى مع نفسه ومع الـواقع . وحين يقـول الملك جبريل مبلغـا عن ربـه : ﴿اقرأ﴾ فهـو يُقْرِئُه بـاسـم ربه، لا لأنه قارىء ولا لأنـه كاتب . كأنه يقول له : إنك يا محمـد ستقرأ باسم ربك لا باسـم تعليمك . ويتتـابع الوحى : ﴿اقـرأ باسـم ربك الـذى خلق . خلق الإنسان من علق﴾ فكما خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسـان بقـدرته من علـق ، هو قـادر على

أن يجعلك يا محمد تقرأ ، وإن لم تتعلم القراءة . وهذا ليس بالأمر العزيز أو الصعب على الخالق ، اقرأ باسم ربك ؛ لا باسم أنك قد تعلمت ، فربك هو الذى خلق الإنسان من علق ، وربك هو الأكرم ، الذى علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، فأنت لن تقرأ مما تعلمته من البشر ، ولكنك تقرأ مما تعلمته من خالق البشر .

ونحن فى موقف مع رب الأسباب : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق : ٣]

والإنسان منا حين يتعلم القراءة والكتابة فهو يتعلمها من إنسان مثله ، وهى دليل على كرم الله تعالى لأنه نقلها من إنسان إلى إنسان ، ولكن حين تتعلم من غير ذلك فهذا هو الموقف الأكرم . إذن فهناك «كريم» وهناك «أكرم» كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمحمد : أنت لا تقرأ باسم أنك تعلمت ولا باسم أنك حافظ ، وإنما تقرأ باسم ربك ، وإن لربك مطلق القدرة إذا أراد شيئا فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

إذن فقد قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن أولا باسم الله . ونحن نتلوه أيضا باسم الله . ولابد أن نأخذ «بسم الله» من زاويتين : الزاوية الأولى هى فيها نلحظه من لغة البشر ، فإذا ما تكلم إنسان فى أمر من الأمور ويريد إقناعك به وتأييدك له فأنت تقول له : باسم من تتكلم ؟ ..

فيقول لك : أنا أتكلم يا سيدى باسم السلطة . وقد تكون هذه السلطة هى النيابة أو الشرطة أو الضرائب . إذن جاء لك بالصفة التى يتكلم باسمها .

ونحن فى هذه الحياة المعاصرة نجد الحاكم مثلاً يفتتح خُطَبَه قائلا «باسم الشعب» ويكون ذلك هو مدخل الحاكم للحديث فى أى أمر .

والزاوية الثانية هى أنك حين تتكلم باسم الله فأنت تعرف أى قدرة مطلقة تقبل على العمل بها . فأنت تذهب إلى الأرض لتحرثها ، فتعطيك الزرع ، وأنت تعلم أنك لم تخلق الأرض ، ولا تعرف عدد العناصر التى فيها ، وأنت كذلك لم تخلق البذور التى تبذرها فى الأرض ، ولا أنت الذى ستنزل الماء من السماء لتروى الأرض . كل ما فى

الأمر أنك حرثت الأرض ، أى أنك أعملت فكرك المخلوق لله فى المادة المخلوقة لله بالطاقة المخلوقة لله سبحانه وتعالى .

إذن فأنت حين تقبل على الزراعة تعرف حدود قدرتك وتعرف مطلق قدرة الله سبحانه وتعالى فتقول: «باسم الله» وهذا يعنى ضِمْناً أنك تقول : أنا لا أقدر على أن أزرع باسمى لأنى لم أخلق الأرض ، ولا أنزل المطر ، ولا أنا خالق البذور ، ولا قدرة لى لأرغم الأرض على أن تنبت الزرع بأنواعه المختلفة .

وعلى الإنسان أن يسأل نفسه عندما يقبل على أى عمل من الأعمال : ما هى قدرتى التى ترغم العمل على أن ينفعل ؟ لا توجد للإنسان أى قدرة ولكن هى قدرة التسخير التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى كل الكائنات التى تنتفع بها أيها الإنسان . لذلك فمن حسن الأدب مع الله أن تدخل على كل عمل قائلا : أنا لا قدرة لى عليك إلا باسم الله الذى سخرك لى وأمرك ألاَّ تخرج عن طاعتى.

وعلى سبيل المثال : هل يمكننا أن نؤثر فى حركة الشمس ويكون فى استطاعتنا أن نقول لها : أشرقى ؟ . نحن لا نتحكم فى الشمس ولا فى القمر ولا فى الهواء ولا فى النجوم . إذن . فمن حسن الأدب مع الله تعالى أن تدخل على كل ذلك باسم الذى سخر هذه الكائنات لخدمتك . وانظر دائما إلى من سخر لك جميع الكائنات لتكون فى طاعتك .

عليك أن تعرف أنك بلا قدرة على شىء ، وأنك لن تقدر على أى شىء إلا بقدرة الله تعالى وأنت إن أقدمت على أى عمل ، وليس فى بالك الله المسخِّر له ، واحتفظت فى بالك فقط بالنتيجة التى يحققها لك هذا العمل ، فاعلم أن هذا هو أول فارق بين المؤمن والكافر. فالكافر هو الذى يدخل على أى عمل وهو ناظر فقط إلى فائدته المجردة سواء أكانت زراعة أم صناعة أم طعاما أم شرابا . أما المؤمن فهو يعلن دائما الولاء لله سبحانه وتعالى وأنه لا يقوم إلا بالعمل الذى أباحه الله له . إنه يضع الله دائما فى قلبه وفى باله وذلك يكسبه فائدتين ، الأولى : هى الوصول والحصول على نتيجة هذا العمل ، مثله فى ذلك مثل الكافر ، والفائدة الثانية هى الثواب الذى يناله

المؤمن فى الآخرة . إنـه يستفيد من عـطاءين لا مـن عطاء واحد . ولـذلك يقول الحق سبحانـه وتعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ (١) ﴾ [سبأ]

والمؤمن سـاعة يـرى نتيجة عملـه فى الدنيا لصـالح نفسـه فهو يقـول : الحمد لله. وساعة يرى عطاء الله له فى اليوم الآخـر من حسن الثواب فهو يقول أيضا : الحمد لله. الحمد لله أولا والحمد لله آخرا .

اذن فسـاعة تقـول : ﴿بـاسم الله﴾ وأنـت مقبل على أى عمل . فأنت تعترف أنك تدخل على العمل بلا حول منك ولا قـوة ولا طوْل ، وإنما بيقين أن الله سبحانه وتعالى هـو الـذى يسخر لك هـذا العمل . ولـو لم يسخـر الله لك مـا أمامك من كـائنـات لما انفعلت لك ، أو أعطت ثمرة .

وأنا لا آمل من ضرب هذا المثل من الأنعـام ، تلك الأنعام التى يستأنسها الإنسان بإرادة التسخير التى خلقها الله تعالى ، فهنـاك بعض من الحيوانات التى لا نستطيع أن نستأنسها : نحن نستأنس الجمل ، وقد تستـأنس الفيل ، ولكن لا يستطيع أحد منا أن يستأنس ثعبـانـا صغيرا أو ذئبـا لأن الحق تـرك هـذه الكـائنـات منطلقـة ولا يستطيع الإنسان أن يستأنسها ، حتى يعلم الإنسان أنه لا حول له ولا قوة ، وأنه لو لم يذلل الله له بعضـا من الحيوانـات ، لما استطاع أن يذلل أى شىء منهـا ، والدليل على هـذا هو وجود حيوانات لا نستطيع أن نذللها ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

إذن فلو لم يـذللها الله تبارك وتعالى لما استطعنـا نحن تذليلها ، وتـرك الله بعضا من الوحـوش غير مستأنسة ليخبرنـا أننا لا نملك مطلق طـاقة التـذليل والتسخير، ولكنه سبحانه وتعالى هو الذى يخلق طاقـة التسخير والتذليل فيما يشاء لمن يشاء . وهذا تنبيه واضح لـلإنسـان حتى لا يضل وحتى لا يـأخـذه الغـرور . فإذا أقبلت على أى عمل

باسم الله ، فكأنك دخلت على العمل باسم من سخر لك الكائنات لتنفعل معك .

وقد يقول قائل : ولكن الكائنات أيضا تنفعل للكافر الذى لا يقول: ﴿باسم الله﴾ . ونقول : إن الكافر لا يأخذ إلا نتيجة العمل فقط . أما المؤمن فهو يثاب على عملية استحضار الله فى باله مع الجزاء بنتيجة العمل ذاته .

وبعد ذلك يطلق الحق سبحانه وتعالى أشياء فى الكون ويفلتها من قانونها الذى وضعه لها ، فالسنن فى الكون موجودة ولكن الله يأمر هذه السنن أن تخرج على قوانينها. لماذا ؟ . ليعلمنا سبحانه الفرق بينه ـــ وهو الحق ـــ وبين الخلق . إن الحق يطلق القانون ويقيده ويفلته كما يشاء ، والخلق يصممون القانون لعمل ما، ولا يستطيع الشخص أن يتجاوز به حدود ما صنع له .

فسبحانه وتعالى قد وضع نواميس للكون ، ويخرق سبحانه هذه النواميس فى بعض الأحيان حتى يلفت نظر الناس إلى أنه القائم على هذا الكون . مثال ذلك أننا نجد المطر ينزل دائما فى مكان ما من الأرض ، وبعد ذلك يصيب هذا المكان الجفاف، وهذا خروج عن الناموس . هو بذلك يلفتنا إلى أن الكون لا يخضع للناموس ، ولكنه خاضع لإرادة خالق الناموس . والحق سبحانه وتعالى يخرق الناموس ليلفتنا إلى مطلق قدرته . إنه يلفتنا لنعرف أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لها مدلول فى الكون .

ومثال نراه فى حياتنا على خرق الناموس ، نحن نعلم أن التكاثر يحدث فى الإنسان من زواج رجل بامرأة ، ويريدان الإنجاب . لكن الحق سبحانه هو الذى يحدد عطاء النوع ذكرا أو أنثى أو لا يعطى حسب مشيئته : ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾** ﴾ [الشورى]

إن الرجل والمرأة موجودان ، ولكن الناموس لا يتصرف بمشيئته ، ولكنها إرادة خالق الناموس .

والحق سبحانه وتعالى يضرب أكثر من مثل على ذلك . ونعرف حكاية سيدنا زكريا

وكان يكفل مريم عليه وعليها السلام ، ويأتى لها بالطعام والشراب فدخل عليها مرة فوجد عنـدها لونا من الطعـام لم يكن قد أتى به ، فقال لها تلك المقـولة المشهورة التى تعلمنا كيف ندير أمور حياتنا بلا فساد أو سماح بفساد لأبنائنا وبناتنا ، قال لها :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إنـه يعلمنا الـرقابـة على من نكفلهم ، ففساد البيـوت ينشأ من عدم الـرقابـة على الأولاد ، فالأم إن رأت قلم حبر فاخراً ـ على سبيل المثـال ـ مع الابن ولم يحضره له أبوه ولم تسأله «من أين لك هـذا ؟ » فهذا تستر على فساد فى الابن وقـد يكبر فى الفساد من بعد ذلك . والأم إن رأت بعضا من الملابس التى لم تحضرها لابنتهـا ، والابنة ترتديها ؛ عليهـا أن تسأل وتـدقق بأسلـوب «أنَّى لكِ هـذا ؟» حتى لا تنحـرف الابنـة، ولـو أن الزوجـة تتنبه إلى اسلـوب تصرف زوجها وإنفـاقه الـذى قد يفـوق مرتبه كثيرا وتسـأله بحسم : «أنى لك هذا ؟» فهى تحمى زوجها وبيتها من المال الحرام .

إن مبدأ «أنى لك هـذا ؟» لو سيطر على المناخ العـام للمجتمع لامتنع الفساد من جذوره . وقد أطلق الحق هـذا التساؤل على لسان سيدنا زكريا عليـه السلام لمريم بعد أن كفلها : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

هنا قالت مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إذن واجه سيدنا زكريا خرقا سماويا للناموس.

وكان زكـريا عليـه السلام يـريد لنفســه أن يدخل ضمن دائرة: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حســاب﴾ فدعـا ربه أن يـرزقه غـلاما رغم أنـه قد بلغ مـن الكبر عتيا، وأن زوجه عاقر ، ما دام الحق يرزق من يشاء بغير حساب فليدع الله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣٨]

وجاءت البشارة من الله تعالى بيحيى ، وتحقق لزكـريا ما آمن به من أن الله سبحانه وتعالى يـرزق من يشاء بغير حساب . ولنا أن ننتبـه إلى أن هذه المسألة جـرت بين يدى

سيدتنـا مريـم ، ذلك أن مريم ستتعـرض لمحنة لم تتعرض لها امـرأة فى العالم ، فأراد الله عز وجل أن يؤنس بشريتها حتى لا تتزلـزل أفكارها ويعلمها أن تقول : ﴿إن الله يرزق من يشـاء بغير حسـاب﴾ وفى ذلك إينـاس لمريـم لما سيجـرى عليهـا من خـروج على النامـوس فتلد مـن غير ذكر . لقد عـرفت أن الحق يرزق مـن يشاء بغير قـانون ، ورأت أمامها تجربة زكريا عليه السلام عندما أعطاه الله الولد بعد أن جاء على لسان زكريا :

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٨]

ورأت مريم أن ذلك على الله هين :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : ٩]

وعندما يأتى لها الملك متمثلا فى هيئة البشر ليبشرها بغلام ، تقول :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٠]

يقول الملك : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم : ٢١]

وتلد مريم الولد ، وهكذا خرق الله بقدرته الناموس .

ونتذكـر أن الحق سبحانـه وتعالى حين كـرر الاصطفاء لمريم فى القـرآن الكريم كرره لحكمة : ﴿ يَا مَـــرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَـاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

فـالاصطفـاء الأول هــو اصطفـاء قيمى تــدخل بـه فى دائرة المُصْطَفَيْن الأخيـار، والاصطفاء الثـانى لمريـم عندما ولـدت دون أن يمسها بشر؛ لذلك كان اصطفـاؤها على نساء العالمين ، فكل امرأة تلد بوساطة رجل ، أمـا مريم فقد اصطفاها الله عز وجل لتلد دون رجل . ولهذا حـدد الله أشخاص هـذه القصـة؛ لأن امرأة أخـرى لن يحدث لها مثل ذلك ، ولكن بعض قصص القـرآن الكريم لا يـأتى فيها تحديـد لأشخاص مثـال ذلك قصة أهل الكهف .﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِـرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣]

لم يحدد الحق سبحانه وتعالى أسماءهم أو عددهم، وذلك لأن عدد أهل الكهف ليس له قيمة فى مغزى القصة ، وكذلك لم يحدد البلد الذى كانوا فيه أو العصر الذى عاشوا فيه . ولم يأت الحق عزوجل هنا بتخصيص وتحديد أسماء أهل الكهف ؛ لأنه لو فعل لقال قائل : هذه خصوصية لهذه الأسماء فلا تتكرر فى الدنيا، لكن عندما تركها الحق هنا دون تشخيص ولا تحديد للعدد ولا لزمان هؤلاء الفتية ،فهذا معناه أن هؤلاء الفتية أرادهم الله مثلا فى الكون ، يتأتى من أى فتية بأى أسماء فى أى زمان وفى أى مكان ، فالإبهام هنا فيه مزية لفائدة القصة . لكن حين يريد الله عزوجل تحديد أشخاص تجده على سبيل المثال يقول : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم]

لقد حدد الله تعالى زوجتين لاثنين من أنبيائه ، وكل منهما استقلت بعقيدتها وما استطاع نبى أن يهديها ، وأيضا امرأة فرعون آمنت رغم أن فرعون ادعى الألوهية ولكنه لم يستطع أن يقنع امرأته بالإيمان به . يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم]

إذن هى امرأة مؤمنة لها عقيدتها المستقلة ، لكن حينما ذكر الحق سبحانه وتعالى مريم جاء بالتحديد والتشخيص ، فلم يذكر اسمها فقط ،بل ذكر اسم أبيها أيضا فقال: مريم ابنة عمران. ويأتى القرآن الكريم لقصة ذى القرنين ، وعندما سألوا عن اسمه لم يذكر اسمه ، بل قال فى بيان أوصافه : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف]

لقد أراد الله سبحانه وتعالى هذا الإبهام ، وإن سألك أحد: من هو ذو القرنين؟ فلك أن تجيب أتريد أن تفسد على القرآن مراده ؟ إن المراد من القصة القرآنية هو ما جاء فى القرآن ، وأراد الحق أن يظل اسمه مبهما ، إنه رجل مُمكن له فى الأرض، آتاه الله تمكينا

وأحاط نفسه بالطيبين ، وأبعد عنه أهل السوء ووفقه لإعانة الضعفاء ، وهذا المثل لابد أن يظل مع الناس طوال الزمن ، ونقول : الحق سبحانه وتعالى حين يبدأ قرآنه بقوله :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فعليك أن تبدأ قراءة القرآن الكريم بها وأن تتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[1]

لأن كل عمل يبدأ بغير اسم الله هو عمل ناقص ، حتى لا يصادفك الغرور والطغيان وتتخيل أنك أنت الذى تسخر المسائل لتنفعل لك ، وهكذا تفتقد التصور الحق لقدراتك ، وأنت ساعة لاتذكر اسم الله تعالى فى بدء العمل فمعنى هذا أن الله ليس فى بالك ، ولا يكون لك على هذا العمل جزاء فى الآخرة ، وقد تأخذ عطاء العمل فى الدنيا ، ولكنه حجب عنك ومنعك عطاء الآخرة . أما الذى يريد عطاء الآخرة فعليه أن يقول دائما : «بسم الله الرحمن الرحيم» فى بدء كل عمل ذى بال يقوم به . وذلك يبقى كل عمل بعطائه فى الدنيا وحسن الجزاء عنه فى الآخرة.

يتزوج المرء باسم الله وينكح باسم الله ، وما دمت تدخل عليها باسم الله فأنت إذن تستطيع أن تميز الحلال عن الحرام ، ولن تبدأ أى عمل باسم الله إلا فيما أباحه الله عز وجل ، فالإنسان لا يمكن أن يسرق أو يقبل الرشوة باسم الله .

وحين تبدأ العمل الحلال باسم الله فأنت تعرف أن الحق معبود ، وله أوامر بـ «افعل» وله نواه بـ«لا تفعل» و إياك أن تستحى إن كنت عاصيا أن تستفتح أعمالك باسم الله، لأن الله لا يحقد على خلقه ولا يتغير على خلقه ولا ينفض يده من أمور خلقه، فإن كنت قد عصيت الله فى شىء فأقبل على عملك باسم الله لأنه رحمن ولأنه رحيم . فهو سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة على معصية من المعاصى ، فمعنى ذلك أنه أذن بأن تقع تلك المعصية . فإن كنت قد عصيت الله وتخجل من أن تبدأ عملك «بسم الله الرحمن الرحيم» فتذكر أن الحق تبارك وتعالى «رحمن» و«رحيم» ونعرف أن الاشتقاق

(١) السيوطى فى الجامع الصغير، وابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو أجذم» .

فى «رحمن» و«رحيم» من الرحم ،والرحم هو مكان الجنين فى بطن أمه ، وهو منتهى الحنان. ولذلك جاء فى الحديث القدسى عن صلة الرحم : وفيه يقول الله عز وجل :

(أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمى
فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1]

(حديث قدسى)

إذن فكلمة «الرحمن» وكلمة «الرحيم» مأخوذتان من الرحم، والحق حنَّان على عباده، وعطوف عليهم ، ولذلك فالعاصى لا يصح أن يستحى أن يهتف ﴿باسم الله﴾ وأن يقول فى بداية أى عمل يشرع فيه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ إنه بذلك يمنع عن نفسه الغرور بأنه قدر بذاته ، بل إنه قدر على الأمر بالتسخير منه سبحانه وتعالى ولا يحرم نفسه الثواب عليه فى الآخرة ، وحين يقول المؤمن: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهو يدخل فى حماية الله ، وإذا قيل «رحمن» فهى مبالغة ، وإذا قيل «رحيم» فهى مبالغة .

لكن إياكم أن تفهموا أن صفات الله عز وجل تتأرجح بين القوة والضعف ، فمرة يكون راحما ومرة يكون رحمانا ومرة يكون رحيما، لا ، لأن صيغ المبالغة إنما تأتى فى الأغيار ، ويقال : فلان عالم وفلان علاَّم أى أكثر علماً من العالم ، وفلان علاَّمة أى أكثر علما من العلاَّم ، فالصفات فى البشر تتغاير، لكن عند الحق سبحانه وتعالى لا تضعف صفة وتقوى أخرى . وإنما متعلقات الصفة هى التى تكثر أو تقل . فأنت تقول : فلان آكل ، وفلان أكَّال وفلان أَكُول . والأَكُول لا يأكُلُ رغيفاً واحدا على سبيل المثال مثل الآكل ، لكنه قد يأكل خمسة أرغفة فى المرة الواحدة ، والأكَّال قد يأكل خمس مرات بدلا من ثلاث ، فالمبالغة تأتى مرة فى الحدث وهو هنا الأكل ، ومرة تكون المبالغة فى الفعل.

أقول ذلك حتى نعرف أن الصفات فى البشر ـ وهم أحداث ـ تتغاير ، أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى فهو لا يتغير ولا تتغير صفاته ، بل تضعف متعلقات الصفات

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى .

أو تكثر، فهو رحمن لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا . لذلك فرحمته واسعة ، وهو رحيم فى الآخرة لأنه يرحم المؤمنين فى الآخرة . فالله لا يتغير من أجلنا ولكن نحن الذين نتغير ويجب أن نتغير من أجل الله تعالى . لو كان الحق سبحانه يتغير لخسف الأرض بالعبد الذى فيعصيه وهو ستار، يعصيه العاصى ويستره ، وهو حليم لا يتغير.

وحين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن الكريم بقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فلنعرف أن ذلك مطلوب منا فى قراءة القرآن الكريم وفى أى عمل آخر نقوم به ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى سخر لنا كل شىء ، ولولا تسخيره لما استطاع أحد منا أن يفعل شيئا ، ولأن الله يريد ألا يكون عمل الواحد بلا ثواب حتى إتيان الزوجة وأنت تنوى إعفاف نفسك و إعفافها أو تنوى الذرية الصالحة فلتبدأ ذلك باسم الله تعالى ، وبذلك يكون لك الثواب .

يقول صلى الله عليه وسلم ضمن حديث له : وفى بضع أحدكم صدقة . وقد قالوا له : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له فيها أجر»[1]

ولذلك كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله هو أبتر، ومعنى ذى بال أى عمل يقدم عليه الإنسان بفكر ، لكن الأعمال التى تمر على الخاطر فقد ينسى الإنسان أن يبدأها باسم الله فهى مغفورة له لأن الإنسان منا له ثلاث نسب فى كل موقف : نسبة ذهنية ؛ نسبة كلامية ، ونسبة خارجية . مثال ذلك إن عطش الإنسان فإن النسبة الذهنية التى تجىء إلى الذهن «إننى أريد كوب ماء» وهنا يقول الإنسان : «أعطنى كوب ماء» وهذه النسبة كلامية ، وعندما تأتى بكوب الماء إلى العطشان فهذه نسبة خارجية .

والنسبة الخارجية إنما تنشأ من النسبتين الأوليين ، وكل أمر يحدث منك بنسبة خارجية أو نسبة كلامية ولم يخطر على بالك بنسبة ذهنية فهو أمر غير ذى بال .

---

(١) رواه الإمام مسلم .

وهَبْ أن المصباح الكهربائى الذى ينير لك ليلا انكسر فجأة ، فقلت: «ياستار» ولم تقل ﴿باسم الله﴾ وابتعدت عن مكان الخطر، هذا العمل لم تكن له نسبة ذهنية ،؛لذلك فهو أمر غير ذى بال ، أما الأمر ذو البال فإنك تأخذ عليه عطاء الدنيا وتأخذ عليه الأجر والثواب فى الآخرة إذا قلت: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وبعضنا يلحظ أن الكافر يقبل على الأرض ويحرثها وتعطى له ويأخذ المحصول لكنه لا يأخذ الثواب مع المحصول ،ولذلك يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم»﴾.

و﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هى التى ابتدئت بها سورة فاتحة الكتاب وابتدئت بها كل سورة من سور القرآن الكريم إلا السورة التى نحن بصدد خواطرنا عنها وهى سورة التوبة .

ونجد فى التسمية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «ثلاثة أسماء لله : الله والرحمن والرحيم» و«الله »علم على الذات وهو واجب الوجود بكل صفات الكمال فيه . و«الرحمن» تبين مجالا لأفعال الله وصفاته . و«الرحيم» تبين مجال عطائه لنا فى الآخرة . وبما أننا لا نملك سيطرة على أى جنس من أجناس الكون إلا بأن يسخره الله تعالى لنا ليخدمنا ؛ إذن فمن الطبعى أن تقبل أيها الإنسان على التفاعل مع أى شىء فى الكون ، وأن تبتدىء ذلك باسم الذى سخر لك هذا الشىء ؛ لأنك لا تدخل على الأشياء بقدرتك ، فليس لك قدرة إلا فى حدود ما منحه الله لك ، ولا تدخل على أى شىء بعلمك ؛ لأنه لا علم لك إلا ما علمك الله . وعليك أن تتذكر هبه الله لك وأن تقول : «إننى أقبلت يارب على هذا الفعل لا بقوتى ولا باقتدارى ولكن باسمك أنت سبحانك أنت الذى سخرته لى» وحين يقبل الإنسان على أى عمل باسم الله ، فالله يعطيه خير ذلك العمل ويبارك له فيه

صحيح أن الأشياء تنفعل أيضا للكافر حين يُقبل عليها دون أن ينطق ويقول: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولكن الحق سبحانه وتعالى بحكم ربوبيته لكل الخلق .. مؤمنهم وكافرهم ، وهو الذى استدعى الخلق الى الكون ؛لذلك جعل الكون يعطى المؤمن والكافر، وقولك أيها المؤمن فى بدء أى عمل : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يعتبر حركة عبودية لك فتذكر نعمة الله لك فى التسخير، وهى إن لم تزدك عن الكافر شيئا فى

انفعـال الأشياء لك ، فهـى قد ضمنت لك ثـواب تـذكـرك لنعمة الله تعـالى ولا ينقطع عطاؤها فى اليوم الذى يبقى فيه العطاء وهو يوم الحساب .

وإذا نظرنـا إلى اسم الله فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وجدنـا أن «الله» هو اسم علم على واجب الوجود وله صفـات كثيرة ، هذه الصفات أصبحت فى مجال الأسماء الحسنى لله : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠]

ولنـوضح ذلك : أنت فى حيـاتك اليوميـة قـد تلتقى بإنسـان حليم ذى أناة ووقـار، فتصفه بأنه حليم ، وتقابل إنسانا له ثـراء فتقول : فلان غنى ، وتلتقى بإنسان له حكمة فتقول : فلان حكيم ، وأنت تلحظ أنه لابد من وجـود موصوف لتصفه ، أما حين نطلق الحكمـة والغنى والحلم فهى لاتنصرف على إطـلاقهـا إلا لله. فإن قلت: «الحكيم» على إطلاقـه و«الرحيم» على إطـلاقه و«الغنى» على إطـلاقه فهى كلهـا تنصرف إلى الحق عز وجل . وكـذلك الـرحمة على إطـلاقهـا تنصرف إلى الله تعـالى : فـالـرحمة فى كل راحـم فى الأرض هى بعض هبـات الـرحمة الهابطـة من الله تعـالى إلى الخلق . وتتسـامى الـرحمة فى الرحماء فى الدنيا إلى أن تتصل بالرحيم الأعلى سبحانه وتعالى .

إذن فهو سبحانه وتعالى ينبـوع الرحمة . وإذا أطلقت كلمة «الرحيم» انصرفت لله تعالى ، أما إذا كنت تصف بها إنسـانا فهى محدودة ونسبية . هذا بـالنسبة لأسماء الله التى هى صفاته ، أمـا اسم «الله» فهو لا يعطى صفة وإنما يعطى ذاتا موصـوفة بصفات الكمال . ومادام علما على واجب الـوجود ، فـلا يطلق على غيره . ومن قدرة الله تعـالى أن أحدا لا يجرؤ أن يسمى نفسه أو أحـد أبنائه باسم «الله» إنما ظل هـذا الاسم الكريم من قبل ومن بعد الإسلام علماً على واجب الوجود وهو الحق الأعلى .

إننا نجـد الناس تطلق على ذريتهم أسماء، منهم من يسمى ابنـه «محمدا» ولا يسمى ابنه التـالى بنفس الاسم ، فكلمة «محمد» أصبحت مشخصة لـلابن الأول ، لكن بعضا من أهل الـريف من يحب التفـاؤل بـاسم «محمـد» لأنه اسم رسـول الله صلى الله عليـه وسلـم ؛ فيسمى ابنـه الأكبر «محمد الكبير» ويسمى ابنـه التـالى «محمد الصغير» ويتمايـز الأبناء أصحاب الاسم الواحد بأوصاف أخرى مثل: «محمد الطيب» و«محمد الطاهر» .

إذن فإطلاق الأسماء على المسميات أمر شائع فى دنيا الناس وليس بعجيب . لكن الله حين اختار لنفسه اسما هو علم عليه وحده وهو «الله» وهو الدال على صفات الكمال فيه سبحانه وتعالى . لم يجرؤ أحد الكافرين أن يسمى تابعا له بهذا الاسم . ورغم أن الكفار معارضون ومعاندون لكلمة الإيمان ، إلا أن أحدا منهم لم يجرؤ أن يقول : «مادام الله قد سمى نفسه بهذا الاسم فأنا سأسمى هذا الشيء «الله» . ولهذا قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

ويهيج الحق جل وعلا فى الكافرين غريزة التحدى ، حتى لا يقال :لم تُهَجْ ولم يطرأ هذا الأمر على بالنا ، وجعلها الحق واضحة أمامهم وعلى بالهم وقال سبحانه:

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

فلو كان الكافرون مؤمنين بكفرهم لجاء واحد منهم وقال :

ـ سأسمى ابنى «الله» .

لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يدخل نفسه فى التجربة ، مما يدل على أن أى كافر بالله أو مشرك به إنما يعبد وهما ، لا يقينا ، ذلك أنه لو كان مؤمنا بما يعبد من غير الله لأطلق هذا الاسم على أى مخلوق ولعاش فى حماية من عبده ، ولكن أحدا من الكافرين لم يجرؤ على ذلك قبل نزول القرآن أو بعده ؛ لأن الناس لم يتجهوا إلى هذا اللون من الفكر، فها هو ذا القرآن الكريم قد نزل وواجههم بالتحدى :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

إن هذا يدل على أن الذين يعبدون شيئا غير الله لا يثقون فى ذلك الشيء أبدا ولو كانوا واثقين فيه بحاله لقالوا : نحن نقولها ونسمى الأشخاص أو الأشياء بها ونحن مطمئنون إلى أن هذا الذى نعبده يحمينا ، ولكن أحدا منهم لم يفعل ذلك .

ومن بعد ذلك يأتى فى «بسم الله الرحمن الرحيم» اسمان من أسماء الله تعالى هما «الرحمن» و«الرحيم» وأنت حين تبدأ عملا «بسم الله» فأنت تؤمن يقينا أنك تبدأ باسم

من يعينك على فعلك ، فإن كنت تريد عملا يحتاج إلى قوة . فأنت تقول : «باسم القوى» حتى يمدك الحق بأسرار صفة القوى ، وإن كنت تريد علماً ؛ فأنت تقول: «باسم العليم» ومن يريد الحكمة عليه أن يقول: «باسم الحكيم» . ومن يريد أن يعينه الله على قهر عدوله ، عليه أن يقول «باسم القهار» . وأنت حر فى أن تبدأ عملك بأى اسم من أسماء الله لتقبل على حركتك فى هذه الدنيا لتنفعل لك ، ولكن الأفعال لاتقتصر على مسيل صفة واحدة، بل تحتاج إلى صفات كثيرة فى كل فعل ، فأى فعل مهما بدا تافهاً فى حدود تصورك أنت ، يحتاج إلى صفات متعددة ؛ يحتاج إلى القدرة وإلى الحكمة وإلى الأناة والحلم وإلى غيرها من الصفات .

وحتى لا يثقل الله عليك لتكرر الصفات التى تعينك فى مجالات العمل المختلفة ، فقد علمنا المولى سبحانه وتعالى الاسم الذى يجمع كل المجالات ، إنه «الله» فإذا قلت: «باسم الله» فكأنك قلت «باسم القوى» و«باسم العليم» و«باسم الحكيم» و«باسم الرحيم» و«باسم المهيمن» و«باسم القادر» و«باسم القاهر» ، كأنك ابتدأت وسمّيت بكل أسماء الله الحسنى ؛ لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نبتدىء كل عمل لنا ذى بال بقولنا : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فيجب أن نستثمر هذا الأمر ونزيده بأن نستدرك ما فات من نعمة البدء بالتسمية وباسم الله على كل عمل لم نبدأه بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وهذا اسمه : «بسم الله »قضاءً ، فأنت بذلك تقضى ما عليك مما فاتك من بدء أعمالك السابقة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وتضيف أيضا : وبسم الله عن كل عامل نسى أن يقول عند بدء عمله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فتكون قد أديت عن نفسك فى الحال وأديت عن نفسك فى الماضى ، وحملت عن أخيك الساهى عن التسمية ، وهنا يعطيك الله شحنه البركة فى كل ما تأتيه مضاعفاً بنيتك فيه .

ولذلك نحن نسمع بعض الأئمة حين ينوى الصلاة يسرّ بالتسمية وبعد ذلك يقرأ الفاتحة جهراً ابتداءً بقول الحق:

﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

والعالم من هؤلاء يبدأ الصلاة بالتسمية سرا ، لأن الصلاة عمل ذو بال وكل شيء ذى بال يجب أن يبدأه المؤمن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وذكر فى الحديث القدسى :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: قسّمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله عز وجل : حمدنى عبدى، فإذا قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : أثنى على عبدى ، فإذا قال: ﴿ مالك يوم الدين﴾ قال الله ـ عز وجل ـ مجدنى عبدى ، فإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، وإذا قال : ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل)[1]

ونلحظ أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هى آية من آيات الفاتحة :

فكأن الحق سبحانه وتعالى حين بدأ القرآن بالفاتحة ، وبدأ الفاتحة .

بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

بدأ بها لنتعلم أن نبدأ بها أى عمل ، وكل عمل هو إلى غاية ونتيجة .

وعلى ذلك فحين بدأ الحق تبارك وتعالى حديثه القدسى بحمد العبد لله ، فهذا يدل على أن فاتحة الكتاب شيء ، والتسمية الاستهلالية شيء آخر . إذن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من القرآن ولكنها ليست من نص السورة، لأن الحق سبحانه وتعالى عندما فصّل الحديث القدسى ، لم يأت بها ،ولذلك قال العلماء : إن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ليست من نص كل سورة فى القرآن الكريم ولذلك يسمى الإمام بها فى بعض الأحيان سراً .

ولنا أن نتذكر أن الحقّ سبحانه وتعالى اختص خلقه برحمته وأراد أن يرفع الحياء عن

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

العاصى لله ، فللعاصى لله حين يقبل على العمـل أن يستعين بسم الله ، ولا يقولن واحد لنفسه خجلاً .. «أأستعين بمن عصيته وأغضبته» . لا يقـولن إنسان لنفسه هذا ، فالحق سبحـانـه وتعـالى رحمن ورحيم ، لذلـك لا يصح أن تمنعك معصيتك لله أن تستهل كل عمل باسمـه سبحانه وتعالى ، فقـد جاء سبحانـه بالحيثية لنا جميعـا ، إنه رحمن ورحيم، ولولا رحمانيته ورحمته لما بقيت لنا الدنيا .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

إذن فنحن نعيش على رغم معاصينا فى مجالات جـلالات الرحمن وجلالات الرحيم ، وعلينا أن ندقق النظر فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

والحق أيضا يقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

والآيتان تتشابهان فى الصدر، وتختلفان فى العجـز؛ لأن الآية الأولى جاءت فى سياق وتجليات الرحمة، وأمـا الآية الثانية فقـد جاءت فى سياق جبروت العاصى الـذى يأخذ نعمة الله ويستغلها فى معصيته .

فقد جاء قبلها قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾

[إبراهيم : ٢٨]

وهذا القول مناسب لظلم الإنسان لنفسـه وكفره بنعم الله تعالى ، ولو أراد الإنسان أن يحصى نعم الله عـز وجـل فلن يحصيهـا لأن الله غفـور رحيم ، والنعمـة ـ كما نعـرف ـ تقتضى ثـلاثة عناصر، عنصر هـو المنعِم ، وعنصر هـو المُنعم عليه ، وعنصر هـو النّعمة ،

ونعلم أنَّ «إنْ» حـرف شرط وتستعمل لـلأمـر المشكـوك فيـه ، وهى غير «إذا» التى تستعمل للشىء المحقق، وحين يقـول الله سبحـانـه وتعالى : «وإن تعـدوا نعمـة الله لا تحصوها» . فهذا شك فى أن يقبل أحـد على عدّ نعم الله ؛لأن الذى يمكن أن يقبل على إحصاء عددى لأمـر ما ، هو من يظن أن هناك إمكـانة للإحصاء . ولـو حاول إنسان أن يحصى نعم الله تعالى لما استطـاع ؛ لذلك جـاء الحق هنا بـ «إنْ» فـالإنسان قـد يظن أنه قادر على إحصاء نعم الله لكن أحداً لن يستطيع ذلك .

ومن ناحية المنعِم ، هناك استدامة من المنعِم على المنعَم عليه ، ودليل ذلك أنه غفور ورحيم ولا يتخلى عن العاصين فيمنع عنهم النعم، فهـو الذى استدعاهم جميعـا إلى هذا الوجـود . فسبحانه منعم على الإنسان والإنسان ظلوم كفار، ولكنه سبحانه غفور رحيم.

والآن إلى خواطـرنا فى سورة التوبـة التى رأينا أن نستلهمها ممـا تقدم من التحليق فى آفاق «بسم الله الرحمن الرحيم» .

وسبحانه وتعـالى قد صنف فى سورة التوبة المشركين وأهل الكتـاب والمنافقين ، وقد قلنـــا إن المنـــافق تتعانـد ملـكاته فهو يعلن إيمانـاً ويبطن كفـراً ، ولذلك قـال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة]

وعندمـا تتعاند ملكـات الإنسان يكون محتقـراً بين الناس وبينه وبين نفسـه. ولقد اتفق جمهور الفقهاء على أن من أسماء التوبة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين .

وقـد روى سعيد بن جبير قـال : سألت ابن عباس رضى الله عنـه عن سورة بـراءة فقال : تلك الفاضحة ، ومازال ينزل : ومنهم ومنهـم حتى خفنا ألا تدع أحداً.

وهؤلاء المنافقون منهم من قال فى غزوة تبوك :

﴿ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ [التوبة : ٤٩]

ولقـد قال القـائل هذا القـول طالبـاً الإذن بعدم الحرب متعلـلاً أن عيونـه تلتفت للنساء ؛ ونسـاء الروم جميـلات وهو يخشى على نفسـه الفتنة ، فيرد الحق تبـارك وتعالى على ذلك بقوله : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩]

وكذلك منهم من كان يعيب على النبى صلى الله عليه وسلم فى توزيع الصدقات ، ويقـول :إنه يحابى البعض ولا يعطى الآخـرين ، فجـاء قولـه سبحانـه وتعالى فى هـذا الشأن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة : ٥٨]

ومنهم من ادعى على النبى صلى الله عليه وسلم أنه يعطى أذنه لأى إنسان ويحكم بما يسمع من طـرف واحـد ، ونسى أنـه صلى الله عليـه وسلـم هـو أذن خير، فاستمع بحق وكان لسان صدق فبلغ بحق ، لذلك جاء قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة : ٦١]

ومنهم ثعلبة الـذى بخل بما أفاء الله تعالى عليـه من خير وفضل وقد عـاهد الله من قبل على البـذل والعطاء ممـا يرزقه الله ويمنحـه من فضل، فنـزل فيه قـول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) ﴾ [التوبة]

ومنهم من كان ينفق مرغماً فى سبيل الله :

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ [التوبة : ٩٨]

ومنهم من كـان منافقـا فنـزل فيه قـول الحق تبارك وتعـالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة : ١٠١]

وهكذا كشف الحق سبحانه وتعالى لرسوله وللمؤمنين كل أصناف الأعداء ، لذلك أطلق على هذه السورة بأنها «الفاضحة» لأنها فضحت كل العيوب ، ولم تفعل ذلك ليشمت الناس بعضهم فى بعض أو ليتشفى الخلق فيما أصاب غيرهم من كشف وفضح ، ولكنها جاءت كذلك ليسلم الصف الإيمانى من لبنات الضعف فى تكوينه، وتعزل الضعف الإيمانى من صفوف المسلمين ، ولا يبقى إلا الإيمان الحق . وقد سمى بعض العلماء هذه السورة «المقشقشة» لأنها تقشقش من النفاق أى تبرىء منه، وهذه السورة تزيح النفاق من أرض الإيمان. ومنهم من يسميها «المبعثرة»، والبعثرة لا تكون إلا فى شىء مُكَوَّم ،وعندما تأتِى لِلْكُومة وتبعثرها يظهر الشىء المخبأ فى وسطها فهى تبعثر أسرار المنافقين. وسميت «الحافرة» لأن الإنسان حين يحفر الأرض يُخْرِج المخبأ فيها . وسميت كذلك بـ «المثيرة» لأنها تظهر ما خفى عن العيون، . وسميت «المدمدمة» و«المهلكة» لأنها أوضحت العقاب لكل مجرم ، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٤]

وسميت «سورة العذاب» . لأنها تكشف ما فى الصدور وأعطت لكل عدو للإسلام جزاءه . وكشفت الستارَ عن أعماقِ كل منافق .وعن حذيفة : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هى سورة العذاب.

للسورة إذن أسماء متعددة ، ولكل اسم ملحظ، والحظ الوافر فى الأسماء للمنافقين ؛ الفاضحة ، والمقشقشة ، والمبعثرة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمدمدمة ، والمهلكة ، وكل ذلك فى كشف المنافقين . وتبدأ السورة بكلمة «براءة» واسمها سورة التوبة ، بينما البراءة قطع ، فكيف يستقيم الأمر ؟

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق الخلق وجعل الإنسان خليفة ، وهو رب الكل، ولذلك فلله عز وجل عطاءان ؛ عطاء ربوبية ، بمعنى خلق كل شىء، وملكية كل شىء، والتكفل برزق كل الخلق ، وفى هذا يستوى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، ومن يأخذ بالأسباب وإن كان كافراً أخذ من خير الربوبية ، وإن لم يأخذ المؤمن بالأسباب يظل متخلفاً ، هذا هو عطاء الربوبية ، أما عطاء الألوهية فهو فى

التكليف «افعل» و«لا تفعل» والتكاليف تختص بالعبادة .

إذن فالله رب الجميع لأنه هو الذى استدعاهم للوجود وضمن لهم مقومات الحياة .

والسورة تقول :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ ﴾

والبراءة ــ كما قلنا ــ هى انقطاع العصمة ، والعصمة استمساك ، والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

وهو أيضا يقول : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣]

إذن فالبراءة يلزم منها أنه كان هناك عهد واستمساك به ، وجاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذى عهده رسول الله معهم ، وكانوا معتصمين بالمعاهدة ، ثم جاء الأمر الإلهى بقطع هذه المعاهدة . وكلمة «براءة» تجدها فى «الدَّيْن» ويقال: «برىءَ فلانٌ من الدَّيْن». أى أن الدَّيْنَ كان لازماً فى رقبته ، وحين سَدَّده وأدَّاه يقال : «برىء من الدَّين» . ويُقال : «برىء فلان من المرض» إذا شُفِى منه أى أن المرَض كان يستمسك به ثم انقطع الاستمساك بينه وبين المرض .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد قريشاً وعاهد اليهود ، ولم يُوَفِّ هؤلاء بالعهود ، وكان لزاماً أن ينقض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العهود . وإذا سأل سائل : لماذا لم ينقض هذه العهود من البداية ، ولماذا تأخر نقضه لها إلى السنة التاسعة من الهجرة . رغم أن مكة قد فتحت فى العام الثامن من الهجرة ؟

لقد حرر الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة من الأصنام والوثنية ، وبعد أن استقرت دولة الإسلام بدأ تحرير «المكين» وهو الإنسان الذى يحيا بجانب البيت

الحرام، وكـان لابـد مـن تصفيـة تجعل المؤمنين فى جـانب ، والكفـار وأهل الكتـاب والمنـافقين فى جانب آخر، وقد حـدث هذا فى العـام التاسع من الهجـرة حتى لا يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والمكان محرر والمسجـد محرر والناس محررون ، ولذلك أوضح سبحانه وتعالى بهذه الآية لأصحـاب العهود التى كانت بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم : أنتم لستم أهـلاً للأمان ولا للـوفاء بـالعهود ؛ لذلك نحن قـد قطعنا هذه العهود . وهذه القطيعة ليست من إرادة بشريـة من محمد وأصحابه ولكنها قطيعة بأمر الله تعـالى ، فقد يجوز أن يعرف البشر شيئاً ويَغيب عنهم أشيـاء . لكن العالم الأعلى قال : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

ولم يقل براءة من الله وبراءة من الرسـول ، ذلك لأنها براءة واحدة ، والبراءة صادرة من الله المشرع الأعلى، ومبلغة من الرسول الخاتـم ، والبراءة موجهة إلى المشركين الذين عاهدهـم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونعلـم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له حلف مع قبيلـة خزاعة ، وكانت هناك قبيلة مضادة لها اسمهـا قبيلة بكر متحالفـة مع قريش . وقد أعانت قـريش قبيلة بكر على قبيلة خـزاعة ، فـذهـب إلى المدينة شـاعر من خـزاعة هـو عمرو بن سـالم الخزاعى وقال القصيدة المشهورة ومنها هذه الأبيات :

يــارب إنّى ناشـــدٌ مُحَمّـــدا •• حلف أبينا وأبيه الأتلَدا

كُنـــت لنا أبـــاً وكـــنّاً ولـــدا •• ثُمّتَ أسلمنا ولم ننزع يـدا

فانصر هداك الله نَصْراً عتدا •• وادع عبـــاد الله يأتوا مددَا

إن قريشـاً أخلفُوك الموعـدا •• ونَقَضُـــوا ميثاقَك المؤكَّدا

هم بيتـــونا بالوتير هُجَّدا •• وقتلـــونا ركَّعـــاً وسُـــجَّدا

فلما سمع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ذلك قـال : نصرت يا عمـرو بن سـالم ، لانصرت إن لم أنصرك .

إذن فالمشـركون هم الـذين نقضـوا العهد أولاً ، وصاروا لا يـؤمن لهم جانب لأنهم

لا يحترمون عهداً أو معاهدة ، ونزل قول الحق سبحانه وتعالى :﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

الخطاب هنا للمسلمين ، والبراءة من المشركين . ونزل بعد ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾

والخطاب هنا للمشركين . وتساءل البعض : كيف يتأتى أن يكون خطاب الحق فى الآية الأولى للمسلمين بالبراءة من المشركين ، ثم يأتى خطاب من الله للمشركين ؟ . وقال بعض العلماء إنه مادامت البراءة قد صدرت من الله ، فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين قولوا للمشركين : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ولكننا نرد على هذا بأن المعاهدة تكون بين اثنين ، ولذلك لابد أن يكون هناك خطاب للذين قطعوا، وخطاب للمقطوعين ، ويتمثل خطاب الذين قطعوا فى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

وخطابه للمقطوعين يتمثل فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ومن سماحة هذا الدين الذى أنزله الحق تبارك وتعالى ؛ أن المولى سبحانه يعطى مهلة لمن قطعت المعاهدة معهم ، فأعطاهم مهلة أربعة أشهر حتى لا يقال إن الإسلام أخذهم على غرة ، بل أعطاهم أربعة أشهر ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر فسوف يستمر العهد إلى ميعاده .

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

وكلمة « فسيحوا » تعطى ضمانا إيمانيا ، فـ«ساح» معناها سار ببطء ، وهناك «ساح الشيء» و«سال الشيء» عندما تقول : «سال الماء» أى تدفق وسال، وأنت تشاهده سائلا . وإن قلت: «ساح السمن» أي سار ببطء لا يدرك حتى صار سائلا . ولماذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿فسيحوا فى الأرض﴾؟ .

والإجابة : أن سماحة الإسلام تمنع أن نأخذكم على غرة ، وعلى الذين قطع الإسلام معهم العهد أن يسيروا وهم مطمئنون وفى أمن وأمان ولا يتعرض لهم أحد . ووقف العلماء عند تحديد أربعة الأشهر، ونظر بعضهم إلى تاريخ النزول ، وقد نزلت هذه الآية فى شوال ؛ إذن فتكون الأشهر الأربعة هى : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

وقال علماء آخرون : إن ساعة النزول لا علاقة لها بالأشهر الأربعة، وإن الأشهر الأربعة تبدأ من ساعة الإبلاغ أى فى الحج ؛ لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : ٣]

وعلى ذلك فتكون من يوم العاشر من ذى الحجة إلى يوم العاشر من ربيع الآخر . وقال بعض العلماء : إن نزول هذه الآية كان فى عام النسىء الذى كان الكفار يؤخرون ويقدمون فى الأشهر الحرم ، والذى قال فيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٣٧]

وأضاف صلى الله عليه وسلم فى حديثه الذى رواه أبو بكرة حيث قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى حجته فقال : «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »[1]

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه البخارى .

أى أنه صلى الله عليه وسلم حسب من بداية الكون إلى هذا الوقت فرجع بالأمر إلى نصابه وألغى النسيء ؛ هذا النسيء الذى كانوا يقررونه أيام الشرك لتقديم أو لتأخير الأشهر الحرم ؛ لأنهم كانوا إذا أتت الأشهر الحرم ويريدون الحرب يؤجلون الشهر الحرام حتى يمكنهم الاستمرار فى الحرب . ولذلك كان الحج فى هذه السنة فى شهر ذى القعدة . ومادام الحج فى شهر ذى القعدة ، تنتهى الشهور الأربعة فى العاشر من ربيع الأول . وقيل إن اختيار أربعة الأشهر جاء ليوافق ما شرعه الله فى قوله سبحانه تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦]

فيكون عدد الأشهر مناسبا لعدد الأشهر الحرم . ولكن هذه المرة فيها ثلاثة أشهر حرم فقط هى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع هو رجب فكيف يقال أربعة ؟

ونقول : إن الأشهر الأربعة الحرم التى فيها رجب هى الأشهر الحرم الدائمة ، أمّا الأشهر الأربعة التى ذكرت فى هذه الآية فهى أربعة أشهر للعهد تنتهى بانتهائها ، ولكن أربعة الأشهر الحرم الأصلية تبقى محرمة دائماً ، ولقد شرع الله عز وجل الأشهر الحرم ليحرم دماء الناس من الناس ؛ ذلك أنّ الحروب بين العرب كانت تستمر سنوات طويلة دون نصر حاسم . فجعل الله الأشهر الحرم حتى يجنح الناس إلى السلم ، ويتحكم فيها العقل وتنتهى الحروب .

وهنا يبلغنا الحق تبارك وتعالى أنه قد أعطى المشركين أربعة أشهر يسيرون فيها آمنين ، لماذا ؟ لأن الذى يكون ضعيفا مع خصمه ينتهز أى فرصة يقدر عليه فيها ليستغلها ويقضى عليه ، ولا يمهله أربعة أشهر حتى ولا أربعة أيام . ولكن القوى لا يبالى بمد الأجل لخصمه لأنه يستطيع أن يأتى به فى أية لحظة . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٢]

ويقال فلان أعجز فلاناً ، أى جعله ضعيفا عاجزاً . ولذلك فإن كلّ شىء مُعجز شرف للمُعْجَز ، والمثال : عندما جاء القرآن الكريم معجزاً للعرب وكان ذلك شرفا

لهم لأنهم كانوا أمة بلاغةٍ وفصاحةٍ . والله لا يتحدى الضعيف وإنما يتحدى القوى ، فلغة القرآن أعجزت الفصيح والبليغ . وحين يعطى الحق سبحانه وتعالى هذه المهلة للمشركين إنما كانت ببنود معينة ، وكان أمير الحج فى هذا العام سيدُنا أبو بكر وكان هو الذى سيبلغ البراءة . وهى أنه لا يدخل المسجد الحرام مشرك ولا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولن يدخل الجنة إلا من آمن ، هذه هى البنود .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفطنته النبوية كان يعرف أن العرب لا يقبلون نقض العهود والمواثيق إلا من أهلها : فأرسل صلى الله عليه وسلم سيدنا عليا بن أبى طالب ليعلن نقض العهود ؛ لأنه علم أن الكفار كانوا سيقولون : لا نقبل نقض العهد من أبى بكر ، بل لابد أن يكون من واحد من آل الناقض .

وحينما قال المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٢]

أعطى هذه المهلة الطويلة ، لأنهم مهما فعلوا فى هذه المهلة ، فالله غالب على أمره . فلن يفوت أو يغيب شىء عنه سبحانه وتعالى ، ومهما حاولوا أن يجدوا حلفاء لهم فلن يستطيعوا شيئا مع الله ، صحيح أنهم ضعاف فى هذه الفترة ، وصحيح أنَّ الضعيف قد تكون قدرته على القوى مميتة لأنه يعرف أن فرصته واحدة ، وإن لم يقدر على خصمه فسوف ينتهى ، لكن الله غالب على أمره . وأراد الشاعر العربى أن يعبر عن ذلك فقال :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة   قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ينتهز الفرصة ليقضى على خصمه . أما القوى فيعرف أنه قادر على خصمه فى أى وقت ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢]

الإخزاء هو الإذلال بفضيحة وعار ولا يكون ذلك إلا لمن كان متكبراً متعالياً . أى أن الله قادر على أن يخزى الكفار بفضيحة وعار مهما بلغت قوتهم وكبرهم .

ويقول الحق عز وجل بعد ذلك :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾

وبعض الناس يقول مادام الله تعالى قد قال :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

فلماذا يعيد سبحانه وتعالى :

﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣]

ونقول : إن البراءة جاءت إعلاماً بالمبدأ ، والأذان جاء لإبلاغ البراءة ، و«أذان» معناها إعلام يبلغ للناس كلهم ، تماماً كأذان الصلاة ؛ فهو إعلام للناس بدخول وقت الصلاة . والأذان مأخوذ من الأذن . لأن الإنسان حين يعلم الناس بشيء لابد أن يخطب فيهم فيسمعون كلامه بآذانهم ، ولذلك تجد الأذن هي الوسيلة الأولى للإدراك ، فقبل أن ترى تسمع ، وقبل أن تتكلم لابد أن تسمع ، فإن لم تسمع من يتكلم لا تقدر أنت على الكلام . ولذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ [البقرة : ١٨]

أي لا يسمعون ، وماداموا لا يسمعون لا يتكلمون . وقد يأتي بعض الناس ويقول: إنَّ وسيلة الإعلام قد تعتمد على العين ويقرأ منها الإنسان . ولكن من يقول ذلك

ينسى أن الإنسان لا يستطيع أن يقرأ إلا إذا سمع ألفاظ الحروف ، وحين يقال له : هذه ألف وهذه باء وهذه تاء فهو يتعلم . إذن كل بلاغ إنما يبدأ بالأذن ، والأذن هى أول آلة إدراكية تؤدى مهمتها فور ولادة الإنسان ؛ لأنك إن أشرت بأصبعك إلى عينى طفل مضى على ولادته أيام لا يتأثر . ذلك أن العين لا تبدأ فى أداء مهمتها قبل بضعة أيام ، ولكن إذا صرخت بجوار الطفل يسمع وينزعج .

والله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن وسائل الإدراك يأتى بالسمع أولاً فيقول جل جلاله : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ [**النحل** : ٧٨]

لأن الأذن تبدأ عملها فوراً ـ كما قلنا ـ والعين لا تبدأ عملها إلا بعد أربعة أو خمسة أيام . والأذن تستقبل بها أصواتاً متعددة فى وقت واحد . ولكن مجال الرؤية محدود . وأنت حين لا تريد أن ترى شيئاً تبعد عينيك عنه . ولكن الأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أن تستطيع منعها . ولذلك يأتى السمع مفرداً ، والأبصار متعددة ؛ لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً . لكنك بالأذن تسمع نائماً أو متيقظاً ، وتأتيك الأصوات ويتوحد المدرك من السمع ؛ فهى آلة الاستدعاء والإيقاظ . ولذلك حين تكلم الله عن أهل الكهف يريد أن ينيمهم ثلثمائة سنة وازدادوا تسعا . رغم أن أقصى ما ينامه الإنسان هو يوم أو بعض يوم ، قال سبحانه وتعالى عنهم فى هذا الشأن :

﴿ **فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا** (١١) ﴾ [**الكهف**]

وكان الضرب على الآذان حتى لا يوقظهم صوت عال لإنسان أو حيوان . وهم عندما قاموا : ﴿ **قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ [**الكهف** : ١٩]

لأن الإنسان عادة لا ينام أكثر من هذه المدة ، وهذا يدل على أنهم حين استيقظوا كانوا على الهيئة التى ناموا عليها لم يتغير فيهم شىء ، مما يدل على أن الله أوقف تأثير الزمن عليهم ، ولولا أن الله قد ضرب على آذانهم لأيقظهم صوت الرعد أو الحيوانات المفترسة أو غيرها من الأصوات . وأثبت لنا العلم الحديث أن مَنْ يرقد فى الفراش بسبب المرض مدة طويلة يخاف الأطباء من إصابته بقروح الفراش ، فلا يخاف

الطبيب على المريض من المرض فقط ، بل يخاف أيضاً من آثار الرقود على الجسد .
والله يلفتنا إلى هذه الحقيقة فيقول :

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٨]

ولأن الأذن هى وسيلة السمع ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② ﴾ [الانشقاق]

وهذا القول يدل على أن السماء فور سماعها من الله أمره بأن تنشق ؛ تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، وإذا كان الذى بلغ الأذان من الله ورسوله إلى كل الناس يوم الحج هو على بن أبى طالب ؛ فكيف يقال ؟

﴿ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٣]

نقول : إن الله تعالى أعلم رسوله ، والرسول صلى الله عليه وسلم أعلم عليا ، وعلى هو الذى نادى وبلَّغ ، لكن هناك من يقول : إن الله طلب البلاغ إلى الناس . مع أن البراءة كانت للمشركين .

ونقول : إن الإعلام كان لكل الناس للمؤمن وغير المؤمن حتى يعرف جميع الناس موقفهم ؛ فيعرف المؤمن أن العهد قد قطع ، ويعرف غير المؤمن أن العهد قد قطع ، فلا يؤخذ أحد على غرة ، وليرتب كل إنسان موقفه فى ضوء البلاغ الصادر من الله عز وجل ؛ والله سبحانه وتعالى أراد اعتدال الميزان بأيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك فهو لا يخاطب المؤمنين وحدهم ، بل كان الخطاب للعالم كله ، وإن كان المؤمنون هم الذين سيجاهدون لتنسجم حركة الأرض مع منهج السماء . ومن هذا يستفيد المؤمن والكافر ؛ لأن الكل سينتفع بالعدل والأمانة والنزاهة التى يضعها المنهج على الأرض .

ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء

بالمنهج لإصلاح الكون كلـه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥]

أى أن الحكم بين النـاس جميعـاً هـو المطلـوب من رسـول الله صلى الله عليـه وسلم حسب منهج السماء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا القول فيه تعميم فى المكان وتعميم فى المكين ، فيوم الحج يجتمع الناس كلهم فى مكان واحد .

وقـد يتساءل البعض : لماذا سمى الحج الأكبر ؟ نقـول : لأنه الحج الـوحيد الـذى اجتمع فيه الكفار والمؤمنون . وبعد ذلك لم يعد هناك حج للكفار أو المشركين .

وبعض المفسرين يقـولون : إن كلمـة الحج الأكبر جـاءت لتميز بين الحج الأصغـر وهى العمرة وبين الحج الذى يكون فيه الوقـوف بعرفات ، ونقول : إن العمرة لا يطلق عليها الحج الأصغر .

وقيل إنَّ يوم الحج الأكبر هو يـوم عرفة . ولكن بعض العلماء قالوا : إنـه يوم النحر؛ لأن فيه منـاسك كثيرة : رمى الجمـرات والتقصير وطواف الإفاضـة ؛ لذلك سمـى يوم النحر بـالحج الأكبر لكثرة مناسكـه ، وقيل : إنها أيام الحج كلها وأنها قـد سميت بيوم الحج على طريقة العـرب فى أداء الحدث الواحد بظرفـه الملائم ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : يوم حنين ؟ . وحنين استغرقت أيامـاً فكأن اليوم يراد به الظرف الجامع لحدث كبير ، فكأن أيام الحج كلها يطلق عليها «يوم الحج».

أو أن الإعلان قـاله سيدنا على بن أبى طـالب رضى الله عنه يوم عرفـة ، وبلغ هذا الإعلام كل من سمعـه إلى غيره، والآية الكريمـة تقول : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا إذن من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن رسوله إلى على كرم الله وجهه، ومن على للمؤمنين ، ومن المؤمنين ؛ من سمع لمن لم يسمع ، أن الله برىء من المشركين ،وكان هذا إعلانا بالقطيعة ، ولكن الله برحمته لا يغلق الباب أمام عباده أبداً، ولذلك يقول : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [التوبة : ٣]

أى فتح لهم باب التوبة فإن تابوا عفا الله عنهم ، وإن لم يتوبوا فالقول الفصل هو : ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣]

إذن فالحق سبحانه وتعالى قادر عليهم وقادر أن يأتى بهم مهما كانوا ، وعلى النبى والمبلغين عنه أن يبشروا الكفار بالعذاب الأليم ، والبشارة إعلام بخبر سار ، والإنذار إخبار بسوء . فهل العذاب بشارة أم إنذار ؟. نقول : إن هذا هو جمال أسلوب القرآن الكريم ، يبشر الكفار فيتوقعون خبراً سارا : ثم يعطيهم الخبر السيىء بالعذاب الذى ينتظرهم ؛ تماماً كما تأتى إلى إنسان يعانى من العطش الشديد ، ثم تأتى بكوب ماء مثلج وعندما تصل به إليه ويكاد يلمس فمه تفرغه على الأرض، فيكون هذا زيادة فى التعذيب وزيادة فى الحسرة ، فالنفس تنبسط أولاً ثم يأتى القبض.

وفى هذا يقول الشاعر :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ

فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعتْ وتَجلَّتِ

وهكذا تكون اللذعة لذعتين ، ابتداء مطمع ، وإنتهاء ميئس بينما فى الإنذار لذعة واحدة فقط . وانظر إلى قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ [الكهف : ٢٩]

حين تسمع «يغاثوا» تتوقع الفرج فيأتى الجواب :

﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف : ٢٩]

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣]

والعذاب من الله يوصف مرة بأنه عظيم ومرة أخرى يوصف بأنه مهين وثالثة يوصف بأنه أليم ، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المُعَذَّبين ، وسيأخذ كل مسيء وعاصٍ وكافر من العذاب ما يناسبه ، فهناك إنسان يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة ، وهناك إنسان يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم ، فكأن كل واحد من الناس سيأتيه العذاب الذي يتعبه ، فإن كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه ، وإن كان لا يتعبه إلا الإهانة جاءته ، وإن كان لا يتعبه إلا الألم جاءه .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾



هذا استثناء ، ولكنه استثناء مشروط بأن هؤلاء كانوا أمناء على العهد وموفين به ولم ينقصوا منه شيئا ، أي لم يصدوا لكم تجارة ولم يستولوا على أغنام ولم يسرقوا أسلحتكم ولم يغروا بكم أحداً ولم يظاهروا عليكم أحداً ؛ وهؤلاء هم بنو ضمرة وبنو كنانة ، فلم يحدث منهم شيء ضد المؤمنين فجاء الأمر بأن يستمر العهد معهم إلى مدته . ولقائل أن يقول : إن المستثنى يقتضي مستثنى منه ، ونقول : المستثنى منه هم المشركون في قوله الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة : ٤]

والإنقــاص معنـاه تقليل الكمّ إمَّـا فى الـذوات، وإمــا فى متعلقـات الـذوات، والإنقاص فى الذوات يكـون بالقتل، والإنقاص فى متعلقات الـذوات يكون بمصادرة التجارة أو الماشية، وسرقة السلاح.

إذن ففى الإنقاص هنـا مرحلتان ؛ مرحلـة فى الذوات أى بالقتل، ومرحلـة فى تابع الـذوات وهى الأشياء المملـوكة، ولـذلك قال : «لم ينقصـوكم شيئا» أى شىء كـان، سواء فى الذوات أو متعلقـات الذوات، وأيضا لم يغروا عليكم أحـداً ولم يشجعوا أحداً على أى عمل ضد الرسول.

﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة : ٤]

ويظاهـر أى يعادل، وكلهـا مأخوذة من مادة الظهـر ، وهو يتحمل أكثـر من اليد، فالإنسـان لايقدر أن يحمـل جوال قمح بيـده مثلا، ولكنـه يقدر أن يحملـه على ظهره. ولذلك يقـول المثل العامى : من له ظهـر لايضرب على بطنه . إذن فالظهر للمعـونة. والحق يقول:

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤]

أى عالين .

والحق سبحانـه وتعالى حين قص علينـا نبأ تآمـر بعض من نساء النبـى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ، قال : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : ٤]

فظهير فى الآية الكـريمة أى معين . ويأتى الحق هنـا إلى منطقة القـوة فى الإنسان ، لذلك يقال: فلان يشد ظهرى . أى يعـاوننى بقوة . ويقال : ظهر فلان على فلان . أى غلبه وتفـوق عليه ، ويقال : وعـلا ظهره . أى استـولى على منطقة القوة منـه ؛ لذلك نجد أن الحق سبحانه وتعـالى حينما تكلـم فى سورة الكهف عن ذى القرنين ذكر بعض اللقطات وقال :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف]

فالله سبحانه وتعالى لفتنا هنا إلى حقيقة علمية لم نعرفها إلا فى العصر الحديث . فالسد إذا كان كله من مادة صلبة ؛ يتعرض للانهيار إذا ما جاءت هزة أثرت فى كل جوانبه ، أما إن كان هناك جزء من بناء صلب على الحافة ، وجزء صغير فى المنتصف وجزء ثالث ، ثم رابع ، ويفصل بين كُلِّ جزء ردم من تراب فالردم فيه تنفسات بحيث يمتص الصدمة ، وهى نفس فكرة الإسفنج التى نحيط بها الأشياء التى نخاف عليها من الكسر لنحفظها ، فلو أن الصندوق من الخشب أو الحديد أو أى مادة صلبة لتحطم الشىء الموضوع فيه بمجرد اصطدامه بالأرض صدمة قوية ، ولكن إذا أحطناه بوسادة من الإسفنج فهى تمتص الصدمات. وأنواع السدود التى تتلقى الصدمات يقال عنها: السد الركامى .

ونلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ [الكهف : ٩٥]

وهذا يدلنا على أن القوى يجب أن يعين الضعيف معونة لا تحوجه له مرة أخرى ؛ لذلك يقال : لا تعط الجائع سمكة ؛ ولكن علمه أن يصطاد السمك ليعتمد على نفسه بعد ذلك ، وهذه هى المعونة الصحيحة ، ولذلك نجد أن ذا القرنين رفض أن يأخذ مقابلا لبناء الردم ؛لأن مهمة الأقوياء فى الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة ؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوى . ولو أن كل قَوِيٍّ أراد ثمناً لنصرة الضعيف لاختل ميزان الكون وطغى الناس ، ولكن الأقوياء فى عالمنا يريدون أن يظلموا بقوتهم؛لذلك يختل ميزان الكون الذى نعيش فيه . ولننظر إلى تفويض الله لذى القرنين وكيف أحسن ذو القرنين الحكم بين الناس ، وأقام العدل فيهم وكيف ترصد الظالمين ، قال القرآن الكريم على لسان ذى القرنين :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]

هكذا أقام ذو القرنين العدل ، بتعذيب الظالم وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان ذى القرنين : «أعينونى» يعطينا كيفية إدارة العدل فى الكون ، فذلك الذى أعطاه الله الأسباب إن أراد أن يعين الضعفاء فعليه أن يشركهم فى العمل معه ، ولا يعمل هو وهم يتفرجون وإلاّ تعودوا على الكسل فتفسد همة كل منهم . ولكن إذا جعلهم يعملون معه سيتعلمون العمل ثم يتقنونه فتزداد مهارتهم وقوتهم فى مواجهة الحياة ؛ لذلك نجد أن ذا القرنين أشرك معه الضعفاء ، وقال لهم : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [الكهف: ٩٦]

إذن فقد جعلهم يعملون معه ويبنون ، وهذه أمانة القوى فيما آتاه الله تعالى من القوة ، بل إننا نجده قد تفاهم معهم رغم أن الحق تبارك وتعالى قال فيهم :

﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف: ٩٣]

كيف تفاهم معهم ؟ لعله استخدم لغة الإشارة وتحايل ليفهموا مقصده . ويدلنا القرآن على تفهمهم له أن قال الحق على لسانهم :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

قد تَمَّ بناء السد بمعاونة هؤلاء الضعفاء ، وكان بناء هذا السد بصورة تتحدى طاقة العدوان فى كل من يأجوج ومأجوج ، وقد حاول كل منهما أن يصعد فوق السد ليتغلب عليه ، ولكنه كان فوق طاقة كل منهما فلم يستطيعا اختراقه ، وهذا وضحه لنا المولى سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) ﴾ [الكهف]

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ولَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أحَدًا فَأَتِمُّوا إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة : ٤]

أى لم يعينوا ولم يساعدوا أحداً من أعدائكم حتى يتغلب عليكم ، وسماحته سبحانه وتعالى بإتمام مدة العهد تعنى أن هذه المدة كانت أكثر من أربعة أشهر. وهكذا يعطينا سبحانه جلال عدالته ، فسمح لمن كان العهد معهم أقل من أربعة أشهر ، أن يأخذوا مهلة أربعةأشهر ، والحق سبحانه لا يحب نقض العهد ؛ لذلك طلب من المؤمنين أن يعطوا المشركين الذين عاهدوهم مدة العهد ولو كانت أكثر من أربعة أشهر ؛ حتى يتعلم المؤمن أن يُوفِّ بالعهد مادام الطرف الآخر يحترمه . وزيادة المدة هنا ؛ أو زيادة المهلة نابعة من قوة الله تعالى وقدرته؛ لأن كل من فى الأرض غير معجزى الله ، فإن طالت المدة أو قصرت فلن تعطى المشركين ميزة ما ، فالله يستطيع أن ينالهم فى أى وقت وفى أى مكان .

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤]

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أى شىء ، يغضب الله وقاية . وإن تعجب بعض الناس من قول الحق سبحانه وتعالى: «واتقوا الله» وقوله: ﴿واتقوا النار﴾ فإننا نقول : إن معنى ﴿اتقوا الله﴾ أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت لله وقاية ، اتقوا صفات الجبروت فى الله حتى لا يصيبكم عذابه ، فلله صفات جلال منها المنتقم والجبار والقهار ، وله صفات جمال مثل الرحيم ، والوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، إذن اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية لكم وحماية من أن تتعرضوا لغضب الله تعالى ، والإنسان يتقى صفات الجلال فى الله بأن يتبع منهجه ويطيعه فى كل ما أمر به لينال من فيض صفات الجمال . وقوله الحق سبحانه وتعالى : ﴿واتقوا النار﴾ أى اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تمسكم النار .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

و«انسلخ» يعنى انقضت وانتهت الأشهر الحرم ، ومادة «سلخ» و«انسلخ» تدور كلها حول نزع شيء ملتصق بشيء ، فتقول: «سلخت الشاة» أى نزعت الجلد عن اللحم، والجلد يكون ملتصقا باللحم التصاقاً شديداً . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأشهر الحرم هى زمان ، والزمان ظرف، فالناس مظروفون فى الزمان والمكان ، فكأن الأشهر الحرم تحيطهم كوقاية لهم من المؤمنين ، فإذا مرت الأشهر الحرم تزول هذه الوقاية عنهم بعد أن كانت ملتصقة بهم . والانسلاخ له معنيان: فمرة يقال ينسلخ الشيء عن الشيء، ومرة يقال : ينسلخ الشيء من الشيء ، ولذلك تجد فى القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [**الأعراف** : ١٧٥]

وهذه الآية الكريمة التى نزلت فى ابن باعوراء الذى أعطاه الله العلم والحكمة والآيات ، ولكنه تهاون فيها وتركها ، فكأنه هو الذى انسلخ بإرادته وليست هى التى انسلخت منه ، وصار بذلك مقابلا للشاة ، ونحن نسلخ جلد الشاة من الشاة .

والحق سبحانه وتعالى أيضا يقول :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ [**يس** : ٣٧]

فكأن الليل مثل الذبيحة، ثم يأتى النهار فيسلخ منه الظلمة ويزيلها عنه ويأتى بالضياء ، فكأن الليل ثوب أسود يأتى عليه ثوب أبيض هو النهار، فإذا جاء ميعاد الليل رفع الثوب الأبيض أو سلخ النور عن ظلمة الليل ؛ لتصبح الدنيا مليئة بظلام الليل ، وكأن النور هو الذى يطرأ على الظلمة فيكسوها بياضا ، أى أن الضوء هو الذى يأتى ويذهب ، بينما الظلمة موجودة ، فإذا جاءها ضوء الشمس صارت نهارا ، وإذا انسلخ منها صارت ليلاً.

وماذا يحدث عندما تنتهى الأشهر الحرم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

فكأن الله سبحانه وتعالى بعد أن أعطى المشركين مهلة أربعة أشهر ، والذين لهم عهد أكثر من ذلك يتركون إلى أن تنتهى مدة العهد، ومن بعد ذلك يكون عقاب المشرك هو القتل ، لماذا ؟ لأنه لا يجتمع فى هذا المكان دينان .

ولقائل أن يقول : وأين هى حرية التدين ؟ ونقول : فيه فرق بين بيئة نزل فيها القرآن بلغة أهلها؛ وعلى رسول من أنفسهم ، أى يعرفونه جيدا ويعرفون تاريخه وماضيه ، وبيئة لها أحكامها الخاصة بحكم التنزيل ، فأولئك الذين نزل القرآن فى أرضهم وجاءت الرسالة على رسول منهم وهو موضع ثقة يعرفون صدقه وأمانته ويأتمنونه على كل نفيس وغال يملكونه ، وكان كل ذلك مقدمة للرسالة ، وكانت المقدمة كفيلة إذا قال لهم إننى رسول الله لم يكذبوه ؛ لأنه إذا لم يكن قد كذب عليهم طوال أربعين سنة عاشها بينهم ، فهل يكذب على الله ؟ الذى لا يكذب على المخلوق أيكذب على الله ؟ هذا كلام لا يتفق مع العقل والمنطق ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨]

أى ليس غريبا عليكم ، تعرفونه جيدا حتى إنكم كنتم تأتمنونه على أغلى ما تملكون، وتلقبونه بالأمين فى كل شئون الدنيا ، فكيف ينقلب الأمين غير صادق عندكم ؟ كما أن القرآن الكريم وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء

بلغتكم وأسلوبه من جنس ما نبغتم فيه ، فكان إعجازاً لكم ، وتحداكم الله تعالى بأن تأتوا بسورة من مثله فعجزتم وأنتم ملوك البلاغة والفصاحة ، فكأن الإعجاز من أمانة الرسول وصدقه ، والإعجاز من بلاغة القرآن وتحديه يقتضى منكم الإيمان فيكون عدم الإيمان هنا مكابرة تقتضى عقاباً صارماً.

فإن سأل سائل : أين هى حرية التدين ؟ وأين تطبيق قول الحق تبارك وتعالى؟

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

نقول : نعم ، لا إكراه فى أن تؤمن بالله وتؤمن بدينه ، ولكن مادمت قد آمنت فلابد أن تلتزم بما يوجبه هذا الإيمان ، أما عند التفكير فى مبدأ التدين فأنت حر فى أن تؤمن بالله أو لا تؤمن.

ولكن إذا آمنت فالواجب أن نطلب منك أن تلتزم . ثم إن الحق سبحانه وتعالى شاء ألاَّ يجتمع فى الجزيرة العربية دينان أبداً.

ولكن فى أيِّ مكان آخر مثل فارس ، الروم ، فهم لن يعرفوا إعجاز القرآن الكريم كلغة ، ولكن يسمعون أنَّه معانٍ سامية بقوانين فعالة تنظم الحياة وترتقى بها.

أما الذين يعرفون الرسول وفصاحة المعجزة التى جاء بها ، فلن يُقبل منهم إلاَّ أن يسلموا ، ولا يُقبل منهم أن يظلوا فى أرض الرسالة دون إسلام ، وإن أرادوا أن يظلوا على الشرك فليرحلوا بعيداً عن هذه الأرض .

وهناك من يقول : إنَّ الإسلام انتشر بالسيف أو الجزية ، ونقول : إن الإسلام انتشر بالقدوة ، أما السيف فكان دفاعاً عن حق اختيار العقيدة فى البلاد التى دخلها الإسلام فاتحاً ، والجزية كانت لقاء حماية من يريد أن يبقى على دينه .

ونجد فى حياتنا اليومية من يستخدم ﴿لا إكراه فى الدين﴾ فى غير موضعها ، فحين يقول مسلم لآخر : لماذا لا تصلى ؟ يرد عليه بهذا القول : ﴿لا إكراه فى الدين﴾. ونقول : إن ﴿لا إكراه فى الدين﴾ مسألة تخص قمة التدين ، أى مسألة اعترافك بأنك مسلم أو غير ذلك ، لكن ما دمت قد أعلنت الإسلام وحُسبت على المسلمين ،

فعليك الالتزام بما فرضه عليك الدين فلا تشرب الخمر ولا تزن ، إذن فـ ﴿لا إكراه فى الدين﴾ تعنى لا إكراه على اختيار الإسلام ، ولكن لابد من الحرص ممن أعلنوا الإسلام على مطلوبات الدين .

إذن فلماذا أُكْرِه العرب على الإسلام ؟

قيل فى ذلك سببان : الأول أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ، والثانى أنَّ المعجزة جاءت بلسانهم .

ويتابع الحق سبحانه وتعالى قوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

فإن عز عليكم أن تقتلوهم فخذوهم أسرى ؛ ماداموا لم يدافعوا عن أنفسهم بقتالكم ، ولم يهددوكم فى حياتكم ، وهنا يحقن الدم ويستفاد بهم كأسرى .

وإن خفتم من شرورهم فاحصروهم فى مكان مراقب . إذا قاموا بأى حركة معادية يكون من السهل عليكم كشفها ، وإنزال العقاب بهم . والحصر هنا تقييد الحركة مع السماح لهم بحركة محدودة بحيث لا يغيبون عن نظركم .

ثم يتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

أى ارصدوا حركاتهم حتى تأمنوا مكرهم ؛ وحتى لا يتصل بعضهم بالبعض الآخر ، وينشئوا تكتلاً يعادى الإسلام . ارصدوا حركاتهم ، وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم ، ولا تجعلوهم يخرجون عن رقابتكم وافعلوا ما بوسعكم لتكونوا فى مأمن من شرورهم ، ولكن لا تخرجوا بالاستطلاع إلى حيز استذلالهم، فالاستدلال غير الاستذلال .

وقد يتساءل البعض : لماذا هذا الاختلاف فى العقوبة حيث هناك القتل وهناك الحصر وهناك الرصد لهم فى طرقهم ومسالكهم ،؟ . نقول : إن العقوبة تختلف باختلاف مواقع المشركين من العداء للإسلام ، فهناك أئمة الكفر الذين يحاربون هذا الدين ؛ ويدعون الناس لعدم الإيمان ، ويحرضون على قتال المسلمين وقتلهم

وإيذائهم ولا ينصلحون أبداً ، ولا يكفون أذاهم عن المؤمنين أبداً : أولئك جزاؤهم القتل .

وهناك من لا يؤذون المسلمين ، وإنما يجاهرون بالعداء للدعوة ، هؤلاء شأنهم أقل؛ فنأخذهم أسرى . وهناك من الكفار من لا يفعل شيئا إلا أنه غير مؤمن ؛ فهؤلاء نراقب حركاتهم ليتقى المسلمون شرّهم ليكونوا على استعداد بصفة دائمة لمواجهتهم إذا ما انقلبوا ليؤذوا المسلمين ويهاجموهم ويقاتلوهم .

إذن فلم توضع عقوبة واحدة تشمل الجميع . لأن الجميع غير متساوين فى عدائهم للإسلام ؛ فأئمة الكفر لهم حكم، والذين عداوتهم للإسلام أقل لهم حكم آخر . ثم تأتى رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده فلا ييئسهم أبداً من الرجوع إليه فيقول : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥]

ويفتح سبحانه باب التوبة أمام عباده جميعاً ولا يغلقه أبداً ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيما يرويه عنه أبو حمزة أنس بن مالك ـ خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط[١] على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة)[٢]

أى أنك وأنت مسافر فى صحراء جرداء بعيدة تماماً عن أى عمران ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الذى تسافر عليه ؛ عليه الماء والطعام وكل ما تملك من وسائل الحياة ، ثم غفلت عن الجمل فانطلق شارداً وسط الصحراء ، وتنبهت فلم تجده ولا تعرف مكانه ، وفجأة وأنت تمضى على غير هدى وجدت الجمل أمامك ، فكيف تكون فرحتك ؟ إنها بلا شك فرحة كبيرة جدا لأنك وجدت ما ينجيك من الهلاك ، وهذه الفرحة تملأ النفس وتغمرها تماماً ، كذلك يفرح الله بتوبة عباده ، لذلك

(١) عثر .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

يوضح سبحانه وتعالى بأنه إن تاب هؤلاء الكفار من عدائهم لدين الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فَلْيُخَلِّ المسلمون سبيلهم وليتركوهم أحراراً.

وهنا نجد ثلاثة شروط : أولها التوبة والعودة إلى الإيمان . وإقامة الصلاة ، هذا هو الشرط الثانى ، ثم يأتى الشرط الثالث وهو إيتاء الزكاة ، ولابد أن يؤدى الثلاثة معاً ؛ لأن التوبة عن الكفر هى دخول فى حظيرة الإيمان ، والدخول إلى حظيرة الإيمان يقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة ثم صوم رمضان ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ولو نظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد يؤدى بعضها ولا يؤدى البعض الآخر ، فالمسلم الفقير الذى لا يجد إلا ضروريات الحياة تسقط عنه الزكاة ويسقط عنه الحج ، والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم ، وتبقى شهادة أن لا الله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وهذه يكفى أن يقولها المسلم فى العمر مرة ، ويبقى ركن إقامة الصلاة لا يسقط أبداً ، لا فى الفقر ولا فى الغنى ولا فى الصحة ولا فى المرض ؛لأن الصلاة هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم ، وهى عماد الدين لأنها تتكرر كلّ يوم خمس مرات ، فالمريض عليه أن يصلى بقدر الاستطاعة . فإن لم يستطع أن يؤديها واقفا فجالساً وإن لم يستطع أن يؤديها جالساً فراقداً .

إننا نعلم أن كل صلاة إنما تضم كل أركان الإسلام ؛ ففى كل صلاة نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وكل صلاة فيها زكاة ؛ لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ، والمال يأتى من العمل ، والعمل محتاج لوقت ، والصلاة تأخذ بعض وقتك الذى يمكن أن تستخدمه فى العمل فيعطيك رزقاً تزكى به ، فكأنك وأنت تصلى أعطيت بعض مالك لله سبحانه وتعالى ؛ لأنك أخذت الوقت الذى كان يمكن أن تعمل فيه فتكسب مالاً للزكاة ، فكأن الصلاة فيها زكاة الوقت .

إن الوقت هو ما نحتاج إليه فى حركة الحياة للحصول على المال فتكون فى الصلاة زكاة . ونأتى بعد ذلك للصوم وأنت فى الصوم إنما تمتنع عن شهوة البطن وشهوة

الفرج بعضاً من الوقت ؛ من قبيل الفجر إلى المغرب ، وكذلك فى الصلاة . وفى الصلاة أنت لا تستطيع أن تأكل أثناء الصلاة . فكأنك لابد أن تصوم عن شهوة البطن وأنت تصلى ، كما أنك لابد أن تصوم عن شهوة الفرج أثناء الصلاة ، فلا تستطيع وأنت تصلى أن تفعل أى شيء مع زوجتك ، ولا تستطيع زوجتك أن تفعل معك شيئا ، بل أنت فى الصلاة تكون فى دائرة أوسع من الإمساك ، لأنك ممنوع من الحركة وممنوع من الكلام .

فإذا جئنا إلى حج بيت الله الحرام ؛ نقول إنَّك ساعة تصلى لابد أن تتجه إلى بيت الله الحرام ، وتتحرى القبلة ، إذن فكأن بيت الله الحرام فى بالك وفى ذكرك وأنت تتجه إليه فى كل صلاة . وعلى ذلك فقد جمعت الصلاة أركان الإسلام كلها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (الصلاة عماد الدين)[1] وإذا كانت الصلاة هى عماد الدين كما بين النبى صلى الله عليه وسلم فمن أقامها فقد أقام الدِّين ـ ومن عجائب ترتيب آيات القرآن أنك تجد الصلاة مقرونة دائما بالزكاة ؛ لأن الزكاة بالمال ، والصلاة زكاة بالوقت ، نحن محتاجون إلى الوقت لنعمل فيه حتى نأتى بالمال ، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

ومعنى ذلك أنهم إذا لم يؤدوا الثلاثة معاً لا نخلى سبيلهم ، ومادمنا لا نخلى سبيلهم فهم يدخلون تحت العقوبات التى حددها الله وهى : «اقتلوهم»أو «خذوهم» أو : ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

وأول العقوبات هو القتل وذلك لأئمة الكفر ، فإذا آمن كافر وترك الصلاة لا يكون قد تاب وآمن : وإذا لم يؤد الزكاة لا يكون قد تاب وآمن ؛ لذلك إذا لم يقوموا بالعبادات الثلاث لا نخلى سبيلهم ، ولقد أفتى بعض الأئمة بأن تارك الصلاة يقتل ، ونقول : لا ، تارك الصلاة إمَّا أن يكون قد تركها إنكاراً لها وجحودا بها ، وإما أن

(١) أخرجه البيهقى فى جامع الأحاديث للإمام السيوطى جـ٤ ص ٤٥٢

يكون قـد تركها عن كسل . فإن كان يتركهـا عن كسل لأنه لا يقدر على نفسه والـدنيا تجذبه بمشاغلها فعلينا أن نحاول بـالحكمة والموعظة الحسنة أن ننصحه ونستحثه حتى يعود إلى الصـلاة ويؤديها فى وقتهـا، ثم من بعد ذلك إن تركهـا عمداً كسـلاً ، يعاقب بالضرب الشديد ، ولكن بعض الأئمة يقولون : لقـد قاتل أبو بكر أولئك الذين ارتدوا ومنعوا الزكاة ، ونقول : إنـه لم يقاتلهم لأنهم عصاة ، بل لأنهم قد ردوا الحكم على الله، وأنكروا الـزكاة فكانـوا بذلك قد ارتدوا كفـاراً ؛ لأن هناك فارقـاً بين أن ترد الحكم على الله وتنكـره ؛وبين أن تسلم بـالحكم لله ، وتعلن أنـك مع إيمانك بهذا الحكم لا تقـدر على التنفيـذ ، أو تعترف أنك مقصر فى التنفيـذ . ولـذلك نقـول للـذين يحاولـون أن يدافعـوا عن الربـا ويحلوه : قولـوا هو حرام ولكننـا لا نقدر على أنفسنـا حتى لا تعودوا كفـاراً : لأنك إذا قلت إن الربـا ليس حرامـاً تكون قـد رددت الحكم على الله ووقفت مـوقف الكافـر ، ولكنك إن قلت إن الـربـا حرام ولكن ظـروفى قهـرتنى فلم أستطع ، تكون بذلك عاصياً.

وهذا كما قلنا هـو الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم عليه السـلام ، فقد أمر الله تعـالى إبليس بـالسجـودفعصى ، وآدم أمـره الله فعصى ، فلماذا قضى الله بأن إبليس عليه اللعنة إلى يوم القيامة ، بينما تلقى آدم من ربـه كلمات فتاب عليه وغفر له ؟ نقول : لأن إبليس رد الحكم على الله ؛ فقال :

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١]

وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦]

فكأن إبليس رد الحكـم على الله عـز وجـل ، ولكن آدم لم يقل ذلك . وإنما قـال : حكمك يا ربى صحيـح وما أمرتنى بـه هو الحق ، ولكنى لم أقـدر على نفسى فظلمتها فتب علىّ واغفرلى وذلك مصـداقا لقوله سبحـانه وتعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا هو الفرق بين المعصية والكفر .

إذن فالتعامل مع المشركين إن لم يتوبوا ولم يُصَلُّوا ولم يُزكُّوا ، ولم يقدر عليهم المسلمون ، ماذا يحدث ؟ . إن على المسلمين أن يحاولوا تطبيق ما أمر به الله سبحانه وتعالى بشأنهم .

ولكن ماذا إن استجار واحد من المشركين بالمسلمين ؟.

وهنا ينزل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وبعد أن بَيَّن الله سبحانه وتعالى المهلة التي هي الأشهر الأربعة أو مدة العهد إذا كان هناك عهد . وبعد أن بين أن الكفار إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وقرنوا الإيمان بالعمل ؛ فالحق سبحانه وتعالى يغفر لهم ما قد سلف منهم ، وبين الله سبحانه وتعالى عظمة الإسلام والرحمة التي نزل بها هذا الدين ؛ فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلوا على حالهم ولم نقدر عليهم بأى عقوبة من العقوبات التي جاءت ، ثم جاء أحدهم مستجيراً بالمؤمنين فماذا يكون سلوكنا معه ؟

جاء الحكم من الله تعالى بأنه مادام قد استجار بك فأجره ، وإذا أجرته أسمعه كلام الله تعالى وحاول أن تهديه إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم ؛ فإن آمن واقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين ، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقتله؛ ولكن أبلغه مأمنه ، أي اسأله من أين جاء ؟ فإذا قال لك اسم القبيلة التي ينتمي إليها أو حدد المكان الذي جاء منه فتأكد أنه سوف يكون آمناً حتى يبلغ المكان الذي يجد فيه الأمان . وهذه هي المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر،

وهى مرحلة الإجارة والتأمين للمستجيرين بالمؤمنين .

فالله سبحانه وتعالى تفضل على خلقه فى الأرض فأرسل إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرسال من سبقوه من الرسل. وكان الناس قد نسوا منهج السماء ، بل وحرّف أهل الكتاب ما نزل إليهم من تعاليم .

وكان لابد أن تتدخل السماء بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد جعل فى الإيمان مناعات متعددة ، توجد أولا فى النفس ، فحين تستشرف النفس إلى معصية ، فالضمير الإيمانى يردعها عن تلك المعصية ويتوب الإنسان ويرجع إلى الله تعالى من ذات نفسه وبضميره الإيمانى وتلك هى النفس اللوامة . ومعنى وجود اللوم فى النفس هو أن الإيمان مازال موجوداً فيها ، وهذا الإيمان هو الذى يكبح الشهوة ويمنع النفس من الركون إلى المعصية ويرد صاحبه إلى الطريق الصحيح والمنهج السوى .

وهب أن نفساً ولعت بمخالفة المنج ولم تعد نفسا لوامة ، وتظل ترتكب المعاصى حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيمانى ، فتجدها قد عشقت - والعياذ بالله - مخالفة المنهج ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء ، وهنا ينقل الله المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصى يردعونه عن المعصية ، ويقفون منه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجفوة حتى يفىء إلى ربه يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان . أما إن فسد المجتمع كله ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فلابد أن تتدخل السماء برسالة جديدة وبرسول جديد مؤيد بمعجزة من السماء ليوقظ الناس من هذا السبات العميق الذى شمل الأفراد والمجتمعات .

وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وواجه هذا المجتمع الذى انتشر فيه الكفر أفراداً وجماعات كان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان ومجتمع الكفر ؛ ذلك أن

العداوة الشرسة واجهـت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه المواجهـة للرسول إنما جـاءت من المنتفعين بـالفسـاد فى الأرض . والمنتفعـون بـالفسـاد هم السـادة الـذين استفادوا مـن ضياع الحق وانتشار البـاطل فأخـذوا حقوق غيرهم واستعبـدوا الناس ، واستأثروا هم بالمنافع وبما فيه الخير لهم ومنعوا ذلك عن باقى عباد الله .

والمنتفعون بالفساد يكرهون أى مصلح جـاء ليعدل ميزان حركة الحياة فى الكون . فلابد أن يقفـوا فى وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن منـافعهم وأموالهم التى حصلوا عليهـا بالبـاطل والظلم ، ومن استعبادهـم للنـاس . وكانت الجزيـرة العربيـة فى ذلك الوقـت مكونـة من قبائل متعــددة ، وكان لكل قبيلــة قانــونها الذى يضعـه شيخها ليستأثر لنفسه بكل شيء .

ومعنى ذلك أنـه لا توجـد رابطة تـربط بين هـذه القبائل ، ولا يـوجد قـانون عـام يحكمها ، وكل قبيلـة لها عزوتها ولها شـوكتها ولها حـروبها . وكل فرد فى قبيلـة لابد أن يكون مقاتـلا يحمل سلاحه مستعدا للحرب فى أى وقت ، لأنـه مهدد فى أى لحظة أن تغير عليه قبيلـة أخرى ، إلا قبيلة واحدة هى قـريش . فقد أخذت السيـادة ولا يعتدى عليهـا أحد ولا تُهَاجَم قـوافلهـا ، ولا تستطيع قبيلة فى الشمال أو فى الجنـوب أن تهاجم تجارتها ؛لأن هذه القبائل كلها ستأتى فى يوم من الأيام قاصدة حج بيت الله الحرام فى مكـة . وخلال الحج تكـون هـذه القبائل فى حـاجـة إلى الأمان مـن قريش ؛ ولـذلك حرصت كل قبـائل العرب أن تحافظ على عـلاقتها مع قـريش ، لأن السيادة على بيت الله الحرام التى جعلها الله لقريش هى الضمان . وقد تكفل الله سبحـانه وتعالى بحماية البيت الحرام من أى عدوان ، حتى عندما جاء أبرهـة بأفياله ليهدم الكعبة ؛ جعله الله هو وجيشه كعصف مأكول مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَـرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْـدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْـرًا أَبَابِيلَ ③ تَـرْمِيهِم بِحِجَـارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤ ﴾ [الفيل]

فإذا قرأت السورة التى بعد سورة الفيل مباشرة تجد أنها :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [قريش]

فكأن حفظ الكعبة من الهدم كان حفظاً من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش . ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والشكر وفهم هذه النعمة وتقديرها ، بدلاً من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المتعنت وتحاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلاً من ذلك فقد حدث العكس، وأحست قريش كذباً بأن الإسلام جاء ليهدد سيادتها فقامت تحاربه .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكن النداءات بالإسلام بعيدا عن هذه السيادة ؟ لأن الحق قد أراد أن تكون صيحة الحق فى جبروت الباطل وأن يواجه الإسلام فى أول أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية كلهم جميعا حتى يمحص الله قلوب المسلمين الأوائل . فهم من يحملون من بعد ذلك دعوة الإسلام فى العالم ؛ فلا يعتنق الإسلام منافق أو ضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين فى قلوبهم إيمان حقيقى ، ويتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم .

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يبدأ الإسلام فى مكة ولم يجعل الله له النصر من مكة، وشاء سبحانه وتعالى أن يجعل نصر الإسلام من المدينة؛ لأن قريشا لو انتصرت دعوة واحد منها فهم سيحاولون احتواء ه ليسودوا به الدنيا ، وحينئذ سيقال : هم قوم قد تعصبوا لواحد منهم لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقاً وليس إيماناً حقيقيا . ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الإسلام من المدينة ليعلم الناس جميعاً ؛ أن العصبية لمحمد صلى الله عليه وسلم لم تخلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى خلق العصبية لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان

وبين سادة الكفر . وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :

المرحلة الأولى كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة الى المحبة ، والدعوة إلى المساواة . وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف . وهذه البداية لم تعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ويمعنون فى إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ؛ ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، فهاجر بعض من المؤمنين إلى الحبشة ، وأصبحوا يبحثون عمن يحميهم ويستجيرون به ؛ وشاء الحق تبارك وتعالى ذلك حتى لا يدخل الإسلام إلا من أُشرب قلبه حب الإسلام واستهان بكل الصعاب والاضطهاد والقتل والتشريد؛ وهؤلاء هم الذين سيصبحون مأمونين على الدعوة . وبعد ذلك ظل الكفر على كفره ، وظل الإيمان يأخذ إليه بهدوء بعض الأفراد ، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ؛ فقالوا : نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة فيها ما يسمى بالعرف الحديث «قطع العلاقات» ، فقال الحق عز وجل : ﴿ **قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥** ﴾ [الكافرون]

وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ؛لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة الكفار ؛ فهذا اعتراف منهم بأن آلهتهم حق ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لكان ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أن يحدث ذلك . وكان النهى هنا فى هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل . وهذا ما يسمى فى السياسة الدولية باسم قطع العلاقات ، بل إن قطع العلاقات الدولية إنما يكون بسبب طارىء ، أما الخلاف بين المسلمين الأوائل وأهل الشرك فلم يكن صراعاً بين فكر بشر وفكر بشر آخرين ، ولكن المسألة كانت صراعات بين منهج تريده السماء لأهل الأرض ، وبين المنتفعين بالفساد فى الأرض ؛ لذلك كان لابد أن يكون القطع نهائياً ، فلا لين ولا مهادنة

. ولا حلـول وسط بين الكفـر والإيمان ، وهكـذا فشلت حيلة الكفار فى تمييع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرهم ، وبقى الوجـود الإيمانى قويا متحداً فى مواجهة جبروت الكفار بعد أن كان مهدداً.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلـة الثالثة ؛ مرحلة اعتراف الكفر بقـوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعـذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتمال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلـم إلى المدينة ، وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفـر فى غزوة بـدر ، وانتصر المؤمنـون وأصبح لهم كيان يحميهم ، فلـم يعـودوا هم القلـة الضعيفـة المستـذلة والمستكينـة، بل أصبحت لهم قـوة ولهم قـدرة ، وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مـواجهة الكفار أو قوة مساوية لهم ؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة .

وحين أصبح للإيمان هذه القوة والقـدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار ؛ كانت هذه بداية المرحلة التى أعطت الإسلام تفرغاً لنشر الدعوة خارج محيط مكة ، وأمن المسلمون وهم ينشرون دعوتهم مـن هجوم الكفار وتنكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكـان مجرد التعاقـد والتعاهد هـو اعتراف بدولة الإيمان ،وهـى المسألة التى فطن لها سيدنا أبـو بكر رضى الله عنه وقد ظن البعض لأول وهلـة أن معاهدة الحديبية كـان فيها إهـدار لحق المؤمنين ، حتى إن عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه قال : علام نعطى الدنية [1] فى ديننا .

هذه المسألـة أخذت جـدلاً كبيراً كاد يصل إلى أن يصـادم المؤمنون أمـر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنـدما رأت أم سلمـة رضوان الله عليها خـوف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من عدم إطاعة مـا قاله لهم ، ووجدت الحزن الشديد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلـم ، قالت :« يارسول الله لا تحزن . إن القوم مكروبون لأن أملهم أن يطوفوا بالبيت الحرام ، وهـا هم أولاء الآن على مقربة من البيت ولكنهم

(١) الدنية : أصلها الدنيئة بالهمزة ولكنها خُففت وهى صفة لمحذوف .. أى الحالة الدنيئة الخسيسة .

ممنوعون من الطواف به ؛ إن خير ما تفعله الآن ألا تكلم منهم أحداً ، وتنفذ ما أمرك به الله ؛ فإن فعلت عرفوا أن الأمر عزيمة لانزاع فيه» ، هذا ما حدث. فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بذبح الهدى وتحلل من إحرامه وفعل المسلمون مثلما فعل ، وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى قبل أن يعود المؤمنون إلى المدينة ، أن يبين لهم سبب قبول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلح الحديبية مع ما يبدو ظاهراً وليس حقيقة من أن فيه إجحافاً بالمسلمين .

لقد كان الصلح ينص على أنه إن جاء أحد هارباً من قريش والتجأ إلى المدينة ردوه إلى قريش مرة أخرى . وإن فر أحد بعد إسلامه والتجأ إلى كفار مكة لا يردونه. وقد وجد البعض فى هذا إجحافاً وعدم مساواة ، وكان الموقف غاية فى الدقة ، وعندما جاء سهيل بن عمرو ليتفاوض على المعاهدة ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يكتب عن رسول الله وأملى: هذا ماتعاقد عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو . اعترض سهيل قائلا : لو كنا نؤمن بأنك رسول الله ما حدث بيننا هذا القتال ، ولكن اكتب : هذا ما تعاقد عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو. هنا ثار على بن أبى طالب رضوان الله عليه وقال : لا ، لابد أن نكتب هذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفض سهيل بن عمرو .

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينهى الموقف فنظر إلى على وقال :« يا على اكتب فإنَّ لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد» أىْ أنه سوف يحدث لك نفس الشىء الذى ترفضه الآن فتقبل ، وكان هذا من علامات النبوة لأن علياً وقف فعلا هذا الموقف عندما جاءت معاهدة صفين وأراد أن يكتب فيها هذا ما تعاقد عليه على بن ابى طالب أمير المؤمنين فقالوا له : لو كنت أمير المؤمنين ما حاربناك ، اكتب هذا ما تعاقد عليه على بن أبى طالب. وتذكر على بن أبى طالب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد ».

على أن الحق سبحانه وتعالى أراد ألا يدخل المسلمون المدينة إلا وقد صفت نفوسهم دون إحساس بأن منهم من انكسر وأن الآخرين قد انتصروا ، فنزل قول الحق

تبارك وتعالى الذى يزيل من النفوس المرارة : وينزل عليها السكينة والطمأنينة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

وهكذا أخبر الله المؤمنين بسبب عدم السماح لهم بدخول مكة لأن فيها عددا من المؤمنين والمؤمنات الذين يكتمون إيمانهم ، وهؤلاء غير مميزين لأنهم مختلطون بالكفار؛ وليس لهم مكان محدد بحيث يستطيع المؤمنون معرفتهم وتمييزهم ، فلا يتعرضون لهم فى قتالهم داخل مكة ، ولو نشب القتال فعلاً لتم قتل عدد كبير من هؤلاء المؤمنين والمؤمنات المقيمين فى مكة بأيدى المؤمنين ، ولكان عاراً أن يقتل مؤمن مؤمنا أومؤمنة .

هنا عرف الصحابة العلة وهى صيانة دم المؤمنين . وفى الوقت ذاته نجد أن صلح الحديبية جعل الدعوة الإسلامية تنتشر فى الجزيرة العربية كلها . وقد اعتبره بعض الصحابة رضوان الله عليهم الفتح الحقيقى للإيمان ، وجاء فى ذلك تلك المقولة المأثورة : «لا فتح فى الإسلام بعد فتح الحديبية» ولكن الناس لم يتسع فكرهم إلى الحكمة مما حدث ، والعباد دائما يعجلون . والله لا يعجل لعجلة عباده حتى يبلغ الأمر ما أراد . وقد انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية بالدعوة ، وزاد عدد المسلمين زيادة كبيرة .

إذن فمراحل الإيمان بدأت بمرحلة التعذيب والاضطهاد ، ثم مرحلة محاولة الخداع للقضاء على هذا الدين ، ثم المرحلة الثالثة وهى التعاهد والتعاقد ، ولقد وفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده ، ولكن قريشاً نقضت العهد بأن أعانت قبيلة بنى بكر وهم حلفاؤها على قبيلة خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام بنو بكر بمهاجمة قبيلة خزاعة وقتلوهم وهم يصلون ، وذهب مندوب قبيلة خزاعة مستنجدا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهاء

المعاهدة التى أبرمت بينه وبين قريش لنقض قريش العهد وأعد جيشاً لفتح مكة وتطهير البيت الحرام من الأصنام ، وبعد أن تم فتح مكة فى العام الثامن الهجرى ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يطهر بيته من المشركين وأن يعلن أنه لا مهادنة بين الإيمان والكفر .

لقد أراد الله أن يحرر «المكان» وهو أرض الكعبة أولاً ، ثم يحرر «المكين» وهم البشر فلابد ـ إذن ـ أن تتطهر الكعبة من الأوثان ، وأن يُمنع العراة من الطواف حول البيت الحرام ويُمنع المشركون من الوجود فى البلد الآمن بالإسلام . وسبق حج رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع العلاقات وإنهاء المعاهدات، لكن سماحة الإيمان وحب الله لخلقه جميعا لم يجعله يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع المعاهدة فوراً ، أو أن يقاتل المؤمنون المشركين ويأسروهم فوراً ، لا ، بل منحهم أربعة أشهرلعلهم يفيئون إلى الإسلام وأن يتوبوا إلى بارئهم .

لقد بين سبحانه وتعالى للكافرين أن هذه المدة لن تفيدهم فى حربهم ضد الإسلام ؛ لأنهم غير معجزى الله فى الأرض ، أى لن يعجز الله استعدادهم أو مكرهم أو أى شيء يفعلونه خلال هذه الأشهر الأربعة ، فإذا انتهت هذه الأشهر وقعت العقوبة على الكفار إما بالقتل وإما بالحصار ، أو بالترصد ، أو عليهم أن يدبروا أمر حياتهم بالسياحة فى الأرض ماداموا قد أصروا على الكفر ؛ لأن حكماً من الله قد نزل بعدم وجود المشركين فى هذه البقعة المقدسة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى برحمته أن يبقى الباب مفتوحاً للكفار لكى يعودوا إلى منهجه فقال عز وجل :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة]

وبعد انقضاء مدة الأشهر الأربعة ، اذا استجار بك أحد من المشركين فأجره ، ونحن نعلم فى اللغة العربية أنّ «إنْ» الشرطية لا تدخل إلا على فعل ولا تدخل على

اسم أبداً ؛ فتقول : إن قام زيد قام عمرو ، وأما «إنْ» فى قوله تعالى :

﴿ إنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢]

فهـذه ليست «إن» الشرطيـة ؛ ولكنهـا «إنْ النـافيـة » وهى مع «إلا» التى بعـدهـا لإفـادة التأكيد والقصر، أى قصر الأم على الـوالدة ، إلا أنـه من بلاغـة إعجاز القـرآن الكريـم جاء بعد «إن»الشرطية اسم فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة : ٦]

وكان القياس أن يقال: «إن استجار بك أحد المشركين فأجره »؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جاء بـ «أحد» بعد «إن» فى أول الكلام ، ولـذلك فعندما نعـرب كلمة «أحد» فى الآية الكريمة السـابقة نعربها فاعلاً ونقدر له فعله من جنس المتأخـر ، والتقدير هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره .

ولماذا هـذه اللفتـة من القـرآن الكـريـم ؟ نقـول : إن هنـاك مستجيراً وهنـا طلب استجارة ؛ فهل الاستجارة عرف بها المستجير، أم عُرفت الاستجارة منه ؟.

وأقول : لنفـرض أن واحداً من المؤمنين قد جلس على الحدود قرب أمـاكن الكفار، ثم سمع صوتاً يقول : أنا مستجير بمحمـد ، ومستجير بالمؤمنين ، ومن بعد ذلك ظهر المستجير بجسـده أمـام المؤمنين ، هنـا تكون الاستجـارة قـد سبقت ظهـور المستجير، وكأن الأذن هى التى استجيرت أولاً ثم رأت العين جسـد هذا المستجير، وقـد يختلف الأمر؛ فيظهر المستجير أولاً ، ثم يصرخ طالباً الأمـان والاستجارة ، وبذلك تكون العين قد رأت أولاً ثم سمعت الأذن طلب الاستجارة ثانياً.

وهنا يريد الحق سبحانه وتعـالى أن ينبهنا إلى أهمية الالتفات إلى صدق الاستجارة ، ولا يتحقـق ذلك إلا بأن يصرخ المستجير أولاً ، ويظهر من بعـد ذلك ، ولابد أن يأخـذ المؤمن حذره حتى لا ينقلب عليه المستجير أو يكون قد خدعه بطلب الاستجارة .

والاسـتجارة تعنـى طلـب الجوار والحماية ، ولهذا فعادة ما يكـون المستجير ضعيفاً

لا يقـــــدر على حماية نفسه . وحين يستجير إنسان بآخر فى مثل تلك الظروف ، فعلى المجير أن يملك الفطنـة ليتعـرف على الهدف من الاستجـارة ؛ أهى استجـارة لمجـرد تطويل أمد البقاء على الكفر ؟ أم هـى رغبة فى معرفة أسس الإيمان كما وردت فى كتاب الله تعـالى ، أو أنه يـريـد أن يسمع حكم الله على الكفار فى سـورة بـراءة . أو يريـد أن يسمعَ كلام الله بما يقـذف فى قلبه الإيمان ، أو أنه يـريد أن يسمع شيئـا فيما يطلب فيه الدليل ، أو يسمع كلام الله فيما يرد عليه الشبهة ؟.

إن فطنـة المؤمن يجب أن تتسع لتسبر أغوار المستجير ، وطلب الجوار أو الاستجـارة كان معروفـاً عند العرب ، فإذا استجار شخص بعـدوه فعليه أن يجيره، وهذا دليل على شهـامته . وإذا كـان الإيمان قـد فرض على المسلمين إجـارة من يطلب الجوار ، فهـذا دليل على قوة الإيمان وعظمتـه وسماحته ، ولعل خميرة الإيمان الفطـرى فى نفس الكفار قد استيقظت وتطلب معرفة قواعد الإسلام .

إن على الـــوالى أو أى واحـــد من المسلمين أن يجير المستجير ، ولماذا لا نسمعـــه ونتكلم معه علـه يؤمن ، ويدخل حظيرة الإسلام وفى الإســلام يجير الوالى أو أى واحد من المسلمين ؛ لأن المسلمين تتكـافأ دمـاؤهـم ولا يـوجـد دم سيـد ودم عبـد ، ولا دم شريف ودم رخيص ؛ وإنما يسعى بذمتهم أدناهم ، ولـذلك إذا أجار أى مسلم إنساناً غير مسلم أو إنسـاناً كـافراً يجار من جميع المسلمين ؛ حتى الصبى الـذى لم يبلغ الحلم وحتى المجنون الذى لا يعقل . لهذا أو لـذاك أن يجير بشرط أن يوافق الوالى أو المسلمون على ذلك . لـماذا ؟ لأنـنـا نأخذ على الكفر أنه يغـدر بالتعاهد ويتناســى المروءة، فلابد أن نتمسك نحن المـــؤمنين بالعهــد ، فإذا استجـار أحـد من الكفـار فـلابـد أن نفى بالعهد .

ولكن كيف يكون للصبى والمجنون حق الإجارة ؟ . نقول : إن الصبى من المؤمنين انتفع بالإســلام لأنه تمت تربيتـه تربيـة إيمانية وفقاً لمنهج الله ونشأ فى ضـوء قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : ٢٤]

بل إن الإسلام يعطى التربية الإيمانية للابن حتى قبل الحمل ، فيأمر الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعاء صالحاً ، ويأمر الأم أن تختار الرجل المتدين ليكون أباً صالحاً .

إذن فالإسلام يخدم الصبى قبل أن يولد باختيار الأب الصالح والأم الصالحة ، ويخدمه بعد أن يولد بتربيته التربية الإسلامية السليمة ، وعلى ذلك فالصبى قد استفاد بكل هذه القيم من الإسلام ، والذى بلغنا منهج الإسلام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فالتربية الإسلامية لنا جميعاً ؛ لذلك يجب علينا أن نرد التحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمنا أن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . فلو أن صبيا أعطى الأمان لكافر جاء ليسمع كلام الله ؛ قبلت منه هذه الإجارة أو هذا الأمان ، ذلك أن الصبى استفاد من تربية إسلامية جاء بها المنهج المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من أمه التى تحملت حمله وآلام وضعه ، ولولا أن الإسلام حمى النفس حين توجد فى الرحم لأمكن للمرأة حين يتعبها الحمل أن تجهض نفسها أو أن تطرح الصبى بعيداً ، ولكن الإسلام حمى الطفل وهو فى بطن أمه ، وحماه حتى تكتمل رضاعته ، وتمتثل الأم المسلمة لكل أحكام الإسلام :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

لقد احترم الإسلام الطفل ، وسانده ، وطلب من الأب والأم أن يحسنا تسمية أولادهما وأن يحسنا تربيتهما .

وقبل أن يوجد هذا الطفل فى رحم أمه حماه الإسلام - كما قلنا - بأن أمر الرجل أن يختار الأم الصالحة ؛ لتكون وعاء صالحاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه أبو حاتم المزنى قال :

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض

وفساد كبير» قالوا يارسول الله وإن كان فيه ؟ قال «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات[١].

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : فى حديث له :

«فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

والحديث فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه يقول : قال صلى الله عليه وسلم «تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك» [٢]

فإذا كان الإسلام قد احترم هذا الصبى فى كل حقوقه ، ألا يحترمه المسلمون ؟.

وقد يقال إن الصبى منتفع بالإسلام ، أما المجنون فلا عقل له حتى إن الله عز وجل قد أعفاه من التكاليف ، ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول،صاحب العقل قصارى مايصل إليه أن تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأن يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد ، أما المجنون فهو يصل إلى هذا ؛ لأنه إن قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإن فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

إذن فالمجنون قد أخذ حظا أكثر مما يأخذه العقلاء ، وصار جنونه حماية وحصانة له إن قال كلمة الحق التى قد تؤذى ذوى النفوذ فلا يعاقبه أحد، ويكفى أن يقال إنَّه مجنون حتى يعفى من العقاب ، ورب كلمة حق واحدة تصدر من مجنون ؛ تكون أرجح عند الله عز وجل من أصحاب عقول كثيرة ظلوا طوال حياتهم ينافقون ويكذبون ويفعلون ما يغضب الله .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

إذن فهناك مهمة فى الحيـاة قد يؤديها المجنون ولا يـؤديها العاقل ، لأن بعض الناس يعتقد أنه إذا سلب الله أحد البشر شيئا فإنـه يميز عنه الآخرين ، نقول : لا ، لأن عدل الله يأبى إلا أن يعوضه ، ولذلك تجد من فقـد عينيه يجعل الله عز وجل عيون الناس فى خدمتـه ؛ هذا يأخذ بيده؛ وهـذا يقوده فى الطريق ، وهذا يحضر لـه الطعام والشراب ، وهذا يسقيه ... إلخ

وإن كان الإنسان أعرجَ مثلاً ، تجد هذا يعاونـه ، وهذا يأخذه معه فى سيارته ، وقد تقف له سيارة أجرة تأخذه إلى حيث يـريد . بينما يقضى السليم الساعات يبحث عن سيارة الأجـرة بلا فائدة . بل إنـك إن نظرت إلى الفقير تجد أنَّ الله قد جعل لـه عدداً من الأغنياء فى خـدمته ، ففلان يحرث ويعـزق ويعطيه الله خير الزراعـة ليبيعه ويفيض منـه على الفقير، وآخر يصنع ويتعب ويشقى ليعطى بعضـاً من دخله للفقير، بل إنـه يشقى مرة أخرى ليعثر على الفقير حقا ليعطيه بعضاً من ماله ، والفقير بالفعل يستحق أن يأخـذ شريطة ألا يكـون مدعيـا للفقـر . فما دام قد قبل حكم الله بـالفقر والعجـز ، يـوضح له ربـه : لقـد رضيت بأنى أعجزتك ، فخـذ من قـدرة الأغنياء مـا يعينك فى حيـاتك ، فهـذا مُلْكٌ كَـوْنى لـه نظـام ، وأقـول ذلك حتى نفهم أن الغنى والفقـر ، والصحـة والمرض ، والقوة والضعف ، إنما هى أغيـار ، ولـذلك لا أحد يضمن غَـدَهُ ، وعلى الواحـد منا إن كـان قادراً أن يعطى الفقير، حتى إذا ضـاع منا المال وجـدنا من يعطينا ، وأن نسـاعد المريض ، حتى إذا مـرضنا وجـدنا من يسـاعدنـا ، وأن نكون فى خدمـة الناس وقت شـدتهم حتى يكونـوا فى خدمتنـا وقت شدتنا . وفى نفـس الوقت حين نرى من حرمه الله من البصر يجب علينا أن نشكر نعمة الله علينا ، ولو رأينا إنساناً يعانى فى مشيه تنبهنا إلى نعمة الله فى أن أعطانا قدرة المشى.

وهكذا فـالإنسان لا يتنبه إلى النعمـة إلا إذا رأى من هو محروم منهـا . وكذلك أراد الحق أن يرضى كل ذى آفة قَبل آفته ولم يتمرد عليها ؛ لذلك يفيض عليه بالخير.

إذن فكل إنسـان أسلم يستفيـد من الإسـلام حتى الصبى والمجنـون استفـادا من

الإسلام ، ولـذلك فلابـد أن نرد التحية لمن بَلَّغنـا هذا المنهج الـذى أعطانـا الحماية ، فنقرأ المنهج ونعمل به .

وحين نستقـرىء حيـاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، نجـده يـرد جميل كل من ساعده ، ومثـال ذلك حليمة السعدية التى نالت شرف إرضـاعه صلى الله عليه وسلم وهو صغير، ثم أكرمها الرسول هى وأسرتها بعد أن صار نبيا.

ثم ألم يـذهب رسـول الله صلى الله عليـــه وسلم إلى الطـائف ليطلب النصيرلـه فى تبليغ الدعوة بعد وفاة خديجة رضى الله عنهـا ووفاة عمه أبى طالب، وعز عليه النصير وفكر فى العودة إلى مكـة ، والتمس من يجيره حين يدخلها فأجاره واحـد من الكفار هو المطعم بن عدى ، فإذا كان كـافرٌ قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم الـذى يدعو لمحاربة الكفر؛ أفلا نجير واحداً من الكفار لنرد التحية بخير منها ؟

وإذا كان واحـد من الكفار قد أجار رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة فـلابد أن يـرد المؤمنـون كلهم التحيـة بأن يجيروا من يستجير بهم من الكفـار. وبعـد أن يجير المسلمـون من استنجد بهم مـن الكفار على أن يسمعـوه كـلام الله . وبعد ذلك هنـاك أحد أمرين إمـا أن يعلن الكافر الإيمان ، وفى هذه الحالـة أصبح من المؤمنين ، وإما أن يصر على كفره وعناده ، وفى هذه الحالة يصبح على المسلمين مسئولية أن يبلغوه مأمنه، وذلك بأن يساعـدوه على الوصول إلى المكـان الذى يصبح آمنـا فيه على نفسه ومـاله ، وبعد أن يبلغ مأمنـه ويسمع كلام الله فليس على المسلمين أن يطلقوا سراحـه كما كان الأمر من قبل : ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

لا ، بل على المسلمين أن يبلغـوه مأمنه ، ثم ينفـذون فيـه حكم الله إما أسراً ، وإمـا حصاراً ، أو قتلاً ؛ حسب الحكم النازل من الله . وعلة تأمين الكافر هى أنه من قوم لا يعلمون حسبما قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦]

إذن فالإيمان ليس بالفطرة فقط ؛ لأن العلم لـه وسائل كثيرة ؛ علم بالفطرة ، وعلم بالاكتساب ، ومرة تكون أداة العلم الأذن ، ومرة بـالعين ، ومرة بالعقل ، والمعلـومات كلها تنشأ عنـد الإنسان إمـا بالأذن ممـا يسمع ، وإما بـالعين مما يرى ، ثـم بعد ذلك تستقر المعانى فى نفس الإنسان .

ولذلك يقـول الحق سبحانـه وتعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ [**النحل** : ٧٨]

وهكذا حدد لنـا القرآن الكريم وسائل العلم بـالسمع والبصر ، فإذا استقرت هذه المعلـومات فى الفـؤاد ، لأنه الـذى يحفظ كل القضايـا العقلية والفكـرية . وإذا كـان الإنسان يسمع ولا يفقه شيئا فهو لا يعلم .

إذن فالمستجير جاء ليطلب وسائل العلم وأدلة الإيمان ؛ وعذره أنه لا يعلم .

وعلينا أن نحسن الظن وأن نعتبر المستجير طـالب علم بالحقيقـة ، ويريـد أن يأخذ أدلة الإيمان .

ثم يعود الحق سبحانه وتعالى إلى مسألة العهد فيقول :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ ﴾

أى لقد جربتم العهـود مع المشركين ، وفى كل مرة يعاهدونكـم ينقضون عهدهم ، وقد نقضوا عهـدهـم مع رسول الله صلى الله عليه وسلـم فى معاهـدة الحديبية ، إذن فالله سبحانه وتعـالى يريد أن يلفتنا إلى أننـا يجب ألا نأمن لعهود المشركين لأنهم لا يحفظون

العهـد ولكنهم ينقضونـه ، وعلى ذلك فعلة نقض العهـد أنهم لم يستقيموا للعهـد من قبل . ويكون بقاء العهد هو الأمر العجيب .

و«كيف» هنـا للاستـــفهام عن الحالـة ، يقـال : كيف حـالك ؟ . تقـول : بخير والحمد لله . إذن فـ «كيف» يُسأل بها عن الحال ، والحال قـد يكون عـاما ، أى كيف حالك وحـال أسرتك وأولادك ومعيشتك إلى آخره ، وقـد يكون خـاصا أن تسأل عن مريـض فتقول : كيف حال فـلان ؟ . فيقال : شُفى والحمـد لله . أو تسأل عن معسر فتقول كيف حـاله ؟ . فيقـال : فرّج الله ضائقتـه . أو تسأل عن ابن ترك البيت هـارباً فيقال : عاد والحمد لله .

إذن فـ «كيف» إن أطلقت تكون عـامـة ، وإن خصصت تكون خـاصة ، ولكنهـا تُطلق مرة ولا يـراد بها الاستفهام ، بل يراد بها التعجب ؛ إمـا تعجب من القبح ، وإما تعجب من الحسن . كأن يقـال لك: كيف سب فـلان أباه ؟ . هنـا تعجب من القبح لأن مـا حـدث شيء قبيح ما كـان يصح أن يحدث . وتأتى لإنسـان اخترع اختراعـاً هامـاً وتقول : كيف وصلت إلى هذا الاختراع ؟. وهـذا تعجب من الحسن . والتعجب من القبح يكـون تعجب إنكـار والتعجب مـن الحسن يكـون تعجب استحسـان كأن نقول : كيف بنيت هذا المسجد ؟ وفى هذه الآية الكريمة يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ [التوبة : ٧]

وهذا تعجـب من أن يكون للمشركين شيء اسمـه عهد ؛لأنهم لا يعرفـون إلاَّ نقض العهد ، ولا يتمسكـون بالعهـود ولا يحترمونها ، إذن يحق التعجب من أن يكـون لهم عهد بينما فى الحقيقة لا عهد لهم .

وهذا التعجب للاستهزاء والإنكار، فأنـت مثلا إذا جاء أحد يهددك، فقلت له: من أنت حتى تهددنى؟. يكون هـذا استهزاء واستنكارا لأنك تعرفـه، وأيضا تستهزىء أن يملك القـدرة على أن ينفـذ تهديـده لك. ومرة تكـون استفهـامـا حقيقيـا، كأن تسأل إنسانا لاتعرفـه: من أنت؟. فيقول لك: أنا فلان بن فلان. وأحيانـا تكون الإجابة عن الكيفية بالكلام، وأحيانا لاينفع الكلام فلابد أن يجاب بالفعل.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

كيف هذه تحمل معنى التعجب الاستحساني؛ لأنك إذا بعثت الحياة في ما لا حياة فيه؛ فهذه مسألة عجيبة تستوجب الاستحسان. ولم يجب سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم باللفظ، بل أجاب بتجربة عملية، ودار حوار بين الحق سبحانه وتعالى وخليله إبراهيم عليه السلام فسأله المولى سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

رد إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أي أنني يارب آمنت، وأضاف القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

والإيمان هو اطمئنان القلب، فكيف يقول إبراهيم آمنت؟ أليس في ذلك تناقض؟. وأقول: إن إبراهيم واثق من أنَّ الله سبحانه خلق الكون كله ولكنه يريد أن يعرف كيفية الإحياء وكيف يحدث، حينئذ لم يجبه الحق سبحانه وتعالى بالكلام، بل أراه تجربة عملية، فقال له:

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أي عليك أن تختار أربعة طيور وتضمها إليك وتتأكد من شكلها حتى إذا ماتت وأحييت تكون متأكدا من أنها هي نفس الطير.

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أي قطّع هذه الطيور بنفسك، وضع على كل جبل قطعة، وبعد ذلك ادْعُها أنت تأتك سعياً أي مشياً، حتى لا يقال إنها طيور قد جاءت من مكان آخر، بل تجيئك نفس الطيور سيراً، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطي القدرة لمخلوق عندما يستدعي الميت أن يأتيه حيا، فما بالك بقدرة الله عز وجل؟

إذن فقول الحق: سبحانه وتعالى

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٧]

وهذا استفهام للإنكار والتعجب من أن المشركين ليس لهم عهد، بل تمردوا وتعودوا دائما على نقض العهود ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]

أى أن الله عز وجل وهو يخبر المؤمنين بأن هؤلاء الكفار لاعهد لهم، لايطالب المؤمنين أن يواجهوا المشركين بالمثل، بل يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يحافظوا على العهد مادام الكافرون يحافظون عليه، إلى أن يبدأ الكافرون فى نقض العهد وهنا يلزم سبحانه المؤمنين أن يقابلوا ذلك بنقض مماثل وهذا مايفسره قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية، إذن فأساس التقوى هو ألا ينقض المؤمن عهداً سواء مع مؤمن أم مع كافر، وإنما الذى يبدأ بالنقض هو الكافر، وعلى المؤمن أن يحترم العهد والوعد.

ويقول الحق تبارك وتعالى من بعد ذلك:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ«كيف»، لأن غدرهم صار معروفا، وكانت «كيف» الأولى استفهاما عن أمر مضى.

والتساؤل هنا يوضح لنا أنهم سيخونون العهد دائما، كما فعلوا فى الماضى، فكأن الذى يخبر فى الماضى يخبر أيضا عن المستقبل ويعلم مايكون منهم. ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله: ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ [التوبة : ٨]

ومعنى «يظهروا»، أى يتمكنوا منكم، وهم إن تمكنوا من المؤمنين لايرقبون فيهم إلاّ ولا ذمّة، و«يرقب» من الرقيب الذى يراقب الأشياء. إذن فهم لايراقبون بمعنى لا يراعون، أى أنهم لو تمكنوا من المؤمنين لا يراعون ذمة ولا عهدا ولا ميثاقا، بل يستبيحون كل شىء. وهذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عما فى نفوس هؤلاء الكفار من حقد على المؤمنين.

ونلاحظ أن كلمة «يرقبون» غير «ينظرون»، وغير «يبصرون»، وهى أيضا غير «يلمحون» وغير «يرمقون»، مع أنها كلها تؤدى معنى الرؤية بالعين، ولكن يرقب تعنى يتأمل ويتفحص باهتمام حتى لاتفوته حركة، لذلك إذا قلنا: إن فلانا يراقب فلاناً، أى لا تفوته حركة من حركاته وهو ينظر لكل حركة تصدر منه. أما كلمة «نظر» فتعنى رأى بجميع عينيه، وكلمة «لمح» تعنى رأى بمؤخر عينيه، و«رمق» أى رأى من أعلى. وقوله سبحانه وتعالى «لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمّة» يعنى لا يراعون فيكم عهداً، ولا يمنع الواحد منهم وازع من أن يفعل أى شىء مهما كان قبيحا؛ والمثال: أن يرفع الرجل القوى يده ليضرب طفلاً صغيراً لا يتحمل ضربته، هنا يمسك أحدهم بيده ويطلب منه أن يراعى أن الطفل صغير لا يتحمل الضرب، وأنه ابن فلان قريبه، وأنهم جيران؛ فلا يراعى هذا كله، وإنما ينهال على الطفل ضرباً.

وقوله سبحانه وتعالى : «إلًّا» هى فى الأصل اللمعان أى البريق، و«إلاّ» أيضاً هى الصوت العالى، واللمعان والصوت العالى لافتان لوسائل الإعلام الحسّية، وهى الأذن والعين، والإنسان إذا عاهد عهداً فهذا العهد يصبح أمراً واضحاً أمامه يلفت عيونه كما يلفتها الشىء اللامع، ويلفت أذنه كما يلفتها الصوت العالى، وسُمى العهد والكلام «إلاّ» لأنه معلوم بالعين والأذن.

هذا هو المعنى اللغوى، لكن المعنى الاصطلاحى لكلمة «إلاّ» هو الغضب، بأن تشد

شيئا كأنك تغصبه على عدم الالتصاق بشيء آخر، ولذلك سُمّى سلخ جلد الشاة غصباً لأن اللحم ملتصق بالجلد، وسُمى أخذ المال غصباً؛ لأن صاحب المال متمسك بماله تمسك الشاة الحية بجلدها. وإذا أطلق الغصب فى الفقه لا ينصرف إلى المعنى اللغوى وهو اللمعان والصوت العالى، وللعلماء فى هذا المعنى أكثر من رؤية، وكل واحد منهم أخذ لقطة من الـ«إل» وأصله اللمعان، أَلّ.. يؤلّ.. إِلاًّ بمعنى لمع.. يلمع.. لمعاً. والـ«إل» أيضاً هو الصوت العالى، وقال ابن عباس والضحاك رضى الله عنهما: إن «إلاًّ» هى القرابة؛ لأن القرابة سبب للتراحم، فأنت يعز عليك أن تخون قريباً لك؛ لأن القرابة لا تحتاج إلى عهد، وقيل إن «إلاًّ» هى العهد.

وقال سيدنا الحسن: إن «إلاًّ» هى الجوار وما يوجبه من حقوقه. وقال قتادة: إن «إلاًّ» هى الحلف والتحالف. وقال أبو عميرة: إن «إلاًّ» هو اليمين أو القسم.

والمعانى كلها تلفتنا إلى وجود نوع من التراحم، بحيث لا تتملك الإنسان القسوة أو انفلات الانفعال، وليجعل الإنسان لنفسه من يقول له: «اهدأ إنه جارك أو من قوم بينهم وبين من تعاهدون صلة قرابة»؛ لأن الذى يجعل الإنسان لا يميل إلى الشر ولا يستشرى فيه ساعة يحفزه الأمر؛ هو مراعاة الملابسات كلها، وهكذا يتدخل الحوار، ولكن قد توجد قرابة أو عهد أو قسم أو جوار ليمنع البطش بقسوة، أى إن «إلاًّ» هو الأمر الذى يمنع الرد بقسوة على شيء قد يكون وقع خطأ. والمعنى أيضاً هو عدم احترام لكل القيم؛ عدم احترام للقرابة أو الجوار أو العهد أو القسم، فإذا تمكن رجل قوى من طفل صغير لم يراع فيه أيا من هذه الأشياء.

ويريد الحق أن نعلم أن المشركين إذا تمكنوا من المؤمنين فهم لا يراعون فيهم قرابة ولا عهداً ولا حلفاً ولا جواراً ولا قسماً ولا أى شيء. إذن فكيف يكون للمشركين عهد؟ وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يراعون فيهم شيئا أبداً.

ثم يضيف الحق سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَلا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]

والذمة هى الوفاء بالأمانة التى ليس عليها إيصال ولا شهود، فإذا اقترض واحد

مبلغاً من شخص آخر وكتب إيصالاً عليه بذلك المبلغ، فهذا الإيصال هو الضامن للسداد، وكذلك إن كان هناك شهود فشهادتهم تضمن الحق لصاحبه. ولكن إن لم يكن هناك إيصال ولا شهود، يصبح الأمر موكولاً إلى ذمة المقترض؛ إن شاء هذا المدين اعترف بالقرض، وإن شاء أنكره، وهناك ذمة أخرى هى التى بينك وبين نفسك، والمثال على ذلك قد تعاهد نفسك بأن تعطى فلاناً كل شهر مبلغاً من المال، وهذا أمر ليس فيه عهد مكتوب أو شهود لكنه متروك لذمتك، إن شئت فعلته، وإن شئت لم تفعله. وما فى الذمة ـ إذن ـ هو شىء إنْ لم تفعله تُفضَح، مثال ذلك: أن تقرر بينك وبين نفسك أن تساعد أسرة ما، وهذا أمر خاضع لإرادتك، فلا عهد يجبرك على ذلك ولا قرابة ولا جوار، لا شىء إلا ذمتك، ولذلك فأنت تراعى الوفاء بما وعدت نفسك به لتحافظ على سمعتك ورؤية الغير لك. وكذلك أيضاً حين تأخذ ديناً بلا إيصال منك أو شهود عليك، ولكنك تحرص على أن ترده لأنه فى ذمتك.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾ [التوبة]

وهكذا نعرف أن «كيف» هنا تعجب من أن يكون للمشركين الآن أو فى المستقبل عهد لأنهم يحترفون نقض العهود ولو تمكنوا من المؤمنين فهم ينكلون بهم أبشع تنكيل دون مراعاة لأى اعتبار، وقد يقول قائل: إنهم معنا على أحسن ما يكون؛ بشاشة وجه وحسن استقبال إلى آخره، فكيف إذا تمكنوا منا انقلبوا إلى وحوش لا ترحم؟. ونقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يظهر وما يخفى، وقد علم ما يدور فى خواطر المؤمنين فرد عليهم حتى لا يترك هذه الأشياء معلقة داخل نفوسهم، ولذلك يريد سبحانه وتعالى على هذا الخاطر:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]

أى أن الله عز وجل ينبه المؤمنين ويحضهم ألا يصدقوا الصورة التى يرونها أمامهم من المشركين؛ لأنها ليست الحقيقة، بل هو خداع ونفاق؛ فهم يقولون القول الحسن،

ويقابلونك بوجه بشوش وألفاظ ناعمة، لكن قلوبهم مليئة بالحقد عليكم أيها المسلمون بحيث إذا تمكنوا منكم تظهر مشاعرهم الحقيقية من البغض الشديد والعداوة، ولا يرقبون فيكم إلاّ ولا ذمّة. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة : ٨]

فعلى المؤمنين أن يصدقوا ما جاء من الحق، ويكتشفوا أن اللسان الحلو وحسن الاستقبال ليس إلا خداع، من هؤلاء الأعداء، وهو سبحانه بهذا الكشف إنما يعطينا مناعة بألاّ ننخدع بما نراه على وجوههم؛ فهذا مجرد أمر استقبالى، لا يمثل ماضياً أو حاضراً، وحين يبرم سبحانه وتعالى أمراً استقباليا فهو يخبر به عباده المؤمنين، ولذلك نجده سبحانه وتعالى يرد بنفس الأسلوب على هذه الخواطر والمثال: فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨]

والبلاغ هنا نهى عن دخول المشركين المسجد الحرام أو اقترابهم منه، ومن الطبعى أن تدور الخواطر هنا فى نفوس عدد من المؤمنين الذين يستفيدون من المشركين فى مواسم الحج، لأنهم أمة تعيش على اقتصاد الحج، حيث يبيعون السلع لهؤلاء القوم ليكسبوا قوت العام، فإذا ماتم منع المشركين من الحج أو الاقتراب من المسجد الحرام، فمن أين يأتى الرزق الذى يحصلون عليه من البيع لهم؟ ولابد أن يفكر المؤمنون: من أين سنأكل؟. نحن نحضر بضاعتنا وننتظر طوال الموسم حتى الحج؛ فإذا نقص عدد الحجاج فلمن نبيع؟.

فيرد الله سبحانه وتعالى على هذه الخواطر بقوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٢٨]

أى لا تخافوا الفقر، لأن الله يعلم ما سوف يحدث، والله هو الغنى وعنده مفاتيح كل شيء وسوف يغنيكم من فضله ويفتح لكم باب الرزق مما يعوضكم وزيادة. وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على الخواطر التى تدور فى نفس المؤمن ساعة نزول القرآن؛ حتى

تطمئن قلوب ونفوس المؤمنين فيقول عز وجل:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]

وفى هذا القول رد على الخواطر التى دارت فى نفوس المؤمنين؛ وهم يرون المشركين يستقبلونهم بألفاظ ناعمة ووجوه تملؤها البشاشة، فأوضح لهم الحق سبحانه وتعالى: لا تنخدعوا فما فى القلوب عكس ما هو على الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]

يبين أنهم بعيدون عن المنهج ، فالفسق هو الخروج عن الطاعة، وهل الكافر والمنافق له طاعة؟.

نقول: إنك إن نظرت لهؤلاء تجدهم خارجين حتى عن المنهج الذى اتخذوه لأنفسهم؛ فهم لا يلتزمون بمنهج الباطل الذى يعتنقونه، إذن فهم فاسقون حتى فى المنهج الذى ينتسبون إليه، فإذا كانوا كذلك مع منهج الباطل، فكيف بهم مع منهج الحق؟.

وقوله تعالى: ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ يوضح بأنه قد تكون هناك قلة ملتزمة، وهذا احتياط قرآنى جميل، كما أنها ردت على السؤال الذى قد يتبادر إلى الذهن أن هؤلاء كافرون ـ وليس بعد الكفر ذنب ـ فكيف يقال إنّهم فاسقون أى عاصون أو خارجون عن الطاعة وهم غير مؤمنين أصلا؟.

نقول: إنهم خارجون حتى عن مناهج الكفر التى اختاروها لأنفسهم، ولذلك يبين الله سبحانه وتعالى وضعهم حين يقول:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وهكذا يرينا الله عز وجل انقلاب المعايير عندهم، فما الشراء؟. الشراء هو: الحصول

على سلعة مقابل ثمن، فإذا قلت: اشتريت ساعة مثلاً، تكون أنت المشترى مادمت تدفع الثمن، والذى أخذ الثمن هو البائع، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [التوبة: ٩]

وكان المفروض ـ إذن ـ أن يكونوا قد دفعوا الثمن، لأن المشترى هو الذى يدفع الثمن، ولكن هنا عُكست القضية؛ فجعل الحق سبحانه وتعالى الثمن هو مايشترونه، مع أن الثمن هو الذى يدفع، فتكون القضية مخالفة لواقع البيع والشراء، والذى يجب أن نلاحظه أيضاً هو أن الثمن يساوى السلعة. فأنت تأخذ السلعة وتعطى للبائع ثمناً يساويها، لأن ثمن كل شيء يجب أن يكون مناسباً له، فإذا اشتريت شيئا بسيطاً دفعت له ثمناً بسيطاً، وإذا اشتريت شيئا ثميناً دفعت فيه ثمناً غالياً.

هذا كله ملحوظ حتى فى الأعمال، وقد تكون ممن يرغبون فى مشاكسة الغير، وقد تجد من يشاكس غيره؛ يطلب من أحد أتباعه أن يسب فلاناً ويعطيه عشرة جنيهات، فإذا أراد أن يجعل التابع يضرب خصمه، يقول له: اضرب وأعطيك خمسين، وإن أراد أن يقتل التابع خصمه فهو يعطيه الألوف من الجنيهات، وغالبا مايقول هؤلاء الذين بلا إيمان: كل ذمة قابلة للانصهار بالذهب، لكن المختلف قيمة هو الكمية التى تصهر أى ذمة، فهناك من تنصهر ذمته بريال، وآخر تنصهر ذمته بعشرين أو ثلاثين، وهناك من تنصهر ذمته بملايين.

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار قد حوّلوا الإيمان إلى سلعة تباع وتشترى، فهم قد باعوا إيمانهم، وبدلا من أن يتقاضوا عنه مايساوى الإيمان والإيمان أغلى من كنوز الدنيا كلها ؛ باعوا إيمانهم بثمن قليل، أى أنهم حتى لم يقدروا قيمة الإيمان فباعوه رخيصاً. كيف باعوا الإيمان بثمن رخيص؟.

نقول مثلاً: إن الذى يرتشى يفعل ذلك ويريد أن يعوجّ ميزان الحق، والذى يغير ميزان الحق يشكك الناس فى العدالة، وإذا شك الناس فى العدالة؛ فقدوا سندهم الأمنى؛لأن كل مظلوم أمله أن يرفع الأمر للقضاء فينصفه، أو أن يرفع أمره للمسئول فيعطيه حقه، فإذا أحس الناس بأن الحق قد ضاع نتيجة أنه أصبح هناك ثمن للإيمان.

وإن دفع اختلت الموازين، فى هـذه الحالـة يفسـد المجتمع كلـه، فكأنهم بـاعـوا فسـاد المجتمع كله بثمن قليل جدا.

كما أن الحق سبحـانه وتعـالى يـريد أن يلفتنـا إلى الحسـاب يـوم القيامـة؛ وكيف أن المؤمنين سيخلدون فى الجنة وينعمـون بما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، وسيـدخل هؤلاء الكـافرون النـار وبذلك يكـونـون قد بـاعوا إيمانهم مقـابل ثمن رخيص مهما كان المال الذى سيحصلـون عليه ؛ لأن مال الدنيا كلها لايسـاوى يوماً فى الجنة؛ لأن الـدنيا موقـوتة بزمن، ومتـاعها محدود وقليل، فكأنهم باعـوا الخلود فى النعيم بمتعة وقتيـة قد لاتستمر إلا أيـاماً أو سنوات. وحينئـذ يعرف الكافـرون أن الثمن الذى تقاضوه قليل جدا بالنسبة لما خسروه. وليتهم جعلـوا الإيمان ثمناً يدفعونه للحصول على متاع قليل فى الدنيا، ولكنهم زادوا على ذلك أنهم صدوا عن سبيل الله.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ [التوبة : ٩]

والصد يحدث حين تكون هناك دعوة معـروضة بأدلتها فتمنع الناس من أن يستمعوا إليها، لأنك تعرف أنهم لوسمعوها لاعتنقوهـا واقتنعوا بها، ولذلك نجد الكفار مثلاًحين نـزل القرآن والعـرب أمة بـلاغة وأمـة بيان؛ عـرفوا أنـه لو سمع النـاس القرآن لأحسـوا بإعجـازه وبلاغتـه وحـلاوته ولآمنـوا به، ولـذلك يقـول الحق سبحـانه وتعـالى على ألسنتهم فى القرآن: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

لأن الكفار يعرفـون أن الناس لو استمعوا للقرآن لآمنوا بـه، ولذلك فهم ينهونهم عن السماع، وإن قـرأ أحد القـرآن يأمـرون بعضهـم البعض بـاللغو فيـه حتى لا يفهـم شيئـا، وهذه شهادة من الكفار بأن الآذان لو استقبلت القـرآن لآمنت، واللغو هو نوع من الصد عن سبيل الله، وكان هنـاك نوع آخر من الصـد عن سبيل الله أنهم كانوا يمنعـون الناس من الاستماع إلى دعـوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم يعـرفون أن حلاوة الدعوة ستـجعل من يستمع إلى دعـوة الرسـول يؤمن بها. ولـذلك فهـم يصـدون النـاس عن

كلام الله تعالى وعن الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقولون لأهل الحجيج: لاتصدقوا الرجل الذى يقول إنه نبى، وهذه شهادة منهم أن الآذان لو استقبلت القرآن لسحبت أفئدتهم إلى الإيمان ، وهذه شهادة ضدهم وليست لهم؛ لأنهم واثقون أن سماع الحجيج لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستبعدهم عن الكفر؛ لذلك كانوا يخافون من أن يتأثر الناس بهذا الدين الذى هو دين الحق فيؤمنوا به وهذا ماجعلهم يصدونهم عنه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ٩]

وساء أى قبح، وليس هو قبح الآن فقط، ولكنه قبح حاليا وعظمت العقوبة عليه مستقبلاً .

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ٩]

يرينا دقة القرآن الكريم فى أن السيىء منهم ليس عملاً واحداً ولكنه أعمال متعددة؛ قول وفعل، أى هم يصدون الناس بالكلام ويمنعونهم باستخدام القوة فى بعض الأحيان. وباستخدام الحق لكلمة «يعملون»؛ يلفتنا إلى أن أعمالهم ليست قولاً وليست فعلاً فقط، فهناك القول وهناك الفعل وكلاهما عمل؛ القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح. فلو قال الحق: ساء ما كانوا يفعلون، لقلنا فعلوا ولم يقولوا. ولو قال: ساء ما كانوا يقولون، لقلنا: قالوا ولم يفعلوا. وسبحانه أوضح لنا أن القول والفعل كلاهما عمل، وقال سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ليبين لنا أن هناك فرقاً بين القول والفعل؛ القول أداته اللسان، والفعل أداته بقية الجوارح، والمعنى فى قوله تعالى: «إنهم ساء ما كانوا يعملون» أى ساء قولهم وفعلهم.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ ﴾

ومن لايرقب إلّاً ولا ذمة فى غيره إنما يظلمه، فإذا كان بينى وبينك قرابة، أو عهد، أو إيمان، فإن لم تراع ذلك تكون قد اعتديت على حقوقى عندك، وليتك قد اقتصرت فى الاعتداء على حقوق الغير، لكنك ـ أيضا ـ اعتديت على نفسك، لأنك أعطيتها متاعاً قليلاً فى الدنيا، وتصلى فى الآخرة ناراً، إذن فقد ظلمت نفسك. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨]

وأليس الذى فعل فاحشة، يظلم نفسه؟ بلى، ظلمها فى الآخرة بعد أن أعطاها شهوة فى الدنيا، أى أنه أخذ متعة عاجلة بعذاب آجل. لكن الذى يظلم نفسه ظلما شديدا وبيِّناً هو الذى يرتكب إثما دون أن يأخذ متعة فى الدنيا، فلا هو أخذ متعة دنيا ولا أخذ متعة آخرة، مثل الذى يتطوع لشهادة الزور، هو يأخذ عذاباً فى الآخرة ولم يأخذ متعة فى الدنيا.

وقد يقول قائل: إن هذه الآية مكررة لأن الله تعالى قال من قبل :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ﴾ [التوبة : ٨]

ونقول: إن الموضوع يختلف، ففى الآية الثامنة من سورة التوبة يبين الحق أنهم إن تمكنوا من المؤمنين فلن يراعوا قرابة ولا جواراً ولا حلفاً، وإن أظهروا عكس ذلك. أما فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فهم يظلمون أنفسهم ويبيعون إيمانهم بثمن قليل، وهناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس.

وهم في صـدهم عن سبيل الله تعـالى وعـدوانهم على المؤمنين، لم يحصلوا على فـائدة دنيويـة، بل حاربوا الإيمان وحاربـوا الدين فأخذوا الإثم ولم يستفيـدوا شيئا، فكأنهم لا يـرقبون إلاّ ولا ذمـة حتى مع أنفسهم. ولـذلك وصفهم الحق سبحـانه وتعـالى بأنهم هم المعتدون، لأنهم دون أن يُعتدى عليهم تطوعوا بـالعدوان على دين الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ثم قاموا بـالعدوان على أنفسهم. ومن بعد ذلك تأتى رحمة الله لترينا كيف أن الله تعالى رحيم بعباده وخلقه، فـالحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأنهم مهما فعلوا فإنهم إن تابوا يقبل الله توبتهم، لذلك يقول الحق جل جلاله:

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمـة تؤكد لنا أن الإسلام يَجُبُّ ماقبله، وأن البـاب مفتوح دائما لتوبة المشركين والكافـرين مهما كانت ذنوبهم، وهكذا تكـون رحمة الله تعالى. ونلحظ أن الحق سبحانه وتعـالى قال: «فإن تابوا» ولم يقل إذا تابـوا، لأنه لو قال: إذا تابـوا تكون توبتهم مؤكدة، ولكن قوله : «فإن تابوا» فيهـا شك، لأن مافعلوه ضد الإيمان كثير، والذى نأمله فيهم قليل، ولكن التوبـة تفترض أن يباشر التائب بعـدها مهمته الإيمانية. ولـذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة : ١١]

إذن فـالمهمة الإيمانيـة بعد التـوبة إنما تكـون بشهادة أن «لاإلـه إلا الله محمد رسـول الله»، وبطبيعة الحال لابد من مباشرة الصـلاة لأنها تجمع كل أركان الإسلام، وهى عمل يومى، وليست عملاً مطلوباً من الإنسـان مـرة واحدة كالحج، وليست كالصوم، فالصوم مدتـه شهر واحد من السنـة. إذن لكى تتأكد التوبة فـلابد أن يؤدى التـائب الصلاة فى وقتهـا كل يوم فهى العمل اليـومى الـذى لايؤجل ولايتأخـر عن وقتـه، والصلاة قـرنت

غالباً بالزكاة فى آيات القرآن الكريم؛ لأن الزكاة تضحية بالمال، والمال ناتج العمل، والعمل ناتج الوقت، والصلاة تضحية بالوقت، فكأن الصلاة ـ كما قلنا ـ فيها زكاة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [التوبة]

إنه لابد أن نلاحظ فى التفصيل هنا المراحل الإيمانية التى بينها الله عزوجل لنا؛ المرحلة الأولى وهى تحمل الاضطهاد والصبر، والمرحلة الثانية أنه لامهادنة بين الإيمان والكفر، وهذه حسمت محاولة الكفار تمييع قضية الإيمان بأن نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة، وكانت هذه عملية مرفوضة تماماً الآن وفى المستقبل وحتى قيام الساعة. ثم جاءت مرحلة المعاهدات ثم نقض العهود ثم مهلة الأشهر الأربعة الحرم التى أعطيت للكافرين. وكل هذه مسائل مقننة، ولم تكن الأمة العربية تعرف التقنينات.

إذن فكل هذه التقنينات جاءت من السما، والتقنينات فى الأمم تأخذ أدوارا طويلة، ولايوجد قانون بشرى يولد سليماً وكاملا، بل كل قانون يوضع ثم تظهر له عيوب فى التطبيق، فيعدّل ويطور ويفسر ويحتاج إلى أساطين القانون الذين يقضون عمرهم كله فى التعديلات والتفصيلات، فكيف ترتب هذه الأمة العربية الأمية التى لم يكن لها حظ من علم ولاثقافة كل هذه التقنينات؟.

نقول: إنها لم ترتب، وإنما رتب لها ربها الذى أحاط بكل شىء علماً، فكل هذه المراحل التى مربها الإيمان نزلت فيها تقنينات من السماء تبين للمؤمنين مايجب أن يفعلوه.

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]

ونحن عادة نعرف أخوة النسب، فهذا أخى من أبى وأمى، أوهذا أخى من الأب فقط ، أو هذا من الأم فقط، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٥٨]

هذه أخوة النسب، ونحن نعلم أن مادة الأخوة تأتى مرة لتعبر عن أخوة النسب،

وتأتى مرة كلمة «إخوان» لتعبر عن الأخوة فى المذهب والعقيدة، وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يرفع الإيمان إلى مرتبة النسب، فقال عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠]

ليدلنا على أنهم ماداموا قد دخلوا معنا فى حظيرة الإيمان فلهم علينا حق أخوة النسب فيما يوجد من تواد وتراحم، وترابط وحماية بعضهم البعض دائما، وحب ووفاق إلى آخر مانعرفه عن حقوق الأخوة بالنسب.

ولكن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]

ولم يقل إخوانكم، لماذا؟.

نقول: ليس من المعقول أن يخرجوا من كل ماكانوا فيه من آثام بالتوبة، ثم يصبحوا فى نفس التو واللحظة إخوة، لكن ذلك يحدث عندما يتعمق إيمانهم، ويثبت صدق توبتهم حينئذ يصبحون إخوة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :﴿ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١]

كيف يكون التفصيل لمن يعلم؟. ومادام يعلم فلماذا التفصيل؟.

ونقول: إن المعنى هنا أن الله سبحانه وتعالى يفصل الآيات لمن يريدون أن يعلموا العلم الحقيقى الذى يأتى من الله، لأن هذا العلم له أثر كبير على مستقبل الإيمان، ولذلك فغير المسلمين الذين يهتمون بدراسة الدين الإسلامى دراسة جادة للبحث عن العلم الحقيقى ينتهون إلى إعلان إسلامهم، لأنهم ماداموا أهل علم وأهل مواهب وأهل طموح فى فنونهم، ومادامت شهوة العلم قد غلبتهم، وأرادوا أن يدرسوا منهج الإسلام بموضوعية، لذلك تجدهم يعلنون الإسلام لأنهم ينظرون النظرة الحقيقية للدين الذى يدرسونه، وهم يأخذون الإسلام من منبعه الإيمانى وهو القرآن الكريم والسنّة النبوية، ولا يأخذون الإسلام من المنسوبين للإسلام، أى من المسلمين ؛ لأن المسلمين قد يكون فيهم عاص، وقد يكون فيهم سارق، وقد يكون فيهم مُرْتَشٍ، وقد يكون فيهم كذاب، وقد يكون فيهم منافق، ولو أخذوا الإسلام عن المسلمين لقالوا: ماهذا؟ معصية وسرقة وكذب ورشوة ونفاق؟!

إننى أقول دائماً لمن لم يدرس الإسلام من أهل البلاد الأخرى: لاتنظر إلى المنسوبين للإسلام، ولكن انظر إلى الإسلام فى جوهره ومنهجه: (القرآن السنة)؛ هل جرم الرشوة والسرقة والكذب والنفاق وجعل لها عقوبة أو لا؟ نعم جرّمها.

إذن فهذه الأفعال كلها التى وجدتها فى عدد من المسلمين واستنكرتها ليست من الإسلام فى شىء، ولكنك إذا ذهبت إلى الإسلام لتعرفه من منابعه العلمية وهى معزولة عن المنسوبين إليه لانتهيت إلى الإيمان.

ولذلك لو عرف المسلمون الذين ينحرفون عن المنهج، ماذا يفعلون بالإسلام وكيف يسيئون إليه؛ لعلموا أنهم يفعلون شيئا خطيراً؛ لأن الإسلام منهج وسلوك، وليس منهجا نظريا فحسب، بل هو منهج عملى يطبق فى الحياة، ولذلك فإذا كان القرآن الكريم يمثل قواعد المنهج، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل المنهج العملى التطبيقى للإسلام. ويقول الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]

والمسلم حين يطبق منهج الإسلام يلفت نظر غير المسلم إلى هذا الدين ويحببه فيه [1]، وحين يفعل مالا يرضاه الإسلام يُنَفِّرُ غير المسلم من الدين، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف]

لأن فعلك حين يختلف مع الدين الذى تدعو إليه وتؤمن به، فهو يتحول

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً، ووضعت طيبا، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩)

إلى حجة ضد الدين، فيقول غير المسلم: لقد رأيت المسلم يغش، ورأيته يسرق، ورأيت يده تمتد إلى الحرمات، إذن فكل منحرف عن الدين إنما يحمل فأساً يهدم بها الدين، ويكون عليه وزر عمله، ووزر من اتخذوه قدوة لهم[1].

ولقد قلنا : إننا حين ننظر إلى التمثيل الدبلوماسي في العالم الإسلامى، نجد اثنتين وسبعين دولة إسلامية لها سفارات فى معظم دول العالم، وأتساءل: كم من أفراد هذه السفارات يتمسك بالمظهر الإسلامى؟. أقل القليل. وكم من الجاليات الإسلامية فى الدول الأجنبية يتمسكون بتعاليم الدين؟. أقل القليل. ولو أنهم تمسكوا جميعا بتعاليم الإسلام لعرفت دول العالم أن لهذا الدين قوة ومناعة تحميه. وأن هذه المناعة هى التى منعت الحضارة المادية المنحرفة من أن تؤثر فى هؤلاء، ولكان لفتة قوية لشعوب العالم لكى تدرس هذا الدين، ولكنك تجدهم يذوبون ويتهافتون على الحضارة المادية للدول التى يقيمون فيها، مما يجعل شعوب هذه الدول تقول: لو كان دينهم قويا لتمسكوا به، ولم يتهافتوا على حضارتنا.

وإذا درسنا تاريخ الإسلام نجد أنه لم ينتشر بالقتال أو بالسيف؛ لكنه انتشر بالأسوة الحسنة، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة]

أى نبينها لقوم يبحثون عن العلم الحقيقى، الذى بينه الله عز وجل فى منهجه، ولذلك نجد مثلا أنه إذا وصلت أمة من الأمم إلى كشف جديد فأهل العلم فى الإسلام يعرفون أنه ليس كشفا جديداً؛ لأن الإسلام ذكره منذ وقت طويل.

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لاينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٧٤) وأحمد فى مسنده (٢ / ٣٩٧) الترمذى (٢٦٧٤) وابن ماجه (٢٠٦). قال الترمذى: حديث حسن صحيح .

فمثلاً فى القانون فى ألمانيا وصلوا إلى مادة فى القانون سموها: «سوء استغلال الحق» فأنت لك حقوق ، ولكنك قد تسىء استغلالها. وبدأت الدولة فى ألمانيا تتجه نحو تشريع قوانين تهدف لمنع إساءة استغلال الحقوق ووضع شروح لهذه القوانين وتطبيقها إلى آخره ، وذهب محام مسلم من بنى سويف ليحصل على الدكتوراه من ألمانيا ، فاطلع على هذه المسألة ، وقد كان يحضر محاضرة يلقيها صاحب قانون نظرية «سوء استغلال الحق»، فقام المحامى المسلم وقال له: أنت تقول إنَّك واضع هذه النظرية؟. فقال المحاضر الألمانى: نعم. فقال المحامى: لقد جاءت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً فى منهج الإسلام. وارتبك المحاضر الألمانى ارتباكا شديداً ، وجاء بالمستشرقين؛ ليناقشوا هذا المحامى المسلم، وجاءوا بكتب السيرة النبوية، وأخرج المحامى للمستشرقين قصة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جالسا فجاءه صحابى يشكو من أن أحد الصحابة له نخلة فى بيته، والبيت مملوك للصحابى الشاكى، والنخلة مملوكة لصحابى آخر ،وقد تعوَّد أن يأتى الصحابى صاحب النخلة إليها كثيراً ليشذبها ويلقحها ويطمئن عليها ،وكأنه قد جعلها «مسمار جحا» كما يقول المثل الشعبى، فتعرضت عورة أسرة الصحابى صاحب البيت إلى الحرج، فذهب يشكو الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحضر الرسول صاحب النخلة وأوضح له بما معناه : «إما أن تهب النخلة لصاحب البيت ،وإما أن تبيعها له بالمال ، أو أن تقطعها[1]» .

لقد أوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم: أن النخلة حقك ولكنك

(١) عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إن لفلان فى حائطى عذقا وإنه قد آذانى وشق على مكان عذقه فأرسل إليه النبى ﷺ فقال: بعنى عذقك الذى فى حائط فلان. قال: لا، قال: فهبه لى، قال : لا. قال : فبعنيه بعذق فى الجنة ، قال : لا . فقال النبى ﷺ: «مارأيت الذى هو أبخل منك إلا الذى يبخل بالسلام».
أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٣٨) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٠) والبزار (٢٠٠٠) فى كشف الأستار. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/ ١٢٧): «فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وفيه كلام وقد وثق».

أسأت استعمال الحق بكثرة ذهابك إلى مكانها بسبب وبغير سبب، مما عرَّض عورة صاحب البيت للمتاعب[1]. وكان هذا الفعل هو المثل الحى لسوء استغلال الحق. وكان من أمانة العلم أن يعدل أستاذ القانون الألمانى فى محاضرته ويقول: لقد ظننت أننى قد جئت بشىء جديد، ولكن الإسلام سبقنى إليه منذ أربعة عشر قرنا. وفعلا تم التعديل. واعترف القانون الألمانى بأن الإسلام قد سبقه فى نظرية «سوء استغلال الحق» منذ ألف وأربعمائة سنة.

ولذلك تجد أن صفة الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وفى أمته[2]، كانت شهادة تفوق ؛ لأنها لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة، وإنما أخذته عن الله؛ لأن أقصى مايصل إليه غير الأميين فى علمهم أن يجىء إليهم العلم من بعضهم البعض، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء لها العلم من الله ،وسادت الدنيا أكثر من ألف عام.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

ونكثوا الأيمان : أى لم ينفذوا بنود العهود، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التى حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا

(١) وقد أرشدنا رسول الله ﷺ لأدب عدم الاطلاع على عورات المسلمين، فعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل من جحر فى حجر النبى ﷺ ومع النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦)

(٢) قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قال القرطبى فى تفسيره: (الأمى): منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها. لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها . قاله ابن العربى. وقال ابن عباس: كان نبيكم ﷺ أميا لايكتب ولايقرأ ولايحسب. قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]

العهود، ولم يكتفوا بذلك بل طعنوا فى الدين. أى عابوا فى الدين عيباً مقذعا. وعندما يقال: إنَّ فلاناً طعن فى فلان، فلابد أنه قد تجاوز مرحلة السب إلى مرحلة أكبر بكثير. وهنا يأمرنا الحق - سبحانه وتعالى - إما بقتالهم، وإما أن يعلنوا الإيمان. وهذا حق للمسلمين لأنهم قدموا من قبل كل سبل المودة ، لكن أئمة الكفر رفضوها.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أى : أن القتل يأتى أولاً لزعماء الكفار الذين يحرضون أتباعهم على محاربة دين الله، فالأتباع ليسوا هم الأصل، ولكن أئمة الكفر؛ لأنهم هم الذين يخططون وينفذون ويحرضون[1]. وهم - كما يقال فى العصر الحديث - مجرمو حرب؛ والعالم كله يعرف أن الحرب تنتهى متى تخلص من مجرمى الحرب؛ لأن هؤلاء هم الذين يضعون الخطط ويديرون المعارك ويقودون الناس إلى ميادين القتال، تماماً كأئمة الكفر، هؤلاء الذين اجترأوا على أساليب القرآن الكريم، ومنعوا القبائل التى تأتى للحج من الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وحاربوا الدين بكل السبل من إغراء وتحريض، وتهديد ووعيد.

والأمر العجيب أنك ترى من يبرر لك قتل مجرمى الحرب ويستنكر قتل أئمة الكفر، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢]

ويقول الحق عز وجل فى ذات الآية:

﴿ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢]

وفى هذا يأتى المستشرقون ومن يميلون إليهم بقلوبهم ويُحَسِّبون علينا

(١) قال تعالى فى سورة سبأ: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ [سبأ: ٣٣]

بقوالبهم وظواهرهم ليقولوا: إن هناك تناقضاً، فالله يقول: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى أثبت أن لهم أيماناً، ثم قال: ﴿لَاأَيْمَانَ لَهُمْ﴾. فكيف يثبت لهم الأيمان ثم ينفيها عنهم؟. والنفى والإثبات لايجتمعان فى وصف الشخص الواحد؛ ونقول: إنهما لايجتمعان عند من يفكر تفكيرا سطحيا ، أو يأخذ الأمور بظواهرها. ولكن من يعرف مرامى الألفاظ، يعلم أن نفى الشىء وإثباته فى القرآن الكريم يعنى : أن الجهة منفكة. فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧]

فقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفى للرمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، و﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للرمى. ويجىء نفى الشىء وإثباته فى آية واحدة، والفاعل والفعل واحد. وهذه تسمى فى الأسلوب انفكاك الجهة، أى أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى، تماماً مثلما يقال : إن فلاناً يسكن أعلى منى. فهذا قول صحيح، ولكنه فى ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه ، إذن فهو عالٍ وأسفل فى نفس الوقت؛ عالٍ عمن تحته وأسفل ممن فوقه.

أو تقول: ـ كمثال آخر ـ فلان أب وابن. هنا يبدو تناقض ظاهرى، أى أنه أب لابنه ،وابن لأبيه، فهو أب من جهة الابن، وابن من جهة أبيه، ولا يوجد تعارض. وهذا ما نسميه انفكاك الجهة.

إذن فلا يوجد أدنى تعارض بين نفى الرمى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثباته له ؛ لأن رسول الله أخذ حفنة من الحصى ورمى بها جيش الكفار[1] ، هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من البشر، لكن قدرة

(١) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما: رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال:" يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا" فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين ". أخرجه أبو نعيم (ص٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

الله سبحانه وتعالى أخذت هذا الحصى وأوصلته إلى كل جندى من جيش الكفار، وفى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
[الروم: ٦، ٧]

لقد قالوا: إن الله نفى العلم وأثبته لنفس الأشخاص، ونقول: لا، إنه نفى العلم الحقيقى، وأثبت لهم ظاهر العلم، وهذا مختلف عن ذلك تماماً، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيمانَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]

أثبتت الآية أن لهم أيماناً، وفى آخر الآية ينفى عنهم الأيمان فيقول:

﴿ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]

ونقول: فائدة الأيمان أو العهد أن يُحافظ عليه، ومن لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه أى عهده لا قيمة له؛ لأنه مجرد من الوفاء. وعندما يحلف الكذاب نقول: هذا لا يمين له. وهؤلاء أيمانهم لم تأخذ قداسة الأيمان، فكأنهم لا أيمان لهم، كأن يكون لك ابن اقترب امتحانه وتجبره على المذاكرة، وتجلس تراقبه فيقلب الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً. وإن حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئا، فتقول: ذاكرت وماذاكرت ، وهذا نفى للفعل وإثباته ولا تناقض بينهما : لأن الجهة منفكة.

ونفى الأيمان فى آخر الآية معناه : أنهم لا وفاء لهم، وما داموا بلاوفاء فلاقيمة لأيمانهم. وقوله تعالى:

﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢]

هذا أمر بقتالهم لا بقتلهم، فيكون المعنى: قاتلوهم، فإن لم يقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عدائهم للدين؛ لأنهم حين يرون البعض منهم قد

قتل وهم أضعف من المواجهة، هنا ستخف حدة محاربتهم للإسلام ،وتنتهى اللجاجة فى أمر الدين.

ثم يقول الحق من بعد ذلك:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

فى هذه الآية الكريمة يحض المولى سبحانه وتعالى على جهاد ، وقتال أئمة الكفر، وعدم تركهم يستشرون فى حربهم للدين ، ومنع الناس عن الإيمان، وصدهم عن سبيل الله. و«أَلَا» تسمى أداة تحضيض، مثل قولنا: ألا تذهب إلى فلان، وهى حث على الفعل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع الطلب. وقوله تعالى: ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى نقضوا عهودهم، وقوله تعالى: ﴿وهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾أى : هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، و﴿هَمّوا﴾، أى عقدوا النية على العمل، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى :أنهم هم الذين بدأوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم. والبدء هو : العمل الأول، و«المرة» هو فعل لايتكرر ؛ لأنه إن تكرر نقول: ﴿مرتين﴾ ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]

هم إذن الذين بدأوا الفعل الأول بالعداوة.و الإسلام ـ كما نعلم ــ قد واجه

قـوتين فى مرحلتين مختلفتين من مـراحل الـدعوة لـلإسلام : قـوة المشركين من قريـش، وقوة اليهـود، وأما قريـش فقد هموا بأن يخرجـوا الرسـول صلى الله عليه وسلم من مكة، وقد يقول قائل: لكـن المؤمنين هم الذين بدأوا القتال فى بدر. وأقول: لم يـذهب المسلمون إلى بـدر للقتال، بل ذهبـوا من أجل العير تعـويضا عن مالهم الـذى تركوه فى مكة، ولكن الكفـار قالوا: لن نـرجع حتى نسـتأصل محمداً ومن معه، وجـــاءوا بالنفير ليقاتلوا فى بدر[1].

إذن فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبى سفيان [2] إلا أن قريشا هى التى أرادت القتال فجمعوا الجند والفرسان ؛ ليقاتلوا المسلمين.

وكذلـك فعل اليهود، فقـد نكثوا أيمانهم وهموا بإخـراج الرسول مـن المدينة. كما حاول المشركـون إخراجـه من مكة، وكـان بينه صلى الله عليـه وسلم، وبين اليهـود معاهـدة، وهذه المعـاهدة كـانت من أوائل أعمال رسول الله فى المدينـة، فهل حافـظ اليهود على هذه العهـود؟. لا ، فقد تعهـدوا ألا يعينوا عـدوا عليه، ونكثوا أيمانهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشا على المسلمين.

وكـذلك فعل بنو النضير ، فقـد أرادوا اغتيـاله صلى الله عليـه وسلم، وذلك بإلقاء صخـرة عليه، بل وتمادى اليهود فى غـزوة الأحزاب وأعـانوا قريشـا ضد رسـول الله صلى الله عليه وسلـم، واتفقوا معهم على أن يـدخلـوهم من أرضهم بالمدينة ليفاجئوا رسول الله وجيش المسلمين من الخلف.

إذن فقـول الحق سبحانـه وتعـالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لها أكثـر من

(١) جـاء فى سيرة النبى (٢/ ٢٤٧) لابن هشام أن ضمضم بن عمـرو كان يستصرخ قـريشا وهـو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره قد جدع بعيره (أى : قطع أنفه)، وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يامعشر قريش اللطيمـة اللطيمة (هـى: الإبل تحمل الطيب) أموالكـم مع أبى سفيان، قـد عـرض لها محمـد فى أصحابـه، لاأرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

(٢) وذلك أن أبا سفيان غيَّر طـريقه إلى مكة ومعه قافلـة قريش، فأخذ طريق السـاحل وترك بدرا وانطلق حتى أسرع، قال ابن إسحـاق: ولما رأى أبوسفيـان أنه قد أحـرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خـرجتم لتمنعوا عيركم ورجـالكم وأمـــوالكم فقـد نجـــاها الله فـارجعـوا، ولكنهم لم يستمعـوا لـه. انظـــر سيرة النبى (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

حيثية، ونقضهم العهود وبدْؤُهم القتال يجعلكم تقاتلونهم ؛ لتأمنوا شرهم .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٣]

وقوله تعالى : ﴿أَلاَ تقاتلون﴾ حث على القتال، أى :ماالذى يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا خائفين منهم، ولذلك يقول تبارك وتعالى:

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

وهنا يلفت الحق سبحانه نظر المؤمنين إلى أنهم إن كانوا أمام حالين، خشية من البشر وإيذائهم، وخشية من الله، فالأحق بالخشية هو الأشد والأعظم والأدوم عقاباً. ولأنكم إذا ما قارنتم قوة هؤلاء بقوة الله، فالله أحق بالخشية قطعاً. وإذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين، فكيف يخاف المؤمنون مايمكن أن يصيبهم على أيدى الكفار؟ ولايخشون مايصيبهم من الله.

وأوضح الله سبحانه وتعالى أنه لا خشية من الكفار فى آية أخرى من ذات السورة، هى قوله سبحانه:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) ﴾ [التوبة]

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة وإما أن تنتصروا. وقوله تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبدا أن تخشوهم وتخافوهم ؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم

بالشهـادة، ولو كـانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فـزتم بالنصر. وكـلاهما أمر جميل مُـحبَّـب لنفوس المـؤمنين بـالله يحـدث تثبيتا لقلـوبهم وأقـدامهم فى مواقف القتال والنزال .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحكم النهائى فيقول:

﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

أى : راجعوا إيمانكم، فإن كنتم مؤمنين بـالله فأنتم راغبون فى الشهادة. وإن كنتم مـؤمنين بالله القـادر القوى القهـار فأنتم تعرفـون الله وقدرتـه وقوتـه، وهى لاتقارن بالقوة البشرية. فإمـا أن تنتصروا عليهم فتكون لكم فرحة النصر، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنـة، وكلتا النتيجتين خير، أما مايصيـب الكفار فهو ينحصر فى أمرين: إمـا أن يصيبهم الله بعذاب بأيـديكم، وإما أن يصيبهم بعـذاب من عنده.

إذن ففـى أى معـركة يـدخلها الإيمان مع الكفـر، نجد أن الجانـب الفائز هم المؤمنـون ، سـواء استشهدوا أم انتصروا. والخاسر فى أى حـال هم الكفـار؛ لأنهم إما أن يعـذبوا بأيـدى المؤمنين ، وإما أن يأتيهم عـذاب من الله تعالى فى الـدنيا أو فى الآخـرة. وهكذا وضع الله المقـاييس التى تنـزع الخشية من نفـوس المؤمنين فى قتـالهم مع الكفـار، فلا تولـوهم الأدبار أبـدا فى أى معركـة؛ لأنه مهما كبرت قوة الكفـار المادية ، فقـوة الحق تبارك وتعـالى أكبر. ويقول المولى سبحانه:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهكذا لا يحسب حسـاب للفارق فى القـوة المادية ، فهـذه خشية لا محل لها

فى قلوب المؤمنين فى جانب الإيمان ؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى حثه للمؤمنين على القتال فيقول:

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا﴾ فى الآية السابقة كانت حثا للمؤمنين على القتال، و﴿قاتلوهم﴾ الثانية التى فى هذه الآية ؛ للتحريض والترغيب فى القتال، وأمر إيمانى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار. ثم يأتى المولى سبحانه وتعالى فى هذه الآية بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُعَذِبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ونتساءل: إذا كان الله يريد أن يعذبهم فلماذا لايأتى بآية من عنده تخضعهم للعذاب؟

نقول: لو انتصر المؤمنون بحدث كونى غير القتال لقال الكفار: حدث كونى هو الذى نصرهم. ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدى المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لايؤمنون إلا بالأمر المادى، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُرِىَ الكفار بأس المؤمنين لتمتلىء قلوبهم هيبة وخوفاً من المؤمنين، ويحسبوا لهم ألف حساب، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترئوا على الإيمان وعلى الدين أو أن يستهينوا بالمؤمنين.

ولقائل أن يقول: إن الحق هنا يأمر فيقول : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وفى آية أخرى يقول:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣]

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟. ونقول: لقد نزلت الآيتان فى الكفار. وسبحانه وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال : قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول: إن الجهة منفكة، فقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أى: لاينزل الله تعالى عليهم عذابا من السماء ما دمت فيهم، وقد وضح هذا فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

فقد سبق أن طلب الكفار عذابا من السماء ينزل عليهم إن كان القرآن هو الحق؛ فرد الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يعذبهم مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين. ولكن عدم تدخل السماء بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار. وائتمن سبحانه المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم. ولكن العذاب يتم بالأسباب الأرضية، ولايوجد تناقض. لأن العذاب من السماء قد يكون استئصالا لكل الكافرين؛ صغارا و كبارا، كأن يغرقهم الطوفان، أو تأتى الصيحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تجيئهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أوتصيبهم الرجفة فتجمدهم، وفى كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال البشرى لا يقضى على الكفار نهائيا، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء

والصبيان[1] ، ومن قتال الذين لم يقاتلونا[2].

إذن فالعذاب بعد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عذاب استئصال وإبادة كما كان في الأمم السابقة.ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد عذَّب الأمم السابقة بتلك الوسائل، فكان على الرسول من السابقين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة، وإن لم يؤمن قومه برسالته تتدخل السماء ضدهم بألوان العذاب السابقة. ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن تدعو لدين الله، وتؤدب من يختصم الإيمان ، ويدخل في عداوة مع المؤمنين فمنهم من يفر أو يقع في الأسر ويبقى الطفل والمرأة دون تعذيب.

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

ومالفرق بين العذاب والخزى؟ نقول : قد نجد واحدا له كِبْرٌ وجَلَدٌ، وإن أصابه العذاب فهو يتحمله ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف، ويمنعه كبرياؤه الذاتى من أن يتأوه، ولمثل ذلك هناك عذاب آخر هو الخزى، والخزى أقسى على النفس من العذاب؛لأن معناه الفضيحة، كأن يكون هناك إنسان له مهابة فى الحى الذى يسكن فيه، مثل فتوة الحى، ثم يأتى شاب ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض، هذا الإلقاء لا يعذبه ولايؤلمه، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى، والخزى هنا أشد إيلاما لنفسه من العذاب. ولا يريد سبحانه أن يعذب

---

(١) وقد وردت بهذا السنة الشريفة، فعن عبدالله بن عمر قال:« وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠١٤، ٣٠١٥) ومسلم (١٧٤٤).

(٢) يقول عز وجل : ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [الممتحنة: ٨]

قال القرطبى فى تفسيرها : «هذه الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم» وذكر أقوال من ذهب إلى أنها منسوخة بآية ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ثم قال: «وقال أكثر أهل التأويل: هى محكمة. واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبى ﷺ: «هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: نعم». خرجه البخارى ومسلم».

الكفار بأيدى المؤمنين فقط، بل يريد لهم الافتضاح أيضا ،بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسهم. وجاء الحق سبحانه بنتيجة ثالثة لهذا القتال فقال:

﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

وعلى هذا فعندما يقاتل المؤمنون الكفار يصيب الكفارَ العذاب والخزى والهزيمة. إذن ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ مرحلة، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، مرحلة ثانية ﴿وَيَنصُرْكُم عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة ثالثة، ثم تأتى المرحلة الرابعة:

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]

أى : أن النصر الذى سيحققه المؤمنون بعون الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم، فكأن هذا النصر يشفى الداء ،الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، أى : يخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور، فكأن قتال المؤمنين للكفار لايحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم، ولكنه يعالج ـ أيضا ـ قلوب المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخذ حقوقهم. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهكذا يرى الذين غدروا بالعهد وتعاونوا ضد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرون انتقام الله تعالى لهم، فتشفى صدور المؤمنين ويذهب منها الغيظ. والشفاء ــ كما نعلم ـ إنما يكون من داء، والدواء ضرورة للشفاء، وكأن انتقام الله عز وجل فيه شفاء لصدور المؤمنين من كفار قريش الذين

أعانوا أبناء بكر على أبناء خزاعة حلفاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعذبهم الله بأيديكم، وينصركم عليهم، ويخزهم سبحانه وتعالى.

ونلمس أنه ـ سبحانه وتعالى ـ رغم تعذيبه لهم ، وتشديد النكير عليهم ، إلا أنه يفتح باباً للتوبة، وهى مسألة لا يقدر عليها إلا رب حكيم؛ لأن الكل عبيد له؛ مؤمنهم وكافرهم، هو خالقهم، وسبحانه يغار على صنعته، فبعد أن يشتد عليهم بالعذاب والخزى، ويشفى بهذا صدور القوم المؤمنين، بعد ذلك يفتح باب التوبة ، وبهذا يعطى المؤمنين قوة سماحة إيمانية، فلا يصطحبوا التعالى على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٥]

أى :أنه سبحانه يعلم كل متطلبات الأحكام، ولكل أمر عنده حكمة، فالقتال أراده الله عز وجل ليدُكّ به جبروتهم، والتوبة حكمتها لمنع تمادى الكفار وطغيانهم فى الشر؛ لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية: ما دامت لا توجد توبة، ومادام مصيرى إلى النار، فلآخذ من الدنيا ما أستطيع، وبذلك يتمادى فى الظلم ويزيد فى الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد مادامت لاتوجد توبة، ولكن تشريع التوبة يجعل الظالم لايتمادى فى ظلمه ، وبهذا يحمى الله المجتمع من شروره، ويجعل فى نفسه الأمل فى قبول الله لتوبته والطمع فى أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح عَلَّهُ يُكفِّر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصى؛ وفى هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد .

إذن فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة.

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ساعة تسمع «أم» فاعلم أنها إضرابية، أى: ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم ـ علم الواقع ـ من منكم يؤمن إيمانا يؤهله للجهاد فى سبيل الله؛ فإن ظننتم أن الله تارككم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم[1]، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا مايقابله.

إذن فالابتلاء أمر ضرورى لمن أراد الله تعالى له أن يتحمل أمر الدعوة ليواجه شراسة التحلل والفساد، لذلك يُصفِّى الله من آمنوا حتى يقف كل واحد منهم موقف الانتماء إلى الله مضحيا فى سبيل الله. وساعة يقول الحق عز وجل فى شىء كلمة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم، لا، فسبحانه يعلم كل شىء أزلا، ولكن العلم الأزلى لا يكون حجة على البشر. ودائماً أضرب هذا المثل ــ ولله المثل الأعلى ــ نجد عميد إحدى الكليات أحيانا يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له المدرس الذى يشرف على تحصيل التلاميذ: إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة،

(١) يقول تعالى ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] وقد قال تعالى : ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٤١] والتمحيص هو: الاختبار والابتلاء، والتمحيص أيضا: التخليص والتطهير. ومنها تمحيص الذهب أى اختباره لمعرفة الجيد منه من الردىء.

فيقول العميد: ولكنى أريـد أن تعقد امتحاناً ؛ ليكـون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هـو علم الواقع العملى الذى أراده الحق عـز وجل من الابتلاء، وسبحـانه وتعالى يعلم كل شىء أزلا، ولكن العلم الواقعى هو حجة على المخالفين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا ﴾ [التوبة: ١٦]

أى بدون ابتلاء أو تمحيص. وقوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٦]

«ولـمَّـا» للنفى، ومثلها مثل قـولنا: «لما يأت» أى :أنـه لم يتحقق المجىء حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»، فـ«لم» لاتـؤذن بتوقع ثبـوت مـابعدهـا، فما يأتى بعـدها لن يتحقق أبـدا، أما «لما» فتـؤذن بتوقع ثبـوت ما بعـدها ، أى أن مابعـدها.. لم يتحقق إلى لحظة نطقهـا، ولكنه قـد يتحقق بعد ذلك. فإن قلت: «لما يثمـر بستاننـا» أى :أن البستـان الذى تملكـه لم يثمر، ولكنـه قـد يثمر بعـد ذلك. وسبحانه وتعالى يقول:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى القـول الكـريم: أن الإيمان لم يـدخل فى قلـوبهم إلى الآن، ولكنـه سوف يدخل بعـد ذلك، وهذه بشارة لهم. فقد قـالت الأعراب: «آمنا» فأوضح الحق سبحانـه وتعالى: بل أسلمتم ولم يـدخل الإيمان قلوبكـم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبى الجازم، والإسـلام انقياد لما يتطلبـه إيمان القلب من سلوك، أى: أنتم قـد سلكتم سلـوك الإسـلام، ولكنـه سلـوك سطحى لم يـأت من ينـابيع القلب. وقول الحق هنا:

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة : ١٦]

لايعنى أن علمه متصل بوقت الكلام، فعلم الله تعالى موصول أزلى وسبحانه مُنَزَّهٌ عن الأغيار.

إذن فالعلم المراد هنا هو علم الواقع الذى سوف يكون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يختبركم لقلتم: لو أمرتنا يا رب بالقتال لقاتلنا، ولو أمرتنا بالصبر فى الحرب لصبرنا، وَلَكُنَّا أكبر المجاهدين.

ولذلك جاءت الابتلاءات كتجربة عملية، ومن هذه الابتلاءات مواجهة العدو فى حرب، فمن هرب ثبت له التقصير فى المواجهة، ومن لم يصبر على الابتلاءات، عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علما واقعا.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

إذن فالله يريد بعلم الواقع التمييز بين صدق الجهاد وبين الفرار منه، وأن يكون هناك سلوك إيمانى واضح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجة، و«الوليجة» من فعيلة، بمعنى فاعل، و«والجة» يعنى «داخلة».

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[الحج: ٦١]

أى: يُدخل الليل على النهار ويُدخل النهار على الليل، والمراد بـ«الوليجة» الشيء الذى يدخل فى شيء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى فيها المفرد المذكر والمؤنث، والمثنى والمثناة وجمع المذكر وجمع المؤنث، وتقول: «امرأة وليجة»، و«رجل وليجة» ، و«امرأتان وليجة»، و«رجلان وليجة»، و«نساء وليجة» و«رجال وليجة». كما تقول: «رجل عدل» و«امرأة عدل»، و«رجلان عدل»، «امرأتان عدل»، و«رجال عدل» و«نساء عدل»، لا تختلف فى كل هذه الحالات.

والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء[1] التى تدخل على المؤمنين الضعاف، وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار. ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علما واقعيا من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم فى شئونهم دخولا يجعلهم يكتشفون أسرارهم.

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[التوبة : ١٦]

فالممنوع هنا - إذن ـ أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة ؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم. وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر. وعلى المؤمن أن يجعل الله عز وجل هو وليجته، وأن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو وليجته، وأن يجعل المؤمنين هم وليجته، ويسمح لهم أن يتداخلوا معه، وهم مأمونون على مايعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والخصوم من الكفار فهم غير مأمونين على شىء من أسرار المؤمنين. ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦]

والمعنى: إن كنتم تحسبون أنكم تتداخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لاتخفى عليه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئا عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبدا ؛ فلن يخفى شىء عن عيون الخالق ؛

(١) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «مابعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله عز وجل». أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٩٨) وأحمد (٣/ ٣٩، ٨٨) والنسائى فى سننه (٧/ ١٥٨)

لأنكم إن عمَّيتُم على قضاء الأرض، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء[1] .

وينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى فى قوله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وكأن هذه الآية قد جاءت حيثية للبراءة التى حـمَّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ليعلنها يوم الحج الأكبر[2] ؛ لأن البراءة هى القطيعة، ومعناها ألاَّ يدخل المسجد مشرك، ولايطوف بالبيت عريان، فكأن البراءة من الله عز وجل ورسوله من المشركين مَنْعٌ لهم من دخول المسجد الحرام، وكان عدد من المشركين قد جعلوا من المسجد الحرام منتدى لهم ، وكانوا يجلسون فيه للتسامر والتجارة ولغير ذلك، كما كانوا يقومون بسقى الحجيج من شراب الزبيب الذى لم يختمر ؛ ومعهم حجاب البيت، ويطعمون زوار بيت الله الحرام.

كل ذلك كان يحدث فى مكة من الكفار ولكن هذا انتهى بالبراءة التى أعلنها على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذى أوحى إليه

(١) عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه،فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) عن أبى هريرة قال :« بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى المؤذنين،بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أ لايحج بعد العام مشرك، ولايطوف بالبيت عريان». قال حميد: ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبوهريرة: فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة، وأ لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٥٦).

ربه بأن يفعل ذلك ، ولم يعد للمشركين حق فى ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾. والعبارة لها معنيان؛ المعنى الأول هو الجلوس فى هذه المساجد بحيث تكون عامرة بزوارها، والمعنى الثانى هو المحافظة على بناية المسجد ونظافته وإصلاحه. وقد منع الله المشركين من كلا النوعين من العمارة[1]. والكلام هنا عن المسجد الحرام؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾

[التوبة: ٢٨]

نقول : إنَّ المسجد الحرام هو مكان تتجه إليه كل اتجاهات الناس فى كل بقاع الأرض حين يقيمون الصلاة لأن كل مكان يسجد فيه إنسان مسلم يسمى مسجدا، وبتعدد الساجدين ، يعتبر المسجد الحرام مساجد، أو لأن جهات السجود تتعدد فى المسجد الحرام ؛ فواحد يسجد شمال الكعبة، وآخر جنوب الكعبة وثالث شرق الكعبة، ورابع غرب الكعبة؛ هذا فى الجهات الأصلية، وهناك الجهات الفرعية؛ فهناك أناس يتجهون شمال شرق، وأناس يتجهون جنوب شرق، وغيرهم يتجه جنوب غرب، وتتعدد الجهات الفرعية فى الاتجاه إلى الكعبة ؛ إذن فكل جهة متجهة هى مسجد وهناك ممن لا يرون الكعبة فى بقاع الأرض يتجهون إليها .

وحين تسمع قول الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة]

نلحظ أنَّ «كان» هنا جاءت منفية ومنها نفهم المعنى: ليس مقبولا فى عرف

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية: «اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية فقيل: أراد ليس لهم الحج بعد ما نودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين فبين أنهم ليسوا أهلا لذلك بل أهله المؤمنون» .

العقل أو المنطق أو الدين أن يقرب الكفار المسجد، ولا أن يرعى مشرك المسجد أو يصونه؛ لأن المسجد للعبادة، والعبادة تقتضى معبودا هو الله سبحانه وتعالى، والكفار يشركون بالله، فمن المنطق ـ إذن ـ ألا يكون لهم دخل بالمساجد، إذن فمنعهم من المسجد إقامة وعمارة وزيارة هو شيء منطقى بشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وهى سبب منعهم من الاقتراب من مساجد الله.

والشهادة إما أن تكون شهادة قول ؛ وإما أن تكون شهادة حال، أما شهادة القول فذلك لأنهم كانوا يقولون لليهودى: على أى دين أنت؟فيرد بديانته ، وكذلك القول للنصرانى، وحين يسأل المشرك؛ فهو يقر بشركه[1]، هذه هى شهادة القول. أما شهادة الحال فهى أنهم يسجدون للأصنام ويعبدونها من دون الله.

فكيف يكون الإنسان مشركا ثم لانقول له: ليس لك علاقة بالمسجد؛ ارفع يدك عنه ؟ وماأغنى الإسلام عن أن يبنى له مشرك مسجدا أو يعمر كافر بيتا من بيوت الله وماأغنى الله أن يزوره فى بيته من هو غير مؤمن به سبحانه . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

وهم قد نسوا الشهادة الأولى بالحق حينما أشهدهم الله سبحانه وتعالى على أنفسهم، فالحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

(١) قاله السدى . نقله ابن كثير والقرطبى فى تفسيريهما للآية .

هم إذن قد أقروا لحظة الخلق الأولى بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا فى بيت الله الحرام أصناما. وادعوا الكذب وقالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]

وهذا هو الإشراك بعينه، وهذه هى شهادتهم على أنفسهم بالكفر.

﴿ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

والمسجد - كما نعلم - هو المكان الذى نسجد فيه، وكل بقعة فى الأرض بالنسبة للمسلمين تصلح للسجود وتعتبر مسجدا، وهذا مما خص به الله تعالى أمة الإسلام، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصَل ، وأُحلَّتْ لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

فهذا الحديث يبين أن مما خص الله به الأمة المحمدية أن جعل لها كل بقاع الأرض صالحة لأداء الصلاة فيها ،كما جعل لها الأرض أيضا طهوراً، ويكفى المسلم أن يتيمم من الأرض ويصلى عليها ، ولكنْ هناك فارق بين مكان يصلح لك أن تصلى فيه، وأن تباشر نشاط حياتك، وبين مكان مخصص للعبادة، فالحقل الذى تزرع فيه، لك أن تصلى فيه وتزرع، والمصنع لك أن تصلى فيه، ولك أن تصنع، وكذلك المدرسة لك أن تتعلم فيها، ولك أن تصلى فيها ، وهذه كلها مساجد بالمعنى العام ، وهى أماكن سجود لله تعالى، لكن كلمة «مسجد» إذا أطلقت انصرفت إلى الحيز المحدود من المكان الذى أخرج من نشاطات الحياة كلها، وخُصّ بأن يكون للصلاة والسجود فقط، فإذا

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

حيزت مكاناً بخط أبيض من الجير، أو حيزته بسلك وقلت: هذا مسجد، فلا يزاول فيه نشاط إلاّ الصلاة، هذا هو المسجد الاصطلاحى الشرعى. وكل بيت لله بنيته فى أى مكان يسمى مسجدا، وقبلة المساجدالمنتشرة فى بقاع الأرض هى المسجد الحرام ؛ فهى أماكن خيزت للمسجدية ، أو للعبادة ، أوللصلاة وليست لغير ذلك من حركات الحياة، ولكن تحييز المكان كان باختيار البشر. وقبلته المسجد الحرام وهو المسجد الجامع الأكبر باختيار الله تعالى، والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾
[آل عمران]

ولأن هذا البيت الحرام هو باختيار الله، وموضوع للناس. فلنا أن نسأل: هل الناس هم الذين وضعوه ؟ لا، بل وضعه غير الناس، لأن تعريف الناس هم آدم وذريته، ولابد إذن أنه موضوع قبل آدم ، وبمنطق القرآن الكريم وجد البيت من قبل آدم، وإذا تعمقنا قليلا، نجد أن هذا البيت الحرام هو ﴿هدى للعالمين﴾ ومن العالمين الملائكة.

وهكذا نرى أن قول بعض القوم : إن إبراهيم هو الذى حدد مكان وقواعد البيت، قول لايثبت صدقه، لأن البيت هو المكان لا المكين، فالبيت ليس هو الحجر أو المبنى ، وهو ما نسميه الكعبة، فالكعبة هى «المكين» أما البيت فهو المكان الذى أقيمت فيه الكعبة ؛ لأنه إن جاء سيل وأزال الكعبة، جعلها أرضاً مسطحة فأين نصلى؟ نصلى إلى اتجاه المكان، فالسيل يُذْهِبُ المكين لكن المكان باق.

وعندما جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أثر البيت ضائعا، وأمره ربنا أن يرفع البيت، ولم يقل له : حدد المكان، بل أمره أن يبنى البعد الثالث؛ لأن كل حيز له بعدان؛ الطول والعرض، وإن كان دائرة فله المحيط، وإن

كـان مثلـثا يكـون من ثـلاثة أضـلاع. لكـن الارتفـاع يـدخل بـالشىء إلى الحجم، وقد رفع الخليل إبـراهيم القـواعد مـن البيت. بعد أن حـدد الـمولى سبحانـه وتـعالى لـه المكـان وأظـهره لـه : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القـواعد من البيت﴾ . [البقرة : ١٢٧]

فكأن البيت مخصص قبل الرفع، بدليل أن الحق سبحـانه وتعالى حينما تكلم عن مجىء هاجر وابنها إسماعيل الرضيع، وإسكان إبراهيم عليه السلام لهما فى هـذا المكان قـال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وقد رفـع إبراهيم عليـه السلام القـواعد وساعـده ابنه إسماعيـل بعد أن كبر واشتـد عوده، ولكن سـاعة أن أسكنـه وأمه بجـانب البيت كان طفـلا صغيرا. إذن فالبيتية والمكانية موجـودة، ولكن إبراهيم أقام المكين وهو البعد الثالث أى الارتفاع .

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضا:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج : ٢٦]

أى أظهرنا وحـددنا المكان ،وهو الـذى سيبنى فيه سيدنا إبـراهيم بالأحجار ليبرز البيت، فالبيت ـ إذن ـ كان موجوداً من قبل.

ونلحظ أن المساجـد المنتشرة فى الأرض لابد أن يكون لها متجه واحـد، لإله واحد، وحـدد الحق هذا المكان بالقبلـة إلى الكعبة. وبعض المتحللين يحاول أن يقلب الفهم فى قول الحق:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]

يقـولـون : إننـا إن اتجهنـا إلى أى مكـان سنجـد وجـه الله تعـالى، ونقـول:

الصحيح أن وجه الله عز وجل فى كل الوجود ،ولكن إياك أن تفهم أن تحديد الله للكعبة لتكون متجهنا، أنها هى وجه الله، لا، لكننا مأمورون بالاتجاه لها فى الصلاة. وأنت إذا نظرت أيضا إلى المسلمين فى كل الدنيا سوف تجد أن كل مسلم فى الأرض يتجه للكعبة فى صلاته، ومادامت الكعبة مركزا، وكلنا نتجه إليه ؛ فسوف تجد من يتجه وهو شرقه، وواحد يتجه وهو غربه، وواحد يتجه وهو شماله، وواحد يتجه وهو جنوبه .

إذن﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ، ومادمنا قد عرفنا أن المساجد مميزة ومخصصة للعبادة ؛ فلايجوز أن يأتى إليها مشرك، ولانقبل أن يساهم فى إصلاحها ولانظافتها مشرك؛ لأن الله غنى عن ذلك، وعلينا أيضا ألا نناقش أمورنا الدنيوية فى مسجد، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يأتى على الناس زمان يتحلقون فى مساجدهم وليس همتهم إلا الدنيا ، ليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم » [(١)]

كأنه لم يكفهم حب الدنيا خارج المسجد ويطمعون فى الدقائق التى يخصصونها للصلاة، فيجرجرون الدنيا معهم إلى المسجد،وأقول لهم : لماذا لاتتركون مصالح الدنيا فى تلك الدقائق؟ إن الواحد منكم إنما يحيا فى سائر الدنيا فى نعمة الله. إذن فليجعل نصيبا من وقته لله صاحب النعمة .

إذن لابد أن نعرف أننا ما دمنا قد خصصنا مكانا لعبادة الله، فلا بد أن نصحب هذا التخصيص فى المكانية إلى التخصيص فى المهمة التى يدخل الإنسان من أجلها للمسجد، فيتجه إلى الله؛ لأن المسجد خاص لعبادة الله؛ ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة، لكنك حين تأتى إلى المسجد اصحب معك أخلاق التعبد. ويجب أن يكون الانفعال، والتفاعل، والحركة والنشاط كلـــــه فى الله، ولذلك فأفضل ماتفعله ساعة تدخل المسجد، هو أن تنوى

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٢٣) من حديث أنس رضى الله عنه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

الاعتكاف فتنزع نفسك ممن ينوى أن يتكلم معك فى أحوال الدنيا.

لقد ورد فى الأثـر النهى عن الحديث فى المساجد لأنـه يحبط العمل ويمحو الحسنـات، وأنت قـد تصنع الحسنـات كثيرا خـارج المسجـد،ولكن عليك ألا تدخل المسجـد إلا بأدب المسجد؛ فالحضور بين يـدى الله تعالى فى مسجده وفى بيتـه لـه آدابه وسلـوكـه، فيجب عليك ألاّ تتخطى الـرقاب وهـذه لاتحتـاج إلى تنظيم، بمعنى ألا تجعل الأمـاكن فى الأمـام خـاليـة، وفى الخلف مـزدحمة؛ حتى يستطيع أن يجلس كل من يحب أن يصلى دون أن يتخطى الـرقـاب[1]، ويكون الجلوس فى المساجد، الأول فالأول، وهكذا يتحقق الأدب الإيمانى فى المساجد.

ونعلم أن رسول الله صلى الله عليـه وسلـم دعا بـالبوار على كل صفقـة تعقد فى المسجد. ودعا على كل من يريد شيئاً دنيـوياً من المسجد ألا يوفقه الله فيه ، ودعا على كل من ينشد ضـالة فى المسجد ألا يرد الله عليه ضـالته ، حيث قال صلى الله عليـه وسلم فى الحديث الذى يـرويه عنـه أبو هـريرة رضى الله عنـه: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتـاع فى المسجــد فقـولـوا: لا أربح الله تجارتك [2]وإذا رأيتم من ينشد ضالـة فقولوا: لا ردها الله عليك» [3]وفى حديث آخر له رضى الله عنه قـال: إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول: «من سمع رجلا ينشد ضالته فى المسجد فليقل: لاردها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا»[4].

فلنجعل الجلوس فى المسجـد ـ إذن ـ خاصـا بالمنعم وهو الله، أمـا فى خارج المسجد وفى سائر الأوقات، فنحن نعيش مع النعمة التى أنعم الله بها علينا .

(١) عن عبدالله بن بسر قال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقـال له رسول الله ﷺ: «اجلس فقد آذيت» أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٩٠) وأبو داود (١١١٨) والنسائى (٣/ ١٠٣)

(٢) أى : لاأوقع الله فيها الربح ، لأنك أتيت بها فى محل جعل للذكر والصلاة وقـراءة القرآن . والبيع والشراء محلها فى الأسواق خارج المساجد .

(٣) أخرجـه النسائى فى عمل اليوم والليلـة (ص٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمـذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب. وكذا الحاكم (٢/ ٥٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٨) وأحمد (٢/ ٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٧٦٧) .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]

وما دام بيت الله تعالى ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى أنه بيت لكل الناس وليس لمن يجلس فيه فقط، فكأن إشراقات الحق وتجلياته، أعظم ما تكون فى بيته أولا، ثم تشيع الإشراقات والتجليات فى جميع بيوت الله، وعلى عمارها والمتعبدين فيها، وبيوت الله هى الأماكن التى تتنزل فيها الرحمات من الحق سبحانه وتعالى، بدليل أنه سبحانه وتعالى حين تكلم عن نوره فى سورة النور قال:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]

أى أن الذين يرون هذا النور ويتنزل عليهم هم عمار المساجد، وسورة النور جاء فيها ـ أيضاً ـ قول الله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن نوره يملأ السموات والأرض. حين يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلا للمعنويات ليتعرف إليها الناس فهو يقدم لها بأمر مادى يتفق عليه الكل، ليقرب الأمر المعنوى أو الغيبى إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد. فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقرب هذا الأمر ويبينه بأن يضرب لنا مثلا من الأمور المادية المحسة؛ حتى تقترب الصورة من الأذهان؛ لأننا جميعا نرى الماديات. وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوى وهو غير معلوم لنا بالأمر المادى الذى نعرفه؛ فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم .

وإذا كنا فى كون الله تعالى نجد النهار إنما يكون نهارا بإشراق الشمس

الواحدة التى تنير نصف الكرة الأرضية ، ثم تنير النصف الثانى من بعد غروبها عن النصف الأول، فيتميز النهار بالضوء، ويتميز الليل بالظلمة، ومعنى النور فى الحسيات أنه شعاع يجعل الإنسان يرى ما حوله؛ حتى يستطيع أن يتحرك فى الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به.

ولكن إن كانت الدنيا ظلاما فسيصطدم الإنسان بما حوله ، وأمر من اثنين: إما أن يكون الإنسان أقوى من الشيء الذى اصطدم به فيحطمه، وإما أن يكون هذا الشيء أقوى من الإنسان فيصاب الإنسان إصابة تتناسب مع قوة الشيء الذى اصطدم به. والذى يحميك من أن تحطم أو تتحطم هو النور الذى تسير على هداه.

إذن فساعة أن يأتى النور، تتضح أمامك معالم الدنيا، وتكون خطاك على بينة من الأمر؛ فلا ترتطم بما هو أضعف منك فتحطمه، ولايرتطم بك ماهو أقوى منك فيحطمك، هذا هو النور الحسى، وأكبر مافيه نور الشمس الذى يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك ، والمسخر من حيوان أو نبات أو جماد، وهذا النور نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذى يعطى النعم لجميع خلقه فى الدنيا سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا[1].

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء فى حيز محدود وعلى قدر إمكاناته؛ فواحد يوقد شمعة، وواحد يأتى بمصباح «جاز» صغير، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح «نيون»، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور ، كل على قدر إمكاناته، فإذا طلعت شمس الله فهل يبقى أحد على مصباحه مضاء ؟ إن الجميع يطفئون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعت تنير للجميع، ذلك هو النور الحسى.

---

(١) عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ،كما قسم بينكم أرزاقكم ،وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » .
أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف .

والفرق بين نـور بقدرات الإنسان ونور من خلق الله يتمثل فى أن النـور الذى من خلق الله يطفىء المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع.

وفى المعنـويات نـور أيضا فـالنـور المعنوى يهديك إلى القيم حتى لاتـرتطم بالمعنـويات السافلة التى قـد تقابلك فى مسيرة الحياة، إذن فكل مايهـــدى إلى طريق الله يســمى نورا. ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]

إنه نور المنهج الذى ينير لنا المعنويـات، وينير لنا القيم؛ فلا يحقد أحدنا على الآخر، ولايحسد أحدنا الآخر، ولايرتشى أحد. ويرعى كل منا حقوق غيره.

وإذا كـانت التجـربـة قـد أثبتـت أن نـورا من خلق الله وهـو الشمس، إذا سطعت فالجميع يطفئون مصابيحهم. فكـذلك إذا ما جاء نور الهداية من الله سبحانـه وتعالى فيجب أن تطفأ بقية الأنــوار من مقترحات أفكار البشـــر، فلا يأتى أحد بفكر رأسمالى، أو يأتى آخر بفكر شيــوعى، أو ثالث بفكر وجودى، لأن كل هـذه القيم تمثل أهواء متنـوعة من البشر، وتعمل لحسـاب أصحابها، أمـا منهج الله تعالى فهـو لصالح صنعـة الله وهـم البشـر جميعا، فلا يحاول أحد أن يضـــع قيما للحياة تخـالف منهـج الله ؛ لأنَّ الله قـد بيَّـنَ لنا منهـــج العبادة ومنهج القيم، لذلك لا يصح أن يأتى إنسان بشـرع يخالف تعاليم الله.

ونقول لأصحاب الهوى فى المذاهب والعقائد المخـالفة لمنهج الله جميعا: لماذا لاتقيسـون الأمـــور المادية على الأمـور المعنـويــة؟ لماذا إذا سطعت شمس الله تطفئون مصابيحكم، ولايحاول أحـد أن يوقد مصباحا ليهـديه فى نور الشمس؟. إذن. فما دام سبحانه وتعـالى قد أنزل نور الهدى منه فـلا بد أن نطفىء جميعا مصـابيح الأفكار القـائمـة على الهوى، ونأخـذ النور كلـه من منهج الله القـويم والصالح لكل زمان ومكان، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله.

وعلى الـرغم من أن الله سبحانـه وتعـالى قـد أعطانـا التجـربة الحسيـة التى لايختلف فيهـا اثنـان، إلا أننـا رفضنا أن نطبق هـذا على منهج الله؛ وهـو النـور الذى أهداه لنـا سبحانه وتعالى ليبين لنا الطـريق، وأبى بعضنا إلا أن يأخذ من ظلمات العقل البشرى المحـدود مايعطيـه طـريقـاً معوجـاً فى الحيـاة ،فامتـلأت الدنيـا بالشقـاء والفساد ،ونسينـا أن السبب فى ذلك أننا تـركنا نـور منهج الله عـزوجل الذى يعطينـا الحيـاة الآمنة الطيبـة، ووضعنـا لأنفسنا منـاهج سببت التعاسة والفساد فى الكون.

ويقـرب لنا الحق سبحـانـه وتعـالى الأمر فى مثل مـادى عن معنى نـور الله فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن نـوره سبحـانـه وتعـالى يمـلأ السمـوات والأرض، وأنـه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض فلا يترك جانبا منها مظلما، وقال جل جلاله:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

والمشكاة[1] هى «الطـاقة المسدودة بـالحائط»، وهى عبارة عن مكعـب مفرغ فى البنـاء داخل كل حجـرة وكـان أهل الـريف يضعـون فيهـا المصـابيح لتنير، واستبدله أهل الريف والبادية حـاليا بـ«رف» صغير يوضع عليه المصباح، ودائرة صغيرة يخرج منها النـور، ولأن ضوء المصباح مـركز فى هـذه الفتحة، فهى تمتلىء بـالنور الـذى بـدوره يشع فى الحجرة. وحيز المشكاة بالنسبة للحجرة التى توجد فيهـا قليل وصغير، والنور الـذى يخرج منها ، هو نور مركز يملأ الدائرة التى يخرج منها فلا يوجد فيها «ملليمتر» واحـد مظلم، بل كلها نور، وإلا ما استطاع ضوءهـا أن ينير الحجرة. لأن هذا النـور قبل أن يضىء الحجرة ؛ لابـد أن يكون

(١) «المشكاة» كوة فى الحائط غير نافذة يوضع فيها المصبـاح ، وما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح وفى التنزيل العزيز (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) [المعجم الوسيط الجزء الأول ص ٤٩٢]

مركزا بأعلى درجة من التركيز فى الدائرة التى يخرج منها.

إذن فنور الله سبحانه وتعالى فى السموات والأرض نور شامل عام لايدع مكانًا مظلماً. ولامكاناً يختفى فيه شىء بسبب الظلام، تماما كمثل تلك الدائرة الصغيرة التى يشع منها نور المصباح فلا تجد فيها ملليمترا واحدا من الظلام، وقد سمى ما يعطى النور مصباحا ؛لأنه يعطينا بشائر الصبح. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ونحن إذا أردنا أن نكثف النور فإننا نحيطه بالزجاج، ليحجب عنه الهواء الذى قد يؤثر على النور ويمنع تركيزه، والزجاجة التى تحيط بالمشكاة عاكسة للنور، وهذا كله يعطينا معنى للتكثيف والتركيز داخل المشكاة .ثم ينتقل المثل من بعد ذلك إلى الحجرة، فيقول الحق :

﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن الزجاجة ليست عادية، ولكنها مضيئة بنفسها لتزيد النور نوراً. ومن أى شىء يوقد هذا المصباح؟ يجيب الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن الشجرة المباركة ليست زيتونة فقط؛ ولكنها ﴿لَّاشرقيةٍ وَلَّاغَرْبِيَّةٍ﴾ أى أن النور يخرج منها غير متأثر بمزاج حار أو بارد بل يخرج منها النور الصافى فى مزاج معتدل، وقد أطلقت كلمة «النور الصافى» على آخر مرحلة من مراحل الترقى فى الضوء. ومراحل الترقى بدأت من مشكاة ضيقة فيها مصباح غير عادى، والمصباح فى زجاجة غير عادية بل تكثف الضوء، فتظهر وكأنها كوكب درى مضىء بذاته، والزيت الذى يضىء يخرج من زيتونة مباركة، بأعلى

درجات النقاء. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن كل شىء مضىء بذاته، ويضيف من قوة الضوء للنور، فالدائرة الصغيرة مضيئة؛ يزيد نورها زجاجة تكثف النور، والزجاجة ذاتها مضيئة فتعطى إضافة، والزيت مبارك ليست فيه أية شوائب فيعطى ضوءا ساطعا، وفوق ذلك كله تجد الزيت مضيئاً بذاته، دون أن تمسه النار، فكأنه نور على نور، فلا يصبح فى هذه الدائرة الصغيرة أى نقطة مظلمة، كذلك تنوير الله لكونه المتسع فلا توجد فيه نقطة واحدة مظلمة، بل كله مغمور بنور الله ، وإياك أن تظن أن هذا القول : ﴿الله نور﴾ هو تشبيه لله، بل هو تشبيه لتنوير الله سبحانه وتعالى لكونه الذى يشمل السموات والأرض وما بينهما.

وهناك قصة مشهورة للشاعر أبى تمام حين كان يمتدح أحد[1] الخلفاء فقال:

إقدام عمرو[2] فى سماحة حاتم[3] فى حلم أحنف[4] فى ذكاء إياس[5]

وهكذا جاء الشاعر بأولئك الذين اشتهروا بالإقدام والشجاعة كعمرو، وبالسماحة والكرم كحاتم ، وبالحلم كأحنف بن قيس، وبالذكاء كإياس، وقال الشاعر ممتدحا الخليفة : إنك قد جمعت كل هذه الصفات، التى لم تجمع فى واحد من خلق الله من قبل.

(١) أحمد بن المعتصم .

(٢) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن .

(٣) حاتم الطائى المشهور بالكرم .

(٤) هو الأحنف بن قيس من سادات التابعين وكان شهما ومشهورا بالحلم .

(٥) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء .

ولكن أحد المحيطين بالخليفة قال: كيف تمدح الأمير بصفات موجودة فى رعاياه، والأمير فوق كل ما وصفت، فهو أشجع من عمرو، وأكرم من حاتم، وأحلم من أحنف، وأذكى من إياس.

وأعطى الله الشاعر بصيرة ليرد على ارتجال ويقول:

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

أى :أن الشاعر قال مثلا فقط وليس تحديدا.

والحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]

أى أن كل شىء مضىء بذاته ليضيف نورا على النور الموجود، فكما أن الماديات تحتاج إلى نور يضىء لك الطريق، كذلك تحتاج المعنويات إلى نور يضىء لك البصيرة والسلوك ، فخذ منهج الله تعالى لأنه النور الساطع الذى لا يمكن أن يضىء مثله ولا معه نور آخر، وإذا أردنا أن نقرب الصورة إلى الأذهان، فالله سبحانه وتعالى قال للقوم الذين يستمعون إلى دعوة رسوله ﷺ :

﴿يَأَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]

والذين يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بهذا الكلام أحياء، فكيف يقول لهم : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ؟ .

نقول : إنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نفرق بين حياة وحياة. فالحياة المادية

المتمثلة فى الحس والحركة والجرى، هى الحياة الدنيا بأجلها المحدود، وإمكاناتها البسيطة، ولأنها حياة أغيار؛ لا تبقى فيها النعمة ولا تدوم لأحد، بل كل إنسان فيها إما أن تفارقه النعمة بالزوال، وإما أن يفارقها هو بالموت، وهذه ليست هى الحياة التى يريد الله من الإنسان أن يعمل لها وحدها. أو يسعى ليتمسك بها. فبسببها يفعل كل ما يستطيع لكى يأخذ منها حلالا أو حراما، ولكن الحياة التى يطالب الله سبحانه وتعالى عباده أن يعملوا لها هى الحياة المستقيمة الحركة على منهج الله وتقود إلى حياة آخرة فيها نعيم لايفارقك ولا تفارقه، وفيها أبدية تبقى ولا تنتهى، وفيها نعم عظيمة تأتى بقدرة الله تعالى، وليس بقدرة البشر المحدودة.

إذن فقوله سبحانه وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]

معناه أن الحياة حياتان؛ حياة تحرك هذه المادة؛ فتتحرك وتجرى وتروح وتجيء، وهى تنصلح بالمنهج الذى يقود إلى حياة أخرى فوق الحياة الدنيا.

إذن فالحياة الدنيا بما فيها من سعى وتعب وجهد وفناء ليست هى الغاية التى يجب أن يسعى إليها الإنسان، بل على الإنسان أن يسعى إلى الحياة الأرقى. وسبحانه لا يريدنا أن نأخذ المرحلة الأولى من الحياة التى تحرك المادة فتتحرك وتجرى، بل يريد لنا حياة تقودنا بالقيم، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قال عن الحياة التى تحرك المادة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص]

فهذه حياة المرحلة الأولى التى لا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نأخذها كغاية، ولكنه يريدنا أن نأخذها وسيلة لنصل بها إلى الحياة الراقية فى كل صورها الخالدة بكل معانيها؛ المنعَّمة فى كل درجاتها. وكما سمَّى الحق سبحانه

وتعالى الروح التى تنفخ فى المادة فتعطيها المرحلة الأولى من الحياة روحاً ، فإنه كذلك سمَّى المنهج الذى يعطينا المرحلة الثانية من الحياة روحا ،حيث يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

هذه هى روح المنهج التى تعطينا المرحلة الثانية من الحياة. فإن أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو ينير لنا طريقنا فى القيم والمعنويات، تماما كما تنير لنا شمس الله طريقنا فى الحياة المادية. إذن فالحق لم يترككم للنور المادى ليحافظ على ماديتكم من أن تحطموا أو تتحطموا، وإنما أرسل إليكم نورا لتهتدوا به فى مجال القيم .

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ولم يقل سبحانه: «نور مع نور» ؛ لأن الإنسان لا يُكَلَّفُ من الله إلا بعد أن يصل إلى سن البلوغ[1] ، فالنور المادى يراه ويستفيد به قبل التكليف، ثم يأتى النور المعنوى فيتلقاه من الكتاب الذى أنزل على رسول الله عندما يبلغ سن التكليف فيتعرف على منهج الله.

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٣٥]

فلا يحجب الحق سبحانه وتعالى نور الشمس عن أحد ؛ لأنه نور لكل الخلق، وكذلك أنزل سبحانه وتعالى نور الهداية ليختاره كل من التمس الطريق

(١) عن على رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصغير حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المصاب حتى يكشف عنه» أخرجه أحمد (١/ ١١٦) وأبوداود (٤٣٩٩ - ٤٤٠٣) من طرق عن على، والحاكم فى مستدركه (١/ ٢٥٨) وصححه وأقره الذهبى.

إلى الهداية، وهذا النور المعنوى يختلف عن النور المادى، فالحق لم يحرم - إذن - أحدا من النور المادى، وشاء أن يجعل النور المعنوى ضمن اختيارات الإنسان؛ إن شاء آمن واهتدى، وإن شاء ضل. وكل ذلك مجرد مثل من الأمثال التى يضربها الله تعالى للناس ؛ لذلك قال عز وجل:

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وجاءت الآية التى بعدها لتوضح لنا أين ينزل نور الله على عباده؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور: ٣٦]

وعندما تسمع جارا ومجرورا لا بد أن تبحث عن المتعلق بهما، فما الذى فى بيوت الله؟ إنك حين تبحث عن إجابة لن تجدها إلا فى قوله تعالى:

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

فكأن المساجد وهى بيوت الله هى أماكن تلقى النور المعنوى من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يعطينا ارتقاء الروح ؛ لنصل إلى المرحلة الثانية من الحياة ، تماما كما يحدث فى الدنيا عندما تصاب آلة بعطب أو لاتؤدى مهمتها على الوجه الأكمل، فالذى يصلحها ويصونها لتؤدى مهمتها المطلوبة منها هو المهندس الذى صنعها . والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، فلا أحد يستطيع أن يدعى مهما اجترأ على الله سبحانه وتعالى أنه خلق نفسه أو خلق الناس. وهذه دعوى لم يدَّعِهَا أحد قط.

وما دام الله عز وجل هو الذى خلق، إذن فهو سبحانه وتعالى الذى يضع المنهج الذى يصون حياة الناس ويجعلها تؤدى مهمتها كاملة. ومادام ربنا هو الذى يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، فكيف يأتى إنسان من البشر ليفتئت[1] على

(١) يفتئت : يقول الباطل ويختلقه .

الحق سبحانه وتعالى ويقول : إنه وضع منهجا لحياة البشر، ويعلم الإنسان ما يفسد حياته لا ما يصلحها. ونقول لكل من يفعل ذلك: لماذا تلجأ إلى من يصنع التليفزيون ليصلح لك الجهاز إن أصابه عطل، ولماذا لا تلجأ إلى صانعك الذى يصلح لك نفسك؟

إن تردد المسلم على بيت الله ليكون فى حضرة ربه دائما هو إصلاح لما فى النفس، فحين يقف المؤمن بين يدى الله ويصلى، يمتلىء بالرضا والتوازن النفسى ؛ لأن الواحد منا لا يعرف ما الذى يصيب أى ملكة من ملكاته بالارتباك.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1]، وما معنى حزبه أمر؟ . أى :إن جاءه شىء أو أمر ، وكان فوق طاقته. وفوق أسبابه، ولا يستطيع أن يفعل شيئا تجاهه، وتضيق عليه الأمور. فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأسوة حسنة ، فإن قابل أمرا مكروها وشاقا يقول : إن لى ربا أذهب إلى بيته وأصلى فأقف فى حضرته، فتحل أصعب وأعقد المشكلات . إذن فساعة يأتينا أمر شديد ، لا بد أن نتجه إلى الله عز وجل . وأفضل مكان نلتجىء فيه إلى الله تعالى هو بيته . فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح شديدة كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث فى السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلى [2]

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل الله لى أولذلك الذى يعانى من شىء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو؟ ونقول: هذا الظاهر من الأمر، ولكنك لا تعرف ماذا حدث فى داخله، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية، ولكن الله سبحانه وتعالى

(١) عن حذيفة قال :« كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى». أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢/ ٢١١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من رواية زياد بن صخر عن أبى الدرداء وقال: «لم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات».

يعالج داخل النفس دون أن تحس أنت لأن المساجد هى مطالع أنوار الله تعالى وهى التى يتنزل فيها النور على النور الـذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ؛لأن أنـوار الله تدخل القـلوب فتجعـلها تطمئن، وتـدخل النفوس فتجعلهـا تحس بالرضا والأمن.

إذن فالمساجد لها مهمـة العيادة للطبيب[١] الخالق الذى خلق هذه النفس ويعـرف كيف يـداويها، وليس للطبيب الـدارس فى كليـة الطب الـذى يعـرف أشياء وتغيـب عنه أشياء. ونحـن فى المساجد إنما نعيـش فى حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منـه التجليات والفيـوضات التى تعـالج نفوسنا أكثـر مما يعـالجها أبرع أطباء العـالم ، على أننا إذا دخلنا المسجد فلنعرف أن لهذا المكـان قدسيته، ولابد أن يحرص الإنسـان على نظافته ومظهـره، ولنرتد أحسن ثيـابنا ؛لأن الله لاينظر إلى نظـافتنا أو أنـاقتنا، ولكن ليحـرص كل منا على ألا يتأفف منـه من يصلى بجـانبـه؛ فمن يعمل فى مصنع ويحضر إلى المسجـد بمـلابس العمل قـد لاتتناسب ملابسه مع المجىء إلى المسجـد إلا بعد أن يغتسل؛ إن ملابسه شرف له فى عملـه، ولكن عليه أن يغيرها حين يـذهب إلى المسجد،[٢] ومن يعمل فى مكتب قد يكون الجو حـارا أو امتلأ جسده بالعرق، وملابسـه التى يوجد بها فى وظيفته هى شرف لـه فى عمله، ولكن عليه أن يغتسل، وأن تكون رائحتـه طيبة حين يـدخل المسجـد. ولـذلك نهى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم من أكل ثـوماً أو بصـلاً أن يأتى المسجد حتى لا يتأذى أحـد بالـرائحة التى تصـدر من فمه . وقال صلى الله عليـه وسلم فى حديثه الشريف الذى يرويـه جابر رضى الله عنه: « من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا »[٣] .

(١) تعبير «الطبيب الخالق» الذى استخـدمه فضيلـة الشيخ الشعراوى هنا هـو تعبير استخدمـه رسول الله ﷺ، وذلك فى حديث أبى رمثة رضى الله عنه قال: انطلقـت مع أبى نحو النبى ﷺ فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب. قال: «الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها».

(٢) وقد جاء بهذا حديث رسول الله ﷺ فعن عائشة قالت: إن الناس كانوا عمال أنفسهم، وكانت ثيابهم النهار (جلود النمـور) فكانوا يروحـون فى مهنتهم كما هى ، فقال رسول الله ﷺ: «لو اغتسلتم ومـا على أحدكم أن يتخذ ليوم الجمعـة ثوبين سوى ثوبى مهنته». أخرجـه أحمد فى مسنده (٦/ ٦٣) والبخارى (٢٠٧٠) وابن ماجه (١٠٩٦) واللفظ تاما لابن ماجه.

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه(٨٥٥) ، ومسلم ، (٥٦٤) من حديث جابر بن عبدالله.

وفى رواية لمسلم: «من أكل البصل والثوم والكرات فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم» [1] . ولذلك على المسلم أن يحرص أن تكون الإقامة فى المسجد طيبة، لتكون الأفئدة منشرحة. ويجب أن نراعى جلال المسجد ؛ لأننا نعرف أن الرحمات تتنزل على الصف الأول ثم الذى يليه[2] ، فلا يحاول واحد منا أن يحجز مكاناً بالصف الأول بأن يضع فيه سجادة خاصة أو كوفية، ثم يأتى أحيانا بعد إقامة الصلاة ويحاول اقتحام الصفوف ليصل إلى الصف الأول.

وإياك أن تعتقد أن الصف الأول محجوز لشخص معين ولو أتى متأخرا، فكل إنسان يأتى للمسجد عليه أن يأخذ دوره، ويقعد فى المكان الخالى. وإياك أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الذين يتكوَّن منهم الصف الأول ، إنهم هؤلاء الذين جاءوا للمسجد أولا. أما أن تحضر إلى المسجد وتحجز مكاناً فى الصف الأول لصديق أو قريب بحيث إذا جاء إنسان آخر ليصلى فى هذا المكان قلت له : إن المكان محجوز. نقول لك: أنت حر أن تفعل ذلك فى بيتك، ولكن من جاء إلى بيت الله أولا فليجلس أولا، وكثيرا ما تحدث مسألة الحجز للأماكن فى مواسم الحج والعمرة. وعلى من يجد مكاناً قد حُجِزَ بسجادة أو أى شىء آخر أن يزيحها بعيدا ويصلى.

وأنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله. وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد فى بيتك على غير دعوة فأنت تكرمه، فإذا كان المجىء على موعد فكرمك يكون كبيرا. فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته، فأنت فى صلاة منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعداداً للصلاة فى المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون فى حضرته.

(١) أخرجها مسلم فى صحيحه (٥٦٤) كتاب المساجد.

(٢) عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول ، قالوا : يا رسول الله وعلى الثانى؟ قال : وعلى الثانى». أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٠٥). قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٩١): «رجال أحمد موثقون».

وسبحانه وتعالى حين يدعونا إلى بيته بالأذان، فلك أن تعلم أنك إن خالفت هذه الدعوة تعاقب[1] ، ولكن ليس معنى هذا أن الله لم ييسر لك بيته لتزوره فى أى وقت. فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تمثل الحرص من الله سبحانه وتعالى على أن يلقاك ليعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مكدرات الحياة. ولكن إن أحببت أن تجلس فى المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل. تعالَ فى أى وقت وصلِّ كما تشاء، فإذا قلت: «الله أكبر» تكون فى حضرة الله . وإن لم تستطع فصلواتك الخمس فى اليوم الواحد هى القسط الضرورى لصيانة نفسك المؤمنة ؛ لأنك تقابل ربك أثناء الصلاة وتعلن الولاء له .

فالصلاة إذن خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى منهجه الذى يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب، بل تأخذ أنت بالأسباب. وحين تسمع «الله أكبر» ينادى بها المؤذن لصلاة الظهر ـ مثلا ـ فعليك أن تترك أسباب الدنيا وتذهب لتقف بين يدى الله عز وجل، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر، ثم أذان المغرب، ثم أذان العشاء، وكل هذا تذكير لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه. وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين فلا يأخذنا متاع الدنيا.

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد منا الولاء دائما. فإذا كنت تعتز بالله فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة[2] ويكون معك دائما، ويقيك ذل الدنيا.

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر». أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٩٣) والدارقطنى فى سننه (١/ ٤٢٠) والطبرانى فى معجمه الكبير (١١/ ٤٤٦) بسند صحيح.

(٢) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن النبى ﷺ قال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لاتسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٨) وأحمد فى مسنده(٥/ ٢٧٦). وأخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٢٣) بلفظ «ما من عبد يسجد لله سجدة» الحديث.

وقلنا قـديما: إن الإنسان إذا مـا أراد أن يقابل عظيما من العظماء فهـو يطلب المقابلـة، وقد يقبل هـذا العظيم مبدأ اللقـاء وقد لا يقبل، فإن قبل حـدد اليوم والساعـة والمكان وفترة الزيارة. فإن أردت أن تطيـل فهو يقوم واقفاً إعـلاناً بأن الزيارة قد انتهت.

ولكن الحق سبحـانـه وتعـالى بمطلق الكـرم لا يعـامل خلقـه هكـذا، فبيتـه مفتـوح دائما حين يـدعـوك للصلـوات الخمس، فهـذا أمـر ضرورى، ولكن بين الصلـوات الخمس إن أردت لقاء الله فسبحـانه يلقـاك فى أى وقت وتدعـوه بما تشاء، وتطيل فى حضرتـه كما تريـد، ولايقول لك أحـد: إن الزيـارة قد انتهت. وأذكركم دائما بقول الشاعر:

حَسْبُ نفسِى عِزًّا بأنِّى عَبْدٌ

يَحْتفِى بِى بلا مَواعِيد ربُّ

هُوَ فى قُدْسـِهِ الأعـزِّ ولكِنْ

أنَا أَلقَى متَى وأينَ أُحبُّ

●●●

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]

لأن المساجد مخصصة لعبـادة الله تعالى، فمن غير المنطقى أن يبنيها أو يجلس فيهـا مشرك أو كـافـر، وقـولـه تعالى: «مـا كـان» أى مـا ينبغى، وقـولـه تعـالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ أى هـم الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر؛

فشهادتهم بـالحال، وبالمقال. كما نشهد على أنفسنـا بالإيمان حين نلبى فى الحج والعمـرة ونقـول: لبيك اللهم لبيـك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أى أننا ننزه الله تعالى عن الشرك.

وقـولـه سبحـانـه وتعـالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، و﴿أُولَئِكَ﴾إشـارة إلى المشركين الذين شهدوا على أنفسهم بالكفـر، وحكم الله ألا يعمروا مساجد الله، و﴿حَبِطَتْ﴾ أى نـزلت من مستـوى عال إلى مستـواهـا الحقيقى دون مستواهـا الشكلى، فتجـد العمل وكأنـه منفوخ كـالبـالون الضخـم، وهو فى حقيقتـه مجرد فقـاعة ضخمـة ما تلبث أن تنكمش أو تسقط، فهى أعمال لا قيمـة لها، وليس لها حصيلة ؛ لأنها أعمال باطلة. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِـالأَخْسَرِينَ أَعْمَـالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف]

وتجد الـواحـد من هـؤلاء يظل يعمل ويعمل، ويظن أنـه سـوف يجنى خيراً كثيراً من هـذا العمل، وقد يكـون العمل مفيداً لغيره من النـاس. ولكنه افتقـد النية، ففسـد نتيجة لذلك. والقـرآن الكريم يعرض لحبوط الأعمال فى آيات كثيرة والمثال هو قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ [النور: ٣٩]

والسراب هو مـا يخيل إليك بلمعانـه أنه ماء فى الصحـراء. وعندمـا تذهب إليـه لا تجد شيئا. والـذى لا يحس بالظمأ قـد لا يلتفت إلى ذلك. ولكن الظمآن تتعلق نفسه بـالماء، فيجيل بصره فى كل مكان يبحث عنـه، فإذا رأى أى لمعان حسبه ماء، وعندما يجىء إليه لا يجد شيئاً، وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل هو

يجد الله عنده ليوفيه الحساب. ومثل هذا الانسان لم يضع الله فى باله يوماً من الأيام، وليس لمثل هذا الإنسان عند الله تكريم أو ثواب. لأن الإنسان يطلب أجره ممن عمل له، وهو لم يعمل عمله وفى باله الله.

وأنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيرا، ولكن إن عملت معروفا لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله، ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإن أطعمت فقيرا فلتطعمه لوجه الله، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك : إنك صاحب مروءة. ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتى منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها. فمن بُنِى من أجله المسجد وهو الله عليم بكل شىء، ويعلم اسم من أقام البناء ، وعليك أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة، حتى لاتدخل فى دائرة «عملت ليقال وقد قيل ». وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع ، لأنه إن فعل، حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء المرائين فى حديثه الشريف الذى يقول فيه عليه الصلاة والسلام : «أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال: كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال فلان جرىء ، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال :

تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فما عملت فيها ؟ قال :ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت، ولكن ليقال ؛ إنه جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى فى النار»(١) .

وعلى ذلك فالإنسان إن لم يضع الله فى باله وهو يعمل فسوف يجد الله يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية ثانية:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]

ولك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة فى الرماد ؛ إنها لا تبقى منه شيئاً. والمشرك الذى كان يدخل المسجد ويسقى الناس من عصير العنب غير المخمر، ويقوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم الله لدخول أمثاله إلى هذا المكان ، هذا المشرك لم يكن ليأخذ ثواباً ؛ لأنه ارتكب خيانة عظمى بأن أشرك بالله ، بينما يأخذ المؤمن الثواب لأنه يدخل المسجد ويعمره وهو مؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٧]

لأنهم عملوا لغير الله فلقوا الله بلا عمل . ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٢/ ٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) عن أبى هريرة ، واللفظ للنسائى.

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٨)

الإيمان : هو إيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وقمة الإيمان شهادة أن «لا إله إلا الله ،وأن محمداً رسول الله». وكانت هناك حساسية عند أهل قريش من مسألة الرسول هذه، وأنه محمد بن عبدالله، وبعضهم قد قال: القرآن جميل ورائع فلماذا جاء على لسان محمد؟ وكان اعتراض كفار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القول الذى حكاه القرآن عنهم :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١]

إذن فالمشكلة عندهم لم تكن فى القرآن ذاته، بل كانت فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم .(١)

ويرد الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف : ٣٢]

أى أن رحمة الله تعالى خاصة به، لايقسمها إلا هو بمشيئته، يقسمها كيف

(١) ولايطعن فى هذا أن الله عز وجل قد حكى عن مشركى قريش أنهم قالوا : (أجعل الآلهة إلها واحدا) (ص:٥) وأن منهم من (ضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) [يس :٧٨]، فقد يكون هذا عند بعضهم سترا منه لحقيقة رفضه لشخص الرسولﷺ حسدا من عند نفسه وكبرا.

يشاء كما قسم بينهم معيشتهم وأعطاهم الرزق المادى، وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم فى الأدنى، فكيف يريدون هم أن يتصرفوا فى الأعلى؟ لقد قالوا ماجاء فى القرآن على ألسنتهم:

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢]

وكان المنطق الصواب أن يقولوا: اللهم إن كان هـذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، ولكنهم بغبائهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية. فقد كانت عصبيتهم ـ إذن ـ ضد شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان على من يعلن إيمانه بالله منهم أن يشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله.

والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨]

وهذا القول يحمل فى مضمونه إيماناً برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله يقول بعدها: ﴿وأقام الصلاة﴾ وإقامة الصلاة لا تصح منهم إلا إذا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذى قال لنا إنها خمس[1]، وهو الذى علّمنا كيف نؤديها وماذا نقول فيها، وهو الذى نشهد له ونحن نصلى؛ فى الإقامة وفى التشهد، إذن فساعة نقيم الصلاة لابد أن نكون مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلى ذلك فقوله تعالى: ﴿وأقام الصلاة﴾ يقتضى ضرورة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم. واشترط سبحانه وتعالى فى هذه الآية

(١) عن أنس رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله أخبرنى بما افترض الله علىَّ من الصلاة. فقال : «افترض الله على عباده صلوات خمسا» الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٢٠١) وصححه والدار قطنى فى سننه (١/ ٢٢٩) .

الكريمـة الإيمان به وبـاليوم الآخـر وإقام الصـلاة وفى طيها الإيمان بـرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إيتـاء الزكاة، وطلب منـا ألا نخشى غيره، والخشية هى الخوف. وسبحانه وتعالى قد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨]

إذن فهناك خوف من أشيـاء أخرى، ونقول : إن الحق حين قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾ أى لم يخش فى دينه إلا الله، لكن لامـانع من الخشية التـى تجعلك تعد لعدوك وتحذر عدوانـه عليك. وانظر إلى دقة القرآن الكـريم وعظمته، فقد جمع فى آية واحدة بين الإيمان بـالله واليوم الآخر والصلاة والزكـاة، ولم يأت فيها ذكر الإيمان بالرسول ؛ لأنه مسألـة مطوية فى أركان الإيمان. ومن يفعل ذلك يدخل فى زمرة من وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]

ولقـائل أن يقـول: كيف بعد أن آمنـوا بكل هـذا نقـول: عسى ؟.. إذن فما حكم الذى لم يؤمن؟

ونقـول: إن «عسى» و«لعل» أفعـال رجـاء، وذكرهـا يعنـى الرجـاء فى أن يتحقق مـا يأتى بعـدهـا، ومراتب الـرجـاء بـالنسبـة للنفـس وبـالنسبـة للغير وبالنسبة لله تختلف، أنت تقول مثلاً: اسأل فـلاناً لعله يعطيك، هذه مرتبة من الرجـاء، وتقول: لعلِّى أعطيك، وهذه أقـرب إلى التحقيق من أن أرجو غيرى أن يعطيك.

إذن فهى مرحلـة أعلى فى الإجابة، وأن تقـول: لعل الله يعطيك مرحلة ثـالثة وعاليـة من الرجـاء ؛ لأنك ترجـو الله ولا ترجـو أحداً من البشر. والله سبحـانه

وتعالى كريم يعطى بسخاء. ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه: لعلى أعطيك، فيكون هذا توقعاً مؤكداً للعطاء.

إذن فمراحل الرجاء؛ رجاء لغيرك من غيرك، ورجاء منك لغيرك، ورجاء من الله لسواك، وقول من الله بالرجاء. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨]

نقول: إنه الرجاء المحقق ؛ لأنه سبحانه وتعالى كريم يجب أن يرحمنا ولاشيء يمنعه من أن يحقق ذلك. إذن فيكون الرجاء قد تحقق. وقوله تعالى:

﴿ فَعَسَىٰ(١) أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]

والهداية إما أن تكون هداية إلى سبيل يؤدى لغاية، أى يهدينا الله للمنهج، فإن عملنا به نصل إلى الجنة، لأن المنهج هو الطريق للجنة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول عن الكفار :

﴿وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]

إذن فالهداية مرة تكون للمنهج فنؤمن به ونعمل به، وإما لطريق يوصل إلى غاية. والذين ذكرهم الله فى هذه الآية الكريمة هم كل:

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]

وما داموا قد فعلوا ذلك؛ فهذا هو تطبيق المنهج، وبذلك فَهُمْ ـ إن شاء الله ـ لابد أن تكون نهايتهم الجنة.

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) : كل عسى فى القرآن هى واجبة ، وقال محمد بن إسحق : وعسى من الله حق .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

جاءت هذه الآية رداً على كفار مكة الذين أسروا فى غزوة بدر، وكان منهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تحدث إليه بعض من الصحابة يدعونه للإسلام وللجهاد فى سبيل الله فقال: إننا نسقى الحجيج ونرعى البيت ،ونفك العانى، ونقوم بعمارة البيت الحرام.[1] قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد. وماقاله العباس هو موجز رأى أهل الشرك من قريش، الذين جعلوا هذه المسائل مقابل الإيمان بالله والجهاد فى سبيله. وجاء قول الحق ليؤكد أن الكفة غير راجحة فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ﴾.

وكلمة ﴿سِقَايَةَ﴾ تطلق ثلاث إطلاقات : فهى المكان الذى يجتمع فيه الماء ليشرب منه الناس والذى نسميه :السبيل. وكذلك تطلق السقاية :على الإناء الذى نشرب منه الماء، والذى يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أويسمى صواع الملك، وفى قصة يوسف عليه السلام يأتى القول الكريم:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف : ٧٠]

أما المعنى الثالث: فهو الحرفة نفسها؛ فنقول: هذه خياطة ، وهذه حدادة

(١) ويقول ابن كثير: «قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسيرهذه الآية : نزلت فى العباس بن عبدالمطلب حين أسر ببدر قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى قال الله عز وجل : (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله : (والله لايهدى القوم الظالمين) يعنى أن ذلك كله كان فى الشرك ولاأقبل ما كان فى الشرك . تفسيرابن كثير(٢ / ٣٤١) .

وهذه سقاية، أى أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية ـ إذن ـ هى المكان الواسع الذى يتجمع فيه الماء، أو الإناء الذى نستعمله فى الشرب، أو الحرفة التى يقوم بها السقا.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]

فإن كنتم تفتخرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام وتجعلون هذا فى مقابل الإسلام ، فذلك لايصلح أبدا كمقابل للإيمان، ولاتتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبداً مع كفة سقاية الحجيج ، وعمارة المسجد الحرام. ومن يقدر ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وله مطلق المشيئة فى أن يتقبل العمل أو لايتقبله. والمؤمن المجاهد فى سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله، أما من يسقى الحجاج؛ ويعمر بيت الله دون أن يعترف بوحدانية الله كالمشركين ـ قبل الإسلام ـ فهو يطلب الجزاء ممن عمل من أجلهم، ولأنه سبحانه هو معطى الجزاء ، فهو جل وعلا يوضح لنا: أن هذين العملين لايستويان عنده، أى لايساوى أحدهما الآخر فى الجزاء.

ويقال[1]: إن سيدنا الإمام عليا رضى الله عنه، وكرم الله وجهه ،مر على طلحة بن شيبة ؛والعباس ووجدهما يتفاخران، أى: يفاخر كل منهما الآخر بالمناقب التى يعتز بها؛ ليثبت أنه أحسن وأفضل منه. وكانت المفاخرة من طبع العرب حتى فى الأشياء التى ليس لهم فيها فضل، والممنوحة لهم من الله عز وجل مثل الشكل والنسب إلى آخره، لأن أحداً لا يختار أباه وأمه ليتفاخر بهما، وإنما كل ذلك هو عطاء من الله سبحانه وتعالى.

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) من قول محمد بن كعب القرظى وعزاه لابن جرير بسنده. وفيه ابن لهيعة. فيه كلام.

لقد كان العرب مثلاً يجلسون أمام مكان ممتلىء بالماء يتفاخرون أيهم يغطس فى الماء، ويبقى رأسه تحت الماء مدة أطول، أى: أيهم أطول نفساً من الآخر، مع أن هذه مسألة خاضعة لبنية الجسم وتكوينها من الله الخالق، وليس لأحد يد فيها، فهناك من أعطاه الله رئتين أقوى من الآخر، وهو الذى يستطيع أن يغطس مدة أطول، ولكن هذه المسألة كانت من أوجه التفاخر عند العرب.

جلس طلحة والعباس يتفاخران، فقال طلحة بن شيبة: بيدى مفتاح الكعبة، ولو شئت أن أنام فيها لنمت.

فرد عليه العباس: وأنا معى سقاية الحاج ،ولو شئت ألا أسقى أحدا لاستطعت. ومر الإمام على كرم الله وجهه عليهما وهما يتفاخران، فلما سمع كلامهما قال: ماأدرى ماتقولان لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد فنزلت الآية :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٩]

ولم يكد العباس يسمع هذه الآية حتى قال : «إنَّا قد رضينا، إنَّا قد رضينا»، قال ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى حكم، وفى هذا القول إشارة إلى أن المفاخرة التى كانت بين العباس وطلحة لم تكن فى موضعها.

وكلمة ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ فى الآية الكريمة تفيد: أن المقاييس عند الله تختلف عن المقاييس عند البشر؛ لأن المقاييس عادة تختلف حتى بين الناس، فلك مقاييس وللناس مقاييس. وقد تجامل نفسك فى مقاييسك. وقد يجاملك الناس فى مقاييسهم، أو قد يقسون عليك. وكل مقياس يكون فيه هوى ؛لأن كل إنسان إنما يؤثر نفسه. وكل إنسان يحاول أن يأخذ كل شىء. ولكن المقاييس

التى لا هوى فيها والتى ليس فيها إلا العدل المطلق هى مقاييس الله، ولذلك نجدها تَجُبُّ كل شىء، وليس فيها أى فرصة للطعن .

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]

وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية، وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى وليست من العبد لقوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]

نقول: نعم، إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى، لكنه سبحانه قد أوضح لنا من لايدخلهم فى مشيئة هديه، فقال:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

وقال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وقال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨]

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق فى الكثير من آيات القرآن الكريم. وبعض الناس يقول: إن الهدى من الله، ولو أن الله هدانى ما قتلت، وما سرقت وما ارتشيت، ونقول: هذا فهم خاطىء، ولنرجع إلى القرآن الكريم، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ لا يهدى﴾ أى نفى مايستوجب الهداية عمن ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لايَهْدِى من قدم الكفر؛ أو قدم الظلم

أو قدم الفسق؛ فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق، هو الذى يمنع الهداية عن نفسه. ولو قدم الإنسان الإيمان لدخل فى هداية الله تعالى، فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هى مسألة من عمل الإنسان وباختياره، فقد يختار الإنسان طريق الغواية، ويترك طريق الهداية؛ لذلك لا يهديه الله؛ لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به. وإن اختار الإنسان طريق الهداية، فالحق يعطيه المزيد من الهدى ؛ لأنه آمن بالله؛ فاختار طريق الهداية، واستقبل منهج الله بالرضى. وهكذا نفهم قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ٨]

إذن فالحق يهدى من استمع إلى القرآن بروح الإيمان، واستقر فى يقينه أن له ربا، واعتقد أن له إلهاً، وقد فصلنا ذلك فى مسألة القضاء والقدر، وقلنا : إن الذين يقرأون القرآن لفهم قضية الهداية عليهم أن يستقرئوا كل الآيات المتعلقة بالموضوع، فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لايهدى الكافر، إذن فهو يهدى المؤمن، وأوضح أنه لايهدى الظالم، إذن فهو يهدى العادل، وأوضح أنه جل وعلا لا يهدى الفاسق، إذن فهو يهدى الطائع، فلا يقولن أحد: إن الله لم يشأ أن يهدينى ؛ لأن هذا فهم خاطىء لمعنى الهداية من الله؛ فسبحانه وتعالى قد بيَّن لنا من شاء هدايته ومن شاء إضلاله، وهو يهدى من قدم أسباب الهداية، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم]

ويقول أيضا:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن فالله أخبرنا مسبقاً بمن يستحق هدايته ومن لايدخل فيها، وأنت باختيارك طريقك، إما أن تؤمن؛ فتدخل فى الهداية، وإما أن تختار طريق الكفر والظلم والعياذ بالله؛ فتمتنع عنك الهداية. فإذا جاء أحد يجادلك؛ ويقول لك: إن الله سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر: ٣١]

لك أن تقول له: لقد بيَّن الله عز وجل من شاء له الهداية، ومن شاء له الضلال، ولقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ فقلنا: إن الهداية قد وردت فى القرآن الكريم على معنيين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق، وهذه هداية للجميع[1]، فقد دل الله المؤمن والكافر على طريق الإيمان برسله وكتبه، أى: بيَّن لهم ما يرضيه ومايغضبه ومايوجب رحمته وما يوجب لعنته، فالهداية الأولى ـ إذن ـ وردت بمعنى الدلالة للجميع، أى: أنها هداية عامة. ثم هناك هداية ثانية خاصة للمؤمنين، وهى التى بيَّنها الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

أى: أعانهم على منهجه؛ فيسَّر لهم الطاعة وصعَّب عليهم المعاصى، فإذا امتثل المؤمن لمنهج الله وأطاعه، فالحق عز وجل يشرح صدره بذلك، ويحبب الطاعة إليه؛ فيزداد طاعة. وإذا شرع فى ارتكاب المعصية؛ بغَّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها.[2]

وضربنا لذلك مثلا بالرجل الذى يقود سيارته ذاهبا لمكان معين. وعند

(١) ومن هذه الهداية قول رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب فى حديث طويل: «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم». أخرجه البخارى (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) فى صحيحيهما.

(٢) وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]

مفترق الطـرق وجـد رجلا من رجـال المرور؛ فـدلـه على الطريق، هـذه دلالـة عامـة. وعندما يقدم الرجل الشكر لجندى المرور. فرجل المرور يُزيد من الإيضاح لـه: لاتتبع طريق؛ كـذا لأن فيهـا متاعب ومصـاعب، واتبع طـريق كذا وكـذا تصل فى سرعة ويسر، وهذه زيادة فى الدلالـة، أو زيادة فى الهداية. لكن إن قال سائق السيارة لنفسـه: إن هذا رجل مرور لايعرف شيئاً ، وتجاهل شكره، فرجل المرور يتركه وشأنه.

إذن فالحق سبحـانه قـد هدى المؤمن والكـافر إلى طـريق الإيمان، فمن اتخذ طريق الإيمان أعانه الله تعالى عليه. ومن اتخذ طريق الكفـر ـ والعياذ بالله ـ تركه الله يعانى ويضل. ولـذلك لابد لنـا أن نتذكر دائما أن الهدايـة هدايتان؛ هـداية دلالة لكل الناس، وهداية معونة للمـؤمنين فقط، وفى الدلالة العامة يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]

أما دلالة المعونة : فهى التى يقول فيها المولى عز وجل:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]

وما يكشـف لنا أن الهداية عـامة، أن الحق سبحـانه وتعـالى حينما تكلم عن قوم ثمود وهم الذين بعث الله إليهم أخاهم صالحاً، قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت: ١٧]

ولو كـانت الهداية هنـا بمعنى أنهم أصبحوا مهتـدين، وسلكوا سبيل الإيمان ما قال الله سبحانه بعدها:

﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]

إذن ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فى هذه الآية الكريمة معناها دللناهم على طريق الإيمان ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وفى سورة الأنفال تصنيف آخر فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال]

وفى هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كان تصنيف المؤمنين بعد الهجرة مباشرة، وانتهت الهجرة؛ وأصبح الجميع سواء، فجاء التصنيف الجامع فى آية التوبة.

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أن هذه الأعمال لم تكن مقبولة من المشركين، أما إن قام بها المؤمنون فلهم درجة عند الله. وفى هذه الآية الكريمة يصفهم الحق بأنهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾، و﴿أَعْظَمُ﴾ صيغة أفعل التفضيل، وهى تعطى قدراً زائداً عن الأصل المعترف به، فيقال: فلان أعلم من فلان. وبهذا يكون الشخص الثانى عالما، ولكن الشخص الأول أعلم منه. ويقال: فلان أكرم من فلان، أى أن الموصوف الثانى كريم، والموصوف الأول أكرم منه. والله

سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا الفوز عنده، فقال:

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون، والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، والفوز حكم يؤدى إلى أن تأخذ ماتحبه نفسك. فقال الحق موضحاً مايفوزون به:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠]

ومادام هؤلاء هم الفائزون، فالفوز إنما يكون فى مضمارين اثنين. فالذين يصنعون أمورا خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم، ولكن نعيمهم على قدر إمكاناتهم؛ وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت، إذن فهو نعيم ناقص.

أما الذى يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته، فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته، ولكن على قدر إمكانات الله، ولامقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه. وفوق ذلك فهو نعيم دائم لايتركك فيزول عنك، ولاتتركه لأنك فى الجنة خالد لاتموت.

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى :

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

إذن فهـذا قمـة الفوز للقـوم الـذين يبشرهم الله فى هـذه الآيـة بالـرحمة منـه وبـالرضـوان المقيم. والبشارة ــ كما نعلم ـ هى نـوع من الإعلام بشىء سـوف يأتى مستقبلا ، أى ،أنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشىء قادم يسره.

إذن ففـائدة البشارة أن تغـرى الإنسان بسلـوك السبيل الـذى يحققها، فأنـا أبشرك بـالنجـاح إن استقمت وذاكـرت واستمعت لـلأسـاتـذة ، ويشجعك كلامى لتجتهـد حتى تحقق هذه البشـارة، فكأن البشارة تجعلك تتخذ الـوسيلة التى توصلك إليها.

ولـذلـك فقـد قلنـا : إن الأسبـاب والمسببـات والعلـة والمعلـول والشرط والجواب؛ كلهـا يجب أن تحرر بشكل آخر، لأننـا كنـا نتعلم أن الشرط سبب فى الجواب؛ كقولـك: «إن تذاكر تنجح»، وعلى ذلـك فالشرط هو المذاكـرة، وسبب الجواب هو النجاح، ونقول: لا، إن الجواب هو السبب فى الشرط لأنك لاتذاكر إلا إذا تمثل لك النجـاح بكل مايحققـه لك من فـرحة، إذن فـالشرط سبب فى وجـود الجواب واقعـا. والجواب سبب فى وجود الشرط دافعـا، أى أ: ن الـدافع لمذاكرتك هو مايمثلـه لك النجاح من قيمة مادية ومعنويـة. وكل إنسان يرغب فى النجـاح، لكن النجـاح لايتحقق بـالـدعـاء فقط، بل بـالمذاكـرة التى تحقق النجاح كـواقع. بمعنى أنك لاتذاكر إلا وقـد تمثل لك النجاح بمواهبه ومـزاياه وبمكـانتـه ويفرح أهلك بك، وبفـرحك بنفسك. ولهذا نقـول :إن السبب هـو الذى يوجد أولاً فى الذهن.

ومثال آخـر: لنفترض أنك تريد أن تسـافر إلى الطائف. فتكـون الطائف هى الغـاية، وتكـون أنت قـد خططت للوسيلـة وفى ذهنك الغـاية، إذن فـالجواب يوجـد دافعا، والشرط يـوجد واقعـاً. وقوله تعـالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يخبرهم بالنهاية السارة التى سوف يصلـون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التى يأمرهم

بها المنهج؛ لأن الجنة محفوفة بالمكاره[١] ، ولأن التشريع الإلهى تقييد لحرية الاختيار فى العبد، والمؤمن مقيد بأوامر الله تعالى فى «افعل» و«لا تفعل». ولكن غير المؤمن إنما يتبع هواه فى كل حركاته، ويفعل مايشاء له من الهوى ويطيع نزواته كما يريد، أما المؤمن فحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من الله تعالى، أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى الله به . فكأن الإيمان جاء ليقيد، ولكن إذا قارنا بين الجزاءين، نجد أن الذى يتبع شهواته فى الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة، وعمره فى الدنيا محدود، إذن فهو الخاسر ،لأن الذى قيد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئنانا فى الدنيا ونعيما مقيما لايزول ولاينتهى فى الآخرة[٢] .والمثال الذى أضربه دائما هو الطالب الذى لايذهب إلى المدرسة ولايذاكر، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو ، وهو قد أعطى نفسه ماتريد، ولكنه أخذ متعة محدودة، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاءبقية عمره.

أما الذى قيد حركته بالمذاكرة، فقد منع شهوات نفسه فى اللعب واللهو.وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلا مريحا ومرموقا بقية عمره.

إذن فكل من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب، كل منهما أخذ لونًا من المتعة. ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً ، ثم أصبح من صعاليك الحياة ، أما الثانى فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت فى الدنيا؛ إن قيدت نفسك بالتكاليف «افعل» و«لاتفعل»،

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) وقال : حسن غريب من هذا الوجه صحيح.

(٢) وهذا فى مثل قوله تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل :٩٧]

أما الذى خرج عن منهج الله وأعرض عنه فقد قال عنه القرآن ﴿فمن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [طه : ١٢٤]

فظاهر الأمر أنك قَيَّدْتَ حريتك، وإن فعلت ذلك برضا، فالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة فى النفس. ولذلك نجد الصلاة وهى التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم على الأقل؛ هذه الصلاة فى ظاهرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم، ولكنها تعطى راحة نفسية ، كما أنها تعطى اقتناعا يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها بحقها، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يابلالُ أرِحْنَا بالصلاة».[1]

كما قال صلى الله عليه وسلم ضمن حديث رواه عنه أنس بن مالك رضى الله عنه «وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة».[2]

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة. ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ. وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿يبشرهم ربهم﴾، تجد البشارة هنا آتية من رب خالق. والرب هو المالك ؛ والمدبر الذى يرتب لك أمورك، وهو مأمون عليك.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة : ٢١]

والرحمة والرضوان من صفات الله وهى صفات ذاتية فى الله، ومتعلقات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢١]

ونجد أن هذا ترقٍّ وتدرجٌ فى النعمة، فقد بشرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قاله أحمد واللفظ له.

(٢) حديث أنس أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/ ٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى،وتمام الحديث «حبب إلىَّ من الدنيا النساء والطيب...»

وهى ذاتية فيـه، ثم بنعمة دائمة فى الحيـاة. ولنلحظ أن هناك فارقـا بين النعمة والمنعم. ونضرب لذلك مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دعاك إنسان فى بيته وقت الطعـام ثم جـاء بطبق فيـه تفاح، لابـد أن يكـون التفـاح فى الطبق يكفى كل الجالسين بحيث يأخـذ كل واحـد منهم تفـاحـة، فإذا أمسك صـاحب البيت بتفـاحــة وأعطـاهــا لأحـد الجالسين. فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صـاحب البيت، وتمييز لشخص ضيفـه عن بقية الضيـوف ، وهذه تمثل درجة أعلى من الكـرم والاهتمام؛ فهى تمثل الرحمة والـرضـوان. أما التفـاح نفسه فهـو النعمة، ومثله مثل الجنات.

وهكذا نـرى أن هناك اختلافاً فى التكـريم.و المؤمنون حين يرتقـون فى درجة الإيمان؛ يعيشون دائما مع النعمـة والمنعم، فإذا جاء الطعـام قالـوا: «باسم الله»، وإذا أكلـوا قـالـوا: «الحمدلله»، ولكنهم إذا ارتقـوا أكثـر فى الإيمان عـاشـوا مع المنعم وحده، ولـذلك يباهى الله بعبـاده الملائكة [1]؛ يباهى بعبـادتهم وطاعتهم التى يلتـزمـون بها على أى حالـة يكـونون عليهـا ، ولـو نـزل بهم أشد البـلاء وسلبت منهم النعم، وهـؤلاء من أصحـاب المنـزلـة العاليـة. ولـذلك «فأشـد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل [2]» ؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبـه لذاته وإن سلب منـه نعمة، وهذه منـزلة عاليـة. فمن عبد الله ليدخل الجنـة أعطاها لـه، ومن عبده سبحـانه؛ لأنه يستحق أن يعبـد، فسوف يـرتقى فى الجنـة ليرى وجـه الله فى كل وقت؛ وأمـا الآخرون فيرونـه لمحـات ، ولذلك يكـون الجزاء فى الآخرة على قـــدر العمق الإيمانى للعبد، لـذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٨٠١) عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «أبشروا .. هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء ، يبـاهى بكم الملائكة . يقـول : انظروا إلى عبـادى قد قضـوا فريضـة ، وهم ينتظرون أخـرى » وقـد أخرج نحـوه أحمد فى مسنـده (٢/ ١٩٦) ، قـال البـوصيرى فى الزوائد : هـذا إسنـاد صحيح ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢) والترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجـه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠]

وقال أحد الصالحين: «إنى لا أشرك بك أحدا حتى الجنة، لأن الجنة أحد» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقد ترحم ولكنك لاتنال الرضوان، فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عز وجل: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم. وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ .

ولقائل أن يقول : هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذكرت النعيم؟ والجنة وجدت أصلا لينعم فيها الإنسان.

ونقول لمثل هذا القائل : انتبه والتفت جيدا إلى المعنى، فالمتحدث هو الله سبحانه وتعالى. وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة، ولكن يحيا فى الكثير من المنغصات ، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة، كمرض يملؤه بالألم، أو ابن عاق يكدر حياته، أو زوجة تملأ الحياة كدرا ونكدا ، قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة الله؛ لأن المكدرات قد أحاطت به. وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا، بل هى صفاء واستمتاع، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات، وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم، لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ، قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم

تنتهى، وشاء الله ـ عز وجل ـ أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدى فى الجنة. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وهذا ما يؤكد الاطمئنان فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، وكلمة ﴿لهم﴾ أعطت شبه الملكية لهذا النعيم. ولذلك مهما تملك الإنسان فى هذه الدنيا، فهذا الامتلاك لايتجاوز حدود أن يجلس ؛ ويقوم الخدم بتنفيذ أوامره ؛ لأن المتعة إما أن تكون بيدك، وإما أن تنعم بالراحة ويقدمها لك غيرك. وعلى سبيل المثال حين تريد أن تأكل ، فإما أن تعد الطعام لنفسك ، وإما أن يعده لك غيرك. ولا يوجد إنسان مهما أوتى من ملك بإمكانه أن يحقق كل مايريده بيده. بل لابد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين. ولكن المؤمن فى الجنة ينال مايتمناه بمجرد أن يخطر الشىء بباله، وهذا يختلف عن الدنيا ؛ لأنك حين ترغب فى شىء فى دنيانا، لابد أن تقوم به بنفسك ،أو تعتمد على غيرك؛ لينفذه لك، حتى وإن كان ماتطلبه هو مجرد فنجان من القهوة، وأنت تحدد لصانعها الهيئة والنوع إن كنت تريدها بدون سكر ،أو بقليل من السكر ،أو بكثير من السكر، لأن كلا منا فى الدنيا إنما يحيا مع أسباب الله. ولكن المؤمن فى الجنة إنما يحيا مع المسبب وهو الله القادر العظيم.

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ فنحن نلحظ مقابلة الجمع بالجمع ، وهى كما علمنا من قبل تقتضى القسمة آحاداً ، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه: أخرجوا أقلامكم، فكل تلميذ لا يخرج أقلاما، بل يخرج كل تلميذ قلمه . وإذا قلنا: اركبوا

سياراتكم فليس معنى هذا أن يركب كل واحد كل السيارات، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته.

وقول الحق: ﴿جَنَّاتٍ﴾ ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التى اكتسبها والمنزلة التى وصل إليها [1] .

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسدا من صاحب الجنة متوسطة المنزلة. وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره. وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر. مثلما يحدث أحيانا فى الدنيا حين يتفوق إنسان فى دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفس، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه، وإذا كان ذلك هو مايحدث فى الدنيا، فما بالنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾
[الحجر]

أى :أن كلا من أهل الجنة يفرح بمنزلته، ويفرح بمنزلة الأعلى منه، لأنه سينال من فيوضات الخير، التى عند الأعلى منزلة. عندما يأتى لزيارته وقد قالوا فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن]

إن كل من علت منزلته فى الجنة له جنة خاصة به، وجنة أخرى ليتكرم بها على من هم دونه، وكأنها مضيفة لمن يحبهم، إذن ففى الآخرة يفرح أهل الجنة

(١) عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٢) والترمذى (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح ، وأبو داود فى سننه (١٤٦٤).

بمن هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيرا.

وفى الدنيا إذا أراد إنسان أن ينال نعم كل الخلق، فلابد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أتت إليه واستفاد منها، وعلينا أن نوقن بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها، لأنها تعرف أن الله قد أرسلها إليه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥]

وأنت حين تبذر بذرة الشجرة، تعطيك الشجرة الثمار، وهى التى تعطيك نتاجها. ولست أنت الذى تنتزعه منها، ولذلك نقول دائما: إن الرزق يعرف عنوانك جيدا ولكنك لاتعرف مكانه أبدا، فأنت تبحث عن الرزق فى كل مكان وقد لاتجده. ولكن ما قسمه الله لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتما.

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد ولا الحسد ولا الغل. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم: « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة».

ودخل الرجل وعرفه الصحابة، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابى حتى يستحق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك. فقال الرجل: إنى لأصلى كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكى كما تزكون. ولكنى أبيت وليس فى قلبى غل لأحد. فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: لقد قال الرجل كذا وكذا. فقال صلى الله عليه وسلم: «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا » (١)

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٩) لأحمد والبزار بنحوه. وقال «رجال أحمد رجال الصحيح». وليس فيه «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا». وقد تتبعه عبدالله بن عمرو ليستطلع عمله ثم قال له: لم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت... غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التى بلغت بك وهى التى لانطيق.

فالله سبحانه وتعالى يقول فيها :

﴿ ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر : ٤٧]

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

والولى هو الذى يليك وينجز ماتحبه ، وتلجأ إليه فى كل أمر، وتأخذ منه النصيحة ، كما أنه القادر أن يجيرك حين تفزع إليه، ويكون دائما بمثابة المعين لك ، والقريب الذى يسمع منك، إذا استغثت يغيثك وينصرك ، ويكون معك فى كل أمورك .إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هنا: إن أردتم أن يكون بناء الإسلام قويا لا خلل فيه، فإياكم أن يكون انتماؤكم غير انتماء الإيمان، فهو فوق انتماء النسب والحسب وغير ذلك، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق، فما يطلبه الخالق فوق مايطلبه المخلوق ؛ لأنك إن أغضبت المخلوق فى رضا الخالق تكون أنت الفائز، ويقذف الله فى قلب كل من حولك رضاهم عنك ،وسيقال عنك صاحب مبدأ وضمير، ولاترضى أن تغضب الله ليرضى عنك أحد. وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحتقرك[1] . فإن شهدت زورا لصالح بشر. يعرف عنك هذا الذى شهدت زوراً فى حقه أنك شاهد زور فلا يأمنك، وإن جئت بالصدفة لتشهد

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه» أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١٥٤٢)، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٤) من وصية أرسلتها لمعاوية.

عنده فهو لا يقبل شهادتك ويحتقر كلامك.

ولذلك قال الحكماء: شاهد الزور قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته، ولكنك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط فى نظرك.

والانتماء إذن هو انتماء لله، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل مايغضب الله فلا تطعه، ولكن لا تكن فظا معه. وخصوصا مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنهما:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ﴾ [التوبة: ٢٣]

إذن فالذى يربط كل شىء هو الكفر أو الإيمان. وقد أعطانا صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الخالد. فقد كان سيدنا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللا فى مكة، وكانت حياته فى مكة قبل إسلامه غاية فى الترف، وكان يرفل[1] فى الثياب الفاخرة، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادى الصعب ، لدرجة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآه فى الطريق ساترا عورته بجلد شاة فلفت النبى عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإيمان بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها . لقد رأى مصعب ـ رضى الله عنه ـ أن شرفه بالانتماء إلى الإسلام أكبر من فاخر الثياب ، وترف العيش[2] وانطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى:

(١) يرفل : يتبختر فى مشيته ويجرُّ ذَيْله .
(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطَّق به فقال ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/ ٢٩٥) إسناده حسن .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة]

وأعطانا سيدنا مصعب ومن معه المثل العظيم فى الانتماء الإيمانى، والمجاهدة فى سبيل الله بالمال والنفس، وكيف نجعل اختيارنا مع منهج الله، هذا المنهج الذى يقيد الإنسان فيما له اختيار فيه. فالإنسان مقهور فى أشياء ومخير فى أشياء.

ونعلم أن التكليف لايأتى فى الأمور التى نحن مقهورون عليها. وإنما يأتى فيما لنا فيه اختيار. فإذا ما كان لنا اختيار، فلنراع أن نختار بين البدائل فى إطار منهج الله تعالى، ولانخرج بعيدا عن هذا الإطار. وكان المسلمون الأوائل يضحون بالبيت والمال والولد، ويهاجرون فى سبيل الله. واستقبلوا كل هذه التضحيات الصعبة بصدور مؤمنة، وصبر واحتمال شديدين ؛ لأنهم وثقوا فى البشارة من الله سبحانه وتعالى بأن لهم الجنة والرضوان ،والنعيم المقيم؛ خالدين فيه لايفارقهم ولايفارقونه. وبهذا أقيم بناء الإسلام.

وبعد أن بيَّن لنا الحق أسس الانتماء للدين، وجزاء هذا الانتماء، حذرنا أن ننحرف عنه لنرضى أبا أو إخوة أو أقارب ،فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا آبَاءكُمْ وإخوانكمْ أولياءَ إنَ استحبُّوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ [التوبة : ٢٣]

ويريدنا الله سبحانه وتعالى أن نعرف أن الانتماء لله لايعلو عليه شىء، فإذا مِلْناَ عن الحق لنرضى أقارب ،أو لنحتفظ بمال أو منصب ، فذلك ظلم للنفس؛ لأن جزاء الحق ونعيمه أكبر، فلا ينصرن أحد الباطل ، ولا يجعل

أحدنا الإيمان خادما لكفار لايؤمنون بالله. ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة بقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيْمَانِ﴾، وكلمة «استحب» أى: طلب الحب ومثلها مثل «استخرج» أى: طلب إخراج الشيء. وإذا قلنا «استجاب الله» معناها : أجاب.

إذن فـ«استحب» معناها: أحب، ولكن «استحب» فيها افتعال. و«أحب» فيها اندفاع بلا افتعال.

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الأيمَانِ﴾ يدل على أن الكفر مخالف للفطرة الإيمانية للإنسان،لأن الإنسان بفطرته مؤمن محب للإيمان، فإن حاول أن يحب غير الإيمان، لابد أن يتكلف ذلك؛ وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه ؛ وليس من طبيعته. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨]

وهذا التساؤل والتعجب يوضح لنا أن الذين يحكّمون المنطق والفكر والعقل يصعب عليهم الكفر بالله، لماذا؟ ؛ لأن الكون وجد أولا ، ثم وجد الإنسان، فكان من الواجب حين نأتى إلى كون لم نصنع فيه شيئا أن نسأل: من الذى أوجده؟ وكان من الطبعى أن يبحث العقل عن الموجد، وخصوصا أن فى الكون أشياء ،لا قدرة للبشر على إيجادها؛ كالشمس، والأرض ،والماء، والهواء، والنبات، والحيوان. وكلها تمثل الاستقبال الجامع لمقومات حياتك.

كان من الطبعى ــ إذن ــ أن نسأل: من الذى أوجد هذا الكون؟. خصوصاً أننا نفتش عمن اخترع لنا اختراعا بسيطا مثل :مصباح الكهرباء وندرس تاريخ حياته، وكيفية اكتشافه، لمجرد أنه أضاف إلى حياتنا اختراعا استفدنا منه، فما بالنا بمن خلق هذا الكون؟. ولقد رحمنا سبحانه وتعالى من ضلالات الحيرة، فأرسل لنا رسولا برحمة منه ؛لينبهنا ويقول لنا: إن هذا الكون

من خلق الله القادر العظيم. لماذا إذن لانصدق الرسول ، ونتبع المنهج الذى أنزل إلينا؟

ولقد ضربنا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بشخص سقطت به الطائرة وسط الصحراء وبقى حيا، لكن لا ماء ولا طعام، ثم أخذته سِنَةٌ من النوم واستيقظ ليجد الطعام والشراب ،وكل مايحتاج إليه حوله؛ ألا يفكر قبل أن يأكل من كل هذا : من الذى جاء به؟. وأنت أيها الإنسان قد جئت إلى هذا الكون العظيم وقد أُعِدَّ إعداداً مثالياً لحياتك، وهو إعداد فوق القدرة البشرية، فكان يجب أن تفكر من الذى أوجد هذا الكون؟.

إذن: فالإيمان ضرورة فطرية ؛وضرورة عقلية أيضا، وإن ابتعدت عن الإيمان فهذا يحتاج إلى تكلف؛ لأنك تبتعد عن منطق الفطرة والعقل؛ لتحقق شهوات نفسك. وما دمت قد اتبعت هواك وخضعت لشهوات النفس، فهذا لون من التكلف الذى يصيب ملكاتك بالخلل، وعقلك بالخبل ، فحب الكفر لا يكون عاطفياً ،أو فطرياً ،كما لا يكون منسجما مع العقل السليم ، بل هو حب متكلَّف. فالذى يفعل حلالاً يحيا وملكاته كلها منسجمة، والذى يفعل حراما يعيش وملكاته مضطربة[1] ، والمثال: حين ينظر الرجل إلى زوجته ، فهو ينظر إلى حلاله ويشعر أن ملكاته منسجمة، ولكن إن نظر إلى امرأة أخرى ، فهو .. يشعر باضطراب الملكات. فالسلوك المتفق مع الإيمان سلوك سوى .أما السلوك الخارج عن منهج الإيمان فهو الذى يحتاج إلى تكلف، وهذا التكلف يعارض الطباع الإنسانية. بينما توابع الإيمان من الاستقامة لا تكلف شيئا، فالمؤمن يكون مستقيماً فلا يرتشى، ولا يسرق، ولا يدخل بنفسه إلى مزالق الهوى أو الشهوة، ويحيا حياة طيبة، فإن فتح «دولابه» الخاص، وأخذ منه شيئا فهو

(١) عن النواس بن سمعان الأنصارى قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : «البرُّ حُسْن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » . أخرجه مسلم (٢٥٥٣) والترمذى (٢٣٨٩) وقال : حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٤/ ١٨٢) .

يأخـذ ما يـريـد بهدوء واطمئنان ، لكن المنحـرف من يـدخل إلى غير حجرتـه ليأخـذ شيئـا من «دولاب» مـا، حتى ولو كـان «دولاب» الأب النـائم، لـذلك نجده يسير على أطراف أصابعه متلصصا ليفتح «دولاب» أبيه.

إذن: فالاستقـامة لاتحتـاج إلى تكلف، ولكن الانحـراف هو الـذى يحتاج إلى تكلف، ولـذلك قال الله سبحـانه: ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ ولم يقـل؛ «أحبوا»، لأن الحب أمر فطـرى، فالإنسان ـ مثـلا ـ يحب ابنه حبـا فطرياً عاطفيـاً، والحب العاطفى لايقنن. فأنت لا تستطيع أن تقول: سأحب فـلانًا وسأكره فلانـاً ؛ لأن العاطفة لاتأتى بهذه الطريقة ؛ لذلك أنت تحب ابنك عاطفياً ،حتى وإن كان فاشلاً فى دراسته. لكنك تحب ابن عدوك عقليا إن كـان متفوقاً ، إذن فالحب العقلى هو الذى يقنن له.

وكـذلك أنت تكره الـدواء المر بعـاطفتك، لكنك تحبـه بعقلك إن كان فيـه شفـاؤك، فتبحث عنه ، وتـدفع المال من أجله، وتحرص على أن تتنـاوله، وكلنـا نعلم أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قـال: «لا يـؤمن أحـدكم حتى أكـون عنده أحب إليه من نفسه»(1)

ووقف عند هذه سيـدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال: يا رسول الله: أنـا أحبك عن مـالى وأحبك عن ولـدى، ولكـن كيف أحبك عن نفسى؟ فكـرر رسـول الله صلى الله عليه وسلم الحديث قـائلا : «لايـؤمن أحـدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

وكررهـا عليه الصـلاة والسلام ثلاثـا، فعلم عمر بن الخطـاب رضى الله عنه أن هـذا تكليـف. والتكليف لا يأتى إلا بـالحب العقلى الـذى يمكن أن يقنن. وقد يتسامى المؤمن فى الحب لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ليصير حباً عقلياً

(1) أخرجه البخـارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد بن لهيعـة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وعاطفياً. ولكن الحب العقلى هو مناط التكليف، أما الحب العاطفى فلا يكلف به. ولم يقنن الحق سبحانه وتعالى لانفعالات العواطف، لأنه سبحانه لايمنع العواطف أن تنفعل انفعالاتها الطبيعية، فأنت تحب من يسدى إليك معروفاً، وهناك من تحبه دون أن تعرف السبب. وهناك من تبغضه دون أن يكون قد عاداك أو آذاك [1] ، وكل ذلك متروك لك، ولكن الله سبحانه وتعالى نهى أن يؤدى ذلك إلى عدوان على الحق، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة: ٨]

أى :لا يدفعكم كره قوم على أن تخرجوا عن طريق الحق وتظلموهم، فإن كرهتموهم فتمسكوا بالعدل معهم.

إذن فالله سبحانه وتعالى لم ينه عن الحب أو الكره ؛ ولكنه نهانا عن أن نظلم من نكره أو نجامل من نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ صورة حية لهذا ؛ فقد قتل أبو مريم الحنفى زيد بن الخطاب شقيق سيدنا عمر فى معركة اليمامة، ثم دخل فى الإسلام؛ فكان كلما مر أمام سيدنا عمر قال له: إلو وجهك بعيدا عنى ، فإنى لاأحبك. فقال له أبو مريم الحنفى: أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى.

قال: لا. فقال الرجل: إنما يبكى على الحب النساء.

والحق سبحانه وتعالى حين قال: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إنما يريد أن يلفتنا إلى أنهم عارضوا فطرتهم وعقولهم؛ ولذلك لا نجعل انتماءنا لهم فوق انتمائنا لله، فالولاء لله فوق كل حق ؛ حتى لو كان حق الأبوة ، صحيح أن الأب سبب وجودك، ولكنه سبحانه وتعالى خلق أباك الأول آدم من عدم ، فلا تجعل الخلق الفرعى يطغى على الخلق الأصلى. ولذلك يذيل الحق هذه

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩) وأبو داود (٤٨٣٤).

الآيـة الكريمـة بقـــوله: ﴿وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّـالِمُونَ﴾ لأنهم نقلــوا الحق من الله ســبحانه وتعــالى إلى الخـــلق، ولأنهم ظلمــوا أنفسهم فحرمـوها مـن الجزاء فى الآخرة ليحققـوا نفعا عاجـلا فى الدنيـا. ولذلـك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٥٧]

لأن أحدا لايستطيع أن يظلم الله سبحانـه وتعالى ، والذى يتمرد على الإيمان بعد أن يسمع الدعـوة إليه ولا يؤمن، ومن يأمره الحق بالطـاعة فيعصى، فهذا تمرد على الإيمان ، وإن كنت من المتمـردين وجاءك الله بمرض؛ فهـل تقدر على دفع المرض ولا تمرض؟. وإذا جـاءك الله بالموت. أتستطيع أن تتمـرد على الموت وتبعـده عنك فـلا تموت؟. إذن: هنـاك أقـدار لاتستطيع التمـرد عليهـا ، وأنت متمرد ـ فقط ـ فيما لك فيه اختيار.

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخاطبهم خطاباً صريحاً فقال:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للمؤمنين. وقد جاء سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بمراحل القرابة ، فذكر أولاً صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة، ثم الزواج، وهو وسيلة التكاثر، ثم الأهل والعشيرة ،ثم الأموال التى نملكها فعلاً ، ثم الأموال التى نريد أن نكسبها، ثم المساكن التى نرضى بها، وبعد ذلك ذكر التجارة التى تزيد من المال. وفرّق الله سبحانه بين الأموال التى فى حوزتنا وبين التجارة؛ لأن التجارة قد تأتى لنا بأموال فوق الأموال، والإنسان لا يحصل على سكن إلا إذا كان عنده فائض من المال. ويذكرنا الحق سبحانه هنا إن كانت أى مسألة من هذه الأشياء ، وهى زينة الحياة الدنيا أحب إليكم من الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى انتظروا حتى يأتيكم أمر الله، وحينئذ ستعرفون القيمة الحقيقية للدنيا وقيمة ماعند الله تعالى من رضاء ونعيم.

ولهذه الآية الكريمة أسباب نزول ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أُمِرَ بالهجرة من مكة إلى المدينة ، أمر المسلمين بالهجرة ، فتركوا أموالهم التى اكتسبوها بمكة وتجاراتهم ومساكنهم ،وآبائهم وأبنائهم ،وإخوانهم وأزواجهم وعشائرهم ،التى تستطيع حمايتهم ، تركوا كل هذا وهاجروا لأرض جديدة .

ولكن من المسلمين من ركنوا للدنيا فبقوا بجوار أموالهم وأزواجهم وأبنائهم المشركين ، وكانت الواحدة من النساء المشركات تتعلق بقدمى زوجها المسلم الذى يريد الهجرة حتى لا يتركها فكان قلبه يرقُّ لها ، ومنهم من كان يخشى ضياع ماله وكساد تجارته ،التى بينه وبين المشركين ، فنزلت هذه الآية [1] .

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح قيمة الانتماء الإيمانى ويدرب المؤمنين عليه. فقد كان المسلم لايتم إيمانه حتى يهاجر، ويصارم[2] أهله

(١) انظر تفسير القرطبى (٤ / ٣٠٢١) طبعة دار الغد، وأسباب النزول للإمام السيوطى (ص ٩٢ ، ٩٣) .
(٢) يصارم أهله : يقاطعهم قطعاً باتاً .

وأقاربه ويقـاطعهم، فشق ذلك عليهم. وقالوا: يارسـول الله إن نحن اعتزلنا من خـالفنا فى ديننـا قطعنـا آباءنـا وأبناءنـا وأزواجنـا وأقاربنـا، وخفنـا على أموالنـا وتجارتنا من الفساد، وخفنا على مسـاكننا أن تخرب ، وبذلك نضيع ، فأنزل الله تعـالى هـذه الآيـة، وكأنها تأمـرهـم بأن كسب الإيمان أعلى من أى كسب آخـر، فأنزل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

ولما نـزلت هذه الآيـة الكـريمة أخـذهـا الصحابـة مأخـذ الجد وهاجـروا ؛ وقاطعـوا آباءهم وأبنـاءهم ، حتى إن الـواحد منهم كـان يلقى أباه أو ابنـه فلا يكلمـه و،لا يدخلـه بيته ،ولا ينـزلـه فى منزلـه إن لقيه ، ولا ينفق عليـه ، إلى أن نزلت الآية الكريمة:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]

أى :أن المعـروف معهم يقتصر فقط فى المعاملـة وفى الإنفاق على المحتـاج . أما الطاعـة لهم فيما يغضب الله فهى محرمة. وحاول بعض المستشرقين أن يطعن فى القـرآن، فمنهم من قـال : إن هنـاك تعـارضـاً بين آيـات القـرآن الكـريم، فـالآيتان اللتـان ذكرنـاهما ؛ الأولى تطلب مقـاطعة الآبـاء والأبناء إن استحبـوا الكفر على الإيمان، والآية الثـانية تطلب مصاحبتهم بالمعـروف أو عدم القطيعة، وآية ثالثة تقول:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢]

ولم يفطن هؤلاء إلى أن هناك فارقاً بين الود والمعروف ، فالود هو عمل القلب، فأنت تحب بقلبك ، وتود بقلبك ، ولكن المعروف ليس من عمل القلب لأنك قد تصنع معروفاً فى إنسان لا تعرفه، وقد تصنع معروفاً فى عدوك حين تجده فى مأزق، ولكنك لا تحبه ولا توده.

إذن : فالمنهى عنه أن يكون بينك وبين من يحادون الله ورسوله حب ومودة، أما المعروف فليس منهيا عنه؛ لأن الله يريد للنفس الإيمانية أن تعترف بفضل الأبوة، فإن وجدت أباك وهو غير مؤمن فى مأزق فاصنع معه معروفاً وساعده، لكن عليك ألا تطيعه فيما يغضب الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يربى فى النفس الإيمانية أن تحترم من له فضل عليها. والأب والأم من أسباب الوجود الفرعى فى الحياة، لذلك جاء الأمر بمصاحبتهما بالمعروف فى الدنيا، شرط ألا نقبل منهما دعوتهما للكفر إن كانا من أهل الكفر، لأن إيمانك بالله لابد أن يكون هو الأقوى. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ،و أن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».[1]

وذلك حتى لا يكون مقياس الحب هو النسب أو القربى، وإنما يكون القرب من الله سبب الحب، والبعد عن الله سبب الكره. فقضية الإيمان تَجُبُّ قضية العاطفة. ففى معركة بدر كان سيدنا أبوبكر الصديق رضى الله عنه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما ابنه فلم يكن قد أسلم بعد وكان مع الكفار، فلما أسلم ابن أبى بكر وآمن؛ قال لأبيه: لقد رأيتك يوم بدر

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

فلويت وجهى عنك حتى لا أقتلك. فرد سيدنا أبو بكر رضى الله عنه: لو أنى رأيتُكَ لقتلتُكَ. وهذا منطقى مع الإيمان لأن الموازنة النفسية اقتضت أن يقارن ابن أبي بكر بين أبيه وبين صنم يعبده ؛ فرجحت كفة أبيه، ولكن أبا بكر حين رأى ابنه قارن بين ربه وابنه فرجحت كفة ربه.

وإذا كان ذلك عن القرابة ، وكيف يَجُبُّ الإيمان العاطفة، فماذا عن المال؟ يتابع المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرفْتَمُوهَا﴾ أى: أخذتموها بمشقة، وهى مأخوذة من «القرف» وهى القشر، وأنت إن أردت إزالة القشر عن حبة نبات ما، قدتجد شيئا من المشقة ؛ لأن هناك التصاقا بين القشرة والحبة، والحق هنا يقول: ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرفْتُمُوهَا﴾ أى: أخذتموها بجهد ومشقة، وهو غير المال الموروث الذى لم يتعب فيه صاحبه، وإنما ورثه عن غيره، وفى هذه الحالة قد يكون أمره هيناً على صاحبه. أما المال الذى كسبه الإنسان بعرق جبينه وكدِّه[1] فصاحبه أكثر حرصاً عليه من المال الموروث. ويقال :«فلان اقترف كذا»، أى: أنه قام بجهد حتى حصل عليه، ويقال: «اقترف الكذب» و«اقترف السرقة»، بمعنى أنه قد بذل جهدًا ليكذب، أو بذل جهدًا ليسرق، أى: قام بعملية فيها مجهود.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حتَّى يَأْتِي اللهُ بأمرِهِ واللهُ لا يَهْدِي القومَ الفَاسِقِينَ﴾ وسبحانه هنا يوضح لهم: انتظروا أمر الله الذى سوف يأتى، لأنه سبحانه لا يهدى فاسقاً خرج عن الإيمان، ولا يهدى من جعلوا حبهم للعلاقات الدنيوية فوق حب الله فخرجوا عن مشيئة هداية الله تعالى، فسبحانه لايهديهم كما لايهدى الظالمين أو الكافرين؛ لأن هؤلاء هم من قدموا الظلم والكفر والفسق، فكان ذلك سببا فى أن الله لم يدخلهم فى مشيئة هداية المعونة على الإيمان، أما هداية الدلالة فقد قدمها لهم.

(١) الكدّ : الشدة والتعب فى تحصيل الشىء .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبعث الطمأنينة الإيمانية فى نفوس المؤمنين، فيوضح لهم : إن كنتم تريدون بالآباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة، فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه، وإياك أن تنظر إلى ولى آخر غير الله ؛ لأن ولاية البشر عرضة للتغير والتبدل، حيث إن الإنسان حدث يتقلب بين الأغيار، فالغنى فيها قد يصبح فقيرا، والسليم قد يصبح مريضاً، والقوى قد يصير ضعيفاً ، ولكن الولاية الدائمة إنما تكون من قادر قاهر لايتغير ،فإذا كان الله وليك فهو القادر دائمًا ، والقاهر دائمًا ، والغالب دائمًا، والموجود دائماً ، والناصر دائماً ، ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان فالأغيار فى الدنيا تجعل الصديق ينقلب عدواً ، والمعين يصبح ضعيفاً لايملك شيئا، والموجود يصبح لاوجود له بالموت ، إذن : فلابد أن تجعل ولايتك مع الله سبحانه وتعالى : لأنه هو الدائم الباقى. ولهذا يعلِّم المولى ـ عز وجل ـ عبده المؤمن أن يكون دائماً يقظاً، فطناً، لبيباً، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨]

أى : لا تتوكل على من قد تصبح غداً فتجده ميتاً، ولكن توكل على الحى الموجود دائما ، العزيز الذى لا يقهر، القوى الذى لا يغلب. وينبه الحق سبحانه وتعالى المؤمنين: إن كنتم تخشون حين نعزلكم عن مجتمع الكفر لما فيه من عزوة كاذبة بالآباء والأبناء والإخوان والأقارب والمال، فاعلموا أن الله هو الذى ينصر، وهو الولى، ولكن الكافرين لا مولى لهم؛ لأنهم يتخذون موالى من أغيار، والأغيار لا ثقة فيها؛ لذلك يقال: إذا وصل الإنسان إلى القمة فهذه نهاية الكمال، لأنه ما دام قد وصل إلى القمة وكل شىء فى الدنيا يتغير، فلابد أن يتغير هو .ويقول القائل:

إذاَ تَمَّ شىءٌ بَدَاَ نقصُه ... ترقَّبْ زوالاً إذَا قِيل تَمّ

لأن كل شىء ابن أغيار لابد أن ينزل إلى أسفل، ويوضح الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه إذا كان قد طلب منهم أن يعزلوا أنفسهم عن مجتمع الكفر؛ فأفقدهم بذلك قوة ونصيراً، فهم فى مَنَعة أكبر؛ لأنهم حينئذ يكونون مع الله، والله هو النصير، وليس هذا كلاماً نظرياً، وإنما هو كلام مؤكد بالوقائع التى شهدتموها، وسبحانه وتعالى يقول بعد ذلك:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقوله: ﴿ لَقَدْ نَصرَكُمُ الله فى مَواطِنَ كثيرة ﴾ يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند الله وحده، والدليل على أن النَصر من عند الله أنه سبحانه قد نصر رسوله والذين معه فى مواطن كثيرة، و ﴿ مَواطنَ ﴾ جمع « موطن » والموطن هو ما استوطنت فيه. وكل الناس مستوطنون فى الأرض، وكل جماعة منا تُحيز مكاناً من الأرض ليكون وطناً لها، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن العام الذى هو الأرض؛ لأن الأرض موطن البشرية كلها، ولكن الناس موزعون عليها، وكل جماعة منهم تحيا فى حيز تروح عليه وتغدو إليه وتقيم فيه.

والله سبحانه هنا يقول: ﴿ لقَدْ نَصرَكُمُ الله فى مَواطنَ كثيرة ﴾، وما دام الحديث عن النصر، يكون المعنى: إن الحق سبحانه قد نصركم فى مواطن الحرب أى مواقعها، مثل يوم بدر، ويوم الحديبية، ويوم بنى النضير، ويوم الأحزاب، ويوم مكة، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين، ولكنه

فى هذه الآية يخص يوماً واحداً بالذكر بعد الكلام عن المواطن الكثيرة، فبعد أن تحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ إذن: فكثرة عدد المؤمنين فى يوم حنين كان ظرفاً خاصاً، أما المواطن الأخرى، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة، ويوم فتح مكة كانوا كثرة، ولكنهم لم يعجبوا؛ ولم يختالوا بذلك، إذن: ففى يوم حنين اجتمعت لهم الكثرة مع الإعجاب، وبذلك يكون يوم حنين له مزية، فهو يوم خاص بعد الحديث العام.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ هذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه، إذن فيوم حنين ليس معطوفاً على ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن فى بقية المواطن، وهذه دقة فى الأداء اللغوى تتطلب بحثاً لغوياً. فكلمة ﴿ مَوَاطِنَ ﴾ هى ظرف مكان، و ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ هى ظرف زمان، فكيف جاز أن نعطف ظرف الزمان على ظرف المكان؟

ونقول: هذا هو ما يسميه العرب « احتباك »؛ لأن كل حدث مثل « أكل » و « شرب » و « ضرب » و « ذاكر »؛ كل حدث لابد له من زمان ولابد له من مكان، فإذا قلت: أكلت، نقول: متى؟ فى الصبح، أو فى الظهر، أو فى العصر، أو فى العشاء ؟ وأين ؟ فى البيت، أو فى الفندق، أو فى المطعم، أو فى الشارع.

إذن: فلابد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة؛ ظرفية مكان حدوث الفعل، وظرفية زمان حدوث الفعل. فإذا قلت: أكلت الساعة الثالثة ولم أسألك أين تم الأكل؟ أو إذا قلت: أكلت فى البيت ولم أسألك عن موعد الأكل ظهراً أو عصراً أو ليلاً، يكون الحدث غير كامل الظرفية.

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان فى الظرفية، ولكنهما يختلفان، فالمكان

ظرف ثابت لا يتغير. والزمان دائم التغير، فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . والزمان يدور، هناك ماض وحاضر ومستقبل، وهكذا يشترك الزمان والمكان فى الظرفية، ولكن الزمان ظرف متغير، أما المكان فهو ظرف ثابت.

وجاءت الآية هنا بالاثنين، فـ ﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ هو زمان ومكان لحدث عظيم، وأخذت الآية ظرف المكان فى ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ وظرف الزمان فى ﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ فإذا قيل: لم يحضر ظرف الزمان والمكان فى كل واحدة، نقول: لا، لقد حضر ظرف المكان فى ناحية وظرف الزمان فى ناحية ثانية، وهذا يسمونه - كما قلنا - « احتباك ». وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثانى، وحذف من الثانى ما يدل عليه الأول، فكان المعنى: لقد نصركم الله يوم مواطن كذا وكذا وكذا. فإذا عطفت عليها يوم حنين يكون المعنى «ومواطن يوم حنين »، أى: جاء بالاثنين هنا. ولكن شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون هناك تكرار، فأحضر واحدة هنا وواحدة هناك، وهذا يظهر واضحاً فى قوله تعالى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

[آل عمران: ١٣]

فما دامت الأخرى ﴿ كافرةٌ ﴾ تكون الأولى « مؤمنة »، ولكن حذفت «مؤمنة » لأن ﴿ كافرةٌ ﴾ تدل عليها، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل فى سبيل الله، فالفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان. وحذفت تقاتل فى سبيل الشيطان؛ لأن ﴿ تُقَاتِلُ فى سبيلِ الله ﴾ دلّتْ عليها. وذلك حتى لا يحدث تكرار. ونجد أن المؤمن الذى يستمع إلى كلام الله تعالى لابد أن يكون عنده عمق فهم، وأن يكون كله آذاناً صاغية حتى يعرف ويتنبه إلى أنه حذف من واحدة ما يدل على الثانية. إذن: فيكون ظرف الزمان موجوداً فى واحدة،

وظرف المكان موجوداً فى واحدة، وكلاهما يدل على الآخر. والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت هذه الغزوة، وعاد المسلمون إلى المدينة مجهدين لم يخلعوا ملابس الحرب، قال لهم رسول الله ﷺ: « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة »[1].

فانطلق المسلمون - دون أن يستريحوا - إلى أرض بنى قريظة، وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وخانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين، وبينما الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة كادت الشمس تغيب، فقال بعض الصحابة : إن الشمس ستغيب ولابد أن نصلى العصر، وصلوا. وفرقة ثانية من الصحابة قالت: إن رسول الله ﷺ طلب منا ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ولم يُصَلُّوا حتى وصلوا إلى هناك.

ونقول: إن الفريقين استخدما المنطق؛ لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان، فالذى نظر إلى ظرف الزمان قال: الشمس ستغيب، وصلى، والذى نظر إلى ظرف المكان الذى حدده رسول الله ﷺ؛ لم يُصَلِّ. وأقر رسول الله ﷺ الفريقين، واحترم اجتهادهما فى: ظرفية الزمان، وظرفية المكان. وفى هذا يروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب: « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلى، لم يُرَدْ منا ذلك، فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف واحداً منهم.

﴿ وَيَوْمَ حُنَينٍ إذْ أعجبَتْكُم كثرتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عنكُمْ شيئاً ﴾ والغنى هو عدم الحاجة إلى الغيرِ، وحنين [2] هو موضع فى وادٍ بين مكة والطائف، تجمَّع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تُضيِّع

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٩٤٦) ، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر .
(٢) حنين : اسم موضع بأوطاس ، عرف باسم رجل اسمه : حنين بن قانية بن مهلائيل من العماليق ، كما فى معجم البكرى .

قيمة هذا النصر. فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف، واختاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم في هذه المعركة. واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم. ووضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثروات المشاركين في الجيش من مال، وبقر وإبل. وأن يخرج مع الجيش النساء والأطفال. وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرضه وماله فلا يفر من المعركة، ويستمر في القتال بشجاعة وعنف؛ لأنه يدافع عن نسائه وأمواله وأولاده. وبذلك وضع كل العوامل التي تضمن له النصر. بينما المؤمنون عندما تبدأ المعركة سيقاتلون مدافعين عن دين الله ومنهجه.

واجتمع الكفار ونزلوا بواد اسمه « وادي أوطاس ». وكان فيهم رجل كبير السن ضرير. اسمه « دريد بنّ الصِّمة ». وكان رئيساً لقبيلة « جشم ». فلما وصل إلى مكان المعركة سأل: بأي أرض نحن؟ فقالوا: نحن بوادي أوطاس.. فابتسم وقال: لا حزناً ضرس ولا سهلاً دهس، أي أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مدببة، تتعب الذي يسير عليها، وليست أرضا رخوة تغوص فيها أقدام من يسير عليها، من « الحزن » فالحزن هو: الخشونة والغلظة، و«ضرس » هو: التعب أثناء السير، وأيضاً ليست أرضاً سهلة منبسطة رملية تغوص فيها الأقدام.

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثغاء [1] الشاة، قال: أسمع بكاء الصبيان وخوار البقر. فقالوا له: إن مالك بن عوف استصحب ذراريه واصطحب كل أمواله، فقال: أما الأموال فلا بأس، وأما النساء والذراري فهذا هو الأرعن - أي : لا يفهم في الحرب - أرسلوه لي، فأحضروه له. فلما حضر قال: يا مالك ما حملك على هذا؟ قال: وماذا تريد؟ قال: ارجع بنسائك وذراريك إلى عُليًا دارك، فإن كان الأمر لك؛ لحقك من وراءك. وإن

(١) ثغاء الشاة : صوت الغنم والماعز وضجيجها.

كان الأمر عليك لم تفضح أهلك وذراريك. فقال له مالك: لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك. وأصر على رأيه. ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش في الشِّعَاب وتحت الأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيئهم. فيتقدمون غير متنبهين للخطر، وحينئذ يتم الهجوم عليهم من كل جهة ومن كل مكان.

وعندما جاء جيش المسلمين لم يتنبهوا إلى وجود الكفار المختفين عن الأعين. وحينئذ أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم، فخرج الكفار من كل مكان. وفاجأوا المسلمين بهجوم شديد، قال المتحدث: فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا زمن حلب شاة، حتى إنه من قسوة المعركة وضراوتها وقوة المفاجأة انهزم جيش المسلمين في الساعات الأولى للمعركة، ووصل بعض الفارين من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله ﷺ في ساحة المعركة إلا تسعة بينهم العباس عم رسول الله ﷺ. وكان ممسكاً بالدابة التي يركبها رسول الله ﷺ. وسيدنا علي بن أبي طالب وكان يحمل الراية. وسيدنا الفضل، وكان يقف على يمين رسول الله ﷺ. وسيدنا أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وكان يقف على يساره. وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة (١).

وهنا نتساءل: لماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين في بداية المعركة؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا: نحن كثرة لن نهزم من قلة، وبذلك ذهبوا إلى الأسباب وتناسوا المسبب، فأراد الله أن يعاقبهم عقاباً يخزيهم ويُعْلي من قدر رسول الله ﷺ. ولما رأى رسول الله ﷺ ما حدث، قال للعباس - وكان العباس صاحب صوت عال: أذن في الناس، فقال العباس بصوت عال: يا معشر الأنصار - يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة. فلما سمع الناس نداء العباس، قالوا: لبيك لبيك. وكان الذي يقول: « لبيك » يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله، حتى عاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال، وحمي القتال

(١) انظر: زاد المعاد في هدى خير العباد (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

واشتدت الحرب وصار لها أوار[1] ، فضحك رسول الله ﷺ : الآن حمي الوطيس ، أي اشتدت الحرب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب».

ويروى هذا الحديث عن النبى ﷺ البراء بن عازب ، فقد جاء في الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنه . أن رجلاً قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رُمَاةً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : «أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب» [2] أى : أنه رسول الله ، والله لن يتخلى عنه ولن يخذله، ولم يثبت أمام المؤمنين واحد من هوازن وثقيف، وانتهت المعركة عن ستة آلاف أسير من النساء ، كما غنم المسلمون أموالاً لا حصر لها وعدداً كبيراً من الإبل والبقر والغنم والحمير. وأحضر رسول الله ﷺ بديل بن ورقاء وقال له : أنت أمير على هذا المغنم. اذهب به وأنا سأتتبع الهاربين.

وانطلق جيش المسلمين إلى الطائف ليطارد الفارين. واختبأ مالك بن عوف قائد العدو. ثم عاد رسول الله ﷺ بعد ذلك وقسم الغنائم، وكاد تقسيم الغنائم أن يحدث فتنة بين المسلمين ؛ لأن الرسول ﷺ أعطى الغنائم للمؤلفة قلوبهم، ولسائر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقارن بين شيئين، بين سبايا هى أيضاً من متاع الدنيا فيعطى منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار الذين آووه ﷺ فى رأيه ﷺ يستغنون بحبهم لرسول الله وقوة إيمانهم بالله عن مثل هذا المتاع الدنيوى، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالغُصَّة، وتأثر هذا البعض بذلك.

(١) الأوار : الدخان واللهب .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى (٤٣١٧) ، ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب .

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى رسول الله ﷺ قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومى وما أنا . قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . قال : فخرج سعد فجمع الناس فى تلك الحظيرة . قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار قال : فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل . ثم قال : يا معشر الأنصار ما قَالَةٌ بلغتنى عنكم وجِدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم . قالوا : بل الله ورسوله أمنٌ وأفضل . قال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المنٌ والفضل ؟ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم ، أتيتنا مكَذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك [1]

أى : أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم، وهى أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة.

وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٧٦) عن أبى سعيد الخدرى من طريق ابن إسحاق . وقد أورده ابن هشام فى سيرة النبى (٤/ ١٤٦).

فضائل ، وهى أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ فهاجر منها فآواه أهل المدينة ، وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئاً ، فأعطاهم الأنصار من أموالهم وزوجاتهم ، وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ فأمَّنه الأنصار ، وكان رسول الله ﷺ قد خذله قومه من قريش فنصره الأنصار.

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ فى ذكر مفاخرهم. قالوا: المنة لله ولرسوله، أى : إننا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذى قلته أبداً؛ لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهذا لا يكونون هم الذين أعطوا ، بل الإيمان هو الذى أعطاهم. فالإيمان نَفْعُه نَفْع أبدى. والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾

[الحجرات: ١٧]

وعندما قال الأنصار لرسول الله ﷺ : بل المنة لله ولرسوله ، قال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام:

« أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة [1] من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ فى رحالكم، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعْب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». فلماَ سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ بكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم وقالوا : رضينا بالله وبرسوله قسماً وحظاً. وانتهت المسألة.

(١) لعاعة من الدنيا : أى بقية يسيرة . وهذا الحديث هو بقية الحديث السابق، وقد سبق تخريجه.

وهكذا نرى أنه حين تأتى مقارنة بين شيئين ، لابد أن نتفاخر بالشىء الدائم الباقى الذى حصلنا عليه، أما الشىء الذى مآله إلى فناء فإنَّ من ليس معه يعيش كمن عاش معه، وهو متاع الدنيا، تعيش معه وتعيش بدونه. ولكن لاأحد يستغنى عن الإيمان ، نستغنى عن الدنيا نعم، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا. وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم، جاء وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا . فقالوا : يا رسول الله إنَّا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا منّ الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا بل تردُّ علينا نساؤنا وأبناؤنا فهو أحب إلينا فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فإذا صليت للناس الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم . فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به فقال رسول الله ﷺ: أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيَيْنة بن حصن بن حذيفة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا . قال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا ، قالت بنو سليم : لا ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال عباس : يابنى سليم وهنتمونى . فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول شىء نصيبه ، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم [1] . ذلك هو ما يشير إليه قول الحق، تبارك وتعالى:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢١٨) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٦٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص من طريق محمد بن إسحاق، وأورده ابن هشام فى السيرة (٤/ ١٣٥). وانظر: تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٢٨) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾

[التوبة]

أى : أنكم بدأتم المعركة ولم يكن الله فى حسبانكم، بل كنتم معتمدين على كثرتكم فلم تنفعكم ولم تحقق لكم النصر ؛ ولذلك فررتم خوفاً من الهزيمة ووجدتم الأرض ضيقة أمامكم، أى : تبحثون هنا وهناك عن مكان تختبئون فيه فلا تجدون، مع أن الأرض رحبة أى واسعة، ولكنها أصبحت ضيقة فى نظركم وأنتم تفرون من المعركة. إلا أن الحق سبحانه وتعالى لم يرد أن ينهى المعركة هذا الإنهاء. ولكنه أراد فقط أن ينزع من قلوب المسلمين المباهاة بكثرة العدد وظنهم أن اللجوء إلى الأسباب الدنيوية هو الذى سيحقق لهم النصر. أراد منهم سبحانه وتعالى أن يعلموا جيداً أنهم إنما ينتصرون بالله عز وجل، وأن كثرتهم دون الاعتماد عليه سبحانه لا تحقق لهم شيئاً.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى : أن الله تبارك وتعالى أنزل سكينته أولاً على رسوله وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، ثم أنزلها على المؤمنين الذين فروا من المعركة ثم عادوا إلى القتال مرة أخرى، وقوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

[التوبة : ٢٦]

وقد حدَّثونا عن أن الملائكة نزلت وثبَّتت المؤمنين، وألقت الرعب في قلوب الكافرين وأنزلت العذاب بهم. والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك؛ لأنهم وصفوا كائنات على جياد بُلْق [(١)] ولم يكن عندهم مثلها.

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم[(٢)]، فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن، وأن يثق في القائل وهو صادق فليؤمن بما قال ولا يبحث عن الكيفية. وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقفة الرافض لوجودها، ولكن وقفة الجاهل لكيفيتها؛ لأن وجود الشيء مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده.

وهناك أشياء كثيرة في الكون، موجودة وتزاول مهمتها، ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود. وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة. وكل الاكتشافات التي قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة. ولكننا لم نكن ندرك كيفية وجودها من قبل. فالجاذبية الأرضية كانت موجودة. لكننا لم نكن ندرك وجودها ولا كيفية عملها، وكذلك الكهرباء كانت موجودة في الكون منذ بداية الخلق، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها فاستخدمناها، والميكروبات كانت موجودة في الكون تؤدي مهمتها ولم نعرفها، حتى كشف الله لنا عنها فعرفنا وجودها وكيفية هذا الوجود، فكل هذه الأشياء كانت موجودة في كون الله منذ خلق الله الكون. ولكننا لم نكن ندرك وجودها. وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئاً؛ ولذلك إذا حُدِّثت بشيء لايستطيع عقلك أن يفهمه فلا تنكر وجوده؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئاً، ثم أعطانا الله تعالى العلم فوجدنا أنها تعيش بقوانين

---

(١) البَلَق: سواد وبياض. والجياد البلق: هي السوداء التي ارتفع البياض إلى أفخاذها.

(٢) قال القرطبي في تفسير الآية (٤/ ٣٠٢٨): ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، يقوّون المؤمنين بما يلقون في قلوبهم من الخواطر والتثبيت، ويُضعفون الكافرين بالتجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال، لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر. وروى أن رجلاً من بني نصر قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق، والرجال الذين كانوا عليها بيض، ما كنا فيهم إلا كهيئة الشامة، وما كان قتلنا إلا بأيديهم، أخبروا النبي ﷺ بذلك فقال: تلك الملائكة.

مادية محددة. إذن: فوجود الشيء يختلف تماماً عن إدراك هذا الوجود.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أنزلَ الله سكينَتَهُ علَى رَسُوله وَعلى المؤمنينَ وأنزلَ جُنُوداً لَمْ تَروْهَا ﴾ كلمة ﴿ لَمْ تَروْهَا﴾ تعطى العذر لكل من لم ير، ويكفى أن الله قال ليكون هذا حقيقة واقعة. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]

وحين كان يقال لنا : إنّ لله خلقاً هم الجن، كما أن له خلقاً آخرين هم الملائكة، والجن يروننا ونحن لا نراهم . كان البعض يقف موقف الاستنكار. وكذلك قال لنا رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يَجْرِى من ابن آدم مَجْرى الدم»(١).

وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون: كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجرى منها مجرى الدم ؟! وعندما تقدمنا فى العلم التجريبى واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق الجسم وتدخل إلى الدم فى العروق، هل يحس أحد بالميكروب وهو يخترق جسمه؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للجسم ؟ طبعاً لا ، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثيره يظهر على أجسامنا نحس به، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغاً لا تحس به شعيرات الإحساس الموجودة تحت الجلد. ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لاندرى عنه شيئاً ، ويدخل إلى الدم ويجرى فى العروق ونحن لا نحس بشىءمن ذلك ، والدم يجرى فى عروق يحكمها قانون هو : أن مربع نصف القطر يوزع على الكل، ومثال ذلك مايحدث فى توزيع المياه، فنحن نأتى بماسورة رئيسية نصف قطرها ثمانى بوصات وندخلها إلى قرية، تكون كمية الصب هى ٨ × ٨. . أى ٦٤ بوصة

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٣٥ ومواضع أخرى) ، ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حُيى زوج النبى ﷺ .

مربعة، حينما نأتى لنوزعها على مواسير أخرى فرعية نأخذ منها ماسورة نصف قطرها أربع بوصات ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصتان ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصة أو نصف بوصة ، المهم أن مربع أنصاف أقطار المواسير الفرعية يساوى ما تصبه الماسورة الكبيرة.

وهكذا عروق الدم ، فالدم يجرى فى شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة. . ولكن دقة حجم الميكروب تجعله يخترق هذه الشعيرات فلا ينزل منها دم ، وعندما تضيق هذه الشرايين تحدث الأمراض التى نسمع عنها ، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين ؛ لأنها مواسير الدم. وهناك جراحات تجرى بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تخترق هذه الأشعة الجلد بين الشعيرات؛ لأنها أشعة دقيقة جداً فلا تقطع أى شعيرة ولا تُسيل أى دماء.

إذن : فكل ما فى داخل الجسم محسوب بإرادة الله تعالى ، ولكل ميكروب فترة حضانة يقضيها داخل الجسم دون أن نحس به، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرض وتأخذ عمليات توالد الميكروب فى الدم ومقاومة كرات الدم البيضاء له فترة طويلة ، بينما نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث.

فإذا كان «الميكروب» وهو من مادتك، أى : شىء له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب فتجد له شكلاً مخيفاً ، وهو يتوالد ويتناسل وله دورة حياة، إذا كان هذا «الميكروب» لا تحس به وهو فى داخل جسمك؛ فما بالك بالشيطان الذى هو مخلوق من مادة أكثر شفافية من مادة الميكروب، هل يمكن أن تحس به إذا دخل جسدك؟ لا ، وإذا كان الشىء المادى قد دخل جسدك ولم تحس به، فما بالك بالمخلوق الذى خلقه الله تعالى من مادة أشف وأخف من الطين؟ ألا يستطيع أن يدخل ويجرى من ابن آدم مجرى الدم؟!

فإذا قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم». . فلا تتعجب ولا تُكذِّب لأنك لا تحس به. فالله أعطاك فى عالم الماديات ما هو

أكثر كثافة فى الخلق ويدخل فى جسدك ولا تحس به.

إذن : فالعلم أثبت لنا أن هناك موجودات لا نراها. ولو أننا باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية الحديثة فحصنا كل خلية فى جسم الإنسان فإننا سنرى العجب، سنرى فى جلد الإنسان الذى نحسبه أملسَ آباراً يخرج منها العرق، وغير ذلك من تفاصيل بالغة الدقة لا تدركها العين، فإذا حدَّثنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة تنزل وتقاتل، فنحن نصدق، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطمئن بشريتنا فقال: ﴿جُنُوداً لَّمْ تروْهَا﴾ ، فإن قال واحد: إنَّه رآها، وقال آخر: لم أرَ شيئاً ، نقول: إن قول الحق ﴿ لَّمْ تَروْها﴾ أى: لم تروْها مجتمعين، فهناك من لمحها، وهناك من لم يرها.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وعذَّبَ الذينَ كَفَرُوا﴾ أى: بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم، وقوله تعالى: ﴿وذلكَ جزاءُ الكَافرينَ﴾ أى: أن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاءً لهم على كفرهم. ولكن البعضَ يتساءل: لماذا لم ينزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة فى القتال؟ نقول: إن الله أراد أن يزيد عذابهم، فلو أنه ألحق بهم الهزيمة من أول لحظة، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذاباً ، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتى الهزيمة أكثر قسوة وأكثر بشاعة ، والشاعر يقول :

كَما أدركَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامةٌ

فلمَّا رأوْهَا أقشعتْ [1] وتجلَّت

فحين تمر سحابة على قوم يعانون من شدة العطش، هم يحلمون أن تمطر عليهم، لكن الحلم يتبدد تماماً كالمسجون الذى يعانى من عطش شديد. فيطلب من السجان شربة ماء فيقول له السجان: سأحضرها لك. وفعلاً يذهب السجان ويحضر له كوب ماء مثلج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده

(١) أقشعت : انقشعت وذهبت عن وجه السماء .

ونفسه تمتلئ فرحاً . وإذا بالسجان يضربه بشدة على يده فيسقط الكوب على الأرض، فيصاب المسجون بصدمة شديدة. وهذه أبشع طرق التعذيب. ولو أن السجان رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلاماً للسجين. لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه فى يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذاباً. وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولاً ، ثم جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لتسلبهم كل شيء، وبذلك تجتمع لهم فجيعتان : فجيعة الإيجاب ، وفجيعة السلب.

ثم تأتى لمحة الرحمة التى يغمر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله، ويفتح الباب لكل عاص ليعود إلى طريق الإيمان فيتقبله الله، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ ﴾

وهذه هى عظمة الخالق، الرحمن الرحيم، فهو يفتح الباب دائماً لعباده؛ لأنه هو خالق هذا الكون، وكل من عصى يفتح الله أمامه باب التوبة، وهذه مسألة منطقية ؛ لأن الذى يكفر والذى يعصى لا يضر الله شيئاً، ولكنه يؤذى نفسه ويحاول أن يفترى على نواميس الحق، وحين يعلم العاصى أنه لا ملجأ له إلا الله، فالله عز وجل يفتح له باب التوبة.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا فى هذه السورة أن الله ورسوله برىء من المشركين، وكشف عن طبيعتهم بأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، ويصفى هذه المسائل تصفية عقدية فى ﴿ بَرَاءَةٌ منَ الله ورسُوله ﴾ ، وطلب منا أن ننهى العقود التى بيننا وبينهم. . فمن نقضَ العهد انتهى عهده ، ومن حافظ عليه حافظنا نحن على العهد إلى مدته ، ثم طلب من المشركين ألا يقربوا المسجد الحرام، وصفَّى أى ضغينة أو ذنب بفتح باب التوبة. ومن بعد ذلك ينتقل

سبحانه من المعاهدة التى انتهت مع ذوات الكفار إلى ذوات الكفار بأنفسهم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

أى : أنه لا يكفى أن يقطع المؤمنون كل عهودهم مع المشركين، بل لا بد أن يبرأوا أيضاً من المشركين أنفسهم؛ لأنهم نجس، والنجس هو الشىء المستقذر الذى تعافه النفس وتنفر منه، وقد يكون المشرك من هؤلاء مقبولاً من ناحية الشكل والملبس، ولكن هذا هو القالب، والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم إنما يتكلم عن المعانى وعن الخلق. فالله عز وجل لا ينظر إلى القوالب، بل إلى القلوب، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1] .

فقد تكون الصورة مقبولة شكلاً، لكن العقيدة التى توجد فى قلوب تلك الأجساد قذرة ونجسة، وسبحانه لا يأخذ بالظواهر ولا بالصور، بل بالقيم. وأنت إذا ما نظرت إلى القيم وإلى العقائد الحقة الصادقة، تجد كل عقيدة تنبئ عن تكوين مادتها، وعلى سبيل المثال، حينما تكون فرحاً، يتضح ذلك على

(١) يعنى : أن العبرة يوم الحساب بالنظر إلى قلوبكم لا إلى مظاهركم ، وفيه حث على الاعتناء بالقلب وتطهيره ، والحديث رواه الإمام مسلم (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم .

أساريرك ، ومن سيقابلك سيلحظ ذلك ويعرف أنك مبتهج ، وإن كنت غاضباً أو تعانى من ضيق ، فهذا يتضح على أساريرك .

إذن : فالمادة تنفعل بانفعال القيم ، وما دامت القيم فاسدة فالمادة التى يتكون منها جسده تكون متمردة على صاحبها ؛ لأن المادة بطبيعتها عابدة مسبحة لله ، وكذلك الروح بطبيعتها عابدة مسبحة لله تعالى ، ولا ينشأ الفساد إلا بعد أن توضع الروح فى المادة ، ثم تتكون النفس من الاثنين معاً ، المادة والروح ، فإن غلَّبت النفس منهج الله صارت مطمئنة ، وإن تأرجحت النفس بين الطاعة والمعصية ، فإما أن تطيع فتكون نفساً لوامة ، وإما أن تكفر وتتخذ طريق الشر فتكون نفساً أمارة بالسوء . أما قبل أن تنفخ الروح فى المادة ، فكل منها مسبح لله تعالى ؛ لأن كل شىء فى الوجود عابد مسبح ، والنفس فى كل سلوكها مقهورة لإرادة صاحبها بتسخير من الله عز وجل ، وحين يأتى الموت ، تنتهى الإرادة البشرية وتسقط سيطرة الإنسان على جسده ، بل إن هذا الجسد يشهد على صاحبه يوم القيامة . والإنسان فى الحياة الدنيا يعيش وإرادته تسيطر على مادته بأمر من الله ، فاليد قد تضرب إنساناً ، وقد تعين إنساناً آخر وقع فى عسرة ، ولسان المسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، ولسان الكافر يشرك مع الله آلهة أخرى .

إذن : فمادة الإنسان خاضعة لإرادة صاحبها فى دنيا الأغيار ، فإذا انتقل إلى الآخرة فلا تأثير له على المادة ، وتتحرر المادة من طاعة صاحبها فى المعصية ، وتتمرد عليه ، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها فى المعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم القيامة : لقد أتعبتنى فى الدنيا وأكرهتنى على فعل أشياء لم أكن لأفعلها لأننى عابدة مسبحة لله، وإن ما أمرتنى به يخرج عن طاعة الله عز وجل ، وسبق أن ضربت المثل بقائد الكتيبة الذى يصدر أوامر خاطئة فيطيعه الجنود، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى شكوا له مما كان قائد الكتيبة يكرههم عليه، كذلك أبعاض الجسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة. فإن كنت عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك. وإن كنت غير ذلك كانت جوارحك ضدك، فاللسان مثلاً عابد مسبح فى ذاته، فإذا أكرهته على أن يشرك بالله فهو مُكْرَهٌ فى الدنيا، ويصير شاهداً عليك يوم القيامة. والحق سبحانه وتعالى ينادى يومئذ قائلاً :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق عز وجل: ﴿ إنما المشْركُونَ نَجَسٌ ﴾ أى : أن عقيدتهم الفاسدة تنضح على تصرفاتهم، وسبحانه وتعالى يربب المعانى الإيمانية فى النفوس أى يزيدها، ومثال ذلك: نحن نرجم إبليس كمنسك من مناسك الحج، نرجم قطعة من الحجر رمزنا إليها بالشيطان، ونحن لا نرى الشيطان، وقد وضعنا له رمزاً وأرسينا فى أعماقنا أن الشيطان عدو لنا ويجب أن نرجمه لنبتعد عن مراداته، وبذلك أبرزنا هذه المعانى فى أمر حسى؛ لنوضح للنفس البشرية أن الشيطان عدو لنا، وكلما وسوس الشيطان لنا بأمر نرجمه بأن نبين لأنفسنا قضايا الإيمان الناصعة فيهرب منا. وكل منا عليه أن يتذكر أن الشيطان سوف يضحك على العاصين والكافرين فى يوم القيامة، ويقول ما أورده الحق سبحانه وتعالى على لسانه:

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾[إبراهيم: ٢٢]

وفى هذا القول سخرية ممن صدقوه ؛ لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتى لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شىء بالقوة، وإما سلطان الإقناع

بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً. والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فإنه يوضح لنا أن نجسهم يحتم علينا أن نمنعهم من دخول الأماكن التى لا يدخلها إلا الإنسان الطاهر. وجعل الحق سبحانه وتعالى النجاسة المعنوية مثلها مثل النجاسة المادية، ولذلك قال العلماء: ما دام الحق قد وصفهم بأنهم نجس فلابد أن يكون فيهم نجس مادى، ولذلك إذا اقتربت منهم تجد لهم رائحة غير طيبة ، لأنهم لا يتطهرون من حدث، ولا يغتسلون من جنابة. وعندما ذهبنا إلى الجزائر بعد تحريرها من فرنسا، لم نجد فى البيوت حمامات ؛ لأن الواحد من المستعمرين لا يذهب إلى الحمام إلا كل عشرين يوماً مثلاً ، لذلك جعلوا الحمامات بعيداً عن المساكن، ولكن بعد أن تحررت الجزائر صار فى البيوت حمامات ؛ لأن الثقافة الإسلامية مبنية على الطهارة ، ويتوجب على المسلم أنه كلما دخل الإنسان الحمام تطهر، وكلما كان جنباً اغتسل.

ولقد قال البعض: لو أننى سلَّمت على مشرك ويده رطبة.. فلابد أن أغسل يدى[1] . فإذا كانت يده جافة فيكفى أن أمسح على يدى. وفى هذا احتياط وتأكيد على اجتناب هؤلاء المشركين. وإذا كنا نجتنبهم أجساداً وقوالب، ألا يجدر بنا أن نجتنبهم قلوباً ؟

وقد أنزل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة فى العام التاسع من الهجرة وهو العام الذى صدر فيه منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام والبراءة من هؤلاء المشركين، وتساءل العلماء: هل الممنوع والمحرم هو اقتراب المشرك

(١) قال الحسن البصرى : من صافح مشركاً فليتوضأ ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣٠) ، قال ابن كثير (٢/ ٣٤٦) : «دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد فى الصحيح «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ. . رواه ابن جرير» .

من المسجد الحرام، أم من الحرم كله؟ وحدد الإمام الشافعى التحريم على المشركين بالوجود فى المسجد الحرام. ومع احترامنا لاجتهاد الإمام الشافعى نقول: إن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَلا يَقْرَبُوا﴾ ولم يقل : فلا يدخلوا . وتحريم الاقتراب يعنى ألا يكونوا قريبين منه ، وأقرب شيء للمسجد الحرام هو كل الحرم ، ولو كان المراد هو المسجد فقط لمنع الحق دخولهم إليه بالنص على ذلك[1] .

وهكذا نرى كيف يمكن أن يجتهد الإنسان ويبحث فى المعانى ليستخرج المضمون الحق. ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ . وفى هذا القول الكريم حديث عن الغيب. والغيب ـ كما عرفنا ـ هو مايغيب عنك وعن غيرك، أما الشيء الذى يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً، فإذا سرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف من الذى سرق ، والسارق فى هذه الحالة غيب عنك، ولكنه ليس غيباً عن غيرك ؛ فالسارق يعرف نفسه ؛ والذى دبر له الجريمة يعرفه، ومن رآه وستر عليه يعرفه. وأنت ـ أيضاً ـ لا تعرف مكان المسروقات، ولكن السارق يعرف المكان الذى خبأها فيه.

إذن : فهى غيب عنك وليست غيباً عن غيرك. وهذه لعبة الأفاقين والنصابين الذين يُسخِّرون الجن، فما دام الشيء معروفاً ومعلوماً لغيرك من الناس؛ فالكشف عنه مسألة سهلة ، ولكنّ هناك غيباً عنك وعن غيرك، وهذا هو ما ينفرد به الحق سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧)﴾ [الجن]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣١) : «قال الشافعى رحمه الله : الآية عامة فى سائر المشركين ، خاصة فى المسجد الحرام ، ولا يمنعون من دخول غيره ، فأباح دخول اليهودى والنصرانى فى سائر المساجد . قال ابن العربى : وهذا جمود منه على الظاهر ؛ لأن قوله عز وجل ﴿إنما المشركون نَجَس﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة».

ولكنْ هناك غيبٌ عن الناس جميعاً ، ولكنه لن يظل غيباً إلى آخر الزمان، فمثلاً الكهرباء كانت غيباً واكتشفناها، وتفتيت الذرة كان غيباً وعرفناه، وقوانين الجاذبية كانت غيباً ثم دخلت في علم الإنسان فأصبحت معلومة له وليس هذا هو الغيب الذي يقصده الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾، فهذا غيب يختص نفسه به، فلا تقل: إن فلاناً يعلم الغيب، ولكن قل: إنه مُعلَّم غيب، والمسائل الغيبية: إما أن يحجبها الزمان أو يحجبها المكان، فالآثار المطمورة مثلاً، تعبِّر عن شيء ماض واندثر، وفيه أخبار الأمم السابقة، ولا يعرفها أحد ، وستره حجاب الزمن الماضي، إلى أن يتم الكشف عنها ويهيِّئ الله لها من يفكُّ ألغازها.

أما إبلاغ الله رسوله من أنباء الأمم السابقة مما جاء في القرآن الكريم فهو اختراق لحجاب الزمن الماضي ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥) ﴾ [القصص]

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ في آيات أخرى دليل على أن الله سبحانه وتعالى أخبر رسوله ﷺ بما كان مستوراً في الزمن الماضي. أما الشيء الذي سوف يحدث في المستقبل، فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل، وقد اخترق القرآن الكريم حجاب المستقبل في آيات كثيرة كلها تبدأ بحرف السين، وحرف السين دليل على أن الشيء لم يحدث بعدُ، وقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]

دليل على أنه من الزمن المستقبل يكشف الله لنا عن آياته الموجودة فى الأرض، وقوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ ﴾ [الروم]

وهذا اختراق لحجاب المستقبل ؛ لأن النصر حدث بعد نزول هذه الآية بتسع سنوات. إذن : فالذى يحدث فى المستقبل محجوب عنك بالزمن المستقبل، ولكن هناك شيئاً يحدث فى الحاضر ولا نعرفه وهو محجوب عنك بحجاب المكان، فما يحدث فى مكان لست موجوداً فيه لا تعرفه، فأنت إن كنت جالساً فى مكة مثلاً ، فأنت لا تعرف ما يحدث فى المدينة المنورة لأنه محجوب عنك بحجاب المكان ، وهناك أيضاً حجاب النفس، أى : أن مايدور فى نفسك لا يعرفه أحد غيرك ؛ لأنه محجوب بحجاب النفس.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إنما المشْركُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامهمْ هَذَا﴾ فسبحانه وتعالى يخاطب قوماً يريد منهم أن ينفذوا هذا الأمر ، ولكنه سبحانه يعلم السرائر التى تستقبل النص. مثلما يأتى إنسان ويخبرك أن المخبز القريب من منزلك سوف يغلق فأول ما يتبادر إلى ذهنك السؤال: ومن أين سنأتى بالخبز؟ أو أن يقال لك : «إن الباخرة التى تحمل اللحم والخضروات ضلت الطريق» فأول ما يخطر على بالك لحظتها : ومن أين نأكل؟

وكان المشركون يأتون إلى الحج ومعهم أموالهم ويتاجرون وينفقون، هذه الفترة تمثل بالنسبة لمن يعيشون حول بيت الله الحرام فترة الرواج المادى الذى يعيشون عليه طوال العام.

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿ إنما المشْركُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامهمْ هَذَا﴾ فأى شيء يختلج فى نفوس المسلمين؟ لابد أن يدور فى أعماقهم السؤال: ومن الذى سيشترى بضائعنا؟ لكن هل ترك الله عز وجل مثل هذا القول دون أن يرد عليه؟ لا ، فقد رد على التساؤل بقوله تعالى: ﴿ وإن خفْتُمْ عَيْلةً فسوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ منْ فضله إنْ شَاءَ﴾ .

وهكذا كشف الله حجاب النفس، وردَّ على ما سيدور فى نفوس المؤمنين فى نفس الآية التى حرم فيها على المشركين أن يقتربوا من المسجد الحرام، ولم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يعلن المؤمنون ما فى أنفسهم، بل رد على ما يجول بخواطرهم قبل أن يعلنوه.

وحين يكشف الله عز وجل حجاب النفس بهذا الشكل، فالمؤمن الذكى يقول: هذا ما جاء فى بالى. ولأطمئن لأنه عرف ما بنفسى فسوف يرزقنى. ولو لم يأت ذلك فى بالهم لكَذَّبوا النص. ولو كذبوا النص لما بقوا على الإيمان، وما داموا قد بَقَوْا على الإيمان فقد جاء النص معبراً عما يجول بأنفسهم تماماً.

والله سبحانه وتعالى كشف حجاب النفس فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى عن المنافقين والكفار:

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۝٨ ﴾ [المجادلة]

وقول النفس لا يسمعه أحد، ولو أن هؤلاء لم يقولوا هذا فى أنفسهم لقالوا: والله ما خطر ذلك فى نفوسنا. ولأنهم قالوه فى أنفسهم فقد بُهتُوا لكشف القرآن الكريم لما يدور داخل أنفسهم. ولقد رد الله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة على ما سيدور فى خواطر المؤمنين عندما يستمعون إليها ، فلم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يشكو المؤمنون لرسول الله ﷺ خوفهم الفقر وقلة الرزق، بل أجاب سبحانه وتعالى على ذلك قبل أن يخطر على بالهم.

فكأن الحق سبحانه وتعالى يُشرِّع حتى للخواطر قبل أن تخطر على البال، ولا يترك الأمور حتى تقع ثم يُشرِّع لها.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ خفْتُمْ عَيْلَةً﴾ والعيلة هى الفقر، ويتابع الحق جل وعلا: ﴿ فَسَوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ من فَضْله إن شَاءَ﴾، ولم يقل الحق «سيغنيكم» بل قال: ﴿فَسوْفَ﴾ وهى تقتضى زَمَناً سيمر ولكنه زمن قريب؛ لأن الخير الذى سيأتى له أسباب كثيرة كفيلة بتحقيقه كأن يعوضهم الله عما كان يأتى به الكفار بأن تمطر السماء مطراً فينبت النبات، وهذه تحتاج إلى زمن، وأن يأخذوا بالأسباب بأن يروج لهم تجارة على غير المشركين، أويكشف لهم من كنوز الأرض ما يغنيهم. ولذلك قال: ﴿فَسوْفَ﴾. والأسباب تحتاج إلى وقت، فنزلت الأمطار قرب جدة التى أسلمت ونبت الزرع فى وادى خليط، وتبالى باليمن وجرش وصنعاء، وجاءت أحمال البعير بالخير لأهل مكة وحدثت الفتوحات الإسلامية، فجاء الخير من الجزية والخراج. وهكذا نرى أن ﴿فَسوْفَ﴾ امتدت لمراحل كثيرة، وما زالت موجودة ممتدة حتى الآن.

إذن: فقد أخذت الأمد الطويل. على أننا لا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ خفْتُمْ عَيْلَةً﴾ هى حيثية بأن المؤمن عليه ألا يتهاون فى أمر دينه رغبة فى تحقيق أَمر من أمور الدنيا، فكل من يرتكب معصية خوفاً من أن تضيع منه فائدة مادية أو دنيوية، كأن يخشى قول الحق خوفاً من أن يضيع منه منصبه، أو يغضب عليه صاحب العمل فيطرده من وظيفته، نقول له: لا عذر لك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ من فضله ﴾.

وحيث إن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو كلام الله عز وجل، فلا عذر لأحد أن يرتكب معصية بحجة المحافظة على رزقه، أو بحجة أنه يدفع الفقر عن نفسه وبيته وأولاده.

على أن قوله تعالى: ﴿إِن شَاءَ﴾ قد تجعل الإنسان يظن أن الزمن سوف يباعد بينه وبين الرزق ؛ لأنه سبحانه قد يشاء أو لا يشاء ، فكيف يكون هذا الأمر وهو سبحانه أراد بالآية طمأنة المسلمين .

وإذا كان الله قد قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوف يُغْنيكم اللهُ من فضله﴾

فإننا نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يريد الصلة الدائمة بعبده وألا يفسد على العبد الرجاء الدائم فى الله تعالى. وقوله عز وجل: ﴿إِن شَاءَ﴾ هو إبقاء لهذا الرجاء ؛ لأن العبد سيظل فى رجاء إلى الله عز وجل فيظل الله تعالى فى باله؛ ولأنه سيطلب دائماً رضا الله فإن هذا يجعله يبتعد عن المعصية ويتمسك بالطاعة.

وفوق ذلك كله ، فإن الحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة فى كونه ، فقدر الله وقضاؤه ليسا حجة على الله سبحانه وتعالى تقيد مشيئته سبحانه ، فمشيئة الله مطلقة لا يقيدها حتى قدر الله. فهو إن شاء حدث القدر. وإن شاء لم يحدث. وهكذا تظل طلاقة قدرة الله فى كونه.

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحة من لمحات الغيب، فيخبر الواحد منهم الناس، فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه؛ حتى يظل الله وحده عالم الغيب؛ فما دام ذلك الذى اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه. فسبحانه يُغيِّر أحداث الغيب ولا يعطى لذلك الشخص خبراً عن أى غيب آخر.

إذن فكلمة: ﴿إِن شَاءَ﴾ هى إثبات لطلاقة قدرة الله فى كونه، فإن شاء أعطاكم، وإن شاء لم يُعْطِكم، فالإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ، فقد يفترى البعض بالنعمة فيحجبها الحق عنهم، وهذا ما حدث فى كثير من البلاد

التى طغت وكفرت بنعمة الله عليها ؛ لأنه سبحانه لو ترك النعمة هكذا بدون ضوابط لاستشرى فى تلك البلاد الفساد والمعاصى، إذن : فالمشيئة تقتضى إعطاءً، أو منعاً، والإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه على أنهم من الأغيار القُلَّب؛ منهم من تأتيه النعمة فتطغيه، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

أى : أن الإنسان إذا أنعم الله تعالى عليه ، عدّ هذا كرماً من الله عز وجل ، وإذا ما ضيق الله عليه الرزق اعتبر ذلك إهانة وعدم رضا من الله .

ويرد الله تبارك وتعالى ليصحح المفهوم فيقول: ﴿كَلاَّ﴾ أى لا المال دليل على الإكرام، ولا قلة المال دليل على الإهانة.

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ [الفجر]

إذن : فالمال إذا جاء ليطغيك يكون نقمة عليك وليس نعمة لك، وإذا كانت قلة المال تمنع طغيانك فهى نعمة وليست نقمة. ولذلك قال تبارك وتعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

قد يمنع عنك المال الذى إن وصل إليك غرَّك فتحسب أنك فى غنى عن الله تعالى وتطغى ، وهذا المنع نعمة وليس نقمة، إذن فقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ هو إبقاء لطلاقة القدرة فى الكون حتى يكون الإغناء لا بالمادَة وحدَها ولا بالمال وحده، ولكن بالقيم أيضاً، فلا يذهب المال قيم السماء ولا يبعد عن منهج الله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن شَاءَ﴾ يعنى: أنه سبحانه إن شاء أعطى،

وإن شاء منع ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وهى طلاقة المشيئة، فى حدود حكمة الله عز وجل، فلا تقل حين يمنع : إنه لم يحقق قوله: ﴿فَسوْفَ يُغْنيكُمُ اللهُ من فَضْله﴾ لأن الإغناء كما يكون بالمادة، يكون أيضاً إغناء بالقيم. ويؤكد هذا قَوْلَه سبحانه وتعالى: ﴿ إنَّ اللهَ عليمٌ حَكيمٌ ﴾ أي :عليم بالأمر الذى يصلح لكم ، حكيم فى وضع العطاء فى موضعه والمنع فى موضعه.

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وهنا يعود الحق سبحانه وتعالى إلى التحدث عن القتال، ونعلم أن الذين تحدث عنهم المولى سبحانه فى هذه السورة، هم المشركون وأحوالهم، والأمر بإلغاء المعاهدة معهم، وإبعاد ذواتهم عن المسجد الحرام، وتقتيل من يحاول البقاء منهم ليحض على الشرك؛ حتى لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان [1] .

وعرفنا من قبل السبب، وأما الذين يتحدث عنهم الله فى هذه الآية فهم غيرهم. . . فرغم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل لمشركى العرب محمداً ﷺ

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : «لا يترك بجزيرة العرب دينان» . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٧٥) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٥) : «رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع».

وهو رسول من أنفسهم، فهم يعرفونه حق المعرفة، كما أن المعجزة التى جاء بها ﷺ من جنس فصاحتهم، فإذا كذبوه فهم مخطئون، ورغم هذا كذبوه ولم يؤمنوا به، أما خارج الجزيرة فالرسول ليس منهم، والقرآن لم ينزل بلغتهم، وكان عليهم أن يأخذوا من المنهج التطبيق المناسب. وهكذا نرى أن مصادمة الإيمان لم تكن من مشركى مكة فقط، بل كانت أيضاً من بعض يهود المدينة وبعض من نصارى نجران، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حدد فى هذه السورة موقف الإيمان من المشركين به، فقد أراد أيضاً أن يحدد موقف الإيمان من أهل الكتاب.

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين أهل الشرك وأهل الكتاب، فالمشركون لم يكونوا يؤمنون بالله إلهاً واحداً بل معه شركاء، ولكن أهل الكتاب يؤمنون بالإله ويؤمنون برسول وكتاب سماوى، وهم بذلك أقرب إلى الإيمان. ولذلك نجد القرآن الكريم يعرض لنا مثل هذه القضية كطبيعة فطرية، فنجد أن النبى ﷺ قد حزن هو وصحابته حين غُلبتْ الروم فى أدنى الأرض[1]. لماذا حزن الرسول ﷺ وهو يعلم أن الروم سيَقفون أيضاً ضده؟ لقد حزن ﷺ لأنهم يؤمنون أن للكون خالقاً واحداً وأن له رسلاً يوحى إليهم وأن له كتباً منزلة، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمشركين، فهم يكفرون بالله وهذا قمة الكفر. صحيح أن بعضاً من أهل الكتاب وقفوا مع المشركين فى موقف العداء

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان، فذكر ذلك المسلمون لأبى بكر رضى الله عنه فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال له النبى ﷺ: أما إنهم سيهزمون فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهروا كان لك كذا وكذا وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فجعل بينهم أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال: ألا جعلته ـ أراه قال: دون العشرة ـ قال: فظهرت الروم بعد ذلك فذكر قوله تعالى ﴿ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ قال: فغلبت الروم ثم غلبَتْ بَعْدُ ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال سفيان: وسمعت أنهم ظهروا يوم بدر. أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٣) وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٠) من حديث ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى.

لرسول الله، لكن قلبه ﷺ معهم لأنهم أهل إيمان بالقمة. ويُسَرِّى الحق عن رسوله ﷺ فيقول:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم]

وهنا يبرز سؤال يقول : متى سيغلبون؟ تأتى الإجابة من الحق تبارك وتعالى :

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]

والبضع بالنسبة للزمن هو فترة تتراوح من ثلاث لتسع سنوات، ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى البضع هنا ؛ لأن المعارك لها أوليات ونهايات، لهذا جاء قول الحق تبارك وتعالى مراعياً لما تستغرقه هذه المراحل كلها، وجاء القول بأن نصر الروم على الفرس سوف يأتى بعد بضع سنين. وبالله قولوا لى : كيف يتحكم نبى أمى فى جزيرة تسكنها أمة أمية، ولا علم لهذا الرسول بأخبار الأمم وكيف لهذا النبى أن يأتى بأخبار نصر أمة على أخرى؟ ويظل هذا الخبر فى الكتاب الذى يحمل منهج رسالته قرآناً يُتْلَى ويتعبد به إلى قيام الساعة ؟ لقد قالها بثقة فى حدوث ما جاء فى القرآن فى المستقبل القريب؛ لأنها جاءته عن ربه، وهو واثق أن قائل هذا الخبر قادر على إنفاذ ما يقول.

وإلا ، فماذا كان يحدث لو أن الرسول ﷺ قال ذلك ثم مر بضع سنين ولم يأت نصر الروم؟ وماذا يكون موقف الذين آمنوا به كرسول من عند الله ؟

إذن: هو ﷺ لم يكن ليجازف وينطقها إلا بثقة فى أن القائل هو الحق سبحانه الذى شاء أن ينزل بالخبر فى آية قرآنية تُتلى، وتُكتب، وتُحفظ، ويُصَلَّى بها فى كل وَقت إلى أن تقوم الساعة. وينزلها سبحانه على محمد ﷺ وقت أن كان ضعيفاً لا يعرف ميزان القوى، ولا يعلم هل ستستعد الروم لتنتصر أم لا ؟

ثم ألم يكن من الممكن أن يتصالح الروم والفرس؟ كل ذلك لم يكن فى حسبان محمد ﷺ؛ لأن الخبر جاء من الله وسبحانه القادر على إنفاذ ما يقول.

ألم يكن هناك إخبار عن أمور خالفت النواميس؟ نعم كانت هناك أمور خارجة عن النواميس وجاء بها الخبر من الله سبحانه وتعالى .. ألم يقل زكريا عليه السلام حين بُشِّر بالولد:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

أى: ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فقد تأكد الحدوث.

وكان المؤمنون أقرب إلى الروم لأنهم أهل كتاب؛ ولأن لهم صلة بالسماء، ومن له صلة بالسماء يمتلئ بالحنين إلى أخبار السماء، ويتسمع أخبار المؤمنين فى القمة العقدية. ومن العجيب أن هذه الآية تصدق فى الروم وفارس، فينتصر الروم على الفرس، وتصدق فى محمد ﷺ وأصحابه، فينتصر رسول الله وأصحابه فى بدر. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ..﴿٥﴾﴾ [الروم]

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم هنا بأنهم لا يؤمنون بالله مع أنهم أهل إيمان. والمعنى أنهم لا يؤمنون بالله الإيمان الذى يعطى الله جلال

الصفات وكمالها؛ لأن بعضهم قال: إن الله له ابن اسمه عزير، وقال البعض الآخر: المسيح ابن الله، إذن فهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان تسبيحاً وتنزيهاً لذاته الكريمة عمَّا لا يليق بها، وكذلك يختلف إيمانهم باليوم الآخر عن الإيمان الحق به، إنه إيمان لايتفق مع مرادات الله تعالى؛ فهم يقولون مثلاً: إن النعيم فى الآخرة ليس مادياً ولكنه نعيم روحى. ونقول: عندما يحدثنا الله عن نعيم الآخرة فلابد أن نعرف هذا النعيم حتى نفهم المعنى، ونتساءل: ما هو النعيم الروحى؟ هل النعيم الروحى هو خواطر فى النفس فقط لا علاقة لها بالحقيقة؟ أيكون هذا هو نعيم الآخرة؟

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد ناراً للكافرين، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذى نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحى ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يغرينا الله عز وجل بشىء لا نعلمه؟ إذن: فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريده الله.

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف وليس من جنس ما لا نعرف. وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا بعض صور النعيم فى الجنة، وقال: إنها مثل كذا وكذا. قال الحق جل جلاله:

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

إذن: فالله عز وجل يعطى مثلاً فقط. ومعلوم أن اللفظ فى اللغة لابد أن يوضع لمعنى معروف. ولذلك فعندما يحدثنا الله عن نعيم الجنة لابد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه. ورسول الله ﷺ قال عن الجنة:

«فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»(١)

إذن : فلا توجد فى اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة؛ لأن المعنى غير معروف لنا، ولكن الله أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم، فيقول عز وجل: ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ﴾ وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التى تكون فى المَثل. فمثلاً الخمر فى الدنيا فيها خصلتان؛ الأولى أنها تغتال العقول (٢) والثانية : أنها لا تشرب بقصد اللذة، والذى يشرب الخمر لايشربها مثلما يشرب كوب عصير المانجو أو عصير الليمون الذى يستطعمه ويشربه على مهل، ولكنه يسكب الكأس فى فمه دفعة واحدة؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقلل زمن مرور الخمر على الحس الذائق، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب، ثم إنها تذهب بوعى الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه، ويعتذر فى الصباح عما فعل أثناء احتسائه للخمر ويقول خجلاً: «لم أدر موقع رأسى من موقع قدمى » هذه خمر الدنيا، ولكن الخمر فى الجنة لا غَوْل فيها . . أى : لا تغتال العقول، حلوة المذاق، ولذلك يصفها الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥]

أى: أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التى حرمها الله فى الدنيا. وتتجلى الحكمة فى معنى الاستطعام فى قول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه

(١) عن سهل بن سعد الساعدى قال : «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ولا أذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تَتجافَى جُنُوبهم عن المضَاجع يَدعُونَ ربَّهم خوفاً وطمعاً ومما رزقْنَاهُمْ ينفقُون . فَلا تعلَمُ نفسٌ مَا أُخفى لهُمْ من قُرَّة أعين جَزَاءً بماَ كانُوا يعملُونَ ﴾ » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وَهب عنَ أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبى .

(٢) تغتال العقول : تسكرها وتذهب بها .

مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلْقَى فى النار »[1] .

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط ، بل يغرى الناس على وقود الطاقة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام، ويطيل أمد اللذة ساعة تناوله، لا أن ينتظر النفع بعد أن يهضم الطعام. فكأن الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب فى الله ويكره فى الله؛ فذلك يعطيه الطاقة التى تستبقى إيمانه؛ كما تستبقى طاقة الطعام حياة الإنسان. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فى تصوير الجنة المثل لما فى الجنة ، لا بتشخيص وتحديد لما فى الجنة فعلاً ، ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة]

وإذا كانت النفس لا تعلم شيئاً ، فهى لا تملك ألفاظاً تضع فيها ما لا تعلمه، فإذا خاطبها الله تعالى بواقع الجنة فهى لن تفهم، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يخاطبها بواقع المثل، فيقول عز وجل:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : فهو رزق يشبه الرزق الموجود فى الدنيا ولكن ليس هو [2] ، أما أن

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) . ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٢٨٤) : ﴿من قَبْل﴾ يعنى فى الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنهم قالوا : هذا الذى وعدنا به فى الدنيا والثانى : هذا الذى رزقنا فى الدنيا ، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك. وقيل ﴿ من قَبْل﴾ يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون، فإذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها فى آخر النهار، قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول.
وقال ابن عباس : ﴿ وأتوا به مُتشَابهاً﴾ : هذا على وجه التعجب ، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء ، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها .

يقال : إن نعيم الجنة هو النعيم الروحى أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛ فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقى، ولكنهم يقولون هذا الكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أى سيكون عذاب الخواطر، وفى هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه فى الدنيا، وإلا ما وُجد فى أنفسنا ما يجعلنا نرغب فى نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار. لذلكَ فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق. وشاء الله سبحانه أن يصفى النعيم من كل الشوائب، فقال عز وجل عن أنهار الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]

أى: ليس فيه كل الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا. وكذلك قال عن لبن الجنة:

﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [محمد: ١٥]

وكلمة ﴿ لَمْ يتغيَّرْ طَعْمُه ﴾ لها عند العرب أيام رسول الله ﷺ معنى؛ لأن العربى كان يحلب الجمال ويضع ألبانها فى الأوانى، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً ، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك فحين يسمع ﴿وأنهارٌ من لَّبَنٍ لَمْ يتغيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فهو يعطيه المثل من حياته، بعد أن ينقيه من كل الشوائبِ التى تفسد طعم اللبن فى الحياة الدنيا.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَاتلُوا الذينَ لا يُؤمنُونَ بالله ﴾ أى الإيمان الواجب بعظمة الله وتنزيهه. واليهود يؤمنون إيماناً إجمالياً بالله، ولكنهم يُجسِّمونه ويقولون: إنه جلس على صخرة ومد قدميه فى قصعة من الزمرد ثم استنكف الله أن يمد يده لبنى إسرائيل، وهذا تصوير لا يليق بكمال

الله ولا بذاته المقدسة، وهذا خطأ في التصور. وكذلك كان خطؤهم في تصور نعيم الجنة وعذاب النار، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر، ولهذا جاء قول الحق: ﴿وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهم لم يقفوا فقط ضد الإسلام كمنهج، بل وقفوا أيضاً من أديانهم مثلَ هذا الموقف، ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾

وهم كأهل كتاب حرفوا وبدلوا في دينهم فأحلوا ما حرم الله. ولذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذي لا يتغير. وإذا نظرنا إلى كل رسول في عصره؛ نجده قد جاء بالحق، وإذا جاء رسول من بعده فهو لاينسخ العقائد، ولكنه ينسخ في الأحكام، وهكذا نعلم أن كل رسول جاء بالعقائد الثابتة وبالأحكام التي تناسب الزمان إلى أن بعث الله محمداً ﷺ، فكان النبي الخاتم إلى أن تقوم الساعة، ولابد أن يكون الحق الذي جاء به هو الحق الثابت الذي لا يتغير؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رسول بعده، إذن فقوله: ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: أنهم لايؤمنون حتى بما جاء في كُتبهم من بشارة به ﷺ، وهذا حكم خاص بهم؛ لأن المشكلة معهم أنهم لم يصدقوا بلاغ رسول الله ﷺ عن الله و أنه مرسل إليهم، وسَنَّ رسول الله ﷺ في معاملتهم ما شرعه الله تعالى، وذلك أن يعاملوا معاملة مختلفة عن المشركين، فمعاملة المشركين كانت براءة من العهد، وإبعاداً عن المسجد الحرام، وقتالاً إن وجدناهم، أو أن يسلموا. أما معاملة رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب فكانت: إما أن يسلموا، وإما أن يعطوا الجزية مع استبقاء الحياة، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

أي: حتى يؤدوا ما فُرض عليهم دفعه من أموال مقابل حصولهم على الأمان والحماية، وفي هذا صون لدمائهم، ولذلك نجد أن المسلمين قد فتحوا بلاداً غير إسلامية وصاروا قادرين على رقابهم ولم يقتلوهم، بل أبقوا عليهم، وإبقاء الحياة نعمة من نعم الإسلام عليهم، وهناك نعمة ثانية وهي أنه لم يفرض عليهم ديناً، وإنما حمى اختيارهم الدين الذى يرونه، وفي ذلك رد على من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف، ونقول: إن البلاد التى فتحت بالمسلمين أقرت أهل الأديان على أديانهم، وحمت فقط حرية الاختيار، بل وقف المسلمون بالسيف أمام القوم الذين يقفون أمام اختيار الناس، وتركوا الناس أحراراً. لكننا نجد المغالطات تملأ كتابات الغرب حول مسألة السيف. ونرد دائماً أن الإسلام لو انتشر بالسيف لما وجدنا فى البلاد التى فتحها أناساً باقين على دياناتهم، بل كان الإسلام يأخذ الجزية ممن بَقَوْا على دياناتهم من أهل الكتاب. وأخْذُ الجزية دليل على أنهم ظلوا على دينهم وظلوا أحياء، وهاتان نعمتان من نعم الإسلام، وكان يجب أن يؤدوا جزاء على ذلك، وكان الجزاء هو الجزية. وهى مادة «جزى» و«يجزى». فكأن الجزية فعلة من «جزى» «يجزى» ؛ لأن الإسلام قدم لهم عملاً طيباً بأن أبقى على حياتهم وأبقاهم على دينهم من غير إكراه، فوجب أن يُعطوا جزاء على هذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها عليهم بالإسلام.

وأيضاً، فإنهم سيعيشون فى مجتمع إيمانى؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم فى أنفسهم وأهلهم وفى أموالهم وفى كل شيء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون فى المجتمع الإسلامى ينتفعون ـ أيضاً ـ بالخدمات التى يؤديها الإسلام لهم، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالهم نظير تلك الخدمات، والإسلام مثلاً لا يكلف أهل الكتاب أن يدخلوا جنداً فى حرب ضد أى عدو للمسلمين إلا إذا تطوعوا هم بذلك، إذن: فالجزية ليست فرض قهر، وإنما هى مقابل منفعة أداها الإسلام لهم؛ إبقاءً على

حياتهم وإبقاء على دينهم الذى اختاروه ، وقرر الحق أن يعطوا الجزية ﴿عَنْ يَد﴾ واليد هى الجارحة التى تُؤدَّى بها الأعمال ، وأغلب الأعمال إنما تُزَاوَلُ باليَد ، ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]

واللسان أيضاً آلة الكلام، والحق تبارك وتعالى يجازى على القول الطيب أو السيىء، ولكن الأصل فى العمل هو « اليد »، وتطلق اليد ويراد بها القدرة التى تعمل، أو يراد بها النعمة، مثل قولنا: فلان له يد على فلان، وفلان له أياد بيضاء علىّ الناس .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ حتَّى يُعْطُوا الجزْيَةَ عَنْ يَد ﴾ .

فهل المقصود بـ ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى من يُعْطُونَ الجزية، أم أيدى الآخرين الآخذين للجزية ؟

إن هذا القول: ﴿ عَنْ يد ﴾ مثلما يقال: فلان نفض يده من هذا الأمر، أى خرج عن الأمر ولم يعد يعاون عليه . إذن يكون معنى ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى غير رد للنعمة . وعن يد منهم أى من المعطين للجزية، أو ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى: يداً بيده فلا يجلس الواحد من أهل الكتاب فى الأمة الإسلامية المحكومة بالإسلام فى مكانه ويرسل رسولاً من عنده ليسلم الجزية، لا، بل عليه أن يدفعها ويحضرها بيده. [1] أو نقول: ﴿ عَنْ يَد ﴾ من معنى القدرة، فمن عنده قدرة، فنأخذ الجزية من القادر ولا نأخذها من العاجز [2] .

إذن: يشترط فى اليد إن كانت منهم ثلاثة ملاحظ؛ الملحظ الأول: أن

(١) قوله تعالى ﴿عَنْ يَد﴾ قال ابن عباس: يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحداً. وقيل ﴿عَنْ يَد﴾ عن إنعام منكم عليهم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك. قال عكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس، وقاله سعيد بن جبير، انظر تفسير القرطبى (٤ / ٤٢ . ٣).

(٢) عن عروة بن الزبير قال: مَرَّ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط (فلاحو العجم) بالشام. قد أقيموا فى الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حُبسوا فى الجزية. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦١٣) وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٠٤) وأبو داود فى سننه (٣٠٤٥).

يكونوا موالين لا نافضين لأيديهم منا ومن حكمنا، والملحظ الثانى: أن يأتى بها بنفسه لا أن يرسل بها رسولاً من عنده، وإن جاء بها لابد أن يأتى بها وهو ماش وأن يعطيها وهو واقف ومن يأخذ الجزية قاعد، وهذا هو معنى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. ولماذا يعطونها عن صَغار ؟ لأن الحق عز وجل أراد للإسلام أن يكون جهة العلو، وقد صنع فيهم الإسلام أكثر من جميل، فلم يقتلهم ولم يرغمهم على الدخول إلى الإسلام؛ لذلك فعليهم أن يتعاملوا مع المسلمين بلا كبرياء ولا غطرسة، وأن يخضعوا لأحكام الإسلام، وأن يكونوا موالين للمسلمين، لا نافضين الأيدى، وأن يؤدوا الجزية يداً بيد، وأما العاجز وغير القادر فيعفى من دفع الجزية [١].

﴿ حتَّى يُعطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وهُمْ صَاغِرونَ ﴾ والصَّغَار من مادة الصاد والغين والراء، وتدل على معنيين؛ إن أردتها عن السن يقال « صَغُر »« يَصْغُرُ» مثل قولنا: فلان كبر يكبر. وإن أردتها فى الحجم والمقام نقول « صَغر » «يصغَر»، أى: صغر مقاماً أو حجماً، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]

وهنا فى قوله: ﴿ حتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَد وهُمْ صَاغِرُون ﴾ تعنى أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو، حتى إنَّ من يُعطى لا يظن أنه يعطى عن علو، ونقول له: لا، إن اليد الآخذة هنا هى اليد العليا.

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا حيثيات قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقال بعد ذلك:

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٤١) : «قال علماؤنا : أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز ، فأما مع تبيّن عجزهم فلا تحل عقوبتهم ، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه، ولايكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء. وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (٣٠٥٢).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب؛ إمَّا لأنه يريد أن يبقى ذكْره في الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه دائم الوجود ؛ وإمَّا لكى يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها. وإما ليكون عزوةً له، والله جل جلاله عزيز دائماً. وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء. ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولاً ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس: إنَّه ابن الله . إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله.

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ اليهُود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النَّصارَى المسيحُ ابنُ الله ﴾.

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلُّوا بالإيمان الحق. ولابد أن نعلم أن من قالوا: إن عُزَيْراً ابن الله ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هى التى جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه، فقالوا: هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادى، بل أعطاها لابنه. ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه

مشهد قتل الأنبياء فخرج شارداً فى الصحراء مهاجراً وهارباً، فقابله شخص فى الطريق فسأله: لماذا أنت شارد؟ فقال: خرجْت أطلب العلم. وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام، فعلَّمه أن لله توراة، فحفظها فصار واحداً من أربعة، هم فقط من حفظوا التوراة: موسى، وعيسى، وعزير، واليسع، ولأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا، بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل، لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حمْل بعير، وحين رجع عزير حافظاً للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لابد أنه ابن الله؛ لأن الله أعطاه التوراة وآثره على القوم جميعاً[1]. ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلاَّم بن مشكم، وشاس بن قيس، ومالك ابن الصيف، ونعمان بن أوفى. وحينما أنزل الله قوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولَم يكذبوها، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول، وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يصدق على بعضهم أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك. وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام، فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾.

ويتابع الحق: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فيوضح لنا سبحانه أن البنوة لله جاءت فيها مشبهة، كان يجب أن يلتفتوا إليها ويتزهوا الله عن ذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يصف عباده بأنهم عباد الله، وأن الخلق كلهم خلق الله تعالى.

فالمولى سبحانه وتعالى وهو الخالق والقادر على كل شىء خلق كل الخلق

(١) انظر قصة العُزير هذه فى تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٤٣) وابن كثير (٢/ ٣٤٨). والعزير هو نبى من أنبياء بنى إسرائيل وهو الذى ضربه الله مثلاً لإحياء الموتى فى قوله تعالى: ﴿أو كالذى مرَّ على قَرْيَة وهى خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشِها قال أنى يُحيى هذه الله بعْدَ موتها فَأماتَهُ الله مائةَ عامٍ ثُمَّ بعثهُ. . . ﴾ (البقرة: ٢٥٩).
قال ابن كثير فى قصص الأنبياء (ص ٣٨٠): «روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ماكان من كَتْبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بنى إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا: عزير ابن الله».

من عدم ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً. ولكن الشبهة عند بعض من أتباع المسيح جاءت من أنه أوجدَ من دون أب، ونقول لهم: لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق، فكانَ من الأوْلى أن تجيء ذات الشبهة في خلق آدم؛ لأن قصارى ما في المسيح أنه جاء من غير أب، ولكن آدم جاء من غير أب ومن غير أم، فأيهما كان أوْلى أن يكون ابن إله؟

ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إنَّ مثَل عيسى عند الله كمثَل آدَمَ ﴾. والحق سبحانه وتعالى يخلق الشيء - أي شيء - بأسباب، وكل الأسباب مخلوقة له، والولد منا - في جمهرة الناس - ينشأ من اجتماع الأب والأم، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة: إما أن يوجد بوجود شيئين ذكر وأنثى، وإما أن يوجد بانعدام الشيئين مثل آدم، وإما أن يوجد بوجود واحد من الشيئين وهو الذكر مثل حواء، فقد خلقها الله من آدم مصداقاً لقوله: ﴿وَخلقَ منها زَوجها ﴾، وإما بوجود واحد من الشيئين وهي الأنثى وخلق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر. وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا دخل لها في التكوين، وأن المسبِّب هو القادر على أن يوجد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأن يوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس، وأن يوجد من أم دون أب كما أوجد عيسى، وأن يوجد من دون أم كما أوجد حواء.

إذن: فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته، ولا دخل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى، فالأسباب ليست هي الفاعلة في ذاتها، بل إرادة الخالق سبحانه هي الفاعلة، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

أي: قد يوجد الذكر والأنثى ولا يعطي لهما الحق عز وجل أولاداً، وهذه

طلاقة قدرة من الله تعالى، فإياك أن تقول إنها بأسباب، بل سبحانه وتعالى يَهَبُ لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء ذكوراً، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً، وكان استقبال الناس للمواليد يختلف؛ فالعرب كانوا يحبون إنجاب الذكر؛ لأنه قوى ويحقق العزوة ويركب الخيل، ويحارب الأعداء. ولم يكونوا يحبون إنجاب الفتاة لأنها قد تأتى منها الفضائح، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩) ﴾ [النحل]

وجاء الإسلام ليوضح: أنه مادام لا دخل لك فى الإنجاب والإنسال، فَدع الأمر لمن يهب الأبناء. وقد سمى الحق تبارك وتعالى الأبناء « هبة » ليذكرك أن الإنجاب شيء أعطاه سبحانه لك بلا مقابل منك، فالذكور هبة، والإناث أيضا هبة. فلا تفضل تلك الهبة عن هذه الهبة. ودائماً أقول للذى ينجب بنات، ويذهب هو وزوجته إلى الأطباء: لو استقبلتم هبة الله فى الإناث كما تستقبلونها فى الذكور، فإن الحق سبحانه وتعالى يجزيكم جزاء لا يخطر لكم على البال، فيحسن الله كل ابنة لكم فى عين رجل صالح ويتزوجها، فإن كُن عشر بنات فهُنَّ يأتين بعشرة رجال أزواج يعاملون الأب والأم لكل زوجة معاملة الأب والأم، وهكذا يرزق الله من يرضى بقسمة الله فى الإنجاب، ويصبح أزواج البنات أطوع من الأبناء الذكور، فالذى يرضى بالهبة فى الإناث يوضح له الله: رضيتَ بهبتى فيك ولم تكن على سنة العرب من كراهة الإناث؛ لذلك أهبك من أزواج البنات أبناء لم تتعب فى تربيتهم ويكونون أكثر حناناً وولاءً من أى أبناء تنجبهم أنت. ولذلك إذا ما وجدت إنساناً قد وُفِّقَ فى زيجات بناته، من رجال يصونون أعراضهم ويحسنون معاملة أهل الزوجة، فاعلم أن الأب قد استقبل ميلاد الأنثى بالرضا؛ لأنها هبة الله.

ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن: فالعقم أيضاً هبة إلهية؛ لأن الإنسان إذا ما استقبل العقم برضا الله؛ لَوَجَد في كل رجل يراه ابناً له؛ لأنه استقبل الهبة في المنع برضا، مثله مثل من استقبل الإناث كاستقبال الذكور. إذن: مادامت المسألة هبة من الله فيجب أن تستقبل عطاء الله ومنعه بالرضا.

وعيسى عليه السلام جاء بنسبة طلاقة القدرة من الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن القسمة العقدية والعقلية لا تتم إلا به، ولن تتكرر؛ لأن آدم وُجدَ أولاً، ومن وجدوا بعد آدم جاء كل منهم من أبوين، وكذلك حواء وُجِدت من قبلهم، فهذه ثلاث صور قد وجدت في الكون وبقيت صورة ناقصة، هي أن يوجد إنسان من أم دون أب، فأتمها الله عز وجل بعيسى عليه السلام:

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى المسيح ابنُ الله ذَلكَ قَولهم بأفواههِمْ ﴾

وقول الحق ﴿ ذَلكَ ﴾ إشارة إلى القول بأن المسيح ابن الله أو عزير ابن الله، ويضيف الحق عز وجل توضيحاً ﴿ قَولُهم بأفواههمْ ﴾. ونسأل: وهل يوجد قول بغير أفواه؟ إن كل قول إنما يكون بالأفواه؛ حتى قول المؤمنين بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله هو قول بالأفواه. ونقول: هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعاني، وهناك قول بالفم أيضاً وله معنى، إلا أنه غير حقيقي، وكاذب.

ولنعرف أولاً: ما هو القول؟ إنه كلام يعبر به كل قوم عن أغراضهم؛ كأن تقول للطفل: اجلس، ولابد أن يكون الطفل فاهماً لمعنى الجلوس، وإن قلتها بالعربية لطفل إنجليزى فلن يفهم معناها.

إذن: فاللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع، ولابد أن يعرف الاثنان ما يشير إليه اللفظ من

موضوعات. فإن لم يعرف السامع اللفظ الذى يتكلم به المتكلم فهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا نعلم أن الفهم بين المتكلم والمخاطب يشترط فيه أن يكونا عليمين باللفظ، فإذا تكلم متكلم بشىء لا علم للسامع به؛ فهو لا يفهم. وكانوا يضربون لنا المثل قديماً بعلقمة النحوى وكان مشهوراً فى النحو والألفاظ واللغة، ويتقعر فى استخدام الكلمات، ولا يتكلم إلا باللغة الفصيحة الشاذة التى لا يعرفها الناس، وكان عند علقمة خادم، فمرض علقمة النحوى مرة وذهب إلى طبيب اسمه « أعجز » ليشكو له علة عنده، وقال علقمة للطبيب: قد أكلت من لحوم هذه الجوازىء فقصأت منها قصأة أصابنى منها وجع من الوابيــة إلى دأبة العنق، ولم يزل يمنى حــتى خــالط الخلب وأملت منه السراسيب. ولم يكن الطبيب متخصصاً فى اللغة ولا معاجم عنده، فوقف مستغرباً من كلمات علقمة وقال له: أعدْ علىَّ ما قلته فإنى لم أفهم، فأعاد علقمةعليه ما قاله بغضب ولوم لأنه لم يفهم لغته، وعرف الطبيب تقعر علقمة فقال له: هات القلم والورقة لأكتب لك الدواء، وكتب له: خذ حرقة وسلقة ورهرقة واغسله بماروس واشربه بماء ماء. فقال علقمة: أعدْ علىَّ فوالله ما فهمت شيئاً، فقال الطبيب: لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه. وَعرف علقمة أنه متقعر فى اللغة ويأتى بألفاظ ليست من الألفاظ الدائرة على ألسن الناس. وقال أساتذتنا لنا: ولم يؤدبه عن هذا إلا غلامه أى خادمه، فقد استيقظ علقمة ذات ليلة وقال: يا غلام أصعقت العتاريف، ولأن الغلام لم يفهم فقد رد قائلاً: زقفيلا، وقال علقمة للغلام: وما زقفيل؟ قال: وأنت ما أصعقت العتاريف؟ فقال له: يا بنى لقد أردت أصاحت الديكة؟ فقال: وأنا أردت لم تَصِحْ.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ إذن: القول هو اللفظ الملفوظ من الفم، وهذا القول إمَا أن يكونَ له معَنًى، وإما ليس له معنى. مثل كلمة « زقفيل » التى قالها خادم علقمة، هذه الكلمة ليس لها

وجود فى اللغة فهى قول باللسان ليس له معنى . وقد يكون القول له معنى ؛ إلا أنه كلام باللسان لا يؤيده واقع ، فهو كذب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يحتمل الأمرين . إما أنهم يقولون كلاماً لا يقصدونه ولا يعرفون معنى ما يقولون ، والمثال : أن نقول : « كتب » ، وهى كلمة مكونة من الكاف والتاء والباء ، ويمكن أن نستخدم ذات الحروف فنقول : « كبت » وهى نفس الحروف أيضاً ولها معنى . أو نقول : « تكب » وهو لفظ غير مستعمل ، وهو كلام بالفم ولا معنى له فى اللغة ، بل هو لفظ مهمل . فإذا قال إنسان كلاماً له معنى فهمناه مثل قول : « زيد كان بالأمس بالمكان الفلانى » وهنا زيد معلوم ، والمكان معلوم ، وأمس معلوم . لكن زيداً لم يذهب إلى ذلك المكان ، وبذلك يكون القول فى حقيقته كذباً لم يحدث . ويكون كلاماً بالفم ، ولا واقع له فى الحياة .

إذن : فالقول بالفم إما أن يكون لا معنى له أبداً ، فيستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى اللغة ، وإما أن يكون له معنى فى ذاته إلا أنه ليس له واقع يؤيده .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ۝٤ ﴾ [الأحزاب]

والله سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. ۝٤ ﴾ [الأحزاب]

هذا إذن كلام لا وجود له فى الواقع ، فالزوجة لا تصير أمّاً لزوجها والولد المتبنى لا يكون ابناً للرجل أو المرأة ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ① قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ③ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ④ ﴾

[الكهف]

أى: أن هذا القول منهم كلام له معنى فى اعتقادهم ، ولكن ليس له واقع ، ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿ كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواههمْ ﴾ أى: لا واقع لهذا القول يسنده فهو كذب .

﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهم بأفْواههمْ ﴾ وهل هذا القول بالأفواه أهم ابتكروه أم ابتدعوهَ ؟ إن الحق سبحانهَ يوضح لنا : ﴿ يُضَاهِئُون قَوْلَ الذينَ كفروا من قَبْلُ ﴾ أى : أنهم لم يأتوا بهذا التصور من عندهم ، بل من شئ له واقعَ ، فقد قال المشركون ما أورده الحق على ألسنتهم :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ⑲ ﴾ [الزخرف]

فقد توهم المشركون أن لله تعالى بنات والعياذ بالله - وسبحانه منزه عن ذلك ، فى ذلك يخاطبهم المولى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكرُ ولَهُ الأنثى ﴾ - إذن : فهذا كلام قديم ؛ لذلك قال الحق عنهم: ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أى: يشابهون ويماثلون الذين من قبلهم حينما قالوا مثل ذلك ، كما أن البوذية فى الصين واليابان قالت ببنوة الإله والحلول وقد حفظ بعضهم من هؤلاء ، ولم يطرأ جديد من ألسنتهم ، وهم كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أى: يشابهون ويماثلون به قول الذين كفروا من قبل ، و« المضاهاة » هى المماثلة والمشابهة ، وقالوا: إن مادتها مأخوذة من امرأة « ضَهْياء »[1] وهى التى ضاهت وشابهت

(١) قال فى لسان العرب: امرأة ضَهْيأ، وهى التى لايظهر لها ثدى، وقيل : هى التى لا تحيض، فكأنها رجل شبهاً.

الرجل ، فى عدم الحيض أو الحمل أو الولادة ، وهى بذلك تكون شبيهة بالرجل .

﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذينَ كَفروا من قَبْل ﴾ والتعقيب هنا إنما يصدر من الحق تبارك وتعالى عليهم ، ولم يتركه الحق لنا ، وساعة تسمع : ﴿ اتخذَ اللهُ ولَدًا ﴾ فالفطرة الإنسانية تفرض أن يقول السامع لهذا الكلام: قاتلهم الله كيف يقولون هذا ؟ وشاء الحق هنا أن يتحملها عنا جميعاً ؛ لأننا إن قلنا نحن : « قاتلهم الله أو لعنهم الله » فلا أحد منا يضمن استجابة الدعاء عليهم ، فالأمر قد لا يتحقق ، ولكن حين يقولها الحق سبحانه وتعالى . فتكون أمراً مقضياً . لذلك يقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وما معنى قاتلهم الله ؟ أنت إذا رأيت فعلاً قبيحاً من فرد ، تقول: قاتله الله . لأن حياته تزيد المنكرات ، ومثال ذلك من يسب أباه ، يقول من يسمعه « قاتله الله » بينما يقول الإنسان منا لإنسان يفعل الخير: « فليعش هذا الرجل الطيب » ؛ لأنك ترى أن حياته فيها خير للناس .

وقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ أى لعنهم وطردهم ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وكلمة ﴿ أَنَّى ﴾ ترد بمعنيين ، فمرة تعنى « من أين ؟» ، ومرة أخرى تعنى « كيف ؟» ، والمثال على معناها الأول قول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا زكريا لما دخل على مريم البتول [1] :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧]

قال ذلك لأنه رأى عندها أشياء من الخيرات لم يأت بها إليها ، مع أنه هو الذى يكفلها ،والمفترض فيه أن يأتى لها بمقومات حياتها ، وعندما دخل عليها ووجد شيئاً هو لم يأت به ، سألها: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أى : من أين لك هذا؟ فأجابت مريم المصطفاة بما جاء فى القرآن الكريم :

(١) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم، وبها سميت مريم أم المسيح . ويقال : البتول هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران : ٣٧]

وجاء الحق بهذه الكلمة لتخدم أموراً إيمانية كثيرة جداً ، وجاء بها على لسان مريم المصطفاة ؛ لأن المسألة ليست مجرد طعام يأتيها من مصدر لا يعلمه البشر حتى من هي في كفالته . بل هي تقديم لما سوف يحدث . فلا تظن أن الأمور تسير سير المسألة الحسابية بأسباب ومسببات ، وعلل ومعللات، ومقدمات ونتائج ، بل هي بإرادة الله تعالى؛ لأنها لو كانت من عند الإنسان لفعلها بحساب، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعطى بلا حساب؛ لأنه خالق الأسباب ، وهو قادر على أن يخلق المسبَّب على الفور :

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وحين أنطق الحق سبحانه وتعالى مريم بهذا إنما كان ليوضح لها ولزكريا في آن واحد: إنك يا زكريا تأتى لها بالرزق في حدود قدراتك وحساباتك البشرية، ولكن الله يأتيها بالرزق بغير حساب ، وهو ما لا تستطيع أن تأتى به قدرات البشر ، فقد يكون الرزق الذى رآه سيدنا زكريا عند سيدتنا مريم لوناً من الأطعمة لا يأتى إلا فى الصيف ، بينما كان الوقت شتاء ، أو العكس ، وقد يصح أن هذا الرزق ليس فى بلادهم مثله ، ولذلك قال : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ هو قضية تربوية اجتماعية بمعنى أن الكفيل على قوم حينما يرى عندهم أشياء لم يأتِ بها هو، وجب عليه أن يسأل عن مصدرها، فحينما ترى في يد ابنك قلم حبر غالى الثمن وأنت لم تحضره له، لا بد أن تسأله: من أين جئت به ؟ وذلك لتعرف التأثيرات الخارجية عليه ، هل سرقه ؟ أم أن أحداً أراد استدراجه إلى غرض سيِّئ فأغراه بهذا القلم ؟

لا بد إذن أن تسأل ابنك: من أين لك هذا ؟ وكذلك إن رأيت ابنتك ترتدى ثوباً لم تأتِ لها به ولا أتت به أمها بعلمك ، لا بد أن تسأل ابنتك: من أين

لك هذا ؟ وهذه القضية إن سيطرت على كل بيت من بيوتنا فلن يحدث فى البيوت ما يشينها ، لكننا للأسف الشديد نرى فى بعض البيوت طفلاً يدخل ومعه قطعة من الشيكولاتة ، ولا تسأله الأم : من أين لك هذا ؟ بل تربت عليه وتأخذ منه قطعة من « الشيكولاتة » لتأكل معه . لكن الأم التى تجيد التربية تماماً تسأل الابن : من أين أتيت بها ؟ حتى تعرف هل ثمنها مناسب لمصروف يده أم لا ، فإن لم تجد أنه قد جاء بهذه «الشيكولاتة» من مصدر معلوم لها وحلال فهى تحذره وتضرب على يده .

ولا بد لنا أن نعلم أن قانون : « من أين لك هذا ؟» يحكم العالم كله ؛ لأنه يتحكم فى التربية الاجتماعية كلها . وقد سبق الإسلام العالم بأربعة عشر قرناً حين أنزل الحق تبارك وتعالى قوله : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ، وأجابت سيدتنا مريم الإيجاب الإيمانى ، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام : أنت تتكلم بحسابك ولكنى أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة فى الكون :

القضية الأولى : أنها ساعة أن قالت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

نبهت زكريا إلى قضية عقدية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطى بلا حساب ، ونظر زكريا إلى نفسه متسائلاً : ما دام الله عز وجل يعطى بغير حساب ، وأنا قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب منه أن يعطينى الولد ؟

إذن : فقد نبهت مريم سيدنا زكريا عليه السلام ولفتت نظره إلى قضية عقدية ، وهى أن الله يعطى بلا أسباب ، وبلا حساب ، فدعا الله أن يرزقه غلاماً فلما بشره الحق بالغلام تساءل : كيف يرزق بالغلام وامرأته عاقر ، وهو قد بلغ من الكبر عتياً ؟ وجاءت الإجابة من الحق سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٩]

وهكذا انتفع زكريا بعطاء الله بالابن، ولم يكتَف الحق سبحانه وتعالى بذلك، بل تكفل عن زكريا بتسميته ، ولله ملحظ فى تسميته، ونحن نعلم أن الناس تسمى الوليد الصغير بأسماء تتيمن بها [1]، مثل أن يسمى رجل ابنه «سعداً» رجاء أن يكون سعيداً، وقد يسمونه «فارساً»، رجاء أن يكون فارساً، ويسمونه «فضلاً» رجاء أن يكون كريماً، ويسمون الفتاة «قمراً» لعلها تكون جميلة. إذن: فالتسمية باسم يحمل معنىً شريفاً على أمل أن يكون الوليد هكذا، وهناك شاعر كان أولاده يموتون بعد الولادة ، فجاءه ابن وسمَّاه يحيى، فمات هذا الابن أيضاً فقال الشاعر متحسِّراً :

سَمَّيْتُه يَحْيى لِيَحْيا فَلَمْ يكُنْ لِرد قضاء الله فيه سَبِيلُ

إذن : فالتسمية بالاسم الشريف، أو بالاسم الذى يدل على الشىء المؤمَّل هو رجاء أن يكون الوليد هكذا، لكن المسمى لا يملك أن يكون سعيداً ، ولا أن يكون فارساً، ولا أن يعيش؛ لأن الذى يملك كل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الله هو الذى سمى يحيى ، فلابد أن يكون الأمر مختلفاً ؛ لأن الذى يملك هو الذى سمَّى، فهل سيعيش يحيى بن زكريا كالحياة التى نحياها وفيها الموت مُحتَّم على الجميع؟ نعم؛ لذلك شاء له الله أن يموت لتبقى حياته موصولة إلى أن تقوم الساعة. وهكذا رأت سيدتنا مريم آثار ذلك منذ أن قال لها زكريا عليه السلام ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ وأجابت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : «لما ولد الحسن سميته حرباً ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قال : قلت حرباً ، قال : بل هو حسن . فلما وُلدَ الحسين سميته حرباً . فجاء رسول الله ﷺ فقال : أرونى ابنى ما سميتموه؟ قال : قلت : حرباً ، قال : بل هو حسين » أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٩٨، ١١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/ ١٦٥ ، ١٨٠) وصححه وأقره الذهبى .

لقد رأت كل ذلك فى سيدنا زكريا وفى ميلاد يحيى، وجعل الله كل ذلك مقدمات لها؛ لأنها ستُمتحن فى عرضها فهى التى ستنجب ولدا من غير أب، وعليها أن تتذكر دائماً قولها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ولذلك تجد القرآن الكريم فى قصصه العجيب يقول على لسان مريم :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠]

وقد بشَّرها الحق تبارك وتعالى بذلك فى سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

[آل عمران: ٤٥]

ومادام قد نسبه الله لها فلن يكون له أب، فتساءلت: كيف يكون لى غلام من غير أب. ويُذكِّرها الحق عز وجل بهذا القول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وقال لها :

﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم: ٢١]

مثلما قال لزكريا من قبل، إذن ﴿أَنَّى﴾ هذه هى مفتاح الموضوع العقدى كله، فى زكريا ويحيى، وفى مريم وعيسى، وهذا هو معنى ﴿أنَّى﴾ وقلنا إن «أنّى» تأتى بمعنى كيف؟ مثل قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وسيدنا إبراهيم لا يُكذب أن الله قادر على الإحياء، ولكنه يسأل عن الكيفية، وهنا يقول الحق: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى : كيف يعدلون عن الحق؟ فالقضية منطقية ، وماكان يصح أن تغيب عنهم، فكيف يُصرَفون عن

هذه الحقيقة التى توجبها الفطرة الإيمانية؟ وكيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

و«الحَبْر» هو لقب عند اليهود، وهو العالم. ويقال فى اللغة «حبر» أو «حِبْرٌ» أى رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم. والرهبان عند النصارى والمقصود بهم المنقطعون للعبادة، فالحَبر عالم اليهود، والراهب عابد النصارى، أما عالم النصارى فيسمى «قسيسَ» ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة: ٨٢]

فإن قصدنا عالم الدين المسيحى قلنا : «قسيس» ، وإن قصدنا رجل التطبيق أى العابد قلنا: «الراهب» والراهب هو من يقول: إنه انقطع لعبادة الله فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب، ونعلم أنه لا رهبانية فى الإسلام[1]، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس ما طلب الله منه، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات

(١) روى الإمام أحمد عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهى باذة الهيئة (أى : رثة الهيئة تاركة زينتها) فسألتها : ما شأنك؟ فقالت : زوجى يقوم الليل ويصوم النهار (أى: أنه منصرف عنها إلى قيامه وصيامه وعبادته) فدخل النبى ﷺ فذكرت عائشة ذلك له فلقى رسول الله ﷺ عثمان فقال: «ياعثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فىَّ أسوة، فوالله إنى لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده» أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٢٦) وابن حبان (١٢٨٨ ـ موارد الظمآن).

فى اليوم، فالمسلم الذى يرغب فى زيادة التقرب إلى الله يمكنه أن يصلى ضعف عدد مرات الصلاة، وإذا كان الحق سبحانه قد فرض أن تكون الزكاة بمقدار اثنين ونصف فى المائة، فالعبد الصالح قد يزيد ذلك بضعفه أو أضعافه. وهذه زيادة من جنس ما فرض الله تعالى وزيادة، وهذا يعنى فى الإسلام الدخول إلى مقام الإحسان [1]، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ ﴾ [الذاريات]

أى: أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أى ارتقوا فوق مقام الإيمان. ويزيدنا الحق علماً بمقام الإحسان فيقول :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩ ﴾ [الذاريات]

وسبحانه لا يطلب منا فى فروض الدين ألا نهجع [2] إلا قليلا من الليل، بل نصلى العشاء وننام إلى الفجر. لكن إنْ قام الإنسان منَّا وتهجد فذلك زيادة عما فرض الله ولكنه من جنس ما فرض الله. وكذلك الاستغفار فمن تطوع به فهو خير له. وكذلك الصدقة على غير المحتاج ، فهنا زيادة فى العطاء على ما فرضه الله من الزكاة التى حُدِّدَتْ من قبل فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ ﴾ [المعارج]

والرهبانية كانت رغبة من بعضهم فى الدخول إلى مقام الإحسان، ولكن الحق لم يفرضها عليهم؛ لأنه هو الذى خلق وعَلم أزلاً قدرات من خلق،

---

(١) قال ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٨): «الاحسان هو أن يعبد المؤمن ربه فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه فى حال عبادته، فكأن جزاء ذلك النظر إلى الله عياناً فى الآخرة.. وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضاً النصح فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإتمامها وإكمالها».

(٢) الهجوع : النوم ليلا.

لذلك قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد : ٢٧]

هم إذن قد ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وزيادة في العبادة ، وليس في ذلك ملامة عليهم ، ولكنها ضد الطبيعة البشرية ؛ لذلك لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها ، ويقول المولى سبحانه وتعالى هنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ فهل معنى ذلك أنهم يقولون للحبر أو الراهب « رب » ؟ لا ، ولكن كانت معاملتهم لهم كمن يعامل ربه ؛ لأن الله هو الذي يُحل ويحرم بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا جاء هؤلاء الأحبار وأحلُّوا شيئاً حرمه الله أو حرَّموا شيئاً أحلَّه الله، فهم إنما قد أخذوا صفة الألوهية فوصفوهم بها ؛ لأن التحليل والتحريم هي سلطة الله ، فلذلك عندما دخل عدى بن حاتم على سيدنا رسول الله ﷺ ووجد الرسول ﷺ في عنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن » ، ومن أدب الرجل مع الرسول خلع الصليب . وقال ﷺ : « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً » . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . قال له رسول الله ﷺ : أو لا تطيعونهم فيما حرموا وأحلوا ؟ قال : نعم . قال : تلك هي العبادة[1] .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ولسائل أن يسأل : وما معنى عطف المسيح على الأرباب ، وعلى الأحبار والرهبان ؟ والإجابة : إن الذي يحلل ويحرم إن لم يكن رسولاً ، فهو إنسان يطلب

(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : «ياعدى اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ فى سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) .
قال : «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب .

السلطة الزمنية، وذلك لا يتأتى من الرسول؛ لأن الرسول ﷺ إنما جاء ليلفت الناس إلى عبادة الله بما شرعه الله، وعيسى عليه السلام هو رسول لم يقم إلا بالبلاغ عن الله، ولكن البعض أخطأ التقدير وظن أنه ابن الله، ولذلك يتابع الحق قوله :

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهكذا يذكرَ الحق أن الأمر لم يصدرَ منه سبحانه وتعالى إلا بأن يعبد مَن يؤمن بالرسالات الإله الواحد. ورسولنا ﷺ يقول :

« خير ما قلته أنا والنبيون: لا إله إلا الله »[1].

وأنت حين تنظر إلى «لا إله إلا الله» تجد النفي في «لا» والاستثناء من النفي والإثبات في «إلا»، وهذا نفي الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده، وحين نقول : «الله واحد» فهذا يتضمن الإثبات فقط. ويأخذ الفلاسفة الذين يملكون قوة الأداء والبيان من هذه القضية «الإثبات والنفي»، أو «الموجب والسالب»، ويقولون : كل التقاء بين موجب وسالب إنما يعطي طاقة، والطاقة يمكن استخدامها في الإنارة أو تدار بها آلة، وكذلك الطاقة الإيمانية تحتاج إلى «سالب وموجب»، ويقول الشاعر إقبال :

إنما التوحيدُ إيجابٌ وسَلبٌ

فيهما للنفْسِ عزمٌ ومَضَاء

ويقول سبحانه وتعالى تذييلاً للآية الكريمة : ﴿سُبْحَانه عَمَّا يُشركُون﴾ وحين تسمع كلمة ﴿سُبْحَانهُ﴾ فاعرف أنها للتنزيه، فلا ذات مثل ذات الله، ولا صفة مثل صفات الله، فالله غني وأنت غني، فهل غناك الحادث مثل غنى الله الأزلي؟ وأنت حي والله حي ، فهل حياتك الموقوتة مثل حياته؟ فحياته

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٨٥) والبيهقي في سننه (٤/ ٨٩، ٢٨٩) قال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ذاتية وحياتك موهوبة، فسبحانه حي بذاته، ولذلك يجب أن تفرق بين اسمه «الحى» واسمه «المحيى»، فهو حى فى ذاته، ومُحْيِى لغيره، وإن كانت الصفة لله فى الذات فهى لا تتعدى إلى الغير، إن الله يوصف بها ولا يوصف بنقيضها، فتقول «حى» ولا تقول المقابل، ولكن إن قلت: «محيى» فأنت تأتى بالمقابل وتقول «مميت». وتقول: «قابض وباسط» و«رحيم وقهار».

إذن: فصفة الذات يتصف الله بها ولا يتصف بمقابلها، وأما صفة الفعل فيتصف بها ويتصف بمقابلها لأنها فى غيره، فسبحانه هو مُحيى لغيره، ومميت لغيره، لكنه حى فى ذاته. إذن فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعنى التنزيه ذاتاً، وصفات، وأفعالاً، وإذا جاء فعل من الله، ويأتى مثله فعل من البشر، نقول: إن فعل الله عز وجل غير فعل البشر لأن فعل الله بلا علاج [1]، ولكن فعل البشر بعلاج، بمعنى أن كل جزئية من الزمن تأخذ قدراً من الفعل، كأن تنقل شيئاً من مكان إلى مكان، فأنت تأخذ وقتاً وزمناً على قدر قوتك، أما فعل الله عز وجل فلا يحتاج إلى زمن، وقوته سبحانه وتعالى لانهائية.

ولذلك حين قال سيدنا رسول الله ﷺ: لقد أَسْرِىَ بى إلى بيت المقدس، قال من سمعوه: أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نَضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ [2] لكن لم يلتفت أحد منهم إلى أن محمداً ﷺ لم يقل: لقد ذهبت

---

(١) أى أن فعل الله سبحانه وتعالى يتم فى الكون بدون معالجة أو تهيئة أسباب بل الأمر بالنسبة لله: كن فيكون.

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما كان ليلة أسرى بى وأصبحت بمكة فظعت بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبى، فقعد معتزلاً حزيناً. قال: فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزىء: هل كان من شىء؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: ماهو؟ قال: إنه أسرى بى الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه» الحديث، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٧). والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

وقد قال ابن إسحاق: فلما أصبح غدا على قريش، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الإِمْر البين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟ (سيرة النبى لابن هشام: ٢/ ٤). والإِمْرُ: هو الشئ العظيم العجيب المنكر.

إليها بقوتى، بل قال: لقد أسرىَ بى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. إذن: فالذى أسْرَى هو الله القوىّ القادر ولا يحتاج الله إلى زمن.

إذن: فـ﴿سُبْحَانَهُ﴾ هى تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أى شىء يوجد فى البشر. ولا تقارن قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان، بل إن العمل ينسب لقدرة صاحبه، وكلما زادت القوة زادت القدرة والله هو القوى. وقولهَ تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يشركُونَ﴾ هو تنزيه لله، ولا تجد بشراً يقول لبشر حتى من الكفار الذين يعاندون الإيمان، لايقول واحد منهم لآخر «سبحانك» لأن التنزيه أمر يختص به الله عز وجل.

والناس تضع أسماء أولادها، فالأسماء مقدور عليها من البشر، ولكنك لاتجد كافراً معانداً محاربًا لدين الله عز وجل يسمى ابنه «الله» فالمؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية لأنه يؤمن بالله، والكافر لا يجرؤ عليها أبدا بقدرة الله وقهره. لذلك فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لفظان يختص بهما الله وحده بالقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وسبحانه القائل:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(٦٥)﴾ [مريم]

إذن: فالله سبحانه وتعالى - بالقدرة والقهر - حجز ألسنة البشر جميعاً أن يقول أحدهم لأحد: «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «الله».

والله عز وجل يقول هنا: ﴿لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشركُونَ﴾، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية؛ لأن منهج السماء لا يأتى إلا إذا عَمَّ الفساد والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان الخليفة فى الأرض أن يكون صالحاً ومصلحاً، وأقلُّ درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده، فإن استطعت أن ترتقى به فهذا هو الأفضل. فإن كانت هناك بئر يشرب منها الناس، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولاتردمها، والأصلح من ذلك أن تحمى

جدرانها بالطوب حتى لاتنهار الأتربة وتسُدَّها، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا، ومن هذا الخزان تمتد المواسير ليصل الماء إلى الناس فى منازلهم بدون تعب، هذا إصلاح لأنك بذلك إنما تأخذ بأسباب الحق القائل عن تميز الفكر؛ عند ذى القرنين:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

[الكهف]

أى : أن الله سبحانه وتعالى أعطى لذى القرنين الأسباب، وهو زَادَ باجتهاده أسباباً أخرى؛ إذن : فالحق سبحانه يريد من الإنسان أن يُصْلح فى الأرض حتى يسعد المجتمع بأى إصلاح فى الأرض ويستفيد منه الكل، ولذلك يعطى الحق سبحانه وتعالى اختيارات فى أشياء ولا يعطيها فى أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر، فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وكل هذا له نظام دقيق، فلا الشمس ولا القمر ولاالنجوم، ولا غيرها من الكون الأعلى يخضع لاختيار الإنسان، وإلا لفسد الكون. وكل شىء مقهور سليم بالفطرة ولا يحدث فساد إلا فى الشىء الذى فيه اختيار للإنسان؛ لأن الاختيار قد يتبع الشهوة وهوى النفس، حتى المخلوقات المقهورة كالحيوانات التى سخرها الله للإنسان لايأتى منها الشر. بل إن مُخلَّفاتها تُستخدم فى زيادة خصوبة الأرض. ولكن الأشياء التى صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوثت الجو؛ لأن الأولى مخلوقة بهندسة إلهية، والثانية بهندسة بشرية علم صانعها أشياء وغابت عنه أشياء.

وقد يعتقد الناس أن هناك بعضاً من الاكتشافات قد حلَّتْ مشكلات الكون، ثم بعد ذلك وعندما تمر السنوات يعرفون أنها جاءت بالشقاء للبشرية، ولعل تلوث البيئة الذى بدأ يؤثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك ، حتى

إن الإنسان الذى قطع الأشجار وأزال الغابات التى خلقها الله فى هذا الكون لتكون مصدراً للهواء النقى وأنشأ بدلاً منها مصانع ومُدناً؛ بدأ الآن يحاول أن يعيد زراعة هذه الأشجار بعد أن علم أن تدخله فى الكون قد أفسد جَوّه وماءه وأفسد على جميع الكائنات حياتهم، ولو أن الإنسان المختار عاش فى الدنيا وفقاً لمنهج الله تعالى لاستقام أمر الدنيا ، كما استقام الكون الأعلى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]

إذن : فالميزان للعلويات لا يختل أبداً، فإذا عرفتم ذلك فنَفِّذوا أمر الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٨]

فإذا سرتم على ضوء منهج الله تعالى، تستقيم أموركم الدنيا كما استقامت أموركم العليا، وها هو ذا الكون أمامكم يسير منضبطاً، وهذا شأن الشىء الذى فيه اختيار للإنسان؛ إنْ لم يسرْ على منهج الله عز وجل تجدوه غير مستقيم . وعلى هذا إذا رأيت عورة فى الكون من أى لون، فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطِّل .

ولذلك نجد ـ أيضاً ـ أن المفسدين ساعة يرون أن مصلحاً قد جاء ليضرب على أيدى المفسدين، تجدهم يحاولون إفساده وجذبه إليهم ليعيش فسادهم، وإذا لم يتحقق لهم ذلك فهم يقفون أمام هذا المصلح لأنهم إنما يعيشون بالفساد وعلى الفساد، ويصنعون لأنفسهم السيادة والجبروت ويستعبدون غيرهم، وحين يرى المفسدون رجلاً يُريد أن يعدل ميزان الكون فهم يحاربونه .

وأنت حين تشترى سلعة، فالبائع يزنُ لك بمقدار ما تدفع من ثمن، ويحتاج

البائع إلى ميزان منضبط ليزنَ لك به ما تشتريه، فإن كان بائعاً مخادعاً، فهو يعبث بالميزان ليبيع لك الأقل بالثمن الأكبر، وليبخسك حقك. ومثل هذا البائع مثل المفسدين الذين يرهقهم أن يأتي مصلح يعيد ميزان الكون لما أمر الله عز وجل من إقامة العدل وإصلاح المعوج.

ومن قبل قلنا : إنَّ الحق ضرب المثل فجعل له سبحانه نورين. . النور الأول حسي وهو في الماديات، والنور الثاني معنوي وهو في القيم، وكما أن النور الحسي يهدي الإنسان إلى طريقه دون أن يصطدم بأي شيء ؛ لأن الإنسان إن اصطدم بشيء أقل منه، فإنه يحطمه، وإذا كان الشيء أكبر من الإنسان فهو يحطم الإنسان، وهكذا يلعب النور دوراً في الحسيات، وكذلك جعل الله للمعنويات نوراً، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور : ٣٥]

والمفسد يكره أن يوجد مثل هذا النور، بل يريد أن يطفئه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

لكن هل يستطيعون أن يطفئوا نور الله؟ لا ؛ لأن الإنسان في الأمر الحسّي لايستطيع أن يطفئ النور؛ لأن هناك فَرقاً بين مصدر النور وبين أداة التنوير، فالإنسان يمكنه أن يحطم الدائرة الزجاجية التي تحمل النور، لكن لا أحد بإمكانه أن يطفئ «المُنوِّر» والمنوِّرُ الأعلى هو الله ، ولا أحد يستطيع إطفاءه. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يطفئُوا نُورَ الله بأفواههمْ وَيَأْبَى اللهُ﴾ أي: لا يريد الله شيئاً ﴿إلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، وسبحانه قدَ أرسل الرُّسُل حاملة لمنهج النور ولم يرسل الرسل

ليتصر عليهم الكفر، ولذلك يقول لنا : ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أى لا يريد ﴿إلاَّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ .

ويتابع الحق جل وعلا قوله :

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

والرسول ﷺ إنما جاء بالقيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق . فكلمة «دين» أخذَتْ واستعملت أيضاً فى الباطل ، ألم يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول لكفار ومشركى مكة :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]

فهل كان لهم دين؟ نعم كان لهم ما يدينون به مما ابتكروه واخترعوه من المعتقدات ؛ لكن ﴿دين الحقِّ﴾ هو الذى جاء من السماء .

﴿هُوَ الذى أرسلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودين الحقِّ ليُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه﴾ ولنلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جاء بهذا القول ليؤكد أن الإسلام قد جاء ليظهر فوق أى ديانة فاسدة، ونحن نعلم أن هناك ديانات متعددة جاءت من الباطل، فسبحانه القائل :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

ونتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿عَلَى الدِّين كُلِّه﴾، فلو أن الفساد كان فى الكون من لون واحد، كان يقال ليظهره على الدين الموجود الفاسد، ولكنَّ هناك أدياناً متعددة؛ منها البوذية وعقائد المشركين، وديانات أهل الكتاب والمجوس الذين يعبدون النار أو بعض أنواع من الحيوانات،

وكذلك الصابئة [1]. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يظهر دينه ؛ الذى هو دين الحق على دين واحد ؛ من أديان الباطل الموجودة ، ولكن يريد سبحانه أن يظهره على هذه الأديان كلها، وأن يعليه حتى يكون دين الله واقفاً فوق ظَهْر هذه الأديان كلها، والشيء إذا جاء على الظَّهْر أصبح عالياً ظاهراً. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف: ٩٧]

أى: أن يأتوا فوق ظهره. وكل الأديان هى فى موقع أدنى بكثير من الدين الإسلامى. بعض الناس يتساءل: إذن كيف يكون هناك كفار ومجوس وبوذيون وصابئون وأصحاب أديان أخرى كاليهودية والنصرانية ، فما زالت دياناتهم موجودة فى الكون وأتباعها كثيرون ، نقول: لنفهم معنى كلمة الإعلاء، إن الإعلاء هو إعلاء براهين وسلامة تعاليم، بمعنى أن العالم المخالف للإسلام سيصدم بقضايا كونية واجتماعية ، فلا يجد لها مخرجاً إلا باتباع ما أمر به الإسلام ويأخذون تقنيناتهم من الإسلام، وهم فى هذه الحالة لا يأخذون تعاليم الإسلام كدين، ولكنهم يأخذونها كضرورة اجتماعية لا تصلح الحياة بدونها. وأنت كمسلم حين تهعصب لتعاليم دينك، فليس فى هذا شهادة لك أنك آمنت، بل دفعك وجدانك وعمق بصيرتك لأنْ تؤمن بالدين الحق ، ولكن الشهادة القوية تأتى حين يضطر الخصم الذى يكره الإسلام ويعانده إلى أن يأخذ قضية من قضايا الإسلام ليحل بها مشكلاته، هنا تكون الشهادة القوية التى تأتى من خصم دينك أو عدوك. ومعنى هذا أنه لم يجد فى أى فكر آخر فى الكون حلاً لهذه القضية فأخذها من الإسلام.

فإذا قلنا مثلاً: إن إيطاليا التى فيها الفاتيكان الذى يسيطر على العقائد

(١) الصابئة: قوم تركَّب دينهم بين اليهودية والمجوسية. وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. انظر: تفسير القرطبى (١/ ٤٧١) والملل والنحل للشهرستانى (٢/ ٦٢) ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار (ص ٢١٣ وما بعدها).

المسيحية فى العالم الغربى كله، وكانت الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان تحارب الطلاق وتهاجم الإسلام لأنه يبيح الطلاق، ثم اضطرتهم المشكلات الهائلة التى واجهت المجتمع الإيطالى وغيره من المجتمعات الأوروبية إلى أن يبيحوا الطلاق؛ لأنهم لم يجدوا حلاً للمشكلات الاجتماعية الجسيمة إلا بذلك.

ولكن هل أباحوه لأن الإسلام أباحه ،أم أباحوه لأن مشاكلهم الاجتماعية لا تُحلُّ إلا بإباحة الطلاق؟ وساعة يأخذون حلاً لقضية لهم من ديننا ويطبقون الحل كتشريع، فهذه شهادة قوية، يتأكد لهم بها صحة دين الله ويتأكد بها قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ليظهرَهُ علَى الدِّين كُلِّه ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾، وبالله لو كان الإظهار غلبة عقدية، بمعنى ألاَّ يوجد على الأرض أديان أخرى، بل يوجد دين واحد هو الإسلام لما قال الحق هنا : ﴿ولَوْ كَرِهَ الكَافرونَ﴾ ولما قال فى موضع آخر من القرآن : ﴿ولَوْ كَرِهَ المشْرِكُونَ﴾ وهذَا يعنىَ أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل من المعارضين لَلإسلام من يظهر الإسلام على غيره من الأديان لا ظهور اقتناع وإيمان، لا ، بل يظلون على دينهم ولكن ظروفهم تضطرهم إلى أن يأخذوا حلولاً لقضاياهم الصعبة من الإسلام. ومثال آخر من قضية أخرى، هى قضية الرضاعة، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾

[البقرة: ٢٣٣]

وقامت فى أوروبا وأمريكا حملات كثيرة ضد الرضاعة الطبيعية، وطالبوا الناس باستخدام اللبن المجفف والمصنوع كيميائياً بدلاً من لبن الأم، وكان ذلك فى نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل، ثم بعد ذلك ظهرت أضرار هائلة على صحة الطفل ونفسيته من عدم رضاعته من أمه. واضطر العالم كله إلى أن يعود إلى الرضاعة الطبيعية وبحماسة بالغة. هل فعلوا ذلك تصديقاً للقرآن

الكريم أم لأنهم وجدوا أنه لا حَلَّ لمشكلاتهم إلا بالرجوع إلى الرضاعة الطبيعية؟

وكذلك الخمر نجد الآن حرباً شعواء ضد الخمر فى الدول التى أباحتها من قبل وتوسعت فيها، ولكن شنُّوا عليها هذه الحرب بعد أن اكتشف العلم أضرارها على الكبد والمخ والسلوك الإنسانى، هذا هو معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّه﴾ أى: يجعله غالباً بالبرهان والحجة والحق والدليل علىَ كل ما عداه. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه ولوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ فقد ظهر هذا الدين وغلب فى مواجهة قضايا عديدة ظهرت فى مجتمعات المشركين والكافرين الذين يكرهون هذا الدين ويحاربونه، وهو ظهور غير إيمانى ولكنه ظهور إقرارى، أى رغماً عنهم.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الأحبار والرهبان لايؤمنون بالله الإيمان الصحيح، ولا باليوم الآخر بالشكل السليم، ويحلون ماحرم الله، ويحرمون ماأحل الله، ويتخذهم أتباعهم أرباباً من دون الله. هنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

وبعد أن شرح سبحانه لنا ما يدور فى ذواتهم ، وانحرافهم عن منهج الله تعالى ، والغرق فى حب الدنيا وحب الشهوات، وهم قد اشتروا بآيات الله

ثمناً قليلاً، وحرَّفوا تعاليم السماء حتى يأكلوا أموال الناس بالباطل، ولكن هل الأموال تؤكل؟ طبعاً لا، بل نشترى بالمال الطعام الذى نأكله، فلماذا استخدم الحق سبحانه عبارة ﴿لَيأكُلونَ أَمْوالَ النَّاس﴾؟ أراد الحق سبحانه وتعالى بذلك أن يلفتنا إلى أنهم لا يأخذون المال على قدر حاجتهم من الطعام والشراب، ولكنهم يأخذون أكثر من حاجتهم ليكنزوه [1].

ولذلك يأتى قوله تعالى فى ذات الآية أنهم ﴿يَصدُّونَ عَنْ سبيل الله والذينَ يكنزُونَ الذهبَ والفضَّةَ ولاَ ينفقُونَهَا فى سَبيل الله فَبشِّرْهُمْ بعذاب أَليم﴾. هم إذن أكلوا أموال الناس بالباطل، مصداقاً لقول الحق سبحانه ﴿لَيأكُلونَ أَمْوالَ النَّاس بالبَاطل﴾ ومعنى ذلك أنَّ هناك أكْلاً من أموال الناس بالحق فى عمليات تبادل المنافع، فالتاجر يأخذ مالك ليعطيك بضاعة؛ ويذهب التاجر ليشترى بها بضاعة وهكذا، وقانون الاحتياط هنا فى أن يكون هناك رهبان وأحبار محافظون على تعاليم الدين، ولا يأكلون أموال الناس بالباطل، وهذا ظاهر فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ كثيراً منَ الأحْبَار والرُّهْبان ليأكُلُونَ أَمْوالَ النَّاس بالبَاطل﴾ ولم يقل جل جلاله: كل الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، بل قال ﴿إنَّ كثيراً منَ الأحْبَار والرُّهْبان﴾؛ لأنه قد يوجد عدد محدود من الأحبار والرهبان ملتزمون، والله لايظْلم أحداً؛ لذلك جاء بالاحتمال. فلو أن الله سبحانه وتعالى عمَّم ووُجد منهم من هو ملتزم بالدين. فمعنى ذلك أن يكون القرآن الكريم لم يُغطِّ كل الاحتمالات، ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه يصون الاحتمالات كلها.

إذن: فاستيلاء بعض من هؤلاء الأحبار والرهبان على أموال الناس لا يكون بالحق، أى لا يحصلون فقط على ما يكفيهم، بل بالباطل أى بأكثر مما

---

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية (٤/ ٣٠٤٩): «كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى. وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذى ذكره سلمان الفارسى عن الراهب الذى استخرج كنزه» والتزلُّف هو: التقرب.

يحتاجون. وهم يأخذون المال ليصدوا به عن سبيل الله، وهم فى سبيل الحصول على الأموال الدنيوية؛ يُغيِّرون منهج الله بما يتفق مع شهوتهم للمال، وما يحقق لهم كثرة الأموال التى يحصلون عليها، ولهذا تأتى العقوبة فى ذات الآية فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿والَّذينَ يَكنزُونَ الذَّهبَ والفضَّةَ ولاَ يُنفقُونَهَا فى سَبيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بعَذابٍ أليمٍ﴾ والكنز مأخوذ من الامتلاء والتجمع، ولذلك يقال : «الشاة مكتنزة»، أى مليئة باللحم وتجمَّعَ فيها لحمٌ كثير.

إذن : فيكنزون أى يجمعون، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يكْنزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ﴾؛ وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوى، فقد بدأ التعامل الاقتصادى بالتبادل، أى سلعة مقابل سلعة، وهى ما يسمى عمليات المقايضة، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادى اخترعت العملة التى صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول. والعملة من بدايتها حتى الآن ترتكز على الذهب والفضة. وحتى عندما وجدت العملة الورقية، كان لا بد أن يكون لها غطاء من الذهب لكى تصبح لها قيمة اقتصادية ؛ لأنَّ العملة الورقية لا يكون لها قيمة إلا بما يغطيها من الذهب والفضة.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن الذهب والفضة وهما معدنان، يجعلهما الأساس فى النقد والتجارة، ولقد وجدت معادن أخرى أغلى من الذهب وأغلى من الفضة كالماس مثلاً. لكن لايزال الأساس النقدى فى العالم هو الذهب والفضة. وعلى مقدار رصيد الذهب الذى يغطى العملة الورقية ترتفع قيمة عملة أى بلد أو تنخفض.. فمثلاً فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى كان النقد المتداول ثمانية ملايين جنيه، ورصيدنا من الذهب عشرة ملايين جنيه فيكون الفائض من الذهب مليونى جنيه، وبذلك كانت قيمة الجنيه المصرى تساوى جنيهاً من الذهب مضافاً إليه قرشان ونصف القرش. والذى يهبط بالنقد إلى الحضيض أن يكون رصيد

الذهب قليلاً وكمية النقد المتداولة كثيرة، وهكذا يبقى الذهب هو الحجة والأساس فى الاقتصاد العالمى.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة أراد أن يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل فى تسيير حركة العالم الاقتصادية، وأن هذا التعامل يقتضى الحركة الدائمة للمال؛ لأن وظيفة المال هى الانتفاع به فى عمارة الأرض، ولو أنك لم تحرك مالك وكنت مؤمناً، فإنه ينقص كل عام بنسبة ٢,٥٪ وهى قيمة الزكاة. ولذلك يفنى هذا المال فى أربعين سنة. فإن أراد المؤمن أن يُبْقى على ماله؛ فيجب أن يديره فى حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة؛ وهى نسبة قليلة تُدفَعُ من المال. ولكن إذا أدار صاحب المال مايملكه فى حركة الحياة، فسينتفع به الناس وإن لم يقصد أن ينفعهم به؛ لأن الذى يستثمر أمواله مثلاً فى بناء عمارة ليس فى باله إلا ما سيحققه من ربح لذاته، ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم؛ فمن وضع الأساس يأخذ أجراً، ومن جاء بالطوب يأخذ قدر ثمنه، ومن أحضر أسمنتاً أخذ، ومن جاء بالحديد أخذ، والمعامل التى صنعت مواد البناء أخذت، وأخذ العمال أجورهم؛ فى مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها، والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا، إذن: فقد انتفع عدد كبير فى المجتمع من صاحب العمارة، وإن لم يقصد هو أن ينفعهم. ولذلك فإن الذى يبنى عمارة يقدم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عدد من الناس، وكذلك كل من يقيم مشروعاً استثمارياً.

إذن: سبحانه وتعالى لايريد من المال أن يكون راكداً، ولكنه يريده متحركاً ولو كان فى أيدى الكافرين؛ لأنه إذا تحرك أفاد الناس جميعاً فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع، وتشغيل للأيدى العاملة إلى غير ذلك، ولكن إن كنز كل واحد منا ماله فلم يستثمره فى حركة الحياة، فالسلع لن تستهلك، والمصانع ستتوقف، ويتعطل الناس عن العمل.

وكما يحث الإسلام على استثمار المال، يطالبنا أيضاً بألا يذهب المال إلى الناس بغير عمل؛ حتى لا يعتادوا على الكسب مع الكسل وعدم العمل. ولذلك قيل: إذا كثر المال ولم تكن هناك حاجة إلى مشروعات جديدة، فلا تترك الناس عاطلين؛ بل عليك أن تأمرهم ولو بحفر بئر ثم تأمرهم بطمّها أى ردمها، فى هذه الحالة سيأخذ العمال أجر الحفر والردم، فلا تنتشر البطالة ويتعود الناس أن يأكلوا بدون عمل؛ لأن هذا أقصر طريق لفساد المجتمع.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد للمال أن يتحرك ولا يكنز؛ ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَالذينَ يَكْنِزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ ولاَ يُنفقُونهَا فى سَبِيلِ الله فبشِّرهُمْ بعذابٍ أليم﴾ لأنهم بكنزهم المال إنمَا يُوقفُونَ حركة الحياة التى أرادهَا الله تعالى لكَونه. وأنت ترى العالم الآن يعيش فى غائلة البطالة؛ لأن المال لايتحرك لعمارة الكون، بل هناك من يكتنزون فقط.

ولقائل أن يقول: ولكن الناس الآن يتعاملون بالنقد الورقى، بينما ذكر الله سبحانه وتعالى الذهب والفضة؛ نقول: إن العملة الورقية ليست نقداً بذاتها، ولكنها استخدمت لتعفى الناس من حمل كميات كبيرة وثقيلة من الذهب والفضة، قد لا يقدرون على حملها، إذن فهى عملية للتسهيل، وهى منسوبة إلى قيمتها ذهباً، إذن: فالذين يكنزون العملة الورقية ولاينفقونها فيما يعمر بها الكون وتتم عمارته تنطبق عليهم الآية الكريمة [1].

ولكن الكنز فى هذه الآية لا يأتى فقط بمعنى الجمع؛ ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لايؤدون حق الله فيها. ولذلك فإن المال الذى أخرجتَ زكاته لا يُعدُّ كنزاً، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر؛ أما المال المكنوز فهو المال الذى لا تُؤدَّى زكاته.

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٤٩): «الكنز أصله فى اللغة الضم والجمع، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة. ألا ترى قوله ﷺ: «ألا أخبركم بخير مايكنز المرء: المرأة الصالحة» أى يضمه لنفسه ويجمعه. وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لايطلع عليه بخلاف سائر الأموال. قال الطبرى: الكنز كل شىء مجموع بعضه إلى بعض، فى بطن الأرض كان أو على ظهرها». والحديث الذى ذكره القرطبى هنا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٦٤) والحاكم فى مستدركه (١/ ٤٠٩) (٢/ ٣٣٣) وصححه وأقره الذهبى فى الموضع الأول.

والذى يملك مالاً مهما كانت قيمته ويؤدى حق الله فيه لا يعتبر كانزاً للمال. بل الكنز فى هذه الحالة ما لم يؤد فيه حق الله (١).

وإذا عُدْنا إلى نص الآية الكريمة: ﴿والذينَ يكْنزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ ولاَ يُنفقُونها﴾ نتساءل: لماذا لم يقل الله: ولاَ ينفقونهما مع أنهما معدنان؟ ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى استخدم أسلوب الجمع؛ لأن الذهب يطلق إطلاقات كثيرة، فهناك من يملك ألف دينار من الذهب، وغيره يملك مائة دينار من الذهب، وثالث ليس لديه إلاَّ دينار ذهبيّ واحد وكذلك الفضة، وما دام الجمع هنا موجوداً فلا بد أن تستخدم ﴿يُنفقُونها﴾.

ولم تقل الآية الكريمة: والذى يكنز. ولكنها قالت: ﴿والذينَ يكْنزون﴾، إذن: فالمخاطبون متعددون، فهذا عنده ذهب، وهذا عنده ذهب، وثالث عنده فضة، إذن فلا بد من استخدام صيغة الجمع. ويلفتنا القرآن الكريم إلى هذه القضية فى قوله تعالى:

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ [الحجرات: ٩]

ولم يقل «اقتتلا» لأن الطائفة اسم لجماعة مكونة من أفراد كثيرين، فإذا جاء القتال لاتقوم طائفة وتمسك سيفاً وتقاتل الثانية، وإنما كل فرد من الطائفة الأولى يقاتل كل فرد من الطائفة الثانية، إذن فهما طائفتان ساعة السلام، ولكن ساعة الحرب يتقاتل كل أفراد الطائفة الأولى مع كل أفراد الطائفة الثانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿اقْتَتَلوا﴾، ولم يقل «اقتتلا». أما فى حالة الصلح فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩]

واستخدم هنا «المثنى» لأننا ساعة نصلح بين طائفتين، لا نأتى بكل فرد من الطائفة الأولى ونصلحه على كل فرد من الطائفة الثانية، ولكن نأتى بزعيم

(١) قال ابن عمر: ماأُدِّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مالم تؤدَّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض. ذكره القرطبى فى تفسيره. وقال: «ومثله عن جابر، وهو الصحيح».

الطائفة الأولى ونصالحه على زعيم الطائفة الثانية فيتم الصلح. ولذلك هنا تجب التثنية.

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَالذينَ يَكْنِزونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ﴾ لم يقل ولاينفقونهما، ولكن قال سبحانه وتعالى: ﴿ولاَ يُنْفِقُونَها في سَبيل الله﴾ والإنفاق في سبيل الله يشمل مجالات متعددة، ففي سبيل الله تحدث حركة في المجتمع يستفيد منها الناس، فحين تُخْرِجُ الزكاة يستفيد منها الناس، وحين تُجهَّزُ بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس، ونظرية عدم كنز المال ربما ظهرت حديثاً في الاقتصاد العالمي ولكنها موجودة منذ نزول القرآن الكريم.

فأنت إن أنفقت ولم تكنز حدث رواج في السوق. والرواج معناه إيجاد العمل ووسائل الرزق. وإيجاد الحافز الذي يؤدي إلى ارتقاء البشرية، وأنت حين تشتري لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيت بيتاً صغيراً فإنك تُوجدُ رواجاً اقتصادياً في المجتمع. وفي نفس الوقت ارتقيت بوسائل استخداماتك. والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذي يفيد البشرية، ولكن إذا كنزت كل مالك ساد الكساد الاقتصادي.

وليس معنى ذلك أن ينفق صاحب المال كل ماله وزيادة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد الوسط في كل الأشياء. ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾

[الفرقان]

والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق، وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أي أزمة مفاجئة. لكنك إن قترت حدث كساد في السوق وتوقف الإنتاج وتعطل العمال، والإسلام يريد نفقة معتدلة توجد الرواج السلعي، وادخاراً تستخدمه في الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات.

والإنفاق أنواع : إنفاق فى المساوى لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك، وإنفاق فى غير المساوى بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم، والزكاة تنقى المجتمع من مفاسد كثيرة [1] ؛ فهى تمنع الحقد بين الناس ؛ لأن الفقير إذا وجد من يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء فلا يسخط الفقير على الغنى، والغنى والفقير متساويان فى الانتفاع ؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يحس بالعطاء حوله، والغنى حين يعطى يحس أن هذا أمان له ؛ لأنه إن ذهبت عنه النعمة فسوف يجد من يعطيه.

وهكذا يحدث توازن فى المجتمع بين الناس، فلا يوجد من لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة، ولا يوجد من لديه فائض يحبسه عن الناس[2] . ولهذا يدعونا الإيمان إلى العمل بما يزيد عن قدر الحاجة، ليكون هناك فائض للزكاة والصدقة. والإنسان إذا عمل فإنه لايفيد نفسه فقط بل يفيد المجتمع أيضاً. فسائق «التاكسى» مثلاً إذا كسب مائة جنيه فى اليوم قد يظن أنه نفع نفسه فقط، ولكنه فى الحقيقة نفع المجتمع كله بأن يسَّر على العباد مصالحهم، فنقل هذا إلى عمله؛ ونقل ذلك إلى المستشفى، ونقل غيرهما إلى السوق ليشترى ما يحتاج إليه، ونقل رابعاً ليزور قريباً أو ليحقق مصلحة وهكذا.

إذن : فالذى يعمل يكون عمله خيراً لنفسه وخيراً للمجتمع، وإن عمل كل الناس على قدر حاجاتهم فقط، فمن أين يعيش غير القادر على العمل؟ من أين يعيش المستحق للزكاة والصدقة؟ إنه لايعيش إلا بفائض القادر على

---

(١) ولذلك يقول عز وجل فى هذه السورة ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٠٣)

(٢) وقد أرشد الرسول ﷺ المسلمين إلى هذا ، فقال فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى : «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» قال أبو سعيد: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حَقّ لأحد منا فى فضل. أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٢٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٤) وأبو داود فى سننه (١٦٦٣).

العمل، ولذلك لابد للإنسان المسلم أن يعمل على قدر طاقته، وليس على قدر حاجته. والعمل على قدر الحاجة يجعله يوفى بحاجات من يعولهم، ولايضطرهم إلى أن يمدوا أيديهم للآخرين؛ أى أنه يقيهم شر الحاجة. أما العمل على قدر الطاقة فيجعله يأخذ حاجته، ويعطى لغير القادر ما يقيم حياته، وبذلك يقدم الخير لنفسه ومن يعولهم وللآخرين.

إن المجتمع الذى يجد فيه غير القادر حاجته، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر. ونحن نعلم أننا نعيش فى دنيا أغيار، ولا يوجد من يدوم غناه أو من يدوم فقره؛ لأن دوام الحال من المحال، إن عاش الغنى فى مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير، إن أصبح فقيراً فسوف يجد مقومات حياته، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء، فيبادر ليعين الفقراء كنوع من رَدِّ الجميل. وبذلك يعيش المجتمع كله حياة آمنة، كما أن الحياة فى مثل هذا المجتمع إنما تهيىء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم، ذلك أن الأعمار بيد الله، وعندما يحس الإنسان بأنه إن مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفل المجتمع بهم، عندئذ يحس بالأمان فى حياته، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حق اليتيم، فالأب يعيش غير مطمئن على أولاده الصغار، ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم [1]؛ ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَونهُ، فَيُحسُّ الأب بالأمان وتُحس الأم بالأمان ويحس الصغار بالأمان، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

(١) كفالة اليتيم من الأمور التى حثَّ عليها الإسلام، وورد ذكر اليتيم واليتامى فى القرآن (٢٣ مرة)، وذلك من نحو قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ الآية (النساء: ٣٦).

وانظر إلى القرآن وهو يوصى كافلى اليتامى بالتعامل بحس إيمانى نابع من قلوبهم وضمائرهم مع أموال هؤلاء اليتامى فيقول عز وجل ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦).

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

وتقوى الله تكون ضماناً في أن يكفل المجتمع اليتيم؛ فيدخل الأمن في قلب كل أب يخشى أن يموت وأولاده صغار.

إذن : فساعة يكفل المجتمع اليتيم فالطفل لن يسخط على القدر الذى حرمه من أبيه لأنه وجد آباء يرعونه، وهناك قصة يرويها عدد من إخواننا العلماء، فقد مات زميل من زملائهم وأولاده صغار، وكانت الأم تبكى على أطفالها لأنهم تيتموا، ثم مرت السنوات وكبر الأطفال فصار هذا مهندساً وصار ذلك طبيباً ، والثالث أصبح محامياً ، بينما من لا يزال آباؤهم على قيد الحياة كانوا متعثرين في دراستهم ، فقال أحدهم للآخر: ليتنا نموت حتى يفتح الله باب الرزق على أولادنا.

إذن : فهناك آباء محابس رزق ، إذا ذهبوا فاض الله بالرزق على أولادهم، وهذه صورة نراها في الكون ؛ فنعرف أن المسألة في يد الله سبحانه وتعالى القائل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات]

إذن : فالاقتصاد الإسلامى مبنى على وجود حركة في الكون ، ولابد أن تكون هذه الحركة على قدر طاقة المتحركين ، وليس على قدر حاجاتهم ؛ حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر .

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى لمحة إيمانية، حينما نرى الفقير غير القادر وهو يتلقى العطاء من أى إنسان غنى يتعب في عمله، وكأن من هم أغنى منه يعملون ليعطوه ، وسبحانه وتعالى حين سلب القوة من هذا الرجل فقد عوّضه بأن أعطاه ثمرة من جهد وناتج عمل غيره فلا يسخط على اختبار الله تعالى له بالابتلاء .

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وساعة تسمع كلمة ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ تعرف أن البشارة عادة تكون فى خبر سار، وإن جاءت فى خبر محزن تكون تهكمًا ، فالإنسان الذى هو عزيز قومه ويجعل الناس له اعتباراً ، إن ظلم وطغى وخاف الناس أن يردوه ؛ لأنه لا يخشى الله فيهم، هذا الظالم يُؤتَى به يوم القيامة ويُعذَّب أشد العذاب ، ويقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وبطبيعة الموقف فى النار هو مهان بعذاب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزاً كريماً، ولكن قول ملائكة النار : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾، هو تهكم شديد، وهو فى ذلك كقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف ٢٩]

وهم ساعةَ يسمعون كلمة ﴿يُغَاثُوا﴾ يفرحون؛ لأن عطشهم شديد وهم قد استغاثوا فقيل لهم إنهم سيغاثون ، وهذا خبر سار بالنسبة لهم، ولكن الإغاثة تأتيهم بماء يشوى وجوههم ، فهل هذه إغاثة ؟ إنه تهكم عليهم وزيادة فى عذابهم ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعذاب أليم﴾ ويصف لنا الحق هذا العذاب الأليم الذى سيتعرضون له، ويُبيِّن لنا خبرَ المغيَّب عنَّا فى الآخرة بصورة مُحَسَّة لنا فيقول :

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ٣٥ ﴾

نحن نعلم أن النار لا تُحمى إلا للمعادن ، فإن كان ما كنزوه أوراقَ نقد فكيف يُحمَى عليها ؟ وإن كان ما كنزوه معادن فهى صالحة لأنْ تُكْوَى بها أجسادهم، أما الورق فكيف يتم ذلك ؟ ونقول: إن القادر سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل من غير المُحْمَى عليه مُحمىً ، أو يحولها إلى ذهب وفضة؛ وتكوى بها نَواحٍ متعددة من أجسادهم ، والكية هى أن تأتى بمعدن ساخن وتلصقه بالجلد فيحرقه ويترك أثراً.

وحين مات أحد الصحابة فى عهد الرسول ﷺ وبحثوا فى ثيابه فوجدوا فيها ديناراً ، قال الرسول ﷺ: « هذه كَيَّة من النار » ؛ لأن صاحبه كان حريصًا على أن يكنزه ، كما وجدوا مع صحابى آخر دينارين كنزهما ، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان كَيَّتان» [1].

كان هذا قبل أن تشرع الزكاة ، أما إذا كان صاحب المال قد أدى حق الله فيه فلا يُعَدُّ كنزاً ، وإلا لو قلنا: إنَّ الإنسان إذا أبقى بعضاً من المال لأولاده حتى ولو أدى زكاته فإن ذلك يعتبر كنزاً ، لو قلنا ذلك لكنا قد أخرجنا آيات الميراث فى القرآن الكريم عن معناها ؛ لأن آيات الميراث جاءت لتورث ما عند المتوفى. والمال المورَّث المفترض فيه أنه قد أتى عن طريق حلال وأدى فيه صاحبه حق الله، لذلك لا يعتبر كنزاً.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ، لماذا خَصَّ الله هذه الأماكن بالعذاب؟ لأن كل جارحة من هذه

(١) عن أبى أمامة قال: توفى رجل من أهل الصُّفَّة فوجد فى مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: كية. ثم قال: توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: كيتان. أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٥٢، ٢٥٣) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٠): رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب . وقد وثق. وهذا الحديث ونحوه رواه أحمد عن عدة من الصحابة.

وقد يقول قائل: وما دينار أو ديناران حتى يكوى بهما بالنار؟ والجواب: إن هذا رجل من أهل الصُّفَّة أى من الفقراء المعدمين الملازمين لمسجد رسول الله ﷺ ويأكل من صدقات المسلمين، بينما هو يكتنز الذهب ولو ديناراً فى طيات ثيابه فكأنه أخذ حق غيره وحرم مجتمع المسلمين مما يكتنزه ومن جهده فى العمل، فلو بهذا الدينار أتى بقدوم واحتطب كما فعل رسول الله ﷺ مع غيره لكان أنفع لنفسه ولأهله ولغيرهم ؛ ولهذا استحق الوعيد.

الجوارح لها مدخل فى عدم إنفاق المال فى سبيل الله. كيف؟ مثلاً: تجدون الوجه هو أداة المواجهة ، وإذا رأيت إنساناً فقيراً متجهاً إليك ليطلب صدقة، وأنت تعرف أنه فقير وقد جاءك لحاجته الشديدة ، فإن كان أول ما تفعله حتى لا تؤدى حق الله أن تشيح بوجهك عنه، أو تعبس ويظهر على وجهك الغضب، فإن هذا الفقير يحس بالمهانة والذلة ؛ لأن الغنى قد تركه وابتعد عنه، فإذا لم تنفع إشاحة الوجه واستمر الفقير فى تقدمه من الغنى ، فإنه يعرض عنه بأن يدير له جنبه ليحس بعدم الرضا ، فإذا استمر الفقير واقفاً بجانبه فإنه يعطى له ظهره.

إذن : فالجوارح الثلاث قد تشترك فى منع الإنفاق فى سبيل الله، وهى الوجه الذى أداره بعيداً، ثم أعطاه جانبه، ثم أعطاه ظهره. هذه هى الجوارح الثلاث التى تشترك فى منع حق الله عن الفقير ، ولذلك لابد أن تُعذَّب فَتُكْوى الجباه والجنوب والظهور.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾، أى: هذا ما منعتم فيه حق الله، فإن كنز الإنسان مالاً كثيراً فسيكون عذابه أشد ممن كنز مالاً قليلاً ؛ لأن الكَيَّ سيكون بمساحة كبيرة ، أما إن كان الكنز صغيراً فتكون الكية صغيرة. ولهذا لا يجب أن يغتر المكتنز بكمية ما كنز؛ لأن حسابه سوف يكون على قدر ما كنز .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تكنزونَ﴾ أى: أن عذابكم فى الآخرة سيكون بسبب كنزكم المال، فالمال الذى تفرحون بكنزه فى الدنيا كان يجب أن يكون سبباً فى حزنكم؛ لأنكم تكنزون عذاباً لأنفسكم يوم القيامة، ومهما أعطاكم كنز المال من تفاخر وغرور فى الحياة الدنيا ، فسوف يقابله فى الآخرة عذابٌ ، كُلٌّ على قدر ما كنز .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

والشهر : هو دورة القمر كما هو معلوم ، ونحن نعرف أن الكون فيه شمس وقمر وفيه نجوم ، هذه هي الأشياء المرئية لنا ، وهناك كواكب أخرى بعيدة عنا تستطيع أن تأخذ مليون شمس في جوفها ، كل هذا يعطيك فكرة عن مدى اتساع الكون ، فلا تعتقد أن الشمس هذه موجودة بذاتها ، بل هي تأخذ أشياء من كواكب أعلى منها كثيرة ، ولكن ما نراه بأعيننا محدود ، وهناك ما لا يمكننا أن نراه؛ لأنه غير منظور لنا. وأنت إذا نظرت إلى مصباح كهربائي، فنور المصباح ليس ذاتياً، بل إن وراءه أجهزة كثيرة تمده بالكهرباء من أسلاك وكابلات وأكشاك، ثم محطة توليد الكهرباء التي تولد التيار الكهربائي، ثم المصانع التي أنتجت الآلات التي تعمل في محطة الكهرباء، إذن: فوراء هذا المصباح الصغير حجم هائل من العمل والأجهزة المختلفة.

ونحن نرى الشمس فيها ضياء ، والقمر فيه نور ، فما الفرق بين الضياء والنور؟

الضياء: فيه نور وفيه حرارة. والنور : فيه ضوء وليس فيه حرارة. ولذلك

يسمون ضوء القمر «الضوء الحليم» ، أى : أنك عندما تجلس فى ضوء القمر لا تحتاج إلى مظلة تحميك منه، ولكن إن جلست تحت ضوء الشمس فأنت تحتاج إلى مظلة تحميك من حرارة الشمس الشديدة.

والحق سبحانه وتعالى يسمى الشمس سراجاً وهَّاجاً ، والسراج فيه حرارة وفيه ضوء. أما القمر فسماه منيراً ؛ لأن أشعة الشمس تنعكس عليه فينير ، وهذان الكوكبان العلويان - الشمس والقمر - وضع الله فيهما موازين الزمن. والزمن له حالات كثيرة تتطلب موازين وقياسات مختلفة ، وأساس الزمن هو اليوم والليلة، وأساس اليوم هو صباح وظهر وعصر ومغرب ، وهناك الفجر الصادق والفجر الكاذب والشروق ، وهناك أوقات يتساوى فيها الشيء وظله، وأوقات يكون الظل مِثْلَيْ الشيء. والليل فيه الظلام، ويأتى بعد النهار والليل - فى مقاييس الزمن - الشهورُ ، وبعد الشهور تأتى السنوات.

إذن : فمقاييس الزمن محتاجة لآلات تقاس بها، وأنت تعرف بداية اليوم بشروق الشمس. إذن فالشمس معيار اليوم. وأنت تعرف بداية الليل بغروب الشمس. وهكذا فالشمس تعطينا بداية ونهاية الليل والنهار ، ولكنها لا تعطينا شيئاً عن الشهور ، فإذا نظرت إلى الشمس فإنك لا تعرف هل أنت فى أول الشهر أو فى منتصفه أو فى آخره. ولكنك إذا نظرت إلى القمر عرفت، ففى أول الشهر يكون القمر هلالاً ، وفى منتصفه يكون بدراً ، وفى آخره المحاق[1]. والشهور عند الله اثنا عشر شهراً.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الإنسان، ويجعله خليفة فى الأرض؛ خلق له كوناً مُعَدّاً إعداداً حكيماً لاستقباله ، فقدَّر فى الأرض الأقوات وجعل الشمس والقمر وأنزل المطر ، فكل ما يقيم حياة الإنسان كان

(١) المحاق : آخر الشهر إذا امحق الهلال فلم يُرَ. وهو أن يَسْتسرَّ القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية. قال ابن الأعرابى : سمى المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته ، فلم يره أحد. انظر لسان العرب (مادة محق).

موجوداً فى الكون قبل أن يأتى الإنسان إليه. والإنسان جعله الله خليفة فى الأرض وله حركة ، وهى الأحداث التى تقع منه أو تقع فيه أو تقع عليه، والأحداث تتطلب زماناً ومكاناً ، ولذلك خلق الله لها الزمان والمكان. إذن : فالحياة كلها تفاعل بين حركة الإنسان الخليفة وبين الزمان والمكان.

وكما أعدَّ الله سبحانه وتعالى للإنسان فى كونه مقومات حياته اليومية. . أنزل له القيم التى تحفظ له معنويات حياته ، وأراد بها الحق سبحانه وتعالى أن تتساند حركة الإنسان ولا تتعاند ، ومعنى التساند أنْ تتحد حركة الناس جميعاً فى إيجاد النافع لمزيد من الإصلاح فى الأرض، أما إن تعاندت حركات البشر ضد بعضها البعض ، فإن الفساد يظهر فى الأرض ؛ لأن كل واحد يريد أن يهدم ما فعله الآخر .

ولكى تتساند حركات الإنسان فى الكون ؛ فلا بد من مُشَرِّع واحد ـ وهو المشرع الأعلى ـ يعطى قوانين الحركة البشرية لكل الناس. وإن ابتعد الناس عن تشريعات الله تعالى ، وأخذوا يقنِّنون لأنفسهم، نجد قوانين البشر تتبع أهواءهم، وكل واحد يحاول أن يحصل على مَيْزات لنفسه، ويأخذ حقوق الآخرين؛ فتفسد الحياة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]

إن اتباع الحق لأهوائهم سيُخضعُ الكون لأهواء البشر ، هذا يريد وهذا لا يريد، والحق سبحانه يريد فى الكون حركة السلام والأمن والاطمئنان، وهذه لا تتم إلا إذا التزم كل إنسان بمنهج الله؛ حينئذ يوجد سلام دائم ومستوعب شامل، مستوعب لسلام الإنسان مع نفسه، ولسلام الإنسان مع الكون، ولسلام الإنسان مع الله، لكن الإنسان الذى خلقه الله مُخيَّراً وأنزل له المنهج بالتكليف، فى إمكانه أن يطيع هذا المنهج أو أن يعصيه. وإن عصى الإنسان المنهج فهو يفسد فى الأرض وينشر فيها الظلم والفساد.

وأراد الحق سبحانه أن يضع للسلام ضماناً ، وهو أن توجد قوة تقف أمام الفساد فى الأرض ؛ لذلك شاء الحق أن يكون للحرب وجود فى هذا الكون ؛ لتتصارع الإرادات ، فما دام للإنسان اختيار ، وما دام هناك من يعصى ومن يطيع ، فلا بد أن يحدث الصراع . أما الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها فهى لا تعكر السلام فى الكون ، فلن تقوم ثورة - مثلاً - لكى تشرق الشمس ، أو تشتعل حرب لإنزال المطر ؛ لأن هذه الأمور تسير بقوانين القهر التى أرادها الله لها ، وتعطى نفعها للجميع ، ولكن الفساد يأتى من انحراف الناس عن منهج الله ، وما دام فى الكون حراس للمنهج من البشر ، بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى يعود إلى الطريق السليم [1] ؛ فإن الحياة المطمئنة الآمنة تبقى . ولكن إن عَمَّ الفساد ، ولم يوجد فى المجتمع من يقف ضده تعاندت حركات الحياة وتعب الناس فى حياتهم وأرزاقهم.

ولكى يسود السلام فى الكون ؛ وضع الحق سبحانه فى الزمن وفى المكان حواجز أمام طغيان النفوس ؛ عَلَّها تفيق وتعود إلى الحق ، فجعل فى الزمان أشهراً حُرماً يمتنع فيها القتال ، ويسود فيها السلام بأمر السماء ، وأراد الحق أن يكون هذا السلام القسرى فرصة تجعل هؤلاء المتحاربين يفيقون إلى رشدهم وينهون الخلاف بينهم ، كذلك خصَّ الله بعض الأماكن بتحريم القتال فيها ، فإذا التقى الناس فى هذه الأماكن كانت هناك فرصة لتصفية النفوس وإنهاء الخلاف .

(١) عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مَرّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نُؤذِ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣ ، ٢٦٨٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح ، وانظر شرح ابن حجر العسقلانى لهذا الحديث فى فتح البارى (٥/ ٢٩٥ ، ٢٩٦) ففيه كلام قيم جداً .

والإنسان فى حربه مع أخيه الإنسان يُنهك بنيران ونتائج الحرب ، تنهكه دماً ، وتنهكه مالاً ، وتنهكه عتاداً ، ويصيب الضعفُ الإنسان نتيجة هذه الإنهاكات منتصراً كان أم مهزوماً ، ولكنه أمام عزة نفْسه فى مواجهة خصمه يريد أن يستمر فى الحرب حتى لا يظهر أمام الخصم بأنه قد ذُلَّ . فيشاء الله برحمته لخلقه أن يجعل فى الزمان وفى المكان ما يحرم فيه القتال ؛ حتى لا يقال : إن قبيلة ما أو جماعة ما قد أوقفت القتال خوفاً من خصومها ، أو لأن خصومها هم الأقوى ؛ ولكن ليقول الناس : إنهم أوقفوا الحرب بأمر الله.

وبهذا يحتفظ كل طرف من الأطراف المتحاربة بكرامته ؛ فيسهل الصلح وتسلم الأرواح والنفوس.

وكذلك إن لجأ واحد من المتحاربين إلى المكان أو الأماكن التى يحرم الله فيها القتال ،أمن على نفسه ، وفى هذا منع للشر أن يستمر ، وصون للنفوس من المهانة والذلة والانكسار أمام الغير ؛ لذلك أراد الله أن يوضح لنا : أنا خالقكم ، وأنا الرحيم بكم ، وسأجعل لكم من الزمان زماناً أحرم فيه القتال ، وأجعل لكم مكاناً مَنْ دخله كان آمناً ، فاستتروا وراء ذلك وكُفُّوا عن القتال.

وهذه هى بعض من رحمة الله ، يعطى بها سبحانه للناس فرص الحياة ، وهذا من عطاءات الربوبية ، وعطاء الربوبية من الله هو لخلقه جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والطائع والعاصى ، وكل نعم الكون من عطاءات ربوبية الله.

إن عطاءات الله سبحانه لا تفرق بين المؤمن والكافر ، فالأرض مثلاً لا تعطى الزرع للطائع وتمنعه عن العاصى ، والشمس لاتضىء وتسقط دفئها وحرارتها للمؤمن دون الكافر ؛ فَنِعَمُ الكون المادية كلها من عطاء ربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقه.

الأسباب - إذن - هى للناس جميعاً ، ولهم أن يتخذوا الأزمان المواتية لحركة الحياة كما يحبون ، فيسيرون الزراعات على أى تقويم ، ويحددون المواسم على حسب ما يفيدهم ، وهم يحددون بذلك مصالحهم المادية التى هى من عطاء الربوبية . ولكن الله رب قَيِّم ، ولذلك فهناك عطاء ألوهية لله فى المنهج الذى أرسل به الرسل للناس فأوضح : أنا أختار الزمان الذى أجده مناسباً للقيم والمعانى السامية ، وأختار الأماكن المناسبة للقيم والمعانى السامية .

وأراد الحق برسالة محمد ﷺ أن يشيع اصطفاء المكان والزمان لكل الزمان والمكان .

والشهور والأزمان عند الله هى اثنا عشر شهراً ، وما دام قد قال : ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، فهناك "عند" غير الله ؛ وهناك « عند » الناس .

وأوضح سبحانه لخلقه : قَدِّروا أزمانكم بمصالحكم ، وهذا ما يحدث فى الواقع المعاش . . إنك تجد من يزرع حسب التقويم القبطى ، حيث تكون شهور الصيف فيه ثابتة ، وكذلك شهور الشتاء والربيع والخريف ؛ لأن التقويم القبطى قائم على التقويم الشمسى .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد للقيم أزماناً مخصوصة ؛ لذلك قال : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً ﴾ وأوضح سبحانه : لا تجعلوا زمن القيم كالأزمان التى تجعلونها لمصالحكم .

وأراد الله سبحانه أن تعم القِيَم كل الزمن ، ولا تكون مقصورة على أزمان معينة ، ولذلك اختار سبحانه أزماناً للصلاة مثلاً ، فصلاة الصبح لها وقت ، وصلاة الظهر لها وقت ، والعصر لها وقت ، والمغرب لها وقت ، والعشاء لها وقت . ولكن أوقات الصلاة رغم أنها محددة فهى تشمل

الزمن كله ؛ فالصلاة تقام مثلاً فى أسوان ، وبعد دقائق فى الأقصر ، وبعد دقائق فى القاهرة ، وبعد دقائق فى الإسكندرية ، ثم تتدرج إلى دول أوربا ، وهكذا . فكأنها لا تتوقف عند فترة معينة ، بل هى مستمرة حسب اختلاف الأوقات فى الدول المختلفة ، فصلاة الفجر - على سبيل المثال - قبل شروق الشمس. والشمس تشرق فى كل دقيقة على بقعة مختلفة من الأرض. فكأن الصلاة دائمة على سطح الأرض. بل أكثر من ذلك نجد أننا فى الوقت الذى نصلى فيه نحن الظهر ، قد يصلى غيرنا العصر فى شمال أوربا ، والمغرب فى أمريكا ، والعشاء فى كندا مثلاً ، فكأن الصلاة تقام فى كل وقت على ظهر الأرض ؛ ذلك لأن الكون كله مُسبِّح لله.

ونأتى بعد ذلك إلى اختيار الله ليوم وقفة عرفات ، ولشهر الصوم وغير ذلك من الأوقات ، فشهر رمضان يأتى مرة فى الصيف ، كما يأتى فى الشتاء وفى الربيع ، وفى الخريف . كذلك الحج يأتى فى فصول السنة المختلفة . وهكذا شاء عدل الله أن تكون الأيام المفضلة عنده مُوزَّعة على الزمن كله . وجعل الحق سبحانه وحدة الزمن هى اليوم ، واليوم يتكون من الليل والنهار ، والأيام وحدتها الشهر ، والشهور وحدتها العام ، وجعل من مهمة الشمس أن تحدد لنا اليوم ، ومن مهمة القمر أن يحدد لنا الشهر ؛ فهو فى أول الشهر هلال ، ثم تربيع أول وتربيع ثانٍ فبدْر إلى آخره . إذن فالقمر هو الذى يحدد بداية الشهر ونهايته.

ولقد حدد الحق سبحانه شهور العام ، فقال:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ وقال : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ .

ولكن لماذا لم يجعل الحق كل الأشهر سلاماً ؟ نقول: إن الحق فى تشريعه أراد أن يسود السلام ، ولكن الحرب أيضاً قد تكون سبباً لتحقيق

السلام ، فليس كل إنسان أو مجتمع يسير على الجادة ، فمن الممكن أن تخرج جماعة عن الجادة ، و لهذا لا بد من قتال تلك الجماعة ، ولا بد كذلك من وقفة للخير أمام الشر ، وما دام الإنسان له اختيار ؛ فقد يسير في اختياره إلى ناحية السوء ؛ لذلك لابد أن يضرب المجتمع على يد المسيء ، وإذا ما اختارت دولة قتال دولة أخرى اعتداءً ، فالحرب ضرورة للدفاع . وكذلك لو أن الحق قد جعل العام كله أياماً حُرُماً لأذلَّ الكفار والمشركون المؤمنين ؛ لأن الكفار والمشركين سيعصون الله ويحاربون ، والمؤمنون ملتزمون بأمر الله ، فكأن الله قد فرض العبودية على المؤمن به . وأعطى السيادة لغير المؤمن. ثم إن قوى الخير والشر تتصارع في هذا الكون ، وقوى الحق والباطل تتقاتل ، ولابد من وقفة للحق أمام الباطل ، ولذلك أباح الحق في الأشهر الحرم القتال ، حتى إذا استشرى الباطل تصدى له الحق بالقوة ، ولذلك قال شوقي:

الحرْبُ في حَقٍّ لَديْكَ شريعةٌ

ومِنَ السُّمُومِ النَّاقِعَاتِ دَوَاءُ

إذن : فقد شاء الله أن يوجد من يقاوم الباطل ، وضمن للحق أن يحارب الباطل ويواجهه ؛ لذلك لم يشرع تحريم القتال في العام كله. ولكنه شرع هذا التحريم فقط أربعة أشهر يذوق الناس فيها حلاوة السلام ويتوقف فيها القتال وتتاح الفرصة للصلح.

ولقد أوجد سبحانه في الكون سُنَّة ، هي أنه إذا ما التقى حق وباطل في المعركة فالباطل ينهزم في وقت قصير . وإن رأيت معركة تطول سنوات طويلة فاعرف أنها بين باطل وباطل ، وإذا قامت الحرب بين باطل وباطل فإن السماء لا تتدخل ، وأما إذا قامت المعركة بين حق وباطل فإن السماء تنصر الحق على الباطل . ولا تقوم معركة بين حَقَّيْنِ أبداً ؛ لأن الحق

فى الدنيا كلها واحد ، فلا يوجد حقان ، بل حق وباطل ، وإن وجد الصراع فإنه لا يطول بينهما ؛ لأن الباطل زهوق بطبيعته ، وإن وجدت حرب بين باطلين ، فالسماء توضح لنا أنه لا يوجد باطل منهما أولى بأن ينصره الله على الآخر ؛ بل يترك سبحانه هذا الصراع لأسبابهم ؛ مما يطيل أمد الحرب.

وحين شرع الله الأشهر الحرم ، ضمن الناس مطلوبات السلام الدائم ؛ لأن الناس تنهكهم الحرب ويحبون أن يرتاحوا منها ، فإذا جاءت الأشهر الحرم كانت فرصة للناس ليوقفوا الحرب ، دون أن يشعر أحدهم بالذل والهوان والهزيمة. ونحن نلجأ إلى ذلك أحياناً ، فإذا كنا فى بيت يسكنه عدد من الناس - كما يحدث فى الريف - وسُرق شىء ثمين من هذا البيت ، والسارق من السكان ونريد منه أن يعيده دون أن ينكشف أمره فهم يحددون مكاناً معيناً ، وكل واحد من سكان البيت يأتى ليلاً ويضع حفنة من التراب فى هذا المكان ، لعل السارق يضع ما سرقه بين حفنة التراب ، وهو بذلك يأخذ فرصة من مجتمعه الصغير ليعيد ما سرقه دون أن يعرفه أحد ، وفى هذا ستر له فلا ينفضح أمام الناس.

والأشهر الحرم فرصة للسلام دون أن ينفضح أحد من الأطراف المتحاربة أمام الناس بأنه ضعيف أو غير قادر على الاستمرار فى الحرب ، وتتوقف خلالها الحرب وقد ستر الله كل أطرافها ، وتقوى خلالها فرص أكبر للسلام والصلح ، وبذلك تكون فرص السلام أكبر من فرص الحرب بكثير.

ولكن ماذا يحدث عندما يعتدى عصاة غير مطيعين لله على المؤمنين فى الأشهر الحرم التى حرم الله القتال فيها ؟ إن الحق سبحانه لا يعنى بتشريعاته أبداً أن تكون مصدر إذلال للمؤمنين وإعزاز للكافرين ؛ ولذلك ينبهنا إلى أننا يجب ألا نسمح لأعداء الله بأن يستغلوا حرمة الأشهر الحرم ليتمادوا

فى العدوان على المؤمنين ، فأباح للمؤمنين القتال فى هذه الأشهر إذا قاتلهم الكفار فيها ، وكذلك فى الأماكن المحرَّم فيها القتال ، فقال:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... (٢١٧) ﴾

[البقرة]

وهكذا أباح الله القتال فى الشهر الحرام ليدافع المؤمنون فيه عن أنفسهم إذا بدأهم الكفار بالقتال ، وأباح الحق سبحانه أيضاً القتال فى المسجد الحرام إذا قام الكفار بقتال المؤمنين فيه ، رغم أننا نعلم أن تحريم القتال فى المسجد الحرام هو تحريم دائم ، ولكن الحق سبحانه وضع استثناء فقال:

﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) ﴾ [البقرة]

وهكذا جاء التقنين الإلهى ليحمى المؤمنين من طغيان الكافرين ، فالمؤمنون يلتزمون بعدم القتال فى الأشهر الحرم كما أمر الله ؛ بشرط التزام الطرف الآخر الذى يقاتلهم ، فإن لم يلتزم الكفار بهذا التحريم ، فسبحانه لا يترك المؤمنين للهزيمة ، وهكذا شاء الحق أن يضع التشريعات المناسبة لهذا الموقف . فإن احترمها الطرفان كان بها ، أما إن خالفها الكفار فقد سمح الله للمؤمنين بالقتال.

وهنا يقول سبحانه:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ والكتاب يطلق على الشيء المكتوب المدوّن ، ولا يُدوَّن الكلام إلا إذا كانت له أهمية ما ، أما الأحاديث التى تتم بين الناس فهم لا يكتبونها ولا تُدوَّن . بينما الكلام المهم وحده هو الذى يُكتب حتى يكون حجة فى الاستشهاد به فى حالة وجود خلاف.

ولكن أين ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذى كُتِبَ فيه هذا ؟

إنه اللوح المحفوظ عند الله ، والمهيمن على كل الكتب التى نزلت فى مواكب الرسل ، ويقصد بالكتاب - أيضاً - القرآن الكريم الذى نزلت فيه هذه الآية ، وقد جاء القرآن جامعاً لمنهج الله بدءاً بآدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . وتغير فى القرآن كثير من الأحكام الموجودة فى الرسالات السابقة ، أما العقائد فهى واحدة . كما أن القرآن قد تضمن الحقائق الكونية التى لم تكن معروفة وقت نزوله ، والمثال هو قوله الحق:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (١٨٩)﴾ [البقرة]

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... (٥)﴾ [يونس]

فكأنه ربط السنين والحساب بالقمر ، وهذا الحساب هو من ضمن إعجازات الأداء البيانى فى القرآن ؛ لأن العالم قد بحث عن أدق حساب للزمن ، فلم يجد أدق من حساب القمر ، وكل الأحياء المائية تعتمد فى حسابها على الحساب القمرى ، والله سبحانه يريد منا حين نقرأ كتاباً أن نتمعن فى وضع الألفاظ فى موضعها . فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وبعد ذلك يأتى باستثناء هو : ﴿ مِنْهَا﴾ أى من الاثنى عشر شهراً ﴿ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الله : " فيها " بدلاً من ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ما دام قد قال من قبل : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ؟

ونقـول: إن الحق ينهى عن الظلم العـام فى كل الشـهـور ، وإن كـان المقصود الأشهر الحرم الأربعة ، فالمقصود النهى عن ظلم الحرب . وهنا قاعدة لغـوية يجب أن نلتفت إليهـا ؛ وعندنا فى اللـغة جمع قلة وجمع كثرة ؛ جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، ويختلط الأمر على بعض الناس فى مسألة جمع القلة وجمع الكثرة ، وجمع التكسير وجمع الصحيح . فجمع القلة وجمع الكثرة ، غير جمع التكسير ، والجمع الصحيح ؛ لأن التكسير هو أن تكسر بنية الكلمة ، فمثلاً بيت جمعها بيوت ، ورسول جمعها رسل ؛ هنا كسرْتَ بنية الكلمة أى: غيَّرتها.

أما إن قلت : " مسلم " فجمعها " مسلمون " ، وهنا تضيف "واواً ونوناً" ، ولكن كلمة " مسلم " صحيحة ، أى أننا لم نكسر المفرد . ولكن إن قلت: " سفينة " وجمعها " سفن " تكون قد كسرت المفرد.

وقول الحق هنا: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ فما دام العدد هو اثنا عشر شهراً تكون قد زادت عن جمع القلة ؛ لأن جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، وجمع القلة يعاملونه معاملة الجماعة. وإن زاد على عشرة يعـاملونه معـاملة المفـرد المؤنث ، مثل وضع الشهور الأربعة المحرمة فى كتـاب الله ، ولذلك قـال: ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وجـاء هنـا بـ"نون النسوة" للجمع . والقاعدة - كما قلنا - إن جمع القلة يعامل معاملة الجماعة ، فإن كان جمع كثرة عـومل معاملة المفرد المؤنث ؛ لأن الفرد يكون معصوماً بالجماعة ، أى أنه بمفرده ضعيف. فإن وجد جماعة ينتمى إليها فهو يُحسُّ بالقوة.

إذن : فالفـرد يعصم بالجمـاعة ، وبهذا تعامل الجمـاعة كلها كهيئة واحدة ، وهناك شاعر يستهزىء بقوة جماعة ما ، فيقول:

لاَ أُبَالِي بِجمْعِهِنَّ فَجَمْـ ـعُهُنَّ كُلُّ جَمْعٍ مُؤنَّثِ

إذن: فكل جمع يكون مؤنثاً ، وهذا ما ينطبق على قوله سبحانه وتعالى هنا: ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ . وأكرر : إن أردت الظلم العام فإن الله قد حرم الظلم فى كل شهور السنة ؛ سواء ظلمك لنفسك أم ظلمك للناس ، وإن أردتَ من معنى الكلام تحريم الحرب فى الأشهر الحرم تكون : ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قد أتت بالمؤنث .

ومعنى قوله : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى: إياكم أن تظنوا أن مخالفتكم لمنهج الله يحدث منها شىء يضر الحق سبحانه ، فكل ما يحدث من ظلمكم لأنفسكم هو أن تضروا أنفسكم أو غيركم ، لكن لن يضر أحدكم الله ؛ لأن صفات الله فى الكون لا تتأثر أطاع الخلق أم عَصَوا . ولذلك فإن اتباع منهج الله هو أمر لصالح الناس ، لصالحنا نحن ، فانصرافنا عن المنهج لا يضر الله سبحانه شيئاً ولكن يضرنا نحن ، فكل ما أنزله الله من قيم هو لصالحنا حرباً وسلاماً ، وتحريماً وتحليلاً .

ولكن لماذا خصَّ الحق سبحانه الشمس بحساب اليوم ، والقمر بحساب الشهر ؟ وأقول: لأن الله سبحانه يريد أن يوزع الفضل على كل الزمن ، وأن ييسر على الناس أداء مناسكه وما يكلفهم به . فلو حسبت الشهور بالشمس لكان ميعاد الحج كل عام فى أشهر الصيف دائماً ، ومن يعيش مثلاً فى بلاد باردة إن ذهب إلى الحج صيفاً يتعرض لأخطار شديدة ، فكأنه ليس هناك عدل بين الذين يعيشون فى مناطق باردة ، والذين يعيشون فى مناطق حارة فى أداء مناسك الحج ، فلو كان ميعاد الحج هو الصيف دائماً ، فسوف يؤديه الذين يعيشون فى المناطق الحارة بسهولة ، بينما يؤديه من يحيا فى المناطق الباردة بصعوبة ، ولتمام عدل الله بين خلقه نجده سبحانه قد أدار الأشهر القمرية فى السنة الميلادية ، فلا يأتى الحج أبداً فى طقس واحد ، وبذلك تستوى كل البيئات وكل الناس فى أحكام الله .

وأيضا صوم رمضان لو كان يأتى فى الصيف دائماً ، لوجدنا بعض الناس سيصومون ثمانى أو تسع ساعات ، والذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون عشرين ساعة فى اليوم ، ولكن مجىء رمضان فى فصول السنة كلها يجعل أولئك الذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون مرة تسع عشرة ساعة مثلاً ، ومرة ساعتين أو ثلاثاً ، وهذه تعوض تلك ، فيتم العدل ، وإذا أخذنا متوسط ساعات الصيام بالنسبة لهؤلاء الناس على مدار السنة ، نجد أن فترات صومهم فترة تسع عشرة ساعة وفترات ثلاث ساعات ، وبذلك يتساوون فى المتوسط مع أولئك الذين يصومون ثمانى أو تسع ساعات يومياً .

ونجد بالحساب أن تقويم الهلال ينقص عن تقويم الشمس بمقدار أحد عشر يوماً وثلث يوم كل عام ، ويكون الفرق عاماً كاملاً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث العام ، أى أن رمضان يأتى مرة فى يناير ومرة فى فبراير ومرة فى مارس ، وكذلك الحج ، وبذلك تتكافأ الفرص بين المؤمنين جميعاً ، فالذين يصومون فى الصيف المعروف بيومه الطويل ، يصومون فى الشتاء ويومه قصير . والذين يعانون من الصوم فى حرارة الجو ، يصومون أيضاً فى برد الشتاء ، وهكذا يدور رمضان والحج فى شهور العام كله ، وبذلك يتم عدل الله على الجميع بالتشريع الحق ، ويدور التكليف مشقة ويُسْراً وصعوبة وسهولة على جميع المؤمنين .

وإذا نظرنا إلى ربط اليوم بالشمس نجد أن الحق سبحانه وتعالى الذى ربط أوقات الصلاة بالشمس ، كفل لها الدوام التكليفى ، لماذا ؟

لأن القمر نراه أياماً ، ولكننا لا نراه فى أيام المحاق ، فلو ربطنا الصلاة بالقمر لضاع منا الدوام ، مضافاً إلى ذلك أن القمر يظهر لنا فى أوقات غير متساوية ؛ فعندما يكون هلالاً لايظهر للعين فى الأفق إلا دقائق معدودة ،

ولكن الشمس تشرق كل يوم في وقت محدد، وتغيب كل يوم في وقت محدد ، وهي بضوئها ظاهرة للناس كل الناس من الشروق إلى الغروب ، فلا يجدون مشقة في رؤيتها . ولذلك فربطُ الصلاة بالشمس فيه يُسْر التكليف ودوامه ، وكما قال رسول الله ﷺ : " الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين "[1] وهي الركن الوحيد من أركان الإسلام الذي لا يسقط أبداً ؛ لأن الفقير تسقط عنه الزكاة ، والمريض يسقط عنه الصوم ، وغير المستطيع يسقط عنه الحج ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفي أن تقال مرة واحدة في العمر ، ولكن إقامة الصلاة لا تسقط أبداً . إذن فهي عماد الدين ، ولذلك تتكرر خمس مرات يومياً لكل أهل الأرض ، فالصبح في دولة قد يكون ظهراً في دولة ثانية ، وعصراً في دولة ثالثة ومغرباً في دولة رابعة وعشاء في دولة خامسة ؛ وذلك بسبب فروق التوقيت بين دول العالم ، وهكذا تكون في كل لحظة من الزمن جميع أوقات الصلاة قائمة على الأرض ، فيظل الله سبحانه وتعالى معبوداً بالصلاة في كل الزمن في كل بقاع الأرض . وهكذا يرتفع الأذان : الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله في كل لحظة على الأرض.

قد نجد رجلاً أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة ، لكن له إشراقات نورانية ، أفاض الله عليه يقول: يا زمن وفيك كل الزمن ، أي يا فجر وفيك كل أوقات الصلاة على سطح الأرض . ولذلك فظاهر الأمر أن الصلوات خمس ، والحقيقة أن الصلاة دائمة على وجه الأرض في كل

(١) حديث ضعيف . قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩): « رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً » قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٤٧): « قال الحاكم: عكرمة لم يسمع من عمر . قال: ورواه ابن عمر لم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط: إنه غير معروف». وقال النووي في التنقيح: منكر باطل. ورده ابن حجر في التلخيص (١/ ١٧٣): وليس كذلك ، بل رواه أبو نعيم شيخ البخاري في كتاب الصلاة بلفظ : « الصلاة عمود الدين » وهو مرسل رجاله ثقات.

ثانية ، ولا يوجد جزء من الزمن إلا والله معبود فيه بعبادات كل الزمن ، أى أنه فى كل لحظة تمر نجد الله معبوداً بالصلوات الخمس على ظهر الأرض . وهذا سبب ربط الصلاة بالشمس.

وإذا عرفنا هذه الحقيقة ، وعلمنا أن الكون كله يصلى لله فى كل لحظة من الزمن ، فإننا نعلم أن القرآن يتسع لأشياء كثيرة ، وأن كل جيل يأخذ من القرآن على قدر عقله ، فإذا ارتقى العقل أعطى القرآن عطاءً جديداً. وهذا ما يؤكد أن آيات القرآن يتسع إدراكها فى الذهن كلما مر الزمن ، فنتنبه إلى معان جديدة لم نكن ندركها .

وعندما يأتى المستشرقون ليقولوا : إن فى القرآن تناقضاً فى الكونيات .

نقول لهم : مستحيل .

فيقولون : لقد جاء فى القرآن:

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء]

ويقول :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرحمن]

ويقول :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [المعارج]

وبين هذه الآيات تناقض ظاهر .

ونرد : إن التقدم العلمى جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات ، فكل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، هذه هى النظرة العامة ، إذن فقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ صحيح ، ثم عرفنا أن الشمس

حين تشرق عندى ، تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كل مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان . ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر . وفى كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ ؛ لأن المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنة .

فإذا سأل أحدهم: لماذا تخصون القمر لحساب الزمن وتخصون الشمس لحساب اليوم ؟ نقول: إن الشمس مرتبطة بعلامة يومية ظاهرة وهى النهار ، واختفاؤها عنك مرتبط بعلامة يومية ظاهرة وهى الليل . ولكن القمر غير مرتبط بعلامة يومية ، صحيح أن القمر موجود دائماً ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يدركه أو يراه إلا فى أوقات محددة .

بعض الناس يقول: إذا كان المقصود بهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - هو بيان الأشهر الأربعة الحرم ، فما فائدة باقى أشهر السنة ؟

ونقول: إنك لن تستطيع أن تحدد الأشهر الحرم إلا من خلال بيان وتوضيح أمر السنة ومعرفة عدد أشهرها ، وهذا أمر ضرورى أيضاً حتى تستطيع أن تحدد الأشهر الأربعة الحرم فى العام . وإلا كيف يمكن أن نميز هذه الأشهر وزمنها ؟ لابد لنا إذن من أن نعلم أن هناك عاماً ، وأن العام فيه اثنا عشر شهراً لنستطيع أن نحدد الأشهر الحرم . والأشهر الحرم منها ثلاثة متتابعة وشهر فرد ، والأشهر المتتابعة هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر رجب هو الشهر الفرد . وتحديد الحق لهذه الأشهر الأربعة يعنى أنها تتميز بخصوصيات ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أراد أن تكون هذه الشهور فى أى وقت من السنة لتركها لنا لنحددها بمعرفتنا فنختار

أى أربعة أشهر على هوانا ،لنمتنع فيها عن القتال ، ولكن كون الله تبارك وتعالى حددها فذلك لخصوصيات فيها . جاء البعض وقال: ما دام سبحانه وتعالى قد جعل الشهور اثنى عشر شهراً وجعل منها أربعة حرماً ، ونحن نريد أن نحارب فى شهر المحرم فلنفعل ذلك ونمتنع عن القتال فى شهر آخر غيره ، وبذلك نكون قد حافظنا على عدد الأشهر الحرم وهى أربعة كما حددها الله .

ونقول: إنكم حافظتم على العدد ولم تحافظوا على المعدود . ولو أن رسول الله ﷺ لم يبين الأربعة الأشهر المقصودة بالآية الكريمة من الاثنى عشر شهراً ، لأصبح من حق كل جماعة أن تختار ما تريده من أشهر السنة ، ولكنه ﷺ خصصها ؛ لأننا علمنا بذلك كيف نحافظ على الفرق بين العدد والمعدود .

إن مسألة العدد والمعدود حَلَّتْ لنا إشكالات كثيرة ، منها إشكالات أثارها المستشرقون الذين يريدون أن يسيئوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن الزواج كان مطلقاً عند العرب ، ثم حدد الله سبحانه وتعالى عدد الزوجات بأربع ، وأمر النبى عليه الصلاة والسلام الذين كانوا قد تزوجوا بأكثر من أربع زوجات أن يمسك الواحد منهم أربعاً ويفارق الباقيات [(١)] ، وأضاف المستشرقون تساؤلاً: إذا كان الرسول قد شرع للناس ، فلماذا لم يطبق هذا الأمر على نفسه ، ولماذا اتخذ تسع زوجات ؟

ونقول: إننا إذا قمنا بعملية حسابية منصفة ، لوجدنا أنها ليست توسعة لرسول الله ﷺ وإنما هى تضييق عليه ، فأنت حين تأخذها من ناحية العدد فقط تقول: إن رسول الله ﷺ أخذ تسع زوجات وأمته أخذت أربعاً ، ولكنك لم تلاحظ مع العدد المعدود، أى أنه إذا ماتت زوجاتك الأربع

(١) عن ابن عمر قال: أسلم غيلان بن سلمة الثقفى وعنده عشر نسوة، فقال له النبى ﷺ: « خذ منهن أربعاً ». أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٤)، وابن ماجه (١٩٥٣) والدار قطنى فى سننه (٣/ ٢٦٩). أما لفظ الإمساك والمفارقة فقد ورد فى حديث لابن عباس أخرجه الدار قطنى (٣/ ٢٦٩) . وفيه الواقدى وهو متفق على ضعفه .

أحلت لك أربع أخريات ، وإن ماتت واحدة أحلت لك أخرى ، إذن فأنت - كمسلم - عندك عدد لا معدود ، بحيث إذا طلَّقْتَ واحدة أو اثنتين حلَّت لك زوجة أو زوجتان أخريان ، فأنت مُقيَّد بالعدد ، ولكن المعدود أنت حُرٌّ فيه . أما رسول الله ﷺ فقد نزلت فيه هذه الآية الكريمة :

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ... ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نجد أن التشريع ضَيَّق على رسول الله ﷺ في المعدود . وكان استثناؤه عليه الصلاة والسلام في العدد للتشريع ، فقد كان الرسول ﷺ يتزوج بإرادة التشريع التي يشاؤها الله .

وسبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وعرفنا أن قوله سبحانه : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ معناها اللوح المحفوظ أو القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ معناه : أنها مسألة لم تطرأ على الكون ، ولكنها محسوبة من قبل أن يُخلقَ الإنسان . فهي إذن مسألة من النظام الكوني الذي خُلق عليه الكون . وهو سبحانه قد خلق الكون بدقة وإحكام ، فكأن الحق يريد أن يلفتنا إلى أن من مهام الشمس والقمر أن يكونا حساباً للزمن ؛ لليوم والشهر والعام ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن]

أى : أنهما خُلقَا بحساب دقيق، ويقول سبحانه :

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام: ٩٦]

أى : أنه سبحانه يطالبنا بأن نستخدم الشمس والقمر حساباً لنا . وهذا يتفق مع منطق الأمور ، فالشيء الذى تريد أن تتخذه حساباً لك ، لابد أن يكون مصنوعاً بحساب دقيق . ولذلك فإن الساعة مثلاً إن لم تكن مصنوعة بدقة فإنها لا تصلح قياساً للوقت ؛ لأنها تقدم أو تؤخر . ولكن إن كانت مصنوعة بحساب دقيق فهى تعطيك الزمن الدقيق . إذن : فدقة قياس الزمن تعتمد أساساً على دقة صناعة آلات القياس.

وقبل أن يُنزلَ الحق هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، كان العرب يعترفون بالأشهر الأربعة الحرم ، ولكنهم كانوا يغيِّرون فى مواعيدها ، فكانت الجماعة منهم تقاتل الأخرى ، فإذا ما أحسوا بقرب انتصارهم وجاءت الأشهر الحرم قالوا: نستبدل شهراً بشهر ، أى نقاتل فى الشهر الحرام ، ثم نأخذ شهراً آخر نمتنع عن القتال فيه ، وحسبوا أنهم ماداموا قد حافظوا على العدد يكونون بذلك قد أدوا مطلوبات الله ، ولكنهم نسوا أنهم لم يحافظوا على المعدود ، ونسوا أن الدين مجموعة من القيم التى لابد أن نؤمن بها ونطبقها.

والإيمان - كما نعلم - هو انقياد وتسليم لله سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بأمر من الأمور فلا اختيار لنا فيه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة ، وهنا يجب أن يقف الاختيار البشرى ، بمعنى أنه لا أحد يملك تعديل مرادات الله بأى شكل من الأشكال ؛ لأننا فى حياتنا اليومية حين نرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه فى أمر من الأمور أكثر منا ، نقول له: وكَّلْناكَ فى هذا الأمر ، وسنسير وراءك فيما تقرره . ومعنى هذا أننا سنسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم.

إننا لا نعطى أحداً هذه الصلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم فى تصرفه .

وإن سألك أحد من الناس : لماذا تتصرف فى ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير فى هذه المسائل ، وهذا دليل منك على أنك واثق فى علمه ، وواثق فى صدقه ، وواثق فى حكمته .

والمثال الحى المتجدد أمامنا هو سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عندما قيل له : إن رسول الله ﷺ أعلن أنه نبى الله ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قد قال فقد صدق . قال أبو بكر رضى الله عنه هذا القول ؛ لأنه عرف ولمس أن رسول الله ﷺ لم يكذب قط فى كل الأحداث السابقة ، فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يكذب على أهل الأرض أيكذب على السماء ؟ [1] طبعاً هذا غير معقول .

وأنت لا تسلم زمام أمرك للمساوى لك إلا إذا كانت هناك مقدمات أثبتت أنه أعلى منك فى ناحية معينة، صحيح أنه مساويك فى الفردية وفى الذاتية ، ولكنه أعلى منك علماً فى المجال الذى يتفوق فيه . فما يقوله تنفذه بلا نقاش لأنك وثقت فى علمه . وأنت إذا مرضت - لا قدر الله - وكان هناك طبيب تثق فى علمه وقال لك : خذ هذا الدواء ؛ أتناقشه أو تجادله ؟ طبعاً لا ، بل تفعل ما يأمرك به بلا نقاش .

فإذا سألك أحدهم : لماذا تتناول هذا الدواء ؟ تقول : لقد كتبه لى الطبيب الذى أثق فيه . وهذا يكفى كحيثية للتنفيذ.

(١) جاء هذا فيما وقفت عليه خاصاً بحديث الإسراء، وقد سبق تخريجه، وهو حديث عائشة قالت: لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس. قال: أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال: نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سمى أبو بكر الصديق. أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٦٢) وصححه وأقره الذهبى.

فإذا جئنا إلى الله سبحانه الذى أعدَّ لنا هذا الكون وأنزل إلينا منهجاً وطالبنا أن نُسلمَ له وجوهنا ، وأن نفعل ما يأمرنا به فى كل أمور الحياة ، فإن احتجنا إلى حكمة فهو الحكيم وحده ، وإن احتجنا إلى قدرة فهو القادر دائماً ، وإذا احتجنا إلى قهر فهو القاهر فوق عباده ، وإن احتجنا إلى رزق فهو الرزاق ، وعنده كنوز السماوات والأرض . أيوجد من هو أحق من الحق سبحانه لنُسْلمَ زمامنا له ونفعل ما يأمرنا به ؟ طبعاً لا يوجد ، وإذا سألنا أحد: لماذا نتبع هذا المنهج ؟ نقول : إنه سبحانه قد أمرنا باتباعه . وهذا هو الإسلام الحقيقى ؛ أن تسلم اختيارك فى الحياة لمرادات الخالق الأعلى ، فالدين معناه الالتزام والانقياد لله ، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى قَيِّم على كل أمور حياتنا ، والدليل على ذلك قائم فيما تحدثنا عنه ، فمادام الله سبحانه وتعالى قد قال ، فنحن نفعل . إذن : فالدين قَيِّم علينا . والدين قَيِّم أيضاً على غيره من الرسالات السماوية ، أى مُهَيْمِنٌ عليها ، وفى هذا يقول الحق:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... (٤٨)﴾ [المائدة]

حددت الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - أشهراً حُرماً يحرم فيها القتال وحذرت من الظلم بالحرب أو غيرها ، وقد يقال : إن معنى هذا أن تضعف حمية الحرب عند من يريد الحرب ضد الباطل ، فنرى الباطل أمامنا خلال الأشهر الحرم ولا نحارب.

نقول: إن هذا غير صحيح ، ففترة السلام هذه تكون شَحْذاً لهِمَم المقاتلين ضد الكفر والظلم ؛ لأنك قد ترى الباطل أمامك لكنك تمتثل لأمر الله فى وقف القتال ، فإن ذلك يزيد الانفعال الذى يحدثه الباطل فى تحديه

للنفس المؤمنة ، فإذا انتهت الأشهر الحرم كنت أكثر حماسة . تماماً كالإنسان الحليم الذى يرى إنساناً يضايقه باستمرار فيصبر عليه شهراً واثنين وثلاثة ، فإذا نفد صبره كان غضبه قوياً شديداً ، وقتاله شرساً ، ولذلك قيل : « اتقوا غضب الحليم » ؛ لأن غضبه أقوى من غضب أى إنسان آخر. وكذلك يكون حلْم المؤمن على الكافر فى الأشهر الحرم ؛ شحذاً لهمته إذا استمر الباطل فَى التحدى ، وفى هذا تحذير للمسلمين من أن تضعف فى نفوسهم فكرة القتال وعزيمتهم فيه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾

وكلمة ﴿ كَافَّةً ﴾ هنا سبقها أمران : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ فإلى أى طرف ترجع ﴿ كَافَّةً ﴾ هنا ؟ هل تُرجعها إلى المؤمنين المقاتلين ، أم إلى المقاتلين من الكفار ؟ وهذا إثراء فى الأداء القرآنى فى إيجاد اللفظ الذى يمكن أن نضعه هنا ونضعه هناك فيعطيك المعنى.

ولكن هل يريدنا الحق أن نقاتل المشركين حالة كوننا - نحن المؤمنين - كافة ؟ أم نقاتل المشركين حالة كونهم كافة ؟ . إن « كَافَّةً » كما نعرف لفظ لا يُجمَعُ ولا يُثَنَّى ، فالرجل كافة ، والرجلان كافة ، والقوم كافة ، وهى مأخوذة من الكف . وتطلق أيضاً على حافة الشىء لأنها منعت امتداده إلى حيز غيره . وفى لغة من يقومون بحياكة الملابس يقال : « كافة الثوب » حين يكون الثوب قد تنسل ، فيقوم الحائك بمنع التنسيل بتكفيف الثوب.

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أى : يأيها المؤمنون كونوا جميعاً فى قتال المشركين . وهى تصلح للفرد ، أى : للمقاتل الواحد ، وللمقاتلَيْن ، ولجماعة المقاتلين .

وقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ذلك أن الباطل يتجمع مع الباطل دائماً ، والمثال الواضح فى السيرة أن يهود المدينة تحالفوا

مع الكفار ضد المسلمين ، فكما أن الباطل يجتمع مع بعضه البعض فاجمعوا أنتم أيها المؤمنون وأصحاب الحق قوتكم لتواجهوا باطل الكفر والشرك.

ويقول الإمام على كرم الله وجهه: « أعجب كل العجب من تضافر الناس على باطلهم وفشلكم عن حقكم »[(١)] ويتعجب الإمام على رضى الله عنه من أن أهل الحق يفرطون فى حقهم رغم اجتماع أهل الباطل على باطلهم . ويعطينا القرآن صورة من تجمُّع أهل الباطل فى قول اليهود لكفار مكة:

﴿ هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ... (٥١) ﴾ [النساء]

أى أن اليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأتباعه[(٢)]، قالوا ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرت لهم أن رسول الله ﷺ سيأتى بالدين الخاتم حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين: لقد أطل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . كذلك فى كتب أهل الكتاب نبأ رسول الله وأوصافه وزمانه. وعندما تحقق ما فى كتبهم كفروا به واجتمعوا مع أهل الباطل.

وهنا يوضح لنا الحق: ما دام الباطل قد اجتمع عليكم وأنتم على الحق فلابد أن تجتمعوا على دحض الباطل وإزهاقه؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

(١) من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال: « فيا عجباً من جد هؤلاء القوم فى باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم هدفاً يرمى، وفيئاً ينتهب، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَوْنَ ولا تَغزُونَ ، ويُعصى الله وترضون ». انظر خطبته بكاملها فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيقى. نشر دار الروضة - القاهرة.
(٢) وذلك أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد. فقال أبو سفيان : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق نحن أم محمد ؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد. ذكره القرطبى فى تفسير الآية ٥١ من سورة النساء .

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
إذن : فالله يأمر المؤمنين بأن يجتمعوا على قتال الكافرين ، ولأن الله مع الذين آمنوا ؛ لذلك فهو ينصر المؤمنين ، وإذا وُجِدَ الله مع قوم ولم يوجد مع آخرين ، فأيُّ الكفتين أرجح ؟ لابد من رجحان كفة المؤمنين. ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

والعلم - كما قلنا - حكم يقين عليه دليل ، أى لا يحتاج إلى دليل ؛ لأن العلم هو أن تأتى بقضية غير معلومة ، ثم تقيم الدليل عليها لتصبح يقيناً.

وإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ فالعلم هنا ينتقل من علم يقين إلى عين يقين . والعلم - كما نعرف - قضية معلومة فى النفس يؤيدها الواقع وتستطيع أن تقيم عليها الدليل . فإذا علمت بشىء أخبرت به ، ويقينك بما علمت يكون على قدر ثقتك بمن أخبرك.

والمثال: حين قيل لأبى بكر رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: إنه أُسْرِىَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعُرِجَ به إلى السماء السابعة ، هنا قال الصدِّيق : إن كان قد قال فقد صدق [1]، وكانت هذه هى ثقته فى القائل ، وهو يستمد منها الثقة فيما قال وروى.

وحينما أخبر رسول الله ﷺ سيدتنا خديجة رضى الله عنها بخبر الوحى وأبدى خوفه مما يرى ، قالت: « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكْسبُ المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين علَى نوائب الحق » [2]، وهى بذلك قد أخذت من المقدمات حيثيات الحكم وكانت أول مجتهدة فى الإسلام عملت بالقياس . فقد قاست الحاضر بالماضى.

(١) سبق تخريجه ص ٥٠٩٠ .
(٢) حديث بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، وستة مواضع أخرى) ومسلم فى صحيحه (١٦٠) واللفظ للبخارى .
- تحمل الكل : أى تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق.
- تكسب المعدوم : تعطى المعدوم مالاً مالاً ، والمعدوم مكارم وأخلاقاً أخلاقاً حسنة طيبة .
- تقرى الضيف : أى أنك كريم جواد تطعم الضيف طعام القِرى .
- تعين على نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

وعندما يقول الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيكفينا أن يكون هذا كلام الله سبحانه ليكون يقيناً فى نفوسنا، وهناك علم يقين يأتيك ممن تثق فى علمه وصدقه، وأنت إن رأيت الشيء الذى أخبرت به وشاهدته يصبح عين يقين، فإذا اختبرته وعشْت فيه يصبح حقَّ يقين.

وحين قال الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وجدنا بعض المؤمنين قد أخذوها على أنها علم يقين، أو عين يقين، أو حق يقين؛ لأنهم شاهدوا ذلك فى المعارك حين كانوا قلة، فمن أخذ كلام الله دون مناقشة عقلية - لأن الله هو القائل - أخذه علم يقين. والذى أخذ الكلام على أنه يصل إلى درجة المشاهدة أخذه على أنه حق يقين، والذى أخذ الكلام كأنه عايشه فهذا عين يقين، ولكى نعرف هذه المنازل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ ﴾ [التكاثر]

وهذه أولى الدرجات: علم يقين؛ لأنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾ [التكاثر]

أى: أنكم فى الآخرة سوف ترونها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أى مشاهدة بالعين. وفى هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما: علم اليقين وعين اليقين، ففى الآخرة سوف يُضرب الصراط على جهنم، ويرى الناس - كل الناس، المؤمن منهم والكافر - نار جهنم، وهم يمرون فوق الصراط، ويرونها مشتعلة متأججة، وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها، يعرف كيف نجاه الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يزداد فرحه؛ فله فرحة بأنه نجا من العذاب،

وفرحة بالنعم وبالمنعم ، ويقول المؤمن: الحمد لله الذى أنقذنى من النار. وهذه نعمة كبيرة وفوز عظيم ، ولذلك يقول الحق:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ... (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

فالنجاة من النار وحدها فضل كبير ، ودخول الجنة فضل أكبر ، والحق هو القائل:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾ [مريم]

ويَرِدُ الشيء أى يصل إليه دون أن يدخل فيه [1]، ويقال: ورد الماء أى وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه . إذن فكل منا سوف يرى جهنم ، ويعرف المؤمن نعمة الله عليه ؛ لأنه أنجاه منها ، ويندم الكافر ؛ لأنه يُعذب فيها.

وقد ضربت من قبل مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقراءة عن مدينة نيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعرف القارىء أنها مبنية على عدة جزر ، وفيها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان ، وهذه القراءة هى علم يقين ، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورآها من الجو

---

(١) اختلف الناس في الورود على أقوال:
١ - الورود: الدخول . عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الورود الدخول، لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم .. ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٨٧) وصححه وأقره الذهبى.
٢ - الورود: الممر على الصراط . ويستدل أصحابه بحديث المرور على الصراط .
٣ - الورود: ورود إشراف واطلاع وقرب. وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب، ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه، ويصار بهم إلى الجنة. ﴿ولما وَرَدَ مَاءَ مَدْيَن ﴾ أى: أشرف عليه لا أنه دخله.
٤ - ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها.
٥ - الورود : النظر إليها فى القبر، فينجى منها الفائز، ويصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى، واحتجوا بحديث ابن عمر « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ».
وقد جمع الإمام القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٠٧) بين هذه الأقوال فقال: ظاهر الورود الدخول، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين وينجون منها سالمين، قال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا: ألم يقل ربنا: إنَّا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فألفيتموها رماداً .

يكون ذلك عين يقين ، فإذا ما نزل وعاش على أرضها بين ناطحاتها وعايش ازدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين.

وفي سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين ، وجاء بالمرحلة الثالثة في سورة الواقعة ، فقال:

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ [الواقعة]

وحقُّ اليقين هو آخر مراحل العلم ، والإنسان قد يكابر في حقيقة ما حين يقرؤها ، وقد يجادل في حقيقة يشاهدها ، ولكنه لا يستطيع أن يكابر في واقع يعيشه ، وقد حدث ذلك وحملته لنا سطور الكتب عن سيدنا عمر وقد قال عن أحد المعارك : « وحينما شهرت سيفي لأقصف رأس فلان ؛ وجدت شيئاً سبقني إليه وقصف رأسه »[١] أي : هناك من شاهد ذلك بنفسه.

وبعد ذلك يعطي الله الحكم فيمن يُغيِّر الأشهر الحرم أو يُبدلها فيقدمها شهراً ، أو يؤخرها شهراً ، فيقول:

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾

(١) لم أقف على أثر عمر رضي الله عنه هذا رغم طول بحث ، ولكن وقع من حديث أبي واقد الليثي قال : « إني لأتبع يوم بدر رجلاً من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي » ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٧/ ٣١٣) وعزاه لابن إسحاق.

والنسيء هو التأخير ، فكأنهم إذا ما دخلوا فى قتال وجاء شهر حرام قالوا : ننقله إلى شهر قادم ، واستمروا فى قتالهم ؛ وهم بذلك قد أحلُّوا الشهر الذى كان محرماً وجعلوا الشهر الذى لم تكن له حرمة ؛ شهراً حراماً ، وهنا يوضح الحق سبحانه أن هذا العمل زيادة فى الكفر ؛ لأنه أدخل فى المحلل ما ليس منه ، وأدخل فى المحرم ما ليس منه ؛ لأن الكفر هو عدم الإيمان فإذا بدَّلْتَ وغيَّرْتَ فى منهج الإيمان ، فهذا زيادة فى الكفر.

ثم يقول سبحانه: ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ و﴿ يُضَلُّ ﴾ هنا مبنية للمجهول ؛ ومعنى ذلك أن هناك من يقوم بإضلال الذين كفروا ، وهذه مهمة الشيطان ؛ لأن هناك فرقاً بين الضلال والإضلال ، فالضلال فى الذات والنفس ، أما الإضلال فيتعدى إلى الغير ، فهناك ضال لا يكتفى بضلال نفسه ، بل يأتى لغيره ويضله ويغويه على المعصية بأن يزينها له . ولذلك هناك جزاء على الضلال ، وجزاء أشد على الإضلال ، فإذا كان هناك إنسان ضال فهو فى نفسه غير مؤمن ، أى أن ضلاله لم يتجاوز ذاته ، ولم ينتقل إلى غيره . ولكن إذا حاول أن يغرى غيره بالضلال والمعصية يكون بذلك قد ضلَّ وأضلَّ غيره . ويتخذ بعض المستشرقين هذه القضية مطعناً فى القرآن-بلا وعى منهم أو فهم- فيقولون: إن القرآن يقول:

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر]

ثم يأتى فى آية أخرى فيقول:

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ...﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت]

فكيف يقول القرآن: إن أحداً لا يتحمل إلا وزره ، ثم يقول: إن هناك من سيتحمل وِزْره ووِزْر غيره ؟

ونقول لهم : أنتم لم تفهموا المعنى ، فالأول: هو الضَّالُّ الذى يرتكب المعاصى ولكنه لم يُغْرِ بها غيره ، أى : أنه عصى الله ولم يتجاوز المعصية . أما الثانى : فقد ضلَّ وأضل غيره . . أى : أنه لم يكتف بارتكاب المعصية بل أخذ يغرى الناس على معصية الله . وكلما أغرى واحداً على المعصية كان عليه نفس وِزْر مرتكب المعصية .

وهنا يقول الحق : ﴿ **يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا** ﴾ وطبعاً التحليل والتحريم هنا حدث منهم لظنهم أن هذه مصلحتهم ، أى أنهم أخضعوا الأشهر الحرم لشهواتهم الخاصة ، وخرجوا عن مرادات الله فى كونه ، يوم خلق السموات والأرض .

ولكن لماذا يُحلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً ؟ تأتى الإجابة من الحق: ﴿ **لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** ﴾ أى : ليوافقوا عدة ما أحله الله حتى يبرروا ويقولوا لأنفسهم : نحن لسنا عاصين ، فإن كان الله يريد أربعة أشهر حرم ، فنحن قد التزمنا بذلك ! ولكن تشريع الله ليس فى العدد فقط ولكن فى المعدود أيضاً ، وقد حدد لنا رسول الله ﷺ الأشهر الحرم [1] .

وكان عمرو بن لحى أو نعيم بن ثعلبة هما أول [2] من قاما بعملية النسئ هذه ، فأحلَّ شهر المحرم ، وحرَّم غيره .

وهؤلاء الذين قاموا بهذا العمل كانوا يعرفون أن هناك أربعة أشهر حرم بدليل أنهم أحلوا وحرموا . ولو لم يعرفوها ما أحلوا ولا حرموا ، ولكن هم أرادوا أن يُخضعُوا تشريع الله لأهوائهم . وهذا هو المغزى من تحليل

(١) عن أبى بكرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض. السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٧) ومسلم فى صحيحه (١٦٧٩).

(٢) اختلف العلماء فى تحديد أول من نسأ الشهور على العرب، فكونه عمرو بن لحى هو قول ابن عباس. أما كونه نعيم بن ثعلبة فهو قول الكلبى. وقد قال ابن إسحاق: إنه القَلَمّس وهو حذيفة بن عبد ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٥٧) وانظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٦٤) والقلمس فى اللغة هو: الرجل الداهية. انظر لسان العرب.

شهر المحرم وتحريم شهر آخر ، وأرادوا بذلك إخضاع مرادات الله لشهوات نفوسهم ؛ لأن المحرم ثابت فيه التحريم ، وهو شهر حرام سواء قام الإنسان بتأجيله أم لم يؤجله ، فهو شهر حرام بمشيئة الله لا مشيئة الناس. ولذلك حكم الحق سبحانه على النسئ بأنه زيادة فى الكفر ؛ لأنك حين تؤخر حرمة شهر المحرم إلى شهر غيره ، تكون قد قُمْتَ بعمليتين ؛ أحللت شهراً حراماً وهذا كفر ، وحرمت شهراً حلالاً وهذا كفر آخر . . أى : زيادة فى الكفر . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ وقد حكم الله عليهم بالكفر بأنهم أحلوا ما حرمه الله .

ثم يقول الحق : ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ والتزيين : هو أمر طارئ أو زائد على حقيقة الذات مما يجعله مقبولاً عند الناس ، فالمرأة مثلاً لها جمال طبيعى ، ولكنها تتزين بأن تبالغ فى إظهار مفاتنها حتى تكون أجمل فى عيون الرجال ، هذا هو التزيين . إذن : فالتزيين تغيير فى المظهر وليس فى الجوهر . وهناك تزيين فى أشياء كثيرة ، تزيين فى الفكر مثلاً ، بأن يكون هناك استعداد للقتال فيأتى القائد فيزين للمقاتلين دخول المعركة ، ويقول : أنتم ستنتصرون فى ساعات ، ولن يصاب منكم أحد وسيفرّ عدوكم ؛ هذا تزيين محمود.

ولذلك أراد الحق أن يكشف لنا حقيقة التزيين الذى قاموا به حين حللوا حرمة الأشهر الحرُم ، وكشف لنا سبحانه أن هذا لون من التزيين غير المحمود فقال : ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ وما دام قد زُيِّن لهم السوء فهذا العمل قد خرج عن منطقة الهداية ، وخرج عن نطاق التزيين المحمود إلى التزيين السيئ . وما داموا قد خرجوا عن هداية الله فلن يعينهم الله ؛ لأنه سبحانه لا يعين من كفر ، ولا يعين من ظلم ، ولا يعين من فسق.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أنهم بكفرهم قد أخرجوا أنفسهم عن هداية الله ، فالحق سبحانه لم يمنع عنهم الهداية ، بل هم الذين منعوها عن أنفسهم بأن كفروا فأخرجوا أنفسهم عن مشيئة هداية الله لهم ، وهذا ينطبق فقط على هداية المعونة ، ونحن نعلم أن لله سبحانه هداية دلالة وهداية معونة ؛ هداية الدلالة هى للمؤمن وللكافر ، ويدل الله الجميع على المنهج ، ويريهم آياته ،وتبلغ الرسل منهج السماء الذى يوضح الطريق إلى رضاء الله والطريق إلى سخطه وعذابه . فمن آمن بالله دخل فى مشيئة هداية المعونة ، فيعينه الله فى الدنيا ويعطيه الجنة فى الآخرة. أما من يرفض هداية الدلالة من الله ، فالله لا يعطيه هداية المعونة ؛ لأن الكفر قد سبق من العبد . وكذلك الظلم والفسق ، فيكون قد منع عن نفسه هداية المعونة بارتكابه لتلك الآثام.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [التوبة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

إذن : هم الذين قدَّموا الكفروالظلم والفسوق، فمنعوا عن أنفسهم هداية المعونة التى قال الحق عنها :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وبعد أن طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يواجهوا الباطل جميعاً ، كما يجتمع الباطل عليهم ويقاتلهم جميعاً . يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

وساعةَ تسمع ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهذا نداء خاص بمن آمن بالله ؛ لأن الله لا يكلف من لم يؤمن به شيئاً ، ولكنه كلف الذين آمنوا ، فلا يوجد حكم من أحكام منهج الله فيه تكليف لكافر أو غير مؤمن . ولكن أحكام المنهج موجهة كلها للمؤمنين . ولذلك ساعةَ تسمع : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تعرف أن الله يخاطب أو يأمر من آمن به ؛ لأنك أنت الذى آمنت باختيارك ، ودخلتَ على الإيمان برغبتك ، فالحق سبحانه لم يأخذك إلى الإيمان قهراً ، ولكنك جئت للإيمان اختياراً ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى لك : ما دُمْتَ قد آمنت بى إلهاً قادراً قيُّوماً ، له مطلق صفات الكمال ، فاسمع منى ما أريده لحركة حياتكَ.

ولا يحسب أحد أنه قادر على أن يدخل فى الإيمان ولا ينفذ المنهج [1] ، ولا يحسب أحد أنه قادر أن يضر الله شيئاً ، وسبق أن ضربنا المثل بالمريض الذى يختار أبرع الأطباء ، ولم يجبره أحد على أن يذهب إليه ، وأجرى الطبيب الكشف على المريض ، وحدد الداء وكتب الدواء ، ولكن المريض بعد أن خرج من العيادة أمسك بتذكرة الدواء ومزقها ، أو أنه اشترى الدواء ولم يتناوله . أيكون بذلك قد عاقب الطبيب أم عاقب نفسه ؟

(١) وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

إن الطبيب لن يتأثر ولن يضره شيء مما فعله هذا المريض ، ولكنه هو الذى سيزداد عليه المرض ويقود نفسه إلى الهلاك ، وكذلك الإنسان إن لم يتبع منهج الله ، فإنه يضيع نفسه ويُغرقها فى الشقاء ؛ لأن الحق سبحانه قد وضع هذا المنهج وفيه علاج لكل أمراض الإنسان ، فإن عمل به الإنسان نجا من بلاء الدنيا ، وإذا عمل به مجتمع لن يظهر فيه الشقاء . بل يمتلئ بالرخاء والأمن والطمأنينة ، ومن لم يعمل به فلن يضر الله شيئاً ، بل يحصل على الشقاء ويهلك نفسه.

وحين يخاطب الحق سبحانه الذين آمنوا يوضح : خذوا منى هذا التكليف ففيه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأى تكليف أو نهياً من نواهيه ، إلا مسبوقاً بقوله سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مثل قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ... ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة]

وهذه التكليفات لمَ تأتِ مبنية للمعلوم ، فمن الذين يكتب ؟ إنه الحق سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أى : أن الكتابة أتت من كثير . ونقول : صحيح أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كتب ، فلماذا لم يقل : يأيها الذين آمنوا كتبتُ عليكم . ولماذا يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ؟. ونقول : لأن الله وإن كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين

آمنوا به ، وأنت بإيمانك أصبحت ملتزماً بعناصر التكليف [1] ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ثم يلزمك ، ولكن التزامك تم فى نفس اللحظة التى دخلت فيها باختيارك فى الإيمان . وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتبتْ علينا باختيار كل منا ، فمن لم يَخْتَرْ الإيمان ليس مكتوباً عليه أن ينفذ أَحكام الإيمان ؛ لأنها لا تُنفذ إلا بالعقد الإيمانى بيننا وبين الحق سبحانه ؛ وقد احترم سبحانه دخولنا فى هذا العقد ، فلم ينسبه لذاته العلية فقط ، بل شمل أيضاً كل مَنْ دخل فى الإيمان.

ولذلك فإن سأل أحد عن حكمة التكليف من اللهَ ، نقول له : إن الحكمة تنبع من أنه سبحانه هو الذى كَلَّف . ثم إن معرفة الحكمة لا تكون إلا من المساوى للمساوى ، فإن ذهب المريض إلى الطبيب وكتب له الدواء ، وظل المريض يناقش الطبيب فى الدواء وفوائده ؛ فالطبيب يرفض المناقشة ، ويقول للمريض : ادخل كلية الطب واقْضِ فيها سبع سنوات ، واحصل على الدرجات العلمية ، ثم تَعَالَ وناقشنى.

إذن: فأنت تربط علة التكليف بأمر المكلف ، مع أن المكلف من البشر قد يخطئ . أما إذا جئنا بمجموعة من الأطباء ليكشفوا على مريض احتار الطب فيه ، ثم جلسوا بعد الكشف يتناقشون ، فكل منهم يقبل مناقشة الآخر ؛ لأنه مُسَاوٍ له فى الفكر والثقافة والعلم إلى آخره ، لكن إنْ أردتَ أن تسأل عن الحكمَة فى تكليف من الله فلن تجد مساويًا لله سبحانه وتعالى ، وبذلك تكون المناقشة مرفوضة.

---

(١) ويتضح هذا من حديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٦) ومسلم (١٩). قال ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى (٣/ ٣٥٩): « قوله : « فإن هم أطاعوا لك بذلك » أى : شهدوا وانقادوا . واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دُعوا أولاً إلى الإيمان فقط ، ثم دُعوا إلى العمل».

إذن : فالمكلف لابد أن تكون له منزلة سابقة على التكليف ، ومنزلة الحق أنك آمنت به ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغنى بألم الجوع ؛ ليعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن الفقير ؛ لأنه يعرف ألم الجوع جيداً . وإذا قيل لنا : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا . نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لما أسقط الله فريضة الصوم عن المريض فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... (١٨٥) ﴾ [البقرة]

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتى إنسان ويقول : إن علة فرض الصوم هى شفاء الأمراض ؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسْمَح معها بالصوم .

إذن : فنحن نصوم لأن الله فرض علينا الصوم ، وما دام الله قد قال فسبب التنفيذ هو أن القول صادر من الله سبحانه ، ولا شئ غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تزيدنا إيماناً ، مثلما ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان ؛ لأن لحم الخنزير ملئ بالميكروبات والجراثيم التى يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قَلَّلَ هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير ؛ لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أى مصدر آخر .

ونعود إلى خواطرنا حول الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ ، ونجد كلمة : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ تأتى حين نتعجب من حال لا يتفق مع حال ، وكأن حرب المؤمنين للكفار

أمر متوقع وتقتضيه الحال ؛ لأن المؤمنين حين يقاتلون الكفار إنما يدخلون شيئاً من اليقين على أهل الاستقامة ، فأهل الاستقامة إن لم يجدوا من يضرب على أيدى الكافرين فقد ينحرف منهم من تراوده نفسه على الانحراف ، أما إن وجد من يضرب على أيدى الكفار ، فإنه بفعله هذا يربب فى المؤمن إيمانه ؛ لأنه يرى عدوه وهو يتلقى النكال . كأن تقول للتلميذ : ما لك تهمل فى مذاكرتك وقد قَرُبَ الامتحان ؟ أى : أن المفروض أنه إذا قرب الامتحان لابد أن يجتهد الطالب فى المذاكرة . فإن أهمل التلميذ عمله فنحن نتعجب من سلوكه ؛ لأنه لا يتفق مع ما كان يجب أن يحدث . وبذلك نستنكر أن يحدث مثل هذا الإهمال ، مثلما نستنكر ونتعجب من مريض يترك الدواء بينما هو يتألم.

ويتعجب الحق سبحانه هنا من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْنَ إلى القتال ؛ لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً ، كما أنه ثانياً يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع فى أى وقت . ويعطى ثالثاً شيئاً من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين.

إذن : فَلكَىْ يبقى المجتمع المؤمن قوياً وآمناً ؛ لابد أن يوجد استعداد دائم للقتال فى سبيل الله ورغبة فى الشهادة ، وهنا يقول الحق : ﴿**مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ فكأن الاستعداد المستمر للقتال فى سبيل الله أمر لابد أن يوجد بالفطرة وبالعقل ، فإذا ضَعُفَ هذا الاستعداد أو قَلَّ صار هذا

الأمر موطناً للتعجب ؛ لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائماً ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال فى سبيل الله أو أن يتكاسلوا.

وقوله سبحانه : ﴿ انفِرُوا ﴾ من «النفرة» وهى الخروج إلى أمر يهيج استقرار الإنسان ، فحين يكون الإنسان جالساً فى مكانه ، قد يأتى أمر يهيجه فيقوم ليفعل ما يتناسب مع الأمر المهيج ، فأنت مثلاً إذا رأيت إنساناً سيسقط فى بئر ، فهذا الأمر يهيجك ، فتنطلق من مكانك لتجذبه بعيداً ، ومنه النُّفْرة التى تحدث بين الأحباب الذين يعيشون فى وُدٍّ دائم ، وقد يحدث بينهم أمر يُحوِّل هذا الود إلى جَفْوة.

إذن : فكلمة ﴿ انفِرُوا ﴾ تدل على الخروج إلى أمر مهيج ، وهو المنطق الطبيعى الذى يجب أن يكون ؛ لأن عمل الكفار يهيج المؤمنين على مواجهتهم . وقول الحق سبحانه : ﴿ انفِرُوا ﴾ يدل على الاستفزاز المستمر من الكفار للمؤمنين . ويقول الحق تعالى : ﴿ **مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ** ﴾ .

والثقل معناه : أن كتلة الشئ تكون زائدة على قدرة من يحمله ، فإن قلت : إن هذا الشئ ثقيل فهذا يعنى أن وزنه مثلاً أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع أن تحمله . أما التثاقل فهو عدم موافقة الشئ لطبيعة التكوين. كأن تقول : فلان ثقيل أى أن وزنه ضخم ولا يستطيع أن يقوم من مكانه إلا بصعوبة ، ولا أن يتحرك إلا بمشقة.

ولكن التثاقل معناه تكلف المشقة ، أى : لك قدرة على الفعل ، ولكنك تتصنع أنك غير قادر ، كأن يكون هناك - على سبيل المثال - شئ وزنه رطل ، ثم تدَّعى أنه ثقيل عليك ولا تستطيع أن تحمله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ أى : تكلفتم الثقل بدون حقيقة، فأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم.

وهكذا نعرف أن الموقف يقتضى النفرة ليواجهوا الكفر ؛ لأن المنهج الذى ارتضوه لأنفسهم والتزموا به يحقق السلامة والأمن والاطمئنان لهم ولغيرهم ، وكأن التثاقل إلى الأرض له مقابل ، فالنفرة تكون فى سبيل الله ، والمقابل فى سبيل الشيطان أو فى سبيل شهوات النفس.

لقد تحدث العلماء فى المسائل التى تجعل الإنسان يُقبلُ على المعصية ، وهى النفس التى تُحدِّث الإنسان بشئ ، فالإنسان يقبل عَلى المعصية بهذين العاملين فقط . فما الفرق بين الاثنين ؟ وكيف يتعرف الإنسان على ذلك ؟ قال العلماء : إذا كانت النفس تُلحُّ عليك أن تفعل معصية بعينها بحيث إذا صرفتها عنها عادت تُلحُّ عليك لاقتراف نفس المعصية لتحقق متعة عاجلة ، فهذا إلحاح من النفس الأمَّارة بالسوء.

ولكن الشيطان لا يريد منك ذلك ، إنه يريدك مخالفاً لمنهج الله على أى لون ، فإذا استعصى عليه أن يجذبك إلى المال الحرام ، فهو يزين لك شهوة النساء ، فإذا فشل جاء من ناحية الخمر . إذن : فهو يريدك عاصياً بأى معصية ، ولكن النفس تريدك عاصياً بنفس المعصية التى تشتهيها. وهذا هو الفرق.

وهكذا نعرف أن هناك واقعين ، واقعاً يدعو المؤمنين إلى قتال الكفار الذين يفسدون منهج الله فى الأرض ، وواقعاً يدعوهم إلى أن يتثاقلوا عن هذا القتال ، وذلك إما بسبب حب الدنيا لتحقيق شهوة النفس أو إغراء الشيطان ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ والرضا هو حب القلب ، فيقال : فلان رَاضٍ لأنه مسرور بالحال الذى هو فيه.

ومعنى تثاقل المؤمنين عن القتال فى سبيل الله ، أن هناك شيئاً قد غلب شيئاً آخر فى داخل نفوسهم ، فالرضا بالحياة الدنيا قد تغلَّبَ على حب الآخرة . ولكن المنطق الإيمانى يقول : إنه إذا كان هناك أمر آخر غير الدنيا ، أو حياة أخرى غير حياتنا الدنيوية ، فلابد أن نقارن بين ما تعطيه الدنيا وبين ما تعطيه الآخرة ، فإذا رضينا بما تقدمه لنا هذه الحياة المادية ، يكون المؤمن بلا طموح وبلا ذكاء ؛ لأنه رضى بمتاع قليل زائل وترك متاعاً أبدياً ممتداً بقدرة الله.

وأنت لو نظرت إلى الدنيا نظرة فاحصة ، تجد أنها متغيرة متبدلة ، فالصحيح يصبح مريضاً ، والغنى يصبح فقيراً ، والقوى يصبح ضعيفاً.

إذن : فمتاع الدنيا متغير ولا عصمة لك فيه ، وأنت لا تستطيع أن تعصم نفسك من المرض أو من الضعف أو من الفقر ؛ لأن هذه كلها أغيار تحكمك ولا تحكمها أنت ؛ تقهرك ولا تستطيع أنت أن تقهرها . فإن رضيت بمتاع الدنيا اليوم فأنت لا تضمن استمراره إلى غد.

ولهذا ينبغى ألا تؤخر تنفيذ ما يكلفك به الله ؛ لأنك الآن تستطيع أن تؤديه ، لكن أنت لا تضمن إن كنت قادراً غداً أم لا [١]. كذلك لا تأخذ التكليف على أنه قد يسلبك حريتك أو مالك ، بل هو يسلبك ويعطيك فى نفس الوقت. فإذا أمر الله سبحانه بأن تُخرجَ الزكاة ، قد تعتقد أن هذا يُنقصُ مالك [٢]، أو تقول : هذه غرامة. نقول : إن هذا فى ظاهر الأمر قد

---

(١) عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبى. وقد أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٢) من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً بسند صحيح، قاله ابن حجر فى الفتح (١١/ ٢٣٥).

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم (٢٥٨٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) والترمذى فى سننه (٢٠٢٩).

يكون صحيحاً ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك ويُنميه [١] فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مثْل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذى يأخذ منك الآنَ وأنت غنى ، هو بذاته الذى سوف يعطيك إن افتقرتَ ولجأت إلى الناس. فإذا كان الحكم الذى سيأخذ هو الذى سيعطى تكون هذه عدالة وتأميناً ضد الأغيار ، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها ، وساعةَ تعطى أنت الذى لا يملك، لابد أن تتذكر أنه قد يأتى عليك يَوْمٌ لا تملك فيه.

وكلمة دنيا بالنسبة لحياتنا أعطتنا الوصف الطبيعى الذى ينطبق عليها ؛ لأن "الدنيا "مقابلها "العليا " . والحياة العليا تكون فى الآخرة . فإذا كانت هذه هى الحياة الدنيا . فلماذا تربط نفسك بالأدنى إلا أن يكون ذلك خَوَراً فى العزيمة ؟

والمثال للقوة الإيمانية هو : سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكان قبل أن يصبح خليفة المؤمنين يرتدى أفخر الثياب ويتعطر بأجمل العطور ، وكان الناس يدفعون أموالاً لمن يغسل ثياب عمر بن عبد العزيز ليدخلوا ثيابهم مع ثيابه حتى تمتلئ عطراً . وذلك من غزارة وجود العطر الذى كان يضعه عمر بن عبد العزيز على ثيابه فتخرج كل الثياب مليئة بالعطر . وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ، كانوا يأتونه بالثوب الخشن الذى كان يرفض ارتداءه قبل الخلافة ، فيرفضه ويقول : هاتوا أخشن منه ، وامتنع عن العطر ، أى : أن معاييره قد تغيرت وليس فى هذا أدنى تناقض ، بل هو علو فى الحياة ، ولذلك قال : اشتاقت نفسى إلى الإمارة فقلت لها : اقعدى يا نفسُ ، فلما نلْتُهَا اشتاقت نفسى إلى الخلافة فنهيتها عن ذلك ، فلما نلْتُها ؛ أى نال الخلَافة ، اشتاقت نفسى إلى الجنة فسلكتُ كل طريق يؤدى إليها [٢].

(١) انظر إلى قول رسول الله ﷺ : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله تعالى بيمينه، فيربيها كما يربى أحدكم فلوه (مهره) أو قلوصه (الفتية من الإبل) حتى تكون كالجبل أو أعظم » وهو حديث متفق عليه من حديث أبى هريرة ، أخرجه البخارى (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤).
(٢) أورد هذا الأثر أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء (٥/ ٣٣١).

وهكذا نعـرف أن سلوكـه رضى الله عنه لم يكن فى تناقض بل تعليـة للصفقة الإيمانية . كان دائماً فى علو يريد أن يواصله ، فقد اشتاق أولاً إلى الإمارة ، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق للخلافة ، فلما تحققتْ أراد أن يعلوَ فاشتاق إلى الجنة ، إذن : فهو دائماً فى عُلُوٍّ.

وأقـول : ليس فى سلوكـه أدنى تناقض ؛ لأن علمـاء النفس يفسـرون التناقض فى السلوك البشرى على أنه اختلاف فى المقارنة ، فالإنسان يقارن بشئ ثم يقارن بشئ آخر وهكذا ؛ لأن كل شئ فى الدنيا نسبى . ومعنى النسبيـة أن ينسب الشئ لما حوله ، فإذا قلت : إننى أسكن فوق فلان ، فـأنت فى نفس الوقت تسكن تحت فـلان الذى يعـيش فى الطابق الذى يعلوك.

إذن : فـأنت فوق فلان وتحت فـلان فى نفس الوقت ، فلا تأخذ نقطة وتغفـل عن الأخرى ، وهذا اسـمه "معنى إضـافى" أى : أن المعـانى لا تتحقق بذاتها ، ولكن بالنسبة إلى شئ تقاس به ، وكذلك المقاييس بين الأشياء يجب أن نقيسها بالأمور التى تُصعد لك القيمة . فأنت إذا نظرت إلى الدنيا ؛ تجد أن الحق سبحانه أسماها : دُنْيا ولم يجد اسماً أقلَّ من هذا ليسميها به ، لماذا ؟ لأنك تتنعم فى الدنيا على قدر وجودك فيها ، أى على قدر عمرك ، وهو مهما زاد وطال فهو سنوات معدودة ، وقد يكون متاعك منها حتى سنِّ الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين . أو أكثر من ذلك أو أقل . ومتاعك فيها بما تحققه قدراتك ، فالذى عنده ألف جنيه يتمتع على قدرها ، والذى عنده عدة ألوف متاعه على قدرها ، وصاحب الملايين متاعه أكبر.

إذن : فكل واحد يتمتع بقدر ما عنده من مال . وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى متاع فى الدنيا ؛ متاع صاحب الملايين ، فهذه الملايين إما أن تزول عن صاحبها ، وإما أن يترك هو هذه الملايين بالموت . وهذه تتحقق وهذه تتحقق. إذن : فنعمة الدنيا إما أن تنخلع منك أو تنخلع أنت منها.

فإذا جئتَ إلى المقابل وهو الآخرة تجد أن النعيم فيها دائم لايزول عنك ، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت ، وأنت لا تتمتع في الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدرة الله سبحانه . فكأن المتاع أكبر كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه. فمثلاً : إن كان معك ريال وجاءك رجل فقير فأعطيته له ليأكل به ، تكون في ظاهر الأمر قد آثرتَ الفقير على نفسك ؛ لأنك أعطيته كل ما تملك ليأكل به وحرمت نفسك منه ، ولكنك في الحقيقة فضَّلْتَ نفسك على الفقير ؛ لأنك أعطيته هذا الريال ليكون عند الله عشرة إلى سبعمائة ضعف ، فمَنْ منكما الذي استفاد ؟ ومَنْ منكما الذي انتفع ؟ إنه أنت.

ولذلك نجد أن الدين الصحيح ضد الأنانية الحمقاء ، ويُعْلى فيك الأنانية العاقلة بأن يجعلك تحب نفسك حباً أعلى. فأنت حين تتصدق تحب نفسك ، ولذلك تريد أن تعطيها الأعلى والأنفع . فظاهر الأمر أنك أعطيت ، وفي حقيقته أنك قد أخذت . وأنت حين تعطي إنساناً مساوياً لك كأن تقدم له هدية في مناسبة معينة ، تنتظر أن يرد إليك الهدية بمثلها في مناسبة أخرى . إذن : فالعطاء مُتَساو ، وقد يرد هذا الإنسان الهدية ، وقد لا يردها . وقد ينوي ردها ولكن تصادفه ظروف لا تُمكِّنه من أن يردها لك. لكن الحق سبحانه يقول:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...(٢٤٥)﴾ [البقرة]

إذن : فحينما تعطي ابتغاء وجه الله فأنت لاتحصل على عطاء مُسَاو لما أعطيت . لكنك تحصل على عطاء مضاعف أضعافاً مضاعفة . والذي يعطيك الثواب هو الله سبحانه وتعالى دائم الوجود ، ولن ينفد عطاؤه لك ؛ لأنه دائم القدرة ، ولن يأتي عليه وقت يكون غير قادر على أن يرد

لك ما أعطيت ؛ لأن عنده كنوز السماوات والأرض ؛ وهو سبحانه قادر على أن يضاعف لك مهما كانت قيمة عطائك . فإن فضَّلْتَ الحياة الدنيا على الآخرة ، فأنت تقيس بمقاييس الكمال عندك وهى مقاييس ساقطة وهابطة ، ولو كنت تملك المقياس الصحيح لعرفتَ أن الذى يحقق لك النفع الأكبر هو أن تعطى وتعمل طلباً للآخرة وليس للدنيا . ولذلك فالحق سبحانه يقول هنا : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ أى : أنكم أردتم الحياة الدنيا بدل الآخرة . وهذه مقارنة غير عاقلة وغير حكيمة .

وكلمة ﴿ مِنَ ﴾ تدل على البدل فى قوله : ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ومادة البدل والاستبدال البيع والشراء ، ونعرف أن الباء تدخل على المتروك ، فأنت تقول : اشتريت الشىء بكذا درهم ، أى : تركت الدراهم مقابل شرائك الشىء ، كأن هؤلاء الراضين بالحياة الدنيا قد أخذوا الدنيا بدلاً من الآخرة ، وهذه صفقة تخلو من العقل والحكمة .

وبعد أن استنكر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يرضوا بالحياة الدنيا ويتركوا الآخرة يقول سبحانه : ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ والمتاع : هو ما يستمتع به . والإنسان لا يستطيع أن يوقن أنه سيستمتع بالحياة ، وهذا أمر مطعون فيه ، فليس كل كائن حى مستمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء وهناك تعساء ، وهناك مَنْ حياتهم كلها تعب ، وحتى أولئك المستمتعون بالحياة فى الحاضر ، مَنْ يُدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم ؟ ألا يمكن أن يكون استمتاعهم هذا وقتياً ؟ ألا يمكن أن يأتيهم ظرف من الظروف ؛ أو قدر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء ؟

إننا نجد العقلاء - حين يرون فى نعمة الله عليهم ما يكدر حياتهم - يشكرون الله ، بينما نجد الإنسان السطحى التفكير والفهم يستاء وينفعل ويزيد الموقف معاناة . العاقل - إذن - يعرف أن الإنسان يعيش فى دنيا

أغيار ، ومعنى أننا نعيش فى دنيا أغيار أنه تأتى أحداث تنقلنا من حال إلى حال ، أى من الغنى إلى الفقر . أو من الصحة إلى المرض إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلبة المتغيرة ، ففى الدنيا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغياراً ؛ فأحوال الناس تتغير فيها دائماً.

وهَبْ أن إنساناً وصل إلى القمة التى لا يوجد أعلى منها . نقول له : لا داعى أن يأخذك الفرح والكبر والخيلاء ، ولا تنس أنك تعيش فى دنيا أغيار ، وأن دوام الحال من المحال ، فلو دامت لغيرك ما وصلتَ أنت إلى القمة ؛ لأن مَنْ كان عليها سقط فصعدتَ أنت .

إذن: فمعنى هذا أنك وإن وصلتَ للقمة فلن تثبت عليها وتبقى هكذا بلا تغيير . وما دمتَ قد وصلت إلى أعلى ما يمكن ، فالتغيير الوحيد الذى يمكن أن يحدث لك هو أن تنزل ؛ لأنك وصلت إلى قمة الصعود ، ولم يَعُدْ بعدها شىء تصعد إليه . فالتغيير المتوقع لابد أن يكون إلى أسفل ، ويقال : « ترقَّبْ زَوالاً إذا قيل تَمّ » ، ولهذا نجد أهل الحكمة والبصيرة يقولون : إن المصائب فى الأموال والأنفس من تمائم النعمة ، وكأن الحق لا يريد أن يتمم النعم ؛ لأنها إن تمت تزول ؛ لأن المصيبة ما دامت قد حدثت فلابد أن تزول.

وسبحانه حين يقول: ﴿ **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ يريد أن يبين لنا أن متاع الآخرة أكبر ، فأنت حين تقول: شىء فى شىء . فأيهما يكون أكبر ؟ إنه الذى يدخل فيه الشىء الآخر ، فإذا قلنا : فلان فى البيت ، فمعنى ذلك أن البيت أكبر من فلان هذا ، وإلا لما احتواه داخله . وإن قلنا : محمد فى جدة أو فى المملكة السعودية أو فى مصر ؛ يكون هناك ظرف ومظروف ، والمظروف عادة أوسع من الظرف ، وسعته كبيرة لدرجة أنها تحيط بالظرف من كل جوانبه .

وقول الحق سبحانه: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ معناه: أن متاع الدنيا يتوه فى متاع الآخرة ؛ لأن متاع الآخرة أوسع ويحتوى متاع الدنيا ويزيد ، وما دام الكلام بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فمعنى ذلك أن سعة متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا لا نهائية . فإذا زاد الحق سبحانه وقال: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ فهو لإعطاء صورة لسعة متاع الآخرة.

لكن هذا الاستثناء فى قوله تعالى ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ إنما هو لمخاطبة العقول بالنسبة لقمة المتمتعين فى الدنيا .

ومثال هذا : أنك تجد إنساناً قد أعطاه الله قمة متاع الدنيا ، وتجده يعتقد أن المتاع لايمكن أن يزيد على ما وصل إليه ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى له: لو أنك متمتع بكل ما تستطيع أن تعطيه لك الدنيا فهو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

وإذا كان غير المتمتع بشىء من متاع الدنيا ينظر إلى مَنْ أعطاه الله سبحانه وتعالى قمة متاع الدنيا ويتساءل : هل هناك متاع أكثر من ذلك ؟ إن هذا الإنسان متمتع بكذا وكذا وكأنه يعيش فى الجنة ، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك متاع أكثر من هذا . نقول له: لا، إن ما تحسبه نهاية لما يمكن أن يتمتع به الإنسان هو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ليس مقصوداً به المتعة العادية للدنيا التى يتمتع بها الناس ، ولكن المقصود به متاع القمة الذى لا يصل إليه ولا يحدث إلا لأفراد قليلين فى العالم . فقد يعيش إنسان فى قصر ضخم ، وحوله المئات من الناس يخدمونه ، وعنده من الأجهزة الإلكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أن يريد شيئاً يضغط على زر صغير فيجد ما يريده

أمامه ، وكل شيء حوله يحقق له رغباته ، بل إنه يعيش فى درجة الحرارة التى يريدها داخل قصره ، وعنده أفخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن ينتقل من مكان إلى آخر ؛ ضغط على زر فيتحرك به الكرسى إلى المكان الذى يريده ، وكل مَنْ حوله يطيعونه طاعة عمياء ، فكل رغباته أوامر ، وحياته تشبه الحلم الجميل .

إذا عاش إنسان فى هذا الجو وانبهر بهذه النعم كلها يستوقفه رب العزة سبحانه ويوضح له : لا تنبهر ، فهذا المتاع الذى تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل .

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها ، يوضح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العجب ، فكل هذا الذى ترونه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ يدل على أن فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتحب القليل من النعم بل تريد الكثير ، ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يُنفِّر عباده من أن تفتنهم نعم الدنيا مهما بلغت ، فيوضح لهم : لا تظنوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نعم قليلة بالنسبة لما ينتظركم فى الآخرة ، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم ، ففى هذه الحالة لن تفتنه نعم الدنيا ، بل سوف يطلب نعم الآخرة . ورسول الله ﷺ يقول : « لو أن ابن آدم أعطى وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً »[1]

أى : أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار واد واحد . فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٣٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣٣٧) عن عبد الله بن الزبير .

لماذا ؟ لأن كثيراً من الناس ينسون الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أن يحتاط لنفسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أن يحتاط لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أن يحتاط لأحفاده . ولكن المؤمن الحق هو من يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصيرة تنتهى ، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط ، ولكن الذى يحرص على عملية الاحتياط هذه هو من يظن أن الحياة الدنيا هى الغاية من الخلق ، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شىء يمكن أن تعطيه لهم حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى.

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يَجدُّ فى دروسه ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَع كثيرة ؛ لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمان مؤقت . وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدخل المرتفع إلى آخر ما يمكن أن يعطيه له المستقبل . أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ويقضى وقته فى اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوة عاجلة ليظل فى معاناة بقية حياته.

إذن : فكل من الطالبين أعطى نفسه ما تريد ؛ الأول : أعطى نفسه مستقبلاً مريحاً ممتداً ، وصار قمة من قمم المجتمع ، والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صعلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً.

إذن: فإياك أن تنظر تحت أقدامك فقط ؛ لأن العالم لا ينتهى عند موقع وقوف قدميك هاتين ، ولكنه ممتد إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق ، فلا يليق بك أن تختار متعة وقتية قليلة.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾

[التوبة]

نزل فى غزوة تبوك [١]، وهى أول غزوة للمسلمين مع غير العرب ، وسبقتْها كل المعارك بين المسلمين وبين الكفار والمشركين ، ودارت على أرض الجزيرة العربية معارك مع المشركين فى بدر أو فى مكة ، أو مع اليهود فى مجتمع المدينة ، فقد كانت هذه معارك فى محيط الجزيرة العربية ، ولكن غزوة تبوك كانت مع الروم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية . وحينما بدأ تجهيز الجيش ليذهب إلى تبوك لمحاربة الروم تثاقل المسلمون . وهنا يبرز استفهام : كيف يحارب المسلمون الروم ، وهم الذين حزنوا حين انتصر الفرس على الروم ؟ أيحزن المسلمون لهزيمة الروم ثم يذهبون ليحاربوهم ؟

نقول : نعم ؛ لأن المواقف الإيمانية ليست مواقف فى قالب من حديد ، ولكنها تتكيف تبعاً لمواقف الكفار من الإيمان والإسلام.

ولذلك فإن المؤمن الحق ينفعل للأحداث انفعالاً إيمانياً ، وعلى سبيل المثال ، نجد قلب سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه مملوءاً رقة ورحمة ،

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٦٦) : « لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً على تخلّف من تخلّف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ».

بينما قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مملوءاً قوة وحزماً ، انظر إلى موقف الاثنين عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ؛ وارتد عدد من المسلمين عن الإسلام ، ومنعوا الزكاة ؛ وقرر أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن يحارب هؤلاء المرتدين ؛ لأنهم أنكروا ركناً من أركان الإسلام ، هنا وقف عمر بن الخطاب ضد رأى أبى بكر وقال : يا أبا بكر أنحارب أناساً شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال أبو بكر : أجبار يا عمر فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ؟ و الله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه [1] .

وهكذا انقلبت المواقف ؛ فالقوة والشدة ملأت قلب أبى بكر الذى كان مشهوراً بالرقة والرحمة والعطف ، بينما امتلأ قلب عمر باللين ، وهو المشهور بالشدة والقوة . ولو أن عمر هو الذى قال كلمة أبى بكر لقالوا : شدة ألفها الناس من عمر .

ولكن الناس قالوا عن عمر الشديد : « قد لانَ قلبه بينما اشتد قلب أبى بكر » هذه هى المواقف الإيمانية التى تملأ نفس كل مؤمن . فالذى يصنع موقف المؤمن هو إيمانه لا طبعه ؛ ولذلك قال الحق فى وصفه للمؤمنين :

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤)﴾ [المائدة]

(١) عن ضبة بن محصن الغنوى قال : « قلت لعمر بن الخطاب : أنت خير من أبى بكر فبكى وقال : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عُمْر عمر ، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : أما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ وارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نزكى . وقال بعضهم : لا نصلى ولا نزكى ، فأتيته ولا آلوه نصحاً . فقلت : يا خليفة رسول الله تألّف الناس وارفق بهم . فقال : جبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ، فبماذا أتألفهم ؟ أبشعر مفتعل أو سحر مفترى؟ » الحديث أورده المتقى الهندى فى منتخب كنز العمال (٤/ ٣٤٩) وعزاه للدينورى فى المجالسة ، وأبى الحسن بن بشران فى فوائده ، والبيهقى فى دلائل النبوة ، واللالكائى فى السنة .

وكيف يكون الإنسان عزيزاً وذليلاً في الوقت نفسه ؟ وكيف يوصف الشخص نفسه بأنه عزيز وذليل ؟ وكيف يمكن أن يجتمع النقيضان في شخص واحد ؟ لكنك تقرأ ما يطمئنك في قول الحق:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. (٢٩) ﴾
[الفتح]

لقد وصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء ، ووصفهم أيضاً بأنهم رحماء ، ولكي تفهم هذا المعنى عليك أن تعلم أن المواقف الإيمانية هي التي تحدد مشاعر المؤمن ، ولا تحددها طباعه الخاصة والشخصية ، وهو يُكيِّف مواقفه حسب الموقف الإيماني وما يتطلبه ، فهو شديد ورحيم ، وذليل وعزيز .

ونعود إلى غزوة تبوك التي نزلت فيها الآية التي نتناولها بخواطرنا وإلى السؤال: كيف يحارب المسلمون الروم ، وقد حزنوا يوم هزيمة الروم من الفرس ؟ ونقول: لقد حزن المسلمون لأن إلحاداً ينكر الألوهية قد انتصر على إيمان مرتبط برسالات السماء ؛ ولأن الروم - وهم نصارى - مرتبطون برسالات السماء . ولذلك فهم أقرب إلى قلوب المؤمنين من الكفار ، إذن: فالمسألة قد أُخذَتْ من ناحية الوجود الإلهي . أما في غزوة تبوك فقد أُخذَتْ من ناحيةَ قبول المنهج الناسخ ومنع الدعوة له ، ولهذا تحول الموقف في غزوة تبوك إلى عداء إيماني ، وهذا هو السبب الذي أدَّى إلى الحرب [1].

(١) قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٨/ ١١١): « كان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وشيخه وغيره قالوا: بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم بجهة غزوهم ».

فإذا نظرنا إلى الغزوة نفسها نجد أن تبوك تبعد عن المدينة بمسافة كبيرة ، ووقت الغزوة كان صيفاً شديد الحرارة ، كما أنها كانت بعد غزوة حنين التى قاتل المؤمنون فيها قتالاً شديداً . وكان العام عام عسرة ، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام أو خيل أو جمال.

إذن : فقد اجتمعت المشقة فى هذه الغزوة ؛ مع حرارة الجو ؛ وبُعْد المسافة ، وكانت قوى المسلمين مُنْهكَة من غزوة حنين . وكان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج لغزوة ، لا يخبر عنها أصحابه إلا عندما يصلون إلى مكان القتال ؛ إلا هذه الغزوة فقد بيَّنها رسول الله ﷺ لصحابته قبل أن يغادروا المدينة ؛ لكى يستعدوا للمشقة التى تنتظرهم . وتباطأ المسلمون ، وبعضهم كان يستمتع بالجلوس فى ظل البساتين الموجودة فى المدينة ويأكل من ثمارها . واستطاب - هذا البعض - الثمار والظلال ؛ لذلك تباطأوا فى الذهاب إلى القتال ، فنزلت هذه الآية ببيان اللوم ، ثم جاءت الآية التى بعدها لتوضح وتُبيِّن العقوبة ، فقال الحق:

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى : إن لم تذهبوا إلى القتال فإن الله ينذركم بالعذاب . وإذا أنذر الحق فلا بد أن يتحقق ما أنذر به ، فأنتم إن لم تنفروا مخافة العذاب المظنون ، وهو الإرهاق والتعب ، فما بالكم بالعذاب المحقق إن لم تنفذوا أمر الله بالنَّفْرة إلى القتال؟ وإذا كانت المقارنة بين مشقة السفر والقتال والحر

الشديد ، وبين عذاب الله ، فالمؤمن سوف يختار - بلا شك - مشقة الحرب مهما كانت ؛ لأن كل فعل إنما يكون بقياس فاعله ، فمظنة العذاب بالحر ، أو مشقة السفر ، وقسوة القتال لا يمكن قياسها بعذاب الله ؛ لأن العذاب الذى ينتظر مَنْ يتباطأ أو يفِرُّ من الزحف أكبر من مشقة الاستجابة للزحف مهما كانت مرهقة .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ إذن : فلا تظنوا أنكم بتباطئكم ؛ وعدم رغبتكم فى القتال ستضرون الله شيئاً ؛ لأن الله قادر على أن يأتى بخلق جديد ، وهو على ذلك قدير، لذلك يقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]

فلا تظنوا أنكم بما معكم من ثراء أو قوة قادرون على عرقلة منهج الله بالبخل أو التخاذل ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يستبدلكم بقوم غيركم ، يملكون حمية القتال والتضحية فى سبيل الله ؛ لأنه القادر فوق كل الخلق .

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو حيثية للأحكام التى سبقتها من قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ وإن ظن واحد منهم أن هذا كلام نظرى ، فالحق سبحانه يضرب لهم المثل العملى من الواقع الذى شاهدوه وعاصروه حينما اجتمع كفار قريش ليقتلوه فنصره الله عليهم ، فقال جل جلاله:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ووقف المستشرقون عند قول الحق سبحانه: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وكعادتهم - كمشككين في الإسلام - نجدهم يبذلون جهداً كبيراً في محاولة التصيد لأخطاء يتوهمونها في القرآن الكريم فيقولون : إن مهابة القرآن وقدسيته عندكم أيها المسلمون لا تُمكِّن أذهانكم من الجراءة اللازمة للبحث في أساليبه ؛ لتكتشفوا ما فيه من الخلل. ولكن إن نظرتم إلى القرآن ككتاب عادى لا قداسة له فسوف تجدون فيه التضارب والاختلاف .

وخصص المستشرقون باباً كبيراً للبحث في مجال النحو بالقرآن الكريم ، وجاءوا إلى مسألة الشرط والجزاء ، ومن يقرأ نقدهم يتعرف فوراً على حقيقة واضحة هي جهلهم بعمق أسرار اللغة العربية ، فهم قد أخذوا ظاهر اللغة العربية ، ولا يملكون فيها مَلَكة أو حُسْن فهم ، وقالوا: إن أساليب الشرط في اللغة العربية تقتضي وجود جواب لكل شرط ، فإن قلت: إن جاءك زيد فأكرمه ، تجد الإكرام يأتي بعد مجيء زيد ، وإن قلت: إن تذاكر تنجح ، فالنجاح يأتي بعد المذاكرة . إذن: فزمن الجواب متأخر عن زمن الشرط .

وهم قدموا كل تلك المقدمات ليشككونا فى القرآن . ونقول لهم : إن كلامكم عن الشرط وجوابه صحيح ، ولكن افهموا الزائد ، فحين نحقق فى الأمر نجد أن الجواب سبب فى الشرط ؛ لأنك حين تقول : إن تذاكر تنجح ، فالطالب إن لم يستحضر امتيازات النجاح فلن يذاكر ، بل لابد أن يتصور الطالب فى ذهنه امتيازات النجاح ليندفع إلى المذاكرة ، إذن : فالجواب سبب دافع فى الشرط ، ولكن الشرط سبب فى الجواب ولكنه سبب واقع ، فتصوُّر النجاح أولاً هو سبيل لبذل الجهد فى تحقيق النجاح ، وهكذا تكون الجهة منفكة ؛ لأن هذا سبب دافع ، وهذا سبب واقع .

وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ ﴾ فعل مضارع ، زمنه هو الزمن الحالى ، ولكن الحق يتبع المضارع بفعل ماض هو :﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ فهل يكون الشرط حاضراً ومستقبلاً ، والجواب ماضياً ؟ ونقول: إن المعنى : إلا تنصروه فسينصره الله . بدليل أنه قد نصره قبل ذلك . وهذا ليس جواب شرط ، وإنما دليل الجواب ، فحين يكون دليل الجواب ماضياً ، فهو أدل على الوثوق من حدوث الجواب ، فحين دعاهم الله لينفروا فتثاقلوا ، أوضح لهم سبحانه : أتظنون أن جهادكم هو الذى سينصر محمداً وينصر دعوته ؟ لا ؛ لأنه سبحانه قادر على نصره ، والدليل على ذلك أن الله قد نصره من قبل فى مواطن كثيرة ، وأهم موطن هو النصر فى الهجرة ، وقد نصره برجل واحد هو أبو بكر على قريش وكل كفار مكة ، وكذلك نصره فى بدر بجنود لم تروها ، إذن : فسابقة النصر من الله لرسوله سابقة ماضية ، وعلى ذلك فليست هى الجواب ، بل هى دليل الجواب .

ونرى فى قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أن نصر الله له ثلاثة أزمنة ، فـ ﴿ إِذْ ﴾ تكررت ثلاث مرات ، فسبحانه يقول:

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى: أننا أمام ثلاثة أزمنة : زمن الإخراج ، وزمن الغار ، والزمن الذى قال فيه رسول الله ﷺ لأبى بكر: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ، وقد جاء النصر فى هذه الأزمنة الثلاثة ؛ ساعة الإخراج من مكة ، وساعة دخل سيدنا رسول الله ﷺ مع أبى بكر إلى الغار ، وساعة حديثه مع أبى بكر .

ولسائل أن يسأل : هل أخرج الكفار رسول الله من مكة ، أم أن الله هو الذى أخرجه ؟ ونقول: إن عناد قومه وتآمرهم عليه وتعنُّتهم أمام دعوته ، كل ذلك اضطره إلى الخروج ، ولكن الحق أراد بهذا الخروج هدفاً آخر غير الذى أراده الكفار ، فهم أرادوا قتله ، وحين خرج ظنوا أن دعوته سوف تختنق بالعزل عن الناس ، فأخرجه الله لتنساح الدعوة ، وأوضح لهم سبحانه : أنتم تريدون إخراج محمد بتعنتكم معه ، وأنا لن أمكنكم من أن تخرجوه مخذولاً ، وسأخرجه أنا مدعوماً بالأنصار . وقالوا: إن الهجرة توأم البعثة . أى : أن البعثة المحمدية جاءت ومعها الهجرة ، بدليل أن رسول الله ﷺ حينما أخذته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل ، بعد ما حدث له فى غار حراء ، قال له ورقة : ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال ورقة بن نوفل ذلك لرسول الله قبل أن يتثبت من النبوة ، فقال رسول الله ﷺ : أَمُخْرِجِيَّ هم ؟ قال ورقة بن نوفل: نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودِى [1]

إذن : فالهجرة كانت مقررة مع تكليف رسول الله ﷺ بالرسالة ، لماذا ؟ لأنه ﷺ كان أول من أعلن على مسامع سادة قريش رسالة الحق والتوحيد.

(١) متفق عليه من حديث عائشة، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، ومواضع أخرى)، ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .

ففكرة الهجرة مسبقة مع البعثة ؛ ولأن البعثة هى الصيحة التى دوَّت فى آذان سادة قريش وهم سادة الجزيرة . ولو صاحها فى آذان قوم ليسوا من سادة العرب لقالوا : استضعف قوماً فصاح فيهم ، ولكن صيحة البلاغ جاءت فى آذان سادة الجزيرة العربية كلها ، فانطلقوا فى تعذيب المسلمين ليقضوا على هذه الدعوة . وشاء الله سبحانه وتعالى ألا ينصره بقريش فى مكة ؛ لأن قريشاً ألفَتْ السيادة على العرب ، فإذا جاء رسول لهداية الناس عامة إلى الإسلام ، لقال من أرسلَ فيهم : لقد تعصبتْ له قريش لتسود الدنيا كما سادت الجزيرة العربية . فأراد الحق سبحانه أن يوضح لنا : لا . لقد كانت الصيحة الأولى فى آذان سادة العرب ، ولا بد أن يكون نصر الإسلام والانسياح الدينى لا من هذه البلدة بل من بلد آخر ؛ حتى لا يقال : إن العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان برسالة محمد ﷺ . ولكن الإيمان برسالة محمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ﷺ .

ويلاحظ فى أمر الهجرة أن فعلها « هاجر » . وهذا يدلنا على أن رسول الله ﷺ لم يهجر مكة ، وإنما هاجر ، والمهاجرة مفاعلة من جانبين ، فكأن قومه أعنتوه فخرج ، والإخراج نفسه فيه نصر ؛ لأن رسول الله ﷺ خرج وحده من بيته ؛ الذى أحاط به شباب أقوياء من كل قبائل العرب ليضربوه ضربة رجل واحد ، وينثر عليهم التراب فتغشى أبصارهم ، وكان أبو بكر رضى الله عنه ينتظره فى الخارج [1] ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لهم أنهم لن ينالوا من محمد ؛ لا بتآمر خفى ، ولا بتساند علنى . وهذا نصر من الله.

(١) ليس المعنى هنا أن أبا بكر رضى الله عنه كان ينتظر رسول الله ﷺ خارج البيت أو فى مكان قريب منه، ولكن المقصود أنه ﷺ خرج وحده من بيته ليلاً واخترق صفوف أربعين فتى قوياً قد شهروا سيوفهم لقتله إن هو خرج من بيته وكان وحده ، فالثابت فى السيرة أن أبا بكر كان فى بيته مع أهل بيته وقت الظهيرة وجاءه رسول الله ﷺ متخفياً وقال له : « إنى قد أذن لى فى الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله . فقال ﷺ : نعم . وتواعدا ثم خرجا من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر . أخرجه البخارى (٣٩٠٥) وأحمد (٦/ ١٩٨ ، ٢١٢) وأبو نعيم فى دلائل النبوة (ص ٢٧٠) وسيرة ابن هشام (٢/ ٩٧) .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ، ويتأكد فى الغار نصر آخر . ذلك أن قصاص الأثر الذى استعانت به قريش واسمه كرز بن علقمة من خزاعة قد تتبع الأثر حتى جاء عند الغار ، وقال : هذه قدم محمد وهو أشبه بالموجود فى الكعبة ، أى أشبه بأثر قدم إبراهيم عليه السلام ، ثم قال : هذه قدم أبى بكر أو قدم ابنه وما تجاوزا هذا المكان . وكان قصاص الأثر يتعرف على شكل القدم وأثره على الأرض . وأضاف : إنهما ما تجاوزا هذا المكان ، إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا فى جوف الأرض . وبالرغم من هذا التأكيد فإنهم لم يدخلوا الغار ، ولم يفكر أحدهم أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد وصاحبه ، مع أن هذا أول ما كان يجب أن يتبادر إلى الذهن ، فمادامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله . لكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك .

وجاء واحد منهم وأخذ يبول ، فجاء بعورته قبالة الغار ، وهذا هو السبب فى قول أبى بكر لرسول الله ﷺ : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا .

فقال رسول الله ﷺ بفطنة النبوة : لو رأونا ما استقبلونا بعوراتهم [1] وهذا دليل على أن العربى كان يأنف أن تظهر عورته ، أو هى كرامة لمحمد ﷺ ألا يُريه عورة غيره ، وليأخذها القارئ كما يأخذها ، وهى على كل حال فيض إلهامى لرسول الله ﷺ ، كذلك جعل الحق سبحانه العنكبوت ينسج خيوطه على مدخل الغار ، وجعل الحمام يبنى عُشّاً فيه بيض ،

(١) قد جاء هذا فى أحاديث فيها مقال ، فعند الطبرانى من حديث أسماء بنت أبى بكر « فقال أبو بكر - لرجل مواجه الغار - : يا رسول الله إنه ليرانا . فقال : كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا ما فعل هذا » فيه يعقوب بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح . قاله الهيثمى فى المجمع (٦/ ٥٤) وعند أبى يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أبى بكر الصديق قال ﷺ : « لو رآنا لم يستقبلنا بعورته » وفيه موسى بن مطير وهو متروك . وانظر فتح البارى (٧/ ١١)

وجعل سراقة بن مالك يقول : لا يمكن أن يكون محمد وصاحبه دخلا الغار ، وإلا لكانا قد حطَّما عُشَّ الحمام ، وهتكا نسيج العنكبوت .

ونحن نعلم أن أوهى البيوت هو بيت العنكبوت ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١]

ويظهر الإعجاز الإلهى هنا فى : أن الله سبحانه قد صد مجموعة كبيرة من المقاتلين الأقوياء بأوهى البيوت ، وهو بيت العنكبوت ، وقدرة الله تجلَّتْ فى أن يجعل خيط العنكبوت أقوى من الفولاذ، وكذلك شاء الحق أن يبيض الحمام وهو أودع الطيور ، وإنْ أهيجَ هاج . وهذا نصر ، ثم هناك نصر ثالث نفسى وذاتى ، فحين قال أبو بكر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، نجد رسول الله ﷺ يرد فى ثقة بربه: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] .

هذا الرد لا ينسجم مع سؤال أبى بكر ؛ لأن أبا بكر كان يخشى أنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأوا مَنْ فى الغار ، وكان الرد الطبيعى أن يقال: «لن يرونا» ، ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يلفتنا لفتة إيمانية إلى اللازم الأعلى ، فقال: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، لأنه ما دام رسول الله ﷺ وأبو بكر فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ؛ فمن فى معيته لا تدركه الأبصار .

وتكون كلمة رسول الله ﷺ الذى تعوَّد أبو بكر منه الصدق فى كل ما يقول ، تكون هى الحجة على صدق ما قال ، فعندما قال رسول الله ﷺ: إنه أسْرى به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء ، قال أبو بكر:

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) .

إن كان قد قال فقد صدق[1] . فحين يقول رسول الله ﷺ لأبى بكر فيما يحكيه سبحانه : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فلابد أن يذهب الحزن عن أبى بكر ، وقد خشى سيدنا أبو بكر حين دخل الغار ووجد ثقوباً ، خشى أن يكون فيها حيات ، أو ثعابين، فأخذ يمزق ثوبه ويسد به تلك الثقوب ؛ حتى لم يَبْقَ من الثوب إلا ما يستر العورة ، فسدَّ الثقوب الباقية بيده وكعبه[2] .

إذن: فأبو بكر يريد أن يفدى رسول الله ﷺ بنفسه ؛ لأنه إن حدث شيء لأبى بكر فهو صحابى ، أما إن حدث مكروه لرسول الله ﷺ فالدعوة كلها تُهدم . إذن : فأبو بكر لم يحزن عن ضعف إيمان ، ولكنه حزن خوفاً على رسول الله ﷺ أن يُصَابَ بمكروه .

ويأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ اختلف العلماء[3] فى قوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ ، هل المقصود بها رسول الله ﷺ ؟ أو أن المقصود بها أبو بكر ؟ وما دامت السكينة قد نزلت ؛ فلا بد أنها نزلت على قلب أصابه الحزن . ولكن العلماء يقولون : إن الضمائر فى الآيات تعود على رسول الله ﷺ ، فالحق قال: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ ﴾ أى محمداً عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه يقول: ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أى محمداً ﷺ ، ويقول أيضاً: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ أى محمداً ﷺ ، فكل الضمائر فى الآية عائدة على رسول الله ﷺ .

---

(١) سبق هذا الحديث قريباً وقد خرجناه هناك . ومن حديث أبى الدرداء قال النبى ﷺ عن أبى بكر « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ (مرتين) إنى قلت : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم : كذبت، وقال أبو بكر : صدقت» . أخرجه البخارى (٣٦٦١ ، ٤٦٤٠) وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٧٦) .

(٢) قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : « والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شيء نزل بى قبلك ، فدخل فلم ير شيئاً فحمله فأدخله ، وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاعى فخشى أبو بكر أن يخرج منه شيء يؤذى رسول الله ﷺ فألقمه قدمه فجعل يضربنه ويلسعنه الحيات والأفاعى» سبق إيراد جزء منه من حديث ضبة بن محصن ص ٥١١٩

(٣) انظر : تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٧٤) وابن كثير (٢/ ٣٥٨) ، وقد رجح القاضى أبو بكر بن العربى أن سكينة الله إنما نزلت على أبى بكر .

ثم يأتى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ إذن: فلابد أن يعود الضمير هنا أيضاً على رسول الله ﷺ ، وأقول: ولكن لماذا لا نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ وهذا قول رسول الله ؛ ولابد أن قوله هذا يجعل السكينة تنزل على قلب أبى بكر . إذن : فالضمير هنا عائد على أبى بكر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقد رأى الكفار عُشَّ الحمام وبيت العنكبوت ، وهذا ما منعهم من أن يروا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليس هذا هو المقصود - فقط - بالآية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ والعنكبوت والحمام مرئيان ، وأول الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أن ينظروا فى الغار ، مع أن آثار الأقدام انتهت إليه . لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالذات ، ولم تخطر على بالهم . ثم جاء حدث آخر حين استطاع سراقة بن مالك وهو من الكفار أن يلحق برسول الله ﷺ وأبى بكر ، وهما فى طريقهما إلى المدينة ، وكلما حاول الاقتراب منهما ابتلعت الأرض قوائم فرسه فى الرمال [1] ، وعلى أية حال ما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقال فى آية أخرى:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]

إذن: فالجنود الذين سخرهم الله لرسوله ﷺ ليحفظوه خلال الهجرة لا يعلمهم إلا الله . وكل شىء فى هذا الكون من جنود الله ؛ فهو سبحانه

(١) قصة سراقة بن مالك بن جعشم أخرجها مطولة تامة البخارى فى صحيحه (٣٩٠٦) معلقاً مجزوماً به من قول ابن شهاب الزهرى من حديث سراقة ، وأخرجه أحمد موصولاً فى مسنده (٤/ ١٧٦).

وتعالى الذى سخر الكافر لخدمة الإيمان ، ألم يكن دليل رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة هو عبد الله بن أريقط ، وكان ما زال على الكفر [١] ، فكأن الله سبحانه وتعالى يسخر له الكافر ليكون دليله في رحلته من مكة إلى المدينة . وهكذا عمل الكافر في خدمة الإيمان ، وفي الوقت نفسه فكل ما رصدته قريش من جُعل [٢] لمن يدلُّها على مكان رسول الله ﷺ لم يُغْرِ الدليل الكافر بالخيانة ، بل أدخل الله على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله ﷺ .

الحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ ، ولقد أراد الكفار القضاء على الدعوة بقتل رسول الله ﷺ ، أو نَفْيه بإخراجه إلى مكان بعيد ، أو سجنه [٣] ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعلو على الحق ، وأن الحق دائماً هو الأعلى ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ ولا يجعل الله كلمة الكفار السفلى إلا إذا كانت في وقت ما في عُلُوٍّ . وإن كان عُلوها هو علو الزَّبدِ على الماء الذى قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

[الرعد : ١٧]

---

(١) عن عائشة قالت : « استأجر النبى ﷺ وأبو بكر رجلاً هادياً خريتاً ؟ (أى ماهراً بالهداية) . . . وهو على دين كفار قريش ، فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٦٣) . وقد كان ماهراً فعلاً بدروب الطريق إلى المدينة . انظر تفاصيل الطريق الذى سلكه بهما فى سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٠٤ - ١٠٨) .

(٢) الجعل : هو ما رصده كفار قريش مكافأة لمن يدلهم على محمد من مال وغيره .

(٣) ويقول عز وجل فى هذا : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . ومعنى يثبتوك : يجرحوك جراحة . . لا تقوم معها أو ليحبسوك

ولقد ضرب الله هذا المثل فقال:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد : ١٧]

أي : أن كل واد أخذ ما قدره الله له من الماء.

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ [الرعد : ١٧]

وهذا نلاحظه عندما يحدث سيل ، ونجده يأخذ معه القَشَّ والقاذورات التي لها كثافة قليلة ؛ لتطفو على سطح الماء ، ولكن أتظل عليه ؟. لا ، بل تُطرد إلى الجوانب بقوة التيار ويبقى الماء نظيفاً . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن كلمة الكفار كانت فى عُلُوٍّ كالزَّبد ، ولكن : لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر ؟ أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شيء عال فيجعله أسفل ؛ ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمقابل وقال : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ ، فالنسق الأدائي في القرآن كان لابد أن يتم على أساس ؛ لذلك جاء القول : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ ؛ لأن كلمة الله دائماً وأبداً هي العليا ، وليست كلمة الله عُلْيَا جَعْلاً ، فهي لم تكن في أي وقت من الأوقات إلا

وهى العليا . ولهذا لم يعطفها بالنصب ؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هى العليا دائماً وأبداً وأزلاً .

وإن كان الكفار قد أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، أو أن يخرجوه إلى مكان بعيد لا يستطيع فيه أن يمارس دعوته ، أو يحبسوه ، فإنهم لم يظفروا بشىء من هذا ؛ لأن الله عزيز لا يُغلَبُ ، وعزَّته مبنية على الحكمة .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت المؤمنين إلى أن تثاقلهم عن الجهاد فى غزوة تبوك لن يضر الدعوة شيئاً ؛ لأن الله قد نصر رسوله وهو وحده ، ونصره بجنود لم يَرَوْهَا ، فإذا كان النصر لا يحتاج إلا لكلمة الله ، ولا يتم إلا بإرادة الله ، فلماذا إذن التثاقل ؟

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ انفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا يفتح الحق باب الوصول إليه ؛ ليهبُّوا إلى نصرة الرسول ويزيل الضباب من أذهانهم ، ويفتح لهم باب الوصول إليه لأنهم خلق الله وعياله ، فهو سبحانه يريد منهم أن يكونوا جميعاً مهديين ، وأن يشاركوا فى نُصْرة الدعوة إليه .

والقتال فى سبيل الله قد يكون مشقة فى ظاهر الأمر ، ولكنه يَهَبُ الدعوة انتشاراً واستقراراً . وحين يقوم المسلمون بنصر الدعوة إلى الله ،

ففي هذا القيام مغفرة وتوبة ، وهو رحمة من الله بهم . ورسول الله ﷺ هو القائل :

« الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة »[١]

ويقول الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي : « قالت السماء : يا ربي إئذن لي أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ؛ لأنه طَعمَ خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يارب إئذن لي أن أغرِقَ ابن آدَم لأنه طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض مثلهما »

فماذا قال الحق سبحانه وتعالى ؟ قال : « دعوني وعبادي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[٢] .

وهكذا نرى رحمة الله بخلقه .

وبعد أن لام الحق سبحانه المسلمين ؛ لأنهم لم يتحمسوا للجهاد ، يفتح أمامهم باب التوبة فقال : ﴿ انفِروا ﴾ أي : اخرجوا للقتال ، وهذا أمر من الله يوقظ به سبحانه الإيمان في قلوب المسلمين ، وفي الوقت نفسه يفتح أمامهم باب التوبة لتباطئهم عن الخروج للقتال في غزوة تبوك . ولذلك قال : ﴿ انفِروا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ والنفرة : هي الخروج إلى شيء يهيج عليه ، والمثال : هو التباعد بين إنسان وصديق له كان بينهما وُدّ ،

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) ومسلم في صحيحه (٢٧٤٧) واللفظ للبخاري. و« سقط على بعيره » أي : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أن ضَلّ منه ، والأرض الفلاة هي الصحراء المهلكة .

(٢) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم حدث من هذا الصديق سلوك أو قول يُهيج على الخروج عليه ، فينفر منه الإنسان . والحق سبحانه هنا يأمر : ﴿ انفِرُوا ﴾ والذى يهيج على النفور هو رفعة دين الله وكلمته ، وحين ترفعون كلمة الله إنما يفتح لكم باب الارتفاع بها فقال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ . والخفيف : هو الصحيح السليم القوى الذى لا تتعبه ولا ترهقه الحركة . والثقيل : هو المريض أو كبير السن .

والله يريد من الجميع أن يسارعوا إلى القتال ؛ لينجوا من العذاب الأليم ، وينالوا توبته ورضاه .

ولكن الصحيح خفيف الحركة يمكنه أن يقاتل ، فماذا يفعل المريض ؟ يفعل مثلما فعل سيدنا سعيد بن المسيَّب وكان مريضاً ، إذ قالوا له : إن الله أعفاك من الخروج إلى المعركة فى قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح : ١٧]

فقال : والله أكَثِّرُ سواد المسلمين وأحرس متاعهم [١] .

ومن الممكن أن يكون المريض متميزاً بالذكاء وصحة العقل ، ويمكن أن يُسْتشار فى مسألة ما . وقد يكون المريض أسْوة فى قومه ، فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه ، ويمكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزاً للأقوياء على القتال . فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال ؛ فإنهم يخجلون أن يتخلفوا هم .

(١) قال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٧٦) وتكثير السواد : تكثير أعدادهم .

واختلف العلماء [١] في تفسير قوله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ فبعضهم قال : إن هذه إشارة إلى ذات الإنسان ، فهناك ذات خفيفة وذات ثقيلة في الوزن لا تستطيع الحركة بسهولة ، وقال آخرون : إن الفرد الواحد يمكن أن يكون فيه الوضعان ، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا﴾ هو أمر للجماعة ، و ﴿ خِفَافًا ﴾ جمع « خفيف » ، و ﴿ثِقَالاً﴾ جمع « ثقيل »، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة إلى آحاد .

والمعنى : أن ينفر كل واحد من المسلمين سواء كان خفيفاً أم ثقيلاً . وسبق أن ضربنا المثل حينما يدخل الأستاذ على الطلبة ويقول : أخرجوا كتبكم ، ومعنى هذا الأمر أن يُخرج كل تلميذ كتابه ، وإن قلت : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن يركب كل واحد منكم سيارته .

إذن فالآية تعني : لينفر كل واحد منكم سواء كان ثقيلاً أم خفيفاً .

ولكن : كيف يكون الإنسان ثقيلاً وخفيفاً في وقت واحد ؟ نقول : يكون خفيفاً أي : ذا نشاط للجهاد ، وثقيلاً أي : أنه سيدخل في مشقّة تجعل المهمة ثقيلة على نفسه . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

والدخول فيما هو مكروه [٢] في سبيل الله أمر يرفع درجات الإيمان . إذن : فالآية تحتمل أكثر من معنى ، فهي تحمل المعنى العام : أن يكون البعض خفيفاً والبعض ثقيلاً في ذاته ، أو : أن يجمع القتال بين الخفة

(١) اختلف العلماء في تفسير هذه الآية على عشرة أقوال . ذكرها القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٧٥) ثم قال : والصحيح في معنى الآية أن الناس أُمروا جملة ، أي : انفروا خفّت عليكم الحركة أو ثقلت .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١/ ٩٥٢) : « إنما كان الجهاد كرهاً ؛ لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس ، فكانت كراهيتهم لذلك ، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى » .

في الحركة والثقل في المشقة ، أو : أن يكون الذي يملك دابة هو الخفيف ؛ لأن الدابة تزيل المشقة وأسرع في الطريق ، والثقيل هو من يجاهد ماشياً ؛ لأنه سيتحمل طول المسافة . وساعة يشحن الحق سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين ، فهو يطلب منهم ما يكلفهم به بقوة ، ثم تتجلى رحمته فيخفف التكليف . ولو جاء الحكم خفيفاً في أول التشريع ، ثم يُصعَّد ؛ فإن هذا الأمر يكون صعباً على النفس ، ولكن عندما يأتي الحكم ثقيلاً ، ثم يخفف يكون أقرب إلى النفس ، والمثال في قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: ٦٥]

وهنا يعطي الحق مقياساً لقدرة المؤمن بالنسبة للكافر . فالعشرون يغلبون مائتين ، أي : أن النسبة هي واحد من المؤمنين إلى عشرة من الكافرين ، ولذلك فعندما نزلت هذه الآية كان على المؤمن الواحد أن يقتل عشرة من الكافرين ، لكن الحق سبحانه وتعالى قد علم أن هذا الأمر شديد على نفوس المؤمنين بأن يواجه المؤمن الواحد عشرة من الكفار ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا أولو العزم ، فقال سبحانه:

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال: ٦٦]

وما دام هناك ضعف فلا بد أن يُخفف الأمر بالنسبة للمؤمنين في مواجهة الكفار أثناء القتال . ونقل الحق سبحانه وتعالى النسبة من : واحد إلى عشرة ، إلى : واحد إلى اثنين ، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ [الأنفال]

لذلك : مَنْ فَرَّ من قتال اثنين يكون قد فَرَّ من الزحف ، ولكن إن فرّ من مواجهة ثلاثة لا يُحسب فَاراً [1] ؛ لأنهم أكثر من النسبة التى قررها الله .

وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً** ﴾ هو أمر يشمل الجميع على اختلاف أشكالهم ، أى : أنها تحمل أمراً عاماً لكافة المسلمين [2] . ولكن هناك قول آخر فى سورة التوبة ، أعفى بعض حالات معينة من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فيقول سبحانه :

﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)** ﴾ [التوبة]

أى : ليس على هؤلاء الذين جاءت الآيتان الكريمتان [3] بذكرهم أىُّ حرج فى أن يقعدوا عن القتال . وكان هذا هو الاستثناء من القاعدة العامة التى فرضت على كل مؤمن أن يقاتل فى سبيل الله ، وهو ما جاءت به الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « من فر من اثنين فقد فر ، ومن فر من ثلاثة فلم يفر » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١١٥١) مرفوعاً من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٨) : « رجاله ثقات » . وقد أخرجه سعيد بن منصور فى سننه (٢٥٣٨) موقوفاً على ابن عباس من طريق ابن أبى نجيح عن عطاء عنه .

(٢) قال القرطبى (٤/ ٣٠٧٧) : « وذلك إذا تعيَّن الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بالعقر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، من مقاتلٍ أو مكثِّر » .

(٣) قيل : إن آية ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ منسوخة بهاتين الآيتين ، وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] . قال القرطبى (٤/ ٣٠٧٦) : « والصحيح أنها ليست بمنسوخة » قلت : فالجهاد أحوال حسب ظروف المعركة ، فمنها ما يتوجب فيها القتال على كل أحد كما بينا ويكون الجهاد حينئذ فرض عين ، ومنها ما لا يتوجب فيها القتال فيكون فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك إذا كان العدو خارج الحدود ولم يغز البلاد ويحتلها .

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والمال هو الذى يجعلك تُعدُّ السلاح للحرب ، وحين يذهب الجيش إلى القتال لا بد أن يكون مُزوَّداً بالسلاح ، وبالمركبات وهى مثل الخيل على زمن رسول الله ﷺ ، وأيضاً لا بد من الزاد الذى يكفى لأيام القتال ، لذلك جاء الله سبحانه وتعالى بذكر المال أولاً ، ثم بعد ذلك ذكر الأنفس والأرواح ، ومن يملك القوة والمال فعليه أن يجاهد بهما ، ومن يملك عنصراً من الاثنين ؛ القوة أو المال ، فعليه أن يجاهد به . فإن كان ضعيفاً فعليه أن يعين بماله القوى القادر على القتال بأن يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ ، و « جاهد » و «قاتل» مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إن قاتلك واحد من الكفار ، فلابد أن تبذل كل جهدك فى قتاله ، و«جاهد» مثل «شارك» ، فهل تقول : شارك زيد ثم تسكت ، أم تقول : شارك زيد عَمْراً ، وقاتل زيد عمراً ؟ إذن: فهناك مفاعلة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول هو أمر بالصبر على القتال . ولكن هَبْ أن عدوك صبر مثلك ، هنا يأتى أمر آخر من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَابِرُوا ﴾ أى : اغلبه فى الصبر بأن تصبر أكثر منه . وكذلك ﴿ جَاهِدُوا ﴾ أى : اغلبوهم فى الجهاد ، بأن تجاهدوا أكثر منهم .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وسبيل الله هو: الطريق الموصل إلى الغاية التى هى رضا الله والجنة . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، و « ذا » اسم إشارة ويشير إلى المفرد المستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ إذن : فـ « ذا » تشير إلى الجهاد بالمال والنفس ، و ﴿ لَّكُمْ ﴾ تشير للخطاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة .

وبعض من لا يفهم اللغة يقول : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ كلمة واحدة خطاباً أو إشارة ، ونقول لهم : لا ، بل هى كلمتان؛ إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشيء واحد ، والخطاب لجماعة . ومثال هذا أيضاً قول الحق سبحانه على لسان امرأة العزيز فى قصة يوسف عندما جمعت امرأة العزيز النسوة ، وأخرجت يوسف عليهن ، وصارت هناك جماعة من النسوة ، وهناك يوسف - أيضاً - :

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]

و « ذا » المقصود بها يوسف ، و « لكُنَّ » هن: النسوة المخَاطَبات .

ومثال آخر أيضاً هو قول الحق سبحانه:

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [القصص: ٣٢]

و « ذان » إشارة لاثنين ، وهما معجزتان من معجزات موسى عليه السلام ؛ العصا واليد البيضاء ، وحرف الكاف للمخاطب وهو موسى عليه السلام .

إذن: فقول الحق : ﴿ذَلِكُمْ ﴾ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها مكون من كلمتين : الإشارة لواحد والخطاب لجماعة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ . . عن أى خير يتحدث سبحانه ؟

إن نفرتم وجاهدتم بأموالكم وأنفسكم فهو خير ، ولابد أن يكون خيراً من مقابل له . والمقابل له هو القعود عن الجهاد بأموالكم وأنفسكم .

إذن: فالجهاد خير من القعود .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ تستعمل فى اللغة استعمالين ؛ الاستعمال الأول أن يراد بها الخير العام ، كقوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ۝ ﴾ [الزلزلة]

ويكون مقابلها فى هذه الحالة هو الشر . ومرة تأتى «خير» بمعنى « أفعل التفضيل » ، كأن تقول: هذا خير من هذا . وفى هذه الحالة يكون كل من الأمرين خيراً ، ولكن أحدهما أفضل من الآخر ، مثل قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير » [1]

فإن جاءت « خير » دون أن تسبقها « من » فالمراد بها المقابل لها ، وهو «الشر» .

ونجد بعضاً من أساتذة اللغة العربية يقولون: عندما تستخدم كلمة « خير » كأفعل تفضيل لا تقل : « خير » ، بل قل : « الخير » ، ولكن اللفظ المستخدم هنا هو «خير» ، فإن استُعْمل فى أفعل التفضيل فهو يعطى الصفة الزائدة لواحد دون الثانى ، والاثنان مشتركان فى الخيرية .

وعلى سبيل المثال كان عند رسول الله ﷺ عبد اسمه زيد بن حارثة اشترته خديجة رضى الله عنها ، وأهدته لرسول الله ﷺ ، وعرف أبو زيد

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٠) وابن ماجه فى سننه(٧٩، ٤١٦٨) والحميدى فى مسنده (١١١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وعمه مكانه فذهبا إلى مكة ليروه ، فقال له رسول الله ﷺ: « فأنت قد علمت ورأيت محبتي لك فاخترني أو اخترهما » . فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أي : أنه اختار أن يبقى مع رسول الله ﷺ ولا يذهب مع أهله ، فأراد رسول الله ﷺ أن يكافئه ؛ فألحقه بنفسه وقال: « يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه »[1] وكان التبني مباحاً عند العرب ، وأراد الحق أن يُلغي التبني وأن يطبق رسول الله هذا الإلغاء بنفسه ، فجاء قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

و هكذا أنهى الحق سبحانه وتعالى التبنى ، وقال سبحانه وتعالى:

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]

و ﴿ أَقْسَطُ ﴾ يعنى « أعدل » ، كأن الحق سبحانه وتعالى لم يَنْفِ عن رسوله ﷺ العدل ، ولكنه أنزل ما هو أعدل . إذن : فساعة ترى أفعل التفضيل ؛ فاعلم أنه يعطي الصفة الزائدة ويُبقى الصفة الأصلية . وفى الآية التى نحن بصددها ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ ومقابلها : أن القعود عن الجهاد بالمال والنفس شر .

يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إذن : فهناك موازين نعرف بها ما هو خير وما هو شر . . وحينما قال الحق : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فكأن هناك مقدمات للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون ؛ فالله يعلمهم ، ذلك أن الذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس . وأيضاً : إن قُتل فهو باستشهاده صار أسوة حسنة لمن يأتى بعده . وحين أوضح

(١) انظر قصة زيد بن حارثة بالتفصيل فى صفة الصفوة لابن الجوزى (١/ ١٩٩ - ٢٠١) وتفسير القرطبى (٧/ ٥٣٧٨) (٨/ ٥٤٦٢) طبعة دار الغد فى تفسير سورة الأحزاب.

سيدنا رسول الله ﷺ أنه من يقاتل صابراً محتسباً يدخل الجنة [١] ، جاء له صحابى [٢] فى فمه تمرة يمضغها فيقول : أليس بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل فيقتلونى ؟ فلما أجاب النبى ﷺ : نعم . استبطأ الصحابى أن يضيع مضغ التمرة وقتاً ، وأن يتأخر عن القتال بسببها ، فرماها من فمه وقاتل حتى استشهد . وكان هذا دليلاً على أنه واثق تمام الثقة أن الاستشهاد يعطيه جزاءً أعلى بكثير مما ترك .

ثم بعد ذلك يعود الحق سبحانه وتعالى إلى الذين يتثاقلون عن الجهاد ليصفى المسائل كلها، فيقول جل جلاله :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والعَرَضُ هو ما يقابل الجوهر ، والجوهر هو ما لا تطرأ عليه أغيار ، فالصحة عَرَض والمرض عرض ؛ لأن كليهما لا يدوم ، إذن فكل ما يتغير يسمى عَرَضاً يزول . ويقال : الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرُّ والفاجر [٣] .

(١) قال ﷺ : « ياعبد الله بن عمرو ، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً » أخرجه أبو داود فى سننه (٢٥١٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٥) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتِلَ . أخرجه البخارى (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) حديث ضعيف جداً . عن شداد بن أوس مرفوعاً إلى النبى ﷺ أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٦٤) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٦١) ط . دار الفكر فى ترجمة أبى مهدى سعيد بن سنان . قال الجوزجانى : أخاف أن تكون أحاديثه موضوعة . وقال البخارى : منكر الحديث . انظر : ميزان الاعتدال (ترجمة ٣٢٠٨) . ولكن قد أورده أبو نعيم موقوفاً على شداد من طريق آخر من قوله . وهو الأوجه .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أى: لو كان أمراً من متاع سهل التناول ، ومحبباً للنفس ؛ وليس فيه مشقة السفر والتضحية بالمال والنفس ؛ لأسرعوا إليه . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ ، والقاصد هو المقتصد الذى فى الوسط ؛ وبعض الناس يسرف فى الكسل، فلا يستنبط الخير من السعى فى الأرض ومما خلق الله ، وبعض الناس يسرف فى حركة الدنيا ويركض كركض الوحوش فى البرية ، ولا يكون له إلا ما قسمه الله . وأمزجة الناس تتراوح ما بين الإسراف والتقتير ، أما المؤمن فعليه أن يكون من الأمة المقتصدة . والحق هو القائل:

﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٦]

لأن المؤمن لا يأخذه الكسل فيفقد خير الدنيا ، ولا يأخذه الإسراف فينسى الإيمان . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ أنه لو كان هناك متاع من متاع الدنيا أو سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك ، فهم لم يتبعوك ؛ لأنه ليست هناك مغانم دنيوية ؛ لأن هناك مشقة، فالرحلة إلى تبوك ، ومقاتلة الروم ، وهم أصحاب الدولة المتحضرة التى تضع رأسها برأس دولة الفرس ، وهذه أيضاً مشقة ، والعام عُسْر والحر شديد، ولو أن الأمر سهل مُيسَّر لاتبعوك .

ويتابع سبحانه : ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أى : أن المشقة طويلة ، ثم يقول : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ هم إذن لم يتبعوك ؛ لأن المسألة ليست عرضاً قريباً ولا سفراً سهلاً ، بل هى رحلة فيها أهوال ، وتضحيات بالمال والنفس ، وحين تعود من القتال سوف يحلفون لك ؛ أنهم لو استطاعوا لخرجوا معكم للقتال .

وقد قال الحق ذلك قبل أن يأتى أوان الحلف ، وهذه من علامات النبوة ؛ لكى يعرف رسول الله ﷺ المنافقين منْ صادقى الإيمان . وسبحانه وتعالى يفضح غباء المنافقين ؛ لذلك قال : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ واستخدام حرف السين هنا يعنى أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها فى المستقبل ، ولو أنهم تنبهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف . ولقالوا : إن القرآن قال ستحلف ، ولكننا لن نحلف . ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتى خصوم الإسلام ليشهدوا - رغم أنوفهم- للإسلام . ومثال آخر على نفس الأمر ؛ عندما حُوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة ؛ قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

[البقرة : ١٤٢]

وقوله هنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ معناها أنهم لم يقولوا بعد، وإلا ما استخدم فيها حرف السين . وهذه الآية نزلت فى قرآن يتلى ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . ورغم أنه كان فى استطاعتهم ألا يقولوا ذلك القول ، ولو فعلوا لساهموا فى التشكيك بمصداقية القرآن ، ولهدموا قضية الدين التى يتمنون هدمها ، ولكنهم مع ذلك قالوا : ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ وجاءوا مثبتين ومُصدِّقين للقرآن .

وفى هذه الأيام نجد شيئاً عجيباً ؛ نجد من يقول : أنا لا أتبع إلا ما جاء فى القرآن ، أما السنة فلستُ مطالباً بالالتزام بها . ونقول لمن يردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ،

والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع . ونقول : من أين أتيت بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن فلا بد من اتباع السنة حتى تستطيع أن تصلى ، ولن تفهم التطبيق العملى لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة .

ويجبر الحق سبحانه هذا الذى يحارب سنة رسول الله ﷺ ويدعو إلى عدم الالتزام بها ؛ يجبره سبحانه على الاعتراف بضرورة اتباع السنة ، وبهذا يصدق قول رسول الله ﷺ :

« يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى ، فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله »[1].

وقد قالوا ذلك القول طَعْناً فى الكتاب ، ولكنهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله ﷺ ، فهم لم يمتلكوا الذكاء ؛ لأن الذكاء الذى لا يهدى للإيمان هو لون من الغباء وعَمى البصيرة ، وكذلك كان حال من حلفوا بعدم استطاعتهم الخروج للقتال ؛ فقد سبقهم قول الله : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وجاءوا من بعد ذلك وحلفوا ؛ ليؤكدوا صدق القرآن . وهم فى حلفهم يدّعون عدم استطاعتهم للقتال ، مع أن لديهم المال والقدرة .

ويقول الحق عنهم : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وما داموا قد حلفوا بالله كذباً ، فقد أدخلوا أنفسهم فى الهلاك ، فهم لم يكتفوا بعدم الجهاد ؛ بل كذبوا وفضح الله كذبهم .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم من طريق الحسن بن جابر عن المقدام بن معدى كرب . قال الترمذى : حديث حسن غريب من هذا الوجه . واللفظ للدارقطنى .

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وكلمة ﴿ عَفَا ﴾ تدل على أن هناك أثراً قد مُحى ؛ تماماً كما يمشى إنسان فى الرمال ؛ فتُحْدث أقدامه أثراً ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله . وهى تُطلق فى الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها . وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه [1] ، فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة [2] ، فلا يُدْخلنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنباً مادام قد استغفر مَنْ يملك العفو ، ومن يسمع مستغفراً عليه أن يقول: عفا الله عنك . ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعنْهُ بالدعاء له ، ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو.

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٧) والترمذى (٣٥٧٧) فى سننيهما من حديث زيد مولى النبى ﷺ . قال الترمذى: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال المنذرى فى الترغيب (٢/ ٢٦٩): « إسناده جيد متصل » وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١١٨) عن ابن مسعود وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى.

(٢) فهذا شأن الرب العفو الغفور القائل سبحانه ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، أما شأن الناس فقد قال الله عنهم ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، فهم بالإضافة لتصيدهم لأخطاء الناس، لو كانت الرحمة بأيديهم وكلفوا إعطاء الناس منها لبخلوا بها.

وهنا يقدم الحق سبحانه العفو عن رسول الله ﷺ الذى أذن لهم بالقعود عن القتال ، ثم يأتى القرآن من بعد ذلك ليؤكد أن ما فعله رسول الله بالإذن لهم بالقعود كان صواباً ، فيقول فى موضع آخر من نفس السورة :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة: ٤٧]

إذن: فلو أنهم خرجوا لكانوا سبباً فى الهزيمة ، لا من أسباب النصر . وصوَّبَ الحق عمل الرسول ، وهو ﷺ له العصمة .

وهنا نحن أمام عفو من الله ، على الرغم من عدم وجود ذنب يُعفى عنه ، وهنا أيضاً إذن من الرسول لهم بالقعود ، ونزل القرآن ليؤكد صوابه.

وهناك من فهم قول الحق : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ على أنها استفهام استنكارى ، وكأن الحق يقول: كيف أذِنْتَ لهم بالعفو ؟

إذن : فرسول الله بين أمرين : بين عفو لا يُذْكَرُ بعده ذنب ، واستفهام يفيد عند البعض الإنكار .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أيَّد رسوله ﷺ بقوله:

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة: ٤٧]

فكأن الرسول قد هُدِىَ إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، وقد أشار القرآن إلى ذلك ؛ ليوضح لنا أن رسول الله ﷺ معصوم وفطرته سليمة ، وكان عليه أن يقدم البيان العقلى للناس ؛ لأنه الأسوة حتى لا يأتى من بعده واحد من عامة الناس ليفتى فى مسألة دينية ويقول : أنا رأيت بفطرتى كذا، بل لابد أن يتبين الإنسان ما جاء فى القرآن والسنة قبل أن يفتى فى أمر من أمور الدين .

وعلى سبيل المثال: اختلف الأمر بين المسلمين فى مسألة الفداء لأسرى بدر[1] ونزل القول الحق:

﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]

وأيَّد الله حكم رسوله وأبقاه. إذن فرسول الله ﷺ هُدى إلى الأمر بفطرته الإيمانية، ولكن هذا الحق لا يباح لغير معصوم.

وقد أباح الحق سبحانه الاستئذان فى قوله:

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد أذن لهم بالمقدمات والبحث والفطرة، ورأى أن الإذن لهؤلاء المتخلفين هو أمر يوافق مراد الحق سبحانه؛ لأنهم لو خرجوا مع جيش المسلمين ما زادوهم إلا خبالاً[2]، لعدم توافر النية الصادقة فى الجهاد؛ لذلك ثبطهم[3] الله، وأضعف عزيمتهم حتى لا يخرجوا. والعفو هنا جاء فى شكلية الموضوع، حيث كان يجب التبيُّن قبل الإذن، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٠، ٣١) من حديث عمر بن الخطاب من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟». فقال أبو بكر: يا نبى الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: .. أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم.. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها» وقد أخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر وأخذوا الفداء، ولكن نزل وحى الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: ٦٧]

(٢) الخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف (الأكاذيب).

(٣) التثبيط: التخذيل وإضعاف العزيمة على الخروج.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى : أن رسول الله ﷺ لو لم يأذن لهم لكانوا قد انكشفوا ، ولكن إذنه لهم أعطاهم ستاراً يسترون به نفاقهم ، فهم قد عقدوا النية على ألا يخرجوا ،ولو فعلوا ذلك لافتُضِحَ أمرهم للمسلمين جميعاً ، فشاء الرسول ﷺ أن يسترهم [(١)].

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ويلفتنا سبحانه: أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالقعود فضحوا أنفسهم ، فقد استأذنوا بعد مجيء الأمر من الله ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر - فى تلك الظروف - لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله . والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف ، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية ، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله ﷺ ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد ، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد.

وهذه الآية - إذن - تحمل التوبيخ للذين استأذنوا ، بل وتحمل أكثر من ذلك ، فالمؤمن إذا دُعِىَ للجهاد مع رسول الله ﷺ وبأمر من الله لا يكون

(١) قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبى ﷺ لم يؤمر بهما : إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ، ولم يكن له أن يمضي شيئاً إلا بوحى ، وأخذه من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله .

تفكيره كالشخص العادى ؛ لأن الإنسان فى الأمور العادية إذا طُلِبَ منه شىء أدار عقله وفكره ؛ هل يفعله أو لا يفعله ؟ ولكن المؤمن إذا دُعِى للجهاد فى سبيل الله ، ومع رسول الله ، وبأمر من الله ؛ لا يدور فى عقله الجواب ، ولا تأتى كلمة « لا » على خاطره أبداً ، بل ينطلق فى طريقه إلى الجهاد .

وكيف يكون الأمر بالخروج إلى القتال صادراً من الله ، ثم يتحجج هؤلاء بالاستئذان بعدم الخروج ؟

إذن : فمجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان فى قلوبهم ؛ لأن الواحد منهم فى هذه الحالة قد أدار المسألة فى عقله ، يخرج للجهاد أو لا يخرج ، ثم اتخذ قراراً بالتخلف . والغريب أن هؤلاء استأذنوا رسول الله ﷺ فى عدم الخروج ، مع أن أمر الجهاد صادر من الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن المسألة تحتاج إلى أن يأذن لهم الرسول بالتخلف . إلا أنهم كانوا يبحثون عن عذر يحتمون به .

والمثال من حياتنا اليومية أننا نجد أولاد البلد يسخرون من البخيل الذى لا يكرم ضيفه ويدَّعى أنه سيكرمه ، فتجده ينادى ابنه ويقول له أمام الضيف : انزل إلى السوق وابحث لنا عن خروف نذبحه للضيف ولا تتأخر فنحن منتظرون عودتك . . وما إن يقول الضيف أدباً منه : لا . تجد البخيل يصرف ابنه . ويتخذ من رفض الضيف حجة لعدم إكرامه ، وكأنه يريد ذلك ، ولكن الواقع يقول : إنه لا يريده من أول الأمر .

ونعلم جميعاً أن الإنسان لا يستأذن فى إكرام ضيوفه . والمثال : هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى هيئة رجال ، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم فى أن يذبح لهم عجلاً ، بل جاء به إليهم مذبوحاً ومشوياً [1] ، هذا سلوك مَنْ أراد إكرام الضيف بذبيحة فعلاً ، أما مَنْ يريد أن يبحث عن العذر ، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتنفيذ ، بينما هو فى حقيقته لا يريد أن يفعل ، مثلما يقال لضيف : أتشرب القهوة أم أنت لا تحبها ؟ أو يقال له : هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفًا ؟ أو يقال: هل تحب أن تنام عندنا أم تنام فى الفندق ، وهو أكثر راحةً لك ؟

وما دام هناك من سأل الرسول : أأخرج معك للقتال أم أقعد ، فهذا السؤال يدل على التردد ، والإيمان يفترض يقيناً ثابتاً ؛ لأن التردد يعنى الشك ، وهو الذهاب والرجوع على التوالى ، وهو يعنى أن صاحب السؤال متردد ؛ لأن طرفى الحكم عنده سواء .

إذن : فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله ﷺ إذا دُعوا إلى الجهاد ؛ لأن مجرد الاستئذان فى الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أى : أن الله يعلم ما فى صدورهم من تقوى ، فهم إنْ خدعوا الناس ، فلن يستطيعوا خداع الله ؛ لأنه مُطَّلع على ما تُخفى الصدور .

(١) وقد ورد هذا فى قوله تعالى﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] وقال : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦]. ما لبث : أى : ما أبطأ عن مجيئه بعجل مشوى بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار ، وهو معنى الحنيذ .

فهرس آيات المجلد الثامن

سورة الأنفال	الصفحة	سورة التوبة	الصفحة	سورة التوبة	الصفحة
الآية : ٦١	٤٧٨١	الآية : ١١	٤٩١٠	الآية : ٣٧	٥٠٩٧
الآية : ٦٢	٤٧٨٤	الآية : ١٢	٤٩١٦	الآية : ٣٨	٥١٠٢
الآية : ٦٣	٤٧٨٥	الآية : ١٣	٤٩٢٠	الآية : ٣٩	٥١٢١
الآية : ٦٤	٤٧٨٨	الآية : ١٤	٤٩٢٤	الآية : ٤٠	٥١٢٣
الآية : ٦٥	٤٧٩١	الآية : ١٥	٤٩٢٧	الآية : ٤١	٥١٣٣
الآية : ٦٦	٤٧٩٨	الآية : ١٦	٤٩٢٩	الآية : ٤٢	٥١٤٣
الآية : ٦٧	٤٨٠٧	الآية : ١٧	٤٩٣٣	الآية : ٤٣	٥١٤٧
الآية : ٦٨	٤٨١٢	الآية : ١٨	٤٩٥٩	الآية : ٤٤	٥١٥٠
الآية : ٦٩	٤٨١٢	الآية : ١٩	٤٩٦٣		
الآية : ٧٠	٤٨١٣	الآية : ٢٠	٤٩٧٠		
الآية : ٧١	٤٨١٤	الآية : ٢١	٤٩٧١		
الآية : ٧٢	٤٨١٧	الآية : ٢٢	٤٩٧٧		
الآية : ٧٣	٤٨٢٢	الآية : ٢٣	٤٩٨٠		
الآية : ٧٤	٤٨٢٥	الآية : ٢٤	٤٩٨٧		
الآية : ٧٥	٤٨٢٩	الآية : ٢٥	٤٩٩٣		
سورة التوبة	**٤٨٣١**	الآية : ٢٦	٥٠٠٣		
الآية : ١	٤٨٥٨	الآية : ٢٧	٥٠٠٨		
الآية : ٢	٤٨٦٠	الآية : ٢٨	٥٠٠٩		
الآية : ٣	٤٨٦٤	الآية : ٢٩	٥٠٢٠		
الآية : ٤	٤٨٦٩	الآية : ٣٠	٥٠٣٢		
الآية : ٥	٤٨٧٤	الآية : ٣١	٥٠٤٥		
الآية : ٦	٤٨٨٢	الآية : ٣٢	٥٠٥٣		
الآية : ٧	٤٨٩٧	الآية : ٣٣	٥٠٥٤		
الآية : ٨	٤٩٠٠	الآية : ٣٤	٥٠٥٧		
الآية : ٩	٤٩٠٥	الآية : ٣٥	٥٠٦٧		
الآية : ١٠	٤٩٠٩	الآية : ٣٦	٥٠٧٠		

ثم يُنزِل الله حكمه فى هؤلاء فيقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾

وهكذا أصدر الله حكمه فيمن أقدموا على الاستئذان ، فما دام الإنسان قد تردد بين أن يخرج للجهاد أو لا يخرج ، فهذا يكشف عن اهتزاز إيمانه، وهذا الاهتزاز يعنى وجود شك فى نفسه ، فيما أعد الله له فى الآخرة ؛ لأنه إن كان واثقاً فى داخله يقيناً أنه سيدخل الجنة بلا حساب إنْ استشهد ، ما تردد ثانية واحدة ، ولا أدار الأمر فى رأسه هل يذهب أو لا يذهب ؟ فما دامت الجنة هى الغاية ، فأيُّ طريق مُوصل إليها يكون هو الطريق الذى يتبعه مَنْ فى قلبه يقين الإيمان ، وكلما كان الطريق أقصر كان ذلك أدعى إلى فرح الإنسان المؤمن ؛ لأنه يريد أن ينتقل من شقاء الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وحتى لو كان يحيا فى نعيم فى الدنيا ، فهو يعرف أنه نعيم زائل وهو لا يريد هذا النعيم الزائل، بل يريد النعيم الباقى الذى لا يزول .

والتردد والاستئذان هنا معناهما : أن الشك قد دخل فى قلب الإنسان، ومعنى الشك - كما نعلم - هو وجود أمرين متساويين فى نفسك لا يرجح أحدهما حتى تتبعه . والنسب الكلامية والقضايا العقلية تدور بين أشياء متعددة ، فأنت حين تجزم بحكم فلا بد أن يكون له واقع يؤيده ؛ لأنك إن جزمتَ بشيء لا واقع له فهذا جهل، والجهل - كما نعلم - أن تعتقد أن

شيئاً ما هو حقيقة ، وهو غير ذلك ولا واقع له . فإذا أنت على سبيل المثال قلت : إن الأرض مبسوطة ، ثم جاءوا لك بصورة الأرض كروية وأصررت على أنها مبسوطة ، فهذا جهل وإصرار عليه . وفرق بين الجاهل والأمى ، فالأمى الذى لم يكن يعرف أن الأرض كروية ، ثم علم حقيقة العلم وصدقها فهو متى عرف الواقع صدقه وآمن به . ولكن الجاهل يؤمن بما يخالف الواقع . فإن جئت له بالحقيقة أخذ يجادل فيها مُصراً على رأيه . ولذلك نجد مصيبة الدنيا كلها ليست من الأميين، ولكن من الجهلة لأن الأمى يحتاج إلى مجهود فكرى واحد ، أن تنقل له المعلومة فيصدقها ، أما الجاهل فإقناعه يقتضى مجهودين : الجهد الأول : أن تخرج ما فى عقله من معلومات خاطئة ، وأوهام ليست موجودة فى الواقع ، والجهد الثانى : أن تقنعه بالحقيقة .

وإذا كان هناك واقع فى الحياة تستطيع أن تدلل عليه فهذا هو العلم . فإن لم تستطع التدليل عليه فهذا هو التلقين ، والمثال : أننا حين نُلقن الطفل الصغير أن الله أحد ، وهو لم يبلغ السن التى تستطيع عقلياً أن تدلل له فيها على ذلك . ولكنك قلت له : إن الله أحد ، وجزم بها الطفل ، وهذه حقيقة واقعة ، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليها . وهو فى هذه الحالة يُقلد أباه أو أمه أو مَنْ لقنه هذا الكلام حتى ينضج عقله ويستطيع أن يدلل على ما اعتقده فى صغره بالتلقين .

إذن : فالعلم يقتضى أن تؤمن بقضية واقعة عليها دليل ، ولكن إن كنت لم تصل إلى مرحلة الجزم ؛ تكون فى ذهنك نسبتان ؛ وليست نسبة واحدة . فإن لم ترجح نسبة على الأخرى ، فهذا هو الشك . وإن ظننتَ أنت أن إحداهما راجحة فهذا هو الظن ، فإن أخذت بالنسبة غير الراجحة فهذا هو الوهم .

الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ولو استقر فى قلوبهم الإيمان اليقينى بالله واليوم الآخر ، وأن مَردَّهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنهم سوف يحاسبون على ما قدموا ، واعتبروا أن تضحيتهم بالمال والنفس عمل قليل بالنسبة للجزاء الكبير الذى ينتظرهم فى الآخرة ، لو كان الأمر كذلك لما استأذنوا ، ولكن ما دام الشك قد دخل قلوبهم فمعنى هذا أن هناك ريبة فى أمر ملاقاة الله فى اليوم الآخر . وهل هذا الأمر حقيقة يقينية ؟ ولأنهم يرتابون فى هذه المسألة فهل يضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل لا شىء، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

إذن : فالارتياب محله القلب ، والعلم أيضاً محله القلب ، ويمر كل من الارتياب والعلم على العقل ؛ لأن العقل هو الذى يُصفِّى مثل تلك المسائل بعد أن يستقبل المحسَّات ويناقش المقدمات والنتائج ، فإن صفَّى العقل هذه الأمور واستقر على الإيمان ، هنا يصبح الإيمان قضية يقينية ثابتة مستقرة فى القلب ، ولا تطفو مرة أخرى إلى العقل لتُناقَش من جديد ، ولذلك سمَّوْها عقيدة ، أى عقدت الشىء حتى يستقر فى مكانه ولا يتزحزح .

إن الطفل - مثلاً - إنْ قرَّب يده إلى شىء مشتعل فأحس بلسعة النار . هنا يعرف أن النار محرقة ولا يحاول تكرار نفس التجربة ، ولا يناقشها فى عقله ليقول : لن تلسعنى النار فى هذه المرة ، بل تستقر فى ذهنه المسألة ، وتنتقل من قضية حسية إلى قضية عقدية لا تخضع للتجربة من جديد ولايحتاج فيها إلى دليل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧]

والقلب هو محل القضايا التى انتهت من مرحلة التفكير العقلى ، وصارت قضايا ثابتة لا يبحثها العقل من جديد .

وقوله هنا ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه : أن الإيمان عندهم لم يصل إلى المرتبة التى لا يطفو فيها مرة أخرى للتفكير العقلى . . أيؤمن أو لا ؟، أى : لم يصل إلى مرتبة اليقين ، بل ما زال فى مرحلة الشك الذى يعيد القضايا من القلب إلى العقل لمناقشتها من جديد ، ولذلك يصفهم الحق سبحانه وصفاً دقيقاً فيقول : ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى : أن الإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب ، فينزل إلى القلب ثم يطفو إلى العقل ليُنَاقَشَ من جديد ، ثم ينزل إلى القلب مرة أخرى ، وهكذا يتردد الأمر بين العقل والقلب ، ولا يستقر فى مكان ، وهم بذلك على غير يقين من الآخرة ، وما أعدَّ الله لهم فيها من جزاء . ويشكُّون فى لقاء الله فى اليوم الآخر . ويدور كل ذلك فى نفوسهم ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة اليقين .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لنا الصورة أكثر فيقول:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ففى ترددهم دلالة على أنهم لا يريدون الخروج للجهاد ؛ ولو كانوا عازمين بالفعل على ذلك لأعدوا ما يلزمهم للحرب من الزاد والراحلة والسلاح ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا قط ؛ لأنهم افتقدوا النية الصادقة للجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

ولقائل أن يقول : ألم يكن من الجائز أن يعدوا كل شيء للقتال فى آخر لحظة ؟ نقول : لا ، فالذاهب إلى القتال لا يمكن أن يستعد فى آخر لحظة . بل لابد أن يشغل نفسه بمقدمات الحرب من سلاح وزاد وراحلة وغير ذلك ، ولو لم يشغل نفسه بهذه المسائل قبل الخروج بفترة وتأكد من صلاحية سلاحه للقتال ؛ ووجود الطعام الذى سيحمله معه ؛ وغير ذلك ، لما استطاع أن يخرج مقاتلاً . فليست المسألة بنت اللحظة ، بل كان عدم استعدادهم للقتال يُعَدُّ كشفاً للخميرة المبيَّتة فى أعماقهم بألا يخرجوا ، وسبحانه قد اطلع على نواياهم ، وما تُخْفى صدورهم ، وقد جازاهم بما أخفوا فى أنفسهم . لذلك يقول:

﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وسبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الخلق هم الذين فى احتياج دائم إليه سبحانه ؛ لذلك ثبط هؤلاء عن الخروج ، وكره سبحانه خروجهم للقتال ، و « ثبطهم » أى جعلهم فى مكانهم ، ولم يقبل منهم أن يعدوا العدة للقتال كراهية منه سبحانه أن يخرجوا بنشاط إلى القتال . والكره : عملية وجدانية . والتثبيط : عملية نزوعية .

وأضرب هذا المثل دائماً - ولله المثل الأعلى - أنت ترى الوردة ، فتدرك بعينيك جمالها ، فإنْ مددتَ يدك إليها لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع ليقول لك : لا ؛ لأن هذا نزوع إلى ما لا تملك . وإن أردت أن تحوز وردة مثلها ، فإما أن تشتريها وإما أن تزرع مثلها ، إذن : فالمشرع يتدخل - فقط - فى الأعمال النزوعية .

وكراهية الله لنزوعهم تجلَّتْ فى تثبيطهم وخذلهم وردِّهم عن الفعل ، وزيَّن لهم فى نفوسهم ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ ؛ وذلك

لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فوافقت ما أذن فيه رسول الله في التخلف ، وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وإذا كان التثبيط من الله ، فكأنه أوضح لهم: اقعدوا بإذن من الإرادة الإلهية . أو أن رسول الله ﷺ أذن لهم بالقعود والتخلف لمّا استشفَّ تراخيهم ، أو أن الشياطين أوحتْ لهم بالقعود ، فالحق هو القائل سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]

وهكذا نجد أن كلمة : ﴿ قِيلَ ﴾ قد بُنيتْ لما لم يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون ، فالله بتثبيطه لهم كأنه قال لهم : اقعدوا، والرسول ﷺ قال لهم : اقعدوا ، والشياطين حينما زينوا لهم القعود ؛ كأنهم قالوا لهم: اقعدوا . وقولهم بعضهم لبعض زيَّن لهم القعود ، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة عطاءات متعددة .

وهل ينفي عطاءٌ عطاءً ؟ . لا ، بل كلها عطاءات تتناسب مع الموقف .

﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ والمقصود بالقاعدين هنا : هم الذين لا يجب عليهم الجهاد من النساء والأطفال والعجائز . فكأنهم قد تخلوا بعدم خروجهم عن رجولتهم التي تفرض عليهم الجهاد . وهذه مسألة ما كان يصح أن يرتضوها لأنفسهم . وفي موقع آخر من نفس السورة قال الحق سبحانه :

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٧]

وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال ، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ضعف النساء والأطفال .

ونجد الشاعر العربى عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه، فقال :

وَمَا أدْرِى ولسْتُ إخَالُ أدْري

أقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ (١)

والقوم تُطلَقُ على الرجال دون النساء (٢). ثم يبين لنا الحق حكمة التثبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير، فتثبيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة. وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفرى ، فزينت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد فى سبيل الله ؛ لأنهم لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه و تعالى فيهم :

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والخبال مرض عقلى ينشأ معه اختلال موازين الفكر ، فتقول: فلان مخبول، أى: أنه يحكم فى القضايا بدون عقل ، إذن فقوله تعالى: ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ أى: أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكأنهم عين

(١) البيت من قول زهير بن أبى سلمى
(٢) ويُقَوِّى هذا قوله تعالى: ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] فلو كانت النساء من القوم لم يقل: ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾.

عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التى لم يُرِدْهَا الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشر ، كان سيقع لو أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أى : أنهم كانوا سيُحْدثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفساد ؛ لأن الخلال هو الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليفرقوا بينهم .

ولكن التساؤل : هل كانوا سيخرجون معهم أو فيهم ؟ هم كانوا سيدخلون فى الفُرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم . ونقول : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة "فيكُم" اعلم أنها تغلغل ظرف ومظروف ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمظروف ، قال الحق :

﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ۝٧١ ﴾ [طه]

هل كان فرعون سيصلب السحرة فى داخل الجذوع أم على الجذوع ؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب ؛ لأننا إن رضيناه فى أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله فى أساليب كلام الله ؛ لأن هناك معنى «فى» الظرفية ؛ ومعنى آخر فى استخدام حرف "على" . ولو قال الحق سبحانه وتعالى : «لأصلبنكم على جذوع النخل» ، فإن لها معنى أن يكون الصَّلْب على الجذع ؛ أى : أنه صَلْبٌ عادى ، ولكن قوله تعالى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ معناه : أن

عملية الصَّلْب ستتم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب فى المصلوب فيه ، أى: أن جنود فرعون كانوا سَيَدقُّون على أجساد السحرة حتى تدخل فى جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعة واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخفَّ ، ولكان الصَّلْب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغيَّر حرف اختل المعنى . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(١٣٣) ﴾ [آل عمران]

أى: أن سرعتنا فى العمل الصالح تنتهى بنا إلى المغفرة ، إذن: فنحن قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن فى المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء]

ولم يقل: يسارعون إلى الخيرات ؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه ؛ أى سيزيدونه ؛ إذن : إنْ سارعتَ إلى شىء كأنه لم يكن فى بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعتَ فى الخير ، فكأنك فى الخير أولاً ثم تزيد فى فعل الخير .

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ نجد أن «أوضع» تعنى: أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : "أوضعت الدابة" ؛ أى مشتْ بخُطىً غير بطيئة وغير سريعة فى نفس الوقت ، ولو نظرتَ إلى

حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتهم وهم يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخبل ، ولوجدتَ أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة في الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء ؛ لأنهم كانوا سيهمسون في آذان المؤمنين بتزيين الباطل وهذا يقتضي بُطْئاً ، ثم ينتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليقوم معه بنفس العملية ، ولابد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن : فالحركة هنا تحتاج إلى البطء في الوسوسة ؛ وسرعة في الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدقُّ وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخبل في عقول المؤمنين ؟ ويُفرِّقوهم جماعات ؟ الهدف : أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي : يطلبون لكم الفتنة ؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية في أعماقه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزيء به ، وهذا أوضح ما يكون في مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون في هذه المجالس بالذنب الشديد ؛ إن وُجدَ بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يُغْروه بكل طريقة ؛ لكي يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيِّرونه ويستهزئون به ، ويسخرون منه، ويدَّعُون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ،وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دفع الناس إلى الكذب ، والسارق يغري الناس بالسرقة ، والمرتشي يحاول نشر الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وُجدَ إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السيء ؛ فهم يضطهدونه ويسخرون منه .

والمثال: حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركى الصلاة، تجدهم يحاولون السخرية منه، فهذا يقول له: خذنى على جناحك، وهذا يقول له مستهزئاً: يجعلنا الله من بركاتك. ويُبيِّن لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المناعة الإيمانية فيقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

وهذه الآيات تعطينا صورة لما يحدث عندما يعمُّ الفساد فى الأرض، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون ضحكات ستزول حَتْماً طال الوقت أو قَصُر يتبعها عذاب فى الآخرة، أما أهل الإيمان فهم يخشون الله فى الدنيا؛ فيثيبهم الله فى الآخرة، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة.

إذن: فقوله تعالى: ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي: إنهم من فَرْط حقدهم عليكم وعلى إيمانكم، يحاولون أن يفتنوكم فى دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم، تماماً كأنماط السلوك التى بيَّناها من قبل.

ثم يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيمانى لن يكون فى مَنَعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون، فصحيح أنهم لم يخرجوا مع المؤمنين، ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسمعتُ لفلان، أي: سمعتْ أذنى ما

قاله، وسمعت من فلان، أى: لصالح شخص آخر ، أى :من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو ينقلها إليهم .

إذن : فاللام تأتى بالمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء المنافقين مما يُحدث بلبلة فى فكرهم ، ومن هؤلاء المبلبلين للأفكار جواسيس لهم ينقلون إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم ، وهناك من المؤمنين مَنْ سيسمع لهم أولاً ، فإذا أصيبوا بالخبل بدأوا فى نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت "اللام" فاصلة بين "سمعت له" أو "سمعت من غيره لصالحه" ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فنجد السطحى التفكير يقول : إن هذا تحذير من مخاصمة الخائنين ؛ خوفاً من ألاَّ يقدر عليهم، أو أن يزدادوا فى إثمهم بسبب هذه الخصومة . ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو : لا تكُنْ لصالح الخائنين خصيمًا ، أى: لا تترافع عن الخائنين أو تدافع عنهم.

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ لأن الذى كان سيسمع ، والذين سيسمع لصالحهم ؛ كلاهما ظالم والله عليم بهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذكِّر المؤمنين بالوقائع السابقة التى ارتكبها المنافقون والكفار تجاه الإسلام والمسلمين من: مؤامرات على الإسلام ، ومحاولات للإيقاع بين المسلمين ؛ والتآمر على رسول الله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ له ﷺ دليل على تلك الوقائع السابقة(١) . أما قوله تعالى ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ ﴾ . فالتقليب: هو جعل أسفل الشيء عاليه ، وعاليه أسفله ؛ حتى لا يستتر منه شيء . وهذا مظهر نراه فى السوق ؛ عندما تذهب عند الفاكهى وتجد ما هو موجود فى أعلى الفاكهة مُنْتقًى بعناية ، فإذا اشتريتَ منه ملأ لك الكيس من الصنف الرديء الذى أخفاه أسفل القفص . وهكذا يأتى لك بالأسفل أو بالشيء الرديء المكشوف عورته . والذى لا يمكن أن تشتريه لو رأيته ويضعه لك (٢).

وهكذا يفعل المنافقون حين يُقلِّبون الأمر على الوجوه المختلفة حتى يصادفوا ما يعطيهم أكبر الشر للمؤمنين دون أن يصابوا هم بشيء . والمثال الواضح: عندما تآمرت قريش على رسول الله ﷺ، وجاءوا من كل قبيلة بشاب ليضربوه ضربة رجل واحد ليضيع دمه بين القبائل .

لكن الحق سبحانه يأتى إلى كل هذه الفتن ويجعلها لصالح المؤمنين ، ولذلك يقول جل جلاله :

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١) . أما القرطبى فقد قال فى تفسير الآية (٤/ ٣٠٨٣) : « أى : لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم ، وينزل الوحى بما سيفعلونه . وقال ابن جريج : أراد اثنى عشر رجلاً من المنافقين ، وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبى ﷺ » .

(٢) وقد حرم رسول الله ﷺ هذا ، وذلك أنه ﷺ مَرَّ على صُبْرة طعام فأدخل يده فيها . فنالت أصابعه بللاً . فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : « أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس ؟ من غش فليس منى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٢) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢) والترمذى فى سننه (١٣١٥) عن أبى هريرة . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ فالتآمر على رسول الله ﷺ ومحاولة قتله جعل الأمور تؤدى إلى هجرته ﷺ من مكة وخروجه منها مما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً فى إظهار الحق وانتشار الإسلام ؛ لأن الله لايرسل رسولاً ثم يخذله ، فما دام قد أرسل رسولاً فلابد أن ينصره [١] ، فأريحوا أنفسكم ، ولا تبغوا الفتنة ؛ لأن السابق من الفتن انقلب عليكم وأدّى إلى خير كثير للمؤمنين .

وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وهو قضية كونية عقدية ، فإذا رأيتَ قوماً مؤمنين التحموا بقتال قَوم كافرين وانهزموا ، فاعلم أنهم ليسوا من جنود الله حقّا ، وأن شرطاً من شروط الجندية لله قد اختل . ولذلك علينا أن نحاسب أنفسنا أولاً .

فمثلاً فى غزوة أُحد ، عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألا يتركوا أماكنهم فخالفوه [٢] ، هنا اختل شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول ﷺ ؛ فماذا كان يحدث للإسلام لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لَهانَتْ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين .

(١) وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

(٢) عن البراء بن عازب قال : « لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لاتبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلاتبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » ولكنهم خالفوه ﷺ فوقع سبعون قتيلاً فى المسلمين . والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٩٤) .

ويوم حنين، حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم ، وكانت النتيجة أنْ أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة ؛ لتكون لهم درساً إيمانياً . ولذلك إذا رأيت إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختل . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) ﴾ [آل عمران]

إذن: فأول شيء فعله هؤلاء المقاتلون ؛ أنهم عرفوا أن الذنوب يمكن أن تأتي إليهم بالهزيمة ، فاستغفروا الله وتابوا إليه وحاربوا فنصرهم الله ، وإذا حدث ولم ينتصر المؤمنون ؛ فمعنى هذا أن هناك خللاً في إيمانهم ؛ لأن الله لا يترك قضية قرآنية لتأتي حادثة كونية فتكذبها .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ (٤٩) ﴾

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه العبارة : لا تفتني بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر -والعياذ بالله- ؟ إن كل ذلك- وغيره - تجوز فيه الفتنة . والقول: ﴿ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي﴾ ظاهره أنه أمر ،

ولكنه هنا ليس أمراً ؛ لأن الأمر إذا جاء من الأدنى للأعلى فلا يقال إنه أمر، بل هو دعاء أو رجاء، وإن جاء من المساوى يقال: «مساو له» ، أما إن جاء من الأعلى إلى الأدنى؛ فهذا هو ما يقال له أمر ، وكلها طلب للفعل.

وكان الجد بن قيس -وهو من الأنصار- قد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: ائذن لى ولا تفتنى ؛ لأن رسول الله إن لم يأذن له فسيقع فى فتنة مخالفة أوامر رسول الله ﷺ [(١)] .

وقيل: إن هذا الأنصارى لم يكن له جَلَدٌ[(٢)] على الحرب وشدائدها . وقيل: إنه كان على ولَع بحب النساء وسمع عن جمال بنات الروم ، وخشى أن يُفتَنَ بهنَّ ، خصوصاً أن المعركة ستدور على أرض الروم . ومن المتوقع أن يحصل المقاتلون على سبايا من بنات الروم .

وقوله تعالى : ﴿ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي ﴾ أوقعه فى الفتنة فعلاً؛ لذلك جاء قول الحق : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ . وكان هذا الأنصارى سميناً، وشكا من عدم قدرته على السفر الطويل والحر ، فجاء الرد : إن كنتم من الحر والبرد تفرُّون فالنارأحقُّ بالفرار منها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ .

وفى آية أخرى قال سبحانه :

---

(١) انظر : أسباب النزول للسيوطى (ص٩٤) . وابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٦٢) . وقد كان الجد بن قيس من أشراف بنى سلمة .
(٢) الجَلَد: الشدة والقوة والصبر على القتال .

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة]

إذن: فجحيم النار أشد قسوة وحرارة من نار القتال [١] ، وحر الدنيا مهما اشتد أهون بكثير من نار الآخرة وهى تحيط بالكافرين.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وما يزال الحديث عن المنافقين ، فبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى كيف حاول المنافقون الهروب من الحرب لأسباب وأعذار مختلقة ، أراد سبحانه وتعالى أن يزيد الصورة توضيحاً فى إظهار الكراهية التى تخفيها قلوب المنافقين بالنسبة للمؤمنين . وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ﴾ والمقصود بالحسنة هنا هى: الانتصار فى الحرب ، والنصر فى الحرب هو من وجهة نظر المنافقين ينحصر فى حصول المؤمنين على الغنائم، وهذه مسألة تسوء المنافقين وتحزنهم ؛ لأن الهمّ الأول للمنافقين هو الدنيا ، وهم يريدون الحصول على أكبر نصيب منها . وبما أنهم لم يخرجوا للجهاد والتمسوا الأعذار غير الصحيحة للهروب من الحرب ؛ لذلك فهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون ؛ لأنهم حينئذ لن يكون لهم حق فى الغنائم . وفى هذه الحالة يقولون: يا ليتنا كنا معهم ؛ إذن لأصبْنَا الغنائم وأخذنا منها .

(١) وذلك قوله سبحانه : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١] .

أما إذا كانت الدائرة قد دارت على المسلمين وهُزموا فى الحرب ؛ فهذه سيئة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقين يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة، وسيقولون لأنفسهم : لقد كنا أكثر رجاحةً فى الفكر واحتطْنا للأمر، ولم نخرج معهم ولذلك نجونا مما أصابهم . والمصيبة فى الحرب تكون في: الأرواح، والرجال والمال، والعتاد بالإضافة إلى مرارة الهزيمة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ وكأنهم قد احتاطوا قبل أن يبدأ القتال فلم يخرجوا ، وهم كمنافقين يمكن أن يفرحوا إنْ أصابت المسلمين كارثة أو مصيبة، وهى هنا الهزيمة فى الحرب . وسيقولون : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى :قاموا بالاحتياط فلم يخرجوا للقتال، بينما لم يحتَطْ محمد وصَحْبُه وجيشه . ثم يديرون ظهورهم ليُخْفُوا فرحتهم .

وحين يقول الحق :﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ يوضح لنا أن أى نصر للإيمان يحزن المنافقين فى نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تحُزنهم الحسنة التى ينالها المؤمنون ، ألم يكن ذلك دافعاً لأن يقولوا : نحن لم نفرح ولم نحزن ؟

بالله حين يفاجئهم القرآن بالكشف عن خبايا نفوسهم بالقرآن ؛ ألم يكن ذلك داعياً لهدايتهم ؟

لقد عرف محمد ﷺ الغيب الذى فى قلوبهم وفضح ضمائرهم وسرائرهم بعد أن أطلعه الحق على ذلك .ومع هذا أضمروا النفاق فى قلوبهم وانتظروا مَسَاءةً تَحل بمحمد ﷺ وصحبه.

ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شيء يأتي منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة ؛ وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة ، إذن فالإصابة هي التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بشَرٍّ فهو سيئة . والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ،ومصيبة ليسَ فيها غريم ، فإن اعتدى عليّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمي ، وتتولد في قلبي حفيظة[1] عليه ، وغيظ منه ، وأرغب في أن أرد عليه وأثأر لنفسي منه ، ولكن إن مرضت مثلاً فمن هو غريمي في المرض ؟ لا أحد .

إذن : فالمصائب نوعان ؛ نوع لي فيه غريم ، ونوع لا يوجد لي غريم فيه ؛ النوع الأول الذي يكون لي فيه غريم يمتلىء قلبي عليه بالحقد ، ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم، فيقول :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[آل عمران]

وهنا ثلاث مراحل : الأولى كظم الغيظ ، والثانية هي العفو ، والثالثة هي أن تحسن؛ فترتقى إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون .

(١) حفيظة : غضب وضغينة .

وكذلك يقول الحق :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

أى : من صبر على ما أصابه ، وغفر لغريمه وعدوه ، فالصبر والمغفرة من الأمور التى تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .

أما المصائب التى ليس للإنسان فيها غريم فهى لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا اللون من المصائب :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

لأن العزم المطلوب هنا أقل ، ولذلك لم تستخدم «لام التوكيد» التى جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾

[آل عمران]

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث فى النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أى أن الغيظ موجود فى القلب ، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه، ثم يرتقى المؤمن فى انفعاله الإيمانى ، فيأتى العفو، وهذه مرحلة ثانية وهى أن يُخرِجَ الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

ثم تأتى المرحلة الثالثة :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

أى : أن هذا إحسان يحبه الله ويجزى عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتنال حب الله ، وهذا من كمال الإيمان ؛ لأن العبيد كلهم عيال الله ، واضرب لنفسك المثل - ولله المثل الأعلى - هَبْ أنك دخلت البيت ، ووجدت أحد أولادك قد ضرب الثانى ، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت ؟ لابد أن يكون قلبك مع المضروب ، لذلك تُربِّتُ على كتفه وتصالحه ، وقد تعطيه مالاً أو تشترى له شيئاً لترضيه ، أى أنك تحسن إليه.

وما دمنا كلنا عيال الله ، فإن اجترأ عبد على عبد فظلمه فالله يقف فى صف المظلوم . إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك . أفلا يستحق فى هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه ؟

إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتفع بعطف أبيه ، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده ، والظالم فى هذه الحالة إنما يحلم أن يكون هو الذى حدث عليه الاعتداء ليحصل على بعض من الخير .

والحق هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يوصينا حين تأتى المصائب أن نرد على الكافرين ونقول :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ وهكذا تُرَدُّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ؛ فقد يحدث لى شيء أكرهه؛ ولكنه فى حقيقة الأمر يكون لصالحى ، فإن ضربنى أبى لأننى أهمل مذاكرتى ، أيكون ذلك عقاباً لى أم لصالحى ؟

إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذى سوف تحققه فى الحياة إن ذاكرت، فهذا العقاب لصالحك وليس ضدك ، وكذلك لابد أن نأخذ أحداث الله فى كونه بالنسبة للمؤمنين ، فإن هُزموا فى معركة ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير فى دينهم ؛ وإلى أنهم لابد أن يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها؛ فلهذا انهزموا.

ولله المثل الأعلى ، فنحن نجد الأستاذ- وهو يأخذ الكراسات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم - يعاقب المخطىء منهم، وفى هذا تربية للتلاميذ .

إذن : إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسيئنا فاعلموا أننا نثق فيمن أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأن كل شىء مكتوب لنا لا علينا ، الذى كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة]

إذن: فنحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فالإنسان لا يربى إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا ؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد فى فنائه عدداً من الأولاد يلعبون الورق ؛ وبينهم ابنه، فهو ينفعل على الابن ، ولكن إن دخل البيت ووجد أولاد الجيران يلعبون الورق فقد لا يلتفت إليهم، فإذا أصابت المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها ؛ فهذا من غبائهم ؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير[1] ، ومن هنا كانت الآية

(١) عن صهيب الرومى قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٥٤) .

الكريمة ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ وما كتب الله للمؤمنين إنما هو في صالحهم .

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيداً ؛ فيقول سبحانه: ﴿هُوَ مَوْلاَنَا﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم ، فالمولى الأعلى لا يسيء إلى مَنْ والاه ، ثم يأتى الإيضاح كاملاً فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لأن الله الذى آمنتَ به هو إله قادر حكيم ، فإذا جرتْ عليك أمور فابحثها ؛ إن كانت من فعل نفسك ، هنا عليك أن تلوم نفسك ، أما إن كانت من مجريات الله عليك، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة.

والحق سبحانه وتعالى قد يعطى الكافر مقومات حياته ، ولكنه يعطى المؤمن مقومات حياته المادية والقيمية معاً. وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه ، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا ، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما ، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يخطيء المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه ، وفى هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه ؛ لذلك لا يقولن أحد: إن الله تخلى عنا ، فهذا ضعف فى الإيمان وبالتالى فإنه ضعف فى التوكل . ولكن قل: إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك، فساعة تأتى المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك . وما دام مولاك يحاسبك على أى خطأ ويُصوِّبه لك ، فثِقْ به سبحانه وتوكل عليه.

وعلى سبيل المثال: لنفترض أن إنساناً اتكل عليك فى أمر من الأمور، ثم أخطأتَ أنت فى هذا الأمر ، لا بد أن يأتى لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ ، وفى هذه الحالة ستجد نفسك ممتلئة

بالثقة فى هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويُصوِّب لنا كل أمر ؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال : الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها ،وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل فى محصول وفير ينبته الزرع ، فلا تأتى آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة؛ فتضيع كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتى دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك ناتج عملك .

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله ، فنقول لهم : أنتم كاذبون ؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ إنك حين تتوكل على الحى الذى لا يموت، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكْرِهُك أو يُذلُّكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت .

ويُبلِّغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الذين يفرحون فى مصائب المسلمين ليكشف لهم أن فرحهم بالمصيبة هو فرح أغبياء . فيأتى قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إنما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين، ويفرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتى قول الحق سبحانه ليوضح : إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال : ﴿ لَن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و"لنا" تفيد الملكية ؛ إما: تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد زيغ الباطل ، وكل ذلك لصالحنا.

وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم . أما نهايتكم فاستدامة عذاب فى الدنيا وفى الآخرة .وأسباب العذاب مجتمعة لكم فى الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم فى الآخرة ، ونتيجة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا ، إذن فنتيجة المقارنة ستكون فى صالحنا نحن.

وبعد أن بيَّن الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألا يأتى إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير .

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بحسم مسألة الخيانة العظمى وهى الكفر والعياذ بالله ، وبيِّن أن كل كافر بالله لا يُقبل منه أى عمل طيب ؛ لأن الكفر يُحبطُ أيَّ عمل، وإن كان لعملهم خير يفيد الناس ، فالحق يجازيهم مادياً فى الدنيا ، ولكن ليس لهم فى الآخرة إلا النار[1] ، ويقول:

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٢٣، ١٢٥ ، ٢٨٣).

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) ﴾

إذن : فشرط تقبُّل الله لأى عمل إنما يأتى بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل وليس فى بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل .

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

[النور]

ويعطينا الله سبحانه مثلاً آخر فى قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾

[إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء فهمه فى قول الحق :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

فقد تساءل بعض من العلماء : أيجزى الحق سبحانه هؤلاء الكفار فى الآخرة أم فى الدنيا ؟ وقد استغلق عليهم الأمر لأن الآية عامة . ونقول : إن الحق يعطى فى الدنيا الجزاء لمن عمل للدنيا ، ويعطى فى الآخرة لمن عمل للدنيا والآخرة وفى قلبه الله . ولذلك فالذين يحسنون اتخاذ الأسباب المخلوقة لله بمنح الربوبية ينجحون فى حياتهم . والذين يتقدمون دنيوياً فى زراعة الأرض وانتقاء البذور والعناية بها يعطيهم الله جزاء عملهم فى الدنيا، ولا يبخس منه شيئاً ؛ ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]

هذا القول يوضح عطاء الآخرة ، ولذلك فالخير الذى يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه فى الآخرة [1]؛ لأنه عَمِلَ وليس فى باله الله ، فكيف ينتظر جزاءه ممن لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجزى مَنْ آمن به وعمل من أجله . ولكن من كفر بالله حبط كل عمله . وهذا أمر طبيعى ؛ لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس فى بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه . إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع وصنعوا لك التماثيل وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود فى الدنيا، وهذا هو جزاؤك . ولكن إن كنت مؤمناً بالله ، راجياً ثوابه تجىء يوم القيامة لتجد يد الله ممدودة لك بالخير الذى قدمته .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٤) وأحمد فى مسنده (٦/ ٩٣ ، ١٢٠) وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤٠٥) من طريق آخر عن عائشة وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ والطَّوْع : هو الفعل الذى تُقبل عليه بإرادتك دون أن تكون مكرهاً ، فكيف لا تجازى على خير فعلته بإرادتك ؟

ولا بد لنا أن نفرق بين «طوع» و«طائع» ، وكذلك نفرق بين هذا وبين الفعل الذى تقوم به حين يحملك غيرك ويكرهك أن تفعله . والأفعال كلها إما أن تكون بالطواعية وبالإرادة ، وإما أن تكون بالإكراه . ولو كان الحق قد قال : أنفقوا ، طاعة لما قال : ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ؛ لأن الطاعة معناها انصياع عابد لإرادة معبود ، ولكن قوله هنا : ﴿ طَوْعًا ﴾ يكشف أن ما ينفقونه هو أمر اختيارى من عندهم . وكانت أحوال المنافقين كذلك ، فمنهم من قدم أولاده للجهاد ، ومنهم من قدم بعضاً من ماله ، وكانوا يفعلون ذلك طائعين لأنفسهم ويستترون بمثل هذه الأفعال حتى لا يفتضح نفاقهم ، وكان الواحد منهم يتقدم إلى الصف الأول من صفوف الصلاة فى المسجد ، ويفعل ذلك طوْعَ إرادته ، خوفاً من افتضاح نفاقه لا طاعة لله ، فطاعة الله هى طاعة عابد لمعبود ، أما مثل تلك الأفعال حين تنبع من طوع النفس فهى للمظهر وليست للعبادة .

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ هل هذا أمر بالإنفاق ؟ أو هل الله يريد منهم أن ينفقوا فعلاً ، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم ؟ لا ليس هذا أمراً بالإنفاق بل هو تهديد ووعيد . مثلما تقول لإنسان : اصبر ، فذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى : اصبر فَسَتَرى منى هَوْلاً كثيراً . وهذا مثل قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا .. ⦗١٦⦘ ﴾ [الطور]

وقوله تعالى :

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ .. ⦗٤٠⦘ ﴾ [فصلت]

أى: أنكم إن صبرتم أو لم تصبروا فإن ذلك لن يغير شيئاً من الجزاء الذى سوف تلاقونه ، فالأمر سواء . ولو كان قوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمراً ؛لكان كل من عمل معصية داخلاً فى الطاعة؛ لأن الله أمره أن يفعل ما يشاء . ولكن هذا أمر تهديدى ، أى: افعلوا ما شئتم فأنتم عائدون إلى الله وسيحاسبكم على ما عملتموه . ولن تستطيعوا الفرار من الله سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنفِقُوا﴾ هو -إذن- أمر تهديدي؛ لأنه لن يجديكم أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً .

وكلمة ﴿ كَرْهًا ﴾ وردت فى القرآن الكريم فى أكثر من سورة ، فهى فى سورة آل عمران، وفى سورة النساء، وفى سورة التوبة ، وفى سورة الأحقاف، وفى سورةالرعد، وفى سورة فصلت ، قد ذكرت ﴿ كَرْهًا ﴾ بفتح الكاف وقرأها بعضهم بضم الكاف . وقال البعض : إن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد . نقول لهم : لا ، إن المعنى ليس واحداً ، فمثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

فالكُره هنا ليس للحمل ولا للوضع، ولكن للمشقة التى تعانيها الحامل أثناء حملها وعند الولادة . فلم يكرهها أحد على هذا الحمل . ولكن البعض يقول: إن الحمل يحدث وليس للمرأة علاج فى أن تحمل ولا أن تضع ، فلا توجد امرأة تقول لنفسها : "سوف أحمل الليلة" ؛ لأن الحمل يحدث دون أن تَعيَ هى حدوثه ، فالحمل يحدث باللقاء بين الرجل والمرأة . والمرأة لا تستطيع أن تختار ساعة الحمل ولا أن تختار ساعة الولادة ، ولا تستطيع أن تقول : سألد اليوم أو لن ألد اليوم . فكل هذا

يحدث إكراهاً بغير اختيار منها. ولذلك نقول لمن يقولون أن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد : لا؛ لأن "الكُرْه" بضم الكاف هو ما لا يريده الإنسان لأن فيه مشقة ، و"الكَره" بفتح الكاف هو ما فيه إكراه من الغير. إذن فـ"كَرْهاً" بفتح الكاف تختلف في معناها عن "كُرْهًا" بضم الكاف[1].

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ أي: لن يقبل الله منكم ما تنفقونه . ولكن ما الفرق ؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منهم ولم يرفضها أدباً منه ﷺ ، فكل عمل يؤدى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى . ولكن حدث أن واحداً من هؤلاء هو ثعلبة طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له بالغنى ، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة، وحاول أن يتهرب من دفعها [2]؛ فنزل القول الكريم :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) وإلى هذا ذهب الفراء فقد قال : إن الكُره ما أكرهت نفسك عليه ، والكَره ما أكرهك غيرك عليه . نقله ابن منظور في لسان العرب .

(٢) وذلك أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال ﷺ : ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه . فقال ثعلبة : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأوتين كل ذي حق حقه . فقال ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » وتدرج به الأمر حتى ترك الصلاة والجمعة ثم منع الزكاة وقال : ما هذه إلا جزية . وبعد ما نزلت آية التوبة (٧٥) أتى ثعلبة رسول الله ﷺ يرجوه أن يقبل صدقته فقال ﷺ : « إن الله قد منعني أن أقبل صدقتك » فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه . حديث طويل أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٧٨٧٣) من حديث أبي أمامة . قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٢) : « فيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك » . وانظر أسباب النزول للواحدي (ص ١٤٥) .

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله ﷺ فلم يقبلها منه . وعندما توفى رسول الله ﷺ جاء ثعلبة إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبل منه الزكاة . وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقبلها منه . ومات ثعلبة فى عهد عثمان (١). هذا هو عدم القبول.

ولكن هناك فى عهد رسول الله ﷺ من دفع الزكاة من المنافقين وقُبلَتْ منه ، ولكن الله لم يتقبلها منه. إذن : فكل عمل قد يُقبل من فاعله ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله . إذن فالآية معناها : أن الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم فى الخير ولو تقبله البشر .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فيقول :

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وكما قلنا: إن كلمة الفاسق مأخوذة من "فسقت الرُّطَبَة" أى انفصلت القشرة عن الثمرة . وقشرة البلح مخلوقة لتحفظ الثمر . وعلمنا أن المعانى فى التكليف الشرعى قد أُخذت من الأمور الحسّية ؛ ولهذا تجد أن الدين سياج يمنع الإنسان من أن يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، والإنسان حين ينفصل عن الدين إنما يصبح كالثمرة التى انفصلت عن سياجها .

فالذى يشرب الخمر أو يرتكب الجرائم أو الزنا يُعاقب على معصيته، أما إن كان الإنسان منافقاً بعيداً عن الإيمان بالله فطاعته لا تقبل . وهَبْ أن الإنسان مؤمن بالله ولكنه ضعيف أمام معصية ما ،هنا نقول : لا شىء يجور على شىء، إن له ثوابَ إيمانه وعليه عقاب معصيته .

(١) عندما ولى عثمان الخلافة ، أتاه ثعلبة فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : رسول الله ﷺ لم يقبلها ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها ؟! فلم يقبلها عثمان . انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٥ ، ١٤٦) .

إذن: فالفسق في هذه الآية الكريمة ليس هو الخروج عن مطلق الطاعة . ولكنه فسق من نوع خاص ؛ لأن هناك فسقاً محدوداً وهو أن يخرج الإنسان عن مجرد تكليف . ولكن الفسق الكبير هو أن يكفر الإنسان بالله. ولذلك جاءت الآية الكريمة التالية :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

إذن: فالفسق نوعان : فسق عام، وفسق خاص . وقد يقول البعض: إنك إن ارتكبت معصية فصلاتك وزكاتك وكل عباداتك لا تنفعك.

ونقول: لا فما دامت القمة سليمة ؛ إيماناً بالله وإيماناً بالرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقاً بالمنهج ، فلكل عمل عبادي ثوابه ، ولكل ذنب عقابه ؛ لأن الحق سبحانه مطلق العدالة والرحمة، ولا يمكن أن يضع كل الشرور في ميزان الإنسان . فمن كان عنده خصلة من خير فسوف يأخذ جائزتها وثوابها ، ومن كان عنده خصلة من شر فسوف ينال عقابها.

وقوله الحق هنا ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ ، هذا القول الكريم هو حيثية للحكم بعدم قبول نفقاتهم ، وفي هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر ، لا في خصوص الفسق ، وحدد الحق ثلاثة أشياء منعت التقبل منهم : الكفر بالله ورسوله وهو كفر القمة ، ثم قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى، ثم الإنفاق بكراهية .

ونفهم المنع على أنه رَدٌّ الفعل إلى ما ينقض العمل أو ينافيه ؛ كأن يريد إنسان القيام فتُقعده ، أى أنك رددت إرادة القيام إلى القعود ، وهو ما ينافيه ، أو أن يحاول إنسان ضرب آخر فتمنع يده ، فتكون بذلك قد منعت غيره من أن يعتدى عليه . إذن فالمنع مرة يأتى للفاعل ومرة للمفعول . فأنت حين تمنع زيداً من الضرب تكون قد منعت الفاعل، وحين تمنع عنه الضرب تكون قد منعتَ المفعول، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع ، الذى يوجزه الفعل ورد الفعل ، تجد ذلك فى الإنسان وفى الزمان وفى المكان .

وإذا بحثت هذه المسألة فى الإنسان تجد أن حياته تقوم على التنفس والطعام والشراب ، والتنفس هو الأمر الذى لا يصبر الإنسان على التوقف عنه ، فإن لم تأخذ الشهيق انتهت حياتك ، وإن كتمت الزفير انتهت حياتك . وإذا منعت الهواءمن الدخول إلى الرئتين يموت الإنسان ، وإذا منعت خروج الهواء من الرئتين يموت الإنسان أيضاً .

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يناقضه . فإذا حاول إنسان أن يضرب شخصاً آخر وأمسكتَ يده ، وقلت له : سيأتى أبناؤه أو إخوته أو عائلته ويضربونك ، حينئذ يمتنع عن الفعل خوفاً من رد الفعل . والعالم كله لا يمكن أن يعيش فى سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل[1] ؛ القوى يواجه قوياً ، والكل خائف من رَدِّ فعل اعتدائه على الآخر . ولكن إذا واجه قوى ضعيفاً ، تجد القوى يفتك بالضعيف .

وهكذا العالم كله ، فالكون إما ساكن وإما متحرك . وتجد الكون المتحرك فيه قوى متوازية تعيش فى سلام خوفاً من رد الفعل . وكذلك تجد العالم الساكن ؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

لا يأتى من جهة واحدة ، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوازناً على كل أجناب العمارة . ولكن لو فرَّغْتَ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة ، تماماً كما تُفرِّغ الهواء من إناء مغلق فيتحطم .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إلاَّ أنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ لا يعنى أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة ، لا ، فقد شهد المنافقون قولاً ، ولكن هناك فرق بين قولة اللسان وتصديق الجنان ؛ فالإيمان محله القلب ، والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر ، فأعطاهم الرسول حق شهادة اللسان ، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم، وأعطاهم نفس الحقوق المادية المساوية لحقوق المؤمنين ، وكل ذلك احتراماً لكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله" التى نطقوا بها ؛ولأن باطنهم قبيح ، فالحق سبحانه يجازيهم بمثل ما فى باطنهم ، ويعاقبهم ، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً وينكرونه باطناً . وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً . فما داموا قد أعطوا ظاهراً ، فقد أعطاهم الله حقوقاً ظاهرة ؛ ولأنهم لم يعطوا باطناً طيباً ، فلم يُعْطِهم الله غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره .

ونأتى إلى السبب الثانى فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ والكسل : هو التراخى فى أداء المهمة . إذن فهم يصلون رياءً ، فإن كانوا مع المؤمنين ونُودى للصلاة قاموا متثاقلين . وإن كانوا حيث لا يراهم المؤمنون فهم لا يؤدون الصلاة . إذن فسلوكهم ملىء بالازدواج والتناقض .

والسبب الثالث : ﴿ وَلا يُنفِقُونَ إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ والنفقة هى بذل ما عندك من فضل ما أعطاه الله لك ؛ سواء أكان ذلك مالاً أم علماً أم جاهاً

أم قوة ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع ؛ لأن كل مجتمع به أعراض كثيرة ، تجد القوى والضعيف ، الغنى والفقير ، العالم والجاهل ، الصحيح والمريض . ولو أن كل إنسان تحرك في حياته على قدر حاجته فقط لهلك الضعفاء والمرضى والعاجزون والفقراء . ولكن لابد أن يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ، ولابد أن يأخذ من ناتج عمله على قدر حاجته ومن يعول ، فأنت تأخذ حاجتك من ثمرة طاقتك ، ثم تفيء على غيرك بفضل الله عليك ، خصوصاً على هؤلاء الذين لا يقدرون على الحركة في الحياة ، فالصحيح يعطى المريض من قوته ما يعينه على الحياة . والغنى يعطى الفقير من ماله ما يعينه على الحياة . والقادر على الحركة يعطى من لا يقدر عليها ، هذا هو المجتمع المتكافل.

ومثل هذا السلوك هو لصالح الجميع ؛ لأن الغنى اليوم قد يكون فقيراً غداً ، والقوى اليوم قد يكون ضعيفاً غداً ، فلو أحس الإنسان بأنه يعيش في مجتمع متكافل فهو لن يخشى الأحداث والأغيار. وهذا هو التأمين الصحيح للقادر والغنى ويشعر فيه كل إنسان بالتضامن والتكافل ، فلا ينشغل الفقير خوفاً من الأحداث المتغيرة ،وإن مات فلن يجوع عياله ، وإن افتقر الغنى فسوف يجد المساندة ،وإن مرض الصحيح فسوف يجد العلاج.

إذن : فالنفقة أمر ضرورى لسلامة المجتمع، ونجد أن السوق توصف بأنها نافقة، وهى التى يتم فيها بيع كل السلع وشراؤها . فمن أراد أن يبيع باع ، ومن أراد أن يشترى اشترى ، إذن فالحركة فيها متكافئة . وأنت حين تذهب إلى السوق لتبيع أو تشترى ، فإما أن تأخذ مالاً نقدياً مقابل ما بعْتَ ، وإما أن تدفع مالاً ثمناً لما اشتريت . وقديماً كان الإنسان يبادل السِّلعة بسلعة أخرى. وبعد اختراع النقود أصبح الإنسان يشترى السلع بثمن ، ومن ينفق ماله ويقدمه عند الله ، فالحق سبحانه يأتى له بكل خير .

وقد أراد الحق سبحانه للمنافقين العذاب الباطنى فى الدنيا، والعذاب الواقع أمام الكل فى الآخرة ، وبيّن لهم أن إنفاقهم طَوْعاً أو كَرْهاً لن يأتى لهم بالخير .

ولكن من ينظر إلى المنافقين قد يجد أنهم يستمتعون بالمال والولد . ولا يلتفت الإنسان الناظر إليهم إلى أن المال والولد هما أدوات عذابه . وقد يقول إنسان : إن الله قد قال :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية :

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن]

والله يخاطب رسوله ﷺ، وفى طى هذا الخطاب خطابٌ لجميع المسلمين، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (٥٥) ﴾

وإياكم أن تروا واحداً من هؤلاء ممن رزقهم الله المال والولد ثم تقولون: كيف يكون عذابهم فى الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعنى استحسان المال والولد ، والظن أن فيهما الخير كله ، لكنك إن نظرت

بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أن تغتر بشيء يمكن أن يتركك ، ويمكن أن يكون سبباً في عذابك ، فالمال والولد قد يجعلان الإنسان ملتفتاً إلى النعمة ويلهيانه عن المنعم . وإن لم يلتفت الإنسان إلى المنعم لا يذكره . وإن لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد في الحياة الدنيا قد يكونان سببين في أن يخاف الإنسان ترك الدنيا . فإن لم يكن لك إيمان بما عند الله في الآخرة ، فقد تخاف أن يتركك المال أو الولد . والذي لا يؤمن باليوم الآخر ؛فالدنيا هي كل زمنه ؛ وإن فاتها كان ذلك مصيبة له ،وإن فاتته كان ذلك مصيبة عليه . وإن آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لقال : لئن فاتتني الدنيا فلي عند الله خير منها . ويريد الحق سبحانه أن يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التي تُلْهِي عن المنعم، فيقول سبحانه :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ والآية الكريمة تدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً، فمن عنده مال معجب بما عنده . ومن ليس عنده مال وعنده أولاد معجب بهم أيضاً . فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجاب أكبر وأشمل . والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن اجتماع المال والولد يجب ألا يثير الإعجاب في نفوسنا ، بل إن سياق الآية يحذرنا من أن نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمن عنده الأولاد وحدهم، لذلك كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة : ﴿ لا ﴾ فقال: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ .

وأفهمنا الحق سبحانه وتعالى أنه إذا أمد الكافرأو المنافق بالمال والولد ؛ فذلك ليس رفعة من شأنه ، وإنما ليعذبه بهما في الدنيا والآخرة . فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا ﴾ ، واللام هنا في "لِيُعَذِّبَهُم" هي لام تدخل

على الفعل واسمها "لام العاقبة" . وهى تعنى أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذى قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذى قصدناه .

وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى عليه السلام ليكون لهم عدواً ؟ أم ليكون قرة عين لهم ؟

هم قد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الذى حدث كان عكس ما قصدوه ساعةَ قيامهم بفعل الالتقاط ، فبدلاً من أن يصبح موسى قرة عين ، أصبح عدواً لفرعون ،بل كان سبباً فى زوال مُلْكه ، إذن هذه هى لام العاقبة .

والله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولاداً ، وهذا فى ظاهره رفعة فى الدنيا ، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة فى التقرب إلى الله ألهتهم عن الإيمان بالله ، ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق فى العذاب . ولم يُرِد الحق العذاب لهم، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أنْ يدخلوا فى العذاب . والعمل غير الشرعى فى تنمية المال أو إرضاء الأولاد هو الذى أوصلهم إلى العذاب .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وأول ألوان العذاب : أن تلهيهم تلك النعم عن المنعم . وتبعدهم عن منهج الله فيصيرون فى عداء مع المؤمنين بمنهج الله ، ويخافون إعلان هذا العداء ؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول ﷺ فى طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون

ويتساءلون [١] : هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله له بعض خبايانا ؟ وكانوا فى خوف أن يفتضح أمرهم ،فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم .

وثانياً :كانوا يخافون من أن يدخل الرسول ﷺ فى حرب ؛ لأنهم ما داموا قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون ببذل المال ، وأن يذهب أولادهم الذين بلغوا سن القتال مع جيش المسلمين، وكانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم : ما لنا نبذل المال ونضحى بالأولاد فى سبيل ما لا نؤمن به . وهم بمشاعرهم تلك يختلفون عن مشاعر المؤمنين الذين يُلبُّون نداء رسول الله طمعاً فى الجنة أو النصر .وهذا لون من ألوان العذاب .

وهناك لون آخر من العذاب : عندما يخرج هؤلاء المنافقون إلى إحدى الغزوات ، فهم يخافون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبى النساء، فيكونون فى عذاب نفسى طوال الرحلة إلى الغزوة وفى أثناء الحرب.

ولون ثالث من ألوان العذاب : أن عابد المال يجمع المال من حرام ومن حلال ، لا يهمه من أين جاء المال ؟ ولكن يهمه أن يأتى ، والذى يكسب حلالاً يكون واضح الحركة فى الحياة ، والذى يكسب حراماً هو لص يخاف أن ينكشف أمام الناس ، ويعيش فى عذاب أليم دائم من أن يأتى يوم يكشف الله ستره فيعرف الناس أنه ارتشى ، أو أنه اختلس ، أو أنه زَوّرَ وَزَيَّف . أو أنه فعل شيئاً يُحقّره فى أعين الناس أو يُعرِّضه للعقوبة ؛ كأن يكون قد تاجر فى المخدرات أو فى الأعراض . أو فى غير ذلك ، وخوفه من انكشاف أمره يجعله يعيش فى عذاب دائم وصراع مستمر .

---

(١) قال تعالى : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة : ٦٤] . قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون : عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا . وقال الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة ؛ لأنها حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته . انظر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٦٦) والقرطبى (٤/ ٣١٢١) .

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل : أنت إن أعجبك شيء في بيت جارك ، وطلبته منه وأعطاك إياه ، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث . ولكن إذا أعجبك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه ، فأنت لا تأتي في النهار ولا أمام الناس ، بل تأتي ليلاً وتحرص على ألا يراك أحد . ولا تدخل من باب الشقة ، بل تظل تدور وتخطط لتجد منفذاً تدخل منه دون أن يراك أحد . وتضع خطة للسرقة . وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد . فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تنزعج وتجرى لتختبيء وتأخذ الشيء وتكون حريصاً على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت ، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال الحرام ، إذن فجمع المال الحرام عذاب .

وكل من يربي أولاده من مال حرام لا يبارك الله له فيهم ، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذاباً لأبيه في تربيته فيرسب في الامتحانات . ويُتلف المال في الإنفاق بلا وعي . فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر . ومثل هذا الابن لا يطيع أباه ، ويكون العذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمناً إيماناً صادقاً بالله ، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه ، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره ، ويتمرد دائماً عليه .

وفي عهد رسول الله ﷺ كان أبو عامر عدواً لله ورسوله . وكان ابنه حنظلة [1] مؤمناً ، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلي بالغيظ ، وعندما نودي للقتال ، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته [2] فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة ، بل سارع إلى الحرب

(١) هو : حنظلة بن الراهب عبد عمرو بن صيفي الأوسي وكنية أبيه أبو عامر ، وحنظلة من أهل الصُفَّة .
(٢) جاء في مستدرك الحاكم (٣/ ٢٠٤) أن هذه كانت أول ليلة له مع زوجته ، وترك جنيناً في أحشائها ولد عام ٤ هـ هو عبد الله ، أصبح من أعلام التابعين وشجعانهم ، ولاه أهل المدينة أمرهم فقاتل جيش يزيد ابن معاوية قتالاً شديداً حتى قتل عام ٦٣ هـ . انظر الأعلام للزركلي (٤/ ٩٩) .

مع رسول الله ﷺ واستشهد فى المعركة . ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظلة ، مع أن هذه المسألة تكون سراً بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد ؟ لقد عرف المؤمنون بخبر حنظلة حين رأى رسول الله ﷺ بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة . ولما كان الشهيد لا يُغسل[1] ، فقد عرف الرسول ﷺ أن هذا ليس غُسْلاً من الشهادة ، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقبلَ الشهيد على الله وهو جُنُب ، رأى الرسول ﷺ ما حدث لحنظلة ، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى زوجة حنظلة وسألها : ماذا حدث ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت : إنه عندما سمع نداء القتال ، خرج بدون غُسْل[2] . وتأمل كيف نزلت الملائكة لتغسل شهيداً هو ابن عدو لله ورسوله . وكيف يكون هذا غَيْظاً فى قلب الأب .

وقصة أخرى : سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبىّ ؛ والده عبد الله بن أبىّ كان زعيم المنافقين فى المدينة، وهو الذى انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة[3]. ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله ﷺ ، يطلبون منه الإذن بقتل والده ابن أبىّ ، انظروا إلى الإيمان . فها هو الابن يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام،ويقول له : يا رسول الله إن كنتَ آمراً

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال فى شهداء أحد : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة . وأمر بدفنهم فى دمائهم ، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم . . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٤٣) وأبو داود (٣١٣٨) ، والترمذى (١٠٣٦) وابن ماجه (١٥١٤) والنسائى (٤/ ٦٢) فى سننهم . وقد أخرج أحمد فى مسنده عن جابر أيضاً (٣/ ٢٩٩) : « لا تغسلوهم فإن كل جرح أو كل دم يفوح مسكاً يوم القيامة ولم يصل عليهم » .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣٥٧) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٠٤) وصححه والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (٤/ ١٥) أن رسول الله ﷺ قال : « إن صاحبكم - يعنى حنظلة - لتغسله الملائكة ، فاسألوا أهله ما شأنه » فسئلت صاحبته فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة . فقال ﷺ : « لذلك غسَّلته الملائكة » .

(٣) قال ابن إسحاق : حتى إذا كانوا بالشوط - بين المدينة وأحد - انخزل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى (يقصد محمداً ﷺ) ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب . انظر سيرة النبى لابن هشام (٣/ ٨) .

بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ حتى لا ألقى قاتله من المسلمين وفى قلبى غلٌّ عليه[١] . وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون هو قاتله ، أليس هذا عذاباً فى قلبه؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقمة ، أليس هذا عذاباً فى الدنيا ؟

ولكن غير المؤمنين لا يلتفتون إلى واهب النعمة، ولا إلى الجزاء الذى ينتظرهم فى الآخرة ، ولا يتنبهون إلى حكمة الخلق التى تؤكد أن الإنسان خليفة الله فى الأرض، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون فى خدمة هذا الخليفة ، أى: أنه أقبل على عالم كامل من كل شىء ؛ معداً له إعداداً فوق قدراته وطاقاته .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « خلقتُ الأشياء من أجلك، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » .

أى: لا تشتغل بالنعمة عن المنعم ، تماماً كما يدخل الإنسان إلى وليمة كبيرة ، فيجد المائدة مُعدَّة بكل ألوان الطعام ، وصاحب المائدة واقف فلا يحييه ولا يسلم عليه ويذهب مباشرة إلى الطعام ، فيُحسُّ الناس أن هذا الإنسان جاحد بكرم الضيافة . بينما نجد رجلاً آخر يدخل فيسلم على صاحب الوليمة ويشكره على كرمه ويشيد به ، الأول: انشغل بالنعمة ، والثانى: لم يُنْسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدها له .

ومثال آخر: إن الصحة هى من أثمن النعم. أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان ؛ لأن الصحة هى التى تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة ، أما المرض فيحرمه هذه النعمة . ولذلك فعندما يمرض الإنسان

(١) أورده ابن كثير فى تفسير آية ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨] بنحو ألفاظه وعزاه لابن إسحاق .

يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون فى معيّة النعمة ، يكون فى معيّة المنعم وهو الله سبحانه. ولذلك يقول فى حديث قدسى :

«عبدى فلان مرض فلم تَعُدْنى . فيقول له: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول له: أما علمْتَ أنك لو عُدته لوجدتنى عنده » (1)

قولوا لى بالله: أيضيق أى مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته ، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى ؟ لا ،بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض ، ويجعله يشعر أن الأنْسَ بالله يخفف عنه الآلام . لكنك للأسف تجد الإنسان غير منطقى مع نفسه ، فالعالم خُلق من أجل الإنسان . والإنسان خُلق ليعبد الله . ولكنك تجده لا يلتفت لما خُلق من أجله ، بل يلتفت للأشياء التى خُلقت له . وقد كان من المنطقى أن ينشغل بما خُلق من أجله .

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن ، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً . فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول: إن الزمن حاضر وأزلى وأبدى . والأزلي: هو القديم بلا بداية . والأبد: هو المستقبل بلا نهاية . والحاضر: هو ما نعيش فيه .

والوجود الذى تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجبُ الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «ممكن الوجود»؛ لأن كل وجود يحتاج إلى مُوجد هو وجود ممكن ، وسيأتى له عدم . أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ » الحديث .

لا ينتهى. أى: أن واجب الوجود هو وجود الله وحده سبحانه وتعالى . ولذلك فهو وجود أزلى قديم بلا نهاية ، وأبد باقٍ بلا نهاية . وبذلك فهو يخرج عن الزمن .

نأتى بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة ، أى التى لها مُوجدٌ ، وهى كل ما فى الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ومنها هذه الدنيا التى يعبدها بعض الناس من دون الله ، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد ، فالدنيا لم توجد إلا عندما خلق الله السماوات والأرض ، أى ليس لها وجود بلا نهاية . ولكن كان وجودها ببداية . إذن فهى ليست أزلاً ، وهى ليست أبداً لأنها تنتهى بيوم القيامة .

ولذلك لا يجتمع فى قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا ؛ لأن الله أزل وأبد، والدنيا لا أزل ولا أبد ، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هى بمقدار عمره فيها . وقبل ميلاده لا علاقة له بها ، وبعد الموت لا علاقة له بها . وحتى إذا أخذنا الدنيا فى عمومها فإن لها بداية ونهاية، فكيف يمكن أن يجتمع فى قلب المؤمن حب من لا بداية له ولا نهاية ، وحب من له بداية ونهاية ؟ لا يجتمعان .

ولذلك قال شيخنا الزمخشري[1] رضى الله عنه : ما دام هذا الكون فيه وجود ، يكون الوجود: إما واجباً ،وإما ممكناً . والوجود الواجب لله وحده . والوجود الممكن هو كل ما عدا الله ، ولا يوجد أزل ولا أبد إلا للحق سبحانه وتعالى .

---

(١) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة . ولد فى زمخشر عام ٤٦٧ هـ . أشهر كتبه : الكشاف فى تفسير القرآن – أساس البلاغة كان معتزلى المذهب . توفى ٥٣٨ هـ الأعلام للزركلى (٧/ ١٧٨) . .

فإذا قلنا: إن هناك وجوداً فيه أزل وليس فيه أبد ، نقول: إن هذا ممتنع عقلاً؛ لأن الذى لا تكون له بداية لا تكون له نهاية . أى: يكون دائم الوجود.

إذن: فيبقى أن يكون الوجود له أبد وليس له أزل، أى: له بداية وليس له نهاية. ونقول: إن هذا يجتمع فى اثنين ؛ الآخرة والإنسان ؛ الإنسان له بداية هى تاريخ خَلْقه ، وليس له نهاية ؛ لأنه بعد أن يموت يُبْعَثُ مرة أخرى ، إما أن يخلد فى النعيم ، وإما أن يُعذَّبَ قليلاً ، ويدخل الجنة وإمّا يخلد - والعياذ بالله - فى النار .

وكذلك الآخرة لم يأت زمنها بعد . إذن فهى لم تبدأ بعد ، ولكنها متى بدأت فليس لها نهاية ؛ لأن هناك حياة أبدية فى الجنة أو فى النار . إذن: فالإنسان والآخرة اشتركا فى شىء واحد ، ولابد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة ؛ فالذى يأخذ الدنيا إنما أخذ شيئاً له بداية ونهاية ، ولكن الذى يطبق منهج الله ويعبده عن حب واختيار أخذ مَنْ لا بداية له ولا نهاية له . والذى عمل للآخرة ، عمل لما لا نهاية له أو للذى سيخلد فيه ، وتكون فيه حياته الحقيقية .

ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

نعرف أن الحياة الحقيقية هى فى الآخرة وليست فى الدنيا ؛ لأن الغايات فى أى شىء يجب أن تكون متساوية ، فمثلاً: إذا أردنا أن نصنع كُرْسياً . فالغرض من الكرسى أن نجلس عليه . إذن: فكل الكراسى مهما اختلفت أشكالها وألوانها لها غاية واحدة وهى أن نجلس عليها . والإنسان غايته

لابد أن تكون متساوية . وما دُمْنَا أفراداً لجنس واحد فلا بد أن تكون لنا غاية واحدة : ما هى ؟ أهى الصحة ؟ بعضنا مريض . أهى القدرة ؟ بعضنا عاجز . أهى طول العمر ؟ بعضنا عمره فى الدنيا ساعات .

وإذا استعرضنا كل ما فى الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف . إذن فلا بد أن نلتفت فى حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أن نعد العدة لذلك ، وكلنا سائرون إلى هذه النهاية .

والحق سبحانه وتعالى يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لم يقف عز وجل عند هذا الحد ، بل قال سبحانه : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

و﴿ تَزْهَقَ ﴾ أى تخرج بصعوبة ، لماذا ؟ لأن عابد الدنيا عمل من أجلها فقط . ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتى له الموت ، يجد أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة . أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتى له الموت فهو يستبشر ؛ لأن الذى ينتظره خير يفوق كل الذى سيتركه . كمثل إنسان يعيش فى كوخ صغير ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألا يكون سعيداً ؟ وكذلك المؤمن عندما يأتيه الموت يصبح كالذى ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر . أما صاحب الدنيا فمثل الذى يؤخذ من قصر إلى نار محرقة ، ولذلك فهو يكره ساعة الموت [1] .

(١) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فقلت : يا نبى الله أكراهية الموت ؟ فكلنا نكره الموت . فقال : « ليس كذلك . ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٨٤) والترمذى فى سننه (١٠٦٧) وقال : حسن صحيح.

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن فى الدنيا لابد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد ، والمثال : أنك إنْ أردت أن تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يُعدّه لك غيرك ، وإنْ أردتَ أن تلبس فلا بد لك ممن يصنع لك القماش ويحيك الثوب . ووراء كل نتيجة توجد سلسلة طويلة من الأسباب . فهناك الذى يزرع ، والذى يحصد ، والذى ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذى يطحن الدقيق أو ينسج القماش ، أما فى الآخرة فلا توجد أسباب ، بل بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك ، أليست هذه حياةَ نعيمٍ ؟

إذن : فالذى تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن [1] ، والذى ينقبض وجهه ويتشنج عندما يأتيه مَلَكُ الموت هو الكافر والعاصى ؛ لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبيا إلى عذاب رهيب .

وقد قيل للإمام على رضى الله عنه : يا إمام ، أريد أن أعرف نفسى أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام علىّ : الله أرحم من أن يجعل جواب هذا السؤال عندى وجعل جواب السؤال عندك أنت ، إن كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة .

أى : إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته بترحاب وتحية وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة ؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك فى الفانية ما يحمله لك أجراً فى الآخرة التى تعمل من أجلها ، ولذلك تحبه .

(١) قال الحسن البصري : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالي فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . (انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥) .

أما إن كنت تحب من جاء يعطيك هدية أكثر ممن جاء يسألك تكون من أهل الدنيا ؛ لأن معطى الهدية يزيدك فى دنياك . وما دُمْتَ تفرح بذلك أكثر من فرحك بالذى يزيد آخرتك فأنت من أهل الدنيا.

ويقال: إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سمحة مستريحة . نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه . ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتد عليه المرض فهو يتشبث بالأمل فى أن ينال الشفاء على يد طبيب بارع. لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموت يتخلله وأنه ميت لا محالة، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) ﴾ [الواقعة]

ويرى ما كان محجوباً عنه فى الدنيا . حينئذ يستعرض أعماله . فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره (١) فيُقبَضُ على هذا الوضع . أما من امتلأت حياته بالسوء والمعاصى فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع . وهذا ما نسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقين بالموت ، تماماً كساعة الامتحان حيث تجد التلميذ الخائب مصفر الوجه مرتعداً ومتشنجاً، أما التلميذ المجتهد فيكون مُبتسماً مُنْفرجَ الأسارير .

وفى ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أى شىء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بؤرة شعوره ، وبؤرة الشعور هى المكان الذى إن استقر فيه شىء فإنه لا يُنسَى أبداً . فإذا عرف طالب قبل الامتحان بفترة قصيرة،

(١) الأسارير : هى الخطوط التى فى الجبهة من التكسر فيها ، فإذا ضحك الإنسان انفرجت هذه الخطوط دليلاً على فرحه وسروره .

أن هناك سؤالاً سيأتى فى جزء معين من الكتاب وأمسك هذا الجزء وقرأه مرة واحدة تجد أنه وهو يقرؤه لا يفكر فى شىء آخر غيره ، ومجرد قراءته مرة تجعله يجيب الإجابة المتميزة ؛ لأن بؤرة الشعور مثل آلة التصوير، تأخذ صورة ما ترى مرة واحدة . إذن : فساعة الالتقاط هذه حيث لا شىء يشغل الذهن ، تجد أن الشعور لا يتسع إلا لخاطر واحد ، فلا يأتى خاطر آخر إليها إلا إذا تزحزح الخاطر الأول عنها .

ولذلك إذا سمعتَ شيئاً وحفظتَهُ من أول مرة ، فهذا دليل على أن بؤرة شعورك كانت خالية ومستعدة ساعة التقاط هذا الشىء. كذلك عند الموت ساعة الاحتضار لا يجد الميت فى بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة ، فإن كانت حياته خيِّرة أشرق وجهه وانفرجت أساريره ، وإن كانت حياته سيئة انقبضت أساريره واسودَّ وجهه والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ يعطينا معنيين : المعنى الأول: أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله حتى تأتى ساعة الموت . والمعنى الثانى: أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ؛ لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

لماذا أتى الله بهذه الآية بعد أن حذرنا من أن نُعجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم ؟ لأن هذه ليست نعمة لهم ولكنها نقمة عليهم ، وأراد الحق

سبحانه وتعالى أن يشحننا ضد المنافقين وأن يجعلنا نحذر منهم كل الحذر ، ويضرب لنا المثل باليمين ، واليمين لا ينطق بها الإنسان عادة إلا بعد شبهة إنكار . فإذا جئت لإنسان بخبر وصدَّقه فأنت لا تضطر لأن تحلف له . ولكن إذا أنكره فأنت تحلف لتزيل شبهة الإنكار من نفسه ، ولذلك فأنت حين تروى الخبر لأول مرة لا تحلف ، فإن أنكره سامعك حلفْتَ .

ولكن لماذا يحلف المنافقون دون سابق إنكار ؟

إنهم يسمعون القرآن الذى ينزل من السماء مملوءاً بالغضب عليهم ، وهم يشعرون فى داخل صدورهم أن كل مسلم فى قلبه شك من ناحية تصرفاتهم، فيبدأون كلامهم بالحلف حتى يُصدِّقهم المؤمنون [1]، والمؤمنون قد متَّعهم الله بمناعة إيمانية ، فى صدورهم ؛ فلا يصدقون ما يقوله المنافقون، حتى يأخذوا حذْرهم ويكونوا بمنجاة مما يدبره هؤلاء المنافقون من أذى ، ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديق كلام المنافقين حتى ولو حلفوا .

ولو لم يُعْطِ الله المؤمنين هذه المناعة الإيمانية لصدَّقوا قولَ المنافقين بقداسة اليمين . وبماذاَ حلف المنافقون ؟ لقد حلفوا بأنهم من المؤمنين والحقيقة أنهم فى مظاهر التشريع يفعلون كما يفعل المؤمنون ، ولكن قلوبهم ليس فيها يقين أو صدق.

وما داموا على غير يقين وغير صدق ، فلماذا يحلفون ؟ نقول : إن هذا هو تناقض الذات ، وأنت تجد المؤمن غيْرَ متناقض مع نفسه ؛ لأنه مؤمن بقلبه ومؤمن بذاته ، ومؤمن بجوارحه ، ولا توجد مَلَكَاتٌ تتناقض فيه ،

(١) وفى ذلك يقول عز وجل : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[المنافقون : ٢]
جنة : أى وقاية .

والكافر أيضاً غير متناقض مع نفسه ؛ لأنه يعلن صراحة أنه لا يؤمن بالله ولا برسوله ، فليس هناك تناقض بين ظاهره وباطنه ، صحيح أن فيه ملكة واحدة ، ولكنها فاسدة ، ولكن ليس فيه تناقض بين ما يفعل ظاهراً وما في قلبه.

أما المنافق فتتناقض ملكاته . فهو يقول بلسانه : "أنا مؤمن وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" . لكن قلبه يناقض ما يقوله، فلا يشهد بوحدانية الألوهية لله ، ولا يصدق رسالة رسوله ﷺ.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة « المنافقون » :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، مع أنهم شهدوا بما شهد به الله ، وهو أن محمداً ﷺ رسول الله ؟ نقول : إن الحق أراد أن يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرة . وفضح الله ما في قلوبهم وأوضح أن ألسنتهم تكذب ؛ لأنها لا تنقل صدق ما في قلوبهم .

إذن : فالمنافق يعيش في تناقض مع نفسه ، وهو شر من الكافر ؛ لأن الكافر يعلن عداءه للدين فهو عدو ظاهر لك فتأخذ حذرك منه . أما المنافق فهو يتظاهر بالإيمان ، فتأمن له ويكون إيذاؤه أكبر، وقدرته على الغَدْرِ أشد . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... (١٤٥) ﴾ [النساء]

ونحن نعلم أن تناقض الذات هو الذى يتعب الدنيا كلها ، ويبين لنا المتنبى هذه القضية، ويشرح كيف أنها أتعبُ شىءفى الوجود ، فيقول :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى

عَــدواً له مَا مِنْ صَـداقته بُـدُّ

هذا هو تناقض الملكَات حين تجد عدواً لك، وتحكم عليك الظروف أن تصادقه . وفى ذلك يقول شاعر آخر :

عَلَى الــذَّمِّ بِتْناَ مُجْمعـينَ وحـالُنَا

مِنَ الخوْفِ حَالُ المجْمعين علَىَ الحمْدِ

وشاعر ثالث يريد أن يصور التناقض فى المجتمع الذى يجعل الناس يمجدون هذا وهم كارهون له ، فيقول :

كَفَـانَا هَـواناً مِـنْ تناقُـضِ ذَاتنا

متى تَصْدُق الأقوالُ بالألسُنِ الـخُوَّفِ

إذن : فالمنافقون يحلفون بألسنتهم بأنهم من المؤمنين ، وهم كذلك فى ظاهر التشريع ، ولكنهم ليسوا منكم فى حقيقتهم ، فهم فى قلوبهم ليسوا منكم .

ويكمل الحق سبحانه وتعالى الصورة بقوله :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ والفَرَق معناه : الخوف ، أى أنهم فى فزع دائم ، ويخافون أن يُفتضَحَ أمرهم فيعزلهم مجتمع الإسلام ويحاربهم محاربته للكفار . ويُشرِّدهم ويأخذ

أموالهم ويَسْبى نساءهم وأولادهم. إذن: فالخوف هو الذى جعلهم يحلفون كذباً وخوفاً من افتضاح أمرهم ؛ ولذلك قال الحق لرسوله ﷺ عنهم:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ... (٣٠) ﴾ [محمد]

وفى هذا القول دعوة لفحص ما يقوله أهل النفاق ، حتى وإنْ بَدا القول على ألسنتهم جميلاً [1].

ثم يقول الحق جل وعلا :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾

والملجأ: هو ما نلجأ إليه ليحمينا من الأذى مثل الحصون ، وكذلك المغارة وهى الكهف فى الجبل . والمدَّخَل: هو شىءيشبه النفق تحت الأرض تدخل فيه بمشقة والتواء ، إذن : فهناك ثلاثة ملاجىء يفرُّون إليها إنْ وُجدوا فى المعركة ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . وهم يتمنَّوْن الذهاب إلى مكان بعيد ؛ ليسبُّوا الإسلام على ما هم فيه من مشقة القتال ، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أمام المسلمين ؛ لذلك تجدهم فى حالة بحث عن مكان لا يسمعهم فيه أحد .

(١) وفى هذا يقول تعالى عن المنافقين ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] .
قال الكلبى: المراد عبد الله بن أبى وجد بن قيس ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة .
أما لحن القول المذكور فى آية سورة محمد ، أى : لتعرفنهم يا محمد فى معنى الكلام وفحواه ودلالته غير الظاهرة .

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ فالكلام إذن عن المنافقين الذين ذكر الحق أوصافهم ، وعهودهم التى نقضوها ، وحَلفهم كذباً ، وما يعيشه كل منهم من تناقض مَلكاته ، ذلك التناقض الذى يورثه الشقاء ؛ لأن كل واحد منهم يُظهرُ غير ما يبطن ويخاف من انكشاف أمره . فيظل مضطرباً لأن ما بداخله يتناقض مع واقع حياته .

إن هذه الحالة هى عكس حالة المؤمن الذى يعيش حياة منسجمة ؛ لأن ما فى قلبه هو ما يحكيه لسانه ، فضلاً عن انسجامه بالإيمان مع الكون الذى يعيش فيه، وكذلك فحالة المنافق تختلف عن حالة الكافر ، فالكافر قد أعلن الكفر الذى فى قلبه بلسانه . أما المنافق فله قلب يكفر ولسان ينطق كذباً بالإيمان. ولذلك فهو فى تعب مستمر من أن ينكشف أمره ، أو يعرف المؤمنون ما فى قلبه ؛ لأنه يُكِنّ الحقد لمنهج الله وإن كان يعلن الحب ظاهراً.

والإنسان إذا اضطر أن يمدح من يعاديه وأن يتظاهر له بالحب، فإن هذا السلوك يمثل ثقلاً نفسياً رهيباً يحمله على ظهره ، وهكذا نرى أن المنافقين يُتعبون أنفسهم قبل أن يُتعبوا المجتمع ، تماماً كالرجل البخيل الذى يتظاهر بأنَه كريم، وكلما أنفق قرشاً ليؤكد هذا التظاهر فإن هذا القرش يذبحه فى نفسه ويسبب له آلاماً رهيبة . وحتى يرتاح الإنسان مع الدنيا لا بد أن يرتاح مع نفسه أولاً ويتوافق مع نفسه .

ومن هنا نجد المنافقين حين يريدون أن يُنفِّسوا عما فى صدورهم ، فهم يختَلُون ببعضهم بعضاً بعيداً عن أعين وآذان المسلمين ؛ ليُظهروا ما فى نفوسهم من حقد وغلّ وكراهية لهذا الدين، ويبحثون عن ملجأ يكونون آمنين فيه ، أو مغارة فى الجبل بعيداً عن الناس حتى لا يسمعهم أحد ،

أو مُدَّخلاً وهو المكان الضيق الذى لا تستطيع أن تدخل فيه إلا بصعوبة . هم إذن يبحثون عن مكان يغيبون فيه عن سَمْع المؤمنين وأنظارهم لِيُخرِجوا الكراهية المحبوسة فى صدورهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

و﴿وَلَّوْا ﴾ أى : انطلقوا إليه وقد شغلهم الإسراع للذهاب إلى المكان عن أى شىء آخر ، ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ والجماح هو أن تفقد السيطرة على الفرس الذى تركبه ، فلا تقدر على كَبْح جماحه أو التحكم فيه ، فينطلق بسرعة ، وحين يقال هذا عن الإنسان فهو يعنى الانطلاق بسرعة إلى المكان الذى يقصد إليه ولا يستطيع أحدٌ منعه ، وإنْ تعرض له أحد دفعه بعيداً لينطلق فى طريقه بسرعة .

والآية هنا تعطينا صورة دقيقة لحالة المنافقين فى أى معركة . فبمجرد بَدْء القتال تجدهم لا يتجهون إلى الحرب ، ولا إلى منازلة [(١)] العدو ، ولا يطلبون الاستشهاد ، ولكنهم فى هذه اللحظة التى يبدأ فيها القتال يبحثون عن مكان آمن يهربون إليه ، أو مغارة يختبئون فيها ، أو مُدَّخل فى الأرض ينحشرون فيه بصعوبة ليحميهم من القتال . فإذا انتهت المعركة خرجوا لينضموا إلى صفوف المسلمين ، ذلك أنهم لا يؤمنون . فكيف يقاتلون فى سبيل دين لا يؤمنون به ؟ ولذلك كنت تجدهم فى المدينة إذا نودى للجهاد فهم أول من يحاول الهروب ويذهبون للقاء النبى ﷺ طالبين التخلف عن المعركة ، ويقول الواحد[(٢)] منهم :

﴿ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي... (٤٩) ﴾ [التوبة]

---

(١) المنازلة : هى تقاتل الفرسان وهم فوق جيادهم دون النزول إلى الأرض.
(٢) هو الجد بن قيس، وقد سبق الكلام عليه فى تفسير الآية المذكورة.

وفى الصدقة يحاولون التشكيك فى توزيع الصدقة وكيف يتم ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ ﴾

وإذا جلسوا مع بعضهم البعض تجدهم يحاولون النَّيْل من رسول الله ﷺ بغرض إيذائه ولمزه، ويقول الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦١ ﴾ [التوبة]

هذه بعض صفات المنافقين التى يفضحهم الله بها بكشفها للمؤمنين . وقد جاء الحق سبحانه لنا بمزيد من الكشف لقبائحهم وفضائحهم . فقال فيهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ ﴾ [التوبة]

كلنا أيضاً نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ [الهمزة]

فما هى الهُمَزة وما هى اللُّمَزة ؟

«الهمزة» : هو من يعيب فى الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه أو بأى حركة من جوارحه، ومثال هذا: حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ، ويحاول أحدهم النَّيْل من أحد الحضور خفية ، فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر ، أو يكون باللسان هَمْساً فى أذن إنسان أو بأى طريقة أخرى ، المهم أن يُشَار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللُّمَزة فهم العيَّابون فى غيرهم فى حضورهم . فهناك القوى الذى يكشف العيوبَ بشجاعة وصراحة وهو اللمَّاز، أما الضعيف فهو يعيب خفية وهو الهمَّاز. واللمزة تطلق على من يعيب كثيراً فى الناس .

وهمزة لمزة ، من صيغة المبالغة "فُعَلَة" وتدل على كثرة فعل الشيء. فتقول "فلان أكَلة"- بضمة على الألف -أي: يأكل كثيراً . وفلان ضُحكة -بضمة على الضاد - أى: كثير الضحك .

إذن: فاللّمزة هى كثرة العيب فى الغير ، وهى تدل على ضعف من يقول بها ، ولو لم يكن ضعيفاً لقال ما يريد بصراحة .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ واللمز كما عرفنا هو البحث عن العيب، وهو هنا مظروف فى شيءهو الصدقات. وكان بعض من المنافقين يغتابون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أن يتعب الغنى ويشقى فى الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حثَّ الله للناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التى يتم

بها صرف الصدقة للفقراء، وأن بعضهم يُعطَى كثيراً وبعضهم يُعطَى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيبون فى كل هذه الأمور أو بعضها.

إذن: فاللمز إما أن يكون فى التشريع ، وإما أن يكون فى كمية الصدقات أو فى طريقة الصرف ، والحادثة التى وقعت ونزلت فيها هذه الآية الكريمة كانت فى مصارف الصدقة ، فقد قام حرقوص بن زهير، وهو رأس الخوارج، وهو ابن ذى الخويصرة ، وقال : اعدل يا محمد . فقال رسول الله ﷺ: ويلك ! ومَنْ يعدل إنْ لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله إئذن لى فيه أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ:

« دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم . يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينُظر إلى نَضيِّه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظر فى قُذَذه فلا يوجد فيه شيء. سبق الفرْثَ والدم . آيتُهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة . أو مثل البضعة تَدرْدَرُ ، يخرجون على حين فُرْقة من الناس » (١)

(١) - لا يجاوز تراقيهم : أى لا يجاوز حلوقهم وحناجرهم فلا يصل إلى قلوبهم . والتراقى جمع ترقوة ، وهى العظم بين ثغرة النحر والرقبة .
- الرمية : أى الشيء الذى يصاب بالسهم إذا رماه صاحبه .
- النصل : الجزء الحاد فى السهم نفسه .
- الرصاف : مدخل النصل من السهم .
- النّضىّ : السهم بلا نصل ولا ريش .
- الفرث : ما فى داخل الكرش من فضلات .
- البضعة : قطعة اللحم .
- تدردر : تتحرك وتضطرب .

قال أبو سعيد الخدرى : فأشهد أنّى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قاتلهم وأنا معه . فأمر بذلك الرجل -أى الرجل الأسود- فالتُمس فوُجد فأتى به ، حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ رسول الله ﷺ الذى نعت [1] .

ويقول الحق سبحانه موضحاً حال هؤلاء ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أى : أن هؤلاء الناس إنْ أعْطوا من الصدقة كانوا راضين مُهلّلين ، وإنْ لم يُعْطَوْا منها ملأ قلوبهم السخط ، وبدأوا باللَّمْز . إذن : فالكمية المعطاة لهم من الصدقة كانت هى أساس اللمز .

ومثل هذا قد حدث فى غزوة حنين . فقد وزع رسول الله ﷺ الغنائم على قريش وأهل مكة ، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً .

فلما لم يُدخل ﷺ الأنصار فى هذه القسمة ، استاء بعضهم من ذلك ، فجمعهم رسول الله ﷺ وقال لهم :

« ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله ؟ المحيا محياكم والممات مماتكم ، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار » [2]

وهنا بكى الأنصار ، وعرفوا أنهم سيعودون بما هو أكبر كثيراً من الغنائم ؛ سيعودون بصحبة رسول الله ﷺ . وقد يعطى رسول الله ﷺ حَديثَ عَهْد بالإسلام شيئاً من الصدقة ليربطه بهذا الدين ، وقد يعطى لتأليف القلوب ، وقد يعطى لفقير تأبى عزة نفسه أن يعترف أمام الناس بحاجته .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٦١٦٣ ، ٦٩٣٣) ، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة حديث (١٤٨) من حديث أبى سعيد الخدرى واللفظ لمسلم .
(٢) حديث صحيح سبق تخريجه مراراً كثيرة .

ولذلك كانت لرسول الله ﷺ ملاحظ فى توزيع الصدقات والغنائم ، قد لا يلحظها أحد . وكان الواجب على المسلمين أن يقبلوا عمل رسول الله ﷺ؛ لأن سلوكه هو الحكم ، ولابد أن نقبله .

ففى الحديبية مثلاً حيث حدث عهد بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش بألا يتعرض أحد منهم للآخر مدة عشرة أعوام [1] ، هذا الصلح أثارغضب عدد من المؤمنين وقالوا لرسول الله ﷺ: أنرضى بالدنية فى ديننا؟ أى : كيف نعطيهم هذه العهود وهى مجحفة بالنسبة لنا ؟ حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انفعل وأراد أن يقسو فى الكلام وقال لرسول الله عليه الصلاة والسلام : ألستَ على حق يا رسول الله ؟ فقال له أبو بكر : الزم غرزك يا عمر -أى اعرف مكانك- إنه رسول الله [2]. وبعد أن مرت فترة من الزمن وعرف المسلمون الحكمة من صلح الحديبية ، وما أتاحه هذا الصلح للإسلام من انتشار وقوة أدت إلى فتح مكة ، قال أبوبكر رضى الله عنه : ما كان نصر فى الإسلام أعظم من نصر الحديبية .

(١) لهذا الصلح شروط أخرى ذكرتها كتب السيرة والتفاسير :
١ - أن يرجع رسول الله ﷺ وأصحابه فلا يدخلون مكة معتمرين هذا العام .
٢ - يعودون العام التالى للاعتمار ولكن بدون سلاح إلا السيوف فى أغمادها فيقيم بمكة ثلاثاً ويخرج .
٣- هدنة مدة عشر سنوات .
٤ - من ذهب إلى المسلمين من الكافرين مسلماً رجلاً أو امرأة رد إلى الكفار .
٥- من جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يردوه إلى المسلمين .
وحديث صلح الحديبية حديث صحيح طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) من حديث سهل ابن حنيف .

(٢) قال عمر بن الخطاب : أتيت نبى الله ﷺ فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : إنى رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى . قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنَّا سنأتى البيت فنطوف به ؟ . . . وذهب عمر إلى أبى بكر فقال له نحو هذا فقال له أبو بكر : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزِه فوالله إنه على الحق . (فتح البارى ٥/ ٣٣٢) . أى : استمسك بأمره واترك المخالفة له ﷺ .

ولكن المسلمين فى هذا الوقت لم يُحطْ فكرهم بما بين محمد وربه؛ لأن العباد دائماً يعجَلُون ، والله لا يعجل عجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُهدِّىء نفوس المؤمنين ، وقبل أن يصلوا إلى المدينة عائدين بعد صلح الحديبية ، نزل قوله تعالى :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

وهكذا أطلع الله المؤمنين على علّة قبول صلح الحديبية وعدم القتال مع المشركين فى هذا الوقت وذلك المكان ، فقد كان هناك مؤمنون فى مكة يكتمون إيمانهم ويعيشون فى مجتمع المشركين الذين يمكنهم البطش بهؤلاء المسلمين لو علموا بوجودهم . كما أن المسلمين القادمين مع رسول الله ﷺ لا يعرفون هؤلاء المؤمنين ، فإذا قامت المعركة فقد يقتل المسلم مسلماً ، لأن الذين قدموا من المدينة لو دخلوا مع أهل مكة فى قتال فقد يقتلون بعضاً من إخوانهم فى الإيمان الموجودين فى مكة ، فهم لا يعرفونهم . ولو كان المؤمنون فى ناحية والكفار فى ناحية لَعذَّب الحقُّ الكفار بأيدى المؤمنين عذاباً أليماً .

إذن : فقد علم رسول الله من ربه سراً ولم يُعْلِنْه إلا لوقته ، رغم تعجُّل من كانوا معه ﷺ .

ومثل هذا يحدث فى حياتنا ، فقد نجد مؤمناً يدعو الله ولا تجاب دعوته. وعلى هذا المؤمن ألا يحزن ، بل عليه أن يعلم أنه قد يكون فى عدم الإجابة خير لا يعلمه. وأن من رحمة الله أنه لم يُجبْ هذه الدعوة ، مثلما تحمى ابنك الشاب من أن يحمل سلاحاً ؛ خوفاً من أن يتهور فى أى مشاجرة ويقتل أحداً ، رغم أن السلاح معه حماية له ،ولكنه أسلوب حماية قد يحمل الضرر ، وقد يؤدى إلى عواقب وخيمة .

وحين تدعو الله ولا يجيب دعاءك، فَثِقْ أنه سبحانه يحميك من نفسك ؛ لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلَم . فقد تدعو بشىء تحسبُه خيراً والله سبحانه يعلم أنه شر . إذن : فعدم إجابة هذه الدعوة هو عين الإجابة لها [١].

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

والسخط هو: عدم الرضا فى القلب ، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان ، مثلما قال حرقوص بن زهير لرسول الله ﷺ : اعدل يا محمد. أى: أنه سخط بقلبه أولاً ، ثم أساء بلسانه ثانياً .

وساعة يعرض الحق سبحانه لنا الداء فى المجتمع الإيمانى فهو جل وعلا يعطى الدواء الذى يحمى المجتمع من هذا الداء ، وهؤلاء الناس كانوا

(١) عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا : إذاً نكثر . قال : الله أكثر ». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٨) والحاكم فى مستدركه (١/ ٤٩٣) وصححه والطبرانى فى الصغير (٢/ ٩٢) .

يعيبون تشريع الصدقة ، رغم أنهم إنْ أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطوا سخطوا ، إذن : فموازينهم مُختلة ،وليست موازين حق ثابت ، بل هى موازين هوى النفس ، لكن موازين الحق لا تتبع ولا تتوقف على هوى النفس ، بل هى موازين ثابتة يعدل فيها الإنسان حتى مع ألدِّ أعدائه (١).

ولكن هؤلاء الناس تختلف انفعالاتهم باختلاف مصلحتهم ، إذا أَخَذُوا رضُوا ، وإذا مُنِعُوا سخِطوا ؛ لأن ميزانهم هو المصلحة الخاصة البعيدة عن كل عدل .

وهنا يأتى الحق سبحانه وتعالى بالعلاج فيقول جل جلاله :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا آتَاهُمُ ﴾ مع أنهم لم يأخذوا شيئاً ، بل إنهم قد سخطوا ؛ لأنهم لم يأخذوا شيئاً .

نقول : إن الله يريد أن يلفتهم إلى أن له عطاء فى المنح وعطاء فى المنع. فعطاء الحق سبحانه لمن أخذ ، وحرمان الحق سبحانه للبعض ، كل ذلك فيه عطاء من الحق جل وعلا ، ولكن الناس لا يلتفتون إلى ذلك . ورسول الله ﷺ حين منع الغنائم عن الأنصار فى حنين أخذوا المعية مع رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا أكبر وأسْمَى من الغنائم ، وقال لهم رسول الله ﷺ :

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

« المحيا محياكم، والممات مماتكم . لو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لَسلكْتُ شعب الأنصار » (١) .

وبذلك أخذوا ما هو أكبر وأهم وأعظم من الغنائم . إذن فقد يكون فى المنع إيتاء .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وهو عز وجل المشرِّع ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المبلِّغ والمنفِّذ ، فإذا ما رَضُوا بقسمة الله ، فالرِّضاء عمل قلبى كان عليهم أن يترجموه بكلام نزوعى هو: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ فكأن الرضا عمل القلب ، والتعبير عن الرضا عمل اللسان، وما داموا قد احتسبوا الأمر عند الله ، فالله هو الذى يرعى، وفى عطائه خير وفى منعه خير . ولذلك نجد الطيبين من الناس إن غُلبُوا على أمرهم يقولون : إن لنا رباً ، أى : إياك أن تفهم أنك حين منعتنى أو أخذت حقى بأن اعتديت عليّ ستمضى بهذا الفعل دون عقاب ؛ لأن لى رباً يغار علىّ ، وسبحانه سيُعوِّضنى أكثر مما أخذت ، ويجعل ما أخذته منى قَسْراً ؛ نقمة عليك.

ولذلك فأهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن ليس هو الصلة بالنعمة ولكن الصلة بالمنعم . وفى أن الله هو القادر على أن يُعوِّض أى شىءيفوت .

ويوضح لنا سبحانه الصورة أكثر فيقول : ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أى سيعوضنا عنها بخير منها . وعطاء الله دائماً فضل ؛ لأنه يعطى الإنسان قبل أن يكون قادراً على عبادته ، حتى وهو فى بطن أمه لا يقدر على شىء ، فإذا كنت فى الدنيا قد فكرت بالعقل الذى خلقه لك الله ، وعملت بالطاقة

(١) حديث صحيح سبق تخريجه مراراً .

التى خلقها لك الله ، وفى الأرض التى خلقها الله ، فإنك فى بطن أمك لم تكن قادراً على أى شىء. وحين تخرج وتنمو وتكبر فأنت تحيا فى كون ملىء بنعم الله ، لم تخلق فيه شيئاً ، ولم تُوجد فيه خيراً . وإنما جئت إلى الكون وهو كامل النعم ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعتَ الشمس ، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، وهى المطر؛ إن توقفت هلك كل من فى الأرض . ونلمس أثر ذلك حين تأتى مواسم الجفاف فى أى منطقة من العالم ، ونرى كيف يهلك كل شىء؛ الزرع والإنسان والحيوان .

والحق سبحانه وتعالى قد خلقنا فى عالم أغيار ، فالقادر اليوم قد يصبح غير قادر غداً ، والصحيح اليوم قد يصبح مريضاً معلولاً غداً ، والقوى يضعف ، حتى نعرف أن ما نملكه من قدرة وقوة ليست أموراً ذاتية فينا ، ولكنها منحة من الله ؛ يأخذها وقتما يشاء ، ونرى القوى الذى كان يفتك بيده ويؤذى بها غيره ويُذِلُّ الناس بها . نراه وقد أصيبت يده ، فلا تصل إليها الأوامر من المخ فتُشَلَ . إذن : فقدرة أى إنسان ليست ذاتية فيه، بل هى من فضل الله سبحانه وتعالى ، وكل شىء فى الكون هو من فضل الله .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ويقال: رغب فى كذا أى أراده، ويقال: رغب عن كذا ، أى ترك هذا الأمر . ويقال: رغب إلى كذا أى سار فى الطريق نحوه . وهنا قال الحق :﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ وما دُمْنا إلى الله راغبين ، كان يجب ألا نعزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة، فالدنيا ليست كل شىء عندك؛ ما دُمْتَ راغباً إلى الله الذى سيعطيك نعيماً لا حدود له فى الآخرة . ولذلك فرغبتنا فى الله كان يجب ألا تجعلنا نسخط على نعيم فاتنا فى الدنيا ؛ لأن هناك نعيماً بلا حدود ينتظرنا فى الآخرة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك أن يبين مصارف الصدقة حتى يعرف هؤلاء الراغبون فى متاع الدنيا هذه المصارف ويتعرفوا إلى حقيقة الأمر ، وليتبينوا هل هم يستحقون الصدقة أم لا ، فقال جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

وعندما تسمع كلمة ﴿ إِنَّمَا﴾ فافهم أنه يُرَادُ بها القصر ، فإن قلتَ : إنما الرجل زيد ، أى : أنك قصرت الرجولة على زيد . وإن قلتَ : إنما الكريم حاتم ، تكون قد قصرت الكرم على حاتم . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ معناها : أن الصدقات محصورة فى هؤلاء ولا تتعداهم .

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة ؟ وما المراد هنا بالصدقة ؟ هل هى صدقة التطوع أو الزكاة ؟

نقول : ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهى الزكاة ، ولسائل أن يسأل : لماذا لم يَقُل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة ؟

ونقول : ألا ترى - فى المجتمعات غير الإيمانية الملحدة - أن من الناس مَنْ يفكرون فى إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء ؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزى خلقه الله فينا جميعاً ، ولذلك

كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة ، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان . وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة ؛ لأنها تأتى تطوعاً من غير المؤمن وغير الملتزم بالتشريع ، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطى لغير القادر ، وهى غريزة وضعها الله فى خلقه ليخفف من الشقاء فى الكون .

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وقد احتار العلماء فى ذلك ، فقال بعضهم : إن الفقير هو الذى لا يجد شيئاً فهو مُعدم. والمسكين هو من يملك شيئاً ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واستندوا فى ذلك إلى نص قرآنى فى قوله تعالى :

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ... (٧٩)﴾ [الكهف]

وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شىء يملكونه . ولكن العائد الذى تأتى به السفينة لا يكفيهم .

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك ، ورأوا أن المسكين هو مَنْ لايملك شيئاً مطلقاً ، والفقير هو الذى يجد الكفاف . وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالاً من المسكين ، ولا أعتقد أن الدخول فى هذا الجدل له فائدة ؛ لأن الله أعطى الاثنين . . الفقير والمسكين . وكلمة "فقير" معناها الذى أتعبت الحياةُ فَقَار ظهره أى فقرات ظهره ، وحاله يغنى للتعبير عنه ، والمسكين هو الذى أذهلته المسكنة.

ثم يأتى بعد ذلك : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى : الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها فى بيت المال ، ونلاحظ هنا أن ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ جاءت مطلقة ؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة مَنْ كان

يجمعها وهو فقير ، أو مَنْ كان يجمعها وهو غير محتاج . ونقول : إن جمع الصدقة عمل ، ولوقلنا : إن غير المحتاج ويعمل فى جمع الصدقة لا يجب أن يأخذ أجراً ، هنا يصبح عمله لوناً من التفضل ، وما دام العمل تفضُّلاً فلن يكون بنفس الكفاءة التى يعمل بها ، إذا كان العمل بالأجر . وأيضاً حتى لا يُحرَم المجتمع من جامع صدقة ذكى نشيط ؛ لأنه غير محتاج ، ولكن نعطيه أجراً ليكون مسئولاً عن عمله ، والمسئولية لا تأتى إلا إذا ارتبطت بالأجر .

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة الإيمانية ، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالى الذى يوزعها . وفى هذا مصلحة لمجتمع المسلمين كله . خصوصاً إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد ، ولا يذل أحد أمام أحد ، وفى هذا حفظ لكرامة المؤمنين ؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعانى من انكسار يده السُّفْلى .

ومن يعطى لغير بيت المال قد يكون فى عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا ، وكذلك فإن أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو ذاهب إلى رجل غنى ليأخذ منه الصدقة ويُصَاب بالذلة والانكسار . ولا يرى أولاد الغنى هذا الفقير وهو يأتى إلى أبيهم ليأخذ منه الصدقة ؛ فَيتعالَوْنَ على أبناء الفقير . فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال ، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع ، وإن حدث خلاف بين غنى وفقير فلن يقول الغنى للفقير : أنا أعطيك كذا وكذا، أو يقول أولاد الغنى لأولاد الفقير : لولا أبونا لَمُتُّمْ جوعاً .

إذن : فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظام أن يمنع طغيان المعطى ، ويمنع - أيضاً - ذلة السؤال ، فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطى . وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالى فلا غضاضة ؛ لأن كل المحكومين تحت ولايته مسئولون منه .

ثم يأتى الحق إلى فئة أخرى فيقول : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم من يريد الإسلام أن يستميلهم ،أو على الأقل أن يكفوا آذاهم عن المسلمين . وكان المسلمون فى الزمن الأول للإسلام ضعافاً لا يقدرون على حماية أنفسهم. وعندما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة، منع الخليفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحداً غير صحيحى الإيمان ؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب فى فئات الزكاة [١].

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ يثير سؤالاً : هل يُؤلَّف القلب ؟ . نقول : نعم ، فالإحسان يؤلف قلب الإنسان السَّوى ، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوى ، فلا يعتدى على من أحسن إليه باللسان أو باليد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ ومعناها العبيد الذين أُسروا فى حرب مشروعة . وكانت تصفية الرق من أهداف الإسلام ؛لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد . وبعض من الناس يدَّعُون أن الإسلام جاء بالرق وأقره . ونقول : لم يأت الإسلام بالرق ؛ لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية ، وجاء الإسلام بالعتق ليصفى الرق ، فجعل من فَكِّ الرقبة كفارة لبعض الذنوب [٢] . وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد . وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة .

---

(١) أسقط عمر سهمهم فى الصدقات لما رأى من إعزاز الدين . وهو أيضاً قول الحسن البصرى والشعبى وغيرهما. وقال الزهرى : لا أعلم نسخاً فى ذلك . وقال ابن العربى : إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٠٦) .

(٢) وهذا مثل قتل المؤمن خطأ ، قال تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا .. ﴾ [النساء:٩٢] وكذلك كفارة اليمين قال تعالى : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ... ﴾ [المائدة: ٨٩]

وكان من المعتاد فى تلك الأيام أن المدين الذى يعجز عن سداد ما عليه من دَيْن ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له .

وإذا فُعلَتْ جناية ، فالجانى يأخذ العفو من المجنى عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً . وإذا سُرق شيءفإن السارق لا يعاقب ، بل يعطى أحد أولاده عبداً للمسروق منه . وكان الأقوياء يستعبدون الضعفاء ؛ فيخطفون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم فى سوق الرقيق ، وهكذا كانت منابع الرق فى العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ؛ إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر .

وقد كان الرق موجوداً فى أوروبا وفى آسيا وفى أفريقيا ووُجد أيضاً فى أمريكا . إذن :كانت هناك منابع متعددة للرق ؛ ومصرف واحد هو إرادة السيد ، وقد كان الرق يتزايد ، وجاء الإسلام والعالمُ غارق فى الرق ، لماذا ؟

لأن الرق فى ذلك الوقت كان يشبه حوضاً تصب فيه صنابير متعددة ، وليس له إلا بالوعة واحدة . ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، ولكنه عالجها على مراحل ، تماماً كتحريم الخمر حين بدأ التحريم بالمنع عند الصلاة ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ..(٤٣) ﴾ [النساء]

ثم حرمها تحريماً قاطعاً [١] .

---

(١) مرَّ تحريم الخمر بثلاث مراحل :
١ - ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... (٢١٩) ﴾ [البقرة]
٢ - ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... (٤٣) ﴾ [النساء]
٣ - ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾ [المائدة]

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإغلاق مصادر الرق . وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولى الأمر . أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق ، كأن يتم استعباد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دَيْن أو غير ذلك ، فقد أغلقها الإسلام بالتحريم . أما ناحية المصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد، بل جعله مصارف متعددة ؛ فالذى يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف يميناً ويريد أن يتحلل منها ؛ يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يزيد من أجره عند الله ؛ أعتق رقبة [١].

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد]

وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى ينتهى فى سنوات قليلة ، ثم وضع بعد ذلك ما يُنهِى الرق فعلاً ، وإنْ لم يُنْهِه شكلاً .

فإذا كان عند أى سيد لون من الإصرار على أن يستبقى عبده ، فلا بد أن يُلبسه مما يلبس ، ويُطعمه مما يَطْعم ، فإن كلّفه يعينه[٢] . وهكذا أصبح الفارق متلاشياً بين السيد وعبده .

وحين ألغتْ بعض الدول الإسلامية الرقَّ بالقانون ، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا : دعونا نعش معكم كما كنا . وهم قد فعلوا ذلك لأن

(١) وفى فضل العتق يقول ﷺ : « من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه » متفق عليه من حديث أبى هريرة . أخرجه البخارى (٦٧١٥) ومسلم (١٥٠٩) .

(٢) عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم فى صحيحه (١٦٦١) .

حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة . وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها ، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوى شيئاً .

ولكن بعض الناس يتساءل : وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ..(٣٦) ﴾ [النساء]

نقول : افهم عن الله ، فهذا الأمر لا يسرى إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة فى الحرب ، أى : كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت فى الأسْر ، والذى يسرى على الرجل فى الأسر يسرى عليها ، ثم من أى مصدر ستعيش وهى فى بلد عدوة لها ؛ إنَّ تركها فى المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها . كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تُكْبتُ ، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمَة فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد ، وإن أنجبت أصبحت زوجة حرة وأولادها أحراراً [1]، وفى هذا تصفية للرق .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقى الزكاة : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ والغارم : هو من استدان فى غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بدَيْنه . ولم يمهله صاحب الدَّيْن كما أمر الله فى قوله تعالى :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ..(٢٨٠) ﴾ [البقرة]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دَيْنه ، وفى هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدَّيْن . لكن لماذا هذا التشريع ؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذى لا يجد ما يسد به دَيْنه حتى لا يجعل الناس ينقلبون عن الكرم وعن إقراض الذى يمر بعسر ، وبذلك يبقى اليُسْر

(١) وهى ما يسمى فى الشرع « أم ولد » ، وهى الأمة تصير حرة إذا ولدت من سيدها ، وله أن يستمتع بها ما دام حياً ، فإذا مات فهى حرة . انظر نيل الأوطار (٦/ ٩٦ - ٩٩) .

في المجتمع ، وتبقى نجدة الناس للناس في ساعة العسرة ، فلا يمتنع أحد عن إعطاء إنسان في عسرة ؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فسيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة. أو : أن الغارم هو الذي أراد أن يصلح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بفض الخلاف ودَفْع المبلغ ، ثم تسوء حالته ؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية ، فنقول له : خذ من بيت المال حتى يشيع في النفوس تصفية الخلافات وإشاعة الحب بين الناس . إذن : فالغارم هو المستدين في غير معصية ولا يقدر على سداد الدين، أو المتحمِّل لتكلفة إصلاح ذات البَيْن بين طرفين ، وهو مستحق لهذا اللون من المال .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . يقول جمهور الفقهاء: إنها تنطبق على الجهاد [1]؛ لأن الذي يضحي بماله مجاهداً في سبيل الله ، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضَحَّى بماله ، وعندما تضحي بالمال أو النفس في سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان . فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت . ولو لم تكن على ثقة بأنك إذا أنفقتَ المال جهاداً في سبيل الله دخلتَ الجنة ما أنفقت .

والإسلام يهدف إلى أمرين : دين يبلِّغ ومنهج يُحقِّق ، والمجاهد في سبيل الله أسوة لغيره من المؤمنين . والأسوة في الإسلام هي التي تُقوِّيه وتُثبِّته في النفوس ؛ لأنها الإعلام الحقيقي بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله ستجازى عنه بأضعاف أضعاف ما أعطيت .

(١) قال القرطبي من المفسرين (٤/ ٣١١٠) : « ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الغزاة وموضع الرباط ، يعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء . وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله .وقال ابن عمر : الحجاج والعمار » .

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أيضاً كل ما يتعلق بمصارف البر مثل : بناء المساجد والمدارس والمستشفيات[1] .

ثم يقول سبحانه موضحاً لمصرف جديد من مصارف الصدقة والزكاة : ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ، ونحن نعلم أن كل إنسان ينسب إلى بلده . فهذا دمنهورى وهذا طنطاوى ، إلى آخره حسب البلد الذى هو منه . ولكن لنفرض أن إنساناً مشى فى الطريق فى غير بلده فإلى من تنسبه وأنت لا تعرف بلده ؟ تنسبه إلى الطريق فيصبح : ابْن السَّبِيلِ ؛ لأن السبيل هو الطريق . وهذا الإنسان الغريب عن بلده لابد أن تعينه حتى يصل إلى بلده ، وإنْ وجد الإنسان مَنْ يعينه فى هذه الحالة ، فسوف يشجع ذلك سفرالشباب إلى الدول الأخرى لطلب الرزق ، وأيضاً هناك من يسافرليزداد خبرة أو يسافر للسياحة ، وهناك من يسافر للتجارة، وقد يكون غنياً ولكنه قد يفقد ماله فى الطريق . ويريد الحق سبحانه أن يكفل عباده وهم غرباء من أى مفاجأة قد تجعلهم فى عسر ، فالذين سافروا سياحة مثلاً ثم أصيبوا بكارثة أوجب الحق مساعدتهم ، والذين سافروا طلباً للرزق ولم يُوفَّقوا أوجب الله سبحانه وتعالى مساعدتهم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسيروا فى الأرض ليروا آياته ، وليبتغوا الرزق ، إذن: فابن السبيل هو كل غريب صادفته ظروف صعبة، ولا يجد ما يعود به إلى بلده.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: أن كل من حدد الله سبحانه وتعالى استحقاقه للصدقة إنما يستحقها بفرض من الله ، فالصدقة فريضة للفقراء ، فريضة للمساكين ، فريضة للعاملين عليها ، والمؤلَّفة قلوبهم وفى الرِّقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل .

(١) قال الزبيدى فى شرحه لإحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٠) : « فيخرجها فيما تطلبه مكارم الأخلاق من غير اعتبار صنف من أصناف المخلوقين ، بل ما تقتضيه المصلحة العامة لكل إنسان بل لكل حيوان حتى الشجرة يراها تموت عطشاً ، فيكون عنده بما يشترى لها ما يسقيها به من مال الزكاة فيسقيها بذلك ، فإنه من سبيل الله ».

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، والله هو واجب الوجود وخالقه ، خلق الإنسان وكرَّمه فجعله خليفة فى الأرض . وقبل أن يخلق سبحانه الإنسان أعدَّ له الكون الذى يعيش فيه ؛ الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم . ثم جاء الإنسان إلى الكون؛ ليجد كل شيء قد أعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان ، فلا الأرض إذا زُرِعَتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذى سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبى عليه ؛ فالحمار تُحمِّله السباخ والقاذورات فلا يرفض ، وتنظفه وتجعله مَطِيَّة تنقلك من مكان إلى آخر فلا يتأبى عليك .

وما دام سبحانه الذى خلق ، فهو أدرى بمن خلق ، وبما يصلحه وما يفسده - ولله المثل الأعلى- نحن نعرف أن المهندس الذى يصمم آلة إنما يضع لها قانون صيانتها . فما بالنا بخالق الإنسان المتعدد المشاعر والأطوار ؟ إن خلق الإنسان لا يقتضى علماً فقط ، ولكنه يقتضى أيضاً حكمة ؛ لأنك قد تعلم ، ولكنك لا تستخدم العلم فيما تفعل ، كأن تعلم قانون صيانة آلة معينة ثم لا تطبقه وتحاول أن تأتى بقانون من عندك ؛ لذلك فلا بد مع العلم من حكمة لتضع الشيء فى موضعه السليم . ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ونحن نعلم أن الصدقات تقتضى مُتصدِّقاً وهو المعطى ، ومُتصدَّقاً عليه وهو مستحق الصدقة أو الذى يأخذها ، ومُتصدَّقاً به وهو الشيء الذى تتصدق به ، إذن فهناك ثلاثة عناصر : المتصدِّق، والمتصدَّق عليه ، والمتصدَّق به .

قد يتساءل بعض الناس: لماذا خلق الله الإنسان الخليفة فى الأرض وجعل بعضهم قادراً وبعضهم عاجزاً ، وهذا يعطى وهذا يأخذ ، ولماذا لم يجعل الكل قادرين ؟

نقول : إن مفارقات التقابل فى الأشياء تجعلها تتكامل ، فهناك ليل وهناك نهار ، فهل الليل ضد النهار ؟ لا ؛ لأن الليل مُكمِّل للنهار، والنهار مُكمِّل لليل . ولو لم يُخْلقَا معاً متكاملين ؛ لاختلّ التوازن فى الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

إذن: فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل ، ويحتاج إلى ظُلْمة وسكون الليل للنوم ، وإن لم يَنَم الإنسان ويسترحْ فهو لا يستطيع مواصلة العمل . وهكذا نرى الليل والنهار متكاملين وليسا متضادين . كذلك الرجل والمرأة . وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان ، ويقولون: لا بد أن تساوى المرأةُ الرجلَ ، ونقول : إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين ، وكل نوع له مهمة وله خاصية . وللإنسان المكوَّن من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها ، ويتضح لنا ذلك عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الليل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل]

كأن الذكر والأنثى ، مثل الليل والنهار متساندان متكاملان، فلا تجعلهما أعداء بل انظر إلى التكامل بينهما ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

أى: كُلٌّ له مهمة فى الحياة ، واقتضتْ حكمته سبحانه فى خلق الكون أن يجعل كل شىء يخدم الإنسان ؛ الجماد يخدم الإنسان ، وكذلك النبات ، وكذلك الحيوان ، حتى يكون الإنسان مستجيباً لمنهج الله ولعبادته . وكذلك اقتضتْ الحكمة أيضاً أن يخلق الله سبحانه وتعالى أشياء لا تستجيب للإنسان ؛ حتى يعرف الناس أن هذا الكون ليس مُذلَّلاً بقدراتهم هم ، بل بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

فتجد مثلاً الجمل بضخامته ينقاد لطفل صغير ، بينما الثعبان الصغير على دقَّة حجمه لا يجرؤ الإنسان أن يقترب منه .

وفى الوقت نفسه، فإن هذه الحكمة تقتضى أن يحس الإنسان أن قدراته وقوته موهوبة له من الله سبحانه وتعالى ، وأنها ليست من ذات الإنسان . ولذلك يخلق الله أناساً ضعافاً لا يقدرون على الكسب، ليلفت أنظارنا إلى أن قوة القوى هى هبة من الله ، وليست فى ذاتية الإنسان ، وإلا لو كانت ذاتية فى الإنسان ما وُجد عاجز . ولا بد أن يفهم كل قوى أن قوته هبة من الله يمكن أن تسلب منه فيصبح ضعيفاً مثل من يراهم أمامه من ضعاف البشر.

والضعيف غير القادر على العمل ، والأعمى غير القادر على الكسب ، والكسيح غير القادر على السير ، كل هؤلاء موجودون فى الكون ليلفتوا الأصحاء والأقوياء إلى أن الصحة والقوة من الله ، فلا يغتر الأصحاء والأقوياء بأنفسهم ويرتكبوا المعاصى ، بل عليهم أن يخافوا الله ، فسبحانه الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .

كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يقسم الأرزاق بيننا لتسير حركة الكون . وإلا لو أصبحنا كلنا ميسورين، فمن الذى يقوم بتنظيف الشارع ؟ ومن الذى يقوم بتسليك البالوعات؟ ومن الذى يحمل الطوب والأسمنت على كتفيه للبناء ؟ وإن كنا جميعاً نملك المال فلن يرضى أحد أن يقوم بالأعمال البسيطة والمزعجة والمرهقة ، وشاء الله أن يربط هذه الأعمال بالرزق ، بحيث يقوم بها بعضنا ليحصل على قوت أولاده ، وإلا لما أمسك أحد بمكنسة لتنظيف الطريق ، وما عمل أحد فى إصلاح المجارى ؛ لذلك قد ترى مَنْ يقومون بهذه الأعمال سعداء عندما تُسَدُّ المجارى ، أو يحتاج الطريق إلى نظافة ؛ لأن رزقهم يأتى من هذا العمل .

ولكن أيبقى هذا الحال على ما هو عليه ؟ لا ؛ لأن الأيام تُتداوَلُ بين الناس ، وكل واحد له عُرْس وله مأتم . وتأتى أيام تكون فيها هذه الأعمال اليدوية هى مصدر الرزق الوفير ، وهى التى يملك أصحابها سعة الرزق ، أكثر من الذين درسوا فى الجامعات وأهِّلوا للمناصب ، لكنهم أقل دخلاً وأقل رزقاً .

وهكذا نعلم أن الكون يحتاج إلى المواهب المتعددة التى تتكامل فيه ، فأنت إذا أردت أن تبنى بيتاً تحتاج إلى مهندس ومقاول ونجار وحداد وبنَّاء إلى غير ذلك ، ولا يمكن لإنسان أن يملك هذه المواهب كلها فى وقت واحد . فلا بد أن تتكامل وأن يرتبط هذا التكامل بالرزق ولقمة العيش . بل وتجد أن الإنسان قد يتخصص فى عمل ويتقنه بينما يحتاج هو لبعض من وقته ليقوم بمثل هذا العمل لبيته فلا يجد ، ولذلك يقال : " باب النجار مخلّع " ؛ لأن الأبواب الأخرى التى يصنعها مرتبطة برزقه وهو يحاول أن يحسن صناعتها ، أما بابه هو فلا رزق له فيه ، ولذلك قد يكسل عن صيانته .

ولا بد أن يعرف الإنسان أنه ليس أصيلاً فى الكون ، بل مستخلف فيه ؛ لأن الفساد ينشأ دائماً حين يعتبر الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون . وإياك أن تفهم أن المعْطى مُفضَّل على الآخذ ، أو أن الآخذ مُفضَّل على المعُطى ، بل هما متعادلان ، فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر . إما أنك فى نعمة فتشكر . وإما أنك فى محنة فتصبر . وعندما نتأمل الغنى المستخلَف فى النعمة نجد أنه قد أخذ النصف الذى يخصه كشاكر ، وحُرِمَ من النصف الآخر الإيمانى وهو الصبر ؛ ولذلك يأتى الإسلام له بتشريع يأخذ منه بعضاً من ماله الذى حصل عليه بعرقه وعمله ويعطيه لغير القادر على العمل ، وبذلك يحصل على جزء من الصبر ؛ لأنه يعطى بعضاً من فائدة عمله للعاجز عن العمل ، ويكون الفقير قد أخذ نصف الشكر ونصف الصبر . فقد صبر على فقره، وجاء له المال بلا تعب فشكر الله على نعمته . وهكذا نجد أن الاثنين إذا طبَّقا منهج الله أخذا نصف الصبر ونصف الشكر .

وعلى العاجز عن الكسب ألا يغضب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطيه الرزق بلا تعب . بل إنك قد تجد الغنى وهو يبحث عن مصارف الزكاة ويسأل عن الفقراء ليعطيهم .

وكثيراً ما نرى إنساناً عزيزاً فى أزمة ، ونجد من أصدقائه من يقترض ليعطيه . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة]

ومع أن المال مال الله فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذى يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطى بعضاً منه أخاه المحتاج ؛ابتغاء مرضاة الله ، واعتبر

سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جل جلاله ، وكأن الذى يعطى المال للمحتاج يقرض الله ، ولله المثل الأعلى؛ كالأب الذى يعطى مصروفاً لأولاده ، فيضعه كل منهم فى حصالته ، ثم تأتى للأب أزمة مالية، فيستأذن أولاده حتى يأخذ ما فى حصالاتهم، رغم أن مال الأولاد هو من مال الأب ، ورغم ذلك نجد الأب قد احترم ما وهبه من المال لأولاده؛ فاعتبره مالهم . كذلك الحق سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فاعتبر المال ماله، وطلب منه أن يقرضه .

وفى هذا مَيْزة للغنى والفقير ، فالغنى يأخذ ميزة وشرفَ أنه أعطى لله ، والفقير أخذ ميزة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

وجعل الله الزكاة من أركان الإسلام ، وجعل هذا الركن لمصلحة الفقير. فالغنى ليس له ركن فى إيمان الفقير ، ولكن الفقير له ركن من إيمان الغنى . والغنى حين يعطى جزءاً من ماله فهو يستغنى عن هذا الجزء . وهناك فرق بين أن تستغنى عن الشىء وتستغنى بالشىء. والحق سبحانه وتعالى مستغن عن الكون وما فيه ، فكأنه أعطى الغنى صفة من صفات الحق ؛ لأن الله مستغن عن مال الدنيا كله ، والمال ليس سلعة مفيدة فائدة مباشرة للإنسان .

والمثال الذى أقوله دائماً ، يوضح ذلك : لنفرض أن رجلاً عنده جبل من ذهب وتاه فى صحراء لا يجد فيها لقمة خبز أو شربة ماء ، فما هى فائدة جبل الذهب هذا ؟ إنه لا يساوى شيئاً . إذن: فالمال ليس غاية فى حد ذاته ، ولكنه وسيلة . وعندما يمنع الغنى ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غاية فلا ينفعه . أما إذا أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير ؛ فهو قد أعاد إلى المال وظيفته فى أنه وسيلة من وسائل الحياة . وأنت تشترى بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ؛ فعليك أن توظفه فى أكمل ما ينفعك ؛ وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة فى العمل ؛حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ؛لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجِد فائض من مال للزكاة.

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذى يكسبه الإنسان فى الدنيا مال الإنسان ، حتى يعمل كل منا على قدر طاقته ؛ لأن المال ماله. وعندما يزيد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لاتحب أن يفارقك المال الزائد، وفى الوقت نفسه تحرص على أن تنفقه فيما ينفعك ، فيرشدك الحق إلى إنفاق بعض المال فى خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لآخرتك.

إذن: فأنت محتاج إلى التصدق ببعض من المال الزائد لتحسُنَ آخرتك. والفقير محتاج إلى بعض من المال الزائد عن حاجتك ليَعيش. فكلاكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فجعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل.

وعلى سبيل المثال: إن عثر الإنسان على كنز فزكاته عشرون فى المائة [١] ، وإذا زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هى عشرة فى المائة [٢] ، أما إذا كان رزق الإنسان من عمل يومى كالتجارة ، فالزكاة هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان فى عمله قلَّتْ الزكاة . وكلما قَلَّ عمل الإنسان فيما يكسب ؛ زادت الزكاة ؛لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل . والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك.

(١) زكاة الكنز: هو ما يسمى زكاة الركاز، وقد قال ﷺ: « وفى الركاز الخمس» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٥٥) ومسلم (١٧١٠) عن أبى هريرة. والركاز هو ما ركز فى باطن الأرض من معادن وأحجار وغير ذلك.

(٢) فى هذا تفصيل ، فالقدر الذى يجب إخراجه يختلف باختلاف السقى، فما سقى بدون استعمال آلة كمطر وغيره ففيه عشر الخارج (أى ١٠٪) أما إن سقى بآلة أو بماء مشترى، ففيه نصف العشر (أى ٥٪)، ودليل هذا قول رسول الله ﷺ: « فيما سقت السماء والعيون، أو كان عثريا العشر، وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه البخارى (١٤٨٣) عن ابن عمر.

فالذى يبنى عمارة - مثلاً - إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ، ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن قاموا بصناعة وتركيب الأدوات الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها لانتهاء أجله .

إذن: فالمجتمع كله يستفيد من بناء العمارة ، حتى ولو لم يكن فى بال صاحبها أن يفيد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذى يأتى بالمال ، وينسون أن الله هو الذى ييسره لهم، ويُمكّنُهم منه. ويلفتنا سبحانه إلى ذلك حين تأتى آفات تتلف الزرع وتُضَيِّعُ تعب من قاموا بالحرث والبذر والسَّقْى ؛ لعلنا نلتفت إلى أن كل شىء يتم بإرادة الله ، وليس بالأسباب وحدها.

وسبحانه وتعالى حين يقضى بذلك ، يلفتنا أيضاً لفتة أخرى فيبارك فى زرع فى بلد آخر أو مكان آخر ، فإذا هلك محصول القمح فى دولة ، كانت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشترى هؤلاء من هؤلاء ، أو ترسل الدول التى جاءها محصول وفير إلى الدول التى هلك فيها الزرع كمعونة أو إغاثة ، وبذلك تتعادل سبل الحياة.

ولابد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا القدرة ، ولا أحد يستطيع أن يعطى القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى. فالقدرة المطلقة هى لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه يُمرِّر بعضاً من أثر قدرته إلى خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعِين إنساناً آخر فى حَمْل شىء ثقيل لا يستطيع صاحبه أن يحمله.

وفَرْقٌ بين أن تتبرع أنت بأثر قوتك ؛ وبين أن تهبَ الغير هذه القوة. فالبشر يعطى أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء.

المال - إذن -لا ينفع بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء النافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال. إذن : فالمال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم. ولذلك يعتز به الإنسان . والمثال : أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، تجدهم يحرصون على لقاء الأب فى أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقى الأيام. أما إذا كان المصروف فى كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم فى كل يوم.

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما فى صدور الناس ؛ ولذلك يُلفت القادر إلى ضرورة أن يُخرِجَ بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب.

ونحن نعيش فى عالم أغيار ، ومن الممكن أن يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً. ولذلك نجد القادر يمتلىء بالقلق إن رأى عاجزاً. وهنا يتذكر نعمة الله عليه ؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز ؛ وهو راضٍ ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... (١٠٣) ﴾ [التوبة]

إذن: فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التى قد تصيبه، وتُزكّى الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة نمواً وزيادة وإن بدت فى ظاهرها على أنها نقص . فالمائة جنيه [1] تصبح سبعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهى عكس الربا الذى قد تصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه زيادة ،

(١) هذا مثال فقط، وليس معناه أن من معه مائة جنيه تجب فيها الزكاة، فزكاة المال لها نصاب محدد قدره العلماء بما يعادل ثمن ٨٥ جراماً من الذهب ويحول عليها الحول.

ولكنه يمحق كل خير ، وظاهر الزكاة أنها نقص ، ولكنها فى حقيقتها نماء . والنماء أن يترقى الشيء فى مراتب الكمال ؛ فينمو طهارة ، وينمو تزكية ، وينمو بالزيادة والبركة . والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها ؛ فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طال ، قصير . ولا بد أن يأتى يوم تفارق فيه هذا المال بالموت . فى هذه اللحظة يكون ما كنزت من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقت فى سبيل الله ، أى : أن ما أنفقت هو ما يبقى لك فى عالم الخلود لا يفارقك ولا تفارقه . وشاء الحق أن يضاعف لك الجزاء والثواب .

ويقول رسول الله ﷺ :« يقول ابن آدم : مالى مالى . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ » [1]

إذن : فالذى يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن يتعدى به مجرد الوجود فى الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن يعشق المال - إذا أراد أن يبقيه - فلينفقه فى الصدقة .

ولنا الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ حين جاءته شاة كهدية ، فقال للسيدة عائشة رضى الله عنها : « تصدقى بلحمها ». وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقت بلحم الشاة كلها ، وأبقَتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله عليه الصلاة

(١) حديث صحيح . أخرجه مسلم (٢٩٥٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣٨) عن عبد الله بن الشخير .

والسلام . وعندما عاد رسول الله ﷺ ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة ؟ قالت : تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها . فقال : « بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها » [(١)].

وذلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشة هو الباقى . وما أبقته لهما هو الذى سيفنى . وهكذا سمى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذى يحب صحبة ماله فى الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه صدقة للفقير والمحتاج ، ليبارك الله له فى الدنيا ، ويجزيه خير الثواب فى الآخرة . وقد سأل رجل الإمام عليا رضى الله عنه : أريد أن أعرف : هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ . قال الإمام على كرم الله وجهه : الجواب عندك أنت ، لا عندى ، انظر إذا دخل عليك من يعطيك ، ودخل عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة ؛ أيهما تحب ؟ إن كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من يعطيك فأنت من أهل الدنيا ؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة ، وأما من يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً .

ونقول للذى يحب المال : اجعل حبك للمال يبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا ؛ فالدنيا ليست هى المقياس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك يكن لك خيراً فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : أنه سبحانه وتعالى يضع الأشياء فى موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

---

(١) حديث صحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : « ما بقى منها ؟ » قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : « بقى كلها غير كتفها» .

وأما الحكمة فيدير بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين غنى وفقير . وشاء الحق أن يجعل التفرقة فقط فى الدنيا ؛ لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قضاة ؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فنبغ كل واحد منا فى شىء ؛ أنا أتقن شيئاً ولا أعرف الباقى ، وغيرى يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقى . فأكون فى حاجة إلى عمل غيرى ، وغيرى يحتاج عملى ، وبذلك يصير الرباط بيننا رباط حاجة ورباط رزق ، لا رباط تفضل وتطوع .

إذن : فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخَلق بقدر ما تتطلب الخلافة فى الأرض من حركات الحياة ؛ فأعطى هذا زاوية من نبوغ ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النبوغ ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا : إن مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد وتوفيقهم ، ثم البركة فى الرزق وغير ذلك.

إنك لو وضعتَ لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً ؛ تجد أن مجموع كل إنسان فى النهاية يتساوى مع مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملكون المال ولا يخرجون منه زكاة أو صدقة ، فماذا يكون موقفه ؟ لابد أنه سيتمنى زوال النعمة عن هؤلاء. ولكن إن عادت نعمة القادر الغنى على من لا نعمة عنده ، فهذا يجعل العاجز الفقير مُحِباً لدوام النعمة عند صاحبها ؛ لأنه إن حُرِمَ الغنى

القوة ، حُرِم العاجز الفقير من آثارها ؛ ولذلك فعندما يعطى الغنى للفقير ، فهو يدعو له بالبركة ، وحين يبارك الله فى تلك النعمة سيعود على الفقير بعض منها.

وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من الغنى، فقد يأخذها تلصُّصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه الحقد والحسد إلى أن يقتله أو يتآمر على قتله.

إذن: فالزكاة فى المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها. وهى ضرورة من ضروريات الحياة. ولذلك رأينا القادرين فى المجتمعات التى لا تؤمن بدين وهم يتطوعون لإقامة المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدفع شرور العاجزين عن مجتمعاتهم ؛ لذلك تجد فى معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمتعطلين ليعيشوا حياة الكفاف، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم.

على أن قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ معناه: أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء، والذى فرضها هو الحق سبحانه بقوله: ﴿ **فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ** ﴾.

وقد تُفرَض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرور عن المجتمع ، ولكن هذا لايحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين ، ويخرج من يقول: لكى تأمنوا شرهم لابد أن نعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر.

وهكذا نجد أن تشريعات البشر لا تأتى إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته

فى الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء. ولذلك شرع الدين ورتَّبَ أحكامه لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع.

وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فاضحة كاشفة للمنافقين ؛ لذلك كان من بين أسمائها : « السورة الحافرة » ؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر عليه ليخرجه - ولله المثل الأعلى - فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير.

فقد قال الحق : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي ..(٤٩) ﴾ [التوبة]

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ .. (٧٥) ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... (٥٨) ﴾ [التوبة]

ولذلك يسمونها " مَنَاهِم التوبة ". وهنا يبين الحق صورة جديدة للمنافقين وتصرفاتهم فيقول :

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

ونعلم أن الإيذاء لرسول الله ﷺ جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فَاهْدنا يارب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

وهنا يقول الحق سبحانه [١] :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ والذين يؤذون رسول الله ﷺ هم السادة ، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون أن يذهب منهج هذا النبى بنفوذهم ؛ وثرواتهم ؛ وما أخذوه ظلماً من الضعفاء . والضعفاء - كما نعلم - هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم . وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً ، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل : أبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ... ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١١٧) : « هذه الآية نزلت فى عتاب بن قشير ، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نبتل بن الحارث . قاله ابن إسحاق » .

وهكذا كان الإيذاء له ﷺ بعد الرسالة، أما قبل الرسالة فكان فى نظر الجميع هو: الأمين والصادق والمؤتمن.

ومن العجيب أنهم، بعد أن نزل الوحى ، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً ﷺ . فإذا كان هناك شيء ثمين عند الكافرين المعارضين ، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده . وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم فى أخلاقه ﷺ . ورغم ذلك كانوا فى غيظ وكَمَد ؛ لأن القرآن قد نزل عليه . والحق هو القائل ما جاء على ألسنتهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد ﷺ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحد عظمائهم [1]. ورد الحق سبحانه عليهم:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

وفى هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يوكلهم فى اختيار من ينزل عليه رحمته ، ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذى يختار . وهو الذى قسم بين العباد معيشتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد ، أو غير ذلك ، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم ، ولكنه نعمة من الله .

(١) القريتان هنا : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود. فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان ».

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ إذن : فالإيذاء سببه أنه ﷺ جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر فى المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعى أن يكون للنبى أعداء .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقص ذلك من حظه فى ميراث النبوة ، وكل من له أعداء ويقوم بهداية الناس إلى منهج الله ، نقول له : لا تنزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثَّل إيذاء المنافقين له ﷺ فى عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

وللإنسان - كما نعلم - وسائل إدراك متعددة : فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك . وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، والملكات الإدراكية هى التى يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق . أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمى الجاسوس عيناً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمى الرجل

الذى يسمع كل حدث « أُذُن » ، ونسمى اللص الذى يتعدَّى على مال غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا.

إذن: كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات ، وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلقه ، فيقول:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ؛ لأنها أعطتنا العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

وإذا أطلقَ على الإنسان اسم جارحة من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هى العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿هُوَ أُذُنٌ ﴾ هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ فيكشف نفاقكم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام فى رأيهم يُصدِّق كل شىء . أرادوا أن يتهموه ﷺ أنه لا يمحص القول الذى يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن فى العامية « فلان ودِنى» أى : يعطى أذنه لكل ما يقال له.

فيرد عليهم الله : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأنه ﷺ يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدى أهل الأرض ، إذن: فهو خير للناس كلهم . وحتى إذا

أخذنا كلامهم فى أن رسول الله ﷺ يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم ؛ لأنه ﷺ لا يؤذيهم ، وهو ﷺ ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحى . ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاوٍ له ، وإنما كان علمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة ؛ فإنها الكمال كله فى حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو أذن خير ؛ لأنه الأذن التى استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض.

فإذا كان المنافقون قد قالوا : (هُوَ أُذُنٌ) فقد قال سبحانه : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ ، وهو خير يعود نفعه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم.

وما دام هذا هو سلوك رسول الله ﷺ فلماذا تؤذونه وترهقونه ؟

وفى اللغة ما يسمونه "القول بالموجب" ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلتُ عليك ، ويرد عليه : أنت أثقلتَ كاَهلى [1] بأياديك ، أى أن أفضالك علىَّ كثيرة . وإن قال لك واحد : "أنا طولت عليك" ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت علىَّ ، أى : أعطيتنى نعمة بأنك أسعدتنى بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على ما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال.

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم فى كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به. وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من

(١) الكاهل : هو ما بين كتفى الإنسان .

النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدَّعوا عليه أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تجاه من يبلغه ، وقالوا : إنه ﷺ ﴿ أُذُنٌ ﴾ ، وردَّ الحق سبحانه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه ؛ لأن "أُذُن" عندهم غير ﴿ أُذُن ﴾ التي أقرها الله سبحانه وتعالى.

وقد يقول بعض السطحيين : إن المنافقين قالوا عن رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس له حكمة التمحيص والاختيار. لكن لنلتفت إلى أن الحق قد قال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطبَّقه ، وما سمعه من الناس؛ عرضه على منهج الله ؛ فإن وافق المنهج نفذه ، وإن تعارض مع المنهج رفضه . إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتي من رسالته إلا الخير لمن اتبعه.

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى : أذن خير للمؤمنين ، وقال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ ؟ ؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّتْ المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار. فكان رسول الله ﷺ لايفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء.

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول ﷺ ، ويعتذرون عن الجهاد في سبيل الله ؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن . وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس . أما الكفار فقد شملتهم الخيرية أيضاً ؛

لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره ﷺ على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اهتدائهم لدين الحق . إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي : للبشرية كلها .

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف الرسول أنه أذن سَمَّاعة . والله يقول : إنها أذن خير ؛ وهذا ما يسمونه في اللغة - كما قلنا - : " بالقول الموجب" ، أي : أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير . والمثال أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا :

﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون . ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا ؛ نعم سيُخرِج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (٨) ﴾ [المنافقون]

فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرِج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . هذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أي : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل . تماماً كما يأتي الحارس لسجين يشعر

بظمأ شديد ويُلحُّ في طلب كوب ماء . فيقول له الحارس : سأحضر لك كوب الماء. وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سينال ما يريده ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يزيد ذلة المنافقين ، فوافقهم على أن رسول الله ﷺ "أُذُن" ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال :

﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ وما دام ﷺ يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم.

إذن: فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله ﷺ : أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه. ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا. ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وبين قوله عز وجل :﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء في قوله : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام في قوله : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

بعض النـاس يقولون : إن هذه مترادفات ؛ لأن معنى ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أي : يصدق بوجوده. والمنافقون كفرة بالله ، ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناها أنه ﷺ يصدق المؤمنين. أما المنافقون فهو ﷺ يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين ؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا ينوون الإيمان فعلاً .

ولو فضحهم ﷺ أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً . وإن فكر أحدهم في ترك النفاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة في ذلك ؛ لأن أحداً لن

يصدقه . ولكن أراد ﷺ أن يسترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأنه ﷺ إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقى باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى :﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون :

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعنى ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أى : صدَّقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعلن أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أى صدقتهم لأنهم مؤمنون.

ومادة "آمن" تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتى مرة لازمة ومرة متعدية. مثلما تقول : "آمنت الطريق" أى : اطمأننت إلى أنه لن يصيبنى فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... (٦٤) ﴾ [يوسف]

أى : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخى يوسف ، وهذه آمن اللازمة . أما المتعدية فهى التى يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ... (٤) ﴾ [قريش]

والخوف متعدد فى أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه فى الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة.

وقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات، وإيمان بالمنهج ، وإيمان يسع أمة رسول الله ﷺ كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثاني. وقوله سبحانه ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ لأنه ﷺ شفيع لهم يوم القيامة ، وقال : "أمتى أمتى".[1] وهو رحمة لهم فى الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذى يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو ﷺ رحمة تدفع الضرر وتأتى بالخير ، والرحمة إنما تأتى باتقاء الضرر.

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

الشفاء يعنى أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتى المرض ، فكأن رسول الله ﷺ يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر فى الدنيا ولا نار فى الآخرة .

ويتساءل بعض الناس : لقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم فى جهنم .

(١) حديث الشفاعة حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٤) من حديث أبى هريرة أنه ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد . ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ لم يكن بالمواجهة ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله ﷺ من المنافقين فى قلوبهم وفيما بينهم فى مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون فى الصدقات ، ويقولون : إنه أُذُنٌ ، ويحلفون له كذباً ليضللوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتى الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ "يحلفون" ، ولم ترد مادة "يحلف" فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم جاءت "حلاف" ، حتى إن سورة التوبة سميت "سورة يحلف" [1] ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ وفى هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح غباءهم وعدم فطنتهم .

(١)هذه السورة لها أسماء كثيرة فهى : براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين . وقال حذيفة : هى سورة العذاب . وقال ابن عمر : كنا ندعوها المشقشقة . وقال الحارث بن يزيد : كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها : المسورة ، ويقال لها : البحوث ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٩) .

وأيضاً يقول الحق :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ... (٩٥) ﴾ [التوبة]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة ،أى فى المستقبل ، أى : أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة ، ولو كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ولكننا لم نحلف . ولكنهم ورغم نزول الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا . وكلمة "حلف" هى القسم أو اليمين . وحين نتمعن فى القرآن نجد أن الحلف لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ فى سورة المائدة :

﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... (٨٩) ﴾ [المائدة]

وما دامت هناك كفارة يمين ؛ يكون الحلف كذباً ؛ لأن الذى يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل **"حلف"** فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (١٠) ﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسم الكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ فقد يكون اليمين صادقاً ، وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ أى : أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ إذن : فهم يحلفون لترضَوْا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو

لا يقسم إلا ليرضى الله ؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً .

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرعى الله فى كل معاملة له مع البشر ؛ ويبتغى رضاه ويخاف من غضبه ، ذلك هو المؤمن الحق.

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال :﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ وكان القياس اللغوى على حسب كلام البشر أن يقول: والله ورسوله أحق أن ترضوهما. وشاء الحق أن يأتى بها ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد ؛ لأن الرسول ﷺ لا يأتى بالقرآن من عنده ، ولكنه وحى من عند الله . وإرضاء الرسول هو اتباع المنهج الذى فيه رضا الله . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ... ⑩﴾ [الفتح]

ويقول سبحانه:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ㉛﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ⑳﴾ [النساء]

إذن: فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول ؛ لأن الرضا منهما رضا واحد.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فما يُرضى الله يُرضى الرسول ﷺ ، وما يُغضب الله يُغضب الرسول [1].

(١) وقد جاء هذا فى حديث متفق عليه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله » أخرجه البخارى (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥) .

أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، في أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحداً مع الله ، وإنما نجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعندما ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له : أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل : إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . فقال له رسول الله : « وقعت على الخير »[1] . انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذي يثني على رجل يقول أمامه : إني لا أتوب إلى محمد، وإنما أتوب إلى الله.

وقول الحق سبحانه : ﴿ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن كان إيمانهم حقيقة ، وليس نفاقاً.

إذن : فنحن لا نطلب الرضا من خلق الله ، ولكن نطلبه من الله. ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلِّغ عنه رسوله ﷺ رضا واحد . ولذلك وحَّد الضمير ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ولم يقل يرضوهما[2] .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

(١) عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ أتي بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال النبي ﷺ : « عرف الحق لأهله » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٣٥) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٩) « وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح» وقد ضعف الحافظ العراقي إسناد هذا الحديث في تخريجه للإحياء (١/ ٢٢٠) .

(٢) لأهل اللغة هنا تقديرات كثيرة لتوجيه إفراد الضمير هنا ، ذكر منها القرطبي ثلاثة تقديرات ثم قال : « وقيل : إن الله سبحانه جعل رضاه في رضاه ، ألا ترى أنه قال ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ..﴾ [النساء: ٨٠] . وكان الربيع بن خيثم إذا مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : حرف وأيما حرف . فوِّض إليه فلا يأمرنا إلا بخير » . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣١١٩) .

إذا سمعت ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فافهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم . فإذا قلت لإنسان : ألم تعلم أنه حدث كذا وكذا ؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحادث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه . وهذا استنكار لتخلُّف هذا الإنسان عن العلم.

وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموها وألا تزول عن خواطرهم أبداً. وسبق أن قلنا : إن الاستفهام فيه نفى ، والهمزة همزة استفهام. ولم تأت للنفى ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النفى يكون استنكاراً . فإن قلت لإنسان : ألم أكرمك ؟ كأنك أكرمته عدة مرات وهو مُنكر لذلك.

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم ؛ لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ ما معنى يحادد ؟ نجد فى الريف أن أهل الريف يضعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشيء الذى يفصل بين حق وحق ويسمونها حدّاً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله فى جانب وهم فى جانب ، وبذلك لا يعيشون فى معية الله ولا ينعمون بنعمة الإيمان به سبحانه ولا يطبقون منهجه. بل يجعلون حدّاً بينهم وبين ما أمر به الله .

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا :﴿ يُحَادِدِ ﴾ تعنى : يعادى ، وقالوا : بمعنى يشاقق ؛ أى : يجعل نفسه فى شق والله ورسوله ودينه فى شق آخر . أو : يحارب دين الله فيكون هو فى وجهة ودين الله

في وجهة أخرى [(١)] . وهناك علاقة بين كلمة "يحارب" وكلمة "حد" ، فحدُّ السيف هو الجزء القاطع منه الذى يفصل أى شىء يقطعه إلى جزءين ، فكأن الذى يحادد هو من يحارب منهج الله ورسوله . فهو لا يكفر بالله فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليجعل خلق الله يكفرون أيضاً .

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً فى جانب الإيمان ، وألا يقيموا حداً بينهم وبين الإيمان به . والأحكام الشرعية تسمى حدوداً ، أى : أن كل حكم قد وضع ليحدد حداً من حدود الله ، تحفظ به الحقوق والأوامر .

ومنهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهى ؛ لأن منهج الدين كله فى "افعل" و "لاتفعل" ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ...(١٨٧) ﴾ [البقرة]

ويقول :

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

ويسأل بعض الناس : ما الفرق بين اللفظين ﴿ تَعْتَدُوهَا ﴾ و﴿ تَقْرَبُوهَا ﴾ . ونقول : إذا كانت هناك أوامر فلا تتعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواهٍ فلا تقترب من المنهى عنه .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة المحرمة لم يقل : لا تأكلا من الشجرة ، بل قال :

﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ ... (١٩) ﴾ [الأعراف]

(١) وقد جمع ابن كثير هذه المعانى كلها فى تفسيره للآية فقال : « أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد » . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٦) .

وبذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمار الجنة ، ولكنه أمر ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لأن القرب من هذه الشجرة إغراء بالمعصية ؛ فقد يعجبهما منظر الثمرة . وقد تغريهما رائحتها ، وقد يفتنهما لونها . ولكن عندما لا يقتربان من هذه المغريات كلها فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

وعندما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أي : لا نقرب أي مكان فيه خمر [(١)] ؛ لأن وجود الإنسان في مكان فيه خمر قد يوحي إليه بتناولها . وقد يجد من الجالسين من يحاول إغراء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يقي النفس المؤمنة من أن تغرى بالمعصية فتقع فيها .

ويقول سبحانه في أدب الاعتكاف :

﴿ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

المنهي عنه هنا هو المباشرة ، أي : إن تواجدت الزوجة مع زوجها في المسجد ، فليس في هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الزوج [(٢)] ، ثم

(١) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » . أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٧) وأبو داود في سننه (٣٦٧٤) والحاكم في مستدركه شاهداً وقال : ولم يخرجاه . والطبراني في الصغير (١/ ٢٦٦) .

(٢) « الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه » انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٤) .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ولم يقل : فلا تفعلوها ، ولكنه قال :

﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧) ﴾ [البقرة]

إذن : ففيما نهى الله سبحانه وتعالى عنه ؛ مطلوب من المسلم ألا يقرب منه ، أى : لا تكن أنت والشيء الذى نهى الله عنه فى مكان واحد ، بل عليك أن تبتعد عن المكان ؛ لأن المعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن الإغراءات ؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها .

أما فى الأوامر ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ . وعلى سبيل المثال : إن نشأ خلاف بين الزوجين وفشلت كل محاولات الصلح بينهما ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

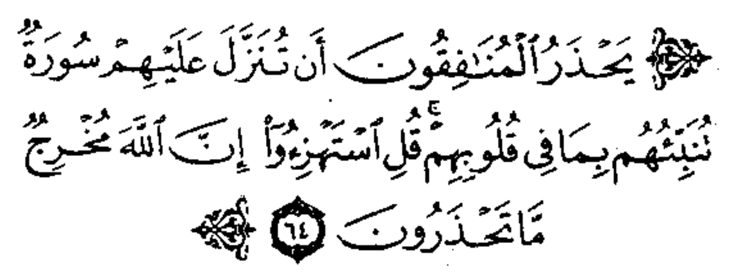
إذن : ففى الأوامر يقول الحق : ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ ، وفى النواهى يقول سبحانه : ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ينذر الحق سبحانه وتعالى الذين يحادون الله ورسوله فيقول :

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ والإنذار هنا يتمثل فى أنه يوضح لهم أن ما ينتظرهم ليس هو العذاب الجسدى فقط ، ولكنه عذاب فيه خزى وهوان ، فمثلاً بعض الناس قد يتحمل ويتجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه ؛ لذلك

فالعذاب الذى يعدهم الله به فى الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه خزى وهوان . ويتمثل الخزى فى أن المتكبر فى الدنيا يأتى إلى الآخرة ويهان أمام الخلق جميعاً ، ويكفى خزياً أن يكون فى النار . والمؤمنون الذين تكبَّر عليهم فى الدنيا يعيشون فى نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها حسرة .

ثم يفضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين فيقول :



والحذر معناه الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال ؛ يقال لمن يسافر فى طريق محفوف بالأخطار : خذ حذرك وأنت تسير فى هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع الطرق . إذن : فالحذر هو الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن إذا كانت السورة تتنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون ويستعدون لنزول هذه السورة ؟

نقول : إن هذا استهزاء بهم ؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولأن آيات سابقة نزلت تفضح ما يخبئونه فى نفوسهم . فهم دائماً خائفون من أن تنزل آية جديدة تفضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليم بما فى نفوسهم ، ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يخشون أن يخرج ما فى بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين . والغيب - كما نعلم - محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضى أو بالمستقبل ، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتى فى المستقبل ، فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن فى القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث فى الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب فى القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله ﷺ ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضى ، ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود]

وكشف الله سبحانه وتعالى - أيضاً - لرسوله ﷺ والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل ؛ فقال :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَاوَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة[1] ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة . وأيضاً قال الحق من أمثلة كشف حجب المستقبل :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذاباً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : أي جمع هذا ؟[2]

وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر : صدقت يا ربي : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم]

أي : أن الله تبارك وتعالى أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ

(١) قال الزركشي : « السين هنا للاستمرار ؛ لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم : (ما ولاهم) ، فجاءت السين إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال » . انظر : البرهان في علوم القرآن (٤/ ٢٨٠) .

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبي حاتم (٤/ ٢٦٦) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ قال: قال عمر: أي جمع يهزم ؟ أي جمع يطلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ .

سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث فى أعماق النفس . وما يدور فى صدور الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إنسان : إن سرّك الذاتى مفضوح عند الله ، والمثال على هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

هم قالوا فى أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد ﷺ عما قالوه فى أنفسهم وأعلنوا أنه كذب . ولكنهم لم يكذّبوا رسول الله فيما أبلغ عن الله . وهذا يدلنا أيضاً على أن المنافقين كانوا فى حذر ، وكان يغلب على ظنهم صدق رسول الله .

والمثال هو قول الحق هنا : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة]

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعى أن نتكلم حتى لا يُنزل فينا قرآناً ، فالحق يُبلّغ رسوله أن يرد عليهم : ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة]

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وإن سألتهم يا رسول الله: هل تناولتم الإسلام بسوء أو عيب في مجالسكم ، فسوف يقولون : إن كان هذا قد حدث فهو مجرد خوض ولعب ، وكلام مجالس لا قيمة له [(١)].

والخوض أن تُدخلَ نفسك في سائل ، مثل الذي يخوض في الماء أو يخوض في الطينَ ، وقد أطلق على كلٍّ خوض ، ثم اقتصر على الخوض في الباطل ، أي: أن المسألة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب.

ويقول الله لرسوله: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: إذا قالوا لك : إن هذا حديث تسلية ولعب ؛ فاللعب هو أمر لا فائدة منه إلا قتل الوقت ، قل : أليس عندكم إلا الاستهزاء بآيات الله ورسوله وأحكام الإسلام تقتلون به الوقت ؟ فهل في هذه المسائل خوض ولعب ؟

ثم يعطيهم الله الحكم:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم جاء كفر ؟ لا ، ولكن قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ يعني: أنكم أيها المنافقون قد فضحتم أنفسكم ؛ لأنكم كنتم تعلنون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن إيمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان.

---

(١) وذلك أن رجلاً من المنافقين في غزوة تبوك قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء ، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه . فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عناء الطريق. انظر: أسباب النزول -للواحدي ص ١٤٤ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه - جَلَّ وعلا - لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما فى نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التى ستتوب توبة صادقة ، والتى لم تشترك فى هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بَقَوْا على نفاقهم وإجرامهم - والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أى قطعتها ، وسمى إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل - أى الذين قطعوا واقعهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحانه .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ... ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]

أما باقى الأحكام فتنصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث فى الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السِّتْر فى الذكورة . ولكنه كان لابد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات كل على حدة ؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين . . ولذلك كان لابد من النص على المنافقات.

وقول الحق سبحانه : ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى: لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر فى الخسة والقبح والفضائح ، ويحدد الله خصالهم فى قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهم إن فعل الناس معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا ينفقون فى سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإنفاق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة ؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أى أهملهم ، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْداً ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... ⑩ ﴾ [البقرة]

فإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً ، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً.

ثم يعطى الحق سبحانه الحكم : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكلمة « منافق » - كما نعرف - مأخوذة من نفقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن فى الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً فى الأرض ؛ له بابان ، وإنْ ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثانى، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والفسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة ؛وهو مأخوذ من «فسقت الرطب»

أى : انفصلت القشرة عن الثمرة. والقشرة - كما نعلم - مخلوقة لصيانة الثـمرة ؛ فإذا فسـقت عنها تلفت الثمرة . والإنسـان إذا فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتى الله بما أعدَّه للمنافقين فيقول :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال : « أوعد » فى الشر ، وفى بعض الأحيان تستخدم كلمة « وَعَدَ » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس. وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ... (٢٩) ﴾ [الكهف]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلى ويشوى وجوههم - والعياذ بالله - ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) ﴾

[النساء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار. والكفار موقعهم الدرك الأعلى ، وقد يسأل سائل : كيف يكون ذلك ؟

ونقول : إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة ؛ فلأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه ، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فأمناه ، ويستطيع أن يلحق بنا شرّاً رهيباً ؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا ، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة.

والعدو الخفى - كما نعلم - شر من العدو الظاهر ؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفى ، وهو يعرف ما فى نفسى ، ويعرف كل تحركاتى ، ويستطيع أن يغدر بى فى أى وقت دون أن أكون منتبهاً لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا ، فكيدهم يفشل ؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم . أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم ، فهم يُجنِّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا فى هذا الدين ، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم ، هى القاتلة وهى المؤثرة.

هنا نلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً فى النار إلا فى ثلاث آيات فقط فى القرآن الكريم.

في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٦٩) ﴾ [النساء]

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٦٥) ﴾ [الأحزاب]

وقوله جل جلاله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن]

و لكنه ذكر الخلود فى الجنة أبداً مرات كثيرة [(١)].

ونقول: إن الجنة هى بُشْرى النعيم للمؤمنين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذى ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهى دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود فى النار متبوعاً بكلمة أبداً إلا فى ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت فى النار ؛ لذلك يُذكِّرهم بأنه خلود أبدى . وفى نفس الوقت تأبى رحمته سبحانه وتعالى أن يكون ذلك فى كل آية تُذكَر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، عَلَّه يتوب ويرجع إلى الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [هود]

(١) ذكر الخلود فى الجنة أبداً فى ٨ مواضع من القرآن الكريم [النساء: ٥٧ ، ١٢٢] ، [المائدة: ١١٩] ، [التوبة: ١٢ ، ١٠٠] ، [التغابن: ٩] ، [الطلاق: ١١] ، [البينة: ٨] .

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتى فى هذه الآيات ويستثنى ويقول: ﴿إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر ؟

ونقول: إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان : قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات ؛ فُيعذَّب فى النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قَدْر سيئاته . والثانى يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن: فالمؤمن العاصى لا يخلد فى النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأنه لن يبقى فى النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده فى النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة.

أما الكافر والمنافق فهما خالدان فى النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصى. وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق.

وإذا جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً ؛ أى منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذى غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصى ؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليجازى بمعاصيه.

إذن : فالمؤمن العاصى خلوده فى النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً. وكذلك يفتقد الخلود فى الجنة فور انتهاء لحظة الحساب ؛ لأنه لن يدخل

فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة [1] .

وقول الحق عن خلود المنافقين فى النار : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أى تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتى إنسان قوى ويقول لك : اتركه لى ، أنا وحدى كفيل أن أؤدبه ، فتقول : هذا حسبه ، أى يكفيه هذا ؛ ليتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أى : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كافٍ جداً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات .

ثم يقول الحق : ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أى : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا . وأما ما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ فى الدنيا هو عذاب مقيم فى الآخرة .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٦٠) : « هذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة » . وقد أضاف الإمام أبو يحيى الأنصارى معنى جميلاً فى كتابه : « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ١٩٥ فقال : « هو استثناء من الخلود فى عذاب أهل النار ، ومن الخلود فى نعيم أهل الجنة ؛ لأن أهل النار لا يخلدون فى عذابها وحده ، بل يعذبون بالزمهرير ، وبأنواع أخر من العذاب ، وبما هو أشد من ذلك ، وهو سخط الله عليهم . وأهل الجنة لا يخلدون فى نعيمها وحده ، بل ينعمون بالرضوان ، والنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك » .

كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظهر ما يعانى ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوانَ هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التى تصيبه بعذاب نفسى أكثر من العذاب البدنى ، فقد تأتى لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه، أو لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى: عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يُخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار.

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للخارجين عن منهجه :

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التى صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعداء منهج الخير .

والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين الذين يواجهون رسول الله ﷺ. ولنقرأ قول الحق جل جلاله:

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾
[الفجر]

ونحن لم نشهد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ التي وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ ، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التي لم يصل إليها أحد . وقد يتساءل بعض الناس : أين ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ من حضارات اليوم ؟ . ونقول : إن هناك أسراراً لله في كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يُعْطِها لأحد حتى الآن.

وإذا نظرنا إلى الفراعنة مثلاً نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم في القرآن بقوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾. والأهرامات أوتاد ، والمسلات أوتاد ، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن ، فهناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن ، مثل سر التحنيط وبناء الأهرام ؛ فهذه الكتل الحجرية الضخمة التي ارتفعت ويمسك بعضها البعض ، دون أية مواد مثبتة ، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هرماً مبنيّاً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أي مواد

مثبتة ، ومع ذلك فهؤلاء الفراعنة لم يستطيعوا أن يسودوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ، بل أخذهم الله أَخْذَ عزيز مقتدر . وجاءت الرمال فدفنت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن نكشف عن جزء بسيط منها ؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يبهر الدنيا كلها . وإذا بالعالم كله يأتى ليشاهد حضارة الفراعنة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقى فى العلم . فإذا كانت هذه هى حضارة آل فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التى لم يُخْلَق مثلها فى البلاد ؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدفونة فى باطن الأرض. ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها فى زمن قادم يزداد فيه بُعْد الناس عن الدين ؛ لأن الإنسان كلما تقدم فى الحضارة ابتعد عن الإيمان ؛ لإحساسه بأنه متمكن فى الكون ؛ مسيطر عليه ؛ حينئذ ربما يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوى شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم.

وإن سأل سائل : أين هى حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ؟ نقول له : إنها فى وادى الأحقاف [1] والهبّة الواحدة من الرياح فى هذا الوادى تستر قافلة بأكملها ؛ أى إذا هبّت ريح ، فإن الرمال لا تدارى الطريق وحده ؛ ولكنها تدارى القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبّت على المكان الذى كانت تقطنه ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ فأخفتْ حضارتهم ؟ لابد إذن من حفريات على مستوى عميق جدّاً لنعثر على تلك الحضارة ؛ لأننا نعلم ونرى أن كل الكشوف الأثرية تحتاج أن نحفر لها ؛ لأن الرمال تتراكم فوق

(١) الأحقاف : هى صحراء مترامية الأطراف بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . والأحقاف فى اللغة هى: ما اعوج من الرمال واستطال .

الآثار . بل إننا نرى البيوت القديمة فى القـرى ، لابد أن تـنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب ؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من علو الطـريق . فإذا كان هذا هو عمل الرياح العادية فى وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير فى أزمان طويلة ؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك إغلاقاً مُحْكماً ، وعُدْتَ بعد شهر واحد تجد الأثاث مغطى بطبقة من التراب ، فإن غبْتَ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا بالنسبة لبيت محكم الإغْلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُسْتر كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب ؟

ويقول سبحانه : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ أى : أن حضارتهم أكبر من حضارتنا ؛ لأن الحضارة كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضاريّـاً كان ضعيفاً .

إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حضارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل : كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكتشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل ؟ نقول : لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خذها بنسبتها ؛ لأنك إذا جئت بمائة شخص ووضعتهم فى حجرة ، يقال عنهم : « كثير » . فإذا أخذت كل واحد منهم ووضعته فى مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً . وكان العـالم فى الماضى مسكوناً بأماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .

إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم فى حيزهم الذى يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التى كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير ، أى أن نصيب الفرد كان أكبر ، وكذلك الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ ﴾ والخلاق هو النصيب أو الحظ الذى يصيب الإنسان من أى نعمة ، ويقول سبحانه :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) ﴾ [البقرة]

أى : ليس له فى الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولم يكن فى بالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضيع عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيه لهم فى الدنيا ، ولكن من يعمل وفى باله الله يعطيه الله من الدنيا ويُوفِّيه أجره فى الآخرة .

ولذلك نجد بعضاً من المؤمنين يسألون : كيف يكون الكفار أحسن حالاً من المؤمنين فى الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويزيد ، لدرجة أنهم فى بعض البلاد يُلْقون بالفائض فى البحر ، بينما نجد المسلمين يعيشون فى حضارة مادية محدودة ، ويستوردون ما يأكلون ؟

ولنتذكر الحقيقة الواضحة التى أكررها دائماً لكل مسلم : إياك أن يغيب عنك أن هناك " عطاء للرب" و "عطاء للإله" . فعطاء الرب للجميع ؛ لأن الرب هو الذى خلق وربَّى ، وأمدنا بالأقوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط . لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أخذ المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله ؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها وينتقى لها التقاوى ويرعاها ، لا تفرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطى كنوزه لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هذا عطاء العبادة يجزى به الإنسان فى الآخرة ، والذى

يأخذ العطاءين هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستغل أسباب الحياة فيعطيه الله خير الدنيا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وفقاً لمنهج الله ، فيعطيه الله النعيم فى الآخرة.

والأسباب فى الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على الطائع والعاصى ؛ لأن هذا عطاء ربوبية. من أحسن استخدامه أعطاه بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

لماذا ؟ لأنك عملت للدنيا وحدها.. وكنت تعمل ليقال إنك مخترع أو مكتشف.. أو لتحصل على الأموال أو الأوسمة.. أو النفوذ والجاه فى الدنيا ، ولكنك لم تكن تعمل وفى بالك الله .

وبعض الناس يأتى ليقول لك: هل الذى اكتشف علاجاً لميكروب كان يفتك بالبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا مما أسعد البشرية كلها ، أيكون هذا كافراً ويُعذَّب فى النار ؟

نقول له : نعم ؛ لأنه فعل هذا وليس فى باله الله .. وإنما فعله وفى باله الحصول على المجد أو المال أو النفوذ فى الأرض ؛ ولذلك أعطاه الله ، ما عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ يدرس فى المدارس ، وأعطوه النياشين وأطلقوا اسمه على الشوارع والميادين.

فما دام قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره فى الدنيا ، ولكن الذى عمل وفى باله الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ فى الآخرة من المسبب مباشرة ؟ فالإنسان قد ارتقى حضارياً ، حتى إنك الآن فى بعض الدول المتقدمة تضغط زراً يعطى لك القهوة أو الشاى ،

وآخر يعطيك الطعام. . نقول : إن هذا كله متاع الأسباب ، فقبل أن تضغط أنت هذا الزر ، كان هناك بشر أعدّوا لك القهوة أو الطعام ، والآلة أوصلته إليك.

ولكن مهما ارتقى الإنسان تكنولوجيّاً فلن يأتى اليوم الذى يجعل الشيء يخطر ببالك فتجده أمامك. . ولكنك فى الجنة بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك [1] ؛ لأن عطاء الدنيا عطاء أسباب ، وعطاء الآخرة عطاء مسبب.

فالله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار والأسباب فى الدنيا ، ولكن فى الآخرة يأتى لك الشيء بلا عمل ، مختلفاً فى مذاقه ورائحته عن الدنيا.

إذن : فالذى يعمل وفى باله الأسباب فقط يعطى فى الدنيا ، والذى يعمل وفى باله خالق الأسباب يعطى فى الحياتين ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ والَّذينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ... (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب الذى تمشى له متخيلاً أنه ماء فإنك حين تصل إليه لا تجده شيئاً ، هكذا الكافر يوم القيامة، يفاجأ بأن الله موجود ، وجد الله سبحانه الذى لم يؤمن به ،ويطلب من الله الأجر فيقال له: أجرك ممن عملت له. وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر فى الآخرة ؛ لأن الله هو الذى يجزى فى الآخرة.

(١) ورد فى هذا حديث عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) . فيه حميد بن عطاء الأعرج . قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٤) : ضعيف . ولكن قال الذهبى فى الميزان (٢/ ١٣٧) : متروك . فالحديث ضعيف .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ **فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ** ﴾ أى: أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب؛ لأن النصيب فى الآخرة يأتى بـ «افعل» و «لا تفعل» فى التكليف، فإذا فعلت الاثنين ترتقى، بدليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب، ولم ينسوا المسبب.. بل حرسوا الأسباب بقيم المسبب فى «افعل» و «لا تفعل»؛ فملكوا الدنيا ألف سنة. ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة، ولئن زالت الحضارة من أمم الإسلام سياسيّاً، فقد بقى دينهم فى نفوسهم، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام. فقد بقى منارة هادية، رغم ضعف المسلمين سياسيّاً.

وقول الحق سبحانه: ﴿ **فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ** ﴾ أى: خذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب، ولكن تذكروا أنه استمتاع موقوت بزمن لا يملكه الإنسان؛ لأن عمر الفرد فى الدنيا هو بعمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتى من بعدك. وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله. هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام؟ إذن: عمرك فى الدنيا مظنون موقوت، فعملك لأسباب الدنيا محدود المدة، بمقدار عمرك فى الدنيا.

وهَبْ أن عمرك طال وصرت من المعمرين فسوف ينتهى حتماً.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ **كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ** ﴾ أى: أنتم تبعتموهم ومشيتم على أثرهم، وكلما فعلوا إثماً فعلتم إثماً، وهم خاضوا فى الأنبياء، وأنتم خضتم أيضاً فى الأنبياء، فأنتم شركاء الذين ذهبوا من

قبلكم فى أنكم أخذتم نصيبكم وحظكم فى الدنيا ، ولم تدعوا للآخرة شيئاً . فلكم نصيب فيما فعلوا ؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالباطل . إذن : فأنتم أخذتم المقدمات مثلهم فقادتكم إلى نفس النتائج .

﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أى : فشلت وضاعت أعمالكم فى الدنيا ، كما حبطت أعمال من سبقوكم فى الدنيا وكانوا قسمين : قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً ، وقسماً لم ينله قتل فأفلت بدنياه ، ولكنه خرج منها دون أن يفعل شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً فى الآخرة .

فالذين حبطت أعمالهم فى الدنيا هم الذين قُتلوا وأسروا وشُردوا وغنمت أموالهم بأيدى المؤمنين ، فكأنهم خسروا الدنيا فلم يأخذوا من متاعها شيئاً ،وأيضاً خسروا الآخرة ، وهذا هو الخسران المبين ، أى الخسران المحيط بطرفى الزمن ؛ الدنيا والآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق فى الآية السابقة القضية العامة فى قوله : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ جاء فى هذه الآية بالأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وساعة يقول: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ فهنا همزة الاستفهام ، ولام النفى. والهمزة تنفى هذا النفي، أى أتاهم نبأ هؤلاء. وحين ينفى النفى فى أمر فالمراد إثبات الأمر ، وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكارى ، إلا وأنت واثق من أن الجواب عند من تسأله هو : « نعم » ، فحين تقول لإنسان: أنت تخليت عنى فى محنتى . فيقول : ألم أزرك فى يوم كذا ؟ ألم أعطك كذا ؟ ألم أصنع مع ابنك كذا ؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شىء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً حقيقيّاً .

ونلحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للغيبة فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ ولم يقل : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » ، فسبحانه يخاطبهم ترقيقاً لهم ، ثم يتكلم عنهم مرة ثانية وكأنهم غائبون . وكأن هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله ﷺ فى غيبتهم ، فهو ﷺ حريص على هدايتهم.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والنبأ : هو الخبر الهام . ونحن لا نقول عن كل خبر : نبأ ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ ، والنبأ أصله من النبوة ، والنبوة واضحة ظاهرة وليست مطموسة ؛ ولذلك فكل شىء هام ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ② الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③ ﴾ [النبأ]

ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة.

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التى كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التى تكلم فيها عنهم غَيْباً كقضية خاصة .

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان. وكان قوم نوح كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ردآ على من سخروا من نوح :

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

أى أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما سوف يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هى من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله لهم .

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أى قوم لوط . ومعنى المؤتفك أى المنقلب . وقد جعل الله عاليها سافلها . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم]

أى : كانت عالية فأنزلها للهاوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

أى : لتصرفنا عنهم .

ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمنهج فقط ، بل جاءتهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجة لهم أن ينصرفوا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به ؛ لأن كل منهج مُؤيَّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته. وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويبينوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات فى أول الخلق ؛ لأن العالم كان منعزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض فى زمن واحد وأماكن متفرقة ؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض ، بحيث إذا وقعت الحادثة فى مكان ، نراها عن طريق الأقمار الصناعية فى ثوان ، وربما فى نفس الوقت الذى تحدث فيه ؛ إن كان الحادث مُعداً له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان ينزل فوق سطح القمر فى نفس اللحظة التى نزل فيها .

وعندما كان العالم يعيش فى انعزال ، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتى ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود فى بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد فى بيئة أخرى .

ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات ؛ فالداء يظهر فى أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جـدّاً يظهر فى أوروبا أو فى مصر . ولذلك كان لابد أن يأتى رسول واحد ؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة ؛ لذلك كانت رسالة رسول الله ﷺ رسالة عامة لكل الأزمان وكل الأمكنة .

وحين يقول سبحانه : ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فالبينات هى الشيء الذى يبين لك ما هو الحق ، والمعجزات التى صاحبت الرسالات السماوية بيَّنتْ وأكَّدتْ أن الرسول مُبلِّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها . ولذلك كان كل رسول يأتى بآية يُجمع الكل على أنها معجزة . فأنت قد تأتى بشيء عجيب ، ولكن لا يُجمع الناس على أنه معجزة ، فعندما اختُرِع الفانوس السحرى ، قال بعض الناس: إنه شيء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر . ولكن معجزات الرسل لابد أن تستوعبها كل مستويات العقول ، يستوعبها المتعلم والذى لم يقرأ حرفاً فى حياته ؛ لأن الدين دين فطرة يخاطب أكبر العقول وأكثرها علماً كما يخاطب عقل البدوى الذى يقضى حياته كلها فى الصحراء ؛ لا يعرف شيئاً ولم يَعِشْ حضارة ولم يدرس علماً .

إذن: فالمعجزات لابد أن تكون واضحة لكل المستويات ؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة. والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وتحققوا أنها خَرْقٌ لقوانين الكون ولا يمكن أن يأتى به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان.

ويقول الحق عنهم: ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والظلم أنك تأخذ حقّاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأىُّ حق ذلك الذى نقلته إلى الباطل ؟ إنه حق الوجود الأعلى الواجب الإيمان به وعبادته.

وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ ليأخذ لذة عاجلة ويحرمها من نعيم دائم . وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور (١) ؛ هذا الذى ينصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى فى عين ذلك الذى شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه فى قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على كل من يطلب من إنسان شهادة زور أن يضربه ؛ لأنه يريد أن يسقطه فى نظر الناس ، وفى نظر هذا الذى شهد من أجله ؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه ، فالكل ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصفَ فيها المنافقون فى قوله تعالى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ... ٦٧ ﴾ [التوبة]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين

(١) عن أبى بكرة قال قال النبى ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ (ثلاثاً) قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال - : ألا وقول الزور . قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).

يمدح محبوبته فيقول :

فالوَجْهُ مثلُ الصبح مُبيضٌ والشَّعْر مثل الليل مُسْودُّ

ضدَّان لما استجمعا حَسُنَا والضِّدُّ يُظهر حُسْنه الضِّدُّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم ، وحنثهم فيما يحلفون ، وخلفهم فيما يعاهدون ، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات . لكن التقابل هنا اختلف في شيء ؛ لأنه سبحانه قال في المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ، وحين تكلم عن المؤمنين قال :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبنى على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً . وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول رَدَّهم عن النفاق ، بل هم يمضون فى تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير . فإن وُجد فى مؤمن شر ؛ فَوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ؛ ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله فى كل شىء . بل هناك خصلة ضعف فى كل نفس بشرية . فإن وُجدَ فى المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد فى نقطة ضعفه ،والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويُبصِّره ، وهكذا نجد أنه فى المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر فى نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومَنْ يقصر فى شىء يجد القريب منه ؛ وهو يسد الثغرة الطارئة فى سلوكه .

أما المنافقون فيصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يتناهَوْنَ عن منكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لم يبين لنا من المولى ومن الموَالَى ، فكل مؤمن هو ولى وهو موال ؛ لأن الولاية مأخوذة من « يليه » ، أى صار قريباً ، وضدها عاداهُ أى بَعُدَ عنه وتركه . إذن : فالموالاة ضدها العداوة . وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أخيه المؤمن فى الأمر الذى هو ضعيف فيه .

فإذا كنت ضعيفاً فى أمر ما ، فأخى المؤمن ينصرنى فيه . وما دام أخى المؤمن ينصرنى فى أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً فى شىء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ويصبح كل منا ولياً ومُوَالَى .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

ولو قيل : « وصَّوْا » لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون ، لكن الحق قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ومعناها أن كل مؤمن عليه أن يوصى أخاه المؤمن . فإن كان عندى نقطة ضعف فأنت توصينى وتقول : اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن . وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك : لا تفعل هذا فأنت مؤمن .

إذن : فكل واحد منا مُوص ومُوصىً . كذلك الولاية فأنت وليى ، أى قريب منى تنصرنى فى ضعفى ، وأنا وليُّك ، أى قريب منك ، أنصرك فى ضعفك لأننا أبناء أغيار ؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر .

والوَلاية تكون أيضاً فى الحق ، فقد أميل إلى الباطل فى نقطة فيقول لى أخى المؤمن : اعدل . وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل . وهكذا يتكامل الإيمان ؛ ولذلك تجد كلمة الوَلاية بمعنى القرب والنصرة فى قول الحق فى ذاته :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .. (٤٤) ﴾ [الكهف]

أى : أن النصر الحقيقى والقرب الحقيقى لله ؛ لأننا نعيش فى عالم أغيار ، فقد تطلب النصر عندى فتكون قوتى قد ذهبت ، أو يكون مالى قد فنى ، أو يكون نفوذى قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوى دائماً ، والغنى دائماً ، الذى يُغيِّر ولا يتغير ، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقى الدائم لا نصر الأغيار .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

أى : أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً . ومرة يكون مُوَالىً ، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره . ويقول تعالى:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد]

أى : إذا تقربت إلى الله بطاعته ونصرة منهجه ، فهو يقرب منك فى أزماتك وينصرك ويُثبِّت أقدامك .

إذن : فالولاية فى الأصل هى القرب والتناصر ، ومادام هناك تناصر فلابد أن تكون هناك نقطة ضعف فى مؤمن ، ونقطة قوة فى مؤمن آخر ،

ولكن مَن الذى سيكون فى ضعف دائماً ، أو فى قوة دائماً ؟ لا أحد . إذن : فكل واحد يَنصر ، وكل واحد يُنصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ولم يعين البعض ؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً .

ولكى يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾
[الزخرف]

إذن : فقد اعترف الكفار بصدق القرآن وإعجازه ولكنهم لا يؤمنون ؛ لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ ، ولم ينزل على أحد من زعماء قريش ، فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... (٣٢) ﴾
[الزخرف]

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل منكم السادة والعبيد ، ويجعل منكم الأغنياء والفقراء ، وذلك فى أمور الدنيا ، فإن كنتم تريدون أن تُقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معايشكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذى قسمها بينكم ، وحياتكم فى الدنيا تتبع قوانين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التى هى حق لله سبحانه وتعالى وحده.

ونلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة ﴿ بَعْضٍ ﴾

مبهمة ، فإن كلاً منا مرفوع ومرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب . ولكن كلاً منا متميز فى ناحية وغير متميز فى ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم فى الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً ؛ ولذلك فإن الإنسان المؤمن إذا كان مرفوعاً عليه فى شىء فلابد أن يسأل نفسه : فى أى الأشياء أنا مرفوع فيه ؟ وفى أى الأشياء الناس أحسن منى ؟

ونقول له : أنت تتقن عملاً معيناً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن فى باقى الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك . إذن : فأنا فى الشىء الذى لا أجيده مرفوع علىّ ، وفى الشىء الذى أجيده مرفوع على الناس ؛ ولذلك تجد كل واحد فى كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ .

ولكن الآفة أننا لا ننظر فى الرفعة إلا إلى مجال واحد ؛ هذا غنى وهذا فقير ، ولكننا لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة فى الحياة ، وزوايا كثيرة ، وبعضنا إذا أخذ درجة عالية فى زاوية ، فإنه قد يأخذ صفراً فى زاوية أخرى . ومجموع كل إنسان فى نهاية الأمر يساوى مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك فى شىء ، فإياك أن تحسده ، ولكن اسأل نفسك فى أى مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك .

إذن : فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولابد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يفيد المجتمع بموهبته ، وربما كان نفعه للمجتمع خيراً من نفعه

لنفسه . انظر إلى النجار مثلاً تجده يتقن عمل الأبواب والنوافذ للناس ، أما لنفسه فلا يتقنها ، لماذا ؟ لأن الباب الذى يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً.

ولقد ضربنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، فعند غالبية الناس نجد أن اليد اليمنى تؤدى الأعمال بسهولة ، واليسرى تزاولها ببطء وتعثر ، فإذا أردت أن تقص أظافر يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص بيمينك وتقص أظافر اليد اليسرى بسهولة ، ثم تمسك المقص بشمالك وتتعثر فى قَصِّ أظافر اليد اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة . بل هو يتقن شيئاً ولا يتقن أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تساوى مجموع مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهى يتدخل هنا ، فنجد - على سبيل المثال - الرجل الغنى الذى يأكل خبزاً من الدقيق الأبيض الفاخر ، ثم يأتى عليه وقت من الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السّن . وتجد من يسرف فى الطعام ؛ لابد أن يأتى عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام ؛ لأنه أخذ منه أكثر من حقه . وتكون صحته فى أن يُحرم . والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً كونياً يتساند فيه الجميع ؛ لكى يلتحم الجميع . فأنت تحتاج لى فيما أتقنه وأنا أحتاج إليك فيما تتقنه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون المجتمع السليم.

ولذلك يقال : الناس بخير ما تباينوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا وأصبحوا أصحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كلنا قضاة مثلاً ، فمن الذى يعالج المريض ؟ ومن الذى يحفر الأرض ؟ ومن الذى يحمل الطوب ؟ ومن الذى ينظف الطريق ؟ إننا لو تشابهنا فى الموهبة

أو الثراء أو العمل فلن نجد أحداً يقوم بهذه الأعمال ؛ لأننا لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعنا أن نعيش ، بل لابد أن نختلف لأكون أنا محتاجاً لك وأنت محتاج لى . وبذلك يتماسك المجتمع ، وتُقضَى مصالح الكون بسبب الحاجة ، وليس بالتفضل بين الناس.

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم: ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ فإذا فعل مؤمن منكراً ؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف . وكل واحد منا ناهٍ عن منكر ، ومنهى عن منكر.

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو وأنت بعيد عنه ، فلا يمكن أن تكون فى يدك كأس من الخمر ؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التى فى يده ، لايمكن إذن أن تنهى عن منكر وأنت تفعله ؛ والذى يأمر بمعروف لابد أن يكون فاعله ، والذى ينهى عن المنكر لابد أن يكون بعيداً عنه [1] . فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف. وناهٍ عن المنكر .

ويضيف الحق وصفاً للمؤمنين : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وإقامة الصلاة هى إعلان الولاء للخالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها . والمؤمنون أولياء بعض ،ولكن مَنْ وليُّهم جميعاً ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، ولابد أن يلتحموا بمنهج الولى الأعلى الذى لا نستغنى عنه جميعاً.

(١) عن أسامة بن زيد قال ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتي بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) . أقتاب البطن : أمعاؤها .

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين بأنهم أولياء بعض، قال لنا:

﴿ إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... ⑦ ﴾ [محمد]

إذن : فلابد أن نتجه جميعاً إلى الوالى [1] الكبير . فهو سبحانه فوق أسبابنا ، وفوق قوتنا وهو الذى ينصرنا إنْ عزَّتْ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض ، فنلجأ للولى الكبير . وما دامت الولاية لله الحق ، فلابد أن نستديم فى ولائنا له سبحانه وتعالى . واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة . وساعة تسمع المؤذن يقول : « الله أكبر » تسرع إلى الصلاة . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو ربك وصانعك ووليك - قد دعاك إلى الصلاة ، فلابد أن تجيب الدعوة [2] .

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون فى معية الله دائماً فافعل ، بعد أن تكون قد أدَّيْتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات فى اليوم الواحد ، وحين تُعْرَض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففى هذا صلاح الإنسان . وأنت إنْ جئتَ بأى آلة وجعلتَ المهندس الذى صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبداً .

كذلك الإنسان وهو صنعة الله ، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه . والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات ، سواء كان باكتشاف نقص فى الوصلات الكهربية أو كسر فى أى شىء ، فالمادة تصلح بالمادة ، ولكن الله سبحانه

---

(١) الوالى : من أسماء الله عز وجل : وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها . قال ابن الأثير : وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل .

(٢) عن أبى هريرة قال : أتى النبى ﷺ رجل أعمى . فقال : يا رسول الله إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد . فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلى فى بيته . فرخص له . فلما ولى دعاه فقال : « هل تسمع النداء بالصلاة ؟ » فقال : نعم . قال : « فأجب ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٥٣) .

غيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلى . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر - أى كان هذا الأمر فوق طاقته - قام إلى الصلاة [1] ؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئاً فيتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يملك الحل . ولذلك كان ﷺ يقول لبلال : أرحنا بها يا بلال [2] كأن الراحة بها ، أى : اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة .

لذلك كان لابد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ لأن الصلاة استدامة الولاء لله ، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلت .

ولكى تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر ، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شىء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أسباباً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا . . فإذا قال نعم ، يسألك عم ستتكلم فيه . . فإذا قلت : إنك ستتكلم فى كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له فى أى وقت تشاء ، وفى أى مكان تشاء ، وتتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لاينهى المقابلة أبداً ، أنت الذى تنهى المقابلة مع ربك .

(١) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

ويقول رسول الله ﷺ : « لايمل الله حتى تملوا »[1].

والحق جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء ؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده فى وقت واحد ، ويستمع إليهم فى وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون فى وقت واحد.

ويقول سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ والصلاة تأتى مع الزكاة باستمرار ؛ لأن في الصلاة استدامة ولاء لله المعطى ، وفى الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه لتستبقى له حياته فيواصل الولاء لله معك ؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة ، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة ؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير ، والمال يأتى بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن : فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفى الصلاة ضحيت بوقتك فى أوقات محددة.

وفى الأوقات التى تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذى سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكَّيت الوقت بالصلاة ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلماذا يقول سبحانه : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ ؟

نقول : الله سبحانه ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهى : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٣) ومسلم فى صحيحه (٧٨٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.

رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، هذه الأركان ليست هى كل الإسلام . بل هى القواعد التى بُنِى عليها الإسلام ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « بنى الإسلام على خمس »[1] . إذن : فهذه هى الأعمدة أو الأسس التى بُنِى عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسعد ولا تشقى ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التى وضعت ، ولكن لابد من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيما أمرنا به فى كل حركة الحياة.

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشىء الذى تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهى وضع خميرة فى عجينة الخبز ؛ وكيف عرفنا هذا ؟ نجد أننا أخذناها جيلاً عن جيل ، والذى بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة فى العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء. فالبنسلين - على سبيل المثال - اكتُشف نتيجة خطأ. وقاعدة أرشميدس التى بنيت عليها نظرية الغواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس. وحين يأتى ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدى خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم.

ومثال آخر : ما الذى جعلك تفهم أن اللحم حين ينضج على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى ؟ ما الذى جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى . كل هذا هدانا إليه الله .

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

إذن : فكل ما ننتفع به في حركة الحياة ، قد أتانا من أجيال مضت ؛ ولذلك من يأتي ليقول : سأنقطع للعبادة صلاة وصوماً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾ [الذاريات]

نقول : سنوافقك على انقطاعك للصلاة والصوم فقط . ولكنك لكي تصلي ؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلي وإلا فسيستحيل عليك أداء الصلاة . هَبْ أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتي بهذا الرغيف ؟ من البقال. ومن أين أتى به البقال ؟ من المخبز . ومن أين جاء المخبز بالدقيق ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح ؟ من مخزن الغلال . ومن أين جاء المخزن بالقمح ؟ من المزارع . والمزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكي يحرث الأرض ، وجاء بآلات لكي يسقي .

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استفدْتَ بحركة غيرك ، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة ، وكل حركة في الحياة تعينك على أداء العبادة هي عبادة .

ومثال آخر : لكي تصلي لابد أن تستر عورتك في الصلاة ، إذن : فأنت تحتاج إلى قماش تأتي به من التاجر ، والتاجر أتى به من مصنع النسيج ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل ، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج ، والمحلج جاء به من الحقل ، والحقل جُنِّدَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويقي القطن من الآفات . كل هذه هي من حركات الحياة التي مكَّنَتْكَ أن تستر عورتك في الصلاة، وكل منها عبادة .

إذن : كان من الضرورى أن يقول ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . بعد ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله فى الإسلام الذى بنى على هذه الأركان .

ثم يقول الحق : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء سيرحمهم الله . وأيهما أبلغ : أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال سيرحمهم الله ؟

الأبلغ أن يقال : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ لأن السين تهتك ستار الزمن ؛ وبذلك يحيا المؤمن دائماً فى رحمة الله التى لا تنقطع .

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) ﴾ [مريم]

أى أن الود سيكون مستمراً ، حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم مات ، إنه أيضاً ينتفع بود الله . وأيضاً قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء بـ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ لترى عطاء الحق مستمراً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول : سأنتقم منك ، أى : أن الانتقام سيستمر مع الزمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ تعطى أن صفة الرحمة فى حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق [1] ؛ لأن التراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما الرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفات الكمال التى لا تتناهى ولا تنتهى. ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ... (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى تُشْقِى الإنسان ، وهناك سلامة من أول الأمر. وهناك سلامة ليست من أول الأمر. ومن عنده خصلة سيئة - وهى داء - يشفيه منها القرآن ، أما الرحمة فهى ألا يأتى داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ممتدة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ومعنى عزيز : أنه غالب على أمره ، وما يريده يقع؛ ولا يُغلب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم ، لا ؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة . وهناك عزيز بلا حكمة ، تغريه عزته أن يطغى . لكن الله عزيز حكيم ، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان ، ولكنها بحكمة إلهية.

ويأتى بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم فى الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى :

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ، خشية أن تصيبه». متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٠) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٢).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

والوعد: بشارة بخير يأتى زمانه بعد الكلام. والوعيد: إنذار بسوء يأتى بعد الكلام.

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل ؛ حتى يتحقق له الخير الذى وُعد به. والوعيد يعطى السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله .

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ ثم ذكر العذاب الذى ينتظرهم ، وبعد ذلك قال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ثم وصف النعيم الذى ينتظرهم ، مع أن الشائع فى اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر ، فكان من المناسب فى عرف البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى : « أوعد الله المنافقين » ؛ لأن الذى سيأتى بعد ذلك عذاب ونار وشر ، وأن يقول فى المؤمنين : وَعَدَ اللَّهُ لأن الذى سيأتى بعد ذلك جنة ونعيم وخير.

ولكن الأسلوب جاء مخالفاً للعرف البشرى ، فجاء بكلمة « وعد » ، وهى تقال دائماً للخير فى حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين ،

واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للمنطق البشرى ؛ لأنه وعد بخير.

ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة « وعد » مكان « أوعد ».

فالذى يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تَقسْ كلام الله على كلام البشر ؛ لأن البشر يفوتهم فى كلامهم ملاحظ ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله ، والبشر يتفاوتون فى الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه واحد.

فلماذا جاء سبحانه - إذن - بكلمة « وعد » بدلاً من « أوعد » ؟ نقول: إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات ، ثم تكلم عن جزائهم إن أصرُّوا على نفاقهم ، كان ذلك تحذيراً حتى لا يصروا على النفاق مخافة العذاب الذى ينتظرهم ؛ عَلَّهم يقلعون عن النفاق وينصرفون إلى الخير من الإيمان.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم ، كما تقول لمن يهمل فى دروسه : سترسب إذا أهملت دروسك . فتكون بذلك قد خدمت إقباله على المذاكرة . وأوصلته بالوعيد إلى أن يتجنب الأمر الذى أوعد به ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

هل الشواظ من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أى : فبأى نعم ربك تكذب ؟ نقول : نعم إنه نعمة ؛ لأن

الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك : إن خالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة ؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة .

إذن : فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذى ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة ؛ لأنهم إن اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفى هذا خير عميم . ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة « وعد » ولم يستخدم « أوعد » ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذى أراده الله .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ والوعد كما قلنا بشارة بخير مستقبلى ، والوعيد إنذار بشرٍّ يأتى فى المستقبل ، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة ؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحسن الناس جميعاً أن يصلوا إلى الخير باتباعهم المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله ؛ نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتجنبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر ؛ استقام ميزان الحياة .

ولذلك نقول للذى يذاكر : إنك ستنجح ، فإن أتقنت المذاكرة حصلت على المجموع الذى يؤهلك لدخول الكلية التى تختارها ، وإن أهملت دروسك رسبت وفُصِلْتَ من التعليم وضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد . إن وفَّيْتَ ما وعدت ووفيت ما توعدت ، استقام ميزان الحياة . ولكن إذا جئت لإنسان لم يذاكر وأنجحته وأعطيته أعلى الدرجات مخالفاً بذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم .

وإن وعدت من يحصل على ٩٠٪ مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أخلفت وعدك فدخل كلية الطب من حصل على ٧٠٪ واستُبعِدَ الحاصل على ٩٠٪ بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الجاد فى حركة الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعد به أو أوعد به ، لايكون لكلامه وزن فى حركة الحياة.

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر ؛ لأننا أهل أغيار ، فقد أعد بخير لا أستطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أضعف بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ . إذن : فلكى تستقيم حركة الحياة ، لابد أن يأتى الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوى دائماً ، الموجود دائماً ؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شىء يمكن أن يجعله لا يفى بوعده أو لا يُتِمُّ وعيده ، فإذا قرأت سورة المسد تجد الحق سبحانه يقول فيها :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤ ﴾

[المسد]

وقد حكم الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة الكريمة ؛ بأن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً ممن كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص [1] وغيرهم ؛ آمنوا وحَسُنَ إسلامهم وجاهدوا فى سبيل

(١) أسلم خالد بن الوليد فى العام السابع من الهجرة بعد غزوة خيبر . أما عكرمة فقد أسلم عام فتح مكة سنة ٨ هـ . أما عمرو بن العاص فقد أسلم قبل الفتح فى صفر سنة ٨ هـ. انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (٢/٩٨) ، (٤/٢٥٨)، (٥/٢).

الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أبا لهب وامرأته لن يؤمنا كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم ؟ نقول: إن هذا ليس حكم رسول الله ﷺ ، ولكنه حكم الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشُكَّ في هذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شئ قدير.

لذلك جاءت هذه السورة ، وبعدها في المصحف الشريف في سورة الإخلاص:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ [الإخلاص]

وما دام الله أحداً فأمره نافذ حتى في الأمور الاختيارية في الحياة ، فإذا قال الله : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ . وإذا وعد بخير فإنه سيأتي لا محالة ، وإذا أوعد بشرّ فسوف يقع حتماً.

إذن: فلكي تستقيم موازين الحياة ، كان لابد أن يأتي الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث ؛ لأنه لا أحد يشارك الله في مُلْكه ، ولا يوجد قوى إلا الله ، ولا غالب إلا الله ؛ لأنه هو الله أحد.

وقد يأتي الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنت حين تزرع الأرض وتُحسن حَرْثها ، وريَّها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركتها بلا حرث ولا زرع ولا بذور فهي لا تعطيك شيئاً.

إذن : فالسُّنة الكونية هنا أعطت وعداً للذي يجدُّ في زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطتْ وعيداً للذي لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه

لا يحصل على ثمرة واحدة منها . ولو اختلف الأمر ووجدنا من زرع وحرث وسقى لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته الأرض من ثمارها الكثير ، لانقلبت المعايير فى الكون ، وما وجدنا أحداً يزرع أرضه.

إذن: فلكى تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد والوعيد من قادر على التنفيذ لا يضعف ولا يتغير . وإما أن يكون بسنة كونية نراها أمامنا فى كل يوم ولا يقع ما هو مخالف لها . فالذى يجتهد ينجح ، والذى لا يذاكر يرسب . سُنة كونية . لو صدقت مع الواقع يعتدل ميزان الحياة . ولو لم تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذاكر ينجح ومن يذاكر يرسب ؛ اختلت حركة الحياة المثمرة الناجحة.

إذن : فميزان الوعد والوعيد هو دولاب حركة الحياة ، فإن اختل هذا الميزان وجاء الوعد مكان الوعيد ؛ أى كوفىء الذى لا يعمل وعوقب الذى يعمل فسد الكون . لماذا ؟ لأن كل إنسان يحب النفع لنفسه ، ولا يختلف فى ذلك مؤمن أو عاصٍ أو كافر ، ولكن العاصى والكافر يحبان نفسيهما حبّـاً أحمق ؛ فيحققانَ لها نفعاً قليلاً زمنه محدود ؛ بعذاب مستمر زمنه بلا حدود . أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالذكاء وبُعْد النظر ؛ لذلك فهو حرم نفسه من متعة عاجلة فى زمن محدود ، ليحقق لها متعة أكبر فى زمن لا ينتهى.

ولقد ضربنا مثلاً لذلك - ولله المثل الأعلى - فقلنا : هَبْ أن هناك أخوين : أحدهما يستيقظ من النوم مبكراً ، فيصلى ويفطر ويأخذ كتبه ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الإنصات للمدرسين ويعود إلى البيت ليذاكر دروسه . والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ،

فيخرج ليتسكع فى الشوارع ، وحين تُحدِّثه نفسه بأى متعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة.

إن كلا الأخوين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه فأعطاها مشقة محتملة فى سنوات الدراسة ؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثانى فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاها المتعة العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يَعُدْ يساوى شيئاً فى المجتمع.

إذن : فكل منا يحب نفسه ، ولكن مقاييس الحب هى التى تختلف. فمنا مَنْ يأخذ المقياس السليم ، فيتحمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبديّاً ، ومنا من يعطى نفسه متعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً.

والعجيب أنك تجد أن هذه هى سنة الحياة الدنيا ، فلا تجد إنساناً ارتاح فى حياته إلا إذا كان قد أجهد نفسه فى سنواته الأولى ؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة فى أولها ليشقى بقية عمره.

لذلك يقال دائماً : إنه لا يوجد من يأخذ حظه من الحياة مرتين أبداً ، فالذى يتعب فى أول حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره . والمثل الشائع يقول : من جار على شبابه ، أى : ضيَّعه فيما لا يفيد ؛ جارت عليه شيخوخته . والقائمون على الأمر عليهم أن ينبهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يُؤجِّلوا الوعد إلى أن تنضج الثمرة . ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع. وعلى كل ولى أمر ؛ فى أى مكان ؛ أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أبنائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجتهد ، ولا ينتظر

حتى ينجح ، بل لابد من الوعد لكى يتم الاجتهاد . ولابد من الوعيد قبل أن يرسب الابن أو يضيع حياته ، فلا ننتظر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده ؛ لأن الوعد والوعيد هما اللذان يَزِنَان حركة الحياة.

ولكن إذا رأينا فى مجتمع ما أن الذى يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذى لا يعمل يأخذ كل شىء ، نعرف أن مقاييس العمل قد اختلت. وأن المتاعب قد بدأت في المجتمع ؛ لأن الذى يعمل حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شىء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله فى النفاق والرياء ، وقَلْب الحقائق وإرضاء الذى يملك الأمر . وتكون النتيجة هى فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عمل منتج ، ويصير مجتمعاً بارعاً فى النفاق والرياء وضياع الحق.

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة فى الوعد والوعيد ؛ فلا تُعْط حافزاً إلا لمستحق ، ولا مكافأة إلا لمجتهد ؛ ولكنك إذا بعثرت الحوافزَ على المنافقين ، والذين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدموك فى بيتك أو يقضوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافز عن الذى يعمل فى جد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد ؛ فتختل حركة الحياة فى المجتمع ؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويجيده ، هى حركة تنفع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فإذا وُجد عامل نشيط أنجز مصالح عشرات الناس ، أو موظف مخلص ارتاح كل من يتعاملون معه، فإنْ أضعْتَ أنت هؤلاء ، فكأن المجتمع هو الذى خسر.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف - ومعنى الكهف مغارة فى جبل ، والحقائق أيضاً لها كهوف - حين ضرب سبحانه وتعالى مثلاً عن

ذى القرنين قال :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

فما هو الذكر الذى يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا ؟

بعض الناس يحاول أن يُدخلَ نفسه فى متاهة بالسؤال عمَّنْ يكون ذو القرنين ، هل هو قورش ؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما ؟ نقول : إن هذا لا يعنينا ، بل ما يعنينا هو أن نلتفت إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّنه الله فى الأرض [1] . وهذا ينطبق على كل إنسان مكَّنه الله فى الأرض ؛ فى أى زمان ، وفى أى مكان. ومهمة من يمكنه الله فى الأرض ألا يكتفى بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُولد من الأسباب قوة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾

[الكهف]

مهمته - إذن - أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكَّن فى الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفى هذا

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠١) : « قوله ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾ أى : أعطيناه مُلكاً عظيماً مُمكَّنًا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد؛ وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها ».

إصلاح لحركة الحياة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيشون فساداً فى الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم ؛ ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد فى المجتمع لا يصيب المفسد فقط ، ولكن يكتوى به المجتمع كله .

إذن : فلا بد أن نُعجِّل لهم بالعقوبة فى الدنيا ، لنحمى المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله فى الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح فى المجتمع وصلح المجتمع بإيمانه ، فلابد أن نجازيه خيراً ونشجعه. هذا هو قانون صلاح الكون ، وتلك هى معاييره.

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أمّا التغير فالله يُغير ولا يتغير ، وأما البقاء فلا بقاء ولا دوام لغير الله ؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسُّه الأغيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار . لذلك يطلب منك الحق أن تقول : " إن شاء الله " حين تعد بشئ لتكون صادقاً. ويقول سبحانه :

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل : إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و: إن شاء الله سأفعل كذا فى العام القادم ؛ لأن الذى تَعِدُ به ، قد يأتى وقت الوفاء ولا تجد عندك القدرة على أن تفعله.

فإذا قلت - مثلاً - لإنسان : ستتقابل غداً فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها ونتكلم فى موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغد ؟ أو يملك مَنْ وعدته أن يعيش لغد ؟ أو أملك أن يظل سبب اللقاء موجوداً ؟ يجوز أنى كنت سأقابله لأقترض منه عشرة جنيهات ،وجاءنى مال فى أثناء الليل ، أو غيَّرت رأيى .

إذن : فساعة تقول " سأفعل ذلك غداً " ، قل : " إن شاء الله" ؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل . فكل فعل إنما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل.

ويحتاج كل فعل إلى مفعول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك ؛ فيجوز أن تمرض ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كى تفعله ، وقد يتغير السبب.

إذن : فأنت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل ؛ لذلك لا تقل سأفعل ذلك غداً ؛ لأن الذى يملك أن يبقيك لغد ، أو يُبقى السبب أو يُبقى القدرة هو الله ، إذن : فكل شئ نقوله لا بد أن نقول : "إن شاء الله" ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذى يملك عناصر الفعل.

ولكن إذا كان الذى وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، فعَّال لما يريد.

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم. فكيف ستكون هذه الرحمة ؟

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾

إذن : فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتى قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهنا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب.

إذن : فعندنا جنات ، وهى لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أى مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب فى هذه المساكن ؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص فى هذا المكان مأوى طيباً خاصّاً به .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى : ليس فيها ما يسئ أو يضايق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة . وكلمة "جنة" هى المكان الذى فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تسترك وتخفيك عن الأعين ، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها ؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ " الجنة" على بساتين الأرض ، فقال :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ... (٢٦٦) ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... (١٧) ﴾ [القلم]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة الجنة فى الآخرة ؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟

نقول : الوجود المعروف فى الكون هو الوجود الذى تراه أو تسمعه ، وفى هذه الحالة يكون الوجود أوسع ؛ لأنك ستسمع الذى رآه غيرك حين يقصه عليك . إذن: فالسماع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك . فأنت إذا قلت : إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت ، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة معلوماتك أوسع ؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك . وأما الأشياء التى لا تخطر على بال بشر ، فهى أوسع كثيراً مما ترى وتسمع ؛ لأنها أشياء فوق الحصر .

والكلمات توضع لمعانٍ معلومة ، فألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعانٍ مرت على العين ، أو مرتْ على السمع ، أو مرت على الخاطر . فقبل أنْ يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ، إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك فى اللغة ما يعبر عن شىء غير موجود . ولكن الألفاظ تضاف إلى اللغة بعد وجود الشىء . وهذه مهمة المجامع اللغوية فى العالم . فالأشياء توجد أولاً ، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء .

ولكن الجنة فى الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما فى جنة الآخرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك "ولا خطر على قلب بشر" تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما فى جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التى وعد بها المتقين فهو يوضح : أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم ؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما فى جنة الآخرة ؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصورة فلا يقول الجنة ، وإنما يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... (١٥) ﴾ [محمد]

أى : أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود فى الجنة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ و ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع "جنة" . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من الستر والتغطية . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) ﴾ [الأنعام]

يعنى : ستر وأظلم ، والجنون ستر العقل . والجنة تستر من فيها ؛ لأن أشجارها كبرت ونمت وترعرعت . بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه ؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً فى كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يخرج منها ؛ لأن فيها كل مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه ، وغيرها من النعم التى أنعم الله بها عليه .

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين والمؤمنات جنات ، فإن المؤمنين جماعة ، والمؤمنات جماعة ، والموعود به جنات جمع ، وتقابل الجمع بالجمع يقتضى القسمة لآحاد ، فيكون المعنى : أن الله وعد كل مؤمن جنة ، ووعد كل مؤمنة جنة ، والأفراد ستتكرر .

إذن : فالموعود به جنات لا بد أن تتكرر ، فإذا قسمناها عرفنا نصيب كل مؤمن ومؤمنة ، تماماً مثلما يقول الأستاذ لتلاميذه : أخرجوا كتبكم . و"أخرجوا" أمر لجماعة ، وكتبكم جمع ، أى : أن يخرج كل تلميذ كتابه . وقول المعلم " أمسكوا أقلامكم" يعنى : أن يمسك كل تلميذ قلمه .

إذن : فقول الحق سبحانه ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى : أن لكل واحد جنة . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الرحمن :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وهنا لا بد أن نتنبه لمعطيات الألفاظ فى سياقها ومقامها ؛ فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنس فقط ، وإنما تتكلم عن الإنس والجن . فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن]

وكذلك قوله جل جلاله :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرحمن]

إذن : فيكون للإنس جنة وللجن جنة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن]

(١) **الصلصال** : الطين اليابس الذى يصلّ من جفافه أى يُصدر صوتاً . **المارج** : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد .

من خاف مقام ربه من الإنس له جنة ، ومن خاف مقام ربه من الجن له جنة .

ويمكن أن يكون المعنى أن لكل واحد جنتين ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أزلاً ما سيصير إليه أمر عباده من التقوى أو الفجور ، ولكنه تبارك وتعالى لم يخلق للمتقين جنات تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة جنة ، ولكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة ناراً [1] ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ بقيت الجنات التى خلقت ولم يدخلها أحد ؛ لأن أصحابها من أهل النار ، فيقوم الحق بتوزيعها على المؤمنين أصحاب الجنة ؛ مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أى : أنها لم تكن مخلوقة لكم ، ولكنكم ورثتموها ؛ لأن أصحابها من أهل النار [2] .

ونزيد الأمر هنا توضيحاً ، فالقرآن الكريم له أسلوب مميز ؛ لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم يأتى مطابقاً للمعنى تماماً . وفى اللغة ، قبل أن تتكلم لا بد أن تكون عالماً بمعنى اللفظ . وأن يكون محدثك أيضاً عارفاً معناه حتى يستطيع أن يفهمك. فإذا قلت لإنسان مثلاً : أحضر لى كوباً من الماء لأشرب ، فلا بد أن يكون عارفاً لمعنى الماء ومعنى الكوب ، وإلا فإنه لن يفهم .

(١) عن أبى هريرة قال قال النبى ﷺ : « لايدخل أحد الجنة إلا أُرى مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً، ولايدخل النار أحد إلا أُرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٥١٢) والجنة والنار منوطان باختيار الأعمال.

(٢) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد إلا له منزلان : منزل فى الجنة، ومنزل فى النار . فإذا مات فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله. فذلك قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٤١). قال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

إذن : فبالتخاطب توجد المعانى أولاً ثم توجد لها الألفاظ ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعندما اخترع وفهمنا معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً فى اللغة ، فاعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم ، ولعل هذا هو أكبر دليل لغوى ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

نقول لهم : إن الله موجود فى كل لغة ؛ وبما أن المعنى فى اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى ؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن : فقولك : إن الله غير موجود باطل ؛ لأنك ما دمت قلت : " الله " ، ووجد لفظ الجلالة فى لغتك؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة . والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره ؛ ولذلك سمى الكفر ستراً لوجود الله . والستر لا يكون إلا لموجود .

إذن : فالذى كفر ، ستر موجوداً ؛ فأعطى دليل الإيمان ؛ لأنك أيها الكافر - والعياذ بالله - تعرف لفظ الله فى لغتك ، ولو لم يكن الله موجوداً ما وُجد لفظ «الله »سبحانه وتعالى فى اللغة .

إذن : فوجود الله سابق لمعرفتنا اسم الله ، ومحاولة ستر ذلك بالكفر إنما هى دليل على وجود الله ؛ لأنك لا تستر إلا ما هو موجود .

ولفظ الجنة فى القرآن الكريم أطلق على معان كثيرة ، فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القلم]

وقوله جل جلاله :

﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ...(٣٢) ﴾ [الكهف]

إذن : فالجنة أطلقت فى القرآن على المكان الذى فيه زروع وثمار وأشجار ، فهو يحجب من دخله ، أو يمنع الإنسان بالخير الذى فى داخله من الحاجة للخروج إلى مكان آخر ؛ لأن فيه كل مقومات الحياة . وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبشرنا بشىء فى الآخرة ، لا بد أن يشبهه لنا بشىء نفهم معناه فى الدنيا ؛ لأن اللغة مكونة من ألفاظ وأسماء سبقتها مَعَان حتى نستطيع أن نفهمها ، ولذلك إياك أن تفهم أن جنة الدنيا هى جنة الآخِرة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يستخدم اللفظ الذى تفهم أنت معناه . ولكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولكن من أين نأتى بالألفاظ التى يمكن أن تعبر لنا عن ذلك ؟ إن اللفظ لا يوجد إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً ، ومن يستطيع أن يأتى بلفظ لم تره عين ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر ؟ مستحيل ؛ لأن المعنى غير موجود .

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة ، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبيّاً حتى نستطيع أن نفهمه ؛ فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ...(١٥) ﴾ [محمد]

أى : أنها ليست هى ، ولكنه مثل فقط ؛ يقرب المعنى إلى ذهنك . خذ صورة من المجتمع الذى تعيش فيه ، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة . وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة ، ثم بعد ذلك

يزداد الرقى ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص (ڤيلا) ، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرقى . إذن : فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوى إليه فقط ،بل ترتقى فى الإيواء كلما ارتقيت فى الحياة. فتتحقق لك المتعة فى الإيواء ، وهذا موضوع آخر.

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أى : هناك جنات وهناك مساكن ؛ لأن الإنسان يحب فى بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصه ، وفى أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس فى مكان جميل ؛ مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ، ونجلس معاً ، فكأن الجنات هى للرفاهية الزائدة ؛ عندما تحب أن تجتمع مع الناس ؛ أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا . أما المساكن فهى للخصوصية . فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله.

إذن : فالجنات صورة من البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب ، بل هى من صناعة المسبب جل وعلا.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثرى ، قد نجد أن للبيت حديقة ؛ يشرف عليها بستانى متمكن من عمله ؛ ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك . ويكون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث نجلس فيها ، ونكره أن نغادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر ، فكيف بهذه الحدائق التى صُنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إن الذى وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى . وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وجعل هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها زروع وأزهار وأشكال ؛ تسرُّ العين بجمالها ، وتمتع

اللمس بنعومتها ؛ وتملأ الأنوف برائحتها الزكية . ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجرى من خلالها ، ولكنها لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها ، ومنابعها من مكان آخر ، أو تحتها ، ومنابعها ذاتية ، أى ينبع من نفس المكان [1] . وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به . وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار ؛ فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كنا فى حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين ، فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطئ ؛ وإنما يمسكها الذى أمسك السماء أن تقع على الأرض [2] ، ثم تجد الأنهار قد تشترك فى المجرى ؛ نهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الماء، ونهر الخمر [3] ، وكلها تجرى فى مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع .

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك ، ميزة الخلود فى هذه الجنات فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ونحن نعلم أن المتعة فى الدنيا قد توجد للإنسان ، ولكنها لا توجد خالدة أبداً ؛ فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة ؛ كأن تصاب بكارثة مالية مثلاً أو تخسر خسارة كبيرة فى تجارتك أو غير ذلك ، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت.

---

(١) ورد فى القرآن قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ٣٥ مرة ، وورد قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ مرة واحدة فى [التوبة : ١٠٠] .

(٢) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

(٣) فهى أنهار أربعة : نهر لبن فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ، ونهر عسل فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، ونهر ماء غير آسن أى غير متغير الرائحة ، ونهر خمر لا تغتال العقول . قال صاحب كتاب « حادى الأرواح » (ص١٧١) : « تأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التى هى أفضل أشربة الناس ، فهذا لشربهم وطهورهم ، وهذا لقوتهم وغذائهم ، وهذا للذتهم وسرورهم ، وهذا لشفائهم ومنفعتهم » .

ولكنك فى جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال ، ويزيدك الله فيها بأن يعطيك الخلود ، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك ؛ لأنه ليس هناك أغيار ، وليس هناك موت.

وكل إنسان فى الدنيا يتمتع على قدر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها ومقاماتها ، فقد تكون من الفلاحين ؛ وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك ، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير ، والثالث له بيت فيه عدة صالونات ، فكل واحد على قدر إمكاناته فى الدنيا ، ولكننا فى الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى ، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة ، ويكون الجزاء بقدر ما فعلْتَ من خير فى الدنيا ، واتبعت منهج الله .

إذن : فأنت الذى تحدد المساحة التى لك فى الجنة ، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك.

ثم ما الذى يهددك فى نعيم الدنيا ؟

الذى يهدد الناس فى الدنيا أحد شيئين : إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا ، وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت . ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد . إنها النعمة الخالدة وأهل الجنة فيها خالدون . ولذلك يقال : يا أهل الجنة ، خلود بلا موت ونعيم بلا بؤس [1] .

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى فى وصف الخلود فقال : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ والخلود بقاء طويل جداً ، والأبدية لاتنتهى . وسبحانه حين تكلم

(١) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة عن النبى ﷺ : « ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » فذلك قوله عز وجل : ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣١٩) (٣/ ٣٨ ، ٩٥) والترمذى فى سننه (٣٢٤٦) .

عن الخلود استثنى فيه ، فقال سبحانه و تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٨) ﴾ [هود]

أيُّ سماء وأيُّ أرض تلك التي تحدَّث عنها الحق سبحانه وتعالى ؟ هل هي السماء التي نراها ؟ إننا نعلم أن الأرض التي نعيش عليها ستبدل وأن السموات ستمور [1] . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السموات والأرض بالنسبة للآخرة . فهو يتحدث عن السموات والأرض المبدلتين ؛ مصداقاً لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فما دامت السموات والأرض ستتبدل ، فالله سبحانه وتعالى يحدثنا عن السموات والأرض في الآخرة ؛ غير حديثه عن السموات والأرض في الدنيا . ولكن بعض السطحيين يقول : إن القرآن يتحدث عن بقاء المؤمنين في الجنة ما دامت السموات والأرض ؛ ثم يقول :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) ﴾ [التكوير]

فكأن هذه الأرض التي نعيش فيها ، والسماء التي تظلنا ستُدمَّر يوم القيامة ، فلماذا يقول الحق :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ... (١٠٨) ﴾ [هود]

---

(١) وذلك من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ [الطور: ٩] ومعنى تمور أي تدور وتتحرك وتموج في بعضها البعض .

فأين هو الخلود إذن ؟

نقول لهؤلاء : اقرأوا القرآن كله لتعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ... (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه الأرض هى أرض معاش وما فوقها من سماء هى سماء معاش ؛ ستتبدل بأرض مَعَاد ؛ لأن الأرض التى نعيش عليها فيها مقومات الحياة بالأسباب ، تزرع وتحصد وتصنع ، أما فى الآخرة فحياتك كلها بدون أسباب منك ؛ ولذلك ساعة يخطر الشىء على بالك تجده أمامك دون أن تتحرك أو تحرث أو تزرع أو تتحمل أى مشقة . أما هنا فى هذه الدنيا ، الأرض أرض المعاش تنعم فيها وتأخذ منها بقدر إمكاناتك ، ولكن أرض المعاد تأخذ منها بإمكانات الحق سبحانه وتعالى . ومهما ارتقت الدنيا وارتقت أسبابها ، لا يمكن أن تصل إلى أنك يخطر على بالك الشىء فتجده أمامك. وسبحانه يقول .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فكأنه استثنى بعض الناس من الخلود .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٧) ﴾ [هود]

أى : أن الجنة والنار لهما خطان، وبمجرد أن يحاسب الإنسان ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذى يحاسب من الكفار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ويبقى فيها خالداً. وأما إن كان الذى يُحاسب مؤمناً عاصياً ، فهو يدخل النار على قدر ما عمل من السيئات ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .

إذن : فالذى دخل النار أولاً حالتان : حالة أبدية وهم المنافقون والكفار ، وحالة مؤقتة وهم عصاة المؤمنين ، والخلود فى النار بالنسبة

لعصاة المؤمنين ناقص من الآخر ، أما الذين عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ابتداء وخلوداً ، أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون الجنة إلا بعد أن ينالوا جزاءهم من العقاب . وبذلك يكون خلود عصاة المؤمنين فى الجنة ناقصاً من البداية ؛ لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم فى النار ناقص من الآخر ؛ لأنهم لم يخلدوا فيها :

ويقول سبحانه : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى : أن مساكن المؤمنين فى الجنة ستكون أيضاً جنات خاصة بها، وكلمة ﴿عَدْنٍ﴾ ؛ مادتها العين والدال والنون معناها الإقامة . و« عَدَنَ فى المكان » ، أى أقام فيه . إذن : فهى جنات إقامة ؛ لأن هناك فارقاً بين أن تسكن فى فندق مثلاً، أو فى مكان مؤقت ، وبين أن تقيم خالداً .

وحين يعطى الحق سبحانه للمؤمن بُشْرى بأشياء ، فهو يريد دائماً ألا ننسى أنها منسوبة إلى قدرته سبحانه ، والشيء يتناسب مع قدرة صاحبه أو فاعله. فالرجل الفقير حين يبنى مسكناً يكون المسكن متواضعاً؛ مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحب الإمكانات الضخمة فيبنى قصراً كبيراً ، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذى صنع ، فكل شيء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته ؛ فهو الذى يمسك الأمور كلها ، ويأتى تنفيذه لأى شيء وفق ما يريد .

إذن : فالخلود فى جنات عدن خلود دائم ، وهى جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً ؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها . والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لاينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه ، فلو كان ما فى جنات عدن مما يُزهَدُ فيه بعد فترة ما وصفها الله بهذا الوصف .

ولكى يصل الإنسان الى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة ، والمُنْعَمُ عليهم بالنعمة ،

وهم المؤمنون والمؤمنات . ومن أطاع الله طمعاً فى الحصول على نعيم الله فى الآخرة ، يأخذ هذا النعيم . والذى أطاع الله لذات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع ، يكون فى الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمُنْعِم .

إذن : فكل إنسان لما عمل له ، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك ، وأحببت أن تكون دائماً فى لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتتهجد ، وتقرأ القرآن وتصلى والناس نيام ، وتتقن العمل الذى ترتقى به حياتك وحياة غيرك ، وتفعل ذلك محبة فى الله الذى يستحق التعظيم ، فأنت تستحق المنزلة الأعلى ، وهى أن تكون فى معيّة الله . ويقول سبحانه [(١)] :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً [(٢)] ، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول : « يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون :

(١) انظر إلى جمال هذا الموقف ، المؤمنون قد تنعموا بنعيم الجنة فى قصورها وبنسائها وأنهارها وفاكهتها ولحوم طيرها، وبلبنها وعسلها ومائها وخمرها ، حتى أنك ترى فى وجوههم آثار هذا النعيم ، فها هى ذى وجوههم نضرة تمتلىء بهاء وجمالاً وصفاء ، وهم على هذه الحالة ينظرون إلى وجه الرحمن سبحانه خالق الخلق ، مالك الملك ، يفيض عليهم من نوره ، وبهائه ورحماته ورضوانه ، كل الوجوه ناظرة إلى الله ، عبدوه سنين الدنيا ولم يروه ، وها هم يرونه ، فسبحان المنعم الوهاب .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « وإن أفضلهم منزلة لينظر إلى وجه الله كل يوم مرتين » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٥/ ٨٧) وأخرجه أحمد أيضاً (٢/ ٦٤) والترمذى فى سننه (٣٣٣٠) بلفظ « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » قال الترمذى : حديث غريب .

يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[1] .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التى فى جنات عدن . أوضح سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله فى قوله تعالى :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فالذى عمل للجنة يعطيه الله الجنة ، والذى عمل لذات الله يعيش فى معية الله سبحانه.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فما هو المقصود بالفوز العظيم ؟ لقد تقدمت أشياء كثيرة ؛ تقدمت جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وجنات عدن ، ومساكن طيبة ، ورضوان الله ، فأيها هو الفوز العظيم ؟

نقول : كلها فوز عظيم ، فالذى فاز بالنعيم الأول فى الجنة أخذ فوزاً عظيماً ، والذى فاز بالمساكن الطيبة فى جنات عدن أخذ فوزاً عظيماً ، والذى أخذ رضوان الله يكون قد أخذ الفوز الكبير والعظيم.

ونلحظ أن القرآن حين يعرض منهج الله ، فهو لا يتحدث عن الجزاء فى باب منفصل ، والمنهج فى باب منفصل ، بل يجمع بين المنهج والجزاء وبين الوعد والوعيد ؛ لأنه ساعة يصف لى الجنة وما فيها من نعيم ، لابد أن ينبهنى إلى المنهج الذى يوصلنى إليها . وحين يعطينى صورة من المنزلة العالية التى تنتظر المؤمن فى الآخرة ، لابد أن ينبهنى - أيضاً - إلى العذاب الذى ينتظر المنافق والكافر ؛ حتى أتجنب الطريق الذى يؤدى بى إلى النار والعياذ بالله.

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد الخدرى .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن جنته ورضوانه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

إذن: فبعد أن ذكر الحق لنا الجنة وما فيها ، وما يجعل النفس مشتاقة إلى الجنة ، فهو يُذكِّرنا بما يجب علينا أن نفعله لخدمة منهج الله - ولله المثل الأعلى - مثلما تقول لابنك : عندما تتخرج طبيباً ستكون لك عيادة كبيرة ثم مستشفى ، وترتقى معه فيما ينتظره من مستقبل كبير ، وتُذكِّره بضرورة أن يجتهد فى المذاكرة حتى يصل إلى ما يتمناه . وبذلك تكون قد حبَّبته فى الغاية التى سيصل إليها ، ثم انتقلت لتحببه فى الوسيلة التى ستوصله إلى هذه الغاية .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ والحق جَلَّ وعلا يخص رسوله ﷺ بالتكريم والتعظيم ، فلم يُناده باسمه . بل قال[1] : ﴿ يـٰأَيُّها النَّبِيُّ ﴾ وفى مواقع أخرى يناديه : ﴿ يـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾.

ولكن النداء من الحق لباقى الأنبياء ، يكون مثل قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى:

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

---

(١) ورد نداء رسول الله ﷺ بـ ﴿ يـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ١٣ مرة فى القرآن ، أما نداء ﴿ يـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ فقد ورد مرتين فقط .

ونادى الحق إبراهيم:

﴿ يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ... (١٠٥) ﴾ [الصافات]

ونادى الحق موسى:

﴿ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ... (١٢) ﴾ [طه]

وخاطب الحق سيدنا عيسى :

﴿ يَـا عِيـسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِـذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَـيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ... (١١٦) ﴾ [المائدة]

فكل رسول ناداه الحق سبحانه وتعالى باسمه ، إلا رسول الله ﷺ فقد ناداه بقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، و ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ تكريماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، ورفعاً لمقامه عند ربه.

وهنا يطلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين [1].

ونحن نعلم أن السماء لا تتدخل لإرسال رسول إلا إذا فسد المجتمع فساداً عامّاً . ونعلم أن النفس الإنسانية فيها قد فُطرتْ على محبة الخير ، فإن لم يحكمها هواها فهى تفعل الخير وتحبه ، فإنَ حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبواب الشر . وقد يطيع الإنسان هواه فى أمر من الأمور ، ثم يفيق ؛ فتلومه نفسه على ما فعل، هذه هى النفس اللوامة ، التى تلوم صاحبها على الشر ، وتدفعه إلى الخير . ولكن هناك نفس تتوقف فيها ملكات الخير فتفعل الشر ، ولا تندم عليه ، ثم ترتقى النفس فى الشر فتصبح أمَّارة بالسوء ، وتأبى ألا تكتفى بفعل الشر ، بل تأمر به الناس وتُحبِّبه لهم . إذن : فمراحل النفس البشرية كثيرة ، فهناك النفس التى تطمئن لمنهج الله وتطيعه . وهذه هى النفس المطمئنة ؛ التى يقول فيها الحق:

---

(١) قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : « أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ » انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٢٩) .

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ [الفجر]

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أن المجتمع بخير ؛ لأن النفس المطمئنة تطيع ، وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على الشر ، ولكل مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن ، يسرع له أخوه المؤمن ليلومه على ضعفه ، ويصحح له مساره ؛ ولأن نقط الضعف مختلفة ، نجد أن المجتمع يستقيم كلما وُجد من يلفت النظر إلى المنكر وينهى عنه ، وهؤلاء هم الذين يقول الحق عنهم :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ولكن عندما تصدأ النفوس جميعاً ، ولا يصبح هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، بل تجد من ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ، حينئذ لا بد أن يتدخل الحق سبحانه ليعيد للحق مكانه فى الدنيا .

إذن : فرب العزة لا يتدخل فى حالة وجود نفوس مطمئنة تطبق منهج الله وتأمر بطاعته ، أو وجود نفوس لوامة ، سواء فى ذات النفس البشرية أو فى المجتمع تراجع من يرتكب الإثم وتلومه ، ولكن إذا عَمَّ الفساد فى المجتمع ، ولم يصبح هناك من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، وأصبح أهل الخير فيه عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً ، جاءت الرسل لتعيد منهج الحق لينظم حياة هذا المجتمع .

وحين يأتى الرسول فهو يعلم أنه ما أُرسل إلا بعد أن عَمَّ الشر فى الكون ، وأن أهل الفساد هم الأغلبية ، وهم أَصحاب النفوذ والسلطان ، وينتفعون بالفساد والانحراف المستشرى فى المجتمع . وهؤلاء إذا سمعوا

بصيحة الحق ؛ فلن يقفوا متفرجين ، بل سيحاربون كل من يحمل منهج الحق إليهم . ولابد للرسول من أن يصمد أمامهم ، وأن يجاهدهم .

و« جاهد » من « فاعل » ، مثل : « شارك » ، فأنت تشارك فلاناً ، ومثل : « قاتل » فأنت تقاتل فلاناً ، إذن : فلابد أن تحدث مفاعلة بين الرسول ومن اتبعوه ، وبين أئمة الكفر والفساد فى المجتمع .

ولابد أن يستعد الرسول والمؤمنون بمنهجه لتحمُّل الإيذاء من غير المؤمنين بالمنهج ؛ لأن الكفار متنفعون بالفساد ، ولكى يستمر هذا الانتفاع ، لابد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق ، وأن يقاوموهم ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التى يعطيها الباطل لهم . وينبه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد ، وأنهم سيحاربونه . ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : اتحد معهم ، ولكنه قال : ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ، أى : اصمد أمامهم فى المعركة ، وجاءت الكثير من الآيات التى يأمر فيها الله رسوله والمؤمنين بالصبر على الجهاد ، والجهاد يقتضى المواجهة ، لذلك قال سبحانه : ﴿اصْبِرُوا﴾ .

ولكن لنفرض أن عدوِّى صبر أيضاً فى الحرب ، إن أنا صبرت وعدوى صبر تساوت الكفتان ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: إن واجهكم عدوكم بالصبر ، فليكن صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر والتحمل ، فقف صابراً فى مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك ، فمعسكر الإيمان لابد أن يواجه معسكر الكفر والنفاق ، والكافر هو الذى جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو من كفر فى باطنه ويعلن الإيمان فى ظاهره . وهذا هو الذى يجب أن نحذر منه أشد الحذر ؛

لأننا لا نعرفه فنتقى شره مثل الكافر ، فقد يطعنّا المنافق من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون إليه ، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة .

ويوضح الحق لرسوله ﷺ : إن العداوة التى سيواجهها وهو يُبشِّر بمنهج الله ستأتيه من اثنين ؛ من كافر أو منافق ، أى من مجاهر بعدم الإيمان ، أو ممن كفر بقلبه وتظاهر بالإيمان بلسانه . أما المنافق فإنه عدو صعب ؛ لأنه يغشنا فلا نأمنه ، رغم أن النفاق فى حد ذاته بالنسبة لمنهج الله هو دليل قوة هذا المنهج ؛ لأنه لا ينافَق إلا القوى ، أما الضعيف فلا ينافقه أحد .

ولذلك لم يكن هناك منافقون أثناء وجوده ﷺ فى مكة قبل الهجرة ؛ لأن المسلمين كانوا قلة ضعافاً ، وكانوا مُعذَّبين مضطهدين . ولم يكن هناك ما يغرى أحداً بنفاقهم ؛ لأنه لا توجد استفادة من هذا النفاق ، بل سيتعرض من يتعاطف معهم للتعذيب والاضطهاد . والمنافق فى إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه مصلحة ذاتية .

واختلف الحال بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وظهر المنافقون بعد أن أصبح للإسلام دولة وقوة . والمنافق فى هذه الحالة إنما يعلن إيمانه زَيْفاً ، ليستفيد من قوة المسلمين لصالحه . إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية فى المنافق ، ولكنها دليل قوة للمؤمن الذى ينافقه .

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قد قدَّم فى هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين . وقدَّم فى آيات أخرى المنافقين على الكفار [1] . والصدام - كما نعلم - قد حدث أولاً مع الكفار ، ففى أول الدعوة لم يوجد هذا الصنف المنافق ، بل كان هناك مؤمنون وكفار ، وجهاد الكفار جاء على مراحل ،

(١) وذلك من نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] ، وكذلك قوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة : ٦٨] .

وليس على مرحلة واحدة ، وكانت أولى مراحل الجهاد هى الجهاد بالحجة ؛ لأن المؤمنين فى أول الأمر كانوا قلة ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المد الكبير من الكفار . وكان رسول الله ﷺ يعرض قضايا الإيمان بالحجة لإقناع العقل ؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنون بمنهج الحق . فيسألهم مثلاً عمَّنْ خلق السموات والأرض ؟

وحين يديرها الكافر فى عقله لا يجد أن أحداً ادعى - أو يستطيع أن يدعى - أنه خلق السموات والأرض ، فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى [1] ، لماذا ؟ لأن الإنسان فى تكوينه قد يدعى أشياء ليست له ، ولكنه لا ينفى أمراً هو صاحبه . فمخترع أى شيء أو صانعه لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع ، بل يحب أن تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع ؛ ولهذا فأنت لاتجد شيئاً ينتفع به فى الكون مهما كان تافهاً إلا وعرفنا تاريخه ، ومن أين جاء ، ومن الذى اخترعه أو اكتشفه أو صنعه ، والمثال هو ما درسناه فى المدارس عن الذى اكتشف الكهرباء ، والذى صنع المصباح الكهربائى ، ومن الذى طوره . وكذلك اختراع الطائرة ، ومعروف لنا كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فرناس ؛ الذى حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة ، وهكذا كانت البداية .

إذن : فكل شيء نافع فى الكون معروف من الذى اكتشفه أو صنعه أو اخترعه . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة ، فما بالك بالنسبة للكون ؟ وحين نسأل : من الذى أوجد الشمس ؟ ألا يستحق خالقها أن نعرف من هو ، خصوصاً ونحن نعرف من الذى اخترع مصباح الكهرباء وأوجده فى حياتنا ؟

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذى ينير حجرة محدودة لوقت ، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع ، أفلا نستحق أن

---

(١) ومصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

نعرف من الذى أوجد الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية فى نفس اللحظة ؟ هذه الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين ، ولم تنطفىء مرة واحدة ، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل ، ولابد أن يكون لها صانع ؛ تتناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذى نراه سواء فى الضوء ، أو فى خصائص هذا الضوء ، أو فى دقة الصنع ؛ فهى لا تتأخر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور ، ولابد أن يكون صانعها له من القوة ما يتناسب مع عظمة هذا الخلق.

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أن يكون صادقاً ؛ فنسلم جميعاً بأن الله هو الخالق والموجد . وإما أنه غير صادق ، فنقول: لماذا لم يخرج إذن أحد يدعى أنه هو الذى خلقها.

ولكن دقة وإعجاز الخلق الذى لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية مفردة ، أو قوى بشرية متعددة متعاونة ، جعل القضية محسومة له سبحانه وتعالى [1] . وإلى أن يأتى من يدعى أنه خلق الشمس ، ولن يأتى ؛ فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى ، ولا يوجد هناك منازع.

ويأتى رسول ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسموات والكون هو الحق سبحانه وتعالى ، فلم يَأت أحد ويدَّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مَما يؤكد أن من أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود ، وهو الأحق بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة التى يدعونها.

وتمضى الدعوة بالمنطق ليسألهم من الذى خلقهم ؟ مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١)حتى أن مجادلة ومحاجة إبراهيم عليه السلام للنمروذ لم تكن فى خلق الشمس ، إنما كانت فى الإتيان بها من مكان غير الذى تأتى منه ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة:٢٥٨] .

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور]

فإذا كان الجواب : لا هذا ولا هذه ، إذن : فلابد أن هناك خالقاً وموجداً لنا ، فإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا : إن خالق هذا الكون وخالقنا هو الله ، فلا بد أن نصدقه ؛ لأنه لم يدَّعِ أحد ولا يستطيع أن يدعى أنه خلق هذا الكون أو خلق نفسه ، تماماً كما نكون قد جلسنا فى مكان . وبعد أن انصرفنا ، وُجِدَت حافظة نقود ، فجاء صاحب المكان وسأل كل الذين كانوا حاضرين ، فنفوا جميعاً ملكيتهم لحافظة النقود ، عدا واحداً ، حينئذ تكون حافظة النقود ملكه ؛ لأنه هو وحده الذى ادعاها ولا يوجد معارض .

وفى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان لا يجرؤ بشر أن يعارض الحق سبحانه وتعالى ؛ ويدعى أنه خلق . إذن : فالقضية محسومة تماماً لله . هذا هو جهاد الحجة حيث يقتنع العقلاء بالمنطق ، أو يقتنع من يستمع إليه فيفهمه ، فإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد ، يمكننا أن نتساءل : من الذى يضع المنهج للإنسان على الأرض ؟ لابد أن نُقدِّر أن من يضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه وموجده ، تماماً كما نثق أن صانع أى آلة هو الأقدر على وضع أسلوب عملها ، فهو يعلم ما يصلحها وما يفسدها .

والمثال: أن الإنسان منا يعطى ساعة يده لمن تخصص فى إصلاح الساعات ، ويستدعى المتخصص فى إصلاح الثلاجة إن أصابها عطب ، ويستدعى الإنسان كل متخصص لإصلاح الآلة التى درس تفاصيلها ، وكل متخصص يعود إلى كتاب التصميم الذى وضعه مَنْ اخترع الآلة ، وبيّن فيه ما يصلحها وما يفسدها ، ولذلك فأنت لن تستدعى نجاراً ليصلح التليفزيون .

إذن : فما دام سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً فلا بد أن نتبعه ؛ لأنه هو موجد هذا الكون وموجدنا ، ويعلم ما يصلحنا وما يفسدنا.

فإن فشل جهاد الحجة ، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ وبماذا يغلظ رسول الله ﷺ عليهم ؟ إنه يغلظ لإيضاح المصير الذى ينتظرهم ، وكل كافر هو عابد للدنيا ويخاف أن تضيع منه الدنيا لأنه لا يؤمن بالآخرة ، فأنذره بالآخرة ، وأنذره بالعذاب الذى ينتظره ، وقُلْ له : أنت لست خالداً فى الدنيا ، وما ينتظرك فى الآخرة هول كبير.

ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا وراءها آخرة وجنة ؛ ولذلك وجدنا المؤمن الذى يقول لرسول الله ﷺ فى الحرب : ادع لى يا رسول الله لأستشهد . ويقول آخر : أليس بينى وبين دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى ؟ فيقول له رسول الله ﷺ : نعم ، فيلقى الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق إلى المعركة ويستشهد .

هذا هو معنى الإيمان ، ولو لم يكن المؤمن واثقاً تمام الثقة أنه سيذهب إلى نعيم ليس بعده نعيم ، لما انطلق إلى المعركة طالباً الشهادة.

إذن : وهم يُقْدمون على الشهادة بهذه الشجاعة تمتلىء أعماقهم بالإيمان وبأحكام الله فيه ، وتدفعهم القناعة التامة - بأن هناك جنة فى الآخرة - إلى الاستشهاد ، وفى المقابل نعرف أن الذى ينتظر الكفار هو النار . وهكذا نفهم قوله الحق : ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى ينتظرهم عَلَّهُمْ يفيقون . والشاعر يقول:

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقَّب وَعيداً ... فإنْ لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمه
وَمَا هُو إلاّ السيفَ أو حَدُّ طَرْفه ... يقيمُ زباه أَخْدعَ كُلِّ مَائلِ
فَهذا دَوَاءُ الدَّاء منْ كُلِّ جَاهلٍ ... وَذاك دَوَاءُ الداء منْ كُلِّ عَاقلِ [1]

(١) عزائم الوعيد : إنفاذه فيمن يستحقونه . زباه : طرف السيف . أخدع : الأخدع عرق فى العنق فكأن عنقه مائل عن اتباع الحق .

فمن آمن بالمنطق آمن ، ومن لا يؤمن نقول له : دع كلمة الحق تُعلَنُ على الناس جميعاً ، وأنت حر فى أن تؤمن أو لا تؤمن ، وإنْ أردتَ الحياة فى كنف الأمة الإسلامية فأهلاً بك ، ولا يهم أن تؤمن أو لا تؤمن ؛ لأن الحق قال :

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]

واعلم أنه يشترط فى كل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا الدين ، ومقتنعاً أيضاً بأنه الدين الحق.

والذى لا يؤمن ، يعيش فى كنف الأمة الإسلامية وله حريته الكاملة فى اتباع عقيدته ، ولكن منهج الحياة وحركتها لابد أن تسير وفقاً لمنهج الله، وما دام الإيمان هو الذى يسيطر على حركة الحياة ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ؛ فذلك لا يؤثر فى حركة المجتمع المؤمن ؛ ما دام المجتمع كله سائراً بالمنهج ، وتسير الحياة كما أرادها الحق سبحانه وتعالى.

والله هو خالق الإنسان ، وهو الذى جعله خليفة فى الأرض ، وهو يغار على خلقه ، تماماً كما تأتى لشىء جميل صنعه فنان أو عامل ، وتحطم أنت هذا الشىء أمام صانعه . إن قلب الصانع - فى هذه الحالة - يمتلىء بالغضب، ويسرع بعقابك.

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى إنساناً يفسد صنعته فى الكون ، ويحاول أن يحطمها ، فسبحانه يغار على صنعته ؛ لأن الله خلقنا مختارين ، ولكى يكون الحساب عَدْلاً ، لابد من البلاغ أولاً ، وأن تصل الدعوة إلى آذان الناس ، فمتى وصلت الدعوة فهذا إتمام لرسالة أمة محمد ﷺ ، ثم يختار الإنسان من بعد ذلك أن يؤمن أو لا يؤمن ، لذلك طلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ، وأن تكون الدعوة أولاً بالبرهان والإقناع . فإن لم يَأتِ البرهان بنتيجة ، وحاول أحدهم أن يقاوم

الدعوة بالسلاح فَلْـيُردع بالسلاح.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ولا تأخذك بهم رأفة ؛ لأن الرأفة قد تغرى بالذنب ؛ والمثال : حين يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب فقد يغريه ذلك ويغرى غيره على السرقة . ولكن تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة ، إنما يمثل رادعاً وحماية للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن عقاب القاتل بالقتل أنفى للقتل ، وأنت حين تأتى بالقاتل وتقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يمنع أى إنسان أن يفكر فى القتل ، أو أن يقتل.

إذن : فنحن بالعقوبة نحمى المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم .

وبعض السطحيين يقول لك : هل مَنْ يسرق تُقطع يده ؟ نقول لهم : نعم ؛ لأننى لو قطعت يد فرد لمنعت جريمة السرقة فى المجتمع ، فليس الهدف أن أقطع يداً . ولكن الهدف هو ألا يسرق أحد ، وأنت حين تأتى بالعقوبة وتتأكد من الجريمة ؛ إياك أن تأخذك الرحمة فى تنفيذ العقاب . فلو أخذتك الرحمة فى هذه اللحظة فأنت تشجع الجريمة . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى [1] :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

---

(١) الجلد هو حكم من زنى وهو بكر لم يتزوج ، أما من تزوج ووطىء فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ثم زنى فحكمه الرجم بالحجارة ، وفى هذا قال عمر بن الخطاب : إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : ما نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف . أخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٨٢٣) ومسلم (١٦٩١). والزنا الموجب للحد هو : تغييب حشفة الرجل أى رأس ذكره فى فرج محرم مشتهى بالطبع ، من غير شبهة نكاح ، ولو لم يكن معه إنزال . ويشترط فيه رؤية أربعة شهود عدول لهذه الهيئة من الجماع المحرم . انظر « فقه السنة » للشيخ سيد سابق (٢/ ٤٠٠) .

ولكن الحوار حول العقوبات[1] فى الإسلام لا يتوقف ، ونقول لهؤلاء: هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات ؟ وانظر إلى المجتمعات غير الدينية ، ألا توجد بها جرائم وعقوبات ؟ إن كل مجتمع إنما يحمى نفسه بتوصيف الأفعال التى تعتبر جرائم ، ويضع لها عقوبات ، ولا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص .

إذن : فكل دولة وكل مجتمع لابد أن تكون فيه عقوبات، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش فى أمان . فإذا كان حاكم أى دولة بسيطة قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس لله أن يضع التوصيف لما يرى أنه جرائم ، وأن يُشرِّع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك ؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو خالقها ؛ فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدى من أن تمتد إلى مال الغير .

ولذلك يجب ألا تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة ؛ لأن الذى يتعب الناس فى الدنيا ، هو طول الإجراءات والأخذ والرد ، فينسى الناس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وُقِّعتْ العقوبة فور حدوث الجريمة ؛ لما طلب أحد الرأفة بالمجرم .

والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ وقد عرفنا كيف يكون الجهاد مع الكافرين ، فماذا يكون الجهاد مع المنافقين وهم الذين يتظاهرون بالإيمان ؟

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هى جرائم الحدود ، وهى : الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكر ، والمحاربة ، والردة ، و البغى . وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحى : الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس . ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود) .

نقول : إن الجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم [1] ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ، ويسألهم رسول الله ﷺ ، فينكرونه ، فيصفح عنهم ، ويوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ : اغلظ عليهم إذا ارتكبوا إثماً ، وقد وجدنا فى سورة التوبة أن المنافقين يحلفون كذباً فى كثير من الأمور ، فيذكر الحق سبحانه :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ... (٥٦) ﴾ [التوبة]

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ... (٧٤) ﴾ [التوبة]

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ... (٦٢) ﴾ [التوبة]

وفى سورة المجادلة يقول سبحانه :

﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) ﴾

فكأنما كلما حلفوا صدَّقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، ففضحهم الله بأنهم كاذبون ، وطلب من رسوله ﷺ أن يُغلظ عليهم فى العقوبة . ولكن هل غلظة الرسول ﷺ معهم تعفيهم من عقاب الآخرة ؟ نقول : لا ؛ لأن الغلظة عليهم فى الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة ، وليعلم كل منافق أنه مفضوح من الله . ولكن هذا لا يعفى من عقاب الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ والمصير هو المرجع الأخير لأى شىء ، وكل عقوبة يكون لها مظنة ألا تمتد إلى الفترة المقررة لها ، فالذى عاقب قد يعفو ، وقد يخرج الإنسان قبل انتهاء مدة العقوبة ؛ كأن يكون هناك إفراج صحى ، أو بقضاء ثلاثة أرباع

(١) قال الحسن البصرى فى معنى هذه الآية بالنسبة للمنافقين : « جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان ، وكانوا أكثر من يصيب الحدود » . وقد رد أبو بكر بن العربى على هذا « بأن العاصى ليس منافقاً ، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق كامناً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين » انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٢٩) .

المدة أو غير ذلك . ولكن العقوبة للمنافقين تكون بلا خروج ، وفي هذا ترهيب منها ؛ لأنك لو علمت يقيناً أن العقوبة أبدية ، فسوف تخشى الإقدام على الجريمة .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى عن الحلف والكذب الذى كان يفعله المنافقون ؛ فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

وفى هذه الآية الكريمة يبين لنا الحق سبحانه وتعالى حلقات الحلف بالكذب للمنافقين ؛ فهم يحلفون أنهم ما قالوا ، ويجعلون الله عرضة لأيمانهم ؛ مع أنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم ، وإسلامهم إسلامٌ مُدَّعىً .

ولهذه الآية الكريمة قصة وقعت أحداثها فى غزوة تبوك التى حارب المسلمون فيها الروم ، وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب ، حيث دعا رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة فى فترة شديدة الحرارة ، وكان كل واحد فى هذه الفترة يفضل الجلوس فى الأخياف [1] ، أى الحدائق

(١) الأخياف فى اللغة : أماكن وسط بين مجرى السيل فى الجبل ، وبين صخوره ، تنبت فيها الحشائش . انظر لسان العرب (مادة : خ ى ف) .

الصغيرة ، ويجلسون تحت النخيل والشجر فى جو رطب ولا يرغبون فى القيام من الظل.

وعندما دعا رسول الله للجهاد فى سبيل الله ، والذهاب إلى قتال الروم ، تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد ؛ فظلَّ القرآن ينزل فى هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين ، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدْقاً فنحن شرٌّ من الحمير . وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى : لقد صَدق رسول الله ﷺ وأنتم شر من الحمير . وأنت يا جلاس شر من الحمار . وهنا قام عدد من المنافقين ليفتكوا بعامر بن قيس الأنصارى ؛ لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه . وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله ﷺ ابن سويد وسأله عن الخبر ، فحلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث . وتركه رسول الله ﷺ بعد أن حلف بالله . وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء ، وقال : اللهم إنى أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد ﷺ تصديق الصادق وتكذيب الكاذب . فقال رسول الله ﷺ « آمين »[1] . ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحى بقول الحق جل جلاله: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾.

وهكذا حسمت هذه الآية الكريمة الموقف . وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب ؛ فيما رواه عامر بن قيس وأنكره الجلاس.

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عُرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله ﷺ ؛ فقال سبحانه : ﴿ **وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ ذلك أن الله تبارك وتعالى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧١ - ٣٧٣) .

أراد أن يُعلم المنافقين أن سبحانه يخبر نبيه بما يخفيه المنافقون عنه ، ولو نزلت الآية فقط فى حادثة الحلف الكذب ، لقال المنافقون : ما عرف محمد- عليه الصلاة والسلام - إلا ما قاله عامر ، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر ؛ وهم قالوها ، ذلك أن المنافقين كانوا قد تآمروا على حياة النبى ﷺ واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة ، والعقبة هذه هى مجموعة من الصخور العالية التى تعترض الطريق ، فيتحايلون على اجتياز هذه العقبة بأن يعبروها أحياناً من أنفاق منخفضة ، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا .

ودبر المنافقون [1] أن يدفعوا رسول الله ﷺ من أعلى الصخور ، فيسقط فى الوادى ، ولكن حذيفة بن اليمان الذى كان يسير خلف ناقة رسول الله ﷺ تنبه للمؤامرة ، فهرب المنافقون ، وهكذا لم ينالوا ما يريدون ، مثلما لم ينالوا ما أرادوه عندما أتى رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، فقد كانوا يعدون العُدَّة ليجعلوا عبد الله بن أبىّ ملكاً عليهم ، ولكن مجىء رسول الله ﷺ لم يُمكنهم من ذلك .

وقيل : إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس ؛ لأنه أبلغ رسول الله ﷺ ما قاله الجلاس بن سويد ، ولكنهم لم يتمكنوا .

---

(١) كانوا اثني عشر رجلاً ماتوا محاربين لله ورسوله . عن حذيفة بن اليمان قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوقه . حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكباً ، قد اعترضوه فيها ، فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ : هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ فى العقبة ، فيلقوه منها . قلنا : يا رسول الله أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : لا ، أكره أن تحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم ، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم ارمهم بالدبيلة . قلنا : يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠ ، ٢٦١) وفيه عنعنة ابن إسحاق .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ و ﴿ نَقَمُوا ﴾ تعنى : كرهوا ، والغنى - كما نعلم - أمر لا يُكره ، ولكن وروده هنا دليل على فساد طبعهم وعدم الإنصاف فى حكمهم ؛ لأن الغنى والأمن الذى أصابهم ليس عيباً ولا يولد كراهية . بل كان من الطبيعى أن يولد حباً وتفانياً فى الإيمان.

والحق سبحانه وتعالى يوضح لهم : ماذا تعيبون على محمد ؟ وماذا تكرهون فيه ؟ هل تكرهونه وقد جاءكم بالعزة والغنى ؟

وقبل أن يأتى رسول الله ﷺ ، كان الذين كرهوا مجىء الرسول إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً ، ولكنهم لما نافقوا ودخلوا فى الإسلام ، أخذوا من الغنائم ، وأغناهم الله [1] ؛ بل إن الجلاس بن سويد لما قُتل له غلام دفع له رسول الله ﷺ اثنى عشر ألف درهم ديّة . إذن: فقد جاء على يد الرسول ﷺ الغنى للجميع ، فهل هذا أمر تكرهونه ؟ طبعاً لا . ولكنه دليل على فساد طباعكم وعدم إنصافكم فى الحكم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناكم بمجىء رسوله ؛ ما كان يصح أن يُعاب ذلك على رسول الله ﷺ ، بل كان يجب أن يُمدح به ، وأن تتفانوا فى الإيمان به ونصرته.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم . ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وكان قياس كلام البشر أن يقال « الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ لأن الله لا يُثَنَّى مع أحد ، ولو كان محمد بن عبد الله .

ولذلك عندما سمع رسول الله ﷺ خطيباً يخطب ويقول : من أطاع الله ورسوله فقد نجا ، ومن عصاهما فقد هلك ، فقال رسول الله ﷺ : بئس خطيب القوم أنت ؛ لأن الخطيب جمع جَمْعَ تثنية بين الله ورسوله.

---

(١) قال الكلبى : « كانوا قبل قدوم النبى ﷺ فى ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، فلما قدم عليهم النبى ﷺ استغنوا بالغنائم » ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٢) .

وهنا توقف الخطيب وقال: فماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : قل ومَنْ يعْص الله ورسوله فقد هلك [1] ، ولا تقل: عصاهما ، لا تجمع مع الله أحداً ولا تُثنِّ مع الله أحداً ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يَقُلْ « أغناهم الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ لأن الفضل واحد . فإن كان لرسول الله ﷺ فضل ؛ فهو من فضل الله .

وعلى أية حال فالله لا يُثَنَّى معه أحد ؛ ولذلك نجد فى القرآن الكريم:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة]

وهنا نرى أيضاً أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد فى الرضا ؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى ورضا رسوله ﷺ يتحدان ، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثَنَّى معه أحد.

وبعد أن فضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين وبيّن ما فى قلوبهم ؛ لم تخلّ رحمته عنهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ، وفَتْحُ باب التوبة رحمة لحركة الحياة كلها ؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنباً مصيره للنار . وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل ، فلا بد أن يستشرى فى الذنب ، ويزداد فى الإثم ، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أى إنسان يخطىء أن باب التوبة مفتوح ؛ فهو لا يستشرى فى الإثم ، ثم إن الذى يعانى من الشرور والآثام حقيقة هو المجتمع ككل ، فإذا وُجد لص خطير مثلاً ؛ فالذى يعانى من سرقاته هو المجتمع . وإذا وُجد قاتل محترف فالذى يعانى من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع .

(١) عن عدى بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد . ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ « بئس الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٤/٢٥٦ ، ٣٧٩) وأبو داود فى سننه (١٠٩٩) .

إذن: فـفـتح باب التـوبة رحـمـة للمـجـتـمع ؛ لأنهـا لا تدفع المجـرم إلى الاستشراء فى إجرامه . وإذا نظرت إلى الآية الكريمة ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن أظهـر الحق ، وبيّن للرسـول ﷺ وللمـؤمنين أشيـاء كـان المنافـقـون يخفونها ؛ فتح للمنافقين باب التوبة ، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين : يا رسول الله . لقد عرض الله عليّ التوبة . والله قد قلت ما قاله عامر ، وإن عامراً لَصَادقٌ فيما قاله عنى. وتاب الجلاس وحسُن إسلامه[1] .

أما الذين تُعرَض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله ، فقد قال سبحانه :

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . إذن : فجزاء من يرفض التوبة ولا يعترف بخطئه هو العذاب الأليم ، لا فى الآخرة فقط ، ولكن فى الدنيا والآخرة . وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة ، وعذاب الآخرة فى الدرك الأسفل من النار.

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ قد يفهمه بعض الناس فهماً خاطئاً ، بأن العذاب فى الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض فى الدنيا ؛ وأرض فى الآخرة هى أرض المعاد[2] ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ... (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن: فكلمة ﴿ الْأَرْضِ ﴾ تعطينا صورتين فى الدنيا وفى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يوضح لنا أن الوليّ هو القريب منك الذى تفزع إليه عند الشدائد ، ولا تفزع عند الشدائد

---

(١) انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (ترجمة ١١٧٢) .

(٢) قال أبو يحيي الأنصارى فى فتح الرحمن (ص١٧٠) : « لما كانوا لا يعتقدون الوحدانية ، ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولى والنصير مقصوراً على الدنيا ، فعبر عنها فى الأرض أو : أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة » .

إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك، أما النصير فهو من تطلب منه النصرة . وقد يكون من البعيدين عنك ولا ترتبط به ولاية ، إذن: فلا الوليّ القريب منك ، ولا الغريب الذى قد تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا لك شيئاً ، فلا نجاة من عذاب الله لمن كفر أو نافق.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور المنافقين ؛ فيقول:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ ﴾

﴿ وَمِنْهُم ﴾ أى: من المنافقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم فى هذه السورة الكريمة، فقال :﴿ وَمِنْهُم ﴾ ، و ﴿ وَمِنْهُم ﴾ و ﴿ وَمِنْهُم ﴾ ، واختلفت روايات المفسرين والرواة فى مدلول قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ . فقال بعضهم: إنه ثعلبة بن حاطب ، وقال آخرون : إنه مُعتِّب بن قشير ، وقال رأى ثالث: إنه الجد بن قيس ، وقال قائل رابع : إنه حاطب بن أبى بلتعة . كل هذه خلافات تحتملها الآية الكريمة [1] ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ولم يقل الحق : « فلما آتيناه من فضلنا بخل به » بحيث ينطبق على حالة واحدة ، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ... ۝٧٦ ﴾ [التوبة]

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٤) هذه الروايات ، ورجح أنها نزلت فى ثلاثة من المنافقين : نبتل ابن الحارث ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير . أما كونه ثعلبة بن حاطب فقد رفضه القرطبى ؛ لأنه شهد بدراً ، أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فقد فرّق بين الذى شهد بدراً وغيره . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (ترجمة ٩٢٤) .

إذن : فهناك جمع . والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة في أن الآية الكريمة نزلت في أفراد متعددين ، وسبحانه يقول :﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ فكيف يكون للمنافقين عهد مع الله ؟ نقول : لقد عُومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم ، فهم قد أعلنوا إسلامهم ، وكان الواحد منهم يقول : أعاهد الله على كذا وكذا ؛ تماماً كما يأتي الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التواجد في الصف الأول للمصلين ، فهل منعه النفاق من الصلاة ظاهراً ؟ لم يمنعه أحد ، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه.

وقصة الآية [1] : أن رجلاً فقيراً من الأنصار ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : إني فقير مملق - أي شديد الفقر - فادع لي الله يا رسول الله أن يوسع عليّ دنياي . وبفطنة النبوة قال ﷺ : إن قليلاً تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، فعاوده وقال : ادع الله لي أن يوسّع عليّ . فدعا له فوسّع الله عليه.

ولسائل أن يسأل : كيف يستجيب الرسول ويدعو لمنافق ؟ وإذا كان الرسول قد دعا ترضية له وتأليفاً لقلبه ؛ فكيف يجيب الله رسوله في طلب منافق منه ؟

ونقول : ربما كان ذلك ؛ لأن المنافق أراد أن يجرب : أرسول الله رسول حق ، بحيث إن دعا الله أجيب ؟

فلما دعا رسول الله ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعْلم هذا المنافق أنه : نعم هو رسول الله ؛ وإن دعا لأي أحد يُجِبْه الله ، فتكون هذه للنبي ﷺ.

فلما دعا رسول الله لثعلبة ، أو للجد بن قيس ، أو لحاطب بن أبي بلتعة ؛ استجاب الله لدعاء رسوله ؛ وأعطى مَنْ سأل الدعاء مالاً وفيراً ، وقالوا : ولقد تكاثر مال ثعلبة ، وكانت ثروته من الأغنام قد تناسلت

(١) سبق تخريج هذه القصة عند تفسير الآية ٥٣ من سورة التوبة .

حتى ضاقت بها شعَاب المدينة ؛ فهرب بها إلى شعاب الجبال ، وإلى الصحراء الواسعة ، فامتلأت ، فشغلته أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة ، وأصبح لا يذهب للصلاة إلا فى يوم الجمعة ؛ فلما كثرت كثرة فاحشة ؛ شغلته أيضاً عن صلاة الجمعة . وفى ذلك دليل صدق لتنبؤ رسول الله له . إذن : فكل الأمر إنما جاء تأييداً لمنطق الرسول معهم ؛ حتى يُسفِّههم فى أنهم نافقوا فى الإسلام .

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله ﷺ ، فقالوا : إنه فى الشعاب شغله ماله . فقال : يا ويح ثعلبة . وأرسل إليه عامل الصدقة [1] ؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فذهب عامل الصدقة إليه ، فلما قال له : هات ما كتب الله عليك من الصدقة من مالك . قال : أهى أخت الجزية [2] ؟ وذكَّره عامل الصدقة : أنت الذى عاهدت ، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين ، فما لك لا توفى بالعهد . ورد ثعلبة على عامل الصدقة : اذهب حتى أرى رأيى .

إذن : هو قد عاهد الله ، ودعا رسول الله ، واستجاب الله له ، وكثرت أمواله ، وبعد ذلك صدَّقَ الله نبيه فى قوله : « قليل تؤدى شكره ، خير من

---

(١) وذلك حينما نزلت آية : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] . فثعلبة هنا كان قد عاهد الله لئن رزقه وأعطاه ليتصدقن ، ولم تكن محددة فلما نزلت آية : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ .. ﴾ [التوبة:١٠٣] وفرضت الزكاة رفض إنفاذ ما عاهد عليه الله . وهذا نظير ما حكاه رب العزة عن بنى إسرائيل : ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٦] .

(٢) الجزية : هى مبلغ من المال يوضع على من دخل فى ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، وقد فرضها الإسلام عليهم فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها ، وهى تجب على من كان : ذكراً ، مكلفاً ، حراً . ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب . انظر : فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧).

كثير لا تطيقه » ، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله بردِّ ثعلبة. قال ﷺ: ويح ثعلبة . فلما علم ثعلبة أن قرآناً قد نزل فيه ، انزعج انزعاجاً شديداً ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ ، وعرض عليه الزكاة . فلم يقبلها رسول الله منه ، فأخذ يتردد عليه للقبول ، فلم يقبلها رسول الله منه . لقد أراد ﷺ بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله فى غنى عن مالك يا ثعلبة.

فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة عليه كلها إلى أبى بكر ، فقال أبو بكر : ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر .

لما توفى أبو بكر جاء إلى عمر ، فقال عمر مقالة أبى بكر . وجاء لعثمان ، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد هلك فى عهد عثمان.

﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ ، وكلمة ﴿لَئِنْ ﴾ قَسَم ، والقَسَم هو صورة العهد ، فكأنه قال : أقسم بالله إن آتانى الله مالاً لأفعلنَّ كذا . وقد فهمنا أنها قَسَم من وجود اللام فى جواب القَسَم ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ و«الصدقة» هى الصدقة الواجبة أى الزكاة ، و﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: نزيد فى التطوعات ، والمروءة ، والأريحية ، وكل ما يدل على الصلاح.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٧٦ ﴾

ولله عطاءان : عطاء الأسباب ، وعطاء التفضل . و«عطاء الأسباب» يتمثل فى أن يَجِدَّ الإنسان فى أى عمل من الأعمال ؛ فيعطيه الله ثمرة عمله ؛ مؤمناً كان أو كافراً ؛ طائعاً أو عاصياً ؛ لأن الإنسان قد أخذ

الأسـباب وأتقنـها ، ولذلك تجد بعضاً من الكافرين بالله وهم يعيشون فى سعة ؛ لأنهم يحسنون الأسباب ، وما داموا قد أحسنوا الأسباب ، وهم عبيد الله أيضاً ، وسبحانه هو الذى استدعاهم للوجود ، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب ، ولا تضنّ عليهم ؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، وعلى الطائع والعاصى ، والمطر ينزل على الأرض . وكذلك كل شىء فى الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون ، إذن فهذا عطاء الأسباب .

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفضل فى عطاء الأسباب ، كمن يسير فى طريق مجهول فيجد كنزاً ، أو أن ثمار محصوله لا يأتى عليها ريح أو إعصار يقلل من ناتج المحصول . ويبارك له الحق سبحانه فى بيع محصوله ، ويبارك له فى رزقه منه ، فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله . وهذا كله اسمه عطاء الفضل . وعطاء الأسباب عَامٌّ للناس جميعاً . أما عطاء الفضل فهو خاص بأولياء الله الذين أخلصوا عملهم لله طاعة وامتثالاً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ دليل على أن الرزق الذى جاءهم لم يخضع للأسباب وحدها . بل زاد عما تعطيه الأسباب بفضل من الله . فالتكاثر الذى حدث فى أغنام ثعلبة لم يكن تكاثراً بالأسباب فقط ، بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتى بأكثر من وليد ، والعشب الذى ترعاه يُدرّ كمية كبيرة من اللبن .

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ ما هو البخل ؟ هناك فى اللغة أسماء للامتناع عن العطاء ، فهناك بُخْل ، وشُح ، وكزازة ، وكلها أسماء للامتناع عن عطاء شىء ، لكن منازل العطاء والبخل تختلف ؛ بمعنى أن هناك إنساناً لا يعطى إلا من سأله ؛ تلك منزلة ، وإنساناً آخر لا يعطى كل

من سأله ، بل يعطى من سأله بأسباب تثير عواطفه نحوه ، كأن يقول: ولدى مريض ، أو احترق بيتى ، فالسائل هنا لا يسأل فقط ، ولكنه يجىء بعلة السؤال مثيرة للعواطف . وهناك من يعطى بغير سؤال.

هى إذن : ثلاث مراحل للعطاء ؛ واحد يعطى من يراه هكذا ؛ مظنة أن حالته رقيقة من غير أن يسأل ، وهذه منزلة من منازل القرب من الله ، ينير الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هى يد الله عند خلق الله . بل إن هناك أناساً يعاتبون أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم صدقة أو معونة ؛ كالرجل الذى ذهب فطرق الباب ، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد ، فطلب السائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بيته وأخذ شيئاً من مال وأعطاه للسائل ، فعلمت امرأته أنه جاء يسأله مالاً فأعطاه ، ولكن الزوج الذى أعطى مالاً رجع يبكى . فقالت له : وما يبكيك وقد أجبْتَهُ إلى مطلبه ؟ فقال : يبكينى أننى تركته ليسألنى ، أى : أنه يبكى لأنه لم يملك فطْنَةً تجعله يستشفُّ مسائل الناس من حوله ليعطى المحتاجين بغير سؤال .

إذن: فواحد يعطى عن مسألة ؛ تلك مرتبة ، وهناك من يعطى من غير مسألة ، بل يعطى عن فضل عنده ، أى : يملك الكثير ويعطى منه . وثالث : يعطى نصف ما عنده ؛ يقاسمه فيما يملك ، أو يعطى أكثر ما عنده حسب ما ينقدح فى ذهنه من حاجة الإنسان المعطى .

هى إذن ثلاث مراحل : رجل يعطى من غير سؤال ، ورجل يعطى بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهيِّجة للعاطفة ، ورجل يعطى بمجرد السؤال.

فمن هو البخيل ؟

أفظع درجة للبخل ؛ أن يبخل الرجل على من يسأله مسألة مُسبَّبة بأحداث تهيج العواطف ، ومع ذلك لا يرق قلبه ، هذا هو البخيل . ﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ واحد من هؤلاء لم

يبخل فقط ، بل انصرف عن الذى يسأله ، مثل الذى انصرف عن العامل الذى جاء يأخذ الصدقة ، وقد كان عليه - مثلاً - أن يُجْلس العامل ، ويقدم له التحية الواجبة ؛ ثم يقول له سنرى رأينا ، ولكنه تولَّى وأعرض عنه .

ويأتى الحق هنا بعقاب من يسلك مثل هذا السلوك فيقول :

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أى : جعل العاقبة لهذا التصرف ؛ أن جعل فى قلوبهم النفاق ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أى : إلى يوم القيامة . وما دام الله قد قال هذا فمعناه أن الذى عمل مثل هذا العمل ، وسئل الصدقة فمنعها وبخل وتولى وأعرض ، فهذا إعلام من الله أن هذا الإنسان لا يموت على إيمان أبداً . ولم يمت واحد من هؤلاء على الإيمان ، وقد كان هذا العقاب بسبب أنهم أخلفوا الله ما وعدوه فقال سبحانه : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ وكذلك جاءهم العقاب بسبب أنهم : ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فكأن الواحد منهم قد كذب كلمة العهد أولاً ، وكذب ثانياً فى أنه قال : أهى أخت الجزية ؟ مع أنه يعرف أن الزكاة عن المال هى ركن من أركان الإسلام .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

والعلم هنا مقصود به معرفة الخبر الذى لم يكن معروفاً قبل ذلك ،

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ فيه همزة الاستفهام ؛ ولم النافية مثل قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ ﴾ [الفيل]

ونحن نعرف أن الإخبار بين المتكلم والمخاطب له عدة صور : الصورة الأولى ؛ أن يخبر المتكلم المخاطب بما عنده ، وهذا «خبر» . والصورة الثانية : أن لا يخبر المتكلم مخاطبه بالخبر ، بل يجعل المتكلم نفسه يقول الخبر ، مثل قول أحد المحسنين : ألم أحسن إليك ؟ وكان فى استطاعته أن يقول « أنا أحسنت إليك » ، فيكون خبراً من جهته ، لكنه يريد أن يعطى للخبر قوة ، فجعل الكلام من المستَفهَم منه ، وكأنه عرض الأمر مَعْرض السؤال فى معرض النفى ؛ ثقة فى أن المخاطَب لن يجد إلا جواباً واحداً هو : نعم أحسنت إلىّ .

إذن : فالخبر إما أن يكون خبراً مجرداً عن النفى ، أو خبراً معه النفى ، أو خبراً معه الاستفهام . وأقوى أنواع الإخبار : الخبر الموجود معه النفى ، والموجود مع النفى الاستفهام ؛ لأن الخبر على الصورة الأولى يكون من المتكلم ، والخبر من المتكلم قابل لأن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً . ولكن الاستفهام يقتضى جواباً من المخاطَب ، ولا يجيب المخاطَب إلا بما كان فى نفس المتكلم ؛ ولو كان المتكلم يعلم أن المخاطَب قد ينكر فلن يسأله . أو يقول لإنسان : أنا راضى ذمتك ، وهذا القول يعنى أن قائله علم أنه لا حق غير هذا ، ومن يدير الكلام فى عقله لن يجد إلا أن ما يسمعه هو الحق .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما هو السر ؟ وما هى النجوى ؟ السر : هو ما تكتمه فى نفسك ولا تطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسرُّ به للغير ؛ لأن هذه هى النجوى ، وأصل النجوى البُعْد .

ويقال : فلان بنجوة عن كذا ، أي: بعيد عن كذا . وأصل النجوى أيضاً المكان المرتفع في الجبل ، فكأن المرتفع بالجبل بعيد عن مستوى سطح الأرض . وحين يرغب إنسان أن يكلم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ؛ فهو يستأذنه في الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذي يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر [1] ، ولذلك سموها المناجاة ؛ وهي كلام لا يسمعه القريب ؛ لأنك خفضت صوتك خَفْضاً يخفى على القريب ، فكأنه صار بعيداً.

إذن ، فالسر : هو ما احتفظت به في نفسك ، والنجوى : هو ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك.

والذين منعوا الصدقة ، لابد أنهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأنهم تكلموا في هذا الأمر - منع الصدقة - بعد أن صاروا أغنياء ولهم أموال كثيرة ، وتمردوا على منطق الإسلام مع أنهم كانوا حريصين دائماً أن يظهروا في إسلامهم مظهراً يفوق المسلمين الحقيقيين ، فكانوا دائماً في الصفوف الأولى للصلاة كي يستروا نفاقهم.

وحين يوضح الحق سبحانه وتعالى أنهم أسرّوا في نفوسهم كلاماً ؛ فهذا الإسرار في النفس حين يُخبر به الله ؛ هو هتك لحجاب المكان والزمان معاً ، وأعلم سبحانه رسوله ﷺ بما دار في هذا الإسرار ، كما هتك له من قبل حجب الزمان الماضي . وذلك في الأمور التي لم يشهدها ، ولم يسمعها من معلم ، ولم يقرأها في كتاب لأنه أمّي ، فأخبر رسول الله عن أكثر من أمر لم يشهده ولم يسمعه ولم يقرأه.

---

(١) وقد ورد النهي عن مناجاة اثنين دون الثالث ، فعن عبد الله بن مسعود قال قال ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » . أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٨٤) وأحمد في مسنده (١/ ٤٣١) والترمذي في سننه (٢٨٢٥) . وقال : حديث صحيح .

إذن : من أين جاء بذلك ؟ أعلمه به الحق سبحانه الذى يعلم خُبْأة[1] السموات والأرض ، وهتك له أيضاً حجاب الزمن المستقبل ؛ فعلم ﷺ الأحداث قبل أن تقع ، وأعلمه إياها مَنْ ملكَ ناصية الزمان ، وملك ناصية المكان ، وملك ناصية الأحداث . وهذا هو هَتْكُ حجاب الزمن المستقبل ، وهتك سبحانه لرسوله حجاب المكان ، فكان ﷺ يخبرهم عن شىء فى نفوسهم ، فقد أوحى له الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

بالله عندما يسمع الرجل من هؤلاء لما قاله فى نفسه ، ويخبره رسول الله بما قال ، فمن الذى هتك الحجاب لرسول الله ﷺ ؟

إن الذى هتك الحجاب لرسول الله هو من يعلم السرّ وأخفى ؛ فلا توجد حجب غائبة عن الله ؛ لأن حجب الغيب إنما تكون على البشر ؛ حجاب ماض ، وحجاب مستقبل ، وحجاب مكان ، وحجاب زمان .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ أى : أن علم الله ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل علم الله سرّهم ونجواهم ؛ لأن صفته القيومية ، وأنه علام الغيوب ؛ يعلم غيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا ، وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد .

إذن : ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ تعنى أنه يعلم حتى ما حاولْتَ كتمه وستره ، فقد قال سبحانه :

﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ... ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان]

---

(١) الخبأة والخبء : كل شىء غائب مستور . ويقول تعالى فى سورة النمل : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النمل : ٢٥] . وقال ابن أسلم : هو ما جعل فيهما من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض . (انظر : ابن كثير ٣/٣٦١) .

إذن: فعلم الحق جل جلاله لا يغيب عنه شيء.

ثم ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى صورة أخرى من صور المنافقين وما يفعلونه بالمؤمنين.. فقال جل جلاله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾

واللمز: معناه العيب، ولكن بطريق خفي، كإشارة بالعين أو باليد أو بالفم أو بغير ذلك. إذن: فهناك مجموعة من المنافقين يعيبون في المطوّعين لجمع الزكاة من المؤمنين، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول، ومن يعيب بالفعل، ومن يعيب بالإشارة، والمطوّعون هم الذين يتطوعون بشيء زائد من جنس ما فرض الله.

فالله فرض مثلاً خمس صلوات، وهناك من يصلي خمس صلوات أخرى تطوعاً، وفرض الحق الزكاة اثنين ونصفاً بالمائة، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً، وفرض الحق صيام شهر رمضان، وهناك من يصوم فوق ذلك كل اثنين وخميس. وهذا ما نسميه دخول المؤمن في مقام الإحسان؛ بأن تتقرب [1] إلى الله بما يزيد على ما فرضه الله عليك، من جنس ما فرضه الله.

(١) عن أبي هريرة قال قال ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦).

وأنت إن أديت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن فرائض الإسلام ثم قال : لا أزيد ولا أنقص ، فقال الرسول الكريم : « أفلح إن صدق »[(١)] .

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرضَ يكون لها ملحظان : الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ؛ لأنه كُلِّفَ دون ما يستحق . والملحظ الثانى : هو أن عمل الطاعة قد خفّف على المؤمن فاستراح بها . ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[(٢)] .

إذن : فالمطوِّع هو الذى يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله ؛ وهؤلاء هم المحسنون ؛ الذين قال الحق عنهم فى سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

فالمنهج لا يلزمنى بأن أنام قليلاً من الليل وأقضى بقيته فى الصلاة ، ولم يلزمنى أحد بالاستغفار فى الأسحار[(٣)] . ولم يقل الله سبحانه فى هذه الآية إن فى المال حقاً معلوماً ؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطى بأكثر مما فُرِض . وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يُذَمَّ ويُعَابَ ويُلْمز ؟ أم أنه يستحق أن يُكرَّم ويُقدَّر ؟ ولكنه اختلال موازين المنافقين فى

---

(١) عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . . . حتى ذكر صيام رمضان والزكاة . قال طلحة : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦) ومسلم (١١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الأسحار : جمع سحر . وهو آخر الليل قبيل الصبح .

الحكم على الأشياء. لذلك اعتبروا الحسنة نقيصة ، تماماً كالذى يُخرج ماله للفقراء ، ونجد من يسخر منه بالقول عنه « إنه أبله » ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً ؛ فهو يشيع فائدة ماله فى المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم ؛ لأنهم أنفقوا المال على أنفسهم فَأفْنَوْه ، بينما تصدق هو به فأبقاه.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك فى مكة ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه فى ماله.

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار [١] : أقاسمك مالى . قال : بارك الله لك فى مالك ، دُلَّنى على السوق . وذهب إلى السوق . وبارك الله له فى تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، وقال: يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأبقى لأهلى أربعة ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت ». وحينما مات عبد الرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف فى تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها « تماضر» بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت تماضر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثُمُنَ الثروة ، أى : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً. وكان عبد الرحمن لا يتاجر إلا فى ماله.

---

(١) آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى الأنصارى . انظر : سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٢٥) .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا: ما تصدق عبد الرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله وحده ؟ وجاء عاصم بن عدى ، وكان صاحب بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حمْل من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يُدْعَى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد بتُّ ليلتى أعمل ، وأخذت أجرى صاعين من التمر ، احتفظت لأهلى بصَاع وجئتك بصاع لأتصدق به . قال المنافقون : تصدق بصاعٍ من التمر ، الله ورسوله غنى عن صاعك يا أبا عقيل .

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدق بالكثير وقالوا هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدىّ قالوا : يرائى بالتصدق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله ورسوله غنى عن تمرك ، لقد سخروا ممن أعطى الكثير ، وسخروا ممن أعطى القليل . وكان يجب أن يُمدَح المتصدقون ولا يُسخَر منهم ؛ لأن كلاً منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ؛ قلَّ أو كثُر [(١)] .

ولذلك فمَنْ يسخر من هؤلاء المؤمنين ؛ لابد أن يُلاَمَ على الخُلق السيىء الذى تمثل فى مقابلة السلوك الإيمانى بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان جزاء الساخرين أن سخر الله منهم ، وجعل لهم عذاباً أليماً. والسخرية هى الاستهزاء بفعل شخص ما . وهؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ، فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عمَّنْ فعل الخير ، وهم بسخريتهم لم يستطيعوا إلا الإيذاء المعنوى للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله ؛

(١) عن أبى ذر قال قال لى النبى ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٧٣) .

فهذه أولاً عدالة الجزاء لأنها من جنس ما فعلوا ، ولكن هل سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزاء ؟

هناك جزاء من الله . وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساخر . فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سخروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذى يملكونه ؛ تصدى الله سبحانه وتعالى ليرد عليهم وعلى سخريتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطينا صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين فى إيمانهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذى سيعاقب المنافقين ، فالعقاب سيكون أليماً مهيناً .

وقلنا من قبل : إن الذى يخطىء فى حق غيره ، فهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته . ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً ؛ لأن الذى يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة مَنْ عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن : فالذى ينتقم ويرد على من أخطأ فى حقه ، إنما يأخذ على قدر قُوَّته ، وأما الذى يعفو فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهناك مرتبة أعلى من ذَلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمذنب ، والذى وقع الاعتداء عليه ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى رب الاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته.

ولكن خير من ذلك أن تحس أن الذى أساء إليك فى حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف ؟ إذا دخلت بيتك ووجدت أحد أبنائك قد ضرب أخاه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفك ؟ إن قلبك يكون مع الذى اعتدى عليه وأسىء إليه فتحاول أن ترضيه ، وتأتى إليه بهدية أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل : من آداب دينك - الإسلام - أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك ؛ لأنه

يقدم معروفاً دون أن يقصد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن تعفو عمن أساء إليك . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وإذا سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إياك أن تفهم الفعل من الله كما فهمت فعل البشر ، فحين يقول سبحانه :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ... (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وحين يقول : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... (١٤٢) ﴾ [النساء]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد نرى من البشر من يفعل نفس الفعل ، لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر .

وعلى سبيل المثال : إذا جئنا لقول الله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ المكر هو التغلب بالحيلة على الخصم ؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت تضمر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها ببعض الحشائش والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتى لك بزهرة ، فيسقط فى الحفرة وتتكسر عظامه .

إذن : فأنت قد كدْتَ له كَيْداً خَفِيّاً . والكيد والمكر لا يَدُلان على القوة ؛ إنما يدلان على الضَعف ؛ لأن الشَجاع القوى هو الذى يجاهر بعدائه ؛ لأنه قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذى يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى النساء :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [يوسف]

وما دام كيدهن عظيماً ، فضعفهن عظيم ؛ لأن الضعيف هو من يكيد ، ولكن القوى لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ، وسآتى بك عندما أريد ، لايوجد مكان تهرب فيه منى ، إنما الضعيف إذا تملك من خصمه فإنه يقضي عليه تماماً ؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر .

ولذلك قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فإذَا أصَابَتْ فُرْصة قتلتْ كذلكَ فُرْصَةُ الضُّعفَاء

أما القوى فإنه يقدر ويعفو ؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء.

والأصل فى المكر هو الشجرة الملتفة الأغصان كأنها مجدولة ؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التى تراها من أى فرع نبتت ، فيلتبس عليك الأمر، كذلك المكر تختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة . وأنت تمكر بقدر تفكيرك وعقلك ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجزاء رهيباً ؛ لأن مكرك مفضوح عند الله ، ولكنك لا تعرف شيئاً مما أعدَّه الله لك.

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ فى الأمور العلنية فى المعارك ، ونصره أيضاً فى كل أمر مكروا فيه وبيَّتوه له . وعلى سبيل المثال ، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله ﷺ ليقتلوه فى ليلة الهجرة . أوحى له ربه أن : اخرج ولا تَخْشَ مكرهم ، فخرج ﷺ ليجدهم نياماً وهم واقفون ، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر . ويخرج ﷺ من وسطهم. ويأخذ التراب، ويلقيه عليهم وهو يقول: «شاهت الوجوه»[1] .

وعندما يبتعد ﷺ عن المكان يستيقظون مرة أخرى ، ويتعجبون كيف أفلت منهم . وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النَّيل من رسول الله ﷺ ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفى .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تعرف منه أن سخرية الله جاءت جزاءً لهم على سخريتهم ، والساخر من البشر لا يتجاوز

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (١/ ٣٦٨) ، وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/ ٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/ ٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

فى فعله أكثر من العيب فى غيره. ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا هو التميُّز فى فعل الله عن فعل البشر ، فالذين سخروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه ، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلقه جميعاً ، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم.

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً ، وهناك عذاب عظيم ، وعذاب مهين ، وكلها صفات للعذاب ، فالعذاب هو الإيلام ، ولكن هناك من يفزعه الألم فيصرخ . وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل ؛ لأن كبرياءه يمنعه أن يصرخ ، وفى هذه الحالة يكون عذابه مهيناً ؛ لأنه بكبريائه تحمَّل الألم ؛ فيُهَانُ فى كبريائه وبذلك يكون عذابه مهيناً.

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً ، وهناك عذاب عظيم فى الإيلام وعظيم فى الإهانة . والعذاب العظيم فى الإيلام ؛ أى مبالغ فيه من ناحية الألم . والعذاب العظيم فى الإهانة مبالغ فيه من ناحية الإهانة. والعذاب العظيم فى الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن ، ولذلك يقال عنه «عذاب مقيم» أى : يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله ﷺ مع المنافقين .ومع أن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين ، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ... (٣٠) ﴾ [محمد]

أى : بمجرد نظر رسول الله إليهم ، وكأن على جبهة كل منهم توجد كلمة « منافق » وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ...(٣٠) ﴾ [محمد]

وبمجرد أن ينطقوا يعرفهم ﷺ من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به وبرسالته سليم الصدر [١] ، بدون انقباض عن أحد ، حتى يتجلى نوره على الجميع، ولعل شعاعاً من النور يمسُّ منافقاً ؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم التوبة وحَسُنَ إسلامهم.

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ، كان سيُتوَّج ملكاً على المدينة [٢] . وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج ؛ فوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله ﷺ فقد ضاع منه المُلْك . وكان لعبد الله بن أبيّ ولد أسلم وحَسُن إسلامه اسمه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ. وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ ؛ حين علم أنه ﷺ سيأمر بقتل أبيه ؛ لأنه قال في غزوة من الغزوات [٣] . ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ...(٨)﴾ [المنافقون]

وكان ابن أبيّ يعني بـ « الأعز » المنافقين في المدينة ؛ وبـ « الأذل » المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدَّق على قوله أن الأعز سيُخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (٨) ﴾ [المنافقون]

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يحب هذا ، حتى أنه أوصى أصحابه فقال : « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » الحديث . أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩٦) والترمذي في سننه (٣٨٩٦) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .

(٢) أورد ابن إسحاق في السيرة أن قوم عبد الله بن أبي كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوِّجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

(٣) هي غزوة بني المصطلق ، وقد كانت في شهر شعبان سنة ٦ هجرية . انظر سيرة النبي لابن هشام (٣/ ٣٣٤) .

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد أقر على أن الأعز هو الذى سيخرج الأذل من المدينة ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، إذن : فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون ، وتكون لهم العزة.

ولما علم عبد الله بن عبد الله بن أبىّ أن رسول الله ﷺ سيأمر بقتل والده عبد الله بن أبىّ ، ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله إن كنت ولابد آمراً بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ لأنى أخاف أن يقتله أخ مؤمن فأكرهه ، وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً.[1]

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسول الله ﷺ أن يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك[2] قال الابن : يا رسول الله استغفر لأبى ، أى : اطلب له من الله المغفرة ؛ ولأنه ﷺ يعلم أنه قد أرسل رحمة للعالمين ؛ لذلك طلب المغفرة لعبد الله بن أبىّ . وحينئذ نزلت الآية الكريمة :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٨٠ ﴾

---

(١) أورد ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢) .

(٢) وذلك عندما توفى عبد الله بن أبىّ ،وأراد ابنه من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه ، فاعترض عمر ابن الخطاب ، فأعطاه قميصه ليكفنه فيه وصلى عليه . انظر الحديث الآتى بعد فى البخارى (٤٦٧٠) ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر .

ووقف العلماء في هذه الآية عند شيء اسمه مفهوم المخالفة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حدد مرات الاستغفار غير المقبول بسبعين مرة ، وقد أوضح رسول الله ﷺ الذي أرسلَ رحمة للعالمين ؛ أنه ما دامت مرات الاستغفار قد حُددت بسبعين مرة فَلأزيد على السبعين قليلاً [1] وبذلك غلّب الرسول الكريم جانب الرحمة ، وجانب الإكرام لعبد الله بن عبد الله بن أبى الذى أسلم وحَسُنَ إسلامه .

وكانت السبعة دائماً هى نهاية العدد عند العرب ، وعندما يأتى عدد آخر يكون زائداً ، فالأصل فى العدد هو مكررات الواحد ، أى : أن الواحد أصل العدد ، يضاف له واحد يكون اثنين ، ويضاف لهما واحد فيكون المجموع ثلاثة ، وتستمر الإضافة حتى يصير العدد سبعة ، وإذا تركنا الواحد جانباً لأنه الأصل ، نجد عندنا ثلاثة أعداد زوجية ، هى : اثنان وأربعة وستة ، وثلاثة أعداد فردية هى : ثلاثة وخمسة وسبعة ، ويكون العدد سبعة جامعاً للمفرد والمثنى والجمع .

ولذلك كانوا إذا أرادوا الزيادة على سبعة فلابد أن يأتوا بحرف العطف . ونجد قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ... (٢٢) ﴾ [الكهف]

ولم يقل : ثامنهم كلبهم ، بل جاء بواو العطف ؛ لأن الثمانية كانت من نوع آخر [2] .

---

(١) قال ﷺ : «إنما خيَّرنى الله تعالى فقال : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وسأزيد على سبعين» أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر .

(٢) انظر تفسير القرطبى (٥/ ٤١١٣) فى تفصيل هذه المسألة ، بين من قال : إن نهاية العدد عند العرب هو العدد ٧ . ومنهم من قال : إن هذا تحكم لا دليل عليه . ومنهم من سمى الواو بين السبعة والثمانية : واو الثمانية .

وحين سمع رسول الله ﷺ « السبعين » ؛ قال : نزيد على السبعين ، وبذلك يكون قد احترم قول الله ، واحترم تكريمه لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ ؛ الذى طلب منه أن يستغفر لأبيه . وهنا قالوا: كيف يغيب عن رسول الله ﷺ وهو الذى يقول عن نفسه : « أنا أفصح العرب بيد أنّى من قريش»[1] ، أن عدد السبعين يُقصد به الكثرة مهما بلغت ، والشاعر القديم يقول:

* أسيئى بنَا أوْ أحْسِنى لاَ مَلُومةَ *

أى: افعلى ما تشائين.

فكأن الحق سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ شاء أن يأتى بمضاعفات العدد النهائية وهى السبعون ليحسم الأمر.

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ... ⑥﴾ [المنافقون]

أى : مهما استغفرت بأى عدد من الأعداد فلن يغفر الله لهم.

ونقول: إن الأمر هنا له شقان ؛ الشق الأول: أن يغفر الله. والشق الثانى: هو مجاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ، فهو ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين. وفى استغفار رسول الله ﷺ إنما هو لاحترام طلب الابن ، وأيضاً فالاستغفار من رسول الله كان مجرد مجاملة لعلمه أن الله لن يغفر للمنافقين ؛ لأنه ﷺ يعلم أن استغفاره من أجل منافق لن يقبله الله ، وهناك استغفار تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبيّ. ولكن ألا توجد ذاتية للأب؟

---

(١) قال السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » : « معناه صحيح . ولكن لا أصل له ، كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وأورده أصحاب الغريب ، ولا يعرف له إسناد » . انظر كشف الخفاء (١/ ٢٣٢) والأسرار المرفوعة (ص ٧٠ ، ٧١) .

نقول : إن التاريخ يقول إن عبد الله بن أبيّ نال حظه من الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

وجزاء العمل يُعطى للبعض في الدنيا ، ويُعْطى للبعض فى الآخرة ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

[الشورى]

ولقد حدثنا علماء السيرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبا لهب يُخفَّفُ عنه العذاب يوم الاثنين » ، وأبو لهب نزل فيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ [المسد]

ولماذا يُخفَّف العذاب عن أبى لهب يوم الاثنين ؟ لأن هذا اليوم هو الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وقد سُرَّ أبو لهب بميلاد الرسول الكريم ، فأعتق الجارية التى بشَّرته بميلاد الرسول ؛ ومن هنا يُخفَّف العذابُ عن أبى لهب يوم الاثنين جزاء عمله.

كما أن عبد الله بن أبيّ كان له موقف يحسب له فى واقعة الحديبية حين ذهب المسلمون لأداء العمرة ، وصدهم الكفار عن بيت الله الحرام ؛ وانتهت بصلح الحديبية وهى أول معاهدة بين الإيمان والكفر ، ورغم أن رسول الله ﷺ وصحابته رُدُّوا عن بيت الله الحرام ، فقد فطن أبو بكر لما فى يوم الحديبية من عطاءات الله ؛ من اعتراف كفار قريش بمحمد وبالمسلمين حين وقعوا معاهدة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وتفرغ نبينا الكريم للدعوة فى الجزيرة العربية ، وهو آمن من قريش ، وانتشر الإسلام إلى أن نقضت قريش العهد وتم فتح مكة.

نعود إلى قصة عبد الله بن أبىّ يوم الحديبية : لقد كان الكفار يعلمون أن فى نفسه شيئاً من رسول الله ﷺ ؛ لأن مجىء الرسول ﷺ منع تتويج عبد الله بن أبىّ ملكاً على المدينة . وكانوا يعلمون أيضاً أنه أسلم نفاقاً ؛ فأرادوا أن يُحدثوا ثغرة فى نفوس المسلمين ، فقالوا : محمد وأصحابه لا يدخلون ، ولكننا نسمح لعبد الله بن أبىّ ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبد الله بن أبىّ وقال : إن لى فى رسول الله أسوة حسنة ، لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب رسول الله ﷺ . وهذا موقف يُحمد له .

كذلك كان له موقف آخر فى غزوة بدر، حينما أُسر العباس عم رسول الله ﷺ . وكان العباس طويل القامة وثيابه تمزقت فى المعركة ، فلم يجدوا طويلاً مثله إلا عبد الله بن أبىّ ، فأعطاهم قميصه ليلبسه العباس ، فلم يَنْسَ رسول الله ذلك له .

ومن أجل هذا استغفر له رسول الله ، لكن الحكم الأعلى قد جاء ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فليس المهم فقط هو استغفار رسول الله ؛ لأن هناك ممحصات للذنب، فمن أذنب عليه أن يأتيك أولاً يا رسول الله ، ليستغفر الله ، ثم يسألك أن تستغفر له الله ، حتى يجد الله تواباً رحيماً ، فسبحانه القائل:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء]

فالذى يريد أن يتوب ويستغفر ، لا يستغفر له رسول الله ﷺ ، إلا إذا استغفر مرتكب الذنب أولاً ، فلا بد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول . ولا يستغفر لهم الرسول وهم لا يستغفرون ، وهكذا نعلم أن عبد الله بن أبىّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ، فقد كان عليه أن

يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أن يبحث عمن يطلب له الاستغفار.

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى موضحاً سبب عدم غفرانه ، فيقول:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وحين ينفى الحق سبحانه وتعالى الهداية عن إنسان ، فليس معنى هذا أن يقول الفاسق: الله لم يَهْدنى فماذا أفعل ؟ ويُحمِّل المسألة كلها لله . بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك ؟ لأنك فسقت.

إذن: فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذت طريق الفسق والبعد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ؛ ليست هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر ، فمنهج الله الذى يُبلَّغ للناس كافة ، يريهم طريق الخير ويدلهم عليه . ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخرى التى يعطيها الحق لمن دخل فى رحاب الإيمان وآمن وحَسُنَ عمله ، وتتمثل فى قوله الحق:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

إذن: فكل مَنْ مشى فى طريق الإيمان أعانه الله عليه . وفى المقابل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحقاف]

و كذلك قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [التوبة]

وأيضاً قوله الكريم : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف]

لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون ؛ لأن الله لم يَهْدهم ؛ لأنه سبحانه قد هداهم ودلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق.

واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[فصلت]

فماذا صنعوا فى هدايته لهم : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ، أى : أن الحق سبحانه بيّن لثمود طريق الخير ، ولكنهم اختاروا الضلالة .

إذن : فهداية الدلالة للجميع ، وهداية المعونة للمؤمنين.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فيقول:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والفرح هو السرور من فعل تبتهج النفس به . والمخلَّفون هم الذين أخلفهم نفاقهم ، وتركهم رسول الله ﷺ فى المدينة وذهب إلى الجهاد . بعد أن جاءوه بالمعاذير الكاذبة التى قالوها ، وقد تركهم رسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]

ومن لا يريد أن يجاهد فى سبيل الله إن أخذته معك كرهاً ، يكون ضدك وليس معك . وسيشيع الأكاذيب بين المؤمنين ، ويحاول أن يخيفهم من الحرب ، وإذا بدأ القتال فهو أول من يهرب من المعركة . ويبحث عن مغارة أو حجر يختفى خلفه . إذن : فهو ليس معك ولكنه ضدك ؛ لأنه لن يقاتل معك ، بل ربما أعان عدوك عليك . وفى نفس الوقت هو يضر بالمسلمين ، ويحاول أن يشيع بينهم الرعب بالإشاعات الكاذبة.

ويُبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا فطرة رسول الله الإيمانية بأنه أذن لهؤلاء بعدم الخروج للجهاد مع أن عذرهم كاذب ؛ فجاء قوله : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ والمقعد هو مكان القعود . والقعود رمز للبقاء فى أى مكان . والقيام رمز لبداية ترك المكان إلى مكان آخر ، والذين غزوا مع رسول الله ﷺ قاموا واستعدوا للقتال ، أما الذين تخلفوا فقد قعدوا ولم يقوموا رغبة فى البقاء فى أماكنهم.

ويقول تعالى : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وحين نسمع كلمة ﴿ خِلافَ ﴾ نعرف أن مصدرها خالف خلافاً ؛ ومخالفة ؛ كما تقول : قاتل قتالاً ومقاتلة . وهى إما أن تكون مخالفة فى الرأى ، كأن تقول : فلان فى خلاف مع فلان ، أى : أن لكل منهما رأياً . وإما أن تكون فى السير ، كأن تقوم أنت لتغادر المكان ؛ ويخالفك زميلك أو من معك فيقعد ، أو تقعد أنت ، فيخالفك هو ويمشى.

والخلاف من ناحية الرأى هو عملية قلبية ، والخلاف من ناحية الحركة يشترك فيها القالب أو الجسد ، وهم حين فرحوا بالقعود بعد قيام رسول الله ﷺ والمؤمنين للجهاد ، فهذا دليل على أن مسألة القعود هذه صادفت هوى فى نفوسهم وارتاحوا لها . وبذلك خالفوا شرط الإيمان ؛ لأن الذين يحق لهم أن يتخلفوا عن الجهاد قد حددهم القرآن الكريم فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ (٩١)﴾ [التوبة]

وقوله: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ (٩٢)﴾ [التوبة]

أى : أوضحت لهم أنك لا تملك ما يركبون عليه ، ليصلوا معك إلى موقع القتال [1] . وقد بيّن لنا الحق حال هؤلاء الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ بسبب هذه الأعذار فقال عنهم :

﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

إذن : فهؤلاء الذين تخلفوا بأعذار يملؤهم الحزن ، وتفيض أعينهم بالدمع ؛ لأنهم حُرِموا ثواب الجهاد فى سبيل الله [2] . أما الذين يفرحون بالتخلف عن الجهاد فهم منافقون .

وقوله سبحانه : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ نجد فيه أيضاً أن كلمة ﴿خِلافَ﴾ تستعمل أيضاً بمعنى «بعد» ، أى بعد رسول الله ، فما أن ذهب رسول الله ﷺ للغزوة قعدوا هم بعده ولم يذهبوا . وجلسوا مع الضعيف والمريض وأصحاب الأعذار الحقيقية ، وكذلك الذين لم يجد رسول الله ﷺ لهم دواب ليركبوها ، هؤلاء هم مَنْ تخلفوا . ويبيّن الحق سبحانه سبب تخلف المنافقين فيقول : ﴿ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

أى : أنهم كرهوا أن يقاتلوا ، وكرهوا الجهاد . وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل أرادوا أن يُثبِّطوا المؤمنين ويُكرِّهوهم فى القتال فى سبيل الله ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ فهم لم يكتفوا بموقفهم المخزى ، بل أخذوا فى تحريض المؤمنين على عدم القتال . وقد كانت هذه الغزوة «غزوة تبوك» فى أيام الحر . وكانت المدينة تمتلىء بظلال البساتين وثمارها ، بينما الطريق إلى

---

(١) سيأتى سبب نزول هذه الآيات عند تفسير الآيتين ٩١ ، ٩٢ من سورة التوبة .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم فى الأجر حبسهم المرض » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩١١) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٠٠) وابن ماجه فى سننه (٢٧٦٥) .

الحدود مع الروم طويلة . إذن : فهى غزوة كلها مشقة [1] .

وقال المنافقون للمؤمنين ﴿ لا تَنفِرُوا ﴾ ، والنفور هو كراهية الوجود لشىء ما . ويقال : فلان نافر من فلان ، أى : يكره وجوده معه فى مكان واحد . ويقال : فلان بينه وبين فلان نفور ، أى : يكرهان وجودهما فى مكان واحد . والذى يخرج للحرب كأنه نفر من المكان الذى يجلس فيه ذاهباً إلى مكان القتال . ويكون القتال والتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله أحب إليه من القعود والراحة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أى : أنهم يريدون أن يعطوا لأنفسهم عذراً لعدم الخروج للجهاد ؛ لأن الجو حار وفيه مشقة . ولكنهم أغبياء ؛ لأنهم لو خافوا من الحر ومشقته ؛ وجلسوا فى الظل ومتعته ، لأعطوا لأنفسهم متعة زمنها قصير ليدخلوا إلى مشقة زمانها طويل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فإن كانوا قد اعتقدوا أنهم بهروبهم من الحر قد هربوا من مشقة ، فإن مشقة نار جهنم والخلود فيها أكبر بكثير . والإنسان إن بُشِّر بأشياء تسره عاماً أو أعواماً ، ثم يأتى بعدها أشياء تسوؤه وتعذبه ، فهو بمعرفته بما هو قادم يعانى من الألم ولا يستطيع الاستمتاع بالحاضر ؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتحمل ؛ ليُؤمِّن مستقبله . ولذلك تجد من يعمل ليلاً ونهاراً وهو سعيد ، فإذا سألته كيف تتحمل هذا الشقاء ؟ يقول: لأؤمن مستقبلى . إذن : فسرور عام أو أعوام تفسده أيام أو أعوام قادمة

(١) وقد سميت أيضاً بغزوة العسرة ، وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩٦) « قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم منها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم».
ولكن المنافقين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ابتداء .

فيها سوء وعذاب ، فماذا عن خلودهم فى النار ؟

ولكن هل قالوا : ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فى خواطرهم دون أن ينطقوا بهما ، أم قالوها لبعضهم البعض سراً ؟ ومن الذى أعلم رسول الله ﷺ ما قالوه ؟ نقول : قد يكون ذلك هو ما دار فى خواطرهم . وشاء الله أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى نفوسهم . وشاء أن يفضح ما فى سرائرهم ، لعل هذا يُدْخل الخوف فى قلوبهم ، من أنه سبحانه مطلع على كل شىء ، فيؤمنوا خوفاً من عذاب النار .

ومثال هذا أن الحق حين أراد أن يمنع المشركين من حج بيته الحرام قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... (٢٨) ﴾ [التوبة]

وكان المشركون حين يذهبون إلى الحج ينعشون اقتصاد مكة ، وكان الخير يأتى من كل مكان إلى مكة فى موسم الحج ، بل إنهم كانوا يقولون : إياكم أن تطوفوا بالبيت فى ثياب عصيتم الله فيها ، وكأن التقوى تملأ نفوسهم ! وحقيقة الأمر أنهم كانوا بعيدين عن التقوى لأنهم كانوا يعبدون الأوثان . وكانوا يقولون ذلك حتى يضطر الحجاج أن يخلعوا ثيابهم ويشتروا ثياباً جديدة ليطوفوا بها ، ومن لا يملك المال يطوف عارياً .

إذن : فقد كان الحج موسماً اقتصادياً مزدهراً لأهل مكة ؛ يربحون خلاله ما يكفى معيشتهم طوال العام ، فلما جاء البلاغ من الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ . فالخاطر الذى يأتى فى النفس البشرية ؛ وكيف سنعيش ؟ . هذا هو أول خاطر يأتى على البال ؛ لأنه سؤال عن مقومات الحياة ، والذى خلقهم عليم بما يدور فى خواطرهم . وإن لم يجرِ على ألسنتهم ، حينئذ جاء قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (٢٨) ﴾ [التوبة]

إذن : فالله سبحانه وتعالى قد علم ما يدور فى خواطرهم ، فرد عليه قبل أن ينطقوه .

كذلك قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ والفقه هو الفهم الدقيق . فأنت حين تعرف شيئاً بسطحياته تكون قد عرفته، ولكنك إن عرفته بكل معطياته الخلفية تكون قد فقهته . وأنت إذا ذهبت للجهاد فى الحر قد تتعب ، ولكن إذا قعدت عن الجهاد سوف تكون عقوبتك أكبر وتعبك أشد .

إذن : فعلمك بشيء وهو الحر الذى ستواجهه إن خرجت للجهاد ، يجب ألا ينسيك ما غاب عنك ، وهو أن نكوص الإنسان عن الجهاد يدخله ناراً أشد حرارة ، يخلد فيها . ومعنى ذلك أنه لم يفقه ؛ لأنه علم شيئاً وغاب عنه أشياء .

ومن هذا المنطق القرآنى ، رد الإمام على كرم الله وجهه على القوم حينما دعاهم إلى الجهاد ضد الخوارج فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه سيم الخسف » .

ثم يقول بعد ذلك : « إن قلت لكم : اغزوهم فى الشتاء ، قلتم : هذا أوان قر وصر . . أى برد شديد . وإن قلت لكم : اغزوهم فى الصيف ، قلتم : أنظرنا - أى أمهلنا - حتى ينصرف الحر عنا ، فإذا كنتم فى البرد والحر تفرون ، فأنتم والله فى النار . يا أشباه الرجال ولا رجال »[1]

---

(١)من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار ، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف » ثم قال : « فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم : حمارة القيظ ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير فى البرد قلتم : أمهلنا ينسلخ عنا القر ، كل ذا فراراً من الحر والقر . فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال » انظر خطبته كاملة فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيق : عادل أبو المعاطى . نشر دار الروضة - القاهرة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أى : أنهم لو كانوا قد فرحوا وابتهجوا بأنهم لم يجاهدوا فى الحر ، فهم سوف يندمون كثيراً على ذلك ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

والضحك هو انفعال [1] غريزى فطرى ، يحدث للإنسان عندما يقابل شيئاً يسره ، أو أحداثاً يجد فيها مفارقة لم يكن يتوقعها . أما البكاء فهو انفعال غريزى أيضاً تجاه أحداث تدخل الحزن أو الشجن ، وهو تذكر ما يحزن بالنسبة للإنسان ، وكلتاهما ظاهرتان فطريتان ، أى أنهما تحدثان بفطرة بشرية واحدة بالنسبة للناس جميعاً ، ولا دخل فيها للجنس أو اللون أو البيئة ، فلا يوجد بكاء روسى وبكاء أمريكى ، أو ضحك روسى وضحك إنجليزى ، أو ضحك شرقى وضحك غربى . ذلك أن الضحك والبكاء انفعال طبيعى موحد لا تؤثر فيه البيئة ولا الثقافة ولا الجنس . وقد أسنده الحق تبارك وتعالى لنفسه . فكما قلنا : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يحيى ، وهو سبحانه وحده الذى يميت . فهو سبحانه وحده الذى يضحك ، وهو سبحانه وحده الذى يبكى . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النجم]

---

(١) هناك فرق بين الانفعال والافتعال ؛ لأن الانفعال فطرة والافتعال صنعة ، فالانفعال الذى يظهر على وجه الإنسان سواء كان سروراً أو حزناً أو اهتماماً بشىء هو أمر غريزى فطره الله عليه استجابة لمؤثرات خارجية ، أما الافتعال فهو اصطناع الانفعال كأن يتكلف السرور فى مقام لا يقتضى هذا .

ولذلك فالضحك والبكاء يأتيان بلا مقدمات ، لا أقول لنفسى : سأضحك الآن فأضحك ، ولا أقول : سأبكى الآن فأبكى ؛ لأن هذا انفعال غريزى لا دخل للإرادة ولا للاختيار فيه . ولكننا أحياناً نلجأ إلى التضاحك أو إلى التباكى وهو مجرد ادعاء بلا حقيقة . ويكون ظاهراً فيه الافتعال . فحين يروى لك إنسان نكتة سخيفة ، والمفروض أنه قالها لتضحك ، ولكنها لا تضحكك ، وفى نفس الوقت أنت تريد أن تجامله فتفتعل الضحك ، أى تضحك بافتعال . وكذلك البكاء فيه افتعال أيضاً مثل بكاء النادبة التى تجلس وسط أهل الميت وتبكى . وقد تضع بعض نقط الجلسرين فى عينيها لتفتعل الدموع ، وهذا كله افتعال . أما الضحك والبكاء الحقيقى ، فأمران بالفطرة يملكهما الله سبحانه وتعالى وحده .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ جاء بعد قوله : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أى : أنهم فرحوا عندما بَقَوْا هم فى المدينة ، وخرج المؤمنون للجهاد . جلسوا فى حدائق المدينة وهم فرحون فى راحة وسرور يضحكون ؛ لأنهم يعتقدون أنهم قد فازوا بعدم اشتراكهم فى الجهاد . ولكن هذا الضحك هو لفترة قليلة . وسيأتى بعدها بكاء وندم لفترة طويلة وأبدية ، عندما يدخلون جهنم والعياذ بالله .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ ولم يقل : سيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً ، لماذا ؟

نقول: عندما يُسند الفعل إلى المخلوق الذى يعيش فى عالم الأغيار ، والمختار فى عدد من أفعاله ، يُحتمل أن يحدث أو يجوز ألا يحدث . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ أى: أمر بالضحك، ثم يجىء فى البكاء ويقول: ﴿ وَلْيَبْكُوا ﴾ أى: ابكوا. والأمر بالضحك والبكاء هو أمر اختيارى من الله سبحانه وتعالى ، تجوز فيه الطاعة وتجوز فيه المعصية ؟

إذا كان كذلك ، فهل سيطيع المنافقون أمراً اختيارياً لله ؟ ونقول : إن ذلك أمر غير اختيارى ؛ لأن الحق سبحانه هو وحده الذى يضع فى النفس البشرية انفعال الضحك أو انفعال البكاء للأحداث . وكما بيَّنا فإن الإنسان لا يستطيع الانفعال بالضحك أو البكاء .

والحق حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً ﴾ معناها : أن انفعال الضحك قضاء عليهم لابد أن يحدث . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ فلا بد أن يبكوا ؛ لأن انفعال البكاء مكتوب عليهم من الله ، وكما يقولون : إن الذى يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، وكذلك الذى يبكى أخيراً يبكى كثيراً .

إذن : فالأمور كلها مرهونة بالخاتمة . فقد يأتى للإنسان حادث يسرّه ، ثم تأتيه ساعة بؤس تمحو هذا السرور كله ، والعكس صحيح . وإذا كان هؤلاء المنافقون قد ضحكوا قليلاً فى الدنيا . فعمر كل منهم فى الدنيا قليل ؛ لأنه حتى وإن عاش فى الدنيا ضاحكاً طوال عمره فكم سيضحك ؟ أربعين سنة ؟ خمسين سنة ؟

إن كلاً منا له فى الدنيا مدة محدودة ، فأنت إذا نسبت الحدث إلى الدنيا على إطلاقها فهو قليل . وإذا نسبته إلى عمرك فى الدنيا فهو أقل القليل ، ثم تأتى الآخرة بالخلود الطويل الذى لا ينتهى ، ويكون بكاء المنافق فيه طويلاً طويلاً .

ولذلك فلا بد لكل إنسان أن يضع مع المعصية عقوبتها ، ومع الطاعة ثوابها ؛ لأن الإنسان قد يرتكب المعصية لإرضاء شهوات نفسه ، وساعة ارتكاب المعصية فهو لا يستحضر العقوبة عليها ، ولو أنه استحضر العقوبة لامتنع عن المعصية . فالسارق لو استحضر ساعة قيامه بالسرقة ، أنه قد

يضبط ، وقد يحاكم وتقطع يده ، لو تأكد من هذا فلن يسرق أبداً . ولكنه يقوم بالسرقة لأنه يعتقد أنه سيفلت من العقاب . وما من لص خطط لسرقة وفى باله أنه سيضبط ، بل يكون متأكداً أنه سيسرق ويفلت.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[1]

لأنه ساعة يزنى لو تخيل أو تأكد أنه سيُلْقى فى النار جزاء ما فعل ، فلن يقدم على الزنا أبداً . وكذلك شارب الخمر لا يمكن أن يضع الكأس فى فمه . إذا تخيل النار وهو يُعذَّب فيها . ولكن الغفلة عن الإيمان تحدث لحظة ارتكاب المعصية ؛ لأن الإيمان يقتضى أن تستحضر العقوبة ساعة تُقدِم على المعصية ، وأن تعلم يقيناً أن كل ما تفعله ستُحاسب عليه فى الآخرة ، وسيكون هناك جزاء.

فإذا ضحكت من مطلوبات الإيمان فلابد أن تبكى فى الآخرة . فإن فرحت - مثلاً - بترك الصلاة أو الزكاة ، واعتقدت أنك قد غنمت فى الدنيا ، فلا بد أن تندم ويصيبك الغمُّ فى الآخرة . وإذا تنعمت بمال حرام فلا بد أن تُعذَّب به فى الآخرة . والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين]

هكذا يعطينا الله عدة صور من السخرية التى يتعرض لها المؤمنون فى الدنيا ، وأولى هذه الصور هى ضحك المنافقين والكفار من المؤمنين ، كأن يقول أحدهم لإنسان مؤمن يقوم إلى الصلاة : خذنا على جناحك فى الآخرة . ثم بعد ذلك يأتى الغمز واللمز ، ثم إذا ذهب المنافق إلى أهله

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ومسلم فى صحيحه (٥٧) .

أخذ يسخر من الطائعين ويقول : لقد فعلت كذا وكذا لإنسان متدين. وسخرت منه ولم يستطع أن يرد . ويشعر بالسرور وهو يحكى القصة فرحاً بما عمل . وينسى أنه قد ارتكب ثلاثة جرائم : جريمة العمل ، وجريمة الفرح بالعمل ، وجريمة الإخبار بالعمل . فلو أنه سخر من المؤمن ، ثم ندم بعد ذلك ، ربما كانت عقوبته هيِّنة . ولكن ما دام قد فرح بذلك تكون له عقوبة أكبر ، فإذا انقلب إلى أهله يروى لهم ما حدث ، وهو فخور مسرور تكون له عقوبة ثالثة .

وليتهم توقفوا عند ذلك بل اتهموا المؤمنين بالضلال ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ(٣٣) ﴾ [المطففين]

أى : أنهم زادوا على كل هذا باتهام المؤمنين بالضلال . هذا ما صنعوه فى الدنيا . وهى فانية وعمرها قليل . ثم يأتى سبحانه وتعالى بالمقابل فى الآخرة ؛ فيقول : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فكما ضحك الكفار من المؤمنين فى الدنيا ؛ سيضحك المؤمنون من الكفار فى الآخرة ، وسيجلس المؤمنون على الأرائك فى الجنة وهم ينظرون إلى الكفار وهم يُعذَّبون فى النار ، أى : أن الله جزاهم بمثل عملهم مع الفارق بين قدراتهم المحدودة وقدراته - سبحانه - التى لا حدود لها.

ولم يقل الحق سبحانه وتعالى : « سيضحكون » ككلام خبرى ، يجوز أن يحدث أو لا يحدث ، بل جاء به مُؤكداً . وقوله هنا فى المنافقين ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ . يعنى : أن الضحك لابد أن يحدث ؛ لأن هذا كلام من الله سبحانه وتعالى.

فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يعطينا العلة أو السبب فى أن ضحكهم سيكون قليلاً ، وبكاءهم سيكون كثيراً ؛ لأن هذا جزاء ما فعلوه فى الدنيا . لقد فرحوا بالفرار من الجهاد . وسُرّوا بالراحة فى المدينة، فلابد أن يُلاَقوا فى الآخرة جزاءهم عن هذا العمل ، كما سَيُثاب المؤمنون على ذهابهم للجهاد فى الحرِّ.

إذن : فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل أعطاهم جزاء ما عملوه . كما قال : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وكلمة ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ هنا لها ملحظ لا بد أن نُبيِّنه ، فقد كان من الممكن أن يُقال "جزاء ما كانوا يعملون" ، أو "جزاء ما كانوا يفعلون" ، فلماذا جاء الحق بـ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ، وما الفرق بينها وبين "ما يفعلون" و "ما يعملون" ؟

نعلم أن لكل جارحة من جوارح الإنسان مجالَ عمل ؛ فالأذن تسمع ، والعين ترى ، واليد تمسك ، والقدم تمشى ، والأنف يشُمُّ ، والأنامل تلمس . إذن : فكل عضو له مهمة. فإن كانت المهمة هى النطق باللسان نسميها القول . وإن كانت مهمة من مهام باقى الجوارح عدا اللسان نسميها الفعل . فاللسان وحده أخذ القول ، وكل الجوارح أخذت الفعل . والقول والفعل معاً نسميهما عملاً.

فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : "يفعلون" يكون ذلك مقابل يقولون ؛ لأن الإنسان قد يقول بلسانه ولا يفعل بجوارحه . وتوضح ذلك الآية الكريمة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

ولكن إذا اتحد القول والفعل يكون هناك عمل . وكل شئ لا يتسق منطقياً مع قيم المنهج يكون فيه افتعال ، فالكسب عمل ، والاكتساب افتعال الكسب ؛ لأن الكسب عمل طبيعى ، والاكتساب هو افتعال الكسب . وسبحانه يقول :

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...(٢٨٦)﴾ [البقرة]

لأن الاكتساب بالحرام فيه افتعال يتعب النفس ، ولا يجعلها منسجمة مع جوارحها ، فالرجل مع زوجته فى البيت مستقر الجوارح لا يخشى شيئاً. لكنه مع زوجة غيره يهيج جوارحه ؛ فيقفل النوافذ ويُطفىء الأنوار . وإنْ دقَّ جرس الباب يصاب بالذعر والهلع ؛ لأن ملكات النفس ليست منسجمة مع العمل.

أما إذا اعتادت النفس الإثم مثل من اعتاد الإجرام ، فلا يهيجها الحرام . وفى هذه الحالة تنقلب عملية الاكتساب إلى كسب ، وتعتاد النفس على المعصية وعلى الإثم ، ويصبح جزاؤها عند الله أليماً وعذابها عظيماً.

ويقول الحق سبحانه فى هذه الآية : ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقال : " جزاء بما كانوا يكتسبون " لأن هذه عملية فيها إثم وفيها معصية ، فلا بد أن يكون فيها افتعال ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن هؤلاء المنافقين قد اعتادوا المعصية ، وعاشوا فى الكفر، فأصبحت العملية سهلة بالنسبة لهم ، ولا تحتاج منهم أى افتعال .

واقرأ قول الحق : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ...(٣٨)﴾ [المائدة]

والسرقة ليست أمراً طبيعياً ، لذلك يقوم بها السارق خفية ويُبيِّت لها ويفتعل ؛ ولذلك كان من المنطقى أن يقال "اكتسبوا" لكن شاء الحق أن نعرف أن السرقة قد أصبحت فى دم هؤلاء ، ومن كثرة ما ارتكبوها فهى بالنسبة لهم عملية آلية سهلة . وقد وضع التشريع لها نطاقاً وهو ربع دينار مثلاً[1] . والذى يسرق دون هذا النطاق لا يُطبق عليه حَدُّ قطع اليد . لماذا ؟ لأن ربع الدينار فى ذلك الوقت كان يكفى لقوت أسرة متوسطة العدد لمدة

(١)عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يقطع السارق فى ربع دينار فصاعداً » أخرجه مسلم (١٦٨٤) وأحمد (٦/ ٣٦) والترمذى (١٤٤٥) وقال : حسن صحيح .

يوم واحد . فإذا سرق أى إنسان ما يكفى قوت أسرة لمدة يوم واحد ، يقال : ربما فعلها لأن أسرته لا تجد ما تأكله ، فإذا أخذ أكثر من الضرورة ، يكون قد أخذ أكثر مما يحتاج إليه ، وتكون السرقة قد حدثت ويُقام عليه الحد [1] .

ونحن نعلم أن العقل البشرى وظيفته الاختيار بين البدائل ، ومفروض أن يُقَدِّر الإنسان العقوبة ويستحضرها ساعة وقوع المعصية ، وأن يستحضر الثواب ساعة القيام بالطاعات ترغيباً للإنسان فى الطاعة . ونحن نأتى للطالب المجتهد ونطلب منه أن يُخفِّف من المذاكرة ، لكنه لا يترك الكتاب لأنه استحضر النجاح ؛ وما سيحدث بعد النجاح من دخوله الكلية التى يريدها ، أو بعد تخرجه من الجامعة إن كان قد وصل إلى مرحلة التخرج ، وكذلك استحضر نظرة أهله وأساتذته وزملائه إليه ، وهو يستحضر كل ذلك ؛ مما يدفعه لقضاء ساعات طويلة فى المذاكرة دون أن يشعر بالتعب .

إذن : فالذى يُحبِّبك فى الطاعة هو استحضار لذة الثواب القادم . والذى يُكرِّهك فى المعصية هو استحضارألم العقاب الذى لابد أن يحدث .

ولكن هؤلاء المنافقين والكفار قد اعتادوا المعصية والكفر ؛ حتى أصبح سلوكهم المخالف للإيمان إنما يحدث منهم دون أن يستحضروا عقوبة المعصية ، فهم يرتكبون المعاصى وهم فرحون . ولو قال الحق كلمة : "يقولون" لكان كلامهم بغير فعل . ولو قال : "يفعلون" لكان فعلاً

---

(١) السرقة نوعان : نوع يوجب التعزير ، ونوع يوجب الحد . فالذى يوجب التعزير هى التى لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد ، مثل سارق الثمار على الشجر ، أما التى يجب فيها الحد فهى التى توفر فيها ثلاثة شروط :
١- أخذ مال الغير بما لا يقل عن ربع دينار .
٢- أن يكون هذا المال فى حرز كخزينة أو بيت أو مسجد .
٣- أن تتم السرقة على هيئة الاختفاء والاستتار . وبهذا لا يعتبر المنتهب أو المختلس أو الخائن (أى : النصاب) سارقاً يجب فيه قطع اليد . وإذا ثبتت جريمة السرقة بكل هذه الشروط فتقطع يد السارق اليمنى من مفصل الكف ، فإذا سرق ثانياً تقطع رجله . انظر تفاصيل إقامة هذا الحد فى فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٤٦١ - ٤٧٦) .

لا يشترك فيه اللسان بالقول . ولو قال "يعملون" لكان فعلاً وقولاً فقط . ولو قال " يكتسبون" لفهمنا أن المعصية تثير انفعالاً وتهيجاً فى داخلهم ؛ لأنهم لم يعتادوها . ولكن جاء قوله تعالى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ليعطينا المعنى الصحيح فى أنهم قد اعتادوا المعصية ؛ حتى أصبحوا يفعلونها بلا افتعال .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى ليُرينا حكمه فى الدنيا على هؤلاء المنافقين الذين فرحوا بتخلفهم عن الجهاد فى سبيل الله ، فيقول :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ : عندما تنتهى الغزوة وتعود إلى المدينة ، فهناك حكم لابد أن تطبقه مع هؤلاء المنافقين ، الذين تخلفوا وفرحوا بعدم الجهاد .

وقوله : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ﴾ كلمة "رجع"من الأفعال ، وكل فعل يجب أن يكون له فاعل ومفعول ، فلا يمكن أن تقول : "ضرب محمد" ثم تسكت؛ لأنه عليك أن تبين من المضروب . ولا يمكن أن تقول " قطف محمد " ، بل لابد أن تقول ماذا قطف ؟ وهكذا نحتاج إلى مفعول يقع عليه الفعل . ولكن هناك أفعالاً لا تحتاج إلى مفعول . كأن تقول : "جلس فلان" والفعل الذى يحتاج إلى مفعول اسمه « فعل مُتَعَدٍّ » أما الفعل الذى لا يحتاج إلى مفعول فاسمه « فعل لازم » . إذن : فهناك فعل متعد وفعل لازم.

وهنا فى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ والحق سبحانه هو الفاعل ، والكاف فى ﴿ رَّجَعَكَ ﴾ هى المفعول به. ولكن لأنها ضمير ملتصق بالفعل يتقدم المفعول على الفاعل . إذن : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ رجع فعل متعد ، والفاعل لفظ الجلالة . والمفعول هو الضمير العائد على رسول الله ﷺ ؛ أى : أن الله رجعك يا محمد.

ولكن هناك آية فى القرآن الكريم تقول :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ... ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

فى الآية التى نحن بصددها ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ الفاعل هو الله ، أما فى قوله الحق : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ نجد أن موسى هو الفاعل ولا يوجد مفعول به ، إذن فـ" رجع " يمكن أن يكون فعلاً لازماً[1] ، كأن تقول: "رجع محمد من الغزوة" . ويمكن أن يكون فعلاً متعدياً كقوله سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ أى: يا محمد من الغزوة . إذن : فرجع تستعمل لازمة وتستعمل متعدية . ولكن فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ؛ عندما ألقته أمه فى البحر والتقطه آل فرعون ؛ ومشت أخته تتبعه ؛ ثم حرَّم الله عليه المراضع ليعيده إلى أمه كى يزيل حزنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه]

ما هو الفرق بين الآيات الثلاث ؟ ولماذا استعمل فعل « رجع » لازماً ومتعدياً ؟

---

(١) الفعل المتعدى هو الذى ينصب بنفسه مفعولاً به أو اثنين أو ثلاثة دون أن يحتاج إلى مساعدة حرف جر أو غيره . أما اللازم فهو الذى لا ينصب بنفسه مفعولاً به أو أكثر ، وإنما ينصبه بمعونة حرف جر . وهناك نوع يصح أن يكون النوعين معاً مثل : شكر ، ونصح . وفعل رجع المذكور فى الآية من هذا النوع الأخير .

نقول : إنه في قول الحق سبحانه وتعالى :﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ هنا هيىء لموسى من ذاته أن يرجع ، أى : أنه قرار اختيارى من موسى ، أما قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ ﴾ ، فموسى فى هذه المرحلة ؛ كان طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يرجع بذاته ، ولا بد أن يهيىء له الحق طريقة لإرجاعه ، أى : من يحمله ويرجعه . أما قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ فقد كان من الممكن أن يقال : " وإذا رجع إلى طائفة منهم " مثلما قال فى موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ ولكن الحق استخدم ﴿ رَّجَعَكَ ﴾ ليدل على أن زمام محمد عليه الصلاة والسلام فى الفعل والترك ليس بيده .

وكأنه سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تنسبوا الأحداث إلى بشرية محمد ﷺ ، فإن محمداً إذا ذهب إلى مكان فالله هو الذى أذهبه إليه . وإن عاد من مكان فهو لا يعود إلا إذا أرجعه الله منه . كما كانت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بإذن من الله ، فقبل أن يأذن الله له بالهجرة ، لم يكن رسول الله ﷺ ببشريته يستطيع أن يهاجر . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يريد أن نعرف دائماً : أن ذهاب محمد ﷺ ورجوعه من أى مكان ، ليس ببشرية رسول الله ﷺ ، بل بإرادة الحق سبحانه .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ وكان من الممكن أن يقول " فإن رجعك الله إليهم " أو : " فإن رجعك الله إلى المدينة " ؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الحديث هنا عن الطائفة التى حدثت منها المخالفة ، فهناك من بقوا فى المدينة رغماً عنهم ولم يكن لديهم ما ينفقونه أو لم يكن لدى رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه . وكذلك المرضى وكبار السن الذين لا يستطيعون قتالاً . وهؤلاء حَسُنَ إسلامهم وقَبِل الله ورسوله أعذارهم .

ولكن الحق سبحانه يتحدث هنا عن الطائفة التى تخلفت عن الجهاد وهى قادرة ، والتى امتنعت عن الخروج ، وهى تملك المال والسلاح وكل مقومات الجهاد ، هذه الطائفة هى التى فرحت بالتخلف عن القتال . أما الطوائف الأخرى ؛ فكانت عيونها تفيض بالدمع من الحزن على عدم اشتراكهم فى الجهاد .

إذن : فالحق يقصد هنا طائفة المنافقين الذين استمروا على نفاقهم ، فمن تاب منهم قبل نزول هذه الآية قبلت توبته ، ومن مات منهم قبل نزول هذه الآية فإنما حسابه على الله . وبقيت طائفة المنافقين الذين فرحوا وضحكوا عندما بقوا فى المدينة ، وكان عقاب الله لهم بأن مسح أسماءهم من ديوان المجاهدين فى سبيل الله ، ومنعهم الثواب الكبير للجهاد .

ويقول سبحانه : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ فكيف استأذنوا أول الأمر للقعود وتحايلوا عليه ، وكيف يستأذنون الآن للخروج ؟ نقول : إنهم عندما رأوا المؤمنين وقد عادوا بالغنائم ، كان ذلك حسرة فى قلوبهم ؛ لأنهم أهل دنيا . وحينئذ طلبوا الخروج حتى يحصلوا على الغنائم والمغانم الدنيوية . ولكن الحق سبحانه وتعالى طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام ألا يأذن لهم بالجهاد مع المسلمين ، فقال: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ أى : أن أسماءكم قد شطبت من ديوان المجاهدين والغزاة ، ولماذا قرر الحق سبحانه وتعالى ألا يعطيهم شرف الجهاد وثواب الخروج مع رسول الله ﷺ ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

ولكن الحق يقول أيضاً هنا : ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ وهذا أمر لا يحدث إلا فى الغزوات ، فما هو موقفهم إذا حدث اعتداء على المدينة ؟ ويبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألا يقبل منهم قتالاً حتى فى هذه الحالة ، فطلب

من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم بذلك ، ويقول لهم : ﴿ وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ إذن : فقد حسمت المسألة ، فلا هم مسموح لهم بالخروج فى الغزوات ، ولا بقتال الأعداء إذا هاجموا المدينة ؛ لأنهم أُسقطوا تماماً من ديوان المجاهدين ، ولا جهاد لهم داخل المدينة أو خارجها ؛ ما داموا قد فرحوا بالقعود ، ورفضوا أن يشتركوا فى الجهاد وهم قادرون ؛ لذلك حكم الحق أن يبقوا مع الخالفين .

وما معنى خالفين ؟ المادة هى " خاء" و"لام" و"فاء" ، فيها "خلف" و"خلاف" و"خلوف" وغير ذلك . و"خالفين" إما أن يكونوا قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، وإما أن يكونوا خالفوا الرسول بأنهم رفضوا الخروج ، وإما أن يكونوا خلوفاً . ويقول ﷺ فى حديث عن الصيام : « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك »[1]

والخلوف هو تغير الرائحة ، وتغير الرائحة يدل على فساد الشيء ، فكأنهم أصبحوا فاسدين . ومخالفين تعنى فاسدين لأنهم قد خالفوا أمر رسول الله ﷺ ، وتعنى أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، ولم يقتصر جزاء هؤلاء المتخلفين فقط أن تشطب أسماؤهم من سجلات المجاهدين ، بل هناك جزاء آخر يبينه قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

وصلاة رسول الله ﷺ على ميت هى رحمة له ، وغفران لذنوبه ؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة ، وأن تطلب له من الله أن

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ومسلم فى صحيحه (١٦٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

يُلحقَه بالصالحين . وإذا قال رسول الله ﷺ هذا الكلام ، ودعا بهذا الدعَاء ، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله . وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان فى أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ [(١)] .

وقول الحق لرسوله : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ معناها نهى عن فعل لم يأت زمنه . وقوله تعالى : ﴿وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ أى : لا تذهب إلى قبره وتطلب له الرحمة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ مع أن النهى عن المستقبل ، أى : من مات بعد نزول هذه الآيات ، فلماذا لم يقل الحق "يمت" أو "يموتوا" واستخدم الفعل الماضى ﴿مَّاتَ ﴾ ؟ . ونقول : لأن الموت عملية حتمية مقررة عند الله ومُقدَّرة ، فموعد الموت مكتوب ومعروف عند الله ، وهو شىء لا يقرره الله مستقبلاً ، بمعنى أن موعد الموت لا يحدد قبل حدوثه بليلة أو ليلتين ، ولكن الموعد قد حُدِّد وانتهى الأمر .

أما قوله الحق : ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ فهو يدلنا على أن هذا الأمر ليس خاصّاً بسبب ، ولكنه عموم حكم ، فهناك : سبب للحكم ، وهناك عموم حكم . وسبب الحكم مثل الآية التى نزلت فى زعيم المنافقين عبد الله ابن أبىّ ، فعندما مرض عبد الله بن أبىّ مرض الموت ؛ جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، وطلب منه أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه،فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ويستغفر له [(٢)] . وذهب رسول الله ﷺ مجاملة لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ الذى أسلم وحَسُن إسلامه .

---

(١)حياة البرزخ هى حياة بين الموت والبعث ، ومنه قوله عز وجل﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] والبرزخ فى كلام العرب : الحاجز بين الشيئين . ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣] .

(٢)سبق تخريجه عند تفسير الآية: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ...﴾ [التوبة: ٨٠] .

وعندما وقف رسول الله ﷺ بجوار عبد الله بن أبىّ ، قال له : « أهلكك حب يهود »[1] ؛ لأن ابن أُبىّ كان يجامل اليهود ويعاونهم ، ونفاقه فى الإسلام كان مجاملة لليهود وكان يُظهر أمام اليهود الكفر ، ويُظهر أمام المسلمين الإيمان . وهنا قال ابن أبىّ : يا رسول الله ، إنما أرسلتَ إليك لتستغفر لى ولم أرسل إليك لتؤنبنى .

فاستغفر له الرسول ﷺ ، وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ... (٨٠) ﴾ [التوبة]

وطلب عبد الله بن أبىّ من رسول الله ﷺ أن يهبه ثوبه لكى يُكفَّن به ، فلما ذهب رسول الله ﷺ إلى بيته ، أرسل له الثوب الأعلى . وقد كان ﷺ يلبس ثوبين ؛ ثوباً يلى جسده وثوباً فوقه . فلما جاء ابن أبىّ الثوب الأعلى ، قال : أنا أريد الثوب الذى لامس جسد رسول الله ﷺ .

انظر إلى زعيم المنافقين والذى كان يملؤه الكبرياء فى حياته ، كبرياء على المؤمنين ؛ ها هو ذا يطلب كل هذه الطلبات ساعة احتضاره . فماذا صنع رسول الله ﷺ ؟ أرسل له القميص الذى لامس جسده الشريف . وكان كل هذا إرضاء لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ .

ولم يتقبل هذا الفعل عدد من المؤمنين ولم يشعروا بالارتياح ، فعندما مات ابن أبىّ جاء ابنه عبد الله ، وطلب من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه.

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٧٩) من مرسل قتادة . وقد أورده ابن حجر فى الفتح (٨/ ٣٣٤) وعزاه لعبد الرزاق والطبرى عن قتادة . قال ابن حجر : هذا مرسل مع ثقة رجاله ، ويعضده ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس بنحوه .

وعندما هَمَّ النبى أن يصلى عليه ، وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه بين الرسول وبين القبلة [1] . وهنا حسم الحق سبحانه وتعالى الموقف ونزلت الآية الكريمة : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ فقد أراد رسول الله ﷺ أن يصلى على ابن أُبىّ ؛ لأنه رسول رحمة للعالمين . ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقف بينه وبين القبلة حتى لا يصلى ، فأنزل الحق قوله : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ وقالوا : تلك من الأمور التى وافق الوحى فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومن المسائل التى وافق الوحى فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه تغيير القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام . فقد كان عمر يرجوها ، وكان يقول لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلّى [2]

ومن هذه الأمور أيضاً رأيه فى أسرى بدر ، وأن من الواجب قتلهم ، وكان رأى أبى بكر أن يقوم الأسرى بتعليم المسلمين القراءة والكتابة ؛ أو يؤخذ فيهم الفداء ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنفال]

بعض الناس يتساءل : كيف يستدرك عمر على رسول الله ﷺ ؟ نقول : لأن الرسول ﷺ لن يُخلَّد فى أمته ؛ لذلك أراد أن يعطيهم الأُسْوة بأنه ﷺ متى رأى رأياً حسناً نزل عليه . وبعض المستشرقين يقولون : إنكم تقولون دائماً عمر فعل كذا ، ولماذا لا تقولون لنا محمد فعل كذا ؟ ونقول : إذا فعل محمد فهو رسول الله ، أما غير الرسول عندما يفعل فهو دليل على أن الفطرة الإسلامية من الممكن أن ترى شيئاً يتفق مع ما يريده الله .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧١) وأحمد فى مسنده (١/ ١٦) والترمذى فى سننه (٣٠٩٧) والنسائى (٤/ ٦٧) قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤٨٣) عن أنس ، وقد ذكر فيه موافقة الوحى لعمر فى ثلاث : تحويل القبلة ، حجاب نساء النبى ﷺ ، معاتبة نساء النبى .

وبعد أن نزل قول الحق : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ صار الحكم عاماً فى ألا يصلى رسول الله على المنافقين . لكن من أراد من الناس أن يصلى فليُصلِّ . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يكرم كل مسلم بالصلاة عليه ، فلما نزلت هذه الآية امتنع عن الصلاة على المنافقين.

كذلك امتنع ﷺ عن الصلاة على الميت وعليه دين ، فكان يسأل أهل الميت : هل عليه دَيْن ؟ فإن قالوا : نعم . سأل : هل ترك ما يسده ؟ . فإن قالوا : لا ، قال : « صَلُّوا على صاحبكم »[(١)] ، وامتنع هو عن الصلاة.

ولكن ما ذنب من عليه دين حتى يُحرَم صلاة رسول الله عليه ؟ نجد الإجابة فى قوله ﷺ :

« مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[(٢)].

فلو كان هذا الميت المدين ينوى سداد دينه لأعانه الله على أنْ يُسدِّده ، أما إذا ترك ما يفى بهذا الدين من عقارات أو أراض أو أموال فى البنوك فلا يكون مديناً .

ويقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ ونحن نعلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى قبر حمزة رضى الله عنه ، ويقف على قبور المؤمنين . ويقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »[(٣)] . ومنعه الحق

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٢٩٨) ومسلم (١٦١٩) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه فضلاً ؟ فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى ، وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٦١ ، ٤١٧) وابن ماجه فى سننه (٢٤١١) عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٥) وابن ماجه (٤٣٠٦) والنسائى (١/ ٩٤) من حديث أبى هريرة .

من ذلك العمل على قبور المنافقين[1] . ويعطينا الحق سبحانه العلة في ذلك فيقول : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وعرفنا كيف كفروا بالله ورسوله ، لكن ماذا عن قوله الحق : ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . فهل ماتوا وهم خارجون عن المنهج ؟ نعم ، تماماً مثلما نقول : فسقت الرطبة ؛ لأن البلح في نضجه يكون أحمر اللون أو أصفر وتلتصق قشرته به ، فإذا رطب انفصلت القشرة عن البلحة ، بحيث تستطيع أن تنزعها بسهولة ، فكأن منهج الله بالنسبة للمؤمن لا بد أن يلتصق به كقشرة البلحة الحمراء ، وإذا انفصل عنه مثل قشرة الرطبة يُصَابُ بالفساد .

ولكن هنا نتساءل : أليس الكفر أكبر مرتبة من الفسق ؟ لأننا نعلم أنه ليس بعد الكفر ذنب ؟ فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ مع أنهم كفروا ، والكفر أكبر الذنوب ؟

ونقول : إن الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله وعدم الدخول في الإسلام ، ولكن الفسق هو عدم الالتزام بأية قيم ، ذلك أن الدين قد أوجد في النفوس عامة قيماً معروفة يتبعها حتى الذين كفروا ، فمثلاً عندما أرادوا بناء الكعبة قبل الإسلام ، قالوا : نريد أن نبنيها بمال حلال ، لا يدخل فيه مال بَغِيٍّ[2] . وكانوا في الماضي يُحضرون البغايا ، ويُقيمون لهن الرايات ، ويأخذون من أموالهن . لم يكن الإسلام قد جاء بَعْد ، ولكن كانت هناك قيم من مناهج السماء التي جاءت قبل الإسلام . وجاء الإسلام موافقاً لبعضها .

---

(١) ومما ورد في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة: ٨٤] أنه لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، وإنك لم تأته لم نَزَلْ نُعيَّر بهذا ، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أُدْخل في حفرته فقال: « أفلا قبل أن تدخلوه ؟ » فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدَمه وألبسه قميصه . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٧١) .

(٢) وذلك أنه عندما أرادت قريش أن تبني الكعبة قام أبو وهب بن عمرو بن مخزوم وتناول من الكعبة حجراً ، فوثب من يده ، حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش ، لا تُدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس . انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٤) .

إذن : فقوله الحق : ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، أى : لم يكونوا مسلمين. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى : لم يلتزموا بأية قيم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ونعلم أن الحق قال فى آية سابقة :

﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ[1] أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]

والنص القرآنى إذا ما اتفق مع نص آخر ، نقول: إن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف ، ومن ينظر إلى خصوصيات ومقتضيات الأحوال يعلم أن هذا تأسيس وليس تكراراً ، فقد تحمل آيتان معنى عاماً واحداً، ولكن كل آية تمس خصوصية العطاء، ولنأخذ مثالاً من قوله الحق:

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ... ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

وقد ادعى بعض المستشرقين أن فى القرآن تكراراً ، وهذا غير صحيح ؛ لأنهم ينظرون إلى عموم الآية ولا ينظرون إلى خصوصية العطاء . وخصوصية العطاء فى الآية توافق مقتضى كل حال . ففى قوله

---

(١) زهقت نفسه : خرجت وماتت ، وزهق الباطل: زال وبطل فهو زاهق وزهوق: قال تعالى: «وتزهق أنفسهم »أى : تخرج ؛ فيموتون .

سبحانه عن رزق الأولاد لم يلتفتوا إلى صدرى الآيتين بل التفتوا إلى عجُز الآيتين ، وذلك من جهلهم بملكة الأداء فى البيان العربى .

ولنا أن نسأل هؤلاء المستشرقين الذين يثيرون مثل هذه الأقاويل : هل ترون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى ؟ ولن نجد إجابة عندهم ؛ لأنهم لا يعرفون دقة البيان العربى . ونقول لهم : أنتم إن نظرتم إلى عَجُز كل آية وصدرها لوجدتم أن آخر الآية يقتضى أولها ، وإلا لما استقام المعنى ، فالله سبحانه وتعالى لم يَقُلْ فى الآيتين : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ﴾ وإنما قال: ﴿مِنْ إِمْلاقٍ ﴾ وقال: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ ، ولم يقل فى الآيتين : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ بل قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ و قال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .

إذن: فبداية الآيتين مختلفة ؛ الآية الأولى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ . والإملاق هو الفقر ، فكأن الفقر موجود فعلاً . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ﴾ ، فكأن الفقر غير موجود ، ولكن الإنسان قد يخشى أن يأتى الفقر بمجىء الأولاد .

إذن: فالآية الأولى تخاطب الفقراء فعلاً، والآية الثانية تخاطب غير الفقراء الذين يخشوْنَ مجىء الفقر إن رُزقوا بأولاد ؛ والفقير - كما نعلم - يُشغل برزقه أولاً قبل أن يُشغلَ برزق أولاده . ولذلك يطمئنه الحق سبحانه وتعالى على أن أولاده لن يأخذوا من رزقه شيئاً ، فيقول : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أى : اطمئن أيها الفقير على رزقك فلن يأخذ أولادك منه شيئاً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يرزقك أولاً ويرزق أولادك أيضاً .

أما غير الفقير الذى يخشى أن يجيء الولد ومعه الفقر فقد ينشغل بأن المولود الجديد سيأتى ليُحوِّل غناه إلى فقر . ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى: أن رزقهم يأتى من عند الله قبل رزقكم أنتم ، فلا تخشوا الفقر وتقتلوا أولادكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى سيرزقهم ، فلن يصيبكم الفقر بسبب الأولاد . وهكذا نرى أن معنى الآيتين مختلف تماماً وليس هناك تكرار.

كذلك فى الآية التى نحن بصددها ، يقول بعض الناس : إن هذه الآية قد وردت فى نفس السورة، نقول لهم : نعم . ولكن هذه لها معنى والأخرى لها معنى آخر ؛ فأين الاختلاف فى الآيتين ؛ حتى نعرف أنهما ليستا مكررتين ؟ الآية الأولى تقول:

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

والآية الثانية التى نحن بصددها تقول:

﴿ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [التوبة]

أول اختلاف نجده فى بداية الآيتين ؛ ففى الآية الأولى: ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾، والثانية : ﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾.

ففى الآية الأولى جاء الحق سبحانه وتعالى بالفاء ، والفاء تقتضى الترتيب . إذن : فهذه الآية مترتبة على ما قبلها ، وهى قوله تعالى :
﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) ﴾ [التوبة]

فكأن هذه حيثيات كفرهم ؛ فهم لا يُصلُّون إلا نفاقاً ، ولا ينفقون مالاً في سبيل الله إلا وهم يكرهون ذلك.

والمتعة في المال أن تنفقه فيما تحب ، فإذا أحببت طعاماً اشتريته ، وإذا أحببت ثوباً ابتعته [١]. وتكون في هذه الحالة مسروراً وأنت تنفق مالك ، ولكن هولاء ينفقون المال وهم كارهون.

والمؤمن عندما ينفق ماله في صدقة أو زكاة فهو يفعل ذلك إيماناً منه بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه أضعاف أضعاف الأجر في الدنيا والآخرة. إذن: فحين ينفق المؤمن ماله في الزكاة ، يكون فرحاً لأنه عمل لدنياه ولآخرته.

أما المنافق الذي يضمر الكفر في قلبه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ولا يعرف البركة في الرزق ، فكأنه أنفق ماله دون أن يحصل على شيء ، أي: أن المسألة في نظره خسارة في المال ولا شيء غير ذلك . وإن أنفق الإنسان وهو كاره ، فالمال الموجود لديه هو ذلة وتعب ؛ لأنه حصل على المال بعد عمل ومشقة ، ثم ينفقه وهو لا يؤمن بآخرة ولا بجزاء.

ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أن رزقه لهؤلاء الناس هو سبب في شقائهم وإذلالهم في الدنيا فيجعلهم يجمعون المال بعمل وتعب ثم ينفقونه بلا ثواب ، أي: يخسرونه . والواحد منهم يذهب إلى الحرب نفاقاً ، فينفق على سلاحه وراحلته [٢] ، ولا يأخذ ثواباً ، ويُربِّي أولاده ثم تأتي الحرب ، فيذهبون نفاقاً للقتال ؛ فيموتون دون استشهاد إن كانوا منافقين مثل آبائهم. وهكذا نجد أن كل أموال المنافق الذي يتظاهر بالإسلام ، وهو كافر ، تكون حسرة عليه.

---

(١) ابتاع : اشترى .

(٢) الراحلة : كل بعير قادر على مشقات السفر أو الجهاد .

ومن هنـا فإياك أيهـا المؤمن أن تعـجبـك أموالهم ؛ لأنــها ذلة لهم فى الدنيـا ؛ فـهم يبذلونـها نفاقاً ، فإذا امتنعـوا عن الإنفاق وعن الجـهاد وهم يتظاهرون بالإسلام ؛ فكأنهم قد أعلنوا أنهم منافقون ، وهكذا نجد إنفاقهم كرهاً هو إذلال لهـم ، وإن لم ينفقـوا فـهذا أمر يفضـحهم ، فكأن الأموال والأولاد عـذاب لـهم ، وهذا أمـر لا يقـتـضى الإعـجـاب ، وإنما يقـتـضى الإشفاق عليهم.

ولا تظن أنك حين حذفتهم من ديوان الغُزاة والمجاهدين بعدم الخروج معك وأنهم لن يقاتلوا معك عدواً ، أن فى أموالهم عوضاً عن الخروج ، فلا تعجبك فإنها عقاب وفضيحة وإذلال لهم.

ولكن فى الآية الأولى ، يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لماذا ؟ لأن منهم من له مـال يعتز به ، ومنهم من له أولاد كثيرون هم عِزْوته، ومنهم من له المال والولد.

إذن: فـهم مختلفـون فى أحـوالهم؛ لذلك جاء القـول: ﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لتؤدى المعانى كلها . ولتشمل من عنده مال فقط ، ومن عنده أولاد فقط ، ومن عنده المال والولد.

أما فى الآية الثانية التى نحن بصددها:

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

إذن : فـالحقُّ سبـحانه وتعالى قـد أعطاهم المال والولد للعـذاب . ولكن هناك من يقـول : ما دام الحق يريد تعذيبهم بالأموال والأولاد ، فـهل المال والأولاد علة لـلعـذاب ؟ وهل لأفـعـال الله علّة ؟ ألا يـقـول المسلمـون : إن أفعال الله لا علة لها ؛ ونقول : لقد قالوا مثل ذلك القول فى قوله الحق:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]

ولم يلتفتوا إلى أن العلة في الخلق لا تعود إلى الله ، ولكنها علة ترجع للمخلوق ؛ لأن في العبادة مصلحة ومنفعة للمخلوق. فسبب الخلق هو العبادة ، وهذا السبب ليس راجعاً إلى الخالق ولا تعود على الله أدنى منفعة ، فلا شيء يزيد في ملكه ولا شيء ينقصه . أو هي لام العاقبة. ومعنى « لام العاقبة » أن تفعل شيئاً فتأتي العاقبة بغير ما قصدت مصداقاً لقوله الحق :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨)﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدواً ؟ أم التقطوه ليكون لهم قرة عين[1] ؟ . لقد التقطوه ليكون قرة عَيْن لهم ، ولكن النهاية جاءت بغير ما قصدوا ؛ فأصبح الذي التقطوه ليكون وَلِيّاً ونصيراً لهم هو الذي جاءت على يديه نهايتهم ، ولو كان فرعون يعلم الغيب لما التقط موسى بل لَقتله ، وشاء الحق أن يخفي عنه الغيب ليقوم هو بتربية من سيقضي على مُلكه ، تماماً كما تُدخل ابنك إلى المدرسة فيفشل ، وتنفق عليه فلا يتخرج ، هل أنت أدخلته المدرسة ليخيب ؟ طبعاً لا .

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ ويريدنا الله أن نفهم أن العذاب ليس هو سبب جمعهم المال ، وإنما السبب في ذلك هو حُبُّهم للمال والمتعة ، وكذلك الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً في عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد عِزْوة لهم. ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعذبهم بالمال والأبناء في الدنيا. فالمال يجمعه المنافق من حلال ومن حرام ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقه المال بكارثة تصيبه ، وإما أن يفارق هو

---

(١) قرة عين : مصدر سرور وفرح وسعادة قلب .

المال بالموت ، وإما أن يكون هذا المال عذاباً له ؛ فيعيش مع خشية الفقر وزوال النعمة ، كذلك الأولاد يربيهم ويتعب فى تربيتهم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقوه بالموت ، وإما أن يكبروا فاسدين ؛ فيكونوا مصدر عذاب لهم.

فكأن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ هو كلام من الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين ؛ لأن هؤلاء المنافقين قد يعطيهم الله الأموال والأولاد ؛ ولكنها ليست خيراً لهم، بل هى عذاب لهم ؛ لأنهم بإبطانهم الكفر وتظاهرهم بالإيمان ؛ يفرضون على أنفسهم تكاليف تأخذ جزءاً من أموالهم وأولادهم ، وحينئذ تكون عذاباً لهم لأنهم خسروا كل شيء ولم يكسبوا شيئاً ، فليس لهم أجر على موت أبنائهم إن قتلوا ، ولا أجر الزكاة والصدقة فيما ينفقونه رياء ونفاقاً.

أما الآية الثانية :

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فهى حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به ، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً ، فهم فى خوف من ضياع المال أو فقد الولد ؛ لذلك يعانون من العذاب . وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعذَّبون ، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يعتقدون فى الآخرة ، ويكون المال والولد حسرة عليهم ؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد ، علم أن افتقاد الابن إنما يسند طاقة جهنم ، ويقوده إلى رحمة الله ، وله أجر على ذلك ، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له فى الآخرة ، وإن كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ..(٢١) ﴾ [الطور]

وفى هذا سلوى عن افتقاد الولد ، لكن المنافق يحيا فى خوف وحسرة . وفى هذا عذاب . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه دائماً فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الأنفال]

أى أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من ينفق لمحاربة دينه بأن يتركه ينفق ، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة فى نفسه حين يرى المال الذى أنفقه وقد جاء بنتيجة عكسية هى انتصار الدين وانتشاره.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذه هى الحسرة الكبرى ، فحين يموت الكافر ولايجد له رصيداً فى الآخرة إلا النار ؛ لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه قد قدم شيئاً ، يُلْقَى فى النار محسوراً على ما تركه فى الدنيا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل نقرأ قول الله :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ... (٥٠) ﴾ [الأنفال]

وهكذا يذوقون العذاب.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فى قوله :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٨٦) ﴾

وهكذا شاء الحق أن يفضح المنافقين ، هؤلاء الذين استمرأوا الاستمتاع بنفس حقوق المؤمنين لمجرد إعلانهم الإسلام ، بينما تبطن قلوبهم الكفر والكيد للمسلمين . وقوله الحق : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ هو خطاب للمنافقين يكشف بطلان إيمانهم ؛ ولذلك جاء قوله الحق : ﴿ أَنْ آمِنُوا ﴾ أى : اجعلوا قلوبكم صادقة مع ألسنتكم ، فالله يريد إيماناً بالقلب واللسان ، فيتفق السلوك مع العقيدة . وقوله الحق : ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ أى: انفروا للجهاد مع رسول الله ، فهذا هو التعبير العملى عن الإيمان ، ولاتفرحوا بتخلفكم عن القتال فى سبيل الله ؛ لأن الجهاد والقتال فى سبيل الله شرف كبير له ثواب عظيم. وامتناع إنسان عن الجهاد هو تنازل عن خير كبير ، فالحق سبحانه يعطى جزيل الأجر لمن جاهد جهاداً حقيقياً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ و«استأذن» من مادة استفعل ، وتأتى للطلب ، كأن تقول : « استفهم » أى: طلب أن يفهم ، و« استعلم » أى : طلب أن يعلم . إذن : فقوله : ﴿ اسْتَأْذَنَكَ ﴾ أى: طلبوا الإذن ، ولأنهم يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ، تجدهم ساعة النداء للجهاد لا يقفون مع المؤمنين ، وكان من المفروض أن يكونوا بين المجاهدين ، وأن يجدوا فى ذلك فرصة لإعلان توبتهم ؛ ورجوعهم إلى الحق فيكون جهادهم تكفيراً عما سبقه من نفاق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل طلبوا الإذن بالقعود.

ومن الذى طلب الإذن ؟

إنهم أولو الطَّوْل . و« أولو» معناها أصحاب القوة والقدرة . و«الطَّوْل» هو أن تطول الشيء ، أى : تحاول أن تصل إليه ، فإذا لم تصل يدك إليه ؛ يقال: إن هذا الشيء يدك لم تَطُلْه ، أى : لم يكن فى متناول يدك.

و﴿أُولُوا الطَّوْلِ﴾ أى : الذين يملكون مقومات الجهاد من سلامة البدن من الأمراض ووجود القوة ، ولا يعانون من ضعف الشيخوخة ، وأن يكون الإنسان قد بلغ مبلغ الرجولة وليس صبياً صغيراً ؛ لأن الشيخ الكبير ضعيف لا يقدر على الجهاد ، وكذلك الصبى الصغير لا يملك جَلَداً على الحرب . وأيضاً نجد المريض الذى قد يعوقه مرضه عن الحركة.

أما أولو الطول فهم الذين يملكون كل مقومات الحرب ، من قوة بدنية وسلاح ، والذين لم يبلغوا سن الشيخوخة ، ولا هم صبيان صغار ولا مرضى.

إذن : فعندما تنزل آية فيها الجهاد ، فالذين يستأذنون ليسوا أصحاب أعذار- لأنهم معفون- لكن الاستئذان يأتى من المنافقين الذين تتوافر فيهم كل شروط القتال ، ويستأذنون فى القعود وعدم الخروج للقتال . ويقولون ما يخبرنا الحق به : ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والقاعد مقابله القائم . والقيام - كما نعلم - هو مقدمة للحركة . فإذا أراد الإنسان أن يمشى ، قام من مكانه أولاً ، ثم بدأ المشى والحركة ، ومن القيام أخذتْ مادة (القوم)[1] أى : الجماعة القائمة على شئونها ، والقوم هم الرجال ، أما النساء فلا يدخلن فى القوم ، مصداقاً لقول الحق:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ... (١١) ﴾ [الحجرات]

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ؛ مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : « ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء ، والقوم يذكر ويؤنث ؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث . قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ (٦٦)﴾ [الأنعام] ، فذكر . وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ (١٠٥)﴾ [الشعراء] ، فأنث ».

إذن: فالقيام يقابله القعود، والقوم يقابلهم النساء. والقعود هو مقدمة للسكون، فمتى جلس الإنسان فهناك مقدمة لفترة من السكون، وقعود المنافقين وتخلفهم واستئذانهم أن يبقوا مع النساء والعجزة والمرضى والصبية هو حَظٌّ من شأنهم.

ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى:

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

و﴿الْخَوَالِفِ﴾ ليست جمع «خَالف» ولكنها جمع «خالفة»؛ لأن «خَالف» لا تجمع على «فواعل»، وإنما «خالفة» هى التى تُجمَعُ على «فواعل»[1]، وهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يطبق عليهم الحكم الذى يُطبق على النساء.

ولذلك كانوا ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ لأنهم ارتضوا لأنفسهم وصفاً لا يليق بالرجال وفرحوا بهذا الوصف دون أن يتنبهوا لما فيه من إهانة لهم؛ لأنهم يهربون من القتال كما تهرب النساء. والمنافق - كما قلنا - له ملكتان: ملكة قولية، وملكة قلبية. فقول المنافق إعلان بالإيمان، أما قلبه فهو ممتلىء بالكفر؛ وفى هذه الحالة تتضارب ملكاته.

والله سبحانه وتعالى يوضح لهم: سوف نعاملكم فى الدنيا بظاهر كلامكم، ونعاملكم فى الآخرة بباطن قلوبكم، وسوف نطبع على هذه

(١) لا يجمع " فاعل" صفة للمذكر العاقل على «فواعل»، إلا فى أمثلة قليلة اعتبرها الأقدمون شاذة عن القاعدة مثل: (فارس، فوارس) - (هالك، هوالك) - (ناكس، نواكس) وقد وصل بها المعاصرون إلى أكثر من ثلاثين مثالاً، وإن كانوا قد قالوا: الأفضل الالتزام بالقاعدة، وهى: « لا تجمع صيغة فاعل على فواعل إذا كانت وصفاً لمذكر عاقل ». انظر فى هذه المسألة النحو الوافى لعباس حسن (٤/ ٦٥٣ - ٦٥٥) ولابن منظور فى هذا كلام فى مادة (فرس).

القلوب ؛ فلا يخرج منها كفر ، ولا يدخل إليها إيمان ، ولذلك قال الحق سبحانه هنا ﴿ وَطُبِعَ [1] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿خَتَمَ [2] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ⑦﴾ [البقرة]

وقال سبحانه :

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ...٩٣﴾ [التوبة]

وما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه ؛ فالحق سبحانه يختم على قلبه ، بحيث لا يخرج ما فيه من كفر ، ولا يدخل إلى قلبه ؛ ما هو خارجه من إيمان ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر ؛ فيظل ما فى داخله كما هو ، وما فى خارجه كما هو . ويطبع الله على قلبه ؛ فيمنع ما فيه من الكفر أن يخرج ، ويمنع ما فى خارجه من الإيمان أن يدخل إليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم ، أى : لا يفهمون ما حُرِموا منه من ثواب ونعيم الآخرة ؛ لأنهم قد فرحوا بتخلفهم عن الجهاد ، وهم يحسبون أن هذا خير لهم ولكنه شر لهم.

ثم يريد الحق سبحانه أن يضع الطمأنينة فى نفوس المؤمنين ، ويطلب منهم ألا يفزعوا ؛ لتخلف هؤلاء القادرين عن القتال رغم أنهم أصحاب الطَّوْل الذين يملكون الأموال والأولاد . ويزيل الحق أثر ذلك من نفوس المؤمنين ، فيقول سبحانه :

---

(١) الطبع لا يفك أبداً ، فالذى طبع على قلبه ليس له قبول لأنه غير قابل ولا مقبول .

(٢) الختم قد يفك ، وقد يكون له مدة معلومة وقد يقبل مع التوبة الخالصة .

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أى : إياكم أن تحزنوا على هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم عن الجهاد معكم ولا تقولوا : نحن خسرناهم فى قتالنا ؛ لأن الحق لا يحتاج إليهم ولا إلى جهادهم . وسبحانه القائل : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه :

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد]

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ . [المائدة]

إذن : فتخلف بعض أصحاب القوة والمال والجاه عن الجهاد ، يجب ألا يشيع الفزع أو الحزن فى نفوس المؤمنين ؛ لأن الله معهم ، ولأنهم لهم

الخيرات ، أى : لهم كل ما يطلق عليه خير [1] : ﴿وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والمفلح : هو الفائز الناجى المستفيد بثمرة عمله، وأصلها فلح الأرض أى : شقها ؛ لأن الزراعة تقتضى أن تحرث الأرض أولاً، وهذه مهمة الإنسان ليخرج الزرع . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

ونحن حين نحرث الأرض نهيجها ، وبدلاً من أن تكون صلبة لا يدخلها هواء ولا تتخللها أشعة الشمس ، تصير بعد الحرث مستقبلة للهواء وتتخللها أشعة الشمس ؛ فتخلصها من أى ماء راكد فى داخلها ، وبذلك يتوافر للأرض الهواء اللازم لنمو جذور النبات ؛ لأنك إذا وضعت الحَبّ فى أرض غير محروثة ، فالزرع لا ينبت ؛ لعدم وجود الهواء الذى تتنفس منه الجذور . ولكن إذا حرثت الأرض ؛ جعلت أشعة الشمس تتخلل ما هو تحت السطح ؛ وتبخر الماء المخزون ؛ ليدخل الهواء بدلاً منه ؛ فتستطيع جذور النبات أن تنمو . إذن : فكل عمل يؤدى إلى نتيجة طيبة نُسمِّيه فَلاحاً . وهو مأخوذ من الأمر الحسّى ، الذى نراه كل يوم وهو الفلاحة .

وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا أمراً معنويّاً ، فهو سبحانه يستحضر لنا صورة محسّة من الذى نراه أمامنا ؛ حتى نستطيع أن نُقرِّب المعنى إلى الأذهان ؛ خصوصاً فى الغيبيات التى لا نراها ، فإذا أراد سبحانه أن يُقرِّبها إلى أذهاننا ؛ فهو يضرب لنا الأمثال بأمور حسيّة . والإنسان حين يفلح الأرض ويشقها ويبذر فيها الحب ، تعطيه محصولاً وفيراً . وكذلك فإن كل عمل يؤدى إلى نتيجة طيبة نسميه فلاحاً .

---

(١) الخيرات : جمع خير ، فالمعنى : لهم منافع الدارين . وإن كان قد قال الحسن : الخيرات : النساء الحسان . ودليله قوله عز وجل : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : ٧٠] . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٤٩) .

وعندما يحدثنا الحق سبحانه ، فهو يعطينا المثل مما نراه كل يوم ؛ ليقرب إلى أذهاننا جزاء الصدقة والزكاة [١] ، ومضاعفته لنا الأجرَ ، فيقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ... (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت الحبة عندما تضعها فى الأرض تنبت سبعمائة حبة ، وإذا كانت الأرض ، وهى مخلوقة لله ، قد أعطتك عن الشيء الواحد سبعمائة ضعف ، فكم يعطى خالق الأرض ؟ وكم يضاعف ؟

إنها صورة مُحَسّة للجزاء على الصدقة والزكاة . وأنت ساعة تزرع الأرض لا تقول : أنا أنقصت المخزون عندى كيلة [٢] من القمح أو إردباً [٣] من القمح ؛ لأنك تعلم أنك تأخذ مما عندك إردباً من القمح ؛ لتزرعه فى الأرض. ولكنك لا تنظر إلى الإردب الذى أخذته من المخزون عندك ، بل انظر إلى ما سوف يجيء لك من هذا الإردب ساعة الحصاد ، وكذلك الزكاة : إياك أن تنظر إلى ما سينقص من مالك عندما تؤدى الزكاة ، ولكن انظر إلى كم سيضاعف الله لك هذا المال.

وقد ضرب الحق مثلاً بشيء مُحَسٍّ يعلمه الجميع ، ومن صورة ما نراه أمامنا لنفهم ما ينتظرنا ، فإذا كانت الأرض - وهى المصدر الأول للاقتيات [٤] - تُلقى فيها الحبة الواحدة ، فتعطى لك سبع سنابل فى كل

---

(١) الصدقة : ما يخرج من المال على وجه القُربة إلى الله تعالى : ﴿ إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ (٢٧١) ﴾ [البقرة]
وتصدَّق : أخرج الصدقة : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] بحذف إحدى التاءين
واصّدّق : أخرج الصدقة . وصدّقه : آمن بكلامه - والصَّدُقَة : صداق المرأة ومهرها لا تدل على صدق الرغبة . وفى مادة الصدقة : صدق مع الله وصداقة مع الناس وصداقة مع النفس . وأما الزكاة فهى ما فرض بمقدار ونصاب محدد .
(٢) الكَيْلَة : وعاءٌ تكال به الحبوب ، ومقداره الآن ثمانية أقداح . والجمع : كَيْلات .
(٣) الإرْدَبُّ : مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً ، أو ست وَيبات . والجمع : أرادِبُ .
(٤) الاقتيات : القوت والرزق .

سنبلة مائة حبة ، وإذا كانت الأرض المخلوقة لله تعوضك عما وضعته فيها بسبعمائة ضعف ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟

إذن : فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب. ولذلك يبشر الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله :

﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهذا جزاء المؤمنين فى الدنيا ، ولكن هناك جزاءاً آخر فى الآخرة . وفى هذا يُبشِّرنا الحق سبحانه فى قوله :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

وقد عرفنا من قبل أخبار الجنات والأنهار ، وهنا يوضح لنا الحق الخير الذى يخلد فيه المؤمنون.

ولماذا سمى الله سبحانه وتعالى جزاء الآخرة بأنه :﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة ؛ فالدنيا موقوتة بعمرك وتتمتع فيها بقدر أسبابك . إذن : ففيها فوز محدود لا يسمى فوزاً عظيماً . أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك ، ولا تفارقها أنت ، فالنعمة خالدة ، وأنت خالد ، وهذه النعمة - فى الوقت نفسه - ليست بقدراتك أنت ، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى ، ولا تحتاج منك أى تعب أو عمل أو اجتهاد ، بل يأتيك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك ، وهذا لا يحدث إلا فى الآخرة وفى الجنة وهذا هو الفوز العظيم ؛ لأنه دائم وبلا نهاية.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

والحديث هنا عن المنافقين الذين كانوا يعيشون حول المدينة وكانوا يُسمَّون «الأعراب» ، وقد تحدثت الآيات السابقة عن منافقى المدينة الذين جاء فيهم قول الحق : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ[1] ... ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا يأتى الحديث عن المنافقين الذين كانوا يسكنون فى البوادى التى حول المدينة وهم الأعراب.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾، وهناك « مُعْذِرون » و «معتذرون» ، والمعذِّرون هم المعتذرون ؛ فالمعتذر جمعه معتذرون بفتحة فوق التاء ، لكن إذا وُضِعَتْ الفتحة فوق العين فالحرف الذى بعدها يُسكّن ، وعندما يُسكّن ما بعد العين ، فهذا يعنى أن هناك افتعالاً.

إذن : فالمعذّرون أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلفوا عن القتال بأعذار مفتعلة[2] ، وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال ، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقى . ويقال : « المعذرون» ، و« الُمعَذّر» ، و«أعذره» أى : أذهب عذره ، مثل : « أعجم الكتاب » أى : أذهب عُجْمته.

---

(١) النفاق : أن يظهر الإنسان بخلاف ما يبطن ، وأطلق " المنافق" فى صدر الإسلام على من أظهر الإسلام وأضمر الكفر ، والنفاق : مصدر نافق . ومردوا على النفاق : اعتادوا عليه وتمرسوا به ، وكأنه أصبح حرفة لهم .

(٢) المُعْذر : الذى يعتذر وله عذر حقيقى . المعتذر : مثله . المُعَذّر : الذى يعتذر وليس له عذر ، بل يفتعله ويختلقه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لقد كذبوا الرسول فى الإيمان نفسه ؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخلفوا ، ولو كانوا قد صدقوا فى الإيمان لما تقاعسوا عن القتال ، أو لاستأذنوا رسول الله فى القعود .

ثم يقول الحق : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والكفر - كما نعلم - هو ستر الإيمان . والمنافقون من الأعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تمتلىء بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان .

ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذى ينتظر هؤلاء المتخلفين من الأعراب فيقول : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعرفنا من قبل أن وصف العذاب فى القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً .

وأراد الحق سبحانه أن يعطى رخصة للذين لا يقدرون على القتال ولهم العذر فى أن يتخلفوا عنه ؛ فقال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾

ونحن نعلم أن الضعيف هو من لا يقدر على العمل ، لا بسبب المرض ، بل لكبر سنه ، أو هو صغير السن لا يقدر على الحرب ، وكذلك يعفى الحق المرضى من القتال ؛ وهم من أصيبوا بعاهة طارئة تجعلهم غير قادرين على القتال . وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقون ؛ لأنهم من شدة فقرهم لا يستطيعون شراء دابة تحملهم أو معدات قتال يقاتلون بها .

والنفقة - كما نعلم - هي أن تقدر أن تعول نفسك في الذهاب والإقامة مدة الحرب والعودة . وكان على كل مجاهد أن يُعدَّ مطلوبات الحرب . فالله سبحانه قد رفع الحرج عن الذين لا يجدون ما ينفقونه ، وجعل لهم وظيفة أخرى تخدم الجهاد ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي : ينصحون ويشجعون أولئك القادرين على الجهاد ؛ ليُحَمِّسوهم على القتال ، ثم يكونون في عون أهل المجاهدين [1] ، ويواجهون الإشاعات والأكاذيب التي يطلقها المنافقون في المدينة ؛ للنيل من الروح المعنوية للمسلمين فيردون عليها ليُخْرِسوا ألسنة السوء .

ثم يقول الحق : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والسبيل : هو الطريق ، ومعناها : ما عليهم من إثم أو لوم أو توبيخ أو تعنيف . وكل هذا لا يجد سبيلاً على المحسنين ، ولم يقل الحق : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ » ؛ لأن السبيل يمر عليهم ولا ينتهي إليهم بلوم ؛ لأن هناك فارقاً بين أن يمر عليهم وأن ينتهي إليهم ، فالمرورَ أمر عادي ،

---

(١) عن زيد بن خالد الجهني أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا » متفق عليه . أخرجه البخاري (٢٨٤٣) ومسلم (١٨٩٥) قال النووي في شرحه لمسلم : « هذا الأجر يحصل لكل خالف له في أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو مساعدتهم في أمرهم » .

وليس هو الغـاية ؛ لذلك يوضح الحق أنه لا يوجـد سـبيل إليـهم ولا إلى عـتابهم ؛ لأنهم أدوا كل مـا تطلّبـه الجـهاد منهم ، ولكنهـم لم يذهبـوا إلى ميدان القتال ؛ لأسباب خارجة عن إراداتهم ، وفعلوا كل ما يتطلّبه الإيمان.

أما إذا كان المجاهد لديه ما ينفقه ، ولكنه لا يملك راحلة يركبها ، فعليه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ، ويطلب منه راحلة ، فإذا قال له رسول الله ﷺ : ﴿ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهذا إذن بالقعود ، وفى هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

إذن : فالمعفوْن من الجهاد هم : الضعيف والمريض ، والذى لا يجد قوتاً ، ولا يجد راحلة ؛ فيطلبها من رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله [1] : ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ومن فى مثل هذه الحالة يحزن مرتين ولا يفرح ؛ الحزن الأول : بسبب عجز المسلمين فى ذلك الوقت أن يملكوا ما ينهض بنفقات المقاتلين أو أن يجهزوا لهم وسائل الانتقال إلى ميدان القتال ، والحزن الثانى : بسبب عدم تواجده فى ميدان القتال مشاركاً ومجاهداً ، ولا يبقى له إلا مشاركة الاستطاعة بجهاد يختلف عن الجهاد فى ميدان القتال .

إنه جهاد حماية القاعدين من إشاعات المنافقين . ذلك أن المنافقين لن يسكتوا عن محاربة الإيمان ، بل سيرجفون بنقل الأخبار الكاذبة إلى أهالى

---

(١) قال القرطبى: « روى أن الآية نزلت فى عرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مقرِّن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبى ﷺ » وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/٣١٥٣).

المقاتلين ، وهم من نسميهم في الاصطلاح الحديث "الطابور الخامس" ، وهم من يُثبِّطون همم ومعنويات أهالي المقاتلين . إذن : فمن قعد عن القتال بسبب عذر حقيقي فله جهاد آخر في حماية الجبهة الداخلية من أهالي المقاتلين في مواجهة حرب الإشاعات التي يقودها المنافقون .

وهكذا نجد الجهاد [1] فريضة من فرائض الإسلام ، ومجاهدة غير المسلمين تكون لأمرين : الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأن يقفوا في سبيل الداعي ليسكتوه عن الدعوة إلى الله ، والأمر الثاني : أن ينتشر المسلمون في الأرض ليُعْلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها ، فالدين لا إكراه فيه ، و السيف الذي حُمل في الإسلام ، لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار للإنسان في أن يختار الدين الذي يريد اعتناقه بلا إكراه . وتحرير اختيار الإنسان ؛ إنما ينشأ بإزاحة العقبات التي تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها ، فيختار بحرية الدين الذي يرتضيه .

إذن : فالإسلام لم يفرض بالسيف ، وإلا فمن الذي فرض الإسلام على الذين سبقوا إليه حين كان ضعيفاً لا يملك أن يحمي من دخل فيه ؟!

وما دام الجهاد فريضة بهذا المعنى ، فكل مسلم مكلف بأن يجاهد ، إما فرض عين - إن غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية - إن قام به البعض سقط عن الباقين . ولم يعذر الله من الجهاد إلا هذه الطوائف ؛ الضعفاء بشيخوخة أو صغر ، والمرضى أصحاب الداءات ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، وهم قسمان : قسم لا يجد ما ينفقه على نفسه ،

---

(١) الجهاد يكون فرضاً عينياً إذا حصل الاعتداء من الأعداء واحتلت البلد ويكون فرض كفاية إذا حدث اعتداء ولم تحتل البلد ، وكذلك لنشر دعوة الله فيكون الجهاد بالإقناع والدليل ؛ لأن الإسلام لا يعرف السيف إلا عند الاعتداء ووقوع الظلم على المسلمين من الغير .

وقسم لا يجد ما ينفقه على الحرب ، أى : لا يجد أدوات القتال أو الراحلة التى يركبها .

ورفع الحق سبحانه الحرج عن هؤلاء ، ووظَّفهم سبحانه فى وظيفة إيمانية تخدم الجهاد بأن يكونوا فى عون أهل المجاهدين ، ويقمعوا المرجفين الذين يريدون النيل من الروح المعنوية للمسلمين ، وأن يردوا عليها ، ويخرسوا ألسنة السوء ، هذا بالنسبة للذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم خلال الجهاد من طعام وسلاح وغير ذلك [(١)] .

أما الذى يجد ما ينفق ، ولا يجد الوسيلة التى تنقله إلى ساحة القتال ؛ فعليه أن يذهب إلى ولى الأمر ليسأله الراحلة ، وكان رسول الله ﷺ هو قائد الجهاد فى حياته ، فإن قال لأحد : ليس عندى ما أنقلك عليه إلى مكان القتال . فهذا إذن بالقعود ، لكنه إذن لا يكفى لرفع الحرج عنه ، بل يجب أن يعلن بوجدانه انفعاله فى حب الجهاد ، وحزنه على أنه لم يكن مع الذين يجاهدون .

ولذلك قال الحق : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ وكلمة " تفيض أعينهم " توضح ما فى قلب هؤلاء المؤمنين . والفيض دائماً للدموع ، والدموع هى ماء حول العين ؛ يهيجه الحزن فينزل ، فإذا اشتد الحزن ونفد الدمع وجمدت العين عن البكاء ؛ يؤخذ من سائل آخر فيقال : " بكيت دماً " .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد ، فلم يقل سبحانه وتعالى : " فاضت دموعهم " ، ولم يقل : "بكوا دماً بدل الدموع " ، وإنما قال : ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ ، فكأن العين

---

(١) وذلك بالإعلام الدينى وتحجيم الإشاعات الكاذبة .

ليس فيها ماء ، ولا دم ، ولم يعد إلا أن تفيض العين على الخد ، وذلك إظهار لشدة الحزن في القلب ، وهذا المجاهد لا لوم عليه ولا ذنب ؛ لأنه فعل ما في وسعه وما في طاقته وعبر عن ذلك بحرقة مواجيده على أنه لم يكن من أهل الجهاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

هناك قال سبحانه : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ الذين كانت لهم أعذارهم في التخلف عن الجهاد ، ولكن كانوا محسنين في تخلفهم هذا فقال تعالى : ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . إذن : فعلى من يكون السبيل ؟

وهنا تأتي إجابة الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ .

أي : أن طريق الإثم واللوم والتعنيف والتوبيخ إنما يتجه إلى هؤلاء الأغنياء الذين استأذنوا في أن يقعدوا عن القتال ، ونعلم أن الغنى إذا أطلق ينصرف إلى غنى المال ، ولكن الغنى إذا جاء بالمعنى الخاص ، يكون معناه ما يدل عليه النص . فالذي لا يجد ما ينفقه أعْفَى . إذن : فمن يجد ما ينفقه فهو غنيّ بطعامه . والضعيف قد أعْفَى ، إذن : فالقويّ غنيّ بقوته . والمريض أعْفَى ، إذن : فالصحيح غنيّ بصحته . ومن لا يجد ما ينقله إلى مكان الجهاد فقد أعْفَى ، إذن : فمن يملك راحلة فهو غنيّ براحلته .

وعلى ذلك لا تأخذ كلمة « الغنى » على المال فقط ، بل انظر إلى من تنطبق عليه شروط الجهاد ؟ إذن : فاللوم والتوبيخ والتعنيف والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء ، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد.

ولسائل أن يقول : ولماذا يستأذنون وهم أغنياء ؟

نقول : لأنهم منافقون ، وقد وضعهم نفاقهم في موضع الهوان ، حتى قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ ومن يَرْضَ أن يكون وضعه مع الخوالف ، فهو يتصف بدناءة النفس وانحطاط الهمة ؛ فهم رضوا أن يُعاملوا معاملة النساء ، والخوالف - كما نعلم - جاءت على مراحل ، فهم قالوا:

﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة]

وقلنا من قبل : إن القعود مقابل للقيام ، والقيام من صفات الرجولة ؛ لأن الرجل قَيِّم على أهله . والقعود للنساء ، والخوالف ليست جمع خالف ، وإنما هى جمع « خالفة » ، ولا يجمع بها إلا النساء ، وكذلك كلمة « القواعد » يقول سبحانه:

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور]

أى: أنهم ارتضوا لأنفسهم دناءة وخسة ؛ فتنازلوا عن مهام الرجال ، وارتضوا أن يكونوا مع النساء هرباً من القتال ، والشاعر يقول:

وَمَا أَدْرِى ولسْتُ إِخَالُ أَدْرِى ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

أى : « القوم » فى مقابل « النساء » .

ثم يعلمنا الحق سبحانه وتعالى بعقابهم ، فيقول : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفى الآيـة السـابقة يقـول سـبحانه : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... (٨٧) ﴾ [التوبة]

ما الفرق بين النصين ؟

إذا رأيت فعلاً تكليفيـاً مبنيـاً للمجهـول ، كقولـه تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... (١٨٣) ﴾ [البقرة]

قد يقول قـائـل : كـان المفـروض أن يقـال : « كتب الله عليـكم القتـال» و « كتب الله عليكم الصيـام » ، لأنه صار أمراً لازمـاً مفـروضـاً ، فكان الأولى أن يقـول : كـتب الله ، أى أن الذى يفـرض هو الله. رغم أن الحق سبحانه هو الذى يكلف ، إلا أن كل التكليفات تأتى بصيغة المبنى للمجهول كقـولـه تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وقـولـه سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ... (١٨٠) ﴾ [البقرة]

والسبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف كافراً بأى تكليفات إيمـانية ؛ فسبحـانه لم يكلف بأى حكم من أحكام الإيمـان إلا من آمن به وأسلم له ؛ لذلك فعندما يخاطب سبحانه بالتكليف يقول: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ومن هذا نعلم أنه سبحانه لم يكتب فرضاً أو مهمة على من لم يؤمن ، والإنسـان يدخل فى الإيمان باختـياره ، فـإذا دخل فى الإيمـان كـتب الله عليـه . إذن : فـالإيمـان هو مدخل الفـريضـة . وما دُمْتَ قـد آمنتَ فقـد أصبحتَ طرفاً فيمـا فرضـه الحق سبحانه وتعالى عليك ؛ لأنك لو لم تؤمن

فليست عليك فرائض ، إذن : فأنت الذى ألزمتَ نفسك بحكم الله ؛ لأنك آمنت به إلهاً خالقاً معبوداً . وبإيمانك أنت ؛ فرض الله عليك ، فأنت طرف فى كل فريضة عليك. ورغم أنه سبحانه وتعالى هو الذى فرض ، فقد أحبَّ فيك أنك دخلْتَ فى نطاق التكليف بإيمانك ؛ فبنى الفعل للمجهول.

وإذا جئنا إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ نجد أن الحق يلفتنا هنا إلى أن المنافقين هم الذين جلبوا لأنفسهم هذا الطبع على القلوب ؛ لأنهم وضعوا فى قلوبهم الكفر ، ثم أخذوا يتحدثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ، ويخادعون الله ؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لهم : مادمتم قد اخترتم النفاق والكفر فى قلوبكم ؛ فسنطبع على هذه القلوب ، ونختم عليها حتى لا يخرج الكفر منها ولا يدخل إليها الإيمان.

فسبحانه وتعالى - إذن - هو الذى طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا ، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أن بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم ؛ ولهذا جاء الفعل مبنياً للمجهول ، فهم مشتركون فيه .

أما الآية التى نحن بصددها فيقول تعالى:

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة ينسب الطَّبْع إلى الله يكون أقوى طبع على القلوب ، ويأتى الطبع من الله سبحانه وتعالى كحكم نهائى من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قدراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان ؛ لأنهم لا يعلمون قدر الإيمان الحق ، والإنسان قد لا يفهم شيئاً ، أى : لا يفقهه . ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه.

لذلك فنفْى الفقه أو الفهم لا ينفى العلم ، ولكن حين ينفى العلم فهو ينفى الفهم عن الذات ، وينفى الفهم عن الغير ، ولذلك حين يقال : ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : لا يفهمون بذواتهم ، ولكن قد يتعلمون العلم من غيرهم. أما إذا قلنا : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمقصود أنهم لا يفهمون ولا يتعلمون. إذن: نفى العلم ينسب إلى طبع الله على قلوبهم ، أما نفى الفقه فينسب نسبة عامة للفعل المبنى للمجهول .

فعندما نفى الحق سبحانه وتعالى الفقه عنهم بالفعل المبنى للمجهول أوضح أنهم بنفاقهم لا يفقهون ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يَنْف احتمال أن يعلموا من غيرهم فى المستقبل . ولكن عندما قال الحق : ﴿ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ قد نفى عنهم - أيضاً - العلم بذواتهم ، وكذلك نفى قدرتهم على العلم من غيرهم ، وهذه أقوى أثراً ، وبذلك يكون الطبع على قلوبهم أقوى ؛ لأنهم رفضوا العلم من ذواتهم ورفضوه من غيرهم.

ولذلك نجد ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ فى موضع ، ونجد ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فى موضع آخر ، وكلٌّ تناسب موقعها الذى قيلت فيه.

ثم يقول سبحانه:

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

ومعنى «يعتذر» أى: يبدى عذراً عن شىء يُخرجه من اللوم أو التوبيخ، ويقال : « اعتذر فلان » أى :فعل شيئاً مظنة أنه ذم ، فيريد أن يعتذر عنه .

والحق هنا يقول : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وفى آية سابقة يقول مخاطباً النبى ﷺ :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ... (٨٣) ﴾ [التوبة]

وهكذا نلاحظ أنه سبحانه حين نسب الرجوع إلى الصحابة والمجاهدين قال : ﴿ رَجَعْتُمْ ﴾ ، وعندما نسبه إلى رسول الله ﷺ قال : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ مما يدلنا على أن زمام محمد ﷺ بيد ربه وحده ، ولكن زمام أتباعه يكون باختيارهم .

وهنا يقول الحق : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ ويأتي بعدها ذلك الرد الواضح على محاولة المنافقين فى الاعتذار : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا ﴾ ، وفى هذا رد حاسم ، فأنت حين يعتذر إليك إنسان فقد تستمع لعذره ولكنك لا تقبله ، ومجرد استماعك للعذر معناه أن هناك احتمالاً فى أن يكون هذا العذر مقبولاً أو مرفوضاً . ولكن حين ترفض مجرد سماع العذر ، فمعنى ذلك ألاَّ وجه للمعذرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ فكأنما ساعة أقبل المنافقون على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ وتهيأوا للاعتذار؛ وقبل أن ينطقوا بالعذر ؛ أوضح لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: لا تعتذروا ، ورفض مجرد إبدائهم للعذر . ثم فاجأهم بالحكم فى قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ ومادة «آمن» تدور حول عدة معان ، نقول: «آمن » أى : اعتقد وصدق مثل قولنا : « آمن بالله » ، ويقال : « آمن بالشيء » أى : صدَّقه ، و « آمن بكذا » أى : صدَّق ما قيل . والحق هو القائل :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ... (٨٣) ﴾ [يونس]

وقال إخوة يوسف لأبيهم:

﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ⑰﴾ [يوسف]

أى : لن تصدقنا . وآمن إذا تعدَّتْ بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإن تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④﴾ [قريش]

وتجيء أيضاً « آمن » و « أمن » بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب :

﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... ⑥④﴾ [يوسف]

إذن : فـ « آمن» إن تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيمانى ، وإنْ تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإنْ تعدَّتْ بنفسها إلى الفعل فهى إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإن تعدت بالمفعول أيضاً ؛ فمعناها القدرة على أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا...⑦⑤﴾ [آل عمران]

وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أى: لن نصدقكم . فقد جاء المنافقون ليعتذروا بأعذار كاذبة ، ولكن رسول الله ﷺ يرفض مجرد سماع الاعتذار ، وأعلن لهم :لن نصدقكم . ولو امتلك المنافقون ذرة من ذكاء لفهموا أن رب محمد عليه الصلاة والسلام قد أخبره بكل شىء ؛ حتى بما فى قلوبهم

قبل أن ينطقوه ، ولو امتلكوا ذرة من فطنة لرجعوا عن نفاقهم ، ولدخلوا فى الإيمان ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس ، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالأمر واضحاً فى قوله سبحانه : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ فكأن المسألة ليست فراسة استنتاج ، ولكنها وحى من الله.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .

ما هو العمل الذى سيراه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، بعد أن رفض رسول الله عذرهم ، وأخبرهم بأن الله قد أخبره بما يُخْفونه من كذب فى صدورهم ؟ فسبحانه العالم بالسرائر كلها ، لقد شاء سبحانه ألا يغلق أمامهم باب المرجع إليه ، وكان يجب من بعد ذلك أن يرتدعوا وأن يتيقنوا أن رب محمد ﷺ لا تخفى عليه حتى نواياهم . ومادُمْتم قد علمتم صدق محمد ﷺ فى كل ما أبلغكم به ، أصبح عليكم - إذن - أن ترجعوا وتخرجوا من دائرة النفاق لتدخلوا حظيرة الإيمان ؛ وتراكم الدنيا من بعد ذلك وقد اختلفت أعمالكم من النفاق إلى الإيمان ، أما إنْ أصررتم على ما أنتم فيه ؛ فمعنى ذلك أنكم لم تستفيدوا من العملية الإعجازية التى أنبأ الله فيها رسوله بكذبكم.

إذن: فقد فتح الله باب التوبة أمامكم رحمة منه سبحانه ، فانتهزوا هذه الفرصة ؛ لأنه سبحانه سيرى أعمالكم فى المستقبل ، وعلى أساس هذه الرؤية يرتب لكم الجزاء على ما يكون منكم.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم [1] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة]

وما دام سبحانه عالم الغيب ، فمن باب أوْلى أنه عليم بعالم الشهادة .

(١) الأنباء : الأخبار الهامة. قال الحق: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٦٧﴾﴾[الأنعام] -وأنبأه بالشىء ونبأه به: أخبره ، وذكر له قصته .

والغيب - كما نعرف - هو ما غاب عنك ، فلم تعرف عنه شيئاً . ولكن إنْ غاب عنك ولم يَغِبْ عن غيرك فهو غَيْبٌ نسبى ؛ لأن هناك حجباً منعت عنك العلم ، والمثال : إن سُرِق منك شيء فأنت لا تعرف السارق ؛ ولكن السارق نفسه يعرف ، ومن شاركه يعرف . والذى أخفى السارق عنده المسروقات يعرف . والذى ابتاع المسروقات يعرف.

إذن : فهو غيب عنك وليس غيباً على غيرك . أما الغيب المطلق فهو ما غاب عنك وعن غيرك ، وهناك من يلجأ إلى الدجالين ممن يدّعون قراءة الأفكار ، ويسمونهم المنوِّمين المغناطيسيين ، ويطلب المنوّم من أى واحد أن يُخرج ما فى جيبه من نقود وأن يقوم بعدّها ، ثم يخبره بعددها ، وإنْ أردت أن تكشف ألاعيبه ؛ ضع يدك فى جيبك وأخرج كمية من النقود لا تعرف أنت مقدارها، واسأله عن هذا المقدار فلن يعرف ، لماذا ؟ لأنك نقلت المسألة من غيب قد يعرفه غيرك إلى غيب مطلق.

إذن : فالغيب [1] المطلق هو ما غاب عنك عن غيرك ، وهو أيضاً ما لا تكون له مقدمات توصلك إليه ، فأنت إذا أعطيت ابنك تمريناً هندسيّاً ليحله ؛ فالحل غيب عنه ساعة يقرأ المسألة ، ثم يستخدم المقدمات والنظريات حتى يصل إلى الحل ، فكأن هناك أشياء لها مقدمات توصل إلى النتائج ، وهذه ليست غيباً ؛ لذلك لا يقال لمن اكتشف الكهرباء والذى اكتشف تفتيت الذرة أنهما علما الغيب . فقد كانت هناك مقدمات فى الكون أوصلتهما إلى كشف بعض القوانين الموجودة بالفعل ، لكنّنا لم نكُنْ نعرفها.

---

(١) الغيب: مصدر ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ۝٣﴾[البقرة].
والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه : غيوب قال تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [المائدة] وهذا هو الغيب المطلق .
أما الغيب النسبى : فهو الذى يغيب عنك ولم يغب عن غيرك ، وقد تعرفه عند الإذن بميلاده .

وفى بعض التدريبات ، نجد من يضع المسألة المطلوب حلّها ، ويضع النتيجة الأخيرة بجانبها ؛ لأنه لا يهدف إلى معرفة النتيجة ، ولكنه يهدف لتعليم التلميذ كيف يصل إلى أسلوب الحل الصحيح .

ولذلك إذا أردت أن تحلّ شيئاً فى الهندسة مثلاً ، فلا بد لك من معطيات توصلك إلى الحل ؛ كأن يُطلب منك - مثلاً - إثبات أن الخطين متوازيان ، وفى هذه الحالة يجب أن تكون كل زاويتين متناظرتين متساويتين ، وكل زاويتين متبادلتين متساويتين . إذن : فأنت قد أخذت مقدمات أو معطيات أوصلتك إلى النتيجة ، وكذلك فى تساوى ضلعى المثلث أو أضلاعه ؛ يكون إثباته بتساوى الزوايا . فهل فى هذه الحالة يقال : إنك اهتديت إلى الغيب ؟ أم أنك استخدمت مقدمات أوصلتك إلى نتائج ؟

وأنت حين تبرهن على صحة النظرية المباشرة ، تقول : إن هذا يساوى هذا حسب النظرية رقم تسعة مثلاً ، وإن هذا مقابل لهذا حسب النظرية الجديدة ، وإذا وصلت فى براهينك إلى نظرية رقم واحد فهى النظرية التى لا مقدمات لها ، ولا بد أن تكون بديهية .

وهكذا نجد أن كل علم فى هذا الكون بُنى على نظريات أو مقدمات بديهية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى اكتشاف ما أودعه الله فى كونه من أسرار [1] . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يقول عن نفسه : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى أنه سبحانه عالم بالغيب المطلق ، الذى لا توجد له مقدمات توصلنا إليه ؛ ولذلك لا نستطيع أن نعرف الغيب المطلق ؛ لأنه ليس معروفاً

(١) هذه الاكتشافات التى عرفت من المقدمات والنظريات والتجارب لا يطلق عليها أنها غيب - وإن كانت غائبة قبل التعامل مع المقدمات أو التجارب ، فهذا لجهلنا بالتعامل مع العلم ، وأن ميلاد ظهورها لم يَحِنْ بعد ، فهذا بتقدير العزيز العليم .

عند البعض ، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه ؛ لأنه الغيب الذى ينفرد به الحق عزّ وجلّ .

ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧) ﴾ [الجن]

فسبحانه عالم الغيب المطلق ، وهو يختلف عن الغيب المستور عن البعض ، ويقول الحق عن مواعيد الكشف عن أسرار الغيب المستور :

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ... (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وحين يشاء الله أن يكشف عن بعض أسرار الغيب فهو يحدد الوقت الذى يشاؤه لذلك ، وكل شيء فى الكون له ميعاد ميلاد ؛ مثل : الكهرباء ، والذرة، والوصول إلى القمر ، وغزو الفضاء ، وهذه كلها أشياء لها مواعيد ميلاد . ويبحث العلماء عنها باستخدام المقدمات . ولكنهم لا يصلون إلى سر ميلاد أى اكتشاف إلا بإذن الله حين يلفتهم إلى هذا السرّ ؛ إما بالبحث العلمى ، وإما أن يتم معرفته صدفة.

وهكذا نجد أن البشر يُحَاطون عِلْماً بهذه الأسرار بعد مقدمات وبإذن من الله.

وما دام الحق سبحانه هو عالم الغيب ؛ فيكون سبحانه عالماً بالشهادة [1] من باب أولى ، وقد يظن ظان أنه إن جلس فى مكان معزول مستور

(١) الشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شُهَّد (كراكع ورُكَّع) وجمع الجمع : شهود أو شهود : جمع شاهد ، مثل : قاعد وقعود . والشهادة بمعنى ما يشاهد بالمدركات والوجدانيات للوصول إلى الاختيار ، ذلك عند الإنسان ، أما بالنسبة لله سبحانه فهو عالم الغيب والشهادة فهو (عَلاَّم الغيوب) لأنه خالقها فهو أعلم بغيبها وظاهرها .

ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله ؛ لأنه قد يفعل ما يريد دون أن يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقى ؛ لأن الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستور عنه فى هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه.

وما دام قد جاء الحق هنا بقوله : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فلا بد أن يأتى بعدها ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : يخبركم مقدماً بجزاء ما ستفعلونه من خير أو شر حتى لا يقول أحد : إنه لم يكن يعرف ، أو أنه لو علم أن فعله يؤدى إلى الشر لما فعل ؛ وحتى يكون كل إنسان شهيداً على نفسه ؛ لأن الله أبلغه بالجزاء ، فيكون الجزاء عدلاً لا ظلماً.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فأنت الذى تحكم على نفسك.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) ﴾

وكلمة ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾ فيها سرّ إعجازى من الله ؛ لأن حرف « السين » هنا تدلنا على أنهم لم يحلفوا بعد ، أى أن الآية نزلت وقُرئت وسمعها المؤمنون والمنافقون قبل أن يحلف المنافقون ، وآيات القرآن تُتْلى وتُقرأ فى الصلاة ، ولا تتغير ولا تتبدل إلى يوم القيامة.

ولو كان للمنافقين قدرة على التدبر لما جاءوا وحلفوا . ولقالوا : إن رسول الله ﷺ قال في قرآن يوحى إليه : إننا سنأتي ونحلف ، ونحن لن نأتي ولن نحلف ؛ ولكن لأن الله هو القائل وهو الخالق وهو الفاعل ، فقد شاء أن تغيب الفطنة عن أذهانهم ، مثلما قال سبحانه من قبل:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهم قد قالوا ذلك بعد نزول الآية[١] .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ والانقلاب معناه التحول من حال إلى حال . ومعنى الانقلاب في هذه الآية مقصود به العودة إلى المدينة مقر السلام والأمن بعد الحرب ، فكأن الاعتدال في القتال والانقلاب في العودة إلى المدينة . ولكن لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي : لتعرضوا عن توبيخهم ولومهم وتعنيفهم ؛ لأنهم لم يجاهدوا معكم.

فقال الحق : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي أعطوهم مطلوبهم من الإعراض ولكنه لون آخر من الإعراض ، فلا تلوموهم ولا توبخوهم ولا تؤثموهم ، بل أعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة، لا إعراض صفح ومغفرة[٢] ؛ جزاءً لهم على ما فعلوا ؛ لأن التأنيب والتوبيخ هما من ألوان الجزاء على المخالفة ، ولكنه قد يحمل الأمل في المخالف ليعود إلى الصواب. فأنت إن لم يذهب ابنك إلى المدرسة مثلاً تُوبِّخه وتُعنِّفه ، وأنت تفعل ذلك لأنك تأمل في أن ينصلح حاله ، ولكن إذا استمر على مثل هذا الحال فأنت تهمله ، والإهمال دليل على أنك فقدت الأمل في إصلاحه.

---

(١) لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمستقبل وما فيها ومن فيها .

(٢) إعراض الصفح والمغفرة قد ورد في القرآن الكريم في قوله سبحانه في سورة يوسف من قول العزيز ليوسف : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩] أي : اصفح يا يوسف عما حدث واتهمتك به المرأة ولا تذكره لأحد .

كذلك كان الأمر بالنسبة للمنافقين . لو أن التوبيخ والإهانة كانت ستجعلهم يفيقون ويعودون إلى حظيرة الإيمان ، فهذا دليل على أن هناك أملاً في الإصلاح ، وهم لن ينصلح حالهم ، وهم في ذلك يختلفون عن المؤمنين ، فالمؤمن إن ارتكب إثماً فهو يستحق العتاب والتوبيخ من إخوته في الإيمان ، وفي هذا إيلام له . والمؤمن عرضة أن تصيبه غفلة فيرتكب إثماً ، فإذا حدث بعد هذا الإثم إيلام له من نفسه ، أو بواسطة إخوانه المؤمنين، فهو يفيق ويشعر بالذنب ، وشعوره بالذنب وصول به إلى التوبة .

أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم التوبيخ أو الإيلام النفسي ؛ لأنهم لن يعودوا أبداً إلى حظيرة الإيمان ، ولذلك جاء الأمر : فأعرضوا عنهم ؛ لأنهم لا يستحقون - حتى - اللوم ، فالتوبيخ جزاء على ذنب قد يُقلع عنه من ارتكبه . ولكن هؤلاء لا أمل فيهم ، والعلة يأتي بها القرآن : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والرجس يطلق على معان متعددة ، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أي : هم الخباثة بذاتها ، ويقول العلماء : أي أن فيهم خبثاً وقذارة . وأقول : إن الرجس هو القذارة نفسها ، فلا نقول : إنهم قذرون ؛ لأننا إن قلنا ذلك فالمعنى يفيد أنهم طُهُرٌ أصابهم قذر ، وهم ليسوا كذلك ، إنهم «قذر» في حد ذواتهم ، ولا يطهرهم شيء ؛ لأن الذي يخرج من القذارة يكون مثلها ؛ فهم خباثة لا يطهرها لَوْم أو توبيخ . وأطلق الرجس هنا مثلما قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ [1] ... (٢٨) ﴾ [التوبة]

ولم يقل : « نجسون » بل هم أنفسهم نجس .

---

(١) نَجِسَ ينجَسُ نَجَساً . فهو نَجِسٌ لحقه دنس أو قذر ، وهو في المحسوس حقيقة وفي المعنوي مجاز ، ويوصف بالمصدر للمبالغة فيستوي فيه المفرد وغيره ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (٢٨) ﴾ [التوبة] والنجاسة هنا معنوية فهو الكفر والضلال .

والرجس يطلق أيضاً على الشيء القذر حسيّاً ؛ مثل الميتة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالميتة قذارة حسّية ، كذلك الخمر التي يقول فيها الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ...(٩٠) ﴾ [المائدة]

فالخمر نفسها رجس ،أي : قذارة حسّية ،وعطف عليها الحق- سبحانه - الميسر والأنصاب ، والأزلام [1] ؛ وأخذوا حكم الخمر ، وهكذا نفهم أن الخمر رجس حسّي ، بينما الأنصاب والأزلام والميسر رجس معنوي.

وهناك أيضاً الرجز ، ويطلق على وسوسة الشيطان ، فالحق يقول :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ...(١١) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالرجس له متعلقات؛ معناه هنا الكفر ، والكافر هو قذارة في حَدِّ ذاته لا أنه إنسان أصابته قذارة.

ويقول الحق : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والمأوى : هو المكان الذي يؤويك من شر يلحقك ، ويقال : « آوى إلى كذا » أي : هرب من شر يُراد به ، فإذا كان المأوى الذي يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أن يدخلوا جهنم ، وهي بطبيعة الحال بئس المصير.

(١) الأزلام : سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها : افعل ، والبعض الآخر : لا تفعل . فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى سادن الكعبة فقال : أخرج لي زلماً ، فإن خرج بـ« افعل » فعل ، وإن كانت « لا تفعل » لم يفعل .

وهل ذلك افتئات [1] عليهم أم جزاء ؟ يقول الحق : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ونعرف أن الحسنة يقال عنها : « كسب » ، والسيئة يقال عنها « اكتسب » [2] ، والحق هو القائل :

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... (٢٨٦)﴾ [البقرة]

وذلك لأن عمل الحرام المخالف لمنهج الله لابد أن يشوبه الافتعال ، أما عمل الحلال فهو أمر فطرى لا يكلف النفس مشقة ، ولا تتنازع فيه مَلَكَات ، لكن بعض الناس الذين يعملون السيئات يألفونها إلْفَاً بحيث تصبح سهلة ؛ فلا تكلفهم شيئاً ، ويعتبر الواحد منهم السيئة كسباً ، كأن تأتى لإنسان ، فيحدثك بمغامراته فى الخارج ، ويروى عن رحلاته فى باريس ولندن ، وما فعل فيهما من منكرات . هو يظن أنه يحكى عن مكاسب ، ولا يعلم أنه يحكى عن مصائب وقع فيها باختياره.

مثل هذا الإنسان يفعل السيئة ، وهو معتاد عليها ؛فتصير كَسْباً . وهو عكس إنسان آخر وقعت عليه المعصية ؛ فيظل يبكى ويبكى ويبكى ، ويندم ، وقد يضرب نفسه كلما تذكر المعصية ، ويندم عليها [3] . فالأول فرح بخطاياه ومعاصيه واعتبرها كسباً ، وصارت له دُرْبة وله رياضة وله إلْفٌ بتلك المعاصى.

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الافتئات : الاختلاق والقول بالباطل .

(٢) تعتبر السيئة كسباً عند هؤلاء لأنها أصبحت عادة عندهم .

(٣)عن عبد الله بن مسعود قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابة مرت على أنفه فقال به هكذا » . أى : نحاه بيده أو دفعه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٨٣) والترمذى (٢٤٩٧) . قال ابن حجر فى الفتح (١١/ ١٠٥) : « هذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة ، يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيِّىء » .

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

والرضا هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفع ؛ فحين أقول : أنا راضٍ بالشيء الفلاني ، فمعنى هذا أن كمية النفع التى آخذها منه تكفينى . ومرحلة الإرضاء تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد ترضى أنت بنفع ما ، وعند غيرك ما هو أحسن منه لكنه غير راضٍ ، ويتميز المؤمن بأن كل ما يجرى عليه من غير كسب منه ، لا بد أن يرضى به ؛ لأن مجريه رحيم. وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن ؛ فقد يُضَن عليه بمال ؛ لأنه سبحانه لو زَوَّده بالمال فقد يبعثره على أولاده ، ويصبح المال وسيلة انحرافهم [(١)] ، فالحق سبحانه يعطيه المال بقدر ما يطعم أولاده إلى أن يمر أبناؤه من فترة المراهقة ، ثم ينعم ربنا عليه بالمال بعد أن وصل الأبناء إلى النضج ، وضنّ الحق على العبد أحياناً هو عين العطاء ، ولذلك يقال : «إذا لم يكُنْ ما تريد، فَلْتُرِدْ ما يكون ».

ولماذا يحلف المنافقون [(٢)] ؟ وتأتى الإجابة من الحق: ﴿ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ وماذا يحقق رضا المؤمنين لهؤلاء المنافقين ؟ ثم هل للمؤمن رضاء من خلف رضاء رسول الله ؟ وهل لرسول الله رضا من خلف رضاء ربه ؟

إن ما يُفرح هو رضا مَنْ يملك النفع ، فأنتم حين ترضون عنهم بعد أن يحلفوا لكم ، وتقتنعوا ببشريتكم ؛ فترضوا عنهم ، فليس لكم رضا ينفعهم ، ولا لرسول الله رضا من وراء رضا ربه ، فالرضا الحق هنا هو

(١) قال الشيخ: المنع من الله عين العطاء ، وقد يكون العطاء نقمة .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣١٥٦/٤) : « حلف عبد الله بن أبى ألا يتخلف عن رسول الله ﷺ بعد ذلك ، وطلب أن يرضى عنه ».

رضا الله ، فإياكم أن يخدعوكم بمعسول الكلام ، وزيف الأساليب ؛كى ترضوا عنهم.

ثم يقول الحق: ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ .

أى: إن تحقق هذا الرضا منكم عنهم ، فهو رضاً بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله ، ولا من باطن رضا الله ؛ لذلك يُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ وإن لم يَرْضَ الله فرضاكم لن ينفعهم ، وطلبهم الرضا منكم غباء منهم ، فإن رضاكم عنهم لن يقدم ، ولن يؤخر ؛ إلا إن كان من باطن رضا الله ، ورضا رسوله.

وهنا ملحظ: هم فاسقون أم كافرون ؟ نقول: إن الحق سبحانه أوضح لنا :

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... (١٤٥)﴾ [النساء]

أى أن مكان المنافق فى النار أسفل من مكان الكافر. وكيف يكون المنافق فاسقاً مع أن المؤمن قد يكون فاسقاً؟ فالمؤمن قد يفسق بأن يرتكب كبيرة من الكبائر ، وسبحانه يقول:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ... (٣٨)﴾ [المائدة]

فالمؤمن قد يسرق، وقد يزنى أيضاً. فسبحانه يقول:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ... (٢)﴾ [النور]

وما دام سبحانه قد جرّم الفعل ، ووضع له عقوبة ؛ فمن الممكن أن يرتكبه المؤمن ، ولكن علينا أن نُفرّق بين الفاسق والعاصى ، فمن يرتكب

الكبائر فهو فاسق ، ومن يرتكب الصغائر فهو عاص . فكيف يصف الله المنافقين بالفسق[1] ؟ ولنذكر ما نقوله دائماً من أن الكفر ، إنما هو كفر بمحمد وبالإسلام ، والفسق إذا جاء مع الكفر فهو ليس فسق ارتكاب المعصية والإنسان على دين الإسلام ، لكنه الخروج عن الطاعة حتى فى الأديان التى يتبعها أى قوم ، فالأديان كلها تضم قدراً من القيم ، وأتباعها محاسبون على القيم التى فى أديانهم ، لكنهم أيضاً يفسقون عنها.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

وقد تكلم الحق من قبل فى المنافقين من غير الأعراب ، وهم العرب الذين نزل لهم وللناس كافة منهج الله ، وهنا يتكلم سبحانه عن الأعراب ، فما الفرق بين العرب والأعراب ؟

العرب هم سكان القرى المتوطنون فى أماكن ، يذهبون منها أو فيها إلى مصالحهم ؛ ويأوون إليها ؛ وهذه مظهرها البيوت الثابتة ، والتأهيل المستقر ، لكن الأعراب هم سكان البوادى ، وليس لهم استقرار فى مكان ، إنما يتتبعون مواضع الكلأ ؛ وليس لهم توطُّن ، ولا أنس لهم بمقام ولا بمكان.

ومعنى ذلك أن كلاً منهم ليس له سياسة عامة تحكمه فى تلك البادية ، وكل واحد منهم- كما يقال - صوته من دماغه ، أو من دماغ رئيس القبيلة ، وما داموا بهذا الشكل ، وليس عندهم توطن ؛ يوحى بالمعاشرة

(١) الفسق إذا تعلق بالعقيدة فهو كفر ، فكل ما يفعله فهو فسوق أى خروج عن أمر الله ومراده ، وفسق المؤمن هبوط نفس مؤقت له التوبة، يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء] .

التى تقتضى لين الجانب وحسن التعامل ؛ لذلك يقال عن كل واحد منهم «مستوحش » أى: ليس له ألفة بمكان أو جيران أو قانون عام.

أما الذى يحيا فى القرية ويتوطنها فله جيران ، وله قانون يحكمه ، وله إلف بالمكان ، وإلف بالمكين ، ويتعاون مع غيره ، ويتطبع بسكان القرية ويألفهم ويألفونه ومع الإلف والائتلاف يكون اللين فى التعامل ، عكس من يحيا فى البادية ، فهو يمتلىء بالقسوة ، والفظاظة ، والشراسة ؛ لأن بيئته نضحت عليه[1] والوحدة عزلته .

فإذا سمعت « أعراب » فاعلم أنهم سكان البادية المشهورون بالغلظة ؛ لأنه لا يوجد لهم تجمع يوحى لهم بلطف سلوك ، وأدب تعامل ، وكلمة «الأعراب » مفردها « أعرابىّ» . وهناك أشياء الفرق بين مفردها وجمعها التاء ، مثل « عنب » و « عنبة » هى المفرد ، وقد يفرق بين الجمع والمفرد « ياء» مثل « روم » والمفرد « رومى » .

فـ « أعراب » - إذن - هى جمع « أعرابى » وليست جمع عرب. وهؤلاء مقسومون قسمين : قسم له إلف بالحضر ؛ لأن كل أهل حضر قد يكون لهم بادية يلجأون إليها ، أى أن الأعرابى حين يذهب إلى البادية فهو ينزل ضيفاً عليهم ، ويسمون « المعارف » ، وكل واحد فى البادية قد يكون له واحد فى الحضر ، إذا اضطر للذهاب للمدينة أو للقرية فهو ينزل عنده . وهناك قسم آخر لا بادية لهم ولا حاضرة.

وبعد أن تكلم الحق عن العرب ونفاقهم، يتكلم هنا عن الأعراب فيقول:

---

(١)ومن أمثلة غلظتهم أن أبا هريرة قال : قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالساً ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً . فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٧) ومسلم فى صحيحه أيضاً (٢٣١٨) .

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ولماذا هم أشد كفراً ونفاقاً ؟ لأنهم بعيدون عن مواطن العلم والدعوة [1] ، وعندهم غِلْظة ، وعندهم جفاء ، وقوله سبحانه :

﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعنى : أحق ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله [2] ؛ لأن عرفان حدود ما أنزل الله من الأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ، يأتى من التواصل مع العلم ، وهذا لا يتأتَّى بالتنقل من مكان إلى آخر ، بل لا بد من الاستقرار . والعلم - كما نعرف - ألا تغيب عن العالم قضية من قضايا الكون ؛ وكل واحد منا يعلم علماً على قدر تجربته ومراسه فى الحياة ، وعلى قدر جلوسه إلى العلماء ، لكن الله وحده يعلم علم الجميع .

والعلم عند البشر قد يوظّف ، وقد لا يوظّف ، وكثير من الناس عندهم العلم لكنهم لا يُوظِّفونه ، ومن لا يُوظِّف علمه يصير علمه حُجة عليه . أما من يُوظِّف علمه ، ويضع الأمر فى محله ، والنهى فى محله ، والحلال فى محله ، والحرام فى محله ، والمشتبه يضع له حكماً مناسباً ، فهو يوصف بالحكيم ؛ لأنه وضع كل شىء فى محله .

---

(١) قد يقول قائل : كيف هذا ونحن نستشهد بأشعارهم ولغاتهم ، وعلماء اللغة من الأصمعى وغيره كانوا يجوبون قبائل الأعراب لتعرف لغاتهم . يقول أبو يحيى الأنصارى فى فتح الرحمن ص (١٧٢) : « وصفهم بالجهل إنما هو فى أحكام القرآن ، لا فى ألفاظه ، ونحن لا نحتج بلغتهم فى بيان الأحكام ، بل فى بيان معانى الألفاظ ؛ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم » .

(٢) ومن طريف ما يروى فى هذا عن إبراهيم النخعى قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدّث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم «نهاوند» فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى، وإن يدك لتريبنى . فقال زيد : ما يريبك من يدى إنها الشمال ؛ فقال الأعرابى : والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال . فقال زيد بن صوحان : صدق الله ورسوله ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٩٧]

فإذا شرع الله أمراً ، فسبحانه قد شرع عن « علم » وعن « حكمة » ، وما دام قد شرع يجب ألا نخالفه ؛ لأن كل تشريع ينزله الله على رسوله إنما هو لتنظيم حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق الحياة وخلق كل المخلوقات ، وإياك أن تدس أنت أنفك فتشرِّع ما يغضب الحق ؛ لأن فساد الكون كله قد جاء من الذين أرادوا أن يُقَنِّنوا للخلق ، رغم أنهم لم يخلقوهم . ونقول لهم : دعوا التقنين للخلق لمن خلق الخلق ، فهو الصانع العالم بحدود ما صنع ووضع قوانين صيانة ما خلق ، وهو سبحانه الذى يمكنه أن يصلحها إن أصابها عطب أو فساد.

ومن هؤلاء الأعراب - الذين هم أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله - قوم آخرون يقول عنهم الحق:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

وعلى سبيل المثال : إذا ذهب إليهم داعية من الدعاة ، وقال لهم فكرة عن الإسلام . فالواحد من هؤلاء الأعراب يدَّعى فى ظاهر الأمر أنه يتبع الإسلام ، وإن عُلِمَ أن فى الإسلام زكاة فهو يعطى عامل الزكاة النصاب المقرر عليه ، ويعتبر ما دفعه « مغرما » أى غرامة ؛ لأنه أعطى النصاب وهو كاره . ومادُمْتَ كارهاً فأنت لا تؤمن بحكمته ، وتظن أن ما دفعته مأخوذ منك . وتقول : « أخذوا عرقى» و« أخذوا ناتج حركتى » وأعطوه لمن لم يعرق ولم يتحرك فى الحياة ، متناسياً أن هذا الأخذ هو تأمين لحياتك ؛ لأنك حين تعجز ستجد من يعطيك ، والإسلام يأخذ منك وأنت قادر ، ويعطيك إذا عجزت ، وفى هذا تأمين لحياتك.

وأنت تعلم أن الأشيـاء أعراض فى الكون ؛ القـوة عـرض ، والمرض عرض ، والصحة عرض ، والعجز عرض ، وأنت عُرْضة إن كنت قادراً أن تصير عاجزاً ، وإن كنت صحيح الجسد فأنت عرضة لأن تمرض ، فإذا ما طمأنك المشرع على أن أخاك العاجز حين عجز أخذنا منك له حين قدرت ؛ وبذلك تواجه أنت الحياة برصيد قوى من الإيمان والشجاعة ، ويبين الحق لك أنك لا تعيش وحدك ، ولكنك تعيش فى مجتمع متكافل ، إن أصابك شيء من عجز ، فقدرة الباقى هى المرجع لك.

وكان الواحد من هؤلاء الأعراب يؤدى نصاب الزكاة وهو كاره ويعتبرها مَغْرماً ، ومنهم من كان يتمنى أن تصيب المسلمين كارثة ؛حتى لا يأخذوا منه الزكاة ، وهكذا كان الواحد منهم يتربص بالمسلمين الدوائر ، مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ . أى يتمنى وينتظر أن يصيب المسلمين كارثة ؛ فلا يأخذوا منه الزكاة التى اعتبرها مغرماً .

ولماذا قال الحق : ﴿ الدَّوَائِرَ ﴾ ؟ نعلم أن الخطْبَ الشديد حين يصيب الإنسان أو القوم إن كان فظيعاً وقوياً يقال : « دارت عليهم الدوائر » . أى أن المصيبة أحاطت بهم ؛ فلا منفذ لهم يخرجون منه ، وكان بعض من الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر ؛ لأنهم كارهون لدفع الزكاة ويظنون أنها غرامة ، ولا يستوعبون أن الزكاة تُكْتب فى الميزان ، وأنها تطهير ونماء للمال ، وأنها حمل لعجز العاجز ، إن عجز الواحد منهم ؛ فسوف يجد من يحمله.

والذى يتربص بكم الدوائر ، ولا يفطن إلى حكمة الأخذ منه ، هو الذى تأتى عليه دائرة السوء مصداقاً لقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ لأن أياً منهم لم يفطن وينتبه لقيمة الوجود فى

المجتمع الإيمانى الذى يعطى له الزكاة إن عجز ، فإن تربصت الدائرة بمن يأخذ منك ، ولم تفطن إلى أن من يأخذ منك يصح أن يأخذ من الغير لك ؛ فسوف تأتى الدائرة عليك .

وقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ تبدو كأنها دعوة ، ومن الذى يدعو ؟ إنه الله . وهناك فرق بين أن يدعو غير قادر ، وبين أن يدعو قادراً . إن كان ربنا هو من يقول : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ ، فدائرة السوء قادمة لهم لا محالة .

وينهى الحق الآية : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فسبحانه يسمع كلماتهم حين يأتى عامل الزكاة ليأخذ نصاب الزكاة ، وكيف كانوا يستقبلونه بما يكره ، وقد يكرهون فى طى نفوسهم ولا يتكلمون ، فإن تكلموا فالله سميع ، وإن لم يتكلموا ، وكتموا الكراهية فى قلوبهم ، فالله عليم ، إذن : هم محاصرون بعلم الله وسمعه .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه للصنف الثانى ، وهم من لهم قليل من الإلف ، فإن كان من البادية فله أهل من الحضر ، أو كان من الحضر فله أهل من البادية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٩٩)

ومن هؤلاء من يؤمن بالله ، ويؤمن باليوم الآخر ، وما ينفقه من زكاة أو صدقة فهو يتخذه قربى إلى الله الذى آمن به ، وكنزاً له فى اليوم

الآخـر ، و" قـربى " : أى : شىء يقـربه إلى الله ؛ يدخـره له فى اليـوم الآخر ، وقـوله الحق : ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يجـعل مـا ينفق قـربة إلى الله وكذلك طلباً لدعاء الرسول ؛ لأن الصلاة فى الأصل هى الدعاء ، فسـاعة يصـل إلى رسـول الله ﷺ نـفقة للمسلمين الضعـاف ممن يعتبرها قربة ، فهو ﷺ يدعو له .

وقد قال ﷺ : « اللهم اغفر لآل أبى أوفى ، وبارك لهم » .

وقد دعا بذلك حين جاء له ما تزكى وتصدق به بنو أبى أوفى ، ودعوة الرسول مجابة إلا ما قال الله إنه سبحانه لا يجيبه [1] لحكمة .

ولقائل أن يقول : ألا يعلم من يقدم الزكاة والصدقة قربى ، أنه سبحانه غير مستفيد من هذا العمل ؟ ألا يعلم أنها قربى له شخصيّاً ؟ نعم إنه يعلم ، ويعلم أن الله يثيبه على أمر ينتفع به الفقراء ، وفى هذه إشارة إلى أن كل تكليف من الله إنما يعود نفعه إلى المكلَّف لا إلى المكلِّف . وما دام العائد إلى المكلَّف ؛ فالله يدعوك لصالح ذاتك وإلى خير لك .

ومن اعتبرها قربى إلى الله يأت لهم القول الحق : ﴿ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وقد قالَ ذلك للأعراب الذين أنفقوا قربى لله ، وطمعاً فى دعوات الرسول ﷺ ، فأوضح لهم سبحانه أنها قربى لهم ؛ لأنهم المنتفعون بها ، وأنه سيدخلهم فى رحمته . ورحمة الله هى نعيم مقيم ، وهى دائمة وباقية ببقاء الله الذى لا يُحَدّ ، أما الجنة فباقية وخالدة . بإبقاء الله لها . إذن : فدخولك فى رحمة الله أعلى من دخولك جنته .

فحين يقال : " دخل فى الرحمة " فمعنى ذلك أن الرحمة ستظله إلى ما لا نهاية .

(١) وذلك من نحو قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

وحينما يسمع أى أعرابى قول الحق : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ؛ فعندما سمع الأعرابى هذه الآية جلس يحدث نفسه بالعطاءات الإلهية . فيكبح جماح خطرات السوء فى نفسه، أو بالزلات أو بالهفوات التى قد ينطق بها ، وقد يقول الأعرابى لنفسه : إنى أخاف ألا يغفر الله الخطرات أو السيئات والهفوات ، فتأتى الآية مطمئنة له ما دام قد فعل السيئة بغفلة أو بسهو ، وعليه أن يعلم أن الله غفور رحيم ، ولا داعى أن يعكر على نفسه بالظن بأنه لن يدخل فى رحمة الله [(١)] .

لذلك جاء سبحانه بالقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لعل واحداً ممن يسمع هذا ؛ يظن أن الجزاء والقربى والدخول فى رحمة الله خاصٌ بمن لم يذنب ذنباً أبداً ، فيوضح له القول : اطمئن . إن كانت قد حصلت منك هفوة أو غفلة ، فاعلم أن الله غفور رحيم ، فلا يعكر عليك ذنبك إيمانك بأنك سوف تدخل فى رحمة الله .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) .

و " السابق " هو الذى حصل منه الفعل - بصدد ما هو فيه - قبل غيره ، وكلنا والحمد لله مؤمنون ، ومن آمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك كلهم مؤمنون ، لكنْ هناك أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق اتباع ؟ إن سبق الزمان يتحدد فى الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، فإن ظن ظان أن المقصود بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول منا قائل : وما ذنبنا نحن وقد جئنا بعد زمانهم ؟

ولذلك نقول : إنما السبق يعتبر من معاصر ، أى : كان معهم أناس غيرهم وهم سبقوهم ؛ ولذلك جاء القول : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ونعلم أن الذين هاجروا مع الرسول لم يكن كل مسلمى مكة ، وجاء قوله : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ وأيضاً لم يكن كل الأنصار من أهل المدينة هم من السابقين .

وينحصر المعنى فى الذين سبقوا إلى الإيمان فى مكة ، وسبقوا إلى النصرة فى المدينة ، هؤلاء هم ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ .

وفى سورة الواقعة يقول الحق : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾ [الواقعة]

ثم يأتى من بعدهم فى المرتبة :﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ۝٢٧﴾ [الواقعة]

ثم يحدد الحق هؤلاء فيقول : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة]

ولذلك حينما يأتى من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد ﷺ تأخر عن عصر محمد ﷺ أن يصل إلى منزلة الصحابة ؛ لأن الله قال :

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ ، نقول له : لا ، بل افطن إلى بقية قوله سبحانه :﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد زمان رسول الله ﷺ سينالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحق أن يكون من أمة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة مَنْ يصل إلى منزلة الصحابة.

وقد طمأن النبى ﷺ الناس الذين لم يدركوا عهده حين قال:

« وددت أنِّى لقيت إخوانى ». فقال أصحاب النبى ﷺ : أو ليس نحن إخوانك ؟. قال : « أنتم أصحابى ، ولكن إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى »(١).

وهذا قول صادق من المصطفى ﷺ ؛ لأن منا من تنحصر أمنيته فى أن يحُجَّ ويزور القبر الشريف. ويضيف النبى ﷺ فى وصف أحبابه:

« عمل الواحد منهم كخمسين ». قالوا: منهم يا رسول الله أم مِناً ؟ قال: بل منكم ؛ لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً » .

وهذا ما يحدث فى زماننا بالفعل.

ولكن من هم السَّابِقُونَ المقصودون فى الآية التى نحن بصددها ؟

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ونعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة فى الإسلام ، مع أنهم خرجوا من المدينة ، لا ليشهدوا حرباً ، ولكن ليتعرضوا عيراً تحمل بضائع ، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا الحرب ، لا مع القوافل التى ضمَّتْ العير

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٥) عن أنس بن مالك . وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٦٦) : « فى إسناد أحمد جسر وهو ضعيف » .

والحراس والرعاة [١] ، ولكن دخلوا الحرب مع النفير ، وهم من جاءوا ونفروا من مكة ، وهم صناديد قريش [٢] . وهكذا كانت منزلة أهل بدر ، أنهم من سبقوا إلى الجهاد فى أول معركة للإسلام.

ولذلك حين وشى حاطب بن أبى بلتعة بغزوة رسول الله ﷺ إلى مكة ، فجاء به ﷺ وقال له : ما الذى حملك على هذا ؟ وكان ﷺ يريد أن يفتح مكة دون أن يعلم أحد ؛ حتى لا يقاتل المسلمون القادمون بعضاً من المؤمنين الموجودين فى مكة ولم يعرفهم أحد ؛ لذلك أراد ﷺ المفاجأة فى الفتح ؛ حتى تهبط الشراسة الكفرية ، لكن حاطب بن أبى بلتعة كتب خطاباً إلى بعض أهل قريش ، فأخبر الله نبيه ﷺ ، فقال النبى ﷺ لعلىٍّ رضى الله عنه ومن معه : اذهب إلى مكان اسمه « روضة خاخ » فى الطريق بين مكة والمدينة ، فستجد ظعينة (مسافرة) معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته فى عقيصتها [٣] .

فلما ذهب على - رضى الله عنه - ومن معه يبحثون عن المرأة فى الموضع الذى ذكره لهم رسول الله ﷺ ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها ؛ فأخرجته من عقيصتها ؛ فوجده من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من مشركى قريش . وعاد به إلى النبى ﷺ ، فأحضر النبى ﷺ حاطباً ، وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ قال له: يا رسول

---

(١) وذلك أن أبا سفيان قد أخذ طريق الساحل بالعير، فقد قال له أحد عيونه : رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيريهما ، ففته ، فإذا فيه النوى فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعاً ، فضرب وجه عيره عن الطريق ، فساحل بها ، وترك بدراً بيسار ، وانطلق حتى أسرع . انظر : سيرة النبى لابن هشام (٦١٨/٢) .

(٢) الصناديد هم العظماء الأشداء ، وهم هنا : أبو جهل و أمية بن خلف وغيرهما من كبار كفار قريش .

(٣) العقيصة : هى نوع قريب من تضفير المرأة لشعرها . قال الليث : العقص أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها .

الله : أنا لصيق [1] بقريش ولى فيها أهل ومال ، وليس لى بها عزوة ؛ فأردت أن أتخذ يداً [2] عند قريش يعرفونها لى ؛ فيحافظوا على أهلى وعلى مالى ، وعرفت أن ذلك لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته ينفعنى ولا يضرك ، قال : صدقت. صدقت. وأراد عمر - رضى الله عنه - أن ينزل عليه بسيفه ، فقال النبى ﷺ : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطَّلَع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [3] .

لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عُدَّة ، وبدون استعداد ، ومع ذلك هانت نفوسهم عليهم ، فكأن الله قال: أنتم عملتم ما عليكم ، وقد غفرت لكم كل ما تفعلونه من السيئات.

إذن: فالسابقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رُدُّوا مع رسول الله ﷺ عن العمرة ، ثم عقد النبى ﷺ مع القرشيين المعاهدة.

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا للنبى فى مكة ، وأعطوا له العزوة وأعطوا له الأمان والعهد ، وكانوا اثنى عشر فى بيعة العقبة الأولى ، وخمسة وسبعين فى العقبة الثانية [4] . هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ أى: من يأتى من بعدهم.

---

(١) اللصيق : هو الرجل يقيم فى الحى وليس له بهم صلة نسب أو قرابة . وهذا كان حال حاطب . وقد جاء به الحديث .

(٢) يداً : أى فضلاً عليهم يعرفونه لى عند غزو المسلمين لمكة .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٧ ، ٤٨٩٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٩٤) . عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٤) انظر عدد من بايع رسول الله ﷺ من الأنصار فى البيعتين الأولى والثانية فى سيرة النبى ﷺ (٤٣١/٢ ، ٤٥٤) . أما عند بدء عرض الإسلام عليهم فقد كانوا ستة من الخزرج ، ولكنها لم تكن بيعة .

وسيدنا عمر له وقفة في هذه الآية ، فقد كان رضي الله عنه يقرأها هكذا: « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » أي: يعطف كلمة الأنصار على « السابقون » وكانت قد نزلت : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ ويكمل سيدنا عمر بعد « والأنصار » « الذين اتبعوهم بإحسان » أي: أنه جَعل « الذين اتبعوهم » صفة للأنصار.

وجاء زيد بن ثابت ليقول لسيدنا عمر : « قرأناها على غير هذا الوجه يا ابن الخطاب » . قال : فماذا ؟ قال : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم﴾ .

فقال عمر : ابعث إلى أبيّ بن كعب ، وكان ابن كعب حجة في القرآن[1] فقال أبيّ: هكذا سمعتها - كما قال زيد - من رسول الله ﷺ وأنت تبيع القَرَظ [2] في البقيع. أي أن أبيّ بن كعب كان ملازماً للنبي ﷺ بينما عمر يبيع القرظ ، فضحك عمر وقال: لو قلت شَهِدت أنت وغِبْنا نحن ، وقرأها عمر من بعد ذلك كما نزلت[3] .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ خصوصاً أن سيدنا أبيّاً البصير بالقرآن جاء بأكثر من دليل من غير هذه الآية فقد قال الحق:

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ... ③ ﴾ [الجمعة]

(١) كان أبيّ بن كعب الأنصاري من أصحاب العقبة الثانية وشهد بدراً والمشاهد ، قال له النبي ﷺ : «ليهنك العلم أبا المنذر » أخرجه مسلم في صحيحه (٨١٠) وأحمد بنحوه (٥/ ١٤٢) . وقال له : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك » . قال : آلله سماني لك ؟ قال : الله سماك لي . قال : فجعل أبي يبكي » متفق عليه أخرجه البخاري (٤٩٦٠) ومسلم (٧٩٩) وكان عمر يسميه سيد المسلمين ويقول: اقرأ يا أبي . انظر : الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ١٦) ترجمة :٣٢ .

(٢) القرظ : ورق شجر كانت تدبغ به الجلود في أرض العرب .

(٣)انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٣) والقرطبي (٤/ ٣١٦٤) .

وقوله الحق فى سورة الحشر :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ... ⑩ ﴾ [الحشر]

وهى معطوفة أيضاً[1] .

وهنا فى الآية التى نحن بصددها يقول الحق :

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑩⑩ ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول ما يطمئن أمة محمد ﷺ ، فلم يأت لنا فقط بخبر الفئة السيئة من المنافقين من العرب ، والمنافقين من الأعراب ، ولكنه أوضح لنا أن هناك أناساً أوصلوا لنا جمال هذا الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١ ﴾

أوضح سبحانه : وطِّنوا أنفسكم على أن من حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، وهذا التوطين يعطى مناعة اليقظة ؛ حتى لا يندس واحد من المنافقين على أصحاب الغفلة الطيبين من المؤمنين ، فينبههم

(١) وقد استشهد أبىّ بن كعب أيضاً بآية : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُم ... ﴾ [الأنفال : ٧٥]

الحق : انتبهوا فأنتم تعيشون فى مجتمع محاط بالمنافقين. والتطعيم ضد الداءات التى تصيب الأمم وسيلة من وسائل محاربة العدو ، ونحن نفعل ذلك ماديّاً حين نسمع عن قرب انتشار وباء ؛ فنأخذ المصل الواقى منه ، رغم أنه داء إلا أنه يعطينا مناعة ضد المرض.

وهكذا يربى الحق المناعة بحيث لا يمكن أن يُهاجَم المؤمنون عن غفلة ، فيقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ و «مرد» يمرد أى : تدرب وتمرن ، ويبقى الأمر عنده حرفة ، وكأن الواحد منهم يجيد النفاق إجادة تامة. وكل ذلك ليوجد مناعة فى الأمة الإسلامية ؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة فى مواجهة أى شىء ، فإذا رأى أى سلوك فيه نفاق اكتشفه على الفور . واليقظة تدفع عنك الضر ، ولا تمنع عنك الخير.

وافرض أن واحداً قال لك: إن هذا الطريق مَخُوف لا تمشِ فيه وحدك بالليل . ثم جاء آخر وقال : إنه طريق آمن ومشينا فيه ولم يحدث شىء ، فلو أنك احتطْتَ وأخذت معك سلاحاً أو رفيقاً فقد استعددت للشر لتتوقاه، فَهَبْ أنه لم يحدث شىء، فما الذى خسرته ؟ إنك لن تخسر شيئاً.

وهذه قضية منطقية فلسفية يُردّ بها على الذين يشككون فى دين الله ، مثل المنجِّمين ، ومَن يدَّعون الفلسفة ، ويزعمون أنه لا يوجد حساب ولا حشر ولا يوم آخر ، فيقول الشاعر:

زَعَم المنجِّم والطَّبيبُ كلاهما ... لا تُحْشَرُ الأجسَاد قلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قولكُمَا فَلسْتُ بخَاسرٍ ... أوْ صَحَّ قَوْلِى فَالخسَار عليكُما

أى: إن كان كلامكم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث - والعياذ بالله - فلن أخسر شيئاً ؛ لأنى أعمل الأعمال الطيبة . وإن كان هناك بعث - وهو

حق - فسوف ألقى الجزاء فى الجنة ؛ وبذلك لم أخسر ، بل كسبت . لكن افرضوا أنكم عملتم الشر كله وجاء البعث فأنتم الخاسرون . والقضية الفلسفية المنطقية هنا هى : إن لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إن لم تخسروا فلن تكسبوا.

والحق فى هذه الآية يقول:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ. . ﴾
وكلمة ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ تفيد أنكم محاصرون ، لا ممن حولكم فقط ، بل أيضاً ببعض من الموجودين بينكم فى المدينة ، وهم من تدربوا على النفاق حتى صارت لهم ألفة به.

وهذه الآيات - كما نعلم - قد نزلت تحكى حال المنافقين. والنفاق تتعارض فيه ملكات النفس الإنسانية بأن توجد ملكة كفر فى القلب ، بينما توجد ملكة إيمان فى اللسان ، فلا يتفق اللسان مع القلب ، فالذين آمنوا يوافق ما ينطقون به ما فى قلوبهم ، والذين كفروا وافقت قلوبهم ألسنتهم.

أما الصنف الثالث: وهم الذين نطقوا بالإيمان بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم ، فهؤلاء هم المنافقون.

وهو لفظ مأخوذ من « نافقاء اليربوع » ، وهو حيوان صحراوى يشبه الفأر ، ويخدع من يريد صيده ، فيجعل لبيته أو جحره عدة فجوات ، فإذا طارده حيوان أو إنسان يدخل من فجوة ، فيتوهم الصائد أنه سيخرج منها ، ويبقى منتظراً خروجه ، بينما يخرج اليربوع من فجوة أخرى ، فكأنه خادع الصائد ، فالصائد يظن أن للجحر باباً واحداً ، ولكن الحقيقة أن للجحر أكثر من مدخل ومخرج . والنفاق بهذه الصورة فيه ظاهرتان : ظاهرة مَرَضيّة فى المنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق ؛ ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة.

ومن العجيب أن ينشأ النفاق فى المدينة التى آوت الإسلام وانتشر منها ، وانساح إلى الدنيا كلها ، ولم يظهر فى مكة التى أرادت أن تطمس الإسلام ، وحارب سادتُها وصناديدُها الدعوةَ .

إذن : فلا بد أن نأخذ من النفاق ظاهرتين : الظاهرة الأولى وهى الظاهرة المرضيّة ، حيث قال الحق :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... ⦗١٠⦘ ﴾ [البقرة]

أما الظاهرة الثانية فهى الظاهرة الصحية ، فقد أصبح الإسلام قويّاً بالمدينة غيره عند بدء الدعوة فى مكة . إنما يُنَافَق القوى [1] ؛ لأن المنافق يريد أن ينتفع بقوة القوى ، كما أن المنافق يعرف أنه لن يستطيع مواجهة القوى ، أو أن يقف منه موقف العداء الظاهر .

إذن : فالنفاق حين يظهر ، إنما يظهر فى مجالات القوة ، لا فى مجالات الضعف ، فالرجل الضعيف لا ينافقه أحد ، والرجل القوى ينافقه الناس . إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية بالنسبة للمنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق .

وأراد الحق سبحانه أن يكشف للمؤمنين أمر المنافقين الذين يتلصصون عليهم ، أى : يتخذون مسلك اللصوص ؛ فى أنهم لا يُواجهون إلا فى الظلام ، ويحاولون أن يدخلوا من مداخل لا يراهم منها أحد ، ويتلمّسون تلك المداخل التى لا تظهر ، ويُخْفون غير ما يظهرون .

أما مواجهة الكافر فهى مسألة واضحة ، صريحة ؛ فهو يعلن ما يبطن ، ويواجهك بالعداء . وأنت تواجهه بجميع قوتك وكل تفكيرك ؛ لأنه واضح الحركة . أما المنافق الذى يُظهر الإيمان وفى قلبه الكفر ، فهو

---

(١) لأنها تبين طبيعة نفسه ، فهذه النفس تنافق الأقوياء لضمان النفع ، ولا نفاق لفقير أو ضعيف لأنهما ليسا مصدرين لمنافع فلا ينافقهما أحد .

يتلصص عليك ، وعليك أن تحتاط لمداخله ؛ لأنه ينتظر اللحظة التى يطعنك فيها من الخلف.

وينبهنا الحق إلى ضرورة الاحتياط ، وأن يمتلك المؤمنون الفطنة والفراسة وصدق النظر إلى الأشياء ، وعدم الانخداع بمظاهر تلك الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كل أوجه النفاق ؛ كشف منافقى المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافقى الأعراب الذين يوجد بينهم منافقون وغير منافقين ، وعَلّم الحق سبحانه المؤمنين كيف يتعرفون على المنافقين بالمظاهر التى تكشف ما يدور فى صدورهم.

وسبحانه القائل عن المنافقين: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... (٣٠) ﴾ [محمد]

ولكنْ هناك لون من النفاق ، نفاق فنى دقيق ، يغيب على فطنة المتفطن ، وعلى كياسته . ولذلك يوضح لنا سبحانه : أنا لا أكلُكم إلى فطنتكم لتعلموا المنافقين ، وإنما أنا أعلمه وأنتم لا تعلمونه ؛ لأنهم قد برعوا فى النفاق ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ورغم فطنة رسول الله ﷺ وكياسته فقد أوضح له الحق أنه سيغيب عنه أمرهم ؛ لأنهم احتاطوا بفنّية النفاق فيهم حتى لا يظهر.

لقد عبّر القرآن التعبير الدقيق ، فقال : ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ والمادة نفسها فى كلمة ﴿ مَرَدُوا ﴾ هى من مرد ، يمرد ، مروداً ، ومارداً ، ومريداً ، هذه المادة تصف الشىء الناعم الأملس الذى لا تظهر فيه نتوءات، ومنه الشاب الأمرد ، يعنى الذى لم ينبت له شعر يخترق بشرته ، إذن : المادة كلها تدل على الثبات على شىء ، وعدم وجود شىء فيه يخدش هذا الثبات.

ويوضح سبحانه : تنبّهوا ، فممّن حولكم من الأعراب منافقون ، وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ يشعرَ بأنهم محاطون بالنفاق ، ولماذا يحاطون بالنفاق ؟ لأن الدعوات الإيمانية لا تظهر إلا إذا طمّ الفساد فى بيئة .

ونعلم أن الحق قد جعل فى النفس أشياء تطرد الباطل ، وإن ألحّ الباطل عليها فترة ، تتنبه النفس إليه وتطرده [1] . وهؤلاء هم الذين يتوبون ، يقترفون الذنب ثم ترجع إليهم نفوسهم الإيمانية فتردعهم . إذن : فالردع إما أن يكون ذاتيّاً فى النفس ، وإما أن يكون من المجتمع للنفس التى لا يأتيها الردع من الذات ، فهى نفس أمَّارة بالسوء ، وهى لا تأمر بالسوء مرة وتنتهى ، بل هى أمّارة به ، أى : اتخذت الأمر بالسوء حرفة ؛ لأن صيغة « فعّال» تدلنا على المزاولة والمداومة .

وإذا كانت المناعة فى النفس فهذا أمر يسير ويأتى من النفس اللوامة ، وقد يكون المجتمع الذى حول الإنسان هو الذى يردع النفس إن ضعفت فى شىء . وبهذا تكون المناعة فى المجتمع ، أما إذا طمّ الفساد أيضاً فى المجتمع ؛ فلا النفس تملك رادعاً ذاتيّاً ، ولا المجتمع فيه رادع ؛ هنا لا بد أن تتدخل السماء ، وتأتى دعوة الحق بآياتها ، وبيناتها ، ومعجزة الرسول .

هنا يقف أصحاب الفساد - وتكون نفوسهم أمّارة بالسوء - موقفاً ينافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمّارة بالسوء ، فتظهر ظاهرة النفاق .

وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أنكم مطوقون فى ذاتكم ومن حولكم ، فالنفاق فى ذات المكان الذى تقيمون فيه ، وفيما حولكم أيضاً .

---

(١) يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف: ٢٠١] أى : استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٧٩) .

وأخشى ما يخشاه الإنسان ، أن يوجد الأمر الضار حوله و فيه ؛ لأنه إن كان الأمر الضار فى المكان الذى يعيش فيه ، فمن حوله يستطيعون إنقاذه أو يستطيع هو أن يهجر المكان ، لكن إن كان محاصراً بالضرر ممن حوله ومن المكان الذى يحيا فيه ، فإلى أين يذهب ؟

ويريد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أن ظاهرة النفاق متفشية ؛ منها ما تستطيعون - أيها المؤمنون - معرفته بمعرفة حركات المنافقين وسكناتهم ولحن قولهم وتصرفاتهم [(1)] ، ومنها أمر دقيق خفى لا تعلمونه ، ولكنه سبحانه يعلمه ؛ ولأنكم غير مسلمين لأنفسكم ، ولكم رب يعلمكم ما لا تعلمون فاطمئنوا ؛ فسوف يفضحهم لكم . ونتيجة هذا العلم أنكم سترون فيهم العقوبات ؛ فيأتى فيهم القول الحق : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ [(2)] ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

هم إذن سيعذبون مرتين فى الدنيا ، ثم يردون لعذاب الآخرة ، وأول عذاب لمن يستر نفاقه أن يفضح نفاقه ؛ ولذلك خطب رسول الله ﷺ فقال : " قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق " [(3)]

---

(1) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٣) والبزار (٨٥ - كشف الأستار) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٠٢) : « فيه عبد الملك بن قدامة الجمحى ، وثقه يحيى بن معين وغيره وضعفه الدارقطنى وغيره » .

(2) إحداهما فى الدنيا والأخرى فى القبر بعرض ما يعذب به فى الآخرة .

(3) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . » . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢) : « فيه عياض بن عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما » .

أو تأتى له مصائب الدنيا . ولقائل أن يقول : وهل المصائب عذاب للمنافق ، إن المصائب قد تصيب المؤمن أيضاً ؟

ونرد : إن المصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، ولكنها تأتى للمنافق لإبادته . فالمؤمن حين يصاب ؛ إما أن يكفر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة به [1] لكن المصائب حين تصيب المنافق فهى مغرم فقط ؛ لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يقال :

إن المصاب ليس من أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو من حرم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ؛ فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف . أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرَم من الثواب .

أو أن العذاب مرتين ، غير الفضيحة بنفاقهم ، فيتمثل فى محاولتهم أن يظهروا بمظهر الإيمان والإسلام ، فيخرج الواحد منهم الزكاة من ماله ، والمال محبب للنفس ؛ لذلك فهو يخرج الزكاة مرغماً ، ويشعر أنه قد خسر المال لأنه لا يؤمن بإله ؛ لذلك فمصيبته كبيرة . وقد يرسل المنافق ابنه للحرب وهو يعلم أنه ليس له فى ذلك ثواب ، وهذا لون آخر من العذاب.

وهذا العذاب متحقق بقول الحق : ﴿ **وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا** ... ﴿٨٥﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) و أحمد فى مسنده (٦/ ٤٢) والترمذى فى سننه (٩٦٥) وقال : حديث حسن صحيح .

أو أن يكون العذاب فى الدنيا هو ما يرونه حين تغرغر النفس ، لحظة أن تبلغ الروح الحلقوم ، ويرى المُغَرْغِر الملائكة مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ﴾ [الأنفال]

وكل هذه ألوان من العذاب فى الدنيا .

والإنسان - كما نعلم - فى استقبال الزمن له ثلاث حالات : زمن هو حياته الدنيا ، وزمن هو زمن موته ، وزمن هو زمن آخرته . فحين يصاب المؤمن فى الزمن الأول - زمن حياته - يُعزِّيه فى مصابه الزمنُ الأخير ، وهو زمن آخرته .

أما حين يصاب الكافر أو المنافق فى زمن حياته ، فلا شىء يعزيه أبداً ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا هو يطمع فى شىء من خيره سبحانه .

ويأتيه الزمن الثانى ، وهو زمن الموت ، وفيه عذاب القبر .

والعذاب إنما يكون بأحد اثنين : إما عرض ما يعذب به ، أو دخول فيما يعذب به ، وهذا يكون فى الآخرة . أما عرض العذاب فهو فى القبر [1] كأنه يقول لك : انظر ما ينتظرك [2] . وما دام الإنسان يرى الشر الذى

---

(١) وذلك من نحو قوله سبحانه : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٨١) : «دلت الآية على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً فى البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد فى البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية » .

(٢) عن ابن عمر قال: قال ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٧٩) ومسلم فى صحيحه (٢٨٦٦) . واللفظ لمسلم .

ينتظره ، أليس هذا عذاباً ؟

إنه عذاب مؤكد .

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ولو قال الحق : " نعذبهم مرتين" فقط بدون السين ، لصار لها معنى آخر مختلف تماماً . يتلخص فى أن من يصيبه عذاب ، فقد انتهى حسابه . لكن قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم ﴾ يؤكد لنا كلما قرأناه أن العذاب متصل .

ويُنهى الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وكلمة ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ مثلها مثل ﴿يُرْجعون﴾ أو ﴿ يَرْجعون﴾ و نحن نقول مرة : " يُرْجعون" وأخرى "يَرْجعون" ، فكأن النفس البشرية تألف جزاءها فى قولنا : "يَرْجعون" ، أما قولنا : " يُرْجعون" ففى الكلمة قوة عليا تدفعهم ألا يتقاعسوا .

وهكذا نجد المعذَّب إما مدفوع بقوة عُليا ، وإما أن توجد فيه قوة ذاتية تجعله يذهب إلى العذاب . والإنسان قد يتصرف تصرفاً ما ، ثم يرد إلى أفكاره فلا يعجبه هذا التصرف ، ويستقبل نفسه بالتوبيخ وبالتعنيف ؛ لأن هناك إلحاحاً من النفس على العقوبة ، وهو إلحاح يأتى من ذات النفس .

والنفس الأمارة بالسوء قد تقضى حياتك معها فى أمر بالسوء ، ثم حين يأتى العقاب فأنت تقول لها : " اشربى أيتها النفس نتيجة ما فعلت " .

إذن فالمعذَّب يُدفع مرة للعذاب ، وأخرى يندفع بذاته .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ومثلما قلنا من قبل : فإن هناك ألواناً متعددة من العذاب ، فهناك العذاب العظيم ، والأليم ، والمهين ، والمقيم. والعذاب العظيم يأتى إما بأسباب وإما بمسبِّب ، وعذاب الدنيا كله

بأسـبـاب، فـقـد يكون العـذاب بالعـصـا ، أو بالكرباج ، أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة و ضعفاً ، أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، و المعذَّب فى الآخرة واحد وقوته لا نهاية لها ، وإن قستَ عذاب الآخرة بالعذاب فى الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عَظيم (١) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٠٢ ﴾

وقوله الحق :﴿ وآخَرُونَ ﴾ معطوفة على قوله : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ ، فهل يظلون جميعاً على النفاق ، أم أن منهم من يثوب إلى رشده ؛ ليجد أن موقفه مخزٍ حتى أمام نفسه ؟ لأن أول ما ينحط المنافق إنما ينحط أمام نفسه ؛ لأنه نافق ولم يقدر على المواجهة ، واعتبر نفسه دون من يواجهه ؛ فيحتقر نفسه ، ولا بد أن منهم من يأنف من هذا الموقف ، ويرغب فى حسم المسألة : إما أن يؤمن وإما أن يكفر ، ثم يرجح الإيمان ، ويتخلص من النفاق ؛ بأن يعترف بذنوبه .

وبذلك يصبح ممن يقـول الحـق عنهم : ﴿ وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : ممن لم يُصرّوا على النفاق (٢) ، واعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف لون من الإقرار . والإقرار بالذنب أنواع ، فهناك من يقر بالذنب إفاقة ، وآخر

(١) عن أبى هريرة أن رسـول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل : يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » . أخرجه البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) .

(٢) اعترافهم وتوبتهم عن التخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

يقر الذنب في صفاقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربت فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربته ، أي أنه اعترف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب من يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعتراف فيه صفاقة .

أما من يعترف اعتراف إفاقة ، فهو يقر بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله . وهم قد ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ اعتراف إفاقة ، بدليل أن الله قال فيهم : ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيىء فهو التخلف عن الجهاد والإنفاق .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة ، واختلف العلماء : هل هذا الاعتراف يعتبر توبة أم لا ؟

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ ثم قوله :﴿ عَسَى [(١)] اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : رجاء أن يتوب عليهم ، وهذه مقدمات توبة وليست توبة ، فإن صاحبها الندم على ما مضى ، والإصرار على عدم العودة في المستقبل فيُنْظر هل هذا كان منه مخافة أن يُفضح أم موافقة لمنهج الله [(٢)] ؟

إن كان الأمر موافقة لمنهج الله فتكون التوبة مرجوَّة لهم .

وكلمة ﴿خَلَطُوا﴾ تؤدي معنى جمع شيئين كانا متفرقين ، وجمع الشيئين أو الأشياء التي كانت متفرقة له صورتان ؛ الصورة الأولى : أن يجمعهم

(١) عسى فعل جامد دال على الترجي ، وإذا أسند الفعل إلى الله تعالى فمعناه أنه وعد بنفاذ الأمر المرجو أنه نافذ حتماً ، وعسى من أفعال الرجاء وتستعمل على أوجه أكثرها وجهان : الأول : أن يذكر بعدها اسم ظاهر ، والوجه الثاني: أن يذكر بعدها المصدر المؤول .

(٢) فإن كان موافقاً لمنهج الله كان القبول من الله .

على هيئة الافتراق ، كأن تأتى بالأشياء التى لا تمتزج ببعضها مثل : الحمص واللب والفول ، وتخلط بعضها ببعض فى وعاء واحد ، لكن يظل كل منها على هيئة الانفصال ، فأنت لم تدخل حبة اللب فى حبة الحمص ، ولم يتكون منهما شيء واحد ؛ لأنه لو حدث هذا لصار مزيجاً لا خلطاً ، مثلما تخلط الشاى باللبن ؛ لأنك بعد أن تجمعهما يصيران شيئاً واحداً ، بحيث لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك .

إذن : فهم حين خلطوا العمل الصالح والعمل السَّيِّئ ، لم يجعلوا من العمل الصالح والعمل السَّيِّئ مزيجاً واحداً. لكن العمل الصالح ظل صالحاً ، والعمل الفاسد ظل فاسداً.

وقوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ كلمة ﴿ عَسَى ﴾ معناها الرجاء [1] وهو ترجيح حصول الخير . وهو لون من توقع حصول شيء محبوب. والرجاء يخالف التمنى ؛ لأن التمنى هو أن تحب شيئاً وتتمنى أن يكون موجوداً ، لكنه لا يأتى أبداً، مثل قول الشاعر :

أَلا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً ... فَأخبِرُه بِماَ فعلَ المشيبُ

إنه قد تمنى أن يعود شبابه ، وهذا دليل على أن فترة الشباب محبوبة ، لكن ذلك لا يحدث. إذن : فإظهار الشيء المحبوب له لونان : لون يتأتى، ولون لا يتأتى ، فالذى يتأتى اسمه (رجاء) ، والذى لا يتأتى نسميه (التمنى) ، مثل قول الشاعر :

لَيْتَ الكَوَاكِب تَدْنُو لِى فَأَنظمَهَا ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُمْ كَلمَا

(١)قال القرطبى فى تفسيره (٣١٦٩/٤) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أعراب فهى عامة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة » . وقال ابن كثير (٣٨٥/٢) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين » - والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالشاعر يتمنى حدوث ذلك ، ولكنه لن يحدث. أما الرجاء فهو أمل يمكن أن يحدث ، والرجاء له منازل ومراحل بالنسبة للنفس الإنسانية. فأنت عندما ترجو لواحد شيئاً فتقول: «عسى فلان أن يمنحك كذا» ، فأنت هنا مُتَرَجٍّ ، وهناك مترجّىً له، هو من تخاطبه ، ومترجّىً منه ، وهو من يعطى ، فهذه ثلاثة عناصر.

لكن ألك ولاية على من يمنح ؟ لا ، لكن إن قلت: عسى أن أمنحك أنا كذا ، فأنت ترجو لواحد غيرك أن تمنحه أنت ، وهذا أرجى أن يتحقق. وحين تقول : « عسى أن أمنحك » فقد تقولها فى لحظة إرضاء للذى تتحدث معه . ثم قد يبلغك عنه شيء يغير من نفسك ، أو جئت ؛ لتعطيه ، فلم تجد ما تعطيه له ، هنا لم يتحقق الرجاء.

لكن عندما تقول : « عسى الله أن يمنحك » ، فأنت ترجو له من الله ، وهو القادر على كل شيء ولا تؤثّر فيه أغيار ، أما إذا قال الله عن نفسه: « عسى الله أن يفعل » ، فهذا أقوى وسائل الرجاء.

إذن: فنحن أمام أربع وسائل للرجاء . أن تقول : « عسى فلان أن يمنحك » أو أن تقول : « عسى أن أمنحك أنا » ، أو تقول: « عسى الله أن يمنحك » وقد يجيبنى الله ، أو لا يجيب دعائى ، لكن حين يقول الحق: « عسى أن أفعل» فهذا هو اللون الرابع من ألوان الرجاء ، وقالوا : الرجاء من الله إيجاب.

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فهذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، أما توبة [1] العبد فمسألة تقتضى الندم على ما فات ، والرجوع إلى منهج الله ،

---

(١) تاب : رجع عن المعاصى ، وتاب إلى الله رجع إليه بالطاعة بعد المعصية ، وتاب الله عليه وفقه للتوبة وقبلها منه - قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۝٣٩﴾ [المائدة]

والعزم على ألا يغضب الله فى المستقبل . أما توبة الله فهى تضم أنواع التوبة، فتشريع الله للتوبة رحمة بمن ارتكب الذنب ، ورحمة بالناس الذين وقع عليهم السلوك الذى استوجب التوبة . فإن تُبْتَ ؛ فقبول التوبة رحمة ثانية ، فلو لم يشرع الله التوبة لا ستشرى كل من ارتكب ذنباً واصطلى المجتمع بشروره. لكن حين يشرع الله التوبة ؛ فهناك أمل أن يرجع العبد إلى الله ، ويتخلص المجتمع من إمكانية عودته للذنب ، وانتهى هو من أن يوقع مصائب بغيره.

فإذا قَبِلَ الله التوبة ، يقال : « تاب الله على فلان »، فلله إذن أكثر من توبة، ولذَلك حين تقرأ قوله الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ؛ ليتوبوا ، فإذا تابوا فسبحانه قابل التوب . إذن: فالتوبة ثلاث مراحل : تشريع للتوبة ، ثم توبة واقعة ، فقبول للتوبة . والتوبة رجوع عن شيء ، وهى بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وبالنسبة لله إن كان الذنب يستحق أن يعاقب الله به ، فإذا تبت أنت ، فالحق يعفو ويرجع عن العقوبة [1].

وينهى الحق الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ لأن المغفرة بالنسبة للعبد صعبة ، فإن سرق واحد منك شيئاً فهو يضرك ، ويلحّ عليك حب الانتقام منه ؛ لأن الضرر أتعبك ، لكن أيُتْعِبُ أحد ربه بالمعصية ؟ لا ؛ لأنك إن

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى شرح اسم الله (التواب) : « هو الذى يرجع إلى تيسير التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يظهر لهم من آياته ، ويسوق إليهم من تنبيهاته ، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته ، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه ، فرجعوا إلى التوبة ، فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول » . المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى (ص ١٢٣) ط . مكتبة القرآن .

كنت قد أضررت بأحد فإنما أضررت بنفسك ، ولم تضر الله سبحانه ؛ لأنه سبحانه لا يلحقه ضررٌ بذنبك [١] ، وإنما الذنب لحقك أنت .

فحين يقول سبحانه : ﴿ غَفُورٌ ﴾ فهو غفور لك ، و﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بك .
والمصائب أو الكوارث نوعان ؛ نوع للإنسان فيه غريم ، ونوع يصيب الإنسان ولا غريم له . فإن مرض إنسان فليس له غريم فى المرض ، أما إذا سرق إنسان فاللص هو غريمه ، ومصيبة الإنسان التى فيها غريم تدفع النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه ، أما حين تكون المصيبة من غير غريم فهى تحتسب عند الله ، ويقال : إن المصيبة التى ليس فيها غريم هى التى تحتاج لشدة إيمان ، والحق يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

هنا يؤكدها ؛ لأن غريمه يلح عليه ، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به ، فتكون هناك إهاجة على الشر .

أما قوله سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

فلم يؤكدها ، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها ؟ والذين اعترفوا بذنوبهم هم قوم تخلفوا بغير عذر ، ثم جاءوا وقالوا : ليس لنا عذر ، ولم يختلقوا أعذاراً ؛ لأننا نعلم أن هناك أناساً لم يعتذروا ، وأناساً آخرين

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فى الحديث القدسى : « يا عبادى . إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) وكذا ابن ماجه (٤٢٥٧) .

اعتذروا بأعذار صادقة ، وآخرين اعتذروا باعتذارات كاذبة ، وهم قد ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : أعلنوا أن اعتذاراتهم عن الغزوة لم تكن حقيقية وأنه لم يكن عندهم ما يبرر تخلفهم عن الغزو ؛ فهؤلاء تاب الله عليهم فى نفوسهم أولاً ، ورسول الله لا يزال فى الغزوة فى تبوك التى تخلفوا عنها .

ثم عاد الرسول من الغزوة ، ودخل المسجد كعادته حين يرجع إلى المدينة ، وأول عمل كان يعمله بعد العودة هو أن يدخل المسجد ، ويصلى فيه ركعتين[1] . فوجد أناساً قد ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وهى الأعمدة فسأل عن هؤلاء ، فقالوا : هؤلاء قوم تخلفوا و كانت أعذارهم كاذبة لكنهم اعترفوا بذنوبهم ، وقد عاهدوا الله ألا يحلوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تحلهم وترضى عنهم فقال ﷺ : «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم ؛ رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين »[2] . فلما أنزل الله هذه الآية حلهم رسول الله ومنهم : أبو لبابة .

ولذلك من يذهب ليزور المدينة إن شاء الله ، سيجد أسطوانة اسمها " أسطوانة أبى لبابة " وهو أول من ربط نفسه على السارى ، وقلده الآخرون . وهذا يدلك على أن المؤمن حين تختمر فى نفسه قضايا الإيمان فهو لا ينتظر أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب نفسه .

ومثال ذلك : المرأة التى زنت ، والرجل الذى زنا ، واعترفا لرسول الله ليرجمهما[3] ، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله ، بل ذهب

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) ضمن حديث طويل عن كعب بن مالك فى توبته من تخلفه عن غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ . وأخرجه مختصراً أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٥) وأبو داود فى سننه (٢٧٧٣) .

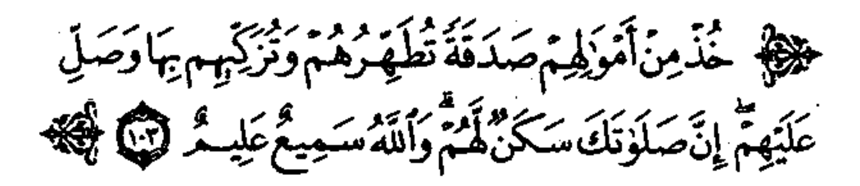
(٢) انظر سبب نزول الآية فى تفسير القرطبى (٤/٣١٦٨) وأسباب النزول للواحدى (ص ١٤٨) .

(٣) الرجل هو ماعز بن مالك الأسلمى ، أخرج قصته البخارى فى صحيحه (٦٨١٥) ومسلم (١٦٩١) وفى بعض طرق مسلم أن ماعزاً قال : يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى . أما المرأة فهى الغامدية . أخرج قصتها مسلم (١٦٩٥) .

كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول : « دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم »(١) .

وكون أبى لبابة يربط نفسه بالسارية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت فى نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسى كى أنجو من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً فى الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلما اعترفوا بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذى شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر بالكذب ؟ وجدوا أنهم فى أثناء غزوة تبوك وقد كانت فى الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا : والله ، إن المال هو الذى شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، و لابد أن نتصدق به ؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هى صدقة الكفارة .

وهؤلاء قالوا للرسول ﷺ : خذ هذا المال الذى شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله :



هذه هى الصدقة غير الواجبة ؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هى صدقة الكفارة .

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ أمر بالمرأة فرجمت . ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟. فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٩٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٤٤٠) .

وقوله الحق : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يعنى أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله :

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ... (٣٣) ﴾ [النور]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم : أخرجوا شيئاً من المال الذى وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ ... (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال .

وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شىء يتموَّله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق : اطمئن إلى أن كل شىء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرّف [1] ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ... (٥) ﴾ [النساء]

لأن السفيه [2] لا يصح أن يتملك ؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شىء ،

(١) وهذا ما يعرف بالحَجْر ، قال ابن كثير فى تفسير ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] : « ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل مضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحَجْر عليه حَجَر عليه » . (١/ ٤٥٢) .

(٢) السفيه : هو ناقص العقل سيء التصرف يقول الحق : ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] أي : الذين يسيئون التصرف لجهلهم أو نقص عقولهم ، ويقول الحق أيضاً : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ... (١٣٠) ﴾[البقرة] حملها على الجهل والطيش .

فينزل الحق الحكم : إن مال السفيه الذى يملكه ليس ماله إنما هو مالكم .
ولكن إلى متى ؟ فيأتى القول الحق :

﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء]

أى : ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية .

والحق فى هذه الآية يقول :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمَّنهم على عرقهم ، وأمَّنهم على ما يملكون ؛ حتى لا يزهد أحد فى الحركة ؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك المال ؛ لضنّ الناس بالحركة . وإذا ضن الناس بالحركة ؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يزيد على حاجات الناس ملْكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك ، والتملك أمر غريزى فى النفس ؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمى فيه غريزة التملك .

وقوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم سفه فى التصرف أو عدم رشد ؛ بأن يكون وارث المال قاصراً لا يقدر على التصرف فيه ، فأوضح لنا سبحانه : لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصىّ المال باعتبار أنه ماله هو ، وحذَّر سبحانه الوصىَّ : إياك أن تتعدى فى ملكية هذا المال ؛ لأن الذى جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال ، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفيه إلى عقله .

﴿ولاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ... ⑤﴾[النساء]

فإياك أيها الوصى ، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيام عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ولم يقل : « فادفعوا إليهم أموالكم » وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضى الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل [1] والمحروم ، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحرو م ، فالمال - إذن - ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم.

وفى آية أخرى قال الحق :

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ㉔ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ㉕﴾ [المعارج]

و«الحق المعلوم » هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثانى فهو حق أيضاً ، ولكن الذى يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما فى سورة الذاريات :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑮ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ⑯ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑱ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲﴾ [الذاريات]

(١) الحق المعلوم هو الزكاة المفروضة ، والحق الغير معلوم هو ما ترك لاختيار النفس فى العطاء للوصول إلى مقام الإحسان بقدر كرمه مع الله .

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم ؛ لأن صاحب المال داخل فى مقام الإحسان [١] ، وهو المقام الذى يلزم الإنسان فيه نفسه بشىء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله . والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن يصلى العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر . لكن إن وجد فى نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل ؛ لأنه يريد أن يدخل فى مرتبة الإحسان .

وكذلك يؤدى المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم فى أن يدخل فى مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقّاً لكنه غير معلوم ؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة ، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر .

ووقف العلماء رضى الله عنهم هنا وقالوا : إن قوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لا يعنى اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدى ، ولو بيّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعنى أن المال إن هلك فليس للفقير شىء ، ولكن لأن المال مال الغني فحق الفقير محفوظ فى ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغنى لو لم يؤد الزكاة في ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغنى ضامن لحق الفقير .

---

(١) حَسُنَ الشىء صار حسناً جميلاً قال تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء] - أى : صار رفيقاً حسناً - « وأحسنُ » أفعل تفضيل ، مؤنثه « الحسنى » قال الحق : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر] - وقال : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴿٩٥﴾ ﴾ [النساء] - أى : المنزلة التى هى أحسن المنازل ، والإحسان هو الكرم المخلص والعطاء الخالص ، والإحسان إلى الوالدين إكرامها - وهو أعلى مقامات القرب إلى الله .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ والصدقة تطهرهم ؛ لأن الذنب الذى فعلوه واعترفوا به تسبّب فى تقذير أنفسهم بالمعصية ، وماداموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية [1] ، فهم فى حاجة أن يُطهَّرُوا بالمال الذى كان سبباً فى عدم ذهابهم إلى الغزوة.

وانظر هنا إلى ملحظ « الأداء البيانى » فى القرآن ، فالحق سبحانه يقول: ﴿ خُذْ ﴾ وهو أمر للنبى ﷺ ، ويقول: ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر: آخذٌ هو رسول الله ﷺ ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج.

وما دام الأمر لرسول الله ﷺ ، فهذا الأمر ينسحب بالتالى على كل من وَلِىَ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول: ولكنها صدقة وليست زكاة. ونقول : ما دام الله هو الذى أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً، والآية صريحة ، وتقتضى أنه مادامت هناك ولاية شرعية ، فولى الأمر هو الذى يأخذ من الناس ويؤدى للفقراء ، أو لأوجه الصرف التى شرعها الله [2] ؛ لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده آخذاً من مُسَاو له ، أما إن أخذ من الوالى وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن

(١) أى: جعلوا أنفسهم محلا للّوم والتقبيح . وقد أخرج الإمام مالك فى موطئه (ص ٨٢٥) من حديث زيد بن أسلم مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال: « أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله . فإنه من يبدى لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » .

(٢) ومصارف الزكاة قد بينها سبحانه فى قوله :﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة] ، وقد سبقت خواطر فضيلة الشيخ وإلهاماته عند تفسير الآية. ولولى الأمر الذى يطبق شرع الله أن يأخذ من أموال المسلمين لإقامة صرح العدالة فى المجتمع مصداقاً لمفهوم الآيات .

الحق سبحانه يريد أن يحمى أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلانى يعطى لهم زكاة ، فيعانى أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطى ، ويعيش أبناء المعطى فى تعال لا لزوم له . إذن : فحين يكون الوالى هو الذى يعطى فلن يكون هناك مُسْتعلٍ أو مُستعلًى عليه .

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية ، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال ، فهنا يصبح على كل إنسان أن يراعى محيط دينه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال ، ومال مُعْطًى ، ومعطًى له هو الفقير .

وعلى من يعود قوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ ؟ السطحيون فى الفهم يقولون : إنها تطهر من نأخذ منه المال ، وتزكّى المال الذى نأخذ منه . لكن من يملك عمقاً فى الفهم يقول : مادامت هناك فى هذه الآية عناصر ، فضرورى أن يعود التطهير [1] والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكى المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكى المال المأخوذ ، وأيضاً تطهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَذَر ، والتزكية نماء .

القذارة أمر عارض على الشىء الذى نغسله ونطهره ، وتنمية له بشىء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكى عناصر الفعل كلها . والتطهير لمن يعطى ، له معنى معه ، والزكاة لها معنى معه ؛ لأنك إن أخذت منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل فى ماله شيئاً فيه شبهة ، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال .

---

(١) طهُرَ يَطهُر من باب كَرُم ونصر - طُهراً وطهَارة زال عنه الدنس والقذر حسياً ومعنوياً ، وطهرت النفس سلمت من الآفات الخلقية وتنزهت عن النفاق وعن الحقد وعن كل الرذائل قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۝٦ ﴾ [المائدة] . هذا فى الحسيات وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ۝١٠٣ ﴾ [التوبة] تنزه قلوبهم وأنفسهم من الآفات الخلقية ، وهذا فى المعنويات .

أما كيف تنمِّى صاحب المال ؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش فى المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كى تعطى المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له : أنت لو احتجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّى تواجده وثقته ، وطهرته أيضاً من أن يكون فى ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال.

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تطهر المال ؛ لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالزكاة تطهره.

وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً ، والسطحى يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ؛ فالزكاة التى تعتبرونها نقصاً تنمِّى ، والربا الذى تعتبرونه ينمّى إنما يُنقص ، والحق يقول :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ [1] الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... (٢٧٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مزيداً لك ، هو فى الواقع نقصٌ ، كيف ؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى رزق الوارد الإيجابى ، ويظنون أن هذا هو الرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه « رزق السلب» ، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة .

---

(١) محقه من باب فتح : أنقصه ، أو أبطله ، أو أهلكه قال تعالى : ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴾ [آل عمران] أى يهلكهم وقال: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا (٢٧٦) ﴾[البقرة] أى ينقصه أو يهلكه ، نقيض ما يفعل بالصدقات .

ورزق السلب يتمثل فى أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائةً ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر ، هذا من ناحية المال.

والحق يقول:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم]

وكيف تكون الصدقة تطهيرا للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج ؟ ونقول: إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذى النعمة ؛ لأنه وصله بعض من المال الذى عند ذى النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة ؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه.

والفلاحون فى ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضا من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمر إحداها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد.

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ؛ لأنه فى مجتمع إيمانى. إذن: فقوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ راجع لكل العناصر فى الآية.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: ادع لهم بالخير؛ ولذلك كان النبى ﷺ كلما أتاه قوم بأى صدقة قال: « اللهم صَلِّ عليهم » فأتاه

أبو أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صَلِّ على آل أبى أوفى »[(١)] ، هذه هى التزكية القولية التى يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطى ، ويجدّ ويجتهد من ليس عنده ؛ ليسمعها من رسول الله ﷺ .

وقوله الحق : ﴿ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أى: اطمئنان لهم ، وما دام الرسول ﷺ قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء. وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذا لا أجِدّ فى حياتى وأجتهد ؛ حتى أظفر بتلك الدعوة من رسول الله ﷺ ؟

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾ لكل ما تعتبره قولاً. و﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل ما تعتبره فعلاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

و﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ مكونة من ثلاث كلمات هى: همزة استفهام ، « لم » حرف نفى ، و«يعلم» وهو فعل. فهل يريد الله هنا أن ينفى عنهم العلم أم يقرر لهم العلم ؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها « همزة الاستفهام الإنكارى » والإنكار نفى ، فإذا دخل نفى على نفى فهو إثبات ، أى «فليعلموا ».

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر ؟ نقول : إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله ، يكون إقراراً من السامع .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ لماذا جاء الحق بكلمة ﴿هُوَ﴾ ، وكان يستطيع سبحانه أن يقول : "ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة" ولن يختل الأسلوب ؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتى بضمير الفصل ، مثلما نقول : فلان يستطيع أن يفعل لك كذا . وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل، لكن حين تقول : فلان هو الذى يستطيع أن ينجز لك كذا . فهذا يعنى أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذى يعنى الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة.

لذلك قال الحق: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ...(١٠٤)﴾ [التوبة]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة ؟ لا ، بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله. ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن، وجدنا أن ضمير الفصل أو ضمير الاختصاص هو الذى يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها؛ وهو واضح فى قصة سيدنا إبراهيم حين قال :

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : "إنهم أعداء" ، بل جمعهم كلهم فى عصبة واحدة وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ .

و﴿إِنَّهُمْ ﴾ - كما نعلم - جماعة ، ثم يقول بعدها ﴿ عَدُوٌّ ﴾ وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شيءٌ واحد . وكان بعضٌ من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً منفرداً، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة فى قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل فى نوعين اثنين.

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل في العداوة ؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيمُ وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أي : أن الله سبحانه ليس عَدُوّاً لإبراهيم عليه السلام، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام . أما إن كان قومه يعبدون آلهة دون الله ، أي : لايعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثنى .

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ③ ﴾ [الزمر]

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا كلام دقيق محسوب . وأضاف :

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ⑦⑧ ﴾[1] [الشعراء]

ولم يقل: " الذى خلقنى يهدينى" ، بل ترك "خلقنى" بدون "هو" وخَصَّ الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ؛ لأن "هو"

---

(١) إن الأفعال التي لا تصدر إلا عن الله سبحانه وتعالى ، وليس للمخلوق فيها دخل لم يأت بضمير التخصيص ، مثل قوله تعالى :﴿الَّذِي خَلَقَنِي ⑦⑧ ﴾ [الشعراء] أما إذا كان الفعل يدعى البعض أنه فاعله فإن الأسلوب القرآنى يرد عليه بضمير الاختصاص ؛ لأن الهداية من الله ، وليس للعبد دخل فيها إلا بالقبول والالتزام .

لا تأتى إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحدٌ يدّعى أنه خلق أحداً . فالخلق لا يُدَّعى ، ولذلك لم يقل " الذى هو خلقنى " .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذى لا يقول به أحد غير الله لا يأتى فيه الضمير . لكن الأمر الذى يأتى فيه واحد مع الله ، فهو يخصَّص بـ"هو" تأكيداً على تخصيصه لله وحده ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فليس لأحد أن يُدخل أنفه فى هذه المسألة ؛ لأن أحداً لم يدّع أنه خلق أحداً ، فمجىء الاختصاص - إذن - كان فى مجال الهداية بمنهج الحق ، لا بقوانين من الخلق . فمن الممكن أن يقول بشر : أنا أضع القوانين التى تسعد البشر ، وتنفع المجتمع ، وتقضى على آفاته ، ونقول :لا ، إن الذى خلقنا هو وحده سبحانه الذى يهدينا بقوانينه.

إذن : فما لا يُدَّعى فلا تأتى فيه (هو) ، أما ما يمكن أن يُدَّعَى فتأتى فيه (هو). وقوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتى له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك لله ؛ لذلك جاء بـ ﴿هُوَ ﴾ ، فأنت إن نسبت كل رزق يأتى به أبوك، لانتهيت إلى مالم يأت به الأب ؛ لأن كل شىء فيه سببٌ للبشر ينتهى إلى ماليس للبشر فيه أسباب ، فكل شىء من الله ؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[الشعراء]

وخصص الشفاء أيضاً ؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذى يشفى ، وينسى أن الله وحده هو الشافى ، أما الطبيب فهو معالج فقط ؛ ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب ، فيموت بين يدى الطبيب؛ ولذلك يقول الشاعر عن الموت :

إنْ نَام عنْكَ فَأىُّ طِبٌّ نَافِعٌ   أوْ لم يَنَمْ فالطِّبُّ مِن أذنَابِه

فقد يعطى الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض. وجاء سيدنا إبراهيم بالقصر فى الشفاء لله ؛ حتى لايظن أحد أن الشفاء فى يد أخرى غير يد الله سبحانه. ثم يقول سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ... (٨١) ﴾ [الشعراء]

ولم يقل : "هو" يميتنى ؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد يقول قائل : كان يجب أن يقول : "هو يميتنى" ، ونقول : انتبه إلى أن الموت غير القتل ، فالموت يتم بدون نقض للبنية ، والقتل لا يحدث إلا بنقض البنية ، ويضيف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

وأيضاً لم يقل : "هو يحيينى " ؛ لأن هذا أمر خارج عن أى توهم للشركة فيه ، فقد جاء بـ "هو " فى الأمور التى قد يُظن فيها الشركة ، وهو كلام بالميزان :

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء]

لم يأت أيضاً بـ "هو" ؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله [1] .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

إذن: فكل أمر معلوم أنه لا يشارك فيه جاء بدون «هو» ، وكل ما يمكن أن يُدَّعى أن فيه شركة يجيء بـ «هو»[1] .

وهنا يقول الحق: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وظاهر الأمر أن يقال :ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة «من» عباده ، ولكنه ترك «من» وجاء بـ «عن». والبعض يقولون: إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتى «من» بدلاً من «عن». ونقول: لا ، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغنى عن حرف آخر؛ لأن معنى التوبة ، أن ذنباً قد حدث ، واستوجب المذنب العقوبة ، فإذا قَبل الله التوبة، فقد تجاوز الله عن العقوبة؛ ولذلك جاء القول من الحق محدداً : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ أى: متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة.

وهكذا جاءت «عن» بمعناها ؛ لأنه سبحانه هو الذى قَبِل التوبة ، وهو الذى تجاوز عن العقوبة.

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ صحيح أن الله هو الذى قال للرسول : ﴿ خُذْ ﴾ ولكن الرسول هو مناول ليد الله فقط ، و«يأخذ» هنا معناها « يتقبل » واقرأ قول الحق:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ...﴿١٦﴾﴾
[الذاريات]

أى: متلقين ما آتاهم الله . ومثال هذا ما يُروى عن السيدة فاطمة حينما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفضة من المعادن التى لا تصدأ ، والفضة على أصلها تكون لينة

(١) وهذا يتلاقى مع ما ذكره القرطبى فى تفسيره (٣١٧٦/٤) : « قوله تعالى: «هو» تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : إن الله يقبل التوبة ؛ لاحتمل أن يكون قبول رسوله قبولاً منه ، فثبتت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبى ولا ملك » .

لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة. والمعدن الذى يعطى الصلابة هو الذى يتأكسد ؛ فتصدأ الفضة ؛ لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم. فلما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ سألها: ما هذا ؟ قالت: إنه درهم . واستفسر منها لماذا تجلو الدرهم ؟ فقالت: كأنى رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع فى يد الفقير تقع فى يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك ؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذى يأخذ الصدقة.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . كل هذه الآية نفى لمظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله ﷺ ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبِلَتْ ، ولكن الذى يقبل التوبة هو الله ، والذى يأخُذ الصدقات هو الله ؛ لأنه هو التواب الرحيم ؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

إذن : هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلّنا رسول الله ﷺ ، وقالوا: خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا ؛ كل هذا جعل هناك حداً فاصلاً بين ماضٍ ندموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه

قد ولد الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم ستسيرون على مقتضى هذه التوبة أم لا ؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون فى الخفية بل ستكون فى العلن أيضاً، أما أموركم الخفية فسيعلمها الله ؛ لذلك قال: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾. أما الأمور التى تحتاج لفطنة [1] النبوة فالرسول ﷺ بفطرته سيراها بنوره فى سلوككم . أما الأمور الظاهرة الأخرى فسيراها ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تخادعوا المؤمنين ؛ لأن رسول الله بفطنته ونورانيته وصفائه وشفافيته سيعرف الخديعة ، أما إن كانت المسألة قد تتعمَّى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذى يعلم.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ أى: اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بذنوبكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم فى المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو النيَّات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه فى عاديات الأمور [2].

---

(١) لأن للرسول صفات تليق به وهى : العصمة والأمانة والبلاغ والفطانة .

(٢) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول‌الله ﷺ قال: « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٨) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٣١٤) وصححه وأقره الذهبى . وكذا أخرجه ابن حبان (١٩٤٢ - موارد الظمآن) .
وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » . روى عن خمسة من الصحابة - فيما وقفت عليه - وكلها لا تسلم من مقال . ومنها حديث أبى سعيد الخدرى عند الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : غريب . فيه مصعب بن سلام . وللحديث طرق وروايات أخرى .

وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثواباً أو عقاباً ، فهى ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائى يملك أن يثيب أو أن يعاقب. وأنكم راجعون إليه لا محالة. وإذا كنتم فى الدنيا تعيشون فى الأسباب التى يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصى ، فهناك عالم الغيب الذى يملكه الله وحده:

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

إذن: سيعامل التائب معاملة جديدة ، ومادام قد تاب ، فلعله بسبب الغفلة التى طرأت عليه فأذنب ؛ غفل عن اليوم الآخر ، فيحتاج إلى تجديد التذكير بالإيمان.

لذلك قال: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾.

قوله سبحانه : (فَسَيَرَى) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتحمة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا ؟

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أما عالم الغيب فانفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سوف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، وربنا عالم بالكل . وسبحانه لا يجازى على مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول:

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

ولذلك يُنهى الحق هذه الآية بقوله:

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم فى السوارى ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن

جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السوارى ، وقبل منهم الصدقات؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، ولا اعترفوا بذنوبهم ؛ لذلك يجىء قوله الحق:

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع [1]. وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالهم ، وعندهم كل

---

(١) كعب بن مالك الأنصارى شاعر مشهور شهد بيعة العقبة الثانية وتخلف عن غزوة بدر وشهد ما بعدها ثم تخلف فى تبوك. توفى عام ٥٠ هـ فى زمن معاوية. (الإصابة فى تمييز الصحابة ٥/ ٣٠٩).

أما هلال بن أمية الأنصارى فقد شهد بدراً وما بعدها ، مات فى خلافة معاوية ، وهو الذى ظهر صدقه فى قذفه لامرأته بالزنا (الإصابة ٦/ ٢٨٩) . أما مرارة بن الربيع الأنصارى ، فهو صحابى مشهور شهد بدراً أيضاً (الإصابة ٦/ ٧٦) .

شيء . وقد قصّ واحد منهم حكايته [(١)]، وبيّن لنا أنه لم يكن له عذر : «وما كنت في يوم من الأيام أقدر على المال والراحلة مني في تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتي الغد ولا أتجهز ، حتى انفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾

و﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ أو «مرجَئون» والإرجاء هو التأخير . أي: أن الحكم فيهم لم يظهر بعد ؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله ﷺ لم ينشيء في الدولة الإسلامية سجناً يُعزَل فيه المجرم ؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه في مكان فهذا جائز . لكن النكال في أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه .

وهكذا تتجلى عظمة الإيمان ؛ لذلك أصدر ﷺ أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى أقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد في السوق أو في المسجد.

وكان أحدهم يتعمد أن يصلي قريباً من النبي ﷺ ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبي له أم لا ؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أنني أحب الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم. وهكذا عزل رسول الله ﷺ المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع. وكذلك

---

(١) هو كعب بن مالك ، قال: « لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة . . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصغى (أي: أميل) فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد . . . فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو . . . » حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) .

عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذى يصعب التحكم فيه. وحذر ﷺ زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتى الله بأمره.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

هذا بالنسبة لنا - إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم. لكن الحق سبحانه وحده هو الذى يعلم مصير كل واحد منهم.

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يَبت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكل ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم ، وقوم أخّر الله الحكم فيهم ؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم فى ذاتهم ، ولمن يشهدونهم.

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليتأدبوا الأدب الذى يؤدبهم به المجتمع الإيمانى ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفى هذا التأديب.

وإذا أُدِّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرْأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب.

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومادام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخَّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتى قول الله فيهم:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين [1] ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ و ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ، ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء «مناهم التوبة» ، مثل قوله:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [التوبة]

وقول الحق:

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله الحق:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهم اثنا عشر من المنافقين اتخذوا مسجداً ضراراً ؛ مضارة لأهل مسجد «قباء» وكفراً ؛ لأنهم بنوه بأمر أبي عامر الراهب ، ليكون معقلاً له يقوم فيه من يأتي من عنده ، وكان قد ذهب ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبي ﷺ وتفريقاً بين المؤمنين الذين يصلون في قباء ، وإرصاداً وترقّبًا لمن حارب الله ورسوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة] أي : قبل بنائه ، ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ كذباً ما أردنا بالبناء ﴿ إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ من الرفق بالمسكين من المطر وحرارة الشمس ، والتوسعة على المسلمين ، ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الجلالين] بتصرف .

وقال الحق عنهم أيضاً : ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ،﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ويقولون عنها : «محالف[1] التوبة» ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون - كما قلنا - متعارضون فى ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر. والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفيّاً ، ومجهوداً عقليّاً ، ومجهوداً حركيّاً ، فَهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا كلاماً ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون الإيمان بألسنتهم فى قوله :

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ... (١٤)﴾ [البقرة]

أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم :

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ... (١٤)﴾ [البقرة]

---

(١) ذكرت مادة يحلفون فى سورة التوبة فى سبعة مواضع هى :
- ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة : ٤٢]
- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة : ٥٦]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة : ٦٢]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة : ٧٤]
- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة : ٩٥]
- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ..﴾ [التوبة : ٩٦]
- ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ..﴾ [التوبة : ١٠٧]

وكذلك وردت فى مواضع أخرى من القرآن :

ففى سورة النساء :
- ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء : ٦٢]

وفى سورة المجادلة :
- ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة : ١٤]
- ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة : ١٨]

وهكذا تُكْبَت ملكات لسانهم فى أن يقولوا وقت أن يكونوا مع المؤمنين، أما حين يكونون مع إخوانهم فهم يُنفِّسون عن ملكاتهم فيقولون قولاً مختلفاً ، وهذه مسألة متناقضة ؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ(٥٧) ﴾ [التوبة]

أى: لو أنهم يجدون مكاناً أميناً ، لا يراهم فيه المؤمنون ، لنفّسوا عن أنفسهم ، وسبّوا النبى ، وسبّوا المؤمنين ، وقالوا ما يريدون ، إلا أنهم لا يجدون هذا المكان ، إنهم يتمنون لو وجدوا ملجأ يلجأون إليه ،أو مغارة يدخلون فيها ؛ لكى يُنفِّسوا عن أنفسهم ؛ إذن : ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (١) ، لكنهم لا يجدون.

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ...(١٠٧) ﴾ [التوبة]

نحن نعلم أن كلمة «مسجد» فى عمومها هى مكان السجود ، وفى الخصوص هى مكان يحجز للسجود وللصلاة فقط ، فإن أردت المعنى العام، فكل الأرض مسجد (٢) ، وتستطيع أن تصلى فى أى مكان فيصير

---

(١) جمح الفرس : انطلق يعدو لا يثنيه شىءٌ ، أو غلب راكبه فجرى كما يريد ، قال تعالى : ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧] أى: فروا خوفاً وفزعاً إلى أى ملجإ لا يردهم شىء كالخيل الجامحة.

(٢) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم . ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة » . متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين [1] ، وبعد ذلك تزاول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلى فى الفصل الدراسى أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو فى أى مكان تزاول فيه أسباب الحياة.

وبذلك يصبح المكان الذى تصلى فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال : «حجز ليكون مسجداً» ، فلا تباشر فيه أى عملية من عمليات الحياة إلا الصلاة وهو مسجد - بالمكان - ، ونحن نعلم أن أول مسجد أسِّس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن يُنفِّسوا عن أنفسهم فى صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناه بنوغُنْم بن عوف وأرادوا بهذا المسجد أن ينافسوا مسجد قباء.

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شىء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحى الفلانى مسجداً ، ولم نُقم نحن مسجداً ؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة ؛ صفة التنافس للحصول على سمعة أو تحيز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً ؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين.

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهرة صحية ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية فى الإيمان ؛ لأنك حين ترى المسجد وليس

---

(١) مكُنَ من باب كَرُمَ - مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت ومستقر قال تعالى : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] أى : عظيم ثابت المنزلة ومَكَّن له فى الشىء ثبته قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾[القصص: ٥٧] أى : حرماً ثابتاً ، وأمكنه من عدوه نصره عليه ، قال تعالى : ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١] .

فيه صفان مكتملان ، ثم يوجد بعده بعدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد ضرار[1].

إذن : فـ«المسجد» بمعناه الخاص هو المكان الذى يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يزاول فيه شيء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبى ﷺ حين رأى واحداً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رد الله عليك ضالتك »[2]. لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن نية الاعتكاف لتكون فى حضرة ربك ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم فى مسائل الدنيا.

إذن: فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفِّسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا ، وجماعة يصلون هناك ، وإن قعدنا نحن نصلى فيه فنكون أحراراً ، ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكبوتين ، وغير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن ننفس عن أنفسنا.

فهم بَنَوْا المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلى معهم فى المسجد الجديد أثناء خروجه لغزوة تبوك فاعتذر رسول الله ﷺ وأوضح

---

(١) هذا يتلاقى مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٨٠) : « قال علماؤنا : لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً ، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ. وكذلك قالوا: لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثانى ، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه » . واللغة تقول : ضاره يضاره مضارة وضراراً مفاعلة بين اثنين ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾[البقرة: ٢٣٣] وإحداث مسجد كهذا ضار لجمع المسلمين ومدعاة للتفرق .

(٢) عن أبى هريرة قال قال ﷺ: « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » . أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

لهم: إننا فى حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلى فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يستوفوه وعده ، ويطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا بجبريل ينزل عليه بالآيات التى توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار ؛ لأن الله علم نيتهم فى ذلك.

ومعنى «الضرار» من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم فى كل الزمن ، وأن يبتعدوا عن التواجد مع المؤمنين فى المسجد الذى يصلى فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون فى مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه: ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

إذن: فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام ؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً ؛ ولهذا أباح الحق أن تصلى الصلوات فى أى مكان ، وحتّم أن نصلى جميعاً يوم الجمعة فى مكان واحد ؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقى كل واحد منهم بالآخر ؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ والإرصاد [1] هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم فى المكان الفلانى لرصد فلان ، أى: أنهم أناس يترقبون مجيئه بمكان ليفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب

---

(١) أرصد : أعد وجهز ، قال تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] أى : أعدوه لأعداء الإسلام الذين كانوا ولايزالون يحاربونه ، فمسجد الضرار كان مأوى لمن يريد أن يكيد للإسلام .

الحب. والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقة في عداء رسول الله ﷺ [1]، وهو الذى طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو «أبو عامر الراهب» وقد سماه رسول الله «الفاسق».

وأبو عامر هذا رجل تنصَّر فى الجاهلية، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتى به ليدعو لهذا الدين ويترأس من يتبعونه، وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصَّروا وصاروا فى المدينة، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء فى المدينة وزالت رياسته، عادَى رسول الله ﷺ، حتى قال له فى أحد: ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. وحين تمكن الإسلام فى المدينة فر إلى مكة، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف، فلما آمن أهل الطائف، لم يجد له وطناً فذهب إلى الروم «بالشام». ثم كتب للمنافقين أن أعدّوا مسجداً؛ لأنى سآتى لكم بقوة من ملك الروم؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة [2].

إذن: فهم قد بَنَوْا ذلك المسجد ضراراً، وكفراً، وتفريقاً، وإرصاداً، أى: ترقباً وانتظاراً لذلك الراهب الذى سيذهب إلى الشام ويأتى بجنود لمحاربة الله ورسوله. ورغم أنهم قد فعلوا ذلك، فقد امتلكوا جراءة الطلب من رسول الله أن يصلي معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلى

(١) من هذا ما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية فى غزوة أحد (٣/ ٨٠): «وقع رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً». انظر أيضاً تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧).

(٢) قصة نفاق هذا الرجل وعدائه لرسول الله ﷺ مذكورة فى أسباب النزول للواحدى (ص١٤٩)، وتفسير القرطبى (٤/ ٣١٨٣) وابن كثير (٢/ ٣٨٧، ٣٨٨) وسيرة ابن هشام (٣/ ٨٠). وهو والد صحابى جليل هو حنظلة غسيل الملائكة، استشهد يوم أحد وهو جنب فغسلته الملائكة.

فيـه الناس مـا دام رسـول الله ﷺ قـد صلى فيـه ، وظنوا أن هذه المكيـدة سوف تفلح ، ولكن الله الذى يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد.

وقد يتغافل رسول الله ﷺ عن المنافقين بعض الشيء لحكمة ؛ فهم قد أخذوا بالإسلام لوناً من الصحبة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب أصحابه[1] ؛ لذلك فرسول الله ﷺ كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره ؛ لذلك أراد أن يحمى الإسلام من لسان من لم يعلم . ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله ﷺ «مالك بن الدُّخْشم» و«عامر بن السكن» ، و«وحشىّ» قاتل حمزة، و«معن بن عدى» ليهدموا هذا المسجد ، وأن يجعلوا فى موضعه مكان «القمامة». وبذلك فُضِحَ المنافقون ، فأسرُّوها فى نفوسهم.

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرهه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لابد أن تضعه فى مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإضرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفوا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم. لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين فى العداوة للإسلام ؛ لذلك كان لابد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل ؛ لذلك أصبحوا خائفين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول:

(١) وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على ألا يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه ، وقد ورد هذا فى حديث جابر بن عبد الله أن عبد الله بن أبى قال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٩٠٥) ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٤) .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذونى . إنه بسلوكه إنما يدل على نفسه ، ويأتى القرآن فى سورة ثانية فيقول:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ... (٤) ﴾ [المنافقون]

وهم يتصرفون هكذا لأن الريبة تملأ أعماقهم [1] ، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدبه ضرباً أو قتلاً.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ ، وكلمة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فيها إيحاء بأن لهم سوابق فى محاربة رسول الله بغرض أن يؤذوه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه يحميه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه ﷺ.

وفى هذا الأمر أمثلة كثيرة، فالقرآن حينما يقص على رسول الله ﷺ أحوال اليهود ويوضح له : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...(٦١) ﴾ [البقرة]

أليس هذا القول يدفع فى خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذى يمنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل، ويأتى قوله الحق:

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة عنهم: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴾ [التوبة: ١١٠] يقول ابن كثير فى تفسيرها : « أى شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً فى قلوبهم » .

﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا يعنى أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف. وهكذا طمأن الله رسوله ﷺ ، وبذلك كُبتت هذه الفكرة إن فكروا فيها [1].

وأيضاً حين يأتى القرآن بشىء فى نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوه بعد ، ويفضحهم القرآن بإعلان ما فى نيتهم ، ومن غبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن.

ويتمثل ذلك فى أحد المواقف التى يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم: إنكم سوف تحلفون ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون فى القرآن ، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا فى أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ... (١٤٢)﴾ [البقرة]

إنهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك فى قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ، فكيف يقولون نفس القول بعد أن نزل به القرآن ؟ لقد فعل اليهود ذلك ؛ وهم بهذا الفعل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا.

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية :﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : يـأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٤٦) واستغربه ، وأخرجه أيضاً أبونعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣١٣) وصححه .

وهنا يقول الحق: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع. وهم قد أقسموا وقالوا: ما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولنيسر على المعذورين والمرضى، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه [1]، ولكن حكم الله ينزل ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

فهل قوله الحق: ﴿ لاَ تَقُمْ [2] فِيهِ أَبَدًا ﴾ معناه أن يظل المسجد قائماً ولا تقام فيه صلاة؟ هل ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ صيغتها النهى، أى لا تُصَلِّ فيه، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقيم فيه صلاة أبداً؛ لأنه لن يكون له وجود؟

---

(١) قال ابن إسحاق في السيرة: «كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله ، إنَّا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلى لنا فيه، فقال: إنى على جناح سفر، وحال شغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه» [سيرة النبى لابن هشام ٤/ ٥٣٠].

(٢) قام يقوم: نهض معتدلاً دون عرج، ويستعار للاعتدال في السلوك والأخلاق، وقام بالمكان مكث فيه على أى حال مثل أقام، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ [البقرة: ٢٠] أى: توقفوا عن السير ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم] أى: تقع وتتحقق، وقوله ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجن] أى: نهض واجتهد فى الدعوة إلى الله، وهنا النهى منصب على أن الصلاة لا تقام فيه؛ لأنه لن يكون له وجود.

إن قوله الحق سبحانه يعني أن هذا المسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم تجد الله سبحانه يقول : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ إذن: فالمسألة ليست في بناء المسجد ، ولكنها فيمن يدخل المسجد ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول [1] فقد أسس على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه منافقون يحبون أن يتقذروا ؛ لأنهم المقابل لمن يحبون أن يتطهروا.

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شيء تنبسط له النفس وتخفُّ لعمله.

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم في الطهور ، فما طهوركم هذا ؟ قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ،فقال رسول الله ﷺ: فهل مع ذلك من غيره؟»

وهنا قال أهل قباء: «لا ، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء» [2] ، وكان الواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء الحاجة ؛ فيخفف من استخدام المياه ؛ لأن المياه كانت قليلة عندهم ، ثم يستخدم الماء بعد الأحجار [3] ليكمل ويتم نظافته ، وأضافوا : «ولا نبيت على جنابة ، ولا نُصرّ على ذنب ، فإن غلبنا الذنب تعجّلنا التوبة».

﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ والحب هنا متبادل ، فلا شيء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو الشقاء بعينه. والشاعر يقول:

---

(١) هو مسجد قُباء، وهو أول مسجد بني في الإسلام، بني قبل مسجد النبي ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٥٥) والدارقطني في سننه (١/ ٦٢) والحاكم في مستدركه (١/ ١٥٥) (٢/ ٣٣٤) وصححه. قال الزيلعي: سنده حسن لكن فيه عتبة بن أبي حكيم ليس بقوي.

(٣) هي ثلاثة أحجار يستنجي بها من الغائط ، فعن عائشة أن النبي ﷺ قال : « إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليستطب بثلاثة أحجار فإنها تجزيء عنه » أخرجه أحمد (٦/ ١٠٨ ، ١٣٣) وأبو داود في سننه (٤٠) والنسائي (١/ ٤١ ، ٤٢) والدارقطني في سننه (١/ ٥٤) . فأهل قباء كانوا يضيفون الماء بعد هذه الأحجار الثلاثة حجراً بعد الآخر، وذلك لشدة حرصهم على الطهارة .

أنتَ الحبيبُ ولكنِّى أعُوذُ بِكَ مِنْ أنْ أكُونَ حَبِيباً غَيْرَ مَحْبُوبِ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الجانبين فهو قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهى تأخذ قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنتهى بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهى بل تزداد اشتعالاً.

إذن: فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحب كلما رأى حبّاً من حبيبه رد عليه بحب ، فينمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو «الحب فى الله » ، فإذا رأيت حبّاً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن ؛ فاعلم أنه حب لغير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب فى الله.

والحق سبحانه يقول فى قصة فرعون وموسى:

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا... ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

هم لم يلتقطوه ليكون عدواً لهم ؛ فهذا الاحتمال لو كان قد جاء فى بال آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم التقطوه ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تغفيل الكافرين به [1] ، فآل فرعون هم من يربون موسى ؛ ولذلك قال له فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

ولكن موسى عليه السلام لا يجامل فى الحق ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربّاه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار فى ميزان الحق ، وقد

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩]

تكون العداوة هينة لو كانت من جانب موسى وحده ، ولكن شاء سبحانه ألا تكون العداوة من جانب موسى فقط ، بل من جانب فرعون أيضاً ، فيقول سبحانه:

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ... (٣٩) ﴾ [طه]

ويقول سبحانه في مجال الحب المتبادل:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ...(٥٤) ﴾ [المائدة]

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد [1] ، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات ؛ حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له ، وأنت حين تقرأ القرآن تجد قوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ.. (٥٩) ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ... (٤٤) ﴾ [الأحزاب]

لم يأت سبحانه هنا بـ «الـ» التعريفية ؛ لأنها لو جاءت لانحصر السلام في لون واحد. فأنت حين تقول: لَقيت الرجل ، فأنت تحدد الرجل . لكنك إنْ قلت : لقيت رجلاً. فقد يكون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما . فإن جاء الاسم نكرة صار شائعاً ، أما إن كان بالتعريف فيكون محدداً.

والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال:

﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾ [مريم]

---

(١) عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

لأنه يريد أن يكثر السلام. وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم]

وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك: «سلام عليكم» ، وأنت ترد: «وعليكم السلام» ، لماذا ؟ لأن «سلام عليكم» معناها أن السلام منى يكون عليك وعلى غيرك ، أما ردُّك «وعليكم السلام» فيعنى أنك خَصَصْته بهذا السلام.

وهنا الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها زادت فى التحية حيث يقول الحق سبحانه:

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وهذا لأن الذى يحب أن يكون طاهراً دائماً ، قد أنس بفيوضات الله عليه [1] ، وما دامت ذراته كلها طاهرة من النجاسات المعنوية ومن النجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته فى كل لحظة، ولا تنتهى إمداداته على الخلق أبداً، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم.

إذن: فقد جاء الإيمان ليريحنا لا ليتعبنا، كما أنه سبحانه يصف نفسه [2]:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة]

---

(١) لأنهم تخلوا عن النجاسات حساً ومعنى ، وتحلوا بالطهر والعبادة ، فتجلى الله عليهم بفيضه ونوره.

(٢) وذلك أن اليهود وصفوا الله سبحانه بأنه بخيل لا ينفق فقالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ...﴾ [المائدة : ٦٤] . وقد أخرج الشيخان البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض، يرفع ويخفض». أخرجه البخارى (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣)

أى: يطمئن الخلق أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية. فصحِّح جهاز استقبالك ؛ بألا توجد فيه نجاسة حسيّة أو نجاسة معنوية ؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عنده فيوضات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال [1] ، ولا توجد به قذارة معنوية ، ولا قذارة حسّية ، ويتضح ذلك كله على ملامح وجهه ، وكلماته ، وحسن استقباله. وإن كان أسمر اللون فتجده يأسرك ويخطف قلبك بنورانيته. وقد تجد إنساناً أبيض اللون ، لكن ليس فى وجهه نور ؛ لأن فيوضات ربنا غير متجلية عليه.

وكيف تأتى الفيوضات؟ إنها تأتى بتنقية النفس ؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوضات الربانية ، فعليه أن يبحث فى جهازه الاستقبالى. وأضرب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعى ، فمحطات الإذاعة ترسل ، ومن يملك جهاز استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعى ، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعنى أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها.

ولذلك قال الحق:

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذى لا ينتهى ، والحديث الشريف يقول:

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [2].

---

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً ووضعت طيباً» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى.

والليل قد ينتهي عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً ولا تنقبضان أبداً.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ[1] فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

وقوله : ﴿أَفَمَنْ﴾ استفهام[2] ، وكأنه يقول: وكيف تساوون بين مسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم ، ومسجد اتُّخِذ للضرار وللكفر ولتفريق جماعة المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ؟

إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام فسبحانه واثق من أن عبده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ[3] بُنْيَانَهُ﴾ نجد كلمة « بنيان» وهي مصدر؛ «بنى» «بنياناً» ، لكن أطلق على الشيء المبني ، فنقول : إن هذا البنيان جميل ، أو نقول مثلاً: إن طراز هذا البنيان فرعوني.

إذن: هناك فرق بين عملية البناء وبين الشيء الذي ينشأ من هذه

---

(١) على شفا جُرف : على حرف بئر لم تُبْنَ بالحجارة. هَارٍ : هائر متصدع أو متهدم. فانهار به : سقط البنيان بالباني.

(٢) جاء الاستفهام هنا بالهمزة، وهي ترد لطلب التصور والتصديق، بخلاف هل، فإنها للتصديق خاصة، وسائر أدوات الاستفهام للتصور خاصة. (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٤١)، والاستفهام هنا استفهام معناه التقرير، أي تقرير أن من أسس بنيانه على تقوى من الله خير ممن أسس بنيانه على شفا جرف هار.

(٣) أسس بنيانه : أقامه على أساس قوي وعلى قواعد راسخة.

العملية ، وكلمة البنيان اسم جنس جمعى[١] ؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرده «بنيانة» مثلما نقول: «رمان» ، ومفرده «رمانة»، و«عنب» ومفرده «عنبة»، وأيضاً «روم» مفرده «رومى» فياء النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . إذن: يُفرق بين الواحد والجمع، إما بالياء وإما بالتاء.

وقد حكم سبحانه بألا يصلوا في مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا فى المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء ، ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما تقبله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهنا ثلاث كلمات: شفا ، وجُرف ، وهَار. والشفا مأخوذ من الشَّفَة، و«الشفا» حرف الشيء وطرفه . وسكانُ سواحِل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، وتجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع ؛ لأنها الطرف الذى ليس له قاعدة وأسفله مَنْحور.

و«شفا جُرُف » أى طرف سينهار ؛ لأنه «هار» أى غير متماسك، فتكون الصورة أن الماء ينحر فى الساحل ، فيصنع شَفة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها «شفا جُرُف».

وقد قال القرآن فى موضع آخر:

---

(١) اسم الجنس الجمعي: هو ما له مفرد يشاركه فى لفظه ومعناه معاً، ولكن يمتاز المفرد بزيادة تاء التأنيث فى آخره أو ياء النسب. قال الفيروز آبادى فى «بصائر ذوى التمييز» (ص ٢٧٧) : «البنيان، واحد لا جمع له. وقال بعضهم: جمع واحدته «بنيانة» على حد «نخلة ونخل» وهذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا...(١٠٣) ﴾

[آل عمران]

إنها الحفرة فى النار ، فكيف يكون شكلها ؟ لابد أنه مرعب.

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبار ليأخذوا منها الماء ، كانوا يضعون فى جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه ؛ لأن البئر إن لم يكن له جدار من حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال من على فوهته ، وهكذا تمنع الأحجار أى جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف هَارٍ ، وهكذا كان مسجد الضرار، ينهار بمن فيه فى نار جهنم.

ويذيل الحق الآية : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهم كانوا ظالمين بالنفاق ؛ لذلك لم يَهْدهم الله إلى عمل الخير ؛ لأن الله لا يهدى الظالم. وسبحانه يقول فى أكثر من موضع بالقرآن:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ويقول عز وجل:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

والهداية - كما علمنا من قبل - قسمان: هداية الدلالة ، وهى لجميع الخلق ويدل بها الله الناس على طريق الخير، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه،

فهم أحرار ، فلله هداية شملت الجميع ، وهى هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهى هداية المعونة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً [(١)] فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

البنيان الذى بنوا هو مسجد الضرار ، وأرادوا به ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن يصلى فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة [(٢)] وأن يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد ﷺ من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ وأرسل ﷺ بعضاً من صحابته [(٣)] ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه ﷺ بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكأنه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسّية .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسيّة ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسّية ، فالإنسان قد يتحرز من

(١) ريبة : شكاً ونفاقاً فى قلوبهم .
(٢) ذريعة : أى وسيلة وتوصلاً لهدف معين .
(٣) منهم : مالك بن الدخشم ومعن بن عدى . أما مالك فقد شهد بدراً . و أما معن بن عدى بن الجد حليف الأنصار فقد شهد غزوة أحد . (انظر الإصابة فى تمييز الصحابة) .

النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التى تخامر[(١)] القلوب والعقائد والعواطف فهى التى تسبب للإنسان الشقاء.

وهنا يقول الحق: ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فبعد أن هدم رسول الله ﷺ هذا البنيان وصار موقعه موضع القذارة، بقى أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن ينزل بهم رسول الله ﷺ العقاب ، وظلوا فى شك من أن يصيبهم رسول الله ﷺ بسوء، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت.

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثانى فى استبقاء الحياة، أما العضو الأول فى استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة ، فالمخ فى الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة.

وكذلك النخاعات التى تتحكم فى إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة. ونرى فى الحفريات أن الجماجم هى أبقى شىء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته.

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول: ليس لى رغبة فى الأكل ، وهذا ليس إلاّ تعبيراً علمياً لما حدث فى الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر

(١) خامر القلوب: خالطها وامتزج بها.

ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو «المخ» مصاناً.

ولذلك تجد القرآن حينما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ... ④﴾ [مريم]

أى: أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شيء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات فى الذبول ؛ لأنها تعطى حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم تجد الساق تجف لأنها تعطى حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتى قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قوياً.

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهى الأشياء التى تنشأ من المحسّات ، وتتكون فى الفؤاد[1] لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهى من الاقتناع بفكرة حتى تستقر فى القلب.

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره فى قلوبهم ، ولن ينتهى منهم أبداً إلا بشيء واحد هو :﴿ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ والقلوب لا تتقطع إلا بالموت، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا.

---

(١) القلب هو مضخة الدم فى شرايين الجسم وعروقه هذا تعريف المادة ، والفؤاد هو عقل القلب وهو محل العقائد الناشئة عن الإدراك ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ④⑥﴾ [الحج] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ②④﴾ [محمد] ويطلق القلب على الفؤاد ، كما يطلق الفؤاد على القلب . فهما متلازمان . كالقلب يصل إلى الاعتقاد بالإدراك ثم يصير الإدراك انفعالاً ، وبعد الانفعال يكون الاختيار بمناقشة المسائل، ثم يكون الاختيار فى البدائل وينتهى بالإقناع .

أو : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً.

وهذا تهديد لهم بأن مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من ذوات نفوسهم . ووجود الريبة فى نفوسهم ، يعنى أنها لن تجعلهم يستشرون فى الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب.

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شىء فى مكانه .

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أى أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوَّض الإيمان وعوّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يتُعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً.

فيقول الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ[1] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾

يقول العلماء: كيف يشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهو الذى خلق الأنفس وهو الذى وهب المال ؟ وقالوا : ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها ، بدليل أن المال مال الله ، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوضح له: إنه مالك بحيث إذا احتاجه أخ لك فى الدين ، فأنا أقترضه منك، ولم يقل: «أسترده». فسبحانه القائل:

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة]

لقد احترم الحق الهبة للإنسان ، واحترم عرقه وسعيه ، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر الحياة ، ووهبهم الأنفس أعلن أنها ملكهم حقّاً ، ولكنه أعطاها لهم ، وحين يريد أخذها منكم فلا يقول : إنه يستردها بل هو يشتريها منكم بثمن ؛ ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام: «إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هى الجنة».

أى: اجعلوا ثمنها غالياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ . وكلمة ﴿اشْتَرَىٰ﴾ تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع. وإذا كان هذا ملكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع ، فلابد أن لهذا الأمر رمزية ، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان فى الولى على اليتيم أو السفيه ، فقد يصح أن يكون عندى

---

(١) الشراء والاشتراء : التملك بالمبادلة والعوض. وشَرى يَشْرى : بمعنى باع وبمعنى اشترى ، والمشترى يعطى شيئاً ويأخذ بدله شيئاً ، فهو بائع وهو مُشْترٍ، وجاء شرى بمعنى باع فى قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ..(٢٠)﴾ [يوسف] أى : باعوه وجاء اشترى بمعنى أخذ السلعة ودفع الثمن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...(١١١)﴾ [التوبة].

شىء وأنا ولى على يتيم، فأشترى هذا الشىء بصفتى ، ثم أبيعه بصفتى الأخرى ، فالشخص الواحد يكون هو الشارى وهو البائع [(١)] ، فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشترى».

وما الثمن؟ يأتى التحديد من الحق: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن الذى لا يفنى ، ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التى لا نهاية لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت فى أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وحينما جاء الأنصار فى بيعة العقبة لرسول الله ﷺ قال له عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت.

قال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

ماذا قال رسول الله ؟ أقال لهم ستفتحون قصور بُصْرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل ﷺ شيئاً من هذا ، بل قال: «الجنة» ؛ لأن كل شىء فى الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا: «ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» [(٢)] وبمجرد

---

(١) هذا يجوز عند الإمام مالك بشرط ألاّ يحابى نفسه فى الشراء من مال اليتيم أو البيع إلى نفسه. انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ٣٣٤).

(٢) حينئذ نزلت هذه الآية. وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٠١) طبعة دار الشعب ، وعزاه لابن جرير الطبرى من مرسل محمد بن كعب القرظى ، وكذا أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩١)، والقرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٣).

عقد الصفقة العهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار [1] ، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أن يبلغ الإسلام حظه وذروته ، وقد يقال: فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة . لكنه ﷺ حين قال: «الجنة» ، فمن مات يدخلها.

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتى من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ؛ لأن الذى يقدح فى وعود الناس للناس ، أنك قد تعدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفى به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ.

إذن: الوعد الحق هو ممن يملك ويقدر ، وحيّ لا يموت ، لذلك يقول فى هذه الآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

ويقول فى آخرها :

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ و«وَعْد» مصدر، فأين الفعل؟ إننا نفهمها: أى وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذى يملك وهو وعد حق. والقرآن حين يأتى بقضية كونية ، فالمؤمن يستقبلها بأنها سوف تحدث حتماً، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقّاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه:

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

هذه قضية قرآنية، حدثت من قبل و ثبتت فى الكون.

وماذا بعد أن اشترى الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم ؟ هنا يحدد الحق المهمة أمامهم:

---

(١) كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم : سعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، وأبو مسعود الأنصارى ، والبراء بن معرور ، وسعد بن عبادة ، والمرأتان هما : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو.

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و«قَاتَل» من «فَاعَلَ» ، و«قَتَلَ» غير «قَاتَلَ» . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن «قَاتَلَ» تقتضى مفاعلة ، مثلها مثل «شَارَكَ زيدٌ عَمْراً» . وكل مادة «فاعَلَ» و«تفاعَلَ» توضح لنا الشركة فى الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول. ولذلك تجد فى أساليب العرب ما يدلك على أن ملحظ الفاعلية فى واحد هو الغالب ، وملحظ المفعولية فى الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى.

فمثلاً: الرجل الذى سار فى الصحراء التى فيها حيَّات وثعابين ، ولم يُهج الرجل أثناء سيره الحيّات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان ما دُمْت لاَ تهيجه فهو لا يفرز سماً ؛ لأن سم الثعبان لا يفرز إلا دفاعاً.

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سُمَّه، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة على عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد «سالمها»، والشاعر يقول:

قد سَالَمَ الحيَّاتُ منه القَـدَما ... والأفْعُوان [1] والشُّجَاعَ الشَّجْعَما [2]

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلحظ أن «الأفعوان» منصوب ، وأن «الحياتُ» مرفوعة ، إذن : فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وجاء بالقدم منصوبة ، وكذلك الشجعم لما فى الحيات من المفعولية ؛ لأن الحيّات إذا سالمت القدمَ فقد سالمها القدمُ ، فكأنه قال : سالم القدمُ الحيّاتِ ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها.

---

(١) الأفعوان : ذكر الأفاعى . والمؤنث « أفعى » وهى الحية .
(٢) الشجاع الشجعم: الثعبان الضخم.

وهنا يقول الحق:

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ ﴾ فمن يقاتل ، إما أن يَقْتل وإما أن يُقْتَل ، وفي قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ،[1] ويقول : «فيُقْتَلُون ويَقْتُلُونَ» ؛ فالمسألة صفقة بمقتضى قوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ لذلك يُقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفقة . وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ،[2] وإذا ما جاء المؤمنون في جانب ؛ والكفار في جانب آخر فالمؤمنون بنيان ، والحق هو القائل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾
[الصف]

فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقْتَلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن : فحين قتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقرأ قول الحق على قراءة الحسن ونقول : « فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ » .

أو: أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا في أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبوا جانب السلامة .

وكلنا نعرف قصة الصحابي الذي قال لرسول الله ﷺ: أليس بيني وبين الجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلوني ؟ قال له: «نعم» فأخرج الصحابي تمرة كانت في فمه، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة[3] .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣١٩٤): « قرأ النخعي والأعمش وحمزة والكسائي وخلف بتقديم المفعول على الفاعل . وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول».

(٢) عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٤٦)، ومسلم في صحيحه (٢٥٨٥) واللفظ لمسلم.

(٣) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال : في الجنة . فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة، وهو وعد من الحق فى التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان.

وكل دين فى وقته له مؤمنون به، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه. إذن: فالقتال فى سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين، لكنها لم تكن عامة عند الرسل، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتدخل لعقاب أهل الكفر، وكان الرسول يبلّغ، فإذا لم يستجبْ له قومه؛ عاقبهم الله سبحانه، والقرآن يقول:

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... (٤٠) ﴾[١] [العنكبوت]

ولم تأت مسألة القتال فى سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام[٢] أن يقاتلوا فى سبيل الله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

إذن: فهذا وعد من الله فى التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام، وطالبوا بالقتال فى سبيل الله، وكذلك فى الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه

(١) هذه أربعة أنواع من العذاب: «الحاصب» وهى ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد». و«الصيحة» التى أخذت قوم «ثمود» فقضت عليهم. و«الخسف» الذى عاقب الله به قارون. و«الغرق» الذى قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام.

(٢) كان هذا بعد سيدنا موسى بما يقرب على الألف عام، والنبى هنا الذى طلب منه قوم بنى إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه فى سبيل الله هو: شمعون أو شمويل، قاله السدى ومجاهد ووهب بن منبه. وهو ما رجحه ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٠٠)

السلام ، وأخيراً فى القرآن للذين آمنوا بمحمد ﷺ [1].

أو: أن هذا الوعد خاص بأمة محمد ﷺ ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشرى. وبهذا يكون الوعد فى التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد ﷺ ،فكأن التوراة قد بُشِّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل قد بُشِّر فيه بهذا الوعد للأمة المسلمة. والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه فى آخر سورة الفتح:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..(٢٩)﴾ [الفتح]

إذن: فالدين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً. ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً طوال الوقت ، ولو طُبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت، ولكن شاء الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ ولذلك فالدين لا يطبع الناس على ذلة ولا على عزة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار.

وبذلك يُطوِّع المؤمن نفسه ، فهو شديد ورحيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشتد ، وحين

(١) قال القرطبى (٤/ ٣١٩٤) فى تفسير الآية: «هذا إخبار من الله تعالى أن هذا كان فى هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام» وقد قال عز وجل على لسان سيدنا موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١] إلى أن قال: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

يتطلب منهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون ذليلاً بالنسبة لإخوانه المؤمنين يذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز.

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وتتابع صفات المؤمنين فى قوله سبحانه :

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم فى ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله.

ثم يصفهم سبحانه :

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ...(٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم لا يريدون إلا رضاء الله وفضله ، والنور يشع من وجوههم؛[1] لأنهم أهل للقيم ، ويضيف سبحانه :

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

أى : أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيجىء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التى لا توجد فى اليهود ، هؤلاء الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقى أرواحهم بالقيم الدينية، فأنت إن نظرت إلى التوراة المحرفة

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن نبى الله ﷺ قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٦) وأبو داود فى سننه (٤٧٦٦). وقال بعض الصالحين: إن للحسنة نوراً فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس. انظر ابن كثير (٤/ ٢٠٤).

فلن تجد فيها أى شيء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية.

أما فى الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة ، والماديات فيها ضعيفة؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملاً تنتظم به الحياة ، قيماً حارسة ، ومادة محروسة ؛ فالعالم يفسد حين تأتى المادة فتطغى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية[1] تدافع عنها ، فيأبى القوى الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل فى البناء الاجتماعى.

إذن: فنحن فى حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم. وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية، لذلك ستأتى أمة محمد وهى تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سُجَّد ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود.

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتى فى أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من المادة؛ بسبب أنكم انعزلتم عن الحياة وابتدعتم رهبنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة فى الحياة.[2]

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ[3] يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ...(٢٩) ﴾ [الفتح]

---

(١) جمع الإسلام بين عقل المادة بالتخطيط وعقل الروح بالتهذيب، ومن هنا يكون الانسجام بين طاقة الروح وطاقة المادة ، وطاقة العقل ، فرسالة الإسلام هى عقل القيم ، يقول الحق ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

(٢) يقول سبحانه: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد].

(٣) شطأه: طرفه. يقال: أشطأ الزرع إذا نبت ونما. آزره: أزر الزرع وتآزر: قوّى بعضه بعضاً. استغلظ فاستوى على سوقه: صار غليظاً وقويت واستحكمت نبتته.

ومن حق المسلمين أن يقولوا: أيها الكافرون ليست لكم مادة تطغون بها علينا؛ لأن الإسلام يريد من حركة حياتنا على ضوء منهجه في الأرض أن تتوازن المادة مع القيم؛ لأن القيم هي التي تحرس الحضارة، والمادة إنما تحرس القيم، وحين يمتلك المسلمون القوة المادية فسيرتدع أي إنسان عن أن يطمع في فتنة المسلمين في دينهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... (٦٠)﴾ [الأنفال]

فالكفار إذا رأوك قد أعددتَ لهم يتهيبون.

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها، يقول الحق:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾

وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد من هو أوفى منه؛ لذلك يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وبذلك يطمئننا سبحانه على أن وعده محقق؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهَد ومُعَاهِد، والذي يخرج عن هذا الارتباط أمران:

الأول: ألا يكون صادقاً حين أعطى عهداً، بل كان في نيته ألا يوفي، ولكنه أقام العهد خديعة حتى يستنيم له المعَاهَد.

والأمر الثاني: أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه، فهو كاذب.

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة؛ فسبحانه مُنزَّه عن كل ذلك، ولا أحد أوْفَى بالعهد من الله.

فقد يُطعن في العهد والوفاء به عدم القدرة، لكن قدرة الحق مستوفية.

إذن: فالعهد الحقيقى إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامى ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؟ فالإجابة: لا أحد ؛ لأن الذى يقدح فى مسألة العهد الخُلف والكذب وغير ذلك.

والله سبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأن الخديعة لا تأتى إلا من ماكر ، وإذا سمع أى إنسان ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ ثم أدار فكره فى الكون ليبحث عن جواب ، فلا يجد إلا أن يقول : «الله» ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد. وما دام الوعد بالجنة ، فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعده حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة.

ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة]

فالنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ثم وعده الحق المبيَّن فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هى الاستبشار بما باعه المؤمن لله. فالإنسان - ولله المثل الأعلى - لا يسجل إلا ما يكون فى صالح قضيته، ولا يسجل للخصم ، فعندما يكون عندك صَكٌّ[1] على فلان ، فأنت الذى تحتفظ به وتحرص عليه؛ لأنه يؤيد حقك.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]

والقرآن هو الحجة الكاملة الشاملة فى كل أمور الدنيا والآخرة، ومن فَرْط صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخَالَف ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذى صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذى خلقه الله لا يمكن أن

(١) الصَّك: الكتاب، فارسى معرب. يقيد فيه الديون والأعطيات.

تخرج عن قضايا القرآن ؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾

قوله الحق : ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ مأخوذ من «البشرة»، وهي الجلد عامة، وإن كان الظاهر منه هو الوجه .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق، وهذا قد يُقبِضُ النفس فهذا فيه الموت ، وخسارة للمال ، وكان من الطبيعي أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف . ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور. والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق، مع أنه هنا سيأخذ نفسه، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ أي : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً [1] .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ وهل يستبشر الإنسان بالبيع ؟ نعم ؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغني عنه عادة، ويشتري ما يحتاج إليه، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً بباق .

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يخالفون العهد الذي أخذ عليهم ، تجد الواحد منهم

(١) وعلى المؤمن أن يكون له نصيب من هذا في تعامله مع الناس، فعن أبي موسى قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٩٩) ومسلم (١٧٣٢) في صحيحيهما.

يحتاج للمخالفة لأن وفاءه يتعبه. لكن الحق سبحانه ليس فى حاجة لأحد وهو غنى عن الجميع ، ولا يوجد أدنى مبرر لخُلْف الوعد أبداً.

وتأتى ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصفقة التى انعقدت بينكم وبين ربكم.

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة فى عرف العقل الواعى ، كما تقول لابنك : «ذاكر لتفوز بالنجاح» وتقول للتاجر : «اجتهد فى عملك بإخلاص لتفوز بالربح».

إذن : فهناك «فوز»، وهناك «فوز عظيم» والفوز فى الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التى تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذى لا فوز أعظم منه [1].

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [2]

(١) وهذه طبيعة الإنسان التى تطمح نفسه دائماً إلى الخلود وخلود ما أنعم عليه به، وقد لمح إبليس فيه هذا فقال : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] . فإبليس يمنيه بالخلد وبالنعيم الذى لا يزول ولا يفنى.

(٢) التائبون : من الشرك ولم ينافقوا فى الإسلام. العابدون : الذين ذلوا خشية لله وتواضعاً . الحامدون : الذين حمدوا الله على كل حال فى السراء والضراء . السائحون : الصائمون . الراكعون الساجدون : المصلون . الحافظون لحدود الله : المنتهون إلى أمره (راجع تفسير الطبرى).

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة، فمن هم المقبلون عليها [1] ؟ إنهم التائبون ، والتوبة : هى الرجوع عن أى باطل إلى حق.

وعمَّ يتوب هؤلاء التائبون ؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة. نجد ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : فالإيمان أمر فطرى ، والكفر هو الذى يطرأ عليه ، وقلنا من قبل : إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو الستر [2] ،

---

(١) لمس فضيلة الشيخ هنا معنى هاماً فى تفسير هذه الآية، فلن يقبل على الدخول فى هذه البيعة إلا من توافرت فيه هذه الصفات، ولكن ليس على سبيل الشرط، فقد ثبت فى السنة أن هناك من استشهد ولم يركع لله ركعة ، وكذلك جاء فى السنة أن الشهيد تغفر له ذنوبه مع أول قطرة دم (أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣١) وحسَّن إسناده المنذرى فى الترغيب (٢/ ١٩٤) وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية : هل هى متصلة بالآية قبلها أم منفصلة ؟ فاتصالها بها معناه أنه لن يدخل فى هذه البيعة إلا القليل النادر، أما انفصالها فمعناه أن هذه أوصاف للكمّلة من المؤمنين الأقرب لبيع أنفسهم وأموالهم فى مقابل الجنة. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٩٧) .

(٢) الكفر على أربعة أنحاء : كفر إنكار بأن لا يُعرف اللهُ أصلاً ولا يُعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقى ربه بشىء من ذلك لم يغفر له. . . فأما كفر الإنكار فهو كفر بالقلب واللسان. وأما كفر الجحود فهو أن يعترف الكافر بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس وأمية بن أبى الصلت ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] . وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أن يدين به حسداً وبغياً ككفر أبى جهل. وأما كفر النفاق فهو إقرار باللسان وكفر بالقلب. نقله ابن منظور فى اللسان (مادة : كفر).

فمن يكفر بالله - والعياذ بالله - إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطرأ الكفر فيستره ، ثم يأتى من ينبه فى الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التى طرأت على الفطرة.

و﴿التَّائِبُونَ﴾ : منهم التائبون عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة ، وأخذوا منهج الله الذى آمنوا به، ومن هنا نشأت العبادة التى تقتضى وجود عابد ومعبود ، والعبادة تعنى الانصياع من العابد لأوامر ونواهى المعبود.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ والعبادة كلها طاعة تتمثل فى تطبيق ما جاء به المنهج من «افعل» و«لا تفعل»، وقد يتدخل المنهج فى حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل فى هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها ؛ لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولى أمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذى يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح.

إذن: الأوامر والنواهى هنا نعمة ، كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة.

إذن: فالذين تابوا عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أى: منفذين الأوامر ، ومبتعدين عن النواهى ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهى، ولكنهم يصدقون قوله ﷺ : «حُفَّتِ الجنةُ

بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات »[1]

حين تعرف أن العبادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن تحمد الله عليه ؛ وبذلك يدخل المؤمن فى زمرة الْحَامِدِينَ.

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله فى بالك ، فلا يشغلك كونه عنه سبحانه ، وإياك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً فى بالك، والحق سبحانه يقول :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۞ ﴾ [العلق]

لذلك يفكر المؤمن فى الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة فى بيت وأولاد وعمل.

و﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أيضاً لابد أن يستقبلوا كل قدر لله عليهم بالرضا ؛ لأن الذى يُجرى عليهم القدر - ما دام لم يأمرهم بما لم يقع فى اختيارهم - فهو حكيم ولا يُجْرى سبحانه عليهم إلا ما كان فى صالحهم. وبعد أن ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة ؛ ولذلك يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ... ۞ ﴾ [البقرة]

ويتابع الحق صفات المقبلين على الصفقة الإيمانية فيقول : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٣٩) عن أنس بن مالك. قال النووى فى شرحه لمسلم (١٧/ ١٧١) «فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادات، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسىء، والصبر عن الشهوات ونحو ذلك. وأما الشهوات التى حُفَّت بها النار ، فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل فى هذه لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يقسّى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك».

ومعنى «سائح» هو من ترك المكان الذى له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأنس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شىء ما ، قد يتعرض فيه للمخاطر ، والمؤمن إنما يفعل ذلك ؛ لأنه لا شىء يشغله فى الكون عن المكوِّن ، ويقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ...(١١) ﴾ [الأنعام]

إذن: فالسياحة هى السير المستوعب ، والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب فى الأرض[1] ليبتغى من فضل الله .

إذن: فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهى خاصة بالذين يضربون فى الأرض ، وهم الرجال.

أما سياحة الاعتبار ؛ فهى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك فى وصف النساء:

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ...(٥) ﴾ [التحريم]

إذن : ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ هنا مقصود بها سياحة الاعتبار ، أو السياحة التى تكون فى صحبة الزوج الذى يضرب فى الأرض.

وقيل أيضاً: إن السياحة أطلقت على «الصيام» ؛ لأن السياحة تخرجك عما ألِفْتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما ألِفْتَ من

(١) الضرب فى الأرض: السفر لطلب الرزق والتجارة. يقول سبحانه : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

طعام وشراب وشهوة [1] .

إذن: القَدْرُ المشترك بين الرجال والنساء هو في سياحة الاعتبار وسياحة الصوم.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي: المقيمون للصلاة ، وقد جاء بمظهرين فقط من مظاهر الصلاة ، مع أن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود ؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة ، وأما القيام فقد يكون في غير الصلاة ، وكذلك القعود . إذن: فالخاصيَّتان هما ركوع وسجود ؛ والحق يقول:

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي [2] لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران]

أي: صلِّي مع المصلِّين ، وهكذا نجد أن الركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة في الصلاة.

ثم يقول سبحانه: ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو حيثية تخص الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس ، فالحق سبحانه يقول:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...(١١٠)﴾ [آل عمران]

فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا

(١) قيل للصائم : «سائح» ؛ لأن الذي يسيح متعبداً يسيح ولا زاد معه إنما يطعم إذا وجد الزاد، والصائم لا يطعم أيضاً فلشبهه به سمي سائحاً . نقله ابن منظور في اللسان.

(٢) القنوت: أداء الطاعة في خضوع وخشوع مع الإقرار بالعبودية لله.

المنكر فليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مزاول له [(١)]. إذن: فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، صلاح أو هدى مُتَعدٍّ من النفس إلى الغير ، بعد أن تكون النفس قد استوفَتْ حظها منه.

ويقتضى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن تعرف المعروف الذى تأمر به ، وأن تعرف المنكر الذى تنهى عنه ؛ لذلك لا بد أن تكون من أهل الاختصاص فى معرفة أحكام الله ، ومعرفة حدود الله حلاّ وحُرْمة ، أما أن يأتى أى إنسان ليُدخل نفسه فى الأمر ويقول : أنا آمرَ بمعروف وأنا أنهى عن منكر ، هنا نقول له: لا تجعل الدين ، ولا تجعل التقوى فى مرتبة أقل من المهن التى لا بد أن يزاولها أهل فكر ومتخصصون فيها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ و«الحدود» جمع «حد» وتأتى الحدود فى القرآن على معنيين: المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر، وتلك يردفها الحق بقوله:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدَّ هذا الحد، أما المعنى الثانى: فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك: لا تتعداها، بل يقول سبحانه:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧)﴾ [البقرة]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بَشِّرْ هؤلاء

(١) عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء برجل فيطرح فى النار فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أى فلان ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم بلفظ مقارب (٢٩٨٩)

ويقول الشاعر:

لا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وتأتى مثلهُ ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عَظيمُ

الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذين قد يصلون أو يصومون ظاهراً. وكلمة ﴿وَبَشِّرِ﴾ و«استبشر» و«البشرى» و«البشير» كلها مادة تدل على الخبر السار الذى يجعل فى النفس انبساطاً وسروراً ؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وجهاً متهللاً تفيض بشرته بالسرور.

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر شغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر ؛ ومن حقوق هذه الأبوة على الأبناء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أوْلَى من قرابة الدم ، وأولى من عاطفة الحنوّ والرحمة ؛ فالحق سبحانه وتعالى أوْلى بأن يكون الإنسان بارّا به من أن يكون بارّا بالأب الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه النسبَ فى الإسلام نفسه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

قبل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لآبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله ﷺ ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ ، وإذا كان النبى ينهى ، فالمؤمنون من باب أوْلى ليس لهم الحق فى ذلك ؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم آباء النبى إن كانوا غير مؤمنين.

وكلمة ﴿ مَا كَانَ ﴾ تختلف عن كلمة «ما ينبغى» فساعة تسمع «ما ينبغى لك أن تفعل ذلك» فهذا يعنى أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن

تفعل ، ولكن حين يقال : «ما كان لك أن تفعل» ، أى : أنك غير مؤهل لفعل هذا مطلقاً.

ومثال ذلك أن يقال لفقير جداً : «ما كان لك أن تشترى ڤيديو» ؛ لأنه بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز ، لكن حين يقال لآخر : «ما ينبغى لك أن تشترى ڤيديو» أى: عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذى يجب أن يمنع الشراء . إذن: فهناك فَرْق بين نفى الإمكان ، ونفى الانبغاء.

وهنا يقول الحق سبحانه :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

أى : ما كان [1] للنبى ولا المؤمنين أن يستغفروا للذين ماتوا على الشرك والكفر ، ولو كانوا أولى قربى . فهذا أمر لا يصح [2] .

وحتى لا يحتج أحد من المؤمنين بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه جاء الحق بالقول الكريم:

---

(١) قوله : «ما كان» يأتى فى القرآن على وجهين:
- النفى : نحو قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴿٦٠﴾﴾ [النمل] ، وقوله :﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران].
- النهى : نحو قوله تعالى :﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] ، وقوله :﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة]

(٢) مما جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : يا عم قل: لا إله إلا الله . كلمة أشهد لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب . فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فنزلت الآية : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة]. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤) .

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فقد وعد سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه ما ذكره القرآن:

﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]

﴿حَفِيًّا﴾ أي: أن ربَّ إبراهيم يحبه وسيكرمه في استغفاره لأبيه [1].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ويأتي الحق سبحانه بالحيثية الموحية، بأن إبراهيم له من صفات الخير، الكثير جداً، لدرجة أن الله خالقه يقول فيه:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

أي: أن خصال الخير في إبراهيم عليه السلام لا توجد مجتمعة في إنسان واحد، ولا في اثنين ولا في ثلاثة، بل خصال الخير موزعة على الناس كلها، فهذا فيه صفة الأمانة، وثان يتحلى بالصدق، وثالث يتميز بالشهامة، ورابع موهوب في العلم، إذن: فخصال الخير دائماً ينشرها الله في خلقه، حتى يوجد تكافؤ الفرص بين البشر، كالمهن، والحرف، والعبقريات، والمواهب، فلا يوجد إنسان تتكامل فيه المواهب كلها ليصبح مجمع مواهب.

---

(١) حفياً: مبالغاً في الإكرام وإجابة حاجته على سبيل البر واللطف به. وقد جاء استغفار إبراهيم لأبيه في القرآن مرتين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء]. ولكن هذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله.

لكن شاء الحق أن يجمع لسيدنا إبراهيم عليه السلام خصال خير كثيرة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: فيه عليه السلام من خصال الخير التي تتفرق في الأمة. وبعد ذلك يعطينا الحيثية التي جعلت من سيدنا إبراهيم أمة، وجامعاً لصفات الخير بهذا الشكل، فإن أعطاه الله أمراً فهو ينفذه بعشق[1]، لا مجرد تكليف يريد أن ينهيه ويلقيه من على ظهره، بل هو ينفذ التكليف بعشق، واقرأ قول الله سبحانه:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

أي: أتى بها على التمام، فلما أتمهن أراد الله أن يكافئه، فقال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (١٢٤)﴾ [البقرة]

فهو - إذن - مأمون على أن يكون إماماً للناس لأنه قدوة، أي أنه يشترك مع الناس في أنه بشر، ولكنه جاء بخصال الخير الكاملة فصار أسوة للناس، حتى لا يقول أحد: إنه فعل الخير لأنه ملك، وله طبيعة غير طبيعة البشر، لا.. إنه واحد من البشر، قال فيه الحق سبحانه:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (١٢٤)﴾ [البقرة]

أي: أسوة وقدوة، والأسوة والقدوة يشترط فيها أن تكون من الجنس نفسه فلا تكون من جنس مختلف، فلا يجعل الله للبشر أسوة من الملائكة؛ حتى لا يقول أحد: وهل أنا أستطيع أن أعمل مثل عمله؟ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في عرض هذه القضية:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء]

---

(١) العشق هنا أعلى مراتب الحب.

فحين تعجَّب بعض الناس[1] من أن ربنا قد بعث من البشر رسولاً أنزل الحق هذا القول وأضاف سبحانه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

فما دُمْتم أنتم بشر فلا بد أن يرسل لكم رسولاً منكم لتحقق الأسوة، لهذا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام]

ولنَر كيف أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بعض التكاليف بعشق ، فلننظر إلى قول الحق سبحانه:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ... ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة]

ومعنى رفع القواعد أى إيجاد البعد الثالث، وهو الارتفاع ؛ لأن البيت الحرام له طول وهذا هو البعد الأول ، وله عرض وهو البعد الثانى وبهما تتحدد المساحة . أما الارتفاع فبضربه فى البعدين الآخرين يعطينا الحجم ، وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البعد الثالث الذى يبرز الحجم ، وقد قال بعض السطحيين : إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى الكعبة ، لا لم يبن الكعبة ، بل رفع القواعد التى تبرز حجم الكعبة ؛ بدليل أنه حينما جاء هو وامرأته هاجر ومعها الرضيع إسماعيل عليه السلام قال :

(١) جمع الله ذكر هؤلاء المتعجبين فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم] .

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ..(٣٧)﴾
[إبراهيم]

وهذا دليل على أن البيت كان معروفاً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد استقرت به هاجر وطفلها إسماعيل إلى أن كبر واستطاع أن يرفع مع أبيه القواعد ، ولذلك نقول : إن هناك فرقاً بين « المكان » و« المكين» فالذى فعله إبراهيم هو إقامة « المكين» أى المبنى نفسه ، أما المكان فقد كان معروفاً .

ولنفترض أنه جاء سيل على الكعبة وهدمها فإلى أى شيء سنصلى ؟ إلى أن نقيم المكين . إذن : عملية البناء هذه للمكان ، وليست للمكين .

ويقول الحق عن البيت الحرام :

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ...(٩٧)﴾ [آل عمران]

وآيات جمع ، وبينات جمع ، ولم يأت من الآيات البينات إلا « مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ » :

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ... (٩٧)﴾ [آل عمران]

أى : أن « مقام إبراهيم » هو مجموع الآيات البينات ؛ لأن الله قد أمره أن يرفع القواعد ، وكان لا بد أن يبحث عن الإمكانات التى تساعده فى الرفع ؛ لأنه لو رفعها على قدر ما تطول يده لما بلغ طول الكعبة فوق مستوى ما تطوله اليدان ؛ لذلك فكر سيدنا إبراهيم وتدبر وجاء بحجر ليقف فوقه ليطيل فى ارتفاع جدران الكعبة ، وهذا من دلائل أنه ينفذ التكليف بعشق ، وعلى أتم وجه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفى هذا آيات واضحة على أن الإنسان

إذا كلف أمراً فعليه ألا ينفذ الأمر لينهى التكليف بأية طريقة ، ولكن عليه أن يؤدى ما يكلف به بعشق ، ويحاول أن يزيد فيه ، وبذلك يؤدى «الفرض» والزائد على الفرض وهو «النافلة» .

ونحن هنا فى قضية الاستغفار ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

وهنا وقفة توضح لنا طبع سيدنا إبراهيم كأواه حليم ، والأواه هو الذى يكثر التوجع والتأوه على نفسه مخافة من الله ، وعلى الناس إن رأى منهم معصية ، فيحدث نفسه بما سوف يقع عليهم من عذاب ، إنه يشغل نفسه بأمر غيره ، فهذه فطرته ، وهو أواه لأن التأوه لون من السلوى يجعلها الله فى بعض عباده للتسرية عن عبادٍ له آخرين [1] .

ولذلك يقول الشاعر :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءةٍ يواسيك أو يسلّيك [2] أو يتوجع

أى : أنه إذا أصابت الإنسان مصيبة فهو يشكو إلى صاحب المروءة ، فإما أن يساعده فى مواجهة المشكلة ، وإما أن يواسيه ليحمل عنه المصيبة ، بأن يتأوه له ويشاركه فى تعبه لمصيبته ، وهذا التأوه علامة رقة الرأفة وشفافية الرحمة فى النفس البشرية .

فإبراهيم ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ ، وهذا طبع فيه يسلكه مع كل الناس ، فما بالك إن كان لقريب له ؟ لا بد إذن أن يكثر من التأوه ، وخصوصاً إن كان الأمر يتعلق بأبيه ، ومع ذلك أراد الله أن يضع طبع إبراهيم عليه السلام فى التأوه

(١) ومن معانى الأوّاه أيضا : كثير الدعاء والتضرُّع إلى الله موقناً بالإجابة . انظر اللسان (مادة : أوه) .
(٢) يسلّيك : يكشف عنك همّك .

فى موضعه الصحيح ، ولكن الله أوضح له : إياك أن تستغفر لأبيك ولا شأن لك به ، فالمسألة ليست فى الطبع ، ولكن فى رب الطبع الذى أمر بذلك.

وهنا قضية هامة أحب أن تصفى بين مدارس العلم والعلماء فى العالم كله ؛ لأنها مسألة تسبب الكثير من المشاكل ، وتثار فيها أقضية كثيرة .

لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ألا يستغفر لأبيه ،بعد أن تبين له أنه عدو لله ، وما دام والد إبراهيم قد وصف بهذه الصفة وأنه عدو لله ومحمد ﷺ من نسل إبراهيم إذن : فلماذا يقول الرسول : « إننى خيار من خيار من خيار » ؟

ولو فهمنا قول الحق :إن أبا إبراهيم عدو لله ، ففى هذا نقض لحديث رسول الله ، وما دام أبو إبراهيم كان عدوا لله وتبرأ منه وقال له الحق : لا تستغفر . إذن :ففى نسبه ﷺ أحد أعداء الله ، وفى ذلك نقض لقوله ﷺ : « خيار من خيار من خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » .

ولهذا نريد أن نصفى هذه المسألة تصفية علماء ، لا تصفية غوغاء ، ولنسأل من هو الأب ؟ الأب هو من نَسَلَكَ وأنجبك ، أو نسل من نسلك . إذن : فهناك أب مباشر و أبوه يعتبر أبا لك أيضاً إلى أن تنتهى لآدم ، هذا هو معنى كلمة « الأب» كما نعرفه ، لكننا نجد أن القرآن قد تعرض لها بشكل أعمق كثيراً من فهمنا التقليدى ، وأغنى السور بالتعرض لهذه المادة « سورة يوسف » ؛ لأن مادة « الأب» جاءت ثمانى وعشرين مرة خلال هذه السورة ، فمثلاً تجد فى أوائل سورة يوسف،قول يوسف عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ... (٤)﴾

[يوسف]

وبعد ذلك جاءت السورة بأن الله سوف يجتبى يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث:

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ [(١)] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ... ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف]

والأبوان المقصودان هنا هما إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، ثم قال الحق من بعد ذلك: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ [(٢)] إِلَىٰ أَبِينَا .. ﴿٨﴾ ﴾

[يوسف]

ثم جاء قوله الحق على لسان إخوة يوسف : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

وفى نفس السورة يقول الحق عن إخوة يوسف :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ... ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف]

ثم يمهد إخوة يوسف للتخلص منه ، فيبدأون بالحوار مع الأب :

﴿ يَـٰأَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يوسف]

وبعد أن ألقوه فى غيابة الجب [(٣)] ، وعادوا إلى والدهم :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) يجتبيك : يختارك ويصطفيك لنبوته . وتأويل الأحاديث : هو تفسير الأحلام والرؤى.
(٢) يقصدون أخا يوسف من أمه راحيل، واسمه بنيامين .
(٣) الجُبّ: البئر. وغيابته : أى: قعره، فى منهبط منه.

وكانت هذه هى المرة الثامنة فى ذكر كلمة أب فى سورة يوسف ، ثم تأتى التاسعة :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ... ﴿١٧﴾ ﴾[يوسف]

ثم تدور أحداث القصة إلى أن دخل سيدنا يوسف السجن ، وقابل هناك اثنين من المسجونين وأخبراه أنهما يريانه من المحسنين ، وأن عندهما رؤى يريدان منه أن يفسرها لهما فقال لهما :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف]

وينسب ذلك الفضل إلى الحق سبحانه فيقول :

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا ذكر اسم ثلاثة من آبائه : إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام.

ثم خرج يوسف من السجن [1] وتولى أمر تنظيم اقتصاد مصر ، وجاء إخوته للتجارة فعرفهم ، ويحكى القرآن عن لقائه بهم دون أن يعرفوه ، وقال :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ...﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف]

وقال أيضاً :

---

(١) رفض يوسف عليه السلام الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تظهر براءته مما نسب إليه تجاه امرأة العزيز؛ لذلك قال لرسول الملك : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[يوسف] وتم له ما أراد، فقالت النسوة : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ وقالت امرأة العزيز : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف] .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ[1] ... (٦١)﴾ [يوسف]

ثم عادوا إلى أبيهم يرجونه أن يسمح لهم باصطحاب أخيهم الأصغر معهم[2]، وسمح لهم يعقوب عليه السلام باصطحابه بعد أن آتوه موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحيط بهم أمر خارج عن إرادتهم، ونزلوا مصر وطلبوا الميرة[3].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ[4] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ[5] إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ[6] (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ... (٧٥)﴾ [يوسف]

قالوا: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾ [يوسف]

قال يوسف:

﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ... (٧٩)﴾ [يوسف]

---

(١) المراودة: المراجعة وطلب الإذن منه برفق.
(٢) وذلك أنهم قالوا لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥] قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٤): «وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير».
(٣) الميرة: هي الطعام يمتاره الإنسان أي يجلبه.
(٤) السقاية: هو إناء من فضة كانوا يكيلون الطعام به، وربما شربوا به. ويسمى أيضاً الصواع.
(٥) العير: القافلة، والعير القوم معهم دوابهم وأحمالهم من الطعام. قال تعالى: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠] أي: أيها القوم الراحلون.
(٦) زعيم: كفيل.

ويأمرهم سيدنا يوسف عليه السلام :

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾ [يوسف]

ويعودون إلى أبيهم الذى يعاتبهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا... (٨٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم أن يعودوا مرة أخرى قائلاً :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ... (٨٧) ﴾ [يوسف]

وعندما عرفهم يوسف بنفسه وعلم منهم أن والدهم قد صار أعمى قال لهم : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا (٩٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم يوسف عليه السلام بأن يأتوا بأهلهم أجمعين. ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ [1] (٩٤) ﴾ [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ [2] وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ ... (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وما يهمنا فى كل ذلك آيتان اثنتان : الأولى هى قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ [يوسف]

---

(١) تفنّدون : أى تكذبونى وتتهمونى بالخرَف وضعف الرأى والعقل .
(٢) العرش : سرير الملك .

وإسحق هو أبو يعقوب ، وإبراهيم هو الأب الثالث . وحين قال يوسف :

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ [1] آبَائِي ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

و« آبائى » جمع أب . وعندما أراد أن يذكر الأعلام من آبائه قال :

﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

ويعقوب هو أبو يوسف ، وإسحق أبو يعقوب ، وإبراهيم أبو إسحق ، إذن : فإبراهيم أب ، وإسحق أب ، ويعقوب أب . وهكذا نرى أن كلمة «الأب» تطلق على الجد ، وآباء الجد إلى آدم . وإذا نظرت فى سورة البقرة تجد قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ... (١٣٣) ﴾ [البقرة]

ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وهكذا يكون إبراهيم أباً ، وإسماعيل أباً ، وإسحق أباً ، ولكن إسماعيل أخ لإسحق ، إذن فقد أطلق الأب هنا وأريد به العم ، وهكذا ترى أنه إذا ألحق بكلمة « أب» اسم معين هو المقصود بها ، فالمعنى ينصرف إما إلى الجد وإما إلى العم ، وإن جاءت من غير تحديد الاسم ، فهى تنصرف إلى الأب المباشر فقط .

والحق يقول فى شأن إبراهيم مع أبيه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ...(٧٤) ﴾ [الأنعام]

---

(١) المِلَّة : الشريعة والدين .

لقد ذكر الحق هنا اسم الأب وحدده بـ« آزر »[1] ولو أنه أبوه حقيقة لما قال آزر ، مثلما يأتيك إنسان ليسأل : أين أبوك ؟ هنا نفهم أن السؤال ينصرف إلى الأب المباشر ، لكن إذا قال : هل أبوك محمد هنا ؟ فهذا التحديد قد ينصرف إلى العم .

إذن : قول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يبين لنا أن آزر ليس هو الصُّلب الذى انحدر منه رسول الله ، ولكنه عمه ، وبذلك نحل الإشكال واللغز الذى حير الكثيرين.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ[2] حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة]

و« الحليم» هو خلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً[3] عن الذنب .

وقد شغل صحابة رسول الله ﷺ بإخوانهم المؤمنين ، الذين ماتوا قبل أن تكتمل عندهم أحكام الإسلام ؛ لأن منهج الإسلام نزل فى « ثلاثة وعشرين عاماً» . وليس من المفروض فيمن آمن أن يأتى بكل أحكام

(١) آزر : اسم أعجمى . وقد اختُلف فى اسم أبى إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه «تارح» وبعضهم قال : «تارخ» وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذى كانوا يعبدونه . انظر فى هذا : تفسير القرطبى (٣/ ٢٥٤٤)، وابن كثير (٢/ ١٤٩) وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤)، ولسان العرب (مادة أزر) وقصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار (ص ٩٣ - ٩٦)

(٢) أواه : كثير الدعاء والتأوه خوفاً من الله.

(٣) الحلم : الصبر ، و«الحليم» صيغة مبالغة من الحلم ، أى : كثير الحلم ، و«الصبور» صيغة مبالغة من الصبر أى : كثير الصبر ، و«الصَّفُوح» صيغة مبالغة من الصفح أى : كثير الصفح ، والصفح : هو العفو والمغفرة.

الإسـلام عند بداية إيمانه ، بل قـد يكون قـد آمن فقط بالشـهادة ، فـاعـتبـر مسلماً ، ومثال هـذا مخيريق اليهـودى [1] الذى لم يصل ركعة واحدة فى الإسلام ؛ لأن الحرب قامت بعد إسلامه مباشرة ، وقال : مالى كله لمحمد وسأذهب لأحارب معه ، وحارب فقتل ، وهكذا صار شهيداً . لأنه لم يمكث زمناً ينفذ فيه ما جاء به الإسلام قبل ذلك .

ومن باب أولى أن الذى مات قبل أن تتم أحكام الإسلام يعتبر مسلماً ، والذى مات مثلاً قبل أن تحرم الخمر تحريماً نهائياً ، أيقال : إنه عاصٍ أو كافر؟ لا ، إنه مسلم ، والذى مات قبل أن يعلم أن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلى الكعبة يعتبر مسلماً [2] وشاء الحق أن يبين للمسلمين ألا يحزنوا على هؤلاء ، فنزل الوحى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ [التوبة]

وهذا يوضح ما نعرفه فى عرف التقنين البشرى أنه لا جريمة إلا بنص ، ولا عقوبة إلا بتشريع ، فنحن لا نعاقب إلا بعد تحديد الفعل الذى يعاقب عليه ، وأن يكون النص المحدد للجريمة والعقوبة سابقاً على الفعل .

إذن : لا عقـوبة إلا بتـجـريم ، ولا تجريم إلا بنص . والذى لم يبلـغـه

(١) مخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضر ، أسلم واستشهد فى «أحد» ، وكان عالماً . وقد أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى ﷺ صدقة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٦/ ٧٣) . وسيرة النبى (٣/ ٨٨) .

(٢) عن ابن عباس قال : لما وُجِّه النبى ﷺ إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (١٤٣) ﴾ [البقرة] وأخرجه الترمذى فى سننه (٥/ ٢٠٨) وقال : حسن صحيح . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٦٩) وصححه وأقره الذهبى .
قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١/ ٩٨) : «الذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس» وذكر أسماءهم ، ثم قال : «فهؤلاء العشرة متفق عليهم» .

النص ؛ لأنه مات قبل أن يوجد النص ؛ لا نأخذه بالعقاب ؛ لأنه لا رجعية في القانون السماوى ، إنما الرجعية فقط عند البشر ؛ ولذلك نجد الحق يقول في كثير من الآيات : ﴿ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ... (٢٢) ﴾ [النساء]

إذن : فلا تحزنوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه . فإسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام ؛ فإن أدوها استووا بالذى يؤديها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها ؛ لذلك جاء قوله الحق :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾

وهنا الهداية هى هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون ؛ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا ﴾ أى : ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى التزام أمر الله ونهيه ، فإذا وافقوا البيان هداهم هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) ﴾

ومادة الـ(م.ل.ك) يأتى منها « مالك » ، و« مَلك» ، و«ملْك» ، ومنها «مُلْك» ، ومنها « ملكوت» ، و« الملْك » هو ما تملكه أنت فى حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معَك ويملك غيرك ، فهذا هو المَلك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أى الذى يدخل فى سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون فى الأمور الظاهرة . . . وأما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية .

مثل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ... (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وساعة ترى « تاء المبالغة » فى مثل « رهبوت» ، و«عظموت » تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنعك أن تستغفر لآبائك ، وأنك إن قاطعتهم فذلك يخل بوجودك فى الحياة ؛ لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون فى ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شىء ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شىء سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ؛ فقال :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة :﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾ و ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ ﴾ ، وإيتاء الملك فى أعراف الناس خير ، ونزعه فى أعراف الناس

شـر ، وإعـزاز النـاس خيـر ، وإذلالهم شـر ، ولـم يقل الله بيـده : « الخيـر والشر» . وإنما قال فى كُلٍّ : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

إذن : فحين يؤتى الله إنساناً مُلْكاً ؛ نقول : هذا خير وعليك أن تستغله فى الخيـر . وحينمـا ينزع الله منه الملك نقول له : لقـد طغيت وخـفف الله عنك جبروت الطغيان ، فنزعـه الله منك فهذا خير لك . وإن أعـزك الله ، فقد يعذبك حقّـاً ، وإن أذلهـم الله ، فالمقصود ألا يطغوا أو يتجبروا . إذن : فكلها خير .

﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

سـاعة تجد ملكاً عـضـوضـاً [(١)] ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضـوض قد أخـــذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بـل هو عطـاء من الله . ولـو أن المملـوك راعى الله فى كـل أمــوره لرقق عليــه قلب مــالكه . ولذلك يقـول لنـا فى الحديث القـدسى : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيـها بيـدى ، فإن العـبـاد أطاعـونى جعلتـهم عليـهم رحـمـة ، وإن هم عـصـونى جعلتـهم عليـهم عـقـوبة ، فـلا تشتـغلوا بســب الملوك ، ولكن أطيـعـونى أعطـفـهم عليكم» .

ومـا دام الأمـر كـذلك ، فـلا بد أن نعـرف أن كل حـادث له حكمة [(٢)] فى الوجـود .

---

(١) الملك العضـوض : هو ملك شديد فيه ظلم وقهر . وهى من صيغ المبالغة . والعضوض : جمع عِضٍّ وهو الخبيث الشرس . وسُمِّى هذا الملك عضوضاً كأنه يعض الناس .

(٢) الحكـمـة : الصـواب والسـداد والحق والعلم والعـدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيـل قـال تعـالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١٢٩) ﴾ [البقرة] .

وإن رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم[1] ، فاعلم أن الله قد جاء به ليربى به المملوكين ، وسبحانه لا يربى الأشرار بالأخيار ؛ لأن الأخيار لا يعرفون كيف يربون[2] ؛ وقلوبهم تمتلىء بالرحمة ؛ ولذلك يعلمنا سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام]

والخيِّر لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجرى كل شىء بعلم الله ؛ لأنه سبحانه له ملك السموات والأرض وهو الذى يحيى ويميت ، فإياك أن تُفتَن فى غير خالقك أبداً ؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمى نفسه من أغيار الله فى كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمن من الله وليّاً له ونصيراً .

وبعد أن قال لنا سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يأتى لنا بالأمر الذى يظهر فيه أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . وقال بعض العلماء فى قوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أنه سبحانه « يحيى الجماد » ، و« يميت الحيوان» ؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هى الحس والحركة التى نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « . . . إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » . قطعة من حديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) ، وصححه ووافقه الذهبى ، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا ، وفى بعضهم خلاف .

(٢) التربية هنا بمعنى التأديب والزجر، وهذا ملمح دقيق جداً ، فالله سبحانه يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح ، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور] .

هى ما أودعه الله فى كل ذرة فى الكون ، مما تؤدى به مهمتها ، ففى ذرة الرمل حياة ، والجبل فيه حياة ، وكل شىء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ... (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالحياة مقابلها الهلاك ، وفى آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت . فإذا قال الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ... (٨٨) ﴾ [القصص]

إذن : فكل شىء قبل أن يكون هالكاً كان حياً ، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمى الهائل فى المجاهر الدقيقة تكشفت لنا حركة وحس كائنات كنا لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التى ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن : فكل شىء فى الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أى حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة .

بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بالخلق ، وهي أيضا رحمة بالمذنب ؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان فى المعاصى بمجرد انحرافه مرة واحدة، وإذا استشرى فى المعاصى فالمجتمع كله يشقى به ، إذن : فمشروعية التوبة نفسها رحمة بمن يفعل الذنب ، وبمن يقع عليه الذنب ، وقبول التوبة رحمة أخرى بمن عمل الذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، وبعد أن يتوبوا ، يقبل الله التوبة.

والحق هنا يقول : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وعطف [١] على النبى ﷺ ﴿ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ ، فأى شيء فعله رسول الله ﷺ حتى يقول الله : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟! ونقول : ألم يقل الحق سبحانه له :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... (٤٣) ﴾ [التوبة]

فحين جاء بعض المنافقين واستأذنوا النبى ﷺ فى التخلف عن الغزوة [٢] ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً [٣] ... (٤٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) العطف هو إشراك شيئين أو أكثر فى حكم ما.

(٢) هى غزوة تبوك، وهى آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وقد كانت فى شهر رجب عام تسع من الهجرة، وقد كانت فى شدة حر وجدب وعسر بينما المدينة بها الظلال والأشجار وقد طابت الثمار؛ ولذلك كانت امتحاناً عسيراً زلزل القلوب، وتراوحت ردود الأفعال تجاه الاستجابة للنفس على حسب الإيمان الذى يسكن القلوب.

(٣) خبالاً : المراد : أصابوكم بالفساد والضعف والاضطراب وعدم الثبات أمام الأعداء.

إذن : فرسول الله ﷺ كان بالفطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب ، ولكن الحق سبحانه لا يريد أن يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً .

وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله ﷺ ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المنافقين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام بها ضد صالح نفسه ، ومثال هذا من حياتنا ولله المثل الأعلى : أنت إذا رأيت ولدك يذاكر عشرين ساعة في اليوم ؛ فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تطفيء مصباح الحجرة ، وتقول له : « قم لتنام» . وأنت في هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل في منهجٍ وأسلوب عملٍ يرهق به نفسه [1] .

وحين سمح النبي ﷺ لقوم أن يتخلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب أم مع مصلحة الحرب ؟ إنهم لو اشتركوا في الحرب لكثر ثوابهم حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأي عمل ، إذن : فإذنه ﷺ لهم بالتخلف هو تصعيب للأمر على نفسه .

ولذلك نجد أن كل عتب على نبي الله ، إنما كان عتباً لصالحه لا عليه فسبحانه يقول له :

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...①﴾ [التحريم]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين . فقال : ما هذا؟ قالوا : لزينب . تصلي . فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال : «حلّوه . ليصل أحدكم نشاطه . فإذا كسل أو فتر قعد» . أخرجه البخاري في صحيحه (١١٥٠) ، ومسلم في صحيحه (٧٨٤) .

والنبى ﷺ لم يحل ما حرم الله بل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكأن الحق يسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبى ﷺ ، وأيضاً حين جاء ابن أم مكتوم [1] الأعمى يسأل رسول الله فى أمر من أمور الدين ، وكان ذلك فى حضور صناديد قريش [2] ، فالتفت ﷺ إلى الصناديد وهم كافرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم ؛ فنزل القول الحق :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾ [عبس]

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيمانى ، ولن يجادل مثلما يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار الرسول ﷺ الأمر الصعب الذى يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله ؟ . إذن : العتب هنا لصالح محمد ﷺ ، وحين يقول الحق له :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ۝٤٣ ﴾ [التوبة]

ثم جاء هنا فى الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول ﷺ نفسه ؛ فلا تحرُّج [3] .

---

(١) المشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال : عمرو . أما أمه أم مكتوم فهى عاتكة بنت عبد الله . أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين . استخلفه رسول الله على المدينة ١٣ مرة أثناء خروجه فى الغزوات . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٢٨٥).

(٢) صناديد قريش : عظماؤهم ، وعلية القوم فيهم . وهم هنا : عقبة بن ربيعة والحكم بن هشام (أبو جهل) والعباس بن عبد المطلب ، وقد كان يرجو إسلامهم . وقد أتى ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى : وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . فجعل النبى يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : «أترى بما أقول بأساً ؟» فيقول : لا . ففى هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾[عبس] أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٣١) وقال : حديث غريب . وابن حبان (١٧٦٩ - موارد الظمآن) .

(٣) وقد قال بعض العلماء : إنما ذُكر النبى ﷺ فى التوبة ؛ لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٠٤) .

وهذه المسائل التى حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ويزيغ : يميل ، أى : يترك ميدان المعركة كله ؛ لأنها كانت معركة فى ساعة العسرة ، ومعنى العسرة الضيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والجو حارٌّ ، وليس عندهم رواحل [1] كافية ، فكل عشرة كان معهم بعير واحد ، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثانى ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذى توالد فيه الدود.

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها بفيه يستحلبها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً ، وهكذا إلى أن تصير على النواة ، وكان الشعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : «حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير ». كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب فى العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة.

إذن : فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة ، ولذلك تنبأ بالخواطر التى كانت فى نواياهم ومنهم أيضاً من همّ ألا يذهب، ثم حدثته نفسه بأن يذهب مثل أبى خيثمة [2] الذى بقى من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرت عشرة أيام ، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين [3] ، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء ، وقد

(١) رواحل : جمع راحلة ، وهى كل بعير قادر على مشقات السفر ، سواء كان ذكراً أو أنثى.

(٢) هو عبد الله بن خيثمة الأنصارى السالمى، شهد أحداً، وبقى إلى خلافة يزيد بن معاوية . انظر الإصابة (٧/ ٥٣) وانظر (٤/ ٦٣) .

(٣) العريش : شىء يشبه الخيمة تكون داخل البستان مظللة بسعف النخيل .

طَهَتْ كل منهما طعاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة ، والثمر المدلَّى ، فمسّته نفحة من صفاء النفس ؛ فقال : "رسول الله فى الفيح - أى الحرارة الشديدة جداً - والريح ، والقُرّ والبرد ، وأنا هنا فى ظل بارد ، وطعام مطهوّ ، وامرأتين حسناوين ، وعريش وثير [1]، والله ما ذلك بالنَّصَفَة لك يارسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلّمته المرأتان ، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله ﷺ . فقال صحابة رسول الله : يارسول الله إنَّا نرى شبح رجل مُقْبل . فنظر رسول الله ﷺ وقال : «كن أبا خيثمة » [2]، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى قوله الحق :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ [3] مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾ [التوبة]

وفى واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله أيضا على آخرين اعترفوا بذنوبهم ، فتاب الحق عليهم حين قال :

---

(١) وثير : ناعم . يقصد الوسائد والفُرش التى فرشت داخل العريش .
النَّصَفَة : الإنصاف والعدل . زمام الراحلة : الحبل الذى يُقاد به البعير .

(٢) قصة أبى خيثمة وردت تامة فى السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق (٤/ ٥٢٠) وذكر ابن هشام أبياتًا لأبى خيثمة فى هذا :

لَمَّا رأيتُ الناسَ فى الدِّين نَافَقُوا | أتيتُ التى كانتْ أعفَّ وأكْرَمَا
وَبَايعتُ باليُمْنَى يَدى لِمُحَمَّدٍ | فَلَمْ أكْتَسِبْ إثْمًا ولم أغْشَ محرمًا
تركْتُ خَضِيبًا فى العريشِ وَصِرمَةً | صَفَايا كرامًا بُسْرُهَا قد تَحمَّمَا
وكنتُ إذا شَكَّ المنافقُ أسْمَحَتْ | إلى الدين نَفْسى شَطرَهُ حيثُ يَمَّمَا

خضيباً : المرأة قد خضبت يديها بالحناء . صرمة : مجموعة من النخل .
صفايا : قد تحملت بالتمر . بسرها : التمر قبل أن يطيب .
تحمما : أى : أخذ فى الإرطاب ؛ فاسود .
وقد ورد قوله ﷺ : «كن أباخيثمة» فى حديث توبة كعب بن مالك عند مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

(٣) العسرة : من النفقة والظهر والزاد والماء .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ...(١٠٦) ﴾ [التوبة]

وما دام الله قد قال: ﴿مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى : ما بَتَّ الله سبحانه فى أمرهم بشىء ؛ فلا بد من الانتظار إلى أن يأتى أمر الله ، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتى قول الله . وتاب أيضاً على الثلاثة [1] الذين خلفوا ، فى قوله سبحانه :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨) ﴾

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا . إنما (خُلِّفُوا) معناها : لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر فى غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار.

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذى يجلس فيه ، ويسبب له الضيق، لعل الضيق ينفك [١] . ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق فى كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها، فلم يجد واحد منهم مكاناً يذهب إليه ، وهذا معناه أن الكرب الذى يحيطهم قد عَمَّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه .

والحق يقول عنهم : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أى: ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتوانى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فكان كعب بن مالك [٢] يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوَّر [٣] عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه .

(١) ينفك : يتخلص منه الإنسان . ومنه « فك الرقبة » أى: تخليصها من العبودية والرق . قال ابن الأعرابى: فك فلان أى خلص وأريح من الشىء . [لسان العرب - مادة : فكك] .

(٢) كان كعب بن مالك يجالد الناس ويخرج للناس يتلمس منهم أن يكلموه ، أما صاحباه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فقد لزما بيتيهما ، أما هو فيقول : « كنت آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى » .

(٣) تسوّر : تسلّق الحائط حتى علاه . ومنه قوله تعالى :﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص] .

وبعد ذلك يتصاعد الأمر فى عزل هؤلاء ، حتى تعدى إلى نسائهم ، فأمرهم رسول الله ﷺ بألا يقربوا نساءهم[1] هكذا بلغ العزل [2] مبلغاً شديداً ودقيقاً ، فقد كان التحكم أولاً فى المجتمع ، ثم فى الأقارب ، ثم فى خصوصيات السكن وهى المرأة ، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية ، رجل مريض ضعيف ، وأنا أستأذنك فى أن أصنع له ما يقيمه ، قال لها: «ولكن لا يقربنك». قالت: والله يا رسول الله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله صرح لامرأة هلال أن تخدمه ، وقالوا له: اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك.

قال: إن هلالاً رجل شيخ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجل شاب ؟ والله لا أذهب له أبداً.

وظل الثلاثة فى حصار نفسى ومجتمعى لمدة خمسين يوماً إلى أن جاء الله بالتوبة ، وفى هذا تمحيص [3] لهم ، فكعب بن مالك - على سبيل المثال - يقص عن حاله قبل الغزوة قائلاً : «لم أكن قط أقوى ولا أيسر منِّى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة» . أى : أنه لم يكن له عذر يمنعه .

بعد ذلك يجىء البشير بأن الله قد تاب عليه ، فيأتى واحد من جبل سَلْع

---

(١) وفى هذا يقول كعب : « حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها » .

(٢) وهو ما يسمى بالعزل العام اجتماعياً وأسرياً ونفسياً .

(٣) تمحيص : ابتلاء واختبار وتخليص من الذنوب . وقد بلغ البلاء مداه بكعب أن ملك غسان بعث له كتاباً يقول له فيه : « قد بلغنا أن صاحبك - يقصد محمداً - قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك » . فألقى به كعب بعد قراءته فى النار .

فيقول: يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك . فقد أنزل الله فيك قرآناً وأنه تاب عليك.

قال كعب: فلم أجد عندى ما أهديه له لأنه بشّرنى إلا ثوبىّ فخلعتهما وأعطيتهما له ، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله ﷺ.

وقال: يا رسول الله ، إن من تمام توبتى أن أنخلع من مالى - الذى سبَّب لى هذا العقاب - صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ [1].

إذن: فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء، وإعطاء الأسوة لغيرهم . فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق:

﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ [2] مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ...(١١٨)﴾ [التوبة]

أى : أن أحداً لا يجير إلا الله ، وسبحانه يجير من نفسه. كيف ؟ أنت تعلم أنك ساعة لا يجيرك إلا من يتعقبك، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبداً؛ ولذلك نقول: أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه ، ولكنك تلجأ [3] إلى الله ليحميك من الله ، فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال ، وتتمثل صفات الجلال فى أنه : قهار ، وجبار ، ومنتقم ، وشديد البطش ، إلى آخر تلك الصفات. وفى الحق سبحانه صفات جمال مثل غفور ، ورحيم ، وغيرها ، فإذا ما أذنب الإنسان ذنباً ، فالمجال فى هذه الحالة أن يُعاقب من صفات الجلال ، ولا ينفع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال.

---

(١) فقال له رسول الله ﷺ: « أمسك بعض مالك فهو خير لك » . فقال كعب: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . والحديث بطوله أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ومسلم(٢٧٦٩) .

(٢) ملجأ : المعقل والملاذ والمجير.

(٣) اللجوء يكون إلى صفات الجمال للحماية من صفات الجلال ، وهنا يكون اللجوء إلى الله ليحميك من الله.

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ قد دعا الله بقوله: «أعوذ بك منك »[(١)]

أى: أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك، فلن يحمينى من صفات جلالك إلا صفات جمالك.

ولذلك حينما جاء فى الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله ﷺ:

« فإذا ما كانت آخر ليلة من رمضان تجلَّى الجبَّار بالمغفرة » .

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية ، فكيف يتجلّى الجبّار بالمغفرة ؟ ألم يكن من المناسب أن يقال : «يتجلّى الغفّار» ؟ ونقول : لا ؛ فإن المغفرة تقتضى ذنباً ، ويصبح المقام لصفة الجبار ، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سُلْطتها ، وكأننا نقول: يا جبار أنت الحق وحدك ، لكننا نتشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك. هذا هو معنى : «يتجلى الجبار بالمغفرة».

وقد سمع الأصمعى[(٢)] - وهو يطوف - مسلماً عند باب الملتزم، يقول: اللهم إنى أستحى أن أطلب منك المغفرة ؛ لأنى عصيتك ، ولكنى تطلَّعْتُ فلم أجد إلهاً سواك.

فقال له: يا هذا، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك[(٣)].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) وأحمد فى مسنده (٦/ ٥٨ ، ١٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

(٢)الأصمعى: هو عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعى ، أحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، مولده ووفاته فى البصرة عن ٩٥ عاماً ، وتوفى عام ٢١٦ هـ . الأعلام للزركلى (٤/ ١٦٢) .

(٣) ومما يروى أيضاً عن الأصمعى فى نفس هذا المعنى أنه سمع أعرابياً يدعو الله وهو يقول : هربت إليك بنفسى ، يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب ، أحملها على ظهرى ، لا أجد شافعاً إليك إلا معرفتى بأنك أكرم من قصد إليه المضطرون ، وأمّل فيما لديه الراغبون. انظر : الأمالى لأبى على القالى (١/ ٣٢).

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ والتوبة أولاً - كما عرفنا - هى تشريعها ، ثم تأتى التوبة بالقبول ، وقوله : ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أى : أنها تصبح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية.

ويُنهى الحق الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فلا توَّاب ولا رحيم سواه سبحانه وتعالى.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

وساعة ينادى الحق عزّ وجلّ عباده المؤمنين ، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان ، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا [1] بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء]

والحق سبحانه يُبيِّن للذين آمنوا به قبل أن يخاطبهم ، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب فى إيمانه ، فيطلب منه الحق «دوام الإيمان». فإذا طلب الله من عباده ما كان موجوداً فيهم ساعة الخطاب ، فالمطلوب دوامه ، وإن طلب منهم حكماً يتعلق بالإيمان، فهو يوجّههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم ، ومثال هذا قول الحق سبحانه:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ... ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهنا يقول العارف بالله : إن الإيمان إما أن يطلب على جهة الهداية ، وإما على جهة الدلالة ، وإما على جهة المعية ؛ فإيمان الهداية بالإدراك ، وإيمان الدلالة بالانفعال مع المدركات ، وإيمان المعية بالاختيار ، فالنداء إذا تكرر مطلوبه فهو مقامات إيمانية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال] .

وكلمة ﴿اتَّقُوا﴾ تعنى: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، ويتساءل البعض: هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين ربه وقاية ؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون فى معيَّة الله . وهنا تأتى ضرورة فهم صفات الجمال وصفات الجلال . إن قوله سبحانه : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعنى: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، مثلما قال سبحانه : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤)﴾ [البقرة]

لأن النار من جنود صفات الجلال ، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات الجلال.

وهنا يقول الحق: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وفسر بعض العلماء قوله :﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بمعنى كونوا من الصادقين ، أى : أن «مع» هنا بمعنى «من» والمقصود أن يعطى هذا القول معنى إجماليّاً عامّاً. لكنى أقول: هناك فرق بين ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ و«كونوا من الصادقين»، فقوله الحق : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: التحموا بهم فتكونوا فى معيّتهم ، وبعد أن تلتحموا بهم يأتى الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين.

ويقتضى الأمر هنا أن نتذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية ، فأىُّ قضية تمر على ذهنك قبل أن تقولها هى نسبة ذهنية ، مثل قولك : «محمد زارنى» ، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء إلى ذهنك أن تنطقها ،وهذه «نسبة ذهنية». ومن يسمعك لا يدرى بها،ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذى تدرى بها،فإذا ما نطقتها وسمعها منك المخاطب؛علم أن نسبة ذهنية جاءت فى ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية. فحين قلت: «محمد زارنى بالأمس»؛جاءت فى ذهنك قبل أن تقولها،فلما سمعها السامع عرف أن هناك نسبتين؛نسبة سمعها عن نسبة عندك.

وحين يمحّص السامع هذا القول ؛ يعلم أن هناك واحداً فى الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد زارك، وخبرته معك دائماً أنك صادق ، إذن:

فالصدق [١] هو أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع. أما إذا قلت : إن محمداً قد سافر إلى أمريكا ، وهو لم يسافر، فهذا يعنى أن النسبة الكلامية لم تتطابق مع النسبة الواقعية وهذا هو الكذب. إذن: فهناك «نسبة ذهنية» و«نسبة كلامية» و«نسبة واقعية». فإن تطابقت النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية، فذلك هو الصدق، وإن لم تتطابق يكون الكذب.

وكل نسبة تقولها تحتمل أن تكون صادقة أو كاذبة، والفيصل فى هذا الأمر هو الواقع ، هل يتطابق ما تقول مع الواقع أم لا ؟ . أما إن قلت لك: «زُرْ فلاناً» فهذه نسبة إنشاء ؛ لأن الواقع يأتى بعدها ، لا قبلها.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ والصدق هو الخَلَّة [٢] التى تجمع كل الإيمان ، ولنر التطبيق لذلك فى قصة الرجل البدوى الذى ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ، إن فىَّ خلالاً ثلاثة لاأقدر على التخلِّى عنها أبداً ، أما الأولى فهى النساء، وأما الثانية فهى الخمر ، وأما الثالثة فهى الكذب ، وقد جئتك يا رسول الله ، لتختار لى خصلة [٣] من الثلاثة وتقوِّينى عليها، وأعاهد ربنا عليها. فاختار رسول الله ﷺ للأعرابى أن يتوب عن الكذب ، وأن يتحلَّى بالصدق ، فقال له : كن صادقاً وما عليك. وحين أحب الأعرابى أن يشرب كأس خمر ؛ تساءل : وماذا إن سألنى النبى ﷺ أشربت الخمر ؟ وامتنع عن الخمر حتى لا يكذب على الرسول . وحين جاء ليختلس النظر إلى امرأة ، قال لنفسه : « وماذا إن سألنى ﷺ وكيف أُخزى نفسى بصفة لا تليق بمسلم ؛ فامتنع عن النظر إلى المحارم ، وهكذا سيطر الصدق على الرجل فهذَّب سلوكه . وحين سئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم.

---

(١) أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع فهو الصدق ، وإذا خالفت النسبة الكلامية الواقع كان الكذب ، وهذا ما ذهب إليه علماء البلاغة والمنطق .

(٢) الخلَّة : الصفة والخُلُق ، جمعها خلال .

(٣) الخَصْلة : الخَلَّة والصفة . جمعها خصال وخَصَلات .

فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال: لا [1]. لأن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، وهكذا تجد أن الصدق هو «رأس الأمر كله».

وقوله الحق : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى: لا تقولوا كلاماً لا يصادفه الواقع ، وكذلك إياكم أن تقولوا كلاماً تناقضه أفعالكم ، لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ [2] أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ... (١٧٧) ﴾ [البقرة]

ولننتبه إلى الملاحظ الدقيقة فى هذه الآية، فقد قال الحق هنا: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ... (١٧٧) ﴾ [البقرة]

ثم ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلماذا إذن ذكر ﴿ وَآتَى الْمَالَ ﴾ ؟ أقول : لقد ذكر الحق هنا المال الذى ينفقه المؤمن دون أن يكون مفروضاً عليه إخراجه مثل الزكاة ، فالزكاة واجبة ، أما إيتاء المال تصدقاً، فهذا فوق الواجب [3] .

ثم يقول سبحانه :

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .
(٢) البر : هو الخير والإحسان ، وهو الإيمان الصادق وفعل الخيرات .
(٣) الزكاة فرض ، وإيتاء المال تصدقاً : فضل ، والخير لمن جمع بينهما .

﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ [1] وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [البقرة]

هذه هى صفات من صدقوا، وهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد صدقوا واتقوا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة]

وقد جاء الحق بصفة «الصدق» هنا؛ لأن المجال هو الحديث عمن تخلّف عن الغزوات، وكذب فى الأعذار التى افتعلها؛ لذلك يأتى التوجيه السماوى أن ادخلوا من باب الصدق [2].

يقول الحق بعد ذلك:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ [3] وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾

(١) البأساء: أى: فى حال الفقر. الضراء: فى حال المرض والسقم. حين البأس: فى حال القتال ولقاء الأعداء.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى فى صحيحه (٦٠٩٤).

(٣) الظمأ: العطش. والنصب: التعب. والمخمصة: المجاعة. يطأون: يدوسون.

والحديث هنا فيه رجوع إلى الذين تخلفوا عن الغزوة ، وعرفنا من قبل أنك ساعة تقول : « ما كان لك أن تفعل كذا » أى : أنك تنفى القدرة على الفعل ، أما إن قلت : «ما ينبغى» أى : عندك قدرة على الفعل ، ولا يجب أن تفعله.

وهنا يقول الحق: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ وبعضهم قد تخلف عن رسول الله ﷺ فى الغزو.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ وهنا حديث عن نوعين من الأنفس: أنفس من قالوا بالتخلف، ونفس رسول الله ﷺ ، وأنت إذا قلت : «رغبت»، معناها : أنك ملتَ ميلاً قلبياً، فإن قلت : «رغبت فى» كان الميل القلبى إلى ممارسة الفعل وفيها التغلغل، أما إن قلت: «رغبت عن» وفيها التجاوز، هذا يعنى أن الميل القلبى يهدف إلى الابتعاد عن الفعل. إذن: فحرف الجر هو الذى يحدِّد لون الميل القلبى.

وقوله الحق : ﴿ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أى : أنهم زهدوا فى أمر صدر عن رسول الله ﷺ وفضَّلوا أمر نفوسهم على أمر رسول الله ﷺ ، فيبين الحق لهم أنهم ما كان لهم أن يفعلوا ذلك؛ لأنكم ما دمتم آمنتم بالله، فإيمانكم لا يكمل حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليكم من نفوسكم[1].

ولذلك نجد سيدنا عمر رضى الله عنه لما سمع أن النبى ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»[2]، فقال: يا رسول الله ، أنا أحبك عن أهلى وعن مالى إنما عن نفسى ، فلا.

(١) عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) ومسلم (٤٣).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد ابنُ لهيعة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وهكذا كان صدق عمر رضى الله عنه ، فكرر رسول الله ﷺ القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» . فعلم عمر أن رسول الله ﷺ حازم فى هذه القضية الإيمانية ، وعلم أن الحب المطلوب ليس حب العاطفة، إنما هو حب العقل، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل؛ فحب العاطفة لا تكليف فيه ، لكن حب العقل يأتى بالتكليف.

وعلى سبيل المثال: فأنت تحب ابنك بعاطفتك، حتى وإن لم يكن ذكياً، لكنك تحب بعقلك ابن عدوك إن كان ذكياً وأميناً وناجحاً. وضربنا المثل من قبل وقلنا: إن الإنسان قد يحب الدواء المرّ ؛ لأن فيه الشفاء ، والإنسان لا يحب هذا الدواء بعواطفه ، ولا يتلذذ به وهو يشربه ، بل يحبه بعقله ؛ لأن هذا الدواء قد يكون السبب فى العافية ، وإن لم يجده فى الصيدليات يغضب ويشكو ، ويسرّ بمن يأتى له به من البلاد الأخرى.

إذن: فالذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من أهل المدينة أو ممن حولهم ما كان لهم أن يتخلفوا ؛ لأن هذا يناقض إيمانهم فى أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ، وكان من الواجب أن يرغبوا فى رسول الله ﷺ عن أنفسهم ، أما أن يكون الأمر بالعكس ، فلا . لأن اتباع رسول الله ﷺ إنما يأتى لهم بالخير [1].

أما اتباع حبهم لأنفسهم فهو حب ضيق البصيرة ، سيأتى لهم بالشرور ،

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] . أى : يُحيى دينكم وقلوبكم . وقد روى البخارى فى صحيحه (٤٦٤٧) عن أبى سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلى . فقال ﷺ : «ألم يقل الله عز وجل : (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ثم قال ﷺ: لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج ، فذكرت له فقال ﷺ: هى الحمد لله رب العالمين ، السبع المثانى».

وإن جاء لهم بخير فخيره موقوت ، وبحسب إمكاناتهم ، ولكن حبهم لرسول الله ﷺ عن أنفسهم يأتى لهم بالخير الثابت الدائم الذى يتناسب مع قدرة الله سبحانه.

ثم يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى حيثيات الترغيب التى يأخذون بها الجزاء الطيب من الحق سبحانه بأنهم﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ ، ونعلم أن الظمأ قد أصابهم فى جيش العسرة لدرجة أن المقاتل كان يذبح البعير ، ويصفى الماء الذى فى معدته لِيبُلَّ ريقه، وريق زملائه.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ والنَّصَب :هو التعب ، وكانت الغزوة فى جو حار مرهق.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أى: المجاعة، وقد كانوا يأكلون التمر الذى أصابه الدود، والشعير الذى انتشر فيه السوس. وإن كانوا قد عانوا من كل ذلك فهو فى سبيل الله القادر على أن يمُنَّ عليهم بكل خير جزاء لما يقدمونه فى سبيل نصرته.

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ نعلم أن الكفار كان لهم رقعة من الأرض يتمركزون فيها ، فحين يغير عليهم المؤمنون ويزحزحونهم عن هذا المكان ، وينزلون إلى الوديان والبساتين التى يملكها الكفار ، فهذا أمر يغيظ أهل الكفر ، إذن: فهم حين يطأون موطئاً، فهذا يغيظ الكفار.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أى: يأخذون من عدوٍّ منالاً ، والمعنى :أن يقهروا العدو فيتراجع ويشعر بالخسران ، حينئذ يأخذون الجزاء الخيِّر من الله ، وكل ما حدث أن الظمأ والنصب والمخمصة ووطء موطىء يغيظ الكفار والنيل من عدوهم نيلاً. كل واحدة من هذه الأحداث لها جزاء يحدده الحق : ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾.

إذن: فالذين رغبوا عن رسول الله بأنفسهم ولم يخرجوا للغزوة قد

خسروا كثيراً؛ خسروا ما كتبه الحق سبحانه من عمل صالح جزاءً لكل حادث قابله مَنْ خرجوا مع الرسول ﷺ [1].

وينهى الحق سبحانه الآية: ﴿ إنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهؤلاء الذين أحسنوا لا يضيع الله أجرهم أبداً.

ثم يأتي بأحداث أخرى غير الظمأ والنصب والمخمصة ووطء الموطىء الذي يغيظ الكفار، والنَّيْل من عدو الله نيلاً، فيقول سبحانه:

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

كل شيء - إذن - محسوب، فحتى هؤلاء الذين أنفقوا، فالله سبحانه يعلم ماذا أنفقوا وسيجازيهم عليه، وهؤلاء الذين ساروا الطريق الطويل وقطعوا الوديان ليلحقوا برسول الله ﷺ في غزواته، فالله سبحانه يكتب لهم الخير. وبعد ذلك تدفق المسلمون على تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ، حتى كادت المدينة تفرغ من المسلمين؛ ليلحقوا بالسرايا التي يبعثها رسول الله ﷺ لنشر الدعوة.

وجاء قول الحق:

---

(١) هذه الآية تقتضي وجوب النفير على آحاد المسلمين، وقد قال بعض العلماء: إنها منسوخة بالآية الآتية بعد ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً .. ﴿١٢٢﴾ ﴾[التوبة]. وقال قتادة: كان هذا خاصاً بالنبي ﷺ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر، فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة. وقال آخرون: إنها محكمة. قال القرطبي: قول قتادة حسن، بدليل غزوة تبوك. انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٣٢١٧).

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

هذه الآية جاءت عقب آيات المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ، وجاءت بعد أن بيّن الله سبحانه مزايا المجاهدين وما يثيبهم الله به جزاء هذا الجهاد فى قوله سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [التوبة]

كانت تلك هى الحيثيات التى ترغّب الناس فى الجهاد ترغيباً يخرجهم عمّا ألفوا من العيش فى أوطانهم وبين أهليهم وأموالهم ؛ لأن الثمن الذى يتلقونه مقابل ذلك الجهاد ثمن كبير ، ثم جاءت هذه الآية.

وحينما استقبل العلماء هذه الآية قالوا : إنها تتمة لآيات الجهاد ، وما دام الله قد رغّب فى الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا بعده ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ، فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تخلو على رسول الله ﷺ وحده ، ورسول الله ﷺ يستقبل وحى الله.

واستقبال وحي الله يقتضي وجود سامعين ليبلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة فى الجهاد ، فبيَّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله ليبلغه للناس ؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه فى الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحي بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحي بماله، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التى يبذل فى سبيلها الغالى والرخيص.

لكن يبقى أمر آخر، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعنى الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يوحى به الله.

إذن: فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله ﷺ أولا ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً؛ ليسيحوا به فى البلاد ، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هى استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فماذا يُعْلمون ؟

إذن: فلا بد أن يحافظ المسلمون على أمرين: أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام [1] بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد فى سبيل الله فقد حقّقتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا ؛ لتستقبلوا من رسول الله . فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ .

---

(١) لأن الجهاد فى سبيل الله لملاقاة العدو فرض بدوافعه وبمقتضى حال الدعوة ، أما الجهاد الإعلامى فهو مطلوب حتى قيام الساعة ، فهو جهاد موصول ما دام هناك باطل يناهض حقاً .

وساعة تسمع «كَانَ» منفيةً فاعلم أنها جحود لهذه المسألة ، أى : ما كان يصح أن ينفر المسلمون كافة ، أى : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد .

و﴿كَافَّةً﴾ مأخوذة من كف الشيء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول : «أريد أن أكفّف الثوب» معنى هذا أن الخائط حين يقص القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه ؛ فيكففها حتى لا يتفكك نسيج الثوب، إذن : فمعنى كلمة ﴿كَافَّةً﴾ : جميعاً.

ولنا أن نتساءل : لماذا لا ينفر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله؟

نقول : نعم هو إعلام وسياحة بمنهج الله فى الأرض ، ولكن الذى يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعْلِم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتى فى زمن رسول الله ﷺ من منهج السماء حين ينزل على رسول الله ﷺ .

إذن : فلا بد من أناس يسمعون وحى السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض[1] جميعاً ، ولو انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام ؛ لذلك قال الحق : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ وفى هذا نفى أمر فيه انبغاء أى : لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنفيذ ما يطلبه رسول الله ﷺ منهم.

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ نشأ فى أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قوىّ يسحر ، وكان فى هذه الأمة أناس كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله ﷺ لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن

(١) إن الإعلام الدينى هو جهاد له صفة الاستمرارية ؛ لأنه وسيلة إقناع دائمة لتدعيم قيم السماء لتنظيم فوضى الأرض، ولا يكون الجهاد بالسيف إلا بعد الإقناع والتمادى فى الباطل لطمس معالم الحق. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] .

يقلل من فصاحة رسول الله ﷺ ، فقالوا: إنها فصاحة دون من خطب ، ودون من قال ، ودون من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ... (٦٩)﴾ [يس]

أى: أنه ﷺ كان يستطيع أن يتفوق فى ذلك ، لكن الحق سبحانه لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأنه لا ينبغى له أن يتعلَّمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم الناس أن محمداً ﷺ مُرْتاض [1] على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يُفاجىء الدنيا بالبيان الأعلى فى القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده.

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة، ولم يسمعوا منه شعراً، فكل ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد.

وقوله الحق : ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أى: لا يصح أن يكون هذا الأمر، رغم استعداد محمد ﷺ لذلك، وكان من الممكن أن يُعلِّمه ربه الشعر وفنون القول؛ ولذلك حينما قال أناس: إن القرآن من عند محمد، جاء القول الحق مُبلِّغاً محمداً:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ .. (١٦)﴾ [يونس]

وقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقل قصيدة أو مقالة.

ومن الذى يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين؟ نحن نعلم أن ميعاد بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أى: فى العقد الثانى من العمر، ولا أحد يؤخر ظهور عبقريته.

---

(١) مرتاض : أى معتاد على قول الشعر ، قد ذللت له القوافى والبحور والأوزان واللغة لينظم ما شاء ، وهذا لا ينبغى لرسول الله ﷺ ، وإلا كان موضع طعن فى القرآن.

إذن: فرسول الله ﷺ حينما نزل عليه القرآن بالترغيب فى الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين؛ فجاء قوله الحق:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول الكريم محافظة على أمرين ؛ أمر استقبال وحى الله ، وأمر الإعلام به ، وبذلك يتنوع الجهاد ، طائفة تستقبل ، وطائفة تُعلِّم وترسل ؛ لأنهم لو تركوا الرسول ﷺ جميعاً ، فكيف يصل الوحى من الرسول ﷺ إلى المؤمنين ؟ ولو أنهم جلسوا جميعاً فى المدينة فمن الذى يسيح فى الأرض معلِّماً الناس ؟ أما إذا بقى الرسول ﷺ والمؤمنون معه، فى فترة لا قتال فيها ، فهذا أمر مختلف ؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط.

وكذلك إن خرج رسول الله ﷺ إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه ؛ لأن الرسول القادر على استقبال الوحى من الله موجود معهم ، وكذلك الإعلام بالرسالة موجود.

إذن: فالمشكلة كانت فى حالة عدم وجود رسول الله ﷺ مع الخارجين للجهاد، فإذا ما خرج المقاتلون للجهاد ، وظل رسول الله ﷺ فى المدينة ، فعليهم أن ينقسموا قسمين: قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله ، وقسماً يخرج إلى القتال.

حين كان الرسول يخرج إلى القتال فالمهمة تسمى غزوة ، وإذا لم يخرج رسول الله ﷺ ، وأرسل جماعة للقتال سُمِّيت العملية بـ «السَّرِية»[1] .

(١) كان عدد الغزوات التى خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه غازياً سبعاً وعشرين ، وقد قاتل بنفسه فى تسع منها ، هى : بدر ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف . وبلغ عدد بعوثه أو سراياه سبعاً وأربعين ، وقيل : بل نحواً من ستين .

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُمِّيت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة [١] .

وقد خرجت المهمة القتالية عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها ؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتي تحدث في الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقُتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل واستشهد فحملها غيره وقتل ، فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمى تلك المعركة بـ «السَّرية» بل هي غزوة ؛ لأن فيها عنفاً شديداً.

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت تمام الانطباق على مؤتة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان في المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات: إن مات فلان في القتال فيليه فلان ، وإن مات فلان ففلان يخلفه [٢]، أي : أنه ﷺ قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ.

وهي الحملة القتالية الوحيدة التي خرجت بهذه التعليمات، من بين مثيلاتها من الحملات المحددة التي لم يخرج فيها رسول الله ﷺ مع المقاتلين، وكأنه ﷺ كان يعلم مُقدّماً بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال.

ثم وصلت الحملة إلى موقعها ودار القتال ، وكان الرسول ﷺ في المدينة والتفت الصحابة فسمعوا رسول الله ﷺ يتكلم ؛ قال: أخذ الراية فلان

(١) هي غزوة مؤتة ، ومؤتة هي قرية من أرض البلقاء من الشام من أعمال دمشق ، وكانت تسمى أيضاً جيش الأمراء .

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٤٢٦١) عن عبد الله بن عمر قال : « أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد ابن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة . قال عبد الله : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب ، فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية » .

فقُتل ، ثم أخذها بعده فلان فقُتل . ثم قال: وأخذها بعده فلان ، وكان ﷺ يقصّ المعركة [(١)] وهو فى المدينة فقالوا: لم يقل ذلك إلا لأنه شهد.

وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله ﷺ وهو جالس فى المدينة ، وقد حدث مطابقاً غاية التطابق ، فقالوا: شهدها رسول الله ؛ وما دام قد شهدها رسول الله ﷺ فهى غزوة.

ونعود إلى الآية التى يقول فيها الحق:

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ... (١٢٢)﴾[التوبة]

وساعة تسمع كلمة «لولا» فلك أن تعرف أن فى اللغة ألفاظاً قريبة من بعضها ، فـ «لو» و«لولا» و«لوما» و«هلاَّ»، هى - إذن - ألفاظ واردة فى اللغة ، وإذا سمعت كلمة «لو» فهذا يعنى أن هناك حكماً بامتناع شيئين. شىء امتنع لامتناع شىء ، مثل قولك: «لو كان عندك زيد لجئتك» وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجىء زيد ، فكلمة «لو» حرف امتناع لامتناع، وتقول: لو جئتنى فى بيتى لأكرمتك. إذن: فأنا لم أكرمك لأنك لم تأت.

وتقول: « لولا زيد عندك لجئتك» أى: أنه قد امتنع مجيئى لك لوجود زيد. إذن: فـ «لولا» حرف امتناع لوجود. ونلحظ أن «لولا» هنا جاء بعدها اسم هو «زيد» ، فماذا إن جاء بعدها فعل، مثل قولك: «لولا فعلت كذا» ؟ هنا يكون فى القول حضٌّ على الفعل ، مثل قوله الحق:

﴿لَّوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً (١٢)﴾ [النور]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب وإن عينيه لتذرفان ، ثم أخذها خالد من غير إمرة ، ففتح الله عليه ، وما يسرنى أنهم عندنا - أو قال : ما يسرهم أنهم عندنا . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١١٣) .

ومثل قوله: ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ... ⦗١٣⦘﴾ [النور]

ومثلها أيضاً «لوما» مثل قوله الحق:

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⦗٧⦘﴾ [الحجر]

وأيضا قولك: «هَلاَّ». فهى أيضاً تحضيض مثل قولنا: «هلا ذاكرت دروسك»؟ وأنت بذلك تستفهم بـ (هل)، وجئت بالمد لتصبح (هلاَّ)؛ لتحثه على المذاكرة. أو قولك: «هلا أكرمت فلاناً؟» وفى هذا حَثٌّ على أن تكرم فلاناً[1].

والأسلوب هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يجمع المؤمنين ويقول لهم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ ثم يأتى الحث على أن ينقسموا إلى قسمين فى قوله: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد. والقسم الثانى يظل مع رسول الله ﷺ وهو يستقبل منهج السماء.

وقوله الحق: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ فيه كلمة ﴿نَفَرَ﴾ وهى من النفور. لكنها استعملت دائماً فى مسألة الخروج للحرب، مثل قوله الحق:

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ[2] إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ⦗٣٨⦘ إِلاَّ تَنفِرُوا ... ⦗٣٩⦘﴾ [التوبة]

ولماذا يجىء الحق بالنفرة فى الجهاد؟ نقول: لأن الذى يعوق الإنسان عن

---

(١) الأدوات الثلاثة (لولا - لوما، هلاَّ) لا يليها إلا المضارع ظاهراً أو مقدراً. فإن دخلت على ماض خلصت زمنه للمستقبل، بشرط أن تفيد التحضيض. ومنها الآية التى معنا، ومثلها قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ... ⦗١٠⦘﴾ [المنافقون] وانظر: النحو الوافى لعباس حسن.

(٢) اثاقلتم: تثاقلتم وأخلدتم إلى الأرض، فتباطأتم عن تلبية النفير خوفاً على أنفسكم وأموالكم. انظر: لسان العرب.

الجهاد حبه لدَعَته[1] ، ولراحته ، ولسعادته بمكانه ، وبأهله ، وبماله ، فإذا ما خرج للقتال شَق ذلك على نفسه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وفى ذكر أمر الكُرْه إنصاف لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله ؛ لذلك ينفر المؤمن الحق من الذى يملكه ، ويذهب للثواب الأعلى ، وهذا هو معنى التحديد فى أنهم سمّوا الجهاد نفرة ، فحين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يمسكه عن الجهاد لتساءل : ما الذى يجعلنى أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر ؟

فلما جاءت ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ﴾ فهموا أن هذه الآية من تتمة الكلام عن الجهاد، ولتبقى طائفة من المؤمنين؛ لتسمع من رسول الله الوحى، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ، هنا يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التى تتفقه فى الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع رسول الله فى المدينة ؟

ونجيب: إن قوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ نجد فيه كلمة ﴿فِرْقَةٍ ﴾ وهى الجماعة ، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف. مثلما نسمى فى الجيوش «الفرقة الأولى» و«الفرقة الثانية» و«الفرقة الثالثة» ، ثم نقسم الفرقة الواحدة إلى : «جماعة الاستطلاع» و«جماعة التموين» و«الشئون المعنوية» ، ونجد كلمة ﴿طَائِفَةٌ ﴾ وهى تعنى «بعض الكثرة»[2] .

---

(١) الدَّعَة : ترف العيش والراحة .

(٢) الطائفة : الرجل الواحد إلى الألف . والدليل على أن الواحد يقال له طائفة لأنه أصل الجمع قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... (٩) ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ... (١٠) ﴾ [الحجرات] .

وما دام الحق قد قال: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهذا يعنى أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين، إحداهما تنفر، والأخرى تبقى لتتفقه فى الدين. إذن: فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائى كل ينفر لمهمته.

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ فمن يجلس مع رسول الله ﷺ ليستمع إليه، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه، وحين يرجع المقاتلون يُبلِّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه ﷺ من وحى، ويتناوب المسلمون الجلوس مع الرسول فى المدينة، والقتال، وكل طائفة تؤدى مهمتها.

وهناك من العلماء من رأى رأياً آخر، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها، وقال: إن من بقى مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة، ولأنه يأخذ من الرسول ﷺ علماً جديداً، يتبادله مع المقاتلين فى ساحة القتال بعد أن يعودوا، فالمقاتلون فى ساحة الجهاد يعودون بما يؤكد نصرة الله للقلة على الكثرة، وإمداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة، وتهدم العدو، والمعجزات التى رأوها من رسول الله ﷺ كنبوع الماء من بين أصابعه فى حال قلة المياه عند العطش[1].

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الجالسين لتلقى العلم أخبار الوحى والفقه، وهكذا يتكافأ المؤمنون فى المهام، وكأنهم البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

وما تقدم هو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد؟ نقول: إن الجهاد إعلام بمنهج الله فى الأرض،

(١) قيل لجابر بن عبد الله: كم كنتم يوم الشجرة؟ قال: كنا ألفاً وخمسمائة، وذكر عطشاً أصابهم، قال: أتى رسول الله ﷺ بماء فى تور، فوضع يده فيه. فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسعنا وكفانا، قال: قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف كفانا. كنا ألفاً وخمسمائة. أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١١٥).

والإعلام بمنهج الله فى الأرض يقتضى المنهج المعلوم من السماء الذى يوضح مصير المجاهدين، ومصير المتخلفين. وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما نجاهد من أجله.

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أى: يذهب بعض المسلمين إلى البلاد التى حول المدينة ؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام ، وأيضاً أن يأتى آخرون من البلاد الأخرى لِيَعْلَمُوا أمر الدين ، ويعلموه لأهاليهم.

ويكون قول الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة ؛ ليجلسوا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا ، ويتفقهوا فى الدين ؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم ، ويعلموهم أمور الإيمان.

إذن: فالآية إما أن تكون من تتمة آيات الجهاد ، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج ، وهو رسول الله ﷺ ، فهو ﷺ يعلّم من يأتون إليه من أى مجتمع ؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم ، ويبلغوهم مطلوبات المنهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال.

إذن: تكون النفرة للتفقه في الدين على أى معنى ، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التى تتفقه ؛ لتعلّم الطائفة التى تجاهد ، أو الطائفة التى تجاهد تتفقه بالمعجزات و بالأحداث التى حدثت أثناء قتالهم وتعلمها للطائفة التى لم تخرج للقتال.

أو أن المعنى هو الأمر الثانى الذى لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ ، وقد سماها الحق «نفرة» ؛ لأنها جهاد فى البحث فى المنهج وتعلمه ، وهى نفرة النفرة ؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المنزّل من الله.

وقوله الحق : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ علمنا منه أن الفرقة هى الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة ؛ لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله ﷺ ، ويعودان للبلاغ عنه ﷺ نكون أمام خبر من شاهدين اثنين بأن النبى قال كذا وأبلغ بكذا ، وكذلك قد يصح أن يكون المبلِّغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم ، هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلِّغ عن رسول الله ﷺ أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين؟

وقد جاءت الآية صريحة فى أنه ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه ؛ ليفقههم فى الدين ، ويؤدى البلاغ عن رسول الله ﷺ .

وتحفَّظ البعض على ذلك بأن قالوا: إن الذى نفر ليس فرداً من الفرقة، بل طائفة من الفرقة ، ومفردات الفرقة طوائف لا واحد، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة.

والنفرة لها علة محددة يذكرها الحق: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ فالتفقُّه إذن هو سبب النفرة ، مثلما نبعث بعثة فى أى بلد متقدم ؛ لنأخذ بعلوم الحضارة ، فإن خرج واحد عن حدود البعثة ؛ ليلعب، ويلهو، فهو لم يحقق النفرة. لا بد إذن من أن يستوعب كل واحد فى البعثة أنه قد جاء للتفقه [(١)] .

والفقه فى اللغة : هو الفهم ، ويقال عن أى أمر تفهمه : فقهتُ الأمر

---

(١) لطلب العلم والتفقه آداب ، منها : أن يكون لوجه الله ، لا لطلب سمعة أو غيره ، فعن كعب بن مالك قال قال ﷺ : « من طلب العلم ليجارى به العلماء ، أو ليمارى به السفهاء ، ويعرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٤) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٨٦) شاهداً ، وابن أبى الدنيا فى الصمت (حديث١٤١) والعقيلى فى « الضعفاء الكبير » (١/ ١٠٤) . فيه إسحق بن يحيى تكلموا فيه من قبل حفظه .

الفلانى . فإن فهمت فى الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت فى العلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذى غلب هو الفقه لأحكام الله ؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ، فالفقيه فى الدين هو من يبيّن للناس حدود المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» .

إذن : الفقه مطلقاً هو الفهم ، لكنه أصبح مصطلحًا يعنى فهم أحكام الله ؛ لأنه هو الذى يحدد الصواب والخطأ . ولا يقال : «الفقيه» إلا لمن فَقُه . وهناك فرق بين فَقه وفَقُه . فَقُهَ فى دين الله ، أى : أصبح الفقه عنده ملكة ، وساعة تسأله فى أى موضوع لا يتردد ، بل يجيب ؛ لأن الفقه صار ملكة عنده ، والملكة : الصفة التى ترسخ فى النفس من مزاولة أى عمل ؛ فيسهل أداء هذا العمل . وكذلك الفقه . وهكذا نعرف أن معنى فَقِهَ : «فهم شيئاً» . أما فَقُهَ فمعناها : صار الفقه عنده مَلَكَة .

وقوله الحق : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أى : ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم : من بعد ذلك مَلَكَة عندهم .

ولكنْ ماذا إن نفروا لشىء آخر مثلما ينفر واحد من البدو ليسأل جماعته : إلى أين تذهبون ؟ فيجيبون : نذهب إلى رسول الله لنسمع منه ، فيذهب معهم . لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقُّه العلم ، على الرغم من أن علّة نفوره مع غيره هى التفقّه فى الدين ؛ وليعلم حقائق هذا الدين ؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لايطلب جاهاً ، أو رئاسة ، أو وظيفة ، بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المنهج الحق ، ولينذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أى : يتجنَّبون مايضرُّهم .

وحين ندقق فى هذا الأمر نجده عدة مراحل : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ هذه هى المرحلة الأولى ، ثم ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ هذه هى المرحلة

الثانية وهى التفقه ، أما الثالثة فهى ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ ، ومن تفقه لغير هذا ؛ ليشار إليه بالبنان مثلا [1] ؛ نقول له : أنت من الذين قال الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ينقلنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى . ولنا أن نتساءل : لماذا - إذن - جاء الحديث عن النفرة والفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب : شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلُّم الفقه ، وليعلِّم غيره ؛ هذا المسلم فى حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التى يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد فى سبيل الله .

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس فى آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر ، وطائفة منها تبقى مع رسول الله ﷺ . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تَتَعَلم وتعلِّم [2] ، وتتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح

(١) البنان : الأصابع . مفردها بنانة . ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة] قال الفارسى : أى : نجعلها كخف البعير فلا ينتفع بها فى صناعة . نقله ابن منظور فى اللسان .

(٢) ففرقة التعليم والتعلم هى ما يعبر عنه حديثاً بالتوجيه المعنوى ، والتوجيه المعنوى أساس الانطلاق الإيمانى نحو ما يريده الله سبحانه لدعوته .

الملكات الإيمانية متساندة غير متعاندة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار.

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَـاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ وهذا يعنى أن هناك قـوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين، وهناك قوم أبعد منهم، والحق قد قال:

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... (٣٦) ﴾ [التوبة]

إذن: فهناك أولويات فى القتال ، وقتال الكفار القريبين منك فيه تأمين لمعسكر الإيمان ؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب ؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مؤونة للسفر البعيد ، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك ؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيناتهم . فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد ؛ فيتفق مع العدو القريب ، ويصنع الاثنان حولك «كماشة» بلغة الحرب ، فلا بد أن تحمى ظهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب.

إذن: فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب. ولا تَعارض بين قوله الحق : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله سبحانه : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ؛ لأن معنى ﴿كَافَّةً﴾ أى: جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية. فخذ القريب منك ؛ لتضمه إليك ، ومتى ضممته إليك نقصت أرضا من عدوك ، وأصبح زائداً فيك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده ؛ فأخذته ؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه.

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار : اعتبروا أيها الكفار ، فأنتم لا ترون الأرض كل يوم وهى تنقص من تحت أقدامكم[1] ، وما ينقص من

(١) قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] . قال ابن عباس فى تفسيرها ، أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وهو الأولى فى تفسير هذه الآية، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٠).

أرض الكفار يزيد فى أرض الإيمان . وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجرأة تُجَرِّىء على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد فى مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته ، وأحسَّ منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا ينزع من قلبه الأمل فى الانتصار عليك ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة صفة ، ويقال: غلْظَة ، وغُلْظَة ، وغَلْظَة [1] ، والمعروف أنها الشدة ، فحين تضرب عدوك اضربه بقوة ، وبجرأة، وبشجاعة.

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبلْ الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة فى حالتين اثنتين ؛ فى حالة الإرسال منك ، وفى حالة الاستقبال منه ، فلا يكفى أن تضرب عدوك ضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تحمِلُ على عدوك ، وغلظة تتحمَّل من عدوك.

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيها الحق:

﴿اصْبِرُوا... ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران]

ولكنْ هَبْ أن عدوك يصبر أيضاً ، فيأتى الأمر من الحق:

﴿وَصَابِرُوا . . . ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران]

أى: حاول أن تغلبه فى الصبر . وحذَّر الحقُّ من إلقاء السلاح بعد انتهاء

(١) قال الفراء: لغة أهل الحجاز وبنى أسد « غلظة » بكسر الغين . ولغة بنى تميم « غُلظة» بضم الغين. وقال الزجاج : فيها ثلاث لغات : غِلْظة ، وغُلْظَة ، وغَلْظة. انظر : لسان العرب مادة (غ ل ظ)

المعركة ؛ لأن العدو قد يستنيم [1] المؤمن ؛ لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ وَرَابِطُوا... (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

أى : استقر أيها المؤمن فى الأرض ؛ ليعلم العدو أنك تنتظره إن حاول الكرّة من جديد أو حدَّثته نفسه بالقتال مرة أخرى . إذن : فالغلظة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمّل ، والتحمُّل يقتضى صبراً ، والتحامل يقتضى شجاعة ، فإذا ما كان فى خصمك صبر وشجاعة ؛ فعليك أن تصابره أى : تصبر أكثر منه ، وهى مأخوذه فى الأصل من «نافس فلان فلانا . . أى سابقه وحاول أن يسبقه» ، والمنافسة من النفس ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين]

أى : تنافسوا فى الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شىء مرة أو مرتين فى اليوم ، وتحتاج إلى شىء آخر خمس أو ستّ مرات فى اليوم . وتحتاج إلى شىء ثالث دائماً . فأنت فى الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفى الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر . أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان .

وقلنا قديماً : إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعامَ إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التى فى جسمه ؛ لذلك لم يُملِّك الحق سبحانه الماء مثلما ملَّك

---

(١) يستنيم المؤمن : أى يتتهز منه نومة أو غفلة عن سلاحه . ويقول عز وجل : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً... (١٠٢) ﴾ [النساء] فالغفلة عن السلاح والمتاع أثناء القتال هى حلم للكافرين يتحينون به أى فرصة لحدوثها ليميلوا على المؤمنين ميلة واحدة ، فيأخذونهم مرة واحدة .

الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات ؛ ولذلك لم يملِّك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمونين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمِّى استنشاق الهواء وزفيره بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفْس وهى مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نَفَس الهواء الذى يضمن استمرار النفس فى الحياة.

وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشيء النفيس ، وهو إعلاء منهج الله. وحين تصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لجاجة [1] لمدة قصيرة ثم يتراجع ؛ لأن الباطل زهوق ، وهنا يقول سبحانه: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى: غلظة تحمل بها على العدو ، وغلظة تتحمَّل من العدو، وأن تصبر، وتصابر، وترابط .

وكيف يطلب الله منا أن تكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

فإن هذا ينفى الغلظة ، وأقول: لنُفرق بين أمرين ، أمر الغلظة فى أن تكون الحجة قوية ، وأمر الغلظة التى يتطلبها القتال ، أما المعايشة والمآكلة والملاطفة ، فهذه تحتاج إلى لين ورِقَّة.

وقوله الحق : ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة، بل تعنى أنك إن تَطَلَّبَ الأَمْرُ فيجب أن تتوافر فيك ، وكذلك قلنا: إن الله

---

(١) أصل الرباط من مرابط الخيل التى تربط بها فى مواجهة الأعداء فى الثغور والحدود مع العدو ، ففيه معنى التربص به والحذر من غدره . ومما ورد فى فضل الرباط فى سبيل الله : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٢) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٩) والترمذى فى سننه (١٦٦٤) عن سهل بن سعد الساعدى ويستعمل الربط فى المعانى كقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (١٤)﴾ [الكهف] أى ثبتنا قلوبهم وعزائمهم على الإيمان . وهم فتية أهل الكهف.

لم يطبع المؤمن على الغلظة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على العزة ، بل قال :

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

وقال :

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة]

ويُنهى الحق الآية :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعُدَّتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان ؛ لتدخل المعركة ، وعندك شيء من الاطمئنان . ومثال هذا من يسلك مفاوز [١] أو صحارى مقفرة [٢] أو طريقا موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قُطَّاع طريق ، نجده يستعد بحمل سلاح ؛ فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا الحال مع العدد والعدة .

أما النصر فهو من المدد الربَّانى من الحق سبحانه وتعالى . وما دام الله مع المتقين ، ولله معيّة مع المتقين فلا بد أن يمدهم بمدده ؛ لذلك جاء الحق هنا بقوله : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ لننتبه إلى أن الداخل فى الحق هو من سيسلك سلوكاً غليظاً مع الأعداء ، وقد يسلك بالغلظة طمعاً فى المغنم ، فيدخل على الكافر بالقسوة ، وقد يكون قلب هذا الكافر مستعداً للإيمان ، فيقول : أسلمت واستسلمت ، لكن من دخل عليه تعجبه مطية [٣] هذا الكافر ، ويعتبرها مغنماً .

(١) المفاوز : جمع مفازة ، وهى الصحراء المهلكة ، وسميت هكذا ؛ لأن من دخلها وخرج منها وقطعها فاز . قال ابن شميل : المفازة التى لا ماء فيها.

(٢) مقفرة : خالية من الكلأ والناس .

(٣) المطية : البعير أو الناقة يمتطى ظهرها أى : تركب . والجمع مطايا .

لذلك يأتى التحذير فى قول الحق سبحانه : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن سلَّم لك و استسلم ؛ فاستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مغنم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هى العليا [1] وهنا تكون معيه الله لك ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

إذن : فالغلظة لا تعنى أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة ؛ فلا بد أن يوجد فى طبعك اللين والموادعة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له فى الحرب شجاعة ، وفى السلم وداعة ، وخيركم من كان فى الجيش كمياً وفى البيت صبيّاً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء ؛ لأن ذلك وضع للطاقة فى غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة]

أى : كونوا فى حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف ؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن

(١) عن أبى موسى الأشعرى أن رجلاً أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله » وفى رواية « هى العليا فهو فى سبيل الله » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

استعملها لله ؛ لتضمن أن تكون فى معية الله [1]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قوله الحق :﴿ و إِذَا مَا أُنزِلَتْ ﴾ يعنى : إذا نزلت ، ونعلم أن هناك «نَزَل» و«أَنْزلَ» و«نَزَّل» فـ « أَنـزَل» للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ثم نزّله الحق نجوماً [2] . فالتنزيل معناه : موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل - عليه السلام - على سيدنا محمد ﷺ .

وقد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزول جبريل - عليه السلام - بالقرآن على رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الغزو غزوان ، فأما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الإمام ، وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإن نومه ونبهه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة ، وعصى الإمام وأفسد فى الارض ، فإنه لم يرجع بالكفاف » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٤) وأبو داود فى سننه (٢٥١٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٤٩).

(٢) على حسب الحوادث .

وهنا يقول الحق : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ والسورة هى الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص ؛ أوله مثلاً : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وآخره تأتى بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ومأخوذة من السور الذى يحدد المكان[1] . وهل المقصود بقوله الحق هنا نزول سورة كاملة من القرآن أم نزول بعض من القرآن ؟ إن المقصود هو نزول بعض من القرآن .

وتتابع الآية : ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ والمقصود بهذا المنافقون الذين رجعوا عن الإيمان . ونحن نعلم أن القرآن حق وأنه من عند الله ، وله أسر وفاعلية إشراقية فى صفاء النفس ، وقد سمعه الكفار من قبل ، وشهدوا له [2] ، أما المؤمنون فحين سمعوه فقد أسرهم .

وهذا الأمر بسبب الاستعداد لتلقيه ؛ لأن المسألة فى كل الأحداث ليست من الفاعل وحده ، ولكن من الفاعل والقابل للفعل - ولله المثل الأعلى - أنت تأتى بمطرقة مثلاً ، وتطرق قطعة حديد فترق وتزيد مساحتها ، أما إن طرقت بالمطرقة قطعة صلب أقوى من المطرقة ؛ فلن تؤثر فيها .

إذن : فالطرق شيء وقابلية الطرق شيء آخر ، وهكذا لا بد للفاعل من قابل ، والمطلوب من القابل للشيء أن يستقبله بغير خصومة له نابعة من قلبه . فإذا أراد أحد أن يسمع القرآن فعليه أن يخرج ما فى قلبه مما هو ضد

---

(١) فالسورة فى التعريف الاصطلاحى هى قرآن يشتمل على آى ذوات فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات ، وكل سورة معجزة وآية من آيات الله تعالى ، ومنها سور طوال ومنها قصار ، ومع هذا فسورة مثل سورة الكوثر وهى ثلاث آيات لها نفس إعجاز سورة البقرة . انظر تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٣ - ٢٦٥) .

(٢) من هؤلاء الوليد بن المغيرة الذى حاول معه الكفار أن يصف القرآن بأنه كهانة أو تخليط مجنون ، أو أنه شعر ، أو أنه قول ساحر . فقال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . سيرة النبى لابن هشام (١/ ٢٧٠) .

القرآن ، ويضع القرآن وضده خارج قلبه وليسمع هذا وهذا وما ينفذ إلى قلبه بعد هذا فليصدقه . لكن أن يستقبل القرآن بما فى قلبه من كراهية القرآن ؛ فلن يتأثر به ، مثلما قابل بعض المنافقين القرآن وقالوا : لم نتأثر به .

وسبب هذا أن هناك ما يسمى بالحيز ، وعدم التداخل فى الحيز ، فالقلب حيز لا يسع الشيء ونقيضه ، فلا تملأ قلبك ببغضك للدين ، ثم تقول : لقد سمعت القرآن ولم يؤثر فىَّ . هنا نقول لك : أخرج من قلبك ما يكون ضد القرآن ، واجعل القرآن أيضاً خارج قلبك ، ثم انظر فى الاثنين لترى ما الذى يستريح له قلبك ، لكن أن تكون مشحوناً ضد القرآن ثم تقول : إن القرآن لم يؤثر فيك ، فهذا يعنى أنك لم تنتبه إلى الفرق بين الفاعل والقابل ، ولم تنتبه إلى ما يسمى بالحيز ، ومدى قدرته على الاستيعاب .

فالزجاجة ذات الفوهة الضيقة لا تستقبل بداخلها الماء إن أغرقتها فيه ؛ لأن ضيق الفوهة لا يساعد الهواء الذى بداخلها على الخروج ، ولا يساعد الماء على الدخول ؛ لأن الماء لن يدخل إلا إذا خرج الهواء ؛ لذلك لا بد أن تكون فوهة الزجاجة واسعة تسمح بخروج الهواء ودخول الماء ، وعند ذلك سترى فقاقيع الهواء وهى تعلو الفوهة . وإذا كان الأمر كذلك فى الحسيات، فما بالك فى الأمور المعنوية وهى مثل الأمور الحسية .

إذن : فأخْرج ما يناقض الحق من قَلْبك ، واجعل الباطل والحق خارجاً ، ثم استَقبل الاثنين. لا يمكن لك فى مثل هذه الحالة إلا أن تستقبل[1] الحق . ويصف سبحانه المصرين على الكفر :

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة]

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] . فالقلب مغلق بغير الله ، وبغير كلامه فلم يتدبروا .

أى : أن ما هو خارج هذه القلوب لا يدخل إليها ، وما فى داخلها لايخرج منها .

إذن : ما دام الحق قد ختم على قلوبهم ؛ فلن تنفتح هذه القلوب للإيمان ، وستظل محتفظة بالكفر . فإذا كان من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يسمع القرآن ، ولا يأسره بيانه ؛ فذلك بسبب عجزهم عن النظر إلى ما فيه من معان وقيم [١] ؛ لأن الإنسان حينما يسمع القرآن ، وتكون نفسه صافية ليس فيها ما يشوش على ما فى القرآن من جاذبية وبيان يؤثر فيه وتطمئن إليه نفسه .

ولذلك حين قرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - القرآن ، وكان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته ؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم قرأ القرآن فاستقر فى قلبه [٢] .

إذن : لا بد أن تخرج ما فى ذهنك أولاً ؛ لتستقبل القرآن . فإذا ما أنزلت سورة يستقبلها المؤمن بصفاء [٣] . أما الكافرون والمنافقون ، فمنهم

---

(١) ومما يرويه ابن إسحاق من هذا فى السيرة النبوية أن بعض كفار قريش خرجوا ليلة ليستمعوا خفية إلى القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلى فى بيته ، وباتوا يستمعون له ، وكل منهم لا يعلم بالآخرين ، حتى إذا طلع الفجر انصرفوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا على عدم تكرار ذلك ، إلا أنهم عادوا للاستماع للقرآن عدة مرات . وسأل أحدهم (الأخنس بن شريق) أبا سفيان : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ووجَّه الأخنس نفس السؤال لأبى جهل فرد عليه : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً . [انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥ - ٣١٦] .

(٢) قصة إسلام عمر بن الخطاب أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ ، ٣٤٦) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٣) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ... (٢٣) ﴾ [الزمر] .

من يقول : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ وتعطينا الآية معنى أننا أمام فريقين : واحد يقرأ ، والثانى يسمع . ونفهم من سياق الآية أن الذى يتساءل مثل هذا السؤال إنما يوجهه لفريقين : أحدهما من ضعاف الإيمان ، أو حديثى الإسلام ، أو المنافقين ، وهؤلاء هم الذين لم يُخْرِجوا الكفر أو بعضه من قلوبهم ، وقابلية بعضهم لاستقبال الإيمان لم تتأكد بعد ، ومنهم من قال فيهم الحق :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..(١٦)﴾ [محمد]

ويقول :

﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..(٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : الفاعل شىء ، والقابل شىء آخر . هم سمعوا القرآن بدليل أن الحق يقول : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وسياق الآية يوحى لنا أن هناك همساً من بعضهم : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ وهذا الهمس يأتى بلهجة المستهزىء ، وقائل الهمس يعنى أن سماعه للقرآن لم يزد شيئاً عنده ، ولم ينقص، وهو يهمس لمنافق مثله ،أو لضعيف الإيمان ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ فيرد الله على القضية النفسية ، ويعلمنا أنه سبحانه قد قسم الناس قسمين : قسم كافر أو منافق ، وهذا القسم يزيده القرآن كفراً[2] ، أما القسم المؤمن ؛ فاستقباله للقرآن يزيد من إيمانه[3] .

---

(١) وَقْر : ثقل فى السمع ، وقيل : هو الصمم .

(٢) وذلك فى قوله تعالى الآتى بعد : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة] .

(٣) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ [الأنفال] .

إذن : الفاعل شيء والقابل مختلف . ووقف العلماء أمام هذه الآية موقفاً فيه اختلاف بينهم ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ فقال بعضهم : إن الإيمان ينقص و يزيد ، وقال بعضهم : إن الإيمان لا ينقص ولا يزيد ، وقامت معركة بين علماء الكلام ، ولا تتسرب معركة بين عقلاء إلا إذا كانت جهة الفهم في الأمر الذي يختلفون فيه منفكة ، فمنهم من يذهب فكره إلى ناحية ، ومنهم من يتجه فكره إلى ناحية أخرى [1] .

فالذين قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فلحظة أن يتألق الإيمان في القلب ؛ يستقر فيه ، وهو الإيمان بالله، و أن لا إله إلا الله ولا معبود سواه ، وأن محمداً رسوله المبلغ عنه ؛ هذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمثال : هو قول الإمام على كرم الله وجهه : لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقيناً .

أما العلماء الذين قالوا بأن الإيمان يزيد أو ينقص ، فقد قصدوا بذلك تطبيق مستلزمات الإيمان من الآيات ، فكل آية تحتاج ممن يصدقها أن يكون مؤمناً بالله أولاً ، ثم ينفذ متطلبات الآية .

وكل المسلمين مؤمنون بالله ، ولكن في جزئيات التطبيق نجد من يطبق عشرين جزئية وآخر يطبق ثلاثين ، أما أصل الإيمان الذي استقبل به الإنسان التكليف وهو التوحيد ، فلا يزيد أو ينقص . وهؤلاء المنافقون عندما قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ هل تداولوا ذلك سراً أم قالوه علناً ؟ لا بد أنهم قالوا ذلك سراً وفضحهم الحق سبحانه ، وكان يكفي أن يعلموا أن الله

---

(١) الذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص نظروا إلى مسمى الإيمان اللغوي أي التصديق والإقرار ، وهذا لا يحتمل نقصاناً . أما الآخرون فقد نظروا إلى أن الإيمان : تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح . فالعمل بالجوارح يزيد وينمي معاني الإيمان في قلب العبد إن كانت في طاعة ، أما إن كانت في معصية فهي تنقصه بمعنى أنها تخدش ثباته في القلب . انظر في تفصيل هذا كتب علم الكلام والعقائد .

يخبر رسوله ﷺ بكل ما يكتمونه ، ولكنهم احترفوا اللجاجة [1] ؛ لذلك قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ .

ويرد الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ و" يستبشر" أى : يملأ السرور بشرته ، فترى البريق ، والفرحة ، والانبساط . وكلها من علامات الاستبشار ، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذى يفهم من الآية شيئاً جديداً ؛ يدخل على نفسه السرور ؛ ولذلك فهو يرتاح لنزول تكليفات إيمانية جديدة ، ليعظم ويزداد ثوابه ، وهو غير ذلك الذى يكره أن ينزل حكم جديد من الله .

هذا هو معنى "يستبشر" .

أما الآخرون فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

والرجس [2] : هو الشىء المستقذر ، وتكون القذارة حسية ، ومرة تكون معنوية . فالميتة مثلاً قذارتها حسية ؛ لأنها ماتت ودمها فيها ، والدم - كما نعلم - له مجريان ؛ مجرى للدم قبل أن يكرر ، ومجرى آخر للدم بعد أن يكرر ، والدم قبل أن يكرر يمر على الرئة والكلى فتنقيه الرئة والكلى من

---

(١) اللجاجة : الجدال والمراء بغير حق . لسان العرب مادة (ل ج ج)

(٢) الرجس : القذر والنَّتَن حسياً ومعنوياً ، ويطلق على ما يستقبح فى الشرع ، والرجس والرجز معناهما واحد ، ويطلق الرجس والرجز على العذاب قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة] يعنى : قذارة معنوية ونفسية وقوله : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : العذاب .

الأشياء الضارة التى تصل إليه نتيجة تفاعلات أعضاء الجسم المختلفة . وبعد أن تتم تنقيته عن طريق الرئتين والكلى يصير دماً صالحاً .

فإذا مات الحيوان بقى فيه دمه الصالح ودمه الفاسد ؛ لذلك نحن نذبح الحيوان قبل أن نأكله ، ونضحى بدمه الصالح مع الفاسد ؛ حتى لا يصيبنا الدم الفاسد بالأمراض ؛ ولذلك تعتبر الميتة رجساً . والخمر أيضاً نجاسة حسية ورجس . وهناك رجس معنوى ، ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ [1] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة]

إذن : فهناك رجس حسى ، ورجس معنوى ، ويطلق الرجس على الكفر أيضاً ، ومرة يطلق الرجس على همسات الشيطان ووسوسته .

وفى ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال]

وهنا يقول الحق : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ ولأنهم يكفرون بالله وبآياته ؛ فهذا يزيدهم رجساً على رجسهم ويصبح كفرهم مركَّباً ، وهكذا نجد البشارة للمؤمنين ، أما الكافرون فلهم النذارة ؛ لأن كفرهم يزيد ، ويموتون على ذلك الكفر .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

---

(١) الأنصاب : كل ما عُبِدَ من دون الله من الأصنام والأوثان التى كان الكفار ينصبونها حول الكعبة لعبادتها والذبح عندها . أما الأزلام : فهى سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها "افعل" والبعض الآخر "لا تفعل" فإذا أراد رجل السفر أو النكاح أتى سادن الكعبة فقال : أخرج لى زلماً ، فإن خرج بـ "افعل" فعل ، وإن كانت "لا تفعل" لم يفعل . انظر : لسان العرب مادة (ن ص ب) .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وقوله الحق : ﴿ أَوَلاَ يرَوْنَ ﴾ أى : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون فى كل عام مرة بالمصائب ومرة بالفضيحة ، فنجد رسول الله حين يراهم يخرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : « اخرج يا فلان فإنك منافق »[(١)] . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهنا يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله ﷺ يصفيهم كل عام مرة أو مرتين .

الأصل فى الفتنة أنها امتحان واختبار ، وهى ليست مذمومة فى ذاتها ، لكنها تذم بالنتيجة التى تأتى منها ، فالامتحان - أى امتحان - غير مذموم ، لكن المذموم هو أن يرسب الإنسان فى الامتحان . إذن : الابتلاء أو الفتنة[(٢)] فى ذاتها ليست مذمومة ، إنما المذموم أن تأتى النتيجة على غير ما تشتهى ، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين رغم نفاقهم وكيدهم للمسلمين ، وكان يجب أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا عرقلة سير الإسلام ؛ لأنه منتصر بالله . وكان يجب أن يعتبروا ويتوبوا لينالوا خير الإسلام ،

(١) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . . " . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) . قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢) : " فيه عياض بن عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما " .

(٢) لكلمة الفتنة معان كثيرة فى اللغة ، تدور كلها حول الاختبار والإيقاع فى امتحان بعد امتحان ليميز الطيب من الخبيث ، وأصلها مأخوذ من فتنة الفضة والذهب أى : إذا أذبتهما بالنار لتعرف الردئ من الجيد ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] .

فخيره ممدود رغم أنوفهم ، والخسارة لن تكون على الإسلام ، وإنما الخسارة على من يكفر به .

ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أن سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله في الكون ، بل إننا نجد أن النبى ﷺ فى بدء الرسالة كان مطلوباً منه أن يؤمن بأنه رسول . وكما تقول أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبى ﷺ أيضاً أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسبحانه جل شأنه ، الخالق الأكرم ، آمن بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ... (١٨) ﴾ [آل عمران]

فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن نؤمن بأنه سبحانه يزاول قيوميته وطلاقة قدرته بكلمة "كن" وهو عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً ، وكان لا بد أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحق ، بحيث إذا أمر أى كائن أمراً تسخيرياً فلا بد أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيب أن يأمر ؛ لذلك قال لنا : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، وحين يشهد محمد ﷺ أنه رسول الله فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لتهيب أن يبلغنا بالرسالة ، وبعد أن آمن ﷺ أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء]

وظل رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، ويبلغ آيات الحق إلى أن جاءت آيات الدفاع عن دين الله ، وقال الحق :

إذن : في البداية كان لا بد أن يؤمن أنه رسول ، وأن يبلغ الدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام وإن لم تتعد بالفعل ؛ حتى يأتى أتباعه من الصحابة وينساحوا بالإسلام فى كل بقاع الأرض ، ولذلك كانت الرمزية فى إرسال الكتب : كتاب لفلان وكتاب لفلان وكتاب لفلان [1] ؛ليفهم العالم أن دعوة النبى ﷺ بالإيمان والإسلام دعوة متعدية ؛ لأنها خالفت دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان كل رسول إنما يعلم أن حدود دعوته هى أمته [2] .

أما محمد ﷺ فقد كانت لرسالته مراحل : آمن بذاته أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريش ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك فى العالم ، وصارت أمة محمد ﷺ مؤتمنة على حمل الدعوة ونشرها فى أى مكان ومعها حجتها وهى القرآن .

وشاء الله أن يختم رسول الله الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذى يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أمية لا تعرف شيئاً [3] ؛ حتى لا يقال عن

---

(١) بعث رسول الله ﷺ كتباً إلى ملوك الأرض من حول أرض الحجاز كقيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام مع جماعة من أصحابه ، ووجه كلاً منهم إلى وجهة ، وقال لهم : "إن الله بعثنى رحمة وكافة ، فأدوا عنى يرحمكم الله " أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٦٠٧) عن ابن إسحاق .

(٢) وهذا مما خُص به رسول الله ﷺ ، فعن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ : "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأُعطيت الشفاعة " . متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

(٣) قال رب العزة فى هذا : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ②﴾ [الجمعة] .

الإسلام أنه مجرد وثبة حضارية ، وجاء لهم منهج غلب الحضارات المعاصرة له : فارس والروم فى وقت واحد .

إذن : فالمسألة كانت مسألة قبيلة ، يحكمهم واحد منهم هكذا ، دون تمرس بالنظم الاجتماعية ، ولم يعرفوا شيئاً قبل الإسلام ، بل هم أمة متبدية [1] لا شأن لها بالنظم السياسية أو الاقتصادية ، وطن الواحد منهم جمله وخيمته وبضعة أدوات تعينه على الحياة ، وتستقر كل جماعة فى أى مكان يظهر به العشب ويوجد به الماء ، وبعد أن تأكل الأغنام والأنعام العشب ، ينتقل العربى مع جماعته إلى مكان آخر ، بعد أن ينظر الواحد منهم إلى السماء ؛ ليعرف مسار الغمام وأين ستمطر السحب ، ثم ينساح هؤلاء بالدعوة بعد ذلك ، فلو كان لهم انتماء إلى وطن أو بيت أو مكان لصار الرحيل صعباً عليهم ، لكنهم كانوا متمرسين بالسياحة فى الأرض .

والآية التى نحن بصددها تكشف ضعف إيمان البعض ، ونفاق البعض ، فيقول الحق : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى : كان لا بد أن يتوبوا أو يتعظوا ويعلموا أن وقوفهم ضد الإسلام لم ولن يحجب الإسلام وأنهم سينسحقون ويضيعون ، فلماذا لا يتذكر كل منهم نفسه ، ويرى مصلحته فى الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) تبدَّى الرجل : أقام بالبادية . وقيل للبادية بادية لظهورها وبروزها . انظر : اللسان (ب د و).

ومن قبل جاء قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ... (١٢٤) ﴾ [التوبة]

أى : أن هؤلاء المنافقين يشعرون بالضيق والحصار ، ويخافون أن يتكلموا ؛ لأنهم موجودون مع المسلمين ، ولكنهم لا يعدمون وسيلة للتعبير عن كفرهم ، فيغمز الواحد منهم بعينه ، أو يشير إشارة بيده ، فإذا ما كانوا قد تساءلوا من قبل بـ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ﴾ فقد كان هذا السؤال يتعلق بالتكاليف ، أما فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فليس فيها تكاليف جديدة .

لقد كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتكلموا بأفواههم ، فتكلموا بأعينهم ونظراتهم ، فكأن النظر نفسه كان فيه هذه الكلمة : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ ، وهذا قد تراه من واحد يسمع خطبة الخطيب ، ولكنه يرى بها أشياء لا تعجبه ، فتجده يعبر بانفعالات وجهه عن عدم رضاه .

إذن : فهناك نظر ، وهناك كلام ، وهم قد تساءلوا : هل يراكم من أحد ؟ ومثلها مثل قولك : ما عندى من مال ؟ أى أنك لا تملك بداية ما يقال عنه مال ، والقول الكريم أبلغ بالقطع من أن تقول : هل يراكم أحد .

إن قوله الحق : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ دليل على أنهم فى خوف من أن يضبطهم أحد ، ومن بعد ذلك تجدهم يتسللون خارج دائرة الاستماع للقرآن أو للرسول ؛ لأنهم لا يطيقون الاستمرار فى الاستماع ؛ لأن منطق الحق يلجم الباطل ، والواحد منهم غير قادر على أن يؤمن بالحق وغير قادر على إعلان الكفر ؛ فينسحبون ، وينصرف كل واحد منهم ؛لذلك نجد أن بعضهم قد قال من قبل :

﴿ لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ [1] .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

وقد قالوا ذلك لأن الكافر أو المنافق قد تأتيه لحظة غفلة عن الباطل ، فيتسلل الإيمان إلى قلبه ، كما أن المؤمن قد تأتيه لحظة غفلة عن الحق ، لكنه يستغفر الله عنها .

وإذا ما أتت للمنافق أو الكافر لحظة غفلة عن كفره أو نفاقه ؛ فتأتيه هجمة الإيمان فيخافها ، فيقول لمن هم مثله : من الأفضل أن نقول لمن معنا لا تسمعوا هذا القرآن . لماذا ؟ حتى لا يصادف فترة غفلة عن النفاق ، فإذا صادف فترة غفلة عن النفاق فمن الممكن أن يدخل الإيمان القلب . ولذلك قالوا : ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلبوا من الأتباع أن يلغوا فيه ، أي : أن يشوشوا عليه :

﴿ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

إذن : لا غلبة لهم مطلقاً إلا بعدم الاستماع إلى القرآن ، أو أن يشوشوا عند سماع القرآن ؛ حتى لا ينفذ القرآن إلى القلوب [2] .

وهنا يقول الحق سبحانه عن هؤلاء المنافقين :

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ كانوا يقولون ذلك ؛ لأنهم كمنافقين سبق لهم إعلان الإسلام ، وكانوا يدعون أنهم متقدمون فى تطبيق أحكام الإيمان ، وكانوا يصرون على الوقوف أثناء الصلاة فى الصف الأول ؛ حتى يدفعوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، وكما

---

(١) الغوا فيه : الغطوا فيه ، أي : تكلّموا بصوت عال ، بكلام مبهم مختلط وجلبة وضجة ، حتى لا يفهم منه أحد شيئاً ، وتبقى قلوب أتباعهم فى غطاء عن قبول هدى الله .

(٢) وقد كان هذا دأب المشركين والكفار مع كل وحى يأتى من السماء ، مثل قوم نوح الذين قال عنهم : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح] .

يقـول المثل : يكاد المريب أن يقـول خـذونى . وينظر بعـضـهم إلى بعض متسائلين : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ لأنهم لا يطيقون الجلوس إلى الرسول ﷺ أو إلى المؤمنين . وينهى الحق الآية :

﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ وذلك نتيجة لانصرافهم نفسيّاً إلى النفاق ؛ فيساعدهم سبحانه على ذلك ، فما داموا لا يعرفون قيمة الإيمان ؛ فليذهبوا بعيداً عنه ، فالحق لم يصرفهم إلا باختيارهم ، حتى لا يقول أحد : إن الله هو مصرف القلوب ، فما ذنبهم ؟ لا ، لقد انصرفوا هم بما خلقه الله فيهم من اختيار ، فصرف الله قلوبهم ، لماذا ؟ لأنهم﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ أى : لا يفهمون [(١)] .

والفهم أول مرحلة من مراحل الذات الإنسانية ، وهناك فرق بين الفهم والعلم . فالفهم يعنى أنك تملك القدرة على تَفَهُّم ذاتية الأشياء بملكة فيك ، لكن العلم يعنى أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويعلمك . فأنت قد تعلم جزئية لا من عندك وإنما من معلم لك . ولكن قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم ؟ ونقول : الذى لا يفهم عليه أن يتقبل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفهموا ولم يتعلّموا ، وأصروا على عدم قبول العلم .

وبعد ذلك يأتى ختام سورة التوبة .

والسورة بدأت بالقطيعة :

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ①﴾ [التوبة]

(١) وهذا مثل قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ⑤﴾ [الصف] عن قوم موسى .

ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بما يبرر هذه المشقات المتقدمة ، فبيَّن لنا : إياكم أن تنفضُّوا عن الرسول أو تغضبوه ؛ لأنه وإن جاء لكم ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إنك مثلاً إن رأيت عدواً ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك ؛ لأنه عدو . لكنك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك ؛ لتزيل عن ابنك خطراً . إذن : فهناك فارق بين جرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً .

إذن : لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود المشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذى أجرى المشاق عليك ، فإن كان ربك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ أوامر الرسول وطبقها ؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير .

وهنا يقول الحق :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ونلحظ هنا أن الحق قد نسب المجىء هنا للرسول ﷺ ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول ﷺ لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما

يؤهله للرسالة [١] ، وبمجرد أن نزل عليه الوحى امتلك اندفاعاً ذاتيّاً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسول ﷺ المجيء ذاتيّاً ، ولكن هذا المجيء الذاتى ليس من عند محمد ﷺ فى البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة "جاء" .

وكلمة ﴿ رَسُولٌ ﴾ تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمة "جاء" تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو ﷺ يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن : لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول ﷺ نظرتكم إلى الأمور الشاقة التى تتعبكم ، ولكن انظروا ممن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل فى إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالى نعمه عليكم حتى وأنتم فى معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يستر عليك [٢] ، فلا تشكك ولا تتشكك . وعليك أن تأخذ التكاليف على أنها من حبيب فلا تقل : إنها مشقة . فأنت - ولله المثل الأعلى - تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعها معه قهراً عنه فى بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدى ابنك ليعطيه الطبيب حقنة من الدواء الذى جعله الله سبباً للشفاء .

---

(١) لأن فطرته هى الخلق العظيم وتأدب بأدب ربه وعاش منفعلاً بالإيمان سمواً ، وبالفعل تفكيراً فى الله ، وبالنفس سكينة إليه وبالجسد حركة له ، وبالقلب توحيداً وحباً ، فكان المجيء ذاتياً بمعية الله . يقول الحق : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم] .

(٢) وهذا حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وهو أمر يحبه الله من عبده . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) . ويجب أن نفهم هنا أن الستر المقصود هنا ليس السكوت عن فجور من هو مقيم على معصية ، بل هو ستر معصية وقعت من إنسان وانقضت .

إذن : فلا تأخذ الأحوال بوارداتها عليك ، ولكن خذها بوارداتها ممن قدرها وقضاها ؛ وهو الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : أن الحق سبحانه لم يأت بإنسان غريب عنكم ، بل جاء بواحد منكم قادر على التفاهم معكم . ولقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ معان متعددة ، فمرة يكون معناها بـ"من جنسكم" ، مثلما قال الحق عن حواء :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ① ﴾ [النساء]

أي : خلق حواء من نفس جنس آدم البشرى ، فلا يقولن أحد : كيف بعث الله لنا بشراً رسولاً ؟ لأن الحق أراد الرسول من البشر رحمة بالناس ؛ ولذلك يؤكد ﷺ على بشريته أكثر من مرة وفى مواقع كثيرة [1] . والقرآن يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : فبشرية رسول الله ﷺ لا تؤخذ على الله ، ولكن تؤخذ لله ؛ لأنه أرسل واحداً من نفس الجنس ؛ ليكون قادراً على أن يتفاهم مع البشر ، وتكون الأسوة به سهلة . ولذلك قال سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ... ⑥ ﴾ [فصلت] . وقد أكد الرسول ﷺ على هذا المعنى كثيراً جداً ، منها :

- فعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ « أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

- وعن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإني اشترطت على ربي عز وجل ، أي عبد من المسلمين سببته أو شتمته ، أن يكون ذلك له زكاة وأجراً » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٢) وأحمد فى مسنده (٣ / ٣٩١ ، ٤٠٠) .

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

وقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من جنس العرب ، ولم يأت به من الروم أو من فارس ، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم . أو أن معنى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من نفس القبيلة التى تنتمون إليها معشر قريش .

أو أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعنى : أنكم تعلمون تاريخه ، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض ، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض ؛ ولأن هذا هو سلوكه ، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض . ولقد سميتموه الصادق الأمين ، والوفى ، وكلها مقدمات كانت توحى بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله . وإن كانت سلسلة أعماله معكم تثير فخركم ، فمجيئه كرسول إنما يرفع من ذكركم ، ويعلى من شأنكم . فأنتم أهل قريش ومكة ولكم السيادة فى البيت الحرام ، وقد جاء محمد ﷺ ؛ ليزيد من رقعة السيادة لكم ، فإذا كنتم قبل بعثته ﷺ سادة البيت ، فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف]

فهو نبى للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش ، وكان يجب أن يفرحوا برسالته وأن يؤيدوها ، لكن الله لم يشأ ذلك ؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت السيادة على العرب ، وهذا جعل العرب يعملون لها حساباً ، وخافت منها كل قبائل العرب فى أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت لها مهابة هائلة ؛ لأن كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة ، وأثناء الحج تكون القبائل كلها فى

أرض قريش ؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض أى قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تقدر قبيلة أن تقف فى مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها .

وكل هذه المكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله الحرام ؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أبرهة من هدم البيت لتظل السيادة لقريش ، فلو انهدم البيت الحرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد أبرهة ، فمن أين تأتى السيادة لقريش ؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ [1] ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل]

وأتبعها بقوله :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾ [قريش]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فيأتى أمره فى الآية التالية :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد ﷺ رسولاً يدعو أولاً الصناديد ، والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية فى آذان سادة الجزيرة الذين تهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته فى آذان الصناديد ، والسادة ، وسفه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم جاءه الإذن بقتالهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة ؛ لتأتى منها النصرة .

---

(١) كعصف مأكول : له معنيان : أحدهما : أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبِّ وبقى هو لا حَبّ فيه . والآخر : أنه أراد أنه جعلهم كورق النبات الذى أكلته البهائم ثم راثته . وكلاهما فى لسان العرب (مادة : ع ص ف) .

فلو أن النصرة جاءت من السادة لقالوا : جاءت نصرة الإسلام من قوم ألفوا السيادة ، ولما ظهر واحد منهم يقول : إنه رسول ؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الجزيرة العربية ، بل الدنيا كلها ، فتكون العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصرة من الضعيف ؛ حتى يفهم الجميع أن الإيمان بمحمد ﷺ هو السبب فى العصبية لمحمد .

هكذا نفهم معنى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أى : مرسل من الله و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو مبلغ عن الله ، فلم يأت بشىء من عنده ، بل كل البلاغ الذى جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذى خلق لكم ما تنتفعون به من السموات والأرض . وسبحانه يقول :

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..(٨٧) ﴾ [الزخرف]

ويقول :

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

إذن : فالمخلوق هو الخليفة الإنسان ، وما خلقه الله فى الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقرون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذى جاء لكم من عنده بما يسعدكم ، وقد استقبلتم خيره قبل أن يأتى لكم بالتكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذى أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤتمن عليكم ، وهو ﷺ لم يأت من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم : افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم فى الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غباء الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فقال الحق :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

أى : إن كنتم تريدون مَلَكاً ، فالملك له صورة لا ترونها ، ولا بد أن نجعله ملكاً فى صورة بشر ؛ ليخاطبكم ، إذن : فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل ؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم فى العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة ؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنفع الأسوة ؛ لأنك مَلَك مطبوع على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

إذن : فمن رحمته سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أوالروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم ؛ لأنكم أنتم أول آذان تستقبل الدعوة ؛ فلا بد أن يأتى الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد ﷺ بالأنس والألفة ؛ لأنه من قريش التى لها بطون فى كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن : فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ، فاستصحبوا كل هذه الأشياء؛ لتردوا على أنفسكم: هو بشر وليس مَلَكاً. هو من العرب

وليس من العجم .هو من قبيلتكم التى نشأ بينكم فيها .هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فما كذب على البشر فى حق البشر . أفيكذب على البشر بحق الله ؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكى هذه الآية :﴿ مِّنْ أَنفَسِكُمْ ﴾ أى : أنه ﷺ بالمقياس البشرى هو من أقدركم وأحسنكم[1] . ولذلك حينما جاء الرسول ﷺ بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها بمعجزة ؟ هل انتظر أبو بكر أن يأتى له بمعجزة ؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلاً منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضى .

وحينما قال لخديجة : " يأتينى ويأتينى ويأتينى " وكانت ناضجة التكوين والفكر والعقل ، وعلمنا مما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ،مع أن المألوف أن يحب الإنسان الزواج ممن هى دونه فى العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زواج لمهمة أسمى مما نعرف ، ففى فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التى تتلقى من السماء ، وهذه فترة تحتاج إلى قلب أم ، ووعاء أم تحتضنه وتُربِّت عليه .

فلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مثلما قال ﷺ لخديجة لشكت فى قواه العقلية ، لكن خديجة العاقلة استعرضت القضية استعراضاً عقلياً بحتاً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذى يأتينى رئى[2] من الجن . قالت

---

(١) لذلك اختصه الله بصفات حسية ومعنوية تحيله من أنفس خلق الله على الله، يقول الحق : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ ﴾ [الأحزاب] .

(٢) رئى من الجن : تابع قد ألفه الإنسان من كثرة رؤيته له . وقد تكون من الرأى أى أنه صاحب رأيه . وانظر اللسان (مادة : رأى) .

له : " إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً "[(١)].

إذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة ما يدل على صدقه بعد البعثة .

وكذلك أبو بكر رضى الله عنه ، حينما قالوا له : إن صاحبك يدعى أنه رسول . قال : أهو قالها ؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره[(٢)] .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ . وكلمة ﴿عَزِيزٌ﴾ أى : لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أى نادر الوجود . وقد تقول لإنسان : " قد تكون وزيراً " ؛ فيصمت رجاء، لكن إن قلت له : "ستصبح رئيس وزراء" فيقول: هذه مسألة مستعصية وكبيرة علىّ بعض الشيء .

إذن : فالعزة تأتى لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر ، أو يستحيل . والعزيز - هو الأمر الذى يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : "عز علىّ أن أصل إلى قمة الجبل " . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أى : شاق عليه أن يعنتكم بحكم ؛ فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتى لكم بالأحكام

---

(١) ذلك أن رسول الله ﷺ بعد ما جاءه جبريل فى غار حراء، رجع إلى السيدة خديجة ترجف بوادره فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : «أى خديجة مالى » وأخبرها الخبر . فقال : لقد خشيت على نفسى . فقالت له : كلا . أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) ومسلم (١٦٠) عن عائشة . بوادره : اللحمة التى بين الكتف والعنق دلالة على شدة الفزع . زملونى : غطونى . تحمل الكَلَّ : أى : تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق . تقرى الضيف : أى : أنك كريم جواد تطعم الضيف . نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

(٢) عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال عن أبى بكر : « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ » (مرتين) إنى قلت : « يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٦١، ٤٦٤٠) وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٧٦) .

لكى تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم .

ولذلك قال النبى ﷺ « مثلى كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى فى النار يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار . هلم عن النار . فتغلبونى تقحمون فيها [1] » .

فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفُسكم أو من أنفَسكم أو يحبكم حبّاً يعز عليه أن تكونوا فى مشقة . إذن : فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأى فيها ، وذلك هو القانون التربوى الذى يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونواه : " افعل كذا " و" لا تفعل كذا" لا تذهب إلى المكان الفلانى ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .

كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت ؟ لقد صدرت من أبيك الذى تعرف حبه لك ، والذى يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب ؛ لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صعاليك يخرجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشر . وانظر إلى والدك الذى تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تتعب فهو أولى بأن تسمع كلامه .

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات فى الدنيا تتمثل فى التكاليف التى يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أخلد

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) بروايات متعددة ، عن أبى هريرة . ومعنى (آخذ بحُجُزكُم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل : موضع التكة .

فى الآخرة ؛ لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم فى الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهى ، لكن تعب الآخرة هو الذى يرهق حقّاً ويتعب [1] .

ولذلك يقول الحق فى تصوير هذه المسألة بقوله :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ [2] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله فى الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هى التى يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التى تورد ثماراً.

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً : اخرج إلى الحقل ، واحمل السباخ فوق الحمار واحرث وارْو ؛ كل هذه مشقات ستجد لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحاً أو غير ذلك. ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هى المشكلة الأكبر، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لمغبة [3] الضياع.

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً، ويرجوه الأب أن يجرى للابن جراحة تنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليعلم الابن أن

---

(١) ومن دقيق ما نقله ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٦/ ٤٦٤) عن أبى حامد الغزالى فى الفرق بين تهافت الفراش على النار وتهافت العصاة على الوقوع فى النار أنه قال : (التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت فى النار ، ولكن جهل الآدمى أشد من جهل الفراش لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها فى الحال ، والآدمى يبقى فى النار مدة طويلة أو أبداً) .

(٢) باخع نفسك : أى مكثر فى لومها وقهرها .

(٣)المغبة من كل شىء عاقبته وآخره .

هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك ، وعلى ذلك إذا أُمرت بتكليف شاق فانظر مَنْ أمرك ؟ أهو ممن تعز عليه وممن تحبه وممن يريد لك الخير ؟ إن كان الأمر كذلك ؛ فعليك أن تقبل ولا تسيء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء - مثلاً - فهو يرد عنك مصارف الشر ؛ لأنك إن اجتهدت في عملك ؛ فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشَرّد وتجوع ، وسوف تدق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عامّياً يلخص الحكمة التي تقول «من يأكل لقمتي فليسمع كلمتي» .

وهنا يقول الحق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ومعنى الحرص : أن يحوطكم بالرعاية ؛ حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر . ولذلك قلنا : إن الرسول ﷺ قد صوَّر هذه المسألة بقوله ﷺ : «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار - أي أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار - وأنتم تفلتون من يدي »[1] .

والحق يُسَرّي عن رسوله ﷺ فيقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ... ⦗٦⦘ ﴾ [الكهف]

ويقول الحق أيضاً لرسوله :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⦗٣⦘ ﴾ [الشعراء]

---

(١) هذه رواية عند مسلم من حديث جابر (٢٢٨٥) ، وقد سبق تخريجه من حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم .

فالرسول ﷺ يدعو الناس إلى إتقان العمل فى الدنيا ؛ ليصلوا إلى الجنة فى الآخرة ؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه ﷺ ويخشى أن يُرهَق إنسان واحد فى الآخرة ، ولذلك قال الحق:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤ ﴾ [الشعراء]

أى : إياك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمنوا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع ؛ وإنما يريد قلوباً تخشع .

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

والرأفة والرحمة قد تلتقيان فى المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرّة ، وأموراً تجلب منافع . وسلب المضرّات - دائماً - مُقدّم على جلب المنافع ، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع ؛ نُقدم على العمل لدرء[1] ما يضر ، ثم ننجز العمل النافع .

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت فى حال متساوية ولا بد أن تدرأ عن نفسك الأمر الضار الذى يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذى يزيد من الارتقاء.

وحتى نقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأضرب هذا المثل الحسّى: هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يضربك به ، وآخر يريد أن يقذفك بتفاحة، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر ؟ إنك تنشغل أولاً بدرء الضرر ، ثم تقبل على جلب المنفعة.

---

(١) الدرء : الدفع والإبعاد .

ومثـال آخـر : هب أنك ترى إنسـاناً يغـرق أمـامك فى البـحـر ، فـهل توبخه ؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم العوم ؟ أم تنقذه أولاً وتدفع الأذى عنه ، ثم توبّخه وتعاقبه بعد ذلك جزاء إهماله ؟

إنك تنقذه أولاً ، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً ، وحتى إن عاقبته فهو يقبل منك العقاب أو النهر [1] ؛ لأن صنيعك أنقذه من الموت.

والحق يقول : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥)﴾

[آل عمران]

إذن : فمراحل الفوز أن يُزَحزح الإنسان أولاً عن النار ، ففى هذا سلب للمضرَّة ، وجلب للمنفعة ، وإن ظل الإنسان فى موقعه لا هو فى الجنة ولا هو فى النار ؛ فهذا هين أيضاً . وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله.

وإذا كـانت هذه هى بعض من خـصـال الرسـول ﷺ : ﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ، و﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ، و﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ ، و﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [2] ﴾ ، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول.

وقوله الحق : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ نرى فيه الوصف بـ «الرءوف» والرأفة هى سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة ، و«رحيم» هو الذى يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء.

وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين

---

(١) النهر : الزجر والإغضاب.

(٢) والآية الكريمة تعطى الوداد مع الله ومع رسوله ومع النفس والود عين القرب .

الوصفين [١] ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⁽٧⁾ ﴾ [النحل]

إذن : فالرسول ﷺ لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مستمدة من رأفة العلى الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مستمدة من رحمة العلى الأعلى. وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا أنه أعطى محمداً ﷺ بعضاً من الصفات التى عنده ، فكما يبلغكم المشقات فى التكاليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات فى الرأفة ، وترقية المنعمات بالرحمة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ⁽٨٢⁾ ﴾ [الإسراء]

ونعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أى : أن القرآن يسلب المضرة أولاً ، ثم يأتى لنا بالمنفعة بعد ذلك وهى الرحمة.

وقوله الحق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا القول خلاصته : إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله ﷺ ؛ فاعلموا ممن جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد ؛ لأن مشقات التكليف تنتهى بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يخطر على باله من أشياء ، يجده فوراً ؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم [٢].

---

(١) وقد أورد القرطبى فى هذا قول الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى محمد ﷺ فإنه قال : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⁽١٢٨⁾﴾[التوبة] ، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⁽٦٥⁾﴾[الحج] . انظر [تفسير القرطبى ٤/ ٣٢٢٨] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) فيه حميد بن عطاء الأعرج قاله الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٤) .

وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا فى حياتهم ، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التى كانوا يقومون بها لأنفسهم؛ فالثرى الذى كان يطهو طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً ؛ ليعد له طعامه ، والفلاح الذى كان يبنى بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبنى له ، وكل الأعمال التى تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه، صار يستأجر من يقوم له بها، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش فى رضا الله وبأسرار كلمة ﴿كُن﴾ .

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء فى هذه السورة بمشقات التكليف، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بأن الرسول ﷺ يتميز بكل المواصفات الموحية : من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التى تنجيهم من المشقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم .

فإن استمعوا إلى هذه الحيثيات وآمنوا ، فأهلاً بهم فى معسكر الإيمان، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحيثيات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن - يا رسول الله - أنك منصور بهم؛ لأنك منصور بالله ، فإن تولوا عنك [1] وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركنك الشديد [2] هو الله ، لذلك يختم الحق السورة بقوله :

---

(١) تولوا : أعرضوا ورفضوا الهدى . والتولى : من أسماء الأضداد أى : أنها تحمل المعنى وضده . قال تعالى : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. ﴿٣٨﴾﴾ [محمد] أى : إن تعرضوا عن الإسلام . ويقول سبحانه : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ .. ﴿٥١﴾﴾[المائدة] أى : من يتبعهم وينصرهم .

(٢) الركن الشديد : القوى الذى لا يغلب من التجأ وركن إليه . ومنه قوله عز وجل عن لوط عليه السلام ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود] وعنه قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٣١١٦) من حديث أبى هريرة .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

ولم يقل الحق لرسوله : «إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله »[1] لا ، بل أعلنها للناس كافة ؛ حتى يسمعوها ، ولعل فى إعلانك لها ما يلفتهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ فلن تقولها إلا وعندك رصيد إيمانى بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك ؛ فسوف يعاقبه الله.

وحين تعلن: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ بعد أن كذبوك ، فالأحداث التى سوف تأتى بعد إعلانك ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ ستؤكد أن حسبك فى مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى - أنت تقول : «حسبى نصرة فلان»؛ لأنك تثق فى قدرة فلان هذا، ولكن القوة فى الحياة أغيار ، وحين تقول : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه فى هذا أو فى غيره.

وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ برصيد ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ، و ﴿لاَ إِلَهَ﴾ نفى ، و ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إثبات ، إذن : ففى هذا القول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفى منطقى مع سلب ، وإثبات منطقى مع الإيجاب ، وهنا نفى أىِّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال[2] شاعر باكستان الكبير ، فقال:

إنَّما التوحيدُ إيجابٌ وسلبٌ   فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءُ

إيجاب فى ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ ، وسلب فى ﴿لاَ إِلَهَ﴾ ، فيهما للنفس عزم ومضاء، أى: هما للنفس قطبا الكهرباء، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله.

(١) الحسب : اسم بمعنى كاف . وحسبى الله ، أى : يكفينى الله .

(٢) محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامى جاهد بقلمه ونفسه فى سبيل الإسلام وتحرير بلاده ، وله آثار أدبية وشعرية تميل إلى الإسلام وتدرس فى المؤسسات العلمية ، وهو باكستانى المنشأ إسلامى الوطن ، عالمى الفكر - ترجم له فى مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوى شعلان .

والناس - كما نعلم - ثلاثة أقسام: قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً، وهم الملاحدة ، وقسم ثان يقول : إن هناك الله الذى يوحده المسلمون ؛ لكن له شركاء ينفعوننا عند الله. وقسم ثالث يقول بوحدانية الله.

وساعة نقول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ نكون قد أثبتنا الألوهية لله ، وأثبتنا أن لا شريك له ، وأثبتنا ألا إله غيره ، وسبحانه يقول:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا أمر طبيعى، ويمكن أن نعرفه بالحساب؛ ولذلك جاء بـ ﴿حَسْبِيَ﴾ من الحساب. واحسبها فلن تجد إلا الله. وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو ، فسبحانه يبسط عليك حمايته ونصرته لك، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدى رسولك، الذى أبلغك البلاغ الكامل عن الله، وأن تتوكل عليه سبحانه.

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو، والواجب يفرض عليك أن تظل فى مَعيَّته سبحانه، ومعيّة الله مرحلتان: الأولى بأخذ الأسباب التى أمدّ بها خلقه، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك، فأنت تلجأ إلى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود .

وترى - مثلاً - الناس وهى تحتاج إلى المياه ؛ لأنها ضرورة للحياة ؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر ؛ لأن المياه التى تأتى من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه ، ولماذا ؟ لأن المخزون من ماء المطر الذى كان يأتى من أعالى الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد ، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء ؛ لتجرى إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر.

وإذا جفَّتْ الآبار المحيطة بنا، هل نيأس؟ لا ؛ لأن ربنا بيَّن لنا : ارفعوا [1] أيديكم لربكم. إذن: فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من

(١) ارفعوا أيديكم بالدعاء والتضرع بشرط الاستجابة له والإيمان به تجدون الإجابة مع الرشاد.

المسبب، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه، ويلجأ إلى الله فيرده.

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب ، ويقول: أنا متوكل على الله ، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها، وبعد ذلك يقول: ليس لى ملجأ إلا أنت سبحانك ، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

والمضطر: هو من استنفد أسبابه، وليس له إلا الله. لكن أن يقول إنسان: أنا أدعو الله ليل نهار وأسبِّحُه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً ، ولا يستجيب الله لدعائى [1]. ونقول لمثل هذا القائل: أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب ، خذ بالأسباب التى خلقها الله ، أولاً ، ثم ادعُ بعد ذلك . ولا تدْعُ إلا إذا استنفدت الأسباب ؛ فيجيبك المسبِّب ؛ وبذلك لا تفتن بالأسباب ، فحين تمتنع الأسباب ؛ تلجأ إلى الله . ولو كانت الأسباب تعطى كلها لفُتِنَ الإنسان بالأسباب، والحق سبحانه يقول:

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

لذلك نجد الحق يبيّن دائماً أن كل الأسباب بيده ، فنرى من يحرث ويبذر ويروى ويرعى ، ثم يقترب الزرع من النضج ، وبعد ذلك تأتى موجة حارة تميته ، أو ينزل سيل يجرفه . إذن : خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً فى بالك ، وهنا يصح توكلك على الله.

---

(١) من آداب الدعاء ألا يستبطىء الداعى استجابة الله لدعائه ، فتجده يمل ويدع الدعاء ، بينما كان عليه أن يدرك أن الله يريد الأصلح لعبده ، فقد يدعو عبد بما يظن أنه خير له ، ولكن علم علام الغيوب أنه شر له ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : « لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله ما الاستعجال ؟ ، قال يقول : قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٣٥) الرواية الثالثة للحديث .

وكثير من الناس يخطىء فى فهم كلمة «التوكُّل» ، وأقول : إن التوكل يعنى أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التى خلقها سبحانه فى كونه ، فإن عَزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة ؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ .

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثال تجده فى حياتنا حين يقول الابن لأمه : «ادعى لى حتى أنجح» وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هى : «ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة» ، وهى بذلك تدل ابنها على ضرورة الأخذ بالأسباب.

إذن : فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التى مَدَّتها يد الله إليك. فإذا استنفدتها ؛ إياك أن تيأس ؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه.

ومثال آخر : إذا كنت سائراً فى الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرق ، ولا تملك فى البيت أو فى البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان فى البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان فى البيت عشرة جنيهات وفى البنك مائة جنيه ؛ فلن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد .

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن : فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب[1] . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب.

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق] .

وكان من الممكن أن يغيّر الحق الأسلوب فى الآية فيقول: توكلت عليه . بدلاً من ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق، ستجد أن الإنسان إن قال: «أنا اعتمدت عليك» فقد تعطف قائلا : «وعلى فلان وعلى فلان». لكن قولك: عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق، مثلما تقول فى الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه.

وتوكلك على الله له رصيد ؛ لأنه ربك ورب الكون الذى استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت فى الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ، ورب الكون الذى استقبلك، وأصبح هذا الكون مسخراً لك،وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون.

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفى قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك. ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك ، وليست فى قدرتك ؛ فالشمس مُسخّرة لك ؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس فى قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك.

وربك ورب الكون الذى استقبلك سخر لك ما ليس فى يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذى يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذى يدير كل هذه الأشياء . فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسبِّبات العطاء فى ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أي ظاهرة كثير.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نعم،هو رب الكون الذى استقبلك وسخر لك ما فى يدك وما ليس فى يدك،وما وراء المرئيات من

عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شيء، وكل ما فى الكون ملك لله.

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف [1] ، فحين تبنى دوراً واحداً تصنع له السقف ؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فالمبانى تهبط ، وبنينا السقوف حتى تحمى الجدران من عوامل التعرية.

وقول الله سبحانه : ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ معناها: استواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً فى ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال :

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

العرش، إذن، رمز السيطرة، وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد أن الذى يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ فى تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار ؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ؛ حتى تستقر له الأمور، ثم يجلس بعد ذلك على العرش.

إذن: فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر استتباباً نهائياً للمالك الأعلى.

وسبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴿٧﴾ ﴾ [غافر]

وساعة تسمع كلمة «العرش» خذها على أنها رمز لاستتباب الأمر لله ، وأن كل شيء دخل فى حيِّز قدرته ، وفى حيِّز ﴿كن﴾، كما يستقر الأمر

---

(١) العرش: المُلْك ، واستوى الملك على عرشه : أى : ملك . ومن معانيه أيضاً سرير الملك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[النمل] ومنه أيضاً سقف البيت وقد يطلق على البيت نفسه ، وكلها معان تدل على استقرار الأمر وثباته . انظر اللسان (مادة : عرش).

للملك المحَسّ ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور . هذا ما نراه فى الأمور الدنيوية ، فما بالنا باستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف]

أى : أن الأمور قد استتبت له . وهكذا نجد أن كلمة «الْعَرْش» وردت فى عروش الدنيا ، وفى عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا [1] ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغص عليه شىء ولا يخرج من ملكه شىء . والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة «كن» ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفى أذهان الناس عروش الملوك التى نراها فى حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [2] ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

أى : بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ؛ لذلك نفهمه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ..﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

---

(١) إن عروش الدنيا تشير إلى استتباب الأمر لمن يملك عليها ، أما عرش الله فيشير إلى استتباب أمر الكون لله سبحانه .

(٢) عروش ملوك البشر محدودة المكان والزمان ، أما عرش الله سبحانه فلا حدود له فهو مالك الملكوت .


سورة يونس



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وتبدأ سورة يونس [١] بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من آيات القرآن ، ولكن المختلف فيه : أهى آية من كل سورة ؟ أم نزلت بين السور للفصل والابتداء ؟

وسور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وقد وردت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فى أوائل مائة وثلاث عشرة سورة ، ومرة واحدة فى صلب سورة النمل :

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾ [النمل]

إذن: فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فى سورة النمل بعض آية من القرآن ، وآية من السورة ، ومن قال من العلماء: إنها آية من كل سورة ؛ يجهر بها فى الصلاة ، ويسميها الآية رقم واحد ، والآية التى تأتى بعدها برقم اثنين . ومن قال: إنها نزلت للفصل بين السور ، نقول له: إن نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ للفصل بين السور ؛ فما كانت لتأتى فى سورة الفاتحة ؛ لأن الفاتحة أول سور القرآن . ولكن صاحب هذا الرأى ، يرى أنها جاءت ابتداء للقرآن تبركاً .

ونحن نرى أنها آية من سورة الفاتحة ، وقد حسبوها كذلك فى طباعة المصاحف ، حيث ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هى الآية الثانية ، ولكن فى بقية السور لا ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) سورة (يونس) مكية عدد آياتها (١٠٩) آيات .

وبعض آياتها مدنية على اختلاف بين العلماء ، فذكر ابن عباس أن منها ثلاث آيات مدنية هى آيات : ٩٤، ٩٥، ٩٦ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ..(٩٤)﴾ إلى قوله تعالى : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾ . وقال الكلبى: إنها مكية إلا قوله : ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ... (٤٠)﴾ [يونس] . ولكن ذهب الحسن وعكرمة وغيرهما إلى أن السورة كلها مكية .

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ، بل ترقم الآية التى بعدها فى السور القرآنية برقم واحد .

وقد اتفق جمهور العلماء على أنها هى آية من القرآن ، ولكنها ليست آية من كل سورة ، إلا فى الفاتحة . وفى بداية خواطرنا حول القرآن الكريم قلنا : إن الإنسان يبدأ كل عمل باسم الله ؛ لأنه حين يقبل على الأعمال ، فهذه الأعمال لا تستجيب لقدرته هو ، ولكن تستجيب له بتسخير القادر له ، فأنت تحرث الأرض ، وتضع البذور ، وتروى الأرض ؛ وينبت لك الحق الزرع . صحيح أنك حرثت لكنك لم تزرع ؛ لأنك لا تعرف كيف وضع الحق سبحانه فى البذرة كلَّ النبات الذى سوف يخرج منها ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

وهناك أفعال للإنسان تستجيب له ، لا بقدرته عليها ، ولكن لأن الله شاء ذلك ، فليس لإنسان قدرة على الهواء ، ولا على العناصر التى فى الأرض . وأنت إن فكرت تفكيراً بسيطاً فى النبتة البسيطة الخارجة من البذرة أو من حبة الفول التى تضعها فى رطوبة الأرض سوف تلتفت لتجدها قد نبتت وخرج منها الزبان [1] البسيط ؛ ليكوِّن الجذور ، فكيف لهذا الزبان البسيط الضعيف من قدرة تخرق الأرض ؟ وإن كانت الحبة فى جبل ، فهذا الزبان يدخل فى أى فتحة فى الجبل ؛ لينشق الجبل ، هذا هو الزبان البسيط التافه فى رؤية الإنسان .

وأنت أيضاً قد لا تعرف القدرة الموجودة فى المياه ، وهى قدرة هائلة

(١) الزبان : أصله فى اللغة زبانى العقرب أى طرفا قرنيه ، شبه به طرف النبتة الصغيرة الخارج من البذرة وانظر اللسان (ز ب ن) .

لدرجة أنهم فى الأزمان السابقة حين كانوا يريدون تفتيت الجبل الصخرى ، قبل اختراع «الديناميت» ، كانوا ينقرون ثقباً فى الجبل الصخرى ، ثم يضعون فيه وتداً من الخشب ، ويدقون فى هذا الثقب خشباً جافاً ثم يقطرون عليه مياهاً ، ولحظة أن يتشرب الخشب بالمياه ينفجر الجبل.

وأنت حين تضع الحبة فى الأرض ، فالحبة تخرج نبتاً بسيطاً ؛ لتتكون منها الجذور التى تمتص الغذاء من الأرض ، أما قبل ذلك فكانت الحبة تضم الغذاء الذاتى اللازم لتنشئة الجذر ، ثم يشبك الجذر فى الأرض . وتَرِقّ فلقتا الحبة إلى أن تصيرا ورقتين خضراوين ، ولم يعرف الإنسان أسرَار تلك المسألة إلا حديثاً ، فهى من الكونيات المسخرة للإنسان قبل أن يبحثها علمياً.

وأنت حينما تذهب لتزرع فإنك لا تزرع بقوتك ، بل بقوة من سخّر الأرض لك ، وحين تأتى لتزرع وتقول : باسم الله أزرعك ، فهذا إقرار منك بأن الحق سبحانه هو الذى سخر لك الأرض لتزرعها ، وحين تريد حمل شىء ثقيل وتقول : باسم الله أرفعك ، فأنت تستثمر قوة من الذى خلقك ؛ لأنك قد تأتى لرفع الشىء الثقيل فلا تصل الأوامر من المخ وقد تتعطل اليد.

إذن : فإن أقبلت على كل عمل ، فافهم أنك لا تُقبل عليه بقدرة منك على العمل ، ولكن بتفضُّل المسخِّر للمنفعل لك . فَادخل على كل عمل وقل : باسم الله أحرث ، وباسم الله أزرع ، وباسم الله أذاكر ، وباسم الله أصنع ؛ لأنه هو سبحانه الذى سخَّر لك كل شىء.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر» [1].

---

(١) الأبتر : الأقطع ، وهى صيغة أفعل تؤدى معنى المبالغة ، والبتر : القطع . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ③﴾ [الكوثر] أى المقطوع الذكر . والمقصود أن العمل إذا لم يبدأ فيه ببسم الله أو بالحمد فهو مقطوع الخير وغير تام .

لأنك إذا اعتمدت على قوتك ؛ فلن ينفعل لك شيء ، فكل شيء ينفعل ؛ لأن الله جعله منفعلاً لك ، إذن: فابدأ كل شيء باسم الله . وفي أعرافنا السياسية يقول القاضي لحظة الحكم : «باسم الدستور حكمت بما يلي» أي : أنه يقر أنه لم يحكم بذاته ، بل باسم الدستور.

إذن: حين تُقبل على العمل باسم الله ، فكأنك تذكّر المنفعل لك بأنه لا ينفعل لك أنت ، وإنما ينفعل لمن خلقك وخلقه.

وساعة تقبل على أي عمل وتتذكر واهبَ الطاقة لك ، وواهب الشيء المنفعل لك ، وواهب الحركة ، وواهب كل شيء ، تكون قد بَرِئت من حَولِكَ ومن قوتك .

وهنا يقول الحق : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهنا الرحمة بالخلق ؛ ليرفع عن العاصي الحرج في أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذى عصاه ، ويُذكِّرك الحق بأنه ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وتبدأ الآية الأولى فى سورة يونس :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾

و﴿الٓر﴾ ثلاثة حروف ، وقد سبقتها سورة البقرة بـ ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓ﴾ فى أول سورة آل عمران ، وفى أول سورة الأعراف ﴿الٓمٓصٓ﴾ وهنا ﴿الٓر﴾ في أول سورة يونس . ونلاحظ أن ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾و ﴿الٓر﴾ كلها أسماء حروف .

وكل شيء له اسم وله مسمى ، أنا اسمى الشعراوى صحيح ، والمسمَّى هو صورتى . فإذا أُطلق الاسم جاءت صورة المسمَّى فى الذهن .

فساعة نقول : « السماء » يأتى إلى الذهن « ما علاك » . وساعة تقول : « المسجد » يأتى إلى الذهن المكان المحيّز للصلاة .

إذن : فهناك فرق بين الاسم والمسمّى . وكل إنسان أميّ ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ، لكن لا ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلَّم . وفى الإنجليزية نطلب ممن يتعلمها أن يتهجّى أسماء الحروف .

إذن : فالكُلّ - كل متكلم - يعرف النطق بمسمَّيات الحروف ولكن الذى يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلِّم . وعرف أنك حين تقول : « أكلت » ، فهذه الكلمة مكونة من (همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بَدأت بـ ﴿الٓمٓ﴾وهذه أسماء حروف ، لا مسمَّيات حروف ، ومحمد ﷺ أمّىّ لم يتعلم ، فمن الذى علَّمه أسماء الحروف ؟

هى ، إذن ، رمزية على أنه - بإقرار الجميع - أمى ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف " ألف لام ميم " ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت [1] ، وهى نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن . وقسمناها نحن إلى حروف مجهورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل القرآن . وبالاستقراء تجد الأربعة عشر حرفاً التى تأتى فى فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف .

---

(١) جمع بعض العلماء هذه الحروف المقطعة التى فى أوائل السور وحذف المكرر منها ، فكان مجموعها أربعة عشر حرفاً ، وكونوا منها جملة جاءت هكذا : نص قاطع حكيم له سر .

وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الحروف على أقوال :

١- أنها مما استأثر الله بعلمه .

٢- أنها دلالة على أسماء السور .

٣- أنها دلالة على أسماء الله تعالى وصفاته ، فالألف مفتاح الله ، واللام مفتاح اسمه (اللطيف) ، والميم مفتاح اسمه (المجيد) .

من: رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعلٍ [1] ، وبدأ الله بها على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد :

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾ [ص]

ويقول سبحانه :

﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق]

ويقول سبحانه :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾ [القلم]

إذن : فثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل : ﴿طه﴾ . ﴿يسٓ﴾ . ﴿طسٓ﴾ ، ﴿حمٓ﴾ .

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : ﴿الٓمٓ﴾ مثلما بدئت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .

وهناك سور قد بدئت بـ ﴿الٓر﴾ .

وثلاث سور تتفق فى الألف واللام . وتختلف فى " الميم والراء" . و﴿الٓر﴾ فى أول سورة يونس و ﴿الٓر﴾ فى أول سورة يوسف . و﴿الٓر﴾ فى أول سورة إبراهيم ، و﴿الٓر﴾ فى أول سورة الحجر .

---

(١) هذه الحروف لها صفات بحسب طريقة النطق بها ، فمنها صفات لها أضداد مثل : (الجهر ، الهمس) - (الشدة ، الرخو) - (الاستعلاء ، الاستفال) - (الانفتاح ، الإطباق) - (الإصمات ، الإذلاق) .
وكمثال لهذا أن الهمس هو ضعف الصوت عند النطق بالحرف فيكون فيه خفاء ، وهى : الفاء ، الحاء ، الثاء ، الهاء ، الشين ، الخاء ، الصاد ، السين ، الكاف التاء ويجمعها قولهم : « فحثه شخص سكت » وما عدا هذه الحروف فهى « حروف جهرية » أى : فيها قوة فى النطق بها . انظر تفاصيل هذا فى كتاب « هداية القارى إلى تجويد كلام البارى » للشيخ عبد الفتاح السيد المرصفى (ص ٧٩ - ٩٣) غفر الله له ورحمه .

وهناك سورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ فى أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة الرعد بدأت بـ ﴿ الٓمٓر ﴾ .

وهناك سور قد بدئت بخمسة حروف مثل سورة مريم ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ . وكذلك سورة الشورى بدأت بـ ﴿ حمٓ ⑴ عٓسٓقٓ ⑵ ﴾ .

ومرة يطلق الحرف أو الحرفان فى أول السورة ولا تعتبر آية وحدها ؛ بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل ﴿ طه ﴾ ، و﴿ يسٓ ﴾ . أما فى سورة النمل فهى تبدأ بـ ﴿ طسٓ ﴾ ولا تعتبر آية وحدها .

إذن : فمرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتى خمسة حروف مثل ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ، وكل هذا يدلك على أن القرآن توقيفى[1] . ولم تأت آياته على نسق واحد ؛ لننتبه إلى أن الحق سبحانه أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك نجد كلمة " اسم " فى القرآن فى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ وتكتب من غير ألف[2] ، وهى ألف وصل ، أى : تنطقها حين تقرأها لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ولكنها لا تسقط عندما نكتب الآية الأولى من سورة العلق :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ⑴ ﴾ [العلق]

---

(١) توقيفى أى : أن الله قد أوقف محمداً ﷺ على كل شىء فى القرآن من فواتح السور والفواصل بين الآيات وترتيب السور فى المصحف ، ولم يترك هذا لاجتهاد الرسول ﷺ ولا لاجتهاد الصحابة ، بل كان بلاغاً من الله إليه على لسان جبريل .

(٢) وردت كلمة (باسم) فى القرآن ٤ مرات فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ⑴ ﴾[العلق] ، و﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ فى ثلاثة مواضع [الواقعة : ٧٤ ، ٩٦] ، و[الحاقة : ٥٢] .
ووردت كلمة (بسم) بدون الألف ثلاث مرات فى القرآن [الفاتحة] ، وقوله : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ⑷⑴ ﴾ [هود] ، و﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ⑶⑳ ﴾ [النمل] بالإضافة إلى جميع مواضع البسملة فى بدايات سور القرآن إذا اعتبرنا البسملة آية فى أولها .

ومثال آخر لو استعرضت فى القرآن الكريم كلمة « تبارك » ، ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتى مرة من غير ألف [١] ، وكلمة " البنات" نجدها مرة بألف ومرة من غير ألف [٢] ، كل ذلك ؛ لنفهم أن المسألة ليس لها رتابة كتابة ؛ لأنها لو كانت رتابة كتابة ؛ لجاءت على نظام واحد .

وقد شاء الحق هذا الأمر ؛ لتكون كتابة القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظه وتراكيبه معجزة . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا « بسم» من غير ألف فى موقعها ، لقد علموا أن القرآن يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ كتابة توقيفية ، أى : كما أمر الحق سبحانه [٣] .

وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التى فى ختام أى سورة مشكلة بغير السكون .

---

(١) كلمة « تبارك » وردت فى القرآن ٩ مرات ، منها موضعان فقط بدون ألف فى قوله تعالى : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن] ، وقوله : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ... ﴿١﴾ ﴾ [الملك] أما المواضع السبعة الأخرى فهى : ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الأعراف] ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] ، [الفرقان ﴿١﴾ ، ﴿١٠﴾ ، ﴿٦١﴾] ، [غافر﴿٦٤﴾] ، [الزخرف﴿٨٥﴾] .

(٢) وردت كلمة البنات فى القرآن ١٢ مرة ، منها ثلاثة مواضع بدون الألف وهى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل] ، وقوله : ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الطور] .

(٣) هذا علم هام من علوم القرآن ، وهو علم مرسوم الخط ، تحدث فيه العلماء وبينوا دقائقه ، وهم على عدم ترك ما استقر عليه الأولون الأقدمون فى قواعد الرسم القرآنى ، وأن لهذا الرسم حكماً خفية تكلم فيها علماء . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٣٧٦ - ٤٣١) والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٤/ ١٤٥ - ١٦٦) .

والمثال هو : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون ؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتى : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿ عِضِينَ﴾ [١] فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كلهَ موَصول ، فليس فى القرآن من وقف واجب [٢] ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهى بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فنحن لا نُسكِّن الحرف الأخير فى أى سورة ؛ لأنها موصولة بما بعدها .

وحتى فى الحكم التجويدى إن وجد إقلاب ننطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهار [٣] ننطقه إظهاراً ؛ لأن آيات القرآن مبنية على الوصل .

ولقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد بنى على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التى بدئت بحروف المعجم تنبنى على طريقة المعجم . فلا نقول (ألف لام ميم) بل نقول " ألم" .

---

(١) عضين : أى : أجزاء متفرقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر] . ذكر المفسرون فى الآية أقوالاً أخرى منها ، أن أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

(٢) أى : أنك تجد نهايات الآيات متحركة وليست ساكنة ، وكذلك نهايات السور ، وإلا فهناك وقف لازم فى داخل بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦﴾ [الأنعام] .

(٣) الإظهار والإقلاب : حكمان من أحكام تجويد القرآن عند النطق بالنون الساكنة أو التنوين .

- أما الإظهار : فهو إذا وقع بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من الحروف الحلقية أى: التى مخرجها من الحلق وهى : الهمزة ، الهاء ، العين ، الحاء ، الغين ، الخاء . عندها يجب الإظهار ، أى : إظهار النون الساكنة والتنوين عند ملاقاتهما بحرف من هذه الأحرف .

- أما الإقلاب : فهو أن تأتى باء بعد النون الساكنة أو التنوين ، فتقلب النون والتنوين ميماً مع إظهار الغُنَّة ، ومثال هذا : ﴿ أَنبِئُونِي ...۝٣١﴾ [البقرة] ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤﴾ [التغابن] .

ونقـول لمثـل هذا القـائـل : لا ، إن حـروف القـرآن التى بدئت بـهـا السـور يجـب أن ننـطقـهـا كـمـا هى ، فننطق « ألف» ثم نقف ، ونقرأ " لام" ثم نقف ، ونقـرأ "مـيـم" ثم نقف ؛ لأن هذه الحـروف جـاءت هكـذا ، وعلّمـهـا جـبريل عليه السـلام لرسـول الله ﷺ هـكذا ، حتـى لا نقـول رتابة كلام ، بل إن لذلك حكمـة عند الله سـواء فـهـمتـهـا أنت الآن أم لم تفهمها .

وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأى هفوة ؛ ليدخلوا منها للتشكيك فى القرآن ، ولكن أسـمعـتم رغم وجـود الكافـرين الصناديد أن واحـداً قـال : مـا مـعنى ﴿ الٓمٓ ﴾ ؟

لم يقل أحد من الكافرين ذلك ، رغم حرصهم على أن يأتوا بمطاعن فى القرآن ، بل اعترفوا بمطلق بلاغة القرآن الكريم ، مما يدل على أنهم فهموا شيئاً من ﴿ الٓمٓ ﴾ بملكتهم العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً ؛ لطعنوا فى القرآن . لكنهم لم يفعلوا .

وأيضاً صحابة رسول الله ﷺ وهم أهل حرص على الفهم ، هل سمعت أن أحـداً سـأل رسـول الله عن مـعنى ﴿ الٓمٓ ﴾ ؟ لم يحـدث ، مما يدل على أنهم انفعلوا لقائلها بسرّ الله فيها ، لا بفهم عقولهم لها ؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، وإن لم يقبله العقل فهو لا يرفضه[1] مع استراحة النفس له .

---

(١) عن على بن أبى طالب قـال : « لو كـان الدين بالرأى لكان أسـفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقـد رأيت رسـول الله ﷺ يمسح على ظاهر خـفـيـه » أخـرجـه أبو داود فى سننه (١٦٣) والدارقطنى فى سننه(١/ ١٩٩) .

وضربنا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا [1] نساء بنى إسرائيل وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى ؟ لقد أوحى [2] لها الله ما جاء خبره فى القرآن :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⑦ ﴾ [القصص]

هات أىَّ أُمٍّ و قُلْ لها : حين تخافين على وليدك فارميه فى البحر ، طبعاً لن تنفذ أى أم هذا الاقتراح .

كان من الممكن أن تحاول أم موسى إخفاء موسى بأى وسيلة .

أما أن تلقيه فى البحر مظنّة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متخيَّل، ولكن هذا أمر وارد من الرحمن بالإلهام والوحى ، فلا يأتى الشيطان؛ ليعارضه أبداً ؛ ولذلك طمأنها الحق سبحانه ؛ لأن الآيات وردت :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... ⑦ ﴾ [القصص]

---

(١) استحياء النساء : أى : الإبقاء عليهن أحياء ، ومنه قوله تعالى :﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ ﴾[القصص] . وكان هذا على سبيل الإهانة لبنى إسرائيل والاحتقار والخوف من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف أن يظهر بينهم ويكون سبباً لهلاكه وذهاب دولته .

(٢) مادة الوحى وردت فى القرآن فى ٧٥ آية من كتاب الله – راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : صـ٧٤٦ ، ٧٤٧ .

والوحى فى اللغة : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك والصوت يكون فى الناس ، وأوحى إليه : بعثه وألهمه ، ومنه الإعلام فى خفاء ، والبعث والأمر والإيحاء والإشارة والتصويت شيئاً بعد شىء ويرد الوحى لغير إعلام الله لأنبيائه مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. ⑥⑧ ﴾ [النحل] والوحى هنا بمعنى : الإلهام ، أما الذى بمعنى الإعلام فهو الوحى الخاص بالأنبياء والرسل .

وكأن هناك تمهيداً يعلِّمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحين جاء الأمر :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

والكلام هنا كلام عَجِلَة ؛ لأن هذا وقت التنفيذ ، وطمأنها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذفه إلى الشاطئ :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ...﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

وأصدر الحق أوامره إلى العدوّ أن يأخذه ؛ ليربيه :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ...﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

إذن : وارد الرحمن لا يأتى له رد أبداً .

وكذلك يستقبل المؤمن ﴿ الٓمٓ ﴾ بسر الله فيها ، لا بفهم عقله .

وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعبداً ألا يشغل نفسه بالمعنى ، على خلاف من يقول : " اقرأ لتستنبط " ؛ لأن من يريد أن يستنبط هو الذى يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن للتعبد ؛ فلتقرأه بسر الله فيه ؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك ؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً بنقصك البشرى ؛ لذلك فى قراءة التعبد نأخذ اللفظ بسر الله فى اللفظ ؛ فليس كل قارىء للقرآن متخصصاً فى اللغة ؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير منا أمى ، يريد التعبد بالقرآن ، إذن - فليأخذ القرآن بسر الله فيه .

---

(١) التابوت : الصندوق .

(٢) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحًا ، أو النهر الكبير العذب الماء ، والمراد به هنا نهر النيل بمصر . وساحل اليم : شاطئه .

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الجيش يضع كلمة اسمها: " كلمة السر" ، وهذه الكلمة قد لا يكون لها معنى ، ولكن لا أحد يتحرك أو يخرج أو ينضم إلى المعسكر إلا إذا قالها . ولتكن الكلمة "عدس" على سبيل المثال ، ومن يعرفها يعرف أنها منجية من الموت ، وساعة يعود مقاتل إلى كتيبته وينطق بكلمة "عدس" ، هنا يعرف حارس بوابة المعسكر أنه منهم ، أما من لا يعرفها فقد يُقتل . ومن يقولها ، إنما ينطقها بسر من لقنه إياها .

وقد فهم العربى القديم عن الحروف التوقيفية فى أوائل بعض السور أشياء ، وللغته فيها نظائر ؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر [1] يقول :

* ألا هُبِّى بِصحْنك فَاصْبحِينا *

ويقول :

ألا لايَجْهلنْ أحدٌ علَيْنا فَنجْهَل فوْقَ جَهْل الجَاهلينَا [2]

ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت ؟ فالمعنى واضح بدونها ، لكن العربى القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك الزمام فى أن يتكلم ، أو لا يتكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، فإذا ما ألقيت الكلام إلى السامع ؛ قد يكون ذهنه مشغولاً ، وإلى أن ينتبه لكلماتك ، قد تفوته جزئية من جزئيات الكلام ؛ فتنبهه أنت إلى ما قلت ؛ فيتنبه ؛ ليستوعب كل ما قلت [3] .

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ، توفى نحو عام ٤٠ قبل الهجرة . من أشهر شعره معلقته (الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤) .

(٢) هذه الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها (١٠٣) ، وهى من بحر الوافر .

(٣) فـ « ألا » هنا حرف استفتاح يفيد التنبيه ، ويدل على تحقق ما بعده . ولها أربعة معان أخرى هى : التمنى والاستفهام عن النفى والحث والتحضيض والتوبيخ والإنكار .

إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيىء الأذهان بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ ؛ حتى نسمع ، ثم تأتى الآيات الحاملة للمنهج من بعد ذلك ؟

وما المانع فى أن نفهم أن النبى الأمى لا يعرف كيف ينطق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإنما يصدر ذلك بعد تعليم الله له ؟

ولماذا لا نفهم منها أيضاً أن وسائل الفهم لا تنتهى إلى أن تقوم الساعة ؟ وإلا لو انتهت عند البشر ؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم البشر ، وسبحانه قد شاء أن نغترف من معانى كلماته الكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله، وكلام الله صفته، وصفته لا تتناهى فى الكمال، فإن عرفت كل مدلولاتها ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له[1] .

ولماذا لا نفهم أن القرآن الذى بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه معجزة محمد ﷺ هو من جنس ما نبغ فيه قومه؛ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه. ويقول لهم: هاتوا مثيلاً له ،ولن تستطيعوا[2] ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم فى الكلام لقالوا : لا نستطيع ؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا .

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التى يتحدثون بها ، وبالكلمات التى يعرفونها فى لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد ؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الخام التى تبنى منها

---

(١) يقول تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف] ، ويقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] .

(٢) وفى هذا يقول تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ [هود] .

الكلمات وهى الحروف ؛ بل بالمعانى والنسق [١] الذى جاءت به الحروف ، فالمادة الخام - وهى الحروف - واحدة . وصار القرآن معجزة ؛ لأن المتكلم هو الله .

وضربنا من قبل المثل لنقرب ذلك إلى الأذهان : هب أننا نريد أن نقيس مهارة من ينسجون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل الصوف وغزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل صنف لنعرف الأفضل فى النسج .

وسنسمع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف نسيج خشن ، وناسج القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً ناعماً ، أما إن أعطينا كلاً منهم نوعاً واحداً من الغزل ؛ صوفاً أو قطناً أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .

إذن : لو أن القرآن جاء بغير حروف العرب ، وبغير كلمات العرب ؛ لقالوا : لو كانت عندنا هذه الحروف وهذه الكلمات ؛ لأتينا بأحسن منها [٢] .

---

(١) النسق من كل شىء : ما كان على طريقة نظام واحد .

(٢) قد يقول قائل : ولكن الواقع أن القرآن الكريم به ألفاظ أعجمية كثيرة مثل : أباريق ، أبّ ، أرائك ، إستبرق ، أكواب ، أسفار ، الجبت . وغيرها كثير ذكرها الزركشى فى البرهان (١/ ٢٨٧ - ٢٩٠) والسيوطى فى الإتقان (٢/ ١٠٥ - ١٢٠) وذكر فيه (١١٨) كلمة أعجمية بين : حبشية ونبطية وسريانية ورومية وفارسية وعبرانية وقبطية وعبرية . نقول : اختلف العلماء فى هذه الكلمات ، فمنع الشافعى وابن جرير والقاضى أبو بكر القول بأن فى القرآن كلمات أعجمية مستدلين بقوله تعالى : ﴿ قرآنا عربيًا ... (٢) ﴾ [يوسف] .

وقال آخرون بوقوع الكلام الأعجمى فيه وأن هذا لا يعنى أنه ليس قرآنا عربياً ، فهذه الكلمات اليسيرة لا تخرجه عن كونه عربياً .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : « الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، ولكنها وقعت للعرب ، فعربتها (أى : الكلمات) بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق » .

لذلك شاء الحق أن يأتى القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور ؛ لتعرف شيئاً من الإيناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد اللغة العربية متوافرة مثلما كان الحال أيام نزول القرآن ، ومن كانوا يملكون هذه الملكة الصافية أيام الرسول ﷺ سمعوا الحروف التى فى أوائل بعض السور وقبلوها، والحق سبحانه يقول:

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]

و﴿تِلْكَ﴾: إشارة ، ولا بد أن نفرق بين الإشارة والخطاب ؛ لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارة هى التى تشير إلى شىء مثل قولنا: هذا وذا ، أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما «الكاف» : فهى حرف للخطاب ، فالتاء : إشارة للآيات وهى مؤنثة ، و«الكاف» فى ﴿تِلْكَ﴾ : للمخاطب ، وهو محمد ﷺ. فالله يقول لرسوله: تلك الآيات يا محمد.

وعلى ضوء الفوارق بين الإشارة والخطاب تختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق:

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ[1] مِن رَّبِّكَ ... ۝٣٢﴾ [القصص]

و«ذَانكَ»: إشارة لشيئين اثنين : للعصا .

و ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ...۝١٢﴾ [النمل]

ويقول الحق أيضاً:

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ...۝٣٧﴾ [يوسف]

---

(١) البرهان : الحجة الفاصلة البينة ، والدليل القوى الواضح .

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه. وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين ، ولكنه يشير إلى التأويل بـ «ذا»[1].

وحين دعت امرأة العزيز النسوة ؛ ليشاهدن جمال سيدنا يوسف ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت: اخرج عليهن ، ولأنه مفرد مذكر ، وهن جماعة إناث ، فالعبارة تأتى بخطاب لجماعة الإناث ، وإشارة إلى المفرد المذكر فقالت:

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمتُنَّنِى فِيهِ ... (٣٢) ﴾ [يوسف]

و «ذا» إشارة إلى سيدنا يوسف ، و«كن» خطاب للنسوة. والقرآن حين يخاطب جماعة يقول:

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ... (٢٣) ﴾ [فصلت]

إذن: فهناك فرق بين الإشارة والآيات ، فالـ «ت» إشارة للآيات ، والآيات مؤنثة ، والمخاطب الأول بالتكليف هو رسول الله ﷺ .

والآيات - كما عرفنا من قبل - جمع آية ، والآية[2] هى الأمر

---

(١) من العبارات النحوية الذائعة الصيت عن باب الإشارة ما يقال: (اسم الإشارة لمن تشير إليه ، والكاف لمن تخاطبه) وتتضمن هذه العبارة الأمرين الآتيين :
الأول : أن أسماء الإشارة يراعى فى لفظها ما تشير إليه - مفرداً أو مثنى أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً .
الثانى : أن حرف الخطاب (الكاف وما تفرع عنها) يراعى فى لفظها المخاطب - مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً .
فالكاف حرف لمجرد الخطاب لا موضع له من الإعراب ، فهى إذن حرف للخطاب لا للمخاطب ، وهكذا يصفها المعربون (النحو المصفى ص ١٥٦ - ١٦٤) .

(٢) الآية العلامة الواضحة والمعجزة ؛ لأنها علامة على صدق الرسول ، والآية العبرة الدالة على العظمة ، والآية من القرآن سميت آية ؛ لأنها معجزة أو جزء من المعجزة قال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] أى : معجزة دالة على قدرة الله وعظمته ، وقوله : ﴿ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ .. (١١٨) ﴾ [البقرة] أى : معجزة خارقة للعادة ، وهناك آيات كونية يرجع إليها فى كتاب الله ، وتجمع الآية على آى وآيات ، وكلها تدور حول العظمة والقدرة لتوحيد الخالق وعظمته .

العجيب ، وكل منا يسمع من يقول : إنها آية فى الحسن أو آية فى الجمال ، أو آية فى الفن ، أو آية فى الروعة .

فالآية إذن هى الشىء العجيب ، أو الشىء الذى بلغ من الحسن ومن الجمال درجة هائلة . وتطلق الآيات إطلاقات متعددة : فهى إما أن تكون المعجزات التى أمدَّ اللهِ بها رسله ؛ ليثبت صدقهم .

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [1] (١٣٢) ﴾ [الأعراف]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ [2] مِنْهُ النَّهَارَ ... (٣٧) ﴾ [يس]

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ... (١٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

إذن : فالآية إما أن تكون شيئاً فى الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة التى جاء بها الرسل ؛ لتثبت صدقهم فى البلاغ عن الله ، وقد يكون المقصود بها آيات القرآن .

إذن : فالآيات تطلق على ثلاثة أمور : الآيات الكونية للنظر والاعتبار ، وآيات إعجازية لصدق الرسول ﷺ فى البلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل الأحكام والتحدى للمشركين أن يأتوا بمثلها .

---

(١) قالها آل فرعون لموسى ، فعاقبهم الله فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

(٢) انسلخ النهار من الليل : خرج منه خروجاً لا يبقى معه شىء من ضوئه ؛ لأن النهار مكوَّر على الليل ، فإذا زال ضوؤه بقى الليل غاسقاً قد غشى الناس . ويسلخ الله النهار من الليل أى : يخرجه منه .

وهنا فى قوله الحق : ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ المراد بها : الآيات القرآنية [1] ، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية ، وخالق المعجزات ؛ وهو منزِّل القرآن ؛ فلا تعارض بين الآيات ؛ لأن مصدرها واحد.

وقوله: ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ معناها: الذى يضع الشيء فى موضعه الدقيق بحكمة، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتى به من مضرّة.

ولله المثل الأعلى أقول: إنك قد تصل إلى الشيء ، وتظن أنه يخلصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شيء أضر ، وهذا هو السبب فى اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة، ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يُجنبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية.

إذن: فهذه حكمة؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذى قد يأتى منه أثر ضار، بل يكتب معه دواء آخر يخفّف من ضرره، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبى.

وفى أوائل الخمسينات ، حاول العلماء أن يقللوا من أثر تهديد الحشرات للزروع، واخترعوا مادة اسمها «د. د. ت» لمقاومة الحشرات، وافتخروا بهذا كل الفخر حتى علا كل صوت ، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة تقضى على الحشرات ، ولكنهم اكتشفوا أن هذه المادة تضر الكائنات الحية

(١) المتعارف عليه عند النحويين أن اللام فى تلك للبعد ، وعلى هذا ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليه هنا هو الكتب السابقة على القرآن . وذهب آخرون إلى أن اللام هنا ليست للبعد ، وأن تلك بمعنى هذه ، وعلى هذا تكون (تلك) إشارة إلى آيات القرآن ؛ لأنه لم يجر ذكر للكتب المتقدمة ، ولأن الحكيم وصف للقرآن ، دليل هذا : ﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ... ① ﴾[هود] .

الأخرى ، والآن تُوقع العقوبة على من يستخدم تلك المادة ؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة. قد نأخذ منه ظاهر النفع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سمّم الحيوانات وسمّم الزروع.

إذن: فالحكمة [1] تعنى : أن تضع الشيء فى موضعه ؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد.

وقد أنزل الله المنهج فى الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح. فإن طبقناه ؛ فلسوف يأتى منه كل نفع ، ولن يأتى لنا أى ضرر ، وضربنا المثل فى المعطيات التى أعطاها الحق لنا فى الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات ؛ لنأخذ من لبنها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من جلودها ، ونأكل من لحومها. وهو القائل:

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ... ⑦ ﴾

[النحل]

أى: أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنا هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب ؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية - وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل - وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ؛ فصارت عندنا السيارات الكبيرة التى تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التى تفيد فى خصوبة الأرض.

(١) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل . قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. ⑫⑨ ﴾ [البقرة] والحكيم : ذو الحكمة والرشاد الذى يتقن كل أمر يتولاه من حكم يحكم حكماً فهو حكيم ، والحكيم من أسماء الله الحسنى قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ..②⓪⑨ ﴾ [البقرة] .

إذن: فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما ، فهى اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود ، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حمل البضائع ، ونتخلص مما تسببه من ضرر. وهكذا نعرف أن الحكمة هى: وضع الشيء فى موضعه المفيد فائدة دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ولقائل أن يقول: وما معنى قول الحق : ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هل الكتاب بمفرده له حكمة ؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب؟ ونقول: إن معنى ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أنه الكتاب الذى يمتلىء بالحكمة الصادرة من الله، أو الكتاب الذى أنزله الرب الحكيم. وكلمة «حكيم» على وزن «فعيل»، ومثلها مثل «كريم» و«رحيم» وتأتى مرة بصيغة فاعل ، ومرة بصيغة فعيل [1] ، وموضعها هو الذى يبين لنا ذلك.

ومعنى كلمة «الْحَكِيمِ» يتضح لنا من سياقها: فإن نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه ، وإن أردت الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ؛ والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا ؛ ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم فى كل قضايا الإيمان. وقمة العقيدة التى يحكم فيها القرآن هى لا إله إلا الله . ومن يفعل عكس ذلك هو الظالم ، وسبحانه القائل:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان]

والقرآن يحسم هذه القضايا ، وهو حاكم فاصل فيها [2] .

---

(١) صيغة فاعل تصاغ للدلالة على اسم الفاعل من الفعل الماضى الثلاثى المتصرف ، وقياساً على هذا فإن فعل (كرم) مثلاً تصاغ منه صيغة اسم الفاعل (كارم) وكذلك (بخل) يصاغ (باخل) وهذا يدل على معنى طارىء غير ثابت ، أما إن كان المعنى ليس طارئاً حادثاً وإنما هو دائم ، فيجب التصرف بتغيير صيغة «فاعل» الدالة على الحدوث إلى أخرى دالة على الثبوت كأن نقول : كريم ، بخيل . ومن هذا أيضاً حكيم . فهى صفة لها ثبوت ودوام فى حق الله ، ولذلك غيرت الصيغة من «فاعل» إلى «فعيل» . انظر: (النحو الوافى ٣/ ٢٤٢) .

(٢) القرآن حكيم ؛ لأنه صادر من أحكم الحاكمين .

فإن قلت : «محكم» تكون قد نسبته لله ، وإن قلت : «حاكم» فهو الفاعل وهو يحكم فى قمة العقيدة «لا إله إلا الله » ، وهى شهادة ذات لذات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ...(١٨) ﴾[آل عمران]

وساعة يفصل القرآن فى هذه القضية ، فهو يحكم فيها حكماً عدلاً يبين وجه الحق فى قمة العقائد . وهو حاكم فى الأفعال ؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حداً فاصلاً فى الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم فى الأخلاق .

إذن : «حاكم» تعنى ما يبين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة .

و« حكيم » : إما أن تكون بمعنى «فاعل» وإما أن تكون بمعنى (مفعول) ووقعت الحكمة من قائله عليه ، فصار «محكماً» ، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنى فاعل تكون بمعنى «حاكم» وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين : فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأتى الحاكم ؛ ليفصل بين الأمرين ، وليعدل وينصف .

وقد جاء القرآن هكذا : حاكماً فى أمر القمة التى اختلف الخلق فيها ؛ فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومنهم من قال : إن الإله هو غير الله ، ومنهم من قال : الإله شريك لغيره ، فجاء القرآن ؛ ليفصل فى هذه المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبيّن : يا من تقولون : لا إله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله له شركاء مع الله ؛أنتم كذابون ، بل هو إله

واحد ، وهذا أول حكم فى قضية القمة .

وما دام الحكم فى قضية القمة قد صح ؛ إذن : فالاستقبال للمنهج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذاك ، أو يناقضه ، بل هو إله واحد ، يصدر عنه حكم واحد يحقق الوحدة فى التكاليف للناس جميعاً ، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً فى الأفعال ، فقد يختلف الناس فى تقييمهم لفعل واحد . فهذا يقول : فعل حسن ، وآخر يقول : فعل قبيح ، ويحسم القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن ؛ فيأمر به ؛ ويحدد الفعل القبيح ؛ فينهى عنه ، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام[1] .

إذن : فالقرآن حكم فى العقائد وفى الأفعال وفى ذوات الأشياء حلاً وحُرْمة ، وهو يحكم أيضاً فى قضية هامة تلى قضية الحكم فى قمة العقيدة ، وهى صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذى يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقاً ، وقد جاء القرآن بالحكم فى هذه القضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول ؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول . فإن عجزتم ؛ فالرسول بنفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالقه وخالقكم .

وسواء أكانت «حكيم» بمعنى «فاعل» أم بمعنى «مفعول» فقد دلتنا على أنها تعنى وضع الأشياء فى نصابها وضعاً يحقق النفع منها دائماً ، ولا ينتج عنها ضارة أبداً .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. (٢١٣) ﴾ [البقرة] فالحكيم هنا بمعنى حاكم ، أى : أنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

ما هو العجيب [1] - إذن - فى أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته؟ ما الذى تعجبتم منه؟ وما موضع العجب فيه ؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحيثية فى آخر السورة السابقة من أنه :

﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى : من البشر، ومن العرب ، ومن قبائلكم ، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل خُلُقه ، فما العجيب فى أن يرسله الله رسولاً إليكم ؟ إنكم قد ائتمنتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحى من الله ، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم، وأنكم فى كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام.

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم فى بناء الكعبة ، وقالت كل قبيلة : نحن أولى بأن نضع بأيدينا أقدس شىء فى الكعبة ، وهو الحجر ، حين ذلك اختلفت القبائل ؛ فما كان إلا أن حكَّموا أول داخل ؛ فشاء الله أن يكون

---

(١) الشىء العجيب : غير المألوف للناس ، والآدمى إنما يتعجب من الشىء إذا عظم موقعه عنده ، وخفى عليه سببه . وقد تعجب المشركون من قضايا لم تستطع عقولهم استيعابها ، فاحتاج الأمر من القرآن أن ينفى العجب عن هذه القضايا ، وأن يدلل على عكس ما فى أذهان هؤلاء المشركين، أما القضايا فمنها :
١- قضية توحيد الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص]
٢- قضية إرسال رجل منهم أى : من البشر ، فقالوا : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ... ﴿٤﴾ ﴾ [ص]
٣- قضية البعث ، فقالوا : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد].

أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة [١] ، ولم يكن قد نزل عليه وحي بعد ؟ إنها الفطرة التي جعلته أهلاً لاستقبال وحي الله فيما بعد ، فماذا صنع ؛ لينهي هذا الخلاف ؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه . وتلك هي الفطرة السليمة. ورأينا أيضاً سيدنا أبا بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التي كان يقوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ، قال : «إن كان قد قالها فقد صدق» .

من أي أحداث جاء حكم أبي بكر ؟ أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً ؟ أسمع منه قرآناً ؟ لا ، بل صدّقه بمجرد أن أعلن أنه رسول. فقد جربه في كل شيء ووجده صادقاً ، وجربه في كل شيء ووجد أنه أمين ، فما كان محمد لِيصْدُقَ فيما بين البشر ، ليكذب على الله .

وكذلك خديجة بنت خويلد حينما قال لها رسول الله ﷺ : يأتيني كذا وأخاف أن يكون كذا ، فبينت له أن المقدمات التي في حياته لا توحي بأن الله يخذله ويفضحه ويسلط عليه الجن : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل

---

(١) كان محمد ﷺ يبلغ من العمر حينذاك ٣٥ سنة ، أي : قبل بعثته بـ ٥ سنوات ، وكانت القبائل من قريش قد اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه ، وأعدوا للقتال ، وتعاقد بنو عبد الدار وبنو عدي على الموت ، ووضعوا أيديهم في جفنة مملوءة دماً . وبقي الأمر على هذا أربع ليال أو خمساً . ويروي ابن إسحاق في السيرة (١/ ١٩٧) ارتضاء قريش حكومة محمد في هذا الأمر أن « أبا أمية بن المغيرة قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا . فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هلم إليَّ ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن (أي: الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه » .

الـكَلَّ وتنصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً»[1] وبذلك كانت السيدة خديجة أول فقيه مستنبط[2] في الإسلام.

وقوله سبحانه : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يعني: التعجب من أن يصدر منهم العجب ، والقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ فمن المنطقي ألا يكونوا قد تعجبوا ؛ لأنك حين تتعجب من شيء فإما أن تتعجب منه ؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، مثلما ترى صنعة جميلة وتقول : ما أحسن هذه الصنعة ، وتتساءل : ما الذي جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور ؟

وأنت تقول ذلك ؛ لأن الصنعة قد بلغت من الجمال مبلغاً لا تصدق به أن أحداً من الموجودين في إمكانه أن يصنعها . والمثال على ذلك : نجد من يقول : ما أحسن السماء ؛ وهو يتعجب من الشيء الذي يفوق تصوره . وقد يتعجب من شيء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن :

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ... (٢٨)﴾ [البقرة]

---

(١) حديث بدء الوحي عن عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري في صحيحه (٣ ، ٦ ومواضع أخرى) ومسلم في صحيحه (١٦٠) .
- كانت السيدة خديجة بهذه المقولة قد لخصت رسالة الرسول في كلمات : تعيش مشاكل الناس ناصراً للمظلوم مساعداً للمحروم فتحمل الكل .
وصلة الرحم ارتقاء بالأرحام والأقرباء وهو دفء الإنسانية ، يعيش فيه المجتمع بوجدان الجماعة وحنان الإخاء وإنصاف المظلوم هو اعتدال الموازين العدل ، والقول هو الإسلام ، وبهذا صدق قول الشيخ فإنها أول قضية تستنبط رسالة الإسلام من حالة الرسول قبل تمام الوحي .

(٢) الاستنباط في الفقه : هو استخراج الفقيه للأحكام الشرعية من بطون الأدلة باجتهاده وفهمه . ومنه قوله تعالى : ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... (٨٣)﴾ [النساء] . والاستنباط في اللغة : استخراج الماء من قعر البئر إذا حفرت .

أي: قولوا لنا: كيف قبلتم لأنفسكم الكفر ؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتنافى مع الفطرة.

وهنا يقول الحق:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ... ② ﴾ [يونس]

وهنا نتساءل: كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم، ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑫⑧ ﴾ [التوبة]

أليس هذا هو المطلوب في الرائد، فكيف تعجبون ؟[1].

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب، ونحن نتعجب من عجبكم هذا.

وحين تتعجب من العجب؛ فأنت تبطل التعجب.

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ... ② ﴾ [يونس]

أي: أن إيحاءنا لرجل منكم كان عجيباً عندكم، وما كان يصح أن يكون أمراً عجيباً؛ لأنه أمر منطقي وطبيعي.

ثم ما هو الوحي؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحي هو الإعلام بخفاء. وهناك إعلام واضح مثل قولك لابنك: يا بني اسمع كذا، وافعل كذا. هذا إعلام واضح. وهناك إعلام بخفاء، كأن يدخل عندك ضيف؛ ثم يسهو خادمك - مثلاً - عن تحيته، فتشير للخادم إشارة؛ تعني بها أن

---

(١) روى ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومما قاله المشركون: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ١٥٢) وتفسير القرطبي (٤/ ٣٢٣٢) وابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٦).

يُسرع بتقديم التحية للضيف ؛ من مرطبات ، أو حلوى ، وهكذا تكون قد أعلمت خادمك بخفاء.

والحق سبحانه وتعالى يوحى إلى الجماد ، فسبحانه يقول : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾ [الزلزلة]

أى: أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً خفيّاً ؛ وهى قد فهمت بطريقة لا نعرفها.

وسبحانه يوحى للحيوانات، فهو القائل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [1] ... ۝﴾ [النحل]

وأنت لا يمكنك أن تقول: أنا سمعت الله وهو يوحى للنحل ؛ لأن الوحى إعلام بخفاء ، وهو سبحانه أعلم بالطريقة التى تم بها هذا الوحى ، والنحل قد فهم عنه سبحانه ، ولا شأن لك بذلك ، فلا تسأل عن كيفية هذا الوحى. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝﴾ [النحل]

أى: أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من الغرائز.

وسبحانه يوحى للملائكة وهو القائل :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ ... ۝﴾ [الأنفال]

ويوحى الحق سبحانه إلى غير الرسل ؛ كما أوحى إلى أم موسى

(١) قال الزجّاج : جائز أن يكون سمى نحلاً ؛ لأن الله عز وجل نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... ⑦ ﴾ [القصص]

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً.

إذن: فسبحانه يوحي للجماد، ويوحي للحيوان، ويوحي للملائكة ويوحي للصالحين من غير الأنبياء، ويوحي للأنبياء وللرسل.

والوحي - كإعلام بخفاء - يقتضي مُعْلِماً، وهو الحق سبحانه وتعالى، ومُعْلَماً؛ وهو إما: الأرض، وإما النحلَ، وإما الملائكة، وإما إلى بعض الصالحين من غير الأنبياء، وإما إلى الرسل والأنبياء.

وقد يأتي الوحي من غير الله، فسبحانه يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ (1) الْقَوْلِ غُرُورًا (2) ... ⑪⑫ ﴾ [الأنعام]

إذن: فالشياطين يُعلمون بعضهم البعض إعلاماً خفياً.

ويقول الحق: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... ⑯③ ﴾ [النساء]

والموحى إليه هو محمد رسول الله ﷺ، وهو وحي خاص بالرسول، فلا تقل: أنا لم أسمع ماذا أوحي إلى محمد، ولا أعرف كيف نزل

(1) زخرف: الزخرف: الزينة، والمراد هنا: التمويه والتزوير، وزخرف القول غروراً: أي: حسن القول بتزيين الكذب.

(2) الغُرور: ما غرك من إنسان وشيطان وغيرهما، والغَرور: الشيطان ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ③③ ﴾ [لقمان]. والغرور: الأباطيل، ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارّ، مثل شاهد وشهود. والغرور: الدنيا ومتاعها، والغرور: الإغراء بالوعد الكاذب والتمنية. ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ ﴾ [الانفطار] و ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... ③③ ﴾ [لقمان]. والغرور: الخداع وتزيين الشر والمعاصي. وغرر بنفسه وماله تغريراً وتغرة: عرضهما للهلكة من غير أن يعرف. والغَرر: الخطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغَرر، وهو مثل بيع السمك في الماء والطير في الهواء. والتغرير: حمل النفس على الغَرر.

الوحى [١] ، فقد جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، وبلغه أن يعلن ما أوحى إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الوحى من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن ؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضربنا المثل من قبل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال قوى إلى مصدر ضعيف فهو لا يُسرب الطاقة من القوىّ إلى الضعيف دفعةً واحدة ، وإلا لما تحمَّل الضعيف تلك الطاقة القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتى بمحوِّل يتحمل طاقة القوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثال ذلك هو شراؤنا لمحول كهربى حين ننقل الكهرباء من مصدر طاقة عالى الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد ؛ مثل المصباح الصغير الذى تضيئه فى المنزل ليلاً لينير بالقدر المناسب كيلا نرتطم بالأشياء ، وهو ما نسميه بالعامية «ونّاسة». إذن : فمهمة المحول أن يستقبل من مصدر الطاقة القوى ؛ ليضىء لمصدر الطاقة الضعيف.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى يوحى للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقى المباشر عن الله ؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ فى الارتقاء بما يسمح لها بالتلقى عن الله ، وتستطيع أن تلتقى بالبشر؛ وهذه خاصية المَلَك.

ورغم هذا أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول الله ﷺ فى أول تلقيه للوحى ، وكان ﷺ يعرق حتى يتفصد [٢] العرق من جبينه ، وإذا انصرف

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣).

(٢) تفصد العرق : أى : سال العرق من جبينه . وقد قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة واللفظ للبخارى.

عنه الوحي قال: « زمّلوني.. زملوني»[١] ويرتعد.

وكان الصحابة يقولون: كان إذا نزل الوحي على رسول الله ، وهو قاعد؛ وقد تكون ركبته على فخذ أحد الصحابة، فيجد الصحابي ثقلاً على رجله من شدة وطأة ركبة الرسول ﷺ، وإذا نزل الوحي، والرسول يركب مطية فهي تئط منه[٢].

إذن: كان الوحي يُتعب رسول الله ﷺ، وبعد أن يُسرَّى عنه التعب[٣]؛ تبقى له حلاوة ما أوحي إليه؛ فيتشوّق ثانية للوحي.

وقد شاء الحق أن يشوّق النبي ﷺ، للوحي ففتر[٤] الوحي لمدة من الزمن. وحين اشتاق النبي للوحي؛ كان ذلك يعني أنه قد شحن نفسه بطاقة متقبلة لاستقبال هذا الوحي؛ بما فيه من تعب.

ولله المثل الأعلى دائماً، قسْ أنت الجهد المبذول في رحلة إلى من تحب، أثناء المطر، والأرض موحلة[٥] ومليئة بالشوك، ورغم ذلك أنت تقطع الرحلة دون أن تلتفت لما فيها من إرهاق وتعب.

وشاء سبحانه أن يُرغِّب رسوله شوقاً إلى الوحي، رغم ما فيه من جهد؛ لأنه التقاء مَلَك ببشر، وهذا اللقاء يكون على صورتين: إما أن

---

(١) المراد بالتزميل هنا: طلب الحماية وإذهاب الخوف والروع والرعدة التي ألمت بجسمه مما رآه؛ عن طريق لف جسمه بالثياب وتغطيته. وزمل الشيء: أخفاه، وزمله في ثوبه: أي: لفه. والتزمل: التلفف بالثوب، وقد تزمل بثيابه أي: تدثر. وفي حديث قتلى أحد: « زملوهم في ثيابهم » أي: لفوهم فيها. أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٣١) من حديث عبد الله بن ثعلبة.

(٢) تئط الناقة: تئن من ثقل الركبان. عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة. أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤٥٥).

(٣) يسرى عنه التعب: أي: يذهب عنه.

(٤) فتر الوحي: انقطع. والفترة: ما بين كل نبيين، وفي الصحاح: ما بين كل رسولين من رسل الله - عز وجل - من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة. ومنه قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة].

(٥) أرض موحلة: أي: أصابها الوَحل، وهو الطين الرقيق الذي ينتج من أثر مطر أو ماء يصيب الأرض.

ينقلب المَلَك إلى مرتبة بشرية ؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله ﷺ ؛ لأن عملية التحويل جاءت في الأعلى بينما يظل رسول الله ﷺ كما هو ، مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبي ﷺ : ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ وما الإحسان ؟ ثم اختفى السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل ؛ فقال : «هذا جبريل جاءكم يُعلِّمكم أمور دينكم»[1].

هذه هي الصورة الأولى في الوحي ، والتحول فيها كان من جهة الإرسال فلا مشقة فيها على النبي ﷺ .

أما الصورة الثانية ، فقد كان فيها مشقة على رسول الله ﷺ ؛ لأن الملك يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد ﷺ ، وكان التحول يقتضي عملية كيماوية تصيبه بالجهد ؛ فيقول بعد أن يُسرى عنه : «زمّلوني».

وشاء الحق أن يتلطف برسوله ، ففتر الوحي فترة من الزمن. وقال الكافرون من العرب: إن رب محمد قد قلاه[2] وهذا غباء منهم ؛ لأنهم

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . . » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ومسلم في صحيحه (٨) . والشاهد من الحديث أن جبريل أتى رسول الله ﷺ في صورة بشرية ، فلم تكن شاقة عليه ﷺ .

(٢) عن جندب البجلي قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : قد وُدِّع محمد . فأنزل الله عز وجل : ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى] أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩٧) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) وقال : حديث حسن صحيح . وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٢) من الطريق الذي أخرج مسلم من الترمذي حديثه إلى جندب ، بلفظ : « فقال المشركون : ودع محمداً ربه » .

اعترفوا أن لمحمد ربّا . وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف[١] وغباء ، وأرادوا بذلك أن ينسبوا النقص لمحمد ﷺ ، فقالوا: إن الله قد قلى[٢] محمداً.

وقد شاء الحق أن ينقطع الوحى عن محمد ﷺ هذه المدة ؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتنكشف نواياهم ، وتثبت قلّة بصيرتهم ، وافتقادهم للمنطق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لمحمد ربًا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم ؛ ليعرفوا أنهم قد أقروا بالألوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن ينسبوا النقص لرسول الله ﷺ .

ولو قاضيناهم إلى عقولهم ، وإلى الكون الذى عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان ؛ لأن كل حديث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث ؛ لا يوجد زمان أو مكان.

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله ؟ أقول له: أنت جئت بالأينية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث. وما دام الله غير حدث ، فلا زمان يحدده ، ولا مكان يُحيّزه؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان به. والأحداث هى عند البشر ، فهم من يستقرون فى المكان ، ويتوالى عليهم الزمان.

والزمان الذى يحدث فيه أى حدث اسمه «ظرف زمان»[٣] ، والمكان

---

(١) الصَّلف : مجاوزة الحد فى الادّعاء والتكبّر.

(٢) قليته : كرهته غاية الكراهة ؛ فتركته. والقلَى : البُغْض.

(٣) الظرف : هو الزمن أو المكان الذى وقعَ فيه الحدث ، ويسميه النحاة «المفعول فيه» أى : أن الحدث أو الفعل قد وقع (أو يقع - أو سيقع) فى زمن ما ، ومكان ما.

الذى يحدث فيه الحدث اسمه «ظرف مكان»؛ وظرف المكان ظرف قارّ [١] ثابت ، بينما ظرف الزمان غير قارٍّ ، بل هو حال ، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً ؛ ويأتى المستقبل ليكون حاضراً ، ثم يصبح ماضياً.

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التناوب بين المستقبل والحال والماضى، والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف ، فالليل يأتى والنهار خلفه [٢] ؛ لأن النهار جعله الله ضياء ؛ للحركة والكدح والعمل ، وجعل سبحانه الليل ظلاماً ؛للسكون والراحة، فإن لم ترحْ بالليل؛ لا تقوى على العمل فى الصباح ، وهكذا يكون الليل مكملاً للنهار لا مناقضاً له [٣] .

وكذلك شاء الحق أن يكون الوحى بهذا الشكل ، فحين جاء الوحى لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ ، ثم فتر الوحى ليستريح ﷺ ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الوحى من بعد ذلك.

وحين قال الكافرون: إن ربَّ محمد قد قلاه ، ردّ عليهم الحق سبحانه

---

(١) قار : مستقر ثابت. ومنه أيضاً القرار بمعنى الاستقرار، كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] .

(٢) قال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٠١) : «أى : هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة» ويقول سبحانه أيضاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] أى: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل. وقال مجاهد وقتادة: خلفة، أى: مختلفين، أى: هذا بسواده، وهذا بضيائه.

(٣) يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء] وهاتان آيتان على توحيد الله وأن لهذا الكون إلهاً واحداً، ولذلك يقول رب العزة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص] .

وتعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ [1] ⟨١⟩ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ [2] ⟨٢⟩ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ⟨٣⟩ ﴾ والضحى ضحوة النهار وهى - كما قلنا - للعمل والحركة ، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار ، لكنه غير ذلك ، بل هو مكمل له ويساعده.

إذن: ففتور الوحى لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله ﷺ لتجديد الحيوية. وقد أقسم الحق سبحانه بالضحى والليل ، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتى يعترف بها كل إنسان ، مؤمنهم ، وكافرهم!

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله [3] ، بل شاء بفتور الوحى أن يعطيه طاقة تزيد من حركته ، وتزيد من جهده ليشتاق ﷺ لأمر الوحى. وبذلك أعانه الحق على مهمته ، وفى هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا: إن رب محمد قد قلاه ، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحى أن تكون كالليل سكوناً ، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المجهد الذى استقبل به الوحى.

---

(١) أقسم الله بالضحى والليل إذا سجى ؛ لأن عظمة الأمل تتجلى فيهما ، وذلك لاستقبال العطاءات الإلهية قائلاً : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ⟨٣⟩ ﴾ [الضحى] وهذه حماية ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ⟨٤⟩ ﴾ [الضحى] تمام العناية ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⟨٥⟩ ﴾ [الضحى] قمة الرعاية ثم أقام له الدليل على العطاء قائلاً : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⟨٦⟩ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⟨٧⟩ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⟨٨⟩ ﴾ [الضحى] ما دمت أعطيت هذه العطاءات الثلاث فأطلب منك ثلاثاً : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⟨٩⟩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⟨١٠⟩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⟨١١⟩ ﴾ [الضحى] وبهذا يكون انشراح الصدر.

(٢) سجى : سكن وأظلم وامتد. والليل إذا سجى : إذا سكن بالناس أو إذا لَبسَ الناس. وسُجُوُّ الليل : تغطيته للنهار. وسجا يسجو سجواً، وسجَّى يسجِّى وأسْجَى يُسْجِى : غَطَّى شيئاً ما. والتسجية : التغطية.

(٣) تأمل هذا المعنى الذى أشار إليه فضيلة الشيخ فى القسم بالضحى محل الحركة والكد والتعب ثم بالليل محل السكون لتجديد الطاقة ، ومطابقة هذا لنزول الوحى وجَهْد النبى فى استقباله ثم انقطاعه لتجديد طاقة الرسول ﷺ . وقد أضاف ابن القيم ملمحاً مكملاً لهذا المعنى فى كتابه : «التبيان فى أقسام القرآن» فقال : «تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودّع محمداً ربه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه». نقله السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (٤/ ٥١).

وبعد أن تتجدد حيويته ﷺ يأتى الوحى من جديد ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ ﴾
[الضحى]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه فى سورة الشرح : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [1] ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ ﴾ .

وهكذا بيَّن لنا الحق أن مسألة فتور الوحى وعودته هى عملية متكاملة ، لكن الأغبياء فقط هم من يظنون أنها متناقضة ويقولون : (ظلمة - وضوء) ، و(ليلٌ ، ونهارٌ) والحق أنها متكاملة.

ومثل هذا الأمر تجده أيضاً فيمن يحاولون خَلْق عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يتفهَّموا أن الذكر متمِّم للأنثى ، وأن الأنثى متمِّمة للذكر.

وهنا يقول الحق : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ② ﴾ [يونس]

والإنذار - كما نعلم - هو الإخبار بشىء يمكن أن تتلافاه . أما البشارة [2] فهى الإخبار بخير يحثُّك من يبشرك على أن تقتنيه. وأنت تنذر من يهمل فى دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفى المقابل فأنت تبشر المجتهد بالنجاح وبالمستقبل الطيب.

إذن : فالإنذار يعنى أن تحث الإنسان على ألا يقبل أو يُقْدِمَ على

(١) الوزر : الحمل الثقيل. أنقض ظهرك : أثقلك حمله.
(٢) البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، أما البشارة المقيدة فتكون بالشر كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ㉑ ﴾ [آل عمران] ويكون على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية.

ما يضره . والتبشير يعنى أن تحث الإنسان على أن يجتهد ؛ لينال ما يحبه . والأمور فى الأحداث كلها تدور بين سَلْب وإيجاب .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة ؟

فنقول : إن كلمة «الإنذار» كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط . أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين فى صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لوناً من ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال .

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذى يأتى بالضُرّ أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ؛ لأن دَرْء [1] المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة [2] .

ونجد الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والناس : هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة . وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة «الناس» ، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك فى القرآن ، وقالوا : إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له .

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هى سورة «الناس» حيث يقول الحق : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ

---

(١) الدَّرْء : الدفع . يقول تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٢ ﴾ [الرعد] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥١٠) : أى : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً» .

(٢) المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقاصد الشارع الأساسية ، والتى دل الاستقراء على أنها خمس ضروريات لا بد منها ، وهى : حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال . فكل تشريع أو حكم يحفظ أحد هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يضر بها فهو مفسدة .

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [١] ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ [٢] وَالنَّاسِ ⑥ ﴾ [الناس]

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة «الناس» فى كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد. ولأنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة ؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة «الناس» فى كل موقع هو معنى مختلف وضرورى ؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة فى القرآن أن تكون جاذبة لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له.

والمثال أيضا فى كلمة «الناس» ؛ هو قول الحق سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ⑤٤ ﴾ [النساء]

فهل كل الناس تتلقى الحسد ؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد؟ إذن: فقوله الحق: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ... ⑤٤ ﴾ [النساء]

إنما يعنى أن هناك أناساً حاسدين [٣] ، وآخرين محسودين. ولا تكون كلمة «الناس» عامة شاملة لكل الأفراد إلا فى حالة الحكم العام.

---

(١) خنس يخنس خنوساً وخناساً : انقبض وتأخَّر. والوسواس الخناس المتحيِّن للفرص فساعة ضعف النفس ينقض ، وساعة عزيمة النفس ينفض ، وهو الذى يوسوس فى صدور الناس من الإنس والجن ، وهو إبليس يوسوس فى صدور الناس ، فإذا ذكر الله خنس ، وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان واضع خَطْمه (مقدَّم أنفه وفمه) على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسى التقم قلبه . فذلك الوسواس الخناس» . أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٧/ ٢٧٨) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٦٨) . ضعف إسناده ابن حجر فى الفتح (٨/ ٧٤٢) وقال : «فيه عدى بن أبى عمارة ، وهو ضعيف» وقيل إن له رأسا كرأس الحية ، يجثم على القلب ، فإذا ذكر العبد الله تعالى تنحى الشيطان وخنس ، أى : ابتعد كمن صدم أو أصابه شىء أبعده . والوسوسة : هى الإيحاء بالشر .

(٢) الجِنَّة : هم الجن ، سموا بهذا لاستتارهم عن أعين الناس ، ومنه : جنَّ عليه الليل ، أى : ستره ، ومنه الجَنين ؛ سمى بهذا لاستتاره فى بطن أمه .

(٣) حسد من باب نصر وضرب - حَسَداً : كره نعمة الله على غيره وتمنى زوالها ، وقد يسعى ليزيلها . قال تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾ [الفلق] . أى : إذا حاول أن يزيل نعمة الله بمختلف الوسائل ونظرات الحاسد منبعها الحقد « القاموس القويم للقرآن الكريم » ص ١٥٣ .

والمثال هو قوله الحق : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ .. (٩٦) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول الحق يحل لنا إشكالاً عاماً ، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس ، من لَدُن [1] آدم ، وآدم هو أبو الناس.

ولا بد - إذن - أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم ، وأن الذى وضعه هو من غير الناس ، فالذى وضعه هو بأمر من الحق سبحانه ، فلا يقولن أحد: إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذى وضع البيت الحرام ؛ لأن مهمة إبراهيم - عليه السلام - كانت هى رفع القواعد من البيت ؛ لأننا لو قلنا: إن ابراهيم - عليه السلام - هو الذى بنى البيت؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ [2] مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ... (١٢٧) ﴾ [البقرة]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده فى الرفع والبناء ، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب فى العمل.

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً [3] ؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وهذا يعنى أن البيت كان موجوداً قبل ذلك.

---

(١) لَدُن : ظرف زمان ، والمراد : من زمن آدم عليه السلام .

(٢) القواعد : جمع قاعدة وهى السارية وأساس البناء.

(٣) كان عُمْر إسماعيل عليه السلام وقت رفع القواعد مع أبيه إبراهيم ١٣ سنة ، أما كونه كان رضيعاً فهو من الإسرائيليات المتلقاة عن أهل الكتاب.

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا: إن إبراهيم - عليه السلام - هو أول من بنى الكعبة فنقول لهم: وماذا عن الخلق البشرى من قبل إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ؛ أليسوا ناساً ؛ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرّمٌ ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون البيت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله .

وكلمة الناس - إذن - عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة فى مواقع أخرى ، مثل قوله :

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

وأما سورة «الناس» التى قال بعض المستشرقين : إن فيها تكراراً . فالأمر ليس كذلك ، بل هيأ لهم ذلك عجزهم عن امتلاك ملكة فهم اللغة.

وحين نتناول كلمة «الناس» بالاستقراء [1] الدقيق فى هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذى أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق.

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرد منه؛ فهو سبحانه يقول:

﴿مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾﴾ [الناس]

أى: أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار فى أشياء؛ ومنع عنهم

(١) الاستقراء: القراءة مع التفكير الدقيق فى النص؛ للوصول إلى المعنى المرأد منه. وفى الاصطلاح: تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية. (المعجم الوسيط).

الاختيار فى أشياء ، ولم يقل سبحانه : «مليك النَّاس» ؛ لأن هذا القول يعنى أنهم مجبورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين فى الأمور التى هى مَنَاط للتكليف [1] ، وغير مختارين فى أمور هى ليست محلاً لهذا [2] .

وأقول لأى واحد ممن تمرّدوا على الإيمان؛ فكفروا بالله ؛ أقول: أنت متمرّد على الله ، وتكفر به ، وتنكر الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقيّاً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التى تصيبك ، فإن أصابك مرض ؛ قل له: لا ، لن أمرض.

فلا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه قدراً شاءه الله ؛ لأن الأحداث [3] ستنال من كل إنسان ما قدره الله له.

إذن: فكل إنسان هو مملوك لله. وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①﴾ [الناس]

وأن يقول : ﴿مَلِكِ النَّاسِ ②﴾ [الناس]

و«الناس» فى الآية الأولى هم المربوبون ، والناس فى الآية الثانية هم «المملوكون لله» فلا أحد يخرج عن قدرة الله فى الأمور القهرية.

وتأتى «الناس» فى الآية الثالثة : ﴿ إِلَـٰهِ النَّاسِ ③﴾ [الناس]

---

(١) مناط للتكليف : أى محل وموضع للتكليف. مثل الإيمان أو عدمه ثم مقتضيات هذا الإيمان ولوازمه وشروطه. وهى أشياء جعل الله الإنسان مختاراً فيها، فله أن يؤمن أو يكفر. فإذا آمن فعليه أن يلتزم بمتطلبات هذا الإيمان، وهو وإن كان ملزماً بهذا إلا أن له الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل، وبموجب هذا يكون الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة.

(٢) أما الأمور التى يكون الإنسان فيها مجبراً غير مختار فهى التى تتعلق بوجوده فى هذه الحياة من زمن ميلاده ومكانه والظروف المحيطة به ورزقه وهيئته وخروجه من هذه الدنيا.

(٣) الأحداث : حوادث الدهر وحدثانه أى: نُوَبُه وما يحدث منه، واحدها حَدَثٌ؛ والحدث من أحداث الدهر : شبه النازلة والرزء والمصيبة.

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذى يقيك مما ستأتى به الآية الرابعة : ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس]

والآية الخامسة : ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس]

والوسواس الخناس: هو الذى يزين لك أفعال الشر فى أذنك، وهو خنّاس ؛ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم [1]» وهو يوسوس فى صدور الناس الموَسْوَسِ إليهم.

وهكذا نجد أن كلمة «الناس» قد جاءت؛ لتعبر عن المربوبين ، والمملوكين ، والمألوهين ، والموسوس [2] إليهم ، وأن من يوسوِس قد يكون من الجن ، وقد يكون من الناس.

إذن: فليس هناك تكرار بل جاءت الكلمة الواحدة بمعنى يناسب كل موضع جاءت فيه.

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - قد أكون معلّماً متميزاً واختارتنى الكلية التى أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم الصحفية ، ومشرفاً عليهم فى الرحلات ، ومراجعاً لتصحيح أوراق إجاباتهم ، وهكذا تكون كلمة «الطلاب» لها معنى مختلف فى كل موقع.

---

(١) الشيطان: فَيعال من شَطَنَ إذا بَعُد، وهو كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب . والشاطن: الخبيث.
والرجم: الرمى بالحجارة. رجمه يرجمه رجماً، فهو مرجوم ورجيم، والرجم: اللعن ؛ ومنه «الشيطان الرجيم»، أى: المرجوم بالكواكب، صُرِفَ إلى فعيلٍ من مفعول. والرجيم: الملعون، المرجوم باللعنة، المُبْعَد، المطرود. والرَّجم: ما رُجِمَ به، والجمع رُجوم . والرُّجْم والرُّجوم: النجوم التى تُرمى بها الشياطين : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ .. ﴿٥﴾﴾ [الملك] .

(٢) الوسوسة والوسواس فى اللغة: الصوت الخفى الذى يشبه الهمس. وهو أيضاً صوت الحَلْى (وهو حُلى المرأة).

والحق يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ [1] عِندَ رَبِّهِمْ ... (٢)﴾ [يونس]

والحديث موجه لمحمد ﷺ وهو الرسول الخاتم.

إذن: فالمراد بإنذار الناس هنا؛ هم جميع الناس.

وما المقصود بقوله : ﴿ بأَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ...(٢) ﴾ [يونس]

إن القدم [2] كما نعرفه : هو آلة السعى إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء؛ فتقول: فلان له يد عندى ، أو تقول: أنا لا أنسى أياديك علىّ حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه يناولك لها بيديه.

إذن: فكل جارحة [3] لها ظاهر فى الحركة ؛ وفى الأعمال. فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك فى العطاء ، والأذن فى السمع ، والعين فى الرؤية. وهكذا يكون معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾هو سابقة فضل ؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدَّوْا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله ؛ فعليك

(١) قدم صدق: كل ما قدمت من خير. قال ابن قتيبة: أى: أن لهم عملاً صالحاً قدموه. وقدم الصدق: المنزلة الرفيعة والسابقة. ويقول ذو الرمة:

وأَنْتَ امْرُؤ منْ أهْلِ بَيْتِ ذُؤابة لَهُمْ قَدَمٌ مَعْروفةٌ ومَفَاخرُ

(٢) القدم : ما يطأ الأرض من الرِّجل وجمعه أقدام قال تعالى : ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ .. (١١) ﴾ [الأنفال] وهنا بث روح الشجاعة فى نفوس المؤمنين . وقد يأتى اللفظ عن طريق الكناية فى قوله تعالى : ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ .. (٤١)﴾ [الرحمن] كناية عن شدة العذاب ، والقدم يستعمل مجازاً مرسلاً للمآثر والمكارم التى يقدمها أهل الخير كقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٢)﴾ [يونس] .

(٣) جارحة جمعها: جوارح، والمراد بها: أعضاء الجسم. وهي مأخوذة من الجرح بمعنى الكسب . جَرَح الشيء واجترحه: كسبه . كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .. (٦٠)﴾ [الأنعام] ويقول سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... (٢١)﴾ [الجاثية]. جرحتم: كسبتم. واجترحتم: اكتسبتم.

يا محمد أن تبشرهم بالجنة. ، ذلك أن لهم سابق قدم ، سعى إلى الخير ، وهو قدم صدق.

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه «قدم كذب» ؟

نعم ، وهو ما يخلعه الأفاقون على تواريخ الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب.

قدم الصدق - إذن - هو سابقة في الفضل أهّلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق. والصدق - كما نعلم - هو الخصلة التي لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها ؛ لأنه لو تنّحى عنها ، فهذا يعني التنحّي عن الإيمان. وحينما سئل رسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟

فقال : لا [1].

إذن: فالصدق هو جماع الخير. وعلى الصدق تدور الحركة النافعة في الكون.

وحين يصدق التاجر في ثمن الأشياء ؛ ويصدق العامل في إخلاصه للعمل ؛ ويصدق الصحفي في نقل الخبر ، ويصدق كل فرد في المجتمع ، هنا يتكامل المجتمع وينسجم ؛ لأن الفساد في الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذي يخل بحركة الحياة.

لذلك أتى الله بكلمة الصدق في القرآن في أكثر من موضع ، فهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا [2] بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ...(٩٣) ﴾ [يونس]

---

(١) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً.
(٢) بوّأ: أنزلَ وأسكن. والمُبَوَّأ: المكان الذي أنزلهم الله تعالى فيه.

فحين قالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ... (٦١) ﴾ [البقرة]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ،[1] فلم يخدعهم سبحانه ، ويأتي الحق مرة ثانية بكلمة الصدق فيقول :

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ[2] صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء]

أي : اجعل لي ذكراً حسناً فيمن يأتون من بعدي ، فلا يقال في تاريخي كلام كذب ، وألا يخلع عليَّ الناس ما ليس فيَّ.

وقد قال الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ[3] ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[4] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف]

---

(١) هؤلاء هم بنو إسرائيل بعد ما خرجوا من مصر وأنقذهم الله من فرعون وجنوده، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً لهم، فقالوا: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ [البقرة].

(٢) اللسان معروف وهو في تجويف الفم يحرك الطعام ويكيف الصوت وينوعه . قال تعالى : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) ﴾ [القيامة] .
واللسان : أحد حواس الذوق والنطق . قال تعالى : ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) ﴾ [البلد] واللسان : اللغة . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم] ولسان صدق : السمعة الطيبة والذكر الحسن .

(٣) الفصال: الفطام. والمعنى: أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذي يُفصَل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً؛ وفصلت المرأة ولدها، أي: فطمته. وفَصَل المولود عن الرضاع يفصله فصلاً وفصالاً وافتصله: فطمه.

(٤) أوزعني: أي: ألهمني ووفقني إلى أن أشكر نعمتك. .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحقاف]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد صدق ؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإنفاذه.

ولذلك قال الحق لنا : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

إذن: لا بد لك أن تسبق أى وعد بمشيئة الله ؛ لأنك حين تَعد ؛ قد لا تملك إنفاذ ما وعدت به ، فقد تعد إنساناً بأن تلقاه فى الغد فى مكان ما لتتحدثا فى أمر ما.

ونقول: أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد ؟ هذا هو أول عنصر قد يُفقد ؛ ثم أضمنت أن تستمر حياته ؟ هذا هو العنصر الثانى الذى قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذى من أجله تلقاه ؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُغير أنت رأيك فى هذه المسألة ؟

إذن: لا تجازف بأن تعد بشيء ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء له ، وأسند كل عمل إلى من يملك كل العناصر ، وقل :

﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

إذن: فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد ممن هو قادر على أن يحققه قطعاً ، ولا تخرج [1] الأشياء مهما كانت عن قدرته ، ولم يترك الأشياء ؛

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] .

لأنه باق . ولن يتغير رأيه ؛ لأنه ليس حدثاً يتغير . بل بيده كل شيء وهو على كلِّ شيء قدير . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر]

هكذا وعد الحق عباده المتقين [1] بأنهم سوف يقعدون فى حضرته مقعد صدق وهو المليك المقتدر. وسبحانه يقول: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ... ۝٨٠﴾ [الإسراء]

أى: أدخلنى فى هذه البلدة مدخل صدق للغاية التى لا أستحى من أن أقولها ، لا أن أدخل بغرض أمام الناس وأنا أخفى غرضاً آخر ، وكذلك أخرجنى منها مخرج صدق.

إذن: فكلمة الصدق دائرة ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ و﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ و﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ و ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ وكل هذا يُحببنا فى الصدق ؛ لأن كل أمور الحياة ؛ وفضائلها ؛ وخيراتها ، وما ينتظر الناس من سعادة ؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق [2] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ... ۝٢﴾ [يونس]

أى: أن لهم سابقة فَضْل عند ربهم يجازيهم بها ؛ لأنهم عملوا بمقتضى

(١) من هؤلاء المتقين الذين وردت السنة بأنهم فى مقاعد صدق عند الله عز وجل، المقسطون، فعن عبد الله ابن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٧) والنسائى فى سننه (٨/ ٢٢١).

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . . » الحديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) .

منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف ؛ لذلك يقول فيه الحق سبحانه:

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس]

ولماذا جاء سبحانه بخبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة ؟

ونقول: إن الرسول ﷺ حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فَاتَّهمَ بعضهم رسول الله ﷺ بأنه ساحر [1].

وجاء قول الحق على هذه الصورة المبينة بالآية ؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً [2]، لأن لباقة السامع ستنتهى إليها ، فلا يريد أن يكرر القول . وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... ۝٢٢﴾ [النمل]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له: لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكأن هذا القول قد جاء ؛ ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب لمن دوننا ما يُعَلِّمُه لنا ، ألم يُعلِّمنا الغراب كيف نوارى سوأة الميت ؟

---

(١) اختلف الكافرون فيما بينهم فى الوصف الذى يريدون إطلاقه على محمد ﷺ لتشويه صورته أمام وفود الحجيج القادمة فى الموسم فأرادوا أن يجمعوا على رأى فيه، أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠): «اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقول به، وانتهى الأمر على القول بأنه ساحر رغم التناقض فيما بينهم .

(٢) الحذف هو نوع من أنواع الإيجاز، ويكون حسناً لقوة الدلالة عليه، أو يقصد به تعديد أشياء، فيكون فى تعدادها طول وسآمة، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال ، وتترك النفس تجول فى الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها.

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ ...(٣١) ﴾ [المائدة]

ويقول قابيل : ﴿ يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ[1] أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه ، وممن سخره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبراً ، لا بد أن يبلغه للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب ؛ فالهدهد يقول لسيدنا سليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ[2] بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل]

ويتخذ سليمان قراراً ينفذه الهدهد : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل]

وتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : ﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل]

فكأن الهدهد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته ؛ جمعت قومها ؛ لتخبرهم. وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التي إن رُويت تكون تكراراً ، ولكن جاءت المسألة بهذه الصورة ؛ ليدلنا الحق على أن أوامر التلقي كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، فالتحم الأمران معاً.

---

(١) السوأة في اللغة : العورة. والسوأة : الفَرْج. قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ... (٢٠) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ...(٢٢) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... (٢٦) ﴾[الأعراف]. والمراد بالسوأة هنا : جسم الميت (قابيل).

(٢) سبأ : اسم بلدة باليمن كانت تملكها بلقيس ، وهي مدينة تعرف بمأرب قريبة من صنعاء. وسبأ : اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن ، وهو « سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ».

إذن : فقوله الحق : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾ [يونس]

جاء منسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقولوا ذلك الاتهام إلا بعد أن بلغهم ﷺ أن الله قال له : بَشِّر وأنذر ، فلما بشَّر وأنذر ، جاء قولهم بأن الرسول ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوَّن موقفهم هذا من سياق الآية ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ الإنذار ، أو بلاغ البشارة.

وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التى إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطلبها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء فى لقطة أخرى فى قصة سبأ ، فبعد أن ائتمر الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فألقاه إلى ملكة سبأ ، وقرأته ، وجمعت القوم ؛ لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن [1] ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها [2] ، فنجد سيدنا سليمان عليه السلام يسأل من حوله :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل]

---

(١) قال سبحانه : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل] .

(٢) وذلك أن بلقيس قالت لقومها : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾ [النمل] ثم جاءها رد سليمان على هديتها حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] حينئذ قالت بلقيس : قد والله عرفت ما هذا بملك ومالنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبعثت إليه : إنى قادمة عليك بملوك قومى لأنظر ما أمرك ؛ وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه ، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الأبواب . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٦٣).

إذن : فهو قد علم أنهم مُقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته ؛ قبل أن يجيئوا ، وماداموا قادمين فى الطريق ، فعلى من يذهب ليفك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادى ؛ ولذلك لم يتكلم الإنس العادى ، لكن الذى تكلم جنى غير عادى ، ذكى ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك .

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ [1] مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾ [النمل]

ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات [2] . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ [3] أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ألم يكن مثل هذا القول يحتاج إلى إذن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب ويحل العرش ويعود به ؟ نعم ، الأمر يحتاج كل ذلك ، ولكن القرآن جاء بالقصة فى تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بخبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان عليه السلام :

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

---

(١) العفريت : الشديد القوى . وقد يكون من الإنس أو من الجن . وقيل : إن اسمه كوزن وإنه كان كأنه جبل من ضخامة جسمه وقوته .

(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للناس للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٣) هو آصف بن برخياء كاتب سليمان ، وكان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم . قيل : إنه قال : ياذا الجلال والإكرام . وقيل : إنه قال : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قاله مجاهد فيما نقله ابن كثير عنه فى تفسيره (٣/ ٣٦٤) .

وهكذا حذف التفاصيل التى يسهل معرفتها ، والتى وقعت بين قول مَنْ عنده علم من الكتاب ، وبين تنفيذ نقل عرش بلقيس.

وكذلك حذف القرآن قدراً من الأحداث فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فعندما بلَّغهم رسول الله الإنذار ، هنا قال الكافرون: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ [1] مُّبِينٌ (٢) ﴾ [يونس]

وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن : إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد : إنه ساحر [2]. ولنسأل : ما معنى كلمة ساحر ؟ إن الساحر هو الذى يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة ؛ وهى ليست بحقيقة.

ولذلك يجب أن نفرق بين السحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال : إن معجزة موسى عليه السلام وهى العصا كانت من جنس ما برع فيه سحرة فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست سحراً ؛ لأن الحق شاء أن يُغير من حقيقة العصا فجعلها أفعى ، أما سحر قوم فرعون [3] فهو لا يغير حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها بأنها تغيرت.

---

(١) وردت الآية بقراءتين، فقد قرأها ابن محيصن والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى «لساحر» وصفاً لرسول الله ﷺ. وقرأها الباقون (لسحر) وصفاً للقرآن. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٣). والقراءتان مؤداهما واحد.

(٢) اتهم الكفار القرآن بأنه سحر فى بضع آيات من القرآن:
- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) ﴾ [سبأ].
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) ﴾ [الزخرف].
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأحقاف].
* وفى آيات أخرى اتهموا محمداً ﷺ بأنه ساحر:
- ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) ﴾ [ص].

(٣) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون والشعبذة، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره، ولذلك قال تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه].

والسحر يقتضى ساحراً ، ويقتضى مسحوراً ، ويقتضى عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التى تقوم بعملية السحر .

ويقول الحق عن السحرة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ... ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

أى : سحروا الأعين التى ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشىء المسحور على حقيقته .

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، لكن المعجزة - معجزة موسى - ليست كذلك ؛ لأنها لا تُغير من الرائى ، بل تغير من[1] حقيقة المرئى فعلاً . وقد دلَّنا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين اختار الله موسى وقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[2] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[3] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حيّةً تسعى :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه]

فعندما رأى موسى عصاه ، قد تحوَّلتْ إلى حية تسعى على الأرض ، فرَّ هارباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبّت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذى سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

---

(١) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته ، والسحر يطلق على الشىء الجميل المؤثر مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » وقد يكون السحر بحاسة من الحواس فيقال : عينه ساحرة وكلامه ساحر ، وقد يكون بالتناسق العام فى المخلوقات التى أبدعها الله .

(٢) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] أى : أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمى . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥) .

(٣) مآرب أخرى : مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك .

إذن : فلم يكن هناك سحر فى عينى موسى ، ولكن كان هناك تغيُّر فعلىّ فى حقيقة العصا . فلما خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلتقط العصا ؛ لأنها ستعود - بإذن الله - إلى سيرتها الأولى . والدليل على أن التغير قد حدث فى حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقفوا فى منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) ﴾ [طه]

وقبل موسى عليه السلام التحدى ، وتجد القرآن يصور المسألة فيقول : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

وقوله : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يعنى : أن الحبال والعصى لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعْليّة تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان ؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهى أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .

إذن : فالساحر (١) يرى الشيء على حقيقته ، والمسحور هو الذى تتغير رؤيته إلى الشيء ، فيُخيَّل إليه أنه شيء آخر ؛ ولذلك لم يقل أحد : إن موسى تعلّم السحر ، وإن من علّمه غلبهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر ؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا :

﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه]

ولم يقولوا : آمنا بموسى .

---

(١) الساحر اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ .. (٦٩) ﴾ [طه] والمسحور والمسَحّرَ مَنْ به صرع أو جنون يظن الناس أنه من عمل الساحر ، والسحار صيغة مبالغة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء] والسحر : الجزء الأخير من الليل حتى مطلع الفجر وجمعه أسحار قال تعالى : ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .. (١٧) ﴾ [آل عمران] .

إذن : فالتخييل إنما يحدث فى عينى المسحور . أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب فى غير مسألة الوحى إلى الرسول ﷺ .

أى : كان عليكم أن تروا هذه المسألة العجيبة ، وهى خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها [1] ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذى خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون معّد لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أى شىء آخر .

(١) القرآن الكريم مشبوت بالآيات التى تدعو إلى التفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض وما بينهما ، فيقول عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ ﴾ [الغاشية] .

وضربنا من قبل المثل ، وقلنا : هَبْ أن إنساناً ركب طائرة ، ثم نفد وقودها وسقطت في الصحراء ، وكُتبت له النجاة وتلفَّت حوله فلم يجد ماء أو طعاماً أو أى دليل من أدلة الحياة ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ من نومه ، وجد مائدة عليها من أطايب الطعام ، وأطايب الشراب ، أما كان يسأل نفسه قبل أن يأكل ويشرب : من الذى صنع وأحضر كل هذا الطعام ، وكل هذا الشراب ؟

وهذا الكون قد أعدَّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس فى متناول قدرتك ، وسخَّر كل ذلك لك ؟ وقد أبلغك الحق : أنا خلقت السماء ، وخلقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق. وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذى خلق إذن ؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلها [1].

وما دام لم يظهر معارض له سبحانه ، فهو الخالق ؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارض ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارض.

وقد ضربنا مثلاً ، فقلنا : هَبْ أن جماعة من أصدقائك جاءوا

---

(١) وقد أكد رب العزة سبحانه على هذا المعنى فى كثير من الآيات قائلاً سبحانه وتعالى فى سورة النمل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل]. وقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، ولم تعرف لمن هى ، ثم بعثت بخادمك ؛ ليسأل من كانوا فى زيارتك ، وقال كل واحد منهم : إن حافظة نقوده لم تضعْ منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هى حافظة نقودى . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس.

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل فى الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن : يجب أن نصدق أنه الخالق.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون مُسخَّراً[1] أفلا تتركون له حرية أن يختار رسولاً منكم إليكم ؟ فما وجه الاعتراض إذن ؟

يكشف الحق منطقهم حين قالوا :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساخطون ويعيشون فى ضيق ؛ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبى طالب[2] .

ويكشفهم الحق أيضاً فيأتى بما جاء على ألسنتهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

---

(١) مسخراً : أى : مذللاً ومقهوراً لخدمة الآدميين، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) مما قاله المشركون فى هذا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ، فنزلت : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ... (٢) ﴾ [يونس]. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢).

ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا .

فالعداوة هي لرسول الله ، وهي عداوة حاقدة غير منطقية ؛ لأن كل واحد منكم كان إذا ملك شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أميناً عليه إلا محمداً .

إذن : فلماذا لا تغشون أنفسكم في مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فلماذا استأمنتموه على نفائسكم ؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذي هاجر وترك عليَّ بن أبي طالب ؛ ليرد الأمانات لأصحابها ؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم ؛ بشهادتي القول والفعل .

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٣) ﴾ [يونس]

وفي موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التي دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما . وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ [1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا شك عندكم في أن القرآن لا طَعْنَ فيه ، بل تطعنون في مسألة

(١) يقصد بالقريتين هنا : مكة والطائف . واختلفت الأقوال في تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد ابن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة . وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أي البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧) .

أنه جاء على يد محمد ﷺ ، وتمنيتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقبلونه. وأنتم في هذه المسألة غير منطقيين ؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا في قسمة الله ورحمته في أن يُنزِل الوحي على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه.

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا في الرحمة العليا من الله في أن يختار رسولاً ؛ ليبلغكم عنه. وتتناسون أنكم في هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق ؛ لذلك يقول الحق : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

وهذا الأمر السهل ؛ تقسيم المعيشة في الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه[1] ، فكيف لكم - إذن - أن تطمعوا في تقسيم الأمر العلوى وهو رحمة الله العليا في أن يرسل رسولاً.

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ .

وساعة تسمع كلمة «رب» ينصرف الذهن إلى الخلق وإلى التربية ، ولذلك نحن نستعمل هذه الكلمة ونقول : «فلان رب هذه الأسرة» أى : أنه المتولى تربيتها ، وكلمة «الرب» بمعناها المطلق تنصرف إلى الله[2] ، فهو

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب» أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم في مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف.

(٢) الرب في اللغة يطلق على : المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم والصاحب . ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل، وإذا أطلق على غيره أضيف، فيقال : رب كذا، مثل رب الإبل، رب الغُنَيْمة . انظر لسان العرب.

الخالق الذى خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْمٍ [1] ، وهو بهذا الوصف ربّ لكل خلقه : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

وما دام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذى استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذى يعطى كل مخلوق الرزق الذى كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر نواميس [2] الكون وأسبابه أن تعطى له أو لا تعطى ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها ؛ أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطى هذا المخلوق الرزق .

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، يوفر له الحق النجاح فى الأسباب .

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار فى أمور الدنيا ، ويتساءلون : لماذا يتقدم الكفار فى أمور الدنيا ونتأخر نحن ؟ أقول لهم : لقد أخذوا من عطاء الربوبية فى الأسباب ، وأنتم لم تأخذوا من عطاء الربوبية . وعليكم أيها المسلمون أن تأخذوا بالأسباب ، وهى عطاء الربوبية ؛ حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا فى موقع المتفرج ، بل المفروض فيكم أن تسبقوا الكفار إلى عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقرَّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهذا العطاء لا يناله إلا مَنْ آمن به .

اذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله مَنْ آمن به . إذن : هناك فارق بين

(١) العَدَمُ، والعُدْمُ، والعُدُمُ : فقدان الشيء وانعدامه . وهذه المادة لم تردْ فى القرآن، بل جاء بمعناه مثل قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان] .

(٢) نواميس الكون : الأسرار التى أودعها الله فى الكون، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته . والناموس أيضًا : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره . ومنه الناموس : جبريل ؛ لأن الله تعالى خصه بالوحى والغيب اللذين لا يطلّع عليهما غيره .

عطاء الإله ، وهو المنهج المتمثل فى «افعل» و«لا تفعل» ، وعطاء الربوبية المتمثل فى الأمور المادية وهى شركة بين كل الناس : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى . وحين يُحسن الكافرُ الأخذ بالأسباب ؛ فهو يأخذ نتائجها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى]

إذن : فواجب على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب ؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم ؛ لأن الكافر حين يسبقك فى الأخذ بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة فى أن يفرض عليك ما يخالف دينك .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ... ﴿٣﴾﴾ [يونس]

أى : أن الذى ربّى ، هو الذى كلَّف ، ويجب أن تستمعوا إلى منهجه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴿٣﴾﴾ [يونس]

وكلمة ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذه وردت فى كل آيات القرآن التى تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهى فى سورة فصلت :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ[1] وَتَجْعَلُونَ لَهُ

---

(١) «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تتمة أربعة أيام ، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام . . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» قاله أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣ . وانظر ابن كثير (٤/ ٩٣) .

أندادًا [1] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ [2] مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا [3] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ١٠ ﴾ [فصلت]

وهذه ستة أيام.

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ ١١ فَقَضَاهُنَّ [4] سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ ١٢ ﴾ [فصلت]

وهكذا يكون المجموع ثمانية أيام ، وهذا هو الفهم السطحى ؛ لأن آيات الإجمال جاءت كلها بخبر الخلق فى ستة أيام. وتعلم أن كل مُجمل يفسره مُفصَّله إلا العدد ؛ فإن مفصَّله محمول على مجمله ، فالأرض خلقها الله فى يومين ، وجعل فيها رواسى ، وبارك فيها ، وكل مخلوق ثان هو تَتمَّة للأول ، فاليومان الأولان إنما يدخلان فى الأربعة الأيام ، وأخذت بقية الخلق اليومين الأخيرين ، فصار المجموع ستة أيام.

إذن : فالزمن تتمة الزمن. ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة أطول من عامها ؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون يوماً ، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يومًا.

إذن : فاليوم على كوكب الزهرة أطول من العام فيها. والسر فى ذلك أن كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف فى سرعتها عن سرعة الدورة التى

(١) الأنداد : جمع ندّ ، وهو الشبيه والنظير والمثيل. والأنداد : الأصنام المعبودة من دون الله.

(٢) الرواسي : الجبال الثابتة الراسخة. وقد تحدث رب العزة عن حكمة خلق هذه الجبال فقال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ۝ ٣١ ﴾ [الأنبياء] أى : لئلا تتحرك بهم وتضطرب ، فلا يصلح لهم عيش عليها.

(٣) الأقوات : جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والمقصود به الرزق مطلقاً.

(٤) قضى الشيء قضاء : صنعه وقدّره. فقضاهن هنا بمعنى : خلقهن وعملهن وصنعهن وقطعهن وأحكم خلقهن.

تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة، ودورته حول الشمس سريعة.

إذن : فكل كائن له نظام.

وما هو اليوم إذن ؟ اليوم في اعتبارنا هو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار. ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه : ﴿ **سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا** ... (١٨) ﴾ [سبأ]

وهنا جعل الحق اليوم للضوء والكدح ، والليل للظُّلمة والراحة. والحساب الفلكي يسمى الليل والنهار يوماً.

ويبين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوما للآخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** (٤٧) ﴾ [الحج]

ويقول الحق في موضع آخر : ﴿ **تَعْرُجُ**[١] **الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ**[٢] **إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** (٤) ﴾ [المعارج]

إذن : فالأزمنة متعددة ، ومنوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن

---

(١) تعرج، أي: تصعد. عرج يعرُج عروجاً. وفيه ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) ﴾ [المعارج]؛ المعارج: المصاعد والدرج. قال قتادة: ذى المعارج أى: ذى الفواضل والنعم. وقيل: معارج الملائكة هي مصاعدها التى تصعد وتعرج فيها. وقال الفراء: ذى المعارج من نعت الله؛ لأن الملائكة تعرج إلى الله، فوصف نفسه بذلك. والقراء كلهم على التاء فى قوله: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ .. (٤) ﴾ [المعارج] إلا ما ذكر عن عبد الله، وكذلك قرأ الكسائى.

(٢) للمفسرين فى لفظ الروح فى الآية هنا عدة أقوال هى:
١- جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام (أى: الملائكة المذكورين قبله).
٢- اسم جنس لأرواح بنى آدم، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء.
٣- خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا أناساً.

كوكب إلى آخر. وما أظهره الله لنا فى القرآن من الأزمنة إنما يدل على اختلافها ، لا على التعارض والتناقض [١].

ثم يقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ووقف العلماء عند كلمة «اسْتَوَى» [٢] طويلاً ، واستعرضوا القرآن كله ؛ ليحصروها فى كتاب الله ؛ فوجدوها قد جاءت فى اثنتى عشرة سورة : البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد.

وأول سورة جاء فيها ذكر استواء الله على العرش هى «الأعراف» يقول الحق : ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى [٣] الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا [٤] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

---

(١) فاليوم الذى كألف سنة ، أى : كل يوم من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، ونص عليه الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب «الرد على الجهمية».
- أما اليوم الذى كخمسين ألف سنة ففيه أربعة أقوال :
١- المراد به مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة.
٢- مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة.
٣- المراد به يوم القيامة. جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

(٢) سئل الإمام مالك بن أنس : استوى كيف استوى ؟ فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة. وقوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... ⑭﴾ [القصص] قال أبو منصور : كلام العرب أن المجتمع من الرجال والمستوى الذى تم شبابه وذلك إذا تمت له ثمان وعشرون سنة ، ويحتمل أن يكون بلوغ الأربعين غاية الاستواء وكمال العقل. [اللسان : مادة (سوا)].

(٣) غشَّيتُ الشىء تغشيةً إذا غطيته ، وغَشِيَه الأمر وتغشاه وأغشيته إياه. يقول تعالى : ﴿يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ ...⑤٤﴾ [الأعراف]. وقال اللحيانى : وقرىء (يُغَشِّى). وقرىء فى الأنفال : ﴿ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ... ⑪﴾ [الأنفال] و(يغشِّيكم) ، و(يغشاكم). وغشاء كل شىء : ما تغشاه كغشاء القلب والسَّرج والرَّحل والسيف ونحوها. وغَشيه يغشاه غشيانا إذا جاءه ، وغشّاه تغشية إذا غطاه. وغَشِىَ الشىء إذا لابسه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① ﴾[الليل]. وقال: ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ ﴾ [الشمس]. [اللسان : مادة (غشا)].

(٤) حثيثاً أى : مسرعاً حريصاً. ورجل حثيث ومحثوث : حادٌّ سريع فى أمره كأن نفسه تحثُّه. والحثُّ : الإعجال فى اتصال ، وقيل : هو الاستعجال. وحثَّه واحتثَّه ، أى : حَضَّه وشجَّعه على فعل شىء. [اللسان : مادة (حثّ)].

مُسَخَّرَاتٍ[1] بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾[الأعراف]

ومادام الله سبحانه هو الذى خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء ؛ ليكون رسولاً ؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلاً منكم ؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذى خلق ، ثم جاء ليفتئت[2] فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذى خلق ، وهو سبحانه الذى أرسل الرسول ﷺ .

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول فيها الحق : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أى : استتب له الأمر.

ثم تأتى آية سورة الرعد : ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾ [الرعد]

أما الصفات التى توجد فى البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤخذ على مقتضى ما هى فى البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود. ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود ؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١)﴾ [الشورى]

ومثال هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له علم بأنك تقرأ الآن فى التفسير ، وفى أى مكان تقرأه ، والذين من حولكَ يعلمون ذلك ، ولكنْ أعلْمُ الله يساوى علمَك وعلمَ مَنْ حولك ؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو

---

(١) النجوم مسخرات : جارياتٌ مجاريَهُنَّ. وتسخير الشمس والقمر والنجوم للناس هو الانتفاع بها فى بلوغ منابتهم ، والاقتداء بها فى مسالكهم ، والتسخير : التذليل. [اللسان : مادة (سخر)].

(٢) يفتئت : يختلق ويكذب.

علْم أزلىّ [1] ، علْم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك ؛ لذلك فأنت إذا عَلمت شيئاً ، وَعَلَمَ الله شيئاً ، فعلْم الله يناسبه ، وعلْم البشر يناسبك . وأىُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وَأىُّ صفة من صفاتك نسبية ؛ لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلى ، وأنت فى هذه الحياة مجرد حدث محدود العمر بين قوى الميلاد والموت .

فالله غنى ، وقد تكون أنت غنياً ، لكن غناك لا يمكن أن يتساوى مع غنى الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجود ك لا يمكن أن يُقَاس بوجود الله . فذاتُ الله ليست كذواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفاتنا ، وفعْله ليس كفعْلنا ، واستواؤه سبحانه ليس كاستوائنا ، بل فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لأن الذى يُفْسد الفهم أن يقال : «استوى» بمعنى : قعد . أو فلنأخذ الاستواء كتمثيل لَلسيطرة ، وسبحانه مسيطر على كل شىء ، والاستواء : يعنى التمكن . وسبحانه القائل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ [2] أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... ﴿١٤﴾﴾ [القصص]

إذن : فاستوى : تعنى بلوغ تكوين الكمال فى الذات . والإنسان منا وهو صغير - قبل البلوغ - إنما تنقصه بعض من درجات النضج فى الجهاز العصبى ، وكذلك فى الجهاز التناسلى ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال : (اسْتَوَى) أى : صار قادراً على إنجاب مثله ، وتمت له رجولته . ويقال عن الثمرة : إنها استوت ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح]

أى : نضجت نُضْجاً يبلغها أن تعطى من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها .

---

(١) الأزَلُ : هو القدَم . ومنه قولهم : هذا شىء أزلىّ ، أى : قديم . وقيل : إن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم : لَمْ يَزَلْ ، ثم نُسبَ إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار ؛ فقالوا : يَزَلِىّ ، ثم أبْدلَت الياء ألفاً ؛ لأنها أخفُّ فقالوا : أزلىّ .

(٢) المقصود هنا هو موسى عليه السلام ، أى : لما اكتمل تكوينه ، وقيل : إن هذا يكون عند سن الأربعين .

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ [1] ... (٤٤) ﴾ [هود]

أى : استقرت على الجبل واستتب الأمر.

إذن : فكل استواء لله يجب أن يؤخذ على أنه استواء يليق بذاته ، وصفاته ، التى قد يوجد فى البشر مثلها ، لكنها صفات مطلقة فى إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى]

وفعْل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر ؛ ولذلك قلنا فى حديث الإسراء [2] : إن الكفار المعاصرين للإسراء حينما كذَّبوا النبى ﷺ فى أنه قد أسرى به ، قالوا : أتدَّعى أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ [3] وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة.

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين - الذين يدعون المعاصرة والفهم - يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تَمَّ بالروح ؟ ونقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله ﷺ لم يقولوا ذلك ، وفهموا أن الإسراء قد تمَّ بالجسد ؛ لذلك قالوا : «أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ،

---

(١) الجودى : موضع ، وقيل : جبل ، قال الزجاج : هو جبل بآمد ، وقيل : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام.

(٢) أسْرَيت وسَرَيت إذا سرْت ليلاً. يقول تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ... (١) ﴾ [الإسراء] وأسرى بعبده : سَيَّر عَبده. وأسراه ، وأسرى به بمعنى واحد. ويقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) ﴾ [الفجر] معنى يَسْر : يمضى. أو يُسْرَى فيه. وقد حدث الإسراء برسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنة ، وقيل بستة عشر شهراً.

(٣) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْرُ البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ (سيرة النبى لابن هشام ٢/ ٤). والإمْرُ : هو الشىء العظيم العجيب المنكر.

وتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟» بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس فى رؤيا أو حُلْم [1] ؛ لأنه لا أحد يُكذِّب رؤيا أو حُلْماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة .

ونقول لمن يدَّعى أن الإسراء إنما تَمَّ بالروح : افهم جيّداً أن رسول الله ﷺ قال : «أسرى بى» .

إذن : فعْل الإسراء منسوب لله ، فلا تأخذ الإسراء بالقانون البشرى ، ولكن بالقانون الإلهى .

والزمن فى مسألة الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد ﷺ . والقرآن يقول :
﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أى : أن الله مُنَزَّهٌ عَمَّا فى بال البشر من المسافات والقوة وغيرها .

ولقد ضربنا مثلاً لهذا - ولله المثل الأعلى - برجل يصعد بابنه الرضيع قمة جبل « إفرست » ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل ؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل .

وهكذا - ولله المثل الأعلى - فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد ﷺ .

ونحن فى مجالنا البشرى تختلف قدراتنا فى قطع المسافات وأزمانها ، فمن يركب عربة يجرُّها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية فى

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجْر ، فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٧) ، والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠) . فوصف لهم رسول الله ﷺ بيت المقدس باباً باباً ونافذة نافذة وأعمدته والطريق إليه . وهذا لا يعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل .

أيام ، ومَنْ يركب سيارة فقد يصلها في ساعتين. ومَنْ يركب طائرة فقد يصلها في نصف ساعة.

إذن : فكلما زادت القوة تجد الزمن يقل ، فما بالنا بقوة القويّ ؛ أيكون معها زمن؟ طبعاً لا.

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ [1] .. (٢٨) ﴾ [المؤمنون]

أي : بعد أن ركب معك يا نوح مَنْ آمن من قومك ، واطمأننت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها.

إذن : فقول الحق عن ذاته : ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ... (٣) ﴾ [يونس]

يعني : أن الأمور قد استتبت وتمت. وهكذا نفهم أن كل شيء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى نأخذه في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

وأن كل صفة من صفاته يأتي تمثيلها ليقرب المعنى فقط ولا يعطي حقيقة المعنى ؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء. وهكذا فسبحانه له استواء يليق بذاته ، لا كاستواء البشر.

والشاعر أبو تمام [2] حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التي اشتهر بها بعض القوم ، «فحاتم» على سبيل المثال كان قمة الكرم.

(١) الفُلْك : السفينة ، تُذكّر وتؤنَّث ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع. قال تعالى : ﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ... (١٢) ﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم .. (٢٢) ﴾ [يونس].

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك توفي (٢٣١ هـ) عن ٥١ عاماً.

و«عنترة»[1] هو قمة الشجاعة ، «والأحنف بن قيس»[2] قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو تمام عن الخليفة :

إقْدَامُ[3] عَمْرٍو فى سَمَاحة حاتمٍ ... فى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذكاء إيَاسِ

وهكذا صار الخليفة مَجْمع فضائل ؛ لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم الأحنف ، وذكاء إياس. ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وَصَفْتَ ، فهؤلاء جميعاً بالنسبة للخليفة صغار. وقال أحد الشعراء :

وشبهه المدَّاح فى البأس[4] والنَّدى[5] ... بَمنْ لو رَآهُ كان أصغَر خادمٍ

ففى جَيْشِهِ خَمسُونَ ألفاً كَعنْترٍ ... وَفى خَزَائنه ألفُ ألفِ حاتمٍ

وحين سمع الشاعر الأول ذلك ، وكانت قصيدته الأولى «سينية» ، أى : أن آخر حرف فى كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى ، وقال :

لا تُنْكروا ضَرْبى له مَنْ دُونهُ ... مَثلاً شَروداً[6] فى النَّدَى والباس[7]

فالله قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لنوره ... مثلاً من المشْكَاة[8] والنِّبراس[9]

(١) هو : عنترة بن شداد ، أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، من أهل نجد ، أمه حبشية اسمها زبيبة . توفى نحو ٢٢ قبل الهجرة .

(٢) هو : الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، يضرب به المثل فى الحلم ، ولد فى البصرة (٣ ق هـ) وأدرك زمن النبى ولم يره ، توفى بالكوفة (٧٢ هـ) عن ٧٥ عاماً .

(٣) الإقدام : هو المضىّ إلى الأعداء بجراءة وشجاعة .

(٤) البأس : الشدة فى الحرب . ورجل شديد البأس : شجاع .

(٥) الندى : السخاء والكرم والجود .

(٦) مثلاً شروداً : خارجاً عن المألوف والعادة .

(٧) الباس : هو البأس . خففت همزتها لضرورة الشعر .

(٨) المشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ«الطاقة» ، مع نطق القاف همزة .

(٩) النبراس : المصباح والسراج : والشاعر هنا يقصد قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ... (٣٥)﴾ [النور] .

إذن : فهناك فَرْق بين تمثيل الشيء ، وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ...(٣٥)﴾ [النور]

فهذا مثل توضيحي للبشر. وشاء الحق ذلك ليعطينا مجرد صورة ؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك. ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول عن الجنة : « فيها ما لا عَينٌ رأت ، ولا أذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر[1] على قلب بَشَر »[2].

وأنت حين ترى ؛ فللرؤية حدود. وحين تسمع فأنت تسمع مرائى غيرك ، وما لا يخطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول في وصفه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما تسمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يخطر على البال ؛ لأنه ﷺ علم أن اللغة هي ألفاظ تعبر عن معان ، والمعاني توجد أولاً ثم نأتي لها بالألفاظ ؛ ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيح باللغة.

وهكذا نكون قد استوفينا فهم قوله الحق : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ بما يليق بذات الله ، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذي يدل على مكان محيّز ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّه عن أن يكون متحيزاً في مكان ؛ فذاته سبحانه ليست كالذوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات.

---

(١) خطر : الخاطر : ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر ، والخاطر : الهاجس. ويقال : خطر ببالي وعلى بالي كذا إذا وقع ذلك في بالك ووهمك. والجمع : خواطر.

(٢) عن سهل بن سعد الساعدي قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وهب عن أبي صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبي صخر به. وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي.

ثم يقول بعد ذلك : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أى : أنه يرتب الوجود ترتيباً يجعل كل شىء موضوعاً فى مكانه بحكمة. والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هى التى تضع كل شىء فى مكانه بحكمة. وصفة الإرادة هى التى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه. وصفة القدرة تبرز المراد لله.

إذن : فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تبرز المراد على وفق العلم. ومن المنطقى أن يدبر الله كل أمر ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق السموات وخلق الأرض. واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يبرزه بـ «كن». وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخَّر له السموات والأرض ؛ لذلك لا بد أن يدبر سبحانه للإنسان أمور مادياته ، وأمور قيمه.

أما أمور الماديات فقد ظهرت فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء. وما فى الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه فى قوام حياته ، وهو سبحانه الذى خلق كل ذلك قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون الخليفة والسيد.

إذن : فالإنسان هو الذى طرأ على هذه الأمور المادية ، وكان لا بد أن يُنزلَ الحق سبحانه قيماً يحيا بها الإنسان كخليفة فى هذه الأمور المادية.

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لا يُحسب فى نظر بعض الناس من عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد؛ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴿١٢٤﴾﴾[1] [الأنعام]

---

(١) قوله سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام] جاء رداً على من قال الله سبحانه فيهم : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام].

إذن : فقوله : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ جاء ليؤكد نَفْى التعجب من أن يكون الوحى لمحمد ﷺ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا .. (٢) ﴾ [يونس]

وعلتها أن الله هو ربكم وهو الذى خلق ، ولا يجادل أحدٌ الله فيما خلق ، وفيمن خلق. وإذا كان هو سبحانه الذى خلق الإنسان والكون ، فلا بد أن ينظم حركة الوجود بين الإنسان والكون ؛ لذلك اختار الرسول المناسب ؛ ليحمل منهج القيم للإنسان فى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا». ثم ترك الحق للإنسان أموراً لا يقول له فيها : افعلها أو لا تفعلها ، فهى من المباحات.

وإذا استقرأت الأفعال والأحداث ، ستجد أن الذى قال الله فيه «افعل» قليل ، والذى قال الله فيه « لا تفعل» قليل. وبذلك تجد المباحات أكثر من «افعل» وأكثر من «لا تفعل» [(١)].

وما دام سبحانه هو الذى شاء ذلك ، وترك لك أيها الإنسانُ الكثير من الأمور المباحة ، فاترك القيم لله ؛ لأن الكون المادى المخلوق لله فى غاية الدقة وفى غاية النظام ، ولم تمتنع الشمس أن تشرق أو تعطى ضوءها وحرارتها للناس ، وما امتنع القمر أن يعطى نوره ، وما امتنع السحاب أن يسقط مطراً مدراراً ، وما امتنعت الأرض أن تتفاعل مع أى غَرْس تغرسه فتعطيك الغذاء ، وكل شىء داخل فى نطاق القدرة فى النواميس العليا ؛ مُحكم ؛ ولا خلل فيه [(٢)].

---

(١) ولهذا نجد أن المحرمات منصوص عليها في القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ... (١٥١)﴾ [الأنعام] ولذلك تعارف الفقهاء على قاعدة فقهية هى : الأصل فى الأشياء الإباحة.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى. وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : «رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف».

وإذا نظرتم إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث ؛ لأن الشىء الذى لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو على أتم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشىء الذى للإنسان فيه عمل واختيار ، ولا يعنى ذلك أن كل أعمال الإنسان تعانى من الخلل ، لكن الأعمال التى تعانى من الخلل هى الأعمال التى يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله . ولو اخترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها،كما استقامت لنا نواميس الكون العليا (١) .

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم ؛ لأن الأمر الذى لا تتناولونه بأيديكم ولا دخل لكم فيه ، يعمل غاية فى الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختيارية بغاية الدقة ؛ فخذوا منهج الله فى الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله.

ولذلك أقول دائماً : إنك إذا ما رأيت عورةً فى الوجود ، يتعب منها المجتمع ، فاعلم أن حداً من حدود الله قد عُطِّل . وإن وجدت أمة متخلفة ، فاعلم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعانى من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله.

ويخطىء مَنْ يقصر فَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع فى المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة فى ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج ، فكل هذه هى رءوس الإسلام تشحن العبد ليعمل وَفْق منهج الله ، فالصلاة هى إعلان الولاء لله خمس مرات فى اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ،

(١) قال سبحانه وتعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم] والفساد هنا قد يكون النقص فى الزروع والثمار على البر وأخذ السفن غصباً فى البحر فيما كان يعرف بأعمال القرصنة ، وقد يكون خللاً يحدث فى البيئة .

والزكاة إنما هى من فائض المال ، والحج هو تَرْكٌ للمال والأهل والولد .

كل ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجِّه الطاقة إلى عمل آخر . ولنأخذ الصلاة مثلاً : فأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُقعدك وتستبقى حياتك ؛ وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلى!

إذن : فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطْعم ما لم يكُنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضر واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ ينتج ذلك ، ومَنْ ينتج الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبذور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام . فمن يزرع يحتاج إلى محاريث تحرث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وآخرين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحاريث .

إذن : فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهكذا تجد أن كل الأعمال التى تُسهِّل لك العبادة هى أعمال واجبة . والمثال : أنك حين تصلى تحتاج إلى سَتْر عورتك ؛ لذلك تشترى القماش ليُفصِّل لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التى تنتج القماش وتصنع الثياب هى أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو التيل وغيرها إلى المغازل ومصانع النسيج ، وغير ذلك . وهكذا تجد أن كل الأعمال التى يتم الواجب بها هى أعمال واجبة ، فَسَتْر العورة أمر شرعى ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدى إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح .

والمثال الذى أضربه دائماً : هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ،

والغُسْل من الجنابة[1] وطهو الطعام وغير ذلك ، وكان الإنسان قديماً يشرب من الآبار ، ثم تطور التفكير إلى إقامة شبكات لتوزيع المياه بعد تنقيتها ، كل هذه أعمال تُزيد الأمر الصالح صلاحاً ؛ لأنك أخذت الماء من المطر الذى ملأ النهر ، وأعلَيْتَ الماء فى خزانات لتنقيته ، ثم اكتشفت قوانين الاستطراق [2] ومضخات المياه ؛ ليصل الماء الطاهر إلى كل من يحتاجه. وهكذا تزيد الصالح صلاحاً بالتفكير واستخدام العلم بما يفيد الإنسان ، إذن : فهذا عمل عبادى ما دامت النية فيه لله .

وانظر إلى يوم السوق فى أى قرية ، تجد من يدخله ومعه الماشية والأنعام [3] التى يرغب فى بيعها ، وتجد مَنْ يدخل بالفواكه والأطعمة ، ومَنْ يدخل ومعه الثياب أو أدوات المنزل ، وتجد من يدخل ليس معه شىء ، وبعد انتهاء السوق تجد كل إنسان قد خرج بما يحتاج ، لا بما دخل لبيعه . وهكذا ألقى الله الخواطر فى قلب وتفكير إنسان ما ليبيع ما لا يحتاجه ، وآخر ليشترى ما يحتاجه من إنتاج غيره .

وأنت إذا نظرت إلى قرية ما ، ستجد واحداً من أعيانها يرغب فى بيع أرضه وقصره ، ويرغب فى الرحيل إلى بلدة أخرى ، وهكذا ترى الميزان الاقتصادى الإلهى ، الذى يوزع العباد فى الأماكن التى تليق بكل واحد

---

(١) الجنابة : إنزال الرجل ماءَه من جماع أو نوم ، وسُمِّى الرجل جُنُباً لأنه يجتنب الصلاة والطواف حال جنابته . ويجب عليه الاغتسال غُسْل الجنابة وله كيفية ذكرتها سنة رسول الله ﷺ ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ، ثم يُفرغ بيمينه على شماله ، فيغسل فرجه ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يأخذ الماء ، فيدخل أصابعه فى أصول الشعر ، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حَفَنَ على رأسه ثلاث حفنات ، ثم أفاض على سائر جسده ، ثم غسل رِجْليه» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣١٦) والبخارى فى صحيحه (٢٤٨) بنحوه .

(٢) الاستطراق : عدّة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية] .

(٣) الأنعام هى : الإبل والبقر والغنم . ومثلها الماشية ، ومعنى المشاء : النماء . فالماشية أى : التى تنمو وتكثر . ولفظ الأنعام جاء به القرآن ٤٢ مرة ، بل نزلت سورة باسمها وهى سورة الأنعام .

منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة فى مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه . وهذا هو التدبير الإلهى على أحسن ما يكون .

وقد تجد - مثلاً - الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد تضربه على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى وباليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً فى الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالفعل أن خط الطفل باليد اليسرى جميل .

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه مسألة تتعلق بالجهاز العصبى للإنسان ، فهناك من خلقه الله ليَعْملَ باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى [1] ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنتين ، مثل سيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان «أضبطْ» [2] أى : يعمل بيديه الاثنتين .

وعلينا أن نحترم أقدار الله فيما خلق ومَنْ خلق . فسبحانه يخلق ما يريد ، لا وَفْق قوالب ، بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خَلْق مراد معين . وكما أحسن الحق تدبير ما ليس لكم دَخْلٌ فيه ، فاعلموا أنه قَد أنزل المنهج

(١) المقصود به هنا من خُلق هكذا لا يستطيع أن يستخدم يمينه ، أما الذى يستطيع استخدام يده اليمنى ولكنه يأكل أو يشرب أو يرتدى بشماله ويفضلها على اليمنى فقد خالف استحباب استخدام اليد اليمنى الذى وردت به سنة رسول الله ﷺ ، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢٠) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢٨) .

وعن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال : «كل بيمينك» . قال : لا أستطيع . قال : لا استطعت . ما منعه إلا الكبر . قال : فما رفعها إلى فيه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢١) فهذا الرجل استنكف أن يطيع رسول الله ﷺ فى مثل هذا الأمر لا أن عنده عذراً خلقياً أو شرعياً يمنعه ، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ ، فشُلَّت يده .

(٢) الأضبط : هو الذى يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه . ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة : ضبط) .

لِيُحسِّن مما لكم فيه دَخْلٌ ، ويجعل أموركم منتظمة ، وكل ذلك يدخل ضِمْن تدبير الأمر.

وأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة «أمر» تجد أنها كل شيء ينشأ ، ولماذا عدل سبحانه عن قول : «شيء» إلى قول : «أمر» ؟ ؛ لأن كل شيء لا يوجد في الوجود إلا بـ «كن» وهي أمر. وسبحانه القائل : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

وسبحانه يدبر الأمر في السنن المادية التي لا تتناولها يد الإنسان ، فإن أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذي أنزله الله بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وأما المباحات فهي كثيرة ، والإنسان حرٌّ فيها.

وإذا ما سأل سائل : ولماذا أتَّبِع المنهج؟ أقول : إن الحق شاء أن يخلق الإنسان على هيئتين : هيئة إرغامية [1] قهرية ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها الإنسان مقهور في أشياء ، ومُختار في أشياء أخرى ؛ أنت مقهور في التنفس ، وتتنفس آلياً دون تدخُّل منك ، تتنفس مستيقظاً أو نائماً ، ولو كان التنفس باختيارك ، لاحتجْتَ إلى مَنْ يدير حركة تنفسك وأنت نائم ؟

إذن : فمن رحمته سبحانه أن جعلك مقهوراً في مثل هذه المسألة وكذلك نبضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور في الحركة الدودية للأمعاء ، وللحركة الانبساطية والانقباضية في المعدة ، وإفراز العصارات الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور فيه ، وأنت مُختار في أشياء أخرى ، كأن تشتري من البائع الفلاني ، أو بائعٍ غيره ، وأنت مُخَيَّر في أن تختار أصناف الطعام التي تهواها.

---

(١) أرغَمه : حَمَلَه على ما لا يقدر أن يمتنع عنه. والرُّغْم : القسر والإجبار.

والمباحات فى الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين الحرية فى الحياة ، وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى بـ«افعل» و«لا تفعل» ، لا يخرج عن أمور محصورة تصونك وتصون مجتمعك ، وكذلك الكون الذى تحيا فيه. وإنْ مارسْتَ أيها الإنسان حريتك فى الأمور المباحة على أى لون شئت ، فذلك لا يفسد الكون.

وقد شاء الحق سبحانه - أيضًا - أن تكون مقهوراً فى بعض الأمور حتى لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة ؛ فأنت حُرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى فى الأمور المباحة ؛ فلا مانع لذلك. وكل البشر يختلفون.

وأراد سبحانه أن يحمى الإنسان والكون ؛ لأنه علم أزلاً أن أهواء البشر تتضارب ، وهو القائل : ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ** [1] **لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ** ...(٧١) ﴾ [المؤمنون]

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحكَم ، وما يسير بدون تَدَخُّل من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل نواميس الكون تعمل بدقة يندهش لها المؤمنون بالله والكافرون به [2] ، فسبحانه يحكم فى مُلْكه بدقة متناهية ؛ حتى إن بعض العلماء ممن لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلى أو الجزئى

(١) هَوَى النفس : إرادتها ، والجمع : أهواء. والهوى : محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه ، قال تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) ﴾ [النازعات] أى : نهاها عن شهواتها ، وما تدعو إليه من المعاصى. ومتى تُكُلِّم بالهَوَى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يُخرج معناه ، كقولهم : هَوًى حَسَنٌ ، وهَوًى موافقٌ للصواب.

(٢) نواميس الكون : أسراره. والناموس فى اللغة : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره.

للشمس أو القمر [1] بدقة متناهية وذلك باستقرائهم لمعطيات الكون.

وما دُمْتم أنتم تتميزون على الكافرين بالإيمان بالله ، فخذوا منهج الله في حياتكم ؛ لتستقيم أموركم بمثل استقامة الكون.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ... ③ ﴾ [يونس]

ويضيف : ﴿مَا مِن شَفِيعٍ [2] إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر ؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله ﷺ ، كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ..⑱﴾ [يونس]

ولذلك يُفصِّل الحق سبحانه مسألة الشفاعة. فالإنسان لا يحتاج إلى شفاعة عند مَنْ يملك الأمر إلا إذا ارتكب جُرْماً أو حدث منه تقصير في أمر ما. والآية أوضحت أنهم يعبدون ما لا يضرهم إن لم يعبدوه ، وما لا ينفعهم إن عبدوه ، وأقروا أن مثل هذه الأصنام إنما تشفع لهم ، والشفاعة من الشفع ، والشفع ضد الوتر. والوتر هو ما لا يقبل القسمة على اثنين ، فيكون الوتر رقماً فردياً [3].

(١) الكسوف : احتجاب نور الشمس ، أو نقصانه ؛ بوقوع القمر بينها وبين الأرض. وهو للشمس كالخسوف للقمر.

(٢) شفيع : صيغة مبالغة من (شافع) وهو الذي يشفع أي : يطلب العفو لشخص آخر ، والشافع : الطالب لغيره. والجمع : شفعاء. قال تعالى : ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ... ⑧⑤﴾ [النساء].

(٣) الشفع : خلاف الوتْر ، وهو الزوج. تقول : كان وَتْراً فشفعته شفعاً. وشَفَعَ الوتْرَ من العدد شفعاً أي : صيَّره زوجاً. والشفيع من الأعداد : ما كان زوجاً. تقول : كان وَتْراً فشفعته بآخر. قال تعالى : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③﴾ [الفجر]. قال الأسود بن يزيد : الشفع هو يوم الأضحى والوتر يوم عرفة. وقال عطاء : الوتر هو الله ، والشفع خَلْقُه. وقال ابن عباس : الوتر آدم شُفِعَ بزوجته. وقيل في الشفع والوتر : إن الأعداد كلها شفع ووتر.

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله الذى يعبده ، وهو غير قادر على مواجهته ؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتى بآخر معه ؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعضيد [1] الفرد بواحد آخر ؛ فينتقل من كونه وتراً إلى كونه شفعاً.

وكان الكفار على عهد رسول الله ﷺ يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... ③﴾ [يونس]

لأن الشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة. والذى يستشفع هو المقصِّر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء لهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه ؛ فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب.

إذن : فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر فى الشافع ، والأمر فى المشفوع له ، فهما مختلفان. وأنت - على سبيل المثال ، لا تأتى بإنسان يسير فى الطريق وترسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير ؛ إن كانت لك حاجة عند أى منهما ، بل تأتى بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله منزلة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإذن فى أن يكلِّم المحافظ أو الوزير فى أمور الناس.

وإذا كان هذا هو الحال فى الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا

(١) الاعتضاد : التقوِّى والاستعانة ، واعتضدت بفلان : استعنت به ، والمعاضدة : المعاونة. وهى مأخوذة من العضد : وهو الساعد ، أى : ما بين المرفق إلى الكتف. والعضد : القوة ؛ لأن الإنسان إنما يقوى بعضده فسميت القوة به. قال تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... ③⑤﴾ [القصص].

بالشفاعة للإنسان لدى الله ؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه سبحانه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... ③﴾ [يونس]

وفى سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ⑳⑤﴾ [البقرة]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً ①⓪⑨﴾ [طه]

إذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضًا من الله .

أما المشفوع له فقد قال الحق :

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. ②⑧﴾ [الأنبياء]

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهى معروفة .

ولقائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضى عن عبد ، فلماذا يحتاج العبد إلى الشفاعة ؟

وأقول : لننتبه إلى أن الإنسان يتعرض لأعمال كثيرة ، وله نقاط ضعف فى حياته ؛ قد تكون كثيرة ، وقد تكون قليلة ، فإذا جاء فى نقطة الضعف وأذنب ذنباً ، فعليه أن يزيد من فعل النقاط القوية التى تُكتب له بها الحسنات ؛ لأن المعيار هو : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ [1] يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... ①①④﴾ [هود]

(١) ذهب بعض علماء التفسير إلى أن الحسنات هنا بمعناها المطلق أى : فعل الخير مطلقاً . وذهب بعضهم إلى أن الحسنات هنا المقصود بها الصلوات الخمس ، واستدلوا بحديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٨) ومسلم (٢٨٣) .

فالعبد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسان أنه إن اختلس من الله حكماً فهو لن يستطيع أن يهرب من العقاب ، وعليه أن يزيد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله ؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُفلت أحد من ملكوت[1] الله .

وهَبْ أن إنساناً فيه نقطة ضعف ، وأذنب ذنباً ، وعنده نقطة قوة يطيع فيها الله بسهولة ويُسْر ، هذا الإنسان له أن يعلم أن الله يحبه لأجل نقطة قوته هذه ، وقد يرحمه الله سبحانه فيما أذنب من الذنوب ، ويجعل المأذون له فى الشفاعة يشفع له عنده سبحانه .

فلماذا أراد الحق ذلك ؟

شاء الحق ذلك حتى لا يُحرَمُ العالم من الحسنات التى يجيدها ذلك الإنسان . ويحكى لنا الحديث النبوى الشريف عن الرجل الذى لقى كلباً يلهث من العطش ، ولم يجد الرجل إناء يملأه ماء من البئر ليسقى الكلب ، فنزل البئر وملأ خفه[2] ، وعاد إلى الكلب ليسقيه . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الرجل لينافق الكلب ، بل منتهى الرحمة بهذا الحيوان ، كذات خلقها الله ؛ لذلك غفر الحق سبحانه لهذا الرجل[3] .

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات . وقد جعل الحق سبحانه الشفاعة لرسول الله تكريماً له ﷺ ، وكذلك فى المأذون له فى الشفاعة ،

---

(١) ملكوت الله : سلطانه وعظمته . والملكوت : مُلْك الله خاصةً ، قال تعالى : ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] . قال أبو إسحاق : ملكوت كل شىء معناه : القدرة على كل شىء .

(٢) الخف : النعل يلبسه الإنسان فى قدمه .

(٣) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : « يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه ، وأن الأب قد يشفع لابنه [1] ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحسن إلى كل هؤلاء ؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحسن اتباع سنة الرسول ﷺ ، ويحسن معاملة المؤمنين ، ويحسن الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع فى كرامة الشفاعة بعمل الخيّر وإخلاص النية .

وإذا رأيت إنساناً محسناً فى دينه ، فلا بد لك أن تحترمه ؛ لأن إحسانه فى دينه قد ينفعك أنت ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [2] [الفاتحة]

وكان الحق سبحانه قادراً أن ينزلها « إياك أعبد وإياك أستعين » ولكنه شاء أن تنزل على صورتها تلك ؛ حتى يأذن سبحانه بقبول الصفقة من كل قائليها ، فيتقبل من عباده أعمالهم بما يغفر لبعضهم الأشياء المعيبة .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً فى العبادة فلا تسخر منه ولا تهزأ به ؛ لأن حرصه على الطاعة وانشغاله بالعبادة قد تنفعك أنت .

وساعة تتلقى أمراً من رسول الله ﷺ وتجده شاقاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرجع الذى قد يشفع لك فى الأمور التى لم تقدر عليها .

(١) هذه الشفاعة مقيدة بألا تكون فى حد من حدود الله ، وهذا ما دلت عليه السنة الصحيحة ، فعن عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله » الحديث . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) والبخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) .

(٢) مراد الشيخ أن العبادة أولاً ثم يأتى العون ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل إلى البيت الحرام قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ ﴾ [إبراهيم] فالعبادة سبقت ، والعبادة وسيلة العطاءات والشفاعات وبالعبادة يأتى العون .

ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع له ؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات . وإن كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيدنا عمر فى رؤيا ، فسأل الرائى سيدنا عمر بن الخطاب : ماذا فعل الله بك يا ابن الخطاب ؟ فقال سيدنا عمر : غفر الله لى . فسأل الرائى : بماذا ؟ أجاب سيدنا عمر : لأنى رأيت غلاماً يعبث بعصفور فاشتريته حتى لا أفجعه فى عصفور يملكه ، وأخذت العصفور وأطلقته .

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل ابن الخطاب أعمالاً تؤهله لمغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه ؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل ؛ فمسألة إطلاق العصفور إنما تخص غفر الخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهى لرفع الدرجات .

وفى القرآن آيتان جاءتا بنص متقارب ، فالحق يقول :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ[1] ... (٤٨) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية تقول : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ...(١٢٣) ﴾ [البقرة]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين بغرض الطعن فى القرآن ، هم من الغرباء عن اللغة ولا يملكون ملكة[2] البيان التى يمكن أن يستقبلوا الأساليب بها، ولو امتلكوا هذه الملكة لعلموا أن الصدر فى الآيتين محتمل

---

(١) عدل : فداء أو بدل .
(٢) الملكة : صفة راسخة فى النفس أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل : الملكة اللغوية .

لوجهين ، فهناك نفس جازية هى التى تتشفع ونفس مجزىٌ عنها هى التى يُتشفع لها .

والضمير الذى يأتى فى قوله الحق : ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلاَيُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلاَ تَنفَعُهَا﴾ ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح أن يرجع إلى النفس المشفوع لها . والإنسان منا إذا ما كان عليه شىء لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرىء ذمته منه ، فهو يلجأ إلى صديق لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له . وفور أن يذهب صاحب المكانة إلى هذا الآخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتى لفلان ؟ فإن قال صاحب الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : إذن: سأدفع العدل، أى: ما يساوى قيمة ما كنت سأتشفع له فيه. وهكذا نجد أنفسنا أمام نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أى من النفسين.

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عنهما : إنهما متشابهتان ، صدر كل منهما منسجم مع عجزها .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بعد أن أوجزت الآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويختار من يقدم له الشفاعة ، فيقول : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ③﴾ [يونس]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق الإنسان ليعمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وحين يشهد الحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأن أوامره فى كونه نافذة .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَلِكُمُ﴾ أى : إشارة إلى ما تقدم من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ،

ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم فاعبدوه ؛ لأنه هو الذى خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأى فائدة ، فسبحانه منزَّه عن فائدة تعود عليه ؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا فى ملكه شيئاً ، وإن لم تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً [1] . والعبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجِّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ؛ فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف [2] الإنسان منا أن يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة فى أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه الأركان الخمسة هى الدعائم التى تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام هو كل أمر لله وكل نهى له سبحانه ؛ ولذلك حين نتابع تسلسل الأمور ، سنجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « . . . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . . » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) .

(٢) يأنف : يكره .

ويقول الحق في آخر الآية: ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾والذهن أو المخ - كما نسميه - فيه ملكات متعددة مثل : ملكة التخيُّل ، وملكة الحفْظ والاختزان ، وكثير من الملكات الأخرى منها مَلَكَةُ التذكُّر . ومعنى التذكُّر أن شيئاً سبق لك إلْفٌ[1] به ، فطرأ عليك ما أنساك ، وحين تنسى أمراً يخصُّ أحد أقرانك ، فهو يقول لك: تذكر يا أخى الأمر الفلانى ، وهو لا يأتى لك بأمرٍ مجهول لم تعرفه أولاً ، بل يأتى لك بأمر كان معلوماً لك ، ولكنك نسيته.

والإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيزة لا بد أن يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً ، وهذا الأمر لا نأخذه من الفلاسفة ، بل من رجل الشارع ، وراعى الشاة ؛ فقد جاء في الأثر أن راعياً كان يسير في الصحراء فرأى بَعْراً[2] في الطريق ، فقال : إذا كان البعر يدل على البعير ، والسير يدل على المسير، أفلا يدل كل هذا الكون على وجود اللطيف الخبير ؟!

والمثال من حياتنا اليومية: أن غسّالة الملابس الكهربية - وهى لا تدل على شىء ضرورى فى الحياة، بدليل أن السابقين علينا كانوا يغسلون ملابسهم بدونها ، فهى تمثل ترفاً ، لا ضرورة - نجد الناس يعرفون من الذى ابتكرها ، ومن أوصلها بالكهرباء ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل ، ومثلها مثل المصباح الكهربى الذى يفسد بعد عدد معّين من الساعات ، ونجد التلاميذ يدرسون تاريخ من صنعه ، فهل يمكن أن ننسى من خلق الشمس التى تضىء الكون ؟

(١) ألفتُ الشىء وألفتُه: لزمته، أو أنست به، أو اعتدته، فهو مألوف. قال تعالى: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش] .

(٢) البَعْرة: واحدة البعر، وهو رجيع الخُفّ، والظّلف من البعير.

بل ونجد فى زماننا العالم الكافر وهو يـمدُّنا بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد مَنْ يسجله ؛ حتى لاَ يسرقه غيره ، فما بالنا بالشمس التى تضىء وتُدْفىء ، والقمر الذى يحدد الشهور ، والنجوم التى تدل الناس على الاتجاهات [1] ولا شىء فى كون الله يحتاج إلى قطع غيار ، ألا نعترف بمن خلق كل ذلك ، ها هو ذا سبحانه يدلنا على مَنْ خلق ويبلغنا ما يسجل له ملكية ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول ﷺ ليدلنا على أنه سبحانه الذى خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى مَنْ يناقض قضية الخلق . وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك .

ولن نأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف نأخذ الدليل من كلمة « الكفر» نفسها ، هذه الكلمة (كفر) تعنى : (ستر) ، فهل يُسْتَرُ إلا موجودٌ ؟

إذن : فالكفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سَتْراً ، فالكفر أمر طارىء ، نتيجة للغفلة ، والغفلة إنما تأتى لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس فى حركتها ؛ لذلك قد يغفل الإنسان متناسياً أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس .

فحين يُحرِّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها على إنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيَّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

---

(١) ملأ الله سبحانه الكون بدلائل ربوبيته ووحدانيته وأنه الخالق سبحانه وهو البديع الذى أبدع الأشياء على غير مثال سابق ، وجعلها سبحانه ظاهرة للأعين :
منها الشمس التى قال عنها سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النبأ] وقال عنها وعن القمر : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس] وعن النجوم قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام] .

وحين يأمرك بغضِّ بصرك [1] عن محارم جارك ، فهو يحمي محارمك أن ينظر إليها غيرك .

إذن : فالإيمان جاء بالنفعية لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، نجد الحق سبحانه يقول [2] : ﴿ اذْكُرُوا .. (٣) ﴾ . [فاطر]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تُحركه شهواته فهو يهتدي إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يأتِ صدفة .

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله ؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر . وتجد أن الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، وتناسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه في الكون مرة واحدة . لذلك جاء الرسل بالمعجزات التي تخرق النواميس ؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذي خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ،بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية في الكون .

ونحن نعلم أن الآلية التي يصممها البشر في بعض المعدات تتسبب في إحداث جمود ، فالعقل الإلكتروني ليست له قيومية على المعلومات المختزنة فيه ، فلا يستطيع أن يخفي منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يخفي ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] .

(٢) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾[فاطر] ، فالنعمة موجودة أوجدها الخالق سبحانه في الكون ، وطرأ الإنسان على الكون ، ولكنه تغافل فاحتاج إلى التذكرة من خالقه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا [1] الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢ ﴾ [البقرة]

فما دام قيل للإنسان : لا تكتم الحق . إذن : فله قدرة على الإخفاء .

والوردة الطبيعية – على سبيل المثال – حيويتها فى ذبولها على عكس الوردة الصناعية التى تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. ۝٨٠ ﴾ [المؤمنون]

أو ﴿ أَفَلَا تَـذَكَّرُونَ .. ۝٤ ﴾ [السجدة]

فهو يحرّض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار .

وأضـرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى مـحل للصوف لتشترى قماشاً متميزاً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده بيديه ليبين لك متانته ، ثم يأخذ منه خيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف خالص نقى ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف ؛ لأنه واثق من جودة ما يبيع .

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار .

والحـق سـبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه فى أن الإنسان منا ، إن فعل ذلك ؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

---

(١) التبس عليه الأمر : اختلط واشتبه . التلبيس : كالتدليس والتخليط . إلباس الحق بالباطل : خلطه به ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا .. ۝٦٥ ﴾ [الأنعام] .

وإياكم أن تظنوا أن الله خلَق لكم ، ثم خَلَق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم فى الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شىء ، ولا أحد بقادر على أن يختلس منه شيئا.

وفى الحديث القدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم. وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فَلِم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ».

وأنت فى الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوى منتبه.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ[1] وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وحين يقول سبحانه: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذى قد يُطاع ؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، ومن عصى يحزن ؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله[2] .

---

(١) حميم: ماء شديد الحرارة والسخونة.

(٢) وقد دلَّ القرآن على أن المؤمنين رغم طاعتهم لله إلا أنك تجدهم مشفقين من يوم القيامة وما فيه من أهوال وهذا لعظم إيمانهم بأن الله سريع الحساب وأنه سبحانه شديد العقاب؛ ولأنهم يعملون الطاعات ويخافون ألا تقبل، ويقعون فى المعاصى ويخشون ألاَّ يُغفر لهم. يقول سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ونجد القرآن يقول مرة : «يُرْجَعُون» ومرة يقول : « يَرْجعون» [1] ، فمن عمل صالحاً ؛ فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكفر ؛ فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجَع رغم أنفه ، والحق سبحانه يقول: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ [2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ⦗١٣⦘﴾ . [الطور]

وقوله سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ... ⦗٤⦘﴾ . [يونس]

وسُمِّى هذا المرجع فى نفس الآية : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا .. ⦗٤⦘﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: ولكن الوعد يطلق على الأمر الذى سيأتى بخير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصى لن يرى فى الرجوع خيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع للعاصى وعيد ؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما ينبه الإنسان لما ينتظره فى المستقبل ، ويعظه ، وترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعداً . والصيغة التى يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهى تعنى تفرُّد المرجع ، فكلنا نرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ⦗٥⦘﴾ . [الفاتحة]

إذن: فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصى أن يراجع نفسه قبل أن

(١) ورد قوله تعالى ﴿يُرْجَعُونَ﴾ فى ستة مواضع من القرآن الكريم: فى آل عمران (٨٣) والأنعام (٣٦) ومريم (٤٠) والنور (٦٤) والقصص (٣٩) وغافر (٧٧) .
* أما قوله سبحانه : ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فقد وردت ستة عشر مرة : [البقرة : ١٨] ، [آل عمران : ٧٢] ، [الأعراف : ١٦٨ ، ١٧٤] ، [يوسف : ٦٢] ، [الأنبياء : ٥٨ ، ٩٥] ، [النمل : ٢٨] ، [الروم : ٤١] ، [السجدة : ٢١] ، [يس : ٣١ ، ٥٠ ، ٦٧] ، [الزخرف : ٢٨ ، ٤٨] ، [الأحقاف : ٢٧] .
(٢) يدعّون: يُدفعون دفعاً عنيفاً . والدَّعّ: الطرد والدفع . قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ⦗٢⦘﴾ [الماعون] .

يرجع إلى الله . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت تنبه التلاميذ إلى أن يذاكروا طوال العام ، فالذى يذاكر فعلاً ، يفرح بالامتحان ؛ لأنه سوف ينجح فيه ، والذى لا يذاكر قد يراجع نفسه ويقبل على المذاكرة خوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار ؛ ليتهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً.

ويضيف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقّاً ؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يَصفَ وعده بأنه حق ليذكرنا بأن الحق هو الشىء الثابت ؛ فإن خُيِّل إليك فى بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبات له ولا سيادة.

وسبحانه يقول:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا [1] رَّابِيًا [2] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [3] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ . [الرعد]

فحين ينزل المطر نجد كل واد يأخذ من الماء على قَدْر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، نجد القش يطفو ومعه الحشائش والأشياء التى لا فائدة منها ؛ لأن الماء فى لحظة النزول إنما يُنظف المكان الذى ينزل عليه ؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة.

---

(١) الزَّبَد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجُه . وبحرٌ مُزْبِدٌ، أى : مائج يقذف بالزَّبَد . وزبَد الماء : طفاوتُه وقَذَاهُ. والجمع : أزباد.
(٢) رابياً : مرتفعاً؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء.
(٣) جفاء السيل : هو ما يقذفه من الزَّبَد والوَسَخ ونحوهما.

كذلك الباطل إنما يطفو على السطح لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذى يستقر وينفع الأرض والناس ، وطفو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مَثَلُه مَثَلُ الألم الذى ينبه للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذى لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التى يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً .

إذن : فالألم كالباطل ينبه جنود الحق ؛ ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيج الإسلام من أى عدو ، تجد الحماسة وقد دبَّتْ فى الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد ؛ للدفاع عن الإسلام .

وفى الأمراض التى تنتقل ببعض الفيروسات ، نجد الأطباء وهم يُطَعِّمون الناس من نفس ميكروبات أو فيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن : فالباطل جندى من جنود الحق ، كما أن الألم جندى من جنود العافية .

وإذا كان الحق هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ [1] جَمِيعًا﴾ فلا بد أنه الوعد الحق ؛ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزه عن الكذب وعن الخديعة ؛ لأنه القائل : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء]

ولأنه أقوى مما خلق ؛ ومِمَّنْ خلق . ولا تخونه إمكاناته ؛ لأنه يملك الكون كله .

وكلمة «الرجوع» فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ تفيد أن تكون

---

(١) مادة : رجع من باب ضرب - يرجع رجوعاً ، ورجع عاد إلى مكان منه قد بدأ ، فهو هنا لازم ، ورجعه غيره أعاده ورده متعد بنفسه ، ورجع بصره رده مرة بعد مرة فمن اللازم قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ .. ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف] . أى : عاد ، ومن المتعدى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ .. ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة] . أى : أعادك وردك ، ومن المعنوى قوله : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ .. ﴿٤﴾﴾ [الملك] - القاموس القويم صـ ٢٥٦ ، ٢٥٧

على شىء ثم تفارق هذا الشيء وبعد ذلك ترجع له ،فهى وجود أولاً، ثم خروج عن الوجود ، ثم عودة إلى الوجود الأول .فإذا كنت فى مكان ، ثم ذهبت إلى مكان آخر ، وترجع إلى المكان الأول ، فهذا هو الرجوع.

والقول هنا يفيد أننا سنموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]

وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾. [ق]

كأنهم قد استبعدوا فكرة البعث ، وقالوا أيضاً : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا[1] فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿١٠﴾﴾ . [السجدة]

أى: أنهم تساءلوا: هل بعد الموت والدفن وتحلُّل الجثمان[2] إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور[3]؟

وجاء هنا قوله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ليفيد أن الخروج إلى الوجود بالميلاد إلى الحياة ، ثم بعد ذلك خروج على

---

(١) ضللنا فى الأرض أى : ذهب أثرنا فى الأرض وخفينا بسبب تحلل أجسامنا .

(٢) الجثمان : الجسد. قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[هود] أى : أجساداً ملقاة فى الأرض.

(٣) النشور : بَعْث الموتى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس] أى: أحياه وبعثه.
وقال : ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك] ومنه يوم النشور: يوم القيامة.

وقضية البعث والنشور إحدى أربع قضايا رئيسية كان الكافرون ينكرونها، ويحكى عنهم القرآن قولهم: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء] ويقول سبحانه : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس] .

الحياة إلى مقابلها وهو الموت ، ومن بعد ذلك البعث.

وقد وقف الكافرون عند هذه النقطة واستبعدوها ، فأراد الله أن يبيّن لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعتم ، ثم ينتهي الأمر [1] ؟ لا ، إن هناك بعثاً وحساباً . لذلك قال : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا..﴿٤﴾﴾ [يونس]

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك ؟ يأتي القول الحق : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق من عدم ؛ أيعجز أن يعيد من موجود ؟ إنه الحق القائل :

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ . [مريم]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول :

﴿أَفَعَيِينَا [2] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ [3] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ؛ فانظروا إلى الخلق الأول ؛ فقد خلقكم من لا شيء ؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء ؟ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ .

---

(١) وفي هذا يقول سبحانه وتعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] قال ابن زيد ومجاهد : أيظن ابن آدم أنه يخلى مهملاً فلا يُؤمر ولا يُنهى . وقيل : أيحسب الإنسان أن يُترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث . ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/ ٧١٥٢) .

(٢) عَيَّ الإنسان بأمر : عجز عنه .

(٣) اللبس : اختلاط الأمر ، والشك .

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة [1]، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة، وقال:

﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً ... ۝٥﴾ [الحج]

أى: أرضاً ميتة وليس فيها أى حياة.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ [2] وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج]

إذن: فلا عجب أن تصدر حياة عن موت، وأنتم ترون ذلك كل ساعة. والحياة التى تراها أمامك ليست إلا دورة؛ لأن الله حين خلق الكون، خلق عناصره، ولا زيادة على هذه العناصر.

وخذ مادة واحدة وهى المياه، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص، ويشرب منها الإنسان والحيوان، ولو أخذ كل واحد فى حياته أىّ قدر من المياه، تظل المياه كما هى؛ لأن هذا الإنسان يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة، وكل ذلك يخرج منه، ويبقى ما يمثل وزنه.

إذن: فما أخذته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذى يعطيك طاقة الحياة، وبعد ذلك يتبخر الماء، وعملية التبخير هى

---

(١) قامت ضجة الفلاسفة على شبهات وافتراضات نشأت فى عقولهم عن استحالة البعث بعد الموت وأعطوا أمثلة ظنُّوها تؤيد فكرهم السقيم منها: من أكلته أسماك وحيوانات البحر أو أكله أسد أو وحوش مفترسة، وهى شبهات تقوم على أساس ما ذكره فضيلة الشيخ صفحة ٥٧١٤ عن مذهب الفلاسفة فى أن الله قد خلق الكون ثم ترك عناصره تتفاعل بقوانينها الذاتية، أى: أن الله ليست له قيومية على كونه. وقد رد القرآن على هذه الشبهات بوضوح بقول الله سبحانه عن خلق الله هذا الكون وقيوميته عليه وعلمه الذى يسع كل جزئيات الكون فلا تغيب عنه مثقال ذرة وهو سبحانه القادر الذى لا يخرج عن قدرته شىء. وما دام الله قد خلق الكون من عدم، فإن إعادته بعد فنائه أهون عليه سبحانه، ويقول عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۝٢٧﴾ [الروم]. ويقول تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة].

(٢) ربَتْ: عَظُمَت وانتفخت وزادت.

تقطير [1] للمـاء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنهـا إلى درجة الغليان فتتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها [2] لتعود مياهاً من جديد.

إذن: فـالماء له دورة ، نروى منه الزرع ؛ فيـأخـذ المائيـة ويصيـر أخضـر اللـون ، ويخـرج منـه المـاء الزائد عن حـاجتـه فى عـمليـة النتح [3] ، ثم يجف ، بعـد أن تخـرج منه الميـاه بالتبـخـر، وكل ذلك دون أن يشـعر أحـد بحكاية التبخير هذه.

وأنت حين تُحضِّر كوباً من الماء المقطر فى الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج مـوقداً وإناءً وأنابيب ، ثم إلى مـياه أخرى باردة لتكثف البخار ، ولكن هذه مسألة تحدث فى الكون ملايين المرات ، ولا يدرى بها أحد.

وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطّرة. ولذلك تجد أن مسـاحة رقـعة الماء ثلاثة أرباع الأرض لتخـدم الربع البـاقى (اليـابسـة) ؛ لأن الله يريد اتسـاع سطح الأرض ، وهذا الاتسـاع هو الذى يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف.

مثلما تجيء أنت بكوب ماء ، وتضعه فى حجرة ، ثم تغيب شهراً عن الحجرة ، فعند عودتك إليها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسيح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد أن اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البخر.

---

(١) التقطير : تنقية الماء وتصفيته مما قد يعلق به من مواد غريبة ضارة.
والتقطير : تحويل السائل إلى بخار بالحرارة ثم تبريده ليعود سائلاً كما كان وذلك بجهاز التقطير (المعجم الوسيط).
والبخار : كل ما يصعد كالدخان من السوائل الحارة (المعجم الوسيط) وتبخير الماء : تسخينه حتى يتحول إلى حالته الغازية ويتصاعد على هيئة بخار.

(٢) التكثيف : هو تعريض بخار الماء إلى سطح بارد ليتكثف عليه ويبرد فيعود إلى حالته السائلة [بواسطة جهاز التقطير].

(٣) نتح : رشح ، يقال : نتح العرق من الجلد، ونتح الإناء بما فيه ونتحه الحرّ، ونتح الماء من النبات نتحاً أى : خرج منه الماء الزائد عن حاجته. [المعجم الوسيط «بتصرف»].

إذن: الكمية التى خلقها الله من المياه كما هى ، لم تَزِدْ ولم تنقص ، تدور الدورة التى شاءها الحق ، وهكذا نرى أن الشيء يعود إلى أصله مرة أخرى ، ويمكن أن نرى ذلك فى كل أوجه الحياة ، والحق سبحانه يقول:

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا [1] (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) ﴾. [الذاريات]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التى تحمل السحاب ، وتمطر كل سحابة على الموقع المحدَّد لها بأمر من الله ، ويلفتنا الحق سبحانه هنا إلى دورة الماء ، الذى هو قوام الحياة ، بأن الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً.

تأمّل الوردة ، تجد لها نعومة ونضارة ؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من المائية ، ولها لون جميل ورائحة ذكية تفوح ، فإذا قطفتها تتساقط أوراقها وتجف ؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر ؛ فما أخذته الوردة من الماء عاد إلى مخزنه مرة أخرى ، وكذلك الرائحة تظل فى أوراقها الذابلة إلى أن تنتهى ، وكذلك اللون ، ثم تخرج وردة جديدة.

إذن: حياة كل كائن فى الوجود والعالم فى حركته ناشئة عن هذه الدورة ، فإذا كانت مائية حياتكم تدور ؛ أتستبعد أن تدور أنت بمكوناتك ؟ هَبْ أن إنساناً وُجد ومات ؛ بخروج الروح من الجسد ويُوارى الجثمان ويتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل مواد الجثمان مع عناصر الأرض

---

(١) الذاريات: الرياح. ذَرَت الريح التراب وغيره تذروه ذرواً: أطارته وأذهبته. قال تعالى: ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ (٤٥) ﴾ [الكهف] والحاملات وقراً: السحاب. والجاريات يسراً: السفن. والمقسمات أمراً: الملائكة. وقد ثبت عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه صعد منبر الكوفة، فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) ﴾ قال على رضى الله عنه: الريح. قال: ﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) ﴾ قال: السحاب. قال: ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) ﴾ قال: السفن، قال: ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) ﴾ قال رضى الله عنه: الملائكة. [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٢٣١].

لتصير تراباً ، فهل يعجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان؟ طبعاً لا يمكن أن يعجز.

الحياة - إذن - احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر ، فلم يزد شيء عليها ، ولم ينقص منها شيء.

واقرأ القرآن بتبصر تجد قوله الحق:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق]

وهكذا يبيِّن لنا الحق أن العناصر كلها موجودة فى الكون ، قد تزيد فى مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلى لكل العناصر ثابت ، وإذا كان العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكوِّن الكائنات [1] ، فهذه العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة فى عددها ، فالزيادة فى عدد العناصر ستكون أيضاً ثابتة الكَمِّ لكل عنصر.

وقال العلماء: إن الستة عشر عنصراً هى: الأوكسوجين، والكربون ، والهيدروجين، والنتروجين، والمغنسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، وغيرها.

كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتتحلل.

هكذا يصدق قول الحق:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ...④﴾ [ق]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا: هب أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره فى الأرض . ألا تذهب عناصره إلى

---

(١) كل كشف هو من أسرار غيبه سبحانه ، وله ساعة ميلاد يتجلى بها الخالق على كل من يتعامل مع الكون بحثاً وتأملاً وانتفاعاً ، وما دام القرآن خالداً فمدد الكشف سيظل وارداً ، وفي ورده انتفاع نحو المراد بقول الحق: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ⑩⑨﴾ [الكهف].

كائنات أخرى ، مثل شجرة أنتجت ثمرة أوغير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت فى أجزائه ، إذن : فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات فى إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كلَّ إنسان من جديد ؟

ونقول : أنت عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء . انظر مثلاً إلى السِّمنة والنحافة كظاهرة موجودة فى الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمنة أن كمية من مادة معينة تزيد فى الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر النحيف . وقد يطرأ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس . فهل هذا يغيِّر من شخصيته ؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين المشخصات وبين تكوين المشخصات من العناصر .

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شيء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التى فى الأرض تكفى كل الكائنات ، ويوزعها سبحانه بالنسب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت فى كيفية تكوين الكائنات .

مثال ذلك : أنك تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض ؛ فيهزل وينقص وزنه إلى سبعين كيلو جراما ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراما الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعدة يقف عندها الوزن إلى سن معينة ، وتُعتبر هذه هى القاعدة التى يزيد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة .

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء ؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوى - فى الكمية - ما يأكل ويشرب لَمَا كبر . ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوى

ما يدخل إليه ، ثم تأتي الشيخوخة فيخف الوزن ، وهذا يعنى أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه ؛ فتنشأ النحافة.

وهَبْ أن طبيباً حاذقاً [1] استطاع أن يعلم الداء الذى يسبب إصابة مريض ما بالهزال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته [2] ومعها ما فُقد من الوزن ، وتتحسن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا المريض ؟ طبعاً لا ؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء.

إذن: فلا تقل : إن هناك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب حفيظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتى بعناصر معينة ، ويأمرها بـ «كن» فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه.

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك ؛ ليثبت عقديّاً [3] وعقليّاً ؛ لأننا آمنا بأن هناك منهجاً من المكلِّف ، والمنهج عُرْضة لأن يطاع أو يعصى ، ومَنْ يُطع الله فى المنهج ، فهو يحدد حريته ، والذى لم يُطع الله واستسلم للضياع فهو الخاسر ؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته [4] ؛ لا يمكن أن يستوى مع من

(١) الحذق: المهارة فى العمل. تقول: حَذَق فلان فى عمله فهو حاذق ماهر.
(٢) مادة: عفا تقول مصادر اللغة عفا المنزل يعفو عَفواً وعُفُواً وعفاءً. أى: درس، وعفته الريح يستعمل لازماً ومتعدياً. ومنه: عفا الله عنك أى: محا ذنوبك، وعفوت عن الحق: أسقطته - وعافاه الله محا عنه الأسقام. والعافية اسم منه، وهى مصدر جاء على فاعلة كناشئة - المصباح صـ ٤١٩.
(٣) عَقَدىّ: نسبة إلى العقيدة، والعقيدة: صيغة مبالغة من العَقْد. والعقد: العهد والإيمان. والعقيدة: الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده. والعقيدة الدينية: يقصد بها الإيمان والاعتقاد فى الدين، كعقيدة وجود الله، وبعثة الرسل. والعقيدة الإسلامية هى الاعتقاد بصحة الدين الإسلامى وصدقه.
(٤) يكبح شهواته: يتحكم فيها فلا تطغى عليه، وهذا كالرجل المسك بلجام فرسه أو دابته حتى لا تجمح منه وتفلت من قيادها. (لسان العرب مادة ك ب ح).

عبث [1] ولا بد أن يفترض منطق العقل أن يوجد بعث يجازى بالطيبات مَنْ سار على المنهج ، ويعاقب مَنْ خرج على المنهج.

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف بـ«افعل» و«لا تفعل» ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن : لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسَنَ جزاءه ، وينال مَنْ أساء عقابه ؛ ولذلك قال الحق:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ... ④﴾ [يونس]

جاء هذا القول مطمئناً الملتزمين بالمنهج بأن هناك بعثاً وحساباً ؛ لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصي الشرير الذي شقيت الدنيا كلها بعصيانه العقاب، ولذلك لا بد من الإعادة ؛ ليجزى الله كل واحد بعمله بالقسط [2]. والقسط - كما أوضحنا من قبل - معناه العدل ، والمادة هي القاف والسين والطاء. ننطقها مرة «القسط» بكسر القاف. وننطقها مرة أخرى «القسط» بفتح القاف والقسط «بالكسر» هو العدل ؛ والقسط «بالفتح» هو الظلم ، ولذلك نجد قوله الحق:

---

(١) وهذا هو ميزان العدل الذي يثاب به الطائع ويجازى به العاصي، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ㉑﴾ [الجاثية].

(٢) قسط: من أسماء الله تعالى الحسنى« المُقْسِط »: هو العادل. يقال: أقسَطَ، يُقْسِط، فهو مُقْسِط إذا عَدَلَ. والقِسْط والإقساط: العدل. يقال: أَقْسَطَ وقسَطَ إذا عدل. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ⑮②﴾ [الأنعام] وقال سبحانه: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ㉟﴾ [الإسراء] وهو أقوم الموازين وقال عز وجل: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑨﴾ [الحجرات].
ومن معاني القِسْط أيضاً: الحِصّة والنصيب، والميزان، والمكيال. وقَسَّط الشيء: فرّقه وقسّمه. أما القَسْط والقُسُوط فهو الجورُ والعدول عن الحق. [اللسان: مادة (قسط)].

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا[1] ﴾ [الجن]

والمقصود بالقاسطين: الجائرون على حقوق غيرهم.

ونجد قوله الحق:

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة]

والمقْسطون : هم العادلون بين الناس.

إذن: فهناك «قسْط» و«قَسْط» ، وهناك شيء اسمه «قَسَط»[2] بالفتحتين وهو الانحراف في الرِّجلين. إلا أن المستعمل في كلمة «قسْط» هنا مقصود به العدل ، واسم الفاعل منها «قاسط» واستعملت في الجوْر. وهي مأخوذة من القَسْط لا من القسْط ، وتجد من أسماء الله «الْمُقسط»[3] ، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعنى العادل ، أي : ابتدأ بالعدل أولاً ، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالْمُقْسط ؛ لأنه هو الذي يرفع الجور فيحقق العدل.

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: جزاء منه بالعدل ، وأيضاً يمكن أن نقول: إنه سبحانه يجزيهم ؛ لأنهم عدلوا في العقيدة ؛ لأن القرآن الحكيم - كما نعلم - جاء حاكماً وفيصلاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختيار في الأفعال

(١) الحطب: ما أعدّ من الشجر لإشعال النار. والمراد أنهم سيكونون في عذاب شديد؛ إذ جعلهم الله في جهنم بمثابة الحطب للنار؛ زيادة في عذابهم، وتحقيراً لشأنهم.

(٢) القَسَط : عيب في الرِّجْل، والرِّجْل القَسْطاء هي التي في ساقها اعوجاج حتى تتباعد القدمان وتنضم الساقان. [اللسان : مادة (قسط)].

(٣) اسم الله «المقسط» لم يرد به القرآن اسماً من أسماء الله تصريحاً، بل على سبيل الإشارة، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران] ، وهو من صفات الأفعال، وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) وأحمد (٤/ ٤٠٠ ، ٤٠١) وابن ماجه في سننه (١٩٥).

وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المنهج بدون ظلم لله فلم يشركوا به أحداً ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ . [لقمان]

إذن: فهم بعدلهم وبقسطهم فى أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك الذى هو ظلم عظيم [1] ؛ وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، ولم يأخذ واحد منهم لنفسه متعة عاجلة ؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدى الطويل ، وهم لم يظلموا الناس. ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على العمل الصالح بسبب عدلهم وقسطهم.

وقد يقال: إن الجزاء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان الجزاء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن شاء [2] ، هذا هو عدل الله بالتشريع. أو أن الجزاء يُعطى بلا زيادة ولا نقصان جزاء العدل ، ولكن ذلك لم يحدد الفضل فى هذه الآية. ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام فى قول الله سبحانه:

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] قال أصحاب رسول الله ﷺ : وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ : «إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] إنما هو الشرك ». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٧٨) .

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام] ، وكان العدل والقسط يقتضى أن يكون جزاء الحسنة حسنة مثلها ، وجزاء السيئة سيئة مثلها ، ولكن فضل الله ورحمته أن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وعلى هذا دلَّتْ أحاديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال : «إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة» . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣١) وأحمد فى مسنده (١/ ٢٧٩) واللفظ لأحمد . ومن دعاء العارفين : اللهم عاملنا بفضلك لا بعدلك وبإحسانك لا بميزانك .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم]

فقال بعضهم: إذا كان الإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى ، فكيف يُجزى جزاء على الحسنة بعشر أمثالها ؟ وكذلك ماذا عن صلاة الجنازة ؟ وهل ينتفع بها الميت حين ندعو له بالمغفرة [١] ؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن ينتفع بها الميت ، فلماذا كلفنا الحق سبحانه بصلاة الجنازة كفرض كفاية ، لا فرض عين [٢] ؟

ونقول: إن وجود اللام في قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ ﴾ يفيد المُلك ، أى: الحق ، والآية تعطى الحق ولكنها لم تمنع الفضل ، أو نقول: هل نصلى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المؤمن ، والإيمان من عمله ، وهو يُجازى بصلاتنا عليه ، أى: جزاء عمله.

ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر ، مثلما يجيء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح.

إذن: فالقسط هنا تعود على قسط الله ، وهو العدل ، وكذلك قسطهم هم ؛ لأنهم حكموا في الربوبية بالعدل . أما الكافرون ، فالعدل معهم أن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء» أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٩٧) وأبو داود (٣١٩٧) وفيه عنعنة ابن إسحاق ، قال شمس الحق فى شرحه لسنن أبى داود (٨/ ٣٤٤): «لكن أخرجه ابن حبان من طريق أخرى عنه مصرحاً بالسماع وصححه».

ومن الأدعية المأثورة الواردة فى هذا ما ذكره أبو هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة، يقول : «اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا . اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان . اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده». أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٩٨) وأبو داود (٣١٩٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٦٨) .

(٢) معنى فرض الكفاية أنه إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع . أما فرض العين : فهو الفرض الذى يتوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عمله مثل الصلاة وغيرها من العبادات إذا انتفت الأعذار وتحققت شروطها فى حق آحاد المسلمين .

يذيقهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجح أن القسط هنا هو قسطهم هم.

وكلمة ﴿حَمِيمٍ﴾ مأخوذة من مادة «الحاء» و«الميم» و«الميم» وهى مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ [1] يَشْوِي الْوُجُوهَ... (٢٩)﴾ [الكهف]

و﴿كَالْمُهْلِ﴾ أى: أنه يغلى ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء الغليان تكون أعلى من درجة حرارة غليان الماء ؛ فالنحاس مثلاً حين يغلى تكون درجته أعلى من درجة غليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ [2] (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ [3] (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

---

(١) المهل : النحاس المذاب أو الزيت المغلى . قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)﴾ [المعارج]. [اللسان : مادة (مهل)]. ومن معانى المهل أيضاً: الماء الغليظ مثل دردى الزيت. وقيل: هو كالدم والقيح.

(٢) الزقُّوم: طعام أهل النار. قال ابن سيده: لما أنزلت آية الزقوم ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤)﴾ [الدخان] لم يعرفه قريش، فقال أبو جهل: إن هذا الشجر ما ينبت فى بلادنا، فمن منكم يعرف الزقوم؟ فقال رجل قدم عليهم من إفريقية: الزقوم بلغة إفريقية: الزبد بالتمر؛ فقال أبو جهل: يا جارية، هاتى لنا تمراً وزبداً نزدقمه؛ فجعلوا يأكلون منه ويقولون: أفبهذا يخوفنا محمد فى الآخرة؟ فبيّن الله تعالى ذلك فى آية أخرى، فقال فى صفتها: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]. وقال الأزهرى: افتتن بذكر هذه الشجرة جماعات من مشركى مكة، فقال أبو جهل: ما نعرف الزقوم إلا أكل التمر بالزبد، فقال لجاريته: زقّمينا. وقال رجل آخر من المشركين: كيف يكون فى النار شجر، والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ (٦٠)﴾ [الإسراء] أى: وما جعلنا هذه الشجرة إلا فتنة للكفار. ومن معانى الزقوم: كل طعام يَقْتُل، والزَّقْمَة: الطاعون. [اللسان: مادة (زقم)]

(٣) قال الفراء: الأثيمُ الفاجر، وقال الزّجّاج: عُنى به هنا أبو جهل بن هشام. والأثيم صيغة مبالغة من الإثم، أى: كثير الذنوب. [اللسان: مادة (أثم)].

إذن : فدرجة غليان المهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة.

وإن نظرنا إلى كلمة «حمّام» و«استحم» ، فهى تعنى أن الماء حين ينزل على البدن يكون له ثلاث صور: الصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية غسل ، والصورة الثالثة استحمام. والمسح أن تبل الشىء بالماء بدون أن يقطر منه شىء ، والغسل أن تُسَيِّل الماء من الجسد المغسول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة للماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، فإن أحدثت [1] فأنت تقوم لتتوضأ.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... (٦)﴾ [المائدة]

تنفيذاً لأمر الله وهو غسل التطهير ، ويقوم مقامه التراب فى حالة عدم وجود الماء وهو التيمم [2] . أما إذا كانت المسألة تنظيفاً فهى تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون دهنية ، وبعد ذلك تطرأ عليها أتربة تسدها ، وهذه المسام أبعاض من الإنسان وأبعاض من تراب طاهر جاء على الجسم ، وهى لا تنجسه ، فإن اغتسلت فيكفى أن تصب الماء على الجسم ، ولو بقى بعض من ذرات التراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتى بماء حار ؛ ليذيب القذارة وينقّى المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة.

(١) الإحداث : خروج شىء من أحد السبيلين من فساء أو ضراط أو براز وبول . وكل هذا يوجب الوضوء للصلاة.

(٢) التيمم فى اللغة هو القصد. وفى اصطلاح الشرع هو القصد إلى الصعيد الطاهر وهو كل ما صعد على الأرض من التراب وغيره، لمسح الوجه واليدين عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، وكيفية التيمم أن يقدم النية ثم يسمى الله تعالى، ويضرب بيديه الصعيد الطاهر، ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين، ومن السنة عند البخاري ومسلم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر أنه لمن تيمم بالتراب أن ينفض يديه وينفخهما منه، ولا يعفر به وجهه.

إذن: هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير ؛ وبين الاستحمام الذى هو للنظافة . ونأخذ منه الحمام ، إذن: مادة الحاء والميم فيها الحرارة [١] وفيها السخونة .

ويقول الحق هنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ، وكلمة ﴿شَرَابٌ﴾ تفيد الارتواء ، فلماذا جاء بها الله هنا ؟ إنها تصعيد للعذاب ؛ لأن الإنسان يرغب فى الشراب ليرطِّب جوفه ، فإذا ألهبه ما يشرب ، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا [٢] يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ [٣] الشَّرَابُ ... (٢٩)﴾ [الكهف]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط الأمل فى صدر الآية ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ وهم يستشرفون للنجاة ، ثم يأتيهم غوث من لون يناسب ما اقترفوه من ذنوب ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ .

إذن: فـ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى: بسبب كفرهم. وعرفنا أنهم كفروا بالقضايا العقدية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) حم الماء يحم حما من باب فرح . قال تعالى : ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ .. (٧٠)﴾ [الأنعام] اشتدت حرارته فهو حميم أى : ساخن شديد الحرارة ومنه الاستحمام للفعل والحمام للمكان والفعل معاً ويطلق الحميم: على القريب المشفق لأنه ذو حرارة وجدة قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء] .

(٢) يستغيثون: يصرخون طالبين الغوث والماء من شدة العذاب والعطش؛ فيأتيهم الغوث (العون) عذاباً جديداً، ماء شديد السخونة كالزيت المغلى يحرق وجوههم. وهو غوث مناسب لأعمالهم السيئة وذنوبهم وآثامهم فى الدنيا. [اللسان : مادة (غوث)].

(٣) بئس: كلمة تطلق على كل ما يستحق الذمَّ الشديد. [اللسان : مادة (بأس)].

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

وبعد أن بيَّن الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره للإنسان جاء لنا بنعم من آياته التى خلقها لنا ، والتى جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لقوام[2] الحياة ؛ فالشمس هى التى تُنضج لنا كل شىء فى الوجود ، وتعطى لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تبخر المياه - كما قلنا من قبل - لينزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً[3] ، يرتوى منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروى به الزرع.

والشمس هى الأم لمجموعة من الكواكب التى تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم. فيقول الحق سبحانه هنا:

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ ولو نظرت إلى المعنى

---

(١) منازل القمر : مواضع تحركه ، أى : مداره حول الأرض . ومواقعه بين الشمس والأرض ، وتبعاً لتغير هذه المواقع تتغير صورته التى نراه عليها . قال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس] ، وقال سبحانه : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام] .

(٢) قوام كل شىء : أى : ما يقوم به ، وعماد كل شىء ونظامه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴿٥﴾ ﴾ [النساء] أى : تقوم بها معايشكم من التجارات وغيرها .

(٣) الفرات : الماء الشديد العذوبة . يقال : ماء فرات ، ونهر فرات . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المرسلات] . [المعجم الوسيط : مادة (فرت)] .

السطحى فى الشمس والقمر لقلت : إن الشمس تعطى نوراً وكذلك القمر ، ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تفرّق بين الاثنين ؛ فالشمس تعطى ضياء ، والقمر يعطى نوراً . والفرق بين الضياء والنور يتمثل فى أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، والنور إنارة حليمة ، ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم ؛ فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها.

إذن : فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتيّاً من المضىء مثل الشمس . أما القمر فضوؤه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه.

إذن : القمر مضىء بغيره ، أما الشمس فهى تضىء بذاتها . لذلك قال الحق هنا : ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ .

وكلمة ﴿ضِيَاءً﴾ إما أن تعتبرها مفرداً مثل صام صياماً ، وقام قياماً ، وضاء ضياءً . وإما أن تعتبرها جمعاً ، مثلها مثل حوض - جمعه : حياض ، ومثل روض - جمعه : رياض ، وكذلك جمع ضوء هو ضياء.

إذن : كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ تصلح أن تكون جمعاً وتصلح أن تكون مفرداً ، وحين يجىء اللفظ صالحاً للجمع وللإفراد ، لا بد أن يكون له عند البليغ ملحظ ؛ لأنه يحتمل هذه المعانى كلها ، وقبل معرفتنا أسرار ضوء الشمس وقبل تحليله ، كنا نقول : إنه ضوء ، لكن بعد أن حللنا ضوء الشمس ، وجدنا أن ألوان الطيف سبعة منها ضوء أحمر ، وضوء أخضر، وضوء أصفر ، وغيرها [1] .

---

(١) ضياء تصلح للإفراد باعتبار أن الضياء مصدر ألوان الطيعة ، وتصلح للجمع باعتبار الألوان المنبثقة من الضياء ، وهذه إشارة لأسرار الله فى كونه .

إذن : فـ «ضياء» تعبر عن تعدد الألوان المخزونة فى ضياء الشمس ، فإن قلت : ضياء جمع ضوء ، فهذا بتحليل الضوء إلى عناصره كلها ، وإن قلت : ضياء مثل قيام ، ومثل صيام ، فهذا يصلح فى المعنى العام.

ولذلك كان القرآن ينزل بما تحتمله العقول المعاصرة لنزوله التى لا تعرف المعانى العلمية للظواهر . ولو قال القرآن هذه الحقائق ، لقال واحد : إننى أرى الشمس حمراء لحظة الغروب ، وأراها صفراء لحظة الظهيرة ، وهو لا يعلم أن الحمرة وقت الغروب هى حمرة فى الرؤية لطول الأشعة الحمراء ، وهى لا تظهر إلا حين الغروب حيث تكون الشمس فى أبعد نقطة ، فلا يصل إلينا إلا الضوء الأحمر ، أما بقية الأضواء فهى تشع فى الكون ولا تصل إلينا.

إذن : كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ ، إما أن تعتبرها جمع ضوء ، مثل سوط وسياط ، وحوض وحياض ، وروض ورياض ، وإما أن تعتبرها مفردة . هذه صالحة للمعنى العام ، وتلك صالحة للمعنى التحليلى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا [1] وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا [2] وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان]

والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو وصف مناسب للشمس.

---

(١) من معانى البروج : الكواكب والنجوم والقصور، وبروج (أبراج) الفَلَك وهى اثنا عشر برجاً تبدأ بالحَمَل. قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج] وقال : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴿١٦﴾﴾ [الحجر] ، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾﴾ [النساء]. [اللسان: مادة (برج)].

(٢) السراج: المصباح الزاهر الذى يُسرج بالليل، ووُصفت الشمس بالسراج؛ لأنها سراج النهار، أى: مصباحه ومصدر نوره. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ] ، وقال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح]. [اللسان : مادة (سرج)].

وهنا يقول الحق : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ ، وكلمة ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ تعود فى ظاهر الأمر إلى القمر . لكن فى الواقع أن الشمس لها منازل [1] أيضاً ، وقال الحق : ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ لأن هناك شيئاً اسمه «الجعل» [2] ، فهو سبحانه جعل الشمس ضياء ، وجعل القمر نوراً .

إذن : فالجَعْل جاء بأمرين اثنين ؛ جعل للشمس ضياء وجعل للقمر نوراً ، هذا الجعل نفسه جعله الله لنقدر به الزمن ، فهو صالح للاثنين ؛ للشمس وللقمر ؛ لنعلم عدد السنين والحساب .

وفى العبادات نحتاج إلى تحديد بداية شهر رمضان [3] ؛ لنمارس عبادة الصوم ، ونحتاج إلى تحديد أشهر الحج [4] ، وكذلك تحتاج المرأة مثلاً إلى حساب شهور العدة [5] ، وكل هذه التقديرات تخضع للهلال ، فهو علامة واضحة للكل ، فهو يبدأ صغيراً ويكبر ثم يصغر .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ ﴾ [الرعد] ، وقال : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ ﴾ [يس] ، وقال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] .

(٢) جعل : خلق أو صيَّر . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۝ ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾ [الفيل] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ ﴾ [النبأ] . [اللسان : مادة (جعل)] .

(٣) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الشهر تسع وعشرون ، فإذا رأيتم الهلال فصوموا ، وإذا رأيتموه فأفطروا ، فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٨٠) .

(٤) شهور الحج هى : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة . قال ابن عمر رضى الله عنهما : أشهر الحج شوال وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة . [فقه السنة : ١/ ٤٦٢] . وقيل شهر ذى الحجة بتمامه .

(٥) العدة : مأخوذة من العدد والإحصاء ، أى : ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء . وهى أنواع بحسب حال المرأة ، فإن كانت زوجة غير مدخول بها ، فلها حالتان ، إذا طُلِّقت فلا عدة عليها ، أما إن مات زوجها فعليها العدة أربعة أشهر وعشراً . أما إن كان مدخولاً بها ، فإما أن تكون ممن يحضن ، فتكون عدتها ثلاثة قروء ، وإما أن تكون ممن لا يحضن ، فتكون عدتها ثلاثة أشهر . أما عدة الحامل فهى بوضع الحمل ، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها . انظر تفصيل هذا فى فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٣٤١ - ٣٥٠) .

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[1] الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس]

و«العرجون» هو ما نسميه «السباطة[2]» التى تحمل «شماريخ» البلح ، وكانوا يصنعون منها قديماً المكانس التى يكنسون بها بيوت البادية والريف ، وهكذا أعطانا الله تشبيهاً من البيئة التى عاش فيها العربى القديم.

وفى أول كل شهر كلنا نرى الهلال كعلامة مخبرة عن ميلاد الشهر ، وهكذا تعلَّم الإنسان أن يحسب الشهور بتقدير منازل القمر ، وبالنسبة للسنة ؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة]

والتقدير هنا اثنا عشر شهراً هلاليّاً . أما اليوم فيقدر بالشمس ؛ لذلك فهى تدخل فى تقدير المنازل . وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد شاء أن يجعل «الجعل» لأمرين ؛ مجعول الشمس ، ومجعول القمر ، مصداقاً لقوله : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ .

والحق - كما أوضحنا - هو الشىء الثابت الذى لا يتغير . وحين نتأمل مسار الأفلاك[3] ، ومسار الشمس ، ومسار القمر ، لا نجد فيها خلافاً ، بل نجد مراصد الكفار تعلن مواعيد تواجد القمر بين الأرض والشمس ، وقد توجد الأرض بين القمر والشمس ، ويتسبب هذا فى ظاهرتى

---

(١) العرجون : العذق اليابس أو الغصن الجاف ، قال ابن عباس : العرجون هو أصل العذق وهو العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى . والقمر فى آخر الشهر يكون صغيراً ويشبه العرجون . [اللسان : مادة (عرجن)] .

(٢) المراد بالسباطة : جريد النخل اليابس .

(٣) الفلك : مدار النجوم . وفَلَكُ كل شىء : مُسْتداره ومُعْظمه . قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] . [اللسان : مادة (فلك)] .

الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وكل هذه الأمور تجدها عندهم غاية في الدقة .

﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

وهذا القول الحكيم قد أثبت للعرب حكماً يعتقدونه ، ونفى حكماً آخر يعتقدونه ، فالعرب كانت تعتقد أن الليل قبل النهار ، بدليل أن تحديد الليلة الأولى في رمضان هو الميعاد الذي يبدأ فيه شهر الصوم ، وما داموا قد حكموا بأن الليل هو الذي يسبق النهار ، فلا بد من حكم مقابل ؛ وهو أن النهار لا يسبق الليل .

وجاء القرآن إلى القضية المتفق عليها وتركها ، وهي أن النهار لا يسبق الليل مثلما اعتقد العرب ، ونفى القرآن أن يسبق الليل النهار . وكان المخاطب - إذن- يعتقد أن الليل يسبق النهار ، ويصحح الله المفاهيم فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل .

وهكذا عرض الحق سبحانه للكونيات عرضاً رمزيّاً في القرآن ؛ لأنه لو جاء بالتوضيح العلمي لذلك لكَذَّب العرب القرآن ، فلو قال القرآن بصريح العبارة : إن الأرض كروية ، لعارض الناس ذلك وقت نزول القرآن ، وما زلنا نجد من يعارض تلك الحقيقة في أواخر القرن العشرين ؛ لذلك لم يكشف الحق كل الحقائق الكونية ،بل أشار إليها بما يحتمل قبول العربي البسيط لها .

وما دام الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، فكيف جاء هذا الأمر - إذن ؟

ونقول : هل خلق اللهُ الشمسَ مواجهة لسطح الأرض أولاً ، ثم غابت الشمس فجاء الليل ؟ كان هذا الأمر يصح لو أن الأرض كانت مسطوحة ،

ولكن الحق سبحانه خلق الأرض كروية ، وذلك دليل على أن الحق سبحانه خلق الشمس والأرض على هيئة يوجد فيها الليل والنهار معاً ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية ، فالنصف المواجه للشمس يكون الوقت فيه نهاراً ، وغير المواجه لها يكون الوقت فيه ليلاً ، ثم تدور الأرض ؛ فيأتى النهار إلى القسم الذى كان ليلاً ، ويأتى الليل للقسم الذى كان نهاراً.

إذن : فالحق سبحانه حكى فى القرآن الكريم عن الأمور الكونية - التى سوف تستكشفها العقول بعد نزول القرآن - وعالجها بحكمة ودقة ، وعلى سبيل المثال نجد قوله الحق:

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ... (٦٢) ﴾ [الفرقان]

ثم يأتى التعليل:

﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان]

فالليل خلْفة النهار ، ومعنى خلفة أى : يخلف غيره . والمثال من حياتنا نجده فى دوريات الحراسة ، نجد إنساناً يحرس موقعاً ما - مدّة ست ساعات مثلاً - وبعد انتهاء فترة الحراسة يسلم المهمة لحارس ثان ، وبذلك يخلف واحدٌ الآخر ، لكن من الذى بدأ المهمة الأولى فى الحراسة قبل أن يأتى إنسان ليتسلم منه دورية الحراسة ؟

وكذلك الأمر فى الليل والنهار ، فبيّن الحق سبحانه أن الليل والنهار خلْفة ، ومعنى ذلك أن كلا منهما كان موجوداً من البدء ولأن الأرض تدور جَاء النهار فى البلاد التى تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل فى البلاد التى تغيب عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار . هكذا فَصَّل الحق سبحانه آياته

لنا ، وقال سبحانه : ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [1] .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴾

وهكذا بينّ الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليها ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخَّر الكون كله ؛ لخدمة السيد وهو الإنسان.

ولو نظرتَ إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل فى نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام ؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة . ويصبر الإنسان على المأكل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نَفَس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نَفَس الهواء مقدار شهيق وزفير.

لذلك شاء الحق أن يملك قومٌ طعام غيرهم ؛ لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد تصل إلى الشهر ويعتمد فى ذلك على إذابة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود . أما الجسم فيتحمل لعل مَنْ يملك الطعام

(١) فصل عن المكان من باب ضرب : جَاوَزَهُ قال تعالى :﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ (٩٤) ﴾ [يوسف] والفصال : الفطام ، قال تعالى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ (١٤) ﴾ [لقمان] والفصل : التمييز . ويوم الفصل : يوم القيامة . وفصل الخطاب : القول الصائب المميز بين الحق والباطل، قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) ﴾ [النبأ] ، وفصل الشيء جعله أقساماً متميزة قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾[الإسراء] وقال تعالى : ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ (١٣٣) ﴾ [الأعراف] . أى : مبينات ومنه قوله تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴾ [يونس] - القاموس القويم : ص ٨٢ ، ٨٣ .

يخفف من القيود ، أو لعل الإنسان الجائع يجد طريقه لينال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكار البشر له ؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يُملِّك الهواء لأحد ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسي للحياة ؛ ولذلك اشتق منه لفظ النّفس ، ونَفْس ، ونَفَس .

ولو نظرتَ إلى الهواء في الوجود كله لوجدته عامل صيانة لكل الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المباني التي عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الجبال ، كل ذلك بفعل الهواء ؛ لأن تياراته التي تحيط بجوانب كل الأشياء هي التي تثبّتها ، وإنْ تخلخل الهواء في أي ناحية حول تلك المباني والجبال فهي تنهدم على الفور .

إذن : الهواء هو الذي يحفظ التوازن في الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضتَ ألفاظ القرآن لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصريف [1] الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقّة خالقٍ ، بدقة إله حكيمٍ ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الحق :

﴿ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [2] ... (٢٢) ﴾ [الحجر]

---

(١) وتصريف الرياح تحويلها من جهة إلى جهة ، وتصريف الأمور إدارتها من حال إلى حال . والصرف : رد الشيء من حال إلى حال . وصرف النقود تغييرها أو إنفاقها ، وصرف السجين أخلى سبيله ، وصرف القلوب - تحويلها من الهدى إلى الضلال كقوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧) ﴾ [التوبة] القاموس القويم جـ١ : ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) قال ابن السكيت والأزهري : لواقح أي : حوامل ؛ لأنها - الرياح - تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تستدرّه . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧) ﴾ [الأعراف] . [اللسان : مادة (لقح) . . بتصرف] .

لكن إذا جاء بذكر ريح ففى ذلك العقاب ، مثل قوله:

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الحاقة]

ومثل قوله:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا [2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ..﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

لأن الرياح تأتى من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهى تأتى من ناحية واحدة فتدهم [3] ما فى طريقها.

وهنا يقول سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنه جاء بالمخلوقات الأخرى مجملة بعد أن جاء بذكر الشمس والقمر كآيتين منفصلتين ، ثم ذكر السموات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ، وسحاب ، ونجوم وعناصر فى الكون ، كل ذلك مجمل فى قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ لأنه لو أراد أن يفصِّل لَذكَرَ كثيراً من الآيات والنعم ، وهو القائل:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) ريح صرٌّ وصَرْصَرٌ : شديدة البرد والصوت. قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران]. وصرَّ الطائر : صاح ، وصَرَّ الباب يصرّ صريراً : أصدر صوتاً عالياً ممتداً ، والصَّرَّة : الضجة والصيحة والشدة من الكرب والحرب وغيرهما . [اللسان : مادة (صرر)].
وعاتية : شديدة جداً. والعاتى : الجبَّار . [اللسان : مادة (عتا)].

(٢) العارض : السَّحابة إذا كانت فى ناحية من السماء، والعارض يكون أبيض اللون . [اللسان : مادة (عرض)].

(٣) تدهم : تهجم بشدة حتى تغشى مَنْ وما فى طريقها . [اللسان : مادة (دهم) بتصرف].

والقرآن ليس كتاباً لبسط المسائل كلها ، بل هو كتاب منهج ، ومن العجيب أنه جاء بـ«إن» وهى التى تفيد الشك فى قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ ؛ لأن أحداً مهما أوتى من العلم ليس بقادر أن يُحصى نعمَ الله فى الكون ؛ ولأن الإقبال على العَدّ فرض إمكان الحصر ، ولا يوجد إمكان لذلك الحصر ؛ لذلك لم يأت بـ«إذا» ، بل جاء بـ«إنْ» وهى فى مقام الشك .

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدَّ يقتضى التكرار ، ولم يقل الله سبحانه : وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء بـ«نعمة» واحدة ، وإذا استقصيتَ ما فى النعمة لوجدتَ فيها آلاف النعم التى لا تُحصَى .

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثانى على المعجزة الدالة على صدق الرسول [1] ، والإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجيبة من عجائب الكون الواضحة فى الوجود [2] الدالة على عظمة الله سبحانه .

وهذه الآيات خلقها الله لتُلفت إلى مُكَوِّن [3] هذه الآيات ، واللفتة إلى مُكوِّن هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان فى انسجام مع الكون الذى أنشىء

---

(١) والآية بمعنى أنها معجزة من المعجزات الدالة على صدق الرسول قد جاء بها القرآن على لسان المشركين والكافرين فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة] ونحو قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنعام] .

(٢) وهى الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق وتدبير الكون وتسييره بنظام لا يختل ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم]

(٣) والالتفات إلى المكون يقتضى مراحل ثلاث : مرحلة الإدراك ، ومرحلة الانفعال ، ومرحلة الاختيار ، فإدراك الآية يجعلك تنفعل بها ، فإذا انفعلت اخترت المكون توحيداً بحب وعبادة بصفاء وانسجاماً بأخلاق ، وهنا تتم النعم بمعية الله .

من أجله ، بحيث لا يأتى له بعد ذلك ما ينغّص هذا الانسجام ، فهبْ أن إنساناً ارتاح فى حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة بشقاء وجحيم ، فما الذى استفاده من ذلك ؟

إذن : كل المسائل التى تنتهى إلى زوال لا يمكن أن تُعتبر نعمة دائمة ؛ لأن النعمة تعنى أن تتنعم بها تنعُّماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت لا تفارقها ، والدنيا فى أطول أعمارها ؛ إما أن تفوت النعمةُ فيها الإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمةَ.

والحق - سبحانه وتعالى - يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله ؛ ليصلوا إلى نعيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا فى آيات الكون ؛ لأنهم حين ينظرون فى آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادوا فائدتين : الفائدة الأولى أن يفيدوا مما خلق الله ، والفائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذى خلقه الله إنما جعله وسيلة ومَعْبراً إلى غيره ، فقد خلق فيه الخلق ليعيش بالأسباب، ولكنه يريد أن يُسْلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالمسبِّب وهو الله . فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، والذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر فى الكون وتمر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [1] (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما فى آيات الحق من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله سبحانه ؛ فهم غير حريصين على أن يَقُوا أنفسهم عذاب الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك:

(١) أعْرَض يُعْرِضُ إعراضاً، فهو مُعْرِضٌ، والجمع: مُعْرِضون. أعرض عن الشيء: إذا ولاه ظهره وابتعد عنه. [اللسان: مادة (عرض).. بتصرف].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمنى طلب شيء محبوب إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكنك تعلن بتمنّيك أنه أمر تحبه ، مثل من قال:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ... فأخبرَهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

هو بهذا القول يبين أن الشباب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأتى هذا ؟ طبعاً لا . إذن : التمنى هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع ؛ ومثل قول الشاعر:

ليتَ الكواكبَ تَدْنُو لى فَأَنْظِمَها ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُم كَلِمِى

وهذا غير ممكن.

أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ، فلماذا لا يرجون لقاء الله ؟ لأن الذى يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء ؛ ليستقبل ثواب الله ، لكن الذى لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله ؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله ؟ إنه لا يرجو ذلك[1] .

وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذى يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ، ونفسه هى أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله

(١) الرجاء: الأمل المتوقع قريباً ، ضد اليأس . رجاه ، من باب نصر - يرجوه رجواً ورجاء : توقعه مع إرادته إياه وسروره به ، أو مع خوفه منه ، ويستعمل الرجاء بمعنى الخوف ، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح] . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. ﴿٧﴾﴾ [يونس] . أى : لا يخافون لقاءنا أو لا يأملون لقاءنا ، فيعملون على تهيئة نفوسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح ، والرجا : الناحية وجمعه أرجاء . قال تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة] .

بالاستشهاد خير مما يتركه من الحياة.

إذن : فالذى يرجو لقاء الله هو الذى يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء ؛ بأن يتقى الله فى أوامره ، ويتقى الله فى نواهيه ؛ ولذلك تمر على الإنسان أحداث شَتّى ؛ وهى فى مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات ، وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغشُّ أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّاً فقد يجعله الأمل يكذّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات.

أما إذا جاءته لحظة الغرغرة [1] فى الموت ، فهو يستعرض كل صفحته . فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهرّ وجهه ، ولذلك يقال : «فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة» . وهذا كلام صحيح ؛ لأن الروح ساعة أن تُقبض فهى تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإن كان ضاحكاً ومستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير.

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل فى العافية ، فإذا أتى وقت انتهاء الحياة تُعْرَضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً ، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره ؛ لأنه يستشرف ما سوف يلقاه من جزاء.

وهذا مثل التلميذ حين يكون مُجداً ومجتهداً ثم يقولون له : هناك من جاء لك بالنتيجة ؛ فيجرى عليه مطمَئناً . وإن كان غير مُجِدٍّ ؛ لم يجب ، ويخاف من لقاء مَنْ يحمل النتيجة.

كذلك الذين يرجون لقاء الله ؛ عملوا استعداداً لهذا اللقاء وينتظرون

---

(١) الغرغرة: تردُّد الروح فى الحلْق . [اللسان : مادة (غرر)]. ولحظات الغرغرة ووصول الروح إلى الحلق هى التى ينقطع عندها قبول التوبة ، فعن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال : حديث حسن غريب، والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبى وابن حبان (٢٤٤٩ - موارد الظمآن).

الجزاء من الله ، أما من لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا فى الآخرة . وقد سمى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها ، فقال : ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ . ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هى الحياة العليا [1] .

والإنسان قد يبحث فى عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوت فى هذه الدنيا .

إذن : فالدنيا بالنسبة لك هى مقدار عمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقى إلى أن تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهى تطول لغيرك؟ إن عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مُكْث الإنسان فيها ، وهو مظنون وغير متيقن ، وقد يموت وهو فى بطن أمه أو يموت وهو ابن شهر ، أو ابن سنة ، أو بعد أن يبلغ المائة . فالذى يرضى بغير المتيقن قصير النظر.

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول:

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ [2] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي

---

(١) عن المستورد بن شداد قال قال رسول الله ﷺ : «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع؟» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٢٩ ، ٢٣٠) والترمذى فى سننه (٢٣٢٣) وقال : حديث حسن صحيح.

(٢) ذكر الله تعالى المتاع ، والتمتع ، والاستمتاع ، والتمتيع فى مواضع من كتابه الكريم ، ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى أصل واحد . والمتاع : هو كل شيء ينتفع به ويتبلغ به ويتزود ، والفناء يأتى عليه فى الدنيا . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ (٧٧) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى (٣) ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ (٧٩) ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا (٦٥) ﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ (١٠٢) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ (١٩٦) ﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (متع) . . بتصرف] .

الآخِـرَةِ إلاَّ قَليـلٌ ﴿٣٨﴾ [التوبة]

وحتى إن قسْت عُمْر الدنيا من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فهى إلى فناء ، وما دامت إلى فناء ، فهى متاع قليل ، ومن يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهو غافل ؛ لذلك يُنهى الحق الآية : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ عكس ما قال فى الذين يعرفونَ قيمة العمل للآخرة.

حين يقول الحق : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس]

والغفلة [1] : هى ذهاب المعنى عن النفس ، فما دام المعنى موجوداً فى النفس ، فاليقظة توجد ، والغفلة تذهب . إذن : الغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، واليقظة هى استقرار المعنى فى النفس.

ونحن نعرف أن المعلومات التى يستقبلها الذهن البشرى إنما تلتقطها بؤرة [2] الشعور ، مثلما تلتقط آلة التصوير الفوتوغرافية أية صورة.

وإياك أن تظن أن الإنسان يعرف المعلومة من تكرارها مرتين مثلاً أو أكثر ؛ لأن كل الأذهان تتفق فى أنها تلتقط المعلومة من مرة واحدة ، ويتميز إنسان عن آخر فى قدرته على أن يستقبل المعلومة بذهن مستعد لها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تلتقط إلا معنى واحداً ، ثم يتزحزح المعنى إلى حاشية الشعور ؛ لتأتى المعلومة الثانية ، فإن استقبلت المعلومة وفى بؤرة شعورك معنى آخر ؛ لا تثبت المعلومة ؛ لذلك تكرر القراءة مرة واثنتين وثلاث مرات ، حتى تصادف المعلومة خُلُوّ بؤرة الشعور.

ومثال هذا : الطالب حين يحاول حفظ قصيدة ، فلو كان ذهنه مستعداً

---

(١) أغفلت الشىء : تركته غَفَلاً وأنت له ذاكر . قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف] أى : أنهم كانوا فى تركهم الإيمان بالله والنظر فيه والتدبّر له بمنزلة الغافلين ، أو أنهم كانوا عمّا يُراد بهم من الإثابة عليه غافلين . [اللسان : مادة (غفل)].

(٢) بؤرة الشعور : مراكز الشعور والإحساس والإدراك فى المخ . وبؤرة كل شىء مركزه . [المعجم الوسيط : مادة (بأر) . . بتصرف].

لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة.

إذن : الذهن كآلة الفوتوغرافيا ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ [1] فِي جَوْفِهِ ... ⟨٤⟩﴾ [الأحزاب]

فإن كنت تريد أن تستقبل معلومة ما ، فكُن حريصاً على أن تُفرِّغ ذهنك من أى معلومة ؛ لتأتى المعلومة الجديدة ، فتصادف خلاء لبؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها.

والمدرس الناجح هو الذى يلفت أذهان كل التلاميذ لما يقول ، وما دامت الأذهان قد التفتت إليه ؛ فلن تمر كلمة دون أن يستوعبها التلاميذ ، عكس المدرس غير الناجح الذى يؤدى عمله برتابة [2] وركاكة [3] تَصْرِف عنه التلاميذ . ونجد المدرس الناجح ، وهو يُلفت انتباه تلاميذه ويقطع الدرس ؛ليسأل أى واحد منهم عمّا قال؛ فيستمع إليه التلاميذ من بعد ذلك بانتباه ؛ لأن كل واحد منهم يتوقع أن يُسأل عن المعلومة التى قِيلتْ من قبل.

والتلميذ المجتهد هو الذى يقرأ الدرس بعقلية قادرة على مناقشة ما فيه من أساليب ومعلومات ، وهو يستصحب حضور الذهن أثناء القراءة ، أما التلميذ الفاشل فهو يقرأ دون يقظة أو انتباه.

مثال آخر : إن الفلاح الذى ينام على حافة بئر الساقية لا يقع فى بئرها ؛ لأنه ينام وهو مستصحب لفكرة أنه إن تقلَّب على جنبٍ ما فسوف يقع فى

---

(١) ويعبر عن القلب بالعقل المفكر ، ويستعمله القرآن بمعني العقل كثيراً لقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ⟨٢٤⟩﴾ [محمد] . وقال : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ⟨١٧٩⟩﴾ [الأعراف] . أى : عقول ، والقلب يرفض الثنائية فى الفكر ، ومن هنا تتكون بؤرة الشعور فى القائل الموجود والفكر الواحد .

(٢) الرتابة : السير أو النهج على نظام واحد لا يتغير . [اللسان، مادة : رتب] .

(٣) الركاكة : الضعف فى اللفظ والأسلوب.

البشر [١] . وكذلك الإخوة حين ينام اثنان منهم على سرير واحد ، يقوم كل واحد منهما في الصباح وهو مستصحب أن هناك آخر بجانبه ، ولكن إذا نام كل منهما في سرير منفصل ، فهو يستيقظ ليجد رأسه في ناحية وساقيه في ناحية أخرى ، وتسمى هذه عملية الاستصحاب واليقظة ، ويقال : «فلان يقظ»، وكلمة «يقظ» ضد «نائم» [٢] ؛ لأن اليقظان يحتفظ بالوعى والانتباه.

إذن : فالغفلة هى ذهاب المعنى من النفس وانطماسه ، والذين يمرون بالآيات وهم غافلون عنها لن ينتفعوا بشيء من هذه الآيات ، ثم تأتى لهم محصلة غفلتهم فى الآخرة.

ويقول الحق سبحانه عنهم:

﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨ ﴾

وأنت تقول : «أويت [٣] إلى كذا» ، إذا كان هذا هو المكان الذى يعصمك من شيء [٤] ، وهنا يقول الحق : ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فإذا كان ذلك هو المأوى ، فلا بد أن ما خارجها بالنسبة لهم أشد عذاباً . وهم يأوون إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب وسيئات.

---

(١) وقد ورد نهى رسول الله ﷺ عن النوم على ظهر بيت ليس له حجار (أى : سور يمنع سقوطه من على سطح البيت)، فعن على بن شيبان قال قال ﷺ : «من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة» أخرجه أبو داود فى سننه (٥٠٤١) ونحوه عند أحمد فى مسنده (٥/ ٧٩ ، ٢٧١) .

(٢) اليقظة : نقيض النوم، وقد تكون ضد الغفلة وعدم الفطنة، ويقال : رجل يقُظٌ ويقظ إذا كان متيقظاً فيه معرفة وفطنة.

(٣) أويت: عُـذتُ. والمأوى: اسم مكان (مفعل) من أوَى يأوى، والمأوى: المنزل، والمكان. أى: أن مكانهم ومنزلهم واستقرارهم يكون فى النار؛ لقاء ما فعلوا من الذنوب والآثام وغفلتهم عن الحق وآياته البينات. [اللسان: مادة (أ و ا). . بتصرف].

(٤) ومثال هذا قول ابن نوح عليه السلام عندما عمَّ الطوفان الأرض: ﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۝٤٣﴾ [هود] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ ﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه عن المقابل ، وهم الذين آمنوا ، ويعلِّمنا أنه سبحانه : ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ .

والهداية - كما قلنا من قبل - معناها الدلالة على الخير ، بالمنهج الذى أرسله الحق سبحانه لنا ، وبه بيَّن الحق السُّبُلَ أمام المؤمن والكافر ، أما الذى يُقبل على الله بإيمان فيعطيه الحق سبحانه وتعالى هداية أخرى ؛ بأن يخفف أعباء الطاعة على نفسه ، ويزيده سبحانه هدى بالمعروف ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ[1] ﴿٤٥﴾﴾
[البقرة]

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب ؛ فيهوِّنها الحق سبحانه عليه ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة ؛ لتهون عليه مشقتها ، ويمده سبحانه أيضاً بالمعونة .

يقول الحق سبحانه :

---

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» (١/ ١٧١) : «الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رُزق ذلك فإنه يكون خاشعاً فى الصلاة وفى غير الصلاة، بل فى خلوته، وفى بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد ، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة» . يشير الشيخ إلى أن القرآن هداية ، والرسول بسنته دليلها ، والله المعين عليها ، والوصول للمعية هو عين القرب من الله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ [1] ﴾

وما داموا قد آمنوا ؛ فسبحانه يُنزل لهم الأحكام التى تفيدهم فى حياتهم وتنفعهم فى آخرتهم ، أو أن الهداَية لا تكون فى الدنيا بل فى الآخرة ، فما داموا قد آمنوا ، فهم قد أخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة ، يهديهم الحق سبحانه إلى طريق الجنة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم... (١٢) ﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ... (٨) ﴾ [التحريم]

أى : أن نورهم يضىء أمامهم . أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا :

﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ [2] مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا [3] نُورًا... (١٣) ﴾ [الحديد]

أى : أن هذا ليس وقتَ التماس النور ، فالوقت - لالتماس النور - كان فى الدنيا ؛ باتباع المنهج والقيام بَالصالح من الأعمال .

---

(١) الباء فى ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ تحتمل وجهين :
١- أن تكون سببية ، أى : بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة .
٢- أن تكون للاستعانة ، أى : أن يصبح إيمانهم نوراً يمشون به على الصراط . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٣٨) وابن كثير (٢/ ٤٠٨).

(٢) نقتبس : نأخذ . قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه] . وقال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴾ [النمل].
والقَبَس : النار . واقتباسها : الأخذ منها . والاقتباس من نور أهل الجنة دليل على شدة هذا النور وقوته . [اللسان : مادة (قبس) . . بتصرف].

(٣) التمسوا : اطلبوا . والتمس الشىء وتَلَمَّسَه : طلبه . [اللسان : مادة (لمس)].

إذن : فالحق سبحانه يهدى للمؤمنين نوراً فوق نورهم فى الآخرة.

والآية تحتمل الهداية فى الدنيا ، وتحتمل الهداية فى الآخرة.

ويصف الحق سبحانه حال المؤمنين فى الآخرة فيقول : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ [يونس]

وقلنا : إن الجنة على حوافِّ الأنهار ؛ لأن الخضرة أصلها من الماء . وكلما رأيتَ مجرى للماء لا بد أن تجد خضرة ، والجنات ليست هى البيوت ، بدليل قول الحق سبحانه:

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ[1] ... (٧٢)﴾ [التوبة]

ونجد الحق سبحانه يقول مرة:

﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة]

ويقول سبحانه فى مواضع أخرى[2] :

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٢٥)﴾ [البقرة]

والحق سبحانه يعطينا صوراً متعددة عن الماء الذى لا ينقطع، فهى مياه ذاتية الوجود فى الجنة لا تنقطع أبداً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾

---

(١) عَدَنَ فلان بالمكان يَعْدن ويَعْدُن عَدْناً وعُدُناً : أقام . ومركز كل شىء مَعْدنه ، وجنات عدن : أى : جنات إقامة دائمة بمكان الخُلْد . قال تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا (٧٦)﴾ [طه].

(٢) ورد قوله تعالى ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ٣٥ مرة فى القرآن ، وقد وردت مرة واحدة ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ .

دعواهم : أي دعاؤهم .

وهل الآخرة دار تكليف؛ حتى يواصلوا عبادة الله ؟ لا، ولكنها عبادة الالتذاذ، وهم كُلَّما رأوا شيئاً يقولون: لقد أكلنا ذلك من قبل ، ولكنهم يعرفون حين يأكلون ثمار الجنة أن ما في الأرض كان يشبه تلك الثمار، لكنه ليس مثلها.

﴿قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ... (٢٥)﴾ [البقرة]

أو يقولون : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اعترافاً بالنعمة ، وأنت حين ترى شيئاً يعجبك تقول : سبحانك يارب . وبعد أن تأتي لك النعمة وتقول : سبحان الله ، وتُفاجَأ بأشياء لم تكن في الحسبان - من فرط جمالها ؛ فتقول : الحمد لله[1] .

إذن: فأنت تستقبل النعمة « بسبحان الله » ، وتنتهي من النعمة «بالحمد لله ». ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والذي يجعل للحياة الدنيا معنى، ويجعل لها طعماً ويجعل لها استقراراً ، أن يكون الإنسان في سلام ، ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا ؛ فلا مُهيِّجات ، ولا مُعكِّرات ، ولا يأتي ذلك إلا بعدم اصطدام في ملكات النفس ؛ فيتحقق سلام الإنسان مع نفسه ، وسلام الإنسان مع أهله ، وهذا هو المحيط الثاني ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله ، كل ذلك اسمه سلام ، أي: لا مُنغِّص ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا من قومه ، ولا من العالم . وكلما اتسعت رقعة السلام زاد إحساس الإنسان بالاطمئنان .

---

(١) إن استقبال النعمة بـ (سبحان الله) كلمة إعجاب لجمال يقودك إلى التنزيه والتوحيد والتفريد فتنطق بالتوحيد جمالاً وجلالاً وتنزيهاً ، وعند تمام النعمة يكون النطق تلقائياً ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس] فأول الشيء إعجاب بتنزيه وآخره حمد بيقين .

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ، فالسلام وارد فى أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [1] ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ [2] مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس]

وهذا هو السلام الذى له معنى ؛ فهو سلام من الله . ولم يقل سبحانه: «سلام يورثك اطمئناناً ونفساً راضية» فقط ، بل هو سلام بالقول من الله ، وانظر أى سعادة حين يخاطبك الحق سبحانه وتعالى مباشرة. وهناك فرق بين أن يشيع الله فيك السلام وبين أن يحييك كلامه بالسلام. وهذا هو السبب فى قوله:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس]

وهذا سلام الله ، ثم من بعد هذه المنزلة يأتى سلام الملائكة:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم ...﴿٢٤﴾﴾ [الرعد]

إذن : فقول الحق هنا : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ نجد فيه كلمة السلام رمز الرضا والاستقرار فى الجنة ؛ فالسلام هو أول الأحاسيس التى تحبها فى نفسك ، ولو كانت الناس كلها ضدك. لكنك ساعة تستقر ، فأنت تسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدى ؟ وحين تجيب نفسك : «إننى لم

---

(١) فاكهون: ناعمون معجبون بما هم فيه من نعيم الجنة. قال تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [الطور].

(٢) الأرائك: السُّرُر أو الفُرُش. والأريكة: السرير فى الحَجَلة من دونه ستر ، أو هى كل ما اتُّكِيء عليه من سرير أو فراش أو منَصة. قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف]. [اللسان: مادة (أرك).. بتصرف].

أفعل إلا الخير» ؛ فأنت تحس السلام فى نفسك. وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل ، فالحياة تسير ، بلا ضدّ ولا حقد ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ :

«يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»[1] فيدخل رجل عرفه القوم فلما انصرف ؛ قام واحد من الصحابة[2] ، وذهب إلى الرجل ؛ ليعلم ماذا يصنع ، وسأله : ماذا تفعل حتى يبشّرك الرسول ﷺ بالجنة ؟ فوجد سلوك الرجل مستقيماً ومتبعاً للمنهج دون زيادة ، فسأله الصحابى : لماذا - إذن - بشّرك رسول الله ﷺ بالجنة ؟

قال الرجل : والله إنى لأصلّى كما تصلّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكّى كما تزكون ، ولكنى أبيت وما فى قلبى غلٌّ لأحد.

هذا هو السلام النفسى ، وإذا ما وصل الإنسان إلى السلام مع النفس ؛ فلا تضيره الدنيا إن قامت ، و بعد ذلك يضمن أن يوجد سلامه مع

(١) وتمام هذا الحديث أن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة . فطلع رجل من الأنصار تَنْطِفُ لحيته تقطر من وضوئه قد تعلق نعليه فى يده الشمال . فلما كان الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثال مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إنى لاحيت (خاصمت) أبى ، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : نعم . قال أنس : وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار «استيقظ» وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله . قلت : يا عبد الله إنى لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ثَمَّ ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلعت أنت الثلاث مرار ، فأردت أن آوى إليك لأنظر ، ما عملك فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال : ما هو إلا ما رأيت؟ قال : فلما وليت دعانى . فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . فقال عبد الله : هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق . . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) .

(٢) هو : عبد الله بن عمرو بن العاص ، صحابى من أهل مكة ، كان يكتب فى الجاهلية ، ويحسن اللغة السريانية ، وأسلم قبل أبيه ، ولد ٧ ق هـ وتوفى ٦٥ هـ . كان كثير العبادة ، وقتال الأعداء وكان مشهوراً أنه يضرب بسيفين . (الأعلام للزركلى ٤/ ١١١) .

الله تعالى. ومن عنده سلام مع نفسه، ومع بيئته، ومع مجتمعه؛ فهو ينال سلاماً من الله سبحانه . ويقول لنا القرآن عن الذين يعانون من مأزق فى الآخرة:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ [1] فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود]

هؤلاء هم الذين شقوا فى النار ، أما الذين سُعدوا ففى الجنة ، فماذا عن حال الذين لا هم شقوا ولا هم سعدوا - وهم أهل الأعراف ؛ لأن الموقف يوم القيامة ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ؛ فقد قال الله سبحانه :

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ [2] ﴿٩﴾﴾ [القارعة]

ولم يقل الحق سبحانه لنا أمر الذين تساوت الكفتان لهم أثناء الحساب ؛ لأنه سبحانه قال فى حديث قدسى:

«إن رحمتى غلبت غضبى» [3] .

ويبين لنا الحق سبحانه رحمته فيقول:

---

(١) قوله تعالى هنا ﴿بِإِذْنِهِ﴾ مُقيِّد لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا .. ﴿١١١﴾﴾ [النحل] ، فليس لنفس أن تتكلم أو تجادل عن نفسها إلا بإذن الله ، ولا ينافى ذلك قوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات] ، لأن فى يوم القيامة مواقف، ففى بعضها لا يؤذن لهم فى الكلام، فيكفون عنه، وفى بعضها يؤذن لهم فيه ، فيتكلمون. قاله أبو يحيى الأنصارى فى كتابه (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن) ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) ثقلت موازينه: رجحت حسناته على سيئاته.
فى عيشة راضية: فى الجنة. فإذا كانت العيشة راضية فالمُعايش لها مرضى عنه .
خفت موازينه: رجحت سيئاته على حسناته.
﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ : ساقط بأمّ رأسه فى نار جهنم، وعبَّر عنه بأمه يعنى: دماغه.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥١) وتمامه: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت غضبى» وفى بعض روايات الحديث: تغلب، سبقت .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأعراف]

ويأتى أمر رجال الأعراف فيقول سبحانه:

﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ [1] رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ [2] .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]

لقد عرفوا المؤمنين بسيماهم ، وعرفوا الكفار بسيماهم ، وجلس البعض على الأعراف ؛ ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين:

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة ثانية فيقول:

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

أهل الأعراف - إذن - يسعدون بعطاء الله لأهل الجنة ، ويطمعون أن يغفر الله - سبحانه وتعالى - لهم.

ونحن فى حياتنا نسمع المشرفين على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام يقولون : قبل أن يحكم على المجرم بالإعدام ينخفض وزنه ، ثم

---

(١) الأعراف فى اللغة: جمع عرف، وهو كل عال مرتفع؛ قال الزجّاج: الأعراف أعالى السور.
والأعراف: أعالى سور بين أهل الجنة وأهل النار. وقيل عن أصحاب الأعراف: هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا الجنة بالحسنات، ولا النار بالسيئات، فكانوا على الحجاب الذى بين الجنة والنار. [اللسان : مادة (عرف) . . بتصرف].

(٢) السِّيماء: العلامة يعرف بها الخير والشر. ومنه قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] ، وقوله : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴿٢٧٣﴾ ﴾ [البقرة] هذا فى أهل الخير والفضل، أما الأشرار فقال تعالى عنهم: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن] .

يزيد بعد الحكم ؛ لأن الأمر قد استقر . والذين يُشغلون بأن يعرفوا مكانهم فى الآخرة ، أهو فى الجنة أو فى النار ، لا ينسون أن يقولوا للمؤمنين :

﴿أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأعراف]

وهنا يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد تكون آخر دعواهم ، أى : آخر كلمة .

فالواحد منهم يقول : أنا حمدت ربنا على الشىء الفلانىْ والشىء الفلانى . وآخر حَمْد هو قمة الحمد ؛ لأنهم حمدوا الله على النعمة فى الدنيا التى تزول ، ويحمدونه فى الآخرة على النعمة التى لا تزول ، فلئنْ يوجد حَمْد على النعمة التى لا تزول فهو قمة الحمد[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ[2] الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[3] (١١)﴾

وهذه الآية تتناول قضية عقدية قد تكون شُغُل الناس الشاغل فى الدعاء

(١) الحمد على الإيجاد ، والحمد على الإمداد فى الدنيا ، والحمد على نعمة البقاء فى دار الخلود وهى قمة الحمد .

(٢) نذر : نترك . قال تعالى : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح] . [اللسان : مادة (وذر) . . بتصرف] .
طغيانهم : مجاوزتهم الحدّ فى الظلم والكفر والعصيان . قال تعالى : ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة] .

(٣) يعمهون : العَمَهُ : التحيُّر والتردد فى الضلال ، والعَمَهُ يكون فى الرأى ، والعَمَى يكون فى البصر . قال ابن الأثير : العَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)﴾ [النمل] .

لله تعـالى، وقد لا يُجاب دعاؤهم مع كثرة الدعاء، ويُحزنهم على أنفسهم، ويقول الواحد منهم : لماذا لا يقبل الله دعائى ؟ أو يقع بعضهم فى اليأس.

ونقول لكل إنسان من هذا الفريق : لا ، أنت تدعو ، مرة تدعو بالشر ومرة تدعو بالخير ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قد أجابك فى جميع الدعاء ، فسوف يجيب دعاءك فى الشر ودعاءك فى الخير ، ولو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل لك دعاء الشر ، كما تحب أن يُعجِّل لك دعاء الخير ؛ لَقُضِى إليك أجلك وانتهت المسألة ، وهناك من قالوا [1] :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء ، لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء.

إذن : فمن مصلحتك حين تدعو على نفسك [2] أو تدعو بأى وبال ألا يجيبك الله تعالى ، وافهم أن لله تعالى حكمة فى الإجابة ؛ لأنه سبحانه

---

(١) هم بعض كفار قريش، قيل: إنه أبو جهل، وقيل: هو النضر بن الحارث بن كلدة. ودعاؤهم هذا دليل سفه وجهل وشدة عناد وتكذيب. وكان الأولى بهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه. وهؤلاء قال عنهم رب العزة : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] ، وجعل الله تأخير العذاب عنهم فضيلة من فضائل رسول الله ﷺ على قومه فقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال] .

(٢) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال، فعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له: شأ لعنك الله . فقال رسول الله ﷺ : من هذا اللاعن بعيره؟ قال: أنا يا رسول الله . قال: «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

وتعالى مُنزَّه عن أن يكون موظفاً عند الخلق ، ومَن يدعُهُ بشيء يجبه عليه ، بل لا بد من مشيئته سبحانه في تقرير لون الإجابة ؛ لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لانتقلت الألوهية للعبد .

لقد صان الحق سبحانه عباده بوضع رقابة على الدعاء ؛ وأنت تعتقد أن دعاءك بخير ، ولكن رقابة الحق سبحانه التي تعلم كل شيء أزلاً [1] تكاد أن تقول لك : لا ، ليس خيراً . وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك ؛ لأنه القائل سبحانه :

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فمعرفتك ليست نهائية في تقرير الخير والشر ؛ لذلك دَع الإلهَ الأعلى - وهو المأمون عليك - أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت في ظنك أنه الخير ، فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين الخير والشر ، وفي المنع - أحياناً - عين العطاء [2] ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء]

وقد تلحّ في دعاء لو استجيب لك ؛ لكان شراً . والله سبحانه يعلم ما هو الخير لك ، وهو سبحانه يجيب أحياناً بعض خلقه في أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً . وأحياناً يأتي لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير . وهكذا يصحّح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية .

(١) الأزل : القدم : قال أبو منصور : ومنه قولهم : هذا شيء أزليٌّ أي : قديم .

(٢) عن أبي سَعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث : إما أن يستجيب له دعوته ، أو يصرف عنه من السوء مثلها ، أو يدخر له من الأجر مثلها . قالوا : يا رسول الله .. إذن : نكثر . قال : الله أكثر . أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٣) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد » وأقره الذهبي في التلخيص . ومن أقوال الشيخ : المنع عين العطاء وقد يكون العطاء نقمة .

وقد قال الكافرون[1] لرسول الله ﷺ :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

ومن قالوا هذا القول هم : العاص بن وائل السهمى ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يهود ، وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب ؛ فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، ولم ينتبهوا إلى غباء ما يقولون ؛ لأنه إن كان لرسول الله ﷺ قدرة السحر ؛ فلماذا لم يسحرهم هم ليؤمنوا أيضاً ؟

واضطربوا مرة ثانية ، وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، أو له طبيعة الشعر والكلام المسجوع ، والقرآن ليس كذلك . ولو أن جماعة غيرهم قالت مثل هذا القول لكان لهم عذرهم لأنهم ليسوا أهل لغة ، أما هؤلاء فهم قوم أهل دُرْبة على الفصاحة والبلاغة ، وكانوا يعقدون أسواق الشعر والخطابة ، ثم اضطربوا مرة ثالثة ، وحاولوا الطعن فى مكانة محمد ﷺ وهم يُقرّون بعظمة القرآن ؛ فقالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قال أبو جهل : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٤٨) وكذا مسلم (٢٧٩٦) . وقال ابن حجر العسقلانى فى «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» (٨/ ٣٠٩) : «قوله « قال أبو جهل» ظاهر فى أنه القائل ذلك، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضى الباقون فنسب إليهم، ولكن نسبته إلى أبى جهل أولى » .

(٢) القريتان المقصودتان هنا : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان» .

والحق سبحانه وتعالى حينما يتعرض لحادثة وقعت فى زمن النبى ﷺ مع الكافرين ؛ لا يقتصر فى الحدث على ما وقع، ولكنه يعالج قضية عامة كونية إلى أن تقوم الساعة، ويجعل الحدث الحاصل فى زمنه سبباً فقط ؛ ليعطى عموم الحكم فى كل زمان وفى كل مكان. وإلا اقتصر الأمر على معالجة حدث وقع لشخص الحدث وشخص الحكم فى القوم الموجودين مع رسول الله ﷺ. وقد جاء القرآن للناس كافة، وجاء للزمان عامة، فلا بد أن تكون القضية المعروضة - أىّ قضية - أمام رسول الله ﷺ من قوم عاصروه لها سبب خاص ، ولكن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب.

ويعالج الله سبحانه وتعالى فى هذه المسألة الشخصية من هؤلاء الذين قالوا ذلك قضيةً كونيةً ستظل إلى أن تقوم الساعة.

فقد دَعَوْا على أنفسهم:

﴿ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

كما قال قوم عاد لهود:

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

إذن : هم قد دعوا بشرٍّ على أنفسهم.

ويعالج الله قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشرّ ؛ لأن الإنسان قد يضيق ذَرْعاً [1] بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ؛ فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به فى

(١) الذَّرْعُ : الطاقة والقُدرة. وضقتُ بالأمر ذرعاً مثل ضقت به ذراعاً ؛ فأصل الذرع إنما هو بسط اليد، فكأنك تريد: مددت يدى إليه فلم أنَلْهُ. وضاق بالشيء ذَرْعاً وذراعاً أى: ضَعُفت طاقته، ولم يجد مَخلصاً، ولم يُطقه، ولم يَقْو عليه. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (٧٧) ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴾ [الحاقة]. [اللسان : مادة (ذرع) . . بتصرف].

ذاته من ألم كمرض - مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحمّلها ؛ فيقول : «يارب ، أرحنى يارب» ، وهو هنا يدعو على نفسه بالموت . فلو أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه لَقُضيت المسألة.

ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأتمر بأمر أحد من خلقه ، ولا يعجل بعَجَلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشرّ منك على نفسك ؛ وفى ذلك رحمة منه سبحانه.

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطينى ، فخذ مقابلها : أنك تدعو بالشرّ على نفسك ، ولا يجيبك الله . ثم ألا يضيق الأب أحياناً ذَرْعا بمن حوله ، فيقول : فليأخذنى الله ؛ لأستريح من وجوهكم ؟ هَبْ أن الله سبحانه أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون الموقف ؟ وقد تجد من يقول : يارب أصبنى بالعمى فلا أراهم ، أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها.

وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء الشرّ لانتهت حياتكم إلى الفزع ، مثل هذه الأم التى تدعو بالمتناقضات فتقول لولدها - مثلاً : «ربنا يسقينى نارك» فتطلب السُّقيا بالنار ، رغم أن السُّقيا للرِّى ، والنار للحرارة.

إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله ؛ فيدعو على نفسه بالشرّ ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن ينزّه الحق سبحانه وتعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبد به دون أن يمر الدعاء على حكمته سبحانه وتعالى.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [1] بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ ، فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى لكم دعاء الشر على أنفسكم ؛ فاقبلوا منه تأجيل دعائكم بالخير ؛ لأن الخير فيما تطلبون غير الخير فيما يعلم الله ؛ فهو العليم الخبير . وقد تطلب خيراً تعلمه ولكن الله يعلم فيه شراً ؛ فمن مصلحتك ألا يجيبك . وكما تحترم عدم إجابته لك فى الشر على نفسك ، أو على من تحب ، فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن تحب ؛ لأن الله لا يعجل بعجلة عباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلقهم ، وهو أعلم بهم ، فهو القائل:

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ [2] ... (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا:

---

(١) عَجِل يعجل - عَجَلاً وعَجَلَةً : أسرع . قال تعالى : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) ﴾ [طه] وعجل الأمرَ طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر : سبقه ، قال تعالى : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (١٥٠) ﴾ [الأعراف] وأعجله : حمله على العجل . أى : استحثه أو سبقه . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] وعجل الأمر : قدمه سريعاً ، قال تعالى : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ (١٨) ﴾ [الإسراء] واستعجل الأمر طلبه عاجلاً قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١) ﴾ [يونس] . . القاموس القويم جـ٢ صـ ٩٢٨

(٢) العَجَل والعَجَلَة : السرعة . قال الفرَّاء : خُلِقَ الإنسان من عَجَل وعلى عَجَل ، كأنك قلت رُكِّبَ على العَجَلَة ، بِنْيَتُهُ العجلة ، وخلقته العجلة ، وعلى العجلة ونحو ذلك . قال أبو إسحق : خوطب العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يكثر الشيء : خُلقت منه . وقيل : إن آدم عليه السلام ، لما بلغ منه الروح الركبتين هَمَّ بالنهوض قبل أن تبلغ القدمين فقال الله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ (٣٧) ﴾ [الأنبياء] فأورثنا آدم عليه السلام العجلة . وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ (١) ﴾ [النحل] .

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ..(٣٢) ﴾
[الأنفال]

لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به ، وقُضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم.

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ؛ ليؤمن من يختار الإيمان ، أما من اختار الكفر ؛ فعليه أن يتحمّل تبعة [1] الطغيان التى تتمثل فى أن الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحد ، ويطلب ممن آمن أن يرتد عن إيمانه ، وفى ذلك مجاوزة للحد ؛ ولذلك فهم يعمهون فى هذا الطغيان ، أى : تتكاثر عليهم الظروف ، ويثبت - لهم ولمن بعدهم - عجز الكفر عن مواجهة قدرة الحق.

وفى الحياة أمثلة - ولله المثل الأعلى - فهناك من يملك عدوه ، فيضربه ؛ لكنه لا يقتله ، ثم يتكرر من هذا الخصم الإساءة ، فيضربه من جديد ، ثم تتكرر الإساءة فيضربه ، وهو لا يقتله أبداً ليداوم على إذلاله ، والقوىّ لا يقتل خصمه ، بل يؤلمه ؛ فلا يرفع الخصم رأسه.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يترك أهل الباطل ؛ لتتجمع عليهم سيئاتهم ، ويذوقون ويل [2] خصومة الإسلام فلا يرفعون رءوسهم ؛ لأن أهل الإسلام يردّون لهم الإساءة مضاعفة ، ولسوف ييأس أهل الباطل من أنهم

---

(١) تَبِعَة الأمر : عاقبته، وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (تبع)].

(٢) ويل : كلمة عذاب تعنى حلول الشر . والويل : واد فى جهنم، وقيل : هو باب من أبوابها . قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ﴾ [المطففين] وقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾ [المرسلات] .

سينتصرون على الحق بأى شكل وبأى لون. وهم مهما تحايلوا فى أساليب النكاية [1] فى الإسلام ، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين.

والمثل أمامنا من سيرته حين أمره الحق سبحانه بأن يهاجر ، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل ، فخرج ﷺ ولم يشعروا ، وقال ﷺ : «شاهت [2] الوجوه» .

وشاء سبحانه ذلك ؛ ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد ﷺ ، لا بالمواجهة ، ولا بتبييت المكر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ



يصور الحق سبحانه حال البشر ؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله ، وبمنهج الإله ؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله فى لحظات الأزمات ، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك. وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر.

وفى قريتنا - على سبيل المثال - كان الذى يشرف على رعاية صحة

(١) نكى العَدُوَّ نكايةً : أوقع به وهزمه وغلبه. والمراد بالنكاية هنا: أساليب أعداء الله فى محاربة الإسلام والتآمر عليه وعلى المسلمين، وهى أساليب مآلها الفشل بإذن الله . قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ [الصف] . [اللسان، والمعجم الوسيط : مادة (نكى) . . بتصرف].

(٢) شاهت الوجوه تَشُوهُ شَوْهاً : قَبُحَتْ . وفى حديث النبى ﷺ: أنه رمى المشركين يوم حنين بكفٍّ من حصى وقال: شاهت الوجوه. وفيه: قال لابن صيّاد: شاه الوجه. ويُقال للخطبة التى لا يُصلَّى فيها على النبى ﷺ: شوهاء أى: قبيحة. [اللسان : مادة (شوه)].

الناس حلاّق الصحة ، إلى أن تخرَّج أحد أبناء القرية فى كلية الطب ، فأخذ حلاق الصحة يشيع عنه ما لا يليق. وفى أحد الأيام لاحظ الفلاحون خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لفَافة كبيرة ، فأرادوا أن يعرفوا ما بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مَريض وهو يريد أن يذهب به إلى الطبيب ، هو - إذن - لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خداع أهل القرية بالشائعات الكاذبة عن الطبيب.

وكذلك الإنسان مع منهج الله ، قد يخدع الآخرين فى لحظة اليسر ، لكنه لا ينسى الله لحظة العسر. وساعة يأتيه الضر ، وحين تعزُّ الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة «يارب». وأنت تجدها من أعتى الفُجَّار [1] ، ومن أقسى العُتاة ، تجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضرّ.

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ .

والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا يرغبون فى إنهاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به ؟ إنه كذب مفضوح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعو على نفسه بالضُّر ؛ مثلما قال المتنبى [2] :

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شَافياً   وحَسْب المنايا [3] أن يكُنَّ أمَانيَا

أى : يكفى أن يصل الإنسان إلى الدرجة التى يتمنى فيها الموت.

---

(١) الفجّار : جمع فاجر وهو المكثر من المعاصى والسيئات. والفجور أصله الميل عن الحق. قال ابن شميل : الفجور : الركوب إلى ما لا يحلّ. قال تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾ [القيامة] . وقال : ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار]. [اللسان : مادة (فجر) . . بتصرف].

(٢) المتنبى شاعر من شعراء الدولة العباسية له باعه فى الشعر

(٣) المنايا : جمع مَنيَّة وهى الموت. والمَنى : القَدَر ، ومَنَى الله لك شيئاً أى : قدَّره لك. ومَنَى الله عليك خيراً يَمْنِى مَنْياً ، وبه سُمِّيت المَنِيَّة وهى الموت ؛ لأنها مقدَّرة بوقت مخصوص. [اللسان : مادة (منى)].

ونلحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر فى أكثر من موضع ، فنجد آية تفرد الإنسان بمعنى ؛ وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا [(١)] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ [(٢)] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ... (٨) ﴾ [الزمر]

ويقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا ﴾

ويقول سبحانه فى موضع آخر :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ [(٣)] (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [النحل]

إذن : فالحق سبحانه يأتى بها مفردةً مرّة ، ومرة يأتى بها جمعاً. ومرة يأتى بها مفردة على ألوان شتّى ، ومرة يأتى بها جمعاً بألوان شتّى ، ومرة يذكرها فى البر ، ومرة يذكرها فى البحر :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ... (٦٧) ﴾[الإسراء]

إذن : فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة ؛ إذا ما أصابه ضرّ ،

---

(١) منيباً : راجعاً إلى الله بالتوبة . أناب إلى الله إنابة فهو منيب : أقبل إليه تائباً ورجع إلى الطاعة . قال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (٥٤) ﴾ [الزمر] ، وقال : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [غافر] .

(٢) خَوَّلَهُ الله نعمة : مَلَّكه إياها . وهى مأخوذة من التخويل وهو التمليك. والمراد: إذا كشف الله عنه الضر، ووهبه النعم نسى فضل الله عليه ووقع فى المعاصى. [لسان العرب - بتصرف] .

(٣) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالتضرع والدعاء إلى الله . [اللسان مادة : ج أ ر] .

ولم يجد مَفْزعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه. ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله.

والآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها تعطينا صوراً متعددة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ أي : وهو مضطجع ، ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ . وهكذا تتناول الآية الإنسان في تصرفاته في الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان ؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلّب ، بل يقلّبه أهله ؛ لينام على جنبه، وحين يكبر قليلاً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتي حركة القوة الثانية ؛ فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشي ، ثم يمشي من بعد ذلك.

والآية هنا تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾، ولم تأت حركة المشي؛ لأن المتحرك للمشي لا يقعده الضر، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب، فقد يناله الضر.

وتلك هي مراحل النقض لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم فُتوَّة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشي بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف ، ثم تدخل عليه الشيخوخة ؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة ؛ فلا يمشي ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جنبه ، وقد يقلّبه أهله [1].

إذن : نقض كل شيء إنما يأتي على عكس بنائه ؛ فكما بنيت مراحل الإنسان هكذا جنباً ، فقعوداً فقياماً ، فسعياً وحركة ، فهي تنتهي بالعكس ؛ لأن النقض دائماً على عكس البناء.

---

(١) وهو القائل سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم] .

ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله فى إخباره لخلقه بكيفية الخلق ؛ لأننا لم نشاهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ ولا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ [1] عَضُداً [2] (٥١) ﴾ [الكهف]

ولأن الحق لم يُشْهِدْ أحداً على كيفية خَلْق السماء والأرض وخلق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها ؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ... (٥١) ﴾ [الكهف]

وهذا القول يدل على أن العقل البشرى لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء. فإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلقتم بصورة تختلف عما جاء فى القرآن فقولوا : كذبتم ، وإن حُدِّثتم كيف خُلقت السموات والأرض بغير ما جاء فى كتاب الله ؛ فقولوا : كذبتم ؛ لأن الله هو الذى خلق السموات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به. ويقول الحق سبحانه:

(١) ضَلَّ يَضلّ فهو ضالٌّ، وأضلَّ يُضلّ فهو مُضلّ، والمُضلّ يكون ضالاً ولا يكتفى بضلال نفسه بل يُضلُّ غيره أيضاً. وأضلَّه : جعله ضالاً، والضَلال: ضد الهدى والرشاد. قال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]. وقال : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ (٨٥) ﴾ [طه] وقال: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) ﴾ [آل عمران].

(٢) والعَضُد من الإنسان وغيره: الساعد وهو ما بين المرفق إلى الكَتف. والمراد بالعَضُد هنا: العون والمساعدة. قال تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. (٣٥) ﴾ [القصص].

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

والمضلون : هم الذين يقولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ؛ كل هذه افتراضات قالها من سمّاهم الحقُّ سبحانه : ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ . ولو لم يقل الله تعالى هذه الآية ، ثم جاء قوم ليقولوا : الإنسان كان فى الأصل قرداً ، لقلنا : إن القرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم ،لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإضلال .

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فلم يكن معه شاهدٌ رأى هذا المشهد ؛ ليقول لنا . والخلق الذى به الحياة ينقضه الموتُ ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأى نقض لشىء - كما عرفنا - إنما يأتى على عكس بنائه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر ؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالى الهدم بعد ذلك ، فما بُنى أولاً يهدم أخيراً ؛ لأن نَقْض كل شىء يأتى على عكس بنائه .

وبما أن الموت نَقْضٌ للحياة ؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وتُرك الجثمان بلا دفن ، فالجثمان يتصلَّب ، ثم يصير جيفَةً [1] ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل الجسد إلى العناصر الأولى فى التراب ، هذه مراحل الموت .

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيناً ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح [2] ، وآخر مراحله فى الإيجاد هى الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة فى الموت .

---

(١) الجيفة : هى جثة الميت إذا أنتنت وكان لها رائحة . والجمع جيف وأجياف . (اللسان . مادة جيف) .

(٢) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة] .

والله سبحانه وتعالى فى هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشى ؛ لأن الماشى عنده قدرة فلا ضرّ فى ذاته ، وإن أصابه ضرّ فمن غيره ، والضرّ مقابل النفع ، والنافع هو مَنْ يُبقى الشيء على صلاحه الممتع المريح ، فى الذات أو فى الخارج .

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكاتها وأعضاؤها كلها سليمة ، فليس عندك ضرّ ، لكن إذا حدث خلل فى أى عضو من الأعضاء ؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة : هى ألا تشعر بأن لك أعضاء ؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً - مثلاً - فاعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فاعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضروسك وتأكل ولا تدرى بها . ويوم أن تدرى بها فهذا يعنى أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف وانتبه إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول : «آه يا عينى» ، و«آه يا أذنى» .

ونقول : إن وجع العين مؤلم ألماً مخصوصاً ، وكذلك نقول : على أى عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها ؛ لأنها تؤدى أعمالها على الوجه المناسب . والسلامة فيمن حولك تتمثل فى أن يحققوا لك المتعة والصفاء بدون كدر . وبذلك تظهر منفعتهم لك.[1]

وكل إنسان له كبرياء ذاتى ، يبيّنها قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

ولا يذل الإنسان إلا حين يعانى من آفة[2] ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإن بدأت النعمة فى

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) وأخرجه البخارى فى صحيحه (١٠) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) آفة : عاهة ، أو مرض ، أو فساد ، أو نقص ، أو عيب . يقال : آفة الظَّرف الصَّلَف ، وآفة العلم النسيان .

الانقباض عن الإنسان ؛ فكبرياؤه تتطاير . ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الرقود ؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع.

والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتى فيه ؛ لا بما هو موهوب له ؛ لذلك فعليه ألا يغتر ؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبتَه ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحّاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه [1] قد خرجوا من جاههم.

إذن : فلا داعى للغرور ؛ لأن الله قد وهبك كل شيء ، وليس لك شيء ذاتيٌّ فيك أبداً ؛ لذلك يجب أن ينعدم الغرو ر ، فما دام كل ما فيك موهوبًا من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو ينتبه . فلا داعى - إذن - لأن يغتر أحد ؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع.

والمثال : قد تكون عاديْتَ طبيباً ، وهو الوحيد فى المكان الذى تقطنه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبَّى أنت ، ثم يأتى لك مرض ؛ فتلجأ إليه ؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من التشخيص بالعلم ، فلا يجب - إذن - أن تغتر أو تتعالى على أحد.

لكن الإنسان هو الإنسان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ ..(١٢) ﴾ [يونس]

والكافر ما إن يمسّه الضرّ ؛ حتى يقع فى بئر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسّه الضرّ فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه ؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذى يدعو الله ساعة الضرّ فقط . وأين

(١) الجاه : المنزلة والقدر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب].

كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرسل إلى الإيمان ؟

ونسيان الإنسان أمر وارد فى تكوينه الفطرى الأول [1] ؛ لأن الإنسان حين يعيش فى محيط ما . فهو يحب النفع من خارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجى ، فهو يأخذ النفع من ذاته ؛ من تحرُّك أبعاضه وخدمتها لبعضها البعض . ثم لا يجد له مفزعاً إلا أن يؤمن بمن خلقه أولاً . وانظر إلى التعبير القرآنى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

إذن : فمن يَعْبُد غيرَ الله - سبحانه وتعالى - يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ من يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذى ينقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام منطقى ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى فى عالم الذر [2] ؛ حينما

---

(١) ومن هذا قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] ، فجنس الإنسان فى تكوينه النسيان ، ولذلك تجاوز الشرع عن النسيان والخطأ وما استكره عليه الإنسان ، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٩٨) . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى . وحسنه ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٢) طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٩١م .

أما النسيان بمعنى التناسى والتغافل عن أوامر الله والالتزام بمنهج الله سبحانه فلا يتجاوز الله عنه بل يؤاخذ الإنسان به ، يقول عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] .

(٢) عالم الذر : هو يوم نثر الله ذرية آدم من ظهره ونشرها . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول ،[1] وقال لنا:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

قلنا:

﴿بَلَىٰ ...(١٧٢)﴾ [الأعراف]

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسِّط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه.

وقد يدعو الإنسان من يواسيه لحظة المرض فلا يجد ولداً من أبنائه ، أو قريبا من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى ؛ تلمسه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي[2] ... (٧٨)﴾ [القصص]

ويقول: كنت محتاطاً وقد رتبت أموري . ثم يأخذه الحق سبحانه وتعالى أخْذَ عزيز مقتدر.

فإذا مسكم الضر ؛ فلن تجدوا من البيئات الخارجة عنكم ، ولا من ذوات نفوسكم ،ما يغنيكم عن خالقكم ، وفي لحظة الخطر لا تستطيعون

---

(١) العهد الأول هو إشهاد ذرية بني آدم وأخذ الميثاق عليهم بأن الله ربُّ الخلائق كلها، وهنا كان الإيمان بالوحدانية فطرة يسكن بها القلب ، ويطمئن معها العقل وتستريح النفس ، أما العهد الثاني فهو التكليف على يد الرسل في افعل ولا تفعل ، وهو امتداد للعهد الأول ، ويجمع ذلك كله قوله : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] ومن هنا كان الأمر والنهي وعليهما مدار الحساب.

(٢) أي: أن قارون أنكر فضل الله عليه، فيما أنعم عليه به من الأموال والكنوز التي قال الله عنها: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص].

الكذب على أنفسكم ؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ، وتتذكرون في تلك اللحظة عهد الذَّر الأول ، وتعودون إليه سبحانه.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾

وقوله الحق: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا [1] عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ يصوّر الضرّ وكأنه يغطى الإنسان ويلفّه ، فلا منقذ له أبداً ؛ لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطى كل الإنسان . وهكذا يعطينا الله تعالى صورة لاستيعاب الضرّ للجسم كله ؛ حتى وإن كان بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله سبحانه:

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فكأن الجوع والخوف قد لفّ القرية كلها ، فلم تعُد البطون وحدها هى الجائعة ، بل كل ما فى الأجسام جائع وخائف.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾

وكلمة ﴿مَرَّ﴾ تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال: إن فلاناً مرّ علىّ ؛ مقابلها: وقف عندى.

ونفهم من قوله الحق : إن هذا الذى مسه الضرّ كان له وقفة عند الله سبحانه ؛ حين لفّه الضرّ ولم يجد معيناً له غير الله تعالى، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يذهب عنه

---

(١) كشف الشيء يكشفه كشفاً: أظهره أو رفع عنه ما يستره فى المحسوسات والمعانى . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ .. (٥٤) ﴾ [النحل] كأن الضر غطاء ثقيل فوق الرؤوس كشفه الله وأزاله ، ومن الحسى قوله تعالى : ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا .. (٤٤) ﴾ [النمل] - أما قوله تعالى :﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ .. (٤٢) ﴾ [القلم] فهو كناية عن شدة الخوف والرغبة فى الفرار ، وقوله :﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦) ﴾ [الإسراء] أى : إزالته وهو كشف معنوى . . القاموس القويم : ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الضرّ وينسى الإيمان ؛ ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ وكأنه قد نسى تذلله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخضوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبار ، فلم يقف عند من أنقذه من ضره ، وهذه هى الصفاقة [(١)] .

وينهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهنا تأتى قضية ثانية ؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتى فى الكون كله ؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذى زَيَّن لهم المرور إما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحمل من الحق على صفات موجودة فيه ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [(٢)] ... ⟨١٠⟩﴾ [البقرة]

وقوله تعالى هنا :

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ⟨١٢⟩﴾ [يونس]

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً. والإنسان له عمل مكوَّن من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ،وإن كان القول مقابله الفعل ؛ فالاثنان عمل.

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية فى عمومها ، وفى

---

(١) أصل مادة (صفق) التصفيق باليد، والضرب الذى يُسْمع له صوت، ومنه صَفْقُ الباب أى : فتح الباب ثم إغلاقه مع حدوث صوت. ومنه الصفقة للعهد والبيع والشراء، ومن حديث رسول الله ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن تقاتل أهل صفقتك». وهو أن يعطى الرجل عهدَه وميثاقه ثم يقاتله؛ لأن المتعاهدين يضع أحدهما يده فى يد الآخر كما يفعل المتبايعان. (انظر : اللسان - مادة صفق) فالمادة من الممكن أن نخرج منها بمقصود فضيلة الشيخ من هذه الكلمة.

(٢) المراد بالمرض هنا: النفاق. وهو خلق ذميم يصيب صاحبه بأشد الأضرار، ويضر المجتمع كله. ووصف النفاق بالمرض إذ إن المرض هو السقم وهو ضد الصحة. وتمريض الأمور: توهينها. وريح مريضة: ضعيفة الهبوب. وكل ما ضَعُفَ فقد مرض. والرأى المريض، أى: فيه انحراف عن الصواب. قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ .. ⟨٥٢⟩﴾ [المائدة] [اللسان : مادة (مرض) .. بتصرف] .

خصوصها، وفى انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد ﷺ ، ويحذر الكافرين : أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه ؟ إن السوابق تدل على أن كُـلاً أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ[1] ﴿١٣﴾ ﴾

فإياكم أن تسوّل[2] لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد ﷺ ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ، فلستم بدعاً عن سابق الخلق.

و﴿ الْقُرُونَ ﴾[3] : جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا

---

(١) المراد بالمجرمين : الكافرون لأنهم كذبوا بآيات الله وظلموا واستكبروا. وجَرَمَ الإنسان : إذا عظم جُرْمه، أي : أذنب . قال تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] [اللسان : مادة (جرم)] .

(٢) تسوّل لهم أنفسهم شيئاً : تُزيِّن لهم الخطأ . والتسويل : تحسين الباطل وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . قال تعالى : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد] . [اللسان : مادة (سول)] .

(٣) القَرْن : الأمة تأتى بعد الأمة . والقرن : أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم . يقال : القرن من الزمان مائة سنة ، وقيل غير ذلك ، والجمع : القرون . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام] . وقال ﷺ : «خيركم قرنى (يعنى : أصحابى) ثم الذين يلونهم» ، يعنى : الذين أخذوا عن التابعين .

فى شىء نسميهم «قرنا» . وقد يكون القرن فى الزمنية ، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة ، والبشر الذين يجتمعون فى مائة سنة يسمونهم قرناً.

أو القرن جماعة يقترنون فى شىء يجمعهم ، مهما طال بهم الأمد [1].

وقوله الحق: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فهل لو أمهلهم الله - تعالى - كانوا سيؤمنون ؟ لا ، فلله علمٌ أزلىٌّ ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً.

والمثل من حياتنا وأعرافنا - ولله المثل الأعلى - نجد الإنسان حين يريد بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مقدرته ؛ الفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين ؛ فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط الحال ؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمِّم له بناء على قدر سعته ، وإن كان الإنسان ثرياً ؛ فهو يستدعى المهندس الذى يبنى له بيتاً حسب إمكانات ورغبات هذا الثرى ، ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ، وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات.

والعالم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتى واقع الكون على وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر ، فالله سبحانه يعلمه.

وقد صحَّ أن القلم جفَّ حتى فى الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم ما تجرى به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما فى

(١) الأمد: الغاية. والأمد: منتهى الأجل. قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .. (١٦)﴾ [الحديد]. [اللسان: مادة (أمد)].

الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً [1] ، فصمم المسألة على وفق ما علم.

وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يُلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه - أزلاً - وسبق فى علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره . والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحدٌ حقَّ الإله الأعلى فى أن يكون إلهاً واحداً ، وأن ينقل ذلك لغيره . تلك هى قمة الظلم ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⑬﴾ [لقمان]

وهم قد ظلموا فى قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا فى الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ㊹﴾ [يونس]

والواحد منهم ظالم ومظلوم فى آن واحد ؛ لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطرى ، وملكة النفع العاجل الذاتى . فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل ؛ تخرج النفس اللوَّامة [2] ؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت نفس تأمر بالسوء فهى تطلب تحقيق

---

(١) الغيب : ما غاب عن العيون وإن كان محصّلاً فى القلوب . والغيب : ما غاب عنك ولا يغيب عن علاّم الغيوب . قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ③﴾ [البقرة] . وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ⑱﴾ [الحجرات] . [لسان العرب : مادة (غيب) . . بتصرف] .

(٢) اللوَّامة : صيغة مبالغة من اللائمة . أى : كثيرة اللوم . والنفس اللوامة : هى التى تكثر من لوم صاحبها على أخطائه . قال تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ②﴾ [القيامة] .

الشهوات فقط ؛ لأنها نفس أمَّارة [١] بالسوء . أما إن اطمأنت النفس إلى حكم الله تعالى ورضيت به ونفذت ما قاله الله سبحانه، فهي نفس مطمئنة [٢] . ومن يظلم نفسه فهو الذي يتبع شهوات [٣] نفسه ، وهو قد أعطاها متعة عاجلة ؛ ليستقبل بعد ذلك شقاءً آجلاً [٤] ؛ فيكون قد ظلم نفسه.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مُؤيَّدين بالمعجزات ؛ ليبصّروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون ؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: أنه سبحانه لو تركهم أحياء فلن يؤمنوا ، فهو الذي خلقهم وقد علم أزلاً أنهم لن يختاروا الإيمان.

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذي يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، فلو كان علمه - سبحانه - على وفق ما يَقْهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية.

والمثال - ولله المثل الأعلى - أنت في البيت وتريد أن تقوم وزوجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً ؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم: إن طعامكم في الثلاجة ؛ لحماً وسمكاً وجبناً وزيتوناً . وبعد أن

---

(١) أمَّارة : صيغة مبالغة من الآمرة. أي: كثيرة الأمر. والنفس الأمارة هي النفس المسيطرة والمتسلّطة على صاحبها، وقد ورد في القرآن ذكرها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف] .

(٢) النفس المطمئنة هي التي اطمأنت بالإيمان ورضيت بربها وأطاعته؛ فهي ثابتة وساكنة بالجزاء الحسن من الله سبحانه. قال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر] [اللسان : مادة (طمن) . . بتصرف] . ذكر العارفون : إن النفوس سبعة : النفس الأمارة ، واللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، والكاملة .

(٣) اشتهى الشيء شهوةً : أحبَّه ورغب فيه. والجمع : شهوات. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٤) الآجل: نقيض العاجل. والآجلة: الآخرة، والعاجلة: الدنيا. وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] . والأجل المسمى : يوم القيامة. [اللسان : مادة (أجل) . . بتصرف] .

تخرج أنت وزوجتك تقول لها: إن أبناءنا لن يأكلوا إلا جبناً وزيتوناً ؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن فى الثلاجة إلا الجبن ، لما قلت ذلك ؛ لأن هذا هو لون الطعام القهرى.

لكن ما دام فى الأمر اختيار ؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء . وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت لهم الاختيار . ومثال هذا فى القرآن قوله الحق:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ ﴾ . [المسد]

وفى هذا حكم من الله تعالى بأن أبا لهب [1] سيموت كافراً ، وهذا حكم مُعْلَن ويُردَّد فى الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله ﷺ ، وكان كافراً مثل غيره من الكفار . وقد آمن من الكفار الكثير . ألم يسلم عمر ؟ ألم يسلم عكرمة بن أبى جهل ؟ ألم يسلم عمرو بن العاص ؟ ألم يسلم خالد بن الوليد ؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر ؟ لا ، لم يسلم وعلم رسول الله ﷺ من ربه أن ذلك لن يكون منه . وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن ؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبى لهب.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التى ذكر فيها، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقال : «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الذى كان للأمم السابقة التى أهلكت فى القرون الماضية تجزى ممن يحدِّد كل شىء ؛ لأن القضايا فى الكون واحدة . فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهى الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿خَلَائِفَ﴾ : جمع خليفة [1]، وهو من يَخْلُف غيره . والحق سبحانه وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى قادر ، وسميع ، وعليم ، وله كل صفات الكمال المطلق ، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعَدِّى أثر قدرتك إلى غيرك ، ولكنك لن تستطيع أن تُعدِّى قدرتك إلى سواك ، فإن كنت قوياً ؛ فلن تستطيع أن تَهَبَ ضعيفاً قدراً من قوتك . بل كل الذى تستطيعه هو أن تهبه أثر قدرتك ، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً ؛ فأنت قد تحمله عنه ، وإن كان غير قادر على المشى ؛ فأنت تأخذ بيده ، لكنك لا تستطيع أن تهبه جزءاً من قوتك الذاتية ، فيظل هو عاجزاً ، وتظل أنت قادراً - كما أنت.

هذا هو حال الخلق: تجد غنياً وآخر فقيراً ، ويُعطى الغنى للفقير من غناه ، ويُعطى العالمُ للجاهل بعضَ العلم ، لكنه لا يهبه مَلَكَة العلم ؛ ليعلم.

---

(١) وقد تجمع خليفة على خلفاء ، قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف] .

أما الحق الأعلى سبحانه فهو وحده القادر على أن يهب من قدرته المطلقة للخلق قدرة موهوبة محدودة ، وقد أعطاهم سبحانه أثر القدرة العالية فى الأفلاك التى صنعها ولا دخل للإنسان فيها ؛ من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ورياح ، ومطر .

وأعطى الحق سبحانه للإنسان طاقة من قدرته فى الأمور التى حوله ؛ فأصبح قادراً على أن يفعل بعض الأفعال التى تتناسب مع هذه الطاقة الموهوبة . وبذلك عدَّى له الحق سبحانه من قدرته ؛ ليقدر على الفعل ، ومن غناه ؛ ليعطى الفقير ، ومن علمه ؛ ليعطى الجاهل ، ومن حلمه ؛ ليحْلم على الذى يؤذيه.

إذن: فالخلق لا يعدّون [1] صفاتهم إلى غيرهم ولكنهم يعدون آثار صفاتهم إلى غيرهم ، وتظل الصفة هنا قوة ، والصفة هناك ضعفاً . أما الواحد الأحد فهو الذى يستطيع أن يهب من قدرته للعاجز قدرة ؛ فيفعل . فهل كل الكون هكذا ؟

إن الكون قسمان: قسم وهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان بدون مجال له فيه . وقد أقامه الحق بقدرته ، وهذا القسم من الكون مستقيم فى أمره استقامة لا يتأتّى لها أى خَلَل ، مثل: نظام الأفلاك والسماء ودوران الشمس والقمر والريح وغيرها ، ولا تعانى من أى عطب [2] أو خلل ، ولا يتأتى لهذا القسم فساد إلا بتدخُّل الإنسان.

---

(١) أعديته فعدا ، وعدوته أعدوه : تجاوزته إلى غيره ، واستعديت الأمير على الظالم طلبت منه النصرة، فأعدانى عليه : أعاننى ونصرنى فالاستعداد طلب التقوية والنصرة - المصباح المنير صـ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) العَطَب : الهلاك، يكون فى الناس وفى غيرهم . وفى الحديث الشريف : ذكرُ عَطَب الهَدْى، وهو هلاكه، وقد يُعبَّر به عن آفة تعتريه ، تمنعه من السير ، فيُنْحَر . والمراد بالعطب هنا : الفساد أو العيب أو الخطأ . [اللسان: مادة (عطب) . . بتصرف]. يقول سبحانه وتعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ .. ③﴾ [الملك] .

وقسم آخر في الكون تركه الحق سبحانه للإنسان ؛ حتى يقيمه بالقوة الموهوبة له من الله .

وأنت لا تجد فساداً في كون الله تعالى إلا وجدت فيه للإنسان يداً ، أما الأمور التي ليس للإنسان فيها يد فهي مستقيمة، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] ۝ ﴾ [الرحمن]

والمراصد تحدِّد موقع الأرض بين الشمس والقمر ، وموقع القمر بين الأرض والشمس بدقة تتناسب مع قوله الحق : ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ ؛ لأن الإنسان ليس له دخل في هذه الأمور.

وفيما لنا فيه اختيار علينا أن نتدخل بمنهج الله تعالى ؛ لتستقيم حركتنا مثل استقامة الحركة في الأكوان العليا التي لا دخل لنا فيها.

إذن : فالذي يُفْسد الأكوان هو تدخُّل الإنسان - فيما يحيط به ، وفيما ينفعل له وينفعل به - على غير منهج الله؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[2] ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن]

---

(١) الحسبان : الحساب . والشمس والقمر بحسبان أي : بحساب ومنازل حدّدها الله سبحانه فلا يعدوانها . وقال الزجاج : «بحسبان» يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات . وقال أبو العباس : حسبان مصدر حَسَبَ يحسبُه حساباً وحسباناً . وقال الأخفش وأبو الهيثم : الحسبان جمع حساب . قال تعالى : ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. ۝﴾ [الأنعام] . [اللسان : مادة (حسب) . . بتصرف].

(٢) البيان : ما بُيِّنَ به الشيء من الدلالة وغيرها . وبان الشيء بياناً : اتّضح ، فهو بَيِّنٌ . وكذلك أبان الشيء إبانة فهو مبين . والبيان : الفصاحة والإفصاح مع ذكاء ، والبيان : إظهار المقصود بأبلغ لفظ . قال تعالى : ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [آل عمران] . وقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝﴾ [القيامة] [اللسان : مادة (بين) . . بتصرف].

أي: هذه الأكوان مخلوقة بحساب ، وتستطيعون أن تُقَدِّروا أوقاتكم وحساباتكم على أساسها . ويقول سبحانه:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ[1] وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن]

وحتى تستقيم لكم الأمور الدنيا في حركتكم في الكون - كما استقامت لكم الأمور العليا ؛ وازنوا كل الأمور بالعدل ؛ فلا يختل لكم ميزان ؛ لأن الذي يُفسد الكون أنكم تتدخلون فيما أعطى لكم من مواهب الله قدرة وعلماً وحَركة على غير منهج الله . فادخلوا على أمور حياتكم بمنهج الله في «افعل» و«لا تفعل»[2] ؛ ليستقيم لكم الكون الأدنى كما استقام لكم الكون الأعلى.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾ وقد خلف الإنسانُ اللهَ تعالى في الأرض ، في أنه - مثلاً - يحرث الأرض ويسقيها ؛ فيخرج له الزرع ، وحين يأخذ الإنسان أسباب الله فهو ينال نتيجة الأخذ بالأسباب . ولكن آفة الإنسان بغروره ، حين تستجيب له الأشياء ، فهو يظن أنه قادر بذاته ، لا بأسباب الله .

والحق سبحانه وتعالى يُعطي بعطاء ربوبيته للمؤمن ، وللكافر ؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، لكنه جلّ وعلا ميَّز المؤمن ، لا بعطاء الأسباب فقط ، ولكن بالمنهج ، والتكليف المتمثل في

(١) نَجَمَ الشيء : طلع وظهر . ويقال لكل ما طلع وبدا : نَجْمٌ . ولذلك اختلف المفسرون في تفسير النجم في الآية ، فقال ابن عباس : النجم ما انبسط على وجه الأرض (يعني : من النبات) . وقال مجاهد : النجم الذي في السماء . انظر لسان العرب - مادة (نجم) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠) .

(٢) افعل ولا تفعل عليهما مدار التكاليف الشرعية من : الفرض ، والواجب ، والمندوب ، والمستحب والحرام ، والمكروه ، والمباح .

«افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، فإن أخذ العطاءين من الله يبقَ له حسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وإن أخذ العطاء الثاني في «افعل» و«لا تفعل» ، فهو يأخذ الآخرة ، أما دنياه فتظل متخلّفة.

ومن يُردْ أن يأخذ حُسْن الدنيا والآخرة ، فليأخذ عطاء ربوبية الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وعطاء الألوهية باتّباع المنهج.

إلا أن آفة الخليفة في الأرض أنه يرى بعض الأمور مستجيبة له ؛ فيطغى[1] ، ويظن أنه أصيل في الكون . ونقول له: ما دمت تظن أنك أصيل في الكون فحافظ على روحك ، وعلى قوتك ، وعلى غناك . وأنت لن تستطيع ذلك . فأنت إنْ تمردت على أوامر الله بالكفر - مثلاً ، فلماذا لا تتمرد على المرض أو الموت ؟

إذن: أنت مقهور للأعلى غصباً عنك ، ويجب أن تأخذ من الأمور التي تنزل عليك بالأقدار ؛ لتلجمك ، وتقهرك ، إلى أن تأخذ الأمور التي لك فيها اختيار بمنهج الله سبحانه.

ولو ظن الخليفة في الأرض أنه أصيل في الكون ، فعليه أن يتعلّم مما يراه في الكون ، فأنت قد توكّل محامياً في العقود والتصرفات ؛ فيتصرف في الأمور كلها دون الرجوع إليك ولا يعرض عليك بياناً بما فعل ، فتقوم أنت بإلغاء التوكيل . فيلتفت مثل هذا المحامي إلى أن كل تصرف له دون التوكيل قد صار غير مقبول . فماذا عن توكيل الله للإنسان بالخلافة ؟ يقول الحق سبحانه:

---

(١) يقول عز وجل : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝﴾ [العلق] ومثال هذا : صاحب الجنتين اللتين قال عنهما رب العزة : ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ۝﴾ [الكهف] ولكنه طغى بنعمة الله فقال : ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝﴾ [الكهف] .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ فإذا كنتم قد خَلَفْتُم من هلكوا ، فمن اللازم أن تأخذوا العظة والعبرة فى أن الله تعالى غالب على أمره [1] ، ولا ترهقوا الرسل ، بل تأخذوا المنهج ، أو على الأقل ، لا تعارضوهم إن لم تؤمنوا بالمنهج الذى جاءوا به من الله . واتركوهم يعلنون كلمة الله ، وليعيدوا صياغة حركة المؤمنين برسالاتهم فى هذا الكون على وفق ما يريده الله سبحانه ، وأنتم أحرار فى أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا .

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

والدليل على ذلك أن الإسلام حينما فتح كثيراً من البلاد ترك لهم حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على أديانهم ، مع أنه قد دخل بلادهم بالدعوة أو الغلبة ، ولكنه لم يقهر أحداً على الدين ، وأخذ المسلمون منهم الجزية [2] مقابل حماية المسلمين لهم .

ولو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما أبقى أحداً على دينه ، ولكن الإسلام لم يُكْرِه أحداً ، وحمى حرية الاختيار بالسيف . ولأن الذين لم يؤمنوا بالإسلام عاشوا فى مجتمع تتكفّل الدولة الإسلامية فيه بكل متطلبات حياتهم ، والمسلم يدفع زكاة لبيت المال ، فعلى من لم يؤمن - وينتفع بالخدمات التى يقدمها المجتمع المسلم - أن يدفع الجزية مقابل تلك الخدمات .

---

(١) لقد حثَّ الله سبحانه الناس على النظر فى عاقبة السابقين وما حدث لهم فى أزمانهم ، وذلك فى آيات كثيرة من القرآن ، منها : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾ [آل عمران] . و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩)﴾ [يوسف] . والله سبحانه قد حسم مسألة الصراع بين الحق والباطل فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ [يوسف] .

(٢) الجزية : هى مبلغ من المال يوضع على من دخل فى ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، فرضها الإسلام عليهم فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها ، وهى تجب على من كان : ذكراً ، مكلفاً ، حراً . ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب . انظر : فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧) .

وإذا اعتقد الإنسان أنه خليفة ، وظل متذكراً لذلك ، فهو يتذكر أن سطوة من استخلفه قادرة على أن تمنع عنه هذه الخلافة .

إذن : فخذوا الأمر بالتسليم ، وساعدوا النبى ﷺ على دعوته ، وآمنوا به أولاً ، وإن لم تؤمنوا به فاتركوه ؛ ليعلن دعوته ، ولا تعاندوه ، ولا تصرفوا الناس عنه ؛ لأن الحق هو القائل : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس]

وساعة تأتى لأمر يعلله الله بكلمة ﴿ لِيَعْلَمَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة]

أو ﴿ لِنَنظُرَ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس]

فاعلم أن الله عالم وعليم ، علم كل الأمور قبل أن توجد ، وعلم الأشياء التى للناس فيها اختيار ، وهو القائل :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ (١) لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

وقد علم الحق سبحانه أزلاً كل شىء ، وإذا قال الله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ فليس معنى ذلك أن هناك علماً جديداً لم يكن يعلمه سوف ينشأ له ، لكنه يعلم علم مشهد وإقرار منك ؛ حتى لا يقول قائل : لماذا يحاسبنا الله على ما عَلِمَ أزلاً ؟ بل يأتى الله سبحانه بالاختبار الذى يحدِّد للعبد المعايير التى تتيح للمؤمن أن يدخل الجنة ، وللعاصى أن يُحاسَب ويُجازَى .

---

(١) الميزان : العدل ، والميزان : المقدار . والميزان : الآلة التى توزن بها الأشياء ، وجمعه : موازين . قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى] . وقال : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] . [اللسان : مادة (وزن) .. بتصرف] .

راجع أصله وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ / محمد السنراوى المستشار بالأزهر . والأستاذ / عادل أبو المعاطى .

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد عِلم الواقع ، لا عِلْم الحصول.

إذن: فذكر كلمة ﴿ولِيَعْلَمَ﴾ وكلمة ﴿لِنَنظُرَ﴾ فى القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهد ، وعلم حُجّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق:

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهى: رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسل ، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتى بالحديد [1] الذى يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذى لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعِلْم الله سبحانه هنا علْم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خبراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفى هذا لون من الاحتياط الجميل.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوى وعزيز . فهو القائل:

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤) ﴾ [التوبة]

---

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للدمار ؛ إذا وضع فى يد من لا ضمير له ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم.

إذن: فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ إنما يعنى : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرة منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّت عدَّتُهم ، وقلّ عددهم.

إذن: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس]

أى: نظر واقع ، لا نظر علم.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا(1) بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ(2) نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع: آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسميها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

(١) الآية: العبرة ، والآية: المعجزة أو الشيء العجيب. والجمع: آيات، وآى. قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ ..﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] ، والآيات هنا: الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقيوميته. [لسان العرب: مادة (أيا) . . بتصرف].

(٢) التِّلقاء: مصدر لَقِيَ. يقال: يسرنى تلقاؤك أى: لقاؤك. ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة.

فى الذكاء أو الجمال أو الخُلُق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هى الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شىء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلما يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كألا يمكِّنهم الحق - عزَّ وجلّ - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيّهم [1] ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الغَىّ : الضلال . غَوَى غَيّاً وغَوَايةً : أمعن فى الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وتَغَاوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستغواه بالأمانىّ الكاذبة : طلب غَيَّه وأضلَّه . وقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) . . بتصرف] .

وهكذا تتجلّى أمامهم خيبتهم.

إذن: الآيات تُطلَق على الآيات الكونية، وتطلق على الآيات المعجزات، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله، وخلق الكون من الله، فهل هناك آية تصادم آية؟ لا ؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ..(١٥) ﴾ [يونس]

أى: آيات واضحة. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾

وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة. ومقابل الرجاء شىء آخر محبوب، لكن الإنسان يعلم استحالته، وهو التمنِّى، فالمحبوبات - إذن - قسمان: أمور مُتمنَّاة وهى فى الأمور المستحيلة، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها، والقسم الثانى أمور نحبها، ومن الممكن أن تقع، وتسمى رجاء.

﴿ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ هم مَن لا يؤمنون، لا بإله، ولا ببعث ؛ فقد قالوا:

﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ [1] (٢٤) ﴾ [الجاثية]

---

(١) الدَّهر: الزمان الطويل، ومدّة الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان]. وقال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» ومعناه: أن ما أصابك من الدهر، فالله فاعله وليس الدهر، فإذا شتمت الدهر، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون. [لسان العرب: مادة (دهر) - بتصرف].

وقالوا:

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ [1] بِقِيعَةٍ [2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

السراب: هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد. وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

إنه يُفاجَأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول:

(١) السَّراب: ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض. وهو من خداع البصر. وقد سُمِّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى: يجرى جرياً ، أى: يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء.

(٢) القيعة: أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر. قال الفرّاء: القيعة جمع القاع ، والقاع: ما انبسط من الأرض. قال تعالى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ [طه]. [اللسان: مادة (قوع).. بتصرف].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ [1] أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة]

رغم أن الكون الذى نراه يُحتِّم قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شىء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيَّتها ، ويضيع منها اللون ،ثم تصير تراباً. وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التى تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك .

إذن : فللوردة دورة حياة. وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هى بعينها ؛ لم تَزِدْ ولم تنقص. وقد شرحنا ذلك من قبل. وكل شىء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً.

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه [2] ؛ لأن النظر فى الكون وتأمُّل أحواله يُوجِب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

---

(١) ضللنا فى الأرض : قال أبو منصور : الأصل فى كلام العرب أن يقال : أضللت الشىء إذا غيَّبته ، وأضللت الميت : دفنته . فالضلال من معانيه : الفساد والعصيان ونقيض الهداية والرشاد . ومن معانيه : التغييب والدفن . فكأنهم يقولون : «إذا دُفنَّا وغُيِّبنا تحت الأرض . . فهل نحيا من جديد ؟» فيردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] . [لسان العرب : مادة (ضلل) - بتصرف].

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف] ويقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ[1] نُعِيدُهُ .. (١٠٤)﴾ [الأنبياء]

وهؤلاء الذين لا يرجـون لقـاء الله يأتى القـرآن بما جـاء على ألسنتهم: ﴿ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ..(١٥)﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان.

﴿ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل. والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير[2] .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ .

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن آتى بقرآن غير هذا أو أبدله» ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل. ولكن التبديل هو الأمر السهل. وقد نفى

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم.

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٤٥) لهذه الآية. قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه:
أحدها: أنهم سألوه أن يحوّل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً. قاله ابن جرير الطبرى.
الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم. قاله ابن عيسى.
الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. قاله الزجاج.

الأسهل ؛ ليسلِّموا أن طلب الأصعب منفى بطبيعته.

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾

أي: أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ [1]. بل بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً.

إذن: فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ [2] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١)﴾ [النحل]

وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ و﴿تِلْقَاءِ﴾ من «لقاء» ؛ فتقول: «لقيت فلاناً» ، ويأتي المصدر من جنس الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا: الجهة.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ [3] .. (٢٢)﴾ [القصص]

---

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأماته.

(٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الحرج هو من مقاصد الشريعة ، يقول سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] والنسخ في القرآن أنواع:

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة: كان فيما أنزل «عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات».

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً في القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضى.

٣- وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر في الجاهلية. انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٥٩ - ٧٧).

(٣) مَدْيَن: اسم قرية شعيب - عليه السلام.

و﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى: جهة مدين. و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجّه إلى مكان معيّن فنحن نُوجَد فيه. ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول: لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ[1] الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال: «أخذ فلان شطر ماله» ، أى: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى: إلى جهة كذا.

وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق.

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصُّك ، فإن كان بصرُك قوياً فأفقك يتَّسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق.

ويقال: «فلان ضيِّق الأفق» أى: أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مَرَاء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئى ، وخلفك نصف الكون المرئى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة».

---

(١) شَطْر الشيء: ناحيته ، وشَطْر كل شيء: نحْوه وقصْده ، وقصدتُ شَطْرَهُ أى: ناحيته. «وشَطْرَ المسجد الحرام» : نحوه وتلقاءه. قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة].
وشَطْر الشيء: نصفُه ، والجمع: أشْطُر ، وشُطُور. وشَطَرْتُه: جعلته نصفين. وشاطره ماله: ناصَفَه.
وفى الحديث: أنَ سعداً استأذن النبى ﷺ أن يتصدّق بماله كله ، قال: «لا» قال: فالشَّطْر ، قال: «لا» ، قال: الثلث ، فقال. «الثلث ، والثلث كثير». وفى الحديث: «الطُّهور شَطْر الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطّهور يظهر بحاشية الظاهر. [لسان العرب : مادة «شَطَرَ» - بتصرف].

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أى: أنه ﷺ لا يأتى بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أى: أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده ، ففى هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً. وبعد أن نزل الوحى عليه من الله جاء القرآن فى منتهى البلاغة.

وقد نزل الوحى ورسول الله ﷺ فى الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجَّل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبى ﷺ قد أجَّل عبقريته إلى هذه السِّن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر.

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتَّبِع إلا ما يُوحَى إليه فيقول:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالرَّدِّ من الحق سبحانه على الكافرين:

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

وهنا يبلِّغ محمدٌ ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله: لقد عشت طوال عمرى معكم ، ولم تكن لى قوة بلاغة أو قوة شعر ، أو قوة أدب. فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين ، ورأيتم أنه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم ، بل عندما اتهمتموه وقلتم:

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ..(١٠٣) ﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل فى القرآن قوله تعالى:

﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ (١) إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ (٢) وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

ولم يخرج النبى ﷺ من شبه الجزيرة العربية ، ولم يقرأ مؤلَّفات أحد. فمن أين جاء القرآن إذن ؟

لقد جاء من الله سبحانه ، وعليكم أن تعقلوا ذلك، ولا داعى للاتهام بأن القرآن من عند محمد ؛ لأنكم لم تجرِّبوه خطيباً أو شاعراً ، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ ، بعد أن نزلت عليه الرسالة ، هو بلاغ من عندالله .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسَب الكمال إلى إنسان فينفيه ، فالعادة أن

---

(١) لَحَدَ فى الدين وأَلْحَدَ والتحد : مال عنه ، وحَادَ ، وابتعد. والإلحاد: الجدال والمراء ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. (٤٠) ﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ .. (١٨٠) ﴾ [الأعراف]. والإلحاد: الظلم والجور. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ..(٢٥) ﴾ [الحج]. والإلحاد فى اللغة: الميل عن القصد. وقوله: ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ..(١٠٣) ﴾ [النحل] وأصل الإلحاد: الميل والعُدُول عن الشيء. والملتحَد: الملجأ ؛ لأن اللاجىء يميل إليه. [لسان العرب: مادة (لحد) - بتصرف].

(٢) عجم: العُجْم والعَجَم: خلاف العُرْب والعَرَب. ورجل عَجَمىّ وأعجمىّ: غير عربىّ. قال أبو إسحاق: الأعجم: الذى لا يُفصح ولا يُبيِّن كلامه وإن كان عربيّاً. والعجمى هو الذى من جنس العجم أفصح أو لم يُفصح. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ [الشعراء].

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن ينتحل[١] كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلِّغكم أن كمال القرآن ليس من عنده، بل هو مجرد مبلِّغ له ، وكان يجب أن يتعقَّلوا تلك القضية بمقدِّماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان[٢] ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً[٣] .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

إذن : فالمقدمة التى يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم[٤] ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران]

أى : أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى : من أمة العرب ، لا من أمة العَجَم ، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى : من قبيلتهم التى يكذِّب أصحابُها رسولَ الله ﷺ .

إذن : فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يَغِبْ عنكم فترة ؛ لتقولوا

---

(١) ينتحل الشيء : ينسبه إلى نفسه . نحله القول : نسبه إليه . ونُحِل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهى من قيل غيره . [لسان العرب : مادة نحل] .

(٢) العنان : عنان اللِّجام : السَّيْر الذى تُمسك به الدابة ، والجمع : أعِنَّة . والعنان : الحبْل . والمراد هنا : تشبيه الأفكار بالبعير الذى له عقال أو عنان ؛ إذا أرخيته له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للدَّواب كالعقل للإنسان فإذا فسد العقل ضلَّ صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره يضلّ . [لسان العرب : مادة (عنن) - بتصرف] .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت] .

(٤) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة] .

بُعثَ بعثةً ؛ ليتعلَّم علماً من مكان آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم ولا إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتْلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة ؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ فى الأربعينات ، ولكن مخايل العبقرية إنما تنشأ فى نهاية العقد الثانى وأوائل العقد الثالث ، فمن الذى أخّر العبقرية عند رسول الله ﷺ ليقول هذا القول البليغ الذى أعجزكم ، وأنتم أمّة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون [1] عليها من قديم ، وعجزتم أمام ما جاء به محمد ﷺ ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حَلّ لكم اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندى ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛ لأنه ﷺ يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه . والدليل على أنكم مضطربون فى الحكم أنكم ساعة يقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ، تكذّبونه ، وتقولون : لا ، بل هو من عندك ، فإذا فَترَ عنه الوحى مرّةً قلتم : قلاه [2] ربُّه .

لماذا اقتنعتم بأن له ربّاً يَصِلُه بالوحى ويهجره بلا وحى ؟

أنتم - إذن - أنكرتم حالة الوصل بالوحى ، واعترفتم بالإله الخالق عندما غاب عنه الوحى ، وكان يجب أن تنتبهوا وتعودوا إلى عقولكم ؛ لتحكموا على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر فى كثير من آياته ، يقول سبحانه :

---

(١) المرتاضون : الذين لهم دُرْبة ، قد ذللت ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة .

(٢) قلاه ربه : أبغضه وتركه . ولذلك قال له ربه : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] .

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[(١)] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[(٢)] مَرْيَمَ (٤٤) ﴾[آل عمران]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[(٣)] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[(٤)] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥) ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدِّمات ؛ لتحكموا بأنه صادق فى البلاغ عن الله ؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ .

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة فى أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله

---

(١) أقلامهم : سهامهم ، وقيل : أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة . قال الزجاج : الأقلام هنا : القداح . وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم ، على جهة القُرعة ، وإنما قيل للسهم : القلم ؛ لأنه يُقْلَم ، أى : يُبْرَى . وكلّ ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قَلَمْتَه ، من ذلك القلم الذى يكتب به ، وإنما سُمِّى قلماً ؛ لأنه قُلم مرة بعد مرة ، ومن هذا قيل : قلَمْتُ أظفارى . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان]. [لسان العرب : مادة (قلم) - بتصرف].

(٢) يكفل : يعول ، والكافل : العائل . قال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران] .

(٣) الغربىّ : الجبل الغربىّ الذى كلّم الله سبحانه نبيّه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التى هى شرقية على شاطيء الوادى المقدس (طُوًى) . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٩١ - بتصرف] .

(٤) ثاوياً : مقيماً والثواء : الإقامة ، ثويت بالمكان : أقمت فيه . قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ .. (١٥١) ﴾ [آل عمران] . [لسان العرب : مادة (ثوا) - بتصرف] .

سبحانه وتعالى مُنزَّه عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذى ينبّه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل.

وقول الحق سبحانه فى آخر الآية : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يدلنا على أن القضية التى كذَّبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدمات المُحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التى يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكّروا وقالوا: محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلِّم ، ولم يَغبْ عنا فترة ليتعلَّم ، وظل مدة طويلة إلى سنِّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جَاءته هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها : من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءته من عندالله ، فكان يجب أن يصدِّقوه.

ومهمة العقل دائما مأخوذة من اشتقاقه ، «فالعقل» [1] مأخوذ من «عقال» البعير. وعقال البعير هو الحبل الذى تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوفِّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك، إلى أن نحتاجه فى حركة.

إذن: فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم المَلَكَات ؛ لأن كل مَلَكَة لها نزوع إلى شىء ، فالعين لها مَلَكَة أن ترى كل شىء ، فيقول لها العقل: لا داعى أن

---

(١) العقل : النُّهى ، ضد الحمق ، وعقل يعقل فهو عاقل. قال ابن الأنبارى: الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل : العاقل هو الذى يحبس نفسه ويردّها عن هواها. والعقل : التثبّت فى الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل : لا تسمعى إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك [1] .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة «الحكْمة» ، مأخوذة من «الحَكَمة» [2] وهى فى «اللِّجام» الذى يوضع فى فم الفرس؛ حتى لا يجمح ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى تريده .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميّز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين لملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المُحَسَّة التى تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ [3] عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أأكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جربتموها ، أفأكذب على الله ؟! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] .

(٢) حكَمة اللجام : ما أحاط بحَنَكَى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد . وقيل : الحكمة حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . [لسان العرب : مادة (حكم)].

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك : ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك : ضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٨٢) وقال : إسناده حسن .

(٣) افترى : اختلق . الفرية : الكذب . و« افترى » تفيد المبالغة فى الكذب .

فى الكبَر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟

وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب. فإذا كنتم أنتم تتهموننى بذلك ، فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم كذبتمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت: إنه من عند نفسى لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدَّعى. ولكن أرفعه إلى غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم.

وقوله الحق: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى: لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلِّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله سبحانه.

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقدها ، لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يبين لهم رسول الله ﷺ : إن قلتم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من يكَذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبوننى وتدّعون أنى أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتُكذِّبون بالآيات وتقولون هى من عندك ، وهى ليست من عندى ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتى من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع فى أكثر من موقع ، مثلما يأتى القول الحق مبيِّناً أدب النبوة :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ[1] .. (٢٤)﴾ [سبأ]

وليس هناك أدب فى العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذى يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفى ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أى القضيتين هى الهدى ، وأيهما هى الضلال[2] .

وفى ذلك ارتقاء للمجادلة بالتى هى أحسن من رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهو لون من ألوان البديع فى القرآن ، وتعريفه : « أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به » (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلى ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ، فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : « والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٣٨) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...(٢٥)﴾ [سبأ]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجريمتك لن أسأل أنا عنها ، وجريمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجرام لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختار الأسلوب الذى يُهذِّب ، لا ليهيِّج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبنى الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[1] (١٨)﴾

(١) قال الجوهرى : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل » ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكأنه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . [اللسان : مادة (شرك) بتصرف] .

وكلمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ﴾ تقتضى وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك آمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الآمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع يطيع المأمور الآمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتنبت نهيه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شىء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشىء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشىء ولم تنه عن شىء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهى ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهى .

إذن : فمن الحمق [1] أن يعبد أحدٌ الأصنام ؛ لأنها لا تضر من خالفها ، ولا تنفع من عبدها ، فليس لها أمر ولا نهى .

ومن أوقفوا أنفسهم هذا الموقف نسوا أن فى قدرة كل منهم أن ينفع الصنم وأن يضره ، فالواحد منهم يستطيع أن يصنع الصنم ، وأن يصلحه إذا انكسر ، أو يستطيع أن يكسره بأن يلقيه على الأرض . وفى هذه الحالة يكون العابد أقدر من المعبود على الضر وعلى النفع ، وهذا عين التخلف العقلى .

إذن : فمثل هذه العبادة لون من الحمق ، ولو عُرِضَتْ هذه المسألة على العقل ؛ فسوف يرفضها العقل السليم .

وعندما تجادلهم ، وتثبت لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ، تجد من يكابر قائلاً : ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ وهم بهذا القول يعترفون أن الله هو الذى ينفع ويضر ، ولكن أما كان يجب أن يتخذوا شفيعاً لهم عند الله ، وأن يكون الشفيع متمتعاً بمكانة ومحبة عند من يشفع عنده [2] ؟

ثم ماذا يقولون فى أن من تُقدم له شفاعة هو الذى ينهى عن اتخاذ الأصنام آلهة وينهى عن عبادتها ؟

وهل هناك شفاعة دون إذن من المشفوع عنده ؟ من أجل ذلك جاء الأمر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

---

(١) الحمق : وضع الشىء فى غير موضعه ، والحمق : ضد العقل أو قلة العقل وضعفه . والحميقاء : الخمر ؛ لأنها تعقب شاربها الحمق . والأحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت ، فكأنه فسد عقله حتى كسد . قال ابن الأعرابى : الحمق أصله الكساد . ويقال : الأحمق الكاسد العقل . والحمق أيضاً : الغرور . وانحمق الرجل : ضعف عن الأمر . [اللسان : مادة (حمق)] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾﴾ [طه] ، إن ادعاء المشركين أن الأصنام تشفع لهم عند الله - ادعاء باطل ومع بطلانه اعتراف منهم بأن الشفاعة لا تكون إلا من الله سبحانه وشفاعة الله لا تكون إلا لحبيب ومحبوب يعمله فرضاً وفضلاً .

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. (١٨)﴾ [يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. (١٦)﴾ [الحجرات]

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرِّعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شىء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شىء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنَزَّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنَزَّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره في تجارة ما ،ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد فى ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟

إن الحق سبحانه يقول :

﴿قل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا (1) إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلى أن لهؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شيء إلا بابتغاء ذى العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال فى الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد فى النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملكوت .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء فى الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدَّعى لنفسه صناعتها ؛ لأن الجنس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ،ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هى التى خلقت هذه الكائنات . كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعَى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

---

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ .. (٤٨)﴾ [التوبة] [اللسان : مادة (بغى)] .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له .
وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التى وهبها للإنسان ، فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهرباء جهد العلماء الذين درسوا علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح الكهربى، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجة التى يوضع فيها السلك الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أتفه الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ، وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه.

وأنت بما تبتكره و تصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذكى حقاً هو من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس(١) - ضمن ما خلق-وإذا أشرقت أطفأ الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهدى الجميع ، وإذا كان ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته .
ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى تحمينا من أن نصطدم بالأشياء فلا تحطمنا ولا نحطمها، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٣٣) ﴾ [الأنبياء] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ..(٤٥) ﴾ [الفرقان] .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلانى جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل ويقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل فى كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه، والعياذ بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشركة تقتضى طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوى وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساوٍ لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

وقد جاءت آية فى سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه فى سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ[1] ..﴿٢١٣﴾﴾ والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

---

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلفوا فى عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ؛ فاهتدوا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ..﴿٣٠﴾﴾ [الروم] ، فاختلفوا بعبادة غير الله ؛ فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واهتدوا بعقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها فى المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعانى فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالى الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل فى ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذى خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضَنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ،ولا يضمن لهذه المادية قيمًا تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة]

لذلك فَهِمَ البعض أن الناس كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذى شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى [١] ؛ لأن الأصل فى المسألة هو الإيمان لا الكفر [٢] .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** .. (٢١٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذى حدث بين الناس جاء فى آية البقرة فى المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف فى هذه الآية فى المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان [٣] ، فليس هناك أناس أولَى من

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٥٠) .

(٣) إن تصدير الاختلاف فى آية سورة يونس وتأخيره فى سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام فى آية الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان فى مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين فى أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ [1] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجون [2] إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذى وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طولاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا [3] لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج]

---

(١) بكة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخل فيه البيوت . وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم مبدلة من الباء . ثم قيل : بكة مشتقة من البك وهو الازدحام أى : ازدحامهم في موضع طوافهم . والبك أيضاً : دق العنق ، وسميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم . بتصرف من تفسير القرطبى (٢/ ١٤٨٦) .

(٢) يحجون إليه : يقصدونه بشد الرحال إليه للعبادة والتعظيم . قال الجرجانى فى كتابه : « التعريفات » (ص ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشيء المعظم ، وفى الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة فى وقت مخصوص بشرائط مخصوصة فى أماكن مخصصة » .

(٣) بوأنا له : أنزلناه بمكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوّء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان لينزل به . وبوأنا له : هيأنا له المكان ومكناه منه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف] . [اللسان : مادة (بوأ) - بتصرف] .

وهكذا يَصْدُق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل فى الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذى طرأ على البشر من بابين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء.

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [1] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالتعصِّى عن الحكم الإيمانى مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أى : أن تكون قد علمتَ شيئاً ، ولم تجعله دائماً فى بؤرة [2] شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشتَّتَ الفكر فى أكثر من أمر ، فإن كنت صافى الفكر ومنتبهاً إلى المعلومة التى تَصِلُكَ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالَياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة.

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر فى حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خال من أى معلومة غيرها ، فتثبت فى بؤرة

---

(١) ذريّة الرجل : ولده ، والجمع : الذريات والذرارى . قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ .. (٣٤) ﴾ [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذَرَأَ الله الخلق ، أى : خلقهم . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مهموزة ؛ وقيل : الذرية أصلها من الذَّرّ بمعنى : التفريق ؛ لأن الله تعالى ذَرَّهم فى الأرض ، أى : فرَّقهم . [اللسان : مادة (ذرر)].

(٢) بأر الشىء : خبأه وادَّخره . ومنه قيل للحفرة : البؤرة . ومنها بؤرة الشعور أى : حفرة ومركز الشعور الذى يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التى تواجهه . انظر لسان العرب (مادة : بأر).

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة فى بؤرة الشعور ، وحين تأتى معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى.

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال- أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى [1] ؛ ليركِّز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل فى الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدى من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يُضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرسُ جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها [2].

وقد نجد طالباً فى صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتى فى الجزء الفلانى من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر فى بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال فى الجزء الذى قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة.

---

(١) ولذلك أرشد العلماء طلاب العلم أن يقللوا علائق الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق - كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى - فى إحيائه(كتاب العلم) « شاغلة وصارفة و﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب] ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن دَرْك الحقائق ؛ ولذلك قيل : «العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك» والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشَّفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع ». قال الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (١/ ٥٠٤) : «لذا كرهوا للمتعلم الاشتغال فى درسين فى علمين مستقلين لئلا تتوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول».

(٢) وأمر تخلية الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شيء حَثَّ عليه حديث رسول الله ﷺ بالنسبة للصلاة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٠) والأخبثان هما البول والبراز. فكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله عنه شيء.

ولذلك فالتلميذ الذكى هو من يقوم بما يسمِّيه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى : أن يقرأ الدرس ثم يغلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه : «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة ؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحَتْ له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليثير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقى درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهى ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهى إلى أن يأتى الران [1] الذى قال عنه الحق سبحانه :
﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑭ ﴾ [المطففين]

ويبين النبى ﷺ ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة فى جذر [2] قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة» . ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول : «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة

(١) الرين : الطَّبع والدَّنس . وهو كالصدأ يغشى القلب . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسوادَّ القلب . بتصرف من لسان العرب (مادة : رين) والرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطَّاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑭ ﴾ [المطففين] .

(٢) جَذْر كل شيء : أصله . ومنه هذا الحديث : جَذْر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها . (اللسان مادة : جذر) .

من قلبه ؛ فيظل أثرها مثل أثر الوكْت[1] »[2] أى : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتى الرَّانُ على القلب.

إذن : فالغفلة تتلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان فى نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا. ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويذوق حلاوته[3]. ومثال هذا : المسلم الذى يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرْهقاً وفى ضيق.

ولذلك جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأىّ قلب أشْربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصِير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[4].

إذن : فالغفلة هى أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

---

(١) الوكتة : الأثر فى الشىء ، كالنقطة من غير لونه ، والجمع : وكت. وفى الحديث : «لا يحلف أحد ولو على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وكتة فى قلبه». ومنه فى حديث حذيفة : « .. ويظل أثرها كأثر الوكت». [اللسان : مادة (وكت)].

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (٢٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو حديث طويل ، هاتان قطعتان منه.

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» متفق عليه. أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان.
مثل الصفا : الصخرة الملساء العريضة.
مرباداً : أسود مشوباً بغبرة.
كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعُروة.
مجخياً : مائلاً ، أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه. [انظر لسان العرب مادة : جخى].

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلِّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية. وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده.

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا [(١)] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة]

وإلْف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبَّق كل مطلوب لله [(٢)] ، فإن قلت: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطرى ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطرى من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص.

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة فى القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين فى القرآن :﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف]

ولم يقل: «مهتدون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ أباه قدوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن أباه على حق.

إذن: فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان: تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى.

---

(١) ألفينا: وجدنا . يقال: ألفيت الشيء إذا وجدته وصادفته ولقيته. انظر اللسان مادة (لفى).

(٢) إن آدم عليه السلام طبَّق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التى نُهى عنها ، فكان نسياناً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ..﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] وهذا لا ينافى أنه طبق كل المطلوب .

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبى فقط [1] ؟ فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول : وهل من المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [2] فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]

والذى أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيرا سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة؟

ولم يفطن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿ .. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام: ﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذى طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء. وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله الحق: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [3] .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة]

---

(١) هناك فرق بين النبى والرسول ، فالنبى هو من نُبِّيءَ وأوحيَ إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ قومه رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نَبى رسولاً.

(٢) خلا: مضى. أى: مضى وأرسل. ويقال : القرون الخالية: الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة].

(٣) القربان: ما قُرِّب إلى الله - عز وجل - وتقربت به ، تقول: قرَّبتُ لله قرباناً. وتقرّب إلى الله بشىء ، أى : طلب به القُرْبة عنده تعالى. قال الليث: القربان ما قربت إلى الله ، تبتغى بذلك قربة ووسيلة. [اللسان : مادة (قرب) - بتصرف].

وابْنَا آدم عليه السلام قد قدَّما القربان إلى الله تعالى. إذن: فهما قد عرفا أن هناك إلهاً.

وحين قال قابيل لأخيه: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]

ثم في قول هابيل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة]

إذن: لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلَّغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ [1] سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه - قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام - كان يعاقب مَن يكذِّب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل، يقول سبحانه:

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا [2] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ [3] وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ [4] وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

---

(١) وعد الله سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [ابن كثير ٢/ ٤١١].

(٢) الحاصب: ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض، فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٣) عُذِّب بها قوم ثمود، جاءتهم صيحة أصمَّت آذانهم وأخمدت منهم الأصوات والحركات. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٤) الخسف: إذهاب الأشياء في الأرض. وخُسف بالرجل: إذا أخذته الأرض وغاب فيها، وقد عُذِّب بهذا قارون. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

أى: أنه سبحانه قد أجَّلَ الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة. وهذه الكلمة التى سبقت، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم فى الدنيا، ولكنه يؤخِّر ذلك إلى يوم الجزاء. ويقضى سبحانه فى ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه فى جانب من أرسله، لا من عاند رسوله ﷺ.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا[1] أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾

والآية كما عرفنا هى الشيء العجيب، وإما أن تكون آية كونية، أو آية إعجاز، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام.

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن، وهى معجزة بالنسبة إليهم؟

نقول: إن استقبال القرآن فَرْع تصديق للرسول ﷺ، وقد حدث اللبس عندهم؛ لأنهم ظنوا أن الآية هى الآيات المحسّة الكونية المشهودة، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان

---

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتحضيض، مثل (هلا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. (٤٦)﴾ [النمل] وتدخل على ماض فى تأويل المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠)﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضى كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ .. (١٣)﴾ [النور]، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها فى كتب اللغة [القاموس القويم: ٢/ ٢٠٧، ٢٠٨].

رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم.

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التى اصطحبوها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم.

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهى لعامة الزمان وعامة المكان [1]. فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولَصارَتْ خبراً لمن لم يشاهدها.

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّق أن موسى - عليه السلام - قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسى يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حُدِّث به له أن يكذِّب ، وله أن يصدِّق ، ولكنّا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك فى القرآن. وثقتنا فيمن قال هى التى جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل البعض عن السر فى عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول: لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهى معجزة القرآن. وتتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأت ولم تصدِّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

---

(١) وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة» من حديث جابر بن عبد الله. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

لها ، وقد جاءت لتربيب الإيمان في القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى شَدِّ أَزْرِهم الإيماني ، وحدَّثتنا كتب السيرة أيضًا عن حفنة الطعام التي أكل منَها عدد كبير من الرجال ، ومن صدَّق الرواية ؛ فليصدِّقها ، ومَن لم يصدِّقها ، فهذه الآية لم تأتِ له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسية كباقي إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وإن دخلت «لولا» [(1)] على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقول إنسان لآخر: لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده. وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدتها تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شيء، لوجود شيء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض.

وهم هنا قد قالوا: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر بالقرآن الكريم: ﴿ لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القصص]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسل السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشبثاً بالكفر

---

(١) «لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية (مبتدأ وخبر) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ] وجملة الجواب فعلية وتقترن باللام إذا كانت مثبتة في الغالب وتتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى :﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور] القاموس القويم جـ ٢/ ٢٠٧

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ فى كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمن به ، وزاد تمسكهم بالإيمان.

والذين طلبوا أن يأتى لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل.

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجدّدة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان. أما المعجزة الحسية فهى تنقضى بانقضاء زمانها ومكانها.

أو هم طلبوا الآيات التى اقترحوها مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا [1] ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [2] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا [3] ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [4] أَوْ تَرْقَىٰ [5] فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ .. ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]

إذن: فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضُّل المُرْسِل.

---

(١) الينبوع : العين الجارية والجدول الكثير الماء ، والجمع ينابيع . (اللسان : مادة نبع).

(٢) كِسَفاً: جمع كِسْفة وهى القطعة ، والمراد: العذاب . قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴿٩﴾﴾ [سبأ] . [اللسان : مادة (كسف)].

(٣) القبيل : الجماعة من أى شىء.

(٤) زخرف : نقش وزينة وتمويه بالذهب . والزخرف : الذهب فى غيره . قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ..﴿٢٤﴾﴾ [يونس] . [اللسان : مادة (زخرف)]

(٥) ترقى : تَصْعَد ، والرقىّ: الصعود . وفى الحديث : «كنت رقَّاءً على الجبال» أى : صعَّاداً عليها ، وفعَّال للمبالغة . قال تعالى : ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [القيامة].

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يُرسِل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فنقول: إن الحق سبحانه قد قال: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً [1] ؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذَّب بها الأولون ، أو هم طلبوا آيات اقترحوها ، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وفي هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ رباً ، وهو ﷺ يُبلِّغ عنه ، فكيف - إذن - يُنكرون أنه رسول ؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل : « إن رب محمد قد قلاه [2] » حين فتر [3] الوحي عنه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم:

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

إذن :هم قد ناقضوا أنفسهم ، ففي الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له ربٌّ ، وفي الهجر سلّموا بأن له ربّاً ، وهذا تناقض في الشيء الواحد ، وهو لون من التناقض يؤدي إلى اضطراب الحكم ، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى [4] .

---

(١) الدحض: الدفع والبطلان. ومنه قوله تعالى: ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ..(١٦) ﴾ [الشورى] أي: باطلة.

(٢) قلاه: أبغضه وتركه وتخلى عنه ، عن جندب البجلي قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد وُدِّع محمد. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩٧) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) وقال: حديث حسن صحيح. وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذي أخرجه مسلم والترمذي إلى جندب بلفظ: «فقال المشركون: ودع محمداً ربُّه».

(٣) فتر الوحي: انقطع.

(٤) أي: أنه يُحكِّمُ هواه في كل تصرفاته ومنازع تفكيره ، أي: يتخذ هواه إلهاً له ، يأتمر بأمره ، وينتهي بنهيه ؛ لهذا يحدث التناقض. ويقول سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [الجاثية].

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وهكذا يُعلِّم الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما فى الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلن رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ⟨٢٠⟩﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا[1] يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ⟨٢١⟩﴾

والرسول ﷺ حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجدب كالسنين التى أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجدب والقحط[2] ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

---

(١) المقصود بالرسل هنا : الحفظة من الملائكة . قال تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⟨٩⟩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⟨١٠⟩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⟨١١⟩ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⟨١٢⟩﴾ [الانفطار] .

(٢) الجدب : نقيض الخصْب . أى : الجفاف وانقطاع المطر . وفى حديث الاستسقاء : «هلكت المواشى وأجدبت البلاد» ، أى : قحطتْ وغَلَت الأسعار . [اللسان : مادة (جدب)] .

القحط : احتباس المطر ، والقحط : الجدب ؛ لأنه من أثره . وفى حديث الاستسقاء : «قحط المطر واحمرّ الشجر» هو من ذلك . وقد يشتق القحط لكل ما قلّ خيره ، والأصل للمطر . والقحط فى كل شىء قلة خيره . [اللسان : مادة (قحط)] .

مسَّهم من القحط ومن الجدب كان بسبب دعوة الرسول ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِنِيِّ يوسف»[(١)].

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة فى المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ، ولكنهم ظلوا يبحثون عن أسباب المطر ، فمنهم من قال: لقد جاء مطرنا نتيجة لنوْء[(٢)] كذا ، ولأن الرياح هبَّت على مناطق كذا ، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاء دعوة رسول الله ﷺ ، مثلهم مَثَل مَنْ جلس يبحث فى أسباب النصر فى الحرب ، وجعلوا أسبابها مادية فى العُدَّة والعتاد[(٣)]. ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه ، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار ؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله ؛ لأن الحق سبحانه ينصر مَنْ ينصره.

أما الذين يحصرون أسباب النصر فى الاستعداد القتالى فقط ، فالمقاتلون الذين خاضوا الحرب بعد التدريب الجاد ، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل[(٤)] روحه رغبته فى القتال ونَيْل الشهادة ودخول الجنة.

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول: « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف. . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١).

(٢) ناء ينوء نوأ من باب قال يقول أى: نهض. ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء. المصباح (٢/ ١٥١).

(٣) العتاد: العُدَّة ، والجمع: أعتدة وعُتُد. قال الليث: العتاد: الشىء الذى تعدّه لأمر ما وتهيّئه له. وفى حديث صفته ﷺ: «لكل حال عنده عتاد» أى: ما يصلح لكل ما يقع من الأمور. والمراد هنا بالعتاد: الأسلحة وآلات الحرب. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا ④﴾ [الإنسان]. [اللسان: مادة (عتد)].

(٤) الصقل: الجلاء والشَّحْذ ، والمراد: الحمية الدينية والتعبئة النفسية والمعنوية للمقاتلين. [اللسان: مادة (صقل) - بتصرف].

إذن: فلمدد السماء مدخل ، وَمن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون ، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدى المؤمنين المقاتلين. ومن يدعى أن أى نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هى مجرد تقدم مادة هش[(١)] لا يصنع نصراً[(٢)] ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادى ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة.

ولذلك نجد مَنْ خاضوا حربنا المنتصرة فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادى وحده يمكن أن يكفى للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان فى الانتصار.

وهكذا نجد أن مَنْ يجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرأى المادى. وهكذا ينصر الله دينه حتى يثبته فى قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة مَنْ ينكرون قيمة الإيمان.

ومثال هذا فى تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولاً سوف يظهر ، وأنهم - أى: اليهود- سيتبعونه[(٣)] ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قَتْل عاد وإرم.

---

(١) الهشّ والهشيش من كل شيء: ما فيه رخاوة ولين ، والمراد: الضعف.

(٢) يقول تعالى: ﴿ .. وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾ [آل عمران].

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا فى قرآنه ، فقال عن اليهود: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]. وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا: إنه النبى الذى تهددنا به يهود ، فَلْنسبق إليه حتى لا يسبقونا.

هكذا كانت كلمة اليهود هى دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان.

إذن: فالله ينصر دينه بالفاجر [١] ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين.

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا [٢] وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ،لا بالإيمان الذى فوق المادة.

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ [٣] فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس]

---

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فعن أبى هريرة قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنيناً. فقال لرجل ممن يُدْعَى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة. فقيل: يا رسول الله، الرجل الذى قلت له آنفاً «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً. وقد مات فقال النبى ﷺ : «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال: «الله أكبر أشهد أنى عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى فى الناس «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٦٢) ومسلم (١١١).

(٢) أرجفوا: اضطربوا اضطراباً شديداً. (اللسان مادة: رجف).

(٣) المكر: احتيال فى خفية. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل]. قال أهل العلم بالتأويل: المكر من الله تعالى جزاء سُمِّى باسم مكر المجازى كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى] فالثانية ليست بسيئة فى الحقيقة ، ولكنها سميت سيئة لازدواج الكلام ، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .. ﴿١٩٤﴾﴾[البقرة] فالأول ظلم والثانى ليس بظلم ، ولكنه سُمِّى باسم الذنب ليُعلَم أنه عقاب عليه وجزاء به. قال ابن الأثير: مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه. [اللسان: مادة (مكر)].

والمكر: هو الكلام الملتوى الذى لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب فى سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب فى سقوط المطر.

وقوله الحق: ﴿مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أى خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ؛لتحكم الكون بقوانين.

ونقول: لو خلق الحق سبحانه القوانين والنواميس وتركها تتحكم لما شَذَّ شىء عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل - على سبيل المثال - كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله فى يده التحكُّم فى القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُّومًا عليها،فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويُوجِّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفىّ ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكراً ، والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشاكلة التعبير»[1] .

---

(١) المشاكلة: مصطلح بلاغى جاء فى القرآن كثيراً ، وهو يعنى: ذكر الشىء بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ..﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . (الإتقان فى علوم القرآن: ٣ / ٢٨١).

أي: عليك أن تـأخذ ذلك في مقابله في ذات الفاعل والفعل ، ولكن لاتأخذ من هذا القول اسماً لله ، فإياك أن تقول : إن الله - سبحانه وتعالى- ماكر ؛ لأن المكر كيد خفيٌّ تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلع على كيدك ، ولا تطّلع أنت على ما يشاء لك.

وانظر إلى أى جماعة تكيد لأى أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشى منهم بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له.

وهناك من الأجهزة المعاصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتنصُّت [1] عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعالى - ليبلغنا بكيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسَّس عليه ؟!

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر البشر قد يُهدَم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهِم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون.

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك: أن كلاً منهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية.

ومكركم البشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أزلى الوجود ،

---

(١) التَّنَصُّت: المراد به: التجسس. وأنْصَتَ الرجل إنصاتاً: استمع باهتمام. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا .. (٢٠٤)﴾ [الأعراف]. [اللسان: مادة (نصت) - بتصرف].

يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتِّب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع في الرد على مكركم ، إن مكرتم.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا[1] لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ و«إذا» الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهي « إذا الفجائية » مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب.

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويذوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذى جاءهم من بعد الجدب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتي قول الحق سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابر من الغير ، وإما أن يكون من رسل العليّ القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⦗١٠⦘ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⦗١١⦘ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⦗١٢⦘ ﴾. [الانفطار]

واقرأ أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ⦗١٤⦘ ﴾. [الإسراء]

---

(١) « إذا » تأتي لمعنيين : شرطية ، وفجائية . وإذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⦗١١⦘ ﴾ [التكوير] ، وقد تكون « إذا» للمفاجأة وتختص بالجمل الإسمية كقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⦗٢٠⦘ ﴾ [طه] ، وقد اجتمعت الشرطية والفجائية في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ⦗٢٥⦘ ﴾ [الروم] . وكما في الآية : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. ⦗٢١⦘ ﴾ [يونس] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع فى عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذى قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء فى الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التى عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا فى بلاد الروم هو «عمرو بن لحىّ»[1] ، فإن رجعتُم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذى كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التى بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجّل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دَعَوْا به على أنفسهم من الشر فى قولهم : ﴿ **إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ..** ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبْهم إلى دعائهم.

وإذا كان الله سبحانه قد أجَّل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دلّل على كذبهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مضطجعين[1] وقاعدين وقائمين.

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً.

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شكروا نعمة الله تعالى في الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم.

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** .. (٢٢)﴾. [يونس]

وكلمة ﴿**يُسَيِّرُكُمْ**﴾ تدل على أن الذي يسيِّر هو الله ، ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ** .. (٦٩)﴾. [النمل]

---

(١) الاضطجاع : الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض. قال ابن المظفر : كانت هذه الطاء تاء في الأصل ، ولكنه قبح عندهم أن يقولوا (اضتجع) فأبدلوا التاءَ طاءً . قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦) ﴾ [السجدة]. [اللسان : مادة (ضجع)] .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِه .. (٢٩) ﴾ . [القصص]

وهو سبحانه يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ .. (١٨) ﴾ . [سبأ]

فكأن هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن فى ذلك تعارضاً :

لو أنكم فطنتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة [1] وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول : «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن الممتحن والمصحِّح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديراً لإجاباته التى تدل على بذل المجهود فى الاستذكار .

وكذلك نقول : «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماض ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول : إن الموت قد وقع عليه و اتَّصفَ به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتّصف به .

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا : «سار الإنسان» .

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحَّلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيَّره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إنْ نظرتَ إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبَّعتها أسباباً ؛ وجدتّها تنتسب إلى الله سبحانه .

---

(١) لأن تعريف الفاعل عند النحاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة .

فمثلاً : إذا سُئلت : مَنْ صنع الكرسى ؟ تجيب : النجار . وإنْ سألت النجار : من أين أتيت بالخشب ؟ سيجيبك : مِن التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة في الوجود ؛ لا بد أن تنتهى إلى الله تعالى[1] .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ[2] وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص]

نفهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سُيِّر بأهله ؛ لأن التسيير في كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ في القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم]

فهو سبحانه الذى خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذى يقول في القرآن : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذى ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك في الإنسان ؛ تجده الله سبحانه .

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد] ويقول سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .. ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود] .

(٢) وذلك أن شعيباً قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [القصص] . فقال له موسى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص] ، وقد ثبت في الحديث أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأتم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٣/ ٣٨٤ - ٣٨٧) .

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربى ، وضحك انجليزى ، ولا يوجد بكاء فرنسى ، أو بكاء روسى.

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء.

وقد صدق قوله الحق: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم]

لكن الضاحك والباكي يقوم به الوصف. وكذلك قوله الحق: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾ ﴾. [الأنفال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له، فتلك إرادة الله [1].

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير فى الأرض أو فى البحر ؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدِّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى. وأنت حين تحرِّك ساقيك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كَمْ عضلة تحركت فى جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن: فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه.

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال : «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً» فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

وهنا ملحظ فى السير فى البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير فى الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ [١] أحداً من المارة، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة؛ ليعاونه.

أما المرور فى البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة [٢] كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم.

إذن : فالمرور فى البحر أدق من المرور فى البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول عن السير فى البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس]

وهكذا لا نجد أن فى الآية نفسها حديثاً عن السير فى البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر فى البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير فى البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوى [٣] فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴿١٥﴾ ﴾. [الأحقاف]

وجاءت كل الحيثيات بعد ذلك للأم ، ولم يأت بأى حيثية للأب ،

---

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [القصص] . وقال : ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يس] . والصريخ : المغيث . [اللسان : مادة (صرخ) . بتصرف] .

(٢) سبيل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات فى حوائجهم ، والجمع : السوابل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك)] .

(٣) ضَوَى إليه : انضم ولجأ . وينضوى فى الشيء : يدخل فيه ويندرج تحته . [اللسان : مادة (ضوا) . بتصرف] .

فيقول : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ[1] ثَلاثُونَ شَهْرًا ⁽¹⁵⁾﴾ [الأحقاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيثية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح فى الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو فى بطنها ؛ لا يعيه ، وفى طفولته الأولى لا يعى أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعى من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكل وملبس ، ويبقى دور الأم فى نظر الطفل ماضياً خافتاً .

إذن : فحيثية الأم هى المطلوبة ؛ لأن تعبها فى الحمل والإرضاع لم يكن مُدْركاً من الطفل .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيثية البر وأبان بالتفصيل حيثية البحر :

﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ[2] ⁽²²⁾﴾ [يونس]

---

(١) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أى : فطمته . وقال تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. ⁽¹⁴⁾﴾ [لقمان] . وقال تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. ⁽²³³⁾﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بتصرف] . وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هى ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رفع أمرها إلى على بن أبى طالب وأنها حملت ستة أشهر واتهمها زوجها بالزنا ، وبـرَّأها على استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فقه السنة : ٣/ ٣٦٧] .

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ⁽¹¹⁹⁾﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أى : المركب ؛ وقال : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. ⁽¹⁴⁾﴾ [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مَوَاخِرَ) أى : السفن . القاموس القويم (٢/ ٨٩) .

وكلمة (الفلك) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجي نوحاً عليه السلام ، وأن يغرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ . [هود]

إذن : هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر في اللغة في كلتا الحالتين ، فهي في الإفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُرْط . وعند الجمع تكون مثل : أُسْد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ . [الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [1] .. (٢٢) ﴾ . [الحجر]

ويقول سبحانه أيضًا :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (٥٧) ﴾ . [الأعراف]

---

(١) لواقح : حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تستدره ، فهي تلقح السحاب بالماء فيدر ماء وينزل المطر وتلقح الشجر فتعطي نتاجها . [لسان العرب : مادة : (لقح)] وابن كثير (٥٤٩/٢).

والرياح هنا جاءت فى صيغة الجمع ، وعلّة وجود ريح للشر [1] ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرُّخَاء هو الذى يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشىء ، ثم يتحول إلى أعاصير.

والهواء - كما نعلم - هو المقوِّم الأساسى لكل كائن حى ، ولكل كائن ثابت غير حى ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسى للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار.

إذن : فالذى يحقق التوازن فى الكون كله هو الهواء.

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التى تسير بالهواء المتجمِّع فى أشرعتها. وإذا كان التقدم فى صناعة السفن قد تعدَّى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه : ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت فى القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت : من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة. وسبحانه

---

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويجعله ريح خير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص] والريح الرخاء هى : الريح اللينة السريعة التى لا تزعزع شيئاً من مكانه. انظر [اللسان مادة (رخو)].

القائل: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] .. (٤٦)﴾. [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة. وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر.

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود فى الفُلْك، وجرى الفُلْك بريح طيبة، ثم فرحهم بذلك؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت فى فعل الشرط، ثم يأتى جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ .

أما الريح العاصف: فهى المدمرة، ويقال: فلان يعصف بكذا، وفى القرآن: ﴿كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ ..(٥)﴾. [الفيل]

إذن: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ هى الريح المدمِّرة المغرِقة. وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ .

فالموج يأتى من أسفل، والريح تأتى من أعلى، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

(١) أى: قوتكم، فالريح هنا معناها القوة وذهاب الريح أى: ذهاب القوة والهيبة، فالقوة هى التوازن فى الحياة، ، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام، أما إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وفساداً فى الأرض وفيما حكاه التاريخ ونشاهده فى دنيا الواقع لأكبر دليل. وقد تطلق على الرائحة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ.. (٩٤)﴾ [يوسف]، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً، فإن من ذهبت رائحته من الوجود، فهذا دليل على ذهاب قوته.

(٢) العصف المأكول: التبن. والعصف له معنيان:
- أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبّ وبقى هو لا حَبّ فيه.
- أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم. [اللسان (مادة: عصف)].

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعّداً [(١)] ، وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم.

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ **وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ** ..(١٩) ﴾. [البقرة]

أي: ليس هناك منفذ يفلتون منه.

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله الذى أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها [(٢)] .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله : أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك ؟ فيجيب السائل : تاجر أبحر فى البحر. فسأله سيدنا جعفر : أوَ لم يحدث لك فيه حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال : حملت بضائعى فى سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب. قال سيدنا جعفر : ألم يخطر على بالك أن تفزع إلى شىء ؟ قال الرجل : نعم. قال سيدنا جعفر : هذا الصانع الأعلى.

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

---

(١) المراد بتجعُّد سطح الماء : التموجات التى تبدو على سطح المياه إذا هبّ عليها الهواء.

(٢) لأن فطرة الميثاق الأول تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إيضاح الحقيقة يقول الحق : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ، فهذا القول نابع من الفطرة التى غابت عنهم فى زحمة العناد ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار .

وتعالى عنهم - وهم فى مثل هذه الحالة : ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْه بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، وألاّ شريك له أبداً ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً.

ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وَفَّوْا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتى «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا [(١)] - على الفور - فى الأرض ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

والبغى : هو تجاوز الحدّ فى الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شيء عن صلاحه ، يقال : «بغى عليه» ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإنْ ألقيت بنفاية [(٢)] فى بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى .

---

(١) البَغْى : الظلم والفساد والكبْر والاستطالة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى : مجاوزة الحدّ. قال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ .. (٢٧)﴾ [الشورى] . وقال : ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي .. (٩)﴾ [الحجرات] . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

(٢) نفاية الشيء : بقيته وأردؤه . والنفاية : ما نفيته من الشيء لرداءته . والمراد بالنفاية هنا : الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشيء وإفساده . [اللسان : مادة (نفى) . بتصرف].

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ . [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى الممثَّلة فى الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ : «أسرع الخير ثواباً : البِرّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغى وقطيعة الرحم»[1] .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما فى الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا فى رضاً ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً فى الدنيا ، سوف يستشرى فى الظلم .

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم فى الدنيا وأن يُرِى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة ؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم فى الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار فى الآخرة .

ويقول ﷺ محذراً : «لا تَبْغِ ، ولا تكُنْ باغياً »[2] .

فالباغى إنما يصنع خللاً فى توازن المجتمع . والذى يبغى إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بناتج من غير كدِّه وعمله ، ويتحوّل إلى إنسان يحترف

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) وابن عدى فى الكامل (٤/ ٧٠) ط . دار الفكر ، والذهبى فى ميزان الاعتدال (ت ٣٨٣١) من حديث عائشة ، كلاهما فى ترجمة صالح بن موسى الطلحى ، وهو كوفى ضعيف . وقال ابن عدى : لا يتعمد الكذب . وسياق نص الحديث يؤخذ به .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢/ ٣٣٨) عن أبى بكرة ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبى .

فرض الإتاوات [١] على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات) [٢] يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف .

والبغى - إذن - هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..(٢٣)﴾ . [يونس]

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بَغْى بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد. وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشىء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته .

ومثال البغى بحق ، أقول : ألم يَسْتول النبى ﷺ على أرض «بنى قريظة» ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

---

(١) إتاوات : جمع إتاوة وهى قدر من المال يُدْفع غصباً وإجباراً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلُّط . وهى تشبه المكوس .

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للأمن والسطو على ممتلكات الناس وتخويف الناس . وفى لغة العرب : الْفَتَىّ : هو الشاب القوى والفتى : العبد ، وجمعه على القلة فتية . وفى الكثرة فتيان ، والأمة : فتاة ، وَجمعها فتيات . والفتوة عرفت عند العرب بأهل النجدة والعون والاحتساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومحترف الإفساد .

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك.

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق. ولذلك يسمي الله جزاء السيئة سيئة مثلها [1] ، ويقول سبحانه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء، بل ردّ الاعتداء.

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٣﴾﴾

[يونس]

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي: يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى [2] ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية [3].

وأنت إنْ قارنت زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغى بزمن العقاب عليها ؛ لوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود.

---

(١) وذلك فى نحو قوله تعالى﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..﴿٤٠﴾﴾ [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو مصطلح بلاغى مؤداه ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، فالجزاء هنا حق لا يوصف بأنه سيئة ، ولكنه سمي هكذا لمشاكلته لما معه. انظر (الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ٢٨١).

(٢) قصارى الشىء: آخره وغايته وهى من معنى القصر، أى: الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حَبَسَتْك. [اللسان : مادة (قصر) - بتصرف].

(٣) ومن أمثلة الغصب والبغى بغير الحق ما رواه ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله ، أىّ الظلم أعظم؟ قال: ذراع من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوّقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها. أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩٦) والطبرانى فى معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦). قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٧٤) : «إسناد أحمد حسن».

فاربأوا [1] على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن ليقسْ كل واحد منكم عمره فى الدنيا وهو محدود.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ..(٧٧)﴾ [النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم (٢٣)﴾ [يونس]

وقد يتمثل جزاء البغى فى أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه فى خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائمًا: لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم من الخير ؛ لضنَّ عليه بالظلم.

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ..(٢٣)﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم فكل منكم سوف يَلْقى ما ينبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم [2] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ . [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل

---

(١) اربأوا على أنفسكم : حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب فى الآخرة. وفى الحديث : «مثلى ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله» أى : يحفظهم من عدوِّهم. [اللسان مادة (ربأ)].

(٢) الأنباء : الأخبار الهامة . قال الحق : ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا .. (١٠١)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ .. (٦٧)﴾ [الأنعام] . أى : لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه فى المستقبل أو فى الماضى . ونبأه مثل أنبأه . والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار . قال الحق : ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .. (١٤)﴾ [المائدة] – القاموس القويم جـ ٢ صـ ٢٥٠ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن فى ذكر النبأ مقدَّماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا[1] وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والماء الذى ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى وللسقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود ، هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تحوّل الماء إلى بخار، ويتجمع البخار كسحاب، ثم يسقط ماء عَذْباً مقطراً صالحاً للشرب والرّى .

---

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمّى كل مموَّه مزوَّر به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زيَّنه وأكمله . وفى الحديث : أن النبى ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنُحِّىَ . وقوله تعالى : ﴿إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل الذى يخدع بريقه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبى : زخرفها ، أى : حُسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشىء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبى : ٤/ ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الفانية . وازيّنت ، أى : حَسُنت بما خرج فى رُباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ (٢٤)﴾ [يونس]

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الأخرى ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزيء من الليمون والسكر في جزيئات الماء.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حي مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠)﴾ [الأنبياء]

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط ، و«باء» السببية [1] فالباء هنا في هذه الآية هي باء السببية ، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض. وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطي الأرض ، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الري موجود والخصوبة في هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة.

---

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر ، ويقع أصلياً أو زائداً ، ويؤدي عدّة معان ، أشهرها خمسة عشر ، هي: الإلصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدية ، والظرفية ، والعوض ، والمصاحبة ، والتبعيض ، والمجاوزة ، والاستعلاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بدل) ، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك في النحو الوافي (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٧).

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نَبْتة فى منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى: أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض.

إذن: فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنتشر بها جذور النبات.

وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن: فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات.

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل: هو قول شُبِّه مَضْربُهُ بمَوْلده ،أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون الشىء الممثَل بهَ معلَوَماً ، والشىء المأخوذ كمثل هو الذى نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهّول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم.

وتجد من يقول لك: ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول: لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك: إنه مثل فلان فى الشكل. وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم.

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا: إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه

بمعلوم ؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول فى شجرة الزقوم [(١)] : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا [(٢)] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهى شجرة فى النار لا نعرفها ، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول . والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذى يتكلم هو الله تعالى . وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشىء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان .

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقضى التشبيه ؛ لأن الشىء قد يكون بشعاً فى نظرك ، وغير بشع فى نظر غيرك . ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشىء المتفق على بشاعته ، وهو رءوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبِّحه ، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه فى أن جعل شكل الشيطان مبهماً [(٣)] .

وأما المثل الذى نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذى أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلٌّ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لايدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

---

(١) شجرة الزقوم هى الشجرة الملعونة فى القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى فى كتابه الكريم أنها تخرج فى أصل الجحيم . وثمرها هو الزقوم وهو طعام أهل النار . [اللسان : مادة (زقم) - بتصرف] .

(٢) الطلع : غلاف يشبه الكوز ، ينفتح عن حَبٍّ منضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)] .

(٣) مبهماً : خافياً . واستبهم الأمر إذا استغلق . والمبهم سمى كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يُجعل عليه دليل . ومنه قيل لما لا ينطق «بَهِيمة» [اللسان : مادة (بهم)] .

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً ؛ فندرك ما سبق ،وما يلحق ، فكلّ شيء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا.

يقول الحق سبحانه :

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

والزخرف: هو الشيء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه ، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً [١] وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا [٢] ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا [٣] ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [٤] ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا

(١) حصيداً : محصودة مقطوعة لا شيء فيها ، قال أبو عبيدة: الحصيد: المستأصل. [تفسير القرطبى ٤ / ٣٢٥٤].

(٢) قال الحسن البصرى: القضب: العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢ - بتصرف].

(٣) حدائق غُلباً ، أى: بساتين. وقيل: هى نخل غلاظ كرام. وقيل: هى الشجر الذى يُستظل به. [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢].

(٤) قال ابن عباس: الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس. وقيل: هو الحشيش للبهائم وقيل: الأب الكلأ. [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣].

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ [١] (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾. [عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذى تراه إنما تذوى [٢]، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل، ومهما ازدانت الدنيا فهى إلى زوال، فإياك أن تبغى؛ لأن البغى فيه متاع الدنيا، والدنيا كلها إلى زوال؛ كزوال الروض التى ينزل عليها المطر؛ فتنبت الأرض الأزهار، ثم يذوى كل ذلك.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [٣] (٢٠) ﴾. [القلم]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال.

---

(١) الصاخة: قال ابن عباس: هى اسم من أسماء يوم القيامة عظَّمه الله وحذَّر منه. وقال البغوى: الصاخة يعنى: صيحة يوم القيامة، سُمِّيت بذلك؛ لأنها تصخ الأسماع، أى: تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٣].

(٢) تذوى: تذبل. ذوى النبات: أصابه الحر والعطش فَذَبُلَ وضعف. وذوى عود النبات: يبس. [اللسان: مادة (ذوى)].

(٣) هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجميلة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أى: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أى: حلفوا فيما بينهم ليَجُذُّن ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل؛ ليتوفر ثمرها عليهم، ولا يتصدقوا منه بشىء. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أى: فيما حلفوا به، ولهذا حنَّثهم الله فى أيمانهم، فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أى: أصابتها آفة سماوية ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أى: كالليل الأسود. وقال الثورى والسدى: أى: هشيماً يبساً. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٠٦].

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ (٢٤) ﴾ [يونس]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة. ألم يقل الحق سبحانه فى قصة العبد الصالح : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ [1] .. (٧٧) ﴾ . [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضَّ ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعال يناسبه. وقد ضرب الحق سبحانه لنا فى ذلك صوراً شتّى، فنجد أن الشىء الذى يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى.

ومثال هذا: معرفة الهدهد فى قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال :﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ [2] فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ . [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيّن لنا أن هذا

---

(١) يريد أن ينقض : الانقضاض السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاض إلى الجدار مجاز عن قرب سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال منْ يريد الفعل ، وفى كتاب الله قوله :﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ .. (١٥٤) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ محمد محمد المدنى - بتصرف] .

(٢) الخبء: ما خُبِىء . والخبء الذى فى السمٰوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات. وقيل : الخبءكل ما غاب ، فيكون المعنى: يعلم الغيب فى السمٰوات والأرض. [اللسان : مادة (خبأ)].

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هى التى تفسد العقائد ، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذى يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله تعالى.

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة [1] ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكنا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه [2] ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها [3] .

إذن: فنحن بأهوائنا التى تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى. ونجد فى مثال الهدهد صفاءً عقدياً فى التوحيد كأصفى ما يكون المتصوِّفة ، ويأتى بما يهمه ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التى قالت: ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** (١٨) ﴾. [النمل]

---

(١) التخمة : الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه أى : استثقله . وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة فى الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة . [اللسان : مادة وخم].

(٢) الساعد : ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ . والساعد : ساعد الذراع ، وهو ما بين الزندين والمرفق ، سُمِّى ساعداً لمساعدته الكفّ . وجمع الساعد: سواعد. [اللسان : مادة (سعد)] .

(٣) وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** (٧٢) ﴾ [الأحزاب] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلمًا لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم.

إذن : كل كائن فى الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة فى كل كائن ، كتصورها فى الكائن الأعلى وهو الإنسان.

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شىء فى الحياة له لون من الحياة المناسبة له.

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ . [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوى الموت. والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ..(٨٨)﴾ . [القصص]

إذن : فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التى فى الجماد كالحياة فى الإنسان.

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا(٢٤)﴾ [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى .. (٩٨) ﴾. [الأعراف]

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء، وهو أمر واحد عند من يكونون فى ضحى أو فى ليل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا [١] كَأَن لَّمْ تَغْنَ [٢] بِالأَمْسِ (٢٤) ﴾. [يونس]

أى: كأنها لم يكن لها وجود.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع فى الأرض الذى ينمو ويزدهر ويزدان، ثم يتنهى، ألا يجب أن ننتبه إلى أن كل زخرف إلى زوال؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها فى شىء، وأن نحرص على ألا نبغى فى الأرض؛ لأن البغى متاع الحياة الدنيا، وهى إلى زوال[٣].

ونجد القرآن يأتى بذكر التفصيل للآيات، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم «يتفكرون»، أو «يتذكرون»، أو «يعقلون»، أو «يتدبرون».

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد فى مراحل متعددة، فالتعقُّل:

---

(١) الحصيد والحصد: الزرع المحصود بعد ما يحصد، والمراد بالحصيد هنا: تشبيه وتصوير إهلاك الله للأرض فى نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه. [اللسان: مادة (حصد) - بتصرف].

(٢) ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أى: لم تكن عامرة، والمغانى فى اللغة: المنازل التى يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. وقرأ قتادة (يغن) بالياء، يذهب به إلى الزخرف، يعنى: فكما يهلك الزرع هكذا، كذلك الدنيا. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٥٤].

(٣) يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن].

هو أن تأتى بالمقدمات ؛ لتستنبط ولترى إلى أى نتائج تصل . والتذكُّر يعنى : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكُّر : هو أن تُعْمل الفكر . والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر[1] : هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ . [النساء]

أى : اجعل بصيرتك تمحِّص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى . والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد يرهق نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليستريح فى الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مظنون ، ولا يعرف فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالت الدنيا مع كل الخَلْق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ، وأمر الإنسان فيها متيقَّن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ[2] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ . [العنكبوت]

---

(١) التدبر فى الأمر . التفكر فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يدرى قبال الأمر من دباره ، أى : أوّله من آخره . ويقال : إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهُدِىَ لوجهة أمره ، أى : لو علم فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص] . [اللسان : مادة (دبر) - بتصرف] .

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢١] .

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها. فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من الآفات. واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يدك فى يد من يدعوك إلى دار السلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ[1] وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

ودار السلام: هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ، هذه الدنيا التى تزهو وتتزخرف ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المنغِّصات على أهل الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ، ولكن فى ظل أرق من أمرين: الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم.

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره

---

(١) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لمعان منها : ألقى السلام وانقاد وأذعن ، وسلمه الله : أنجاه . وسلمه الأمانة أوصلها لصاحبها ، وأداها فهى مُسلَّمة ، يقول الحق : ﴿ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا .. ﴿٧١﴾﴾ [البقرة] وأسلم قلبه : أخلص . وأسلم : دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة] القاموس القويم جـ ٢ صـ ٣٢٥

مثلما يحدث في الدنيا [١] ، وإذا كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله ، فنحن في الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع في الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم في الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هي دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام.

ولله المثل الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولي أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه . إنه سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [٢] ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ [٣] ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ . [يس]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يُكِنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

---

(١) وفي هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه قبح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أي : تسليمهم على بعضهم ، فهي دار السلام .

(٢) ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ : مرفهون ناعمون بنعيم الجنة . قال تعالى : ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بتصرف] .

(٣) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ قال المفسرون : الأرائك : السُّرُر في الحجال ، وقيل : هي الفُرُش . وقيل : الأريكة : سرير منجّد مزين في قُبّة أو بيت . وقيل : الأريكة : هو كل ما اتكيء عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] . [اللسان : مادة (أرك) - بتصرف] .

من الأغيار [1] ؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم.. ﴿٢٤﴾ ﴾ . [الرعد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف [2] الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة فى سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعى هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه .

ودعوة الله سبحانه هى منهجه الذى أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وَفْق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذى يرهق الناس فى الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج [3] الله سبحانه .

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء فى أى جهة ؛ فاعلمْ أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عُطِّل .

---

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح ، أما سلام الله فلا يلحقه التغيير ولا التبديل ، لأن وعده الحق ، وقوله الصدق ، وهو السلام ، ومنه السلام .

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة ، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك ، ينتظرون عفو الله عنهم ، وفيهم قال سبحانه : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأعراف] .

(٣) منهج الله تعالى : طريقه وشريعته ، قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة] . فقد وضع منهجاً للروح سمواً ، وللقلب حباً ، وللنفس سكينة وللعقل فكراً وتأملاً وللجسم حركة . ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بعقيدة توحده ، وعباده تحبه وتخشاه ومعاملات بأخلاق فإذا اختلت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير فى المنهج نحو الله جل علاه .

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذى يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه.

وأنت إنْ رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلمْ أن هناك مَنْ عطَّل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمرأ [1] بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى فى هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه.

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان: هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهَّل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ..(٩)﴾. [يونس]

إذن: فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهى المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. (٨)﴾. [التحريم]

والحق سبحانه يقول: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ (٢٥)﴾ [يونس]

لأن كل شىء فى هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذى يحكم كل شىء.

وإذا كان الله قد بيّن من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بيّن لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾. [التوبة]

---

(١) استمرأ: استحسن الشىء واعتاده. [اللسان: مادة (مرأ) - بتصرف].

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ . [التوبة]

إذن : فقد بيّن الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم ، فلا يقولن أحد : وما ذنب الكافرين والفاسقين[1] ؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه ، فمن أخذ به ؛ جعل له نوراً يسعى بين يديه ، ويدخله الجنة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وكلمة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مثلها مثل قولنا : «امرأة فُضْلى» ونقول أيضاً : امرأة كبرى ، وهى أفعل تفضيل ، أى : مبالغة فى الفضل[2] .

والمقصود بقوله سبحانه : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى : بالغوا فى أداء الحسنات ، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة ؟

نقول : هى عطاء زائد فى الحسنات ، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه] .

(٢) أفعل التفضيل : اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى ، وزاد أحدهما فيه على الآخر . مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا : نعيم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا . وعند التأنيث تصاغ الكلمة على وزن (فُعْلَى) مثل : (حُسْنَى - فُضْلَى - كُبْرَى) . انظر تفصيل ذلك فى (النحو الوافى : ٣ / ٣٩٤ - ٤١٥) .

فبواحدة [١]. وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه فى أن الشىء يساوى الشىء ، وفضل الله تعالى فى أن يجزى على الشىء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

والحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا..(٥٨)﴾ [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله: إن الزيادة المقصودة هى فى العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله ﷺ فى ذلك: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم. فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا ؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» [٢].

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ أى: لا يغطى وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾. [القيامة]

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: «إذا هَمَّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٨) والبخارى فى صحيحه (٦٤٩١) بلفظ آخر عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومى.

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[1] (٤١) ﴾ . [عبس]

وترهقها : أى : تغطيها ، وقترة تعنى : الغبار ، وهى مأخوذة من القُتار وهو الهواء الذى يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء.

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ (٢٦)﴾ [يونس]

لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. (١٠٦) ﴾ [آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه فى الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء. وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور.

ويقول الحق سبحانه : ﴿أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾ [يونس]

أى : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أى : مَنْ يملكونها.

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) القَتَرُ : جمع القَتَرة ، وهي الغَبَرة . وفى التهذيب : القترة غبرة يعلوها سواد كالدخان ، والقُتَار : ريح القدْر ، وقد يكون من الشِّواء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشويّ . وفى حديث جابر ، رضى الله عنه : لا تؤذ جارك بقُتار قدْرك . [اللسان : مادة (قتر)].

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذّهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. ﴿٨٢﴾ ﴾ . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة[1] فى القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسِّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يبشِّع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسِّن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطباق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن يُذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف] . انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٢٨٤ - ٢٨٧) .

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون فى الأمر الفطرى ويناسب الطاعات ؛ لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحى أن يصلِّى ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحى أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرَابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذى يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشىء يفضح أمره ، كذلك الذى ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشىء المخالف فيه افتعال ، أى : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان فى ارتكاب المعاصى حتى تصير دُرْبة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛ فيروى ما يفعله من معاصٍ وآثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاص وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازى مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطى من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ ﴾ لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذِّبْهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألاّ يُعذَّبوا.

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿ **كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا** ﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿ **أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّي لنا ذلك كله في الدنيا ؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له في الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء في الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) ﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة ؛ ليصيروا في المكان الذي شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى فى المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع فى دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلقى بهم فى المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون فى شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة [1] .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه المُتَّخِذَ أنداداً [2] ، والمُتَّخَذَ نداً ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبودٍ لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ .. (٢٨) ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جنّاً

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٩) والبخارى (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتمنون أن ينتهى يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) الند : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً .. (٣٠) ﴾ [إبراهيم] أى : أضداداً وأشباهاً . وقال تعالى : ﴿ ومن النَّاس مَن يَتَّخِذُ من دُون اللَّه أندادًا يُحبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّه (١٦٥) ﴾ [البقرة] [اللسان : مادة (ندد)] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن.

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم في ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذى اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا فى الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذى له علم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز فى شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أأنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت ولِّينا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمَّتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يَدْعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادَّعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة [1] . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ⑪ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ⑫ ﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضِعَ أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الآمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحاجّة [2] موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار» أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١) .

(٢) المحاجَّة : المغالبة والجدال . والحُجَّة : الدليل والبرهان . وحَجَّه وحَاجَّه : غلبه على حُجَّته . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ .. ⑳ ﴾ [آل عمران] قال الأزهرى : إنما سميت الحُجّة حُجَّة ؛ لأنها تُحَجّ ، أى : تُقْصَد لأن القصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحَجَّة الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة(حجج)] .

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علمَ إبليس أنه غير قادر على إغوائهم[(١)] .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هي التى تمكِّن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى.

والشياطين هم الجن العُصَاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس فى إغواء البشر ، فيتسلَّط على الإنسانَ فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيِّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل.

وكل إنسان له نقطة ضعف فى حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنِّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده.

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس فى الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل.

---

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلَصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم فى سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، وعن أبى سعيد الخدرى فى حديث أن إبليس قال : «يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم. فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦١) وصححه وأقره الذهبى.

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومَنْ عَبَدُوهم منَ البشر؟ وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونا ونحن أعْبَدُ لله مِنَ القائمينَ بالأسْحَار [1]»

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً فَغَدَوْنا لَهُم وَقُودَ النار»

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّوا جهلاً كما تَجَنَّوا على ابنِ مَرْيم والحَوَارِى [2]»

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول :

إن للمُغَالِى جَزَاءهُ ، والمُغَالَى فيه تُنْجِيه رحمةُ الغَفَّار».

وهكذا وَضُحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

---

(١) الأسحار : جمع السَّحَر وهو آخر الليل قبيل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأسحار هم المتعبدون المتهجدون بالليل .

(٢) أي : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالدقيق الأبيض الذى ينقى من اللباب . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ..(٢٨)﴾[1] [يونس]

وهكذا يُحشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون فى الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع فى الدنيا أن فى الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفضح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علْم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهم جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ..(٢٨)﴾ [يونس]

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعنى : «الزمْ مكانك» وهى لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون فى صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم.

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلاتَ من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ، فهل يعنى ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبد من الرسل والكواكب والحجارة فى موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ،ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾[2] [يونس]

---

(١) نحشرهم : نجمعهم للحساب. ومنه يوم المَحْشَر. والحَشْر : جمع الناس يوم القيامة. قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ..(٢٠٣)﴾ [البقرة].

(٢) زيَّلنا بينهم : فَرَّقْنا بينهم. والتَّزايل : التباين. قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح] [اللسان : مادة (ز ي ل)].

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبِدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقٌ مَنْ عُبِدوا دون علمهم : **﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. (٢٨)﴾** [يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا.

وانظروا إلى الموقف المُخْزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدرى به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تَصْدُق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضًا على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنْطق الأحجار.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَنْ عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إنْ عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : **﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾** [النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلُّم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقَّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرِّجْل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شيء يتبدَّل في الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل في الجنة ، ولا تُخْرِج فضلات [1] ؟

وهذا أمر غير منطقيّ - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث في الجنة ، لو قسْناها بعقولنا على ما نعرف في الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مظروف [2] بين السماء والأرض. وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ.. (٤٨)﴾ [إبراهيم]

إذن : فكل شيء يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حُدِّثْتَ أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبَد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب.

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ (٢٩)﴾

إذن : فالكائنات التي عُبِدتْ من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - ممثلاً في الهدهد - قد أعلن من قبل اندهاشه

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولايتمخطون. قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أو رشح كرشح المسك ، يُلْهَمُون التسبيح والتحميد». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٦٤).

(٢) أي : أن الإنسان محل لظروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة في كل منهما.

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى [1] .

واستدل الهدهد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصُّه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد عَلِمَ الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فالاستنكار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب.

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ **أَهَـٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ** ..(٤٠) ﴾ [سبأ]

فيجيب الملائكةُ بقولهم : ﴿ **سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ** .. (٤١) ﴾ [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سُوَر القرآن الكريم عرضاً منثوراً [2] مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم** [3] **مِّنَ الإِنسِ** ..(١٢٨) ﴾ [الأنعام]

ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ **وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) وذلك في قصة الهدهد مع سليمان : ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)** ﴾ [النمل].

(٢) المنثور : الشيء يُلْقى متفرقاً هنا وهناك كالحَبِّ وغيره. [اللسان : مادة نثر].

(٣) أي : أضللتم منهم كثيراً وأكثرتم من إغوائهم وإضلالهم.

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن.

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصّاً تختلف عن خواصٍ الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ**[1] **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقى مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين. وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قارٌّ[2] ، أى : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة.

بمعنى : أنك لو كنت تجلس فى حجرة ، وخلف ظهرك فى الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالساتر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة.

أما لو كانت هناك تفاحة - وهى مخلوقة من الطين - موجودة فى الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك.

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه. وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نَقَلْتَ الجِرْم[3] إلى المكان الذى توجد فيه.

---

(١) القَبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتّى ، كالعرب ، والروم ، والزنج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة. وكل جيل من الجن والناس قبيل. قال تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾ [الإسراء]. [اللسان : مادة (قبل)].

(٢) قار : أى : مستقر فى مكانه لا ينتقل منه شىء إلا إذا نقلته أنت. يقال : فلان قارٌّ ، أى : ساكن ثابت. (اللسان : مادة قرر).

(٣) الجِرْم : الجسم. والجمع (الأجرام).

ونلمح هذه المسألة التقنينية فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير فى الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتى لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو فى مجلسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .. (٣٨) ﴾ [النمل]

وهذا يدل على أنه كان فى مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين فى قدراتهم ما قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي .. (٣٨) ﴾ [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن - لا جنّاً عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكى ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضًا ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات [1] ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذى يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادى - ممن كان حاضراً مجلس سليمان- فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس فى قدرته ، أما الذى تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علْم من الكتاب، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [2] .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبَّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك، فقال : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي .. (٤٠) ﴾ [النمل]

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس فى مظالمهم من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس [١] ، ولم يأخذ الجنِّى خواصَّه فى الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوِّن سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يُذكِّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس.

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على مَنْ يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً [٢].

واقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ..(١٠٢) ﴾

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس.

---

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه النارى تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مددية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلّى ذلك فى أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهى ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن] أى : ذلة وضعفاً. قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٨).

ولكن الملكين هاروت وماروت [1] حينما عَلَّمَا الإنسان السحر حذَّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بنى جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتقيَ نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلما يأتى لك إنسان ليُودعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكي هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظْ عليك مالك ، لأنى من الأغيار» .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة في الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [2] عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾[الأحزاب]

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤتمن ، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثيق فيها ؛ إلا ذمة المؤتمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزلا إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم فى العباد ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحداً حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هى الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال : يا رب وما فيها؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحمَّلها . انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) .

وعلى ذلك فحقُّ المؤتمن عند المؤتمَن خاضعٌ لخيار المؤتمَن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخلَ أنفسنا فى هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلْنَا مقهورين ولا اختيَار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قَبلَ الإنسان حَمْل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأشياء مثلما ظَنَّ فى نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضُّرَّ عن نفسى ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرَّهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ **اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

واستمتاع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتاع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقَسَمِ إبليس اللعين : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ** (١) **أَجْمَعِينَ** .. (٨٢) ﴾ [ص]

---

(١) الإغواء : الإضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) ﴾ [الصافات] . [اللسان : مادة (غوى)] .

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ..﴿٦﴾ ﴾ [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن.

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفى ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع [1] أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاءه الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رهقه.

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوَّة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره.

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَرَ الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألاَّ يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً.

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ [2] ..﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام]

---

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفِّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه . و«أكتع» يجىء فى التوكيد إتباعاً ، فيقال : جاء الجيش أجمعَ أكتعَ . [المعجم الوسيط : مادة (كتع)].

(٢) المثوى : مكان الإقامة والاستقرار . والجمع : المثاوى . قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [آل عمران] [اللسان : مادة (ثوى)].

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذى استخدم الجن ، وللجن الذى أغوى الإنس.

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى فى هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ **الأَخِلاَّءُ**[1] **يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** (٦٧) ﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التى يجمع أفرادها صحبة ومودّة ، ويتخلّل كل منهم حياة الآخر. وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخُلَّة[2] فى الله تعالى، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتمرون ، وتدور حياتهم فى إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه »[3] وهذا لون من الخُلَّة.

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصى ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ **لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ** .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فلا خُلَّة إلا خُلَّة اللقاء فى الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

---

(١) الأخلاء : جمع (خليل) وهو الصديق. قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً .. (١٢٥) ﴾ [النساء].
وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً (٢٨) ﴾ [الفرقان].
[اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٢) الخُلَّة : الصداقة والمحبة. والخِلُّ : الوُدُّ والصديق. [اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٣) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلّق فى المساجد ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠).

يجتمعون فى الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا [١] أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ [٢] .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذى يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ [٣] إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ [٤] .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الجَزَع : نقيض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) ﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)] .

(٢) محيص : مَهْرَب . قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) ﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (حيص)] .

(٣) السلطان : سلطان القهر فى قهرهم على اتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهدد الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل] .

(٤) مصرخكم : مغيثكم . والصريخ : المغيث . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨) ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾ [يس] . [اللسان : مادة (صرخ)] .

وهذا الحوار هو الذى يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت فى خواطرنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) ﴾ [يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبد من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشُرُوا [1] الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات]

ولننتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذى يُهيِّىء الانحراف إلى ما يريد [2].

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿مَكَانَكُمْ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً فى الدنيا وهى دار الاختيار ، وهم الآن فى دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) احشروا : اجمعوا. والحشر : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب. [اللسان : مادة (حشر)].

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن].

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) ﴾ [الصافات]

أى: كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظنن ظانٌّ أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أىّ قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء.

إذن: فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ[1] (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزيِّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه على الطاعة.

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ[2] نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فىَّ» ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٤) وعزاه للحافظ ابن عساكر.

(٢) عن على بن أبى طالب أن ﴿ اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من عصى الله جحوداً لأمره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى الأرض. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٩٨).

سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا[1] عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾ [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عُبِدَ، وحتى الأصنام، من الذين عَبَدُوهم في الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا[2] كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يعني: في هذا الوقت، أو في هذا المكان. والزمان والمكان هما ظَرْفَا الحدث؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان، فإن كان الزمان هو الغالب، فيأتي ظرف الزمان، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي ظرف المكان.

وجاءت ﴿هُنَالِكَ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أي: في ذلك الوقت الذي قالت فيه مريم - رضي الله عنها - قولةً أدَّت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلِّمه هي. يقول

---

(١) إنْ كُنَّا: أي: ما كنا. فإنْ هنا للنفي، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ..(٢٠)﴾ [الملك] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠٧)﴾ [التوبة].

(٢) ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..(٣٠)﴾ [يونس]: تذوق جزاء ما عملت وقدَّمت. وقيل: تختبر. وقيل: تتبع، أي: تتبع كل نفس ما قدَّمت في الدنيا. وقرأ حمزة والكسائي «تتلو» أي: تقرأ كل نفس كتابها الذي كُتب عليها. [تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٦١] وابن كثير [٢/ ٤١٦].

سبحانه: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء تحتاجه ، لكنه فوجىء بوجود رزق لم يَأت هو به ؛ بدليل أنه قال: ﴿ أَنَّىٰ [1] لَكِ هَٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظية ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأتِ به. وهذه هي قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهي قضية الكفيل العام للمجتمع حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يُكتشف مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يَعرف كافله ، ولو أن كافله أصرَّ على معرفة من أين تأتي مصادر دخله ؛ لَحَمى المجتمع من الفساد.

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي ذكره رب العزة سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

قالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

ثم تعلّل الجواب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [2] ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من

(١) أنَّى لك هذا؟ : كيف ومن أين لك هذا ؟

(٢) لله في عطائه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب بقدر ما تقدمه من خير وعمل صالح ، يُقاس العطاء بمقياس العدل الإلهي . أما الرزق الذى بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام] . إذن : فكون الرزق هنا بلا حدٍّ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) ﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعجَبُ سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين : شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التى هو فيها ، كأنْ وجد عندها عنباً فى زمن غير أوانه ، أو وجد برتقالاً فى غير أوانه [1] ، وسؤاله كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

وما دام ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت للأشياء فى ضوء هذه القضية.

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله تعالى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؟

فنقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن فى بؤرة شعوره حينئذ ؛ فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكَّر زكريا نفسه ، كرجل بلغ من الكبر عتياً [2] ، وامرأته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، فليس من الضرورى أن يكون شاباً أو تكون زوجته صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا فى قوله :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أى : فى هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو فى الاثنين معاً زماناً ومكاناً ، وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ..(٩)﴾ [مريم]

---

(١) ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧)﴾ [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة وآخرون : يعنى : وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف. وهذا فيه دلالة على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١/ ٣٦٠].

(٢) عَتَا الشيخ عتيـاً وعَتِياً وعُتِياً : كَبِرَ وأسنَّ. [اللسان : مادة (عتى)].

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أىَّ ظانٍّ من أن يسيء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها فى موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله :
﴿يرزُقُ من يشاءُ بغيرِ حسابٍ .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفى غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذى دعت به امرأة عمران :

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ[1] وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هى لها،حين يبشِّرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهى ستلد من غير أن يمسسها ذكر ، وهى تعلم أن الأسباب جارية فى أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدِّر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بتلك المقدمة على لسانها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

وحين تساءلت: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٤٧)﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه :
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ..(٤٥)﴾[آل عمران]

فبيقظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سيُنسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

---

(١) تقبُّل الشيء وقبوله دليل على أخذ الشيء برضا ، فأنت قد تأخذ بكُرْه أو على مضض ، أما أن تتقبل فذلك يعنى الأخذ بقبول ورضا . أما القبول الحسن فهو زيادة فى الرضا .

أباه ملغي ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتي نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التى ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وهنا في الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس]

أي : فى ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا؟ فإن كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شَرّاً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ[1] الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس]

وكأنهم كانوا فى الدنيا عند مولًى آخر غير الإله الحقّ سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس مَوالِيَ لهم ، وهنا فى اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضِّدِّ ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضِّدِّ ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ .. (١٣)﴾ [القصص]

فدلَّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدَّ إليها.

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ[2] الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس]

---

(١) المولى : النصير والوليّ الذى يلى عليك أمرك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك.

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس] فأثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال فى آية أخرى : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ..(١١)﴾ [محمد]. فهو سبحانه ليس مولى لهم فى النصرة والمعونة ، بل هو مولى لهم فى الرزق وإدرار النعم.

أي: أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفى هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه.

والإنسان يكون مع ربّه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أىّ ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى [1] ، وهم فى ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولًى وسيِّد وآمر ومشرِّع ، لكنه مَوْلًى غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذى لا تدركه الأغيار.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..(٣٠)﴾ [يونس]

أي: عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفضيحته فى جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾ [يونس]

أي: أن الآلهة التى عبدوها لا تتعرف إلى أمكنتهم ومواقعهم ، وأنهم فى خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شىء من الحق ؛ ووجدوهم فى مأزق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أماكنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ..(٣٠)﴾ [يونس]

أي: ما كانوا يكذبونه كذباً متعمداً.

وبعد أن كشف - سبحانه - المسألة وما سوف يحدث فى الآخرة ،

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.. (٣٠)﴾ [الروم]. متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨).

وخوّفهم وبشّع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إنْ ظلوا على الكفر ؛ لعلّهم يرتدعون [1] ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق سبحانه ، يأتي الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رُشْدَ الإيمان في نفوسهم ، فيقول:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ [2] فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾

أي: أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ، ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق في أن المسئول لو أدار في ذهنه كل الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول: أبي يهملني ، فتمسك به ، وتسأله: من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم ويُطعمك ويُعلِّمك ؟ سيقول لك: أبي.

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن يجد جواباً إلا الذي تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو في المسألة.

---

(١) الارتداع : الكف عن الشيء. وترادع القوم : ردع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفوهم عن المعاصي وإيذاء الناس. [وانظر : لسان العرب - مادة ردع].

(٢) في الآية منطق الفطرة بالتوحيد ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدبر هو الله .

والحق سبحانه وتعالى قال فى بداية هذه الآية الكريمة : ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدِىء بقوله سبحانه : ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الصمد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخَلْق ، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق ، فحين تقول لابنك : «اذهب إلى عمِّك ، وقُلْ له كذا» . فالابن يذهب إلى العمِّ ويقول له منطوق رسالة الأب ، دون أن يقول له : «قُلْ» ، أما خطاب الحق سبحانه للخلق ، فقد شاء سبحانه أن يبلِّغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين فى البلاغ عن الله تعالى ، لا يترك كلمة واحدة من الوحى دون أن يبلِّغها للبشر ، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى أمره ، فهو يبلغ ما أُمِرَ ، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه .

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول : ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ﴿٣١﴾﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُنتفع به ، والانتفاع الأول مُقوِّم حياة ، والثانى تَرَفٌ أو كماليات حياة ، والرزق الذى هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء ، ونبات يخرج من الأرض [1] .

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدَّماً ، فلم يَقُلْ لرسوله ﷺ : «أجبْ أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم .

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. ﴿٣١﴾﴾ [يونس]

---

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة فى قوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس] .

والسمع والبصر هما السيدان للمَلَكَات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات[١] له وسائل متعددة ، إنْ أردتَ أنْ تُدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإنْ أردتَ أنْ تدرك نعومة ؛ فبلمسك وببشرتك ، وإنْ أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإنْ أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلَّى لك المرائى[٢] بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة فى النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحى هى الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك فى الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هى : إدراك حسىٌّ ، وتفكُّر عقلىٌّ ، فانتهاء عَقَدىٌّ ؛ ولذلك نسمِّى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشىء فى يقينك بصورة لا تحلُّه بعدها من جديد لتحلّله ، فهذا يُسمى عقيدة .

---

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر المتأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راءٍ ، وما يقع عليه البصر فهو مرئىّ ، والجمع : مَرَائى .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية ؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه:

﴿ واللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

لذلك يقال: «كما ولدته أمه» ، أي: لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها.

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل.

وقد لفتنا الإمام على بن أبي طالب - رضى الله عنه - إلى العجائب فقال: « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحمٍ ، ويتكلم بلَحْمٍ ، ويسمع بعظمٍ ، ويتنفس من خَرْمٍ»[1].

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة[2] العين ، وننطق بلحمة اللسان.

وأضاف البعض: «ونشمّ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين». فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهي التي ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك.

---

(١) ذكره الشريف الرضي في كتابه «نهج البلاغة» (٤/ ٤) طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

(٢) شحمة العين: مُقلتها ، وقيل: حدقتها أو ما تحت الحدقة. أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو مُعلَّق القُرط. [اللسان: مادة (شحم)].

وجاء قول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الحواس هى الحواس الخمس الظاهرة.

وهذا يعنى أن هناك حواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهى حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البَيْنَ بَيْنَ ، التى نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين[١].

وكذلك حاسة العَضَل التى تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذى يسببه لك، وهل يختلف عن إجهاد حَمْل ثقلٍ آخر.

وحين نظر العلماء فى معانى الألفاظ قالوا: «النظائر حين تخالف فلا بد من علّة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه فى آلة الإدراك «السمع» ، وقال فى الآلة الثانية «الإبصار» ؟، ولماذا جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأتْ بالاثنين على وتيرة[٢] واحدة ؟

فنقول : إنَ المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

(١) وهذا غير حاسة اللمس التى ندرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يُدرك بحاسة اللمس وعادة يكون هذا بإمرار كفِّ اليد على القماش ، أما إدراك (تخانة) هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه بهذه الحاسة.

(٢) الوتيرة : الطريقة. مأخوذة من التواتر أى : التتابع ، وجَرَت الأشياء على وتيرة واحدة : أى : بنفس الصفة والطريقة. [اللسان : مادة (وتر)].

بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيِّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد.

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين.

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿**أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ** .. (٣١)﴾ [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعَطِّلها ، وقد أعطانا الحق مثالاً لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا** (١١)﴾ [الكهف]

فَعَطَّل الله سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا في نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً.

كيف حدث هذا ؟ . . إن أقصى ما ينامه الإنسان العادي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم :﴿**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ..(١٩)﴾ [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيبًا وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ **لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا** ..(١٨)﴾ [الكهف]

ونلحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

بينما يقول فى آية أخرى فى سورة السجدة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن ننتبه إلى الفارق بين «الخَلْق» و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شىء لله - تعالى - أمر مُلْزِمٌ فى العقيدة ، ومعروف ، أما «الجَعْل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشرى ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ ، فمن خَلَق هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلقت فى الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل ملْكاً لله ، يبقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يعطلها [1] .

إذن : فهى خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّرها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التى تعمل لصالح الإنسان هى مملكة الله .

---

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكلٍّ حيوان جلداً ؛ ننتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين : جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدلَّ على حرمته ونجاسته .

وعلينا أن ننتبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ ومَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّم الجنة على المُنتحر [1] ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ ملْكَ نفسك. ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره.

لذلك فإنه سبحانه هو الذى رزق ، وهو - سبحانه - الذى يملك.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** .. (٣١) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** .. (٨٨) ﴾ [القصص]

وما دام كل شىء سيأتى له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شىء حياة ، إلا أن حياتنا نحن فى ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكوِّن الجسمُ الحيوانات المنوية فى الرجل ، والبويضات فى المرأة ، ومنهما يأتى الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصَّبة ؛ لأن البيضة

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصبة لا تُخرج كتكوتاً ؛ فهى بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها.

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيتْ دون أن توضع فى الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعتْ فى الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجَتْ نخلة.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ..(٣١) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شىء ؛ حتى يؤدى مهمته ، وبالله من يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك.

إياك أن تقول : إننى أنا الذى أدير ذلك؟ ونقول : كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذى يدير حركة رئتيك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيُّوم لا تأخذه سنة [1] ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك [2].

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى- الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾ [يونس]

إذن : أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعْمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رَزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

---

(١) السنة : النعاس من غير نوم. وقيل : السنة نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم. [اللسان مادة : وسن].

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أى : لا يعجزه سبحانه ولا يثقل عليه. يقال : آده الأمر : بلغ منه المجهود والمشقة. [اللسان مادة : أود].

أما كان يجب أن نقول : يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منَّا ؛ لنعمرِّ الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبىّ ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كَلَّفته بشىء ؟ .. لا .

إذن : يتساوى عندها مَنْ عبدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ ..(٣١)﴾ [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقرّبكم من آثار صفات الجمال [1] وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه .

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار .

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلق ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

ويقول أيضاً : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..(٢٥)﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

---

(١) صفات الجمال هى صفات الرحمة والمغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهى صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز . فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ؛ ليدخل فى عباد الله المتقين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ[1] ﴿٣٢﴾ ﴾

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قَبْلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحيّ من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، وتدبير الأمر.

إذن: فقوله سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد.

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

ولا يوجد في الكون حقَّان[2] ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

إذن: أنتم إنْ وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصِّل إليها. فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال.

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) فأنى تُصرفون : أي : كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيى ولا يميت. [تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٦٧].

(٢) الحق واحد لا بمنظور الفكر البشري ولكنه بمنهج الحق ذاته ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية ، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول ، وتخريف الفكر بغية المخالفة والمغالطة .

أى : أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال ، والحقُّ واحد ثابت لا يتغيَّر .

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ؛ أو بعض رسل الله - عليهم السلام - أو صنماً من الأصنام ؛ فقد هوى إلى الضلال .

وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فَلْنقرأ معاً قول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر جميعاً ، ومن ملْك السمع والبصر ، ومن تدبير الأمر كله ، ومن إخراج الحىّ من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ، وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مُقدَّماً ألا إجابة له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ .

ومثل هذه القضية تماماً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس]

لأنهم أساءوا الفهم فى الوحدانية ، وفى العقيدة ، واستحقوا أن يُعذَّبوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق .

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لكن بعضهم آمن بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب إنما يحُلّ على مَنْ لم يؤمن .

وهذا القول متحقق فيمَنْ سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ،

وكذلك حقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والرَّبِّ الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزليِّ لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⟨٦⟩ ﴾[1] [البقرة]

إذن : معلوم لله تعالى مَنْ يؤمن ومَنْ لا يؤمن ، ومَنْ يستمر ويُصِرّ على كفره ؛ هو الذي يَلْقَى العذاب ، بعلم الله تعالى فيه أنه لن يؤمن .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففى ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى فى الأمم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجِّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذى يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت في ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد فى الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التى يمكن أن يسيروا فيها

(١) فى الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعيش بين مجتمعين : المجتمع الإيمانى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⟨٥⟩ ﴾ [البقرة] ، والمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ⟨٣٩⟩ ﴾[النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع .

باتجاهين ، والطرق التى عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجّههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد فى البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن : فالتفكير فى الخير لصالح الأم أمر طبيعى غريزى موجود فى كل المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوى للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[1] ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم : ﴿ **هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإنْ قال قائل : وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

---

(١) الإفك : الكذب والإثم . أنّى تؤفكون : كيف تكذبون ؟! [اللسان : مادة (أفك)] والإفك أخطر من الكذب ، حيث إن الإفك فى افتراء متخيل ومبالغة باهتة لها التأثير المضر على المجتمعات والأفراد ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور] ، ولم يقل بالكذب مع أنه كذب ، ولكنه عبر بالإفك ؛ لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول: إن الذى يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل.

فالإجابة معلومة سلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج [(١)] ، وللحق صَوْلة [(٢)] ؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق فى أمر ما ، تجدها قد فعلت فعْلها فيمن هو على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد بهَ ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته [(٣)].

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل: ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾ [يونس]

بل قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (٣٤) ﴾ [يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شيء.

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

---

(١) اللجلجة: اختلاط الأصوات. قال أبو زيد: يقال: «الحق أبلج، والباطل لجلج»، والأبلج: المضىء المستقيم. أما اللجلج فهو المختلط المُعْوَجّ والمتردد غير المستقر. [اللسان: مادة (لجج) – بتصرف].

(٢) الصولة: الوثْبة والقوة على إزهاق الباطل.

(٣) وذلك مثلما حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وقد قصَّه الله عز وجل فى قرآنه: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] ، فبهت ، أى: فوجىء بالحجة ومنطقها فتحيَّر فى جوابه ولم يجد رداً.

والإنسـان - كمـا خلقـه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، فإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذى قد ينطق الكفر ، هو فى الحقيقة مؤمن مُسبِّحٌ ، حامد ، شاكر ، لكن إرادة الإنسان التى شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعياذ بالله - فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى الأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية [1] ، إنما هى خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبى ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (٣٤) ﴾ وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفى أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) ﴾ .

والإفك : هو الكذب المتعمَّد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أى : أن يعلم الإنسان الحقيقة

---

(١) بدليل أنها ستأتى يوم القيامة وتصبح هى الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور] .

ويقلبها [1] ؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة ؛ فمنهم من قال : هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا : لا ، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب .

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً في بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق في بيت فلان ؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع .

إذن : فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المُخْبر ، فمرة يَصْدُق الخبر ويصدُق المخبر ، ومرة يصدُق الخبر ولا يصدُق المخبِر ، ومرة يصدق المخبر ولا يصدق الخبر .

فهُنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا : إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر . أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرِّق بين صدق الخبر في ذاته ، وصدق المخبر ؛ بأنه يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي : فكيف تقلبون الحقائق ؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ [2] ﴿٥٣﴾﴾ [النجم]

---

(١) المؤتفكة : البلدة التي ائتفكت بأهلها أي : انقلبت . والائتفاك : الانقلاب . [اللسان : مادة (أفك)] .
وقال ابن كثير : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] : يعنى مدائن قوم لوط قلبها الله - تعالى - عليهم ، فجعل عاليها سافلها . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٥٩ - بتصرف] .

(٢) وهو الذي قصده رسول الله ﷺ في قوله : «إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى في صحيحه (٦٠٩٤) .

والمؤتفكة : هى القرى التى كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذَّاب يقلب الحقيقة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا أمر للرسول ﷺ بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له إلا ما يفرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق ؛ لأن كل كائن مخلوق لغاية ، فلا شيء يُخلق عبثاً [1] .

ونحن بقُدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و(التليفزيون) أو الثلاجة أو السرير وغيرها ، كلٌّ منها له غاية ، وكل له قوانين صيانته الخاصة به ، والذى يحدِّد الغاية من هذا المصنوع أو ذاك هو صانعه ، ويضع لها قوانين صيانتها ؛ لتؤدّى غايتها ، فالغاية من أى شيء توجد قبل الشيء نفسه ؛ ليوجد الشيء على مقتضى الغاية منه .

وآفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، ولكنهم يصنعون مَن عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا غباء وغفلة من الذين يفعلون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان للقوانين التى وضعها خالق الإنسان سبحانه .

---

(١) يقول تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال سبحانه فى الذاريات : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] فللخلق غاية وحكمة وهى العبادة بمعناها المطلق أى : الطاعة .

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خَلْق الإنسان وحدّد قوانين صيانته ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ .

أى : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهدى الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟

إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفصل :﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إماطة الأذى عن الطريق [1] ، وهو منهج مستوعب مستوفٍ لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذرايات]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط ، بل هى عمارة الكون كبنيان حىّ

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة. فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٩)، ومسلم فى صحيحه (٣٥).

للإسلام ، والذى حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذى يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب فى الوصول إلى مكان فى الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذى يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التى تنزل على هضاب الحبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ **الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

فمن خلق هو الذى يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة فى قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذى خلقنى يهدينى ، بل قال : ﴿ **الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ** ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالَف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذى خلق هو

الذى يقنن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :
﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ[1] ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

هو كلام منطقى ؛ لأن خالق الشىء هو الذى يهدى إلى الغاية من الشىء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك الغاية ، فإذا خولف فى شىء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه]

---

(١) عن أبى رمثة رضى الله عنه قال : انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة ، بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب . قال : « الله الطبيب ، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها» .

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدى إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ [1] ③ ﴾ [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهدينا إليه من خَلَقَنَا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ .. ㉟ ﴾ لأنه سبحانه هو الذى خلق ؛ ولذلك فمن المنطقى أن يأتى بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ .. ㉟ ﴾ ؟

وسبب وجود اللام فى قوله : ﴿ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه فى آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت فى الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرَّد بالألوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَم ، ورزق من عُدْم ، وخَلَق لنا وسائل العلم ودبَّر لنا الأمر ، وأخرج الحى من الميت ، وأخرج الميت من الحى ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كُلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء [2] ؟

---

(١) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ .. ② ﴾ [الأعلى] أى : خلق الخليقة وسَوَّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ .. ③ ﴾ [الأعلى] . قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٥٠٠] .

(٢) ويقول سبحانه فى سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ㊵ ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

إذن : فالذى يهدى هو الذى خَلَق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتن بهم بعض الناس ، وهناك من اتخذ وسائط أخرى مثل : الشمس والقَمر والنجوم ؛ وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سفلية كالأشجار والأحجار ، فهل أى شىء من كل ذلك يهدى إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟ وكيف بلَّغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يَهدى ، بل هو يُهْدَى من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم؟ أو من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يَهدى إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ، ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله هو الذى يختار منهم المَلَكَ الذى يُبلِّغ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل عليهم السلام : ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

﴿ لاَّ يَهِدِّىَ﴾ تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهِدِّىَ﴾ يعنى : يهتدى .. أصلها يهتدى .. ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء .. وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدَّب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل فى الهداية هو الله تعالى .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟

وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عُرْف العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟» ، وهذا كله من الأمور التى تأباها الفطرة ويأباه الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشىء الثابت الذى لايتغَّير غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصل إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ ..(٢٥) ﴾ [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من آفة الأغيار [1] ؛

---

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتتبدل ولا تثبت على حال واحدة .

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سميعاً فتصير أصم بعد ذلك [١] .

إذن : فهى دنيا أغيار ، وهَبْ أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً وغنًى وكل شىء ؛ سنجده فى قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه فى حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هى هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هبَاتٌ من الحق الأعلى سبحانه .

والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن [٢] هو اليقين ، فالنسب التى تحدث

---

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أوصى رسول الله ﷺ رجلاً وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبى .

(٢) الظن كما أنه شكٌّ فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس بيقين عيان ، إنما هو يقين تدبُّر ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم ، وهو يكون اسماً ومصدراً ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] [لسان العرب : مادة (ظنن)] .

بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ، وهى نسب ذكرناها من قبل ، ونذكّر بها ، فهناك شىء أنت تجزم به، وشىء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلِّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل:
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شىء ومن يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، على عكس الجهل الذى هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأى منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على بعضها . والشك هو تساوى الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. ۝٣٦ ﴾ يبين لنا أن الذين كانوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً - رغم علمهم بصدق ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. ۝٣٩ ﴾ [يونس]

وكان الواحد منهم إذا تمعَّن فى البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن الإيمان ، لكن منهم من تمعن فى الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا الظن إنما اتبعوا ما لا يغنى من الحق شيئاً .

لذلك يبيّن لهم الحق سبحانه أنه عليم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ..(٣٦) ﴾ [يونس]

إذن : فقد علم الله سبحانه أزلاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة الإيمان جحدها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٧) ﴾

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التى لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا القرآن لا يمكن أن يُفتَرى ، بل لا بد أن قائله ومُنزِّله عليم خبير ؛ لأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أي : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدِّق للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزبور [1] ، وهى الكتب التى سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدِّقاً لها .

أى : هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التى بشَّرت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء فى القرآن عن تصديق عيسى عليه السلام بمجىء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** .. ⑥ ﴾ [الصف]

فلما جاء أحمد (محمد ﷺ) ونزل عليه القرآن صدَّق الإنجيل فى قوله هذا ، وما جاء فى القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب السماوية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** ⑯③ ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** .. ⑬ ﴾ [الشورى]

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة ،

---

(١) الزبور : هو كتاب داود عليه السلام . وأصله : كل كتاب مزبور أى : مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا .. ⑤⑤ ﴾ [الإسراء] .

وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً [1] ؟

إذن : فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعْلَم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب في قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجئ هو - كما فوجئتم أنتم - بمجيء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذى جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلن أنه ﷺ مُبلِّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

ويحضُّ القرآن الكريم النبيَّ ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبلُ - البلاغةَ والفصاحةَ أو الشعرَ ؟!

ولننظر في «ماكُنَّات» [2] القرآن الكريم ، وهى الآيات التى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿وَمَا كُنتَ﴾ مثل قوله سبحانه :

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت] .

(٢) «ماكُنَّات» القرآن هى الآيات التى وردت فيها لفظة : ﴿مَا كُنتَ﴾ ، وهذا فى إحدى عشرة آية هى : [آل عمران : ٤٤] ، [هود : ٤٩] ، [يوسف : ١٠٣] ، [القصص : ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٨٦] ، [العنكبوت : ٤٨] ، [الشورى : ٥٢] .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ [1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وهذا أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

والوحى إلى موسى - عليه السلام - والمكان الذى نزل فيه ذلك الوحى أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ [2] تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجوداً فى زمانها أو مكانها ؟

لا بد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذى أخبرنى بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. (٩٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنه الكتاب الذى يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن خرق حُجُبَ وحُجُزَ الماضى والمستقبل .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : أن يتكلم عن

(١) الأقلام هنا : القداح ، وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة ، وإنما قيل للقدْح : القلم لأنه يُقلم أى : يُبرى . [اللسان مادة : قلم] .

(٢) ثاوياً : مقيماً ، ومدين : قرية شعيب عليه السلام .

شىء سبق الزمان الذى نزل فيه ، فهو يتكلم فى الماضى الذى لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذى عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذى قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث فى الإسكندرية فى نفس الوقت الذى تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك ببعد المكان ، وحاجز المكان يتمثل - غالباً - فى الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهى محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماض لم يشهده رسول الله ﷺ ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضى . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر فى غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه :
﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا فى أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان فى أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب فى القرآن إما خَرْقٌ لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبى ﷺ إلى الطائف

ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلَّه يلتمس لهم مجيراً من أهل الطائف ؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض [١] ، ويوصي بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة [٢] .

وفي ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يتساءل : أيُّ جمع هذا الذي يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتي غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلي قريش ؛ فيرى رأي العين صدق ما جاء به الوحي من قبل [٣] .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفترىً ، فكيف يُتَّهم رسول الله ﷺ أنه افتراه ؟

---

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبي طالب ، الذي كان مدافعاً عنه ، حامياً له من أذى المشركين ، ولكن أهل الطائف قعدوا له ﷺ صفين على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا ضربوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه . [دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤١٥] . عند ذلك قال رسول الله ﷺ : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي » . منحه الله الإسراء فوق العقل البشري ، والمعراج فوق الفوق ؛ وذلك لحمايته له ورعايته لدينه .

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٠١) وأورده ابن هشام في السيرة بنحوه (١/ ٣٢١) .

(٣) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال عمر : أيّ جمع يُهزم ؟ أي : أيّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٦٦) وعزاه لابن أبي حاتم .

وإذا كان هذا القرآن مفترىً ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء ؟! ولم يقل محمد ﷺ أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سخر العبيد والضعاف ، وأدخلهم فى الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟

إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ..** (٣٧) ﴾ [يونس]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿ **لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح ارتيابهم وكذبهم ، فَهُمْ قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : ﴿ **لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ..** (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتى الرد على قولهم بالافتراء ، فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وقد سبق هذا المجيء بالتحدى أسبابُ عجزهم عن النجاح فى التحدى ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصَدِّق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل.

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس]

وقد جاء التحدى مرة بالكتاب فى قول الحق سبحانه :

﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء]

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدى ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ **بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** .. ﴿١٣﴾ ﴾ [هود]

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب - ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** ..﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدَّعون أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة ؟!

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ** .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآناً ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار ويعضهم من أهل اللجاجة [1] : سندعو الله ؛ ولذلك يأتى القرآن بالاستثناء ﴿ وادعُوا من استطعتم مّن دُون اللّه إن كُنتُمْ صَادقين ..(٣٨) ﴾ . وهم بطبيعة الحال غير صادقين فى هذا التحدى .

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولاً إلى قوم ؛ليعلّمهم منهجه فى حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدى حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة فى الأرض ؛ ولذلك يأتى الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء مَلَكاً لما صحّت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً [2] .

والحق سبحانه لا يرسل أى رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلّغ عن الله تعالى .

والبينة لا بد أن تكون من جنس نبوغ [3] القوم ، فلا يأتى لهم بمعجزة فى شىء لم يعرفوه ولم يألفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ فى قوم فصحاء يعقدون للشعر

---

(١) اللجاجة : التمادى فى الجدال والمراء .

(٢) لذلك قال رب العزة : ﴿ قُل لّوْ كان في الأَرْضِ ملائكةٌ يمْشُون مُطْمَئنّين لنزّلْنا علَيْهم مّن السّماء ملَكًا رّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿ ولَوْ جعلْناهُ ملَكًا لّجعلْناهُ رجُلاً ولَلَبسْنا علَيْهم مّا يلْبسُون (٩) ﴾ [الأنعام] .

(٣) النبوغ : الإجادة والبراعة فى علم أو فن معين . [المعجم الوسيط] .

أسـواقاً ، ويعلـقـون الفـائز من هذا الشـعر على جدران الكعبـة شهـرة له وشهادة به .

إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتتحداهم . والتحدى يستدعى استجماع قوة الخصم؛ ليرد على هذا المتحدى ، فإذا عجز مع التحدى، يصير العجز ملزماً .

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** [1] (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرَّج القرآن معهم فى التحدى فطلب منهم ما هو أقل من ذلك ، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** .. (١٣) ﴾ [هود]

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن .

وعند التـأمل نجـد أن الأسـلوب الذى جـاء بطـلب سـورة كـان على لونين : فمرة يقول : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** .. (٣٨) ﴾ [يونس]

ومرة يقول : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** .. (٢٣) ﴾ [البقرة]

وكل من اللونين بليغ فى موضعه فـ ﴿ **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** .. (٣٨) ﴾ تبين أن المثلية هنـا محققة ، أى : مثل ما جاء من سور القرآن . وقوله : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** .. (٢٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) الظهير : المعين والمساعد . قال تعالى : ﴿ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ .. (٨٦) ﴾ [القصص] . وذهب بعض العلماء إلى أن التحدى كان مقصوداً به الإنس فقط دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى ، وإنما ذكرهم الله فى الآية تعظيماً لإعجاز القرآن ، لأن عجزهما معاً عن أن يأتوا بمثله دليل على أن الفريق الواحد منهم أعجز . [انظر : البرهان فى علوم القرآن - للزركشى ٢/ ١١١] .

أى : سورة من مثل محمد - ﷺ - فى أنه لم يجلس إلى معلّم ، ولم يقرأ ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة فى أى فترة من مراحل حياته قبل الرسالة[١] .

وقال الحق سبحانه : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

إذن : ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣)﴾ [البقرة]

أى : مثل محمد ﷺ الذى لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتى هذا اللون من التحدى ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

﴿أَسَاطِيرُ[٢] الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا[٣] فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥)﴾
[الفرقان]

بل واتهموه فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً غير عربى ، يقول الحق سبحانه : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ[٤] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل]

---

(١) وفى تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبى فى تفسيره (١/ ٢٧٧) فقال : « ﴿مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣)﴾ [البقرة] أى : من مثل التوراة والإنجيل . فالمعنى : فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه » وكل من هذه الأقوال صواب ومحتمل .

(٢) الأساطير : جمع أسطورة . أى : مما سَطَّره الأولون وكتبوه . والأساطير أيضاً : الأباطيل ، وأحاديث باطلة لا أصل لها قد سطرها وألفها الأولون . [لسان العرب مادة : سطر] .

(٣) اكتتبها : طلب من النساخ نسخها له .

(٤) يلحدون إليه : يميلون إليه . واختلف المفسرون فى تسمية هذا الرجل الذى قال المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه . بل المهم أنه أعجمى فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن العربى .

ويزيد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُدِّثوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها فى منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فآمن برسول الله ﷺ [1] ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ..﴿٣٩﴾ ﴾ أى : لم يعرفوا مراميه ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه :﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا [2] .. ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد]

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٢) آنفاً : من قبل ، وقد نزلت هذه الآية فى المنافقين كانوا يستمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ استهزاءً وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..﴿١٦﴾ ﴾ [محمد] أى : ماذا قال سالفاً وسابقاً ؟ . [اللسان : مادة (أ ن ف) - بتصرف] .

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ، وتأتي الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ [1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن هدى لمن تتفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة بالبغض لقائله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أي منهم حكماً صحيحاً فليُخرجْ من قلبه ما يناقض ما يسمع ، ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ، وهو الإسلام.

إذن : فمن امتلأ قلبه بعقيدة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدى .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

والتأويل [2] هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن الكريم قضية غيبية ، ثم يأتي الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كَذَّبوا من قبل أن يأتي لهم التأويل ، وكان عدم مجيء التأويل هو السبب في تأخر بيان الحق في المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ حين قامت المعركة بين معاوية بن أبي سفيان والإمام علي - رضي الله عنه - وَقَاتَلَ عمَّار في صف عليّ ، وقُتل . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل

(١) الوقر : ضعف السمع . وقيل : الصمم . [اللسان : مادة (وقر)] .

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد . وأصله ما يؤول إليه الشيء ؛ ويقول تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ .. (٥٣) ﴾ [الأعراف] أي : أنهم ينتظرون تحقق العذاب ووقوعه .

حديث من رسول الله ﷺ حيث قال : « ويح عمار .. تقتله الفئة الباغية »[1] .

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق فى الواقع ، وكان هذا سبباً فى انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

أى : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفى : « لم» مثل قولنا : « لم يَجِىءْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يجىء فلان » ، والنفى فى الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفى بـ « لما» فيعنى أن المجىء مُنْتف إلى ساعة الكلام ، أى : الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك ؛ لأن « لما» تفيد النفى ، وتفيد توقُّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿آمَنَّا﴾ رغم أنهم راءوا المسلمين وقلدوهم زيفاً ونفاقاً[2] ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤٧) ومسلم فى صحيحه (٢٩١٥) بنحوه عن أبى سعيد الخدرى ، وتمامه أنه عند بناء المسجد النبوى ، قال أبو سعيد : « كنا نحمل لبنة لبنة ، وعمار لبنتين لبنتين . فرآه النبى ﷺ ، فينفض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

(٢) ذهب البخارى إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وقد استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا فى دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن فى قلوبهم بعد . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٨ ، ٢١٩) .

قالوا : الحمد لله ؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتى علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين .

وهكذا نعرف أن ﴿لمَّا﴾ تعنى أن المنفى بها متوقع الحدوث . والتأويل كما نعلم هو مرجع الشيء .

وقد جاء فى القرآن الكثير من الأخبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وُجدت ولا دخل لبشر فى وجودها ، فهذا يعنى أن قائل هذا الكلام قد أخذه عَمَّن يقدر على أن يوجد ، مثلما جاء فى خبر انتصار الروم على الفرس رغم هزيمة الروم .

قال الحق سبحانه :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ[1] سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم]

جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أخبر القرآن .

أو أن التأويل سيأتى فى الآخرة ، ومايؤول الأمر فى التكذيب سيعلمونه من بعد ذلك .

---

(١) البضع : ما دون العشر ، وأدنى الأرض : بين أذرعات وبصرى فى الشام ، وهى أقرب بلاد الشام إلى الجزيرة العربية . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ .. ۝ ﴾ [الأعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان فى الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان فى الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ..۝ ﴾ [الأعراف]

هذا هو التأويل الذى كذَّبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل إما أن يكون لمن بقى من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبىٌّ لا يملك أن يتحكم فى مصائر الأشياء ، وتأتى على وفق ما قال .

فكأن محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فينصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

وإما أن التأويل - أيضاً - يأتى فى الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ۝ ﴾ [يونس]

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه فى نفس الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾ [يونس]

أى : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولاً ونصر الكافرين به عليه ؟ . . لا ، لقد كانت الغلبة دائماً لرسل الحق عز وجل مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ..(٢١)﴾ [المجادلة]

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة[1] .

إذن : فالتأويل واضح فى كل مواكب الرسل التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين برسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ..(٣٩)﴾ لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى فى أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[2] ..(١٣)﴾ [لقمان]

لأن فى هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، ويا ليت غيره كان

(١) قال تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت] . والحاصب : هى ريح شديدة البرد والهبوب تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد» . أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود ، وعوقب قارون بالخسف ، أما فرعون وجنوده فقد عوقبوا بالغرق .

(٢) العظمة للقيمة المنحرفة انحطاط ، وللقيمة السوية رفعة .

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوَّع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفى هذا تطوع بالظلم بغير مُدَّع .

وهَبْ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فإما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها ، فالإله الثانى كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّت الدعوى فى أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية فى الظلم هى الظلم فى الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلِّ الربا فهذا ظلم فى قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدَّين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضى الذى يظلم فى أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشيء الذى وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والكلام هنا فى الذين كذَّبوا ، فكيف يقسِّم الله المكذبين - وهم

بتكذيبهم لا يؤمنون - إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطَّلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذبين يخفى إيمانه في قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفى الإيمان فى قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغُ قلبه من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق فى البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلن ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبَّر عنه باللسان ، ولكن المُقسَّم هو إيمان بالقلب غير مُعبَّر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذى جعل إيمان بعضهم محصوراً فى القلب غير مُعبَّر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها [1] . ورفضوا أن يقولوا الكلمة ؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال ، بل فهموا مضمون ومطلوب

(١) فقد قال له عمه أبو طالب : يا ابن أخى ما تريد من قومك؟ قال : إنى أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية . قال : كلمة واحدة ؟ قال : كلمة واحدة . قال : «يا عم يقولوا : لا إله إلا الله» أخرجه أحمد فى مسنده (١ / ٢٢٧) والترمذى فى سننه (٣٢٣٢) وقال : حديث حسن .

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى: المساواة بين البشر، وهم يكرهون ألاَّ تكون لهم السيادة والسيطرة فى أقوامهم.

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام فى مكة، حيث الأمة التى تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا فى «المدينة»، أما فى مكة، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانوا من تشتت المَلَكَات، لكن المنافقين فى المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، فيقول بلسانه ما ليس فى قلبه.

ولذلك يُعزِّى الحق رسوله الكريم ﷺ ويُسَرِّى [1] عنه ويبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقَّر، فيقول الحق سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى: أنك يا محمد مُنَزَّه عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [2] .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسوله ﷺ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه، وهم فى أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشيائه النفيسة [3].

والذين آمنوا برسالته ﷺ ولم يعلنوا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

(١) يُسرِّى عنه: يكشف عنه الهم والحزن. [اللسان: مادة: (سرى)]

(٢) الجحود: نقيض الإقرار، قال الجوهرى: الجحود الإنكار مع العلم. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل][اللسان: مادة (جحد)].

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ».

وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بمن كذَّب عناداً، ومن كذَّب إنكاراً.

والحق سبحانه هو الذى يُعذِّب ويُعاقب، وكل إنسان منهم سوف يأخذ على قَدْر منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ..(٤٠) ﴾ [يونس]

والمفسد كما نعلم هو الذى يأتى إلى الشيء الصالح فيصيبه بالعطب [(١)] ؛ لأن العالَم مخلوقٌ قبل تدخُّل الإنسان - على هيئة صالحة، وصنعة الله سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعة الله تؤدى مهمتها كما ينبغى لها.

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر فى الوجود، فانظر إلى الكون الأعلى الذى لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [(٢)] (٩) ﴾ [الرحمن]

أى : أتقنوا أداء مسئولية ما فى أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل فى دائرة المفسدين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) العطب : الفساد والهلاك.

(٢) تطغوا : من الطغيان، بمعنى الظلم، أى : اعدلوا فى جميع أموركم وزنوا الأمور والأشياء بميزان العدل، ولا يظلم بعضكم بعضاً. والقسط : العدل. [اللسان : مادة (قسط) .. بتصرف].

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهذه آية تضع الاطمئنان فى قلب رسول الله ﷺ فلم يَقُل الله سبحانه: «إذا كذَّبوك» بل قال: ﴿إِن كَذَّبُوكَ ..﴿٤١﴾﴾ وشاء الحق سبحانه أن يأتى بالتكذيب فى مقام الشك، وأتبع ذلك بقوله للنبى ﷺ: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ..﴿٤١﴾﴾ أى: أبْلغْهم: أنا لا أريد أن أحْملكم على ما أعمل أنا، إنما أريد لكم الخير فى أنَ تعملوا الخير، فإن لم تعملوا الخير؛ فهذا لن يؤثر فى حصيلتى من عملى.

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجازَى على عدد المؤمنين به، بل بأداء البلاغ كما شاءه الله سبحانه[1].

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد ﷺ الخير إلى أمته، فإن ظلوا على الشر؛ فهذا الشر لن يناله لأن خير البلاغ بالمنهج يعطيه ﷺ خيراً، لأنه يطبِّقه على نفسه، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأى داعٍ إنما يظنون أن الداعى سوف يستفيد[2].

والبلاغ عن الله، إنما يطبقه الرسول ﷺ منهجاً وسلوكاً

---

(١) ومما يدل على هذا أن نوحاً مكث فى قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذا قال عنه رب العزة: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ..﴿٤٠﴾﴾ [هود] واختلفوا فى عدة من آمن معه بين عشرة أنفس، وثمانين نفساً من بينهم أبناؤه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

(٢) ولذلك كان نوح يقول لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ..﴿٢٩﴾﴾ [هود]، وهود يقول لقومه عاد: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود] وهكذا قال صالح لقومه ثمود: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء]، ولوط لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الشعراء]، وشعيب لقومه أهل مدين: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء].

ويُجـازَى علـيه [1].

فلا يجوز الخلط فى تلك المسائل ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .. (٤١)﴾ .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..(٤١)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿بَرِيءٌ﴾ تفيد أن هناك ذنباً، وهذا القول الحق فيه مجاراة للخصوم، وشاء الحق سبحانه أن يُعلِّم رسوله ﷺ والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة ، فيقول : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ]

أى :أننا - الرسول ومعه المؤمنون - وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو فى ضلال. والرسول ﷺ موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه ﷺ ومجاراة لهم.

كذلك يعلِّمه ربه سبحانه أن يقول: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ]

أى : أنه يبين لهم: هَبُوا أنِّى أجرمتُ فأنتم لن تُسألوا عن إجرامى، ومن أدب الرسول ﷺ شاء له الحق سبحانه أن يقول: ﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

ولم يقل: «ولا نُسأل عما تُجرمون» . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتى هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..(٤١)﴾ [يونس]

---

(١) فالرسول مكلف ببلاغ ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص ، ولذلك يقول رب العزة عن نبيه ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وكلمة « مَنْ » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة، وقد يراد بها المثنى، وقد يراد بها الجمع، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ..﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنعام]

ومرة يقصد المعنى فيقول: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ ..﴿٤٢﴾ ﴾ [يونس]

لأن ﴿مَّن﴾ صالحة للموقعين.

والسماع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت، فإن كان صوتاً مُبْهماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأعواد ، **فهذه الأصوات** لا تفيد إلا ما تفيده النغمة في الجسم من هزة أو ارتجاج.

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضُعيٌّ ، كاللغات المختلفة التي يتخاطب بها الناس في البلدان المختلفة، فإن تكلمتَ بالإنجليزية في بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم. هذا هو معنى التواضع في اللغة، أي: أن المتكلم والسامع على درجة واحدة من الاتفاق على اللغة.

والنبي ﷺ عربي يتحدث بلسان عربي مبين لقوم من العرب، فما العائق عن السمع إذن ؟

إن العائق عن السمع نفض الأذن لما يأتي من جهة الخصم، والسماع - كما نعلم - هو استشراف المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراف إلى أن يسمع، فالكلام يُقال ولا يصل.

إذن: لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم. وكما يقول المثل: «أذن من طين وأخرى من عجين» . أو كما تقول المزحة أن واحداً مال على أذن صديق له وقال: «أريد أن أقول لك سرّاً» فاقترب الصديق مستشرفاً سماع السر، فقال الرجل: «أريد مائة جنيه كقرض» ؛ فقال الصديق: «كأنى لم أسمع هذا السر».

إذن: فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن، لكن لا بد من استشراف نفسى للتلقى. وهم لا يملكون هذا الاستشراف؛ لذلك قال الحق سبحانه: ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** .. (٤٢) ﴾ أى: كأن سمعهم لا يسمع.

ومثال ذلك : أننا نجد المدرس الذى يشرح الدرس للتلاميذ ، وبين التلاميذ من يستشرف السمع ؛ ولذلك يفهم الدرس ، أما الذى لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس.

وهم قد فاتوا الصُّمَّ ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة العين، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ** ..(٤٢) ﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف، وأن يُقْبِل المرء على ما يريد أن يراه، وأحياناً لا يكون الرائى مستشرفاً؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية.

وسُئل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح[١] يَهْده الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يَرَ محمداً رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يتيم أبى طالب[٢] .

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينة الإيمان وهَيبة الخشوع وجلال الورع.

ونحن قد نلقى رجلاً صالحاً فى بشرته أدْمة[٣] أو سواد ، وصلاحه يضىء حوله ، وله أسْر[٤] من التقوى، وجاذبية الورع.

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغيَّر أمره.

وها هو «فضالة»[٥] يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ : ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟ قال: لا شىء ، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبى ﷺ ، ثم قال: استغفرِ الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة.

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إلىَّ من وجهه، ولكنى أقبلت عليه فما كان أحَبَّ

---

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيمانى ؛ لأن الرائى يرى نور الإيمان يناديه ، فيلاقيه ، ويلتقى به .
أما رؤية أبى جهل فهى رؤيا انقطاع إيمانى ؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع ، فلم ير نوراً ، ولم يحس به ، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذى جعله لا يرى فى رسول الله ﷺ إلا يتيماً لابن أبى طالب ، وذلك بخلاف موقف فضالة الذى أحس بالنور فأحبه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢) أن المشركين قالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب .

(٣) الأدمة فى الناس : السمرة الشديدة ، وقيل : هى من أدمة الأرض ، وهو لونها ، وبه سمى آدم أبو البشر - عليه السلام . [اللسان : مادة(أدم)] .

(٤) الأسْر : السَّمْت الذى يستولى على مشاعر المحيطين به .

(٥) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثى .

إلىَّ في الأرض كلها من وجهه [1].

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

كلمة «الله» هي اسم عَلَم على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تتناهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفي كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تتناهى .

ولذلك قال النبي ﷺ :

«أسألك بكل اسم سمَّيت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خَلْقك ، أو استأثرت به في علْم الغيب عندك» [2].

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤/ ٤١٧) بلفظ : « والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خَلْق الله شيء أحب إلىَّ منه » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩١ ، ٤٥٢) والحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٩) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إنْ سَلِم من الإرسال .

وإن سأل سائل: ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه في علم الغيب ؟

أقول: حتى يجعل لنا الله سبحانه في الآخرة مزيداً من الكمالات التي لم نكن نعرفها ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله»[(1)].

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم عَلَم على واجب الوجود، وصفات علم واجب الوجود، والتسعة والتسعون اسماً التي نعلمها[(2)] هي اللازمة لحياتنا الدنيا، ولكننا سنجد في الآخرة صفات كمال أخرى، وكلمة «الله» هي الجامعة لكل هذه الأسماء، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها.

والإنسان منا حين يُقبل على عمل، فهذا العمل يتطلب تكاتُفَ صفات متعددة، يحتاج إلى قدرة، وعلم، وحكمة، ولُطْف، ورحمة، وغير ذلك من الصفات، فإن قلت: باسم القويّ ؛ فأنت تحتاج إلى القوة، وإن قلت: باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة، وإن قلت: باسم الحليم ؛ فأنت تحتاج إلى الحلْم، وإن قلت: باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة، وإن قلت: «بسم الله» فهي تكفيك في كل هذا وغيره أيضاً ؛

---

(١) وذلك في يوم القيامة في مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - « أن رسول الله ﷺ يأتي تحت العرش فيقع ساجداً، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله. ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول: يا رب أمتي، أمتي ». من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢)، ومسلم في صحيحه (١٩٤).

(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة » أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل في رواية أخرى عن أبي هريرة أخرجها الترمذي في سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذي أصح.

ولذلك يكون بدء الأعمال [1] بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غِنًى وجدته ، وإن احتجت إلى بَسْطٍ [2] وجدته .

وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا فى أن نقول : «بسم الله» . وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقرُّ بأن كل حَوْل [3] لك موهوب من الله ، والأشياء التى تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شىء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)** ﴾ [يس]

ولو لم يذلِّل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذللها لنا حتى نتعلَّم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلْمنا ، ولا بقُدْرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذى يُذلِّل .

فأنت ترى الطفل فى الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم . أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجرى ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبة على قتله . والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتى ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يذلِّله لك .

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

---

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام - أو أمر - ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر - أو قال : أقطع » .

(٢) أى : أن يبسط فى رزقك ، فهو سبحانه الباسط . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦)** ﴾ [الرعد] .

(٣) الحول : القوة ، والحيلة والقدرة على تسيير أمورك فى الحياة .

مستساغة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادى من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى : يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلّفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلَّفه قبل ذلك [١] ثم طرأتْ عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربِّى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدَّد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يُكلِّف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المُكْرَه ؛ لأن التكليف فى مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة فى التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرَّم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرَّم على جميع الخلق أن يسرقوا منك [٢] .

---

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالغاً ؛ ولذلك كان التكليف مصاحباً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوى يروض النفس إلى مرادات الله ، ولو قام الصبى بالتكاليف فله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن: فالقيد قد جاء لصالحك.

وهَبْ أنك أطلقت يدك فى الناس، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم فيما تملك ؟

وحين حرَّم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك.

وحين أمرك أن تزكّى، فهو قد أخذ منك؛ ليعطى الفقير من المال الذى استخلفك الله فيه.

فلا تنظر إلى ما أخذ منك، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك القدر بالفقر، والشيء الذى تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك الثواب أضعافاً كثيرة[1].

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة، وانظرْ إلى ما حَرَّم الله تعالى عليك من أشياء، وما حَلَّل لك غير ذلك؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه.

إذن: فالتكليف لصالحك.

ثم بعد كل ذلك: أيعود شيء مما تصنع من تكاليف على الحق سبحانه ؟ لا.

أيعطيه صفة غير موجودة ؟

لا؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله، وليس فى عملنا ما يزيده شيئاً.

---

(١) يقول الله - عز وجل - فى كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [النساء]. وقد قال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] - ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [التوبة] - ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج].

إذن: فمن المصلحة أن تطبّق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير.

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح فى الحقل، إنه يحرث الأرض، وينقل السماد، ويبذر، ويروى ويتعب، وبعد ذلك يستريح فى انتظار الثمار.

وأنت حين تنفِّذ تكاليف الحق[1] سبحانه فأنت تجد العائد، وأنت ترى فى حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد، فما بالنا بحساب الآخرة.

والفلاح الذى يأخذ من مخزنه إردبّاً؛ ليزرعه، وهو فى هذه الحالة لا ينقص مخزنه؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردبّاً.

وهكذا من ينفِّذ التكاليف يعود عليه كل خير؛ ولذلك أقول: انظر فى استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه، لا فيما تأخذه.

وهكذا ترى أنه لا ظلم؛ لأننا صنعة الله، فهل رأيتم صانعاً يفسد صنعته؟

إذن: فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً، بل يُحسِّنها ويعطيها الجمال والرونق[2]؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

---

(١) تكاليف الحق سبحانه هي أوامره ونواهيه، يكلف بها الله من آمن به، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

(٢) وفى هذا يقول رب العزة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] ويقول فى آية أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦٤)﴾ [غافر].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس]

أى: أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جَحْد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشيء له نهاية فهو قصير.

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية [(١)] ، وبعد ذلك خَصَّ كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وبيَّن فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن نمتنع عنه [(٢)] ، وترك لك بقية الأمور مباحة.

والمثال الذى أضربه دائماً: هو التلميذ الذى يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال: إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول: إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة.

---

(١) قد جعل الله فى الكون آيات خاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة]

(٢) وذلك فى نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام].

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعَم عباده ؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نعَم يريدها هو ، فهو الذى أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتى منه سبحانه أى ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟(١) إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فهذه الدنيا التى يتلهف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث فى الدنيا إلا ساعة ، والساعة هى الساعة الجامعة التى تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة فى الدنيا هى جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسَّم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التى تُعلَّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهى تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت - بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة فى القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون فى نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير فى بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

---

(١) لبث : مكث .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ..(٥٥) ﴾ [الروم]

وهم - إذن - يُفاجَأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرَّتْ وكأنها مجرد ساعة [١] ، وهكذا يكتشفون قصَر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم ينتفعوا بها أيضاً فهى مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

أى : أن الدنيا تمر عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها [٢] ؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ..(٤٥) ﴾ [يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين : قسم مَنْ كانوا يتعارفون على البر ، وقسم مَنْ كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على

(١) الساعة : أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ فيه القلة ، قال تعالى : ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : مدة قليلة ، وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] أى : لا يتأخرون لحظة ، والساعة يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : القيامة .

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾ [الإسراء] ، فالسعى للآخرة لا بد أن يكون بالنسبة إلى عِظَم هذا اليوم الأخير .

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وكذلك قال فى الذين تعارفوا على الإثم:

﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا** .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كان سبباً فى أن يؤول إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ** .. (٤٥) ﴾ [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة[1] تعنى: أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله.

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجَر فيه ، وإما ألاَّ يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته فى هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث فى الصفقات.

---

(١) خسر: أى خسر الرجل فى تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، غبن فيها ولم يربح وأصابه النقص . وخسر الرجل: ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى: ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ** .. (٣١) ﴾ [الأنعام] . وخسر نفسه: أهلكها بالضلال ، وقوله تعالى: ﴿ **خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ** .. (١١) ﴾ [الحج].

ومن الفعل اللازم قوله تعالى: ﴿ **فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا** (١١٩) ﴾ [النساء] ، وقد يأتى متعدياً ، ومثله قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** .. (١٥) ﴾ [الزمر] [القاموس القويم].

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية فى الدنيا بقوله :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الصف]

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً [1] لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعت فيها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة :

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة]

---

(١) تجر من باب نصر - تجراً وتجارة : باع واشترى طلباً للربح ، وتطلق التجارة على المال الذى يتجر فيه التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذى يترتب عليه خير ، كأن الثواب ربح ، وكأن الحرمان منه خسارة ، قال تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة] ، التجارة هى المتجر فيه ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر] هى الأعمال الصالحة ، وقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصف] ، هى التجارة بالمعنى المجازى أى العمل الصالح . [القاموس القويم]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبِّراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثِّل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك فى ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل فى ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره.

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسِّن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان.

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨ ﴾ [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه: اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هى الجامعة لكل حركات الحياة.

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شىء أن يتموَّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشترى شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها.

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعدّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويها ، وتُشَذِّب النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت فى إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع فى التجارة يأتى لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضَرْبَ المثل فى التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء.

إذن : لا بد أن نعتبر أن دخولك فى صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأسمالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدِّين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت.

وأنت فى أية صفقة قد تعوِّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة فى الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهى خسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كالدنيا ، وأنت فى الآخرة إما فى جنة ذات نعيم مقيم ، وفى هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هى الخسارة الحقيقية.

والخسران الحقيقى أن يكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضاً.

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ..(٤٥) ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه لم يكن فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [(١)] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ..(٣٩) ﴾ [النور]

والسراب كما نعلم يراه السائر فى الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبَّه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير فى صحراء شاسعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ..(٣٩) ﴾ [النور]

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه.

ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه ممن عمل له ، ولا يُحسب له ذلك فى الآخرة ، وتجد الناس يُكرِّمونه ، ويقيمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

«فعلتَ ليقال ، وقد قيل» [(٢)].

---

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحر كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى : يجرى جرياً ، أى : يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء . [اللسان : مادة (س ر ب) بتصرف] .
والقيعة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفرّاء : القيعة جمع القاع ، والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . . » . الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كَذّبوا بلقاء الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس]

أى: لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه؛ هذا المنهج الذى يمثّل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يؤدى هذه المهمة.

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض.

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين، أى: الخسران المحيط.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿وَإِمَّا﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغومتين، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة.

أى: يا محمد، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان، وإما أن نتوفينَّك قبل أن ترى هذا فى الدنيا، ولكنك ستراه فى الآخرة حين تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر.

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ.

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ .. (٤٦) ﴾ أى : أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان فى هذه الحياة ، وإن لم تره فى الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم فى الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم فى أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذى يُرى فى الناس ؛ كحسرة فى النفس ، وكَبْت للأسى حين يرون نصر المؤمنين.

أما الذى يُرى فهو الأمر الظاهر ، أى : الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخْذ الأموال ، وسَبْى النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به.

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : ﴿ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾ .

وكفاك الله سبحانه شهيداً : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ (١) وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾

---

(١) قسَطَ يقسط - كضرب - قسطاً وقسوطاً ، وقسط يقسط قسطاً كنصر : ظلم أو عدل ، من الأضداد ، وتفهم بالقرائن ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] وأقسط : عدل وأزال الظلم ، واستعمله القرآن بمعنى العدل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ..(٢٩) ﴾ [الأعراف] . والقسطاس : الميزان والعدل . « القاموس القويم» .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا بالرسول الذي أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [1] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وبيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال الرسل ؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شيء يحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً يتعهدها بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق، وكانوا موحِّدين منذ ذرية آدم - عليه السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا، وانتشروا في الأرض، وصارت الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث في الشرق تراه في لحظتها وأنت في الغرب ، فهذا يعني توحُّد الآفات أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما في الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات البيئة ، أمّا وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات [2] .

---

(١) خلا : مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] أي : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام هي جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومَنْ كفروا به هُزِمُوا.

أو أن الآية عامة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ أى : تُنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا [1] (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾ [النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به مَنْ آمن ، وكفر به مَنْ كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين.

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : «اقرأ عليَّ» فقلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال : «نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾[النساء] فقال ﷺ : «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٨٠).

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة فى الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾ [النساء] وقوله : ﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] أى شاهد. والشهيد من قتل فى سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود. [القاموس القويم].

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

وما دام في الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يَعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يَعتبر المؤمن منازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

أي : يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقصَّى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتي يوم يُسألون فيه عن كل شيء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا:

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾
[الصافات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً.

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول:

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥) ﴾ [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحلَّلتم في التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق]

أي : أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمَّع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذي خلقهم أولاً.

وهم قد كَذَّبوا واستنكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا [١] هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يفر من هول ذلك اليوم.

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين [٢] فى كل زمان ومكان ، وفى العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبحوا الطبقة العليا فى المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملكتم فى المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

---

(١) وقد قال رب العزة عنهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ..﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج] ، ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

(٢) الملحدون : جمع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، المائل عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ..﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت]. [المعجم الوسيط : مادة (لحد)].

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه[١].

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجُازَى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وكان المنطق يقتضي أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولابد أن يجيء اليوم الذي يجازي فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم في قول الله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس]

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً.

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك :

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

والرسول ﷺ يبرِّيء نفسه من كل حَوْل وطَوْل[٢]، ويعلن ما أمره الحق

(١) يقول الحق : ﴿ ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمَّا يعمل الظَّالمون إنَّما يؤخِّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴿٤٢﴾ مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴿٤٣﴾ ﴾ [إبراهيم] ، ويقول الرسول ﷺ : «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» .

(٢) الحَوْل : الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور.
والطول : الفضل والغنى واليسر. قال تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النساء]. [المعجم الوسيط].

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت رداً على سؤالهم الذى أورده الحق سبحانه فى الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تهكُّماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس]

وهذا يعنى أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التى توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذى جاء بمنهج الله تعالى ؛ فآمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين.

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا .. (٤٩) ﴾ [يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضَرّاً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجلٌ [(١)] ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل.

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ .. (٤٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن مشيئة الله هى الفاصلة ، ويدل على أن النبى والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خُلق على هيئة القَسْر [(٢)] فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور أخرى ، والاختيار هو فى الأمور التكليفية

---

(١) الأجل - مدة الشيء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذى أجل له الأمر : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. (٢٩) ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجّل الشيء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) ﴾ [المرسلات] أى : حد الموت أو الهرم وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ .. (٢) ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء فى الدنيا ، والثانى : هو مدة البقاء فى القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والآجل ضد العاجل ، والآجلة ضد العاجلة . [القاموس القويم] .

(٢) القسر : القهر والإجبار .

مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وأنت حُـــرٌّ فى أن تطيع أو أن تعـــصى ، وكل ذلك داخل فى نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضَرّاً.

إذن: فهناك فى الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك: من ينتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتى لنفسه بالضر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه.

إذن: ففى الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم آجال الأمم ؛ لأن آجالهم - استئصالاً ، أو عذاباً -هى من عند الله سبحانه وتعالى.

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُنزَّه أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل:

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً [1] (١١) ﴾ [الإسراء]

---

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجّل فى الأمور. واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى: ﴿ ولَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..(١١) ﴾ [يونس] والعاجل: السريع ضد الآجل، والعاجلة الدنيا ، والآجلة الآخرة ، يقول الحق: ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) ﴾ [القيامة] . أى: الدنيا، وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة ، وعجل الأمر سبقه . قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ..(١٥٠) ﴾ [الأعراف] .

إذن : فالحق سبحانه يؤخِّر مراداته رحمة بالخَلْق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾ [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذى جاء بعد ﴿ إِذَا (١) جَاءَ أَجَلُهُمْ ..(٤٩) ﴾ [يونس]

لأن الجواب هو : ﴿فَلا يَسْتَئْخِرُونَ﴾ .

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ ﴾

وهذا رَدٌّ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فَلْنَرَ ماذا سيكون موقفكم ؟

وهُمْ باستعجالهم العذاب يبرهنون على غبائهم فى السؤال عن وقوع العذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ . أى : أخبرونى عما سوف يحدث لكم .

---

(١) إذا : تأتى لمعنيين شرطية وفجائية . إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ..(٥٤) ﴾ [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) ﴾ [الانشقاق] أى : إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة ، وتختص بالجملة الإسمية ، قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه] « القاموس القويم » .

وشاء الحق سبحانه أن يأتى أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه:

﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ..(٥٠) ﴾ [يونس]

والبيات مقصود به الليل؛ لأن الليل محل البيتوتة، والنهار محل الظهور.

والزمن اليومى مقسوم لقسمين: ليل، ونهار.

وشاء الحق سبحانه إبهام اليوم والوقت، فإن جاء ليلاً، فالإنسان فى ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً فى الغالب، وإن جاء نهاراً، فالإنسان فى النهار مشغول بحركة الحياة.

والحق سبحانه يقول فى موضع آخر:

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا [1] بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه:

﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) ﴾ [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتى فى الليل وفى النهار معاً؛ لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً، وفى ذات الوقت يكون الزمن نهاراً فى بلاد أخرى.

وإذا جاء العذاب بغتة، وحاولوا إعلان الإيمان، فلن ينفعهم هذا

---

(١) بأسنا: عذابنا والبأس القوة، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]، أى: قوة وصلابة، وقوله تعالى: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٨٤) ﴾ [النساء] شدتهم وقوتهم فيصدهم عنكم، وقوله الحق: ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ..(١٧٧) ﴾ [البقرة]، أى: وقت الحرب الشديدة، وقول الحق: ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ.. (٨١) ﴾ [النحل]، أى: شدتكم وقوتكم فى الحرب، فتحفظكم الدروع من أخطار الحرب. والبأساء: الفقر والشدة، ويقول الحق: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة.

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب فى الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، فى الدنيا ، ثم العذاب الممتد فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ﴾

أى : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون؟

إن إعلان إيمانكم فى هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أى وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون[1] حين جاءه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى

---

(١) وذلك أن فرعون خرج فى جيش كبير يقدر بمائة ألف ولحق بموسى عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر (أى : طين البحر) فأدسه فى فيه (أى : فمه) مخافة أن تدركه الرحمة » أخرجه الترمذى فى سننه و قال : حديث حسن . وانظر تفسيرى ابن كثير (٢/ ٤٣٠) والقرطبى (٤/ ٣٣٠٥) .

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ..(٩٠)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ[1] هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه فى اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم فى الدنيا ، وسيلقون العذاب فى الآخرة ، وهو ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى : عذاب لا ينتهى .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

أى : أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذى معجزة ، ومعه منهج مفصَّل مؤيَّد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا .

إذن : فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزى وهوان ، لكن محدوديته فى الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنيهات ، قد يكسب خمسة جنيهات .

وهنا سؤال : هل الذى يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرَّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ

---

(١) الخلد : الدوام ، والمراد أنه عذاب دائم . [اللسان : مادة (خ ل د)] .

زيادة فى التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب [١] بمفهومه الوهمى الذى زين له مراد النفس الأمارة ، وهذا يعنى أنه ينظر إلى واقع اللذة فى ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات [٢] تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر فى حقيقة الأمر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي [٣] وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ [٤] ﴿٥٣﴾ ﴾

وهم قد قالوا من قبل : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل . ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أى : يطلبون منك النبأ . والنبأ هو الخبر المتعلق بشىء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هُوَ﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوَّة ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] فالذى يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل التبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح الكسب ، وعليه بعمله السىء جزاء ما اكتسب .

(٢) تبعة الشىء : نتيجته وعاقبته وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (ت ب ع)] .

(٣) إى : نعم . حرف جواب .

(٤) أى : أنكم لن تُعجزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكسبون .

إذن: فقولهم : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ [1] أَحَقٌّ هُوَ .. (٥٣) ﴾ لها أكثر من مرجع ، كأنهم سألوا: هل القرآن الذى جئت به حق ؟

وهل النبوة التى تدَّعيها حق ؟

وهل الشرائع - التى تقول: إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة الإنسان - حق ؟

وهل القيامة والبعث حق؟

وهل العذاب فى الدنيا حق؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى.

ويأتى الجواب من الله تعالى:

﴿ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣) ﴾ [يونس]

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلاً: هل زيد موجود؟ فأنت تقول: نعم موجود. ولا تقول له: والله إن زيداً موجود ؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن يسألك ؛ لأنه لا ينكر وجود زيد.

إذن: فأنت لن تؤكد إجابةً ما إلا إذا كان هناك فى السؤال شبهة إنكار.

إذن: فأنت تستدل من قول الحق سبحانه:

---

(١) النبأ : الخبر ، أو الخبر ذو الشأن ، قال تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) ﴾ [النبأ] وهذا النبأ هو البعث . وأنبأه بالشىء ونبأه به : أخبره به ، وأنبأ يتعدى لمفعول به واحد ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ .. (٣٣) ﴾ [البقرة] ، ويتعدى لمفعولين مثل : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا .. (٣) ﴾ [التحريم] ، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) ﴾ [الحجر] أى : حدثهم . واستنبأه : طلب أن ينبئه كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣) ﴾ [يونس] .

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ..(٥٣)﴾ على أن سؤالهم يحمل معانى الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إى»[1] وهو حرف جواب يعنى : «نعم» ، وتأتى «إى» دائماً مع القسم.

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ..(١٧٢)﴾ [الأعراف]

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِى وَرَبِّى .. (٥٣)﴾ [يونس]

تعنى : نعم وأقسم بربى إنه لحق. وأنت لا تُقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد.

ومثال ذلك فى قوله سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[2] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا[3] بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس]

وماذا كان رد من بُعث اليهم الثلاثة؟

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً. فقال لهم الرسل :

---

(١) إى : حرف جواب ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٥٣)﴾ [يونس] .

(٢) قيل : هى أنطاكية ، بين سوريا وتركيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان ملكها يعبد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذَّبهم . من تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨) بتصرف .

(٣) عزَّزنا : أيَّدنا وقوَّينا .

﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) ﴾ [يس]

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد.

إذن: فالتأكيد فى أسلوب المسئول إنما يأتى على مقدار الإنكار ، فإن لم يكن هناك إنكار ؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد.

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتى مرة واحدة .

وإن صادف الكلام لجاجة فى الإنكار جاء التأكيد مرتين .

أما إذا ما صادف الكلام تبجُّحاً فى الإنكار فالتأكيد يأتى ثلاث مرات .

وقد علَّم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم: ﴿ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣) ﴾ [يونس]

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب ؛ لأن الرب هو من كلَّفه ، ثم يؤكد ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن سؤالهم تضمَّن الإنكار والاستهزاء.

وما دام قد قال: ﴿ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب ؛ لأنه ليس هناك مَنْجًى من الله تعالى ، ولن تُعْجزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شفاعة من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خُلَّة تتقدم لتشفع لكم.

ثم يأتى قوله سبحانه فى نهاية الآية :

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) ﴾ [يونس]

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل

الفداء [١] ؛ ولذلك جاء الإيضاح فى الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ [٢] لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

وساعة يأتى العذاب فالإنسان يرغب فى الفرار منه ، ولو بالافتداء.

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ، حتى ولو كان يملك كل ما فى السموات وما فى الأرض [٣].

ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات والأرض؟

طبعاً لا.

إذن : فالشر لا يتأتَّى. وهَبْ أنه تأتَّى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما فى السموات وما فى الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم فى الدنيا قد أخذ حق الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحَّ ذلك لتحوَّل البعض إلى مغتصبين لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة.

---

(١) الفداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المفدى. قال تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات]. [المعجم الوسيط : مادة (ف د ى)].

(٢) ندم على ما فعل يندم ندماً وندامة ، من باب فرح : أسف وتحسر وتمنى أنه لم يفعله ، قال تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس] ونادم اسم فاعل قال الحق : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة]

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج].

ولذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم فى الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم فى مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختلّ ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها.

وهَبْ أن الظالم أخذ مُلْك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدى به نفسه ساعة يأتى العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقْبَل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير؟ وهذه ظاهرة موجودة فى دنيا الناس.

وهَبْ أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلابيبه [1] فيقول: خذوا ما عندى واتركونى. ولن يقبل القائمون على القانون ذلك. وإن كان مثل هذا التنازل يحدث فى (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث فى الدنيا ، لكنه لن يحدث فى الآخرة.

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ [2] وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة]

وقال الحق سبحانه فى آية أخرى:

---

(١) التلابيب: مجامع ثياب الرجل. والتلبيب: هو جمع الثوب الذى يلبسه عند صدره ونحْره ، وجرّه. [اللسان مادة لبب].

(٢) العدل: الفدية المماثلة ، قال تعالى: ﴿ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..﴿٤٨﴾﴾ [البقرة] أى: لا ينجيها من العذاب دفع فدية مماثلة ولا تقبل منها. وعدل الشىء وعدّله أقامه وسواه ، قال الحق: ﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار] وعدل المشرك بربه: جعل له مساوياً. قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ..﴿١﴾﴾ [الأنعام] وما كان ينفى أن يعدلوا غيره ، فليس كمثله شىء ، ومثلها قوله: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل] أى: يجعلون له شريكاً مساوياً. وأما قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف] أى: يحكمون بالعدل [القاموس القويم].

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى فى التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقَّة تتجلَّى فى الآيتين ؛ لأن القارىء لصَدْر كل آية منهما ، والفاهم للمَلَكة اللغوية العربية يعرف أن عَجُز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

يرى أنه أمام نفسين : النفس [1] الأولى هى التى تقدِّم الشفاعة ، والنفس الثانية هى المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفى الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهى تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتى بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير فى الآيتين مناسباً للموقف فى كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ .. (٥٤) ﴾ [يونس]

وفى هذا القول تعذُّر مِلْك النفس الواحدة لكل ما فى الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به ؛ وتكون النتيجة هى ما يقوله الحق سبحانه :

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مرادات الشيخ رضى الله عنه .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ..(٥٤) ﴾ [يونس]

أى : أخفوا الحسرة التى تأتى إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظى أو حركى.

إن كلاً منهم يكتم هَمَّه فى قلبه ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينبهر ويُصعَق ويُبهَت [1] من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرخ ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه فى نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمِّد كل دم فى عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركى من الصراخ أو الألم.

ونحن نعلم أن التعبير الحركى لون من التنفيس البدنى ، وحين لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر.

هم - إذن - يُسرُّون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ [2] وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾ [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فَهَبْ أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خَلْق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقضى الله بينهم بالحق ، أى : يخفِّف عن المظلوم بعضاً من

---

(١) يبهت : أى : يتملكه هول ما يحدث ؛ فينقطع عن الكلام أو غيره.

(٢) القسط : المراد به هنا العدل.

العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .

هذا هو معنى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى : عدم تحيز ، وتتطلب الفصل بين خصومتين.

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم - وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ، وكل وسائل الرزق والقُوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ[1] حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

و«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ، بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المُفاجَأ .

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن المخاطب يفاجأ ، وإلى أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم.

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به ، قال الحق : ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. ﴿٩٥﴾﴾ [النساء] كلا : مفعول به أول مقدم ، والحسنى مفعول به ثان . أى : أخبرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الدرجات ، والوعد يأتى للخير كثيراً، وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ..﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة] أى : ينذركم ويخوِّفكم بالشر ، والفعل متعدٍّ لمفعولين « كم» مفعول أول ، والفقر مفعول ثان . [القاموس القويم - بتصرف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يفوت السامع لقوله أي كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شيء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخَّر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً.

وإذا خدمت الأسبابُ الإنسانَ ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ [1] عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ..(٧٨) ﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبِّب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ؛ فكأن الحق سبحانه ينبههم: تَنبَّهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه القضية الكبرى: ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٥٥) ﴾ [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدَّر لك ، وكل الأسباب

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]. وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزائن حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرتها وثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرحه بماله وتعظمه على الناس ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص] فكان جزاؤه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) ﴾ [القصص] .

تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عز وجل.

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطِّط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أيٌّ منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف.

وكل ما تأتى فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبِّب الأسباب.

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبِّب ؛ لأن لله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرث الأرض ، ويرويها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول.

إذن: فمردُّ كل مملوك إلى الله تعالى.

واعلمْ أن هناك مِلْكاً ، وأن هناك مُلْكاً ، والمِلْك [1] هو ما تملكه ؛

---

(١) الملك : فى الأعيان والمحسوسات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ .. (٢٣) ﴾ [النمل] ، ومن المجاز قوله : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١) ﴾ [يونس].

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق : ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .. (٧١) ﴾ [يس] ومملوك اسم مفعول كقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً .. (٧٥) ﴾ [النحل] والملك مصدر ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧) ﴾ [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا . والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى : ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .. (١٠٢) ﴾ [البقرة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى .. (٥٤) ﴾ [يوسف] هو فرعون ، وقرىء ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين . والملك والمالك والمليك من أسماء الله الحسنى ، والملكوت : الملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ .. (٨٣) ﴾ [يس] والملك واحد الملائكة « القاموس القويم - بتصرف ».

جلباباً ؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك من له مِلْك ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - فى المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ..(٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فالمُلك فى الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت فى أول الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - لتنبِّه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاغترَّ بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف فى بعض الأشياء ؛ ليظل الإنسان مربوطاً بالمسبِّب .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ..(٥٥) ﴾ [يونس]

والوعد إن كان فى خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بِشَرٍّ فهو إنذار بشرّ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعيد» .

إذن : ففى غالب الأمر تأتى كلمة «وعد» للاثنين : الخير والشر ، أما كلمة «وعيد» فلا تأتى إلا فى الشر .

والوعد : هو إخبارٌ بشىء سيحدث من الذى يملك أن يُحْدِث الشىء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «آتيك غداً فى المكان الفلانى لأكلمك فى موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذى تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمِّره ، والموضوع الذى تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتى لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء.

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شىء أبداً .

ولذلك يعلِّم الله سبحانه خَلْقه الأدب فى إعطاء الوعود ، التى لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ [(١)] لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤) ﴾

[الكهف]

وحين تقدِّم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً.

وهكذا يعلّمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم فى نطاق قُدراتنا ، وقُدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا رادّ لما وعد به سبحانه ؛ لأنه منزَّه عن أن يُخْلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبَّى عليه [(٢)] ، ووعده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التى يُجريها الحق سبحانه عليك .

---

(١) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا وفداً منهم إلى أحبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ قائلين لهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أمور ، منها : «سلوه عن فتية فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب» فسألوه فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يستثن – أى : لم يقل : إن شاء الله ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه فى ذلك شىء فنزلت هذه الآية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٧١) .

(٢) التأبى : هو الامتناع وعدم الانصياع . والإباء : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أبى].

وهَبْ أنك أردت أن تبنى بيتاً ، وقلت للمهندس المواصفات الخاصة التى تريدها فى هذا البيت ، لكن المهندس لم يستطع أن يشترى من الأسواق بعضاً من المواد التى حددتها أنت ، فأنت - إذن - قد أردت ما لا يملك المهندس تصرُّفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للخالق الأعلى سبحانه ؛ فهو الذى يملك كل شىء ، وهو حين يَعد يصير وَعْدُه محتَّم النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [يونس]

أى : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٤٨)﴾ [يونس]

أو أن ﴿ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ تعنى : أن الإنسان يجب ألاَّ يضع نفسه فى موعد دون أن يقدِّم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أى وعد إلا ما يشاؤه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) ﴾

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والمِلْك والمُلْك ، هى فروع من الأحياء ، وهو سبحانه حَىٌّ ؛ لأنه مالكُ الأصل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه[1] الله سبحانه بالموت ، فهو

(١) سلبه الشىء ويسلبه من باب نصر سلباً : فزَّعه منه قهراً أو اختلسه ، يقول الحق : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ..(٧٣)﴾[الحج] أى : ينزع منهم شيئاً ، وهو فعل يتعدى لمفعولين «القاموس القويم».

مالك الأشياء ، والأسباب التى تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شىء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة]

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج.

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافّةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ..﴿١﴾﴾ [النساء]

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ..﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة]

ومثل قول الحق :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ [(١)] فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾
[البقرة]

أى: أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى الأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواجد الموجِد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

والآية هنا تصوِّر الموعظة وكأنها قد تجسَّدت وصار لها مجىء ، رغم أن الموعظة هى كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التى تؤثِّر وتحضُّ على الإيمان .

والموعظة [(٢)] هى الوصية بالخير والبعد عن الشر بلَفْظ مؤثِّر ، ويقال : فلان واعظ متميز ، أى : أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة بيسر إلا ممن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء [(٣)] ؛

---

(١) القصاص : هو توقيع العقاب على من قتل أو جرح غيره بمثل ما قتل أو جرح ، وهى شريعة جاءت التوراة بها وأقرّتها شريعة الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ .. (٤٥) ﴾ [المائدة] .

(٢) وَعَظَه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة والعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . قال تعالى مصوراً عناد الكافرين : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) ﴾ [الشعراء] فهم لعنادهم يتساوى عندهم الأمران . والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل كقوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] ، والموعظة لها مقدمات بلاغية من منطلق إيمانى . مادة وعظ بتصرف . من «القاموس القويم» .

(٣) وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى الموعظة الحكيمة ، فعن العرباض بن سارية قال : قام فينا رسول الله ﷺ ، ذات يوم ، فوعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون .. » الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢) والترمذى (٢٦٧٦) وأحمد فى مسنده (٤/١٢٦ ، ١٢٧) .

لأن الموعوظ قد يقول فى نفسه: لقد رأيتنى فى محل دونك وتريد أن ترفعنى ، وأنت أعلى منى. فإذا قدَّر الواعظ هذا الظرف فى الموعوظ فهو يستميل نفسه.

ولنتذكر الحكمة التى تقول: «النصح ثقيل ، فلا تجعلوه جَدَلاً ، ولا ترسلوه جَبَلاً ، واستعيروا له خفَّة البيان» ؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتى له بالأسلوب الجميلَ المقنع الممتع الذى يعجبه ، وتلمس فى نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه.

والموعظة تختلف عن الوصية ؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا فى خلاصة حكمة الأشياء ، وهَبْ أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وَصِيَّته ، ويوصيهم بعيون[1] المسائل.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ..(٥٧) ﴾ [يونس]

والموعظة إما أن تسمعها أو ترفضها ، ولأنها موعظة قادمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربِّى والكفيل ، وإن كفرت به.

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أى: أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تتوزع ما بين قسمين: القسم الأول هو مقوِّمات الحياة التى يعطيها الحق سبحانه من قُوت ورزق - وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر - والقسم الآخر هو مقومات القيم التى ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط.

---

(١) عيون المسائل : أى : أصولها ، والمهم منها ، وعين كل شىء : خياره . [اللسان : مادة (عين)] .

إذن: فالموعظة هى نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذى خَلَق من عَدَم وأَمَدّ من عُدْم ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق.

إذن: فالموعظة تجيء ممن يُعطى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شَيئاً منك [1] فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه.

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهى غير مرتَّبة ولا منسَّقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل.

ولكن لماذا يُفسد العاقل الاختيار بين البدائل [2] ؟

إن الذى يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ مما فى النفس والقلب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

---

(١) وقد أعطانا القرآن مثالاً لهذا عن الهدى الذى يذبحه الحجيج ، فيقول سبحانه : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ . [الحج].

(٢) بدل الشيء غيَّره ، وبدل الكلام : غيره وحرفه ، قال تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ [البقرة] أى : غيروه بكلام آخر ، ويقول الحق : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل] أى : عمل الخير والحسن بعد عمل السوء ، وأبدله الشيء من الشيء ، وأبدل الشيء بالشيء جعله بدلاً منه ، وتبدل الشيء بالشيء ومن الشيء جعله بدلاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾ [الأحزاب] .

أي: أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلّ يؤثر فى أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُنقّى باطن الإنسانَ ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها نبع وجدانى ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدانى ؛ ليصحَّ ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهى نابعة من وجدان طاهر مُصفّى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة [١] .

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ [يونس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً ؛لتبيِّن أن الهداية الحقَّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخْرِج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم.

وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة ؟ نجيب: إن الشفاء هو إخراج لما يُمْرِض الصدور ، أما الرحمة فهى اتْباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى ، واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝٨٢ ﴾ [الإسراء]

وهكذا يتبيَّن لنا أثر الموعظة: شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض.

إذن: فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرَّب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض.

---

(١) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩).

ومثال ذلك: طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بثوراً ؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقّتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرَّب الفاهم فهو يعالج الأسباب التى تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعَّال ؛ فيقضى على أسباب ظهورها.

وفى القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه:

﴿ ارْكُضْ[1] بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص]

أى : اضربْ برجلك ذلك المكان يخرجْ لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء.

إذن: فالموعظة وكأنها تجسَّدت ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاءً حتى تعالج المواجيد[2] التى تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصِّل إلى الغاية الحقَّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصَابُ بأىِّ داء ، وهذه الموعظة تؤدى إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إنْ صحَّتْ لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ،

---

(١) ابتلى الله سبحانه عبده ونبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض فى جسده وفقد ماله وأولاده . واستمر هذا البلاء مدة ثمانى عشرة سنة عاشها صابراً على قضاء الله ، ولم يبق معه إلا زوجته التى اضطرت للعمل فى خدمة الناس حتى توفر لنفسها ولزوجها الطعام ، ولما دعا أيوب ربه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) ﴾ [الأنبياء] استجاب الله له وأزال عنه الضر إذ قال له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله فى الأرض عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى ، ثم أمره أن يضرب الأرض فى مكان آخر ففعل فأنبع الله له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها ؛ فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً . [ذكرها ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٣٩ ، ٤٠] وقال عنه سبحانه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .. (٤٤) ﴾ [ص] .

(٢) المواجيد : المقصود بها أعمال القلب التى إن استقامت استقامت الجوارح .

والرحمة ، والعمل الصالح ، فإيّاك أن تفرح بذلك ؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا فى تطبيق منهج الله ، فكلُّنا بعباداتنا لن نؤدى حَقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّف ، وعلينا أن نتدبَّر قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدنى [١] الله برحمته [٢] » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد فى دنياه ، وهو لن يؤدى بطاعته حق كل النعم التى أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكلَّف إلا عند البلوغ ، أى : فى سنّ الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التى أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السِّنِّ ، فهو لن يحصيها [٣] ، فما بالنا بالنعم التى تغمرنا فى كل العمر ، وحين يجازينا الحق فى الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدَّقتُ بكذا ، أو صلّيت كذا ؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبُّدىِّ ، وتذكَّر القول

---

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله «يتغمدنى» : يُلبسنى ويتغشَّانى ويسترنى . [لسان العرب : مادة (غ م د)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل] وقد أفرد سبحانه النعمة هنا ؛ لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرتها واحدة فى نظرك فهى مشتملة على نعم لا تحصى ولا تُعَدُّ ، فما بالك بالنعم مجتمعة .

المأثور : « رُبَّ معصية أورثتْ ذُلاً وانكساراً ، خيرٌ من طاعة أورثتْ عزاً واستكباراً » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إن تمتع الإنسان فى الحياة بالمُلْك والمِلْك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذى يهبُنَا الحق سبحانه إيّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذى يستبقى الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدَّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرَّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدَّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحرِّمَه [1] ؛ لأن الحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعاملْ نفسك كما تعامل الآلة التى تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدى مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التى تنفعك وتستفيد منها وتؤدى حركات الحياة بالطاقة التى يمدّك بها ما حَلَّله الله لك .

وكذلك حرَّم الله عليك ما يَضُرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّنى فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴿١١٥﴾ ﴾ [النحل].

ما فى الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ، وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضِج لك الطعام .

إذن : فهناك شئ مخلوق لمهمة تساعد فى إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلّل لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ، والإبل والبقر وغيرها ، وحرَّم عليك لحم الخنزير [1] ، فلا تسألْ : لماذا خلق الله الخنزيرَ ؛ لأنه خَلَقه لمهمة أخرى ، فهو يلملم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشرٍ ، فاتركه للمهمة التى أراده الله لها .

وبعض الناس قد حرَّم على نفسه أشياء حلَّلها الله تعالى [2] ، وهم بذلك يُضيّقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلّل ما حرَّم الله أنه يوسِّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أى : أخبرونى ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما مباشرةً ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتحليل والتحريم ، رغم أن الذى أنزل الرزق قد بيَّن لكم الحلال و الحرام ؟!

وكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى [3] ، وكل ما ترونه

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [المائدة] .

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران] .

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] فنزول المطر من السماء هو رزق ينزله الله سبحانه ، فتحيا به الأرض الميتة فتنبت الزرع فيأكل منه كل كائن حى على الأرض من إنسان أو حيوان ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ .. (٢٤) ﴾ [يونس] .

حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذى تُشترى به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشترى به ما يأكله.

وكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ تعنى : أَوْجَدَ ، وخلق مِنْ أعلى ، وما دام كل شىء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شىء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿أَنزَلَ﴾ من جهة العلوّ الحسية ، بل خُذها من جهة العلوِّ المعنوية ، فالمطر - مثلاً - ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممّن خَلَق ، وهو الأعلى سبحانه.

وقد قال الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ[1] ..(٢٥)﴾ [الحديد]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذى نستخرجه من الجبال ومن الأرض.

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أى : الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان.

وما دام الحق سبحانه هو الذى أنزل الرزق ، وبيَّن الحلال والحرام ، فلماذا تُدخلون أنوفكم فى الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

---

(١) البيِّنات : الآيات الواضحة . والقسط هنا : العدل . والبأس : القوة . [لسان العرب].

وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون الجَعْل لمن خَلَق وهو سبحانه أدْرى بمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أي : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً في جَعْل الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ أي : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبيِّن لنا مدى قُبح السلوك في تحريم ما أحلّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه - في إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى فَصَّلت الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرنا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾ [المائدة]

والبَحيرة - كما ذكرنا - هي الناقة التي أنجبتْ خمس بُطون آخرها ذَكَر ، وكانوا يشقُّون أذنها ، ويعلنون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة [1] غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أيَّ حمْل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجزّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدَّام الآلهَة التي كانوا يعبدونها ، وسَمَّوها «بَحيرة» [2] ؛ لأنهم كانوا يشقون آذانها علامةً على أنها أدَّتْ مهمتها .

---

(١) السائمة : الغنم والماشية ترعى حيث شاءت . والسائم : الذاهب على وجهه حيث يشاء . [اللسان مادة سوم] .

(٢) وسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أذنها يكون شقاً واسعاً فأشبه البحر في سعته . (بتصرف من أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٦٠٨) ؛ وفي تحديد المقصود بالبحيرة - هل هي الناقة التي ولدت خمسة أبطن أم بنتها التي ولدت في آخر بطن ؟ - اختلاف . انظر في هذا تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧ ، ١٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص ، ولذلك قيل في بعض الأقوال أن السائبة هي أم البحيرة .

أما السائبة فهى غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً [1] وَهَبَ أن يجعل ناقةً لخدَّام الأصنام ، واسمها سائبة ، وهى أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرَّض لها .

والوصيلة : هى الأنثى تلدها الناقة فى بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : «وَصَلَتْ أخاها » ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته .

﴿ وَلا حَامٍ ﴾ والحام : هو الفَحْل الذى يحمى ظهر نفسه بإنجاب عشرة أبْطُن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحْمَل عليه ، ويترك لخدَّام الأصنام .

هذه هى الأنعام المحلَّلة التى حرَّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها خُدَّام الأصنام ، وفى ذكر عدم تحريم تلك الأنعام رأفة بهم .

وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾

[الأنعام]

إذن : فقد حَرَّموا بعضاً مما أحلّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

---

(١) كان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برىء من علّة ، أو نجَّته دابةٌ من مشقة أو حرب قال : ناقتى سائبة أى : تسيب فلا ينتفع بظهرها ، ولا تُحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ، ولا تركب . [ذكره ابن منظور فى اللسان مادة (سيب)] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ [١] مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ [٢] وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك فى قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ [يونس]

وهكذا تدخَّلوا فى تحريم بعض الحلال وحلَّلوا بعضاً من الحرام ، وفى هذا تعدٍّ ما كان يجب أن يقترفوه [٣] ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفى هذا كذب متعمَّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

---

(١) ذرأ : خلق . والحرث : هو الزرع والثمار .

(٢) بزعمهم ، أى : بقولهم الكذب . [لسان العرب] .

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه المحرمات من المطاعم فى قوله : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الأنعام] .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنكال [١] يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظَّان بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يونس]

إن الله سبحانه متفضِّل على كل خَلْقه - وأنتم [٢] منهم - بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزاد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ [٣] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ



---

(١) النكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة لغيره ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة] .

(٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص] .

(٣) تفيضون فيه : أي : تندفعون فيه وتتبسطون في ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يغيب عن علمه سبحانه . [لسان العرب] .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أي: ما تكون يا محمد في شأن . والشأن: هو الحال العظيم المتميز الذي يطرأ على الأمر.

ونحن في حياتنا اليومية نقول: ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب السامع بالشيء الهام الذي حدث له أو فعله ، ويتناسى التافه من الأمور.

ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

أي: لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ، وقال لها: اعملي أنتِ ، لا فهو سبحانه كل يوم في شأن.

ولذلك حين سئل أحد العلماء[1] : ما شأن ربك الآن ؛ وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ فقال: «أمور يبديها ولا يبتديها ».

أي: أنه سبحانه قد رسم كل شيء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو سبحانه قيُّوم ، أي: مُبَالغ في القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئننا سبحانه - وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو يراعينا.

فالحديث في الآية التي نحن بصددها موجَّه لرسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ..(٦١) ﴾ [يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذي يهتم به ليس المأكل ولا المشرب ، إنما المهم بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج بـ «افعل و«لا تفعل».

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ..(٦١) ﴾ [يونس]

(١) هو: الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليفسر له ثلاث آيات أشكلت عليه ، منها هذه الآية ، فقال: إنها شئون يبديها لا شئون يبتديها. ذكره القرطبي في تفسيره (٩/ ٦٥٦٧).

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلو له [1] ، وتعنى تأبيداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ [2] أُغْرِقُوا .. (٢٥) ﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجْل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبى ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأبيداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل فى هذا الشأن ما فُوِّض رسول الله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ [3] الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصَاب [4] الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرِّع .

(١) ما تتلو له : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهاء فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شأناً ، فيتلى من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٨٣) .

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى حددتها السنة .

إذن : فكل شـأن رسـول الله ﷺ إمـا بـلاغ عن الله بالنص القـرآنى ، وإما تطبيـق فعليّ للنص القرآنى بالحديث النبـوى ، وبالأسـوة التى تركـها لنـا ﷺ فى سُنَّته .

والحُجَّة على الحُكم - أى حُكم - يأتى بها القرآن ، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة ، فيكفى فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتفويض من الله تعالى ليشرِّع .

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حُدِّثوا بشىء من حديث رسـول الله ﷺ قالوا : «بيننا وبينكم كتاب الله »[1] ، وهدفهم أن يردُّوا حديث رسـول الله ﷺ - فعْلاً ، أو قولاً ، أو إقراراً .

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جَلَّ شأنه :

﴿ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس]

وفى هذا انتقال للسامعين للقرآن ، المبلَّغ إليهم هذا المنهج ، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه .

والعمل هو مجموع الأحداث التى تصدر عن الإنسان ، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بنيَّة القلب - يسمَّى عملاً ؛ لأن عمل القلوب هو النية . ولكن إذا صدر الحدَث من اللسان كان قولاً ، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً .

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين : قول ، وفعل .

---

(١) عن المقدام بن معـد يكرب أن رسـول الله ﷺ قـال : «يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم ، واللفظ للدارقطنى .

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى: تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلِّغه الرسول ﷺ .

والإقبال على العمل التكليفى بهذا الشوق ، وتلك اللهفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعانى يؤول إليها قول الحق سبحانه: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل. أى: أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب.

وقد قال الحق سبحانه: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم[1] مِّنْ عَرَفَاتٍ ..(١٩٨)﴾ [البقرة]

أى: شَرَعْتُم[2] فى الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدَّيتم نُسُكاً أخذتم منه طاقة ، وتقبلون بها على نُسُك ثانٍ.

إذن: فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيَّات وما يُبيَّت فيها من خواطر؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شىء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب.

يقول الحق سبحانه:

---

(١) يسن الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس ، ولكن بالسكينة رفقاً بالناس ؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ ولذلك سميت إفاضة . انظر فقه السنة (١/ ٥١٨) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يضم إليه زمام ناقته «حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) شرعت فى الأمر: بدأته ودخلت فيه.

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس]

أى: أن كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة فى كتاب مبين واضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ،وكلمة «يعزب» تعنى: يغيب ويختفى.

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلَّة.

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذَّرَّة ، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً ، ثم أطلقت الذرة على الهَبَاء الشائع فى الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهَبَاء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكوِّنات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو ، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها.

وأنت لا تدرك الشىء ولا تحسه لأمرين: إما لتناهيه فى الصغر ، وإما لتناهيه فى الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المَجَاهر التى تُكبِّر الشىء المتناهى فى الصغر آلاف ، أو ملايين المرات.

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصِّغر بحيث

لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كَبُرَت فترى فجوات وتعاريج وعُلُواً وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذى تراه تحت المجهر ناعماً.

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين الشيء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت إذا رأيت - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طوله فى عينيك.

إذن: لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأى شيء.

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى: النملة الصغيرة.

وأنت إذا وطأتَ نملة فى أرض رملية فهى لا تموت ، بل تدخل فى فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى.

قد بيّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدَّث عن سليمان - عليه السلام - فى وادى النمل ، فقال تعالى:

﴿ .. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل]

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهى فى الصغر.

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة فى الحياة ، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير[1] .

إذن : الذَّرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية .

وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه فى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة .

ويعزب ، أى : يغيب ، ويقال : «هذا البئر ماؤه عازب» ، أى : قادم من عمق بعيد ، ويحتاج استخراجه إلى دَلْو وحبال طويلة .

ونسمِّى الرجل الذى يبعد عن أهله «عَزَب» .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ . أى : لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شىء ولا أكبر شىء .

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله ، ويَعْلَمُها ، وهو المُجَازِى عليها .

وإن استطاع إنسان أن يُعمِّى على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعمِّى على قضاء السماء[2] .

ومسألة الذرَّة والصغر يقول عنها الحق سبحانه :

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) ﴾[النمل] وسار سليمان بموكبه العظيم هذا : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. (١٨) ﴾ [النمل] أى : مَرُّوا على وادى النمل فقالت نملة لإخوانها : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل] فهى خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾[النمل] . أى : ألهمنى أن أشكر نعمك التى أنعمت بها علىَّ من تعليمى منطق الطير والحيوان وعلى والدىّ بالإسلام لك . [ابن كثير : ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩] .

(٢) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو مما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

هذا للمتساوى فى الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فقال :

﴿ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ .. (٦١) ﴾ [يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هى الجزء الذى لا يتجزأ ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل فى زمن نزول القرآن.

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلةً لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجوهر الفرد. أى: الشىء الذى لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتى عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرَى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قيل عنه «الجوهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتَّتت الذرّة.

وقد جعل الحق سبحانه المقياس فى الصغر هو الذرة.

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجَسّ المتصلون بالدين وخافوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

و﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أى: لا يبعد أو يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ أى: عن علمه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: وزن ذَرَّة.

وقديماً قلنا: إن البعض يقول: إن «من» قد تكون حرفاً زائداً فى اللغة، كقولنا: «ما جاءنى مِنْ رجل» وتعرب كلمة «من»: حرف جر زائد، و«رجل»: فاعل مرفوعَ بالضمة الظاهرة التى منع من ظهورها اشتغال المحلِّ وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد.

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد [1]، ف «مِنْ» فى قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: من بداية ما يقال له «مثقال».

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..(٣)﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿وَرَبِّي﴾ مُقْسَمٌ به، وحرف «الواو» هو حرف الجر، ولم يأت هنا بالشهادة، وجاء بالغيب، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها.

وعالم الشهادة، تعنى: أنه عَالِمٌ بكل ما يشهد، ويظن البشر أنها غير مُحَاط بها لعظمتها؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب، لكن الحق سبحانهً يرى ويعلم الغيب والشهادة.

---

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام. والحق أن حروف الجر «الزائدة» تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية. فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد تأكيد معنى النفى. وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته، بضرب هذه الأمثلة؛ لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً. فيقول: «ما معى مال» و«ما معى من مال». فكلمة «من» فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد نفى وجود أىِّ مال مع المتكلم، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما معى مال».

لقد قال الحق كلمة «مثقال ذرة» ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..(٧) ﴾ [الزلزلة]

ومرة حين قال هنا :

﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ..(٦١) ﴾ [يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مثقال».

وقال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..(٣) ﴾ [سبأ]

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب [1] ، فيأتي بمثقال الذرة ويقدِّم السماء ويأتي بها مفردة ، ثم يأتي بما هو أقل من الذرة ويقدِّم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكة الأداء البياني .

وإنْ عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قَدَّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

---

(١) غاب الشيء يغيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي . والغيبة : اسم مرة من غابه ، أي : ذكره في غيبته بالسوء كاغتابه ، قال الحق : ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً .. (١٢) ﴾ [الحجرات] والغيبة : اسم هيئة منه . والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة] كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب . يقول الحق : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة] .

﴿ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ .. (٦١) ﴾[يونس]

وجاء أيضاً بالسماء ، وهى السماء الدنيا التى يراها أهل الأرض.

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ ..(٣) ﴾ [سبأ]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلَّفين فى الأرض: قوموا ها هى الساعة.

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند ربِّى ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرَّة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ[1] (٦١) ﴾ [يونس]

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخْرِج ما قبله ، بل كل شيء

---

(١) بان الشيء يبين بياناً ظهر واتضح ، فهو بيّن وهى بينة . أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة .
يقول الحق سبحانه: ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] والبينة تستعمل بمعنى الحجة والبرهان ، وقوله : ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [المائدة] أى : موضح للحق اسم فاعل من أبان المتعدى ، وقوله : ﴿ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] أى : غير مظهر [حرف ب من : القاموس القويم].

مكتوب في الكتاب المبين ، ونحن في الدنيا نجد الإنسان إن كان له دَين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التي تُسجِّل ما له وما عليه . ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجِّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلّمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هي من عند عالم الغيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد عَلم غيباً لأنه وليٌّ لله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعَلَّمُ غَيْب» ؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك : الرجل الذي سُرق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذي سُرق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا في نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً .

وأيضاً أسرار الكون التى كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ، والسالب والموجب فى الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب [(١)] لينزل الماء ، كل ذلك كان غيباً فى زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدَّد لكل أمرٍ منها ميعادَ كشفٍ ؛ فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيباً أن يولد ، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العفن الأخضر حول بعض المواد الغضوية فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذى اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات السفن والغواصات ، وكل ما يسير فى البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو صدفة .

إذن : ففى الكون غيب قد يصير مَشْهَداً ، إما بمقدِّمات يتابعها خَلْقُ الله بالبحث ، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شىء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذى بدأ من رجل رأى إناء مُغَطّى يغلى فيه الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

(١) يقول سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر] والرياح لواقح أى : أنها تحمل حبوب اللقاح التى تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستدر السحب لينزل منها الماء . [بتصرف من اللسان] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التى تسير على عَجَل ، وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده لكى يتأمل ؛ ليكتشف سراً من تلك الأسرار(1) .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها - دون مقدمات من الخَلْق - أكثر مما وُصِل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعبير الأدائى فى القرآن عن لونَى الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

هذا هو الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذى لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه :

---

(1) من الغيب ما يصير مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمةً للبشرية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] ، وهناك غيب لله لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ[1] عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

إذن: فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتي على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحققت الأحداث كما جاءت في القرآن.

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبَات وحدَّد من يعطيه بعضاً من الغيب :

﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

وهي ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة[2] ، وقال فيه الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدي به ؛ يهبه الله تعالى هبةً يراها الناس فيعرفون أن مَنْ يتّبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانهَ الهبات النورانية ، ولكن هذه الهبَة ليست وظيفة ، وليست (دُكّاناً) للغيب ، بل هي مِنْ عطاءات الله تعالى.

---

(١) ظهر الشيء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى تبين ، وبرز بعد الخفاء ، قال الحق : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (٣٣)﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ..(٢٠)﴾ [الكهف] أي : إن ينتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصره عليه حتى تمكّن منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣)﴾ [التوبة] أي : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - القاموس القويم).

(٢) الأسوة: القدوة . [لسان العرب : مادة (أ س ى)] . أي : الاقتداء بفعل الغير واتخاذه مثلاً يحتذى ، سواء أكان في الخير أو في الشر ، وشاع استخدامها في الخير.

وانظـر إلى دقة القـرآن حـين يقـول :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ [1] .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

أى : أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد ، والولىّ من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قـول الحـق سـبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

نجد أن كلمة «ولىّ» من وَلِيَهُ ، يليه ، أى : قريبٌ منه ، وهو أول مَفْزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاَج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على مَنْ والاه .

ومَنْ يقْرُب عالماً يأخذ بعضاً من العلم ، ومَنْ يقرب قويّاً يأخذ بعضاً من القوة ، ومَنْ يقرب غنيّاً ، إن احتاج ، فالغنى يعطيه ولو قَرْضاً .

إذن : فالوَلىّ هو القريب الناصر الْمُعين الْمُوالى .

وتطلق «الولى» مرةً لله سبحانه ، وقد قال القرآن :

﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ [2] .. (٩) ﴾ [الشورى]

---

(١) قال الزجاج : جاء فى التفسير أنه عنى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] . قال : فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه قد خالفه . [لسان العرب : مادة (ف ت ح)] .

(٢) تقول اللغة : الولى : هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة ، أو الولى الصديق ، وهو ضد العدو ، والولى : المطر بعد المطر والولى من يلى أمر إنسان ، ويقوم على شئونه ، كالوكيل ، ويجمع على أولياء ، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، يقول الحق : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾ [يونس] والولى : من تولاه الله بالرعاية ، وتولى هو منهج الله بالسلوك للهداية ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ [يونس] (حرف الواو - القاموس القويم) .

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه ، عكس الخَلْق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الوليّ المُطلَق ، فقُربه منْ خَلْق لا يبعده عن خَلق ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الوليّ الحقُّ ، وهو سبحانه يقول:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ..(٤٤) ﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فَليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية.

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. (٦٢) ﴾ [يونس]

إذن: فالولاية المطلقة لله ، وإنْ قُيِّدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين.

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فبطَلاقة قُدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خَصْلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك.

وتسمع من يقول: إن فلاناً قد خُطف من المعصية أي: أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلة خير فيه ، فهداه.

ومثال ذلك: الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفَّه

بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب ؛ فغفر الله - سبحانه وتعالى - له سيئاته[1].

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة.

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته سبحانه تقدّر كل موقف كما قدَّرتْ اختلاف الخَلْق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ[2] وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجى ، وهذا بعضٌ من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خَلْقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبةً اصطفائية يراها الذين حوله وقد يقتدون به.

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خَلْق الله ، فإذا علم سيئةً عن إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السَّتْر ويحب من يَستر.

---

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه(بفمه) فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له» . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألاّ يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألاّ تحتقر هذا المسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخَصْلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌّ فبحقّي عليك كن لي مُحبّاً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وفي هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله في يد الخَلْق ، ويضيف الحق سبحانه :

« وإنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »[1] .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقرِّبْه الله منه أكثر وأكثر .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة . والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والذراع من المقاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية وهي ٣٢ إصبعاً أو ٦٤ سنتيمتراً . [المعجم الوسيط : ذرع] . والباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً ، والمراد : المبالغة في الاتساع [المعجم الوسيط : ب وع] . والهرولة : الإسراع .

إذن: فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً.

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسانٌ يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه، فما بالنا بعطاء الحق لعباده ؟

إذن: فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد فى معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً.

وقد قال أبو العلاء المعرى [1] لمحبوبته:

أنت الحبيبُ ولكنى أعوذ بهِ ... من أن أكون حبيباً غير محبوبِ

أى: أنه يستعيذ بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبّه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحب الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمَّى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحَسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجَّح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له.

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجَّح بها

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، شاعر فيلسوف، ولد ٣٦٣ هـ ومات فى معرَّة النعمان (٤٤٩ هـ) عن ٨٧ عاماً، عمى فى الرابعة من عمره، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه. [الأعلام للزركلى (١/ ١٥٧)].

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً فى معيّته ، وهو سبحانه الذى بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه ولىّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور[1] . فقال :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتى بالمحسَّات ليبيِّن المعنويات ؛ لأن إلْفَ الإنسان أولاً بالمحسَّات ، وهى أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك .

وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شىءٍ فنحطِّمه أو نصطدم بأقوى شىء فيحطمنا .

إذن : فَحَجْب المرائى يسبِّب الكوارث ، أما حين يأتى النور ؛ فهو يبيِّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن .

وهَبْ أنك فى مكان مظلم ويوجد شىء آخر فى مكان منير ، فأنت فى الظلمة ترى مَنْ يوجد فى النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء

(١) يقول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب] فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هى بلاغة الإعجاز فى كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائى إلى المرئىِّ ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامى واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدَّد أن المرئىّ هو الذى يصدر منه شعاع إلى الرائى ، وإذا ما كان المرئى فى ظُلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائى ؛ لرأى الإنسان فى الظلام.

إذن: أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسّى ، فعالَـمُ القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر فى عالم الحسّ يمكن أن يحدث ، أما فى عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر:

جراحاتُ السنانِ [1] لها التئامُ ... ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلِّم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجىء فى الخطاب.

وقوله سبحانه : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ.. (٦٢) ﴾. أى: لا خوف عليهم من غيرهم ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ أى: أن الحزن لن يأتى منهم ، والخوف يكون من توقع شىء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان: السهام والرماح. وجراحاتها: آثار الجروح نتيجة الإصابة بها. والالتئام: هو اندمال هذه الجروح. [انظر لسان العرب] .

يحدث فى المستقبل.

وفى حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه فى الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى وليّاً من أولياء الله وقد أصيب ابنه فى حادث أو مات الابن ، تجد الولىّ فى ثبات لأنه يعلم حكمة الله فى قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه.

إذن : فالخوف يأتى من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شيء فات.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا [1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ..(٢٣) ﴾ [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود.

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومَنْ لا يعرف حكمة الله تعالى فى الأشياء قد يقول : «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له.

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله.

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الوَرَع الذى يتجلَّى فى قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلبُ يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا » [2].

---

(١) الأسى : الحزن الشديد. وتمام الآية : ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً ، فلا يحزن على شيء فاته ، ولا يفرح بشيء جاءه قد يذهب بعد حين.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

ويبيّن الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والإيمان هو الأمر الاعتقادى الأول الذى يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر فى الأمر ، والنهى فى النهى، والإباحة فى الإباحة.

والتقوى - كما علمنا - هى اتقاء صفات الجلال فى الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ فى صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين:

«هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لَعلَى نور»[(١)].

وقد سُئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال: «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرباً من الله». وكأنه-رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ[(٢)] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ..﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع[(٣)] ، والخضوع[(٤)] ، والسكينة ، ورقَّة

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب، وتمامه: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا: من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس].

(٢) سيماهم: علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور فى وجوههم.

(٣) خَشَع (خشوعًا) إذا خضع ، وخَشَعَ فى صلاته ودعائه . وقيل : بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعَتْ) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير] .

(٤) وخضع لغريمه (يخضع) خضوعاً : ذلَّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقر : أذله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل فى الصوت ومنه : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] والخضوع فى الأعناق ومنه قول الفرزدق : خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

السَّمْت ، وانبساط الأسارير.

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد فى هذا الكون أى خَلَل، بل يرى كل شىء فى موضعه تماماً، ولا يرى أى قُبح فى الوجود، وحتى حين يصادف القبح، فهو يقول: إن هذا القبح يبيِّن لنا الحُسْن، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناسُ الحقّ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق.

إن وجود الشرّ يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال: كُنْ جميلاً فى دينك تَرَ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى، وكلما تقرَّبت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق[1].

ومثال ذلك: العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلَّمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلّم موسى عليه السلام[2] ، فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غَصْباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل: كيف تخرق سفينة سليمة؟ وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين[3] .

وحين قَتل العبدُ الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

---

(١) ويقول رسول الله ﷺ : « ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) عن أبى هريرة .

(٢) قال سبحانه عن موسى وفتاه في لقائهما بالخضر عليه السلام: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾ [الكهف].

(٣) وذلك أن موسى استنكر عليه فعله هذا فقال : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾ [الكهف] فكان رده عليه فيما بعد : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف].

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله [1] ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاميص [2] الجنة.

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدّد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذي يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء في مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أي صحابي جليل.

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسّة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط في تلك القرية.

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبدُ الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز ، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه [3].

---

(١) قال موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الكهف] فنبأه الخضر بتأويل ما لم يستطع فهمه أو استيعابه فقال له : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف].

(٢) دعاميص : هم صغار الأطفال ، فسر بالدويبة التي تكون في مستنقع الماء ، قال : والدُّعْموص : الدخّال في الأمور ، أي : أنهم سيّاحون في الجنة دَخّالون في منازلها ، لا يُمنعون من موضع ، كما أن الصبيان في الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحُرَم ، ولا يحتجب منهم أحد . [لسان العرب : مادة (دع م ص)].

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة في كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] .
فقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف].

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مَثَل هؤلاء العباد كالصوارى المنصوبة التى تهدى الناس ، أو كالفنار الذى يهدى السفن فى الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

والبُشرى [1] : من البِشْر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهى الجلد ؛ لأن أى انفعال فى باطن النفس الإنسانية إنما ينضح على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٍّ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيِّىء تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هى أول منفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : «بشرى» فهذا يعنى كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشِّر بخير .

وحين سئل رسول الله ﷺ عن البشرى ، قال : « إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها »، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» [2] .

---

(١) بشرَ بكذا ، ويبشر ، مثل : فرح ، وزناً ومعنىً ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من المخفف : بشير ، وهو البشير فى الخير أكثر من الشر ، والبشر . والبُشْرَى : فُعْلَى من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبِشْر : طلاقة الوجه . والبَشْرة : ظاهر الجلد . وبين البشرى بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد تفاعلٌ يظهر مرئياً فى السرور وغيره . [المصباح المنير - بتصرف] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» .

وقد أوحى للنبى ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه فى اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً.

والرؤيا ليست هى الحُلْم ؛ لأن الرؤيا هى شىء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل.

والمثل العامى يقول: «الجوعان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان [١].

إذن: فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام [٢].

البشرى - إذن - هى الرؤيا الصالحة ، أو هى المقدمات التى تُشْعر خَلْق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أحبه الله تعالى فى السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام: « إنى أحب فلاناً فأحبَّهْ. قال: فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء فيقول: إن الله يَحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يُوضع له القبول فى الأرض [٣]» .

---

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابىّ جاءه فقال: إنى حلمت أن رأسى قطع فأنا أتبعه ، فزجره النبى ﷺ وقال: « لا تُخْبِرْ بتلعُّب الشيطان بك فى المنام» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٦٨).

(٢) أضغاث الأحلام: الرؤيا التى لا يمكن تأويلها لاختلاطها والتباسها ، والضغث: الحلم الذى لا تأويل له ولا خير فيه ، وفى التنزيل العزيز: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ..﴿٤٤﴾﴾ [يوسف] أى: رؤياك أخلاط ليست برؤيا بينة ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف] أى: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل. [لسان العرب: مادة (ض غ ث)]. وهم قالوا هذا لعجزهم عن تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك ، فلا تكون أضغاث أحلام

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة. واللفظ لمسلم ، وتمامه عنده «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل. ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه. ثم توضع له البغضاء فى الأرض».

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن فى رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هى البشرى.

أو أن البشرى تأتى لحظة أن يأتى مَلَكُ الموت ، فيُلْقى عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

أو ساعة يبيضُّ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى فى الدنيا وفى الآخرة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣١) ﴾ [فصلت]

إذن : فهؤلاء الأولياء [١] يتلقون من فيوضات [٢] الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هى أقل القليل فى التكاليف.

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

---

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلَّوا عن المعاصى وتحلَّوا بالطاعات فتجلَّى سبحانه عليهم بالفيوضات ومن هذا الفيض القبول والرؤيا الصالحة .

(٢) من عطاءات القبول باقى الآيات فى قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا نعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب .

فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلِّى - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع.

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود [١] مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء فى الحديث القدسى :

«من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْلَهُ التى يمشى عليها ، وإن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» [٢].

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس]

(١) ودَّ : أحبَّ . والاسم : المودة . وودود ، أى : مُحبٌّ ، يستوى فيه الذكر والأنثى . [المصباح المنير] .
(٢) المساءة : نقيض المسرَّة ، وأصلها : مسوأة ، على مفعلة ، ولهذا ترد الواو فى الجمع فيقال : هى (المساوى) لكن استعمل الجمع مخففًا ، وبَدَتْ مساويه أى : نقائصه ، والسوءة : العورة ، والجمع : سوءات ، وسمِّيت سوأة لأنها بانكشافها تسوء صاحبها . [المصباح المنير] .
والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) عن أبى هريرة .

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ..﴾ فلن تجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة ؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً فى الدنيا لم يعد مالكاً لشىء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه:

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شىء يتأبَّى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبُشريات فى الدنيا وفى الآخرة فوز عظيم مؤكد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

تجىء هذه الآية بعد أن بيَّن لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاَّ ينفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا: ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَر ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن: كَذَّبَ قولَهم فى أنه ﷺ سحر عبيدَهم وأولادَهم.

وقالوا: مجنون ، ولم يكن فى سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون ، وفنَّد أقوالهم هذه بقوله سبحانه:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ [1] ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾ [القلم]

فالمجنون لا يكون على خُلُق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل ما قال [2] ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون [3] للشعر والأدب والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. ⑥⑤﴾ لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف أمام الدعوة ؛ لأن ﴿.. الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ⑥⑤﴾والعزة هي القوة ، والغلبة ، ويقال: هذا الشيء عزيز ، أي: لا يوجد مثله ، وهو سبحانه العزيز المُطْلَق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغلَب ولا يُقهَر .

وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف «الميم» فوق كلمة ﴿قَوْلُهُمْ﴾ [4] وتعني : ضرورة الوقف هنا .

---

(١) مَنَّ عليه بالعتق وغيره (مَنّاً) من باب قتل . وامتن عليه به : أنعم عليه به . والاسم المِنَّة ، والجمع (مِنَن) والمُنة بالضم : القوة ، وهي من الأضداد . ومننت عليه : أي : عددت له ما فعلت له من الصنائع . وفي هذا تكدير وتعيير تنكسر منه القلوب . لهذا نهى الشارع عنه في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ②⑥④﴾ [البقرة] . ومننت الشيء أيضاً إذا قطعته فهو ممنون . والمنّ : شيء يسقط من السماء . فيجنى . [المصباح - بتصرف] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ③⑧﴾ [يونس] .

(٣) مرتاضون للشعر : أي : لهم دُرْبة على قول الشعر ونَظْمه .

(٤) وهذا هو الوقف اللازم ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ .. ③⑥﴾ [الأنعام] .

ولسائل أن يقول:

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنيٌّ على الوصل ؛ وآخر حرف في كل سورة تجده مُنوَّناً ، وليس في القرآن ما يُلزِم الوقف للقاريء ؟

وأقول رَدّاً على هذا التساؤل: إن العلماء حين لاحظوا ضعف مَلَكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القاريء - الذى لا علم له بالبيان العربى - كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ .. **إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** .. (٦٥) ﴾ إلى ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** .. (٦٥) ﴾ . ويخطيء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هى أمر يُحزِن النبى ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقِّق القراءة ونُحْسِن الفهم.

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ .. **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** .. (٦٥) ﴾ ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ **إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** .. (٦٥) ﴾ ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألاَّ تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغيِّر فى مجرى حتمية انتصارك عليهم.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ فى أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هى البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا**[1] **أَنفُسُهُمْ** .. (١٤) ﴾ [النمل]

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم. واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين. [لسان العرب: مادة (ى ق ن)].

وأقوالهم لن تقف فى سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هى القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجّة ، وقد تكون عزة حلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة فى كل محيطٍ وفى كلّ مجال ، شاملة لكل شىء وأى شىء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر [1] فى هذه الآية ؟

أى : أن تأتى الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول : «لزيد مالٌ ليس لغيره» . وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلّق - فنقول : «لفلان كذا» ، وهذا يعنى أن غير فلانٍ ليس له كذا .

وإنْ قلنا : «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا» .

أما إذا قلت : «لفلان كذا» فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شىء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ ..إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٦٥) ﴾ وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذى يعطى العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائى يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

---

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص ، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ؛ وكل منهما إما حقيقى وإما مجازى . [الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - ٣/ ١٤٩].

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتى قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم [1] العزة لنفسه وقالوا :

﴿ ..لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ..﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن : فالعزة قد ادُّعيت ، وما دامت قد ادعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر ؟

نقول : لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول :

﴿ ..وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ..﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ ..إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً .. ﴾ أى : فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو

---

(١) هو عبد الله بن أبىّ رأس النفاق فى المدينة ، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال : « قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سَمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم » . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١) .

العـزيز ، وإن كـانت عـزة الحلـْم فـهـو الحليم ، وإنْ كـانت عـزة الغـضب والانتقام فهو المنتقم الجبـّار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى :

﴿ .. هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) ﴾ [يونس]

وما دامت العزة هى الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجىء بالسمع ، وإنْ كان فيه فعل ، فهو يأتى بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل .

ونحن نعلم أن المنهىَّ عنه هنا هو : ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ..(٦٥) ﴾[يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿هُوَ السَّمِيعُ ..﴾ أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلـّل على هذه القضية دلالـة كونية فى آيات الله تعالى فى الـكون ، وليـس فى الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلحظ أن قانون «العزة لله جميعاً » محكوم بأن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[1] (٦٦) ﴾

فالحق سبحانه - إذن - لن يَخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه .

وساعة تجد الحق سبحانه يبيِّن الشىء وضده ، فهو يأتى بالقانون والإطار

(١) يخرصون : يتبعون ظنونهم وكذبهم وإفكهم [تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤)] .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٢٨٤) ﴾ [البقرة]

ومثال ذلك : حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبيِّن لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انفلق البحر ، فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم[1] .

فلا شيء يخرج عن مُلكه سبحانه تعالى ؛ ولذلك يأتي الحق سبحانه بالنقيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر ، وكل فِرْق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبيِّن الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً .

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء] .

والفِرْق : الفلق أو الجزء منه . والطود : الجبل الكبير . [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٣٦)] ، و[لسان العرب : مادة (ف ر ق)] .

وهناك مثال آخر: حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه:
﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا..(٤٢)﴾ [هود]

فيردّ الابن قائلاً:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ[1]..(٤٣)﴾ [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه، ولكن ابن نوح نسى أن لله تعالى جندياً آخر هو الموج؛ فكان من المغرَقين.

صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على «الجودى»[2]، وأن من يركبها لن يغرق، وكذلك من يأوى إلى الجبل العالى، لكنه لم يفطن إلى الموج الذى حال بينه وبين الجبل؛ فكان من المغرقين.

إذن: فكل كائن هو مؤتمر بأمر من الله تعالى، وما دامت العزة لله جميعاً فمصداقها أن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض، وليس هناك كائن فى الوجود يتأبَّى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه، فيكون جندياً للإهلاك، وجندياً للنجاة فى نفس الوقت[3].

وقول الحق سبحانه هنا: (ألا) نعلم منه أن (ألا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرَّة، ولا تفوته حكمة من حكم الكلام، وينتبه إلى أن

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ [هود] لقد اعتقد ابن نوح بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق. [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦].

(٢) الجودى: قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة، وهو الذى رست عليه سفينة نوح - عليه السلام. [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦]. وقيل: إنه جبل أرارات فى شرق تركيا بالأناضول.

(٣) يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾ [الفتح] ويقول أيضاً: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ..(٣١)﴾ [المدثر].

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما فى هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿مَن﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرَّدِّ على هذا القائل :

وهل هناك أى شىء فى الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

إذن : فكل الكائنات فى عُرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء بـ «مَنْ» أو بـ «ما» ، وكل من فى الوجود يفهم عن الله .

ونلحظ أن الحق سبحانه يأتى مرة بالقول: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. (٨٣) ﴾ [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه:

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

كما جاء فى هذه الآية التى نحن بصددها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً فى الوجود يوجد فى السماء ويوجد فى الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات[1] أمْراً ، هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما فى السموات والأرض.

(١) المدبِّرات أمراً : هى الملائكة تُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس فى السموات لا يوجد فى الأرض وهم الملائكة المهيمون [1] العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن لله تعالى جنوداً فى الأرض ليس لهم وجود فى السماء ، فإن لاحظنا الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٢٨٤) ﴾ [البقرة]

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين فى السماء ، وجنوداً فى الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ..(٦٦) ﴾ [يونس]

وما دام كل شىء فى الكون مملوكاً لله تعالى فلا شىء يخرج عن مراده سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو تعالى يعمى بصر من يرقب الغار [2] .

إذن : فلن يجير [3] شىء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

(١) المهيمون : الذين يهيمون فى عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم القائمين فلا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يرفعون . وهناك الملائكة الكروبيون ، وهم أقرب الملائكة لحملة العرش الثمانية ، قال عنهم سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر] .

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [التوبة] وأجاره : تكفل بحمايته . قال تعالى : ﴿ ..وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨) ﴾ [المؤمنون] أى : أنه يتكفَّل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجير من يُريد الله عقابه . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث فى هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار وأنبت الله على بابه شجرة وأوجد حمامتين ترقدان على البيض ، وعنكبوتاً كبيراً قد سد باب الغار بخيوط علاها تراب وكأنه تراب السنين .

لا يخدشها خادش من وجود الله فى الكون.

ثم يقـول الحـق سـبحانه:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ.. (٦٦) ﴾ [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء، رغم أن الأصل والحقيقة ألاَّ شركاء له سبحانه.

إذن: فهم يتبعون غير شيء؛ والدليل على ذلك موجود فى طى القضية، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى، ومعنى العبادة أن يطاع أمر وينهى نهى، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهى؛ فليس هناك منهج جاءوا به.

إذن: فلا ألوهية لهم.

إذن: فالأصل ألَّا شركاء لله تعالى، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً ولأوجدوا أوامر، وكان لهم نواه؛ لأن الذى يقول: «اعبدنى» إنما يحدد طريقة وأسلوب العبادة. وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم يكون له منهج، ولن يستطيعوا ذلك، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى: أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التى تضىء والقمر الذى ينير، والمطر الذى ينزل من السماء، والملائكة التى تدبِّر الأمر، لو صدَّقنا أن كل هؤلاء آلهة، فهم سيبحثون عن الإله الواحد الأحد؛ ليأخذوا منه القوة التى ظننتم أنها لهم.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

و هم قالوا إنهم يعبدون الملائكة، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم؛ إذن: فأنتم تتبعون الظن.

لذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ [1] وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [2] (٦٦) ﴾ [يونس]

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يُوجدوا في القرآن ظاهر تعارض ليشكِّكوا فيه، قالوا: إن هذه الآية مثال على ذلك؛ فيقولون: في بداية الآية يقول: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

فينفي أن المشركين يتبعون شركاء لله، ثم يأتي في آخر الآية فيقول إنهم يتَّبعون الظن والخرص، ففي أولها ينفي الاتباع، وفي آخرها يثبته.

---

(١) الظن: ما يحصل في النفس عن أمارة، فهو شك راجح وفعله من أفعال الرجحان، من باب نصر. والظن مصدر، والظن: اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس. قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] وجمعه: ظنون. ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] بمعنى تيقنت. [القاموس القويم - بتصرف].

(٢) الخرص: الكذب والقول بغير علم. وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) ﴾ [الذاريات] قال الزجاج أي: الكذابون. [لسان العرب: مادة (خ ر ص) - بتصرف].

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً فى الآية ، فالله سبحانه ينفى أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله فى ملكه ، فللّه من فى السموات ومن فى الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتَّبعون الظن والخرص والتخمين.

ونقول: ما هو الظن؟ وما هو الخرص؟

إن الظن حكم بالراجح كما أوضحنا من قبل فى النسب من أن هناك نسبة إنْ لم تكن موجودة فهى مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإنْ كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك. وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً.

الظن - إذن - حكم بالراجح. والخَرْص: هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) ﴾ [يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتى بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتَّبعون الظن والخرص.

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان: قسم يُعْلم حقيقة الشيء ، ولكنه يغيّر الحقيقة إلى إفك[1] وإلى خَرْص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

(١) أفكَ ، يَأفَك ويأفك - من باب « فرح» و« ضرب» : كذب وافترى باطلاً والإفك بكسر الهمزة : الكذب : وأفاك صَيغة مبالغة أى : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) ﴾ [الجاثية] . [القاموس القويم] بتصرف .

إذن: فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبَع - بفتح الباء - المُتَّبَع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتو، يشوه الحقيقة ويزينها، أما المتّبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أمناء فأخذ كلامهم بتصديق.

إذن: فالمتبع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته، أما المتبع (بفتح الباء) فيكون الخَرْص والكذب والافتراء من ناحيته؛ ولذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾ [البقرة]

هؤلاء - إذن - يصدِّقون ما يقال لهم؛ لأنهم أميُّون، والكلام الذى يقال لهم راجح، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح.

أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(٧٩) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء هم الذين يأتى منهم الخَرْص والإفك وقول الزور والبهتان[1].

إذن: فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن، وينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ..(٦٦) ﴾.

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) ﴾.

---

(١) البهتان: الافتراء و الكذب. قال تعالى: ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه .. (١٢) ﴾ [الممتحنة] [لسان العرب: مادة (ب هـ ت)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيَّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدَّعيه الكافرون فى نبىٍّ الرسالة ، وبعد أن بيَّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتى بالكلام عن آياته سبحانه فى الكون تأييداً للمطلوب بالموجود.

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلِّغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعاً لنا ، وإنْ أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التى وجدت للإنسان من قبل أن يُكلَّف ، أهى فى مصلحته أم فى غير مصلحته؟

ومادامت الآيات الموجودة فى الكون - والمسخَّرة للإنسان - تفيد الإنسان فى حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلَّفاً.

إذن: فالله سبحانه لم يكلِّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع.

فإذا ما جاء لك التكليف ، فَقِسْ ما طُلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونيةَ التى سبقَت التكليف نافعة لكَ قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فَخُذْ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلب منك تكليفاً ، فكما نفعك فى الأولى ، فالحق سبحانه

سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبلْ حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد[(١)] .

ونحن نعلم أن الأصل فى الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت فى مراداتك ، ثم تجىء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يُصْلِح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمنى للراحة ، وأنت فى حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذى تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبيَّن لنا أنه كما قسَّم الوجود الإنسانى إلى مرحلتين :

الأولى : هى ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هى ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسَّم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** .. (٦٧) ﴾ [يونس]

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة فى الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله[1] .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك فى أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها[2] ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقّاً فى الراحة .

وكذلك عُمْر الإنسان ، لم يكلِّف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذبْ» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

---

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمندوبات والمستحبات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه باللجام ، وضرب فاها به ؛ كى تقف ولا تجرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

ويبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين »[1] .

والذى يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذى يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذى يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة.

وحين يكلِّف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذى يقضى حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهى من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول فى النفس.

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه.

إذن: فالأمر والنهى قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهى من ربه ورب أبيه.

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضى حركة فى «افعل»و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبيِّن لنا الله سبحانه أنه جعل فى «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكلٍّ مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شىء مكان شىء آخر ؛حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل فى المخابز ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه فى آية ثانية:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. واللفظ لأحمد.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ..(٢٣) ﴾ [الروم]

لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام[1] بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطىَّ القدرىَّ ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ.. (٦٧) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخَلْق» ، و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خَلَق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً[2] .

إذن : فالجعل هو توجيه شىء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو مُنزَّه عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخَّار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

(١) نام فلان نومًا : اضطجع أو نَعَسَ وإليه سكن واطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأنامه : أرقده ، ونوَّم فلان : أرقده . والتناوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام واطمأن . والنوم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والثبات فى التفكير والتركيز . [المعجم الوجيز - بتصرف] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص] .

إبريقاً أو أصُصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحوّل مخلوقاً إلى شيء له مهمة .

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجّه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه .

أي : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدى مهمة للمخلوق .

وفي حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً .

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة . والخلق قد يترتب عليه ملْك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملْك ؛ فمن عمل قدْراً من الطين هو مَالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه .

وهكذا نجد الخَلْق والجَعْل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلّلها لنا ، وملّكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : «ملْك» فملكيته سبحانه لا تنتهي لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظَل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى .

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً .. (٦٧) ﴾ [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتى هنا بالأداء القرآنى المعجز فقال: ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ .

فهل النهار هو الذى يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصِر أم مُبصَر فيه؟

وقديماً لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التى وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء [1] يخرج من العين إلى المرئى فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربى المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئى إلى العين ، بدليل أن المرئى إن كان فى النور وأنت فى الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه .

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيَّن لنا أن النهار إنما يأتى بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه .

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائى إلى العيون.

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

---

(١) الضَّوء - بفتح الضاد والضُّوء - بضمها والضياء ، والضِّواء : النور الذى ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يُخص الضوء لما كان صادراً من شىء مضىء بنفسه كضوء الشمس ، وقد يُخصص بالنور لما كان مستمداً من ضوء ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً .. (٥) ﴾ [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ..(٣٧) ﴾ [فصلت]

ويقول:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا [1] آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ..(١٢) ﴾ [الإسراء]

وهى مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت فى ظاهر الأمر مُبْصَرٌ فيها.

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك فى قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله:

﴿ ..خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ [2] (٢١) ﴾ [طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هى تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون.

---

(١) جعل الله لليل آية وهى القمر ، وجعل للنهار آية وهى الشمس ، وجعل آية النهار مبصرة أى : منيرة تنير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذى فيه . بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧).

(٢) أى : سنعيدها كما كانت (عصا).

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ[1] .. (١٢) ﴾ [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصديرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمِّى الجيب الذى نضع فيه النقود جيباً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة .

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ..(١٢) ﴾ [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ..(١٣) ﴾ [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة[2] وكأنها تقول للعين : أبصرينى .

---

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] .

(٢) بَصُرَ به : رآه ببصره ، فهو بصير ، وبَصُرَ بالأمر : عَلِمه كأنه رآه ببصره . وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] أى : رأته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] أى : انظر وترقَّبْ . وأبصره : جعله يُبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى ، والبصير : مَنْ له عينان يُبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ..(٥٠) ﴾ [الأنعام] والبصيرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضىء . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧) ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿ ..إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف] أى : عارفون الحق . [القاموس القويم - بتصرف] .

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يقول الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧)﴾ [يونس]

ولم يقل: لتتحركوا فيه، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة، فقال سبحانه: ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذى ينعكس على الأشياء هو الذى يحفظ للإنسان سلامة الحركة.

ولكن البعض من الناس فى زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء فى الإسراف فى السهر، وحين يأتى الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الفيديو) أو فى غير ذلك من أمور الترفيه، ثم ينامون فى النهار، وينسون أن الليل للرقود، والنهار للعمل. وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام، فالضوء يؤثر فى الكائن الحى، وقد سبق النبى ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال:

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»[1]؛ وذلك حتى لا ينشغل الجسم بإشعاعات الضوء التى تتسبب فى تفاعلات كيماوية فى الجسم.

لذلك أقول دائماً: خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه؛ لأن السهر ضار، وإذا ادَّعى الإنسان أنه هو الذى تحضَّر، فليحترم قيمة العمل الذى يصنع الحضارة؛ لأن الآلة التى يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هى إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة، واحترام قيمة العمل فى النهار، وقيمة الترفيه فى الوقت المخصص.

نحن نسيء استخدام أدوات الحضارة، فالزمن الذى وفَّرته الثلاجة للزوجة؛ حتى لا تقف فى المطبخ نصف النهار لتعد الطعام، وصارت

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٨٨) عن جابر بن عبد الله، واللفظ للبخارى.

تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها فى الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهى الغسيل فى ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام (التليفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء.

وهكذا يسىء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفى هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر.

وعلى سبيل المثال: أقول لمن يركب سيارة: إياك أن تسرع بها فى طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية.

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان فى الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء.

ويجب ألاَّ نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدُّم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضُّراً منه.

إذن: فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا.

ولذلك قلنا فى تفسير قول الحق سبحانه:

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى: تغطيته للمرئيات) وتجلِّى النهار (أى: كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل]

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول: هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني: هو الإنسان ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (1) ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

أى: أن حركتكم هى الموصِّلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى: مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ؛ فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول.

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلىٰ ذلك إلا بعد مرارة التجارب.

وهناك مثال آخر: فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضِّرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول: إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المنتجة فى النهار.

---

(١) شت الجميع يشتُّ شتّا ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شتٌّ متفرق وجمعه أشتات . قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل] أى : متنوع منه الحسن ومنه السيء وقوله : ﴿ .. أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصرف] .

إذن: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان فى الزمان أو فى الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين.

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنهى الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧ ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: لم يقل «إن فى ذلك لآيات لقوم يبصرون» .

ونقول: لننتبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيِّن فى هذا الزمان مهمته ، وهو القائل فى صدر الآية ووسطها :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ۝٦٧ ﴾ [يونس]

فالعلَّة فى هذه الآية هى سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين فى الليل لا تؤدى مهمتها ، بل السمع هو الذى يؤدى مهمته .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا [1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ ﴾ [القصص]

أى: أن أحداً لن يستطيع الحركة فى مثل هذا الليل السرمدى ولا أحد سيتبيَّن شيئاً.

---

(١) السرمد: دوام الزمان من ليل أو نهار. وليل سرمد: طويل. قال الزجَّاج: السرمد الدائم. [لسان العرب: مادة (س ر م د)].

والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

إذن: فقد جاء الحق سبحانه في آية الليل بالسمع[1] ، وجاء في آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة في الليل ، يأتي الكلام عن الينبوع الذي يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول.

وكما تتحرك في النهار ، وترتاح في الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد ، وهو الله تعالى الذي تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة.

والله سبحانه يقول:

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

(١) وهنا يلفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآني في أسراره ، حيث وضع الحاسة في مكان وظيفتها التي تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدي مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار في كتاب الله بلاغة بيان ، ومعنى يرقى.

ونفس نص الآية الكريمة يكذِّبهم فيما يدَّعونه .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : «اتخذ فلان بيتاً» أى : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ..(٦٨) ﴾ [يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال : عزير ابن الله وهم اليهود [(١)] وقد كذَّبهم الله سبحانه فى ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله [(٢)] ، وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك [(٣)] .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد ؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلما يقال حين يواجه شيخٌ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغى أن يكون

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ..(٣٠) ﴾ [التوبة] .

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة] .

المحرِّك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض فى تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من آمر واحد يُسْلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه فى ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزَّه فى صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه فى أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله [1] .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهَّم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم :

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد .

ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ [2] (٢٢) ﴾ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتى ؛ ولذلك يأتى فى وسط الآية ويقول تعالى :

---

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

(٢) ضاز فى الحكم : أى : جار . وقسمة ضيزى وضوزى أى : جائرة ليس فيها حق ولا عدل . [لسان العرب : مادة (ض ى ز) - بتصرف] .

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٦٨) ﴾ [يونس]

وسبحانه تعني: التنزيه ، وهو الغني أي: المستغني عن مُعين كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهي ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر:

* ابني يا أنا بعد ما أقْضَى *

ويقال: «من لا ولد له لا ذكْر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر في الحياة في ولده.

ولذلك حين يأتي الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن الذِّكْر في جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنيٌّ عن الاستعانة ، وغني عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أي لون من ألوانها.

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة: ﴿سُبْحَانَهُ[1]﴾ لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتْبِع ذلك بقوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لأنه

---

(١) سَبَح يَسْبَحُ من باب فتح: سَبْحا ، وسباحة: عام ومرَّ في الماء . ومن المجاز سبح الجواد ، أي جرى كأنه يسبح في الماء ، ومن المجاز سبحت النجوم ، أي: سارت في أفلاكها . قال تعالى: ﴿ .. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] وعوملت معاملة العقلاء لانتظامها في سيرها . وسبِّح اسم ربك: نزِّه اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل: سبحان الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه بالكمال ، وهو منصوب على المصدرية ، ومصدر نائب عن فعله . [القاموس القويم - بتصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنَزَّه عن مشاركة شيء له - في الذات أو الأفعال .

وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى في البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففي ذاته سبحانه .

وأنت حي[1] والله سبحانه حي ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتيٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِيٌّ .

وإذا قال الحق سبحانه :

إن له - سبحانه وتعالى - يداً ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠) ﴾ [الفتح]

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلَّى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التي

---

(١) حَيِيَ يَحْيا ، كرضي يرضى وحيّ بالإدغام يحيا حياة وحيواناً ضد مات فهو حي ، وهو خاص بكل ذي روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٩) ﴾ [فاطر] ويستعار أيضاً لمعنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام] والحي من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿ .. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ [آل عمران] والمحيا : مصدر ميمي بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام] أي : حياتي وموتي .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التى يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهناً بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتى بمسألة فى الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ فى المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّه عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذى لا ينقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلِّمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شىء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية فى الله تعالى ، قبل أن يوجد شىء ، وبعد أن خَلَق الخَلْق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق فى التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن فى السور التنزيهية [1] تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

---

(١) فتجد التسبيح فى الماضى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ [الحديد] وفى المضارع : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ [التغابن] وفى الأمر : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ①﴾ [الأعلى] وفى المصدر سبحانه ، وبهذا نلاحظ أن الماضى يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن فى تسبيح مستمر : ﴿.. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ④④﴾ [الإسراء] .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..(١) ﴾ [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذى أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان.

وأنت إذا سرْت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة فى أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ فى الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة فى ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق.

أى: أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قَلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذى أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببُعْد أو قُرْب المكان أو كيفية الزمان الذى تعرفه.

وإياك أن تفهم أن إسراء الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يَحُدَّ أفعاله بزمن.

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم فى أدق شىء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أسْرِىَ به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس [1] قد خُرق له ، وحدَّثنا عما نعلم لنصدِّق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم.

كلمة «سبحانه» -إذن - هي للتنزيه ، وهي لله تعالى أزلاً قبل أن يَخلق الخَلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ، ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه.

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبِّحوا ، ففي سورة الحديد يقول سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(١) ﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١) ﴾ [الحشر]

فهل سبَّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن]

---

(١) نواميس الكون : الأسرار التي أودعها الله - سبحانه وتعالى - في الكون ، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته.

إذن: فالسبحانية لله أزلاً، وسبَّح ويسبِّح الخَلْق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ..(٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتى فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة، إما استعانة، وإما اعتماداً، وإما اعتداداً، وإما امتداداً، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه، وهو الحق الأعلى، وهو سبحانه القائل فى آية أخرى:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة]

والقنوت [1] معناه: الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته.

ويقول سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

و«إنْ» قد تأتى للنفى فى مثل قول الحق سبحانه:

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ..(٢) ﴾ [المجادلة]

وفى قول الحق سبحانه هنا:

---

(١) قنت يقنتُ كنصرَ - ذل وخضع ليده، وقنت المؤمن بالله: أطاعه وأقر له بالعبودية، وقنت فى صلاته خشع واطمأن، وقنت دعا وأطال الدعاء، والقنوت الطاعة والدعاء. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] وقوله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة] أى: خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون - [القاموس القويم - بتصرف]

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ..(٦٨) ﴾ [يونس]

أى: ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك، فلا إعلام عن الله إلا من الله، وليس لأحد أن يُعْلِم عن ربه، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان، فهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا [1] (٩) ﴾ [الشمس]

وهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً:

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى، فمقومات وجود الكائن الحى: نَفَس، وماء، وطعام،

---

(١) زكاها: طهرها وبرأها من أقذار البدن والنفس.

والتنفس يأتى من الهواء الذى يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب فى باطن الأرض. والطعام يأتى من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة.

لذلك نقول: إن الفلاَحة هى السبب الاستبقائى للحياة ، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض ، ويشَقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال: أفلح ، أى: أنتجت زراعته نتاجاً طيباً.

وشاء الحق سبحانه أن يسمِّى الحصيلة الإيمانية الطيبة بالفلاح.

وبيَّن لنا رسول الله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد.

وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً فى الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّى لك ما عندك [1].

والمثل الذى أضربه دائماً – ولله المثل الأعلى – نجد الفَلاَّح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور فى الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له: «أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ »

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردبَّ القمح الـمُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردبّاً من القمح.

كذلك مطلوب الله سبحانه فى الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها.

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال] وقوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (١٧)﴾ [التغابن]

إذن: فالفلاح مادة مأخوذة من فلح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة.

وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن العمل، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا.

ومثال ذلك: الفلاح الذى يحرث الأرض، ويحمل للأرض السماد على المطية [1]، ثم يستيقظ مبكراً فى مواعيد الرى، تجد هذا الفلاح فى حالة من الانشراح والفرح فى يوم الحصاد، وأمره يختلف عمن يهمل الأرض ويقضى الوقت على المقهى، ويسهر الليل أمام التليفزيون، ويأتى يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذى لم يحسن زراعته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [2] (٦٩) ﴾ [يونس]

أى: هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو فى الله تعالى بغير علم من الله، هم الذين لا يفلحون.

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعْلَم عنه إلا عن طريق الله. لكن ما الذى يحملهم على الافتراء؟

نعم، إن كل حركة فى الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً، وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه، فالطالب الكسول المتسكع فى الشوارع، الرافض للتعلم، نجده راسباً غير موفق فى مستقبله، أما التلميذ الحريص على علومه، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به فى المجتمع، والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته، بل قصر النفع على لذة عاجلة مُضحِّياً بخير آجل.

---

(١) المطية: الدابة، وهى الناقة التى يُركَب مطاها أى: ظهرها. وجمعها: مطايا. [لسان العرب: مادة (م ط ى)].

(٢) يفترون الكذب: يكذبون، أو يقولون بغير علم. لا يفلحون: لا يفوزون ولا ينتصرون. قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه].

والذى جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة فى مجتمعه .

والمثل الذى ضربته من قبل بحَلاَّق الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخرَّجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع عِلْم الطبيب .

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجَأون بمَقْدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة [1] لنفسه ، رغم أن أىَ رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مَقْدمُ النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبىّ ليكون مَلكاً [2] ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال قولته التى سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : « والله ولو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) .

(٢) أورد ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا «قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملّكوه عليهم، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِراً على نفاق وضغن» سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً.

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يُسوِّى بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب :

﴿ مَتَٰعٌ[(١)] فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داعٍ جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعى الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه.

ولو كان الداعى إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى.

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذى يدافعون عنه أنه :

(١) المتاع : التمتع ، وهو كل ما ينتفع به ويرغب فى اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوى عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سيعاقبهم على كفرهم بالعذاب الشديد فى الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبى نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته».

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ..(٧٠)﴾ ؛ لأن كُـلاً منهم يحب أن يقنع نفسه ، بحُمْق تقدير المنفعة ، وكلمة «الدنيا» لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه.

والأسماء - كما نعلم - هى سمات مسميات ، فحين تقول: إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول.

وحين تقول: «دنيا» فهى من «الدُّنُوِّ» أو « الدناءة» .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القمة ، فهذا أمر مقبول ؛ لأن الدرجة الأولى فى الوصول إلى الأعلى هى الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد عُلواً وارتفاعاً إلى الآخرة.

إذن: فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له: لا ، بل هى دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هى الدنيئة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذى أفلح باتِّباع منهج الله تعالى.

إذن: فالدنيا ليست من الدناءة ؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك بـ «افعل» و «لا تفعل» فى الدنيا ، والآخرة هى دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعه ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إنْ جعلتها مزرعة للآخرة.

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا [1] عمرها ملايين السنين ؛ لأنه لا يعنيك كعائش فى الدنيا إن طال عمرها أم قَصُرَ ، بل يعنيك فى الدنيا مقدار مُكْثك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله

(١) وقد وصف لنا رب العزة سبحانه الدنيا فقال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ..(٧٧)﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلٌّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خَلْقه ، وهؤلاء المُضلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا.

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن فى الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالمآب والمآل [1] إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وان كان المعذِّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذِّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [2] ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنيُّ الذى له ما فى السموات والأرض ، وبيَّن لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع فى الكون يؤيد الكلام النظرى ، فهذا دليل على صحة الكلام النظرى ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخِّم مسألة من

---

(١) المآب والمآل : المرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أى : شديد الألم .

المسائل فى داء اجتماعى ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أى : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيِّن الأمر النظرى فى واقع متخَيَّل.

ويقص علينا الحق سبحانه فى القرآن قصصاً من الموكب الرسالى ؛ ليبيِّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعانَدين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق فى أن يكون لهم أمل فى الانتصار على رسول الله ﷺ [1].

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالى. ولكن قد يكون علم هذا قد بهت؛ لأن الزمان قد طال عليه.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ [2] ﴿٧١﴾ ﴾

---

(١) وقد جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث الكافرين وغيرهم على النظر فى عاقبة المكذبين والمجرمين، نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل].

(٢) كبر : عظم وشق عليكم. مقامى : إقامتى بينكم. تذكيرى بآيات الله : دعوتى إياكم إلى الإيمان بالله تعالى. فعزمتم على قتالى وطردى، فبالله آمنت، وبه وثقت، وعليه اعتمدت وتوكلت. فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تعزمون عليه وادعوا شركاءكم. غمة : ملتبساً مبهماً، أى : كونوا جميعاً يداً واحدة ضدى، واقضوا إلىَّ : أى : امضوا إلى ما فى أنفسكم وافرغوا منه. ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون. وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته فى نصرته إياه هى التى دعته لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدى؛ فكان نصر الله له، والغرق والهلاك لأعدائه بالطوفان. [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف].

ولقائل أن يقول : ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم -عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهُمَا من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة فى أن آدم لم يكن رسولاً ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفطن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يُرْسَل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مُرسَل لنفسه ، ثم يبلِّغ من سوف يأتى بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - فى الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ..(٣٥)** ﴾ [البقرة]

وحَذَّره من الشيطان [1] ، ثم وقع آدم عليه السلام فى إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباه [2] ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

---

(١) الشيطان : كل عاد متمرد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغريه بالشر إلا من حفظه الله بإيمانه يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) ﴾ [الحجر] أى : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا .. (٦) ﴾[فاطر] وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباه : اصطفاه واختاره، ومصداقه قوله تعالى عن آدم : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) ﴾ [طه].

إذن: فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته فى الأرض ؛ فى نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده.

وكما علَّمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علَّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا: وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلَّمه المنهج ؛ ليحسن العمل فى الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه]

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ ..(١٢٢) ﴾ [طه]

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى .. (٣٨) ﴾ [البقرة]

والهدى: هو المنهج المنزَّل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابنى آدم فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [1] .. (٢٧) ﴾ [المائدة]

وهما قد قدَّما القربان إلى الله تعالى.

إذن: فخبر الألوهية موجود عند ابني آدم بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة]

إذن: فهم قد أقروا بوجود الله تعالى، وأيضا عرفوا النهي؛ لأنه في إحدى الآيتين قال:

﴿ لَئِن بَسَطتَ [2] إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) ﴾ [المائدة]

إذن: فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد، وعلموا المنهج.

إذن: فالذين يقولون: إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولاً، نقول لهم: افهموا عن الله جيداً، كان يجب أن تقولوا: هذه مسألة لا نفهم فيها، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْر ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول، وأن من أولاده قابيل وهابيل، وقد تكلما في التقوى.

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح، عليه السلام، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

---

(١) القربان: هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الآلهة المزعومة، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غنم، فقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب أشر حرثه غير طيبة بها نفسه، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذي قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢).

(٢) بسطت: مددت.

الـمُبلِّغ له ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن ونشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام.

وهنا يأتى لنا الحق سبحانه بخبر نوح - عليه السلام - فى قوله:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. (٧١) ﴾ [يونس]

والنبأ: هو الخبر الهام الذى يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح.

والحق سبحانه يقول:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [النبأ]

إذن : فالنبأ هو الخبر الهام الـمُلْفت ، وقد جاء هنا خبر نوح - عليه السلام - الذى يُبلِّغ قومه أى: يخاطبَهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلِّغ منهجاً.

وكلمة ﴿قَوْمِ﴾ لا تطلق فى اللغة إلا على الرجال [1] ، يوضح القرآن ذلك فى قول الحق سبحانه:

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..(١١) ﴾ [الحجرات]

إذن: فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على الستر ، والحركة فى الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك فى حديث الحق سبحانه لآدم - عليه السلام - عن إبليس ، فقال تعالى:

(١) القوم: جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : «ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء».

﴿ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه: ﴿ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه]

ولم يقل: فتشقيا؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التى خارج البيت والتى تتطلب مشقة، فالمرأة تقرُّ[1] فى البيت؛ لتحتضن الأبناء، وتُهيِّىء السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار.

أما القيام والحركة فللرجل.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه]

إذن: فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود.

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. (٧١) ﴾ [يونس]

وهنا يُحنِّن نوح قومه بإضافات التحنن، أى: جاء بالإضافة التى تُشْعر المخاطبين بأنه منهم وهم منه، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله، مثل قول النائب الذى يخطب فى أهل دائرته الانتخابية: «أهلى وعشيرتى وناخبىّ» وكلها اسمها إضافة تحنن.

وكذلك مثل قول لقمان لابنه:

﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

---

(١) القر فى البيت: الاستقرار فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ (٣٣) ﴾ [الأحزاب].

وقوله :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ [1] فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان]

وقوله :

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق .

﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

و«الكاف والباء والراء» تأتى لمعنيين :

الأول: كبر السن ، وهى : كبر يكبر .

والثانى: العظمة والتعظيم ، إلا أن التعظيم يأتى ليبيِّن أنه أمر صعب على النفس ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. كَبُرَتْ [2] كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]

أى: أن هذه الكلمة التى خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق ، وهى قولهم :

---

(١) مثقال حبة من خردل : زنة حبة من خردل . والخردل : نبات عشبى ينبت فى الحقول وعلى حواشى الطرق، تستعمل بزوره فى الطب، ومنه بزور يتبل بها الطعام . الواحدة خردلة . ويضرب به المثل فى الصِّغر، فيقال: ما عندى خردلة من كذا . [المعجم الوسيط : مادة (خ ر د ل)].

(٢) ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف] أى: أن قول الكفار بأن لله - سبحانه وتعالى عما يقولون - ولداً، قول فيه خطأ كبير؛ لأن الله سبحانه منزه عن الصاحبة والأولاد، وعن الشركاء والأنداد. قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم] . وقال سبحانه: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس] من إثبات الولد له، والولد يقتضى المجانسة والمشابهة، والله تعالى لا يجانس شيئاً، ولا يشابه شيئاً.

﴿ ..قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ [الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهى مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ..﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

أى : عَظُم على المشركين ، وصَعُب على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهى تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهى تشق عليهم .

وهنا يأتى على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي [1] ..﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

---

(١) المقام : مصدر ميمى بمعنى القيام واسم مكان القيام الحسى ، ويطلق مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ، وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله : ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ ..﴿٧١﴾ ﴾ [يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمى .
والمقام (بالضم) مصدر ميمى من أقام الرباعى المزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين فارجعوا إلى بيوتكم . . [القاموس القويم - بتصرف] .

أى : أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم .

أو أن : ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى .. (٧١) ﴾ [يونس]

تعنى : أنه حمَّلهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك .

إذن : فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم .

أو أن الأصل فى الواعظ أو المبلِّغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له فى راحة .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى : إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه .

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى : أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً .

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافة تقتضى أن يسمِّى من يَخْلُفُهُ من بعده ، قال له بعض الناس : لماذا لا تولى علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب : بحسب

آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد. ثم أضاف: أعلم أنكم مَلَلْتُم حُكْمى ؛ لأنى شديد[1] عليكم .

إذن: فقد أحس نوح - عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين: هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذى يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التى ألفوا عبادتها.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ . . (٧١) ﴾ [يونس]

أى: أننى لن أتنازل عن دعوتى ، ونلحظ أنك إن قلت: «توكَّلتُ على الله» فقد يعنى هذا أنك قد تقول: وعلى فلان ، وفلان ، وفلان ، لكنك إن قلت: ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ . . (٧١) ﴾ [يونس]

فأنت قد قصرت توكُّلك على الله فقط.

وهكذا واجه نوح - عليه السلام - قومه ، ورصيده فى ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً . . (٧١) ﴾ [يونس]

ومعنى جمع الأمر : (أى: جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد) ، أى: اتفقوا يا قوم على رأى واحد ، وأنتم لن تضرونى. وجمع أمر الأجيال التى ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة.

---

(١) فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يردها مُلكاً وإنما أرادها للرأى والشورى ليضرب المثل للأجيال أن الأمر فى حياة الاستقرار للشورى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ . . (٣٨) ﴾ [الشورى] ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريده ، وما يراد منه .

وقد ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ، أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين [1] بحمْل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج - أيضاً - مع القوم الكافرين ، وناداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن يؤمن ، فرفض ، وآثر أن يظل فى جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ، ولم ينظر ابن نوح إلى جندى آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة فى سبيل الوصول إلى الجبل ، وهو الموج.

إذن: فقول نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ..(٧١) ﴾ [يونس]

له رصيد إيمانى ضمنى ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن الخلق كله - جماده ونباته وحيوانه - إنما ينصاع لأمر الله تعالى فى نصرة نوح - عليه السلام - ولن يتخلف شىء.

هكذا كان توكُّل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما فى هذا التوكل من الرصيد الإيمانى المتمثل فى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٢٠) ﴾ [المائدة]

و﴿ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..(٢٨٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود] فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل : كانوا عشرة. وقيل غير ذلك. وأيّاً كان عددهم فهو قليل جداً بالنسبة لمدة مكث نوح فيهم.

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه.

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في «كن» إلا الإنسان المختار ، لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ، ولكان كل البشر من جنود الحق.

وقد قال نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ [1] .. (٧١) ﴾ [يونس]

والإنسان حين يهمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ، ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان خواطره كلها في خاطر واحد ، فهذا يعني استقراره على رأي واحد ، وجمع أمره عليه.

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأي ، فإن اجتمعوا وقرروا الاتفاق على رأي واحد ، فهذا جمعٌ للأمر.

والاتفاق على رأي واحد إنما يختلف باختلاف هويّة المجتمعين ، فإن كانوا أهل خير فهم ينزلون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر.

ومثال ذلك : أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا :

---

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها :
١- مفعول به لفعل مضمر تقديره : وادعوا شركاءكم.
٢- مفعول معه ، أي : أجمعوا أمركم مع شركائكم.
٣- معطوف على أمركم ، فتكون أجمعوا بمعنى العزم على فعل الشيء وكذلك جمع الشركاء.
وفي ضبط «شركاءكم» تفصيل انظره في تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٩٠).

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ [1] لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ..(٩) ﴾[يوسف]

أى: أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة ، فقالوا لبعضهم البعض:

﴿ وَتَكُونُوا من بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ [2] (٩) ﴾ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفَّذوا القتل ستصبح مقبولة.

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر ؛ لأنهم أبناء نبوّة ، وما يزالون هم الأسباط [3] ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحدٌ منهم: لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا ..(٩) ﴾ [يوسف]

أى: أنه خفَّف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة فى نزول الأخيار عن الشر الأول ، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى ، وهو طرحه أرضاً ؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس ، وجاء اقتراح :﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ [4] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة.

---

(١) يخل : فعل مجزوم لأنه جواب الأمر، معناه: يخلص ويصفو. [تفسير القرطبى : (٤/ ٣٤٥٢)].

(٢) قوماً صالحين: أى: تائبين . وقيل : ﴿صَالِحِينَ﴾ أى: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٤٥٢)].

(٣) الأسباط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى بنى إسماعيل، فالأسباط هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً. ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط . انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٨٧).

(٤) غيابة، أى: مكان مظلم من الجب. والجب: البئر. أى: ألقوه فى موضع مظلم من الجب؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن، قاله وهب بن منبه. وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً. والسيارة: الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد؛ ويحصل المقصود، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم؛ فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم . [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٤٥٣، ٣٤٥٤)].

إذن: فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل.

ومثال ذلك: رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرَب من آخر ، فيفكر للحظة فى أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس) ، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر فى صفعه صفعتين ، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر فى توبيخه ، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفى بالشكوى لوالده ، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير.

أما إن كان الرجل من أهل الشر ، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه ، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو ، ثم لا ترضيه فكرة الصفع ، فيفكر فى أن يضربه ضرباً شديداً ، ولا ترضيه هذه الفكرة ، فيقول لنفسه: «سأطلق عليه الرصاص» . وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم ، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه ، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم ، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه ؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه ، ولن ينتصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم.

أو أنه مثلما يقول العامة : «أعلى ما فى خيولكم اركبوه» أى: أنه يهددهم ، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى.

ولا يكتفى بذلك بل يضيف:

﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [1] .. (٧١) ﴾ [يونس]

والغمة: منها الغمام، ومنها الإغماء، أي: فقد الوعى وسَتْر العقل، أي: أنه قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم، بل افعلوا ما يحلو لكم، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون.

إن عليكم أن تجتمعوا على رأى واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون عليهم، وتعبدونهم، أو شركاؤكم فى الكفر، ولم يأبَهْ نوح - عليه السلام - بتقوية العصبية المضادة له؛ لأنه متوكل على الله فقط.

لذلك يقول: ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس]

أى: أنه يُحفِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم - سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقرانهم فى الكفر - وأن يصمموا على المضىّ فى تنفيذ ما اتفقوا عليه.

و«قضى» أى: حكم حكماً، لكن الحكم على شيء لا يعنى الاستمرار بحيث ينفذ، فقد يُقضَى على إنسان بحكم؛ ويوقف التنفيذ.

لكن قوله: ﴿اقْضُوا إِلَيَّ﴾ يعنى: أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ ما قضيتم به.

ثم يقول: ﴿وَلا تُنظِرُونِ﴾ أى: لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به علىَّ.

والمتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً، فهو أولاً يطلب أن يجتمعوا على أمر واحد، هم وشركاؤهم، ثم لا يكون على هذا الأمر

---

(١) غُمَّة وغُمّ سواء، ومعناه: التغطية، من قولهم: غم الهلال إذا استتر، أى: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً تتمكنون فيه مما شئتم، ليس كمن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد. وهذا دليل على ثقة نوح عليه السلام من ربه سبحانه، ونصره إياه على قومه الكافرين. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٩٠].

غُمَّة [1] ، ثم اقضوا إلىَّ ما اتفقتم عليه من حكم ونفِّذوه ولا تؤجلوه ، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ، ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقِّى فى التحدى ، فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم الإبطاء فى تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى قبول تنفيذ الحكم.

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ، وصفحت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على الأرض ، تجد الشاعر العربى يقول عن «بنى ذُهْل» الذين أتعبوا قوم الشاعر كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر [2] :

صَفَحْنا عن بنى ذُهْلٍ ... وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيامُ أنْ يرجعـ ... ـنَ قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشرُّ ... فأمْسَى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ... ن دنَّاهم كما دانوا
مَشَيْنا مِشْيةَ الليثِ ... غَدَاً والليثُ غضبانُ

---

(١) غم الشيء يغمه - كنصر - غماً : أخفاه وغطاه وستره وغمه الأمر : كربه وأحزنه ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس] وقال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ .. ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف]

(٢) هو شهل بن شيبان ويلقب بالفِنْد الزِّمّانى ، توفى نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل . شاعر جاهلى سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بالقطعة من الجبل وهى الفند . (الأعلام للزركلى ٣/ ١٧٩).

بضرب فيه توهينٌ وتخضيعٌ[1] وإقرانُ
وطعنٍ كفم الزقِّ[2] غدا والزقُّ ملآنُ
وفى الشرِّ نجاةٌ حيـ ـن لا يُنجيكَ إحسانُ
وبعضُ الحلْمِ عند الجهـ ـلِ للذِّلَّة إذعانُ[3]

إذن: فالمناجزة بين نوح - عليه السلام - وقومه اقتضت التشديد ، لعل بشريتهم تلين ، ولعل جبروتهم يلين ، ولعلهم يعلنون الإيمان بالله تعالى ، ولكنهم لم يرتدعوا.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ[4] فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ[5] إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[6] ﴿٧٢﴾ ﴾

أى : إن توليتم عن دعوتى لعبادة الإله الحق ، فأنا لا أدعوكم إلى مثيل لكم هو أنا ، بل أدعوكم إلى من هو فوقى وفوقكم ، فأنا لا أريد أن أستولى على السلطة الزمنية منكم ، ولا أبحث عن جاهٍ ، فالجاه كله لله تعالى.

---

(١) التخضيع : تقطيع اللحم.
(٢) الزق : الإناء.
(٣) أورد هذه الأبيات أبو على القالى فى الأمالى (١/ ٣٠٩ ، ٣١٠) ، وهى من بحر الهزج.
(٤) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ : أعرضتم عما جئتكم به ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أى : فليس ذلك لأنى سألتكم أجراً؛ فيثقل عليكم مكافأتى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].
(٥) إنْ - هنا - نافية بمعنى (ما) أى : ما أجرى إلا على الله - سبحانه وتعالى.
(٦) ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ أى : الموحدين لله تعالى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].

والله لا يحتاج إلى جاه منكم لأن جاهه سبحانه ذاتى فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم وتجبُّركم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم .

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ .. (٧٢) ﴾ فهل يُمَالِىء [١] نوح - عليه السلام - أعداءه .

إن الإنسان يُمَالِىء العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلُّهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفعٌ سيعود على نوح - عليه السلام - ويُمنَع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم - إذن - لا يقدرون على ضُرِّه ، ولا يقدرون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذى أرسله مركزٌ قوىٌّ .

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر» [٢] تعنى : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة فى المعاوضات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة .

ومثال ذلك : أن إنساناً يرغب فى شراء «شقة» فى بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

(١) يمالىء : يعاون ويساعد . قال أبو عبيد : يقال للقوم إذا تتابعوا برأيهم على أمر : قد تمالؤوا عليه . [لسان العرب : مادة (م ل أ)] .

(٢) الأجر : الجزاء على العمل ، والجمع : أجور . والأجر : الثواب ؛ وقد أجره الله يأجُره ويأجِره أجراً وآجره . أى : أعطاه الثواب . [لسان العرب : مادة (أ ج ر)] .

وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة فى البيت ، أى : يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلحَّة.

وكان على نوح - عليه السلام - أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا فى أصول التقييم للأشياء ؛ لأنه يقدِّم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول : إن عملى كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن آخذ أجراً عليه.

ولكن نوحاً - عليه السلام - تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ .. (٧٢) ﴾ [يونس]

فهذا التولِّى والإعراض لا يضرُّنى ولا ينفعنى ؛ لأنكم لا تملكون لى ضُرّاً ولا تملكون لى نفعاً ؛ لأنى لن آخذ منكم أجراً.

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (٨٦) ﴾ [ص]

إلا فى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ، فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [1] (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾ [الشعراء]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضًا في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ [الشعراء]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - في عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا في قصة نوح - عليه السلام - فنجد قول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام، حيث يقول الحق سبحانه:

---

(١) العكوف على الشيء هو الإقامة والاستمرار عليه، أي: أنهم مقيمون مستمرون على عبادة الأصنام [تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧)].

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾ [الشعراء]

وجاء نفس المعنى أيضاً فى قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ [الشعراء]

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ [الشعراء]

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام فى قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ (١) الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ [الشعراء]

إذن : فغالبية الموكب الرسالى يأتى على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

---

(١) أصحاب الأيكة : هم أهل مدين - على الصحيح - وكان نبى الله شعيب ، عليه السلام ، من أنفسهم ، وإنما لم يقل سبحانه هنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة كانوا يعبدونها . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٤٥)].

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..(١٦٤) ﴾ [الشعراء]

فكأن الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم: لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكنَّا لا نريد منكم أنتم أجراً ، إنما سنأخذ أجرنا من ربِّ العالمين ؛ لأن المنفعة التى نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقوِّمها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج - سبحانه - ومُنزِله على رسله.

وها هو القرآن الكريم يأتى على لسان رسول الله محمد ﷺ ، ويقول:

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ..(٢٣) ﴾ [الشورى]

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ؛ دعا عمه ، وكان للعم حظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة.

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذى قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكَّره بذلك ، وقال:

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ[1] فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء]

أما هنا فى دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتى قول القرآن على لسان نوح بما يوضِّح الأمر لقوم نوح:

فإن توليتم فلا حزن لى ، ولا جزع ؛ لأنكم لن تصيبونى بضُرٍّ ، ولن تمنعوا عنى منفعة ؛ لأنكم لم تسألونى أن آتى لكم بالهدى لآخذ أجرى منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذى بعثنى ، وهو الذى سيعطينى أجرى ،

(١) لبثت: عشت ومكثت بيننا.

وقد أمرنى سبحانه أن أكون من المسلمين له حَقّاً وصدقاً.

وفى حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقى وطبيعى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ[1] وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ[2] وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وكأن الأمر الذى وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشمله ؛ لأنه لا يقال : نجّيتُك من كذا إلا إذا كان الأمر الذى نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ[3] ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر]

---

(١) الفلك : السفينة.

(٢) خلفَه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه - خَلَفًا وخلافةً وخلفه خلفاً : صار خَلْفَه قال تعالى : ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى .. ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] والخلف : القرن من الناس بعد القرن ، أى الجيل بعد الجيل ، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح . قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف] والخَلَف بالفتح : البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح . والخليفة من يخلف غيره ، أو ينوب عنه ، قال تعالى : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] ، وخليفة جمعها خلفاء وخلائف يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ .. ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) ماء منهمر : مطر غزير.

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجَّرتْ بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

أى: أن ذلك الأمر كان مقدَّراً ؛ حتى لا يقولن أحد: إن هذه المسألة ظاهرة طبيعية.

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود:

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها:

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ[1] مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كُلٍّ نوع اثنين ذكراً وأنثى.

وقول الحق سبحانه:

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ .. (٧٣) ﴾ [يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

---

(١) ملأ : جماعة .

نقول: إن الأصل فى وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسخَّرة لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد فى السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخّرة تسبِّح الله [١] ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخَّرة ذلك الغراب الذى علَّم «قابيل» كيف يوارى سوأة أخيه [٢]؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ..(٣١) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصددها الآن:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾ [يونس]

وكلمة «الفُلْك» من الألفاظ التى تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أى فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتى مثل قوله سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ [٣] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

---

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

(٢) يوارى سوأة أخيه: يخفى جسد أخيه «هابيل» الذى قتله أخوه بغير حق. أى : يدفنه .

(٣) الذِّكْر : القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل] .

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتي بكلمة تؤكد الوحدانية وتكون بضمير الإفراد مثل: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. (١٤) ﴾ [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ .. (٧٣) ﴾ [يونس]

كلمة «أنجى» للتعدية ، وكلمة «نَجَّى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ[1] .. (٧٣) ﴾ [يونس]

تعنى: أن الخليفة هو من يجيء بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتي مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة في السفينة ، أغرق الباقين.

إذن: فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم.

ومرة تأتي كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. (٥٩) ﴾ [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ [يونس]

(١) خلائف: جمع خليفة وهو الذي يخلف من سبقه. وتجمع أيضاً على «خلفاء». قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٦٩) ﴾ [الأعراف].

ولأن الإنسان مخيَّر بين الإيمان والكفر ، فسوف يَلْقَى مكانته على ضوء ما يختار.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ..(٥٥) ﴾ [النور]

إذن: فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالحٍ ، وإما أن يكون صالحاً يَخْلُفُ فاسداً.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التي تهدي إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّكَ على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء في هذا الكون تنتظم انتظاماً حكيماً.

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما ليدك فيه دَخْلٌ ، وما ليس ليدك فيه دخل ؛ ستجد كل ما ليس ليدك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول:

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

(١) الفَلَك: المدار يسبح فيه الجِرْم السماوي. والجمع: أفلاك. [المعجم الوسيط: مادة (ف ل ك)].

أما ما ليدك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .

وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهى مناط الاستدلال العقلى على وجود الإله ، أو أن الآيات هى الأمور العجيبة التى جاءت على أيدى الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم صادقون فى البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهى الآيات التى تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

فهو يعلِّمنا أنه أغرق من كذَّبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بديع صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها [1] ، وهم أيضاً كذَّبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذَّبوا بآيات الأحكام التى جاءت بها رسلهم .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ [2] (٧٣) ﴾ [يونس]

والخطاب هنا لكل من يتأتَّى منه النظر ، وأوَّلهم سيدنا محمد ﷺ ،

---

(١) رتابتها : أى : سيرها على نظام واحد لا يتخلف ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس] .

(٢) عاقبة : عقاب وجزاء ونهاية . المنذرين : اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم نوح الذين أنذرهم نبيهم ، فلم يؤمنوا ؛ فاستحقوا العقاب والعذاب .

وهو أول مُخاطَب بالقرآن.

وأنت حين تقول: «انظر» ؛ فأنت تُلْفت إلى أمر حسِّى ، إن وجَّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشيء ؛ فتراه.

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهى أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه.

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهى تلقف الحبال التى ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفى الأكْمَهَ والأبْرص [1] ويُحيى الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفى القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمى ؛ لأننا آمنا بصدق المبلِّغ عن الله تعالى.

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء لينتظم الناس الموجَّه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب فى أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول: محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هى معجزته.

وساعة يقول الحق سبحانه: ﴿فَانظُرْ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

---

(١) الكمه: العَمَى الذى يولد به الإنسان. أما البَرَص فهو: مرض جلدى عبارة عن بقع بيضاء تكون فى الجسد. انظر اللسان.

وتعالى لرسوله ﷺ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ[1] ۝١﴾ [الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعيونك قد ترى أمراً ، وأذنك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذه على أنه أقوى من رؤية العين.

ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الحق : «ألم تعلم» وجاء بالقول:

﴿أَلَمْ تَرَ .. ۝١﴾ ؟ [الفيل]

وأقول: ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبي عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأي العين.

إذن: ﴿فَانظُرْ﴾ تعني: اعلمْ الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسالته ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً.

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يقل الحق: «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه:

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾ ؟ [يونس]

---

(١) أصحاب الفيل، هم جيش «أبرهة» الحبشي حين قدموا لهدم الكعبة، فمزقهم الله شر ممزق وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف مأكول. ووافق ذلك قبل مولد النبي ﷺ بخمس وخمسين ليلة ، فهو لم ير الحادث بعينيه، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتملُ إلا الصدق، فكأنه قد رآه بعينيه فعلاً.

وهنا نقول:

إن الحق سبحانه وتعالى قد بيَّن أنه لن يعذِّب قبل أن يُنْذِر[(١)]، فهو قد أنذر أولاً، ولم يأخذ القوم على جهلهم.

«فانظر» - كما نعلم - هى خطاب لرسول الله ﷺ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً، وجاء هذا الخبر تسلية لرسول الله ﷺ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلمْ أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح.

وفى هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ[(٢)] فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ[(٣)] عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] ويقول: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء] النذير والإنذار وجمعه نذر، قال تعالى: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ..﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة].

والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب. والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقوله تعالى: ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ ﴾[المرسلات] وقوله: ﴿ .. وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس] يحتمل أنها الإنذارات. أو المنذرون من الرسل جمع نذير، وقوله: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحقاف]، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون.

(٢) بالبينات: أى: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به. [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٢٦)].

(٣) الطبع: هو الختم على القلب، ولكنه لا يُمحَى ولا يُفك أبداً. أما الختم فقد يفك، وقد تكون له مدة معلومة، وقد يقبل مع التوبة الخالصة. وبكلا الأمرين ورد القرآن: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]. وقال سبحانه: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة].

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى.

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج[1] لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج هو إماتة للمنهج.

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشيء منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكِّر الفطرة السليمة.

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالبشر كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليبعثوا للحساب.

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل[2] المبلِّغين عن الله تعالى.

---

(١) نَهَج الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهج الطريق له : أوضحه ، والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح والمذهب حسياً ومعنوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة] أي : مذهباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معنوي .

(٢) الرسالة : اسم لما يُرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحي إليه . والرسول : المرسل . والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . قال الزمخشري : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فجعله القرآن في سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن بُدٌّ من تثنيته . يقول الحق : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ..﴿٤٧﴾﴾ [طه] أما في آية الشعراء فبمعنى الرسالة ، فجازت التسوية فيه إذا وصف به بين المفرد والمثنى ، فلهذا قال : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] وأرسل تأتي لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف] (الزمخشري - بتصرف) .

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ .. (٧٤) ﴾ [يونس]

أى: من بعد نوح ، فمسألة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرَّكْب الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌّ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عامّاً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلّة.

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين: مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين.

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عامّاً بخصوصية من بقوا وهم المرسَل إليهم بخصوصية الزمان والمكان [١].

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [يونس]

فهل قَصَّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (٧٨) ﴾ [غافر]

---

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهى لعامة الزمان والمكان ، وهذا مما خصَّ به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصلِّ ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

وجاء الحق عز وجل بقصص أولى العزم منهم [1] ، مثلما قال سبحانه :

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [2] (١٤٧) ﴾ [الصافات]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتى ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتى للأمة المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوى فى العصر الحديث ، وقد توجد مناطق فى العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم انساحت [3] فى الأرض ؛ لأن الأقوات التى كانت تكفى ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفى بعدما اتسعت الذرية ، فضاق الرزق فى رقعة الأرض التى كانوا عليها ، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً [4] .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

---

(١) أولو العزم من الرسل هم : محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] .

(٢) هو يونس - عليه السلام - أنجاه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل «نينوى» بجهة الموصل ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين . [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و[تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢)] ، و[صفوة التفاسير للصابونى (٣/ ٢٤)] . . بتصرف .

(٣) انساح : من السياحة وهى الذهاب فى الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان . [لسان العرب : مادة (س ى ح)] .

(٤) مراغماً كثيراً : المراغمة الهجران والتباعد . والمراد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها . [اللسان - بتصرف] .
وسعة : أى : بعيداً عن تضييق المشركين ، وقيل : سعة ، أى : كثرة فى الرزق . [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف .

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم - عليه السلام - إلى مواقع الغيث [1] ، فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة.

ويلاحظ مؤرِّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق فى الصحارى ، مثلهم مثل العرب ، وكانوا فى الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العَدُوَّين اللذين لم يقدر عليهما البشر هما النار والماء.

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التى أخذوا منها الماء على قَدْر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا فى قوة المواجهة مع الماء.

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت فى بقية الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداعات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ [2] ..(٢٤) ﴾ [فاطر]

وقصَّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض الآخر.

يقول الحق سبحانه :

(١) الغيث : المطر.

(٢) إن : نافية بمعنى (ما) . أى : ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من ينذرهم. خلا : مضى وسبق. قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ .. (٣٠) ﴾ [الرعد].
نذير : صيغة مبالغة من الإنذار ، أى : كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به. قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ..(١٩) ﴾ [المائدة].

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ..(٧٨) ﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ..(٧٤) ﴾ [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح - عليه السلام - بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتي لنا بخبر عيون الرسالات [1] .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة «قوم» [2] في الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، مثلما نقول : هَيَّا اركبوا سياراتكم ، والخطاب لكم جميعاً ، ويعني : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أي : بالآيات الواضحات الدالة على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

---

(١) عيون الرسالات : أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً .

(٢) القوم : جماعة الرجال ليس معهم نساء . قال تعالى : ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ .. (١١) ﴾ [الحجرات] ، ثم قال : ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ .. (١١) ﴾ [الحجرات] فدلَّ على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . [القاموس القويم] وانظر [لسان العرب مادة : قوم] .

﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس]

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالى ، فموكب إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة (1) ،وطبع الله تعالى على قلوب المعتدين. والطبع - كما نعلم - هو الختم.

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه ؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على هذه القلوب ألاّ يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا منسوب لله تعالى.

وبعض الذين يتلمَّسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون: إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم.

ونقول: التفتوا إلى أنه سبحانه بيَّن أنه قد طبع على قلوب المعتدين ، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب فى الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض.

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى هو القائل فى الحديث القدسى:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك» (2).

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يَسْدِر (3) فى غَيِّه: ما دمت تعشق ذلك الأمر فاشبع به.

---

(1) الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق] ، أى: غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. [القاموس القويم]

(2) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(3) السادر فى غيه: المعن فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم لشىء ولا يبالى ما صنع. [اللسان مادة: سدر].

ومَثَل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذَّبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ[1] بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً[2] مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه]

---

(١) ملئه : قومه . وقيل : هم أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم الذين يُرجع إلى قولهم . [اللسان ، مادة : ملأ] .

(٢) العقدة : تطلق على رتة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام.

وقال الحق سبحانه: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١) ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة فى تلك الرسالة كانت بيد موسى، وحين يكون موسى هو الرسول، وينضم إليه هارون، لا بد - إذن- أن يصبح هارون رسولاً.

ولذلك نجد القرآن معبراً عن هذا: ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه]

أى: أنهما رسولان من الله.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان فى مهمة واحدة، وليس لكل منهما رسالة منفصلة، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر، فيقولون: نحن رسل الملك فلان.

وفى رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز فى إلقاء الآيات كان لموسى. ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية؛ لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا رَسُولا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه]

---

(١) طغى: تجاوز الحد. ومنه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ ﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ [الحاقة].

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمْجاً[1] رَذْل[2] الخُلُق ، فإن تكلم هارون ليشد أزر[3] أخيه ، فقد يقول الفرعون: وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك[4] القرآن متسائلاً: ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟

وفى هذا ردٌّ كافٍ على هؤلاء المتوركين.

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا ..(٧٥) ﴾ [يونس]

والملأ: هم أشراف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملأ» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ، أى: لا ترى العيون غيرهم.

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملأ ؛ لأنهم هم الذين نصَّبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله.

(١) سَمُجَ الشىء: قَبُحَ. والسَّمْجُ والسَّميج: الذى لا خير فيه [لسان العرب: مادة (س م ج)- بتصرف].
(٢) الرَّذْل والرَّذيل: الدون من الناس، وقيل: هو الخسيس. وقيل: هو الردىء من كل شىء. [لسان العرب: مادة (ر ذ ل)].
(٣) الأَزْر: القوة والشدة ، وأَزَرَهَ وآزره : أعانه وساعده . [لسان العرب : مادة (أزر)] .
(٤) التوريك: إضافة الذنب أو النقص إلى الشىء، وحمله عليه على غير الحقيقة، وتحمل معنى إسقاط عيبه على غيره [انظر: لسان العرب - مادة : ورك] والمراد أنهم يُحمِّلون القرآن تناقضاتهم.

ولكل فرعون ملأ يصنعونه ، والمثل الشعبى فى مصر يقول: «قالوا لفرعون من فَرْعَنَك ، قال : لم أجد أحداً يردّنى».

أى: أنه لم يجد أحداً يقول له: تَعقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن.

والآيات [1] التى بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلْفت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هى المنهج الذى يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأه استكبروا. والاستكبار: هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى: طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى: طلب الفهم. ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر.

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة [2] له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفى عذاب عظيم ومهين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء] والآيات التى أرسل بها موسى عليه السلام هى : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسنيّ الجدب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

(٢) المندوحة: اتساع الأمر. والمراد: أن فعلهم هذا لا سبب معقول له، ولا مبرر. [لسان العرب: مادة (ن د ح) بتصرف].

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ(١) مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبِّى(٢) على الرسول ، لا يتأبَّى على مساوٍ له ؛ لأن الرسولَ هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شىء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شىء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجىء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

---

(١) اللام فى كلمة «السحر» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيَّل على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] .

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ى)] .

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ[١] ۝﴾
[الرحمن]

أي: إن كنتم تريدون أن تعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير فى إطار هذا المنهج الربانى.

وحين نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. ۝ ﴾ [يونس]

نجد فى هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا دخل لها في الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق في ذاته ، ولا تدخل فى متاهة البحث عمَّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله ﷺ، فَهُمْ من قالوا:

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[٢] .. ۝﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن فى الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن[٣] فى ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وخُذ الحكمة من أى قائل لها ،

(١) لأن اعتدال الموازين ثبات للحق ، وإذا ثبت الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القريتان هما : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة ، وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧) .

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال فى وصف القرآن : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته « سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٠) فرغم قوله فى القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسايرة لقومه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جحد القرآن واتهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه، وإن كنت تحبه أخذتها. لا، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك[(١)].

والحق هو الشيء الثابت ، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق ، وأن الباطل تغلّب عليه ، فهذا يعنى ظهور المفاسد ؛ فيصرخ الناس طالبين الحق.

وانتشار المفاسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحق ، وتتحمس له ؛ لأن الباطل حين يَعَضُّ الناس ، تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسكوا به.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا[(٢)] رَّابِيًا[(٣)] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[(٤)] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ[(٥)] ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها ». أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه في سننه (٤١٦٩) . قال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم بن الفضل ، يُضعَّف فى الحديث من قبَل حفظه .

(٢) الزبد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه . وبحر مُزْبِد ، أى : مائج يقذفَ بالزَّبد . وزبد الماء : طفاوته وقذاه . والجمع : أزباد . [لسان العرب : مادة (ز ب د)].

(٣) رابياً : مرتفعاً ؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء . [اللسان : مادة (ر ب ى)].

(٤) جفاء السيل : هو ما يقذفه من الزبد والوسخ ونحوهما . [اللسان : مادة (ج ف ى)].

(٥) المثل : الصفة العجيبة يشبَّه بها غيرها . فالأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص ، لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس . وأمثال القرآن قسمان :
- قسم ظاهر مصرح به ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة]
- قسم كامن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] وهو يؤدى معنى مثل « خير الأمور أوساطها » . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن ٤ / ٤١] .

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ، فيأخذ كل واد أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى الأرض ، لكنّ السيل فى أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من الطمى ، والقش ، ويستقر الطمى فى أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ، أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية زَبَداً ، وساعة تضعها فى النار ، فهى تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة).

ومثال ذلك : حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذى يطفو ، ويبقى الحديد النقى فى القاع.

هذا الزبد الذى يوجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك : ما نراه على شواطىء البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطىء ، هذه القاذورات التى ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب جُفاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى فى الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل يترك الباطل ؛ ليحفز غيرة الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار هو عليه [١] .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) ﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التى جاءت مع موسى - عليه السلام - هى السحر المبين ، أى : السحر الظاهر الواضح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٠) ، والبخارى فى صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتى القرآن ليؤكد أنهم قالوا إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتى فى الآية التى بعدها ليقول إنهم قالوا متسائلين : أسحرٌ هذا ؟

وفَهم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ من كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر فى حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا استفهام استنكارى ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس سحراً .

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خَبَر لكان يحتمل الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذِّب له سيجيب بلجلجة (١) .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ، فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبلج ، والباطل لجلج » . أى : أن الحق واضح قوى ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات له . [لسان العرب : مادة (ل ج ج) - بتصرف] .

النار فى خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك أو القماش الصناعى ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقى يا رجل ؟ وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. (٧٧) ﴾ [يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمَّن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه سحر مبين ؟

إن القول الحكيم الوارد فى الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾ [يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر لا ينفع ، ولكن الآيات التى جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد ابتلعت عصاه - التى صارت حية - كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل ما صنعوه من سحر[1] .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) ﴾ [الأعراف] .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة [1] من جنس ما نبغ فيه القوم .

فالله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً فى المجال الذى لهم به خبرة ودربة [2] ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ ليبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبنى لك هرماً ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه فى أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرَّغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾ [يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التى يقوم بها الفلاح من جهد فى حرث الأرض ووضع البذور ، ورى الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أى : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ.. (٧٧) ﴾ [يونس]

هو لَفْتٌ لنا أن السحر نوع من التخييل ، وليس حقيقةً واقعةً .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

---

(١) المعجزة هى : الأمر الخارق للعادة يُجريها الله على يد النبى أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالته ، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص . وخصَّ ﷺ بمعجزة القرآن الخالدة ، وله ﷺ معجزات حسية كنبوع الماء من بين يديه ﷺ .

(٢) دربة : عادة وخبرة أو تدريب .

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ..(١١٦)﴾ [الأعراف]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ ..فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ [طه]

إذن : فالسحر هو تخييل فقط (١) وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدَّت كل القدرات (٢) ؛ لذلك أعلن فرعون التعبئة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذى هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر (٣) .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف (٤) ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة طه :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيَّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيهم مجرد عصى .

---

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون ، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ..(١١٦)﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أعانه عليهم بقدرته التى لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكره جعل الملأ من حوله هم الذين يصعّدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿ .. إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)﴾ [الشعراء] . فكان ردّهم عليه أن قالوا له : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)﴾ [الشعراء] .

(٤) اللقف : سرعة الأخذ والتناول . [اللسان : مادة (ل ق ف)] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خرُّوا[1] ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان:

﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ..(٧٠) ﴾ [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو مِنْ فعل خالق أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - في تلك اللحظة نابعاً من التدريب الذي تلقَّاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ[2] عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[3] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾ [طه]

وقد أجمل موسى وفصَّل في الرد على الحق سبحانه ؛ إيناساً وإطالة للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب:

﴿ ..وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[4] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

إذن: فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب التخاطب مع الله تعالى ، ودرَّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر : سقط ووقع . والمراد أنهم أسرعوا بالسجود لله رب العالمين .

(٢) أتوكأ عليها : أتحمل وأعتمد وأستند عليها . [اللسان : مادة (و ك أ) - بتصرف] .

(٣) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾[طه] أي : أهز بها الشجر لتتساقط أوراقه لترعاه غنمي . نقله ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٤٥) .

(٤) مآرب أخرى : أي : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .

أولاً أن يلقيها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس[1] منها خيفة ولرآها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون ، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخُيِّل إلى الناس من سحرهم أن عصيَّهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - فى إلقاء العصا ، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

والعصا -كما نعلم -أصلها فرع من شجرة ، وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً .

وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ؛ وهى المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا[2] عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا[3] ٱلْكِبْرِيَآءُ[4] فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

(١) أوجس : أى : وقع فى نفسه وقلبه الخوف والفزع . [انظر اللسان مادة وجس] وقد وقع هذا الخوف لاثنين من الأنبياء ذكرهما القرآن : الأول إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى صورة بشر ليبشروه بإسحاق ويعقوب ، وقد ذكر هذا فى القرآن مرتين : الأولى فى سورة هود : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود] . أما الثانية ففى سورة الذاريات آية ٢٨ .

أما النبى الثانى فهو موسى عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه] .

(٢) لتلفتنا : لتثنينا وتبعدنا عن آلهة الآباء والأجداد .

(٣) لكما : أى : لموسى وهارون عليهما السلام .

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة . [ابن كثير ٢/٤٢٦] .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملئه - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول[1] .

ولو قال فرعون لموسى : « جيءَ بكَ» لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿أَجِئْتَنَا﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . . (٧٨) ﴾ [يونس]

والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . . (٧٨) ﴾ [يونس]

---

(١) فمما قاله فرعون عن موسى يطعن فى شخصيته ما حكاه رب العزة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾ [الزخرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا ينطلق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك فى دعائه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) ﴾ [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلِّد ، فلا يُعْمِل عقله أو فكره في شيء ليقتنع به ، ويبنى عليه سلوكه [1] .

والمثل العامى يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش في الزفة » أي : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أي جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له اتجاهاً .

والمقلِّد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنَّبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذي يطيل أمد [2] الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى: أنه لا يُعْمِل عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

---

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ في حديثه ، فعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنَّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذي في سننه (٢٠٠٧) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايتها . والأمد : منتهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات في القرآن ، فقال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ [الجن] أي : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ..﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران] أي : في غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف] أي : مدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذى يأتى إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات.

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ فى التمرد ، وقد يقول للآباء: أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرَّب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمتثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات.

ونحن نجد أبناء الأسر التى لا تتبع منهج الله فى تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران[1] السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب.

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على إعمال العقل فى كل الأمور ، فهذه هى التنشئة التى تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً.

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذى سوف تقلده ، لن يكون مسئولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

---

(١) أقران : جمع قرن (بكسر القاف وتسكين الراء) وهو النظير والمثيل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والرذائل . [لسان العرب : مادة (ق ر ن) - بتصرف] .

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا.. (٣٣) ﴾ [لقمان]

إذن: فأمر الابن يجب أن يكون نابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعْمِل عقله بين البدائل(١) .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على ألسنة مَنْ قلَّدوا الآباء:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا(٢) عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه:

﴿ ..أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا ينام الأبناء على الأرض ولا يشترون أسرَّة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور فى الأشياء والأدوات التى تسهِّل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفى إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن :فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فَلْتهْتد بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السمو نحو الحياة الفاضلة .

---

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهى مواضع الاختيار فى التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس] .

(٢) ألفينا : وجدنا . ألفى الشيء وجده. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات]، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] أى : وجداه .

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا[1] مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤) ﴾ [المائدة]

أى: أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فَردَّ عليهم القرآن:

﴿ ..أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلّدين:

الآية الأولى: هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:

﴿ .. بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية: هى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ..حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آباؤهم.

وهناك فارق بين الآيتين ، فالعاقل غير من لا يعلم ؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره.

---

(١) حسبنا : يكفينا . وهناك فارق بين قولة الكافرين المقلدين لآبائهم هنا ، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة: ﴿ حَسْبُنَا ﴾ ، فالمؤمنون قالوا : ﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] ، وقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ..(٥٩) ﴾ [التوبة] ، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم عن الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيضرهم فى دنياهم وقد يقطع أرزاقهم ، فهم قد نظروا إلى الآخرة ، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات .

إذن: فالذين اكتفوا بما عند آبائهم، وقالوا:

﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤)﴾ [المائدة]

هؤلاء هم الذين غالوا في الاعتزاز بما كان عند آبائهم؛ لذلك جاء في آبائهم القول بأنهم لا يعلمون.

أي: ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق، بل يعيشون في ظلمات من الجهل.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ .. (٧٨)﴾ [يونس]

أي: هل جئت لتصرفنا، وتحوّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء في الأرض؟

وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذي لهم في الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم، وهم يحبون الحفاظ عليه، والأمر هنا يشمل نقطتين:

الأولى: هي تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء.

والثانية: هي الكبرياء[1] والعظمة في الأرض.

ومثال ذلك: حين يقول مقاتل لآخر: «ارْمِ سيفك» وهي تختلف عن قوله: «هات سيفك»، فَرَمْيُ السيف تجريد من القوة، لكن أخذ السيف يعني إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذي أمر بذلك.

---

(١) الكبرياء: العظمة والملك. وهي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، ولا يوصف بها إلا الله تعالى. قال صاحب «القاموس القويم»: هي العظمة والتجبّر والسلطان والسيطرة، وهي في حق الله سبحانه العظمة الحق، والسلطان القوي، والسيطرة الكاملة» بتصرف.

وهم هنا وجدوا فى دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة .

الأولى : هى ترك عقيدة الآباء .

والثانية : هى سلب الكبرياء ، أى : السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار [1] ، والمصالح المقضية ، فكل واحد من بطانة [2] الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون .

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهى به الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصددها :

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس]

أى : أن قوم فرعون والملأ أقرُّوا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون- عليهما السلام .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

وكان فرعون يعلم تقدُّم السحرة فى دولته ، ويكفى أنه شخصياً خَيَّل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتى أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جىء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه فى الآية التى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(١) الائتمار : التشاور فى الأمر والتواصى به . ويسمى التشاور ائتماراً لأن المتشاورين يقبل بعضهم أمر بعض . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص] . [القاموس القويم . وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٣] .

(٢) بطانة الرجل : خاصته . [لسان العرب : مادة (ب ط ن)] .

وكأن المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هى أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ فى التنفيذ.

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتى بأشياء تفسد الصورة.

يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾ [يونس]

وفى هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم فى ورطة [1] تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه.

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف؛ لأن القصة تأتى بنقاطها المختلفة فى مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التى تأتى بذكرها [2].

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا: إن أعوان فرعون نادوا فى المدائن [3] ليأتى السحرة ، مثلما جاء فى مواضع أخرى من القرآن [4].

---

(١) الورطة : الوحل تقع فيه الغنم فلا تقدر على التخلص منه . يقال : تورطت الغنم إذا وقعت فى ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان فى الأمر ، واستورط فيه : إذا ارتبك فيه ، فلم يسهل له المخرج منه . [لسان العرب : مادة (و ر ط)] .

(٢) وهذه ميزة القصص القرآنى فى الإشارة إلى قصصه عدا قصة يوسف عليه السلام .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، وهى القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع فى القرآن خاصاً بقصة موسى ثلاث مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [التوبة : ١٠١ ، ١٢٠] [الأحزاب : ٦٠][المنافقون : ٨] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) ﴾ [الشعراء] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون (١) :

﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأعراف]

ووَضْع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات فى ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعنى أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخيراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون فى أزمة؛ طالبوا بالأجر.

ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرَّبين (٢) ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى؛ ففى ذلك العمل محافظة وصيانة للمُلْك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحذاً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى؛ ليستقر عرش الفرعون.

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا فى هذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - وجاء ببقية اللقطات فى المواضع الأخرى من القرآن.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) فرعنة : الفرعنة الكبر والتجبر ، وفرعون الذى ذكر فى كتاب الله ترك صَرْفه فى قول بعضهم ؛ لأنه لا سميَّ له وكإبليس فيمن أخذه من أبلسه . وقال ابن سيده : إن فرعون عَلَم أعجمى ، ولذلك لم يصرف . الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ، وكل عات فرعون ، والعتاة الفراعنة ، وقد تفرعن ، وهو ذو فرعنة أى دهاءٍ وتكبراً . وقيل : الفرعون بلغة القبط : التمساح (لسان العرب) وقيل فى القاموس القويم : فرعون لقب يسمى به كل ملك فى مصر فى الزمن القديم ، وفرعون موسى هو منفتاح ، وقيل رمسيس الثانى . والعبرة بالأحداث لا بذات فرعون ، قال تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه] والله أعلم.

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر بقولهم : ﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأعراف] قال فرعون : ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف] فزادهم القرب منه فوق الأجر ؛ لذلك جاء عقابه لهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاء العقاب على قدره .

وألقى السحرة عِصيّهم وحبالهم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال، ولكنه بيَّن بالتفصيل ما حدث، في آية أخرى، قال فيها سبحانه عن السحرة:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف]

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضي من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه؛ ليضعف معنوياته.

وهنا أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخييل.

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى - عليه السلام - أن عصاه ستصير حية حقيقية، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخييل[1] للعيون.

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى في ذلك التخييل:

﴿.. مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس]

---

(١) والخيال ما تشبَّه لك في اليقظة أو في النوم من صورة. والظل: ما يتصوره ذهنك من شيء - والخيال إحدى قوى العقل التي يتخيل بها الأشياء، ويتصورها.
قال تعالى: ﴿.. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه] أي: تشبه له، ويصور له بسبب سحرهم أنها تسعى كالحيات، والحقيقة أنها ليست حيَّات، ولكنه توهُّم وتخيُّل (القاموس القويم).

وهكذا جاء القول الفصل الذى أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون ومَلَؤُه [١] والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد فى الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولاً مؤيَّداً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا فى السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا فى التخييل ، فالله سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كُنْ» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخييلات.

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ [٢] وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

فالمسألة التى يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشىء.

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

و«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشىء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن الشىء يوجد قبل كلمة «كن» ؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويبرز بإرادة الله تعالى.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبيِّن لنا أن الحق إنما يأتى على ألسنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين فى الرَّغام [٣] ،

(١) ملؤه: آل فرعون ومن يرجع إليهم.
(٢) يحق: يثبت ويظهر. بكلماته: بمواعيده [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].
(٣) الرغام: التراب. والمراد: إذلالهم وعقابهم على عصيانهم وإجرامهم.

وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ(1) مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ(2) أَن يَفْتِنَهُمْ(3) وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ(4) وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ(5) ﴿٨٣﴾ ﴾

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى - أعلنوا الإيمان، فعاقبهم الفرعون وقال:

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ..﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله؛ ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ ..﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذى كان منتشراً، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء، ويعيشون فى خُلُوٍّ من المشاكل، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التى يُحْرَصُ عليها، ومع ذلك فهم قد آمنوا:

---

(١) ذرية: طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦]. وقيل: من بنى إسرائيل [مختصر تفسير الطبرى: ص ٢٣٩].

(٢) ملئهم: آل فرعون والمقربون منه والموافقون له.

(٣) يفتنهم: يصرفهم عن دينهم بتعذيبه لهم.

(٤) عال فى الأرض: جبار مستكبر. والمراد بالأرض هنا أرض مصر.

(٥) المسْرفين: المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية. [تفسير الجلالين: ص ١٨٦].

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ[1] مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : «على الفرس» أو «على الكرسى» ويكون المستعلى فى هذه الحالة متمكّناً من «المستعلى عليه»؛ ومن يستعلى إنما يركب المستعلى ، ويحمل المستعلى العبء.

ولكن من استعمالات «على» أنها تأتى بمعنى «مع».

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ..﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان]

أى : يطعمون الطعام مع حبه.

وحين يأتى الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك.

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ..﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

جاء الحق سبحانه بالحرف «فى» بدلاً من «على»؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب فيه.

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) الخوف هو الفزع لتوقع حدوث مكروه ، أو فوت أمر محبوب ، والخوف ضد الأمن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش] وقال : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [البقرة] أى : فزع لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوّفه جعله يخاف . قال تعالى : ﴿ ..وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء] وخوفه فلاناً أى : جعله يخافه يتعدى لمفعولين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران] .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ..(٨) ﴾ [الإنسان]

فكأنهم هم المستعلون على الحب؛ ليذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

أي: أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقُّع الآلام[1] .

وهم هنا آمنوا : ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ..(٨٣) ﴾ [يونس]

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيِّن لنا أن الخوف ليس من فرعون؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زُوَّار الفجر في أي دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون في وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه، بل يقوم به زبانيته.

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم.

وقال الحق سبحانه هنا: ﴿ يَفْتِنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل: «يفتنوهم»؛ ليدلنا على ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون.

---

(١) من معاني الحرف (على): الاستعلاء؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً، نحو قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]. والظرفية؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ..(١٥) ﴾ [القصص] أي: في حين غفلة. والمصاحبة؛ نحو قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] أي: مع ظلمهم؛ ونحو قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان]. أي : مع حبهم للمال. ومن معانيها أيضاً: أن تكون بمعنى (من) نحو قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) ﴾ [المطففين] أي: من الناس. ومن معاني (على) أيضاً: المجاوزة، والتعليل، والإضراب، وأن تكون بمعنى الباء. انظر تفصيل ذلك في [النحو الوافي: (٢/ ٥٠٩ - ٥١٢)].

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً؛ ليكون كل لفظ فى القرآن جاذباً لمعناه.

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا [(١)] : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن مِنْ قوم موسى - عليه السلام - وكتم إيمانه.

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى؛ لأن فرعون كان جَبَّاراً فى الأرض، مدّعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة.

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زبانيته - أبناء بنى إسرائيل واستحيا نساءهم [(٢)] ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفَّذوا ما أراده فرعون.

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الآمر فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

---

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٩٦) وعلى هذا يكون الضمير فى ﴿قَوْمِهِ﴾ عائداً على فرعون. وقد ذكر القرطبى قولاً آخر - ونسبه للفرَّاء - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون فى نفس الوقت، باعتبار أن الذرية أقوام آباؤهم من القبط أى : آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل.

(٢) استحياء النساء : أى : تركهم أحياء. وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتيهم موسى، فبطش فرعون بهم كان مستمراً، ولذلك قالوا لموسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ..(١٢٩)﴾ [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبنى إسرائيل قبل مجىء موسى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص].

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذى يقوم به أعوانه.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ .. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [يونس]

والمسرف: هو الذى يتجاوز الحدود. وهو قد تجاوز فى إسرافه وادَّعى الألوهية.

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون:

﴿ ..أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي..(٣٨) ﴾[القصص]

وعلا فرعون فى الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين.

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون:

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ[1] وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ..(٥١) ﴾[الزخرف]

إذن: فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

---

(١) المصر: البلد العظيم، قال تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا.. (٦١) ﴾ [البقرة] أى: بلداً عظيماً كبيراً.
ومصر بغير تنوين هى بلادنا العزيزة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف] [القاموس القويم].

وهنا شرطان ، فى قوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ ..(٨٤) ﴾ [يونس]

وجاء جواب هذا الشرط فى قوله سبحانه :

﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ..(٨٤) ﴾ [يونس]

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ..(٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإسلام وأن يكونوا مسلمين.

ومثال ذلك فى حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : «إن جئت يوم السبت القادم قَبِلتك فى المدرسة إن كان معك ولىٌّ أمرك؛ ومجىء ولى الأمر هنا مرتبط بالموعد الذى حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول.

وهنا يتجلَّى ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ [1] (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام [2] ، وقد ينفك مرة أخرى من

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فبينهما تلازم حقيقى لبلوغ المراد .

(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهرى لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب وتصديقه الجازم الذى لا يدخله شك ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ..(١٤) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..(٢٥) ﴾ [البقرة]

ونجده سبحانه يبيِّن هذا الأمر بتحديد قاطع فى قوله تعالى:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ..(١٤) ﴾ [الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتى الأمر الإلهى:

﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ..(١٤) ﴾ [الحجرات]

أى: أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ..(٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه فى كل أمر إلى مَنْ آمن به؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله فى التكاليف إلى الله فى «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح.

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الأخير هو المقدَّم ؛ لأنه شرط فى الشرط الأول [١] ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً [٢] لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٣] ﴿٨٥﴾ ﴾

أى : أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْر وحَصْر الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه.

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ ..رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس]

والفتنة : اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة.

ويقال : فتنت الذهب ، أى : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أداتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر . والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى ؛ فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب . أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تعين غيرها . أما باقى الأدوات التالية فجواب أى منها محذوف لدلالة جواب الأداة الأولى عليه . . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى : ٤/ ٤٨٩ ، ٤٩٠].

(٢) فتنة : موضع عذاب . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين : أى : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ؛ فيفتتنوا بنا . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].

الشوائب ، ونحن نعلم أن صُنَّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك.

والفتنة التى قالوا فيها :

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

هى فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذَّبهم ، وكأنهم يقولون: يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد.

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين؟

إنهم فى هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التتبع الحقيقى لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون: إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقى.

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم فى النبوة ، يقول:

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ..(٥) ﴾ [الممتحنة]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول: هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه.

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدى الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [1] ..(١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى: أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان؛ لأنه أسوة [2] ، فلم يقم بعمل

(١) ابتلى: اختبر. بكلمات: بأوامر ونواه كلّفه الله بها.
(٢) أسوة: قدوة حسنة.

إيمانى بمظهر سطحى.

إذن: فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير فى أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضلالاً.

وجاء قول الحق سبحانه:

﴿ . . رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

ليدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعنى أنهم طمعوا فى إيمان العدو؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان.

ورسول الله ﷺ يقول: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [1].

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم.

وهكذا يعلّم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُمْق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوِّه بالشر؛ لأن الذى يتعبك من عدوك هو شرُّه ، ومن صالحك أن تدعو له بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال: لأخيه - ما يحب لنفسه » .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوِّه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتعدَّى النفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدَّى إلى الغَيْر.

وهم حين دعوا ألاَّ يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضّح لنا أن الظلم درجاتٌ ، وأن فرعون وملأه كانوا فى قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ ..إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حَقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق. وفرعون وملؤه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدَّقه من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزل إلى الظلم فى الكبائر ، ثم فى الصغائر .

وقولهم فى دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس]

أى : اجعلنا بنجوة [1] من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تتدفَّق ، ولا ينجو إلا مَنْ كان فى ربوةٍ عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة " النجاة " .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس]

(١) النجوة : المرتفع من الأرض. ويقال : هو بنجوة من هذا الأمر : أى : بعيد عنه برىء سالم. [المعجم الوسيط : مادة (ن ج و)].

والرحمة هى الوقاية من أن يجىء الداء.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الدَّاء، والرحمة هى ألاَّ يجىء الداء.

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا(١) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة، وأن الوَحْى قد جاء للاثنين برسالة واحدة.

فالحق سبحانه ساعة يختار نبيّاً رسولاً، فإنما يختاره بتكوينٍ وفطرةٍ تؤهّله لحَمْل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى.

وإذا كان الخَلْق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

(١) تبوءا: اتخذا واجعلا. قبلة: مصلى تصلون فيه لتأمنوا من الخوف. وكان فرعون قد منعهم من الصلاة. أقيموا الصلاة: أتموها. وبشر المؤمنين: بالنصر والجنة. [تفسير الجلالين: ص ١٨٦].
وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩): أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوّءا أى: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ فعن ابن عباس: قال: أمروا أن يتخذوها مساجد. وعن إبراهيم النخعى قال: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]. وقال سعيد بن جبير فى تفسير هذه الآية: (قبلة) أى: يقابل بعضها بعضاً. [من تفسير ابن كثير .. بتصرف].

ولا رَوِيّة [1] ، مثل الساعة التى تُؤذِّن ، أو المذياع الذى يذيع فى توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدى المهمة الموكولة إليه فى أى ظرف من الظروف.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس]

يبيِّن لنا أن الوحى شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم فى نفس الأمر؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد.

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا فى مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت.

ولكن لنا أن نسأل:

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا .. إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن نشغل أنفسنا: هل هو تحتمس الأول ؟ أو رمسيس؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنىَّ هنا قد غرق ، ألا يعنى ذلك مجىء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالت ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوةً وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم.

---

(١) الروية: النظر والتفكير فى الأمور، وهى خلاف البديهة [المعجم الوسيط: مادة (ر و ى)].

وقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا [1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر » [2] وهى إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .

ونحن هنا فى بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أى : وادى النيل .

ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادى النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات فى القاهرة : « محطة مصر » .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]

نفهم منه أن التبوُّء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءةً [3] ؛ أى : مرجعاً يبوء الإنسان إليه .

التبوُّء - إذن - هو التوطن فى مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أى بلد لفترة .

---

(١) تبوأ : نزل وسكن .

(٢) ورد اسم « مصر » فى القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى : ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١) ﴾ [الزخرف] . أما قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١) ﴾ [البقرة] فقد وقعت فيها كلمة مصر منونة ، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون العلم الأعجمى الذى يُمنع من الصرف والتنوين ، فهى مصر من الأمصار أى : بلد من البلاد .

(٣) المباءة : المكان الذى ينزل به الإنسان ويسكن فيه . [لسان العرب : مادة (ب و أ) - بتصرف] .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة [١] .

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

والقِبلة هى المتجَه الذى نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصفِّى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد فى ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

---

(١) البيتوتة : مصدر للفعل بات يبيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ى ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة.

وإلى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات [1] اليهود فى أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى..

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه، ويسمى باسم «حى اليهود». وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود».

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً، فإن حدث أمر من الأمور يفزعهم؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا.

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ..(٨٧) ﴾ [يونس]

أى: أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة.

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربيعة بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

(١) الساحات: جمع ساحة وهى الناحية من البيوت. وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى. وساحة الدار: باحتها. [اللسان مادة: س و ح] ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] أى: بالمحلة أو الديار التى يسكنونها.

الارتباك للمصلين؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين فى أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر.

وحين نصلى فى المسجد الحرام بمكة، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف، وأن تكون الصفوف مستقيمة، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة، ثم ينحنى الصف.

وكذلك فى الأدوار العليا التى أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة.

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام: إن معنى قول الإمام: «سووا صفوفكم» أى: اجعلوا مناكبكم [1] فى مناكب بعضكم البعض، أما خارج الكعبة فيكفى أن نتجه إلى الجهة التى فيها الكعبة، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة، ولكننا نصلى تجاه الكعبة؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف فى أى مسجد عن اثنى عشر متراً وربع المتر، وهو أطول أضلاع الكعبة.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً [2] .. (٨٧) ﴾ [يونس]

أى: خططوا فى إقامة البيوت أن تكون على القبلة، وبعض الناس يحاولون ذلك، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه:

---

(١) المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع عظم العضد والكتف. [لسان العرب: مادة (ن ك ب)].

(٢) القبلة: الوجهة. قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤)﴾ [البقرة]، وهى الجهة التى نتجه إليها فى صلاتنا. ومعنى الآية هنا أن يبنوا بيوتهم، مواجهة للقبلة. أو: اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء [1] لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة في العمر ، ونُزكِّي - إن كان عندنا مال - مرة واحدة في السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة في العمر.

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْـيَزِد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهي الصلاة.

ولكن مَن الذي اختار المكان في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلحظ هنا أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع.

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس]

وفي هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل في الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين.

ونلحظ هنا في هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية في التبوء ، وجاء بالجمع في جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد في نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل في الرسالة إلى بني إسرائيل.

---

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الأنفال].

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى : التبشير بالجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ[1] وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ[2] فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟[3] ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

والزينة : هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأى غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذى يروى العطش .

أما إن كان الطعام منوّعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس التى لا تستر العورة فقط ، بل بالزى الذى يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل .

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأثيثه

---

(١) اطمس على أموالهم : قال ابن عباس ومجاهد : أى : أهلكها . وقال الضحاك وآخرون : جعلها الله حجارة منقوشة .

(٢) واشدد على قلوبهم : اطبع عليها . وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه ، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجىء منهم شىء . [ذكره ابن كثير فى تفسيره : ٢/ ٤٢٩].

(٣) رأى : نظر بعينه كأبصر . ورأى بفكره وقلبه بمعنى : علم . ورأى : اعتقد . ورأى فى نومه رؤيا : حلم . والرؤيا : الحلم فى النوم . ورأى : هنا هى البصرية . أى : حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه معاينة .

بفاخر الرياش[1] ، ولكن الضرورة في النوم يكفي فيها مكان على الأرض ، وأي فراش يقي من برودة الأرض أو حرارتها.

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتي من الأموال ، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية.

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب.

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتَّت فأنت تعيد صَهْرَه ، فتستخلَص ذهباً مُجمَّعاً.

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يسخِّرون الناس في كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون في القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب.

---

(١) الرياش والريش : الخصب، والمعاش، والمال، والأثاث واللباس الحسن الفاخر. قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف].

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية فى الجمال ، وكذلك كانت قصورهم فى قمة الرفاهية ، ويكفى أن ترى الألوان التى صنعت منها دهانات الحوائط فى تلك الأيام؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذى هو أكثر بكثير من الضرورات .

وفى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ . . (٨٨) ﴾ [يونس]

وهم لم يَضلُّوا فقط بل أرادوا أن يُضِلّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووِزر إضلال غيرهم .

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء ، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير . وقد ينزل هذا الابن ليشترى شيئاً غير مفيد ولا يشترى - مثلاً - كتباً تفيده .

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هَدَتْه إلى اللعب . وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتى لبيان عاقبة الفعل[1] .

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجى موسى - عليه السلام - فى طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى :

(١) أى : أن فرعون لم تكن علة التقاطه لموسى أن يكون عدواً له بل ليتخذه ولداً ، وأضافت امرأته أن يكون قرة عين لها ولفرعون ، ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أى : أن ما حدث كان عكس ما كان يريده فرعون .

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ [1] وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي.. (٧) ﴾ [القصص]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق؛ لأن الابن إن خُطف أو فُقد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاؤه فى الماء فليس فيه موت مظنون ، بلَ موت مؤكد ، إن لم يُنجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد فى الفطرة منازعاً له .

أما نزغات الشيطان فهى تجد ألف منازع لها فى النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق.

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال [2] ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى فى قلوبهم ، قال :

﴿ ..وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي (٣٩) ﴾ [طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبُّوه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

﴿ .. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

أى : أن لموسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

---

(١) اليم : الماء الكثير المجتمع . والمراد به : نهر النيل فى مصر .

(٢) كان فرعون وزبانيته يذبحون أبناء بنى إسرائيل ويستحيون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوءة التى قيلت عن أن ولداً من بنى إسرائيل سيقضى على فرعون . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص] وقال تعالى : ﴿ .. وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾ [القصص].

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم فى مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ..(٣٩) ﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ [3] لِّي وَلَكَ ..(٩) ﴾ [القصص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذى التقطه سيكون عدواً له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قُرَّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدواً ؛ ولو كانت العلة هى العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى فى كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذه فرعون وربّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصددها : ﴿لِيُضِلُّوا﴾ نفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهم المال ليضلوا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالاً وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدى .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

---

(١) التابوت : الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه فى اليم؛ ليحفظه من الماء.
(٢) الساحل : شاطىء النهر القريب من قصر فرعون.
(٣) قرة عين : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف].

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

ومعنى الطمس أى: إخفاء المعالم؛ مثل قول الحق سبحانه:

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ[1] وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا .. (٤٧) ﴾ [النساء]

ومعنى الطمس هنا: إخفاء معالم تلك الوجوه؛ فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن.

إذن: فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشيء. ودعوة موسى - عليه السلام - هنا:

﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: امسخها.

وقال بعض الرواة[2] أنها مُسخت، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً.

أو أن ﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: أذهبهما؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال.

---

(١) وردت مادة «الطمس» بالقرآن الكريم فى خمسة مواضع، هى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ .. (٦٦) ﴾ [يس]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) ﴾ [المرسلات]، وقوله تعالى: ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا .. (٤٧) ﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس].

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد.

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

أي : أحْكِمْ يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم ؛ حتى يروا العذاب الأليم.

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون» ؟

والإجابة : لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان.

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم.

إذن : فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء في هذه الآية :

﴿ .. رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٥) ﴾ [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر[1] وبين إيمان الاختيار[2].

---

(١) القصر والقسر : الإجبار على كره. ومنه : قصرت نفسي على الشيء إذا حبستها عليه وألزمتها إياه. انظر [لسان العرب مادة : قصر ، قسر].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان]

فحين يأتى الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان.

ومثال ذلك: فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان [1]. فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام فى مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن فى قوله:

﴿ ..رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا [2] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام:

---

(١) قال تعالى : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . ففرعون الذى قال : ﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي.. (٣٨) ﴾ [القصص] جاء الآن عندما عاين الموت وآية الله على صدق موسى فنطق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [الأنعام] .

(٢) دياراً : أحداً . أي : استئصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٧) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ قال : «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة». قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات.

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويلاحظ أن الذى دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ..﴿٨٩﴾ ﴾ يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا مع موسى.

وقد قلنا من قبل: إننا إن نظرنا إلى الأصالة فى الرسالة لوجدنا موسى - عليه السلام - هو الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده[1] ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة.

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد منهما لشىء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشىء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه - أى: هارون - قد دعا بهذا الدعاء سراً.

والدعاء معناه: أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا فى أمر عَزَّتْ عليك أسبابه ؛ فتقول: إن لى ربّاً أومن به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ آمن به ، وهو المسبِّب الأعلى سبحانه.

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطىء البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى:

---

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ..﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] .

﴿ ..إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فَرَدَّ موسى عليه السلام:

﴿ .. كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

أى: لا ترتِّبوا الأمر بترتيب البشر ؛ لأن معى رب البشر ، فجاءه الإنقاذ:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ [1] (٦٣) ﴾ [الشعراء]

إذن: فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه.

والموضوع الذى كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم ، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء ، ومثل هذا نجده فى غير الرسل ونسميه «التخاطر» ، أى: التقاء الخواطر فى لحظة واحدة.

ومثال ذلك فى التاريخ الإسلامى ، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالتفكير فى جيش المسلمين المقاتل فى إحدى المعارك ، وكان عمر فى المدينة يخطب على المنبر ، فإذا به يقول فجأة : «يا سارية [2] الجبل» وهى كلمة لا موضع لها فى منطق الخطبة ، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب ، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر ؛ فانحاز إلى الجبل.

---

(١) الفرق: الجزء. والطود: الجبل الكبير. [تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٦)].

(٢) هو سارية بن زنيم الدئلى. أمَّره عمر بن الخطاب على جيش وسيَّره إلى فارس سنة ٢٣ هـ ، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد قد همُّوا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية: الجبل ، الجبل» ورفع صوته فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل ، وقاتلوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم وانتصروا. [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى: ٢/ ٥٢ ، ٥٣].

ويقال في هذه المسألة : إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذى تريد الكلام معه قائلاً : لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً ، وهذا يعنى أن الخاطرين قد انضبطا معاً.

وإذا كان هذا ما يحدث في حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث في الأمور الصفائية ؛ وفي أرقى درجاتها وهي النبوة ؟

أو أن الذى دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمِّناً [1] ، والمؤمِّن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قَبِل أيضاً دعوة المؤمِّن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هي تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هي موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمَّن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ..﴿٨٩﴾ ﴾ بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال.

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو ، وتقبل أى دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضي تحديد الميعاد الذى تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ؛ فالحق سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون منفِّذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذى بيده مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في الميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر.

---

(١) التأمين : هو قولهم آمين وراء الداعي . ومنه التأمين في الصلاة وراء الإمام.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً [(١)] ⑪ ﴾ [الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع.

وهو سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ [(٢)] ㊲ ﴾ [الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شراً، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً.

إذن: فالقدرة العليا رقيبة علينا، وتعلم ما في صالحنا؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه.

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [(٣)] بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ [(٤)] .. ⑪ ﴾ [يونس]

---

(١) عجولاً: صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة. والمراد: أن الإنسان مجبول على حب الخير، وعلى العجلة في طلبه لنفسه، ويلح في الدعاء، حتى لو كان الأمر شراً وهو يظن بجهله أنه خير. قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. ㊲ ﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ① ﴾ [النحل].

(٢، ٣) عجل يعجل - عجلاً وعجلة. واستعجل استعجالاً. قال تعالى: ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .. ⑮⓪ ﴾ [الأعراف] وقال: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ㊸ ﴾ [طه] وعجل الأمر: طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة. وعجل الأمر: سبقه. [القاموس القويم].

(٤) الأجل: المدة من الزمن، والمراد: العمر.

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه [1]، ألا تسمع أمّاً تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس في ذلك شر بالنسبة للأم .

والولد قد يقول لأمه مغاضباً : يا رب تحدث لي حادثة ؛ حتى تستريحي مني . فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ .. قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ [يونس]

أي : ابقيا على الطريق السوى ، ولا تُدْخلا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

---

(١) ثبت في صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى ، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له : شأ لعنك الله . فقال ﷺ : «من هذا اللاعن بعيره» ؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ (١) أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود]

أي : كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفَّس عن نفسك ، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها ، وكلاهما خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩٠) ﴾ (٢)

قال الحق سبحانه :

﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ .. (٩٠)** ﴾ لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : النصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلِّين قلبه من ثواب وعقاب . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة : وعظ] . قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٦٦) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ .. (٤٦) ﴾ [هود] . أي : إني أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين . أي : الآثمين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين .

(٢) أتبعهم : اتبع أثرهم ؛ ليدركهم . وكان موسى وقومه بنو إسرائيل في خروجهم ستمائة ألف وعشرين ألفاً ، وتبعهم فرعون مصبحاً في ألفي ألف وستمائة ألف . بغياً وعدواً : أي : في حال بغي وظلم واعتداء . وقال المفسرون : بغياً : طلباً للاستعلاء بغير حق في القول ، «وعدواً» في الفعل . أدركه الغرق : ناله ووصله . قال آمنت : أي : صدَّقت ، أو آمنت - والإيمان لا ينفع حينئذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس . [ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٠٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرف] .

فى اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ..(٦٣) ﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق [1] هو وسيلة السيولة ، وهى عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز.

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية.

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ ..فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

---

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه في العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجي ويهلك بالشيء الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام :

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان]

أي : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندي منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتباع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها؟

لا ، لم تكن هذه هي نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتباع : ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس]

أي : أنه اتباع رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

---

(١) قال الأزهري : رهواً ساكناً من نعت موسى ، أي : على هَيْنَتك . قال : وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرقاه ساكنين فقال لموسى : دع البَحر قائماً ماؤه ساكناً واعبر أنت البحر . [ذكره ابن منظور في اللسان ، مادة : رها] فقوله تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان] أي : ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ ..(٩٠) ﴾ [يونس]

والإدراك: قصد للمدرك أن يلحق بالشيء ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندى من الجنود ، وله عقل ينفعل ؛ فيجرى إلى الأحداث :

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ[1] (٩٠) ﴾ [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا.. (١٤) ﴾ [الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »[2]. وفى هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى.

لكن لو قلت - مثلاً: «آمنت أنك رجل طيب» فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذُكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب:

﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ..(١٤) ﴾ [الحجرات]

---

(١) وأنا من المسلمين ، أى : من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة. وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان.

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسال عنه أحداً بعدك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٥).

وهنا يأتى القول على لسان فرعون:

﴿ . .آمنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . .وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ ءَآلْئَٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾[1]

وهذا يعنى: أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين. إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء فى غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجْبار وإيمان الاختيار ، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد فى الأرض.

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو فى نجوة[2] بعيدة عن الشر الذى حاق[3] به.

---

(١) قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل. وقيل: ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - وقيل: هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثَمَّ قول باللسان ، بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة. ونظيره: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ . .(٩) ﴾ [الإنسان] أثنى عليهم الرب سبحانه بما فى ضميرهم ، لا لأنهم قالوا ذلك بلفظهم. والكلام هنا هو كلام القلب. [ذكره القرطبى فى تفسيره ٤/ ٣٣٠٦] - بتصرف.

(٢) النجوة: ما ارتفع من الأرض.

(٣) حاق به الشيء يحيق حيقاً: نزل به ، وأحاط به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فَعَلَه. قال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ . .إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾ [الأحقاف].

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار.

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى.

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبية للمعبود.

وهذه المحبوبية للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار فى أن تؤمن أو لا تؤمن. والله سبحانه يريد إيمان الاختيار [1].

إذن: فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول.

ويقال: إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى فى ذلك الوقت كانوا قد دخلوا فى مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجْليه فى حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت . . إلى آخر الخرافاتَ التى ابتدعها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس].

ونحن نعرف أن الإنسان مكوَّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصوَّر على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون الحركة والحياة .

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول : جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الجن والرياح وعلَّمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهى والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

﴿ .. ثُمَّ أَنَابَ [١] (٣٤) ﴾ [ص]

أى : أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاضٌ عليه ، لا أمر نابع من ذاته .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً [٢] .. (٩٢) ﴾ [يونس]

---

(١) أناب : رجع إلى الله تعالى بالتوبة . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

(٢) ننجيك : نخرجك من البحر . ببدنك : بجسدك الذى لا روح فيه . لتكون لمن خلفك : بعدك . آية : عبرة ؛ فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك . وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ اليزيدى وابن السميقع «ننحِّيك» بالحاء ، أى : تكون على ناحية من البحر ليروك .

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أنَ يقولوا : إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى..(٣٨)﴾ [القصص]

ويعض من باحثى التاريخ يقول : إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حلَّلوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة .

ونحن نقول : إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطة تقول لنا : إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها .

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ [1] (١٠)﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [2] (١٤)﴾ [الفجر]

---

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد : لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥١٣] . وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يَتدُ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه . وفى [كلمات القرآن للشيخ حسنَين محمد مخلوف] الأوتاد : الجنود أو المبانى القوية .

(٢) إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها . [كلمات القرآن] .

ونلحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون فى سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون فى أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف فى قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتى وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هى وظيفة «عزيز مصر» - أى : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. (٥٠) ﴾ [يوسف]

ولم يُكْتَشَف الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» فى التاريخ المصرى إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيد» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون « الفراعنة» إلا فى فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن فى قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أى اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقى ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ .. وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [1] (٩٢) ﴾ [يونس]

(١) وإن كثيراً من الناس : أى : أهل مكة . عن آياتنا غافلون : لا يعتبرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أُذن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله فى خلقه .

وحين ينظر الإنسان فى تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر فى آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ [1] فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذى رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذى تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التى تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صَمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التى تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذى لاحظ أنه كلما غطس شىءٌ فى المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشىء الغاطس فيه .

---

(١) كأين من آية : كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة فى الكون ، وهم تميَّزوا بالانتباه لها.

وكذلك العالم الذى اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً[1] من المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التى تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها بعض التجارب فى معمله إلى أن اكتشف «البنسلين».

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف]

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشيء الكثير.

وكذلك القصص التى تأتى فى القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛ فعلى الناس أن يسلّموا ويقولوا: «آمنا» ، لا أن يظلوا فى حالة إعادة للتجارب السابقة ؛ لأن ارتقاءات البشر فى الأمور المادية قد تواصلت ؛ لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التى توصل إليها مَنْ سبقوه ، فلماذا لا يحدث هذا فى الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولَوصَل خير آدم

(١) الأص (بفتح الهمزة ، وبكسرها ، وبضمها) : الأصل. والأصيص : أصل الدَّن (إناء) أى : أسفله ويقال : هو كهيئة الجر له عروتان يُحمل فيه الطين. وفى الصحاح : الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو نصف الجر أو الخابية تزرع فيه الرياحين. [لسان العرب : مادة (أ ص ص)]. وتطلق هذه الكلمة على أوانٍ من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات.

إلى كل من وُلِدَ بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه.

ونحن نجد ذلك فى أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرَّم ؟

وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾ (١)

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى : البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهى تعنى الإقليم أو الوطن.

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص.

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثرىُّ فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته.

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانات الأسرة.

---

(١) بوأنا : أنزلنا. مبوأ صدق : منزل كرامة وهو مصر والشام . فما اختلفوا : بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم. [تفسير الجلالين : ص ١٨٧ - بتصرف].

إذن: فيوجد فرق بين تبوُّء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوُّء المواطن هو الوطن.

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

هذا في التبوء الخاص ، أما في التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك في زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن في مصر والشام ، وهو سبحانه القائل:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ[1] بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. (١) ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التي حوله مُبوَّأ صدق.

وكلمة «الصدق» تعني جماع الخير والبر ؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ حينما سئل: أيكون المؤمن جباناً ؟ قال: «نعم» . وحين سئل : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال: «لا»[2].

(١) سبحان الذي أسرى بعبده: تنزيهاً وتبرئة لله سبحانه وتعالى مما يقول فيه المشركون . والإسراء والسُّرى: السير في الليل . المسجد الأقصى: بيت المقدس . الذي باركنا حوله: لسكانه في معايشهم وأقواتهم. [مختصر تفسير الطبري : ص ٣١٣].
(٢) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

ولذلك فأنت تجد فى الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق [١] ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً. وكل خصال الخير هى مُبوَّأ الصدق.

ولذلك نجد قول الحق سبحانه:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ [٢] ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ [٣] .. ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [٤] ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]

أى: اجعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهى سوابق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه:

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ [٥] ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر]

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هى جرائم الحدود ، وهى: الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى ؛ وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحى: الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس. ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها. انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود).

(٢) وقل رب أدخلنى مدخل صدق، أى: أدخلنى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره. وأخرجنى: من مكة مخرج صدق: إخراجاً لا ألتفت بقلبى إليها. [تفسير الجلالين: ص ٢٥١].

(٣) قدم صدق: سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٤) لسان صدق: ثناء حسناً وذكراً جميلاً. [كلمات القرآن].

(٥) مقعد صدق: مكان مرْضى. [كلمات القرآن]. عند مليك: ذى مُلك. مقتدر: على كل ما يشاء ، لا إله إلا هو. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٦٠٧].

وهو مقعد عند مليك لا يبخل ، ولا يجلس فى رحابه إلا من يحبه ، ولا يضن بخيره على من هم فى رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ، وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق.

وبعد أن بوأ الحق سبحانه بنى إسرائيل مُبوأً صدق ، فى مصر والشام ، وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ [1] ..(٦١) ﴾ [البقرة]

أى : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ..(٩٣) ﴾ [يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ..(٩٣) ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ، ومنهم من ترقب مجىء النبى ﷺ ليؤمن به ، ومنهم من تمادى فى الطغيان ؛ لذلك قطّعهم الله - سبحانه - فى الأرض أمماً.

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآنى نجده يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم فى كل أمة يمثلون قطعة ، أى : أنه سبحانه لم يُذبْهم فى الشعوب. بل لهم فى كل بلد ذهبوا إليه مكانٌ خاصٌ بهم ، ولا يذوبون فى غيرهم.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ [2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ..(١٠٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) اهبطوا : انزلوا. مصراً : من الأمصار ، أى : بلداً من البلاد.
(٢) من بعده : أى من بعد إغراق فرعون.

وقد يقول أحد السطحيين: وهل هناك سكن فى غير الأرض ؟

ونقول: لنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم فى أية بقعة من الأرض يسكنون ، فكأن الحق سبحانه قد بيَّن ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع فى الأرض أمماً ؛ فهو سبحانه القائل:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا [1] .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

وإذا كنا نراهم فى أيامنا هذه وقد صار لهم وطن ، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال فى آخر سورة الإسراء:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا [2] (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

والمجيء بهم لفيفاً إنما يعنى أن يجمعهم فى وطن قومى لتأتى لهم الضربة القاصمة التى ذكرها الحق سبحانه فى قوله:

﴿ ..فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا [3] (٧) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى: فرقناهم فى الأرض فرقاً . [تفسير الجلالين: ص ١٤٦].

(٢) لفيفاً: جميعاً.

(٣) أى: إذا أفسدتم الكرَّة الآخرة وجاء أعداؤكم ليسوءوا وجوهكم ، أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ..(٧) ﴾ أى: بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..(٧) ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ .. وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ أى: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميراً. بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦) وقد ذكر ابن كثير قول قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهذا لا ينفى أن يحدث عدة مرات ، ولذلك قال رب العزة: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ..(٨) ﴾ [الإسراء].

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم فى كل بلد من البلاد التى قطّعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون فى مكان واحد، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله.

وحين ننظر إلى رحلتهم نجد أن «يثرب» كانت المكان الذى اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التى دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا فى يثرب صار لهم الجاه ؛ لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب.

وهم قد اجتمعوا فى المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هى المهجر لنبى ورسول يأتى من العرب فى آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش: «لقد أظل زمان يأتى فيه نبى نتبعه ، ونقتلكم فيه قَتل عاد وإرم»[1].

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية.

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ..(٩٣) ﴾ [يونس]

أى: أن علمهم بمجىء الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فآمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به.

(١) قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعَّدوا المشركين من قريش. وما إن أهلَّ الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج: إنه النبى الذى توعَّدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبقهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به.

فكأن اليهود هم الذين تسببوا فى هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لنعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه.

ولذلك نجد أنهم فى اختلافهم يأتى عبد الله بن سلام [1] إلى رسول الله ﷺ ويقول: إن اليهود قوم بُهْتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون فىَّ ما يسىء إلىَّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامى اسألهم عنِّى .

وكان ابن سلام فى ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبى ﷺ وقال: ما تقولون فى ابن سلام ؟

قالوا: حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثنوا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السِّباب ، فقال ابن سلام: ألم أقُلْ لك يا

(١) هو: عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبى ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية . ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلى ٤/ ٩٠).

رسول الله إنهم قوم بُهْت[1] ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقَوْا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلحظ أن كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؛ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : أخبرنى به جبريل آنفاً . قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنِّى قبل أن يعلموا بإسلامى . فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك . فأعاد عليهم ؛ فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقَّصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم.

والآية تفيد العموم فى القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ[1] مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ[2] ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ[3] (٩٤) ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال :

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك

(١) المخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾[يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أى : إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم .[تفسير القرطبى ٤/ ٣٣١٠] .

(٢) فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك : من أهل التوراة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام . وقيل : إن رسول الله ﷺ - لما نزلت هذه الآية - قال : «ما أشك ولا أسأل» . وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لابنه : إن كنت ابنى فبرنى - من البر - أى : كن باراً بى . وهو لا يشك فى أنه ابنه . من الممترين : الشاكِّين . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٤١] .

(٣) امترى فى الشىء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾ [النجم] أى : تشكك ، ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس القويم] وراجع : لسان العرب مادة [مرى] .

هـذا الأمـر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[1] .

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة فى خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا[2] عن أىِّ أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما : إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيهم من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبَّى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينفّذ كل ما يؤمر به بدقة[3] ؛ وذلك من باب خطاب الأمة فى شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شَتْم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعَيْب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة .

(٢) الاستنكاف : الامتناع تكبراً وأنفة . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء] .

(٣) ومصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. (١٥) ﴾ [الشورى] .

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ.

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وقد قال عبد الله بن سلام: «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد» (١) .

إذن: فالحق عندهم واضح مكتوبٌ في التوراة (٢) من بشارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة .

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٤) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه.

(٢) يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول: إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] هي في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك: المتوكل ، لست بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا: لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً . أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٨/ ٥٨٥ فتح) والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٧٥) .

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقِّق الدقيق أن يقلِّب أوجه الشهادات التى تقال أمامه فى النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيُّل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ ..(٩٤) ﴾ [يونس]

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقّاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ،وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ ..فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

ومجىء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجَّه إلى الأمَّة المؤمنة فى شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول:

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [1] ..(٦٥) ﴾ [الزمر]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المنزَّه عنها رسول الله ﷺ خاصَّة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(١) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليبطلن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] بتصرف . وحبوط الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيلها . وأصله إذا حبطت الماشية . أى : تأكل فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها [انظر اللسان مادة : حبط] .

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجِّه إلى الخير قد يأتى بمقابله من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة.

ونحن فى حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد فى دروسك ، واستمع إلى مدرِّسيك جيّداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذى رسب ، والوالد فى هذه الحالة يأتى بالإغراء الخيِّر ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر.

وقد قال الشاعر :

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ ... والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ
ضدَّانِ لمّا استجمعا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظْهِر حُسنَهُ الضِّدُّ [1]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ (٩٥) ﴾

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهى الأصل فى المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتُلْفت هذه الآيات إلى بديع صُنْعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرتَه .

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول فى البلاغ عن الله تعالى .

---

(١) الأضداد : فى ظهورها تظهر ميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلاَّ إذا تذوَّقنا مرارة الباطل ، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل فى إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوينا بنار المظالم .

وآيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات .

والخطاب فى هذه الآية هو خطاب للنبى ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما فى الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذَّبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيّا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ فى التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم فى أمّته تعليماً وتوجيهاً ؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم [1] .

وإذا كانت الآية التى سبقت توضح : إن كنت فى شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسْمعه لكل الأمة ؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبى ما أنزل الله سبحانه علىَّ .

ألم يَردْ فى القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمَحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته :

﴿ .. أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سبأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ ..لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

---

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون:

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ..(٤١) ﴾ [سبأ]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمِع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخَلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن.

إذن: فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك:

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب:

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

إذن: فالمراد أن يقول الرسول ﷺ: أنا لا أشك ولا أسأل.

والشك [١] - كما نعلم - معناه: تساوى كفة النفى وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراء وكذباً.

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصعون كل سمكة بعد اصطيادها فى خيط يسمى «المشكاك».

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضْم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط [٢].

من هذا نأخذ أن الشك معناه: ضَمُّ شىء إلى شىء ، ومنه الشكائك [٣] ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

---

(١) الشك: حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفى ، ويتوقف عن الحكم. [المعجم الوسيط].

(٢) شك الشىء واشتكه: ضم أجزاءه. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

(٣) الشكائك: جمع شكيكة ، وهى مجموعة أشياء شُكَّ - أى ضُمَّ - بعضها إلى بعض. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

ومنه «شاك السلاح [1]» أى : الذى ضَمَّ نفسه إلى الدرع .

فالشك هو ضم شىء إلى شىء ، وفى النسب تضم النفى والإثبات معاً ؛ لأنك غير قادر على أن ترجِّح أحدهما .

وكل خطاب فى الشك يأتى على هذا اللون .

والآية التى نحن بصددها تقول :

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات ، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته ، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعنى : إخراج الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع .

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ .

والذى يؤيد هذا وجود آية فى آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ [2] اللَّهِ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) الشَّكة : ما يحمل أو يلبس من السلاح . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

(٢) دون : نقيض فوق ، وتكون ظرفاً ، وتأتى بمعنى أمام ، وبمعنى وراء ، وبمعنى غير ، وبمعنى قرب أو جهة ، وبمعنى قبل ، وبمعنى أقل . والتمييز بين هذه المعانى يكون بالقرائن . وهى فى الآية ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [يونس] بمعنى (غير) . [القاموس القويم] بتصرف .

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ[1] عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم عِلْماً أزليّاً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان.

فحكمه هنا لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم.

وحُكْمه سبحانه مبنيٌّ على الاختيار، وهو حكم تقديرى.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى- حين يأتى وزير الزراعة، ويعلن أننا قدَّرنا محصول القطن هذا العام، بحساب مساحة الأراضى المنزرعة قطناً، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان، وقد يصيب الحكم، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بآفة من الآفات، مثل: دودة اللوزة، أو دودة الورقة.

إذن: ففى المجال البشرى قد يصيب التقدير وقد يخطىء؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطْلق، بل بعلم نسبى.

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلى، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدَّره.

---

(١) حقت: وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين: ص ١٨٧].

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهرى ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّر من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره ، وهذه هى عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبى لهب [1] ، فقد نزل فيه قرآن يُتلَى:

﴿ تَبَّتْ [2] يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾ [المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة ؛ لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن خواطر أبى لهب لن تدفعه إلى الإيمان ، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عنِّى إننى سأصْلَى [3] النار ، لكن ها أنذا أعلن أننى أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب ، فقد علم الله أزلاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام ، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص. وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبى ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدِّر البشر التقدير ، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التى ذُكر فيها ، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم تصدقونى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب: تَبّاً لك ، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبت: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾[المسد] أى: سيُشوى بنار جهنم.

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونيّاً أزليّاً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتي الأمر على غير ما يُقدِّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر.

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه نابع من علمه الأزلي ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار. والله سبحانه هو القائل :

﴿ وإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا [1] إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ [2] (٩٧) ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه في كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا [3] (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

---

(١) الرجس : القَذَر والنتن حسياً ومعنوياً ويطلق على ما يُستقبح في الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ .. (٧١) ﴾ [الأعراف] أي : عذاب بسبب الرجس الذي اقترفوه [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم : فلا ينفعهم حينئذ . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

(٣) الينبوع : العين التي لا ينضب ماؤها.

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [١] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [٢] (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [٣] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً [٤] (٩٣) ﴾ [الإسراء]

وكأن الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً: لستُ أنا الذى يُنزل الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتى القرآن بالسبب الذى لم تنزل به تلك الآيات التى طلبوها ، فيقول سبحانه:

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩) ﴾ [الإسراء]

إذن: فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق فى المعاندة والمعارضة ، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه.

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا الاختيار القلبى غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه فى الآيات السابقة كلاماً فى الوحدانية ، وكلاماً فى الآيات المعجزات ، وكلاماً فى صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ،

---

(١) كسفاً: قطعاً. والكسف: السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٨) ﴾ [الروم].

(٢) قبيلاً: متقابلين. والمراد رؤيتهم عياناً.

(٣) الزخرف هنا: هو الذهب. والزخرف: الزينة ، وقد يقصد به التمويه والتزوير وتزيين الكذب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..(١١٢) ﴾ [الأنعام].

(٤) ينبوعاً: عيناً تنبع لنا بالماء ببلدنا هذا. جنة: بستان. فتفجر الأنهار: بأرضنا هذه التى نحن بها. خلالها: يعنى: خلال النخيل والكروم. وخلالها: بينها فى أصولها. تفجيراً: سيلاً يسيل بينها. كسفاً: قطعاً. قبيلاً: مقابلة أو جميعاً ، فنعاينهم معاينة. زخرف: ذهب. ترقى: تصعد فى درج إلى السماء. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] بتصرف.

وقصَّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصَّل قليلاً فى قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام فى إطناب [1] ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسالات : رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذى سُمِّيت السورة باسمه .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة فى هذه السورة ؟

وأقول : لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمَّس الحكمة فى ذلك ، ولماذا لم تأت فى السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التى انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التى انتهى إليها أمر الرسول ومَنْ آمن به.

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد فى الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى فى البحر .

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفاضة . والمساواة : مساواة اللفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ القليل للمعنى الكبير ولكل مقام مقاله . [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف .

إذن: فمَنْ ذُكر هنا من الرسل كان له علاقة بالماء، أما بقية الموكب الرسالى فلم تكن لهم علاقة بالماء.

ونحن نعرف أن الماء به الحياة، وبه الإهلاك؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشيء، ويُهلك بالشيء نفسه. وكأن الحق سبحانه يبيِّن لنا الحكمة: أنا أهلكتُ بالغرق هناك، ونجَّيْتُ من الغرق هنا.

إذن: فطلاقة القدرة الإلهية هى المستولية على هذه السورة، كما تظهر طلاقة القدرة فى مجالات أخرى، وبألوان أخرى[1].

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف[2]، وهم الأمة الوحيدة فى هذا المجال التى استثناها الحق سبحانه من الإهلاك، فقد أغرق قوم نوح، وأغرق قوم فرعون؛ فكلاهما قد كذَّب الرسل، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس[3] آمنوا فأنجاهم الله سبحانه.

وسُمِّيت السورة باسم من نجا؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب، فنجَّوا أنفسهم بالإيمان.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) من طلاقة القدرة توظيف الشيء فى ضدّه مثل النار، فوظيفتها الإحراق ولكنها كانت على سيدنا إبراهيم برداً وسلاماً. والماء به الحياة وفيه الغرق، وبه النجاة؛ فقد نجى الله سبحانه موسى عليه السلام وأغرق به فرعون.

(٢) يقول سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات] وهم من قرية «نينوى» جهة الموصل بالعراق الحالية.

(٣) البأس: العذاب. يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ..﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف]. والبأس: شدة الحرب، يقول تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة]. والبأس: القوة. يقول تعالى عن قوم بلقيس ملكة سبأ حين شاورتهم فى أمر سليمان: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ..﴿٣٣﴾﴾ [النمل].

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ[1] ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ[2] ﴿٩٨﴾ ﴾

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتى بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فَقَبِل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده .

فمَنْ وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَلُ منه ، ومن أحس واستشفَّ بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله .

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : «لولا زيد عندك لأتيتك» تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها : «أداة تحضيض وحَثّ» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ..﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصل [القاموس القويم] .

(٢) ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..﴿٩٨﴾ ﴾ : يقول عز وجل : لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ..﴿٩٨﴾ ﴾ قيل : إنهم لما أظلهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، قذف الله فى قلوبهم التوبة ، وفرَّقوا بين كل أنثى وولدها ، وعَجُّوا - أى : رفعوا صوتهم بالتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب . ﴿ ..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ : لم نعاجلهم بالعقوبة ، واستمتعوا بآجالهم فى الدنيا ، إلى حين مماتهم ووقت فناء أعمارهم . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٤١ ، ٢٤٢] .

أي: أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..(٩٨) ﴾ [يونس]

أي: أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب.

إذن: فقوم يونس هنا مُسْتثنون؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب.

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة، يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ[1] (١٤٤) ﴾ [الصافات]

أي: أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

---

(١) المسبحون: هم المصلّون لله تعالى، قبل البلاء والعقوبة التي نزلت به. وقيل: المسبحون: هم الذاكرون، بقوله كثيراً فى بطن الحوت: ﴿ .. لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء].
﴿ .. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]: لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين].

أي: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعني: مكاناً مُهيّأ، أهله متوطنون فيه، فإذا ما مَرَّ عليهم زائر في أي وقت وجد عندهم قِرىً [١] أي: وجبة طعام.

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد»، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً، أما من يكونون قلة قليلة في موطن ففي الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذي يكفيهم ويكفي الزائر لمرة واحدة.

وتسمى مكة المكرمة «أم القرى» [٢]؛ لأن كل القرى تزورها.

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبي ﷺ في قصة الذهاب للطائف، وهي قرية العبد الصالح يونس بن مَتَّى [٣]، وهي في

---

(١) القرى: هو طعام الضَّيفان. والقرية في اللغة: المصر أو البلد الكبير مثل: مصر، مكة، الطائف، نينَوى، وغيرها مما أشار إليه القرآن، فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المثنى منها (١) والجمع (١٩) مرة.

(٢) قال عنها الحق سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا.. (٩٢)﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا.. (٧)﴾ [الشورى].

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعتبة وشيبة ابني ربيعة يقال له عداس، فعندما هَمَّ رسول الله ﷺ بالأكل من عنب بستانهما قال: باسم الله. ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له ﷺ: ومن أهل أيّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه. أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٤٢١/٢).

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه:

﴿ وَذَا النُّونِ [1] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره.

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً.

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة».

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وسُمِّى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذى ابتلعه.

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجىء إنما يجىء ليقوِّم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى: أنهم أغضبوه.

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل.

---

(١) النون: الحوت. و(ذو ، ذا ، ذى) بمعنى: صاحب . أى: صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام.

وأبو الطيب المتنبى [١] يقول فى هذا المعنى :

إذَا ترحَّلت عن قومٍ وقد قَدروا ألاَّ تُغادِرهم فَالرَّاحِلون هُمُ

أى : إن كنت تعيش مع قوم ، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم ، فالذى رحل حقيقة هم هؤلاء القوم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

أى : أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضيِّق عليه الأرض الواسعة ، وسيهيىء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم .

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحْفِظ [٢] وتملأ القلب بالألم والتعب .

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

والقرية التى أرسل إليها يونس عليه السلام هى قرية «نينوى» ، وهى التى جاء ذكرها فى أثناء حوار بين النبى ﷺ والغلام النصرانى «عداس» الذى قابله ﷺ فى طريق عودته من الطائف .

---

(١) هو : أحمد بن الحسين المتنبى ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . توفى مقتولاً بالنعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً (الأعلام للزركلى ١ / ١١٥) .

(٢) تحفظ : تغضب . والحفيظة : الغضب . ويقال : إن الحفائظ تذهب الأحقاد : أى : إذا رأيت حميمك يُظلم حميت له ، وإن كان عليه فى قلبك حقد . [اللسان مادة حفظ] .

وكان النبي ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه في مكة فلم يجد النصير [(١)]، وجلس النبي ﷺ قريباً من حائط بستان.

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقى من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عَدَّاس ، فقالا له: خُذْ قطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجَل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عَدَّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له: كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده ، قال: باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : «ومنْ أهل أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس ، وما دينك؟» . قال: نصراني ، وأنا رجَل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى » ؛ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متَّى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى» ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقَبِّل رأسه ويديه وقدميه.

ولما سأل صاحبا البستان عدَّاساً عن صنيعه هذا. قال لهما: لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبى [(٢)].

---

(١) لما يئس رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» يطلب نصرة «ثقيف» وكلمهم وعرض عليهم الإسلام ، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة. ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه. وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك». [السيرة النبوية لابن هشام : ٢/ ٤١٩ ، ٤٢٠]. . بتصرف.

(٢) انظر : تفصيل هذه القصة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٩ - ٤٢١).

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم [1] ؛ فَهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم: عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فآمنوا به ليكشف عنكم الغُمَّة.

وهُرِع الناس إلى الإيمان بالحى الذى لا يموت ، الحىُّ حين لا حىَّ ، والقيوم والمُحيى والمميت.

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له [2].

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه:

﴿ .. كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [3] وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

---

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج: «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢).

(٢) نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) من قول ابن مسعود.

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين:

* الأول: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة.

* والثانى: كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان منقذ من العذاب الأخروى ، وهذا هو الظاهر ، و الله أعلم. [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٣٣)].

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق بركابها ؛ فألقوا الأمتعة فى البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَن تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام.

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلقاً ، لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التى ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [1] (١٤١) ﴾ [الصافات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه [2] الحوت وابتلعه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام فى بطن الحوت :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

---

(١) ساهم : قارع ، أى : اشترك فى الاقتراع. المدحضين : المغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه. [ابن كثير ٤/ ٢٠ - بتصرف].

(٢) التقمه : ابتلعه فى سرعة. قال سبحانه : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] ، والمليم : هو مَنْ أتى ذنباً يُلام عليه.

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٩٨) ﴾ [يونس]

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسَّداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناس فى هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخْزَى وأشَدُّ .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ ..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

أى : أنهم نَجَوْا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ[1] النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبى مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنزِل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

---

(١) تُكره الناس : تلزمهم وتلجئهم . أى : ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضل من يشاء ويهدى من يشاء . كما قال تعالى فى ذلك : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٢٧٢) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ؛ لعلمه وحكمته وعدله - سبحانه . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٣٣] بتصرف .

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عَزَّ وجل قديم أزليٌّ بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى فى ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذى أوجد كل شىء من عدم.

ولذلك يُسمّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها.

فحين تقول: حيٌّ ، ومُحْي ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف بـ «مُحْيٍ» بعد أن وجد مَنْ يحييه ، لا ، إنه مُحيٍ ، وبهذه الصفة أحيا.

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه: قد نرى المصوِّر أو الرسام الذى صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التى مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة.

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَق الخَلْق.

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شىء يجدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذى ينفعهم.

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن [1]

---

(١) وذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

وأما بقية الكون فمُسبِّح [1] مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلٍّ نظام لا يحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية .

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسبِّح له .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

وهذا ليس تسبيح [2] دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإن فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء] . ويقول تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر] .

(٢) تسبيح الدلالة والرمز نلحظه يقيناً فى حركة الجماد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ؛ فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفوق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسُّها قلب .

عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير [1] ، وسمع النملة تقول:

﴿ . . يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

والهدهد قال لسليمان عليه السلام ما رآه عن بلقيس ملكة سبأ:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

إذن: فكل ما في الكون مُسبِّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان ؛ لأن كلاً منهما فيه عقلٌ ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختياراً ، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ.

أقول ذلك حتى لا يقولن أحد: ولماذا كل هذه المسائل من خَلْق وإرسال رُسل ، وتكذيب أناس ، ثم إهلاك المكذِّبين ؟

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

---

(١) قربُ العزة سبحانه يقول عن سليمان عليه السلام: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل].

إذن: فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [(١)] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ مُحبّاً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلّف نفسه شَططاً [(٢)] .

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقّ الاختيار وسخَّر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصى أخرى ، وهذه هى مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك .

وإنْ غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتَخلَّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) باخع : أى : مهلك نفسك ، أى : مما تحرص وتحزن عليهم لعدم إيمانهم . وهذه تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار . كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. ⑧ ﴾ [فاطر] . وكقوله سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ .. ⑥ ﴾ [الكهف] .
قال مجاهد وعكرمة وآخرون : باخع نفسك : أى : قاتل نفسك . وقد قال الشاعر :

ألا أيهذا الباخعُ الحزْنُ نفسَه ... لشىء نحتّه عن يديه المقَادرُ

[ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣١)] بتصرف .

(٢) الشطط : الجور ومجاوزة القَدْر فى كل شىء ، والمقصود : لا تظلم نفسك ، ولا تتجاوز الحد فى الحزن عليهم . ومنه قوله تعالى عن الخصمين اللذين طلبا حكم داود بينهما ، فقالا له : ﴿ .. فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ㉒ ﴾ [ص] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ[1] عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

هكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر في سماء ذات أبراج[2] ، وأرض ذات فجَاج[3] ، وبحار تَزْخر[4] ، ورياح تَصْفِر ، كل ذلك يدل على وجود الخَالق سبحانه .

لكن أتَرَكَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

---

(١) الرجس : الخبال والضلال . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس فى اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله تعالى فى ذم هذه الأشياء وسمَّاها رجساً . وللرجس معانٍ أخرى ، فهو العذاب كالرِّجز ، وهو المأثم وهو الشك فى مثل قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . [انظر لسان العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى فى صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أى : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لنفير أو حرب . [لسان العرب ، مادة : زخر] وهذه الجمل من خطبة خطبها قُس بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية ، كان أولها : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » انظر : البيان والتبيين - للجاحظ (١/ ٣٠٨) .

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكّروهم بالآيات الموجودة فى الكون ، وليتنبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ..لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبيِّن لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن مُلكى إلا بإرادتى ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى.

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبية.

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً عَلِمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه.

وساعةَ يأتى الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدِّل لى حياتى ، فلا بد أن أرْهفَ[1] له السمع.

وساعة يُقْبل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمانَ.

إن العبد منَّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدْخلوه. وهو يقول ذلك ؛

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد. والرهافة فى اللغة : الرقة واللطف. [اللسان : مادة رهف].

لأن الله سبحانه أطلعه على ما فى قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاق.

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر ، فتجده يأمر معاونيه أنْ يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما فى قلبه من محبة ورغبة فى صدْق اللقاء والمودة.

إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى؟

والله سبحانه هو القائل فى حديث قدسى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى ملأ خير منه».

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله.

إذن : أقْبِلْ على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إنْ ذكرت الله فى نفسك ، فالله يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملأ ذكرك فى ملأ خير منه ، فالملأ الذى ستذكره فيه ملأ خَطَّاءٌ ، والله سبحانه سيذكرك فى ملأ طاهر.

ويقول الحق سبحانه فى ذات الحديث القدسى [1] : «إنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً».

والذراع أطول من الشِّبر.

ويقول : «وإن أتانى يمشى أتيته هرولة».

فالمشى قد يُتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إنْ يعلمْ أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى فى

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، وتمامه : «أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله ، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، من تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومَنْ تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول».

شىء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبِّب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق فى كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق، وهو الحق القائل :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ونلحظ أن الحق سبحانه يؤكد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ فى الأرض جميعاً ؛ ليبيِّن لنا أنه حتى إبليس الذى دخل فى جدالٍ مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس.

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ لِيُحْكِمَ الأمرَ حول كل خَلْقه ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ .. أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هى المطلوبات الظاهرة فقط التى تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ أنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكرِه قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب [1].

وهكذا لا يصلح الإكراه فى قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألاَّ يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم. والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكره ، والقوالب مادة تسير حسب الإدراك الذى انفعل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، ويُسمَّى (النزوع) .

لا يصلّى فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه فى الدين. وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطىء ؛ لأن الإكراه فى الدين إنما يكون ممنوعاً فى القضية العقدية الأولى.

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإنْ أخلّ بحكمٍ من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته.

ولا إكراه فى الدين ، فيما يخصُّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حُرٌّ فى أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإنْ دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرْتَ محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإنْ زنيت تُرجَم أو تُجلد [(١)] ، وإنْ شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلتَ قواعد الإسلام وشريعته.

وإنْ رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرِّق ، ولكن إن رآه يُعاقَب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم.

إذن : فـ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إنْ خرجتَ على الحدود.

والرسول ﷺ يقول : «مَثَلُ القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا [(٢)] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

---

(١) للزنا فى شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم، أو الجلد. أما الرجم فيعاقب به الزانى المحصن الذى قد أحصن بالزواج. أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج ، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور].

(٢) استهموا : اقترعوا.

فكان الذين فى أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خُرْقاً ولم نُؤذ مَنْ فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً»[(١)] .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإنْ خدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهناك ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم مَنْ ارتد عن الإسلام ، وهو القتل[(٢)] .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إنْ آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتَل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقِّن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلمْ أنك إنْ دخلتَ على الدين ثم تَخلَّيْتَ عنه فسوف تُقْتَل ، وفى هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيمانى ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾ [يونس]

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣) وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) .
- وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث آخر عن ابن مسعود : «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنِّى رسول الله بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوىً ؛ لا بُدَّ أن ينتهى العقل إلى الإيمان.

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذى يشفى الغُلَّة [1]، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم.

وبعض القمم الفكرية فى العالم التى اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام فى زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادىء الإسلام ، وفرَّقوا بين مبادىء الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف فى البحث العقلى ؛ لأن الدين حين يُجرِّم عملاً ، فليس فى ذلك التجريم إذْنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ..(٣٨) ﴾ [المائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا [2] ،

---

(١) الغلة فى اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفته ودرسه كالظمآن يطلب الماء .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾ [الإسراء]. ويقول سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [النور].

وغير ذلك من الجرائم التى جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكَّر العقاب الذى أوقعه الإسلام على السارق ، وإنْ رأيتَ مسلماً يزنى ، فَتذكَّر العقوبة التى حددها الحق سبحانه للزانى.

وهكذا الحال فى جميع الجرائم.

وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادىء الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادىء الدين الحنيف.

وها هو ذا «چينو» المفكر الفرنسى يقول : « الحمد لله الذى هدانى للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنتُ قد عرفتُ المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة فى النفس تجعلنى أتردد فى الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام».

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدى إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمِّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو مَنَاطُ التكليف.

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعْمِلون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفى الرجس ؛ لأنهم سيُقبلوَن على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به.

وإذا سألنى سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مَنَاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقَال البعير ، وهو ما يُشَدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحين يريد صاحبه أن يُنهضه فهو يفكُّ العقال.

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُتْرة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطيّره.

إذن : فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل.

فحين يفكر الإنسان فى تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أراده الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التى فيها هَوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبَّتها [1] متعبة.

ويخطىء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذى يوضِّح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك.

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلِّف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعى ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل.

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتوفٍ للمَلَكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثيل له.

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طَعْمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التى فيها قادرة على

(١) غبّ الأمر مَغَبَّتُهُ : عاقبته وآخره. [لسان العرب : مادة (غ ب ب)].

أن تنبت منها شجرة إن زرعناها فى الأرض.

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لُبَّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذى صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضْج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبَّ وتزرعه ينتج لك بطيخاً.

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يَزِنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكره بقوةٍ تقهره على أن يفعل ما لا يعقله.

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدربه على الطاعة.

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع [(١)] » [(٢)] .

وهنا نجد أن الذى يأمر هو الأب وليس الله ، والذى يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرهه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقولَ له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف.

ورسول الله ﷺ يقول فى الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استُكرهوا عليه » [(٣)] .

---

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت فُرُشاً أو غيرها.
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والدار قطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع .

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل فى كل شىء ، ففى الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضِّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطى الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أكْلة منعتْ أكلات ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك.

وهكذا نجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأنى والإجادة فى العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمرىء به الخطأ والخطايا.

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى فى مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١) ﴿١٠١﴾ ﴾

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم المُلْك الذى تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذى يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض : أمر للكفار بالنظر والاعتبار فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال ، والآيات هنا بمعنى : الأدلة والبراهين على ألوهية الله ووحدانيته ، والآية تفيد عموم النظر فى ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر : الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون : أى : عمَّن سبق له فى علم الله سبحانه أنه لا يؤمن . [تفسير القرطبى : ٤/ ٣٣١٤] - بتصرف.

إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت في داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صُنْعه في السماء والكواكب ، وأعجبْتَ بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب.

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتُبهر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [1] ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

ونحن فى حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرِّم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمِّم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه.

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشموس الأخرى فى المجرَّات الأولى ، وكل مجرَّة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

---

(١) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل . ولا الليل سابق النهار : قال مجاهد : يطلبان حثيثين يُسلخ أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخٍ ؛ لأنهما مسخران دائبان والفلك : جمع أفلاك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجومُ والكواكب ؛ فكأنها تسبح فى الفضاء . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٧٣] بتصرف . « وهذا دليل على تقدير العزيز العليم » .

بالشمس [1] ، وقال عن كوكب الشِّعْرى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ [2] ﴿٤٩﴾ ﴾ [النجم] .

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس .

وحين تتأمل السموات والأرض تجد فى الأرض جبالاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد فى داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التى شقَّقتها حرارة الشمس .

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرْيَن [3] فى أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالى ، وكانت مياه النيل فى أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرْين ، وفى مثل هذا الغرين يوجد الخصْب الذى نأخذ منه الأقوات [4] .

ولو أن الجبال كلها كانت هشَّة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

(١) قال الحق سبحانه فى سورة الشمس : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ ﴾ [الشمس] . وقد ذكر الله عز وجل الشمس فى كتابه العزيز (٣٢) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعرى) إنه هو النجم الوقاد الذى يقال له مرزم الجوزاء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه فى الجاهلية . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٥٩] .

(٣) الغرين : ما بقى فى أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين ، وقيل : هو الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً ، وكذلك (الغريل) . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب : مادة (غ ر ن)] .

(٤) أقوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يُقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى .

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر فى كل عام مرة ؛ ليحمل الخصب إلى الأرض .

ومَنْ يتأمل هندسة التكوين فى الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت .

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات لحرث الأرض ، أو أى آلات أخرى تساعد فى تجميل الحياة ، وتجد الحديد مخزوناً فى الجبال .

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ، أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور [1] فى الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ، أو وسيلة للتَّرف فوق الاقتيات .

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصْب من الطبقة الهشَّة [2] على سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للنَاس ، ففى إفريقيا مثلاً توجد مناجم للفحم والماس ، وفى بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن جذور أشجار .

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية فى الخير مع القطاع المقابل للقطاع الأول .

---

(١) طمر الشىء : خبَّأه . ومطمور : اسم مفعول من طمر ، وطمر : إذا تغيَّب واستخفى ، والمراد : خيرات الله المختفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور .

(٢) والشىء الهش الغير متماسك ، وهشم الشىء اليابس هشماً كسره قال تعالى : ﴿ .. كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ۝٣١ ﴾ [القمر] أى : كالحطب والخشب المحطم فى يد المحتظر . أى : صانع الحظيرة [القاموس القويم صـ ٣٠٣ باختصار] .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصب الجبال من يوم أن خلق الله - عز وجل - النيل فى أرض وادى النيل فى إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) فى صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تَمَّ حديثاً .

وكل قُوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمنٌ للبترول ، كل ذلك بنظام هندسى أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فى مجال النظر فى السموات وفى الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادى يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادى فى أسفله ، ورأس الجبل فى قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادى الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملأ مساحة الوادى المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقتيات .

ومثال ذلك تجده فى الغرْيَن القادم من منابع النيل ؛ ليأتى إلى وادى النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شىء فى الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذى يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر فى استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهى تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ، يكتشفها الإنسان ويُعْمِل عقله فى استخدامها.

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبَّق المؤمن حُكْماً تكليفياً مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق فى قلبه.

وليُجرِّب أى مسلم هذه التجربة [1] ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً فى ضوء منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يَزِنْ نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف فى هذا الأسبوع أنه يصلى فى مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق فى عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه يصرف ماله فى حلال.

زِنْ نفسك يقينياً فى آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفَّت شفافية رائعةَ ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله فى أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً.

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ منهج الله الشفافيةَ تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فَلْنقْضِ اليوم بما بقى من طعام أمس ، ثم يُفَاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقدَ جاءه ومعه الخير .

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ، فيصله رزق الله تعالى له من أىِّ مكان.

وتجد الشفافية أيضاً فى أعقد الأمور ، ألم يَقُلْ يعقوب عليه السلام :

﴿إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..(٩٤)﴾ [يوسف]

---

(١) هذه تجربة التريض الإيمانى : فالمسلم الذى تخلى عن المعاصى وتحلى بالطاعات تجلى الله عليه بالفيوضات والنفحات .

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميصَ يوسف ، الذى أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره [(١)] .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش فى انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضَارة بينه وبين الكون .

والمثال الحىّ لذلك هو فرح الكون لمجىء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسبِّح لله سبحانه ، فحين يأتى مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِ الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجىء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ . . (١٠١) ﴾ [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبْصرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرَّف عليه إخوته قال لهم : ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن تتهمونى بفساد الرأى والخرف .

﴿ .. وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ [١] عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾ [يونس]

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ [٢] قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظلون فى طغيانهم يعمهون [٣] ، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذِّبين السابقين.

ونحن نعلم أن اليوم [٤] هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسَّم اليوم إلى ساعات ، وقسَّم الساعات إلى دقائق ، وقسَّم الدقائق إلى ثوانٍ.

وكلما تقدمت الأحداث فى الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوَّن من ليل ونهار.

---

(١) النذر : جمع نذير ، وهو الرسول بحججه وآياته وبراهينه.

(٢) خلوا : مضوا وسبقوا. أى : فما ينتظرون بكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التى سبقتهم من العذاب والعقاب. [تفسير الجلالين ص ١٨٨].

(٣) يعمهون : يتحيَّرون ويترددون فى الضلال. قال ابن الأثير : العَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر. [لسان العرب : مادة (ع م هـ)].

(٤) اليوم : فى علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة وجمعه أيام. وأيام العرب : وقائعهم. وأيام الله : أيام جلت فيها نعمه وعذابه. القاموس القويم ص ٣٧٤.

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرَد»[١] و«يوم حنين»[٢] و«يوم أحُد».

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذى حدث فيه ، وحين ننظر فى التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث»[٣] و«يوم أوطاس»[٤] وكل يوم يمثل حرباً.

إذن : فاليوم ظرف زمنى ، ولكن قد يُقصَد به الحدث الذى كان فى مثل هذا اليوم.

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش فى أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالى ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شىء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها.

إذن : فقد يُنسَب اليوم إلى الحدث الذى وقع فيه.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا . . (١٠٢) ﴾ [يونس]

---

(١) ذو قرد : مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما يلى بلاد غطفان. ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البخارى فى صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية. انظر : سيرة ابن هشام (٣/ ٢٨١) ودلائل النبوة (٤/ ١٧٨ - ١٩٣).

(٢) كان فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)﴾ [التوبة].

(٣) يوم بُعَاث : هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلى أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، فَقُتِلا جميعاً. (سيرة ابن هشام ٢/ ٥٥٥).

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين ، وكان فى سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة. وأوطاس : واد فى ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين.

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً.

والله سبحانه هو القائل :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا [1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر.

ونحن نجد فى العامية المثل الفطرى الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع من يقول : «لك يوم يا ظالم» أى : أن اليوم الذى ينتقم فيه الله تعالى من الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفترى على خلق الله ؛ لذلك يأتى له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع ما ظلم الناسَ به.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾ [يونس]

---

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسعَّر به . قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] ، وحصبه : قذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. (١٧) ﴾ [الملك] أى : إعصاراً شديداً يقذفكم بالحصى ، فيهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك .

وقوله هنا : ﴿فَانتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر فى هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَالِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١) ﴿١٠٣﴾ ﴾

والحق سبحانه قد أنجى - مِنْ قَبْل - رُسله ومَنْ آمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير .

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجىء الشر بالأحداث التى تعَضُّ الناس لما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذى يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له .

والألم يوجد فى ساعات اليقظة والوعى ، ولكنه يختفى فى أثناء النوم ، وفى النوم رَدْع ذاتىٌّ للألم .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير فى الدنيا .

---

(١) أى : أن الله سبحانه قد نجَّى رسله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب ، وسينجي النبى ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تعذيب الكفار والمشركين . [تفسير الجلالين ص ١٨٨ - بتصرف] .

وكلما زاد الناس فى الإلحاد زاد اللهِ تعالى فى المدد ، ففى أيِّ بلد يُفْترى فيها على الإيمان ويُظْلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهَّم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله، ويسألونهم أن يدعوا لهم.

وقد ألزم الحق – سبحانه وتعالى – هنا نفسه بأن يُنجى المؤمنين فى قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾

والشَّكُّ [1] معناه: وضَعْ أمرين فى كِفَّتين متساويتين.

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها فى كفة ، ويضعوا فى الكفة المقابلة ما يؤمنون به.

ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر.

هم – إذن – فى شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعَرْض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أىِّ كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين.

---

(١) الشك : نقيض اليقين ، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠) ﴾ [إبراهيم]. [لسان العرب : مادة (ش ك ك)].

فإن كنتم في شكٍّ من الدين الذي أنزلَ على رسول الله ﷺ ، وهل ينتصر الرسول ﷺ ومَنْ معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجيء الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ..(١٠٤) ﴾ [يونس]

أي : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذي لا مراء[1] فيه ، الدليل القوي ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾[2] ، و لا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبى على قَدَر الله سبحانه حين يُميته .

وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة في قوله سبحانه : ﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) المراء، والمماراة ، والتماري، والامتراء : الجدال والشك . قال تعالى : ﴿ ..فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم] . وكذلك المرية (بكسر الميم، وبضمها)، قال تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ .. (٥٥) ﴾ [الحج] [لسان العرب : مادة (م ر ى)] بتصرف .

(٢) يتوفاكم : يميتكم ويقبض أرواحكم . وهو من توفية العدد ، أي : يقبض أرواحكم أجمعين ، فلا ينقص واحد منكم . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..(٤٢) ﴾ [الزمر] أي : يستوفى مُدد آجالهم في الدنيا . [اللسان : مادة وفى] .

وكان لا بُدَّ أن يأتى أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدِّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه فى قوله :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥ ﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن فى سورة (الكافرون) [1] تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع فى كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقَّتاً للعلاقات [2] .

وهذا أول قَطْع للعلاقات فى الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

---

(١) نزلت سورة الكافرون فى رهط من قريش قالوا : يا محمد ، هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① ﴾ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك . [أسباب النزول - للواحدى ص ٢٦١] .

(٢) أقوال مُفسِّرى وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا . فقال البعض منهم البخارى وغيره أن المراد بـ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ ﴾ [الكافرون] فى الماضى و﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ ﴾ [الكافرون] فى المستقبل . وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض . وهناك قول آخر نصره الإمام ابن تيميه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② ﴾ [الكافرون] نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ ﴾ [الكافرون] نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفى الوقوع ، ونفى الإمكان الشرعى أيضاً . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفَتْحه ، فَهُرِع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان [1] .

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هى **القضية الأولى** :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ . . ۝١٠٤ ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة.

وأنت إذا نظرتَ إلى الأجناس فى الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذى سخَّر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون فى خدمته.

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان.

ثم يأتى الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتى الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هى قمة الخيبة.

وتأتى **القضية الثانية** فى قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) كان بين سورتى «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت فى بداية الدعوة ومحاولة قريش إثناء رسول الله ﷺ عن الاستمرار فى دعوته ، ثم حدثت المفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تَمَّ نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكانت سورة النصر .
وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد القطع مع معسكر الشرك ؛ ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

﴿ ..وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ فإذا كان رسول الله ﷺ قد رفض العبادة لمن هُمْ دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى.

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضى استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا [1] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب مِنَ الحقِّ سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوى على الأمر لكل مؤمن.

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتى الأمر هنا بألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ..(١٠٥) ﴾ [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً [2] ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفتن بها الإنسان.

---

(١) حنيفاً : مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال ، إلى طريق الحق وحده.

(٢) الشرك الخفى : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن شداد بن أوس قال قال ﷺ : «إن أخوف ما أتخوَّف على أمتى الإشراك بالله . أما إنى لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً . ولكن أعمالاً لغير الله ، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٠٥).

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا [١] مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ [٢] إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ..(١٢٥) ﴾ [النساء]

والحنف [٣] أصله ميل في الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسيرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلْتفَّة ، هذا اعوجاج في التكوين.

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أي : معوج عن الطريق المعوج ، أي : أنه يسير باستقامة.

ولكن : لماذا يأتي مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجيء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عَمَّ ؛ فيأتي الدين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد. وفي هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع.

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن نقع في الشرك الخفي بعد الإيمان بالله تعالى.

---

(١) الدين : الطاعة والانقياد والشريعة والجزاء ، والعقيدة والمنهج والصراط المستقيم [القاموس القويم - باختصار صـ ٢٣٩] .

(٢) الملة (بكسر الميم ، وتضعيف اللام) : الشريعة ، والدين. قال تعالى : ﴿ .. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾ [يوسف]. وقال تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨) ﴾ [الحج] . [لسان العرب : مادة : م ل ل] . . بتصرف.

(٣) الحنف في القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها . ورجل أحنف ، وامرأة حنفاء ، وبه سُمِّي «الأحنف بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنف كان في رجْله . قال الجوهري : الحنف : الاعوجاج في الرِّجْل. وقال أبو عمرو : الحنيف هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير. وحنف عن الشيء وتحنف : مال. والحنيف : المسلم الذي يتحنف عن الأديان ، أي : يميل إلى الحق ، وقيل : هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا .. (٦٧) ﴾ [آل عمران]. وقيل : الحنيف هو الذي يميل عن الضلال ، ويبعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين. [لسان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف].

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

﴿ ..وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ [يونس]

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسانٍ أو لأىٍّ شىء مع الله عملاً.

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كمعالج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بدليل أن الطبيب قد يخطىء مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض.

- وعلى المؤمن ألا يُفتَنَ فى أىِّ سبب من الأسباب.

ونذكر مثالاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعتْ ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) ﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجيء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجيء الضُّر لا يقدر الصنم أن يدفعه.

إذن : فمَنْ يدعو من دون الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر.

ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذى حق ، سواء أكان فى القمة ، أو فى غير القمة[1].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه فى غِنىً عن كل خلقه.

ويأتى الكلام عن الضُّر هنا بالمسِّ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ .. ١٠٧ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مساً» و«لمساً» و«إصابة».

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المسِّ ، أى : الضر البسيط ، ولا تَقُلْ : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرون عليه ، فلا أحد

(١) أى : سواء كان ظلماً فى القمة - أى : بالإشراك بالله - أو ظلماً فى غير القمة بظلم العباد بأخْذِ حقوقهم والتعدِّى عليهم.

يقدر على الضر أو النفع ، قَلَّ الضر أم كَبُرَ ، وكَثُر النفع أو قَلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى.

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمسّ ، أي : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن عظمته - جَلَّ وعلا - أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشفَ عنه ، وهذه هي الرحمة.

ثم يأتي سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرده.

ونحن نجد كلمة ﴿يُصِيبُ﴾ في وَصْف مجيء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء مِنْ عباده.

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة في قوله تعالى :

﴿ .. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس]

وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلي على العباد ، ففي الشر جاء به مسّاً ، ويكشفه ، وفي الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه.

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه [1] ؛ ولذلك نجده سبحانه في آيات النعمة يقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [2] .. ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٢) الإحصاء : العد والحصر.

وجاء الحق سبحانه بالشكِّ ، فقال ﴿إن﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» ؛ لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنَّة أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يَعدّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يعُدّ أو يُحصى حبَّات الرمال مثلاً.

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (١٨) ﴾ [النحل]

وهذا شَكٌّ فى أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العدَّ يقتضى التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هى ﴿نِعْمَةَ﴾ ولم يقل : «نِعَم» فكأن كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعَمٌ شتَّى.

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النِّعَم المطمورة فى نعمة واحدة.

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم فى آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿ ..وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [1] (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

---

(١) ظلوم : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره، أو لهما معاً.
وكفَّار : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : الستر ، من ستر الشىء إذا أخفاه . فكأن الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها . أى : سترها وأخفاها ولم يؤدِّ حقها من الذكر والشكر .

وصَدْر الآيتين واحد ، ولكن عَجُزَ كل منهما مختلف ، ففى الآية الأولى :﴿ .. إنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وفى الآية الثانية :﴿ .. إنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

لأن النعمة لها مُنْعم ؛ ومُنْعَم عليه ، والمنعَم عليه - بذنوبه - لا يستحق النعمة ؛ لأنه ظلوم وكفار. ولكن المنعم سبحانه وتعالى غفور ورحيم ، ففى آية جاء مَلْحظ المنعِم ، وفى آية أخرى جاء ملحظ المنعَم عليه.

ومن ناحية المنعَم عليه نجده ظَلُوماً كفَّاراً ؛ لأنه يأخذ النعمة ، ولا يشكر الله عليها.

ألم تَقُلْ السماء : يارب! ائذن لى أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك.

وقالت الأرض : ائذن لى أن أنخسف بابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك.

وقالت الجبال: ائذن لى أن أسقط على ابن آدم.

وقال البحر : ائذن لى أن أغرق ابن آدم الذى طَعِم خيرك ، ومنع شُكْرك.

هذا هو الكون الغيور على الله تعالى يريد أن يعاقب الإنسان ، لكن الله سبحانه رب الجميع يقول: « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم».

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ[1] ﴿١٠٨﴾ ﴾

إذن: فالحق سبحانه لم يُقصِّر مع الخلق، فقد خلق لكم العقول، وكان يكفى أن تفكّروا بها لتؤمنوا من غير مجىء رسول، وكان على هذه العقول أن تفكر فى القوىٍّ الذى خلق الكون كله، بل هى التى تسعى لتطلب أن يرسل لها القوىّ رسولاً بما يطلبه سبحانه من عباده، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول.

إذن: كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة، قالوا: إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»[2] تبحث عما وراء المادة.

فَمَنْ أعلمَ الفلاسفة - إذن - أن هناك شيئاً وراء المادة.

وكأن العقل المجرد ساعةَ يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول: إن وراء الكون الواضح المُحَسِّ قوة خفية.

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة، إلا لأنهم أخذوا من

---

(١) الوكيل: الكفيل الموكل بأرزاق الناس وأمورهم، والحفيظ الذى يحفظ أعمال الناس. قال سبحانه: ﴿ ..ومَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنعام]، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه ورسوله محمد ﷺ.

(٢) الفلسفة: لفظ يونانى ومعناه البحث عن الحقيقة. والميتافيزيقا: ما وراء الطبيعة والكون. أى: الغيبيات التى لا تخضع لقوانين المادة.

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذى وراء المادة هو الذى يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل.

وقديماً ضربنا مثلاً فى ذلك ، وقلنا: هَبْ أننا جالسون فى حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ فى الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة.

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التى تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعْرَف بالعقل ؛ لأننا ما دُمْنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذى يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه.

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل.

إذن: فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن ينتقلوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتى بالعقل ، بل بالإخبار.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشىء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وأن يأتى

الحق من الرب الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمدَّ من عُدْم[1] ، ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من المربِّى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَاءَكُمُ الْحَقُّ[2] مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

فمعنى ذلك أنه لا عُذْر لأحد أن يقول : «لم يُبلغْنى أحدٌ بمراد الله » ، فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصوُّر للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولاً يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن نقول للرسول بعد أن تَصْدُق معجزته : أهلاً ، فأنت مَنْ كنا نبحث عنه ، فَقُلْ لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

---

(١) العَدَم والعُدْم والعُدُم : فقدان الشىء وذهابه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرُّشْد والرَّشَد - الحُزْن والحَزَن . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف].

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [يونس] ، والحق ما وجب عليك لغيرك [القاموس القويم بتصرف صـ ١٦٤ ، ١٦٥] .

﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ..(١٠٨) ﴾ [يونس]

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتباهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية.

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس:

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ..(١٠٨) ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿ضَلَّ﴾ تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضَلَّ عنها.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) ﴾ [يونس]

وأنت لا توكِّل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم: أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأني لست وكيلاً عليكم ، بل عليَّ فقط مهمة البلاغ [1] عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا.

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً في نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذي ضيَّق على شهوات النفس ، ولكنه يهدي حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان.

---

(١) وقد ورد تأكيد هذا في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ..(٤٨) ﴾ [الشورى]. وقال تعالى: ﴿ ..وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾ [النور]. فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته، وأن يكون هذا البلاغ مبيناً جلياً واضحاً.

وإذا كان الإنسان منّا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره.

أليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التي تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم في الآخرة.

أما من يستكثر على نفسه الجدَّ والاجتهاد في تحصيل العلم ، أو تعلُّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا في ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً في التعلّم.

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقي في المستوى الاجتماعي والاقتصادي ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذي يأتي له بسَعة الرزق.

وكلما كانت الثمرة التي يريدها الإنسان أينع [1] وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول.

وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن ضَلَّ [2] فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس]

(١) أينع : أكثر نُضجاً . واليَنْع : النضج . ومنه قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ..﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

(٢) ضَلَّ الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشيء : خفي وغاب فهو فعل لازم ، وضل المسافر الطريق مُتعدٍّ : لم يعرفه . [القاموس القويم صـ ٣٩٤ - بتصرف] .

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهى تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك بالضلال - والعياذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفى المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد الملْك ؛ لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى ختام سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ..﴿١٠٨﴾﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى - النظرى ، ولا بُدَّ أن يثق الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ[1] عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

---

(١) البلاغ : اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ..﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذُكر من الأخبار والمواعظ .

ومبلغ الشىء : حدّه ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى ينتهى به . قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النجم] [القاموس القويم - بتصرف ١/ ٨٣ ، ٨٤] .

لا يعود نفعها على الحق ، بل هى للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال فى الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة.

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتى لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر.

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ [1] حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ [2] وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

أى: عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتَّبع ما يُوحَى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فَوطِّن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر.

---

(١) الأسوة: القدوة، والمثل الأعلى الذى يُقتدى به. ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا. وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] ثم قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ .. (٦) ﴾ [الممتحنة].

(٢) ورد الرجاء فى القرآن على معان عدة:
- منها: الطلب والأمل فى تحققَّ شىء، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ .. (٢١٨) ﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. (٦٠) ﴾ [النور].
- منها: الخوف، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾ [يونس].

ومجيء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن تصبر وتعطى النموذج لغيرك [١] ، والثقة فى أنه لو لم يكن هناك خير فى اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتى حكم الله ﴿ .. وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى.

وهذه السورة التى تُخْتَم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان بالله ، قمة فى عقيدة لإله واحد يجب أن نأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه الرب الذى خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلَّف يستحق أن يُكلَّف بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبَّت من صدق الربوبية.

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى المربِّى المربَّى إلى أن يبلغ حَدَّ الكمال المرجوّ منه.

وقد صدقتْ هذه القضية فى الكون.

إذن : نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذى خلق ، حين يُبيِّن لنا مهمتنا فى الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع الغاية التى يعرفها قبل أن يخطو أى خطوة.

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضيِّعه ، بل لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه [٢] ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

(١) يقول سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف]. فالصبر هو اقتداء بالرسل الأعلام ، الذين صبروا على إيذاء أقوامهم صبراً تعجز عنه قدرات البشر ، مثل : نوح وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمد ﷺ.

(٢) يقول تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة]. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٥٢) : «الآية تعمُّ الحالين . أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة».

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحَلْنا [(١)] وغيَّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم فى متاهات ، وصار لكل امرىء غاية ، ولكل امرىء منهج ، ولكل عقل فكر ، ولَصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد [(٢)] يُضعِف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذى يجب أن يعالجه.

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً [(٣)] فى العقيدة ، وتوحيداً فى المنهج.

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً فى مواكب الرسالات ، فذكر لنا فى هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى.

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام.

ثم ختم السورة بقوله سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

بلاغاً عن الله تعالى.

وما دُمْتَ تبلّغ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

---

(١) أحلنا الأمور : حوَّلناها وبدلناها لغير ما وضعت له . وفى اللسان : كل شيء تغير عن الاستواء إلى العوَج فقد حال واستحال . ويقال : حال الرجل يحول مثل تحوَّل من موضع إلى موضع . (مادة : حوَل).

(٢) الأنداد : الأمثال والنظراء.

(٣) الرسالات فى جوهرها تسير بالتوحيد وعليه وبه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى].

النبوة ، ولم تَعُدْ هناك نبوة بعدك يا محمد ﷺ تسليماً كثيراً.

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذى نزل إليك.

إذن: فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بلّغ ، ويجب أن تكون أمته شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا [1] ، وهذا شرف مهمة أمة محمد ﷺ .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أيِّ رسول تفتُر ، وتبهت تكاليفه [2] ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى - رسولاً ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تَعُدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى.

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة فى تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقى حتى لا يكلف الناس فوق ما تطيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصِر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض:

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [فصلت]

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]. وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج].

(٢) أى : يطول عليهم الزمن فتُنسى رسالة الرسول ، ويقع فيها التحريف والتبديل والتغيير ، وقد حدث أكثر هذا مع بنى إسرائيل.

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا : لن نستطيع لأنك لست مثلنا .

ولذلك نلحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحَى إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحى ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحى ويُطبِّقه على نفسه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** [1] ..(٢١) ﴾ [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقلَّ الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبَّار ، وهو كنموذج سلوكى تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق فى أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكونَ كل عمل صادر منه ﷺ أو ممن ينتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومَنْ يبعد فى القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعْده .

---

(١) الأسوة والإسوة : القدوة . ويقال : ائتس به ، أى : اقتد به وكُنْ مثله . قال الليث : فلان يأتسى بفلان ، أى : يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به . وقال الهروى : تأسَّى به : اتبع فعله واقتدى به . [لسان العرب : مادة (أ س ا)] .

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة.

إذن: فالاتِّباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحى بلاغاً ، واتباع ما يُوحَى به تطبيقاً ، وسيتطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبابرة المنتفعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقْبِل على عقبات فَلْيُعدّ نفسه لتحمُّل هذه العقبات بالصبر [1] .

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون . . يقول سبحانه :

﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [2] .. (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

أى: إن صبرت ، فقد يصبر خَصْمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبر» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجىء ، فلو كان العالم مستقيم الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

---

(١) وقد كان الحق سبحانه يُعدُّ نبيه ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾ [الأنعام].

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصى. وصابروا الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم. ورابطوا أى: جاهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه. [تفسير الجلالين: ص٦٤] . وصيغة «صَابَرَ» من «فَاعَلَ» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى: شدة الصبر والتحمُّل. والاستمرار عليه حتى الوصول للهدف .

ولكن المنهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عَمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطِّن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى.

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حظه فى ميراث النبوة ؛ لأن الذى يأتى له الأذى هو الذى يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجيء إلا بمقدار خطورة الداعى إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده.

ورسول الله ﷺ يقول : «نضَّر [1] الله امرأ سمع مقالتى فوعاها [2] وحفظها وبلَّغها ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه» [3].

إذن : فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب]

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

هو دليل على أن الوحى بصدد الإنزال ؛ لأن الوحى لم ينزل بالقرآن

(١) النضارة : إشراق الوجه ونوره.

(٢) وعاها : حفظها ، فكان كالوعاء يعى ما يوضع فيه ، وإن لم يدرك تفاصيل ما وعاه.

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٧/ ٣٣١) من حديث عبد الله بن مسعود.

دَفْعة واحدة ، فقد كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ طوال حياته [1] .

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هى مقام الاستقبال للوحى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ..(١٠٩) ﴾ [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

وكلمة ﴿يَحْكُمَ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدَّعى أنه على حق ، ثم يأتى مَنْ يفصل فى القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدارونَ فسْقهم فى ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يَحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفَّذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن فى زماننا نرى القُوى وهى تختلف ، فنجد القوىَّ من الدول وقد تسلَّط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

---

(١) أى : كان ينزل مُنجّماً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله ﷺ غَضاً رطباً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم . ومعلوم أن القرآن له تنزُّل آخر ، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا . راجع الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١١٦) .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هى قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذى يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدلِّس عليه فى الشهادة ؛ لأنك إن عمَّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمِّى على قضاء السماء [١] .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حُكْماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق [٢] .

ويطمئننا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى.

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ [٣] ③ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ ﴾ [النجم]

---

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ «أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣).

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ㊲ ﴾ [الحج]. فالله تعالى هو الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها. فبيَّن عز وجل أن ما يناله الله منهم هو التقوى وإخلاص القلب لله. (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٤ بتصرف).

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿ .. وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ㊵ ﴾ [النازعات] أى : منعها عن المعاصى والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يخرجه عن معناه كقولهم : هوى حسن ، أو هوى موافق للصواب. أما المراد به فى الآية فهو الهوى المذموم. قال تعالى : ﴿ .. فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ⑬⑤ ﴾ [النساء]. وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ㉖ ﴾ [ص]. وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ .. ㊸ ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ㊿ ﴾ [القصص]. وقال تعالى : ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ .. ㊆㊆ ﴾ [المائدة]. وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ⑪⑨ ﴾ [الأنعام]. [لسان العرب : مادة (هـ و ى) - بتصرف].

أى: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسْن عبادة الخالق سبحانه.

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدَّل للرسول بعضاً من الأحكام.

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حُكْماً ، وحين يُنزل الله حُكْماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حُكْماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدِّل من الحكم.

إذن: فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذى عدَّل له ليس مساوياً له بل هو خالقه.

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدَّل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد مَنْ يُضعف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عُدِّل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحى تحلّى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له [1].

(١) عاتبه ربه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسعى ليتعلم منه ، فتلهَّى عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء قريش للإيمان ، فنزلت سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس]. وعاتبه أيضاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم].

وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد.

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو[1] . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يُرضي رسول الله ﷺ[2] .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور[3] ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية[4] ، ولا هوى له ، وهو الذي يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تجُير عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر

---

(١) لا آلو : لا أقصِّر في اجتهادي وبحثي المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يألو خيراً . أي : لا يدعه ولا يزال يفعله . ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] أي : لا يقصرون في فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود في سننه (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) وقال : ليس إسناده عندي بمتصل . لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر] . فالله عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غضَّ بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غضَّ ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٥) .

(٤) يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد] .

على كل هذا إلا الله سبحانه.

وشاء الحق - عز وجل - أن يكرِّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس [١] عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى فى أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تَخْفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً.

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه ؛ فاعلم أن ذلك إيذان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿ ..فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

ويقول تعالى:

﴿ ..وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة]

ويقول تعالى:

﴿ ..رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى:

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين]

وكلما وجدت جَمْعاً أدخل الله ذاته مع عباده ممن لهم هذا الوصف ، فهذا يَدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه

---

(١) التدليس: الإخفاء والمخادعة بعدم تبيين العيب فى الشىء. ومنه التدليس فى الإسناد بأن يُحدِّث المحدِّث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه ، بل سمعه ممن هو دونه فى المرتبة .

سبحانه وتعالى أزلىٌّ مُطْلق الصفات ، وهم أحداث [1] وأغيار تنتابهم القوة والتغيُّر والضعف.

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ ..أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين.

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ .. خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والرزق هو ما به يُنتفع ، وقد يأتى لك ولىٌّ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تنتفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الرزق فى الكون كله.

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

والإنسان حين يمكر قد يُدارِى مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء.

إذن: فالخيرية فى الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم فى بعض الأحكام وعدَّلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ.

---

(١) الأحداث : جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمانياً ، وقد يُعبَّر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً. (التعريفات للجرجانى - ص ٧١).

ومثال ذلك: قصة زيد بن حارثة [(١)] ، وكان مولى أو عبداً لخديجة بنت خويلد [(٢)] رضى الله عنها ، ووهبته لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه فى مكة ، وكان قد خُطف صغيراً من بلده وبيع فى مكة ، كعادة العرب فى الجاهلية مع الرقيق [(٣)] ، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم ، فقال لهم رسول الله : « والله إنى لأخَيِّره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فهو لى». فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ.

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرِّط فيه ؛ فأعطاه شرف البنوَّة ، فأسماه زيد بن محمد [(٤)] .

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل ، صحابى ، من أقدمهم إسلاماً ، كان ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمَّره عليها ، وجعل له الإمارة فى مؤتة ، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٣/ ٥٧).

(٢) هى : زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة بـ ١٥ عاماً ، وأول مَنْ صدَّقتْ ببعثته ﷺ ، كانت مُوسرةً ، تَاجَر رسول الله بمالها ، وكانت خير معين له فى رسالته . توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروجِ بنى هاشم من الشِّعب . راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/ ٦٠ - ٦٢) .

(٣) الرقيق: العبيد ، وقد سُمِّى العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون. [راجع اللسان مادة رقق] وقال الجرجانى فى التعريفات (ص ٩٩) : «الرق فى اللغة: الضعف. ومنه رقة القلب ، وفى عُرْف الفقهاء عبارة عن عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر. أما إنه عَجْز فلأنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما ، وأما إنه حكمى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحرّ حساً».

(٤) وذلك أن حَارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة ، وذلك قبل الإسلام، فقالا له: يا بن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، وتفكون العانى (الأسير) ، وتطعمون الجائع ، وقد جئتك فى ابننا عبدك ، فتحسن إلينا فى فدائه ، فقال: أو غير ذلك؟ فقالا: وما هو؟ فقال: أدعوه وأخيِّره ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً ، فقالا له: قد زدت على النصف ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال: من هذان؟ فقال: هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا عمى كعب بن شراحيل ، فقال: قد خيرتك إن شئت ذهبت معهما ، وإن شئت أقمت معى ، فقال: بل أقيم معك. فقال له أبوه: يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فقال: إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً ، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده ، وقام به إلى الملأ من قريش فقال: اشهدوا أن هذا ابنى وارثاً وموروثاً. فطابت نفس أبيه عند ذلك ، وكان يُدْعى زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..۝٥﴾ [الأحزاب].

وهكذا رأى النبى ﷺ فى التبنِّى وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوة بالتبنِّى قد تُحدث خَلْطاً فى الأنساب ، فالابن بالتبنى له حق الزواج من ابنة مَنْ تبنَّاه ، فكيف نمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبنى قد تحرم عليه زوجة مَنْ تبناه إن رحل عنها أو طلقها.

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ..﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم.

وقال الحق سبحانه فى تعديل حكم التبنى :

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ [1] عِندَ اللَّهِ ..﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

وهذا رَدٌّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد ﷺ عَدْلٌ وقسْط بعُرْف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدلَ ، فينتهى بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلى «زيد بن حارثة» .

---

(١) القسط : العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ..وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة]. أما القاسطون فهم الجائرون ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن].

وحتى لا يؤثر هذا الأمر فى نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرِّمه لصحابى غيره ، فهو الصحابى الوحيد الذى ذُكِر اسمه بالشخص والعَلَم فى القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا [1] زَوَّجْنَاكَهَا ..(٣٧) ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم «زيد» كلمة فى القرآن تُتْلَى ويُجْهَر بها فى الصلاة ، فإذا كان قد نفى عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاه ذِكْراً ثانياً خالداً فى القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ..وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعمُّ من أن يكون حكماً فى الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه فى الدنيا نَصْرٌ لدين الله ، ومَنْ مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كنبى من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ [2] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

---

(١) الوطر : قال الليث : الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها همة ، فهى وطره . وجمع الوطر : أوطار . وقال الزجاج : الوطر والأرب فى اللغة بمعنى واحد . وقال الخليل بن أحمد : الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة ، فإذا بلغها البالغ قيل : قضى وطره وأربه . [لسان العرب : مادة (و ط ر)] .

(٢) النون : الحوت . وذو النون : لقب يونس بن متى عليه السلام . أى : صاحب الحوت ، وهو الحوت الذى ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه فى البحر .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ [1] .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى فى هذا الوسام بقوله تعالى :

﴿ .. وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أسدى [2] إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً، حين هداه الله إلى قوله :

﴿ .. لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغَمِّ ، وهو أعنف جنود الله ؛ لأن الشيء الذى يضايقك هو الذى لا تستطيع له دَفْعاً.

ولذلك يقال : إن العدو كلما لَطُفَ [3] عَنُفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخم الحجم ، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعْد ، فيجرى منه الإنسان أو يختبيء ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإنْ كان ميكروباً أو فيروساً لا يُرى بالعين المجرَّدة ؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً فى مهاجمة الإنسان.

إذن : كل مُتْعب فى الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصَّص عليك بدقَّة ولُطْف ؛ فإنك لا تعرف مدخله.

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجيء

---

(١) غم الشيء يغمه غماً : أخفاه وغطّاه وستره .
وغمّه الأمر : أحزنه .
قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]
والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]
[القاموس القويم - ٢ / صـ ٦٠ ، ٦١ بتصرف]

(٢) أسدى : أعطى ، وأهدى . [لسان العرب : مادة (س د ى)].

(٣) لطف الشيء يلطف : صَغُر . [لسان العرب : مادة (ل ط ف)].

بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون [1] الفيروس فى جسده لأسبوعين ، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ .

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام على - كرَّم الله وجهه - وهو المشهور بالفُتْيا [2] ، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا: نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا لعليٍّ كرم الله وجهه: نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسْب ما يراها .

لم يتروَّ على بن أبى طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْروداً [3] بحيث إن وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعدود ، وهذا دليل على أنه مُسْتحضِرٌ للقضية استحضار الواثق . وفرد أصابع يديه وقال :

أشدُّ جنود الله عشرة: الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض

---

(١) الكمون : الاختفاء والاستتار . ومنه : الكمين فى الحرب . وحزن مُكْتمِن فى القلب : مُخْتفٍ . [اللسان : مادة كمن] .

(٢) الفتيا : تبيين المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو الشاب الحدث (الحديث السنّ) الذى شبَّ وقوى ، فكأنه يقوِّى ما أشكل ببيانه فيشب ويصير فَتِياً قوياً . وأفتى المفتى إذا أحدث حكماً . وأفتاه فى الأمر : أبانه له . وأفتى الرجل فى المسألة . واستفتيته فيها فأفتانى إفتاء . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ..(١١) ﴾ [الصافات] وقال تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ..(١٧٦) ﴾ [النساء] أى: يسألونك. وقال تعالى : ﴿ .. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ..(٣٢) ﴾ [النمل] . [لسان العرب : مادة (ف ت ى)] - بتصرف .

(٣) الكلام المسرود : الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع أن يستدرك شيئاً على المتكلم ، أو يحفظ منه شيئاً .

يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - الهَمُّ.

هكذا قال سيدنا على بن أبى طالب ، فالهمُّ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبباً فى أن قدَّم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة مَنْجًى من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذى ألهمه ليونس عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعدَّتْ «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق - رضى الله عنه - وجعل منها «تذكرة طبية» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، فى كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا بَيَّتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّماً ومرفَّهاً فى كل أمور الحياة ، يجعله عُرْضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق [1] له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

---

(١) هو : جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة ، روى عنه شعبة والثورى ومالك . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ .

ولا يتُعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف .

فمن عنده صداع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه ، بقول الله سبحانه :

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف .

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول : لأن الله سبحانه قال عقبها :

﴿ فَانقَلَبُوا (١) بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..(١٧٤) ﴾

[آل عمران]

أى : أن سيدنا جعفراً جاء بالحيثية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر الصادق : «وعجبت لمن اغتمَّ - وهو الموضوع الذى نبحثه الآن - ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فإنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ .. وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

---

(١) انقلبوا : رجعوا . أى : أنهم لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمَّهم وردَّ عنهم بأس من أرادوا كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم . (ابن كثير ٢/ ٤٣١) .

﴿ فَوَقَاهُ [1] اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ [2] بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) ﴾ [الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها:

﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]

لأن الوحى كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً.

---

(١) وقاه الله وَقْياً ووقاية وواقية : صانه . ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى . ووقاه ما يكره : حماه منه . وقال تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ .. (١١) ﴾ [الإنسان] وقال تعالى : ﴿ .. وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ (٩) ﴾ [غافر] [لسان العرب : مادة (و ق ى)].

(٢) حاق : أحاط . والحوق : الإحاطة بالشيء والإطار المحيط به المستدير حوله . قال الليث : الحيق ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمله ؛ فينزل ذلك به . وقيل : الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبةُ مكروه فَعَلَه . وقال الزجاج : حاق بهم العذاب أى : أحاط بهم جزاء ما كانوا يستهزئون ، كما تقول : أحاط بفلان عمله وأهلكه كَسْبه ، أى : أهلكه جزاء كسبه . قال تعالى : ﴿ .. فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) ﴾ [غافر] . وقال تعالى : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. (٤٣) ﴾ [فاطر] . [لسان العرب : مادة (ح و ق ، ح ى ق)].